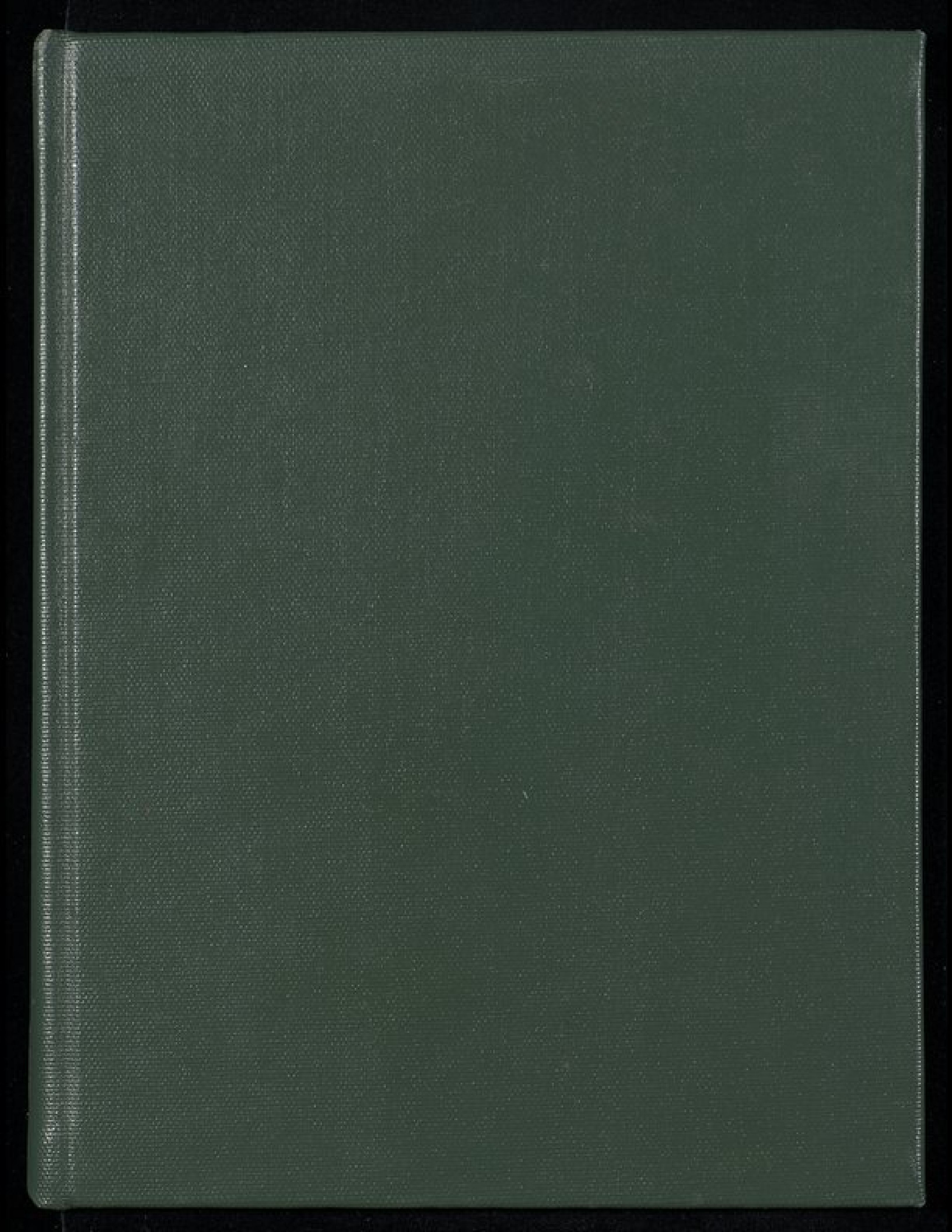
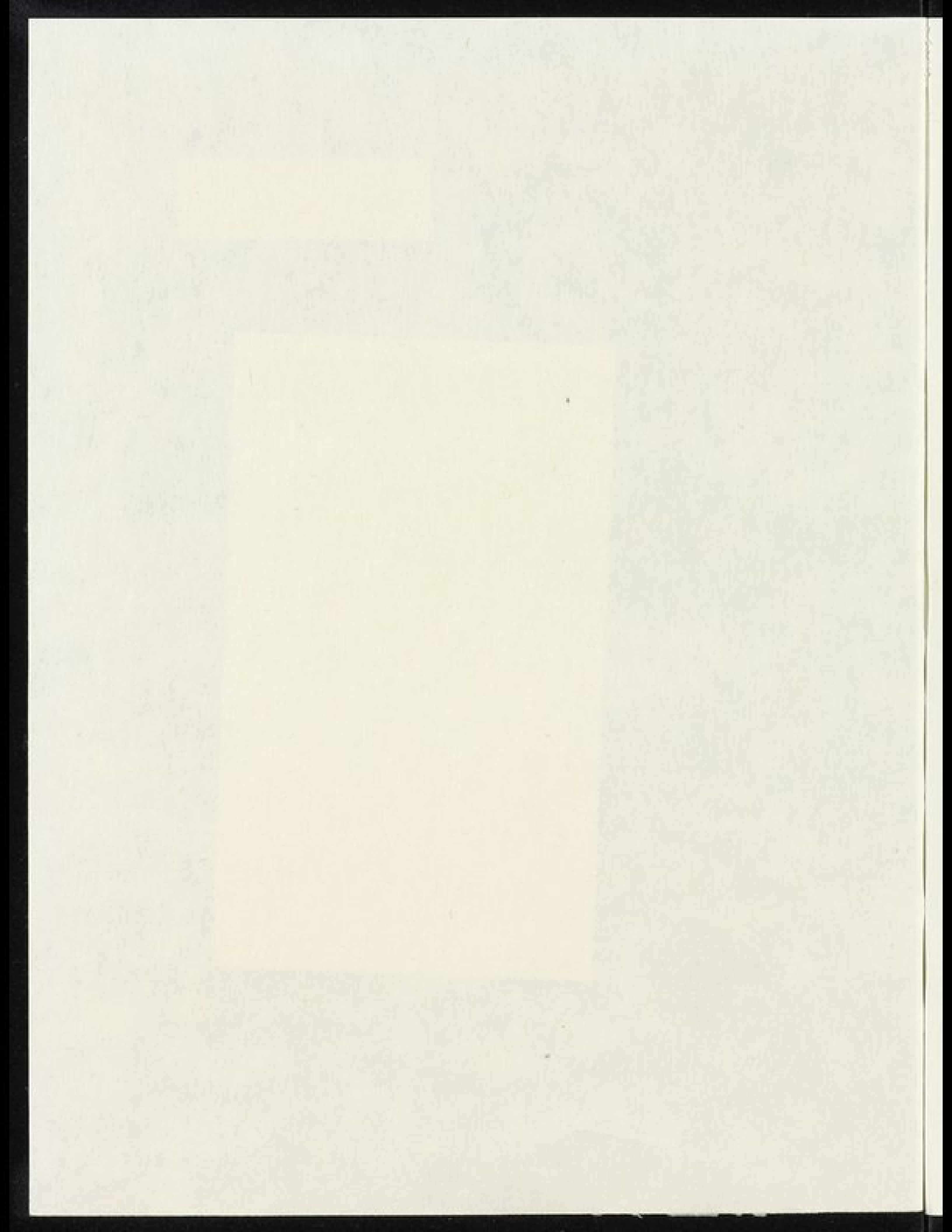
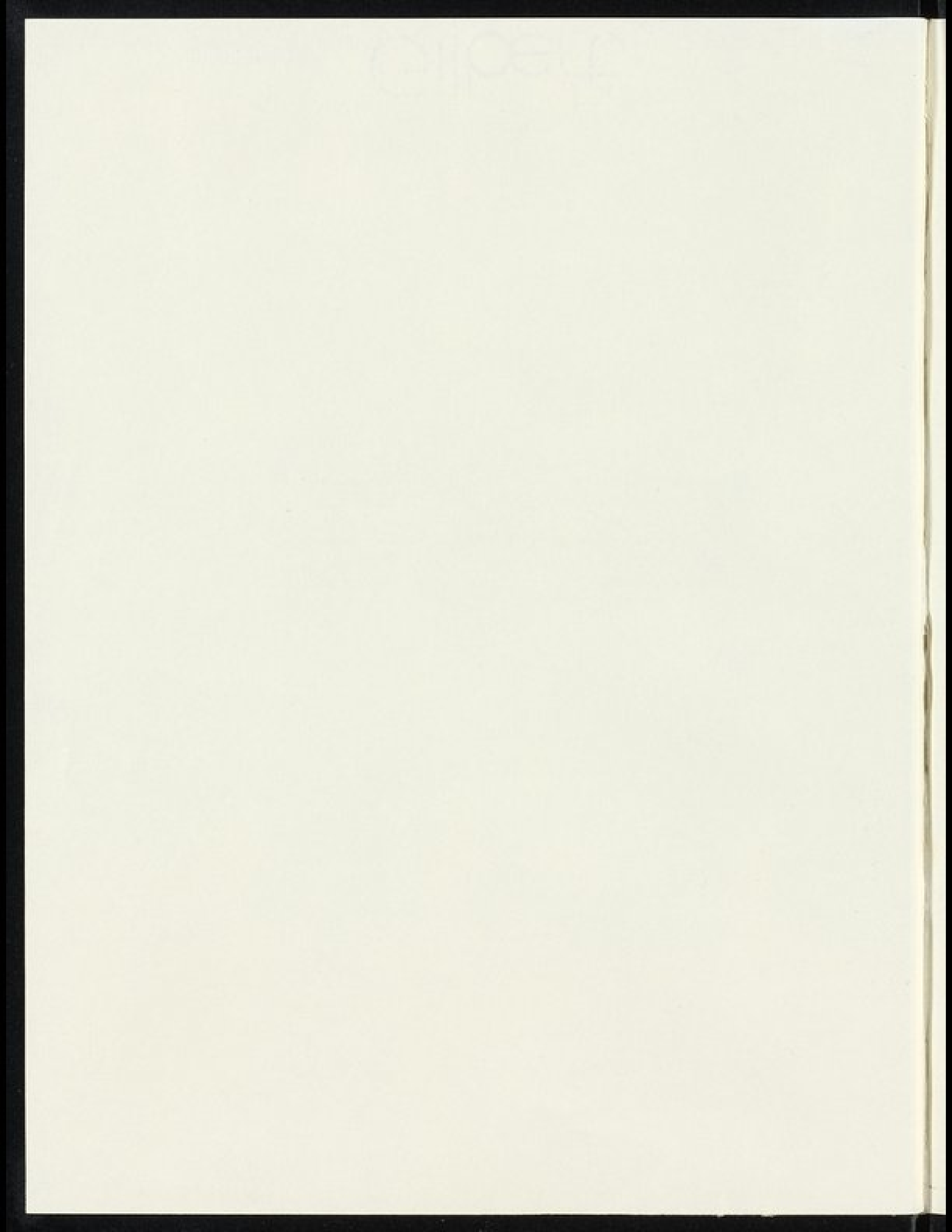



CORNELL UNIVERSITY LIBRARIES
JOHN M.
OLIN
LIBRARY
ITHACA, N.Y.


CORNELL UNIVERSITY LIBRARY
3 1924 073 798 385





Du 8

تاريخ التعليم في عصر محمد على

بحث اعتمد فيه المؤلف على وثائق بقسم المحفوظات التاريخية بديوان جلالة الملك لم يسبق نشرها وأجازته جامعة فؤاد الأول لدرجة « ماجستير » فى التاريخ مع رتبة الشرف

تأليف

أحمد عزت عبد الكريم

مدرس التاريخ الحديث المساعد بكلية الآداب

كتب مقدمته

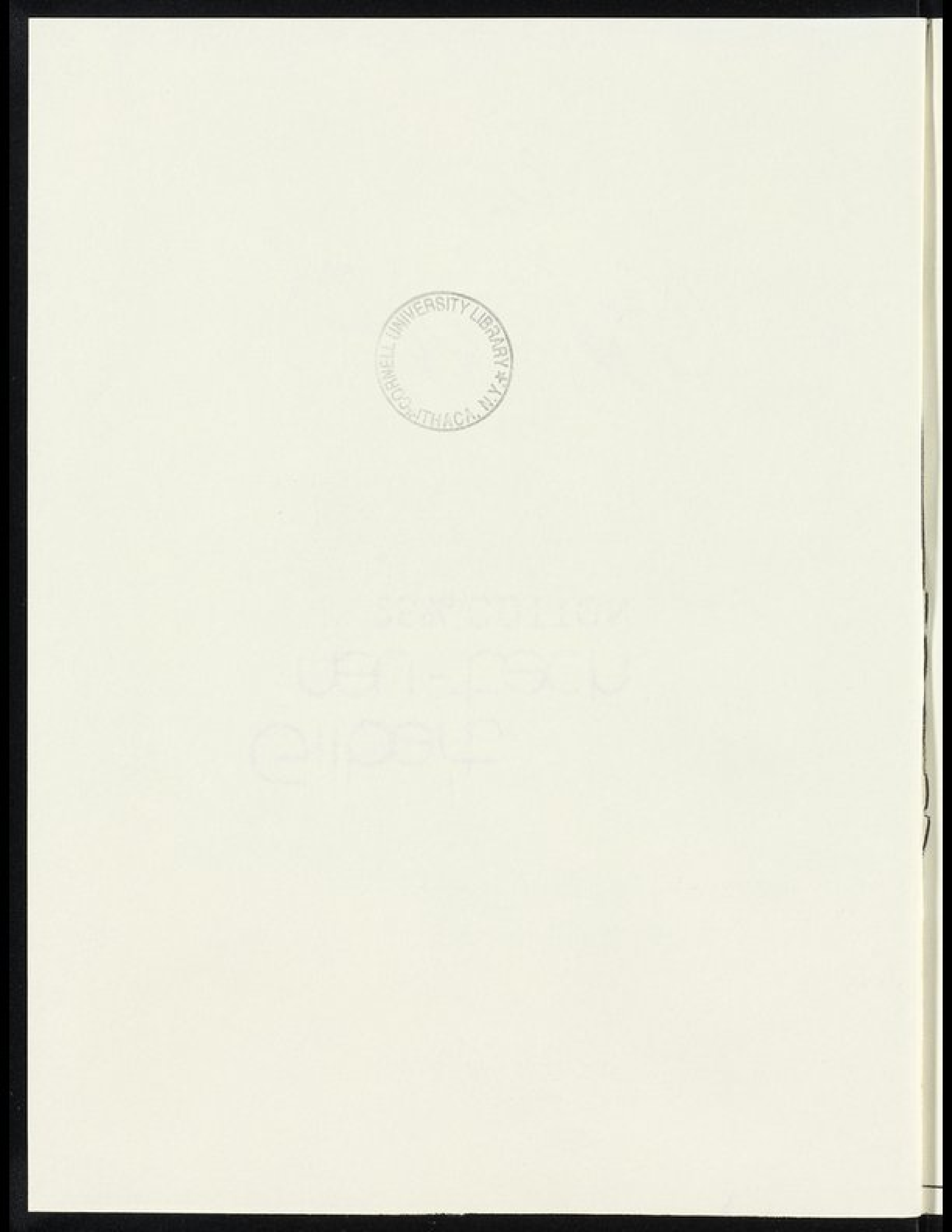
محمد شفيق غربال

وكيل كلية الآداب وأستاذ التاريخ الحديث بجامعة فؤاد الأول

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

١٩٣٨



اهداء الكتاب

إلى مقام

حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول

مولاى صاحب الجلالة

إذا حق للأمم أن تفخر بأعمال ملوكها ، وللتاريخ أن ينوه بفضلهم فان مصر أجدر الأمم بأن تذكر على الدوام فضل مؤسس نهضتها : جدكم الأعلى « محمد على الكبير » ، فبفضله تبوأت مصر مقاما عليا بين الدول ، وأخذت بأسباب القوة والحضارة ، وكان « التعليم » من أهم إصلاحاته الخالدة على الزمن .

ولقد كان من حظ النهضة التعليمية الحديثة أن أمدها جدكم الخديوى « إسماعيل » بقبس من سامى رعايته أعاد إليها بهاءها ، حتى إذا تولى عرش مصر والدكم العظيم المغفور له « فؤاد الأول » أثمرت النهضة خير الثمرات ، حتى أصبحت مصر منذ عهده ملتقى الحضارات الشرقية والغربية ومصدراً للثقافات العالية قديمها وحديثها .

وكان للبحوث التاريخية نصيب كبير من اهتمام والدكم العظيم ، ففى ظل رعايته قام كثير من المؤرخين على كشف الستار عن تاريخ مصر فى مختلف عصورها ، وأنشىء قسم خاص للمحفوظات التاريخية بديوان جلالتكم ، هذا عدا ما أمر به جلالته من جمع ونشر الوثائق الخاصة بمصر والموجودة بدور المحفوظات الأمريكية والأوروبية .

مولاى صاحب الجلالة

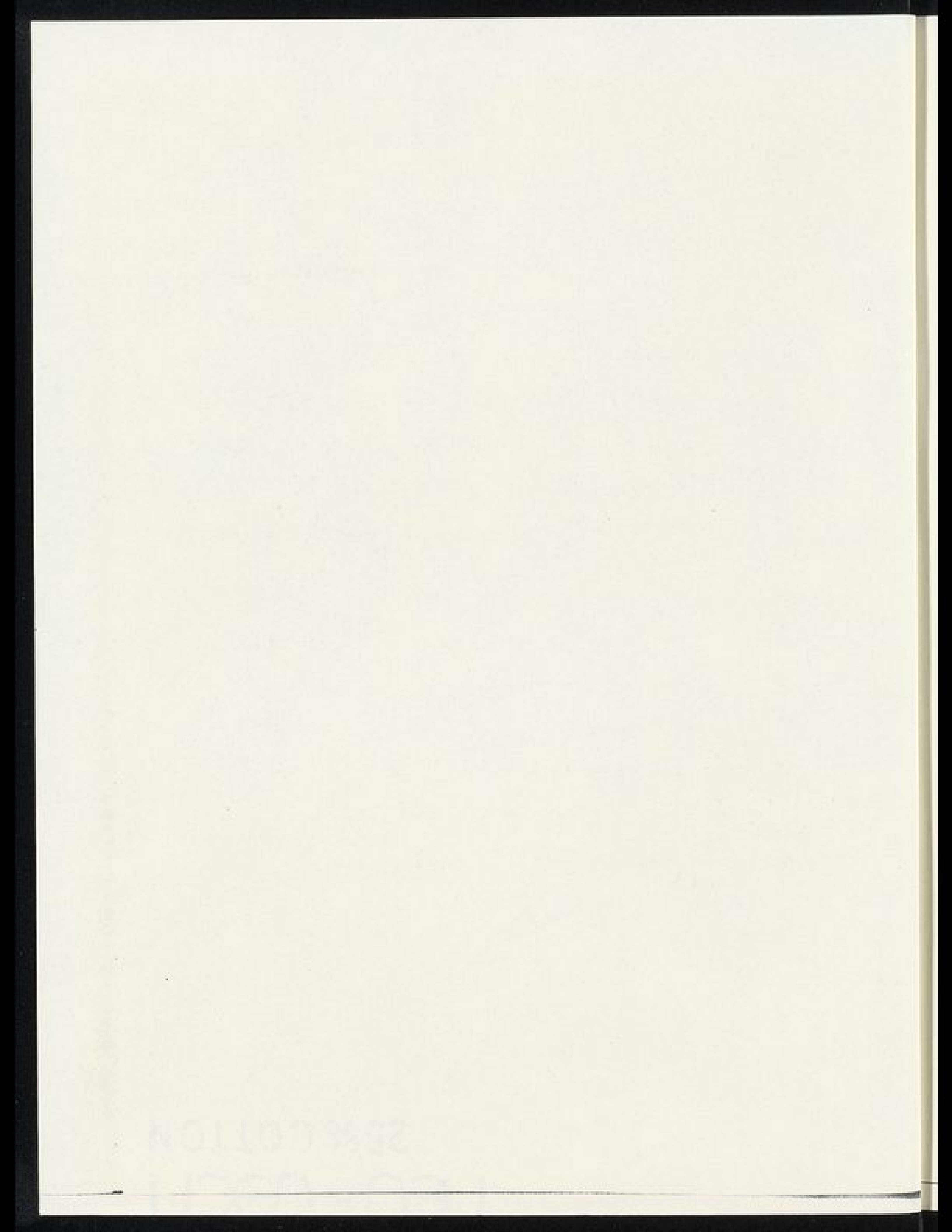
لعلى وفقت إلى تحقيق أمل طالما جاش فى صدر والدكم العظيم : وهو إقبال المصريين على البحث فى تاريخ مصر والتأليف فيه . وهذا الكتاب الذى أتشرف باهدائه إلى مقام جلالتكم السامى ثمرة جهود متصلة ، توفرت بها على جلاء صفحة من أزهى صفحات تاريخ محمد على الكبير : وهى تاريخ التعليم فى عهده الحافل ، وقد قدمته إلى جامعة فؤاد الأول — وهى غرس يدى والدكم العظيم — فأجازته لدرجة « ماجستير » فى التاريخ مع رتبة الشرف .

مولاى صاحب الجلالة

إنه ليملأ نفسى فخاراً أن يتاح لهـــذا البحث أن ينشر فى مستهل عهدكم المجيد ، وأن يكون لى عظيم الشرف بأن أتوجه بهذا الأهداء . أدامكم الله — يامولاى — ذخراً للعلم والتعليم ، وحقق على يديكم كل ما تبغونه لشعبكم المتفانى فى حبكم من رفعة ومجد .

المؤلف

أحمد عزت عبد الكريم



موضوعات الكتاب

الكتاب الأول

السياسة التعليمية بين عهدين

الكتاب الثانى

تطور النظام التعليمى فى عصر محمد على

الكتاب الثالث

التعليم الابتدائى والتجهيزى

صفحة

الكتاب الرابع

التعليم الخصوصي والبعوث العلمية

صفحة

صفحة

الكتاب الخامس

الحياة المدرسية ونظم الدراسة

الكتاب السادس

على ضـــوء النقـــد

ملاحق

تقديم الكتاب

بقلم الأستاذ محمد شفيق غربال ، وكيل كلية الآداب

وأستاذ التاريخ الحديث بجامعة فؤاد الأول

من نظم الادارة التى عرفتها الممالك الأوروبية أثناء تطورها من الادارة الاقطاعية إلى الادارة الملوكية نوع يقوم على قاعدة أن يعهد بالشأن من شؤون الدولة لا إلى موظف واحد ، بل إلى ديوان أو مجلس من موظفين . ولا تزال لهذا النوع من الادارة آثار فى انجلترة مثلا، فوزير التربية فيما هو فى الحقيقة رئيس مجلس التربية ، وكذلك وزير التجارة هو رئيس مجلس التجارة . وقد اصطلحوا فى فرنسا على تسمية ذلك النظام باسم نظام المجالس المتعددة (polysynodie) .

وقد سارت الدولة العثمانية القديمة على هذا النظام بعينه ، وقد اتبعه محمد على أيضاً فى حكمه لمصر . فكانت طريقته أن يحيل الشؤون المختلفة على المجالس المختصة، وكان رجال هذه المجالس يتبادلون الرأى فيما يعرض عليهم ويرفعون للباشا خلاصات بمداولاتهم : والأمر فى النهاية له . وعلى هذا فان شؤون التربية والتعليم كانت فى وقت ما من حكمه من اختصاص ديوان الجهادية ، ثم نقلت لشورى المدارس وديوان المدارس .

ولم يفت الكتاب المختلفين الاشارة إلى طريقة محمد على هذه . واستخلص منها العلامة الفرنسى دنى "Deny" أن الادارة المصرية كانت تقوم على قاعدتين متناقضتين فى الظاهر : أولاهما إن سلطة الوالى كانت مطلقة ، وثانيتهما إن الوالى لا يتخذ قراراً فى مسألة ما إلا بعد أن يستمع لآراء المجلس المختص بها .[١]

ويحق علينا أن نتساءل عما حدا بمحمد على إلى اتخاذ هذه الطريقة الديوانية المعقدة التى تؤدى إلى التسويف وتشعب الآراء وتضخم السجلات ، ونحن نعلم أنه لم يكن الرجل الذى يسوف أو يضيع الوقت والجهد . الذى حدا به إلى ذلك هو

Deny, "Sommaire des Archives turques du Caire." Le Caire. 1930. p. 43. (١)

أنه لم يكن حاكما فحسب ، بل كان طوال مدته مربياً ومكوناً للرجال ، وأن مجالس الادارة لم تكن فى نظره هيئات إدارية فحسب ، بل كانت لها غرض آخر هو تكوين العمال الصالحين وتشجيعهم على التفكير المستقل . ولم يكن محمد على فى علاقاته بموظفيه الحاكم المطلق الذى تصوره بعض الكتابات ، بل كان الأب الخير الحازم يسعى لأن يجعل من بنيه رجالا يستطيعون فهم مقاصده ومعاونته على تحقيق خطته . وهذه أوامره الحكومية قل أن تجد لها شبيها فى أوامر الحكومات ، فكانت فى جمعها للنصح والترغيب والترهيب وضرب الأمثال والاشارة إلى أن منفعة الرعية أو مجد الوطن متوقف على مانيط بعمال الحكومة أداؤه صورة صادقة لشخصية هذا العاهل الكريم . والذين درسوا الادارة النابليونية من المؤرخين يعرفون أن الأمبراطور نابليون اتخذ من مجلس الدولة — وكان أهم أدوات الاصلاح النابليونى — معهداً يلحق به النجباء من الشبان ليستمعوا إلى ما يدور فى جلسات المجلس من المداولات ، حتى إذا تم نضجهم عينهم فى الوظائف التى يراهم أهلا لها .(1)

وقد حققت طريقة محمد على فى الحكم للتاريخ نفعاً لا يقدر ، إذ أنها استلزمت عدداً لا يحصى من المحاضر والخلاصات واليوميات والدفاتر ، يتمكن المؤرخ بواسطتها من تتبع المسألة الواحدة من العامل الصغير للمجلس الكبير لمقر السلطان ، ومن القرية النائية لمسند الولاية : وهى مادة التاريخ .

ومادة التاريخ هذه كل مافيها له قيمته ، والمتعسف من المؤرخين هو الذى يعد تافهاً كل مالم يتعلق بالسياسة العليا أو مالم يصدر إلى السلاطين أو ممثلى السلاطين . وإن دفتراً من دفاتر المحفوظات يدلنا على أرزاق الجند وطعامهم ولباسهم لهو وثيقة لها خطرها . ولا يستطاع كتابة تاريخ الجيش المصرى إلا بها وبمثيلاتها . فاذا هزت القارئ أخبار مجد الجيش المصرى ، وإذا ردد الكتاب ذكرى من قادوا ذلك الجيش للنصر ، كان حقاً على المصرى أن يذكر الجنود أيضا ، وأن يعنى بكل مايمكننا من معرفتهم . وإن تقريراً متواضعا رفعه مفتش من مفتشى المدارس عن

---

(1) Fisher, H. A. L., "Bonapartism". Oxford, 1914, p. 48.

أحوال مكتب من مكاتب الريف لهو أيضا وثيقة لها خطرها فى دراسة تاريخ التعليم، ولا يستطاع كتابة ذلك التاريخ على وجهه الصحيح إلا بها وبمثيلاتها ، فلا يكفى فى الدراسة التاريخية أن ندرس « اللائحة » والبرنامج ، بل لابد من أن نتعرف ما كان من أمرها وما كان عليه التلاميذ والمعلمون ، وأمرهم أهم من أمر اللوائح والمناهج .

هذه المادة التاريخية من الوثائق التركية والعربية تبقى غفلا ، ولا يمكن استخدامها إلا بشرطين أساسيين :

الشرط الأول هو أن يعترف بحق المؤرخ فيها ، والاعتراف بحق المؤرخ فى الوثائق لاينحصر فى الاذن له بالاطلاع عليها ، بل هو أيضا أن لاتكدس فى أماكن لاتصلح لحفظها تتعرض فيها للحريق والعبث وتعيث فيها الأرضة والفأرة، وأن توضع فى البناء الصالح ، وأن ترتب حسب موضوعاتها وأزمانها ، وأن تجعل لها الفهارس الوافية ، وأن يتخذ كل مابقى ورقها ومدادها فعل الزمان ، وأن يلغى ذلك الاعتبار التعسفى الذى يفاضل بين الوثائق فيحكم لبعضها بالبقاء وعلى بعضها بالفناء ، وألا يحدث فى المستقبل ماحدث فى الماضى من تخفيف الضغط على دار المحفوظات بتسليم أحمال من الوثائق المصرية لتجار الورق .[1] وإذا لم يتحقق هذا كانت حال المحفوظات كحال تلك « الدفترخانة » الرسمية التى صورها صاحب عيسى بن هشام .[2]

وقد بقى حق الدراسة التاريخية غير معترف به إلى أن أشار جلالة الملك فؤاد الأول — أسكنه الله فسيح جناته — بجمع مابقى من وثائق عصرى محمد على واسمعيل ، وأمر بأن تعد الاعداد الفنى الذى تتطلبه الدراسة العلمية ، وبث فى حفظتها من روحه الكريمة ، فلقى منهم المشتغلون بالأبحاث التاريخية كل عون . وبدأت بذلك من فيضه نهضة تاريخية علمية ترى آثارها فيما نشر وفيما سينشر من الدراسات التاريخية القيمة .

---

(١) راجع فى هذا كتاب « دنى » السابق الذكر ص ٣٢

(٢) محمد المويلحى: « حديث عيسى بن هشام » الطبعة الرابعة ص ١١٠ — ١١٨

أما الشرط الثانى فهو أن يوجد الباحث الذى يستطيع استخدام الوثائق ، الباحث الأمين ، الذى لا يخفى ما لا يؤيد نظريته ، الذى يعرف كيف يستخرج الحقائق والذى لا يضل فى الجزئيات . وقد عملت الجامعة على إيجاد هذا النوع من الباحثين .

والجامعة هى أيضا غرس يمين الملك فؤاد الأول ، تعهدها برعايته فى أطوار نموها ، فاستطاعت أن تقدم من بنيها من يقدر على الاضطلاع بمهمة البحث العلمى الخالص .

وكان جلالته فى أحاديثه مع المؤرخين يرسم لهم الخطة المثلى للأبحاث التاريخية ، فكان يؤمن — رحمه الله وأجزل ثوابه — بأن إظهار الحقيقة هو الغاية الأولى للمؤرخ ، كما أنه كان يؤمن بأنه كلما ازداد الباحث تعمقا فى درس الأصول التاريخية لعصر «الوالد الأكبر» — كما كانت تحلو له تسمية جده العظيم — كلما ازداد إعجاباً بشخصية المصلح الكبير وأعماله ، إعجاباً يقوم على الفهم الصحيح .

والفهم الصحيح لا يتسنى الا بالرجوع للأصول ، أما الرجوع لغيرها مما كتبه المعاصرون أو اللاحقون فلا يكفى . وقد استغنت الدراسات التاريخية بفضل «فؤاد الأول» عن الكتابات المعاصرة لمحمد على . ولم تبق هذه الكتابات إلا — كما يسميها الأفرنج — مصادر ثانوية ، لها قيمتها كمصادر ثانوية .

* * *

وكانت الناحية الأمبراطورية من عصر محمد على — إن جاز لنا أن ننعتها بذلك — أولى النواحى اجتذابا للمؤرخين بعد أن تهيأت لهم وسائل البحث ، نفهم ذلك الاجتذاب ونعتبره ثمرة من ثمرات النهضة القومية . ثم كان أن اتجهت الجهود لنواح أخرى من ذلك العصر ، قد تكون أقل لمعاناً من قصة المجد الحربى والفتح الخارجى ، ولكنها ليست بأقل منها مجداً حقيقيا . وسيرة الفتوح قد تزكى العاطفة القومية ، أما سيرة الاصلاح المحمدى العلوى فهى الهادى فى مسائل الخدمة القومية . ومن ثم اتجه المؤرخون الشبان نحو دراسة هذا الاصلاح . وكان أن اختار « أحمد عزت عبد الكريم » موضوع التعليم من موضوعات ذلك الاصلاح ، وأعد فيه هذا الكتاب .

والمؤلف من تلاميذ مدرسة التاريخ بكلية الآداب . ودرس نظريات التربية وما يتعلق بها فى معهد التربية ، وعلم فى مدرسة ثانوية . وليس تاريخ التعليم عنده تاريخ خطط دراسية أو مناهج لحسب ، بل الأمر عنده أهم وأعمق من هذه الأشياء كلها : فهو تاريخ مقوم من مقومات الحياة القومية ، وهو بذلك تاريخ سياسى ، ولكن بالمعنى الذى قصده اليونان من كلمة « سياسة » . فكانت بحوث حكمائهم فى التربية فى صميم فلسفتهم السياسية ، ولم تكن التربية ذلك الأمر السطحى الذى يتصوره البعض ، بل هى طريقة حياة . ويجب إذن أن تختلف فى المدينة الديموقراطية عنها فى المدينة الأرستقراطية وهكذا . وليست الديموقراطية أو الأرستقراطية أوضاعاً سياسية أو أشكالا حكومية ، بل هى حياة كاملة . ونذكر فى توضيح ذلك ما جاء فى جمهورية أفلاطون (ولا يخلو هذا من دعابة) من أن الاعتداد بالنفس الذى يظهره أهل المدينة الديموقراطية يسرى إلى كلابهم وخيولهم وحميرهم ، فتراها تتبختر فى مشيتها وتأبى أن تتزحزح عن طريقها لمن هو إلا إنسان . (١)

ويشغل تاريخ التعليم من عصر محمد على ما تشغله التربية من تاريخ المدن اليونانية ، إذ هو صورة العصر كله : تتبين فيها ملامحه ومميزاته ، ونوع الغايات التى سعى إليها ، ونوع العقبات التى صادف ، ونوع التراث الذى خلف . فهو حقيق بعناية كل من يدرس تاريخ ذلك العصر ، وبهداية كل من يعنيه مستقبل الثقافة فى مصر .

وقد كانت عمدتنا فى دراسة تاريخ التعليم قبل أن ينشر شيخ المعلمين وقدوتهم فى الدأب على العمل النافع « أمين باشا سامى » كتابه « تاريخ التعليم » وكتابه « تقويم النيل » ، وقبل أن ينشر سمو الأمير العالم « عمر طوسون » رسالته فى تاريخ « البعثات » ، هى ما سميناه المصادر الثانوية : ما وضعه « كلوت بك » و « منجان » و « باتون » ، وغيرهم وما نشر من تقارير القناصل والمبعوثين الأوروبيين وما جاء فى رحلات زوار مصر المختلفين . وهاهو « أحمد عزت عبد الكريم » يقدم لمواطنيه ثمرة عمله سنين عديدة فى المحفوظات والكتب .

---

(١) "The Republic," English Translation by Davies and Vaughan. 1874, p. 296.

وقد قسم فصول كتابه تقسيماً منطقياً : فتكلم أولا عن التعليم قبل عهد محمد على ، وانتقل من هذا إلى فصل ألم فيه إلماماً عاماً بسياسة محمد على فى التعليم ، وعرض مسائل تلك السياسة عرضاً تمهيدياً مبيناً ما بينها وبين مسائل التربية الفرنسية من شبه ومن خلاف . ثم أخذ فى شرح ما تناوله من المسائل إجمالا شرحاً تفصيلياً لم يسبقه إليه باحث ، فبدأ بانشاء الادارة المركزية للتعليم (وهى الادارة التى احتفل أخيراً بمرور مائة عام على إنشائها) ، وللمؤلف فى أمرها تحقيق يصح أن يكون مثالا لكيفية استخراج الحقائق التاريخية من الوثائق الرسمية ، ووصف الأطوار التى مرت فيها سياسة التعليم ، ومناهج التعليم الابتدائى والتجهيزى والخصوصى وخططه ومعاهده ، والبعثات العلمية . وخصص فصولا ممتعة فى الحياة المدرسية وكل ماتعلق بها . ثم أعاد بحث المسائل التى ابتدأ بها مستعيناً فى نقده بما أورده من التفصيل . وختم كتابه بفصول إضافية فى تاريخ المعاهد الخارجة عن النظام القومى كمدارس الجاليات الأجنبية والطوائف الدينية غير الاسلامية ، وبصور من بعض الوثائق الهامة ، وبنقد للمراجع التى رجع إليها ، وببيان مفصل لسجلات الوثائق الرسمية التى استمد منها مادة البحث .

وقد لا يقره كل قارىء على كل ما ذهب إليه فى أحكامه ، ولكن لا يسع أى قارىء إلا أن يسلم بأن المؤلف كان رائده توخى الحقيقة الخالصة .

* * *

ولعل أجمل ما فى الكتاب كله منظر الرجل الذى لم يتزود من تعليم المدارس يستحث رعيته على طلب العلم وينفق النفس والنفيس فى تهيئة وسائله لهم . ذلك — كما قال الشيخ رفاعة — « أن منافع مصر العمومية قد تمكنت كل التمكن من الذات المحمدية العلوية وتسلطت على قلبه وأخذت بمجامع لبه »،[1] وأنه عز عليه أن يرى العقول المصرية تضيع هباءاً ، فعول على أن ينفذ لمنفعة مصر تلك الثروة العقلية التى لا تعد لها ثروة .

---

(١) رفاعة رافع : « مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية » . القاهرة ١٣٣٠ / ١٩١٢ ص ٢٢٣

« ابتكر حسين جلبي عجوة (من أهل رشيد) بفكره صورة دائرة ، وهي التي يدقون بها الأرز ، وعمل لها مثالا من الصفيح ، تدور بأسهل طريقة بحيث أن الآلة المعتادة إذا كانت تدور بأربعة أثوار فيدير هذه ثوران ، وقدم ذلك المثال للباشا فأعجبه وأنعم عليه بدارهم . » ثم استمر الجبرتي في روايته ، قال : « ولما رأى الباشا هذه النكتة من حسين شلبي قال إن في أولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف ، فأمر ببناء مكتب بحوش السراية ورتب فيه جملة من أولاد البلد ومماليك الباشا ، وجعل عليهم حسن أفندي المعروف بالدرويش الموصلي يقرر لهم قواعد الحساب » . (١)

أي أن إنشاء المدارس بدأ لما رآه محمد علي من نجابة المصريين وقابليتهم للمعارف ، أو أن محمد علي أدرك بالفكر الثاقب الذي وهبه الله أن لابد لحكم مصر من انتهاج مناهج جديدة ، وأن طرق الباشوات والأمراء من الترك والمماليك وإنفاقهم العمر في جمع المال وبعثرته وتوطيدهم أقدامهم بصلم الآذان وخزم الأنوف وقطع الرؤوس لم تؤد إلا إلى الخراب الشامل ، فهدته مواهبه لسياسة من نوع آخر يحقق بها رجاء مصر فيه ، وهي التي ضمنته لنفسها في سنة ١٨٠٥ ، وينقذها من ضياع الاستقلال الذي كانت قد آذنت ساعته لها وللأمم الاسلامية .

أما مواهبه فقد لحظها الناس خاصتهم وعامتهم منذ الساعة الأولى : فرأوا في رجل الحرب الزعيم المفطور على الخير . ولما اشتد الأمر بينهم وبين الباشا العثماني « قالوا له إنا لانريد هذا الباشا حاكما علينا ولابد من عزله من الولاية ، فقال ومن تريدونه يكون والياً ، قالوا له لانرضى إلا بك وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير فامتنع أولا ثم رضي . وأحضروا له كركا وعليه قفطان وقام إليه السيد عمر والشيخ الشرقاوي فألبساه له ، وذلك وقت العصر ، ونادوا بذلك في تلك الليلة في المدينة » . (٢)

وأدرك هو منذ تلك اللحظة أنه لم يتول أمر باشوية عثمانية عادية ، بل جلس

---

(١) الجبرتي : « عجائب الآثار » في حوادث سنة ١٢٣١ في المجلد الرابع .
(٢) الجبرتي : « عجائب الآثار » في حوادث صفر ١٢٢٠ في المجلد الثالث .

على عرش مملكة عظيمة كل ما حوله فيها يشهد بما كان لملوكها وسلاطينها، وأن عناية الله سلمته حكم أمة واحدة يدرنيلها وأرضها الفيض العميم، وأن الميدان خليق بالأبطال.

وكانت الساعة أيضا حقيقة بالبطولة : فقد فتحت الحوادث أعين السياسة الأوروبية لمصر ولغيرها من البلاد الاسلامية. ألم يسبق توليته نزول الفرنسيين بمصر؟ ألم يكن إجلاؤهم عنها إلا بشق الأنفس وبفضل معاونة دولة أوروبية أخرى؟ ألم يعقب لتوليه امتلاك الانجليز ثغر الاسكندرية وبقاؤهم فيه إلى أن وافق سياستهم تركه؟ ألم يحدث أثناء حكمه تمكن الفرنسيين من أرض الجزائر واقتطاعها من العالم الاسلامى؟ ألم يزدد فى أيامه ضغط الدول الأوروبية على السلطنة العثمانية وتوغل الروسيين فى اتجاه فارس والامارات الاسلامية الآسيوية؟ ألم تتداع القوة الاسلامية فى الهند نحو الانهيار النهائى؟ فالأمر إذن لا يحتمل التأجيل، وإنقاذ مصر يتطلب العمل السريع، الاصلاح الشامل، القوة التى تصون الاستقلال : قوة الحديد والمال والعلم.

* * *

ولم يكن العلم غريباً عن مصر، فقد كان طلبه فريضة على أهلها.

وكان لعلماء الأزهر — كما قال الشيخ رفاعة — « اليد البيضاء فى إتقان الأحكام الشرعية العملية والاعتقادية، وما يجب من العلوم الآلية كعلوم العربية الاثنى عشر وكالمنطق والوضع وآداب البحث والمقولات وعلم الأصول المعتبر. ولمثل هذا فليعمل العاملون ». (١) وقد أثمرت أعمالهم فى ذلك العصر وما سبقه بقليل ثمرتين عظيمتين : « تاج العروس » و « تاريخ الجبرتى ».

ولكن من الباحثين من يرى أن الحملة الفرنسية أثرت أثراً سيئاً فى الحركة العلمية. لا لأن الفرنسيين عارضوها أو مسوها بأذى، ولكن لما أحدثه قدومهم وخروجهم من الاضطراب الفكرى. (٢) والثابت على كل حال أن النصف الأول

(١) رفاعة : مناهج الألباب . ص ٣٧٢

(٢) Lane, "Manners & Customs of the Modern Egyptians." Everyman's edition, p. 218.

من القرن التاسع عشر قل أو انعدم فيه التصنيف المبتكر فى علوم اللغة والدين . ولكن فرق بين هذا وبين ما زعمه المستشرق الطبيب پرون "Perron" من أن علماء القاهرة فى زمنه — منتصف القرن التاسع عشر — « لا يعرفون حتى أسماء أمهات الكتب العربية ، وإن كانوا يظنون أنهم يعرفون كل شىء ، وأن ليس فيهم عشرة يستطيعون استخدام معجم لغوى » .[1] وليس من شك فى أن علماء ذلك الزمان ضيقوا على أنفسهم دائرة المعرفة . سلم بذلك الشيخ رفاعة وقرر وجوب « معرفة سائر المعارف البشرية المدنية التى لها مدخل فى تقدم الوطنية ...لاسيما وأن هذه العلوم الحكمية العملية التى يظهر الآن أنها أجنبية هى علوم إسلامية نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية » ، ثم أضاف إلى هذا « أن من اطلع على سند شيخ الجامع الأزهر ، الشيخ أحمد الدمنهورى (ولم يكن العهد به إذ ذاك بعيدا ، فقد كانت وفاته فى عام ١١٩٢ هجرية) رأى أنه قد أحاط من دوائر هذه العلوم بكثير » .[2] وهذا رفاعة نفسه نعلم كيف اصطنعه الشيخ حسن العطار ، وكيف رسم له خطة الدرس فى بلاد الغرب . وقد تحدث رفاعة فى رسالة للعلامة الفرنسى جومار " Jomard " بعد عودته من فرنسا عن حسن استقبال العلماء له وعن قراءة شيخ الاسلام لرسالته فى وصف رحلته وعن عزم الشيخ على رجاء الوالى أن يطبع الرسالة ليحبب المسلمين التغرب فى طلب العلم من أجل منفعة مواطنيهم.[3]

الحق أن من علماء ذلك الزمان من أوجس خيفة من ذلك الاتصال بعلم الغرب لا استنكارا لذلك العلم فى حد ذاته ولكن إشفاقا مما يؤدى إليه الاتصال من النتائج الوخيمة ، فاتخذوا خطة سلبية وسمها من درسها من الأوروبيين باسم « الخطة الوهابية » ، وقد روى مؤرخ الحروب الصليبية « ميشو » "Michaud"

---

(١) Yacoub Artin, "Lettres du Dr. Perron à M. Jules Mohl." le Caire, 1910. p. 90-92.

(٢) رفاعة : مناهج الالباب ص ٣٧٣ . ونجد ترجمة الدمنهورى فى وفيات سنة ١١٩٢ فى المجلد الثانى من الجبرتى ، حيث قال إنه اطلع على سند الشيخ ويعرف باسم « اللطائف النورية فى المنح الدمنهورية » . وقد أدركه الجبرتى واجتمع به قبل وفاته بسنتين .

(٣) Revue asiatique, 2e serie, t. VIII, 1831, p. 535.

فى رسائله من مصر فى سنة ١٨٣١ حديثه مع عالم من هذا الطراز هو مفتى المنصورة، قال المفتى : «إن مثل الشرقيين فى محاكاتهم الغربيين والنقل عنهم مثل الرجل الكفيف الذى ارتطم فى وهدة يدعو المارة الى مده بقبس من النار ، وماذا ينفعه القبس ؟ أنتم معشر الغربيين لا تعملون عملا إلا متكلمين ، أما نحن فالصمت عندنا لهو عين الحكمة ، الأصل عندكم الحركة وعندنا السكون ، نعرف نحن أن ثمن الحرية هو الكدح والدأب . ولما كنا نكره النصب أكثر مما نعشق الحرية فقد عشنا يستبد بأمرنا كل ذى عزيمة وهمة لا تعرف الكلل . تتهمون الشرقيين بأنهم جامدون وأنهم دائما حيث كانوا ، ولكنكم أنتم لا تعرفون متى وأين تقفون ، وبذلك أنتم تذهبون الى أبعد مما تقصدون ، وعندى أن مجاوزة الهدف أسوأ من العجز عن بلوغه ، هذه مثلا نظرياتكم السياسية الجديدة ، هل نفعت عامتكم حقاً ؟ أنشرت النور حقاً ؟ لا ، لم تؤد — فيما سمعت — إلا إلى الثوران والاضطراب . فما أشبه مدنيتكم بتلك السوائل المتخمرة التى تحطم الاناء الذى تصبها فيه» . (١)

وهذا المستشرق «لين» "Lane" يصور لنا سوء ظن العامة بمن عاشر الأوروبيين من المسلمين ، قال : «كنت جالسا يوما عند أحد باعة الكتب فأتى رجل يطلب نسخة من رحلة رفاعة . فسأل أحد الحاضرين عما فى هذا الكتاب ، فتطوع رجل لاجابته بطريقة تهكمية تبين رأى العامة فيه ، قال ذلك المتطوع : أنا أقص عليك نبأ هذه الرحلة بالحق . إنها تحتوى على وصف سفر رفاعة من الاسكندرية لمرسيليا وعلى ما جرى له أثناء هذا السفر عند ما سكر وعربد ، عند ذلك أمر الربان بشد وثاقه الى صار السفينة وجلده . ثم نزل بلاد الأفرنج حيث طاب له لحم الخنزير ومعاشرة النساء الأفرنجيات ، ثم بعد أن ارتكب من الموبقات كل ما يعد له مقعده من النار عاد إلى مصر» . (٢)

تلك الحالة التى تصورها هذه الأحاديث هى ماحدا ببعض الباحثين الأوروبيين فى ذلك الزمان إلى الظن بأن أول واجب على الحاكم المصلح فى البلاد الشرقية هو

(١) Michaud et Poujoulat, "Correspondance d'Orient," Bruxelles, 1841, tome VII. p. 197.

(٢) Stanley lane - Poole, "The Life of Ed. W. Lane," London, 1877. p. 70.

أن يهدم البناء القديم فلا خير فيه لأهله، وأن ينبذ تلك العلوم والمعارف التى طلبوها مئات السنين دون أن يحققوا بها لأنفسهم أو للانسانية نفعاً، ثم ينشىء بعد ذلك معاهد جديدة تعلم فيها العلوم الأوروبية باللغات الأوروبية. قال بذلك قائلون منهم فى المغرب الفرنسى وفى الهند البريطانية.

وليس أوضح فى التعبير عن هذا الرأى مما جرى فى الهند فى سنة ١٨٣٥: اشتد الخلاف فى تلك السنة بين أعضاء لجنة التعليم على ماذا تكون عليه خطتها، أتستمر الحكومة على ماجرت عليه حتى ذلك الوقت من الانفاق على المعاهد القديمة التى تدرس فيها معارف الوثنيين بالسنسكريتية ومعارف المسلمين بالعربية والفارسية، أم تترك هذا الانفاق وتخصص المال لانشاء معاهد جديدة تدرس فيها العلوم الجديدة باللغة الانجليزية؟ انقسم الأعضاء إلى فريقين: فريق انتصر للسياسة القديمة وعرف أصحابه باسم المستشرقين أو أنصار الثقافة الشرقية. وفريق انتصر للسياسة الجديدة وعرف أصحابه باسم أنصار الثقافة الغربية.

وتولى زعامة الفريق الثانى الكاتب المشهور «ماكولى» "Macaulay"، وكان إذ ذاك فى الهند يعمل فى جمع القوانين، وقد فوضت إليه الحكومة رياسة لجنة التعليم. وأعد للدفاع عن قضيته مذكرة مشهورة.(١)

اعترف ماكولى بجهله اللغات الهندية واللغات الفارسية والعربية، ولكنه استعاض عن ذلك بأن قرأ كل ما تيسرت له قراءته مما نقل من آداب تلك اللغات إلى اللغات الأوروبية وتحدث فى أمرها مع أهل العلم بها من الأوروبيين، وقال إنه لم يجد من المستشرقين من ينكر أن ما يحمله رف واحد من الكتب الأوروبية يساوى كل آداب الهند والعرب، وحتى دواوين الشعر التى هى أفضل ما فى تلك الآداب هى دون الشعر الأوروبى فى نظره، ثم إذا انتقل الباحث إلى التصانيف التى تتعلق بجمع الحقائق واستخلاص النواميس الكونية فانه لايستطيع إلا إيثار

---

(١) Minute by the Honourable T. B. Macaulay, dated the 2 nd. February 1835 in H. Sharp's "Selections from Educational Records," Part I. Calcutta 1920, p. 107-117.

التصانيف الغربية من هذا النوع . مثل هـذا يقال عن كتب التاريخ والأخلاق والطبيعة وغيرها .

ثم تساءل : أما والأمر كذلك ، أيجوز لنا أن نفضل على تعليم العلم الصحيح باللغة الانجليزية تعليم لغات لا تؤدى إلى علم خليق بهذا الاسم ؟ أيجوز لنا ألا نعلم العلم الصحيح والفلسفة الصحيحة والتاريخ الصحيح وأن نشجع من أموال الدولة طلب نوع من الطب يستحى بيطار انجليزى أن ينسب إليه ونوع من الفلك يثير قهقهة البنات فى مدرسة انجليزية ريفية ونوع من التاريخ هو عبارة عما جرى لملوك طول قامة الواحد منهم ثلاثون قدما وعمر الواحد منهم يزيد على ثلاثين ألف سنة ونوع من الجغرافيا تتكون من وصف بحار من العسل أو من الزبدة ؟

وكيف يحق للمشرفين على حكم الهنود من الانجليز أن يفعلوا هذا والتاريخ كفيل بهدايتهم السبيل السوى ؟ فهذه الأمم الأوروبية نفسها فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر أدركت أو أدرك زعماؤها أن لغاتها الوطنية لا تفتح لها خزائن العلوم والآداب ، بل أنها لن تدرك بغيتها إلا بدراسة ما خلفه اليونان والرومان باليونانية واللاتينية ، فأقبلوا على تلك الدراسات القديمة، وكانت ثمرة هذا الاقبال النهضة الأوروبية المشهورة . وهذه الروسيا فى القرن السابع عشر أحس ملكها العظيم « بطرس الأكبر » بما هى عليه من التأخر فعمل على إنهاض أمته عن طريق إنشاء أرستقراطية مستنيرة متحضرة بحضارة الغرب ، لا عن طريق تشجيع رعيته على الاستمرار فى خزعبلاتها وصرف العمر فى تقرير مسائل من نوع هل خلق الله العالم يوم ١٣ سبتمبر أم لا .

وقد رد المستشرقون على « ماكولى » بحجج يزينها رجحان العقل وبعد النظر واتساع أفق التفكير ، فأشاروا إلى تأصل الحضارة والثقافة فى أرض الهنود وإلى أن علومهم وآدابهم ليست السخافات التى صورها « ماكولى » . ثم قرروا أن البريطانيين قد قطعوا على أنفسهم عهداً باحترام عادات الهنود ونظمهم الاجتماعية ، فكيف يجوزون لأنفسهم أن يهدموا ما تعهـــدوا باحترامه . وبينوا أن إحياء العربية والسنسكريتية هو بالضبط مقابل لاحياء اللاتينية واليونانيـة فى تاريخ الثقافة

الأوروبية ، وختموا كلامهم بالحجة الدامغة : وهى أن لا خير لأمة فى إبعادها عن الجو الروحى الذى نمت فيه نفسها وأن نظم التربية إن لم تقم قواعدها على ثقافة القوم بقيت أمراً سطحياً لا نفع فيه ولا دوام له .(١)

* * *

وقد اتخذ محمد على بين المستشرقين والمستغربين خطة وسطا ، يدلك على ذلك ان ما كولى استشهد بما عمله محمد على فى مصر لتأييد ما ذهب إليه من ضرورة العلوم الحديثة ، كما أن خصوم ما كولى من أنصار الثقافة الشرقية استشهدوا أيضا بمحمد على لتأييد ماذهبوا اليه من ضرورة وصل حاضر الأمة بغابرها . فقالوا — وكان حقا قولهم — إن مصلح مصر بعلم العلوم الحديثة ولكنه يعلمها باللغة العربية وإن التعليم الذى يصح أن يوصف بأنه التعليم القوى وهو التعليم المنتشر فى قرى مصر وحواضرها قد أبقاه الباشا على أوضاعه المألوفة .

بهذا الاعتدال وبتغليب المنفعة على النظريات واجه محمد على مسألة التربية والتعليم .

أدرك أن زمان ترك شؤون التعليم للأفراد والطوائف قد انقضى وأن لابد من إحلال هيمنة ولى الأمر على تلك الشؤون ، وإلا عدم الجيل الجديد الذى كان يعمل على خلقه . وتولى بذلك إعداد عماله من الضباط والأطباء والمهندسين ورجال الادارة ، وأنشأ النظام التعليمى الذى يكفل له ذلك ، وعلم به العلوم اللازمة لهذا الغرض . ولكنه جعل بين هذا النظام والنظام القديم صلات وثيقة : فاستمد تلاميذ المعاهد الجديدة ومعلميها من المعاهد القديمة ، واحتفظ لما أنشأ بالصبغة العربية الاسلامية ، فكان فى نظر أهل عصره « مجدداً لدروس العلم بعد اندراسها ، آتياً فى ذلك بما لم تستطعه الأوائل » .(٢)

---

(١) Note of H.T. Prinsep dated 15th February 1835 in Sharp ; op. cit. p. 117 et sq.

(٢) رفاعة : مناهج الالباب . ص ٣٧٢

أثبت بذلك محمد على حق ولى الأمر فى الهيمنة على سياسة التعليم من أجل منفعة الوطن ، ولكنه ترك للأفراد وللطوائف قدراً عظيما من الحرية هو أثمن ما خلفه فى سياسته التعليمية ، وبذلك امتنع عن المصريين بفضل سياسته ذلك اللون الممقوت من ألوان الاستبداد الذى يأبى إلا أن يصب حياة الأمة الروحية فى القالب الذى تشاء الدولة لها ، وبقى المصريون إلى يومنا أحراراً يتجهون نحوما يرتضون لأنفسهم من شتى المثل العليا ، كما بقى الباب مفتوحاً يلجه من يريد العمل على خلق ثقافة غنية بتباين أصولها وتنوع عناصرها . ولعلنا ، نحن أهل الجيل الحاضر ، نستهدى فى مواجهتنا « مستقبل الثقافة فى مصر » — وهى أهم مسائل عهد الاستقلال — بما يلهمنا إياه محمد على من الاعتدال وضبط النفس والشجاعة والسماحة ؟

شفيق غربال

كلية الآداب — ١٥ نوفمبر ١٩٣٨

مقـــدمة

شاهد النصف الأول من القرن التاسع عشر فى مصر تغييرات هامة فى نظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية أخرجت مصر من ظلمة العصور الوسطى إلى نور العصر الحديث. وبدأ «محمد على» يضع أسساً جديدة لهذه النواحى من حكومة البلاد أكثرها مقتبس من نظم الغرب، وبدأ الأجانب يفدون إلى مصر يبغون أسباب الثروة ويعين نفر منهم حكومة البلاد على ما تنهض به من مشروعات. ورأى «محمد على» أن بقاءها يتطلب أن يخلفهم طوائف من أهل البلاد. ولكن المصريين إذ ذاك لم يكونوا يعرفون من العلوم إلا ما كان يلقى فى الأزهر وما إليه من المساجد من علوم اللغة والدين. وكانت المؤسسات «الحديثة» فى حاجة إلى معارف «حديثة»: فى حاجة إلى حذق علوم الطب والرياضيات والهندسة والصناعات والزراعة والعلوم الاجتماعية واللغات الغربية. وكانت صلة الأزهر بهذه العلوم «الحديثة» قد انقطعت منذ دهر طويل، وكان الغرب قد احتضن هذه العلوم فى مدارسه وجامعاته وبرز فيها، وكانت هذه العلوم عونا للأمم الغربية على الرقى بمجتمعاتها ونظمها فى الحرب والسياسة والاقتصاد.

كان طبيعياً إذن أن «تنتقل» هذه العلوم «الحديثة» إلى مصر بعد أن «انتقلت» إليها النظم والمؤسسات «الحديثة». وهكذا بدأ «التعليم الحديث» فى مصر.

ولكن «محمد على» كان حريصا كذلك على التوفيق بين «القديم» و «الجديد»، أو استغلال «القديم» لخدمة «الجديد» والتمكين له فى حياة البلاد. وهكذا نرى أن «التعليم القديم»: تعليم الأزهر والمساجد والكتاتيب ظل باقيا يجتذب إليه شطراً كبيراً من ناشئة البلاد.

فهذه «الرسالة» صفحة من تاريخ التعليم فى مصر. وهذه الصفحة فارق بين عهدين فى التربية والتعليم، والثقافة والتفكير: عهد الأزهر والتعليم الدينى وعهد

المدارس والتعليم الحديث . ولكن العهد « الجديد » لم يطمس معالم العهد « القديم » ، بل تركه يحيا ويعيش كما عاش منذ قرون ، ودرج هو يحيا ويعيش كذلك .

***

بدأت هذا البحث فى صيف ١٩٣١ وانتهيت منه فى صيف ١٩٣٦ ، حين تقدمت به إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول فأجازته لدرجة « ماجستير » فى التاريخ مع رتبة الشرف .

وقد توفرت أولا على قراءة ما طبع عن عصر محمد على — ويلحق به حكم إبراهيم القصير — من الوثائق وكتب التاريخ العامة وكتب الرحلات ومواد الصحف . كما أنى لم أغفل درس الأعداد الموجودة من صحيفة « الوقائع المصرية » فى عصر محمد على .

وهذه المؤلفات — وإن أمدتنى بطائفة كبيرة من المعلومات العامة عن نواحى النشاط فى هذا العصر ومنها التعليم — إلا أن إغفالها كثيراً من التفاصيل الهامة وعدم دقتها فى سرد كثير من الوقائع وما يشوب كثيرا منها من نزعات الأهواء الشخصية ، كل أولئك قد جعل الصورة التى تقدمها لنا عن التعليم فى عصر محمد على غامضة ، بل مشوهة فى كثير من الأحيان .

لهذا كان جل اعتمادى على الوثائق الرسمية الباقية من عصر محمد على . وهذه الوثائق محفوظة الآن فى « قسم المحفوظات التاريخية » بديوان حضرة صاحب الجلالة الملك ؛ وهو من الآثار الخالدة لاهتمام جلالة المغفور له الملك « فؤاد الأول » بالبحوث المتعلقة بتاريخ مصر الحديث . وقد أتيح لى أن أتردد طويلا على هذا « القسم » ، وأن ألمس الجهود الصامتة التى يبذلها القائمون على شأنه فى تنظيم محفوظاته وتنسيقها وتبويبها ، حتى أصبحت أهم مصادر البحث فى تاريخ مصر الحديث . ويرجع الفضل فى النتائج الهامة الكثيرة التى توصلت اليها فى تاريخ التعليم فى عصر محمد على إلى المساعدات الجليلة التى تفضل بها ديوان حضرة صاحب الجلالة الملك بتمكينى من بحث السجلات العربية وترجمة الوثائق الهامة من السجلات والأوراق التركية .

***

وقد حرصت على أن أنشر فى « ملاحق » الكتاب أهم الأوامر وتقارير التفتيش والامتحانات المدرسية والوثائق المتعلقة بتنظيم التعليم فى سنتى ١٨٣٦ و ١٨٤١ ، كما أوردت فى الجزء الخاص بالمراجع بيانات مستفيضة عن الوثائق التى أفدت منها فى البحث .

وفى نهاية الكتاب يرى القارىء « لوحات » لنماذج من الوثائق التركية والعربية والفرنسية يرجع عهدها إلى العصر الذى نؤرخ التعليم فيه . قصدنا بها نقل بعض الوثائق ذات الأهمية التاريخية العظيمة وبيان أسلوب ذلك العصر فى تقييد أوامر الوالى ومكاتبات الدواوين وطريقة العمل فى الدفاتر التركية والعربية لديوان المدارس وتقييد نتائج الطلبة المبعوثين لطلب العلم فى فرنسا .

* * *

والآن ، وقد أتيح لهذا البحث أن ينشر ، أشعر بأن على واجبا يجدر بى — قبل أن أترك القلم — أن أؤديه : هو واجب التوجه بالشكر الخالص إلى أستاذى الجليل « محمد شفيق غربال » وكيل كلية الآداب وأستاذ التاريخ الحديث بجامعة فؤاد الأول على ما تفضل به من كريم التشجيع وحسن التوجيه وكمال الاشراف على البحث منذ بدأته حتى قمت على طبعه ونشره ، وقد كان لهذا التشجيع والتوجيه والاشراف الفضل فى إتمام هذا البحث على النحو الذى تم عليه ، ويضاعف شكرى له ما أسبغه على الكتاب وصاحبه من شرف التقديم إلى جمهور القارئين . فأنا إذ أشكر له فضل الأستاذ على تلميذه إنما أؤدى بعض ما يجب له ، وأرجو أن أكون قد فعلت والسلام ؟

أحمد عزت عبد الكريم

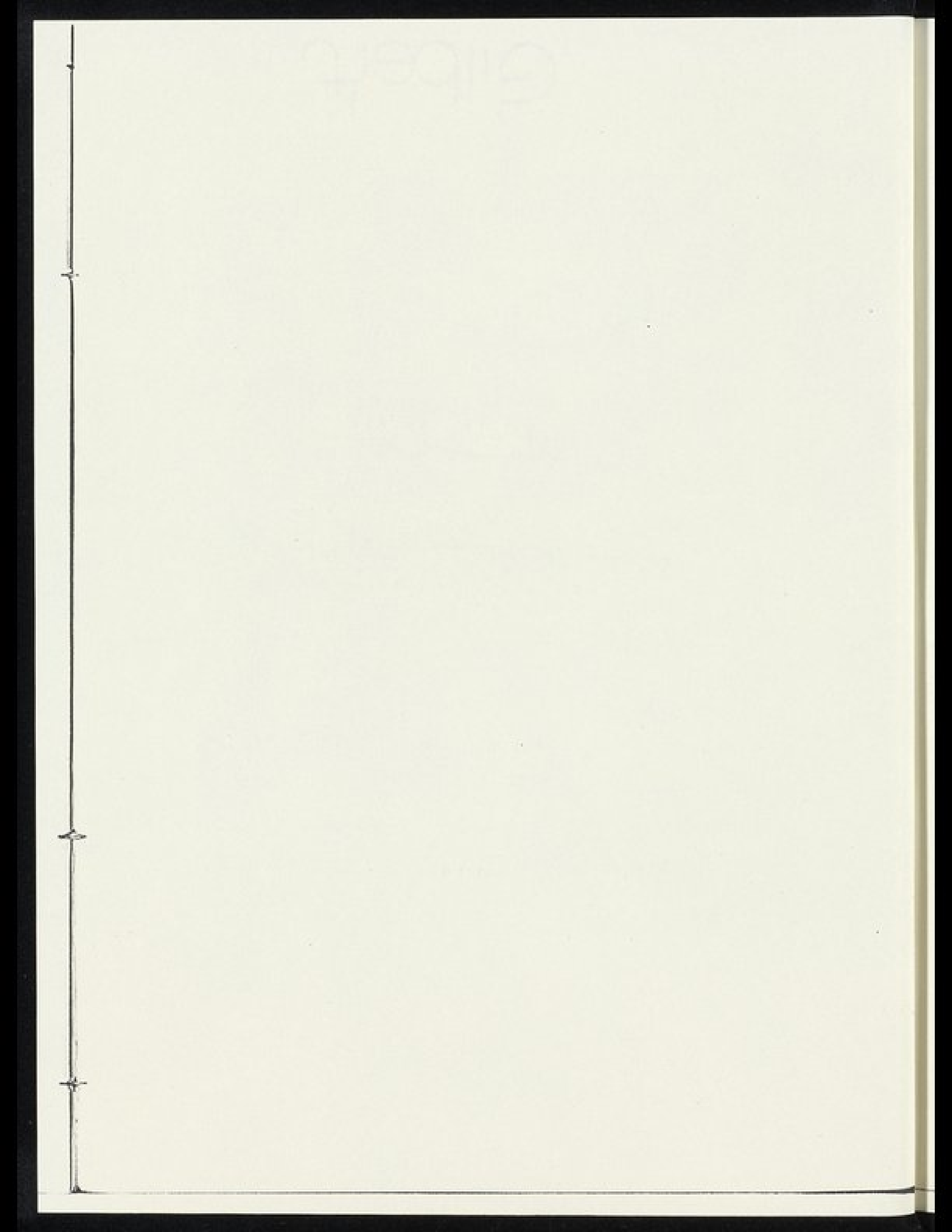
كلية الآداب

نوفمبر ١٩٣٨


بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب الأول

السياسة التعليمية بين عهدين



الفصل الأول

التعليم قبل محمد على

ألمعنا ، فى المقدمة ، إلى أنا نقصد « بالتعليم الحديث » النظام التعليمى الذى بدأه محمد على فى مصر فى النصف الأول من القرن الماضى ، وافتتح به المدارس وأرسل لتثبيته البعوث العلمية ، وبدأ به نهضة علمية شملت نواحى كثيرة غير المدارس والبعوث . ويطلق عليه « الحديث » لأنه يتميز عن التعليم الذى كان سائدا وحده فى مصر قبل عصر محمد على ، وهو التعليم الدينى فى الأزهر والمساجد والكتاتيب : يتميز بمناهجه ومواده « الحديثة » ، ونظمه ولوائحه « الحديثة » ، ومدرسيه « الحديثين » ، وبعبارة أخرى هو تعليم حديث لأنه اتجه بالتعليم وجهة أخرى تخالف الوجهة التى درج عليها التعليم القديم أو التعليم الدينى .

فعلينا قبل أن نبحث عن التعليم الحديث هذا : كيف نشأ فى مصر وثبت فيها ، وما هى الأسس التى قام عليها ، وهل تمت هذه الأسس بصلة ما إلى تطور تاريخ التعليم فى مصر أم كانت أسسا مستمدة من تجارب غيرنا ، علينا — قبل أن نبحث عن هذا كله — أن نلقى نظرة شاملة إلى التعليم الذى كان قائما بالبــــلاد قبل أن تعرف هذا النوع من التعليم الحديث . ويمكننا أن نلخص هذا التعليم فى كلمتين « تعليم الأزهر » . ولسنا نقصد أن التعليم كان منحصرا فى الأزهر فقط ، وإن كان الشطر الأكبر منه بل روحه ومقوماته تنبعث من هذا المسجد القديم ، إلا أننا نقصد أن روح التربية الدينية الأزهرية وتعاليم الأزهر التى استمدها مما مرّ به من تاريخ مصر فى عصريها الوسيط والحديث كانت تعم هذا العصر ، قبل محمد على ، وتصبغ التعليم بل التفكير

فى البلاد بصبغة خاصة . وحسبها أنها كانت تشرف على تربية الشباب فى مختلف أنحاء البلاد ، وأن كان الأزهر (بفروعه) فى المدن والقرى المعهد العلمى الوحيد الذى كانت تستق منه مصر ما تعدّ به أبناءها .

واستمرت هذه التربية وهذه التعاليم إلى عصر محمد على ، واستمرت « الفكرة » جامدة لم يمسّها المماليك أو الفرنسيون بتغييرات تمس جوهرها .

وليس غرضنا ، فى هذا الباب ، أن نشرح تاريخ الأزهر وما أصابه من التطور تفصيلا ، بل إنا سنقتصر على بيان العلوم التى كانت تدرس به وطرقه التعليمية وتأثير ذلك فى التربية والثقافة فى ذلك العصر .

١ — التعليم فى الأزهر

التعليم الدينى كان يرمى فى الشرق والغرب ، فى الاسلام والمسيحية على السواء ، إلى تهذيب روحانى ، أى إلى تربية دينية أخلاقية تعدّ الفرد لا لهذا العالم الذى يضطرب بأسباب الحياة والذى يعيش فيه هذا الفرد ، بل لعالم آخر لا يصل إليه إلا بعد أن تخلص روحه من أدرانها ، لم يكن هذا التعليم يهتم باعداد الفرد بما ينظم العلاقة بينه وبين أفراد المجتمع الذى يعيش فيه ، أو بما يكسبه قوة ومهارة فى معالجة أسباب المعاش ، بقدر ما كان يهتم بعلاقة الفرد بخالقه كما كانت تتصورها العقول فى العصور الوسطى .

وكان هذا التعليم يقوم فى أوروبا المسيحية فى المدارس اللاهوتية والأديرة ، كما كان يقوم فى الشرق الاسلامى فى المساجد والزوايا ، وكان يشرف على هذه المدارس والأديرة والمساجد طوائف مختلفة من رجال الدين ، احتكرت لنفسها تعليم أبناء الشعب عن طريق الإيمان التام بما يذكرونه لهم من أوامر الدين ونواهيه .

ومضى عصر الإيمان المطلق ، وأخذ المسلمون والمسيحيون يتعلمون دينهم

على ضوء ما كشفوه من آراء أرسطو ، فجلسوا يفكرون ويحاولون التوفيق بين دينهم وتفكيرهم أى بين الإيمان والعقل ، فقامت المدارس فى الشرق كما قامت الجامعات فى أوربا ، وإن كانت المدارس الإسلامية — ويمكننا أن نمثلها فى « الأزهر » — أقدم عهداً من الجامعات الأوربية .

بذلك بدأ التفكير ، وبدأت النزعة إلى التهذيب العقلى عن طريق العلم والمعرفة . وعرف كل ذلك فى أوربا باسم « الحركة المدرسية Scolasticisme» ولكن هذه الحركة الفكرية لم تلبث أن أصابها الجمود : فقد كانت مقدمات الفكر — سواء فى جامعات أوربا أو فى الأزهر — تستمد من الكتب المقدسة ، فليس لأحد فى نقدها أو نقاشها مجال . فانحصرت جهود المدرسيين فى التحليل والتخريج فى حدود السلطة الدينية ، فأصبح القياس المنطق هو عدتهم الكبرى فى الجدل والمناقشة ولم يكن للعقل أى حرية ولا للتفكير الصحيح أى مجال . بل أضحى المجال الكبير للشعوذة العقلية. فسادت «الشكلية» تفكيرهم وجمد الفكر أو « سار » فى مكانه .

فالتربية فى العصور الوسطى — فى الشرق والغرب ، فى الأزهر والجامعات الأوربية — كانت تربية دينية ترمى قبل كل شيء إلى تهذيب النفس والروح ورياضتهما ، وكانت خاضعة كل الخضوع للسلطة والتحكم ، وكانت قائمة على النقل لا العقل ، والتعليم فيها شكلى محض يعنى كل العناية بالألفاظ ويهمل الروح واللب .

ومضت العصور الوسطى فى أوربا بعد أن قضت على أكثر مقوماتها عوامل النهضة والاصلاح ، واضمحلت بذهابها التربية المدرسية بعد أن تغلبت عليها مبادىء التربية التى سادت فى عصر النهضة والعصور التى تلته أما فى مصر فقد استمرّت العصور الوسطى بما تحمل من مبادىء فى التربية والتعليم وغيرهما من فروع الحياة إلى القرن التاسع عشر ، الذى يمكننا أن

تتخذه بدءا لتاريخ مصر الحديث . وإن كانت آثار العصور الوسطى من التربية الدينية لم تزل تتمثل فى الأزهر والمعاهد الدينية والكتاتيب وبعض معاهد التعليم النظرى إلى وقتنا هذا .

ذلك لأن مبادىء « التربية الحديثة » فى الغرب لم تتكون إلا بعد جهاد وترق بطىء ، بعد حركات عدة تعتبر كلها ردّ فعل ضد تربية العصور الوسطى كحركات النهضة والإصلاح والتربية الانسانية ثم التربية المـــادية والتربية الطبيعية وما تلاها من التطورات الحديثة فى التربية . فتطور التربية الغربية كان طبيعياً وإن يكن بطيئا . أما مصر فلم تتدرج فيها حركات التربية والتعليم بل أبقى النظام التعليمى القديم ، نظام الأزهر ، وأقيم بجانبه نظام آخر لم تعرفه البلاد فى تطورها بل فرضته عليها الحكومة إذ ذاك فرضاً . فكانت التربية بذلك عملية صناعية تفرضها السلطة ويمليها التحكم ؛ كما أن تفكير العصور الوسطى لم يمح تمـاما ، بل ما زال متمثلا إلى حد بعيد فى كثير من أنظمتنا التعليمية القديمة والحديثة على السواء . مما سنعرض له فى الأبواب التـالية بتفصيل أوفى .

هذه إلمامة بالتعليم الدينى فى أوربا والشرق : رأينا منها وحدة الاتجاه العام . والآن نشرح منهاج الدراسة وطرق التعليم فى الأزهر وتوابعه من الكتاتيب .

كان « المسجد » مركز الحياة الاسلامية : فيه يقيم المسلمون صلواتهم ويعقدون مجالس قضائهم ، ومن فوق أعواد منبره يستمعون إلى الخطابة فى شئونهم العامة ، كما كانوا يودعون خزائنه نفائس كتبهم ومخطوطاتهم . وكانوا فوق ذلك يجعلون من رحابه مجالس للدرس والتعليم ، يجلس فيه المشايخ ويأتى من يود الاستماع إلى علمهم فيختلف إلى هذا أو ذاك ثم ينصرف غير مقيّد بنظم أو رقابة .

وبذلك كان مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط أول مدرسة دينية فى مصر ولم تكن تدرس بها حينذاك إلا علوم اللغة والدين من القرآن والحديث . ثم كان بعده مسجد أحمد بن طولون مركزا هاما لتلقى هذه العلوم التى كانت — وحدها — مقومات الفكر فى ذلك الوقت . حتى إذا ما فتح الفاطميون مصر وأسسوا بها القاهرة اتجهت رغبتهم إلى مؤسسة دينية تناضل عن مذهب الشيعة وتدعوا إليه ، كما تقوم بتدريس مايحتاج إليه المسلمون من علوم الدين والدنيا . فأنشىء الجامع الأزهر سنة ٣٥٩ ﻫ (٩٧٠ م) ، وتم للفاطميين غرضهم بعد ذلك بسنتين حين عيّن له العزيز بالله بن المعز لدين الله أساتذته الأولين . وكان منهاج الدراسة إذ ذاك لا يعدو اللغة العربية والدين والفقه .

وجاء الأيوبيون فأهملوا الأزهر ، مركز الدعوة الشيعية ، وأنشاوا المدارس تدعو لمذهبهم وإن لم تهمل دراسة المذاهب الأخرى . وأخذت مدارسهم تزاحم الازهر وتجتذب إليها كثيرين ممن كان الأزهر يزخر بهم ، وبلغ عددها زمن المقريزى خمسا وأربعين مدرسة ، ويقول ستانلى لينبول « إن عصر المدارس أو الكليات المصرية يبدأ منذ حكم صلاح الدين [١] » وكان الايوبيون ومن حذا حذوهم يتأنقون فى بنائها وزخرفتها ويجعلون فيها خزائن الكتب ، ويجمعون لها نفائس المخطوطات فى الحديث والفقه وغيرهما من العلوم ، ويقفون عليها الاوقاف ، ويعينون لها الأساتذة ينقطعون للعلم والدرس .

وتأثر الأزهر بهذه الحركة ، فبدأت به دراسة الفقه على المذاهب الأربعة وبعض العلوم « الحديثة » كالحساب والهندسة والفلك . ومنذ ذلك الوقت أصبح للأزهر أهمية كبيرة وشهرة ذائعة فى العالم الإسلامى أجمع ، وتكون

---

(١) Lane Poole, Hist. of Egypt in the Middle Ages. p. 188.

فى مصر وسط على راق يمد الطلاب بقسط وافر من علوم الحياة ويهىء لأساتذته العلماء فرصة الانقطاع إلى الدرس. فبلغ العلم بالأزهر شأواً بعيداً وأخذ نور الحق والإيمان ينبعث من رحابه ويشع فى مختلف البلاد الإسلامية يهديها إلى الحق والصراط المستقيم. وعرف رجال الإسلام فضل الأزهر فكانوا يحبسون عليه الأوقاف الكثيرة التى تدر الخير على كثير من طلابه وعلمائه، هذا إلى الشرف الذى يصيبه كل من انتسب إلى الأزهر سواء كان طالباً أو معلماً.

ولكن العناية أخذت تعوز الأزهر فى مستهل القرن السادس عشر، فأخذ الضعف يدب فى هذه الجامعة الكبيرة وقت الفتح العثمانى، «فتحجرت» دراسة اللغة والأدب بعد أن كانت موضع دراسة مستفيضة، وأصبحت دراسة الفقه والحديث جامدة تحفظ عن ظهر قلب وأخذت مظهراً شكلياً محضاً، وأصبحت قائمة على الحفظ والاستظهار، كالدراسة المدرسية فى أوربا فى العصور الوسطى، وزالت منه علوم الحياة على وجه التقريب إلا ضرباً من الحساب للحاجة إليه فى مسائل المواريث وبعضاً من مبادىء علم الهيئة لضبط المواقيت وتحديد مواعيد الصلاة وبعض نظريات الهندسة والفلك ونحو ذلك.

ويحلو لنا هنا أن نورد نقاشا بين وال تركى على مصر وأحد شيوخ الأزهر يدور حول تدريس الرياضيات بالأزهر: كان الوزير أحمد باشا كور المتولى على مصر سنة ١١٦١ هـ يميل إلى دراسة العلوم الرياضية، فلما استقر بمصر قابله كبار العلماء ومنهم الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الأزهر، فتكلم معهم فى الرياضيات، فقالوا: لا نعرف هذه العلوم فتعجب وسكت. وقال الباشا يوما لشيخ الأزهر: «المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم وكنت فى غاية الشوق إلى القدوم إليها فلما جئتها

وجدتها كما قيل ، تسمع بالمريدى خيرا من أن تراه » ، فقال له الشيخ « يا مولاى هى كما سمعتم معدن العلوم والمعارف » ، فقال « أين هى وأنتم أعظم علمائها وقد سألتكم عن بعض العلوم فلم تجيبونى وغاية تحصيلكم الفقه والوسائل ونبذتم المقاصد » ، فقال الشيخ : « نحن لسنا أعظم علمائها وإنما نحن المتصدرون لقضاء حوائجهم وأغلب أهل الأزهر لا يشتغلون بالرياضيات إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم المواريث كعلم الحساب والغبار » . فقال له « وعلم الوقت ذلك من العلوم الشرعية بل من شروط صحة العبادة كمعرفة دخول الوقت واستقبال القبلة ووقت الصوم وغير ذلك » ، فقال الشيخ « نعم لكنه من فروض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وهذه العلوم تحتاج إلى آلات وصناعات وأمور ذوقية كرقة الطبع وحسن الوضع والخط والرسم والتشكيل والأمور العطاردية وأهل الأزهر غالبهم فقراء وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق فيندر فيهم القابلية لذلك » ، فقال « وأين البعض » ، فقال : « موجودون فى بيوتهم » ، ثم أخبره عن الشيخ الجبرتى ، والد المؤرخ المعروف ، فاتصل به وسرّ منه[1]

منهاج الدراسة فى الأزهر

يمكن اعتبار الأزهر مدرسة عالية يختلف إليها التلاميذ وقد انتهوا من الدراسة الأوّلية ، ولم تكن هذه تتعدى حفظ القرآن الكريم والإلمام بقليل من القراءة والكتابة . يبدأ الشاب الازهرى فى تعلّم قواعد النحو ، وهو يحفظ أصولها (متونها) عن ظهر قلب ، ولتسهيل ذلك كتب بعض هـذه نظما . وهذه الطريقة — كتابة قواعد النحو والمنطق والفلسفة

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، ج ١ ص١٩٢

وعلم الكلام نظما — كانت مستعملة فى المدارس المسيحية فى أوربا فى العصور الوسطى واستمرت فى بعضها إلى القرن الثامن عشر . على أن الطالب — فى السنوات الأولى من التحاقه بالأزهر — لم يكن يتوفر على دراسة النحو دون غيره من العلوم الأخرى بل كان يضيف إليه بعضا من المنطق والبلاغة والعروض . تستمر هذه الدراسة سنتين أو ثلاث سنوات وبعدها يبدأ « المجاور » — إذا شاء — الدراسات العالية ، وتتألف من شرح الأحاديث وتفسير القران والفقه ، وتستغرق هذه الدراسة فى المتوسط من ثمان سنوات إلى عشر ، فاذا ما أتمَّ الشاب هذه الدراسة يمكن تسميته شيخا أو عالما . ولكن غالبية الطلبة كانوا يتركون الأزهر فى سن العاشرة أو الثانية عشرة ، إذ يكونون قد حذقوا القراءة والكتابة وتلقوا مبادىء الدين ليحترفوا حرفة يكسبون منها رزقهم . [١]

طريقة التعليم فى الأزهر

كان لكل أهل مذهب من المذاهب الأربعة عمد معينة داخل الأزهر لا يجلس للتدريس بجانبها غيرهم ، كما كان لكل شيخ من أهل المذهب عمود لا يتعداه . ويجلس الشيخ أمام العمود والطلبة من حوله كحلقة أو أمامه متفرقين ، وإذا كثر عددهم جلس على كرسى ليسمع بصوته المرتفع من بعد عنه ، وكان الأساتذة يتبعون فى الأزهر فى تلقين الدروس الطريقة الاملائية فكان الاستاذ يملى عليهم درسه إملاء . ولبث الحال على ذلك مدة من الزمن حتى كثر التدوين والتأليف ، فشرعوا فى دراسة الكتب وتفهّم أغراض المؤلفين منها مبالغين فى ذلك مبالغة أدّت إلى وضع شروح للمتون وحواش

---

(١) Yacoub Artin, L'instruction Publique en Egypte, p. 48.

للشروح وتقريرات للحواشي وزاد الاهتمام بها عن المتون ، أي أن العناية انصرفت إلى الشكل دون المادة .

وكان كثير من الطلبة يطالعون ، قبل حضورهم حلقة الدرس ، ما قد يصل إلى يدهم أو يقع تحت بصرهم مما يمتّ إلى درسهم بصلة ، وكانت العادة أيضاً أن أنجب الطلبة أو المعيد منهم يطالع لباقيهم درس شيخهم ، حتى يأتوا إلى الشيخ وهم مستعدون لما سيلقيه عليهم .

لم تكن الدراسة إذن دراسة موضوعات محدّدة في مناهج موضوعة ، بل كانت دراسة كتب لمدة دراسيه غير محدَّدة ، وكان الاعتماد كله على المدرس الشيخ لا على المنهج أو طريقه البحث . فأساس التعليم : « الشيخ والكتاب » وما زلنا نسمع كثيراً من أشياخ الماضي يقول : « قرأت على الشيخ الفلاني الكتاب الفلاني » ، ولا بأس بهذه الطريقة في الدرس ، إلا أنه كان ينصرف غالباً إلى مناقشات لفظيه وتخريج لكلام المؤلف الذي كان كثيراً ما تضيع معالمه وسط ما أحاطه من تأويلات وشروح .

وكان الطالب موكولا إلى نفسه ليس لأحد عليه رقابة في الحضور أو الغياب ، في الاجتهاد أو التكاسل ، وكان لا يخضع لامتحان ما عقب انتهاء دراسته ، فاذا ما أراد أن ينقلب إلى أهله طلب من شيخه الذي درس عليه « إجازة » تتضمن الشهادة له « كمجاور » بالأزهر بالتحصيل والمهارة في الفنون والأهلية للتدريس والافتاء ، ولم يكن الشيخ لينسى أن يوصى تلميذه في « اجازته » بالتقوى والتحرّي في الأحكام [١]

ألسنا نجد في هذه الحرية المطلقة التي كان يتمتع بها أزهريو العهد الماضي بعضاً من نظم الجامعات الحديثة في سياسة طلبتها سياسة تقوم على الحرية

---

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية . م ١ . ج ٤ . ص ٢٩
، بيرم بك : تاريخ الأزهر . ص ٤٢

والمسئولية الفردية وتعدهم لحياة الرجال التى تنتظرهم ؟ ولا تنس أن رجال الأزهر الأعلام فى هذا القرن وفى القرن الماضى قد تخرجوا على هذه الطريقة ، إذ لا شك فى أن هذه الحرية تظهر النفوس القوية والشخصيات الكامنة .

هيئة التدريس بالأزهر

رأيت أنه لم يكن للأزهر قانون يقيد الدراسة فيه بنظام معين ، بل كان أساس ذلك رغبة طالب العلم نفسه . فهو الذى يختار دروسه ويختار أستاذه ويبقى فى الأزهر ما شاء له أن يبقى ، إلى أن يأنس فى نفسه الكفاية فيتقدم بإذن من شيخه إلى حلقة درس يحضرها بعض الطلاب والأقران فيقرأ لهم ويناقشهم ويناقشوه ، فإن فهموا وأفادوا منه أقبلوا عليه وازدحم درسه وكان ذلك بمثابة شهادة بأنه صار من العلماء ، وإن كان العكس انصرف هو إلى الإصلاح من شأنه وتكميل نقصه وترقية معلوماته . ويقول على باشا مبارك فى وصف حفل تنصيب الشيخ الشاب « . . . وهو يتأنق فى الابتداء ويسلك فيه طريق الإغراب والتوغل وبعض الحاضرين يتعصب عليه ويتعنت والبعض ينتصر له وإذا تعلثم فى إجابة سائل ربما أقاموه ومنعوه من التصدر وإن عاند ربما ضربوه ، ثم تساهلوا فى ذلك حتى صار من يتصدر لا يكاد يتعرض له أحد حتى كثر المتصدرون وصار فيهم من لا أهلية فيه »[1] .

على هذا النحو تكونت هيئة التدريس بالأزهر ، وكان يرأسها شيخ للأزهر وهو « الإمام الأكبر لجميع رجال الدين فى مصر والمشرف الأعلى على السيرة الشخصية الملائمة لشرف العلم والدين بالنسبة لأهل العلم وحملة القرآن الشريف سواء كانوا منتسبين إلى الجامع الأزهر أو المعاهد الدينية أو الأقسام العامة أو غير منتسبين اليها » . وكان ولىّ الأمر هو صاحب

---

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية . م ١ . ج ٤ . ص ٢٦

الشأن الأوحد فى تعيين شيخ الجامع ، كلما خلا مكانه يختاره ممن اشتهر بين كبار أهله بالعلم والدين والتقوى ويتعهده بالرعاية والعطف وإنفاذ الكلمة .

واستمرت الحال على ذلك ، فلا قوانين مقررة ولا لوائح موضوعة . حتى صدر أول قانون للأزهر فى عهد الخديوى اسماعيل ، فى ٢٣ ذى القعدة سنة ١٢٨٨ هـ (٣ فبراير سنة ١٨٧٢ م) وأهم ما فيه إنشاء شهادة « العالمية » ثم توالت القوانين واللوائح .

٢ — التعليم فى الكتاتيب

وكما أن الأزهر يمكن اعتباره موطنا للدراسة الدينية العالية ، كذلك يمكن اعتبار « الكتاتيب » موطنا للدراسة الدينية الأولية ، وكما ظل التعليم بالأزهر حرا لا يخضع لنظم أو قوانين كذلك ظل التعليم فى « الكتاتيب » حرا مطلقا . وكان بدء وجودها أنه إذا ما مست الحاجة فى جهة ما — سواء فى المدن أو القرى — إلى « كُتَّاب » يقوم فقيه ، درس بالأزهر زمنا ما أو كان « عريفا » لفقيه ما ، ويجمع حوله بعض الأطفال ويبدأ بهم « مدرسته » وكثيراً ما كانت تقوم فى أفنية المساجد أو الزوايا وخاصة فى القرى أو فى بيوت أصحابها . ولا يشترط فى الفقيه إلا أن يكون حافظا للقرآن ، إذ أن الغرض الأساسى « للكُتَّاب » هو تحفيظ أطفاله القرآن ، وليست القراءة والكتابة إلا وسيلتين تساعدان على حفظه ، وربما ابتدأ الناشئ بحفظ سور من القرآن قبل إلمامه بالقراءة والكتابة . أما مبادئ الحساب فقد يتعلمها إن شاء عند « قبانى » القرية أو من أحد أصحاب حوانيتها .

« فالكُتَّاب » كان — ولا يزال إلى حد كبير — صورة مصغرة من الأزهر ، وقد كان على أى حال المدرسة الوحيدة التى تعد تلامذتها للالتحاق بالأزهر .

طريقة التعليم بالمكاتب

مما يساعد الباحث على أن يتعرف حالة هذه المكاتب منذ بدء نشأتها أن البعض منها ، وهو الذى لم تمتد اليه يد الإصلاح ، لا يزال يحيا بين ظهرانينا . فطريقة التعليم بالمكتب أن يكلف الفقيه كل طفل بعمل ما : فهذا يحفظ (الماضى) وذاك يكتب فى لوحه وثالث يعمل غير ذلك وهكذا . حتى إذا ما أتم كل عمله توجه للفقيه يسمعه ما حفظ أو يعرض عليه ما كتب ثم يكلفه الفقيه بعمل آخر ، وهكذا يعطى كل طفل قسطه بدوره . فترى «الفصل» مظهرا لنشاط دائم : فهذا الطفل يقبل ثم يدبر ، وذاك يقرأ بصوت مرتفع ، وآخر يكتب فى لوحه ، والفقيه ، — ويساعده أحيانا العريف — يستمع إلى التلاميذ الذين يقرأون فيصلح لهم أخطاءهم مع انهماكه فى الوقت نفسه بإملاء الطفل الجالس بجانبه أو بالاستماع إلى (ماضيه) .

وهذه لا شك طريقة حسنة فى التعليم ، لا يخرج عنها كثيرا مبدأ التعليم الفردى الذى تنادى به التربية الحديثة الآن ، ذلك المبدأ الذى يبث فى التعليم روحا من المرونة يلائم قدرات الطفل وميوله . وما كان أحرانا نحن أن نتبع هذه الطريقة ثم نلائم بينها وبين ما يقتضيه العصر من إصلاح لولا أنا درجنا على أخذ تقاليدنا عن أوربا بعد أن تصبغها هذه بصبغتها العلمية الحديثة .

غير أن هذه الطريقة المثلى فى التعليم قد شوهها الحفظ والاستظهار وإهمال التهذيب العقلى للناشىء ، فكانت نتيجة ذلك « أنه لم ينبت شىء مما بذر وإن نبت فانه لم ينضج » و « كلما كبر الولد نسى القراءة والكتابة لأنه قلما تسنح له فرصة لدوام المران عليهما ولانهما كانتا مرتبطتين أكبر ارتباط بتعليم القرآن »[1] .

---

(١) Dor Bey, L'Instruction Publique en Egypte. pp. 109-110.

هذه هى « الكتاتيب » — إلى عصر محمد على — كما كانت منذ نشأتها ، أصابها ما أصاب التعليم كله فى مصر من روح الجمود . ولو أنها تابعت الزمن فى تطوره فعلّمت طرفا من مبادىء العلوم الحديثة ، واعتنى بإعداد مدرسيها وبوعد بينها وبين الحفظ والاستظهار مع احتفاظها بطريقتها التعليمية القائمة على الفردية ، لكان لنا الآن تعليم أولى صالح يتفق وحاجة البلد ولا يخجل أن يواجه طرائق التربية الحديثة .

وجاءت حكومة محمد على ، وكانت تدفعها أغراض عاجلة ملحة رأت معها أن هذه المكاتب على حالتها تلك لا تستجيب لهـــا فى تحقيق هذه الأغراض ، ولهـــذا لم تأبه لتحويلها إلى مدارس تسير فى تعليمها على النظام الحديث ، بل أهملتها وأنشأت بجانبها مدارس على النسق الأوربى . أما هذه المكاتب فلم تأبه إذ ذاك لهذه النزعة الحديثة فى التعليم ، وآثرت — كما فعل الأزهر — أن تسير فى طريقها الذى درجت عليـه وجمدت أمام التطور . وما زال هذا التطور يعمل معاوله منذ قرن فى هذا البناء القائم على الثقافة الدينية منذ قرون ، فتارة يلين ويخضع ويطأطىء الرأس أمام سيل التعليم « الحديث » الجارف ، وآونة يقاوم جهد المستميت . والزمن كفيل بأن يقول كلمته فى النهاية .

٣ — مظاهر الثقافة فى ذلك العصر

كان الأزهر ، على نحو ما رأينا ، الموطن الوحيد للحياة العلميـة فى مصر فى قرون عدة ، وكانت روحه تعمّ نواحى الحياة المصرية ، وكان طابعه قويا صبغ التفكير والثقافه فى البلاد بصبغة خاصة تناسب التقاليد التى كانت سائدة فى التعليم الدينى فى ذلك الوقت ، فقد كان — فى حاضرة البلاد — الجامعة الرئيسية التى يتلقى فيها الشباب الثقافة الدينية العالية ، أما فى المدن

فقد كان كثير من أغنيائها يؤسسون فى مساجدها « مدارس » على مثال الأزهر ، يجلبون لها أساتذة تخرجوا فى الأزهر يدرسون لمن لم تمكنهم ظروف الحياة من النزوح إلى القاهرة طلبا للعلم ، أما فى القرى فقد كانت « الكتاتيب » تعدّ فتيتها إما لدخول الأزهر وإما لثقافة دينية قاصرة لا تتعدى حفظ القرآن الكريم وما يعاون فى ذلك من قراءة وكتابة ، وكان يقوم على شأنها فقهاء أنفقوا بالأزهر شطرا من حياتهم أو تلقوا العلم على متخرج فيه .

هذا إلى أن الأغنياء من الناس كانوا إذا برموا بإرسال أبنائهم إلى هذه « المدارس » أو « الكتاتيب » يخالطون فيها أبناء العامة يجلبون لهم الفقهاء من أهل الأزهر أو غيره من المساجد ليقوموا على تربية أبنائهم ومن ملكت أيمانهم وأخذهم بهذه الثقافة الدينية . هذا إلى « نفوذ اجتماعى » لا بأس به يتمتع به الفقيه الشيخ يمكّنه من أن يكون له صوت مسموع فى البيت وأهله . وهكذا كان التعليم كله فى البلاد مستمدًّا من الأزهر .

وقد كان للأزهر من قدمه وعلو شأنه بين الأقطار الإسلامية وقيامه على حفظ ثقافة الإسلام الدينية قرونا طويلة وما اشتهر عن علمائه من الزهد فى طلب الدنيا والانقطاع إلى العلم والدين ما ساعده على أن يثبت خلال العواصف التى طالما عصفت بتاريخ مصر ، حتى كان له وحده الفضل فى صيانة العلم فى هذه البلاد .

وظل الأزهر الينبوع الذى تنهل منه الثقافة فى مصر ، ثم كان بعد منهلا انتهلت منه المدارس الحديثة فى نشأتها .

على أنا إذا دقّقنا النظر نرى أن ثقافة الأزهر كانت قاصرة عن أن تجذب نحوها جمهرة الأمة المصرية : فقد كان المترددون منها على الأزهر قليلى العدد بالنسبة لمجموع الامة ، بل قلّ منهم من كان يواصل الدرس فيه إلى نهايته ، فقد

كان طول الشقة يجهدهم فينزعون قبل إكمالها إلى الخروج إلى حلبة الحيـــاة ينقّبون فيها عن أسباب الكسب والعمل . على أنا إذا تتبعنا أولئك الذين لم تفتنهم لذة الحياة عن طلب التفقة فى الدين والغوص فى أعماقه ، أو كان لهم من رخاء العيش مندوحة عن التعجل فى طلب الرزق ، فانا نراهم يؤثرون البقاء فى الأزهر يدرسون فيه ما درسوا من قبل ، وبذلك يبخلون بعلمهم على جمهرة أهلهم وعشيرتهم . وإن كان قد تم لهم ما يصبون إليه من الزهد عن طلب الدنيا والانقطاع إلى العلم .

هذا إلى أن منهاج الدراسة بالأزهر كان خلوا من علوم الدنيا . تلك العلوم التى تفيد صاحبها فى زراعة أو صناعة أو تجارة أو فى غيرها من وسائل الحياة ، وكانت العناية فيه منصرفة إلى تحقيقات لفظية ليس لعامّة الشعب فيها غناء ، ولهذا لا نعدو الحق إذا قلنا إن رسالة الأزهر إذ ذاك فى نواحى العلم والبحث كانت تخريج فئة منفصلة عن المجتمع ، وسواء أكانت هذه الفئة ممتازة بعقليتها أم لم تكن فالثابت أنه لم يكن لها كبير حظ فى تثقيف هذا المجتمع ، ذلك لأن الاتصال لم يكن وثيقا بين العلم الذى يلقى فى الأزهر وما إليه وبين سواد الناس ، بل كانت هناك هوة تباعد بين الفريقين ، وما كانت الثقـافة النابعة من جوانب الأزهر لتلقى صداها فى نفوس أولئك الذين أنشئت بينهم هذه الجامعة الدينية لتكون لهم مصدرا للهدى والعلم .

أما « الكتاتيب » فلم يكن حظها فى نشر الثقافة بين المصريين بأجدى من حظ الأزهر : فالتعليم فيها بسيط لا يساعد الآخذين به على إجادة التفكير ، أو يبعث فيهم شوقا وحنينا إلى مواصلة العلم أو استخدام ما تعلموه فى تحسين حالهم من الوجهة العقلية أو الاجتماعية أو المادية ، بل إن كثيرا منهم كانوا سرعان ما ينسون القراءة والكتابة بعد إهمال المران عليهما .

وهكذا يمكن القول بأن التعليم الديني في مصر في مستهل القرن التاسع عشر – من الوجهات التي ذكرنا – عجز عن أن يكون مصدرا فعالا من مصادر التثقيف في هذه البلاد التي لم تعرف غيره قرونا طوالا .

على أننا يجب ألا نغفل ناحية أخرى من نواحي التثقيف الشعبي في مصر كان لها أثرها : فقد كان – وما زال – كثير من علماء الدين يختلفون إلى المساجد في القاهرة وفي كثير من المدن والقرى ، وكان العامة ومن إليهم ، إذا مافرغوا من صلاتهم ، يجلسون إليهم في لذة وشغف ويقبلون على شيوخهم في حسن استماع وأدب ، وكان هؤلاء العلماء يفقهونهم في أوليات فرائض دينهم ، ويلقون إليهم بطرف من تفسير القرآن والحديث ، أو يبسطون لهم ما قد يشكل عليهم فهمه من دقائق المعاملات الدينية ، أو يقصون عليهم من رائع القصص الديني ما ينزع بنفوسهم إلى الخير وينأى بها عن مواطن الزيغ، ولا شك في أنه قد كان لهذا كله أثره في إثارة اهتمام الناس – وخاصة في القرى – بهذا الضرب من التعليم الديني اهتماما يختلف شدة وضعفا باختلاف ظروف هؤلاء الناس المادية والاجتماعية . ولذلك ، ومن هذه الناحية ، يمكن أن يقال إن التعليم الديني في مصر كان له أثره في تثقيف المصريين .

٤ – بدء التجديد

١ – تربية المماليك

ذكرنا أن التعليم في الأزهر ظل جامدا إلى عصر محمد علي بل إلى مابعده ، لم يوقظه من سباته ما مر بالبلاد من الأحداث والفتن . فلم يكترث للمعارك الدامية التي نشأت عن تطاحن السلطات على الحكم في مصر إلا بقدر ما تجره الدسائس السياسية على بعض مشايخه من الغنم المادي والأدبي . أما فيما سوى ذلك فقد « تابعت القافلة سيرها » ، ولم تؤثر عليها تربية طارئة : هي تربية

المماليك . ولا عجب فتقاليد الأزهر الدينية قد استمدت كيانها منذ أجيال وتغلغلت فى صميم المجتمع المصرى : حضره وريفه . بينما اقتصرت تربية المماليك على رهط أجنبى عن البـلاد ظل إلى أن اختفى من مسرح التاريخ يأنف الاختلاط بالمصريين ويرى أنهم دونه ، وعلى ذلك ظلت « ثقافتهم » بمعزل عن ثقافة سواد الأمة المصرية .

كان كبار الأمراء يشترون الغلمان من المماليك ليكونوا عدة لهم ، وكانوا يعلمونهم ويربونهم فى قصورهم أولا ثم يطلقونهم فى ميادين السباق والبراز والحرب ، أى أن تربية المماليك كانت تتميز بالتعليم الحربى مع قليل من التعليم المدنى ، فكانوا كما يقول سير وليم موير : « يربون فى مدارس الحرب ومعاهد السلم ، وكانوا فى حداثة سنهم يبنغون أحياناً فى الفلسفة والفقه والعلوم وفى الفروسية واستعمال الأسلحة فيصيرون جديرين بالوظائف السلمية وولاية الأمور » (١)

ولكن ذلك لم يدم طويلا : وأكبر الظن أن تطاحن أحزابهم على حكم البلاد وانهماكهم فى تكثير أعوانهم وأخذهم بالمران الحربى صرف كبار أمراء المماليك عن أخذ غلمانهم « بالفلسفة والفقه والحرب » ، وإن بقيت لهم عدة الحرب وعتادها ، فبرعوا فى ركوب الخيل والضرب بالسيف والنار ، كما أنهم لم ينسوا أيضاً أن يتعلموا القراءة والكتابة . ألسنا نجد أكبر الشبه بين تربية المملوك فى مصر وتربية الفارس فى أوربا فى العصور الوسطى ، حين كان عدد كبير من أفراد الطبقة العليا يرسل إلى قصور اللوردات حيث يمرن على الواجبات المتعلقة بالفروسية حتى يصبح بعد فارساً ؟

وكما كانت تربية الفارس تربية علمانية (أى غير دينية) اعتبرت ردّ فعل

---

(١) سير وليم موير : تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ترجمة الأستاذين عابدين وسليم حسن ص ١٨٨

ضد التعليم الديني في أوربا ، كذلك يمكننا أن نعتبر تربية المماليك ردّ فعل ضد التعليم الديني في مصر ، ولكنه ردّ فعل ضعيف ، فقد كانت الحاجة ماسة إلى حركة عامة ، إلى ثورة عنيفة في التربية والتعليم ، لتوقظ الأزهر والتعليم الديني كله . وجاءت هذه الثورة على يد محمد علي . وإن كانت قد سلكت طريقاً آخر آثرت به البناء على الهدم ، فترك التعليم الديني وشأنه ، وأقيمت بجانبه مدارس للتعليم على النظام الغربي . وسار النوعان من التعليم جنباً إلى جنب .

ب — الحملة الفرنسية وأثرها الفكري

وبينما الشعب المصري منصرف إلى حياته اليومية ، تارك أمور الحكم والسياسة تتنازعها أحزاب المماليك . لا يعنى بسير الحوادث إلا حين تمسّ مصالحه المباشرة بسوء ، فيلجأ حينئذ إلى « زعمائه » من أشـــياخ الأزهر ، فيلجأ هؤلاء بدورهم تارة إلى الشدة والالحاح في الطلب ، وتارة إلى اللين المشوب بالدهاء والكيد ، بينما البلاد على هذه الحال إذ بها تستيقظ على أصوات مدافع الفرنسيين وزحفهم على العاصمة ثم استيلائهم عليها .

وكان هبوط الفرنسيين مصر أوّل غزوة عرفتها البلاد في تاريخها الحديث ، وكان الفرنسيون أوّل الأجانب الذين عرفهم أهل البلاد ، لا الأجانب الذين عرفوهم تجارا يتزيّون بزيّهم ويتكلمون العربية المشوبة باللكنة الأعجمية ، بل الأجانب المسلحين الذين اغتصبوا حكم البلاد وانبثوا في طول مصر وعرضها يتكلمون لغة أجنبية ، ويعلنون الى الناس أقوالا لاشك تدعوهم الى قدر كبير من التفكير : كخصومتهم مع المماليك أعداء المـــلة الإسلامية ، وصداقتهم للسلطان العثماني ، وكمثل ما ذكروه عن البابا وفرسان القديس وتلك المساواة بين البشر إلا فيما ميّز العلم والعقل (١) .

ليس من شك في أن المصريين قد فكروا في هذا كله ، بل وفكروا

---

(١) انظر منشور بونابرت الى المصريين في تاريخ الجبرتي : ج ٣ ص ٤ .

فوق ذلك فى قهر المماليك : كيف تمّ وكيف تمكن منهم الفرنسيون ، وليس من شك أيضاً فى أن المصريين قد اتجهوا بتفكيرهم إلى البلاد التى جاء منها أولئك الفاتحون وبم ميّزهم الله عن غيرهم وتساءلوا عن سر انتصارهم .

أمّا سواد الشعب فقد أعياه التساؤل فانصرف الى عمله . أما خاصته فقد كان للبعض منهم من « إخلاصهم » دافع ليهجروا البلاد أو ليقبعوا فى عقر دورهم أو ليقفوا على الأكثر موقف المعارضة الهيّنة الليّنة حيناً ، العنيفة حيناً آخر . وتربصت غالبيتهم ليصيبوا من وراء الفتن مغنماً .

وظل الفرنسيون يحكمون البلاد نحو ثلاث سنين ، تحقق الشعب خلالها أن هؤلاء المغيرين يخالفونه فى الدين ، ويخالفونه فى اللغة ، ويخالفونه فى الحياة الاجتماعية التى يحيا : رآهم يقيمون المراقص العامة ، ورأى لهم طرائق فى معاملة النساء لم يعهدها ، ورآهم يحتّمون عليه أموراً لم يألفها ، فاعتقد أن ذلك تدخل منهم فيما لا يعنيهم : كدفن الموتى خارج المدن ورشّ الشوارع بالماء وتعليق الفوانيس ، ورآهم يقومون بأعمال رابته وأقلقت باله كهدم أبواب الحارات وما شاكل ذلك . ومن ثمّ تهيأت الأسباب لينفجر الشعور الدينى عند المصريين فى ثورة جامحة فى القاهرة وكثير من مدن الاقاليم ، لم يلبث الفرنسيون أن تغلبوا عليها . وأخيراً تمّ « الانفصال » بين الفريقين لما دخل الفرنسيون الأزهر — موطن احترامهم ومهبط إيمانهم — بخيولهم وعاثوا فيه فساداً ، وعندها تحقق المصريون أن هؤلاء المغيرين شعب آخر من طراز آخر غير المماليك أو العثمانيين ، وتاقوا إلى التخلص منهم وإن لم يفكروا جدّياً فى الوسائل المؤدّية إلى ذلك .

ولا تنس أن للفرنسيين ناحية أخرى إيجابية كان لها من التاثير نصيب كبير فى بعث التفكير فى بحث مصر بحثاً علمياً مستفيضاً ، هذه الناحية هى بحوث العلماء الفرنسيين الذين رافقوا حملة بونابرت على مصر : أولئك الذين

وقفوا أنفسهم على خدمة العلم فى بلد لم يكن فيه من وسائل الدراسة العلمية شىء، وفى ظروف حربية كثيراً ما عرّضتهم لأخطارها، أولئك الذين سموا بالعلم فوق حزازات البشر وأحقادهم وأثبتوا أن العلم لا وطن ولا دين له. فبينما جنود الفرنسيين وقوادهم يخمدون الفتن ويجوبون البلاد للإرهاب والقمع، إذ بهؤلاء العلماء يفحصون الآثار والدمن، فيقيسون أطوال المعابد القديمة وعروضها، وينقلون ما حفر عليها من نقوش، ويرسمون لها صوراً مكبرة، أو ينكبّون على تربة البلاد يفحصونها أو ماء النيل يحللونه أو حيوانات البلاد وطيورها يتقصون حياتها وهجراتها، أو ينكبّون على دراسة تاريخ مصر فى مختلف عصورها، أو يصدرون الصحف ويترجمون النشرات ومحاضر الديوان، أو ينشئون مكتبة جامعة يختلفون إليها فى أوقات فراغهم ويختلف إليها معهم محبو الاطلاع والبحث، أو يؤسسون مطبعة تقوم بطبع قرارات رياستهم العامة وبعض الكتب الأوّلية فى اللغات العربية والغربية، أو ينظمون أقسام المجمع العلمى، أو بعبارة أخرى يبدءون عملا كان من سوء حظ العلم أنه أوقف، وإن لم نحرم منه فى «وصف مصر».

ولكن ألم يكن لذلك كله من أثر فى عقلية المصريين؟

كان سواد الشعب يرى هؤلاء العلماء يجوبون القرى والمدن يفحصون ويدققون، كان يشاهدهم يفحصون الأرض والماء، والطير والهواء، فلا يكترث لهم. أما خاصة الشعب فكانوا يدهشون لأعمالهم هذه، ويحاولون تفسيرها، فيرجعون إلى علمهم الذى تلقوه بين جدران الأزهر، ولكنه لا يسعفهم بالحلول المعقولة، فيصمت البعض منهم عجزاً ويقرنها البعض الآخر بأعمال الجن والشياطين. وفريق ثالث — قليل عدده — كان يعتقد بقصور العلم الذى تعلّمه عن إدراك هذه الظواهر العلمية الغريبة. ومن ذلك يمكننا أن نتعرف إلى أى مدى أثّرت الحملة الفرنسية — من جميع الوجهات

التي ذكرنا — في عقلية المصريين وثقافتهم . وبعبارة أخرى هل نجحت الحملة الفرنسية في توجيه المصريين وجهة أخرى : نحو تفكير حديث وثقافة حديثة ؟

الواقع أن قصر عهد الاحتلال الفرنسي لمصر وما لابسه منذ بدئه إلى نهايته من الظروف الحربية القاسية التي عاقت الفرنسيين عن أن ينهضوا بكثير من مشروعاتهم كأفراد أمة حديثة ما زالت مبادئ الثورة تهيمن على تفكيرها ، والتي أقامت حاجزاً من عدم الثقة وسوء النية منعهم من أن يؤثروا التأثير الذي أرادوا عن طريق الاختلاط بأهل البلاد ، كل أولئك كان كافياً لأن يجعل تأثير الفرنسيين الفكري ضيقاً وفي مجال جدّ محدود .

وفي الحق أن سواد المصريين نظروا إلى احتلال الفرنسيين القصير لبلادهم كحلم فظيع ، سرى بهم وتخلصوا الآن من محنته . وانصرفوا عائدين إلى حياتهم اليومية وأعمالهم العادية ، يزمعون أن يفكروا كما اعتادوا أن يفكروا ، وأن ينظروا إلى الحياة كما اعتادوا أن ينظروا . . . ولكن أنّى لهم ذلك وقد سرت فيهم روح الجدة والانتقاض بعض الشيء على قديمهم وما كانوا يعتبرونه من مستلزمات التفكير الديني ، فلم يعودوا يقنعون بحالهم التي كانوا عليها ولا بالدور الذي ظلوا قروناً يلعبونه على مسرح الحوادث في مصر : دور المتفرج ، بل لقد جاوزوه فعلا إلى الاشتراك في مجرى الحوادث .

ذلك لأن الفرنسيين لم ينجحوا في مصر في شيء أكثر من نجاحهم في إضعاف قوة المماليك وقوة العثمانيين على السواء وإعداد الطريق لظهور قوة جديدة أخذت تعنى بسير الحوادث وترى لها فيها رأياً : هذه القوة الجديدة هي الشعب المصري . ولو قد وفّق هذا الشعب إذ ذاك لزعيم يحس بإحساسه ويشعر بشعوره ، ويمكنه أن يعبّر عما يجيش فيه من الآلام والآمال ، على أن

يكون من طراز آخر غير «السيد عمر مكرم» أو «المعلم يعقوب» لربما تغيّر تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر .

على أن التأثير الفكرى للحملة الفرنسية يتضح أكثر من ذلك فى طائفة كانت بيئتها الخاصة تمهد لهذا التأثير : «كالجبرتى» المؤرخ و«حسن العطار» الأديب و«شهاب الدين» الشاعر . وطائفة أخرى نشأت فى كنف الفرنسيين ورعايتهم «كإلياس بقطر» القبطى و«نقولا الترك» السورى المولد والنشأة و«المعلم يعقوب» الزعيم القبطى المعروف .

وهانحن نترجم لبعضهم باختصار ممن نرى أنهم يمثلون النزعة الفكرية الحديثة التى ابتعثتها الحملة الفرنسية .

أما الأول : «الشيخ عبد الرحمن الجبرتى» فقد نشأ فى بيئة علمية : فدرس — كغيره — علوم الأزهر ، إلا أنه أخذ عن أبيه بعضاً من أصول الفلك والرياضة . فلما جاء الفرنسيون مصر كان قد نضج عقله فاختاروه فى الديوان الذى أنشأوه لمعاونتهم فى حكم البلاد ، فكثر اتصاله بهم وسماعه لأحاديثهم وآرائهم ، ولما كان شيخنا الجبرتى مؤرخاً يعلم قيمة الكتب فقد كان يتردد على مكتبتهم ، ويزور معاملهم ، ويعجب بمـــا يجرونه أمامه من العمليات الكيميائية .(١)

كل أولئك ، مضافاً اليه تمرسه بالاشتراك فى أعباء الحكم والسياسة ، قد صقل من قلمه . فكانت كتابته فى تاريخه بعد الحملة أدقّ وأكثر نقداً لسير الحوادث ورجالها مما كانت عليه قبل الحملة ، ويقال إن قلمه الناقد هذا قد أودى به فى حكم محمد على .

أما «الشيخ حسن العطار» فقد نشأ أيضاً فى بيئة علمية قد تشبه تلك التى نشأ فيها معاصره «الجبرتى» . حدّثنا على باشا مبارك عنه قال : «جدّ الشيخ

(١) الجبرتى : ج ٣ . ص ٥٣

فى التحصيل حتى بلغ من العلوم فى زمن قليل مبلغا تميّز به واستحق التصدى للتدريس . لكنه مال إلى الاستكمال واشتغل بغرائب الفنون والتقاط فوائدها ، ويقصد صاحب الخطط التوفيقية بغرائب الفنون العلوم التى لم تكن تدرس بالأزهر : كالطب والفلك والرياضة . وقد وضع الشيخ فيها عدة رسائل ، وبان الاهتمام بها فى شعره . فلما جاء الفرنسيون فرّ فى بادىء الأمر ثم عاد » . . . واتصل بناس من الفرنساوية فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة فى بلادهم ويفيدهم اللغة العربية ويقول إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها . ويتعجب بما وصلت اليه تلك الأمة من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة » [1]

وكان أن عاش « العطار » ليشهد كشيخ للأزهر تحقق نبوءته فى عهد محمد على .

أما « المعلم يعقوب » فقد اتجه تفكيره الى وجهة عملية خالف بها « زميليه » اللذين لم يتجاوزا فى تفكيرهما حدود التمنى والانتظار . أما يعقوب فقد رأى فى الاحتلال الفرنسى « بدء حياة جديدة لمصر والمصريين مهدت لها الحملة الفرنسية » [2] ، ومن ثمّ أخذ يمهد السبيل لهذه الحياة الجديدة . وكان يرى الاعتماد على القوة الحربية المدرّبة ، فكوّن الفرقة القبطية وخرج بها الى صفوف الفرنسيين يقاتل معهم ويعاون على تثبيت أقدامهم . وبذلك شاركهم يعقوب حياتهم فى السلم وفى الحرب واستمع الى أحاديثهم وآرائهم فى النظم والتواريخ . ولا شك فى أنه قد كان لهذا كله أثره فى إثارة شتى الأفكار فى

---

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ، م ١ . ج ٤ . س ٣٨

(٢) الاستاذ شفيق غربال : الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر سنة ١٨٠١ ، ص ١٦

نفسه ، وأخصّها كان يدور حول التمهيد لمستقبل البلاد السياسى ، وقد عوّل يعقوب على أن تكون القوة الحربية المصريه الجديدة مدرّبة على النظم الغربية «فكان سبّاقاً الى تفهم الدرس الذى ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك أو قل الى إدراك ما أدركه محمد على بعد قليل من أن سر انتصار الغربيين فى جودة نظمهم وبخاصة نظمهم العسكرية ، فسرق البرق من الآلهة وكان له ما كان » . (١)

وبعد رحيـــل الفرنسيين هاجر « يعقوب » الى أوربا على رأس « الوفد المصرى » لتحقيق آماله فى استقلال البلاد . وكان أن وافته منيّته فى عرض البحر ودخلت حياة أول مفكر عملى فى استقلال مصر فى ذمة التاريخ .

أما الأزهر — فهو وإن كان معقل المقاومة للفرنسيين إبّان حكمهم فى مصر — إلا أنه لم يدخل عليه أى تغيير يخرجه عما ألفه منذ قرون ، ولم يحاول الفرنسيون — أثناء احتلالهم للبلاد — أن يدخلوا عليه شيئاً من ذلك ، وهم لو شاءوا ذلك لما أستجاب لهم الأزهر ، فقد كانت بينهم وبينه هوّة عميقة تزيد من تباين اتجاه كل منهم فى التفكير والعمل .

ورحل الفرنسيون إلى حيث أتوا ، وعادت مصر يتنازعها الطامعون فى الحكم ، إلا أن بذور التجديد التى ألقاها الفرنسيون فى البلاد ظلت دفينة ، حتى جاء محمد على فتعهدها بالعناية فأينعت وأثمرت .

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٤

الفصل الثانى

السـياسة التعليميـة

فى عصر محمد على

هبط محمد على مصر فيمن هبطها من الأتراك والألبانيين لإخراج الفرنسيين وكان من الحذق بحيث أدرك موقف البلاد بين أعاصير السياسة ، فانصرف يضرب أحزاب المماليك بعضها ببعض وينحاز الى القومية المصرية الناشئة ، ويسترضى الباب العالى بالمال تارة ويناهضه بالارهاب تارة أخرى ، حتى خلص له حكم البلاد ، فانصرف إلى إصلاحها وبث النشاط فى جميع مرافقها ، وكان النظام التعليمى الذى أقامه فى مصر من أعظم الاصلاحات التى شاهدتها مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر والتى قدّر لها الاستمرار والقوة والنماء .

لهج كثير من الكُتّاب بأن الغرض الذى رمى إليه محمد على من إنشاء المدارس وبعث البعوث إلى أوربا وإنشاء مجلس المدارس وديوانها ، كل أولئك كان الغرض منه إمداد جيشه بما يحتاج اليه من الضباط لمختلف الأسلحة ، ومن الأطباء والمهندسين ، وبمـا تحتاجه دواوينه ومصانعه من الموظفين والصناع ، أو بعبارة أخرى يرى أصحاب هذا الرأى أن النظام التعليمى كان يرمى إلى غرض واحد هو إعداد موظفين للحكومة ، وهذا رأى لا يخطئه الصواب وإن أعوزته الدقة : فليس من شك فى أن سدّ حاجة الدولة فى الجيش والادارة والمصانع وكل فروع الحكومة واجب على كل حكومة تعمل للصالح العام ، فما بالك إذا كانت حكومة تحتاج أشد الحاجة إلى من يقوم على ما أسست

من منشآت حديثة ؟ ! والواقع أن محمد على حين بدأ نظامه التعليمى كان يضع نصب عينيه هذا الغرض المحدود . فتكوين الجيش ، أو « النظام الجديد » كما كان يسمى ، كان أكبر العوامل فى بث العناية بالتعليم فى نفسه : فقد شعر بحاجة جيشه إلى ضباط فأنشأ المدارس الحربية ، وشعر بحاجته إلى أطباء فأنشأ المدارس الطبية ، ورأى أن لا بد لتلاميذ هذه المدارس أن ينالوا درجة كافية من التعليم قبل التحاقهم بها : فأنشأ المدارس التجهيزية والابتدائية . وهكذا توالى إنشاء المدارس .

ولكن هل ظلّ هذا الغرض المحدود — تخريج الموظفين — العامل الأوّل فى بث العناية بالتعليم فى نفس الوالى الكبير ؟ أم اتسع أفق التفكير وبالتالى اتّسع الغرض من التعليم فأصبح يشمل أغراضاً متعددة ؟ وبعبارة أخرى هل ظلّ محمد على يعمل على تكوين نخبة من شعبه تعاونه القيام على ما أحدث من تغييرات وأقام من مؤسسات علمية واقتصادية وحربية وتحمل المصباح من يديه حين تكلأن مهملا سواد الشعب ؟ أم عمل محمد على على أن يشرك شعبه فى الاهتمام بتلك التغييرات والمؤسسات بأن ينشر نور العلم بين الأهالى ، والتعليم هو السبيل الوحيد لتمكين شعبه من فهم هذه التغييرات أو الاصلاحات والاحتفال بها والتحمس لنجاحها ؟ هل أدرك محمد على النجاح الأوّل الذى صادفته المدارس الأولى التى أنشأها فى تحقيق الغرض المحدود الذى أنشئت لتقوم به ، فكان نجاحها هذا باعثاً له على التوسع فيها والإكثار منها بحيث تكون أداة صالحة لتمدين شعبه ؟ هذه كلها أسئلة تخطر للباحث فى تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، والاجابة عن هذه الأسئلة تعاون على جلاء السياسة التعليمية فى ذلك العصر .

والسياسة التعليمية لأمّة من الأمم هى الأغراض العليا التى توحى إلى الحكومة انتهاج خطة خاصة فى تربية أبناء البلاد وإعدادهم « للحياة

الكاملة ، وهى التى توثق الصلة بين مراحل التعليم وتجعل منه وحدة قوية متماسكة تتجه نحو مرمى واحد وتنزع إلى غاية واحدة ، وهى التى توجه المشرفين على شئون التربية والتعليم بل المتحدثين على شئون الأمة جميعا نحو تحقيق تلك الغاية بما ينشئون من مدارس ، ويضعون من برامج ، ويأخذون التلاميذ من نظم . والسياسة التعليمية أخيرا مظهر حي لما تعتنقه الامة من المثل العليا . وهى التى تقدرنا على فهم أخلاق تلك الامة وتقاليدها ومكانها فى المجتمع العالمى .

والأمة المتخبطة فى سياستها التعليمية ترى فيها تفككا فى نظم التعليم وتلمس فيها مظاهر كبيرة من الضعف الاجتماعى والاقتصادي والأخلاق . لذلك حرصت كل أمة متحضرة على أن تختط لنفسها سياسة تعليمية خاصة . وليست السياسة التعليمية نظاما يوضع بل هو الروح القوى الذى لا تراه وإن كنت تلمس مظاهره فى المؤسسات والمعاهد العلمية جميعاً ، والذى يجعل من هذه المؤسسات والمعاهد كما قلنا وحدة تتجه نحو غاية واحدة . وهذا الروح يستمد أكبر مقوماته من تقاليد الأمة ، وإن كان من ناحية أخرى يعاون على تثبيتها والتمكين لها فى حياة الأمة . وليست السياسة التعليمية هذه عفو السياسة والخاطر تتغير بتغير الأهواء والرجال ، بل يجب أن تؤسس على الحاجات السياسية والاقتصادية والثقافية للأمة، حتى يكون الشعور بهذه الحاجات أكبر هاد فى انتهاج السياسة التعليمية . فهل كانت لمحمد على سياسة تعليمية خاصة انتهجها فى ضوء الحاجات السياسية والاقتصادية والثقافية لمصر فى النصف الأوّل من القرن التاسع عشر؟

بدأ محمد على عهداً جديداً فى تاريخ مصر لم تعهـــده من قبل : عهدا من التوسع الحربى بما أنشأ من جيش كبير العدد وأسطول ضخم ،وبما مكّن هذا الجيش وهذا الأسطول لمصر من فتوحات في بلاد كثيرة ، وعهداً آخر من

التوسع الاقتصادى حين وضع مظاهر النشاط الاقتصادى كلها فى مصر فى يد الحكومة . وكانت هذه الحاجات السياسية والاقتصادية مؤسسة على النظم الغربية ، فقد كانت الأمم الشرقية ومنها مصر بمعزل حتى أوائل القرن التاسع عشر عن التطور السياسى والاقتصادى فى العالم ، لم تضرب بسهم فى المؤسسات والنظم الحربية والاقتصادية الحديثة . فجيشها — إن كان لها جيش بالمعنى الذى نفهمه الآن — شراذم من الجند يعوزها النظام وفن الحرب الحديث ، لا تكافأ ودولة ناهضة آخذة بشتى مظاهر الاصلاح .

وقد أدرك محمد على أن عظمة الأمم الغربية وخاصة الانجليز والفرنسيين ونشاطهم فى ميادين العلم والصناعة والتوسع الاقتصادى والسياسى كامن فى جودة نظمهم الحربية . لذلك كان من أول ما اتجهت اليه رغبة الوالى الكبير تكوين قوة حربية وإبقاؤها قوية فعّالة حتى يتم للبلاد استقرارها السياسى ، وتوضع علاقاتها بالدولة العثمانية على أساس وطيد تضمنه الدول الأوربية . وبذلك تحولت مصر فى حكم محمد على من مجرد ولاية حقيرة تابعة لامبراطورية مضمحلة إلى مستوى دولة عسكرية قوية .

وكذلك فى الميدان الاقتصادى بدأ محمد على يبنى على أسس جديدة لم تعرفها مصر من قبل . وقوام هذا الأسس إشراف الحكومة على ما للبلاد من زراعة وصناعة وتجارة ، بل احتكارها النشاط الاقتصادى كله فى مصر فى يدها : فالأراضى تنزع من أصحابها ، والمحاصيل تودع فى شون الحكومة والتجار ، والأجانب منهم خاصة ، يتجهون إلى الحكومة فى الشراء والبيع ، والنظام الصناعى يتحوّل من الصناعة البسيطة الفقيرة التى يقوم بها الأفراد إلى الصناعة الكبيرة التى تقوم بها الحكومة فيما أنشأت من مصانع فى حاضرة البلاد والأقاليم .

وليس يعنينا فى هذا المقام شرح نظام الاحتكار ، وهل أجدى على مصر

وأهلها أم لم يُجْدِ . على أن لنا أن نقول إنه قد مكّن الحكومة من ادخال حاصلات جديدة بمصر ، ومكّنها من التوسع فى زراعة القطن حتى أصبح المحصول الرئيسى فى البلاد ، وحدث بذلك انقلاب اقتصادى خطير ، كما حدث انقلاب آخر فى نظام الرى بتمكين الفلاحين — بما أنشىء من قناطر وترع — من زراعة أراضيهم أكثر من مرة . وإلى هذا النظام ، نظام الاحتكار ، يرجع الفضل فى قيام صناعات كثيرة بمصر لم يقدّر لها البقاء ، وفى قيام نشاط تجارى بين مصر والدول الأجنبية . فكان هذا كله شيئا جديدا فى مصر . وقد شعر محمد على بالحاجة الماسة إلى الاتجاه نحو الأمم الغربية التى سبقتنا فى ميادين الحرب والاقتصاد ، والتى لها من خبرتها فى الشئون الحربية والاقتصادية ما قد يعين الدول المبتدئة ويهديها سبيلها إلى الحضارة الحديثة ، وكان اتجاهه على الأخص نحو الأمم ذات العلاقة القوية بنا : فاتجه أولا إلى إيطاليا ثم إلى فرنسا ، واستدعى منهما من تحتاج إليه الحكومة فى القيام على منشآتها الجديدة كالجيش والأسطول والمستشفيات والمصانع والمدارس .

ولكن هذه المؤسسات الحربية والاقتصادية تحتاج إلى إدارة حازمة مستنيرة : تحتاج الى موظفين متعلمين ملمّين إلماما قويا بأغراض الحكومة وبما تتطلبه البلاد فى نهضتها الحديثة من جهة . وبما بلغه الأجانب من رقى فى تلك النظم من جهة أخرى ، وأدرك محمد على أن الاكثار من الأجانب فى خدمة الحكومة ليس من الصواب فى شىء ، فكثير منهم — على كفايتهم فى النظم الحربية والاقتصادية كما عرفتها بلادهم فى ذلك الوقت — يجهلون أغراض الحكومة ، وقد يعرقلون أعمالها ، عن قصد أو عن غير قصد ، وقد يجهلون أيضا ماتحتاجه بلاد ناشئة كمصر من تلك النظم الحربية والاقتصادية ، وقد يرجع هذا إلى جهلهم بلغة البلاد وعادات أهلها وطباعهم .

وكان محمد على لا يثق فى كثير منهم ، ويرى أنهم إنما يعملون لمصلحتهم

الذاتية قبل أن يعملوا لمصلحة الدولة التى تنفق عليهم ، وانهم يروج بعضهم لبعض ». [١]

هذا إلى النفقات الطائلة التى تنفق عليهم : فهم يتقاضون مرتبات باهظة وكثير منهم يجهلون اللغة العربية ، فيعين لهم مترجمون ليكونوا عونا لهم فى عملهم وفى الصلة بينهم وبين الحكومة .

بل لقد كان كثير من أولئك الذين استدعاهم محمد على وبذل لهم من ماله ومدّ لهم فى رعايته جهلة أفاقين ، يقول مسيو هامون "Hamont" ناظر مدرسة الطب البيطرى عن الأطباء الأجانب الذين استخدموا فى الادارة الصحية أول إنشائها : «إن منهم من كان ممرضا وعامل تلغراف وصانع أحذية فى مرسيليا وندلا (جرسونا) فى مقهى بالقاهرة ، وإن ثلثى أولئك الأطباء لا يحملون دبلومات ، ومن مائة صيدلى عشرة فقط حائزون للدبلومات ، وإذا ما هبط أوروبى مصر وليس له حرفة يحترفها سرعان ما يعين صيدليا أو طبيبا » [٢] .

قد لايخلو هذا القول من غلو ، ولكنه على أىّ حال يدل على أن كثيرا من الأجانب الذين عهدت إليهم حكومة محمد على بمهمة النهوض بالمرافق الحيوية فى البلاد لم يكونوا أهلا لأداء هذه الرسالة . نقول هذا وإن كنا لا نبخس فضل أولئك الأعلام الأماثل : أمثال سليمان باشا الفرنساوى وكلوت بك ولينان دى بلفون ، ممن تدين لهم البلاد بالفضل الكبير .

كان محمد على يستخدم الموظفين الاجانب متبرما بهم وبما يتقاضون من نفقات . لهذا وضع نصب عينيه ألا يطول اعتماد البلاد على الاجانب ، حتى إذا آن أن يستبدل بهم أهل البلاد فلايجب التوانى فى ذلك : ففى صرفهم

---

(١) دفتر ٦٧ (معية) رقم ١٣١ إلى وكيل ناظر الجهادية فى ١٧ رجب ١٢٥١

(٢) Hamont, L'Egypte sous Mehemet Ali, II, pp. 108-109

عن المنشآت الجديدة وإحلال المصريين محلهم ، صيانة لأموال الحكومة وفخر لها»(١). وهو يُسَرّ كثيراً حين يسمع بنبوغ بعض الضباط المصريين واكتسابهم الفنون العسكرية ، ويعدّ ذلك « فألا حسنا للمستقبل إذ يغنى الحكومة عن استخدام الأجانب »(٢)

كيف إذن يتمكن محمد على من الاستغناء — إلى أكبر حد ممكن — عن خدمات الأجانب فى مصر وحصر نفوذهم فيها ؟ اتخذ محمد على لذلك سبلا عدة : فهو يرى أن نظم الغرب وعلوم الغرب قد كتبها أصحابها ، وأنها إذا نقلت إلى العربية أو التركية استطاعت الحكومة مسترشدة بما فيها أن تسير طبقا لها ، فأول واجب على الحكومة إذن نقل الكتب الغربية وخاصة الفرنسية والإيطالية إلى العربية أو التركية ، واستعانت فى ذلك بعدد من المترجمين الشرقيين والأجانب ،كانوا كثيرا ما يهملون فى أداء واجباتهم ، حتى « ليتمّ أحدهم عمل ستة أشهر فى خمس سنوات »(٣).

وعلى أى حال فقد ترجمت كتب كثيرة فى مختلف العلوم وقوانين عسكرية وبحرية .

ولكن هذه الطريقة فى الأخذ عن الغربيين بطيئة من جهة ، وغير مأمونة من جهة أخرى ، لأن اختيار الكتب التى تنقل ثم المترجمين الذين يقومون على نقلها قد لا يخلو من زلل ، والترجمة حقا من الوسائل التى تنقل بها آراء أمة ونظمها وعلومها إلى أمة أخرى . ولكنها ليست الوسيلة الوحيدة ، وخير منها إعداد الرجال الذين يدرسون هذه الآراء والنظم والعلوم فى بلادها ،

---

(١) دفتر ٤٧ (معيه) رقم ٣٠٣ إلى ناظر الجهادية فى ٥ المحرم ١٢٤٩

(٢) دفتر ٤٧ (معية) رقم ٢٤٥ إلى ناظر الجهادية فى ٢٠ جمادى الثانية ١٢٤٩

(٣) دفتر ٤٨ (معية) رقم ٢٣ إلى محمود بك فى ٢٨ جمادى الاولى ١٢٤٨

وإلى جانب هذه الآراء والنظم والعلوم يدرسون لغة البلاد التى يتلقون فيها دراساتهم ، حتى إذا عادوا إلى مصر كانوا قادتها فى السير بها فى طريق الحضارة الجديد ، فهم يحلّون محل الأجانب فى الأعمال التى تخصصوا لها ، ويقومون فى الوقت نفسه بترجمة الكتب الغربية . وبذلك توالى إرسال البعوث العلمية إلى مختلف البلاد الأوربية ، واليهم يرجع الفضل فى تمكين الحكومة من الاستغناء عن خدمات كثير من الأجانب ، وفى النهوض بكثير من مرافق البلاد الحربية والاقتصادية والتعليمية ، وفى إظهار مواطنيهم على كثير من علوم الغرب ونظمه بما ترجموا من كتب وألقوا من دروس ، ولكن محمد على كان ينظر إلى صالح العمل قبل كل شىء ، فلم يكن يعيّن كثيرا من أعضاء بعثاته العائدين وخاصة الذين درسوا الصناعة منهم إلا بعد تجربتهم عمليا فيما درسوه ، حتى إذا أظهروا مهارة وكفاية استغنى عن خدمات الأجانب وأحلّ أهل البلاد فى وظائفهم [1]

ولكن محمد على يحتاج إلى عدد كبير من المصريين أو الأتراك ليستخدمهم فى منشآته الجديدة : فهو محتاج إلى ضباط وأطباء لجيشه ومستشفياته . وصناع لمصانعه ، وموظفين لدواوينه ، وهو لا يمكنه أن يرسل هؤلاء جميعا إلى بلاد الغرب ليتزوّدوا من علومها ويحذقوا لغاتها ، ثم هو يريد أن يستغلّ الأجانب فى مصر خير استغلال ، لذلك كان يطلب الى هؤلاء الأجانب أن يقوموا — الى جانب ما ينهضون به من عمل — بتعليم علومهم لنفر من أهل البلاد يلحقهم بهم ، حتى اذا أتموا تعليمهم حلوا محل أساتذتهم ، فالضباط الأجانب ينظمون فرق الجيش ويعلّمون الضباط والجند المصريين أو الأتراك ، والأطباء الأجانب يعملون فى المستشفيات ويعلّمون التلاميذ ليكونوا أطباء ،

---

(١) دفتر ١٤٥ (مجلس ملكية) ص ٢٤ رقم ٨٠ إلى مختار بك فى ١٩ ذى القعدة ١٢٥٣

ورجال الصناعة الأجانب يعملون فى المصانع ويعلّمون فنهم للصناع المصريين .
وهذه ناحية هامة فى التعليم ، بل هى فيما نرى الأساس الأول الذى قام عليه
النظام التعليمى الحديث فى عصر محمد على .

وإلى جانب هذا النظام المحدود أنشئت المدارس ليتعلم فيها عدد
آخر كبير من أهل البلاد علوم الغرب وفنونه فى صورة منظمة
وافية . وكان افتتاح المدارس الأولى يتمشى وحاجة الحكومة ، فاذا
احتاجت الى ضباط أنشأت المدارس الحربية ، وإلى أطباء أنشأت
المدارس الطبية ، وإلى مهندسين أنشأت مدارس الهندسة ، وإلى زراع أنشأت
مدارس الزراعة ، وإلى مترجمين وموظفين أنشأت الدرسخانة أو مدارس
الادارة والمحاسبة والألسن ، ورأت الحكومة أن لا بد لتلاميذ هذه المدارس
من قدر كاف من التعليم قبل التحاقهم بها فأنشأت المدارس التجهيزية
والابتدائية . ومن هنا جاء الرأى القائل بأن المدارس إنما أنشئت لسدّ حاجة
الجيش والمصانع ودوائر الحكومة . ولكننا لانلبث أن نرى الحكومة تتوسع
فى نظامها التعليمى وخاصة فى المدارس الابتدائية ، فتنشىء منها عدداً كبيراً
بالمدن والقرى يزيد على الستين مدرسة أو مكتباً ، وتجمع لها عدداً كبيراً من
أبناء البلاد تشرف على تربيتهم وإطعامهم وكسائهم ، ويقول محمد على فى أحد
أوامره إلى رجاله إن القصد من إنشاء هذه المدارس هو . « تعليم وتثقيف
أبناء العباد » [1] ولأول مرة فى تاريخ مصر الحديث نرى الحكومة تقدم على
إنشاء المدارس فى حاضرة البلاد ومدنها ، بل لقد أنشأت بعضها فى القرى ،
فى أوساط لم يكن يصلها قبل ذلك نور التعليم . حقاً إن هذه القرى قد عرفت
قبل مدارس محمد على مكاتب أخرى ، ولكن هذه المكاتب كانت من نوع آخر :
إذ كان يؤسّسها ويقوم على شأنها فقهاء من أهل البلاد يجتمع اليهم عدد من

(١) دفتر ٥٨ (معية) رقم ٩٢ : الى محرم أغا فى ١٩ ذى القعدة ١٢٤٩

الصبية الذين يرغب أهلهم فى تعليمهم ، ولم يكن ذلك التعليم ليتعدى حفظ القرآن والقراءة والكتابة . أما مدارس محمد على فيؤسسها ويقوم على شأنها رجال الادارة بالأقاليم ، يجمعون لها صبية المدن والقرى، كما يجمعون شبانها للجيش . ولهم إذا صادفوا من الأهالى إعراضاً أو امتناعا عن إرسال أبنائهم أن ينتزعوهم من أهلهم قوة واقتداراً . والأطفال فى كتاتيب الفقهاء يترددون على كتاتيبهم ما أراد أهلهم . حتى إذا أصابوا منها التعليم الذى يريدون انقلبوا إلى أهلهم يحترفون ما يحترفونه من زراعة أو صناعة أو تجارة ، أو رحلوا إلى الأزهر وانخرطوا فى سلك طلابه والمترددين عليه ، وقد يظلون به سنين ، أو يقضون فيه حياتهم كلها أساتذة مدرسين ، يدرسون لطلابه كما درسوا فيه من قبل . أما مدارس محمد على فالطفل الملتحق بها تحتجزه الحكومة وتمنعه من الذهاب إلى أهله إلا حين تريد ، ثم هى تقوم على شئونهم جميعاً من طعام ولباس وغيرهما ، ولكنها فى مقابل ذلك تتقاضى منهم الثمن : إذ هى توجههم كيف تشاء ، وليس لأهلهم رأى فى ذلك . ويبرر محمد على سياسته هذه ، سياسة « أخذ الأبناء من آبائهم بغير طلب بعدم استيناس الأمة بالمدارس »[١]

والواقع أن محمد على كان يلقى من المصريين فى أول عهدهم بالمدارس إعراضا ، ذلك لأن فكرة (التعليم) اختلطت فى أذهانهم بالجندية ، إذ كانوا يرون عمال الحكومة يجمعون أطفالهم ، كما يجمعون شبانهم سواء بسواء ، ويذهبون بهم الى حيث لا يعودون إلا بعد وقت طويل ، ثم هم يرون المدارس يحرسها الجند ، وأبناءهم يحيون فيها حياة أقرب الى حياة الجندية ، وقد ينتهى عهدهم بالمدارس الى الانخراط فعلا فى سلك الجيش : إما جنودا أو ضباطا .

والجندية فى أذهان المصريين تمثل إذ ذاك البعد عن الأهل والديار

(١) دفتر ١٤٥ (مجلس ملكية) س ٦ الى مختار بك فى سلخ صفر ١٢٥٢

بعداً قد يمتدّ مدى الحياة ، كما تمثل الحياة الشاقة المضنية فى بلاد لا يعلمون عنها شيئا ، وإن جسّمها لهم خيالهم . ليس غريبا اذن أن يمتنع الأهلون عن إرسال أبنائهم الى مدارس الحكومة ، فاذا عدموا الوسائل يعرقلون بها سياسة الحكومة عمد البعض منهم الى أبنائهم فبتروا أصابعهم أو سملوا عيونهم حتى لا يكون للحكومة عليهم سلطان . ويسمع محمد على بذلك ، ويرى أن آراءه فى عمران البلاد وترقيتها لا تلقى صدى بين أبناء البلاد ، وأنّ جهوده فى تعليمهم لا تجد منهم ما هى خليقة به من تشجيع وعون ، ولا شك فى أن محمد على كان يضيق ذرعا بذلك ، وكان يرى فيما بلغه عن نساء فى الريف يفقأن عيون أبنائهن « أمراً مكروها ضاراً أشد الضرر بأمور الملك والملّة ، فضلا عن كونه مذموما شرعا ، ولما كان منعه فرضا تقتضيه الشريعة الغراء وتحتمه الذمة وتوجبه حماية الملة وصيانة الدولة ، فالجناب العالى يرى دواء لذلك أن تلقى فى النهر بعض الأمهات اللاتى يقترفن هذه الجريمة النكراء »[١]

ولكن هذه المقاومة التى شرحنا كانت فى غالب الأمر محصورة فى القرى البعيدة عن مركز الحكومة وإشرافها المباشر ، فقد كان على كل قسم (والقسم وحدة إدارية كالمركز فى الوقت الحاضر) أن يمدّ المدارس بعدد معيّن من الأطفال ، وكثيراً ما كان يحدث أن العدد الذى جمع يفوق العدد المطلوب للمدارس . قد يعود هذا الى مهارة الجند وعمال الحكومة ، و (إخلاصهم) فى القيام بعملهم ، ورغبتهم فى إرضاء رؤسائهم ، أو الى معرفتهم بأن عدداً كبيراً ممن جمعوا سيعودون الى أهلهم معلولى الجسم أو صغار السن أو كباره . وكذلك نجد أن فى بعض المدارس — وخاصة قبل وضع اللوائح التى حددت عدد التلاميذ — كان عدد التلاميذ يزيد زيادة كبيرة بسبب الحضور

---

(١) دفتر ١٣٩ (معية) رقم ٩٧ الى المديرين فى ١٦ جمادى الاولى سنة ١٢٥١

الاختيارى.[١] وفى بعض البلاد، كحلوان مثلا، كان الفلاحون يسرّون بارسال أبنائهم إلى المدارس حتى لتكتظ بهم[٢] وإنا نرجح أن البقية الباقية من المقاومة قد تلاشت أو كادت عندما استقر النظام التعليمى وثبت الزمن من «وظيفة» المدرسة المصرية، وباعد بينها وبين ما كان الأهالى يخشون من اندماج التلاميذ فى سلك الجنـــدية، وأدرك الناس جميعا المزايا التى ينالها المتخرجون فى مدارس الحكومة: فالالتحاق بمدرسة منها كان يعنى الالتحاق بوظيفة من وظائف الدولة، وتمهيد السبيل للثراء والمجد والشهرة.

ولا شك فى أن قسطا كبيرا من الفضل فى الإقبال على التعليم يعود إلى نخبة من أبناء البلاد الذين تعلموا فى مدارس الحكومة وبعثاتها، وقضوا فيها شطرا كبيرا من حياتهم. ثم عادوا إلى أهلهم وعشيرتهم وقد تجمّلوا بالملبس الحسن ونالوا المرتب الطيب وأصابوا من عناية ولىّ الأمر وعطفه ما مكن لهم فى أسباب الجاه والرقى، ولا شك فى أن هؤلاء الرجال كانوا فى الأوساط التى نشأوا بها المثل الحىّ لما يفيده الناس من مدارس الحكومة، رأى الناس ثراءهم والمناصب التى أصابوا فى خدمة الدولة، وعلموا أن التعليم الذى تقدمه لهم الحكومة كفيل بأن يبدّل من حياتهم الضنك التى يحيون حياة أخرى فيها شىء كثير من رفد الحكومة وعطفها: والريف فى ذلك الوقت متعب مكدود والفلاحون مرهقون بشتى الواجبات قبَل الحكومة. أما الصبية الذين تنزعهم الحكومة من أهلهم فالحكومة تتعهدهم أطفالا باللباس والغذاء والمرتب والتعليم والتربية، ثم تتعهدهم شبانا ورجالا بالرتب والمرتبات والوظائف، ثم تسبغ عليهم من هيبتها سطوة ومقاما. فالتعليم يرفع بهم من حضيض الجهل والفاقة إلى مصاف «الأفندية» و«أبناء الباشا».

---

(١) Bowring, Report on Egypt & Candia, p. 135

(٢) المصدر السابق ص ١٣٦

فالى هذه النخبة الأولى من أبناء البلاد المتخرجين فى المدارس والبعثات يرجع الفضل الكبير فى بث الإقبال على التعليم فى الأوساط التى نشأوا بها والناس الذين اختلطوا بهم .

ويحدثنا على باشا مبارك عن كثير من الرجال الذين أقبلوا فى صباهم على التعليم بعد أن رأوا ما أصابه الذين سبقوهم فى هذا المضمار، وعلى مبارك نفسه لم تمل نفسه إلى التعليم وينزع بهواه إلى المدارس إلا بعد أن رأى ما يتمتع به المأمور الذى كان يعمل عنده صبيا من السطوة والاحترام والهيبة بين الناس. وأمامنا إلى الآن قرى انتشر التعليم بين أبنائها ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى ابن من أبنائها أتاح له الحظ دخول المدارس ، ومنها إلى الوظائف فالثروة والمقام السامى ، وكان بعد عونا لأهل بلده على التعلم وعلى مايلى التعلم من مجال العمل . ومن هذه القرى «زاوية البقلى» من أعمال المنوفية ، وزعيمها فى هذا المضمار «محمد على البقلى باشا» الذى التحق بالمدارس ، وأصبح بعد ذلك طبيبا ثرياً كبيراً ولأهل بلده إماما ومثلا حيّا لما يجره التعليم من منافع، ومثلها «كفر المصيلحة» من قرى المنوفية كذلك .

ولكن هل كان محمد على مرتاحا إلى الإكثار من فتح المدارس وخاصة المدارس الابتدائية ، وهى أولى مراحل النظام التعليمى فى عصر محمد على ، وهى لذلك أشدّ اتصالا بتعليم سواد الشعب ، وهى فى يد الحكومة تصلح أداة لنشر التعليم بين الأهالى ، وبالتالى لإنعاش المجتمع وترقية الشعب؟ وهل كان محمد على مطمئنا إلى النتائج السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تترتب على تعليم سواد الشعب والنهوض بهم ؟

كتب إليه ابنه «ابراهيم» مرة مستحسنا ماسمعه من «سليمان باشا الفرنساوى» من أن نابليون كان يحتضن أبناء الجند ويخصّ كل مولود ذكر منهم بجراية نفر ونصف ماهية نفر ، فاذا ترعرع الصبى علّمته الحكومة القراءة والكتابة.

فأجابه والده العظيم مقراً هذه الفكرة واعداً بانفاذها فى مصر وسوريا ، وفعلا نفذت هذه الفكرة بعد ذلك فى مصر. إلا انه كتب إلى ابنه يلفت نظره « إلى ما تعانيه أوربا عهدئذ من نتائج تعميم التعليم بين أبناء العامة وإلى أنهم كانوا قد تورطوا فى تعليم الناس حتى أضحوا وليس فى طاقتهم تلافى مافات ، فاذا كان هذا المثال أمام الأنظار ، فمن الواجب أن تتفضلوا فتكتفوا بتعليم القراءة والكتابة لعدد منهم واف بأعمال الرياسة غير مولعين بتعميم ذلك التعليم ».[1]

هذا رأى محمد على فى تعليم العامة : وهو الرأى الذى كان يجد له أنصاراً كثيرين فى أوربا فى ذلك الوقت ، بل لا يزال يجد من ينافح عنه فى عصرنا هذا ، وهو أنه خير للدولة أن تشرف على إعداد نخبة من أبنائها إعداداً وافيا قوياً ليقوموا بما تستلزمه الحكومة من أعوان ، وليكونوا لأمتهم قادة يوجهونها إلى الطريق الذى تبغى الحكومة ، من أن تعلم سواد الشعب تعليما قد يكون ناقصا مبتورا لا تتوافر له القوة والجودة . وقد لا تتمكن الحكومة من مواجهة النتائج الخطيرة لهذا التعليم ، وخاصة فى بلاد كانت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر تخطو خطواتها الأولى فى طريق الحضارة الحديثة ، فالتعليم قد ينقل الشعب إلى حال من النضج السياسى والقومى قد لا ترتاح إليها الحكومة ، وقد يبغضهم فى بيئاتهم التى نشأوا بها فينزحون إلى بيئات أخرى فيها ما يتوهمون من رخاء ولهو ومدنية ، وقد يحدوهم إلى الثورة على المهن التى نشأوا عليها ويطلبون إلى الحكومة أن تفسح لهم فى مجـــال العمل « الأميرى » النظيف .

كان محمد على يخشى التوسّع فى تعليم العامة . كان يخشى أن يعلّم الناس

---

(١) دفتر ٢١٢ (معية) رقم ٢٧٧ إلى الباشا السرعسكر فى ٢٩ ذى الحجة ١٢٥١

ثم لا يجد لهم مجالا للعمل . كان يخشى ما أصبح مع الزمن فى مصر داءا اجتماعيا خطيرا .

هل كان من نتائج آراء محمد على التى أوضحها فى كتابه إلى إبراهيم باشا فى أواخر سنة ١٢٥١ هـ (١٨٣٦) صـــدور اللوائح ، فى نحو ذلك التاريخ أو قبله بقليل ، ومنها لائحة التعليم الابتدائى ، وتنص على أن يقتصر فى إنشاء المكاتب الابتدائية على المدن والبنادر دون القرى ؟ أم إن الحكومة كانت قد برمت بالنفقات الطائلة التى يتطلبها عدد كبير من المكاتب فألغت كثيرا منها ؟ أم رأت أن مكاتب القرى لم تصب من النجاح ما كانت تؤمله وأنها استحالت إلى أماكن للفوضى وسوء النظام ، فضلا عن انحطاط مستواها العلمى والصحى ؟ مهما يكن من شىء فقد انتهى الرأى بالحكومة الى الإقلال من عدد المكاتب الابتدائية ، وقد قلنا إنها كانت فى يد الحكومة الوسيلة لنشر التعليم بين الأهالى ، فألغت نحو الخمسة والعشرين مكتبا ، وكان طبيعيا أن تعمد إلى إلغاء مكاتب القرى ، إذ كانت الحكومة تحار فى إمدادها بالأطباء والنظار والمدرسين الأكفاء ، وفى إسكانها أماكن صالحة ، واقتصرت على تنظيم مكاتب المدن والبنادر لإعداد التلاميذ للمدارس التجهيزية ونشر التعليم بين الأهالى .(١)

ولكن هل يكفى خمسة وأربعون مكتبا نصّت اللائحة على إنشائها بالأقاليم ، لنشر التعليم ، بين أهالى القطر المصرى جميعا ؟ واذا كان الجواب بالنفى ، وهو كذلك ، فلنا أن نسأل سؤالا آخر : هل تعد هذه الخمسة والأربعون مكتبا ، عدا مكاتب القاهرة والاسكندرية ، تلامذتها كلهم لمدرستين تجهيزيتين اثنتين : إحداهما بالقاهرة والأخرى بالاسكندرية ؟ واذا اكتظت هاتان المدرستان

---

(١) المادة الاولى من لائحة التعليم الابتدائى سنة ١٨٣٦

وضاقتا عن أن تسعا كل المتقدمين لها ، فماذا تفعل الحكومة بتلاميذ المدارس الابتدائية الذين لم يتح لهم الاستمرار فى التعليم ؟ هل تطلقهم إلى أهلهم وإلى بلادهم يحترفون ما يحترف أهلهم ؟ أو يصبحون بما تلقوا من تعليم قاصر عالة على أهلهم وعلى الدولة التى علمتهم ؟ لا شك فى أن هذه الأسئلة قد عرضت لأعضاء اللجنة التى نظرت فى سنة ١٨٣٦ فى النظام التعليمى فى مصر لاصلاح المعوج منه من جهة ، وتنظيمه على النحو الذى تتطلبه حاجة البلاد إذ ذاك من جهة أخرى ، ولكن اللجنة فيما نرى لم تهتد فى شأن التعليم الأولى والابتدائى برأى يقدّر له القوة والثبات .

أما التعليم الأولى — تعليم سواد الشعب — فلم تتعرض له اللجنة وتركته كما كان فى أيدى الفقهاء ورجال الدين ، ولكنها أقامت بجانبه تعليماً أولياً آخر هو التعليم فى المدارس الابتدائية أو مكاتب المبتديان ، وهو تعليم أوّلى لأن الملتحقين به لم يكن يشترط فيهم معرفة القراءة والكتابة على نحو ما يشترط فى تلاميذ المدارس الابتدائية فى عصرنا هـــذا ، بل كانوا أمّيين كالتلاميذ الملتحقين بالمكاتب الالزامية الآن ، وهو تعليم أوّلى لأنه كان المرحلة الأولى من مراحل التعليم الحديث فى عصر محمد على ، ولكنه كان تعليما أوّلياً قاصراً عن أن يشمل المصريين جميعاً وخاصة ساكنى القرى .

كان أمام اللجنة التى وكل اليها تنظيم التعليم غرضان تبغى تحقيقهما : الغرض الأول إعداد التلاميذ للتعليم التجهيزى ، وقد ذكرنا أنه كان محصوراً فى مدرستين اثنتين فقط ، فهما لا تحتاجان إلى عدد كبير من المكاتب تعدّ لهما التلاميذ ، والغرض الثانى الرغبة فى نشر التعليم بين الأهالى . وهذا الغرض يقتضى تحقيقه إنشاء عدد كبير من المدارس أو المكاتب تبثها الحكومة فى مدن مصر وريفها ، وقد أوضحنا أن محمد على كان يتوجس خيفة من نتائج نشر التعليم ولم يكن يتحمس له كثيراً .

لهذا ترددت اللجنة بين هذين الغرضين ، وكان قرارها مظهراً لهذا التردد:
فالمادة الأولى من لائحة التعليم الابتدائى تجعل من هذا التعليم أداة للغرضين معاً :
إعداد التلاميذ للمدرسة التجهيزية ونشر التعليم بين الأهالى ، وتنفيذاً لذلك
قررت إنشاء عدد من المكاتب خُيِّل اليها أنه يكفى للوفاء بهذين الغرضين .
ولكن هذا العدد ، وهو خمسة وأربعون مكتباً بالأقاليم، كان يُعِدّ تلاميذ أكثر
مما تتسع لهم المدرستان التجهيزيتان ، فهو من هذه الناحية كبير . ولكنه من
الناحية الأخرى ، ناحية نشر التعليم ، قليل لا يجدى .

وسنرى أن الحكومة فى سنة ١٨٤١ كانت أكثر صراحة : فوضعت
التعليم الابتدائى على أساس واحد لغرض واحد : هو مجرد الإعداد للمدرسة
التجهيزية ، فأنقصت المدارس الابتدائية إلى العدد الذى رأت أنه يكفى لإمداد
المدرسة التجهيزية بالتلاميذ .

ومهما يكن من شىء فقد كانت سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧ (١٢٥١ — ١٢٥٢ هـ)
وهى السنة التى وضعت فيها اللوائح سنة الاستقرار والتنظيم بعد سنوات من
التجربة ، فقد شعر محمد على أنه لا يجد من الوقت ما يمكّنه من الإشراف على
شئون المدارس التى أنشأ إشرافا دقيقا ، يجعله مرجعا فى الجليل والتافه من
شئونها ، وشعر أنه بما قام على شئونها منذ أنشئت قد وضع التقاليد لرجاله
ليسيروا عليها ، وهو قد بدأ العمل ، وعليهم هم أن يتابعوه مسترشدين بآرائه
ونصائحه ، ووجد محمد على كذلك أن تبعية المدارس لديوان الجهادية وتبعية
مكاتب الأقاليم للمديريات لا يحقق لهذه المدارس والمكاتب ما يرجوه لها
من تقدم ونجاح ، فقد كان (للجهادية) من مشاغل الحروب التى خاضت مصر
غمارها فى تلك السنين ما يصرفها عن متابعة المدارس التابعة لها بالإصلاح، وما
يعوقها عن التفرغ لادارتها حق التفرغ ، فتركت أمورها فى أيدى مديريها ،
وكان أكثرهم من الأجانب ، ينفذون فيها أهواءهم . أما المديريات ، فهى وإن

كانت تستطيع الإشراف على ماتقتضيه المكاتب وحياة التلاميذ فيها من أدوات وغذاء وكساء، إلا أنه لم يكن لرجالها من الكفاية (الفنية) ما يقدرهم على الإشراف على تعليم التلامذة والتفتيش عن دروسهم والاهتمام بسلامة أبدانهم ومقاومة الأمراض والأوبئة التي كانت تفتك بالقرى فى ذلك الوقت.

وكان محمد على قد وجد حينئذ فى سنة ١٨٣٦ من الرجال من يستطيع أن يعتمد عليهم : وجدهم بين أعضاء بعثاته المصريين أو المتمصرين الذين كان قد أوفدهم إلى أوربا، وإذا كان قد استدعى الأجانب فأشرفوا على المؤسسات العلمية التى أنشأها وقاموا على إدارتها، إلا أنه رأى — وقد أصبح لديه نخبة من أهل البلاد المتعلمين علوم الغرب والحاذقين لغاته — أنه يحسن أن يقوم التعاون بين هاتين الطائفتين : الأساتذة الأجانب، والمصريين أو المتمصرين الذين أتموا دراستهم فى أوربا، لوضع التعليم فى البلاد فى وضعه الصحيح : بالغاء الفاسد من المدارس والمكاتب وتنظيم المعوجّ منها.

فكان من ذلك تكوين اللجنة التى قامت على تنظيم التعليم فى مصر ووضع اللوائح لكل مرحلة من مراحل التعليم، حتى إذا أتمّت اللجنة عملها كان لا بد من هيئة تشرف على ما وضع من نظم ولوائح : فأنشىء شورى المدارس، وكان محمد على حريصا، من جهة أخرى. على أن يكون لأهل البلاد من المصريين أو المتمصرين الغالبية فى الشورى . فكان منهم عضوان والرئيس.

ولكن إنشاء هذه الهيئة «الفنية» مع بقاء المدارس تابعة لديوان الجهادية كان يدعو إلى كثير من الاضطراب والتناقض، وهنا أقدم محمد على على تأسيس ديوان خاص بالمدارس وغيرها مما رأى إلحاقها به، وكان الشورى قد قام بتنظيم المدارس، وخاصة المدارس الابتدائية التى كانت فى أشد الحاجة إلى التنظيم، طبقا للوائح والنظم التى وضعتها اللجنة، ورؤى أن يفسح

الشورى المجال للديوان الجديد وأن يندمج فيه . فالغي الشورى وظل الديوان قائما حتى نهاية عصر محمد على .

لا شك فى أن محمد على قد ارتاح واطمأن إلى أن منشآته تسير قدما فى طريق الاستقرار : فقد وجد الرجال الذين يعتمد عليهم فى إدارتها والقيام على شئونها . ولكن محمد على يأبى إلا أن يظل مشرفا على كل شىء فى البلاد رغم إنشاء الدواوين والمجالس . قد يرجع هذا إلى نزعته (الأتوقراطية) ، وقد يعود إلى ضعف ثقته فى رجاله ورغبته فى دوام إشرافه على أعمالهم ، ولا غرو فقد كان محمد على المعلم الأول لأمته ، وكان يرى فى دواوينه ومجالسه (مدارس) لتربية الرجال وإعدادهم خير إعداد للوظائف التى يقومون بها . ظل محمد على اذن مشرفا على شورى المدارس وعلى ديوان المدارس من بعده ، ترفع اليه محاضر جلسات الأول وقرارات الثانى الهامة ، ويمدهما كليهما بطائفة من آرائه وإرشاداته .

ومضت سنوات ، وتحقق لمحمد على ما كان يبغيه لمصر من استقرار سياسى ، وسواء أكان هذا الاستقرار قد تم على ما أمله محمد على وسعى اليه أم لم يتم ، فقد انتهى ذلك النضال الذى استنفد مالية الدولة ونشاطها الاقتصادى بأجمعه . فأنقص الجيش وسرح كثير من جنوده ، واضمحل النشاط الذى كان موجهاً كله إلى خدمة القوة الحربية ، فالأطباء والمهندسون والضباط وغيرهم من الموظفين الذين يعملون فى الجيش يصرفون عنه ، ويفصل بعضهم وتدبر للبعض الآخر أعمال فى جهات أخرى ، وبعض المصالح والمصانع التى أنشئت لتمد الجيش بكثير من حاجياته تلغى أو تنكمش ، ولكن المدارس تظل تعمل فى تخريج التلاميذ كما كانت تعمل ، والحكومة ملزمة بأن تدبر لهم جميعا مجال العمل ، ولا شك فى أنها بدأت تضيق بهم جميعا ، فآنا تبقيهم فى مدارسهم عاما آخر تأخذهم فيه ببعض العلوم ، وآنا تعينهم « مستودعين »

وتمنحهم نصف مرتب الوظيفة التي يعملون بها ، ولم يكن من الطبيعي أن يدوم هذا ، وأحست الحكومة أن عليها أن تعيد النظر في نظامها التعليمي مرة أخرى لتلائم بينه وبين حاجات البلاد الجديدة .

وكانت هناك عوامل أخرى تدعو إلى ضرورة النظر في النظام التعليمي من جديد ، فقد ألمعنا إلى أن الاتساق كان معدوما بين مراحل التعليم ، وخاصة بين مرحلة التعليم الابتدائي ومرحلتي التعليمين التجهيزي والخصوصي، فقد كان عدد المدارس الابتدائية لا يتفق وعدد المدارس التجهيزية : فخمسون مكتبا أو مدرسة ابتدائية — مع اعترافنا بقصورها كمدارس للتعليم الأولى الأميري عن نشر التعليم بين الأهالي — كانت أكثر مما تستلزمه حاجة مدرستين تجهيزيتين لم تنظم احداهما (وهي مدرسة الاسكندرية) إلا في أواخر عصر محمد علي ، وقد أوضحنا قبل كيف برمت الحكومة بالعدد الكبير الذي خرجته المدارس الابتدائية ، وسنرى أنها ضاقت بهم عاما من الأعوام فأغلقت دونهم باب المدرسة التجهيزية وأبقتهم بمدارسهم يصيبون من التعليم أكثر مما أصابوا ، والواقع أن لنا أن نقول إن مخاوف محمد علي من نتائج نشر التعليم من غير أن تعد الحكومة عدتها لمواجهة هذه النتائج قد تحققت بعض الشيء ، ولذا كان من الضروري أن تعيد النظر في النظام التعليمي على ضوء ما مرّ من التجارب ، حتى يقوى الاتساق بين مراحل التعليم ويتكون منها وحدة قوية متماسكة الأجزاء تعد كل مرحلة للمرحلة التي تليها إعدادا يتفق وحاجتها من التلاميذ .

وكونت لجنة أخرى سنة ١٨٤١ (١٢٥٧ هـ) ، كان كثير من أعضائها أعضاء في اللجنة الأولى التي نظمت التعليم في سنة ١٨٣٦ (١٢٥١ هـ) . وفي ضوء الحاجات السياسية والاقتصادية الجديدة ، وفي ضوء التجارب التي مرّ بها النظام التعليمي في خلال السنوات الخمس التي مضت منذ نُظِّمَ أول مرة ،

وضعت لوائح جديدة ، ويحب كثيرون أن يروا فى اللوائح الجديدة (وتعرف فى السجلات باسم ترتيب سنة ١٢٥٧) ضربة قوية تصيب التعليم الحديث فى مصر ، وتشل من نشاطه وتحيله ضعيفاً محدوداً ، ولكن الواقع يخالف هذا إلى حد كبير ، فالنظام التعليمى لم يصبه فى مجموعه تغيير كبير بل قُصَّ من أطرافه وخاصة فى بدايته ، فالمدارس الخصوصية وهى التى تخرج من لا غنى للحكومة عنه من الموظفين بقيت وإن أنقص عدد تلاميذها ، وكذلك بقيت المدرسة التجهيزية وأنقص عدد تلاميذها وألحقت بمدرسة الألسن ، أما المدارس الابتدائية فهى التى أصابتها الضربة : إذ نقص عددها إلى مدرسة واحدة بالقاهرة وأربع مدارس أو مكاتب بالأقاليم، أى إلى الحد الذى يكفى لامداد المدرسة التجهيزية بالتلاميذ ، وبذلك حددت (وظيفة) المدرسة الابتدائية فى لوائح سنة ١٢٥٧ أكثر مما حددت فى لوائح سنة ١٢٥٢ .

ولكن العمل اليومى فى إدارة المدارس ظل يسير كما اعتاد أن يسير ، حقا إن اليد العاملة ، يد محمد على ، قد كلَّت وانزوت من ميدان العمل والنشاط ، ولكن الرجال الذين « رباهم » محمد على قد أخذوا يحملون عنه العبء ، فبهم سار العمل فى ديوان المدارس وفى المدارس وغيرها ، وسار فى إتقان وإجادة إذا قورن بما تمّ فى العهد الأول من المدارس . ذلك لأن التقاليد قد وضعت فأصبح من اليسير العمل بها .

ومضت سنوات أخرى وتولى « ابراهيم » حكم مصر فى السنين الأخيرة من حياة محمد على ، وبدأت بذلك صفحة جديدة فى تاريخ التعليم فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ولكن هذه الصفحة لم تلبث أن طواها القدر بعد قليل .

كان « ابراهيم » أكثر اختلاطا بالأجانب من أبيه ، وآرائه أكثر مرونة وميلا إلى التجديد ، وهو بعد قد سافر إلى أوربا فأتيح له أن يشهد عن كثب

حياة جديدة ونظما جديدة ، فاشتدت رغبته فى أن يدخلها فى بلاده ، ورأى ماتتمتع به الشعوب الغربية من رقى وحضارة ، فنزع إلى ترقية الشعب المصرى وكان يرى فى التعليم أجدى وسيلة وأسرعها لبلوغ هذه الغاية ، وكان يرى أن يشترك الأهالى مع الحكومة فى الاهتمام بالتعليم بأن يتحملوا قسطا مما تتكلفه الحكومة من نفقات (١) فهم إذا بذروا تعهدوا بذرهم بالرعاية حتى يؤتى ثمرة ، وهم إذا ساهموا فى تنشئة أبنائهم والوهم بعنايتهم وتعهدهم حتى يشبوا رجالا . فالتعليم عند ابراهيم لم يكن فقط أداة لامداد الحكومة بمن يلزمها من الموظفين، أو بعبارة أخرى لم يكن فقط أداة لتخريج الزعماء والقادة ، بل هو كذلك وفوق ذلك أداة لترقية المجتمع والسير به إلى الأقسام ، ولا يتم ذلك إلا « بتفاعل » بين المدرسة والمجتمع ، حتى يؤتى عمل المدرسة فى إنعاش المجتمع وترقيته ثماره .

وهذه لا شك سياسة جديدة تخالف السياسة التى درجت عليها حكومة محمد على ، فقد كانت ترى أن كل نظام فى البلد يجب أن يستمد مقوّماته من روح الحكومة وتأييدها ، وليس على المجتمع إلا أن يتابع الحكومة فى سياستها ، سواء اطمأن إلى تلك السياسة أم لم يطمئن ، والحكومة كفيلة بأن تقوم عنه بكل شىء ، فالحكومة تفتح المدارس وتلحق بها أبناء البلاد ، وليس لأهلهم إذا طُلبوا منهم إلا أن يقدموهم عن يد وهم صاغرون ، والحكومة توجه النشء أنى أرادت وليس لأهلهم فى توجيههم رأى ، فلا ينتظر إذن أن يهتم الأهالى بتلك المؤسسات التى تقوم بينهم والتى تحتجز عنهم أبناءهم حتى يعيدوهم إليهم رجالا : ماهى العلوم التى درسوا ؟ ماهى المدارس التى التحقوا بها ؟ كيف كانوا يدرسون ويعيشون ؟ كل هذه أسئلة قدلايحفل بها الأهالى ،

---

(١) Artin Pacha, L'Instruction Publique en Egypte. pp. 88-89

وهم إن حفلوا بها ليس لآرائهم وزن أو تقدير . فالحكومة تقوم بكل شيء والأهالى لا يقومون بشيء .

أما ابراهيم فيود أن يحمل الأهالى عن الحكومة قسطا من النفقات من جهة ، ومن الاهتمام بشئون التربية والتعليم من جهة أخرى ، حتى إذا أدركوا الفوائد التى ينالها المترددون على المدارس كانوا لهذه المدارس عونا وسنداً إلى جانب سلطان الحكومة ، وكلما لمس الأهالى فائدة المدارس أقبلوا عليها واهتموا لها وعملوا كثيراً لتقدمها .

ولكن على الحكومة واجباً آخر : هو أن تيسّر التعليم للشعب وخاصة التعليم الأولى الذى يتصل به أكبر اتصال ، ولم ينس ابراهيم تلك الناحية ، وسترى حين نتحدث عن التعليم الابتدائى فى مصر فى عصر محمد على جهود الحكومة فى افتتاح مكاتب لتعليم الناس فى القاهرة دعتها « مكاتب الملة » ، على نحو ما كان موجوداً فى ذلك الوقت فى فرنسا وانجلترا ، وعنهما اقتبست الدولة العثمانية كذلك ، لتعليم أبناء الشعب « من أقرب طريق وفى أقصر وقت » ، فلمكاتب الملة غرض جديد غير غرض المدارس الابتدائية ، فليس الغرض من مكاتب الملة إعداد التلاميذ للدراسة التجهيزية ، بل الغرض منها كما هو واضح من اسمها مكافحة الأمية بين الأهالى .

واقترنت هذه الحكومة ، حركة نشر التعليم ، بحركة أخرى ترمى إلى التجديد فى طرق التدريس وفى مواد الدراسة تجديداً يبعد المكاتب بعض الشيء عن الصبغة (الشرقية) التى ظلت عالقة بها .

وقد بدأت حركة التجديد هذه فى القسم الذى ألحقته الحكومة بمدرسة المبتديان ودعته « المكتب المستجد » ، وكان القصد من إنشائه أن يكون مدرسة أو فصولا « تجريبية » ، تفحص فيها طرق الدراسة ومواد الدراسة الجديدة ، حتى إذا ثبت نجاحها طبقتها الحكومة فى المكاتب الأخرى .

أما التعليم العالى فيحظى أيضا من ابراهيم باشا بالعناية ، فقد فكر فى حصره جميعاً فى دائرة واحدة بانشاء دار للفنون تدرس بها «جميع الفنون العالية» ، وبعبارة أخرى «جامعة» تنتظم معاهد التعليم العالى أو المدارس الخصوصية كلها ، على مثال جامعات أوربا الحديثة والجامعة العثمانية التى استعار منها اسمها «دار الفنون».

ولكن ابراهيم لم يعش طويلا ليحقق شيئا من آماله. فلما تولى بعده عباس الأول خمدت النهضة العلمية سنوات كثيرة .

الفصل الثالث

الأثر الغربى فى النظام التعليمى فى مصر

أشرنا فى كلمتنا السابقة عن تطور النظام التعليمى الحديث فى مصر إلى أن حكومة محمد على شعرت بعدسنوات من افتتاح المدارس بافتقار المدارس التى أنشئت إلى لوائح عامة تنظمها جميعا ، وتحدد العلاقة بين هذه المدارس من جهةوديوان الجهادية والمديريات من جهة أخرى ، كما شعرت أن الصلة ليست وثيقة بين مراحل التعليم المختلفة التى تُعِدُّ كل منها تلاميذها للمرحلة الأخرى ، وأن المدارس يعوزها الاتساق والترابط ، فالصلة لم تكن واضحة بين مكاتب المبتديان بالأقاليم ومدرسة قصر العينى التجهيزية فى عهدها الأول ، وذلك أن هذه المدرسة كان بها تلاميذ مبتدئون وتلاميذ آخرون متقدمون فى دراستهم ، فالصفة التجهيزية لم تكن واضحه لمدرسة قصر العينى ، وكذلك كانت الصلة غامضة بين هذه المدرسة والمدارس الخصوصية الأخرى ، حقا أن المدارس الحربية كانت تستمد منها التلاميذ ، إلا أن المدارس الأخرى ذات الصفة المدنية لم تكن ترتاح إلى تلاميذ قصر العينى : فمدرسة الطب تستمد معظم تلامذتها الأول من الجامع الأزهر والمساجد الأخرى ، وكذلك مدرسة الألسن تستمد تلامذتها الأول من مكاتب الأقاليم .

والمدارس الخصوصية نفسها كانت فى حاجة إلى لوائح تنظم العلاقة بينها وبين ديوان الجهادية من جهـــة ، وتقوم المعوج من شئونها من جهة أخرى .

وقد اطمأنت الحكومة إلى أنه أصبح لديها طبقة من الرجال المتعلمين

الذين يمكنها أن تعتمد على معونتهم الصادقة ، وإذا كانت السنون السابقة منذ أنشئت المدارس والمكاتب كانت سنى تخبط وتجارب فعليها أن تبدأ عهد الاستقرار مسترشدة بما وضح لها من تلك التجارب ، وإذا كانت قد اضطرت فى عهد الإنشاء إلى قبول خدمات الأجانب باعتبار أنهم وحدهم كانوا عون الحكومة فى إنشاء تلك المدارس وخاصة المدارس الخصوصية والقيام على إدارتها ، وكان لهم لذلك النفوذ الأكبر فى إدارة تلك المدارس إدارة لا تحدّ منها سلطة أو لوائح ، فقد شعرت أن هذه النخبة من أهل البلاد المتوطنين بها ، الذين قامت على تهذيبهم وتعليمهم فى مصر وبلاد الغرب ، يحسن أن ينهضوا الآن بالشطر الأعظم من عبء التعليم فى مصر .

ولكن الحكومة تعلم أن هؤلاء الأجانب فى السنين التى نهضوا فيها بشئون التعليم فى مصر قد اكتسبوا خبرة بأحوال المدارس المصرية إلى خبرتهم السابقة عن التعليم فى بلادهم، خبرة تمكنهم من المساهمة بنصيب جليل فى تنظيم التعليم فى مصر على أساس كانت الحكومة تريده ثابتاً .

وهنا نصل إلى المسألة التى طالما ثار حولها الجدل — وإن اطمأن إليها جملة الذين كتبوا فى شؤون التعليم عندنا — وهى تأثير نظم التعليم الفرنسية فى النظام التعليمى الحديث فى مصر . كانت اللجنة التى وكل إليها، فى سنة ١٨٣٦، تنظيم التعليم ووضع اللوائح لكل مرحلة من مراحل التعليم — وسنذكر أسماء أعضائها بعد حين — مؤلفة من أعضاء فرنسيين : كانوا إما مديرين لبعض المدارس الخصوصية أو موظفين بالحكومة المصرية ، وأعضاء من المصريين أو المتمصرين الذين أتموا تعليمهم بفرنسا . لذلك يمكن القول إن الانسجام كان قائماً بينهم جميعاً ، وإن الصلة الثقافية التى توحّد فيما بينهم قد مكنتهم من مناقشة المسائل التى عرضوا لها فى كثير من التوافق والاتساق ، هذا والتعليم الذى كانوا يبحثون فى تنظيمه ويحاولون وضع اللوائح لمراحله لم يكن تعليما شرقيا

نابعا من الشرق ومتصلا بتاريخه وتقاليده ، بل كان تعليما غربيا اقتبسته مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر ليكون عوناً لها للقيام على ما استجدّ بها من نظم حربية وإدارية واقتصادية مستمدة هي أيضا من بلاد الغرب ، ولم تعرف مصر تلك النظم في بلاد الغرب جميعاً ، بل عرفتها، أكثر ما عرفتها ، في ذلك الشعب اللاتيني الذي يقوم كثير من مواطنيه في مصر بمساعدة الحكومة في اقتباس تلك النظم ثم التوفر على إمدادها بالحياة في خطواتها الأولى : وهو الشعب الفرنسي . وعلى ذلك كانت اللجنة التي ألفت في سنة ١٨٣٦ تسودها الثقافة الفرنسية ، حتى أن اللوائح التي وضعتها تلك اللجنة في عام ١٨٣٦ ، واللوائح الثانية التي وضعتها اللجنة التي نظمت التعليم مرة أخرى في عام ١٨٤١ وضعت أولا باللغة الفرنسية ثم ترجمت إلى اللغة العربية .(١) وقد يرجع هذا إلى أن نفراً من أعضائها كانوا فرنسيين والآخرين يعرفون الفرنسية ، ولكنه على أي حال يظهر اتجاه اللجنة العام .

على أنا لا ينبغي أن نبالغ في الأثر الذي كان للوائح الفرنسية في تنظيم التعليم في مصر . فلا يظن أحد أن اللجنة قد نقلت نظام التعليم ولوائح المدارس بفرنسا بحذافيرها إلى مصر ، متجاهلة ما لمصر من تقاليد دينية وقومية وحاجات تختلف عن تقاليد فرنسا وحاجاتها . ولكن اللجنة لم تغفل الأخذ (بالمبادىء) العامة التي كانت تسيطر على نظام التعليم في فرنسا في ذلك الوقت وأهمها تقسيم التعليم إلى مراحل ثلاث : ابتدائية وتجهيزية وخصوصية ، وكل مرحلة تُعِدُّ تلامذتها للمرحلة التي تليها . ولكنا إذا أنعمنا النظر وجدنا أن هذا التقسيم أمر طبعي منذ وجد التعليم في مختلف الأمم والعصور ،

---

(١) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركي) ص ٩٦ رقم ٦٤٠ إلى شورى المعاونة في ١٠ ذي الحجة ١٢٥٧
Bowring, Report on Egypt & Candia, p. 125.

اقتضته ضرورة إعداد الأفراد، على ما يرسم المجتمع الذى يعيشون فيه، إعدادا خاصا للمهن التى يُعَدُّون لها . فعند الإغريق القدماء، وعنهم أخذ اليونان وأخذت أوربا فى العصور الوسطى، وعند العرب . كان الأطفال يزوّدون فى طفولتهم بقسط من المعلومات الأولية، ثم يتدرج بهم إلى معلومات أكثر تعقيدا كلما تقدّم بهم العمر، حتى يصلوا إلى المرحلة النهائية وهى مرحلة التخصص للمهنة التى يعدها لهم أهلوهم والتى تتفق وقدراتهم ومكانتهم المادية والاجتماعية . وقد يجهدهم طول الشقة أو تضطرهم أسباب الرزق إلى الانقطاع عن دراستهم والخروج إلى حلبة الحياة، يتمّون فى مدرستها العملية مالم يصيبوه فى طفولتهم أو شبابهم .

ولقد عرف الأزهر هذه المراحل، أو قل هاتين المرحلتين اللتين تميّزان فى حياة الشاب المقبل على مناهل العلم : مرحلة الإعداد ومرحلة التخصص. عرف مرحلة الإعداد فى تلك «الكتاتيب» التى أنفق الطفل بين جدرانها أحلى سنى طفولته، والتى أصاب فيها القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، ثم عرف الدراسة العالية أو دراسة التخصص فى رحاب الأزهر وحول أعمدته وبين أيدى شيوخه، حين قرأ عليهم كتبا فى النحو والصرف ثم فى البيان والشعر ثم فى المنطق وعلوم الكلام والفقه، فهم يتدرجون به من (البسيط) إلى (المعقد)، ويأخذونه فى كل مرحلة من مراحل عمره بما يتفق لها من علم، حتى إذا انتهى من دراسته أصبح شيخا له ما لشيوخه من المقام المادّى والأدبى .

ولكن مدارس الإغريق القدماء والأزهر وغيره من المدارس الاسلامية ومدارس أوربا فى العصر الوسيط ، هذه المدارس لم تعرف تقسيم التعليم إلى مراحل تقسيما واضحا محدودا، ترتبط كل مرحلة منها بما تقدمتها وما تلتها، بحيث يكون التعليم وحدة قوية شاملة ، إذا تتبعت أوّله انتهى بك إلى نهايته، كما عرفته أوربا فى عصورها الحديثة، وبعبارة أخرى لم يعرف الشرق

الإسلامى أو أوربا المسيحية ما دعى بعد ذلك باسم النظم التعليمية « Educational Systems » وكذلك مصرلم تعرف النظم التعليمية إلا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . لهذا يتردد كثيرا هذا التعبير : « النظام التعليمى الحديث » فى ثنايا بحثنا هذا .

كيف إذن نشأت النظم التعليمية فى أوربا حتى درجت إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر ؟ هذا ما نرمى إلى بيانه فى الكلمات الآتية :

نشأة النظم التعليمية فى أوربا

كان القرن الخامس عشر مسرحا لنهضة أدبية اتخذت فى القرن الذى يليه صبغة دينية نقدية . دعا المصلحون فى ألمانيا وأخصهم بالذكر « لوثر » و « ملانكتون » إلى أن سعادة الأمة تتوقف على تعليم كل فرد من أفرادها ليقوم بواجبه . ومع أن هذه الفكرة لم تختمر فى مختلف البلاد الأوروبية إلا بعد انتشار الأفكار والنظريات السياسية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلا أنها تركت أثرها فقد ترتب عليها :

١ — نشأة فكرة تعميم التعليم .

٢ — وجعل التعليم إلزاميا على جميع أفراد الشعب .

٣ — وليس فى وسع هيئة غير الحكومة أن تقوم بنشر التعليم الإلزامى .

وبذلك نشأت فكرة انتقال الإشراف على التعليم من أيدى رجال الدين إلى أيدى العلمانيين ، وأهم من ذلك انتقاله إلى أيدى الحكومات ، فانها بما لها من الوسائل والأسباب التى لا تملكها هيئات غيرها يمكنها الإشراف عليه إشرافا مجديا وتنظيمه والإنفاق عليه واتخاذ الوسائل التى تمكن كل فرد فى المجتمع من الحصول على القسط الكافى من التعليم .

ولم يقتصر الأمر على حدّ التعبير النظرى بل جاوزه « ملانكتن » الى التفكير

العملى حين وضع خطة للتعليم فى سكسونيا ، كان لها أثر كبير: إذ سارت عليها المدارس الألمانية فيما بعد ، وهى أول خطة نظامية يعرفها تاريخ التربية ، ثم أكمل هـــذه الخطة حين وضع نظاما تعليميا آخر لإمارة أخرى هى إمارة فرتمبورج ، فأنشأ بها مدارس قومية لتعليم أبناء الشعب ، ومدارس ثانوية لاتينية ثم جامعة ، وسرعان ما اقتبست المقاطعات الأخرى هذا النظام من فرتمبورج .

وجاء القرن السابع عشر وقد تجلى الميل إلى الاستفادة من ذلك النقد الموجه للتربية الشكلية الجافة التى كانت تسود معاهد التعليم فى أوربا فى ذلك الوقت ، واتجه الميل إلى العناية بالحقائق والمعانى ودرسها عن طريق الملاحظة والاستقراء ، كما اتجه إلى تعميم التعليم ونقل الإشراف عليه إلى أيدى الحكومة بوضع نظم عامة للتعليم ، وكان على رأس هذه الحركة المربى « كومينوس » ، فقد وضع نظاما للتربيــة لا يفترق كثيراً عن ذلك الذى وضعه لوثر وطبقه ملانكتون سوى عنايته بالأطفال الصغار ، ويلخص نظامه فى تقسيم التعليم بين المراحل الآتية :

١ — مدارس الأمهات أو الحجور: من السنة الأولى فى حيــاة الطفل إلى السادسة من عمره ، وقد نادى « كومينوس » بأن تكون تلك المدارس فى كل بيت ، وتعلم فيها كل المواد بطريقة مبسطة : كأن يعطى الطفل أفكارا عامة عن مدلولات الأشياء المحسوسة . وتوازى هذه المرحلة فى النظم الحديثة رياض الأطفال .

٢ — مدارس الشعب : (من ٦ الى ١٢ سنة) ، وتكون فى كل قرية ، والدراسة فيها باللغة القومية . وتوازى فى النظم الحديثة المدارس الابتدائية .

٣ — المدارس اللاتينية (من ١٨ الى ٢٤ سنة) ، وتكون فى كل مدينة والدراسة فيها باللغة اللاتينية ، وتماثل فى النظم الحديثة المدارس الثانوية .

٤ — الجامعات (من ١٨ — ٢٤ سنة) وتكون فى كل إقليم .

والانتقال من مرحلة إلى أخرى يكون بحسب قدرة الطالب العقلية وميله إلى الاستمرار فى الدراسة .

حتى إذا كنا فى القرن الثامن عشر شهدنا جيل التطور : ففيه آخر نظم التفكير الذى كان سائدا فى العصور الوسطى ، وفيه نهاية النظام الاقطاعى والقضاء على امتيازات الأشراف ، وفيه تجلت فكرة الديمقراطية فى التربية ، وإشراف الدولة على شئون التعليم ، ونقله من أيدى الكنيسة إلى أيدى العلمانيين . وفيه نشأة التعليم الأولى الإلزامى ، وفيه ظهور الفردية فى التربية وفى السياسة ، فكما أعلنت حقوق الانسان أعلنت حقوق الطفل .

واحتضنت ألمانيا هذه الآراء الحديثة ، وكانت أول من طبقها : إذ نادى بها لوثر ، ثم طبقها ملانكتون فى بعض ولاياتها ، ثم لما تولى الأمر فى بروسيا فى القرن الثامن عشر سلسلة من الحكام الأقوياء أخذت سيادة الدولة تحل محل سيادة الكنيسة تدريجا .

أما فرنسا فقد تباطأت قليلا فى الأخذ بنظرية المركزية هذه ، إلى أن تولى نابليون . فنراه فى السنين الأولى من القرن التاسع عشر يقيم فى البلاد نظاما للتعليم مركزيا مُوَحَّدًا . وفى عهد لويس فيليب (١٨٣٠ — ١٨٤٨) نظم التعليم الابتدائى ، ثم جعل مجانيا وإجباريا وعلمانيا فى عهد الجمهورية الثالثة .

أما انجلترا فلم تلاق فكرة النظم العامة للتعليم من يدعو اليها حتى القرن التاسع عشر ، وذلك لما فطر عليه الانجليز من شدة المحافظة على تقاليدهم ، ولأن النزعة الارستقراطية فى التعليم كانت تغلب عليهم .

التعليم فى فرنسا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر

ولما كان نظامنا التعليمى مقتبسا فى مجموعه عن النظام التعليمى الفرنسى يجمل بنا أن نلقى نظرة على تاريخ التعليم فى فرنسا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وهو الذى يوافق فى مصر معظم سنى حكم محمد على ، حتى تتضح لنا أوجه التشابه والاختلاف بين ما كان فى فرنسا وما استحدث فى مصر . لنرى إلى أى مدى كان اقتباسنا عن فرنسا .

يقرر مؤرخو التعليم فى فرنسا أن حالة التعليم فيها فى مستهل القرن التاسع عشر كانت سيئة تدعو إلى الإشفاق . فما تزال الحكومة تجيل الرأى فى الطرق التى تتخذها لحث الآباء على إرسال أبنائهم إلى المدارس . ذلك لأن الأهالى كانوا يأنفون من إرسال أبنائهم إلى مدارس لا يمثل التعليم الدينى فى مناهجها ، وهى المدارس التى أنشئت فى سنى الثورة ، وكانت تدعى « بالمدارس المتوسطة » (les écoles centrales) . وكانت الدراسة فيها مقسمة إلى دروس لا إلى فرق كما هو الحال الآن ، ولم يكن بين المدارس المتوسطة والمدارس الأولية أو الابتدائية مرحلة وسطى من التعليم .

ولذا كان التعليم الثانوى فى مدارس الحكومة متأخراً . على أن المدارس الخاصة التى أنشأها الأفراد والجماعات كانت متقدمة : لأنها فى غالب الأمر لم تتقيد فى برامجها بمبادىء الثورة .

أما التعليم الابتدائى فقد كاد أن يكون منعدما : فالمدارس الابتدائية (الأولية) لم يكن لها وجود إلا فى مراسيم الحكومة وقوانينها .

أما التعليم العالى فلم يكن هناك ما يمثله إلا المجمع العلمى (l'Institut) كما نظمته حكومة المؤتمر ، حتى إذا ما جاء نابليون أظهر أنه يبغى إعادة تنظيمه فقلل من شأنه وشل من حركته بالغاء قسم العلوم الأخلاقية والسياسية فيه.

وكانت مدرسة الهندسة والفنون (l'Ecole Polytechnique) وحدها فى حالة متقدمة . وذلك لما كانت تتمتع به من الأساتذة الأكفاء .

كانت الحاجة ماسة إذن فى مستهل القرن التاسع عشر إلى الإصلاح ، وقامت فعلا حركة تدعو اليه . وقد رأى الكثيرون فى ذلك الوقت أن هذا الإصلاح لا يتم إلا إذا تمت وحدة التعليم، وحدة تحول دون الفوضى والتخبط . فطالبوا بأن تكون برامج التعليم وخططه واحدة فى جميع المدارس التى من نوع واحد ، ورأوا أن لا سبيل إلى ذلك إلا إذا وضعت الدولة يدها على التعليم كله فى فرنسا ، وفى ذلك يقول أحد مؤرخى التعليم فى فرنسا «إن التعليم الابتدائى (الأولى) لم يصبح حقيقة فى بلادنا إلا فى اليوم الذى وضعت عليه الحكومة يدها القوية» .(١)

وارتفعت الأصوات كذلك مطالبة بأن يُعادَ التعليم الدينى الى برامج الدراسة الثانوية (أو الكليات Collèges) وسنرى بعد أن هذه الآراء والرغبات التى أبدتها المجالس المحلية فى سنة ١٨٠١ ، قد احتضنها نابليون وشرع يطبقها فى القوانين التى أصدرها فى سنة ١٨٠٦ ، فتنظيم الجامعة الفرنسية ترجع قواعده فى الواقع إلى تلك الرغبات والآراء التى ذكرنا .

وكان على الحكومة ، فى بداية القرن التاسع عشر ، أن تلبى الدعوة إلى الإصلاح : فأصدرت فى سنة ١٨٠٢ قانونا يزيد من إشراف الحكومة على معاهد التعليم، وإن لم يحقق الفكرة التى دعا اليها بعض المصلحين : وهى نشر التعليم الأولى ، اذ نص القانون على :

١ — جعل التعليم الابتدائى من اختصاص المجالس المحلية تنفق عليه وتعين مدرسيه ، ولم يكن هذا مما يشجع على نشر هذا النوع الهام من التعليم فى بلاد

---

(١) Compayré, Hist. des doctrines, II, p.330.

لم يعترف بعد فيها بضرورة نشر التعليم ، ولم تتفتح أذهان الناس إلى فكرة الإنفاق عليه .

٢ — إلغاء المدارس المتوسطة ، مدارس الثورة ، واستبدلت بها مدارس « الليسيه » ، وتدرس فيها اللغات القديمة والأخلاق والمنطق والرياضيات ، ونظمت بها أقسام داخلية ، وبذلك زالت عن المدارس الثانوية الفرنسية الصبغة الصناعية التى كانت المدارس المتوسطة مصطبغة بها ، وقربت مرة أخرى من المناهج الكلاسيكية القديمة ، وعين لها مفتشون يشرفون على برامجها وسير الدراسة فيها .

ولكن قانون سنة ١٨٠٢ لم يقدر له البقاء طويلا : فقد كان خطوة مترددة بين مبادىء الثورة التى تقوم على الحرية ومبادىء الامبراطورية التى تقوم على الحكم والسلطة .

قوانين نابليون

صدرت فى سنين متفرقة : فى ١٨٠٦ ، ١٨٠٨ ، ١٨١١ . وأنشئت بمقتضاها الجامعة الفرنسية ، وهى هيئة منظمة تتولى شئون التعليم كله فى الامبراطورية وهى واقعة تحت إدارة الحكومة وسلطانها المباشر .

وبذلك أصبح التعليم وظيفة من وظائف الدولة ، مثله مثل القضاء والجيش وغيرهما من المرافق العامة ، إذ كان للجامعة الهيمنة على مراحل التعليم كلها ، فلا يجوز لفرد أن يفتح مدرسة إلا بإذن من الجامعة ، ولا يمكن لفرد أن يتولى التدريس فى مدرسة ما إلا إذا منحته الجامعة إجازة من إجازاتها ، وأصبح للحكومة وحدها الحق فى (التصرف) كما تشاء فى الأطفال ، « فكانت الأمهات يفدن من أقاصى الامبراطورية ، ليطلبن والدموع تسيل من أعينهن أبناءهن الذين أخذتهم الحكومة ، فما أشبه ذلك بمدارس محمد على التى ستقوم فى مصر بعد ذلك ببضع سنين !

وبذلك نشأ في فرنسا ما سمى « بالاحتكار الجامعى le monopole universitaire ». وقد ينهض الآن كثير من المفكرين الأحرار يناهضون فكرة احتكار الحكومة لشئون التعليم ، أما في مستهل القرن التاسع عشر فكثير من رجال الفكر والسياسة كانوا يرحبون بها : أن كانت الوسيلة الوحيدة إذ ذاك لنشر التعليم وإصلاح المعوج من شئونه .

ولم تكن تعنى مؤسس الجامعة خطط الدراسة بقدر ما كانت تعنيه المبادىء التي يغذى بها شباب البلاد : « الله والامبراطور » : هاتان هما الكلمتان اللتان يجب أن تنقشا فى عقول النشىء .

وبثَّ نابليون الروح الحربية فى معاهد التعليم : فنظمت الجامعة كفرقة من الجيش ، وأخضع الأساتذة والمدرسون للنظام الحربى ، فأصبح المدرسون يلبسون جميعا لباسا خاصا ، ويمنحون رتبا عسكرية ويؤدون كل شىء على نداء البوق وأضحت الكلية ثكنة عسكرية .

وإلى جانب هذه الروح الحربية لم يهمل نابليون بث الروح الدينية ، فاقتربت الجامعة بمؤسساتها التابعة لها من روح الرهبنة حتى لقد حظر الزواج على المدرسين والقائمين على شئون التلاميذ . أما التعليم الابتدائى (الأولى) أو تعليم سواد الشعب فلم يحظ من عناية نابليون بأدنى نصيب ، بل لقد ترك حق فتح مدارس أولية للعائلات أو الجماعات الدينية .

وفى أيام « الملكية العائدة la Restauration » عادت الهيئات الدينية إلى سابق نفوذها ، واشتدت المعارضة للاحتكار الجامعى واتجه الرأى إلى سلب الجامعة سلطانها ، فألغيت بعض الكليات التابعة للجامعة ، وملئت المدارس برجال الدين ، واستبدل بمجلس الجامعة ، « المجلس الملكى للتعليم العـــام "Conseil Royal de l'Instruction Publique" ، وعُيِّنَ على رأسه أسقف من رجال الدين ، وفى سنة ١٨٢١ وضع التعليم الثانوى تحت إشراف رجال

الدين ، يفتشون عن معاهده ويرفعون عنها التقارير إلى المجلس الملكى للتعليم .

أما التعليم الابتدائى (الأولى) فلم يفد من عودة الملكية شيئا . وإن أقرت الحكومة مبلغا من المال لاعانة المدارس الابتدائية القائمة ، وقررت إنشاء لجان إقليمية للإشراف عليها (قانون فبراير ١٨١٦) ولكن على الرغم من ذلك كان التعليم الأولى أقل مراحل التعليم حظا من عناية الحكومة واهتمامها. فالعمد الذين يشرفون على تلك المدارس أميون يجهلون القراءة والكتابة، بل كان بعض « المعلمين » يجهلونهما وكانت أجورهم ضئيلة . فكانوا يضطرون إلى الاشتغال بحرف أخرى يستعينون بها على حياتهم . وكانت المدارس فى أمكنة فاسدة متهدمة ، ولم تكن لتسد مطلقا حاجة الشعب إلى التعليم: إذ كان لكل خمس عشرة قرية أو عشرين قرية مدرسة ابتدائية واحدة .

قانون ١٨٣٣

لهذا كله ارتفعت أصوات المصلحين مطالبة الحكومة بالقضاء على هذه الفوضى وبالعمل على نشر التعليم الأولى فى البلاد، فكان من ذلك القانون الصادر فى سنة ١٨٣٣ وهو الذى يعرف بقانون جيزو "Guizot" وزير المعارف فى فرنسا فى ذلك الوقت ، وهو القانون الذى بدأ صفحة جديدة فى تاريخ التعليم الأولى فى فرنسا .

ميز القانون نوعين من المدارس : المدارس العامة والمدارس الخاصة ومدارس النوع الأول هى التى اهتم لها القانون أن كانت تابعة للحكومة .

ونص القانون على إن كل قرية "commune" تقوم بإنشاء مدرسة ابتدائية أولية والإنفاق عليها ، إما وحدها أو بالاتحاد مع قرى غيرها .

والقرى التى يزيد عدد سكانها على ستة آلاف نفس وكذا عواصم المديريات يجب أن يكون لها — إلى جانب المدرسة الأولية — مدرسة ابتدائية

عالية (école primaire supérieure) لتكون مرحلة وسطى بين مدارس القرى والكليات ذات الصبغة الكلاسيكية ، وتدرس بها علاوة على مواد الدراسة الأوّلية مبادىء فى الهندسة والطبيعة والتاريخ والجغرافيا وخاصة تاريخ فرنسا وجغرافيتها .

ولكل مديرية (département) مدرسة ابتدائية للمعلمين (école normale primaire) . والملاحظات الآتية على قانون ۱۸۳۳ توضح القواعد التى قام عليها القانون :

١ — لأول مرة فى تاريخ التعليم فى فرنسا نرى مبدأ قيام السلطات العامة بالإنفاق على التعليم الأولى ، فقد كان هذا النوع من التعليم قبل ذلك فى أيدى الأفراد والجماعات الدينية .

٢ — ولأول مرة كذلك توجد ميزانيات محلية للتعليم الابتدائى ، ذلك لأن التعليم يجب أن يكون بالمجان للأهالى الذين يقطنون فى القرى التى بها المدارس الأولية ، أما أهالى القرى الأخرى الذين يرسلون أبناءهم إليها فعليهم أن يدفعوا مصروفات مدرسية تضاف إلى مرتبات المعلمين ، ولكن أحدا ليس ملزما بأن يرسل أولاده إلى المدرسة .

٣ — ولأول مرة كذلك يحدد القانون الشروط التى يجب توافرها فيمن يريد أن يكون معلما بالمدارس الأولية : فعليه أن يحصل على إجازة ، لا ينالها إلا بعد امتحان يؤديه أمام لجنة يعينها الوزير ، وشهادة أخرى بحسن الأخلاق .

٤ — وحددت العلاقة بين المدرسة والمجتمع الذى تقوم فيه : إذ نص القانون على أن ينشأ بجانب كل مدرسة بالأقاليم لجنة محلية للإشراف عليها مكونة من العمدة أو نائبه رئيساً ، والراعى وبعض الأعيان أعضاء . ولهذه اللجنة حق التفتيش عن المدارس وإعفاء التلاميذ ودراسة الحاجات المدرسية للاقليم ولمجلس المقاطعة (comité d'arrondissement) التفتيش عن المدارس

وإرسال التعليمات وتعيين المعلمين وعقابهم وفصلهم ، وتستأنف قراراته أمام المجلس الملكى للتعليم العام .

٥ — نصت المادة الأولى من القانون على أن التعليم الابتدائى الأولى يجب أن يتضمن تعليما أخلاقيا ودينيا ، ذلك لأن «جيزو» كان يرى فى التعليم الدينى خير ضمان لنشر التعليم الأولى وتدعيمه فى نفوس الشعب ، ويحسن أن يتعاون القس والمعلم ، ولكن «جيزو» كان يخشى المعارضة القوية فى مجلس النواب ويخشى أن يتهم بالرجعية ، لذلك نصت المادة الثالثة على أنه يجب أخذ رأى الآباء واتباع رغبتهم فيما يخص اشتراك أبنائهم فى تلقى الدروس الدينية.

وبذلك تكون المبادىء التى قام عليها قانون جيزو هى :

١ — استبعاد الإلزام فى التعليم لأنه مضاد لحرية الأسرة .

٢ — المجان المحدود للأهالى .

٣ — التنافس بين الحكومة من جهة ، والأفراد والهيئات من جهة أخرى ، على نشر التعليم الأولى والاهتمام بشئونه .

والحق أنا إذا نظرنا إلى مدى انتشار التعليم فى فرنسا فى سنة ١٨٢٩ أى قبل وضع القانون بنحو ثلاث سنين ، ثم فى سنة ١٨٤٨ أى بعد وضعه بخمس عشرة سنة . لوجدنا البون شاسعا : ففى العام الأول كانت نسبة المتعلمين ٤٥ فى المائة فأصبحت فى العام الثانى ٦٤ فى المائة ، وأصبح نحو ثلاثة ملايين ونصف مليون من الأطفال أو نحو عشر مجموع السكان يتلقون التعليم الأولى ، وطُبِّقَ قانون سنة ١٨٣٣ كذلك على مدارس البنات فزاد عددها بعد تنفيذه من ١٠,٠٠٠ إلى ١٩,٠٠٠ مدرسة .

وبينما لم تكن الحكومة فى عهد الملكية العائدة قد أمدت التعليم الأولى فى ميزانياتها خلال ستة عشر عاما إلا بنحو ٧٤٢,٠٠٠ فرنك فانها أنفقت فى

سبعة عشر عاما ، أى طوال حكم الملك لوى فيليب (١٨٣٠ — ١٨٤٨) مبلغ ٣٧,٦٤٠,٠٠٠ فرنك . هذا عدا ميزانيات التعليم فى الأقاليم والقرى ، وتقدر بنحو ١٨٠,٠٠٠,٠٠٠ من الفرنكات[١] .

التعليم الثانوى

أما التعليم الثانوى فقد تركته الحكومه كما كان وسطا بين الاحتكار الجامعى ومطالب رجال الدين . وكان التعليم الثانوى (الحكومى) منحصرا فى كليات ملكية (Collèges royaux) وكليات اقليمية (Collèges communaux) . هذا عدا المدارس و(البنسيونات) التى ينشئها أفراد أو هيئات والمدارس الثانوية الدينية ، ولم يكن كلها يعد التلاميذ لشهادة البكالوريا .

وأخذ تعليم الطبقة الوسطى فى المدارس الثانوية يبتعد بالتدريج عن المنهاج الذى حددته الجامعة الامبراطورية ، وبعبارة أخرى أخذ يبتعد عن الروح الكلاسيكية . فالفلسفة لم تعد تدرس باللغة اللاتينية ، والتاريخ أصبح يدرسه مدرسون مختصون ، ولم يعد — كما كان — مجرد تمرين على إجادة الأسلوب ، واتجهت رغبة الرأى العام — منذ نهاية الامبراطورية — الى أن تدخل على التعليم الثانوى تغييرات تتفق والتغييرات الاجتماعية الجديدة: فقد جدّت فى فرنسا طبقات أخرى غير الموظفين والقضاة والمحامين والأطباء ورجال الحرب ، وأخذت تنمو يوما بعد يوم طبقات أخرى من التجار ورجال الصناعة ، وكان على الدولة أن تقدم لأفراد هذه الطبقات الجديدة ما يناسبهم من التعليم ، وإذا كان التعليم أداة لإعداد النشء (للحياة الكاملة) فعلى المتحدثين على شئون التعليم أن يعنوا بتحرّى حاجات البلاد الاقتصادية ، وألا يقصروا اهتمامهم على إمداد البلاد برجال فى العلوم والسياسة والادارة فحسب ، « فاللاتينية مفيدة ولكن هناك أشياء أخرى مفيدة » ، والتعليم الكلاسيكى

---

(١) Lavisse, Hist. Contemporaine, V, P. 220

اللاتيني يحسن أن يقصر على فئة خاصة من المجتمع ، أما الطالب (العادى) فله أن يلم بمعلومات عامة يستمدها مما يقرأ بالفرنسية أو باللغات الأجنبية ، وله أيضاً أن يعنى بجسمه عناية كبيرة .

وبذلك اختمرت فكرة إعادة تنظيم الدراسة الجامعيـــة . وأحسّ الجامعيون أن دراسة اللغات القديمة يجب ألا تحتل من وقت الطالب شطراً أكبر مما يحق لها وأنها يجب أن تفسح الطريق لدراسة اللغات الحديثة . ولكن الاصلاح لم يكن شاملا : فألحقت أولا مدارس تجارية ببعض الكليات الكبيرة وأجيز لها تدريس اللغات الحية ، ثم درس بها التاريخ والجغرافيا والعلوم والقانون التجارى واللغات والرسم وإمساك الدفاتر والمنطق والبيان الفرنسى . أما رجال الصناعة فقد شنوا الغارة — طوال حكم لوى فيليب — على التعليم الكلاسيكى وطالبوا بالتعليم (المهنى) أو العملى . وعلى الرغم من أن خطوات الاصلاح فى تلك الناحية من التعليم لم تصب إذ ذاك من السرعة ما كان خليقاً بها ، إلا أن المدارس وخاصة المدارس الثانوية أخذت بالتدريج تتلاءم وحاجات الطبقة البورجوازية التى تساهم فى تكاليف الدولة ، ويحق لها أن تصيب من التعليم ما يتكافأ وجهودها فى خدمة البلاد ، واشتد الشعور بضرورة إصلاح الجامعة إذا أريد لها البقاء .

حرية التعليم

على أن أشد هجوم وجه الى الجامعة والاحتكار الجامعى أتى من رجال الدين ، فقد أخذوا ينادون بحرية التعليم . ولم يكن غرضهم من ذلك سوى أن يحتكروه فى أيديهم ، فقد كانوا يرون أن الطفل الكاثوليكى يجب أن يتلقى التعليم الدينى على أيدى معلمين من رجال الدين الكاثوليك ، أما الجامعة فتعلم التلاميذ من مذاهب مختلفة على أيدى معلمين من مذاهب مختلفة كذلك ، ومن هنا كان رجال الدين يرون النقص فى التعليم الدينى .

ورأى رجال الدين أن ما ينادي به أصحاب فكرة الاحتكار الجامعي من أن الطفل ملك للحكومة توجهه حيث شاءت فيه هدم لكيان الأسرة ، إذ ليس لسلطة مدنية بالغة ما بلغت من القوة أن تنتزع لنفسها سلطة الآباء في تنشيء أبنائهم ، كما أن الاحتكار الجامعي — بطبعه معاهد الدراسة بطابع واحد — يعوق التقدم ويحول دون التنافس الذى يؤدى إلى رقى التعليم .

وفى الحرية القضاء على هـــذه الأضرار كلها . وتزعم هذه الحركة « مونتالمبر Montalembert » ونشر للدفاع عن آرائه التى أجملناها كتيبا دعاه « واجب الكاثوليك فى مسألة حرية التعليم » "Le devoir des catholiques dans la question de la liberté de l'enseignement" . وبرغم ما وضع من مشاريع لتخفيف وطأة الاحتكار الجامعي لم تتم الحرية فى التعليم إلا بعد انتصاف القرن التاسع عشر بسنوات .

التعليم فى مصر وفرنسا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر

ألسنا نجد أوجها كثيرة من التشابه بين التعليم الذى عرفته فرنسا والتعليم الذى عرفته مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ؟ وإنا لنسوق للقارىء الملاحظات الآتية علها توضح أوجه التشابه هذه :

١ — أول ما نلاحظه على الحركة التعليمية فى البلدين ذلك القسط الضئيل من العناية الذى أعطى للتعليم الأولى ، وهو تعليم سواد الشعب . فان الأغراض التى توخاها كل من نابليون ومحمد على فى فتح المدارس وإشراف الدولة عليها إشرافا تاما ، ليكون لها منها من تريد من الأعوان المخلصين ، لم تفسح المجال لتعليم الشعب . فالتعليم عند محمد على ونابليون وظيفة من وظائف الدولة ونظام من نظمها العامة لإعداد من تحتاج إليه الدولة من العمال لمختلف مرافقها .

٢ — وليس يمنع هذا أن الدولة تفسح المجال لأبناء الشعب يصيبون من التعليم أكبر حظ حتى ليصل كثير منهم إلى مناصب عالية فى الدولة . فالتعليم — وإن انتهى بتكوين أرستقراطية متعلمة فى شعب ما زالت الأمية تسيطر عليه — إلا أن بدايته ديمقراطيـة ، ذلك لأن الحكومة تنزع الأطفال من من أهليهم من دون اعتبار ما وتمنحهم جميعا (فرصـة) واحـدة من التعليم والرعاية . وللجد أو للحظ أو لما شئت من العوامل أن يفعل فعله فى تشكيل هذه (المادة الخام) وإخراج (أدوات) منها للحكومة .

٣ — وكما بدأ إنشاء المدارس الابتدائيـة الأولية أو تنظيمها فى فرنسا فى سنة ١٨٣٣ ، كذلك بدأ إنشاء المكاتب الابتدائية فى مصر فى هذا العام نفسه ، وإن لم تصب حظها من التنظيم الا بعد ذلك بسنوات ثلاث . ولكنا نجد ظاهرة غريبة فى هذا التنظيم : فتنظيم التعليم الابتدائى فى فرنسا بقانون ١٨٣٣ كان حافزاً لانشاء عدد كبير من المدارس ، بلغ فى العام التالى ٢٢٧٥ مدرسة ابتدائية ، بينما كان تنظيم التعليم الابتـدائى فى مصر بقانون ١٨٣٦ حافزاً لالغاء بعض المكاتب التى كانت موجودة قبل هذا التاريخ والاقتصار على خمسين مكتبا أو مدرسة ابتدائية .

٤ — وكان التعليم الأولى والابتدائى واحداً فى كلتا الأمتين : فالمدرسة الابتدائية هى فى الوقت نفسه مدرسة أولية تتلق أفراد الشعب وتمدهم بقسط أولى من التعليم . غير أن الفرنسيين أحسوا أن هذه المدارس الابتدائيـة الأولية لا تكفى لاعداد التلاميذ للمدارس الثانوية ، فأنشئت فى قانون ١٨٣٣ مرحلة وسطى بين التعليم الابتدائى الأولى والتعليم الثانوى : وهى مدارس التعليم الابتدائى العالى (écoles primaires supérieures) أما فى مصر فقد ظلت المدارس الابتدائية الأولية أو مكاتب المبتديان وحدها طوال عصر محمد على المدارس التى تُعِدُّ التلاميذ — بخطة دراسية ضعيفة فى ثلاث سنوات —

لمدارس التعليم التجهيزى . ومن هنا أتيح للتعليم الثانوى وما يليه من مراحل التعليم فى فرنسا القوة والتعقد ، بينما ظل التعليم الثانوى فى مصر سقيما يحتاج الى شديد العناية ، وبذلك كان إنتاج المدارس الخصوصية ضعيفا .

٥ – أما اذا تركنا الهيكل الأساسى للتعليم وبحثنا فى مناهج التعليم نفسها ، لوجدنا ألوانا أخرى من التشابه : فالتعليم الدينى يحتل شطراً كبيراً من الدراسة بالمدارس المصرية والفرنسية وخاصة فى عهد نابليون . فالمثل الأعلى لمدارس نابليون هو « الله والأمبراطور » ، وهذا المثل الأعلى هو الذى حمل المدارس على الاهتمام أكبر الاهتمام بالتعليم الدينى لتخريج فرنسيين مؤمنين يعرفون واجبهم نحو ربهم ، وهو الذى حملها كذلك على أن تأخذ تلاميذها بألوان من التنظيم الحربى لتخريج مواطنين يعرفون واجبهم نحو أمبراطورهم .

فالروح الحربية قو بثها نابليون فى الجامعة الأمبراطورية وما يتبعها من معاهد الدراسة حتى لقد تحولت المدارس الى ما يشبه معسكرات أو ثكنات يؤدى كل عمل فيها على نداء البوق ، والمدرسون فيها هم الضباط ، والطلبة الجنود .

وكذلك مدارس محمد على : تبذل فيها أكبر العناية — وخاصة فى المكاتب الابتدائية — بالتعليم الدينى حتى ليشغل القرآن الكريم من اليوم المدرسى نصفه تقريبا . أما الروح الحربية فواضحة كل الوضوح فى المدارس المصرية : فالتلاميذ ينزعون من أهلهم ويؤخذون بفنون من النظام الحربى ليس هنا موضع الحديث عنها .

وكما باعدت الروح الحربية بين مدارس نابليون والمجتمع الذى تقوم فيه وأحالتها الى (ثكنات) منفصلة عن المجتمع ، كذلك كان الانفصال واضحا بين مدارس محمد على والمجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . وإذا كانت المدارس الفرنسية — بعد نابليون — قد تخلصت أو كادت

من تلك الروح الحربية التى باعدت بينها وبين المجتمع الفرنسى ، فان مدارس محمد على ظلت تسودها الروح الحربية . بل ما زال التعليم عندنا الى الوقت الحاضر يقاسى فنونا من تلك الروح ، ومازالت المدارس — لهذا السبب ولغيره من الأسباب — منفصلة عن المجتمع المصرى ، وما زلنا لذلك نقاسى ألوانا من الأدواء الاجتماعية .

٦ — وكما كان التعليم الدينى يحتل شطرا كبيراً من منـــاهج الدراسة الابتدائية كذلك كان التعليم « الكلاسيكى » يحتل شطراً كبيراً من مناهج الدراسة الثانوية . بل إن المدارس الثانوية الفرنسية كانت كلهـا فى مناهجها « كلاسيكية » ، ينحصر الاهتمام فيها باللغات اللاتينية ، ولم تكن اللغات الحية تلقى فيها أدنى عنـــاية ، والعلوم الاجتماعية كالتاريخ والجغرافيا والأدب لا يعطى لها الاهتمام الخليق بها . وكذلك يمكننـا أن نقول إن التعليم « الكلاسيكى » كان يشغل شطراً كبيراً من مناهج الدراسة التجهيزية بمصر : فالعناية فيها كبيرة بدراسة اللغتين الشرقيتين : التركية والفارسية ، ولم تبدأ اللغة الفرنسية تأخذ مكانها فى خطة الدراسة التجهيزية إلا فى السنين الأخيرة من عصر محمد على .

وتتمثل الروح « الكلاسيكية » كذلك فى تلك الكتب (الأزهرية) التى أُخِذَ التلاميذ بقراءتهـــا فى المدارس المصرية . وقد أحالت الروح « الكلاسيكية » تلاميذ المدرسة التجهيزية — فى فرنسا وفى مصر — الى (كتب) متحركة تحفظ عن ظهر قلب مصطلحات لغوية لا تغنى فى الحياة شيئاً . ولا شك فى أن هذه الروح « الكلاسيكية » كانت — هى الأخرى — من العوامل التى باعدت بين المدارس الفرنسية والمصرية وبين المجتمع الفرنسى والمصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

ومجال المقارنة هنا متسع بين المدارس الفرنسية الثـانوية — وربيبتها

المصرية — وبين المدارس الانجليزية التى تعنى أكبر العناية بالمواد الاجتماعية، وبما ينمى فى الطالب الشعور بالاستقلال والمسئولية ، وبما يدرّبه على الاعتماد على النفس ، وبما يعود على جسمه بالصحة والنشاط .

٧ — أما فى الإدارة التعليمية ، فالمركزية ، تسود التعليم فى فرنسا وفى مصر : فالجامعة الامبراطورية — فى عهد نابليون ثم فى السنوات التى تلته — تحتكر التعليم فى البلاد وتشرف على المدارس كلها ، والجامعة بدورها خاضعة كل الخضوع لنابليون : منه تستمد سلطتها وكيانها ، وكل أمر من أمور التعليم مرجعه إلى إرادة العاهل الكبير . فلما سقط نابليون وبدأت سلطة الجامعة الامبراطورية فى الانحلال استبدل بمجلس الجامعة «المجلس الملكى للتعليم العام» ، ومنه تصدر الكلمة الأخيرة فيما يخص فتح المدارس أو إلغاءها وتعيين المدرسين وعقابهم وفصلهم . . . الخ

على أنه مما يخفف هذه المركزية تلك الهيئات الاقليمية التى أنشئت لتشرف على نشر التعليم الابتدائى الأولى فى الأقاليم عقب وضع قانون ١٨٣٣، ولكن قرارات هذه الهيئات كانت ترفع إلى المجلس الملكى للتعليم وله كما قلنا الكلمة الأخيرة .

وكذلك مصر : كان كل شىء فيها مرجعه إلى الحكومه أو قل الى إرادة محمد على . ولو أن مصر لم يكن لها تلك «المؤسسة» العظيمة ونعنى بها الجامعة الامبراطورية ، إلا أن لها أولا ديوان الجهادية ، وينظر فى شئون المدارس ويقرّ فيها ما يرى ، ومن ورائه محمد على ترفع إليه قراراته . ومنه تستمد المدارس وغير المدارس كيانها . فلما تقدم (العمل) ووضح لمحمد على أن تكوين هيئة «فنية» تشرف على التعليم فى مصر أجدى عليه من تبعيته لديوان الجهادية، أنشأ « شورى المدارس » أو « مجلس المدارس » بعد سنوات من إنشاء المجلس الملكى للتعليم فى فرنسا . ولكن مجلس المدارس لا يدوم طويلا : إذ

تشتدّ (البيروقراطية) فيلغى مجلس المدارس ويتحول الإشراف على فروع التعليم كلها إلى إدارة واحدة : هى « ديوان المدارس » .

أما فى إدارة التعليم الابتدائى فوجه الشبه واضح كذلك : فالمدارس الابتدائية الأولية فى فرنسا منذ إنشائها توضع تحت إشراف السلطات الإقليمية . وكذلك فى مصر وضعت المدارس الابتدائية فى العهد الأول من إنشائها تحت إشراف رجال الادارة فى المديريات ، ينفذون فيها أهواءهم فى الأمور « الإدارية » كإمدادها بالغذاء والكساء والأدوات والمرتبات ، بل وفى الأمور « الفنية » كتعيين المدرسين ووضع اللوائح وغير ذلك . فلما أنشىء شورى المدارس كان طبيعيا أن ينزع من المديريات الإشراف « الفنى » وإن بقى لها الإشراف المالى حتى إلغائها فى أوائل حكم عباس الأول .

على أن إشراف السلطات الاقليمية على مدارس التعليم الأولى فى فرنسا كان أكثر تنظيما منه فى مصر بتلك الهيئات الاقليمية التى أشرنا اليها .

٨— وهنا طريقة فى التعليم يرجع أصلها إلى الانجليز لا إلى الفرنسيين : وهى طريقة العرفاء أو (القلفوات) : (Monitorial System) ويسميها الفرنسيون التعليم المتبادل (L'enseignement mutuel) : وتقوم على أن التلاميذ المتقدمين فى السن أو الدراسة يبسطون رعايتهم على التلاميذ المتأخرين والجدد ، يشرفون على شئونهم ويمدونهم بالمبادىء الأولية من علوم المدرسة وقد يعيدون لهم دروس معلميهم . ولكن الراجح أن مصر لم تقتبس هذا النظام — إن كانت قد اقتبسته — من انجلترا ، إنما أخذته عن فرنسا حيث بدأ هذا النوع من التعليم فى فرنسا منذ سنة ١٨١٤ ، وكان ، بعدُ ، الأصل الذى نشأ منه التعليم الابتدائى المدنى فى فرنسا .

هذه أوجه الشبه العامة بين التعليم فى فرنسا والتعليم فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ويمكن تلخيصها فيما يلى :

١ — التعليم وظيفة من وظائف الدولة ، والدولة فى سبيل الإشراف عليه تحتكره لتوجهه الوجهة التى تراها محققة أغراضها .

٢ — والمركزية تسود إدارته وتنشر على معاهد الدراسة ظلا من التشابه والوحدة فى النظم الادارية والمناهج وغير ذلك .

٣ — الروح الكلاسيكية تسود مناهج الدراسة ولا تترك إلا فراغا ضئيلا للمواد الاجتماعية والتربية الرياضية .

٤ — التعليم الأولى لم يحظ بالعناية الخليق بها وخاصة فى مصر

٥ — الروح الحربية تسود المدارس وتجعل منها ثكنات عسكرية يخضع التلاميذ فيها للنظام الحربى .

٦ — تعليم العرفاء أو طريقة التعليم المتبادل .

ولكن أى عصور التعليم فى فرنسا اقتبست مصر منها نموذجها أو كان على الأقل المثل الذى احتذته فى نظامها التعليمى الحديث ؟ لا شك فى أن عصر نابليون كان — بين عصور التعليم فى فرنسا — المثل القوى البراق الذى اجتذب اليه واضعى النظام التعليمى الحديث فى مصر : فتشابه طبيعة الحكم فى مصر فى عصر محمد على وفى فرنسا فى عصر نابليون كان يؤدى إلى تشابه كثير من النظم فى البلادين . فالنشاط السياسى والاقتصادى والادارى والعلمى فى كل من الدولتين كان موجهاً لخدمة القوة الحربية ، وقوى الدولة كلها مسخرة لخدمة الجيش والقيام على شئونه ، والتعليم — وهو كما ذكرنا وظيفة من وظائف الدولة الأساسية ، تقوم به الدولة لتنشىء شباب البلاد وتوجه الأفكار فيها إلى ما تريد وتشكله تبعاً لأغراضها — من القوى الأساسية التى تعنى بها الحكومة لضمان هذا « التوجيه » وهذا « التشكيل » على ما تهوى . فالروح العامة التى تسيطر على التعليم فى عهد نابليون كانت لاشك تلقى صداها وتجد من يرتاح اليها فى مصر فى عهد محمد على .

والفرنسيون الذين جاءوا إلى مصر فى عهد محمـــد على كانوا من رجال أمبراطورية نابليون الذين تشبعوا بسياستها وحذقوا نظمها ، حتى إذا أقبلوا إلى مصر بعد سقوط الأمبراطورية حملوا معهم هذه النظم ، وكان لهم أكبر الأثر فى تشكيل النظم (المصرية) فى النصف الأول من القرن الماضى .

ولسنا نود أن نعود فنتتبع أوجه الشبه مرة أخرى ، ففيما ذكرنا عن احتكار التعليم والمركزية والروح الحربية والتعليم الكلاسيكى الكفاية .

ولكن إلى أى مدى كان اقتباس مصر عن النظم التعليمية الفرنسية ؟ أو بعبـــارة أخرى هل اقتبست مصر عن فرنسا كل أوجه الشبه التى ذكرنا من غير مراعاة لأحوال البلاد السياسية والاقتصادية فى ذلك العهـــد ؟ أم كان لمصر من العوامل الخاصة فى السياسة والاقتصاد ما ينزع بها إلى قبول هذه النظم ، بل إلى وضعها إن لم يكن إلى اقتباسها من سبيل ؟

ونظن أنا قد ألمعنا فى الفصلين السابقين إلى ما يحمل فى طياته الإجابة عن هذا السؤال ، والملاحظات الآتية تلقى ضوءاً على تلك الناحية الهامة من السياسة التعليمية فى مصر :

١ — فاحتكار حكومة محمد على التعليم فى مصر — وخاصة التعليم الذى يؤدى إلى خدمة الدولة بتخريج الموظفين الذين يقومون على مرافقها — كان له ما يدعو اليه ويحتمه من حالة مصر السياسية والاقتصادية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . فمصر فى ذلك الوقت كانت تتحول إلى دولة عسكرية على رأسها حاكم أتوقراطى يعبئ قوى الدولة كلها لخدمة أغراضه الحربية . ولما كان التعليم الأداة الكبرى — فى يد الحكومة — لإمداد الجيش بما يلزمه من الأطباء والضباط ولامداد الادارة الحكومية بما يلزمها من الموظفين عملت الحكومة على احتكاره فى يدها حتى يتسنى لها الاشراف على تخريج أعوانها وعمالها .

ويوضح ذلك أن الحكومة لم تحتكر التعليم كله فى مصر ، بل احتكرت التعليم الذى أنشأت لتحقيق أغراضها وأهملت غيره من التعليم : وهو التعليم فى الأزهر والمساجد وكتاتيب القرى ، فقد كان يتّجه وجهة تخالف الوجهة التى تتجه اليها مدارس الحكومة ولم تحاول الحكومة أن تحوّله عن تلك الوجهة إلى أخرى تتفق وأغراضها ، كما أهملت أيضاً العناية بالتعليم الأولى ، تعليم الشعب ، وقصرت اهتمامها بالتعليم « فوق الأولى » ، وهو الذى يخرج لها الأعوان والموظفين .

وهذه الحقيقة توضح لنا حقيقة أخرى غير احتكار التعليم : وهى الادارة المركزية . ذلك أن أوجه النشاط جميعا فى مصر — من تجديد فى الأساليب الزراعية والصناعية والتعليمية والادارية كان باعثه إرادة فرد واحد هو محمد على ، وكان محمد على يعلم أن بقاء أوجه النشاط هذه يتطلب منه أن يقوم على صيانتها وحمايتها من عوامل الضعف والجهل والعبث ، وأن يظل مشرفا عليها يبث فى روحها من روحه ، حتى إذا « تكوّن » الرجال المخلصون الأكفاء سلم لهم « الوديعة » ، وإن ظل مشرفا عليهم موجها لهم فى الطريق الذى رسم مقوما من أخطائهم .

لهذا كله كانت أمور التعليم كلها — وخاصة فى عهد النشأة الأولى — مردها إلى إرادته : فهو الذى يصدر أوامره بشأن افتتاح المدارس أو إغلاقها ، وإليه ترفع تقارير المفتشين فيقرر فى شأنها ما يراه . ثم لما أنشىء ديوان المدارس أصبح مرجع المدارس فى كل جليل أو تافه من الأمور : فهو الذى يضع المناهج ويقرّ توزيع التلاميذ على الفرق الدراسية ويعين الموظفين ويعزلهم ويوقع عليهم العقوبات ، بل لقد تشتد المركزية فلا ترسل الأدوات — حتى التافه منها — إلا بعد إذنه ، والتلاميذ لا تفصلهم مدارسهم إلا بعد الكشف عنهم فى القاهرة ، والتلميذات اللاتى يراد ألحاقهن بمدرسة الولادة

يرسلن إلى الديوان ليراهن «أربابه» ، وتلاميذ قد يرفعون شكواهم من أحد موظفى المكتب فلا يكتفى الديوان بما أجرى من تحقيق ، بل يستدعى إليه الشاكين لفحص شكواهم . وغير هذا كثير من مظاهر المركزية أو البيروقراطية الشديدة .

والواقع أنه — إذا استثنينا الشئون التافهة التى كان يحق أن تترك للمدارس تتصرف فيها على ضوء حاجاتها — كان فى إشراف ديوان المدارس على معاهد الدراسة فى ذلك الوقت ضمان كبير لسيرها جميعا وفق أغراض الحكومة ، ذلك لأن « التقاليد » كانت تعوز المنشئات العلمية ولم تتكون لها من « الشخصية » ، ولا لرجالها من القدرة الفنية ما يؤهلها للاضطلاع بقسط كبير من الاستقلال الذاتى ، فلم يكن مندوحة لمعاهد التعليم من الاعتماد على هيئة إدارية قوية حازمة منظمة تُعينُها جميعا إلى الاتجاه الصحيح .

٢ — أما الروح الحربية فقد بثها محمد على فى معاهد الدراسة : وتتمثل فى تلك الأبواق تدوى فى أنحاء المدرسة تدعو التلاميذ إلى أن يقبلوا على عمل أو ينصرفوا عن آخر ، وفى تلك الصفوف (الطوابير) ينتظمون فيها إذا نهضوا من النوم أو أقبلوا الى حجرات الطعام أو الدراسة أو خرجوا إلى حمامات البلد أو إلى (حلاق) المدرسة ، أو مضوا مع ضباطهم فى نزهة إلى الخلاء . وتتمثل تلك الروح الحربية كذلك فى تلك الرتب يمنحها المتفوقون من التلاميذ ويضعون (شاراتها) على أذرعهم وبما تخوله لهم من رعاية إخوانهم الصغار وقيادة زملائهم الآخرين ، وتتمثل فوق ذلك فى أولئك الجند ينبثون فى القرى يقودون التلاميذ الفارين أو يقبضون على نفر من الأطفال ليتمّوا بهم مكتبا تناقص عدده ، وتتمثل أيضاً فى أخذ التلاميذ — حتى تلاميذ المكاتب أحياناً — بتعلم إطلاق النار وتسديد الرماية . وجملة القول كانت الروح الحربية من القوة والوضوح بحيث كادت

تحول المدارس إلى ثكنات عسكرية ، وكانت لذلك من العوامل القوية فى صرف جمهرة الناس عن مدارس محمد على وخاصة فى عهد نشأتها الأولى .

أما إن هذه الروح الحربية كانت تستلزمها الأحوال فى ذلك الوقت فأمر جلى واضح : ذلك لأن مصر كانت كما قلنا تتحول فى عصر محمد على إلى دولة عسكرية ، فالنظام الحربى هو المحور الذى تدور حوله أوجه النشاط الاقتصادية كلها وهو خير كفيل بتعبئتها جميعاً لخدمة الدولة . ولما كانت مدارس محمد على تُعِدُّ الشباب لخدمة هذه الدولة العسكرية — سواء فى جيشها أو دواوينها أو مصانعها — فقد رأت الحكومة أن أخذهم بالنظام الحربى يتفق والمستقبل الذى تعدّه لهم حتى ينشئوا متشبعين بسياستها عاملين على تحقيقها .

هذا إلى أن النظام الحربى فيه ، إلى ترويض الجسم ، تعويد على الطاعة والنظام واحترام السلطة وتضحية النزعات الفردية فى سبيل الجماعة ، وهذه كلها من المبادىء التى يقوم عليها حكم محمد على .

٣ — أما التعليم (الكلاسيكى) الذى كان يسود مدارس محمد على والذى يفسر منح أكبر قسط من اليوم المدرسى لتحفيظ القرآن الكريم ، والاقتصار فى تدريس اللغات على اللغتين الشرقيتين التركية والفارسية دون اللغات الحية ، وإفساح المجال لكتب الأزهر فى المدارس الابتدائية والتجهيزية وبعض المدارس الخصوصية ، فإنا نرى أنه — أى التعليم الكلاسيكى هذا — يرجع أيضاً لا إلى مجرد الاقتباس عن فرنسا بل إلى طبيعة الأحوال نفسها فى مصر فى ذلك الوقت . فالتربية الشرقية كانت ما تزال قوية فعالة ، والتربية الشرقية كما عرفها الأتراك والمماليك فيما يأخذون به غلمانهم من العلم ، وكما عرفها أهل البلاد المتردّدون على معاهد التعليم الدينى ، كانت تبذل أكبر العناية بتحفيظ القرآن وقراءة كتب الدين .

أما دراسة اللغة التركية فقد كانت جد لازمة فى ذلك الوقت : أن كانت لغة « الارستقراطية » التركية الحاكمة ، وسواء أكانت هذه الارستقراطية من الترك أنفسهم أو من المصريين أو (المتمصرين) فقد كانت اللغة التركية لغتهم التى يتحدثون بها وكانت لذلك لغة (الطبقة الراقية) ، ومن هنا تلك العناية التى كانت تبذل لتدريسها بالمدارس المصرية . أما اللغة الفارسية فأوجه الشبه بينها وبين التركية كبير ، هذا إلى أنهـــا كانت لغة (أجنبية) يهتم لها الأغنياء من الناس .

أما كتب الأزهر فلم يكن أمام الحكومة إذ ذاك غيرها فى تدريس اللغة العربية ، لهذا مضت فى إنشاء المدارس وتنظيمها مستعينة فى دروس العربية بكتب الأزهر على ما فيها من قصور .

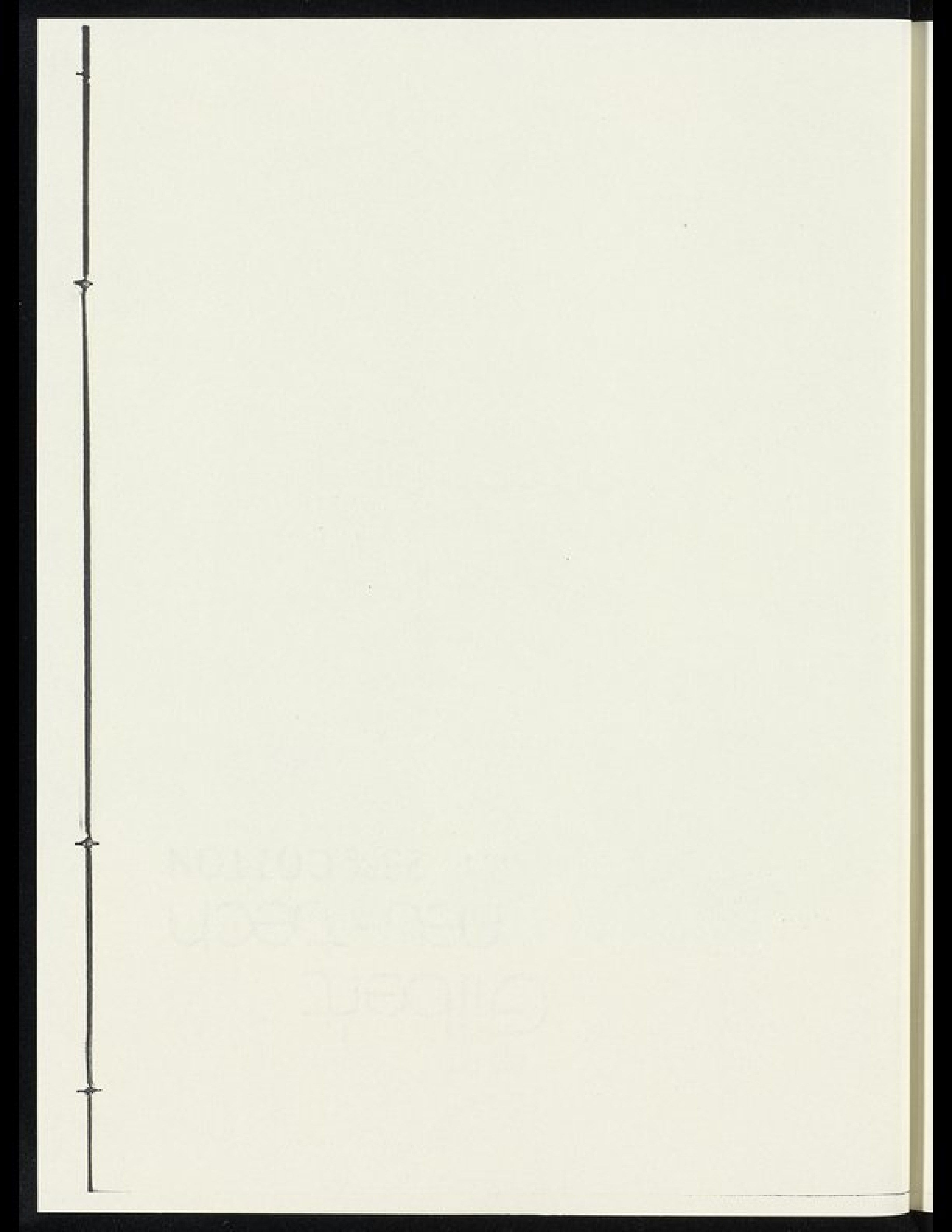
٤ — حتى « التعليم المتبادل » وهو الذى يبدو أنه من النظم الغربية التى اقتبستها مصر ، عرفته مصر قبل مدارس محمد على فى الأزهر والـكتاتيب ، حيث كان يقوم التلامذة المتقدمون فى دراستهم بإرشاد المتأخرين أو الجدد من التلاميذ ، فكانوا بذلك (الواسطة) بين التلاميذ ومعلميهم ، وسنرى حين نتحدث عن معـاهد الدراسة الأثر الـكبير الذى ساهم به هؤلاء التلاميذ « العرفاء » أو « القلفوات » أو « المعيدون » أخيرا فى التدريس للفصول المتأخرة والاشتراك مع ضباط المدرسة فى ضبط التلاميذ .

لهذا كله يحق لنا أن نقول إن التعليم الحـديث فى مصر ، وإن اكتسب نظامه من الغرب ، إلا أن روح التربية الشرقية كانت تلازمه وتصبغه بصبغة (كلاسيكية) خاصة ، وإن تأثير النظم الفرنسية التعليمية ، وإن يكن ظاهراً ، إلا أن مصر بظروفها الخاصة السياسية والحربية والاقتصادية كانت مستعدة لقبول هذه النظم والتأثر بها .

الكتاب الثانى

تطور النظام التعليمى

فى عصر محمد على



تطور النظـــام التعليمى
فى عصر محمد على

فى الفصول السابقة أجملنا تاريخ التعليم الحديث فى عصر محمـــد على وإبراهيم ، ومنه يتضح أن هذا التعليم ، فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، لم يكن من القوة والثبات والتنظيم على حال واحدة . وفى هذا الكتاب نفصل الأدوار التى مرت بها الحركة التعليمية أو النظام التعليمى فى عصر محمد على ، ويمكن تلخيصها فيما يلى :

الدور الأول — نشأة التعليم الحديث : من سنة ١٨١١ إلى سنة ١٨٣٦

» الثانى — التنظيم الأول : » » ١٨٣٦ » » ١٨٤١

» الثالث — التنظيم الثانى : » » ١٨٤١ » » ١٨٤٨

» الرابع — النهضة الأخيرة : محاولة التجديد ونشر التعليم .

الفصل الأول

نشـــأة التعليم الحديث

١٨١١ — ١٨٣٦[١]

بعد مذبحة المماليك فى سنة ١٨١١ صار غلمانهم ومماليكهم ملكا لمحمد على، فاستخدم كبارهم فى قواته الحربية غير النظامية (الباشبزوق) ، وجمع صغارهم فى القلعة فى مدرسة على مثال المدارس التى كان أمراء المماليك يقيمونها فى قصورهم ، وأحضر لهم المعلمين يعلمونهم القراءة والكتابة واللغة التركية والفنون الحربية ، ثم زيد عليها الرسم والرياضيات واللغة الايطالية ، وكانت فى ذلك الوقت اللغة « الافرنجية » (Lingua franca) الأكثر تداولا فى الشرق .[٢]

أراد محمد على بعد ذلك تطبيق النظم الحربية الغربيـة على قواته الغير النظامية من الأتراك والألبانيين فثاروا عليه ، واضطروه أن يعدل عن مشروعه وإن ظل فى قرارة نفسه مصمما على تنفيذه . ثم رأى — حين سنحت الفرصة على نحو ماسنرى حين نفصّل الكلام عن المدارس الحربية — أن يبدأ بتكوين فرقة من الضباط المدربين على الأساليب الحديثة ، فأرسل كبار تلاميذ القلعة وبعض غلمانه وغلمان كبار موظفيه إلى أسوان حيث أنشئت لهم مدرسـة

---

(١) معاهد الدراسة التى يأتى ذكرها فى هذا الفصل سيعاد الكلام عنها فى مواضع أخرى باسهاب وتفصيل

(٢) Artin Pacha, L'Instruction Publique en Egypte. P.69.

حربية يتعلمون فيها على أيدى المدربين الأوربيين ، وعلى رأسهم الكولونيل سيف ، الذى تسمى بعد باسم « سليمان باشا الفرنساوى » .

ثم أسست « الدرسخانة الملكية » لاعداد موظفين لدواوين الحكومة و « مدرسة الادارة الملكية » لتخريج موظفين ومترجمين يقومون بنقل الكتب التى ترغب الحكومة فى نقلها من الفرنسية أو الايطالية إلى العربية أو التركية .

وفى فترات مختلفة أنشأت الحكومة مدارس الطب والطب البيطرى والزراعة والمهندسخانة والألسن ، والمدارس الحربية كأركان الحرب والمشاة والفرسان والمدفعية ، وكلها أنشئت قبل تنظيم المدارس فى سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧ .

ولإمداد المدرسة الحربية بالتلاميذ أنشئت بقصر العينى مدرسة تجهيزية ، وستتقصّى تاريخ هذه المدرسة فيما بعد ، ونكتفى هنا بأن نذكر أن هذه المدرسة أنشئت فى سنة ١٨٢٥ وألحق بها نحو الخمسمائة من أبناء الترك والشركس والألبانيين والأرمن ، فجلهم من غير أهل البلاد ، ولكنهم أقاموا بها وتمصّروا ودخل آباؤهم فى خدمة الوالى ، ولم يكن يتسنى أن يدخلها من أبناء البلاد إلا من « ساعدته الواسطة » [١] . ولذلك كان التعليم فيها أول إنشائها معظمه باللغة التركية ، وكان يعلم بها القرآن والقراءة والكتابة واللغات العربية والتركية والفارسية . ولما كانت هذه المدرسة تعد تلامذتها للالتحاق بالمدارس الحربية وغيرها من المدارس الخصوصية فقد أضيفت إلى هذه المواد مبادىء فى الحساب والهندسة والجبر والرسم واللغة الايطالية ، وهى اللغة الأوربية التى يتكلمها أكثر المعلمين الأجانب بالمدرسة الحربية .

وفى هذا الدور أنشئت المكاتب الابتدائية بالأقاليم ، حتى ليصل عددها

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية م ٣ ج ٩ ص ٤٠

قبيل الشروع فى تنظيمها الى سبعة وستين مكتباً .

وفى هذا الدور أيضاً بدأ محمد على يرسل البعوث العلمية إلى مختلف البلاد الأوربية ، وخاصة إلى إيطاليا وفرنسا للتخصص فى مختلف العلوم والصناعات .

هذه هى المحاولات الأولى التى قامت بها حكومة محمد على من سنة ١٨١١ إلى سنة ١٨٣٦ لتطبيق التعليم الغربى الحديث فى مصر . والملاحظات الآتية تلقى ضوءاً على هذه المحاولات :

١ — ليس من الإنصاف أن نبخس هذا الدور من تاريخ التعليم فى مصر حقـّـه . ففيه أنشئت المدارس التجهيزية والخصوصية التى قدر لها أن تعيش إلى نهاية عصر محمد على ، وفيه أنشئت المكاتب الابتدائية التى نظم بعضها بعد ذلك وألغى بعضها الآخر ، فليس حقًّا اذن ما يردده بعض الكتاب من أن حكومة محمد على لم تكثر من فتح المدارس ولم تتوسع فى نظام التعليم إلا بعد إنشاء ديوان المدارس فى سنة ١٨٣٦ ، فان هذه المدارس كلها التى عاشت إلى نهاية عصر محمد على كانت موجودة قبل إنشاء الديوان ، بل كان غيرها موجودا كذلك ، وكل ما أصابها فى سنة ١٨٣٦ كان تنظيمها طبقا للوائح التى سنت فى هذا العام ، بل إن المكاتب الابتدائية — كما سنرى — قد نقص عددها بعد سنة ١٨٣٦ نحو الخمسة والعشرين مكتباً .

٢ — كانت هذه المدارس قبل سنة ١٨٣٦ تابعة لديوان الجهادية : فقد كان الباعث الأول لانشاء كثير منها حربيا محضا ، وكانت الصبغة الحربية غالبة فيها ، ففى المدرسة التجهيزية كانت «واجبات الوظائف مجهولة بها والتربية والتعليمات غير معتنى بها ، بل كان جل اعتنائهم بتعليم المشى العسكرى ، فكان ذلك فى وقت الصبح والظهر وبعد الأكل وفى أماكن النوم » .[1]

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية م ٣ ج ٩ ص ٤٠

حقاً إن المدارس لم تتخلص بعد ذلك من الصبغة الحربية إلا أن العناية وجهت — فى الدور الثانى — الى تقوية الدراسة المدنيـــة بها كاللغات والرياضيات وغيرها .

٣ — ولم يكن لهذه المدارس لوائح عامة تسير عليها ، فكانت المسألة « اجتهادية » أكثرمما تخضع لنظام موضوع: فالمدارس الخصوصية كان لكل منها مدير — أجنبى فى أول نشأتها — ينفذ فيها النظام الذى يرى . والواقع أنه لم يكن ثمت حاجة إلى لوائح تنظمها جميعا : فقدكانت لكل منها «شخصية» مستقلة عن الأخرى . والواقع أنه كان لديوان الجهادية من المشاغل الأخرى التى ابتعثتها الحروب الطويلة التى كانت مصر تخوض غمارها فى ذلك الوقت ما يشغله عن إدارة هذه المدارس إدارة دقيقة بحيث يكون مرجعا لكل مادقّ وجلّ من أمورها ، فضلا عن أنه لم يكن لرجال الجهادية من الكفاية (الفنية) ما يمكّنهم من الإلمام بالدروس التى تلقى فى جميع المدارس الخصوصية، حتى يكون لهم صوت مسموع فى وضع برامجها والتدخل فى شئونها ، لذلك كله تركت المدارس الخصوصية — وخاصة تلك التى يرأسها مديرون من الأجانب كمدارس الطب والطب البيطرى والمدارس الحربية — فى أيدى مديريها ينظمونها كيفما شاءوا . وكان هؤلاء المديرون مرتاحين الى «استقلالهم» فى مدارسهم وإلى تلك «اللامركزية» فى شئون التعليم . يقول الدكتور كلوت بك مدير مدرسة الطب : « ولكن انحلال الرابطة بعدم وجود نظام شامل لها (أى للمدارس) أفادها فى بادىء الأمر فائدة لاتنكر، فقد قامت بينها قائمة التناظر والتنافس على وجه زجّ ببعضها فى طريق التقدم ، فقطعت منه أشواطا بعيدة بخطوات حثيثة من غير أن يقيد سيرها فيه نظام مسنون من قبل»[١].

أما هامون "Hamont" مدير مدرسة الطب البيطرى فقد امتدح العهد

---

(١) كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر ج ٢ ص ٤١٦

الذى كانت فيه المدارس تابعة للجهادية، ولكنه كان يرى أن ديوان الجهادية مكوّن من عناصر متباينة يجمع بينها الخوف والحرص على خدمة الحاكم القوى، ولذلك كان النزاع كثيرا ماينشب بين المدارس من جهة، ورجال الديوان من جهة أخرى. ويضيف «هامون» أن هذا النزاع هو الذى حدا بمحمد على الى تكوين لجنة عهد اليها النظر فى تنظيم المدارس، وهى اللجنة التى وضعت لوائح التعليم فى سنة ١٨٣٦.(١)

وكان هناك مدير أجنبى آخر هو الدون دى سيجويرا الاسبانى "De Seguera" مدير مدرسة المدفعية، حمله حبه للاستقلال فى عمله على ترك خدمة الحكومة المصرية، فقد أعلن — حين دعته اللجنة التى وكل اليها تنظيم التعليم إلى إبداء آرائه — أنه لايقبل أن يتدخل أحد فى شأنه وأنه لن يعمل برأى غير رأيه، فاعتبرته الحكومة «أجنبيا عن مصلحة الجناب العالى» وفصلته(٢).

واذا كان للمدارس الخصوصية من هيئات الادارة والتدريس ما يغنيها عن لوائح عامة تنظم شئونها الفنية والادارية، وما يغنيها عن الاعتماد على ديوان الجهادية، فقد كانت المدرسة التجهيزية والمدارس الابتدائية أشد شعورا بالحاجة الى التنظيم والى اللوائح والى الرجال (الفنيين) الذين يقوّمون من سيرها، فقد بلغت المدرسة التجهيزية، على أبواب سنة ١٨٣٦، مبلغا كبيرا من الضعف، إذ قل عدد تلامذتها كثيراً عماكان عليه منذ إنشائها أو بعده ببضع سنين، وكذلك انحط مستوى التدريس فيها إلى درجة بعيدة، فأصبح التلاميذ لايدرسون سوى الحساب والرسم والجغرافيا ولا يقرءون سوى كتب فى النحو والصرف، هذا إلى حفظ القرآن الكريم. ويحدثنا «على مبارك»

---

(١) Hamont, L'Egypte sous Mehemet Ali, II, pp. 195 – 198

(٢) سجل ٢١٢ (معية) رقم ١٧٧ إلى الباشا السر عسكر فى ١٩ رمضان ١٢٥١ .

التلميذ فى هذه المدرسة قبل تنظيمها عن انحطاط التدريس والادارة بالمدرسة ما ألمعنا اليه فى مناسبات أخرى .

أما المدارس الابتدائية فتقارير المفتشين الذين تردّدوا عليها ، لتنظيمها على النحو الذى رسمت لائحة التعليم الابتدائى التى وضعتها لجنة سنة ١٨٣٦ ، تقدم لنا صورة عن هذه المكاتب تنبىء عن الفوضى والاختلاسات وانحطاط المستوى العلمى والصحى والادارى فى هذه المكاتب .

والواقع أن مكاتب المبتديان كانت – بين مراحل التعليم الأخرى – أشدها حاجة إلى التنظيم ، وكانت لذلك أشدها انتفاعا بما وضع لها من اللوائح والسجلات التركية لشورى المدارس تفيض بأنباء هذا التنظيم ، حتى ليمكننا القول إن الأثر (العملى) لانشاء شورى المدارس ثم ديوان المدارس وللوائح التى وضعت فى سنة ١٨٣٦ يتضح فى المكاتب الابتدائية أكثر مما يتضح فى غيرها من المدارس .

٤ – كان العنصر المصرى بين الطلبة فى هذه المدارس ضعيفاً ومحدوداً ، ذلك لأن الحكومة لم يكن يعنيها إلا تخريج أعوان لها مخلصين يقومون على ما استحدثته من نظم حربية واقتصادية وإدارية ، ولا يعنيها وهى فى أشـــد الحاجة إلى هؤلاء الأعوان أن يكونوا من أهل البلاد أو من المتمصرين . على أن العنصر المصرى كان إذ ذاك ضعيفاً فى غير المدارس كذلك : فالمناصب الكبرى فى الجيش والإدارة والدواوين وغيرها مقصورة على الأرستقراطية التركية أو المتكلمة بالتركية ، وكان معظم التلاميذ بل جلهم فى المدرسة التجهيزية من الترك والألبانيين والأرمن والإغريق ممن كان آباؤهم فى خدمة الوالى والحكومة المصرية . وكذلك معظم تلاميذ المدارس الحربية ، ذلك لأن « الأرستقراطية » التركية كانت تحتل فى الجيش ودواوين الحكومة المناصب العليا ولم تكن هذه الأرستقراطية ترتاح إلى

مزاحمة أبناء البلاد لها فى تلك المناصب ، ولكن احتكار هذه المدارس أو جل أماكنها لغير أهل البلاد ، وصرف أبناء البلاد عن أن ينهضوا بقسط كبير — إن لم نقل بالقسط الأكبر — من إدارة بلادهم ، لم يكن طبيعياً . لهذا أخذ عدد التلاميذ المصريين يزداد بالمدارس الحربية وغيرها من المدارس، حتى أصبح منهم بعد سنوات جل تلاميذ المدارس أو كلهم .

ليس معنى هذا أن تلاميذ المدارس جميعاً فى السنين الأولى من إنشائها كانوا من الترك أو غيرهم من المتمصرين ، فالمدارس ذات الصبغة المدنية كالطب والمهندسخانة والزراعة كان تلامذتها حتى فى عهدها الأول من المصريين ، وكذلك كانت المكاتب الابتدائية بالأقاليم ، وقد ظن بعض المديرين أن هذه المكاتب إنما أنشئت لتعليم أبناء البلاد فلا يلحق بها أبناء الترك ، فبعث إلى الوالى يسأل عن ذلك ، فرد عليه محمد على « بأن القصد من إنشاء هذه المدارس هو تعليم وتثقيف أبناء العباد، فإذا رغب أبناء الترك فى الالتحاق بها وكانت أحوالهم الصحية جيدة يقبلون كأبناء العرب » أى المصريين .(١)

أما فى القاهرة فقد أنشىء لأبناء الترك قسم خاص بمدرسة المبتديان، يتوفرون فيه على دراسة اللغة التركية نحواً وصرفاً وقراءة وكتابة . وكذلك ظل أبناء الترك يقبلون بمكاتب الأقاليم، وإن كانت الحكومة تؤثر نقلهم إلى مدرسة القاهرة « لأنهم ترك » .(٢)

وكذلك ظل التلامذة (الأجانب) يقبلون فرادى بالمدارس ، ولكن المدارس كانت حريصة أن لا تقبلهم إلا بعد استئذان ديوان المدارس ، ولم

---

(١) دفتر ٨ (معية) رقم ٥٩٢ إلى محرم أغا فى ١٩ ذى القعدة ١٢٤٩

(٢) « ٥٥ (مدارس عربى) س ٦٩٠ إلى مكتب أبى زعبل فى ٩ ذى القعدة ١٢٦٢

يكن الديوان يشجع قبولهم بالمدارس الخصوصية : لأن تلاميذها « يجب أن يدخلوا أول شيء مدرسة المبتديان ومنها إلى التجهيزية ومن بعد إتمام علومها مثل النحو والصرف وما أشبه ينتقلون إلى المدارس الخصوصية . . . فضلا عن ذلك لم صادر أوامر (كذا) بإدخال الأشخاص الأجنبيين ».[1] وكان الديوان يسمح فى بعض الأحيان بقبول الطالب الأجنبي بصفة « خارجية » بالمدرسة التى يريد دخولها[2] ، ذلك لأنه يرى فى النظام الداخلى مزايا لا يجب أن يتمتع بها سوى أبناء البلاد ، أو يرفض محتجاً بوجوب الإذن من ولى النعم.[3] وكذلك كانت الحكومة تختار أحيانا بعض أبناء الأجانب الذين فى خدمتها وتلحقهم ببعثاتها ، وتجرى عليهم ما تجريه على أبناء البلاد من لباس ومرتبات ألخ . وعلى العموم لم يوضع نظام ثابت لدخول الطلبة الأجانب بالمدارس المصرية .

٥ — كان النفوذ الغربى قويا فى ذلك الدور من أدوار النظام التعليمى : ذلك لأن هذا الدور كان النشأة الأولى للتعليم ، وقد تحدثنا عن الدور الذى لعبه الأجانب فى تاريخ التعليم فى مصر ، فلا نعود إلى الحديث عنه ، مكتفين بأن نوضح أن اتجاه حكومة محمد على كان نحو الايطاليين أولا ثم الفرنسيين ثانياً ، أى نحو الأمتين اللاتينيتين المطلتين على البحر الأبيض المتوسط .

كانت اللغة الايطالية أولى اللغات الأجنبية التى درست بالمدارس المصرية ، درست بمدرسة القلعة ثم بمدرسة قصر العينى ثم بالمهندسخانة ببولاق وكذلك ببعض المدارس الحربية ، فى سنيها الأولى .

---

(١) دفتر ٤٨ (مدارس عربى) ص ٢٤٥٨ إلى شورى الأطبا فى ٥ جاد أول ١٢٦٣

(٢) « ٥٧ (مدارس عربى) ص ١٣٨٧ رقم ٢٢٩ إلى مدرسة الالسن والتجهيزية فى غاية ذى الحجة ١٢٦٢

(٣) دفتر ٨٤ (مدارس عربى) ص ٩٤٨ إلى شورى الأطبا فى ٢٥ محرم ١٦٢٤

وإلى ايطاليا أرسل محمد على بعوثه الأولى ، فلا ريب فى أنهم حين عادوا حملوا معهم إلى وادى النيل بذور الثقافة الايطالية .

ومن ايطاليا استدعى محمد على المعلمين للمدارس والضباط المدربين للجيش ، واشترى آلات الطباعة والكتب التى دفعها إلى المترجمين لينقلوها إلى التركية أو العربية . وكان الفرنسيون يحنقون أشد الحنق ، ويؤلمهم أن يروا النفوذ الايطالى فى مصر يعلو على كل نفوذ أجنبى ، وكثيرا ما كانت تثور المنازعات بين الموظفين الايطاليين والموظفين الفرنسيين ، ويتهم كل فريق الآخر بالدس والكيد وقلة الاخلاص فى خدمة الحكومة المصرية .

ذكر كلوت بك فى تقرير عن الطب فى مصر قدّمه للدكتور « بورنج » مبعوث الحكومة الانجليزية فى مصر أنه حين أتى إلى مصر كانت الإدارة الصحية فى يد الايطاليين ، وأن مائة وخمسة من الأطباء والصيادلة بالجيش والمستشفيات العسكرية كانوا من الايطاليين ، أما الباقون وعددهم تسعة وأربعون طبيباً وصيدلياً فكانوا من الفرنسيين والانجليز والألمان والبولنديين والاسبان .[١]

وكتب الجنرال بوايه "Boyer" رئيس البعثة الحربية التى استقدمها محمد على من فرنسا للاشتراك فى تنظيم جيشه إلى جومار "Jomard" عضو المجمع العلمى الفرنسى يصف (الحالة) عند وصوله إلى مصر : « وجدت أن إدارة الشئون كلها فى مصر فى أيدى الايطاليين ، واللغة الفرنسية فى المحل الثانى ، ولا يعلّمون فى المدارس الحربية سوى اللغة الايطالية ، ولا يترجمون سوى الكتب البسيطة التى وضعها مؤلفون من ذلك الشعب ، ومدرسو الرياضيات واللغات والعلوم والفنون وغيرها كلهم ايطاليون ، وفى كل عام يرحل إلى أوربا ثلاثون أو أربعون شاباً ليتعلموا علومها وفنونها ، وإلى « بيزه » يتجهون

(١) Bowring, Report on Egypte & Candia, p. 139

حتى فى دراسة الفنون الحربية . . . ويظهر الوالى دهشته من هذا التفوق الايطالى ، وإنهم ليبثون فى ذهنه المخاوف من ناحية الفرنسيين (الخادعين) ، أما من ناحية الايطاليين فلا يجب أن يخشى شيئا ». (١)

وأخذ الفرنسيون يحتلون شيئا فشيئا مركز الايطاليين (الثقافى) فى مصر ، وساعدهم على ذلك مركزهم السياسى فى البحر المتوسط وفى السياسة الدولية على العموم . وكذلك نشاط الفرنسيين فى مصر تجاراً أو موظفين ، وأخذ النفوذ الايطالى ينكمش فى مصر : فأُلغى تدريس اللغة الايطالية من المدارس المصرية، واستبعد كثير من الضباط والمدرسين الايطاليين، وتحولت البعوث العلمية عن إيطاليا، وقل عدد الكتب المترجمة عن الايطالية ، وفى مقابل ذلك حل (النفوذ) الفرنسى : فدرست الفرنسية بالمدارس وكثر الفرنسيون المشتغلون بالتعليم وبغير التعليم فى مصر ، وإلى فرنسا اتجهت أكثر البعوث العلمية . كما كثر عدد الكتب المترجمة عن الفرنسية . وعلى العموم فقدت الثقافة الايطالية مكانتها فى مصر وحلت محلها الثقافة الفرنسية .

حتى إذا كانت سنة ١٨٣٦ وألفت اللجنة التى وكل اليها النظر فى تنظيم المدارس ، كان عدد أعضائها من الفرنسيين ومن المصريين (أو المتمصريين) الذين تلقوا علومهم فى فرنسا ، لهذا لم يكن غريباً أن تنتفع اللجنة باللوائح والنظم الفرنسية فتقتبس كثيراً منها لمصر .

وقد بلغ من هوان اللغة الايطالية بمصر وفقدانها ما كان لها فى عهد النشأة الأولى للتعليم من خطر أن الحكومة — فى السنين الأخيرة من حكم محمد على — كانت تتلمس الموظفين العارفين اللغة الايطالية فلا تجد منهم أحداً، «لأن اللغة الايطالية غير مستعملة بالمصالح الأميرية ومستغنى عنها الحال». (٢)

(١) Douin, Une Mission Militaire auprès de Meh. Ali, p.40. De Boyer à Jomard (20 Mai, 1825)

(٢) دفتر ٢ (مدارس عربى) ص ٢٠٨٢ رقم ٦٠٢ إلى ديوان خديوى فى ٢٤ شعبان ١٢٦٢ .

ولكن حكومة محمد على لم تكن لتنساق وراء الاعتبارات « السياسية » فى الشئون التعليمية « الفنية » ، فعلى الرغم من أن الفرنسيين المشتغلين بالتعليم فى مصر كانت لهم اليد الطولى فى تنظيم التعليم فى سنة ١٨٣٦ فإن اللغة الفرنسية ألغى تدريسها عقب ذلك فى المدارس الخصوصية وقصر تدريسها على مدرسة الألسن ، وهى المعدة لتخريج المترجمين ، وعلى نفر من التلاميذ فى بعض المدارس الخصوصية الأخرى .[١]

على أن حكومة محمد على كانت حريصة — كحكومة ناشئة تتلمس الفائدة أنى وجدتها وتستعين بكل من ترى فيه الكفاية — على أن تنتفع بخدمات الأوربيين الآخرين من غير الايطاليين والفرنسيين فى الفنون التى برعوا فيها ، فاستدعت كثيراً من رجال الصناعة الانجليز ليقوموا على المؤسسات الصناعية التى أنشئت ، وإلى انجلترا أرسلت عدداً كبيراً من الطلاب المصريين وخاصة فى السنين الأخيرة من حكم محمد على .

---

(١) دفتر ٢٠٠١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢٥ ذى القعدة ١٢٥١

الفصل الثانى

التنظيم الأول

إنشاء شورى المدارس وديوان المدارس

١٨٣٦ — ١٨٤١

ولكن كيف نُظِّمَ التعليم فى مصر فى سنة ١٨٣٦ ؟ أو بعبارة أخرى : كيف وضعت لوائح التعليم وأنشىء شورى (أو مجلس) المدارس ثم ديوانها؟ هذا ما سنحاول جلاءه فى هذا الفصل .[1]

فى الأشهر الأخيرة من سنة ١٢٥١ هـ (١٨٣٦ م) صدر أمر محمد على بتأليف «مجلس عام للنظر فى تنظيم المدارس» ، وكانت حتى ذلك الوقت تابعة لديوان الجهادية . أما أعضاء هذا « المجلس العام » فليس فى الوثائق بيان بأسمائهم إلا ما جاء فيها من أنه كان « مؤلفا من جملة من أكابر المصريين ونظار المدارس» ، ولكن هامون "Hamont" ناظر مدرسة الطب البيطرى فى ذلك الوقت وعضو هذا المجلس يحدثنا حديثاً مستفيضاً عن كيفية تنظيم المدارس وإنشاء الشورى ثم الديوان ، ويذكر الأسماء التالية كأعضاء المجلس العام لتنظيم المدارس ، أو كما يدعوه هو «لجنة إعادة تنظيم المدارس» ، وهم: مختار بك (الرئيس) وكلوت بك وكيانى بك وأرتين بك واسطفان افندى وڤارن "Varin"

---

(١) الوثيقة التى سنشير إليها فى حديثنا عن لجنة التنظيم والشورى هى الوثيقة رقم ١٧٧ بسجل ٢١٢ «معية» ص ٣٩ من المعية إلى الباشا السر عسكر فى ١٩ رمضان سنة ١٢٥١. وتجد فى الملحق جميع الوثائق المتعلقة بتنظيم المدارس وإنشاء شورى المدارس وديوانها .

(مدير مدرسة الفرسان) وحكاكيان افندى والشيخ رفاعة وبيومى (وهو محمد افندى بيومى أستاذ الرياضيات بمدرسة المهندسخانة وعضو بعثة سنة ١٨٢٦) وهامون "Hamont" ولامبر "Lambert" (أعضاء) ودوزول "Dozol" (سكرتيرا)[١] . أما مهمة هذا « المجلس العام » أو « اللجنة » فمحدودة: وهى النظر فى تنظيم المدارس. فهى لجنة مؤقتة إذا أتمت مهمتها انحلت وأخلت الطريق لنظام آخر، وهذه الحقيقة يجهلها كثير ممن كتبوا ويكتبون فى تاريخ التعليم فى مصر ، إذ أنهم يخلطون بين هذه اللجنة (ذات المهمة المؤقتة) ومجلس أو شورى المدارس وهو الهيئة الأخرى (الدائمة) التى أتت نتيجة لعمل اللجنة الأولى كما سنرى . لذلك يذكر أمين باشا سامى رئيس وأعضاء اللجنة الذين ذكرنا أسماءهم على أنهم رئيس وأعضاء شورى المدارس[٢].

اجتمعت اللجنة العامة، أو المجلس العام، فى إحدى قاعات مجلس الملكية للنظر فى المهمة الجليلة التى وكلت إليهم، « فقر رأيهم على أن يكتب كل منهم على حدة ما يقترح عمله ثم تتألف لجنة من بينهم لفحص هذه المقترحات ، فاذا تم فحصها عاد المجلس إلى الالتئام فنظر فيها بعد تصنيفها وترتيبها » . ولكن ناظر مدرسة المدفعية « الدون انطونيو دى سيجويرا » الاسبانى يرى فى ذلك القرار تدخلا فى شئونه، فأعلن أنه لن يعمل برأى غير رأيه « فكان ذلك سبب عزله لاعتباره أجنبيا عن مصلحة الجناب العالى وليس من العقل ائتمان الأجنبى المتجنب على المصالح ، كما كان عزله سببا لمطاوعة بقية نظار المدارس ولتنفيذ القرار بأن انصرف الأعضاء لتدوين اقتراحاتهم » .

---

(١) Hamont, Hist. de L'Egypte sous Mehmet Ali II. p. 199 .

(٢) أمين باشا سامى : التعليم فى مصر ص ٩

ويحدثنا «هامون» العضو فى هذه اللجنة أنها بعد مناقشات طويلة وعمل شاق اقترحت لتنظيم المدارس المشروع الآتى[١] :

إنشاء ثلاثة أنواع من المدارس أو تقسيم التعليم إلى ثلاث مراحل : ابتدائية وتجهيزية وخصوصية . والغرض من المدارس الابتدائية إعداد التلاميذ للمدارس التجهيزية ونشر التعليم الأولى فى البلاد ، أو على حد تعبير المادة الأولى من قانون التعليم الابتدائى . نشر مبادىء العلوم بين الأهالى » ، وأشارت اللجنة بانشاء خمسين مدرسة ابتدائية ، وتوزع مدارس الأقاليم بالنسبة لعدد سكانها ، على أن يكون عدد تلاميذها جميعا ٥٥٠٠ تلميذ .

والغرض من المدارس التجهيزية توسيع درجة التعليم بين المتخرجين فى المدارس الابتدائية وإعدادهم للمدارس الخصوصية . والتعليم التجهيزى يكون فى مدرستين: إحداهما بالقاهرة والأخرى بالاسكندرية . وبالمدرسة الأولى ١٥٠٠ تلميذ وبالثانية ٥٠٠ .

والغرض من المدارس الخصوصية إعداد موظفين للادارات المختلفة المدنية والحربية . وهى المدارس الآتية :

١ — مدرسة الألسن : لاعداد مترجمين من الفرنسية إلى العربية أو التركية وإمداد المدارس الخصوصية الأخرى بطلبة متعمقين فى دراسة اللغات .

٢ — مدرسة الهندسة: لاعداد تلاميذ لمدارس المدفعية والهندسة الحربية والبحرية والمناجم، وإعداد الموظفين للمصالح المختلفة التى تتطلب معرفة بالعلوم الرياضية والطبيعية .

٣ — مدرسة المدفعية : لتخريج ضباط فى الجيش للمدفعية .

٤ — مدرسة الفرسان : لتخريج ضباط فى الجيش للفرسان .

---

(١) Hamont, op. cit., II, p. 199.

٥ — مدرسة المشاة : لتخريج ضباط فى الجيش لفرق المشاة.

٦ — مدرسة الطب : لتخريج أطباء وصيادلة للجيش والادارة .

٧ — مدرسة الطب البيطرى : لتخريج أطباء بيطريين للجيش والادارة المدنية .

ووضعت اللجنة اللوائح العامة لكل مرحلة من مراحل التعليم .

ومما يدعو إلى شديد الأسف أننا لم نعثر من هذه اللوائح إلا على لائحة المبتديان أو قانون التعليم الابتدائى الذى صدر الأمر بطبعه — دون غيره من اللوائح — « لأن من المتعذر استنساخ صور منه ، لأنه سيرسل إلى نظار المكاتب والمفتشين والمديرين، على أن تطبع الترجمة العربية فقط ، أما مدارس التجهيزية والطوبجية والسوارى والبيادة والطب البشرى والطب البيطرى والألسن والمهندسخانة الخديوية فقد استنسخت صورة من القانون الخاص بها وأرسلت إلى مديريها » . (١) ولهذا السبب بقيت لائحة التعليم الابتدائى (المطبوعة) وضاع غيرها من اللوائح .

ولكنا نرى فى التقرير الذى رفعه « الدكتور بورنج » إلى الحكومة الانجليزية ملخصات وافية عن تلك اللوائح قد تغنى عن اللوائح نفسها .

وبوضع اللوائح انتهت مهمة اللجنة التى أعادت تنظيم التعليم، أو على حد تعبير الأوراق الرسمية « المجلس العام لتنظيم المدارس » .

ولكن المدارس والمكاتب بعد تنظيمها تحتاج إلى هيئة (فنية) تشرف عليها وخاصة فى السنوات الأولى من تنظيمها، وهذه الهيئة الفنية لم تكن متوافرة فى ديوان الجهادية الذى ظلت المدارس تابعة له . وبذلك ظهرت الحاجة الماسة إلى تنظيم العلاقة بين المدارس وديوان الجهادية ، « فأمر الجناب

---

(٣) دفتر ٢٠٠١ (مدارس تركى) محاضر جلسات شورى المدارس من ١٧ ذى القعدة ١٢٥١

العالى بتأليف لجنة دعى إليها حبيب افندى والباشا ناظر الجهادية والبك الخزينة دار ومختار بك ناظر مجلس الملكية وحسين بك خزينة دار الجهادية، فاجتمعوا بديوان المعاونة لتنظيم ما هو معلوم من تبعية هذه المدارس لديوان الجهادية ».

هذه هى اللجنة الثانية ومهمتها هى الأخرى محدودة ، وهى إذا قورنت بمهمة اللجنة الاولى يتضح أنها مهمة (إدارية)، ترمى إلى تنظيم « تبعية المدارس لديوان الجهادية ».

وهكذا يتضح أنه إلى شهر رمضان سنة ١٢٥١ — حين كتب التقرير عن هذه اللجان — لم ينشأ شورى المدارس، وبالتالى لم ينشأ ديوان المدارس، فما زالت المدارس تابعة للجهادية

« وبعد بحث طويل فى هذا الصدد وافقوا على إقامة لجنة مؤلفة من بضعة رجال من خريجى مدارس أوربا، لتتولى المحافظة على النظام المزمع قبوله ولتبحث فيما سيعرض عليها دواما من أمور القراءة والكتابة والتعليم والتعلم الخاصة بالمدارس ».

وهذه اللجنة « الدائمة » التى ستعرض عليها الشئون (الفنية) الخاصة بالمدارس هى ما عرفت بعد ذلك باسم « شورى المدارس » وأحيانا « مجلس المدارس » وأحياناً « مجلس المدارس المصرية » . ولكن لا يجب أن يحملنا هذا على الظن بأن المدارس لم تعد تابعة لديوان الجهادية ، فان الأمور (الفنية) هى وحدها التى أصبحت من اختصاص شورى المدارس، على أن تظل قراراته خاضعة لموافقة ديوان الجهادية كما سنرى بعد .

أما أعضاء شورى المدارس فالوثيقة التى نقلنا عنها ما تقدم لا تذكر أسماءهم صراحة ، وكل ما فيها أن الهيئة التى اقترحت إنشاء الشورى أو اللجنة « الدائمة » اقترحت أن يكون أعضاؤها « بضعة رجال من خريجى مدارس

أوربا ، ثم أضافت أن « لا بد أن يكون قوامها مختار بك واسطفان افندى والشيخ رفاعه وواحد أو اثنين من أضرابهم الذين تخرجوا مثلهم فى مدارس أوربا » .

« وفعلا حرر مختار بك — وكان فى ذلك الوقت ناظر مجلس الملكية — مذكرة بتاليف هذه اللجنة أو المجلس ، وعرضها على الجناب العالى فاستحسنها ، إلا أنه أمر الكاتب بأن يعرضها على السر عسكر (ابراهيم باشا) أيضاً ليطلع على هذا النظام ، ولذلك قدم الكاتب صورة المذكرة . . . . » [1]

ولكن الراجح أنه رؤى بعد ذلك أن مجلس المدارس يحسن أن يؤلف من عدد قليل من الأعضاء ، حتى لا تتشعب أوجه الجدل والمناقشة بين أعضائه ، على أن يدعو اليه أعضاء استشاريين كلما دعت إليهم الضرورة . ويؤيد هذا ما ذكره « هامون » ناظر مدرسة الطب البيطرى والعضو فى اللجنة التى نظّمت التعليم من أن المجلس كان مكونا من ثلاثة أعضاء دائمين ، ويلحق به أعضاء استشاريون . والأعضاء الدائمون هم أرتين افندى وأسطفان افندى ومسيو لوبر « Lubert » الذى كان مديرا للأوبرا الفرنسية ،[2] ورئيس المجلس « مختار بك » . وهناك كاتب آخر معاصر ذكر أيضاً أن المجلس كان مكوّنا من رئيس وثلاثة أعضاء وسكرتير موظف .[3] ليس هناك إذن ما يؤيد الأسماء التى ذكرها أمين باشا سامى لأعضاء المجلس ، إذ هم فى الواقع كما ذكرهم « هامون » أعضاء اللجنة الاولى التى نظمت شئون التعليم ووضعت اللوائح .

وتؤيد محاضر جلسات مجلس المدارس ما ذكرنا من أن أعضاء المجلس

---

(١) دفتر ٢١٢ (معية) ص ٣٩ رقم ١١٧ إلى الباشا السرعسكر فى ١٩ رمضان ١٢٥١

(٢) Hamont, op. cit., II, p. 201.

(٣) Mengin, Hist. de l'Egypte . . . . , 1823 — 1838, p. 123.

الدائمين كانوا ثلاثة فقط ، إذ كانت تعرض عليه مثلا تقارير مفتشى المكاتب ، فيلخصها أحد الأعضاء ، أرتين افندى أو أسطفان افندى مثلا ، ثم يعرض اقتراحاته على المجلس ويقرّها عليه مسيو لوبر أو مختار بك الرئيس فتصبح نافذة . وكانت محاضر الجلسات تمضى من الرئيس والأعضاء الثلاثة فقط على الرغم من وجود بعض نظار المدارس الخصوصية فى الجلسات .

أما الرئيس « مختار بك » فكان فى السنة الأولى من إنشاء شورى المدارس ناظرا لمجلس الملكية . ولما كان شورى المدارس إذ ذاك فى حجرة بالمكان الذى يشغله مجلس الملكية فى القلعة ، وكان ناظره مختار بك فقد عين مختار بك ناظراً على الشورى كذلك . ثم فصل من نظارته على مجلس الملكية لأن « كبره وغروره ما فتنا يحولان دون فهمه المزايا التى تنطوى عليها أوامر الجناب العالى ، ولأنه كثيراً ما أوقع بذلك مجلس الملكية فى مآزق وورطات . فمن ذلك أنه لم يصغ إلى إرادة الجناب العالى الآمرة بأن يقتصر على تنفيذ ما يصدره المجلس من خلاصات الأحكام فلا يكتب بنفسه مذكرات ، بل ركب رأسه وتمادى فى اتباع عادته ، فكتب مذكرات تنافى أحكام المجلس منافاة أوقعت أصحاب المصالح ، فى الارتباك وكانت موضع قيل الناس وقالهم . . . ولكنه لم يقطع أمله هذه المرة فى أن ينتهى عن فرط جبروته واستبداده ، ولا فى أن ينزل فيندمج فى صفوف بنى آدم ، ولذلك فقد صرف النظر عن معاقبته وأبقى فى عهدته نظارة المكاتب ومجلس شورى المدارس، حتى لا يبرح به الخجل والحياء بين الأقران والزملاء » .[1]

---

(١) سجل ٢١٢ (معية) ص ٧٦ رقم ٤٠٧ الى مختار بك (ليس له فى السجل تاريخ ولكنه بين ٢١ جماد أول وغرة جماد آخر سنة ١٢٥٢ — مترجم الوثيقة)

وبذلك صرف مختار بك عن نظارة مجلس الملكية وشورى المدارس وقصر على نظارة الشورى فقط . أما الأعضاء الآخرون فكانوا كما ذكرنا أرتين افندى وأسطفان أفندى ومسيو لوبر ، وقد عين أرتين أفندى وكيلا لشورى المدارس.[١] ثم خلفه على وكالة الشورى أسطفان افندى.[٢] والراجح أن وظيفة الوكالة لم تكن منفصلة عن العضوية : إذ أننا لم نجد أعضاء جدد يعيّنون بعد تعيين الوكيل ، فالوكيل عضو فى الشورى، وله أن يرأسه فى غياب رئيسه .

وقد صدرت «قوانين شورى المدارس فى ٩ ذى القعدة سنة ١٢٥١».[٣] وفى هذا التاريخ أيضاً صدر الأمر بتعيين مختار بك ناظراً على الشورى ، علاوة على نظارته على مجلس الملكية كما ذكرنا . وبعد بضعة أيام بادر مختار بك فكتب إلى نظار المدارس « إشعاراً لهم بانشاء شورى المدارس للنظر فى شئون عموم المدارس ، وأن نظارة الشورى أحيلت عليه بموجب مرسوم صدر فى ٩ ذى القعدة سنة ١٢٥١ ، ويطلب منهم أن يعرضوا عليه جميع الشئون المختصة بهم » ، وكتب إلى المديرين أيضاً — وكانت المكاتب الابتدائية تابعة لهم — « إشعاراً لهم بانشاء شورى المدارس للنظر فى إدارة شئون جميع المكاتب والمدارس الموجودة بالأقاليم وبالمحروسة والإشراف على تعليم وتعلم التلامذة . . . » .

وبدأ الشورى عمله بطبع لائحة التعليم الابتدائى ونسخ صور من اللوائح الأخرى ، وإنفاذ المفتشين إلى الأقاليم لتنظيم المكاتب وبعض أعضائه لتنظيم

---

(١) محفظة ٣ (مجلس ملكية) وثيقة رقم ٢٥٢ الى مختار بك فى ٨ ذى الحجة ١٢٥١ .

(٢) محفظة رقم ١ (مدارس) فى ١٧ ربيع الثانى ١٢٥٢

(٣) دفتر ٢٠٠١ (مدارس تركى) محاضر جلسات شورى المدارس من يوم ١٧ ذى القعدة ١٢٥١

المدرسة التجهيزية والمدارس الأخرى طبقاً لما نصّت عليه لوائحها .

أما اختصاص شورى المدارس فلم نعثر على قوانينه التى صدرت فى ٩ ذى القعدة سنة ١٢٥١ حتى يمكننا تحديدها ، إلا أنا — استناداً إلى الوثائق التى أوردنا هنا — يمكننا أن نحكم بأن اختصاص الشورى شمل جميع الشئون الفنية والادارية بالمدارس والمكاتب . فمن محاضر جلساته نعلم أنه كان يرسل المفتشين لتنظيم المكاتب وإلغاء الفاسد منها أو الموجود بالقرى، وتوزيع التلاميذ على الفرق وترتيب الدروس وغير ذلك مما ينطبق على اللائحة الجديدة ، واليه ترفع التقارير عن المكاتب والمدارس، فيقرّ المناهج ويعيّن المدرسين والنظار والخدمة ويفصلهم ، ويأمر بامداد المكاتب بالأدوات و (المهمات) اللازمة . فالواقع أن نشاط شورى المدارس قد امتد إلى جميع شئون المدارس ، وكان لذلك يستعين بنظار المدارس أو رؤساء المدرسين بها .

ديوان المدارس

ولكن لم يُنشأ بعدُ للمدارس « ديوان » خاص بها على الرغم من أنه أصبح للشورى رئيس خاص ومكان خاص فى الأزبكية ، [1] فما زالت المدارس تابعة لديوان الجهادية. ولم يكن هذا مما ترتاح إليه رجال الشورى ، فالراجح أنهم كانوا يرون أنهم جديرون بالاستقلال فى عملهم دون تدخل من الجهادية ، إذ كانت قراراتهم ومحاضر جلساتهم ترفع إلى الجناب العالى للتصديق عليها ، فكان يقرّ الشورى فى كثير مما يراه، ويعيد اليه أحيانا قرارات أخرى للنظر فيها من جديد . وقد أدرك ديوان الجهادية أن كل ما يتعلق بالمدارس أصبح

---

(١) دفتر ٢٠٠٠ (مدارس تركى) ص ٤٢ قرار شورى المدارس فى ٢١ جمادى الثانية ١٢٥٢ بنقل الشورى الى قصر الدفتر دار بالأزبكية بعد أن كان فى حجرة بمجلس الملكية

من اختصاص شورى المدارس فكان يحيل اليه الشئون الخاصة بالمدارس.[١] ولكن عدم تحديد العلاقة بين شورى المدارس — الذى هو فى الواقع هيئة استشارية — وديوان الجهادية — وهو الهيئة التنفيذية — تحديدا واضحاً كان من شأنه أن أوقع النزاع بين الهيئتين . ويحدثنا مسيو هامون «Hamont» ناظر مدرسة الطب البيطرى أن ديوان الجهادية كان لا يرسل الأدوات اللازمة للمدارس إلا بعد طلبها بوقت طويل ، أو يمتنع عن إرسالها متحللا أعذارا حقيقية أو باطلة ، ذلك لأن بعض المدارس الخصوصية كان يعتمد إلى حد كبير على ديوان الجهادية كمدرسة الفرسان وكانت خيولها من الجيش، ومدرستى الطب البشرى والطب البيطرى وكانت المستشفيات الملحقة بهما تابعة للجهادية . لهذا ثار النزاع بين شورى المدارس وديوان الجهادية.[٢] وفى الأوراق الرسمية ما ينبىء عن هذا النزاع : فقد ظل ديوان الجهادية يرسل الموظفين يفتشون المدارس والمستشفيات بدون علم من الشورى ، فثار الشورى وطلب إلى الجناب العالى منع ذلك . فكتب محمد على إلى وكيل الجهادية بأن لا تفتش المدارس والمستشفيات بدون علم الشورى .[٣]

ولكن ديوان الجهادية يظل يتعرض لقرارات شورى المدارس وينقضها أحيانا ، وشورى المدارس ، كما قلنا ، هيئة استشارية ليس لها سلطة تنفذ قراراتها، وليس لهـــا إلا أن تستعدى محمد على على الجهادية لينال لها منها حقها ، فى إصدار القرارات إلى رؤساء المصالح فى الشئون الخاصة بالمدارس .[٤]

---

(١) دفتر ٢٠٠١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢٠ ذى الحجة ١٢٥١

(٢) Hamont, op. cit, II. p. 202.

(٣) دفتر ١٤٥ (مجلس ملكية) ص ٩ رقم ٣٥ الى وكيل ناظر الجهادية فى ١٩ ربيع الثانى ١٢٥٢ .

(٤) دفتر ٢٠١٥ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٩ جمادى الثانية ١٢٥٢

ورفعت التقارير عن هذا النزاع إلى محمد على ، فوجد أن المدارس قد أصبح لها من (الشخصية) واتساع المدى والنفوذ وتعقد الأعمال ما يحق لها معه أن تتحرر من ديوان الجهادية ، فيكون لها ديوان خاص (تبصم) فيه قراراتها .

أما التاريخ الذى أنشىء فيه ديوان المدارس فقد ظل غامضا أو محددا تحديداً خاطئا، إلى أن فحصت سجلات الحكومة باللغة التركية فى ذلك الوقت، حتى ليمكن الآن تحـــديد التاريخ تحديداً أقرب إلى الصواب . فأمين باشا سامى[١] ومن بعده مسيو دنى « Deny »[٢] يذكران أن الأمر بانشاء الديوان صدر فى أول ذى الحجة سنة ١٢٥٢ (٩ مارس ١٨٣٧ م) ، ولم يذكر أحدهما المصدر الذى أخذ عنه . أما الأوراق الرسمية فتقول إنه أنشىء فى شهر ذى القعدة سنة ١٢٥٢ [٣] — فى ٥ ذى القعدة سنة ١٢٥٢ وردت « لائحة تركية موشح عليها بمرسوم عال(أى مصدق عليها من الجناب العالى) بشأن تفريق المدارس من ديوان الجهادية» . وكان محمد على فى ذلك التاريخ متنقلا بين بنى سويف والفيوم والفشن، وكانت الأوامر تقيّد بسجل قيد الخلاصات بعد تاريخ صدورها بيوم أو يومين .[٤]

وفى هذا اليوم نفسه (٥ ذى القعدة) اجتمع مجلس المدارس برئاسة مختار بك وعضوية عشرة أعضاء (وهم الأعضاء الدائمون وبعض نظار المدارس)، وتلا عليهم مختار بك الأمر العالى « بتفريق كافة المدارس من ديوان الجهادية وترتيب ديوان خاص لها ، وبتعيين محمد أمين خزينة دار « خازنا » للديوان الجديد ،

---

(١) أمين باشا سامى : التعليم فى مصر ص ٩

(٢) Deny, Sommaires des Archives Turques au Caire, p. 122.

(٣) دفتر ١١٧ (مدارس عربى) ص ٢٩٨ رقم ١٥ الى ديوان المعية فى ٢٨ شوال ١٢٦٤

(٤) دفتر ٢٠٠٩ (مدارس تركى) فهرست قيد الخلاصات

« وحيث أن المأمول بعناية الله وبيركته وبركة الهمم الخديوية أن يكون هذا الديوان ذى فائدة للجميع » فقد طلب مختار بك البدء بتعيين باشكاتب الديوان وكاتبه و « ضبط عملية الديوان وحضور بعض المأمورين المكلفين لتعليم التلاميذ (أى الموظفين المعينين بالديوان) فن الحساب » . ولكن القرار لم يوقعه جميع الأعضاء الحاضرين بل وقعه الدائمون منهم : وهم الرئيس مختار بك والعضوان لوبر واسطفان والخازن الجديد محمد أمين بك . (١)

وبذلك يكون إنشاء ديوان المدارس فى اليومين الأولين من شهر ذى القعدة سنة ١٢٥٢ ، وقد يكون اليوم الثالث أو الرابع من هذا الشهر (العاشر أو الحادى عشر من فبراير ١٨٣٧ م) .

وقد يكون إنشاؤه فى الأيام الأخيرة من شهر شوال سنة ١٢٥٢ : فان مختار بك يوقع على بعض قرارات الشورى بجلسة ٢٨ شوال باسم « ناظر الديوان » ، ولكنا نرجح أنه إنما فعل ذلك متعجلا أو طبقا لأخبار علمها قبل صدور الأمر رسميا ، فانه إذا كان الأمر صدر فى أواخر شوال فمن المستبعد أن لا يقيد فى السجلات إلا فى اليوم الخامس من الشهر التالى ، هذا إلى أن السجلات العربية تذكر بعد ذلك بسنين أن الديوان أنشىء فى شهر ذى القعدة سنة ١٢٥٢ .

من ذلك يتضح خطأ ماذهب اليه أمين باشا سامى من أنه فى أول ذى الحجة ١٢٥٢ أنشىء ديوان المدارس ،وشكل بديوان المدارس مجلس مخصوص سمى بمجلس شورى التعليم وقرر هذا المجلس نظامات التعليم بالمدارس (أى اللوائح). (٢) فقد ثبت أن مجلس المدارس إنما أنشأ فى ٩ ذى القعدة ١٢٥١ أى قبل انشاء ديوان المدارس بعام وبضعة أيام ، كما ثبت أن ديوان المدارس أنشىء قبل التاريخ الذى حدده أمين باشا سامى بنحو شهر ، وأن اللوائح لم يضعها الشورى

---

(١) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة بشورى المدارس فى ٥ ذى القعدة ١٢٥٢

(٢) أمين باشا سامى : التعليم فى مصر ص ٩

بل وضعتها اللجنة التى دعيت قبل ذلك لتنظر فى تنظيم التعليم .

بل إن شورى المدارس لم يبق طويلا بعد إنشاء الديوان ، فقد كنا فى شك مما ذكره «هامون» من أن مجلس المدارس أبطل بعد إنشاء ديوانها،[١] وكنا نميل إلى ما يفهم من حديث أمين باشا سامى من أن مجلس المدارس ظل قائما بعد إنشاء الديوان . ولكن سجلات ديوان المدارس التركية أكدت لنا قول «هامون» . على أن الشورى لم يلغ عقب إنشاء الديوان مباشرة ، بل ظل قائما معه وقتا قصيرا .

والراجح أنه لم يكن فى نية الحكومة إذ ذاك إلغاء مجلس المدارس : إذ أنه بعد إنشاء الديوان بنحو أسبوعين صنع «خاتمان» : أحدهما باسم ديوان المدارس والآخر باسم شورى المدارس،[٢] فلو كان فى النية إلغاء الشورى عقب إنشاء الديوان مباشرة لما كان صنع له هذا الخاتم . ومهما يكن من شىء ، فقد ظلت جلسات شورى المدارس تعقد حتى منتصف شهر محرم سنة ١٢٥٣ ، وبعدها لم نعد نرى جلسات للشورى بسجلات ديوان المدارس.[٣]

والآن يحق لنا أن نشيع الشورى ذاكرين له جهوده — فى الأربعة عشر شهرا التى عاشها — فى تنظيم المدارس والمكاتب وفقا للوائح التى كانت قد وضعتها اللجنة التى دعيت لتنظيم التعليم . وتتضح جهود الشورى كثيرا فى تنظيم المكاتب الابتدائية ، فقد توفر أعضاؤه على بحث تقارير المفتشين الذين أنفذوا إلى الأقاليم ، وأصدروا قراراتهم فى ضوء تلك التقارير ، كما كان لهم الفضل كذلك فى تنظيم المدرسة الابتدائية والمدرسة التجهيزية بالقاهرة .

---

(١) Hamont, op. cit, p. 202.

(٢) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢٨ ذى القعدة ١٢٥٢

(٣) شغلت جلسات شورى المدارس منذ إنشائه أربعة وعشرين سجلا ، من سجل رقم ٢٠٠٠ الى سجل رقم ٢٠٢٤ (قسم المحفوظات التاريخية بعابدين)

أما المدارس الخصوصية فقد كان لهـــا نظارها المصريون أو الأجانب المختصون فى دراستهم ، حتى ليعرف كل منهم كيف ينظم مدرسته من غير حاجة لمعونة الشورى . هذا إلى أنه كان لكل مدرسة من المدارس الخصوصية والمدرسة التجهيزية « شورى داخلى » — أو مجلس إدارة — يضع النظام الداخلى للمدرسة ويرتب الدروس ويوزع التلاميذ على الفرق، ثم يرفع قراراته إلى شورى المدارس ، وللشورى أن يقرّها أو يعدل بعض موادها . لهذا يمكن القول إن عمل الشورى فى تنظيم المدارس الخصوصية لم يكن بارزا أو واضحا كعمله فى نواحى التعليم الأخرى .

اختصاصات ديوان المدارس

كان طبيعيا أن ينتقل اختصاص شورى المدارس وديوان الجهادية إلى الديوان الجديد ، وبذلك لم يعد لديوان الجهادية سلطة ما على المدارس ، وكذلك نزع الاشراف الفنى على مكاتب الأقاليم من المديريات وإن بقى لها الإشراف المالى ، أى إمداد المكاتب بمرتبات المستخدمين والتلاميذ والمواد الغذائية وغير ذلك .

وكان على نظار المدارس أن يرسلوا إلى الديوان تقـــارير بالحالة فى مدارسهم مرة فى كل ثلاثة شهور، [١] ومن وقت لآخر تعرض على محمد على خلاصة مختصرة لأعمال الديوان . [٢] وطبقا للائحة الصادرة فى سنة ١٢٥٣ حددت اختصاصات ديوان المدارس بإدارة المصالح الآتية والإشراف عليها: [٣]

---

(١) دفتر ٢٠٢٥ (مدارس تركى) ص ١٠٢ فى ١٦ جمادى الثانية ١٢٥٣

(٢) دفتر ١٤٥ (مجلس ملكية) ص ٣٩ رقم ١٠١ من المعية الى مختار بك فى ٢١ صفر ١٢٥٣

(٣) Deny, op. cit., pp. 122-123.

١ — المدارس.

٢ — الكتبخانات والمعامل والمتاحف.

٣ — قناطر الدلتا.

٤ — مطبعة بولاق.

٥ — الوقائع المصرية.

على أن يضم اليها فى المستقبل :

١ — الهندسة.

٢ — اسطبلات شبرا والزرائب.

ويقول «هامون» إن محمد على أدخل فى اختصاص ديوان المدارس جميع المصالح التى يديرها الأوربيون، لأن رجال الديوان، تعلموا فى أوربا، فهم أعرف بلغة الأوربيين ونظمهم.[١]

على أنا نقرأ فى سجل من سجلات الديوان أن فروع الديوان، أى المصالح الداخلة فى اختصاصه فى سنة ١٢٥٥ هى :[٢]

١ — المدارس. ٢ — المطبعة. ٣ — الكتبخانة.

ثم نقرأ فى وثيقة أخرى فى هذا العام أيضا أن من النظار التابعين للديوان «مأمور تشهيل القناطر[٣]». فهذا البيان لا ينقص عن البيان الذى أورده «دنى» "Deny" إلا (الوقائع المصرية) فانها كانت ملحقة بالمطبعة ولهذا لم تذكر على حدة.[٤]

وهناك وثيقة أخرى تتحدث عن فروع الديوان من سنة ١٢٥٣ إلى سنة ١٢٥٩ وهى عدا المدارس :

---

(١) Hamont, op. cit, II, p. 26.

(٢) دفتر ٢٠٤٦ (مدارس تركى) س ٢٥ فى ٢٥ صفر ١٢٥٥

(٣) دفتر ٢٠٤٦ (مدارس تركى) س ١٠٢ فى ١٦ جادى الثانية

(٤) دفتر ١١ (مدارس عربى) س ٣٠٥١ من الديوان الى المطبعة والوقائع (معاً)

(٥) دفتر ٤٥ (مدارس عربى) س ٨٢٩ رقم ١٦٧ الى المالية فى ٤ ذى الحجة ١٢٦٢

١ — المطبعة .
٢ — الكتبخانة .
٣ — مخزن العموم .
٤ — اسطبل شبرا .
٥ — ورشة آلات الجراحة .
٦ — مخبز الخانكة .
٧ — الأجزخانات .
٨ — الوجاقات بالخانكة .
٩ — السواقى والجناين .
١٠ — أغنام المارينوس .
١١ — زراعة التجربة .
١٢ — إخراج الطوب .
١٣ — قناطر الشرق .
١٤ — القناطر الخيرية .
١٥ - مخازن بحر الشرق .
١٦ - مخازن بحر الغرب .

على أنه بعد سنة ١٢٥٩ أُلغِىَ بعض هذه المصالح أو ضمّ بعضها الى بعض أو ألحق بدواوين أخرى غير ديوان المدارس ، فانه فى أوائل سنة ١٢٦٣ (١٨٤٧ م) كان يتبع الديوان — عدا المدارس والمكاتب — المطبعة والكتبخانة ومخزن القناطر [1] والراجح أنه اقتصر — فى التبعية لديوان المدارس — على المصالح ذات الصبغة العلمية أو التى تمدّ المدارس بما تحتاج اليه كالمطبعة والكتبخانة ، أما تبعية القناطر للديوان فترجع — فيما نرى — إما الى أن خريجى مدرسة المهندسخانة كانوا يعملون بها فكانت لهم مجالا للتمرين، وإما الى أن بها مهندسين من الأجانب يستطيعون التفاهم مع كبار موظفى الديوان الذين يعرفون اللغات الأجنبية .

أقسام الديوان

كان محمد أمين بك — عضو بعثة سنة ١٨٢٦ — أول (موظف) عُيِّنَ بديوان المدارس عقب إنشائه ، إذ عين خزينة دارا (خازنا) للديوان ،

(١) دفتر ٤٥ (مدارس عربى) ص ٨٩٨ رقم ٣٠ الى الدايرة السر عسكرية فى ٨ محرم ١٢٦٣

وطلب الديوان استدعاء « بعض المأمورين » لتعليم التلامذة (أى التلامذة الكتاب) فن الحساب . ثم رأى الديوان أنه يلزم له « كاتب وريس مخله (أى أمين محفوظات أو كاتب قيودات) ونفر كاتب ايكنجى (أى ثان) ونفر كاتب آخر ونفر صراف ونفرين عدادين » . وعين « الشيخ يحيى من المأمورين فى تعليم أصول الحسابات للتلاميذ بورشة المحــاسبة » (أى قلم المحاسبة) باشكاتباً للديوان .(١)

ثم تعقدت الأعمال بالديوان فجعُل أقلاما أو مكاتب أهمها : قلم المستخدمين (bureau de personnel) وقلم المهمات (bureau de matériel) والخزينة ، ولكل قلم باشكاتب . ويتلقى الوزير (مدير الديوان) أو نائبه المكاتبات فيفضها ويفحصها ويرسل لكل قلم ما يخصّه منها ، وتكتب الردود فى الأقلام ، ويوقعها رئيس القلم ويحملها إلى المدير فيضع عليها خاتمه .(٢)

ويتفق هذا مع ما ذكره دنى « Deny » من أن الديوان كان مقسما إلى أقلام مختلفة : قلم المهمات وقلم الأشخاص وقلم الهندسة والخزينة.(٣)

وإلى سنة ١٨٤١ (١٢٥٧ هـ) كان الديوان مقسما إلى هذه الأقلام الثلاثة : قلم الخزينة وقلم الأشخاص والمهمات وقلم الهندسة . ورأت اللجنة التى وكل إليها إعادة تنظيم التعليم فى ذلك العام أن « أعمال الديوان خارجة عن محورها ، نابية عن غايتها ، إذ كانت الأقلام خلوا من الكتبة القديرين ، محرومة من نظارها الذين نزعوا منها منذ مدة ، ولم يكن قد عيّن من يخلفهم » ورأت أن يظل الديوان مقسما إلى ثلاثة أقلام ، إلا أنها غيرت اختصاصها

---

(١) دفتر ٩٠٤ قلم الخزينة الخديوية — باب قيد خلاصات المدارس رقم ٣٩ فى ١٢ ذى القعدة ١٢٥٢

(٢) Hamont, op. cit, II, p. 328.

(٣) Deny, op. cit, p. 123.

فأصبحت : القلم العربى والقلم التركى وقلم الهندسة . وعهدت إلى «مصطفى بهجت افندى» بنظارة قلم الهندسة كما كان، وعينت «رأفت افندى» ناظر المدرسة التجهيزية ناظراً للقلم العربى «لما رأته فى هذا القلم من ضخامة ولما اتصف به رأفت أفندى من علم باللغة التركية واللغة العربية وصناعة الكتابة، ومن معرفة للحساب والهندسة واللغة الفرنسية، ومن خبرة وإحاطة بالأمور المتعلقة بالمدارس» . وعينت «علوى افندى» ناظراً للقلم التركى ووكلت اليه أمانة الخزانة والإشراف عليها، وكذلك عينت عدداً من الكتبة «من ذوى الكفاية والمقدرة تبعا لحالة العمل ووفقاً لمقتضى المصلحة»[١]

والراجح أن هذه الأقلام كانت أقساما كبيرة : ذلك لأن فى سجلات المدارس العربية ذكراً لأقلام مختلفة تصدر منها (الافادات) كقلم التحريرات والحسابات والتنظيم والوقائع والاستشارة، وكان بها قلم آخر للتحريرات الفرنسية يعمل به موظفون مصريون يعرفون اللغة الفرنسية[٢]

خزينة المدارس وميزانية الديوان

والراجح كذلك أن خزينة المدارس لم تَعُدْ قلما من أقلام الديوان، بل «فرعا» مستقلا فى إدارته وإن ظل تابعا للديوان، إذ أن (الافادات) الصادرة من الديوان الى الخزينة تدرج فى سجلات الفروع وهى المدارس والمصالح التابعة للديوان، فحكمها حكم المطبعة والكتبخانة . وقد تطوّر اسم خزينة المدارس فى السنة الأخيرة من حكم محمد على : فى ٢٥ جماد أول سنة ١٢٦٤ أصبحت المراسلات الصادرة من الديوان اليها توجه باسم «ناظر قلم الحسابات والتحريرات التوركى»[٣] ثم باسم «إعلامات الحسابات»[٤]

(١) دفتر ٢٠٧٣ (مدراس تركى) رقم ٥٦٥ الى شورى المعاونة فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٧ .
(٢) دفتر ١٢ (مدارس عربى) س ٢٣٧٠ رقم ٦١٩ خزينة المدارس فى ٢٠ جماد أول ٦١٩
(٣) دفتر ٩٨ (مدارس عربى) س ٢٣٠٩ رقم ٨٩٢ فى ٢٥ جماد أول ١٢٦٤
(٤) دفتر ٩٩ (مدارس عربى) س ٢٨٥٤ رقم ٩٤٥ فى ٢٨ جماد ثان ١٢٦٤

وكان للديوان رئيس للصرّافين أو « صراف باشا » .⁽١⁾ وعقب صدور الأمر بإنشاء الديوان وإنشاء خزينة خاصة له تداول أعضاء شورى المدارس — وكان لا يزال قائما — بشأن المال الذى يحتاج إليه ديوان المدارس وفروعه فى شهر ، فاتفق الرأى على ما يلى :

بارة	قرشا	
—	٣٨,٦٧٦	لديوان المدارس .
٨	١١,٨٨٣	لمدرسة الألسن .
٨	٣٩,٦٢٠	« الفرسان .
٣٥	٣٠,٩٤٩	« المدفعية .
٣٤	٢٧,٩٦١	« المشاة .
٣٤	١٩,٠٩٠	« الطب البشرى .
١١	٤,٧٢٢	« « البيطرى .
٧	٢٨,٠٢٧	« المهندسخانة .
—	١١,٠٠٠	« المحاسبة .
٢٩	٣٧,٤٢٤	للمدرسة التجهيزية .
—	١٠,٢٢٩	للاسطبل الكبير بشبرا .
٦	٢٥٩,٥٨٥	

ولكن أعضاء الشورى كانوا قد وضعوا هذه (الميزانية) منذ أشهر « وعدد الأشخاص ومقدار الماهيات قد زادت الآن .... » لذلك التمسوا أن يزاد المبلغ إلى ٣٠٠,٠٠٠ قرش فى كل شهر « فانه يكفى لادارة مصالحنا الخيرية إدارة حسنة »⁽٢⁾ . وأقر لهم الجناب العالى ما طلبوه وأصدر أمره بأن

(١) دفتر ١٢ (مدارس عربى) ص ٢٤٦٤ الى خزينة المدارس فى ١٤ جماد ثان ١٢٦٦

(٢) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٩ ذى القعدة سنة ١٢٦٢

يصرف للديوان هذا المبلغ من ديوان إيرادات المحروسة .[١]

ولكن فى العام الأخير من عصر محمد على أصبح « مرتب المدارس (أى ديوان المدارس) اللازم صرفه من خزينة المالية شهرى قدرهماية وأربعون ألف قرش وكسور ... » [٢] أى نصف ما كان مقرراً له . فهل يدخل فى هذا المبلغ مرتبات التلاميذ والموظفين ولم تكن تصرف — فى أواخر عصر محمد على — فى كل شهر ؟ نرجح ذلك كما نرجح أن إنقاص ميزانية المدارس جاء نتيجة لإلغاء بعض المدارس وإنقاص عدد التلاميذ فى بعضها الآخر بعد « ترتيب سنة ١٢٥٧ » .

أما مكاتب الأقاليم — وكانت أربعة بعد سنة ١٢٥٧ (١٨٤١) — فقد كانت ميزانياتها تابعة للمديريات ، فكانت تصرف لها « استحقاقاتها نقدية شهرى » ، ولذلك لم تدرج « ضمن المرتب الجارى صرفه من خزينة المالية ، كون المرتب فهو للفروع التى بالمحروسة وطره والجيزة وأبى زعبل » .

وهذا بيان بما يلزم صرفه شهريا لمكتب من مكاتب المبتديان بالأقاليم :[٣]

بارة	قرشا	
١٥	٥٧١	علايف التلامذة (أى مواد الغذاء) .
٢٣	٧٩٢	ماهيات الناظر والخدمة .
٢٨	١٧٧	بدل تعيين .
—	١٠	مصروفات .
٢٦	١٥٥١	

(١) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢٣ ذى القعدة سنه ١٢٥٢

(٢) دفتر ٣ (مدارس عربى) س ٨٥٦ رقم ٢١١ الى ديوان المالية فى ١٦ محرم ١٢٦١

(٣) الوثيقة السابقة .

مدير الديوان ووكيله

ذكرنا أنه لما أنشىء شورى المدارس عين مختار بك ناظراً عليه علاوة على وظيفته الأصلية وهى نظارة مجلس الملكية ، ثم غضب عليه محمد على ففصله من نظارة مجلس الملكية ، ثم عطف عليه فأبقاه على نظارة شورى المدارس وحدها، وبذلك أصبح للشورى ناظر خاص وهو « مصطفى مختار بك » . وقد ولد فى قوله وأتى به أهله إلى مصر . وفى سنة ١٨٢٦ أرسل فى البعثة التى سافرت إلى فرنسا ، وكان له من العمر وقتئذ أربع وعشرون سنة، وقد درس فى فرنسا الادارة الحربية ، وكان مع عضوين آخرين يتناوب رئاسة التلاميذ المبعوثين،[1] ولما عاد إلى مصر فى سنة ١٨٣٢ عمل بديوان الجهادية ثم بمجلس الملكية ثم بشورى المدارس فى سنة ١٨٣٦ . وكان حاد الذكاء سريع النشاط محباً للاستقلال فى عمله حتى ليؤدى به ذلك إلى المبالغة فى إظهار نفوذه وكبريائه، وحتى ليصطدم أكثر من مرة بمحمد على ، فحنق عليه أخيراً وفصله من عمله، ولكنه كان يعرف فيه النشاط والكفاية الإدارية فأعاده على رأس شورى المدارس، آملا أن « ينتهى عن فرط جبروته واستبداده وأن ينزل فيندمج فى صفوف بنى آدم » . ولما أنشىء ديوان المدارس ظل مديراً له حتى مات . ويصفه أحد نظار المدارس الخصوصية فى ذلك العصر بأنه « ذكى وهو يحب مولاه ويرغب فى تحسين المؤسسات التى أنشأها الوالى ، وإنه ليظهر نشاطا جمًا ويخافه مرءوسوه فانه يعرف كيف يطاع، ولكن مدير المدارس يهتاج كثيراً ، وإن هذه العادة التى اكتسبها أثناء مقامه فى فرنسا تجعله يحيد أحيانا عن الحق ، ومع ذلك فان مختار بك قد وضع وزارته فى حالة مفيدة وطبع بطابع النشاط المؤسسات الداخلة فى اختصاصه ، وإذا تمكن أحد من إثارة

(١) Jomard : Ecole Egypt. à Paris, Jour. Asiatique, II, 1828, p. 96.

حبه لنفسه فانه يجيبه إلى كل ما يطلب » .[١]

ولكنه لم يمكث طويلا على رأس الديوان فقـــد توفاه الله فى مايو سنة ١٨٣٩ .[٢]

وخلفه مديراً للديوان « أدهم بك » ، وقد درس المدفعية فى انجلترا ، وكان بتلك البلاد يرأس أعضاء بعثة صناعية لما خلا منصب المدير . وكان محمد على قد غضب عليه ، لما بلغه عنه من انصرافه عن الدرس والاطلاع على النظم الصناعية الانجليزية حتى يمكن الانتفاع بها فى مصر ، إلى محاكاتهم فى ملبسهم وعاداتهم، فأعاده محمد على إلى مصر مغضوباً عليه ، ثم عفا عنه بشفاعة حفيده عباس باشا بعد أن أبدى أدهم بك الندم على ما حصل منه واعترف بخطئه . وعينه الأمير مديراً للمدارس خلفاً لمختار بك[٣] .

«وهو جم النشاط والذكاء يتكلم اللغتين الفرنسية والانجليزية ، وتستشيره جميع المصالح الحربية والمدنية ، ولكنه كان يندر حضوره إلى الديوان فكان ينوب عنه وكيل الديوان أحمد بك» .[٤] «وقد تعلم أدهم بك اللغة الفرنسية بقوة إرادته وعلى غير أستاذ ، وهو صحيح اللهجة فيها ، وتعلم الرياضيات بفروعها فقبض على ناصيتها ، وأحاط بشتات المعلومات الخاصة بفن الطوبجية ، وأرى أنه يناظر فيها أحسن ضباط المدفعية وأمهر مديرى الادارات المتعلقة بها ، وأنه أقدر من عرفتهم من الناس فى الشئون الادارية ، ولا شك فى أن محمد على

---

(١) Hamont, op. cit. II, p. 226.

(٢) ذكر سمو الأمير عمر طوسون (البعثات العلمية ص ٣٦) أن مختار بك توفى سنة ١٨٣٩ ثم عاد فى هامش صفحة ١٦٣ فذكر أنه فصل من إدارة الديوان فى ذلك التاريخ وتابع فى ذلك — خطأ — ما ذكره أمين باشا سامى (التعليم فى مصر ص ١٠٩)

(٣) أمين باشا سامى : تقويم النيل ج ٢ ص ٤٩٥

(٤) Hamont, op. cit. II p. 328.

كان صادق النظر حينما اختار مثل هذا العامل النشيط ، بل كان سعيد الطالع بعثوره على مثله » . [١]

وقد ظل أدهم (باشا) مديراً لديوان المدارس إلى نهاية عصرى محمد على وإبراهيم ، أى مايقرب من عشر سنوات ، وفصل من وظيفته فى مارس ١٨٤٩ وأعيد إليها فى أكتوبر من ذلك العام، ثم فصل مرة ثانية فى مايو سنة ١٨٥٠ ، ولم يعد لديوان المدارس إلا فى عهد الخديو إسماعيل لمدة قصيرة (من يناير سنة ١٨٦٣ إلى يولية سنة ١٨٦٣) . [٢]

ولم يكن لديوان المدارس — فى عهد مديره الأول مختار بك — وكيل ، ولكن كثرة تردد مديره الثانى — أدهم بك — على بلاد الانكليز وتغيبه لذلك عن الديوان ، ألجأ الحكومة إلى تعيين وكيل للديوان يقوم مقامه فى إدارته حتى يعود ، وقد ذكرنا أنه كان يدعى أحمد بك « الذى كان يدير المدارس فى الواقع » [٣] . وهو « كولونيل تركى من قوله ، وقد قضى بضع سنوات فى فرنسا ويتكلم اللغة الفرنسية، وقد درس الإدارة المدنية فى فرنسا، وهو أخو إبرهيم باشا فى الرضاعة . . » . [٤] وقد رجعنا إلى كتاب سمو الأمير عمر طوسون عن البعثات العلمية فلم نعثر إلا على اسم « أحمد يكن مصطفى أفندى القوللى » وهو من أقرباء ولى النعم ، من (الأسرة اليكنية) وأرسل إلى فرنسا فى بعثة ١٨٢٦ لدراسة الإدارة الحربية ، ومما تعلمه صناعة الرصاص. وقام من فرنسا — عائداً إلى مصر — فى أول أغسطس سنة ١٨٣٢ ومعه كتب كثيرة فى الفنون الحربية . [٥] وقد جاء فى بيان « جومار » عن

---

(١) كلوت بك : لمحة عامة الى مصر ص٣٢٦ (نقلا عن أحد النبلاء الغربيين)

(٢) امين باشا سامى : التعليم فى مصر ص ١٠٩

(٣) Hamont, op. cit. II, p. 328.

(٤) Hamont, op. cit II, p. 271.

(٥) الأمير عمر طوسون : البعثات العلمية ص ٣٧

أعضاء هذه البعثة أنه ولد فى قوله . لذلك نرجح أنه « أحمد بك وكيل ديوان المدارس » ، وقد توفاه الله فى سنة ١٨٤٤ (١٢٦٠هـ)[١] ولم يُعيَّن بعد وفاته وكيل للديوان حتى نهاية عصر محمد علي .

معاونو الديوان ونظّار الأقلام

لا نسمع عن وظائف المعاونين بالديوان قبل سنة ١٨٣٩ (١٢٥٥هـ) ، والراجح أن هذه الوظائف لم تنشأ إلا فى أواخر عصر محمد على ، فان السجلات العربية لديوان المدارس (١٢٦٠ — ١٢٦٤هـ) تتحدث كثيرا عن معاونى الديوان الذين يمكن أن ندعوهم (عيون) الديوان . ذلك لأن (التفتيش) عن المدارس — بعد أن نظّم فى سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧ للإشراف على تنظيم المكاتب الابتدائية طبقا لقانون التعليم الابتدائى — لم يَعُدْ له وجود ، ولم يكن للديوان من كبار الموظفين (الفنيين) من يكل اليهم الإشراف على مراحل التعليم . لذلك كان معاونو الديوان يقومون بأعمال متعددة : كالتفتيش عن المدارس التجهيزية والخصوصية ورفع التقارير الى الديوان عن سير الدروس فيها ونظافة تلاميذها وملابسهم وغرفهم . . . الخ ،[٢] والتحقيق فى الدعاوى التى تنشأ بين موظفى المدارس ،[٣] والاشتراك مع معلمى المدارس فى وضع مناهج الدراسة ،[٤] والإشراف على تطبيق طرق

(١) وقد خلف مكتبة بها كتب فرنسية اشترتها الحكومة المصرية وضمتها إلى « الكتبخانة الأفرنكية » الملحقة بمدرسة الألسن — دفتر ٩٨ (مدارس عربى) ص ٥٩٧ رقم ٧٢ إلى مدرسة الألسن فى ٢٥ شوال ١٢٦٠

(٢) دفتر ٦١ (مدارس عربى) ص ٣٠٧٤ رقم ١٠٧٨ الى المدرسة والاسطبلات فى ٢١ جماد أول ١٢٦٣

(٣) دفتر ٤٨ (مدارس عربى) ص ٢٨٨٨ رقم ٨٣ إلى قسم شهرى فى ١٦ جماد آخر ١٢٦٣

(٤) دفتر ٢٦ (مدارس عربى) ص ٢٩٨ رقم ٣٥ الى مدرسة الألسن فى ١١ شوال ١٢٦١

حديدة فى التدريس، (١) والاشتراك مع ديوان الأبنية فى وضع (المقايسات) عن المبانى الجديدة للمدارس. (٢) وكان بعض المعاونين يشتغل فى ترجمة الكتب وتصحيحها، وكان يلحق بهم لذلك مساعدون و (مبيّضون) ، (٣) ومنهم من يندب للتوجه الى المالية — مع عدّاد من الديوان — لتسلم مرتب المدارس فى كل شهر. (٤)

من ذلك ترى أن مهام المعاونين مختلفة : فبعضها مهام فنية وبعضها الآخر إدارية . ولم تكن هناك لائحة تحدد اختصاصات المعاونين وتوزع العمل فيما بينهم ، فبينما يندب معاون للاشتراك فى وضع المناهج إذا به يدعى للاشراف على بناء مدرسة وهكذا . وعلى الرغم من ذلك فقد كان معاونو الديوان عيونه التى ينظر بها فى المؤسسات التابعة له ، وكانوا حلقة الاتصال بين الادارة (المركزية) فى الديوان وفروعه التابعة له ، ولاشك فى أنهم قد مكّنوا الديوان من الإشراف على المدارس إشرافا دقيقا . وعاونوا على إصلاح المدارس التى كانوا يقومون بالتفتيش عن شئونها الفنية والادارية .

وكانت هناك فئة أخرى يوكَل اليها ، عدا مهامها الأصلية ، مهام أخرى ، وهى فئة نظار الأقلام بالديوان . فقد جرت عادة الديوان — بعد إلغاء شورى

---

(١) دفتر ١٠٥٨ (مدارس تركى) س ٣٦ رقم ١٤٤٧ إلى مدرسة المبتديان فى ٩ ذى القعدة ١٢٥٥

(٢) دفتر ٤٨ (مدارس عربى) س ٢٨٩٢ رقم ٥٧٢ الى البنايات فى ٢ جماد آخر ١٢٦٣

(٣) دفتر ١٣ (مدارس عربى) س ٢٧٦٥ رقم ٥٠٠ الى مدرسة الألسن فى ١٤ رجب ١٢٦١

(٤) دفتر ٤ (مدارس عربى) س ٢٢٣٠ رقم ٣٨١ الى المالية فى ٩ ربيع الثانى ١٢٦١
وسجلات الديوان تذكر لنا من هؤلاء المعاونين محمد افندى بيومى (الذى كان استاذ الرياضيات فى مدرسة المهندسخانة) وابراهيم افندى رأفت (الذى كان ناظرا للمدرسة التجهيزية ثم ناظرا للقلم العربى بالديوان) وعبد الرحمن أفندى (الذى درس فى انجلترا طرقا جديدة فى التدريس للأطفال) ومصطفى افندى خلوصى .

المدارس — على عقد اجتماع منهم عقب الامتحانات لفحص نتائج المدارس المختلفة، والتوصية بترقية المدرسين والنظار الذين حسنت نتائجهم، وعقاب المهملين، وتوزيع التلاميذ على الفرق الدراسية. وعلى العموم فحص اقتراحات اللجنة التي قامت على امتحان التلاميذ، وفحص أعمال المدرسة ورفع تقرير بملخص النتائج والاقتراحات الى «شورى المعاونة» لرفعها الى الجناب العالى. (١)

ومن نظار الاقلام من كان يندب أحيانا للسفر الى الاقاليم لامتحان تلامذة مكاتبها، واختيار الناجحين منهم للمدرسة التجهيزية. (٢)

مكان الديوان

ذكرنا أن شورى المدارس منذ إنشائه جعل فى غرفة بمجلس الملكية، ثم لم يلبث أن نقل — فى ٢ جمادى الثانية سنة ١٢٥٢ (أواخر سنة ١٨٣٦) الى قصر الدفتر دار بالازبكية (٣) وكان يشغله المجمع العلمى الذى كوّنه الفرنسيون أثناء الاحتلال الفرنسى، (٤) وفى جناح منه كانت مدرسة الألسن. (٥)

ثم اتخذ هذا المكان بالأزبكية مقرّا لديوان المدارس، ولما ألغى الشورى بقى الديوان بالأزبكية تسع سنوات، ثم ضاق به المكان فبنى له بناء جديد بالناصرية (٦) ونقل اليه فى رجب سنة ١٢٦١ (١٨٤٥ م). وكان

---

(١) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) رقم ١٣٠٠ إلى الباشمعاون فى ١٢ شوال ١٢٥٥

(٢) دفتر ٦٢ (مدارس عربى) س ٣٥٥٧ رقم ٧٠٥ إلى مدرسة الألسن فى ٢٩ جمادى الآخرة ١٢٦٣

(٣) دفتر ٢٠١٥ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٣ جمادى الثانية ١٢٥٢

(٤) Mengin, op. cit. III, P. 123.

(٥) دفتر ٥٤ (مدارس عربى) س ٢٦٢ رقم ١٢ الى مدرسة الألسن فى ٢٨ رمضان ١٢٦٢

(٦) دفتر ٥ (مدارس عربى) س ٢٦٧٨ رقم ٤٠٥ الى الديوان الخديوى فى ٢٧ جمادى الآخرة ١٢٦١

(٧) دفتر ٥ (مدارس عربى) س ٢٦٨٠ رقم ٥٠٧ الى خزينة الأمتعة فى ٥ رجب ١٢٦١

هذا البناء مجاورا لمدرسة المبتديان بالناصرية ، فلما أريد توسيعه ضُمَّت اليه غرف من مدرسة المبتديان .[١]

وظل ديوان المدارس بالناصرية نحو خمسة أعوام ونصف عام ، نقل بعدها من الناصرية إلى « دائرة السلحدار بالقلعة » فى محرم سنة ١٢٦٦ (١٨٥٠ م) ، أى فى أوائل حكم عباس باشا الأول .[٢] ولم يكن عباس باشا يميل إلى الإبقاء على ديوان المدارس ، وقد كان يوماً يزور مديريات الأقاليم الوسطى « فامتحن المهندسين فى المنيا فوجد أنهم لايفقهون شيئاً من الهندسة فضلا عن أنهم لم يتمكنوا من عمل عمليات الضرب ، وعليه فالجناب العالى يهدد بالغاء ديوان المدارس » .[٣]

ولكن على الرغم من ذلك، وعلى الرغم من أن عباسا الأول ألغى كثيراً من المدارس، إلا أن ديوان المدارس عاش طوال حكمه ولم يقدر له الالغاء إلا فى حكم سعيد باشا (فى ١٠ ربيع الأول سنة ١٢٧١ هـ — سنة ١٨٦١ م) .[٤]

وبوضع اللوائح للمدارس وإنشاء شورى المدارس ثم ديوان المدارس، تَمَّ تنظيم التعليم الحديث فى مصر لأول مرة فى سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧ ، وبذلك كان هذا العام عَلَما فى تاريخ التعليم فى مصر : ففيه وضع الأساس الذى قام عليه بناء التعليم فى السنين الباقية من عصر محمد على وفيما تلاه من العصور ، وفوق هذا الأساس أخذت الحكومات تبنى ، وسواء أكان هذا الأساس صالحا أم مختلَّ الجنبات فان هناك حقيقة رائعة يجب أن نتمثلها دائما عند بحث التعليم فى مصر فى الحاضر والماضى : وهى أن موادّ هذا

---

(١) دفتر ٦ (مدارس عربى) ص ٣٠٧٥ رقم ٩٠٠ الى الأبنية فى غرة رمضان ١٢٦١

(٢) دفتر ٢١٣٢ (مدارس تركى) ص ٥٢ فى ٦ محرم ١٢٦٦

(٣) دفتر ٢١٣٣ (مدارس تركى) ص ٤٢ فى ٢٢ محرم ١٢٦٦

(٤) دفتر ٢١٤٨ (مدارس تركى) ص ٣٣ فى ١٠ ربيع الأول ١٢٧٢

الأساس لم تكن من عندنا ، بل هى مواد أجنبية كان يعوزها الشيء الكثير لتلائم البناء الذى أقيم فوقها . فالتعليم « الحديث » يبدأ فى سنة ١٨٣٦ يأخذ فى مجموعه صبغته النهائية . ففى ذلك العام تم تكوين « النظام التعليمى الحديث » ، بتقسيم التعليم الى مراحل مختلفة تقسيما واضحا ومحاولة ربط هذه المراحل بعضها ببعض برباط يقدرها على الحياة ويمكّنها من السير فى طريق التقدم . حقا لقد كان فى مصر — قبل سنة ١٨٣٦ — مدارس ابتدائية وأخرى تجهيزية وأخرى خصوصية ، إلا أن العمل لم يكن يجرى فيها — كما شرحنا — على منهج واضح . وسواء أكان هذا قد مكّنها من تعرف الطريق فى النهاية أم لم يمكنها ، فقد انتهى بها المطاف إلى تلك اللوائح التى وضعت فى سنة ١٨٣٦ ، والتى لاشك قد وضعت على ضوء التجارب التى مرّت على هذه المؤسسات فى السنين السابقة لهذا التاريخ .

كما أن مراحل التعليم كان يعوزها ، قبل سنة ١٨٣٦ ، الاتساق والترابط ، ولكنها — فيما نرى — لم تنجح فى ذلك كثيرا ، وظلت الصلة واهنة بين مرحلة التعليم الابتدائى — بمدارسه الخمسين — ومرحلة التعليم التجهيزى بمدرستيه الاثنتين . وسنرى أن ناحية الضعف هذه فى لوائح سنة ١٨٣٦ كانت من أهم العوامل فى اعادة النظر فى تنظيم التعليم بعد ذلك بخمس سنين .

ولم تكن هذه الصلة بين مراحل التعليم ضعيفة من جهة « الكمّ » فقط بل من جهة « النوع » كذلك : فالتلاميذ لا يعدّون فى المرحلة الابتدائية الأوّلية إعدادا طيبا يمكّنهم من متابعة مرحلة التخصّص الشاقة والخروج إلى حلبة الحياة مزوّدين بقسط كبير من التعليم ، ومن هنا كانت « ثمرات » المدارس فجة لم يُتح لها الوقت الكافى للنضوج .

على أن من أكبر ما كسبه التعليم فى مصر فى سنة ١٨٣٦—١٨٣٧ هو

إنشاء تلك الهيئة « الموجهة » ونعنى بها شورى المدارس وديوان المدارس من بعده ، فمهما قيل فى أضرار الإدارة (المركزية) كطبع معاهد التعليم بطابع واحد وعرقلة الطريق أمام الجهود الفردية المؤدية إلى التنافس المحمود ، وتحول المدارس والقائمين على شئونها إلى آلات لتلقى الأوامر وتلبيتها . . . الخ . نقول إنه مهما قيل فى أضرار المركزية فقد كان التعليم فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فى حاجة اليها ، ذلك أنه لم يكن للمدارس من « الشخصية » مايقدرها جميعا على السير قدما فى طريق النظام والرقى ، فالمدارس الابتدائيه كان يعوزها النظار والمدرسون الذين يمكن الاطمئنان إلى علمهم وكفايتهم الفنية . هذا إلى أن البلاد لم تتفتح أذهان الناس فيها بعد إلى ضرورة التعلّم ، وكانت الحكومة هى وحدها — بما لديها من الوسائل التى لاتوجد عند غيرها — القادرة على الإشراف على شئون التعليم وإصلاح المعوجّ منه وإمداده بما يمكّنه من الحياة .

وبعد سنة ١٨٣٦ قلّ النفوذ الأجنبى فى التعليم بالاستغناء عن خدمات كثير من الأساتذة الأجانب بالمدارس الخصوصية ، وقد يرجع هذا إلى شعور الحكومة بأن الأجانب فى مصر يبهظون بمرتباتهم الكبيرة عاتق الميزانية المصرية ، وخاصة بعد أن أصبح لديها من أهل البلاد الذين أتموا دراستهم فى مصر وأوربا ، من يمكنها الاطمئنان إلى علمهم وكفايتهم فأحلّتهم محل أساتذتهم من الأجانب ، والواقع أن الاستغناء عن خدمات الأجانب لم يكن عفو الساعة بل كان شغل الحكومة الشاغل منذ بدأت التعليم فى مصر .

وإذا كان الأجانب قد اشتركوا فى السنين الأخيرة من سيطرتهم على التعليم فى مصر فى وضع اللوائح لكل مرحلة من مراحل التعليم ، فقد رأت الحكومة أنه يجمل بهم أن يخلوا الطريق لناشئة البلاد تقفو أثرهم وتسير على النظم التى وضعوا .

حقا إن مدارس كثيرة كالطب البيطرى والمهندسخانة قد ظل لها نظارها الأجانب بعد سنة ١٨٣٦ ، إلا أن جلة أساتذة هذه المدارس أصبحت من لمصريين الذين أتموا دراستهم فى أوربا ، أو الذين درسوا بمصر ثم بدءوا فى سلك التدريس من أولى درجاته ، وكلما تقدم بهم العمر أصابوا من الحياة خبرة ومن العلوم أكبر نصيب .

الفصل الثالث

التنظيم الثاني

سنة ١٨٤١

ولكن هذا التنظيم الذى أصابه التعليم أول مرة فى سنة ١٨٣٦ لم يقدر له البقاء طويلا : فقد كان — كما ذكرنا — يحمل فى طياته عناصر من التفكك والانحلال ، لم تلبث أن تفاقمت بظهور عوامل أخرى ، ألمعنا إليها ونعود إليها هنا بشىء من التفصيل .

كان عدد المدارس الابتدائية أكثر مما تتطلبه مدرسة تجهيزية بالقاهرة وأخرى بالاسكندرية لم تنظم إلا فى السنوات الأخيرة من عصر محمد على . وكانت الحكومة تحار فى توجيه العدد الكبير من التلاميذ المتخرجين فى المدرسة الابتدائية بالقاهرة ومكاتب المبتديان بالأقاليم : ذلك لأن «وظيفة» المدرسة الابتدائية فى عصر محمد على لم تكن واضحة كل الوضوح : فهى تنشر التعليم بين الأهالى من جهة ، وتعدّ التلاميذ للتعليم التجهيزى من جهة أخرى . وهذا الغرض المزدوج هو الذى حمل الحكومة فى لائحة التعليم الابتدائى التى وضعت فى سنة ١٨٣٦ على أن تنشىء من المكاتب الابتدائية خمسين مكتباً فى القاهرة والأقاليم ، وهى وإن كانت تعاون على نشر التعليم بين الأهالى ، إلا أنها كانت تخرج من التلاميذ أكثر من حاجة المدرسة التجهيزية ، ومن هنا كان إنقاص عدد المكاتب الابتدائية أظهر شىء فى (ترتيب) سنة ١٨٤١ (١٢٥٧ هـ) .

وفى سنة ١٨٤٠ استقرّ السلام ، وتمت التسوية المصرية — العثمانية ،

وبدأ عهد من الاستقرار السياسى ، فلم يبق ثمة حاجة للجيش الجرار الذى كونه محمد على ، ولما يتبع هذا الجيش الجرار من كثير من مظاهر النشاط الاقتصادى والإدارى فى البلاد . فكثير من الضباط والجند يسرحون ، وكثير من الموظفين يصرفون عن وظائفهم ، والمصانع تغلق أبوابها .

وبذلك ظهرت الحاجة الماسة إلى إعادة النظر فى النظام التعليمى على ضوء حاجات البلاد الجديدة : فقد كانت المدارس الخصوصية أدوات للإعداد المباشر لوظائف الحكومة ، ولكن مجال العمل أمام خريجى هذه المدارس يضيق عن ذى قبل ، فاتجهت الرغبة إلى الإقلال من عدد التلاميذ بها حتى لا تضيق بهم الحكومة . والإقلال من عدد تلاميذ المدارس الخصوصية يتبعه حتما الإقلال من عدد تلاميذ المدرسة التجهيزية وبالتالى تلاميذ المكاتب الابتدائية . وهكذا اتجهت الرغبة إلى حصر التعليم فى نطاق ضيق حتى يكون مجرد أداة لإعداد من تحتاج إليه الحكومة من الموظفين : من الضباط والأطباء والمهندسين والمترجمين ، ولم يكن هؤلاء بالعدد الكبير .

وسواء أكان إقدام الحكومة على إعادة النظر فى النظام التعليمى مبعثه الرغبة فى الملاءمة بينه وبين الحاجات الجديدة ، أم شعورها أشد الشعور بالإجهاد المالى الذى لازم حكم محمد على ثم اشتد فى سنى الحرب الأخيرة ، فقد نزعت الحكومة عقب إقرار السلم إلى التخلص من كثير من منشآتها العلمية إلى جانب ما تخلصت من منشآت اقتصادية وإدارية . ولا شك فى أن حكومة محمد على كان يجهدها النفقات الطائلة التى تنفقها فى تعليم التلاميذ وإيوائهم وكسائهم وإطعامهم . فكان هذا الإجهاد ، مضافاً إلى الاجهاد فى ميادين أخرى ، حافزاً لها على أن تصيب بضربة قاضية كثيراً من معاهد الدراسة ، بعد أن قامت على المحافظة عليها والعمل على تقدمها سنين عدة ، وتكلفت فى ذلك جهداً طائلا ومالا كثيراً .

وهناك عامل «نفسى» آخر كان لاشك له أثره فى الانصراف عن كثير من المنشئات التعليمية والاقتصادية فى مصر بعد سنة ١٨٤١ ، وإن كنا لم نستطع تتبعه بصورة « عملية » فى حوادث تلك الحقبة الهامة من تاريخ مصر الحديث: هذا العامل « النفسى » هو « الانحلال » الذى أصاب اليد العاملة المفكرة والعقل المدبر النشط ، انحلالا مبعثه ثقل السنين ووطأة المرض ، فقد شعر محمد على أن كثيراً من آماله لم تتحقق وأن بعض آماله الأخرى التى حققها لا تتكافأ والجهود الجبارة التى بذلها ، فأصابه كثير من السأم والملل ، وكان هذا إيذاناً بتهافت البناء الذى أقامه وسهر عليه دهرا طويلا ، وكان يستمد من منشئه القوة والحياة ، ولكن لولم تكن هناك الهيئات التى كونها محمد على ، والدواوين والمجالس التى أقامها لمعاونته فى الإشراف على منشآته الجديدة ، وهؤلاء الرجال الذين سهر على تربيتهم وإعدادهم فى مصر وأوربا ، فى المدارس وفى المصالح ، ليحملوا المصباح من يديه حين تكلان ، لولا أولئك وهؤلاء لاندك البناء وانطفأ المصباح وعادت البلاد القهقرى .

ولا شك فى أن هذا يفسر لنا — إلى حد كبير — كيف احتفظت المدارس التى ظلت قائمة بعد سنة ١٨٤١ بكيانها ، وظل العمل يسير فى كثير منها فى إتقان وجودة . بل لقد يتضح لنا — بعد بحث هذه المدارس بحثاً مفصلا خلال تاريخها الطويل أو القصير — أن بعضاً منها لم تكتمل له « شخصيته » ويتم « نضجه » ويشارف الغاية من إنشائه إلا بعد ١٨٤١ .

حقاً إن اليد العاملة الباعثة قد تراخت أوقل انزوت من ميدان النشاط ، إلا أن التجارب التى اكتسبتها المنشئات الحديثة — وأهمها معاهد العلم — قد مكنتها من متابعة السير إلى الأمام مسترشدة بما مر بها من الأحداث .

وبذلك تكون القواعد التى قام عليها التنظيم الثانى أو ترتيب سنة ١٨٤١م (١٢٥٧ هـ) ثلاثة وهى :

١ — الاقتصاد .

٢ — مراعاة الحاجات الجديدة .

٣ — التمكين لمراحل التعليم المختلفة فى أسباب القوة والاتساق .

وسنرى — بعد أن نتحدث عن الكيفية التى تم بها هذا التنظيم الثانى — مدى تطبيق هذه القواعد ، وهل استطاعت الحكومة بما وضعت من نظم جديدة أن تبلغ غايتها فى ضوء تلك القواعد .

والآن نتحدث عن الكيفية التى تم بها هذا التنظيم الثانى للتعليم الحديث فى سنة ١٨٤١ :

يتحدث كثيرون عن سنة ١٨٤١ ، ويذهب بهم الظن إلى أنها كانت سنة القهقرى أو الهدم فى تاريخ التعليم فى مصر ، وأن كثيراً من المدارس الابتدائية والتجهيزية والخصوصية قد ألغى فى تلك السنة . ويؤيدهم فى ظنهم هذا ناظر لمدرسة خصوصية فى عصر محمد على إذ يقول — وكتاباته فى عصر محمد على مشربة بالتحامل والشطط فى الأحكام — « إنه بعد السلم واستقرار الأحوال ، اجتمع إبراهيم باشا (نجل الوالى) وعباس باشا (حفيده) وشريف باشا (أحد وزرائه) ووضعوا مشروعا لتنظيم المدارس ، ألغيت به المدارس الابتدائية والمدرسة التجهيزية والمدارس الخصوصية ، وأنقص عدد المدرسين فى جميع المدارس وحدد عدد التلاميذ بها ، وحل مدرسون من المصريين محل الأوربيين . . وقد نتج عن إلغاء المدارس إحساس عميق مؤلم . . وأعلن أصدقاء محمد على أنهم حرموا الدفاع عن القضية التى كانوا يحتضنونها . . » ، ويقول إن رجال الدولة رفعوا أصواتهم بالمعارضة ، فطلب محمد على إلى أدهم بك — مدير ديوان المدارس إذ ذاك — وإلى سليمان باشا الفرنساوى ، إدخال بعض الإصلاحات الضرورية على مشروع اللجنة الأولى ، وأريد الاحتفاظ بالمدارس ، ولكن المعارضة فى بقائها كانت قوية ويزداد أفرادها

يوماً بعد يوم .. وإلى سنة ١٨٤٢ لم يدخل تعديل على مشروع اللجنة الأولى .[1]

هكذا يتحدث الكاتب — فى شيء كبير من القسوة والتحامل — عن تنظيم التعليم لثانى مرة فى سنة ١٨٤١ . ولكن بين مايتحدث به الكاتب وماتتحدث به الأوراق الرسمية بون بعيد .

على أن الراجح أن الحكومة حين أزمعت (تنظيم) التعليم فى سنة ١٨٤١ (أواخر سنة ١٢٥٧ هـ) كانت تريد الضربة قوية ، إذ أنها أقدمت على إلغاء المدارس التى تعدّ للمدارس الخصوصية . فانه فى ٢٤ شعبان سنة ١٢٥٧ صدر أمر عال من محمد على بالموافقة على قرارات اللجنة « المنعقدة بحضور حضرة صاحب الدولة نجلنا الباشا السرعسكر لأجل ديوان المدارس » . وكانت هذه القرارات تقضى بالغاء المكاتب الابتدائيـة بالأقاليم (وكانت إذ ذاك نحو الثمانية والثلاثين مكتبا) ومدرسة المبتديان بالسيدة زينب (وكانت المدرسة الابتدائية الوحيدة بالقاهرة) ومدرسة الموسيقى والمدرسة التجهيزية (وكانت المدرسة التجهيزية الوحيدة بالقطر كله قبل تنظيم مدرسة الاسكندرية) ، وتوزيع التلاميذ على فرق المشاة والفرسان والمدفعية . واقتضى ذلك طبعا فصل كثير من الضباط والموظفين والخدمة ، وهكذا تمكنت الحكومة من اقتصاد مبلغ كبير قدره ٥٩,٦٠٠ كيس أى نحو ٢٩٨,٠٠٠ جنيه ، وليس هذا بالقدر القليل .[2]

ولكن إلغاء المدارس الابتدائية كلها والمدرسة التجهيزية مع بقاء المدارس الخصوصية لم يكن أمرا طبيعيا : إذ من أين تستمد المـــدارس الأخيرة تلاميذها ؟ قد يكون لها فى ذلك العام — عام ١٨٤١ — عدد من التلاميذ يكفى لتغذيتهـــا سنوات أخرى ، ولكنها لاشك محتاجة آخر الأمر إلى

---

(١) Hamont, op. cit. II, pp. 515-516.

(٢) دفتر ٢٠٧٠ (مدارس تركى) ص ٦٠ رقم ٢٥ أمر عال فى ٢٤ شعبان ١٢٥٧

مدارس تعدّ لها تلاميذها . لذلك نرجح أن هذا (الترتيب) الأول لم يكن نهائيا ، وأن الحكومة إنما أقدمت على إلغاء ما ألغت من المدارس لتعيد تنظيمها من جديد على قواعد جديدة وبنظم جديدة . ويؤيد رأينا هذا أنه لم يمض على إلغاء المدارس شهران أو ثلاثة شهور حتى شرعت الحكومة من جديد تقيم (البناء) على أسس جديدة وتضع نظاما « نهائيا » موافقا . فهل كان ذلك نتيجة لمعارضة قوية لقرارات اللجنة الأولى وشعور المفكرين وكبار رجال التعليم فى ذلك الوقت أن إلغاء هذه المدارس كلها (بجرة قلم) واحدة يعود بالتعليم وبالبلاد القهقرى ، ويفوّت عليها فى نهضتها سنوات كثيرة قضتها فى التجربة ثم فى تدعيم البناء ؟ أم كان نتيجة لتقدير الحكومة أن عمل اللجنة الأولى ليس نهائيا وأنها إنما تهدم لتبنى من جديد ؟

ومهما يكن من شىء فقد كان اليوم الرابع والعشرون من عام ١٢٥٧ يوما مشهودا فى تاريخ التعليم فى مصر عامة وفى تاريخ التعليم الابتدائى والتجهيزى خاصة : إذ ألغيت فيه معاهده كلها . لهذا كان الأساس الذى قامت عليه مداولات اللجنة الثانية [١] التى نظمت التعليم تنظيما (نهائيا) « النظر فى أمر المكاتب الابتدائية والمدرسة التجهيزية الملغاة جميعا فيقتصر منها على فتح العدد الذى تمس الحاجة إلى فتحه سواء فى القاهرة أو فى الأقاليم، باعتبار هذه المدارس أصلا وأساسا للمدارس الخصوصية » .

وهكذا اقتصر الغرض من التعليم الابتدائى على مجرد الإعداد للمدارس التجهيزية والخصوصية ، ولم نعد نسمع عن الغرض الذى توخته اللجنة التى نظمت التعليم فى مصر فى سنة ١٨٣٦ : وهو « نشر مبادىء العلوم بين الأهالى » .

---

(١) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) رقم ٥٦٥ تقرير مطول فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٧ عن قرارات اللجنة ، مرفوع من ديوان المدارس إلى شورى المعاونة تمهيدا لاستصدار الأوامر العالية (انظر الملحق) .

ومن الأسس التى قام عليها عمل اللجنة كذلك إحياء مدرسة الزراعة « التى ليس من الجائز إلغاؤها بعد ماجىء لها حديثا من فرنسا بمعلم مخصوص متعاقد والحكومة، ومع ما بذل ولا يزال يبذل فى سبيل علم الزراعة وفن الحراثة من سعى وهمة»، وتنظيم المدارس الحربية « مع ملاحظة الظروف التى يتيسر فيها تأليف القدر الكافى من الألايات » .

أما أعضاء اللجنة فهم سليمان باشـــا الفرنساوى و « ترجمان » الجناب العالى (وهو أرتين بك الذى كان عضوا بشورى المدارس) وكانى بك معاون ديوان الجهادية وأعضاء شورى الأطباء ، ومن نظار المدارس الخصوصية : حكاكيان بك ناظر مدرسة العمليات ، وواسيل بك ناظر مدرسة الفرسان ومسيو لامبير ناظر مدرسة المهندسخانة ، ومسيو پرون ناظر مدرسة الطب البشرى ، والشيخ رفاعة رافع ناظر مدرسة الألسن ، وأمين بك ناظر مدرسة الطب البيطرى ، و « المعلم » لافُرج (المدرس بمدرسة الزراعة) .

وفى هذه اللجنة ستة أعضاء كانوا من أعضاء اللجنة الأولى التى نظمت التعليم فى سنة ١٨٣٦ : وهم أرتين بك وكانى بك وكلوت بك وحكاكيان بك ومسيو لامبير والشيخ رفاعة ، ولا شك فى أنهم استرشدوا بمداولاتهم الأولى وبالتجارب التى مرّت على التعليم فى مصر من سنة ١٨٣٦ إلى سنة ١٨٤١ . وقد هوّن عليهم استرشادهم هذا كثيراً من الجهد . والواقع أن عملهم هذه المرة لا يمكن أن يرقى — فى الجهد الذى استلزمه — الى عملهم منذ خمس سنوات .

ثم شرعت اللجنة فى بحث المدارس ، مدرسة مدرسة ، على ضوء حاجة الدولة الى تلاميذها ، فترى هل حققت المدرسة ماعقد عليها من آمال ، وإلا فما الأسباب التى عاقتها عن تحقيق تلك الآمال ، فان يكن ضعف التلاميذ العلمى

فصلت المتأخرين منهم ، وإن يكن قلة الأساتذة الأكفاء أشارت بامدادها بمن تحتاجه منهم وهكذا .

بدأت اللجنة بالمدارس الحربية ، واتجه الرأى إلى الإقلال من عدد تلامذتها حتى يتناسب وعدد الجيش بعد إنقاصه . ولكن لما كان هذا الأمر معتبرا أساسا لقوة مصر العسكرية ، وكان من شأن هذا الاعتبار أى يجعله منوطا بكثير من الملاحظات المالية ، طال فى تنظيمها (المدارس الحربية) الجدل ، حتى تقدم « واسيل بك » ناظر مدرسة الفرسان بمشروع لمدرسته اتخذ نموذجا للمدارس الحربية الأخرى . فأنقص عدد تلاميذها وأنقصت مرتباتهم ورئى من باب الاقتصاد أن يقوم التلاميذ الجدد بخدمة أنفسهم كما يفعل الجنود ، ورفض الاقتراح القائل بأن يقوم التلاميذ جميعا بخدمة أنفسهم لأن « فى ذلك عرقلة للتعليم وعوقا وتأخيرا للتعلم ، فضلا عن تسخير التلاميذ الذين ينفق على تثقيف الواحد منهم كل سنة ألفا قرش على أقل تقدير فى أعمال الخدم الذين مرتب أحدهم الشهرى عشرون قرشا » .

أما مدرسة المهندسخانة — وقد بحثتها اللجنة بعد المدارس الحربية — « فلم تر من الحكمة أن تجعلها أصغر وأشد أختصارا مما هى عليه إذ ذاك . . . لأن تلامذتها تحتاج اليهم الحكومة فى الأمور العسكرية والأمور المدنية على السواء ، وكان من البداهة أنه كلما تقدمت البلاد ازدادت حاجتها إلى المهندسين » ، واعترفت اللجنة بالتقدم العظيم الذى أحرزته المهندسخانة فى النهضة العلمية ، وأرجعت ذلك الى « دقة ناظرها وهمة أساتذتها » ، وأكثر من ذلك إلى قيام مدرسيها على تعريب الدروس وطبعها .

أما مدرسة الطب البشرى فقد تداولت اللجنة طويلا مع شورى (مجلس) الأطباء ورئيسه كلوت بك ، واستقر قرارها أخيرا على الإقلال من عدد تلاميذها حتى يلائم « حاجة الوقت الراهنة » . والواقع أن مدرسة الطب كانت

أشدّ المدارس الخصوصية المدنية ارتباطا بالجيش إذ كانت تخرج له كل عام عددا كبيرا من الأطباء الضباط ، وكان الجيش يفتح أمام خريجيها أكبر مجال للعمل ، لهذا أوصت اللجنة بأن يفصل عنها المتأخرون ويلحقوا بمدرسة الزراعة أو الطب البيطرى .

ولما شرعت تبحث فى تنظيم مدرستى الزراعه والطب البيطرى قررت استبقاء ثلاثة أساتذة أوربيين يقومون بالتدريس لتلامذتها ، واستغنت عن أستاذ رابع .

وكذلك صرف عن مدرسة الولادة أستاذها الطبيب وكان شيخا عليلا ، وعهد بأعماله إلى أستاذ من مدرسة الطب البشرى .

أما مدرسة العمليات فأوصت اللجنة بالحاق بعض خريجيها بأشغال القلاع والحصون والبواخر النيلية ، وسبق التلاميذ المتأخرون إلى العسكرية ، وأبطلت (ورشة) الجراحة الملحقة بالمدرسة .

أما مدرسة الألسن فقد لاحظت اللجنة أن لوائح سنة ١٨٣٦ تجعل منها مدرسة تجهيزية : تعدّ تلاميذ يعرفون اللغه الفرنسية للمدارس الخصوصية الأخرى ، على أن تكون هى نفسها مدرسة خصوصية إذ أنها تستمد تلامذتها من المدرسة التجهيزية . ولاحظت أيضا أن مدرسة الألسن لم تُعْنَ بإعداد تلامذة للمدارس الخصوصية ومضت — كمدرسة خصوصية — فى تخريج المترجمين ، وكانوا عدداً قليلا ، إلا أن « هؤلاء المترجمين — مهما تكن قدرتهم على ترجمة كتب التاريخ والقانون والجغرافيا وماماثلها (وهى العلوم التى يدرسون بالمدرسة والتى لاتحوى مصطلحات « فنية » كثيرة) — كانوا بلاشك عاجزين عن أن يستقلوا بترجمة الكتب المتعلقة بالعلوم والرياضيات : ككتب الرياضة والطبيعة والطب » لهذا رأت اللجنة إعادة افتتاح المدرسة التجهيزية — بعدد محدود من التلاميذ — وإلحاقها بمدرسة الألسن ، على أن

يدرس تلامذتها اللغة الفرنسية منذ التحاقهم بها ، حتى إذا التحقوا باحدى المدارس الخصوصيـــة كانوا متمكنين من الترجمة فى الفنون التى تخصّصوا لها .

بقيت المدارس الابتدائية : وقد رأت اللجنة أن يفتتح منها العدد الذى يكفى لامداد المدرسة التجهيزية بالتلاميذ ، ورأت أن يكون هذا العدد خمس مدارس أو مكاتب : مدرسة بالقاهرة بهـــا ثلاثمائة تلميذ ، وأربعة مكاتب بالأقاليم : مكتب بأسيوط وآخر بالمنيا وثالث بالجيزة ورابع بميت غمر ، وبها جميعاً من التلاميذ ٧٨٠ تلميذاً .

وبهذا انتهى تنظيم المدارس وشرعت اللجنة تبحث فى إنقاص مرتبات التلاميذ : فجعلت مرتبات تلميذ المدارس الابتدائية من ستة قروش إلى ثمانية (بعد أن كانت من ثمانية قروش إلى عشرة) ، وتلميذ التجهيزية من عشرة قروش إلى ثلاثة عشر قرشاً (وكانت من خمسة عشر إلى ثلاثين قرشاً) ، وتلميذ المدارس الخصوصية من خمسة عشر إلى خمسة وثلاثين قرشاً (وكانت من أربعين إلى ثمانين قرشا) .

ومما يمتاز به « ترتيب » سنة ١٢٥٧ (١٨٤١) إنشاء قلم للترجمة وتقسيمه أقساما أربعة :

١ — قسم لترجمة العلوم الرياضية .

٢ — وقسم لترجمة الأدبيات .

٣ — وقسم لترجمة العلوم الطبية والطبيعية .

٤ — وقسم الترجمة التركية .

وعيّنت لكل قسم رئيسا وعدداً من المترجمين والمبيّضين .

ثم حوّلت اللجنة نظرها إلى ديوان المدارس فنظمت أقلامه على أن تكون ثلاثة :

١ — القلم العربى . ٢ — والقلم التركى . ٣ — وقلم الهندسة .

وعيّنت لكل قلم رئيسه وحدّدت عدد موظفيه . وبذلك انتهت اللجنة من عملها الشاق واستطاعت أن تقتصد من ميزانية المدارس السنوية ١,٠٤٣,٠٥١ قرشا .

ورفعت قرارات اللجنة واللوائح التى وضعتها للمدارس إلى الجناب العالى — وكانت قد كتبت أولا باللغة الفرنسية — فصدر الأمر بالموافقة عليها فى أوائل ذى الحجة سنة ١٢٥٧ (١٨٤١م) .(١)

وهكذا تم تنظيم التعليم مرة ثانية . ولكن هذا التنظيم لم يقدّر له أيضا أن يعيش أكثر من سبع سنوات ، إذ كانت سنة ١٢٦٤ — ١٢٦٥ (١٨٤٨ — ١٨٤٩ م) إيذانا بانقلاب آخر فى السياسة التعليمية وبالتالى فى نظم التعليم ومعاهد الدراسة ، فألغى كثير منها وضُمَّ بعضها الآخر إلى بعض . وكان هذا من مميزات عصر عباس الأول .

وقد ظلت اللوائح التى وضعت للمدارس متبعة — فى جملتها — الى نهاية عصر محمد على . والواقع أنها كانت تتمة للوائح سنة ١٨٣٦ : فالباحث فى تاريخ النظام التعليمى الحديث لا يرى كبير فرق بين التعليم قبل سنة ١٨٤١ وبينه بعد هذه السنة . ذلك لأن لوائح سنة ١٨٤١ لم تتعرض لمناهج الدراسة بقدر ما تعرضت لعدد التلاميذ والمدرسين والخدم والمرتبات وما الى ذلك ، فالمدارس الخصوصية والمدرسة التجهيزية ظلت كما هى لم ينقص عددها ، وإن نقص عدد تلاميذها ، أما المدارس الابتدائية بالأقاليم فهى التى أصابتها الضربة القوية : فبعد أن كان عددها — قبل سنة ١٨٣٦ — سبعة وستين مكتبا ، نقص فى لوائح ذلك العام الى خمسة وأربعين ، حتى إذا مضت سنوات أربع

---

(١) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) ص ٩٦ رقم ٦٤٠ إلى شورى المعاونة فى ١٠ ذى الحجة ١٢٥٧

نقص عددها الى ثمانية وثلاثين مكتبا، وها هي الآن — في سنة ١٨٤١ — تقل حتى لا تزيد عن أربعة مكاتب : اثنين منها بالوجه البحرى (بميت غمر والجيزة) واثنين بالوجه القبلي (بأسيوط والمنيا) . وعلى الرغم من انتقال هذه المكاتب بعد ذلك الى بلاد أخرى — إذ نقل مكتب المنيا إلى بوش ثم مكتب الجيزة إلى أبي زعبل ثم مكتب ميت غمر إلى الزقازيق — على الرغم من ذلك ظلت مكاتب الأقاليم أربعة حتى تخلص منها عباس باشا .

بذلك توثقت الصلة — أكثر من ذي قبل — بين مرحلة التعليم الابتدائي ومرحلة التعليم التجهيزى، فلم تعد المكاتب الابتدائية تخرّج من التلاميذ أكثر تحتاجه المدرسة التجهيزية . على أنه — من جهة أخرى — أصيب التعليم الأولى الأميرى — ممثلا في مكاتب الحكومة — بضربة قاضية : ذلك لأن أربعة مكاتب — لا يلحق بها سوى ٤٨٠ تلميذاً — لا يمكن أن تكفى لنشر التعليم بين الأهالى ، فلم يعد أمامهم إلا كتاتيب الفقهاء : يتعلمون فيها القراءة والكتابة ويحفظون القرآن . وإنقاص عدد المكاتب الابتدائية الى هذا العدد المحدود يظهر بجلاء المحور الذى كانت تدور حوله السياسة التعليمية طوال عصر محمد على : وهو تضييق نطاق التعليم الأولى — تعليم سواد الشعب — والاهتمام أكبر الاهتمام بالتعليم فوق الأولى وهو التعليم الذى يعد للوظائف .

فهل نجحت الحكومة في تحقيق الأغراض التى وضعتها نصب عينيها حين أقدمت — في سنة ١٨٤١ — على تنظيم التعليم ؟ للإجابة عن هذا السؤال نسوق الملاحظات الآتية :

١ — أما من حيث وضع التعليم على أساس من الحاجات الجديدة للبلاد بعد إنقاص الجيش وإلغاء بعض المصانع والدواوين وصرف كثير من الموظفين عن وظائفهم ، فقد نجحت اللجنة في (حصر) التعليم في نطاق ضيق بإغلاق أغلب المدارس الابتدائية ، والإقلال من عدد تلاميذ المدرسة التجهيزية والمدارس

الخصوصية . ولكنا على الرغم من هذا نرى — فى السنين الأخيرة من عصر محمد على — أن وظائف الحكومة تضيق بالمتخرجين فى المدارس حتى لتضع الحكومة نظاما جديدا للتوظيف: هو الاستيداع، وهو أن يعيّن الموظف بنصف راتبه ، ثم وضعت قانونا خاصا بالعمل فى دوائر الحكومة ، جاء فيه أن المتخرج فى مدرسة خصوصية لا يمنح الرتبة وراتبها إلا بعد سنتين يقضيهما فى وظيفته على سبيل التجربة .

٢ — أمّا من حيث الاقتصاد فقد نجحت اللجنة أيضا : فإغلاق المدارس وإنقاص عدد التلاميذ قد أنتجا وفرا كبيرا ذكرنا مقداره فيما تقدم، وكذلك أنقصت مكافآت التلاميذ الى درجة بعيدة ، حتى إن مرتب التلاميذ فى السنة النهائية بمدرسة خصوصية أصبح لا يزيد على ما كان يمنحه التلميذ بالفرقة النهائية بالمدرسة التجهيزية إلا ببضعة قروش . ولكن الرغبة فى الاقتصاد لم تحوّل اللجنة عن غرضها الأساسى وهو « تنظيم » التعليم ، فرفضت أن يقوم التلاميذ بخدمة أنفسهم لئلا يصرفوا عن الدروس ، وجهدت فى إمداد المدارس بمن تحتاج اليه من المدرسين . ولم تحولها كذلك الرغبة فى الاقتصاد عن إعادة مؤسسة نافعة وتنظيمها : وهى مدرسة الزراعة ، وإنشاء مؤسسة أخرى أثبتت على الأيام جدواها على النهضة العلمية : وهى «قلم الترجمة» .

٣ — أما من حيث التمكين لمراحل التعليم الثلاث فى أسباب القوة والاتساق ، فقد رأت اللجنة — تحقيقا لهذا — أن يقتصر من المدارس الابتدائية على العدد الذى تحتاج اليه المدرسة التجهيزية ، وهذه بدورها نُظِّمَت بحيث لا تخرّج أكثر مما تحتاج اليه المدارس الخصوصية من التلاميذ .

وقد صادفت بعض المدارس الخصوصية — عقب تنظيم المدارس على النحو الذى شرحنا — (أزمة) فى تلمس التلاميذ الجدد . فتلاميذ التجهيزية لمّا يتموا علومهم ، وكذلك قلّ عدد خريجى مدرسة المبتديان ، فاضطرت بعض

المدارس إلى أن تأخذ من التجهيزية تلاميذ لمَّا يتموا علومهم ، وآثرت مدارس أخرى أن تكتفى لسنة أو سنتين بمن لديها من التلاميذ . على أن هذه (الأزمة) لم تلبث إلا سنوات قليلة ، ريثما استتبت المدارس واستكملت المدارس الابتدائية والمدرسة التجهيزية تلامذتها وفرقها الدراسية .

ولكن (ترتيب) سنة ١٢٥٧ (١٨٤١ م) أهمل مدرستين تجهيزيتين أخريين ، كانتا — فى السنين الأخيرة من عصر محمد على — تعدّان التلاميذ للمدارس الخصوصية وهما : المدرسة البحرية بالاسكندرية ، وقد نظمت فى سنة ١٨٤٤ وجعلت قسمين : قسما ابتدائيا وآخر تجهيزيا ، والمكتب العالى بالخانقاه ، وكان تابعا فى ميزانيته وإدارته إلى الديوان الخديوى ، وإن تكن الشئونَ الفنية فيه من اختصاص ديوان المدارس .

ومهما يكن من شىء فقد ظل (ترتيب) سنة ١٢٥٧ قائما فى مجموعه إلى نهاية عصر محمد على ، لم يؤثر فيه ما طرأ على المدارس بعد قليل من محاولة التجديد : سواء فى برامجها أو فى طرق التدريس أو حياة التلاميذ فيها ، كما لم تؤثر فيه الحركة الأخيرة الطارئة التى كانت ترمى إلى نشر التعليم بين الأهالى بافتتاح مكاتب « الملة » .

الفصل الرابع

النهضـــة الأخيرة

محاولة التجديد ونشر التعليم

فى السنوات الأخيرة من عصر محمد على – ويلحق به حكم إبراهيم القصير – نرى مظاهر شتى ترمى كلها الى التجديد فى التعليم الحديث ، حتى إذا رحنا نتقصى هذه المظاهر وجدنا أنها ترمى الى التجديد فى حياة التلاميذ ، والتجديد فى طرق التدريس ، والتجديد فى مناهج الدراسة .

وفى الفصل الذى عقدناه عن السياسة التعليمية فى عصر محمد على تحدثنا حديثا مجملا عن مظاهر التجديد هذه ، وقلنا إنها كانت ترمى كلها الى رفع مستوى المدارس حتى يحيا التلاميذ فيها حياة أقرب الى الإنسانية من الحياة التى كانوا يحيون ، وحتى يصيب فيها التلاميذ التعليم الصحيح الذى ينبغى لهم ، بطرق أقرب الى الاستفادة من الطرق التى كانوا يؤخذون بها .

وكانت المدارس الابتدائية أكثر استمتاعا بألوان التجديد هذه ، أن كانت أشد المدارس افتقاراً اليها ، وكان تلامذتها يَحيون – فى ملبسهم وغذائهم ومنامهم – حياة أقرب الى الفقر والهوان .

ولكن الحق أن حركة التجديد هذه – وإن وصفناها بالنهضة الأخيرة – تبدأ مبكرة : تبدأ منذ سنة ١٨٣٩ (١٢٥٥ ﻫ) ، وكانت مدرسة المبتديان بالقاهرة حاملة لوائها ، إذ كانت « فى عاصمة الملك ومقر الحكومة ويزورها على الدوام ضيوف أعزاء يردون من مختلف الأقطار »[١]، فرئى أن افتراش

---

(١) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص ٣٦ رقم ١٤٤٧ إلى عبد القادر افندى فى ٩ ذى القعدة ١٢٥٥

التلاميذ الأرض فى نومهم مما تعافه نفوس « أبناء البلد والترك » ، وقد يصرفهم ذلك عن الالتحاق بالمدرسة فيقتصر فيها على أبناء الفقراء واليتامى ، فقررت لهم أسرّة صغيرة من الحديد ينامون عليها ، وقررت لهم (بذلات) يلبسونها .

أما من ناحية التجديد فى طرق التدريس فقد كان التلاميذ يجلسون على (أنخاخ) على الأرض ، يتلون آى الذكر الحكيم أو يكتبونه على الألواح ، أو يقرءون فى كتب النحو والصرف ، والمدرس أمامهم يستمع اليهم أو يلقى عليهم درسا فى إحدى عمليات الحساب الأربع ؛ فرئى أن تطبق عليهم « النظم الأوربية : فطورا يجمعون حلقة وقوفا بالقرب من الحائط ويقرءون الألواح المعلقة بالحائط ، وتارة يجلسون على التخت ويدرسون الدروس » وهكذا أخذت المدرسة الابتدائية تبتعد عن الصبغة الشرقية وتقترب من النظم الأوربية . ولاشك فى أن تلك النظم تبدل من كسل التلاميذ وخمولهم حين يفترشون الأرض ساعات طويلة ، نشاطا وإقبالا على الدرس واهتماما به ، إذ يجلسون الى (التُّخت) حينا ثم ينطلقون الى الحائط حينا آخر . وهم حين يفعلون هذا يشتركون — إلى حد كبير — فى تفهم الدرس الذى يلقى عليهم أكثر مما يفعلون وهم جلوس على الأرض ، كل دورهم فى (عملية) التعلم سلبى محض كأنهم مجرد آلات لتقبّل المعلومات .

ورئى « تطبيق هذه النظم الجديدة فى المستقبل فى المدارس الابتدائية الأخرى بعد التأكد من نفعها وفائدتها » وعُيِّنَ معاون بالديوان للإشراف على تطبيق هذه النظم « لأنه خبرها بنفسه مذ كان فى انجلترا وقام بترجمة الكتاب الخاص بها » .

ولكن هذه النظم الجديدة لا تلقى صداها فى مكاتب الأقاليم إلا فى السنين الأخيرة من عصر محمد على ، حين عمّت الشكوى من جلوس التلاميذ

ونومهم على سجاجيد وحصر على الأرض ، وإطعامهم — فى كل أيام الأسبوع ما عدا يوما منها — من العدس والفول . والاقتصار فى لباسهم على ما لا يصد البرد عن جسوم الأطفال اللينة . وشرع ديوان المدارس يصنع أسرّة للتلاميذ ، و (تختا) يجلسون إليها وقت الدرس و (صدارى) تقيهم برد الشتاء . ويقدّم لهم من اللحم والخضر مرتين فى الأسبوع .

وبذلك أتيحت الفرصة لمكاتب المبتديان بالأقاليم لأن ترقى بتلاميذها رقيا كبيرا ، إذ تمهد لهم حياة تفضل كثيرا الحياة التى يحيا آباؤهم وعشيرتهم . والواقع أن المدرسة الأولية القروية — مع ماينصح لها من الالتصاق بالبيئة التى تقوم بها حتى لاتنفر منها أهل القرى — يجب ألا تأخذ بنصيب من الحياة السيئة التى يحياها أهل الريف ، بل يحسن أن ترتفع عن هذا المستوى إلى مستوى آخر تبدو فيه الرغبة فى إصلاح تلك الحياة السيئة ، وبذلك تكون المدرسة الأوّلية — فى ظلام الريف وجهله — مهدا للنور والثقافة والعلم الحديث والحضارة الحديثة ، وبذلك ترقى المدرسة الأولية بتلاميذها القرويين ، ثم بأفراد المجتمع الذين يعيشون حولها ، إلى حياة فيها شىء كثير من النظافة والنشاط .

ولكن النظم الجديدة التى طبقت فى مدرسة المبتديان بالقاهرة لم تطبق بحذافيرها فى المكاتب الابتدائية بالأقاليم : فعلى الرغم مما قرر لها من أسرة ، كان عدد كبير من تلاميذها ينام — حتى نهاية عصر محمد على — على (حصر) مُددت على الأرض .

وكانت (التخت) امتيازا لتلاميذ الفرقة الأولى . وظلوا جميعا يلبسون الجلاليب ثم أشفقت عليهم الحكومة فقررت لهم (صدارى) تقيهم برد الشتاء .

أما طرق التدريس «الجديدة» فلم نسمع عن تطبيقها فى المكاتب الابتدائية

بالأقاليم حتى ألغيت فى أوائل حكم عباس الأول . أما من ناحية التجديد فى المناهج فسنرى حين نتحدث تفصيلا عن التعليم الإبتدائى، أن كتباجديدة فى الجغرافيا والقصص دخلت مواد الدراسة ، وبذلك لم يعد التلميذ يقتصر فى دراسته على « السنوسية » أو « الكفراوى » أو غيرهما من كتب الأزهر ، بل أصبح يقرأ كتبا جديدة فى « الجغرافيا » و« عقلة الصباع » و« حكايات الأطفال » . وأتيح للطفل أن يدرس موادنافعة ، وأن يقرأ كتبا كانت لاشك أشد اتصالا بنفسه وحسه وميوله من الكتب التى كان يتوفر على قراءتهامن قبل . وهكذا أخذت المدارس الابتدائية تتحرر تدريجامن الصبغة الأزهرية وتتخذ سبيلها الى التعليم « الحديث » .

على أن أكبر مظاهر التجديد فى التعليم الابتدائى — فى عصر محمد على — تلك الحركة الأخيرة التى ترمى إلى الاتجاه إلى الغرب أكثر من ذى قبل والاقتباس من نظمه ثم تجريبها فى مصر ، حتى إذا آتت ثمارها ووضح للملأ جدواها نشرتها الحكومة فى البلاد . ولم تكن تلك الحركة ترمى إلى التجديد فى طرق الدراسة فحسب ، بل فى مواد الدراسة كذلك، وفى الغرض من التعليم الابتدائى . وتتمثل هذه الحركة فى المكتب « المستجد » أو « التجريبى » ، الذى أنشىء فى سنة ١٨٤٣ (١٢٥٩ هـ) وألحق بمدرسة المبتديان بالقاهرة ، وليس هنا موضع الحديث تفصيلا عن هذا المكتب والغرض من ونظامه إنشائه ، فنكتفى بأن نذكر أن هذا المكتب أنشىء على غرار مكاتب أو مدارس أوّلية أنشئت فى انجلترا ثم فى فرنسا، وترمى إلى نشر التعليم بين الأهالى « من أقصر طريق وفى أقصر وقت » لذلك كانت مواد الدراسه به قليلة ، فلم يعد يعنى التلاميذ فيه بحفظ القرآن أو قراءة الكتب الأزهرية فى الدين والنحو والصرف التى كان يقرأها زملاؤهم تلاميذالمكاتب الابتدائية الأخرى ، بل اتجه الاهتمام فيه إلى دراسة القراءة والكتابة

والحساب (أو ما يعرف بـ .Three R' S) واتخذت طريقة فى التدريس جديدة هى طريقة (اللوحات) وستتحدث عنها بعد حين.

وكان إنشاء هذا المكتب «تجربة» أزمعت الحكومة تطبيقها على المكاتب الأخرى بعد الاستيثاق من نجاحها فى مصر ، فأخذت تضع لها لوائح جديدة وأقفلت لذلك باب الالتحاق بها وأوقفت الإجازة بالعطلة حتى تتم هذه اللوائح[1]. كما أزمعت تطبيقها بانشاء مكاتب جديدة تنحو نحوها وتقفو فى تعليم التلاميذ أثرها. وكان ديوان المدارس لذلك يولى المكتب اهتماما عظيما ويأمل له نجاحا. فهل آتى المكتب الجديد ثماره؟ وهل نجحت تلك الطريقة فى تعليم التلاميذ؟ لسنا نرى اعترافا صريحا فى سجلات الحكومة بهذا النجاح، على أنا نرى فى السنتين الأخيرتين من عصر محمد على وإبراهيم حركة جديدة، تبدو قوية، ترمى إلى نشر التعليم بين سكان العاصمة بافتتاح مكاتب للملة أى (الأهالى) فى كل قسم من أقسام العاصمة (وكانت ثمانية) تسير «على النظام الأوربى».

ومضت الحكومة تعد العدة لافتتاح هذه المكاتب بتدبير الأماكن المناسبة، سواء ببنائها أو بشراء منازل لها، وتدبير مدرسيها.

على أن عصر محمد على وإبراهيم كان يؤذن بالزوال حين جدّت الحكومة فى تلك النهضة الأخيرة، وكان الزمن يعد لها ولغيرها من المكاتب القديمة فناء عاجلا.

ولو أن القدر أتاح لهذه المكاتب حياة أطول ، ولم يعاجلها بالضربة القوية القاصمة فى أوائل حكم عباس ، لكان لها من هذا «التجديد» فى مواد الدراسة وكتب القراءة وطرق التدريس خير بداية قد تفضى مع الزمن إلى

---

(١) دفتر ١٠١ (مدارس عربى) ص ١٢٨ رقم ٧ إلى الروزنامه فى ١٢ ذى القعدة ١٢٦٤ ودفتر ١٢٥ (مدارس عربى) ص ٥٨ ٥ رقم ٤٣ إلى مكتب أبى زعبل فى ٢ ذى الحجة ١٢٦٤

أفضل النتائج ، ولكان التعليم الأوّلى قد أفاد منها خير فائدة تعينه على الاستمرار والقوة والرقى ، ولكانت النهضة التعليمية قد اكتسبت خبرات جديدة واقتصدت من الزمن مدى طويلا .

ولم تكن الحكومة المصرية متأثرة فى تلك الحركة بما أنشىء فى انجلترا أو فرنسا وحدهما من مدارس أوّلية لتعليم الشعب ومكافحة الأميّة ، بل كانت متأثرة فى ذلك أيضا بحركة أخرى فى الدولة العثمانية ، كانت بدورها متأثرة بالغرب ، وكانت ترمى كذلك الى نشر التعليم بين الأهالى .

بدأت هذه الحركة فى سنة ١٨٤٥ حين أصدر السلطان عبد الحميد إلى حكومته مرسوما بإنشاء مدارس يتلقى فيها أبناء البلاد العلوم والفنون والصناعات ، كوسيلة لترقية الشعب ماديا ومحو الجهل « فى الشئون الدينية والزمنية » ، فكونت لجنة لوضع نظام للتعليم العام ، وأشارت بانشاء جامعة عثمانية وتحويل المدارس الدينية الى مدارس علمانية « بأن يستبدل بإشراف الجامع إشراف الدولة » . وأعلنت الحكومة أن المدارس الابتدائية (المكاتب) أصبحت إلزامية والتعلم فيها بالمجان ، وأنشأت (مكاتب رشدية) كمدارس للتعليم التجهيزى الذى كان منعدما .

أما التعليم العالى فى المدارس فقد رئى أنه لا يصلح إلا لعدد محدود من التلاميذ ، ولم يفكر أحد فى تنظيمه بنزعه — بضربة قاضية — من أيدى العلماء الذين كانوا محتكريه ، ولم يفعل القانون شيئا سوى أن حاول (ترقية) المدارس الخصوصية التى كانت قائمة فى بعض المساجد ، ومدرسة الطب والمدرسة الحربية . ولكن معظم هذه الأغراض ظلت مشروعا لم تتجاوزه الحكومة إلى مرحلة التنفيذ . (١)

ويرجع ذلك الى أن حركة الإصلاح فى تركيا كانت تتطلب الرجال المتعلمين

(١) Engelhardt, La Turquie et le Tanzimat, I, p. 75-80.

الذين يقومون على وضع هذه الإصلاحات فى مكانها الصحيح ، فقد ظل علماء الدين وحدهم — فى الدولة العثمانية — قرونا عدة يحتكرون شئون التعليم فى البلاد ، فكان من الطبيعى أن ينهضوا للدفاع عما بأيديهم من « امتياز» كان يتوقف عليه — إلى حد بعيد — ما يتمتعون به من نفوذ فى الدولة .(١)

وقد يكون إثارة الشعور الدينى هذا ومحاولة التغيير فى معاهد الدراسة الدينية ، ونزع « اختصاصات » العلماء التى احتكروها منذ قرون ، قد يكون هذا كله سببا فى تأخير النهضة التعليمية الحديثة فى تركيا . أما محمد على فقد سلك طريقا أخرى : فقد ترك الأزهر وكتاتيب الفقهاء ، وترك العلماء يقومون على تنشىء الشباب الملتحق بمعاهدهم كما يريدون ، ولكنه بدأ يبنى نظاما آخر على أسس جديدة تلائم الأغراض التى يتوخاها من التعليم ، وبذلك نشأ فى مصر نظام تعليمى آخر ، أطلقنا عليه « الحديث » ، وسار جنباً إلى جنب مع النظام التعليمى الدينى أو « القديم » . ونال محمدعلى بذلك رضاء العلماء — أو عدم معارضتهم على الأقل — وكسب لمدارسه حياة هادئة ليس فيها — من ناحية المعارضة الدينية — كبير عقبات .

ومهما يكن من شىء فقد ترامت أخبار هذه النهضة التعليمية فى الدولة العثمانية إلى ولاة الأمر فى مصر ، وكان لها — إلى جانب ما بلغهم عن مدارس التعليم الأولى فى انجلترا وفرنسا — أثرها فى إثارة اهتمامهم بهذا الضرب من التعليم الذى يكافح الأمية ويعاون الحكومة على ترقية الشعب . كما كان لها أثرها فى إثارة تفكير إبراهيم باشا فى جمع « الفنون العالية » وتدريسها فى « دار الفنون » ، التى تكون بمثابة « جامعة » تنتظم معاهد التعليم العالى أو الخصوصى فى مصر . وأعد العدة لبعث بعض الطلاب المصريين إلى أوربا حتى يعودوا مدرسين بها (٢) ، كما شرع فى إنشاء « كوليج » من تلاميذ

(١) Engelhardt, op. cit. p. 7.

(٢) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية م ٤ ج ١٤ ص ١٢٥

المكتب العالى ومكتب أبى زعبل الذين لا تزيد أعمارهم على الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، لإعدادهم إعداداً خاصا بتلك الدراسات العالية .(١)

ولم يقتصر التجديد على المكاتب الابتدائية بل شمل غيرها كذلك : فى المدارس الخصوصية أعيد تدريس اللغة الفرنسية للفيف من تلاميذها ومدرسيها أو لهم جميعا ، حتى إذا حذق التلاميذ العلوم التى درسوا وعرفوا الفرنسية ، أقبلوا — بعد تخرجهم — على الاطلاع وترجمة الكتب .

أما قرار اللجنة التى نظمت التعليم فى سنة ١٨٤١ (١٢٥٧ هـ) والذى يقضى بتدريس الفرنسية لتلاميذ المدرسة التجهيزية منذ التحاقهم بها ، فالراجح أنه لم ينفذ : فإنه بعد ذلك بست سنوات بدأت المدرسة باختيار نفر من تلاميذها وأخذتهم بدراسة الفرنسية « على وجه التجهيز » ، على أن تعفيهم من دراسة التركية .(٢)

ومن مظاهر التجديد أيضا تنظيم أبنية المدارس تنظيما جديداً ببناء غرف صحية بعدد الفرق أو الدروس ، حتى لا يجلس تلاميذ من فرق مختلفة فى حجرة واحدة يدرسون معاً مواد مختلفة ، كما كان الحال فى مدرسة الألسن مثلا .

ولكنا نعود فنذكر أن هذه النهضة الأخيرة كانت كالانتعاش الذى يسبق الفناء : إذ لم يمض على الشروع فى افتتاح بعض مكاتب « الملة » وشروع الحكومة فى تدبير أماكن ومدرسين لها وتنظيم « الكوليج » ، وشروعها فى وضع لوائح جديدة ، لم يمض على ذلك كله شهور معدودة حتى أصابها الفناء العاجل ، بل وأصاب غيرها من معاهد الدراسة التى كانت قائمة منذ سنين .

---

(١) دفتر ٢١٢٥ (مدارس تركى) ص ٢٧ رقم ١٥ إلى مدرسة المهندسخانة فى ٢٢ ذى القعدة ١٢٦٤

(٢) دفتر ٩٥ (مدارس عربى) ص ١٠٣١ رقم ٢٣٢ إلى مدرسة الألسن فى ٢٩ ذى الحجة ١٢٦٣

الكتاب الثالث

التعليم الابتدائي والتجهيزي

مكاتب المبتديان

هكذا كانت تسمى « المكاتب أو المدارس الابتدائية » فى الأقاليم فى عصر محمد على.[١] والواقع أن هذه التسمية تدلنا على أن هذه المكاتب كانت الحلقة الأولى فى سلسلة النظام التعليمى الذى وضعته حكومة محمدعلى، أو هى حجر الأساس فى بناء التعليم. وإذا شئنا تعبيراً آخر قلنا إن هذه المكاتب كانت المرحلة الأولى من مراحل التعليم: وهى مرحلة التعليم الأوّلى، إذ أن الملتحقين بها كانوا كما وصفتهم وثائق ذلك العصر « مبتدئين محما »: يلتحق الطفل بمكتب من مكاتب المبتديان هذه، وهو أمىّ لا يعرف القراءة والكتابة، فيقضى به سنوات ثلاث، يؤخذ بعدها إلى المدارس التجهيزية ومنها إلى إحدى المدارس الخصوصية، هذا إذا واتاه حظه وأهّلته كفايته.

على أنه كان بجانب التعليم الأولى « الأميرى » الذى تقوم به الحكومة فى مكاتبها تعليم أولى آخر، لم يخضع لرقابة الحكومة وسلطانها: هو ذلك التعليم الذى كان يقوم به فقهاء الريف والمدن، فى المساجد والزوايا أو فى منازلهم. وهذا التعليم أهملته حكومة محمد على كل الإهمال وتركته كما كان فى أيدى أولئك الفقهاء، يسيرون به على نظمهم العتيقة: من تعليم أطفالهم مبادىء القراءة والكتابة، وأهم من ذلك حفظ آى الكتاب الكريم.

وليس لدينا عن هذا التعليم الأولى « الحر » فى ذلك العصر معلومات تطمئن اليها فى الوقوف على مدى انتشاره فى المدن المصرية وفى الريف المصرى، وتغلغله بين الأهالى الذين ظلوا قرونا لا يعرفون تعليما غيره

(١) الألف والنون علامة الجمع فى اللغة التركية، فكلمة « مبتديان » جمع « مبتدىء ».

ينشئون عليه أبناءهم ويطبعونهم بطابعه ، أو فى تعرّف الصلة بينه وبين مكاتب الحكومة ومدارسها . فلا الوثائق التى بأيدينا ولا كتب الرحالة والمؤرخين عن هذا العصر تلقى ضوءاً على هذه المسائل الدقيقة ، التى يتوقف عليها — الى حد ليس بالقليل — جلاء نشأة التعليم الابتدائى فى مصر .

وكل ما يمكننا الاعتماد عليه فى مدى انتشار التعليم الأولى الدينى أو الحر فى مصر ، ما ذكره « بورنج » من أنه كان هناك نحو خمسة عشر ألف ولد يتعلمون فى المكاتب الملحقة بالمساجد : منهم خمسة آلاف فى القاهرة وحدها وهم يحفظون فى هذه المكاتب القرآن وقد يتعلمون الكتابة أحيانا.[١]

نشـــــأة مكاتب المبتديان

تتحدث الوثائق التى بين أيدينا عن هذه المكاتب فى أوّل عهدها بالحياة بأنها « ستنشأ » أو أنها « أنشئت » بالأقاليم[٢] فصفة «الإنشاء» هنا ظاهرة . ولكن هل أنشئت هذه المكاتب من العدم ككثير من منشئات محمد على ؟ أم كانت « كتاتيب قروية » حولتها الحكومة إلى مكاتب أميرية ، وجعلت منها أداة إعداد للتعليم التجهيزى ثم للتعليم الخصوصى ، كما جعلت منها أداة للإشراف على تعليم الناس فى المدن والقرى ، تمهيدا « لاحتكار » التعليم كما احتكرت غيره من مرافق الحياة : كالزراعة والتجارة والصناعة ؟

كان فى وسع الحكومة أن تبسط سلطانها على كتاتيب التعليم الأوّلى الدينى جميعا ، فتحوّلها إلى مكاتب « أميرية » ، وبذلك تحتكر التعليم الأولى بأكمله ، ويكون لديها من الوسائل ما يمكّنها من مكافحة الأمية ونشر التعليم بين الأهالى ،

---

(١) Bowring, Report on Egypt & Candia, p. 137.

(٢) دفتر ٥٨ (معية) وثائق رقم ٤١٧ و٥٩٢ و٦٠٠ من محمد على الى بعض المديرين فى رمضان وذى القعدة ١٢٤٩ .

لولا أن حكومة محمد على لم يكن يعنيها — حين بدأت تفكر فى إنشاء المدارس ثم تخرج بتفكيرها هذا إلى مجال التنفيذ — مكافحة الأمية ونشر التعليم بين سواد الشعب ، بقدر ما كان يعنيها تخريج أعوان لها من الموظفين ، يقومون على ما استلزمته حاجة الدولة من أعمال ومنشئات . هذا إلى أن الحكومة كانت تفهم من إشرافها على التعليم أن تبسط سلطانها على كل صغيرة وكبيرة فيه : فتنتزع الأطفال من أهليهم ، وتقوم على تربيتهم وكسوتهم وإطعامهم وإيوائهم ، عدا ماتمنحهم من مرتبات شهرية . وليس من شك فى أن هذا كله كان يرهق الدولة الناشئة ويحمّلها من طائل النفقات ماتنوء به حكومة ناهضة بغير التعليم من شتى ضروب الإصلاح والتوسع ؛ ويضطرها أن تقصر تعليمها الأولى الابتدائى على عدد من المكاتب سنرى أنه — فى أول الأمر — لم يكن قليلا .

فهذا وذاك هو الذى حمل الحكومة على أن تقصر هذا التعليم « الأميرى » على عدد من المكاتب فى المدن والبنادر والقرى ، دون ذلك العدد الكبير من كتاتيب التعليم الأوّلى الدينى المنتشرة فى البلاد المصرية ، حضرها وريفها .

الغرض من إنشاء مكاتب المبتديان

لم يكن هذا الغرض واحدا طوال السنين التى مرت بها هذه المكاتب منذ نشأتها حتى نهاية عصر محمد على ، وهو العصر الذى نؤرخ التعليم فيه . فقد كان هذا الغرض يتغير بتغير السياسة التعليمية فى مصر وهى التى كانت تتغير بدورها تبعا لحالة مصر الاقتصادية والسياسية . فقد يتسع الغرض من المكاتب : فتنص اللوائح على أن « المراد من مدارس المبتدئين تحضير

التلاميذ وتهيئتهم إلى مدرسة التجهيز ونشر مبادىء العلوم للأهالى».[١] وتنصرف الحكومة لتنفيذ ذلك فتنشىء عددا ليس بالقليل من مكاتب المبتديان. وقد يضيق هذا الغرض «فيراعى فى تنسيقها حاجة المدرسة التجهيزية».[٢] فتبق منها العدد الذى يكفى لسدّ هذه الحاجة.

وقد يعود الغرض من مكاتب المبتديان فيتسع مرة ثانية وتعود الحكومة إلى رغبتها الأولى فى نشر التعليم بين الأهالى «من أسهل طريق وفى أقرب وقت».[٣]

والواقع أن مكتب المبتديان كان الواسطة الوحيدة للإعداد للمدرسة التجهيزية؛ وهو، إن كثر الإقبال عليه وتوثقت العلاقة بينه وبين البيئة التى يقوم فيها، لا يعدم أن يكون وسيلة أخرى لغرض آخر: هو تنوير الأهالى ومكافحة الأميّة بين أوساطهم.

فهل حقّق المكتب كلا الغرضين معا أو أحدهما؟ أو فشل فى تحقيق أحدهما أو كليهما؟ ليس يتسنى الاجابة عن هذا السؤال إلا اذا فحصنا عن منهاج الدراسة بمكاتب المبتديان نظرة شاملة، نبسطها فى الفصول التالية: كان أطفال المكاتب يتعلمون القراءة والكتابة والعمليات الأربع الأولى فى الحساب، ويقرءون فى مبادىء الصرف والنحو وفى الفرائض الدينية،[٤] وكانت العناية موجّهة الى حفظ القرآن الكريم وقراءة بعض كتب «أزهرية» فى الصرف والنحو والتوحيد، وقد يضيفون الى هذا قراءة كتاب فى الجغرافيا

---

(١) بند ١ من ترتيب وتنظيم مدارس المبتدئين (لائحــة التعليم الابتدائى سنة ١٨٣٦)

(٢) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) رقم ٥٦٥ من ترجمة التقرير المقدم إلى شورى المعاونة بشأن تنظيم المدارس فى سنة ١٨٤١ بتاريخ ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٧ (انظر الملحق).

(٣) دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركى) رقم ٢٣٠٤ س ٨٥ الى شـورى المعاونة فى ٢٨ ذى القعدة ١٢٥٩.

(٤) بند ٩ من ترتيب وتنظيم مدارس المبتدئين.

حينا أو فى الأخلاق حينا آخر ، وذلك كله لمدة ثلاث سنوات فقط .

والواقع أن هذا المنهج يتيح الفرصة لتعليم أوّلى كاف لأطفال لم يتلقوا قبل ذلك من أوّليات العلم لا قليلا ولا كثيرا ، لولا ما يشوبه من الاعتماد على الحفظ والاستظهار ، وعلى قراءة كتب لا تناسب التلاميذ .

كذلك نلاحظ أن هذه الخطة الدراسية — إن أريد بها الإعداد الصحيح للتعليم التجهيزى — ضعيفة بسيطة لا تسهُل معها مهمة المدرسة التجهيزية ، كمدرسة تعدّ بدورها لمدارس الاختصاص العالية . على أن لذلك ما يبرره : فالشعب المصرى كان يخطو إذ ذاك أولى خطواته فى طريق التعليم الحديث ، فلم يكن من الملائم أن ترهقه الحكومة فى أولى مراحل التعليم المدرسى بمناهج تعليمية أكثر من هذه تعقدا ، هذا إلى أن الطفل الملتحق بمكتب من هذه المكاتب كان — كما تقدم بنا القول — أميا لا يعرف القراءة والكتابة ، فهو أشد حاجة الى تعلمهما وإلى تعلم أوّليات من العلم بسيطة إلى جانبهما . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك ما ذكرناه آنفا عن الحاجة المالية ، فقد كانت لاشك من العوامل التى عاقت الحكومة عن أن تزيد المدة المخصصة للتعليم الابتدائى أو تتوسع فى مقرراته .

ولكن كان ضرر ذلك بليغا على النظام التعليمى كله فى مصر : فاختلال الأساس لا شكّ يتبعه اختلال فى جنبات البناء ، مما يستلزم ضرورة النظر فى علاجه من وقت إلى آخر . وعلى هذا النحو كان التعليم فى مصر فى عصر محمد على والعصور التى تلته .

أما عن الغرض الآخر : وهو أن تكون المكاتب مقرّا لنشر التعليم بين المصريين ، فقد كان يمكن أن يقدَّر له النجاح ، لولا أن الحكومة كانت تتبع فى إلحاق الأولاد بهذه المكاتب وتربيتهم بها طرائق نفّرت المصريين من مدارس الحكومة أوّل إنشائها من جهة ، وجعلت الأهالى لا يشاركون

الحكومة الاهتمام بتعليم أبنائهم من جهة أخرى . فقد كانت الحكومة تقوم بكل شيء في هذا السبيل والآباء لا يقومون بشيء.

مرت على مكاتب المبتديان نحو خمسة عشر عاما : شهدت فيها تكوّن أمبراطورية محمد على ، ثم شهدت نهايتها ، ثم شهدت حكم إبراهيم باشا القصير . وأخيرا شهدت — وهى على شفا الفناء — بداية حكم عباس باشا الأول . ولم يكن أمر هذه المكاتب فى تلك السنين واحدا : فحينا تعمها الفوضى ويسودها الاضطراب ، وحينا تمدّ لها الحكومة يد الإصلاح والتنظيم ، ويوما نراها مجرد أداة للاعداد للمدارس التجهيزية ، ويوما نراها أداة لنشر التعليم بين سواد الشعب ، وقد يأتى وقت يزداد فيه عددها حتى ليربو على الستين ، وقد يأتى وقت يقلّ فيه عددها حتى لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة .

على أن ثمت معالم واضحة فى تاريخ هذه المكاتب فى السنين الأخيرة من النصف الأول من القرن التاسع عشر ، تحدد لنا أهم المراحل التى اجتازتها . وهذه المعالم — إذا استثنينا سنتى إنشائها وإلغائها — هى سنو ١٨٣٦ (١٢٥٢هـ) و ١٨٤١ (١٢٥٧هـ) و ١٨٤٤ (١٢٦٠ هـ) .

فى سنة ١٨٣٦ نظّم «شورى المدارس» ما كان قائما إذ ذاك من مكاتب المبتديان طبقا للائحة وضعت قبل ذلك بقليل ، وتناولت الحكومة تلك المكاتب بالإلغاء أو التنظيم ، واشتد إشرافها وقوى سلطانها بما وضعت لها من لوائح وعينت من مفتشين . وبذلك استحال أمرها إلى نوع من التنظيم ، لا يمكن الحكم على صلاحيته إلا على ضوء ما كانت تملكه الحكومة من وسائل فنية ومالية فى ذلك الوقت .

وفى سنة ١٨٤١ كان التنظيم الثانى ، على ضوء تلك السنوات الخمس التى مضت على المدارس منذ نظمت أول مرة ، وعلى ضوء حاجات الدولة الجديدة .

وكان من أثر هذا « الترتيب » الجديد أن اقتصر الغرض من مكاتب المبتديان على مجرد إعداد التلاميذ للمدرسة التجهيزية ، فكان حتما أن تنقص مكاتب الأقاليم إلى الحد الذى يكفى لذلك : فأصبح فى الأقاليم كلها أربعة مكاتب وفى كل من القاهرة والاسكندرية مدرسة واحدة .

وفى سنة ١٨٤٤ كان إبراهيم باشا يقبض على زمام الحكم فى البلاد فى السنين الأخيرة من حكم أبيه العظيم ، وكانت لابراهيم فى التعليم آراء « حديثة » مرّ بنا الكلام عنها فى موضع آخر : وأخصها إشراك الرأى العام فى البلاد فى شئون التربية والتعليم ، وذلك بالعمل على زيادة اهتمام الآباء بتعليم أبنائهم ، فوضعت لوائح جديدة وأنشىء مكتب « أنموذجى » أو « تجريبى » على غرار مكاتب أنشئت قبيل هذا التاريخ بانجلترا ثم بفرنسا ، واتجه العزم إلى إنشاء مكاتب على غرار هذا المكتب الأنموذجى ، لتنشر التعليم بين المصريين « فى أقرب وقت وبأسهل طريقة ».[1]

كانت سنة ١٨٤٤ إذن بشير خير بنهضة هذه المكاتب ، على أنها كانت اليقظة التى تسبق الموت : إذ لم يعش إبراهيم ليحقق سياسته التعليمية ، بل كان حكمه قصير الأجل ، ودفنت بموته آمال كبار .

وقدّر لنا أخيرا أن نشهد مصرع هذه المكاتب ، حين وضعت حكومة عباس الأول لوائح جديدة للتعليم وألغت — فيما ألغت — مكاتب المبتديان الأربعة بالأقاليم ، وحوّلتها إلى مكاتب أهلية ، وضمت مدرسة المبتديان بالقاهرة إلى مدرسة المهندسخانة .

هذه هى المراحل التى مرت بها مكاتب المبتديان فى عصر محمد على ، ويمكن تلخيص هذه المراحل فيما يلى :

---

(١) دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركى) ص ٨٥ رقم ٢٣٠٤ إلى شورى المعاونة فى ١٨ ذى القعدة ١٢٥٩

المرحلة الاولى : من ١٨٣٣ الى ١٨٣٦ وهى مرحلة الإنشاء .

« الثانية : من ١٨٣٦ الى ١٨٤١ « « التنظيم الأول .

« الثالثة : من ١٨٤١ الى ١٨٤٤ « « التنظيم الثانى .

« الرابعة : من ١٨٤٤ الى ١٨٤٨ « « النهضة الأخيرة .

والواقع أن هذه المراحل هى بعينها المراحل التى مرّ بها النظام التعليمى الحديث فى عصر محمد على ، وليس هذا التوافق عفوا ، بل إن السياسة العليا للتعليم لتظهر واضحة جلية فيما يصيبه التعليم الأولى الابتدائى من العناية أو الإهمال ، إذ هو أشد مراحل التعليم اتصالا بالشعب ، وهو لذلك أكبرها أثرا فى توجيه الشعب وتهذيبه .

وفى الفصول التالية نبسط الحديث عن « مكاتب المبتديان » فى مراحلها المختلفة .

الفصل الأول

مكاتب المبتديان

١٨٣٣ — ١٨٣٦ [١]

تاريخ إنشائها

لا نجد وثيقة يذكر فيها شيء عن إنشاء مكاتب ابتدائية قبل سنة ١٢٤٩ هجرية (١٨٣٣ م) ، ففى المحرم من هذه السنة فتحت مكاتب ببعض بلاد الصعيد ، [٢] وفى رمضان وذى القعدة من هذه السنة أصدر الجناب العالى أوامره إلى بعض المديرين بشأن « المكاتب التى ستنشأ بالأقاليم » [٣] أو « التى أنشئت حديثا » . [٤] وفى شوال صدر الأمر إلى مدير الشرقية بارسال المهندسين والمواد اللازمة لانشاء مكاتب ببعض البلاد بمديرية الشرقية . [٥]

ولما كانت الوثائق التى بين أيدينا لم تذكر شيئا عن « مكاتب » قبل هذا التاريخ (١٨٣٣) ، فانا نرجح أن معظم مكاتب المبتديان أنشئت فى هذا العام ، نقول « معظم » المكاتب ولا نقول كلها : لأن أمامنا ما يدل على

---

(١) مصادرنا عن مكاتب المبتديان فى هذا الطور الأول من أطوارها ، وهو أشدها غموضا ، دفاتر المعية ومجلس الملكية ، وتنتظم أوامر الجناب العالى إلى معاونيه ومديرى الاقاليم ، ودفاتر ديوان المدارس التركية ، وبها تقارير المفتشين الذين زاروا هذه المكاتب فى أواخر سنة ١٢٥١ وأوائل سنة ١٢٥٢ هـ ووصفوا فيها حالتها قبل تنظيمها .

(٢) أمين باشا سامى : تقويم النيل ج ٢ ص ٤١٣

(٣) دفتر ٥٨ (معية) رقم ٤١٧ من محمد على إلى مدير الوسطانية فى ٦ رمضان ١٢٤٩

(٤) دفتر ٥٨ (معية) رقم ٥٩٢ من محمد على إلى محرم أغا فى ١٩ ذى القعدة ١٢٤٩

(٥) دفتر ٥٨ (معية) رقم ٥٠٤ من محمد على إلى مدير الشرقية فى ١٩ شوال ١٢٤٩

أن بعض هذه المكاتب أنشىء بعد سنة ١٨٣٣ بعـام [١] أو بعامين أو ثلاثة أعوام . [٢]

والمطلع على المكاتب المنشأة فى تلك السنين يرى أنها كانت جميعا فى مدن الأقاليم والقرى ، أما فى القاهرة فالراجح أن الحكومة قنعت — فى تعليم التلاميذ وإعدادهم — بمدارس القلعة وقصر العينى والدرسخانة الملكية ، وكان يلتحق بها تلاميذ صغار السن ، وكانت لها مناهج خاصـة تعدُّ تلاميذها لدراساتهم المستقبلة .

ولكن ما المكاتب التى أنشئت سنة ١٨٣٣ وما هو عددها ؟؟

إن أكبر ما يجب أن نعتمد عليه — فى بيان عدد المكاتب وحالتها منذ إنشائها فى ١٨٣٣ إلى تنظيمها فى ١٨٣٦ — هو تقارير المفتشين الذين أنفذهم شورى المدارس فى سنة ١٨٣٦ إلى مكاتب المبتديان بالأقاليم ، يستطلعون حالها وينقبون عن أسباب ضعفها ، فيلغون بعضها ويبقون على بعضها الآخر ، وهو الذى تتوافر له أسباب الحياة ويرتجى له الاقبال . ومن هذه التقارير نستدل على أن البلاد الآتية كانت تحظى بمكاتب ابتدائية وهى :

فى الوجه البحرى :

مكاتب قسم أول الغربية : طنطا والجعفرية وفوة وكفر بجر . [٣]

» » ثانى » : زفتى والمحلة الكبرى . [٤]

---

(١) دفتر ٢٠١٥ (مدارس تركى) جلسة ١٣ جماد ثان سنة ١٢٥٢ ، وقد جاء بتقرير مفتش مكاتب الوجه القبلى أن مكتب صنبو أنشىء فى سنة ١٢٥٠ (لا فى سنة ١٢٤٩ كما ذكر أمين باشا سامى)

(٢) أمين باشا سامى : تقويم النيل ج ٢ ص ٤٨١

(٣) دفتر ٢٠١٠ (مدارس تركى) جلسة ٢١ محرم ١٢٥٢ تقرير مفتش مكاتب الوجه البحرى

(٤) دفتر ٢٠٠٣ (مدارس تركى) جلسة ١٧ صفر ١٢٥٢ تقرير مفتش مكاتب الوجه البحرى

مكاتب قسم ثالث الغربية : نبروه وكفر الشيخ .[١]

« المنوفية : إبيار ومنوف وأشمون (وكانا فى بناء واحد) وشبين الكوم .

« الدقهلية : صهرجت وميت غمر والمنصورة ومحلة دمنة وشربين وفارسكور والمنزلة .[٢]

« قسم أول الشرقية: الزقازيق وهيا ورأس الوادى وكفور نجم .[٣]

« « ثانى « : أبو كبير وميت العز وبلبيس ومنيا القمح والعزيزية .[٤]

---

(١) دفتر ٢٠٠٣ (مدارس تركى) جلسة ١٧ ربيع الأول ١٢٥٢ تقرير مفتش مكاتب الوجه البحرى

(٢) دفتر ٢٠٠٤ (مدارس تركى) جلسة ٢٢ ربيع الأول ١٢٥٢ تقرير عصمت أفندى مفتش المكاتب ، وقد أورد أمين باشا سامى (التعليم فى مصر القسم الخامس من الملحقات س ٣٥) وبورنج (ص١٢٧) مكتب شربين من مكاتب الغربية ولكنه جاء فى تقرير المفتش مع مكاتب الدقهلية .

(٣) دفتر ٢٠١٠ (مدارس تركى) جلسة ٢٢ محرم ١٢٥٢ تقرير محمد عصمت أفندى مفتش المكاتب .

(٤) لم نعثر على تقرير المفتش الخاص بتنظيم مكاتب قسم ثانى الشرقية ، إنما جاء بتقريره عن قسم أول أن مكاتب الشرقية كلها كانت سبعة ، فتكون مكاتب القسم الثانى ثلاثة فقط وهناك تقرير لحكيمباشى المدارس (دفتر ٢٠٠١ — جلسة أول محرم ١٢٥٢) ، وتاريخه أقرب تاريخ إلى التفتيش ، ينص على أن مكاتب الشرقية هى الزقازيق وهيا ورأس الوادى وكفور نجم وبلبيس ومنيا القمح والعزيزية ، أما مكتب أبى كبير فقد جاء ذكره فى أمر من محمد على إلى مدير الشرقية بشأن المكاتب المنشأة حديثا وهى : أبو كبير وبلبيس والعزيزية (دفتر ١٣٩ رقم ٦٠٧ فى ٢٧ رجب ١٢٥١) . يبقى مكتب ميت العز وهو المكتب الذى ذكر على مبارك أنه دخله فى أول عهده بالمدارس وذكره بورنج (ص١٢٧) مع المكاتب التى نظمت سنة ١٢٥٢ . كما جاء ذكره بالسجل ٢٠١٧ (مدارس تركى) ص ٢١٣ فى صدد بيان الأدوات والمرتبات المقررة له فى أوائل سنة ١٢٥٢ ، وقد يجوز أنه كان قائما قبل تنظيم المكاتب ثم ألغى قبيل تنظيمها ثم أعيد بعد ذلك .

مكاتب الجيزة : الجيزة والبدرشين .(١)

« القليوبية : طحا وقلبوب وبنها .(٢)

« البحيرة : الرحمانية وشبراخيت ودمنهور والنجيلة .(٣)

فى الوجه القبلى :

مكاتب قسم أول الأقاليم الوسطى : ببا والعجمين وبنى سويف وبوش والفيوم .(٤)

« « ثانى « « : قلوصنا وبنى مزار والفشن وساقية موسى والمنيا .(٥)

« « أول الوجه القبلى : ملوى وصنبو ومنفلوط وأسيوط وأبو تيج والساحل وطهطا وسوهاج وأخميم وجرجا .(٦)

« « ثانى « « : قاموله وقنا وفرشوط وإسنا .(٧)

---

(١)،(٢) دفتر ٢٠١٠ (مدارس تركى) جلسة ١٦ محرم ١٢٥٢ تقرير محمد عصمت افندى مفتش المكاتب

(٣) دفتر ٢٠١٠ (مدارس تركى) جلسة ٢٩ محرم ١٢٥٢ تقرير محمد عصمت افندى مفتش المكاتب

(٤) دفتر ٢٠٠٢ (مدارس تركى) جلسة ١٥ محرم ١٢٥٢ تقرير أحمد افندى مفتش المكاتب

(٥) دفتر ٢٠١٧ (مدارس تركى) س ٢٠٠ قرار شورى المدارس فى ٦ صفر ١٢٥٢ بشأن تقرير مفتش المكاتب

(٦) دفتر ٢٠١٥ (مدارس تركى) جلسة ١٣ جماد ثان ١٢٥٢ تقرير أحمد افندى مفتش المكاتب ودفتر ٢٠١٦ (مدارس تركى) جلسة ٢ رجب ١٢٥٢ تقرير احمد افندى مفتش المكاتب ودفتر ٢٠١٦ (مدارس تركى) جلسة ٤ رجب ١٢٥٢ تقرير أحمد افندى مفتش المكاتب

(٧) جاء بتقرير المفتش (بدفتر ٢٠١٦ جلسة شورى المدارس فى ٢ رجب ١٢٥٢) أن بنصف الوجه القبلى عشرين مكتبا وأن بالنصف الأول وحده ١٥ مكتبا ولكنا لم نعثر إلا على عشرة مكاتب بنصف أول الوجه القبلى ، أما مكاتب النصف الثانى الخمسة فلم نعثر منها إلا على أربعة وهى التى أبقيت بعد تنظيم المكاتب فى ١٢٥٢ أما المكتب الخامس الذى ألغى فلم نعثر عليه .

ومجموع هذه المكاتب:

٨ مكاتب بالغربية .

٤ « بالمنوفية .

٧ « بالدقهلية .

٩ « بالشرقية .

مكتبان بالجيزة

٣ مكاتب بالقليوبية .

٤ « بالبحيرة .

٥ « بقسم أول الأقاليم الوسطى .

٥ « بقسم ثان الأقاليم الوسطى .

١٥ مكتبا بقسم أول قبلى .

٥ مكاتب بقسم ثان قبلى .

ومجموعها ٦٧ مكتبا ، وهى التى أنشئت فى المدة من سنة ١٨٣٣ إلى سنة ١٨٣٦ ، وعاش معظمها هذه المدة كلها ، وعاش بعضها الآخر جزءا منها ، وهو الذى لم نعثر عليه حين أخذ شورى المدارس ينظم التعليم الابتدائى فى مصر .(١)

ولكن لم أنشأت حكومة محمد على هذه المكاتب كلها ؟ يقول محمد على فى أحد أوامره الى رجاله : « إن القصد من إنشاء هذه المدارس هو تعليم وتثقيف أبناء العباد » . (٢) والواقع أن لنا أن نصدق أن هذا ما رمت اليه الحكومة بانشائها هذا العدد الكبير من المدارس الابتدائية ، فلأول مرة

(١) ذكر كلوت بك (لمحة عامة إلى مصر ج ٢ ص ٥١٧) أن عدد المدارس الابتدائية كان ٦٦ بالوجه البحرى و ٤٠ وبالوجه القبلى .

(٢) دفتر ٥٨ (معية) رقم ٥٩٢ إلى محرم أغا فى ١٩ ذى القعدة ١٢٤٩

فى تاريخ مصر الحديث نرى التعليم «الحكومى» يتغلغل فى قرى مصر يحمل إلى أهلها تعليما أوّليا بسيطا كانوا فى أشد الحاجة اليه . نعم إن الأهالى كانوا يبعثون بأبنائهم إلى مساجد القرى وكتاتيبها يحفظون القرآن وقد يتعلمون القراءة والكتابة ، ولكن مكاتب «محمد على» كانت من طراز آخر :

كانت الحكومة تنتزع التلاميذ من أهلهم انتزاعا وتحتجزهم فى مكاتبها تعلمهم وتطعمهم وتكسوهم وتدفع إليهم «مصروفهم» بضعة قروش فى كل شهر ، وهى بعد هذا وذاك تتعهدهم شبانا كما تعهدتهم أطفالا ، فتختار لكل منهم عملا : فهذا ترسله إلى المدرسة التجهيزية يعلَّم فيها تعليما يعدّه لمدرسة من المدارس الخصوصية ، وذاك تعينه فى وظيفة كتابية من تلك الوظائف الكثيرة التى استلزمها إنشاء الجيش والمصانع والشفالك والمطابع والدواوين . فالواقع أن الالتحاق بمكتب من مكاتب الحكومة كان يعنى الالتحاق بخدمة «الباشا» : ذلك لأن الحكومة كانت تضنّ بما أنفقته على تلاميذها من النفقات أن يذهب عبثا ، فكانت تستغلهم ما وسعها الاستغلال ، على أن هذا الاستغلال كان فى غالب الأحوال فى صالح التلاميذ ، إذ يهيّىء لهم من أسباب التقدم ما يرقى بهم من بيئتهم الساذجة التى نشأوا بها إلى عوالم أخرى من الثقافة والعلم والمعرفة ، فيهيىء لهم بذلك فرصا للثراء والمجد وخدمة الوطن .

لسنا نعنى بذلك أن الذين ألحقوا بتلك المكاتب كانوا جميعا فى رجولتهم أفذاذا نهضوا بمرافق البلاد ، أو كان لهم كلهم فى تاريخها جليل الأثر . فلن يطلب منصف من المدارس فى أى زمان ومكان شيئا من هذا .

أنشئت هذه المكاتب قبل أن ينشأ للمدارس مجلس يشرف عليها أو ديوان يديرها ، بل كان المشرف عليها ديوان الجهادية ، يصدر لها أوامره فيما يعرض له من شئونها.[1] وكانت مكاتب المبتديان تابعة للمديريات المنشأة بها ، فالى مدير

(١) دفتر ٢٠١٦ (مدارس تركى) جلسة ٤ رجب ١٢٥٢ من تقرير لمفتش مكاتب الوجه القبلى

الإقليم كان الوالى يصدر الأوامر الخاصة بهذه المكاتب ويجعله مسئولا أمامه عن تقدمها[١]. فكانت المديرية هى التى تعين موظفى هذه المكاتب من نظار ومدرسين وكتبة وخدم، وهى التى تعزلهم، وهى التى تعد مايلزم هذه المكاتب من غذاء وكساء، ومن خزانتها كانت تصرف للموظفين والتلاميذ مرتباتهم،[٢] ولما كانت معظم هذه المكاتب فى القرى كانت لناظر القسم أو لشيخ القرية الكلمة فى إدارة المكتب القائم فى دائرته،[٣] لأنهم بطبيعة وظائفهم كانوا هم الذين يتلقون الأوامر من المديرين ويقومون على تنفيذها، وكانوا فى الغالب يسيئون استخدام ما وكل اليهم من سلطة.

وكان ناظر المكتب ومساعده ومعلمو المكتب وخدمه يختارون من أهل المديرية التى بها المكتب، وذلك لأن رجال الادارة بالأقاليم هم أعرف الناس بمن يصلح لمثل هذا العمل، ولأن المرتبات التى كانوا يمنحونها لم تكن لتمكّن الواحد منهم أن يشتغل فى غير بلده.

وقد عملت الحكومة على أن تربط هذه المكاتب بالسلطة المركزية فى حاضرة البلاد: فكانت ترسل اليها، من وقت لآخر وفى غير انتظام، مفتشين يزورونها ويفحصون عن شئونها، ثم يرفعون تقاريرهم الى «الجناب العالى».[٤] والواقع أن مهمة هؤلاء المفتشين كانت متشعبة النواحى: فقد كان عليهم أن يفحصوا عما أفاد التلاميذ من العلوم، ومابذله المعلمون من جهد، وما عليه التلاميذ من نظافة البدن وصحة الجسم، هذا الى النظر فى شئون المكتب نفسه من بنائه ومخزنه وأثاثه وأدواته. ومما يزيد فى صعوبة المهام التى وكلت الى

---

(١) دفتر ٥٨ (معية) رقم ٤١٧ و٦٠٠ — دفتر ٦٣ (معية) رقم ٧٥ و٧٢ وغيرها

(٢) دفتر ٦٣ (معية) رقم ٧٥ و٧٢ إلى بعض المديرين فى جمادى الآخرة ١٢٥١

(٣) دفتر ٢٠٠٣ (مدارس تركى) جلسة ١٧ صفر ١٢٥٢ من تقرير لمفتش مكاتب نصف الوجه البحرى.

(٤) دفتر ١٣٩ (مجلس الملكية) رقم ٦٠٧ إلى مدير الشرقية فى ٢٧ رجب ١٢٥١

هؤلاء المفتشين أنه لم تكن هناك لائحة عامة لمكاتب المبتديان فى الطور الأول من إنشائها تعيّن واجبات القائمين على شئونها . وكان يسترشد فى ذلك أحيانا بلوائح خاصة توضع لمكاتب معينة [١] أو بأوامر من محمد على إلى المديرين بشأن موظفى المكتب وتلاميذه [٢] .

وتدل تقارير المفتشين الذين وكل اليهم تنظيم هذه المكاتب فى سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧ أنها كانت تختلف بعضها عن بعض فى عدد موظفيها ، ومقدار ونوع ما يصرف اليها من أدوات ومهمات ، فبينما كان فى بعض المكاتب معلمان ، إذ فى بعضها الآخر ثلاثة ، وبينما كان التلاميذ ينامون على أسرة فى بعضها ، كان غيرهم ينام على « الأرض » فى بعضها الآخر وهكذا .

وكان الوالى إذا ما رفعت اليه تقارير المفتشين يبدى من شدة الاهتمام بهذه المكاتب ما يدلنا على أنه كان يأمل لهـا أن تقوم بالأغراض التى أنشئت لأجلها خير قيام . وبين أيدينا طائفة قيمة من أوامره إلى مديرى المديريات ، يأمرهم فيها بالعناية بتعليم التلاميذ وبنظافة أبدانهم وملابسهم وأغذيتهم ، وأن يعلموا دائما « أن تربية التلاميذ وإعدادهم من أهم أغراضه » . [٣]

بعث يوما « منشورا » إلى جميع المديرين بأنه علم من تقرير مفتش المدارس أن تلاميذ مدارس مديريتى المنوفية والبحيرة مصابون بالجرب ، وأنهم لم يعطوا ملابسهم وفرشهم ، وأن أطعمتهم ليست على الوجه المطلوب وأنه ينبغى ألا تكون المدارس الموجودة بمديرياتهم كالتى بهاتين المديريتين ،

---

(١) دفتر ٦٦ (معية) رقم ٤١ إلى عباس باشا فى ١٨ جماد أول ١٢٥١ (بطلب وضع قانون خاص لمدرسة المنصورة)

(٢) دفتر ٥٨ (معية) رقم ٤١٧ إلى مدير الوسطانية فى ٦ رمضان ١٢٤٩

(٣) دفتر ١٤٥ (مجلس الملكية) رقم ٣٣ إلى محافظ دمياط فى ١١ ربيع الثانى ١٢٥٢

بل الواجب عليهم الاهتمام بها كل الاهتمام ، فإن أدنى شكاية ، تكون مستلزمة غضبه ». [١]

وقد بلغ من شدة عنايته بهذه المكاتب أنه كان يدعو اليه تلاميذها ليشهد عن كثب هذا النبت الناشىء الذى غرسه بيديه فى البلاد . وقد جىء اليه مرة بتلاميذ مكتب نبروه ، فألفاهم جميعا يمشون حفاة ، فاستشاط غضبا ، وكتب إلى جميع المديرين مستنكرا هذا العمل آمرا إياهم أن يجنبوا تلاميذهم الحفاء بعد اليوم . [٢]

وقد بلغ من رعاية حكومة محمد على لتلاميذ بعض مكاتب المبتديان فى بدء إنشائها وحدبها عليهم ، أنها كانت تطعمهم كل يوم أرزا وخضرا ولحما ، وتنيمهم على فرش ووسائد فوق سرر من حديد ، ولا تبخل عليهم بألواح الكتابة وأقلام البوص وما يتبع ذلك من مداد ومحابر [٣] ، وقد ألغى كثير من هذا حين شرعت الحكومة فى تنظيم هذه المكاتب فى سنة ١٨٣٦ ، فاكتفت بأن تطعم تلاميذها فى أكثر الأيام فولا وعدسا . على أن يصيبوا من اللحم والخضر مقدارا فى كل أسبوع ، وجعلتهم يفترشون (أنخاخا) من الحلفاء .

ولكن هذه الرعاية السامية وهذا السخاء من جانب الوالى ، لم يضعا حدا للفوضى التى كانت تسود كثيرا من هذه المكاتب ، فعلى الرغم من أن أوامر الحكومة كانت صريحة فى أن لا ، يقبل بهذه المكاتب إلا من كانت أسنانهم بين العاشرة والرابعة عشرة [٤] كان يقبل بها تلاميذ

---

(١) دفتر ٦٣ (معية) رقم ٧٥ إلى المديرين فى ٣ جمادى الآخرة ١٢٥١

(٢) دفتر ١٣٩ (مجلس الملكية) رقم ٥٣٨ و ٥٤١ إلى المديرين فى ١٩ رجب ١٢٥١

(٣) دفتر ٢٠٠٢ (مدارس تركى) جلسة ١٥ محرم ١٢٥٢ من تقرير لمفتش مكاتب الأقاليم الوسطى .

(٤) دفتر ٥٨ (معية) رقم ٤١٧ من محمد على إلى مدير الوسطانية فى ٦ رمضان ١٢٤٩

تجاوزت أسنانهم السابعة عشرة والثامنة عشرة ، وقد أصـــدر الوالى أمره إلى المديرين ، بأن يغشى كل منهم بنفسه ما لديه من المدارس ، فمن وجده فيها تزيد سنه عن الرابعة عشرة فليفصله منها وليسرحه غير آبه لنقصان العدد المقرر ولا عابىء بملء المحال التى تخلو بتسريح المفصولين ». [١]

وكانت المكاتب تضم بين جنباتها تلاميذ مصابين بعاهات مختلفة ، وكانت الأمراض فاشية بينهم ، ويرجع هذا ، من ناحية ، إلى سوء التغذية إذ كانت هذه المكاتب (فرصة) سانحة لبعض رجال الادارة لاختلاس « تعيينات » التلاميذ الخاصة بغذائهم ولباسهم ومرتباتهم ، وطالما ارتفعت شكوى المفتشين من هذه الحال ، فقد كانوا كثيرا ما يطعمونهم خبز الشعير أو لحما فاسدا ، أو يهملون كسوتهم أو يتأخرون كثيرا فى صرف مرتباتهم .

كما يرجع ، من ناحية أخرى ، إلى أن أبنية كثير من مكاتب المبتديان ، وخاصة فى القرى — وإن كانت تفضل مساكن الفلاحين — لم تكن تصلح أماكن للدراسة والسكنى : إذ كان كثير منها خربا متداعى الأركان « وغرف بعضها وحصرها خلقة ، وبعضها عفنة ، والمدرسة محرومة من الهواء النقى [٢] ، وكان بعضها من الضيق بحيث كان تلاميذها يتلقون فيها الدروس نهارا . ويضطرون للمبيت بمنازلهم ليلا ، وكانوا يأكلون ويشربون ويقرءون فى الغرف التى يجلسون فيها . [٣]

لجأ بعض المديرين إلى الحكومة فى القاهرة لترسل اليهم أطباء لعلاج المرضى من التلاميذ ومقاومة سوء الحالة الصحية ، ولكن عدد الاطباء

---

(١) دفتر ١٣٩ (مجلس الملكية) رقم ٢٧٩ إلى مديرى الوجه البحرى فى ١٥ جماد ثان ١٢٥١

(٢) دفتر ٦٣ (معية) رقم ٤١ من محمد على إلى عباس باشا فى ١٨ جماد أول ١٢٥١ بشأن مدرسة المنصورة .

(٣) دفتر ٢٠١٠ (مدارس تركى) جلسة ٢٩ محرم ١٢٥٢ من تقرير المفتش عن مكتب دمنهور ودفتر ٢٠١٦ (مدارس تركى) جلسة ٤ رجب ١٢٥٢ من تقرير المفتش عن مكتب جرجا

المخصصين للمدارس كان قليلا فاكتفت الحكومة مضطرة ، بأن يتناوب عدد من الأطباء زيارة المدارس ، [١] ثم عينت طبيبا لكل مديرية يزور مكاتبها ويفحص عن تلاميذها ويقدم تقاريره لرئيسه وهو المفتش الطبى (الحيكمباشى) لمكاتب الأقاليم البحرية أو القبلية . [٢]

جاء فى تقرير المفتش عن أحد هذه المكاتب حين شرع مجلس المدارس فى تنظيمها فى سنة ١٨٣٦ ماترجمته [٣] : « ذهبت لمكتب كفر الشيخ ، ورأيت أنه ليس هناك أحد غير معلمين اثنين سألتهما عن التلاميذ فقالا : إنهم ذهبوا لقضاء مصالحهم ، فأرسلت إليهم من يحضرهم ، ولما حضروا علمت منهم أنهم ذهبوا للاشتغال بالأعمال الزراعية ، ولما سألت التلاميذ عن أحوالهم فى المكتب أجابوا بأن طعامهم لايقدم إليهم فى الأوقات المخصصة لتقديمه حتى أن كثيرا من التلاميذ الذين ينامون مبكرين لصغر سنهم يبيتون جوعى ، وعلاوة على ذلك فإنى لاحظت أن وجوه التلاميذ جميعهم تشبه وجوه المصابين بالجدرى من آثار قرص البعوض الذى يغزوهم ليلا ، وأن عشرة منهم قد لزموا فراشهم بسبب ذلك . فرأيت إلغاء المكتب المذكور فألغيته . وقد شكا إلىّ خمسة عشر تلميذا بأن مشايخ قراهم أخذوا منهم مرتباتهم عقب صرفها لهم ، فأثبت ذلك فى التقرير . . . . وطمأنتهم بأن نقودهم سترد إليهم . وحدث كذلك أنى لما صففت التلاميذ فى ذلك اليوم ، وبينما كنت أمر بينهم استأذن أحد المرضى وخرج من باب المكتب ، فقابله شيخ البلد فى السوق ، وسلبه طربوشه عن رأسه وزعبوطه عن ظهره وحذاءه عن قدميه ،

(١) دفتر ٢٠٠٣ (مدارس تركى) جلسة ١٧ صفر ١٢٥٢ من تقرير حافظ إسماعيل افندى المفتش
(٢) دفتر ٦١ (معية) رقم ٢٥٨ إلى وكيل ناظر الجهادية فى ٩ رجب ١٢٥١
(٣) دفتر ٢٠٠١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى أول محرم ١٢٥٢

فرجع التلميذ يبكى ، فأرسلت فى طلب الشيخ ، فلما حضر أوسعته ضربا بالعصا واستردت منه الطربوش والزعبوط وأرجعتهما للتلميذ ، أما الحذاء فإن الشيخ كان قد باعه ، فأمرته فخلع حذاءه وسلمه للتلميذ . . . » .

وبالجملة فإن مكاتب المبتديان فى دورها الأول كانت مهمتها شاقة وحالتها تدعو الى الإشفاق .

وهذا ماعملت الحكومة على تلافيه ، حين شرعت فى تنظيم التعليم فى سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧ .

الفصل الثانى

مكاتب المبتديان

١٨٣٦ — ١٨٤١

فى أوائل ذى القعدة سنة ١٢٥١ (فبراير ١٨٣٦ م) أنشىء شورى المدارس ، ونزع النظر فى أمور المكاتب والمدارس من ديوان الجهادية وأحيل إلى هذا المجلس الجديد ، وكتب إلى المديرين جميعا « إشعاراً لهم بإنشاء شورى المدارس للنظر فى إدارة شئون جميع المكاتب والمدارس الموجودة بالأقاليم وبالمحروسة ، والإشراف على تعليم التلامذة » . [1]

وبذلك انتقلت إدارة المكاتب من المديريات التابعة لها إلى شورى المدارس ، فوضع لها الشورى لائحة عامة وبدأ يرسل المفتشين بانتظام — فى أول الأمر — إلى تلك المكاتب ليفحصوا عن شئونها ويقوّموا المعوج من أمورها ، طبقا لما تنص عليه مواد هــذه اللائحة . على أن علاقة المكاتب بالمديريات لم تنفصم ، بل ظلت قائمة حتى نهاية عصر محمد على ، ولكنها اقتصرت على الأمور المالية : كصرف مرتبات التلاميذ والنظار والمدرسين والخدم و (تعييناتهم) ، أما الشئون (الفنية) كتعيين النظار والمدرسين وفصلهم ونقلهم ، وترتيب التلاميذ فى الفرق الدراسية ، ووضع خطط الدراسة وتوزيعها على الفرق . . الخ فقد وضعت فى يد شورى المدارس ثم فى يد ديوان المدارس بعد إنشائه . [2]

---

(١) دفتر ٢٠٠١ (مدارس تركى) ص ٢ محاضر جلسات الشورى من ١٧ ذى القعدة ١٢٥١ .

(٢) دفتر ٣ (مدارس عربى) ص ٨٩٥ رقم ٢٣٤ من الديوان إلى ديوان المالية فى ٢٦ محرم ١٢٦١ . ودفتر ٤٨ (مدارس عربى) ص ٢٨٩٣ رقم ١٦٨ من الديوان إلى مديرية القليوبية فى ٨ جماد آخر ١٢٦٣

وقد رأينا أن مكاتب المبتديان كانت من بين فروع التعليم أشدها حاجة إلى التنظيم : فتبعيتها لديوان الجهادية وإشراف رجال الادارة فى الأقاليم على شئونها ، كان وضعا للأمور فى غير نصابها ، فلا عجب إذا سادتها الفوضى ، وتخبط المشرفون على إدارتها وعمت فيها الاختلاسات ، وضمت المكاتب فيمن ضمت من التلاميذ الكثيرين من المرضى وذوى العاهات وضعفاء الفهم .

ومضت سنوات ثلاث — منذ أنشئت هذه المكاتب فى سنة ١٨٣٣ — وكان محمد على أشد الناس أسفا لما تحويه تقارير المفتشين من بيان ما تعانيه « مكاتبه » من فوضى وسوء نظام ، وكان لذلك أشد الناس شعورا بحاجة منشآته الجديدة إلى روح جديدة تحيلها الى أداة للنفع ، تجنى منها الحكومة ثمارها .

على أن تلك السنوات الثلاث (من ١٨٣٣ إلى ١٨٣٦) لم تذهب عبثا : فقد كانت سنى تجربة ، وضحت خلالها أوجه النقص تمام الوضوح ، وكان على الحكومة أن تعمل جهدها لتلافيها . وسواء أكانت الحكومة تمكنت من تلافى أوجه النقص جميعها أو بعضها ، أم لم تتمكن ، فلا شك فى أنها قد قامت فى هذا السبيل بجهود لا ينكر أثرها فى محاولة النهوض بالتعليم الابتدائى وغيره من مراحل التعليم فى البلاد .

ومن هذه الجهود اللائحة التى وضعتها فى سنة ١٨٣٦ لإصلاح التعليم الابتدائى : « بيان ترتيب وتنظيم مدارس المبتدئين » .

لسنا نعرف على وجه التحقيق التاريخ الذى صدرت فيه هذه اللائحة ، فنصها الذى عثرنا عليه بالتركية وترجمته العربية بدار الكتب المصرية[١] خاليان من التاريخ ، وكذلك نصها العربى الذى عثرنا عليه بقسم المحفوظات

(١) النص التركى وترجمته العربية يضمهما كتيب بدار الكتب المصرية رقم ١٣٤ (فنون متنوعة تركية) . انظر الملحق .

التاريخية بسراى عابدين [١] لم يقرن بتاريخ يستدل منه على تاريخ وضعها أو إصدارها .

على أن من اليسير أن نستدل على أن هذه اللائحة قد صدرت بعد إنشاء شورى المدارس ، فإن بعض موادها تشير إليه فى أمور عدة .[٢]

وقد ذكر أمين باشا سامى أن هذه اللائحة وضعت بعد أن أنشىء ديوان المدارس فى غرة ذى الحجة سنة ١٢٥٢ هـ (٩ مارس سنة ١٨٣٧م)، وبعد أن شُكِّل بديوان المدارس مجلس مخصوص سمى « مجلس شورى التعليم » .[٣] وقد بينا فى الفصل الذى عقدناه عن إنشاء شورى المدارس وديوانها خطأ ما ذهب اليه أمين باشا سامى من أن إنشاء ديوان المدارس قد سبق إنشاء مجلسها ، ومن الخلط بين الأعضاء الذين تكونت منهم اللجنة التى وضعت لوائح التعليم وبين أعضاء شورى المدارس ، كما أوضحنا — مستندين الى وثائق صريحة — أن ديوان المدارس أنشىء قبل التاريخ الذى حدده أمين باشا سامى بشهر .

ولنعد الآن الى الوثائق لنحاول أن نحدد التاريخ الذى صدرت فيه لائحة تنظيم مدارس المبتدئين أو مكاتب المبتديان .

جاء بمحاضر جلسات شورى المدارس فى الشهر الأول من إنشائه أن « قوانين شورى المدارس صدرت يوم ٩ ذى القعدة سنة ١٢٥١ » [٤] ورُبَّ

(١) دفتر مجموعة ترتيبات ووظائف : لائحة مدارس المبتدئين . واضح أن هاتين اللفظتين مترجمتان عن التركية، أما التسمية التى تشبثنا بها لندل بها على مدارس الأقاليم الابتدائية فى عصر محمد على (مكاتب المبتديان) فهى التسمية التى ترددها دائما سجلات ديوان المدارس العربية فى هذا العصر (انظر الملحق) .

(٢) مواد ٧ و ١٠ و ١٥ و ١٦ وغيرها .

(٣) أمين باشا سامى : التعليم فى مصر ص ٩

(٤) دفتر ٢٠٠١ (مدارس تركى) محاضر جلسات شورى المدارس من ١٧ ذى القعدة ١٢٥١

معترض يقول إن قوانين الشورى قد لا تعنى لوائح المدارس ، بل قد تعنى اللوائح التى يسير عليها الشورى نفسه : كاختصاصاته وتكوينه وعلاقته بالمدارس فيما يتعلق بالتفتيش والإدارة . ولكن هناك وثيقة أخرى صريحة : « فى ٢١ ذى القعدة سنة ١٢٥١ قرر المجلس طبع القانون الذى وضعته اللجنة وصادق عليه الجناب العالى خاصا بمدارس المبتديان ، لأنه من المتعذر استنساخ صور منه لأنه سيرسل إلى نظار المكاتب والمفتشين والمديرين ، على أن تطبع الترجمة العربية فقط . . » .[١] فإذا كان مجلس المدارس قد قرر فى ٢١ ذى القعدة أن تطبع اللائحة ، فبدهى أن تكون قد وضعت قبل ذلك بأيام أو أسابيع .

نظن أن فى وسعنا الآن أن نحكم مطمئنين أن لائحة مدارس المبتديان قد صدرت عقب إنشاء شورى المدارس — فى أوائل ذى القعدة سنة ١٢٥١ — بأيام . بل قد يكون صدورها فى اليوم الذى أنشىء فيه الشورى ، ذلك لأن هذه اللوائح لم يضعها شورى المدارس كما يتبادر إلى بعض الأذهان ، أو ديوان المدارس كما قال أمين باشا سامى ، بل إن « قوانين كل مدرسة وضعت بمعرفة أعضاء اللجنة التى دعيت للانعقاد فى مجلس الملكية المصرية لتنظيم المدارس والمكاتب بموجب إرادة سنية . . . . »[٢] وكان تأليف هذه اللجنة وانعقادها لأداء مهمتها سابقين لإنشاء مجلس المدارس بعدة شهور .

وعلى أى حال فسواء صدرت لائحة المدارس الابتدائية — مع غيرها من لوائح المدارس الأخرى — فى اليوم التاسع من ذى القعدة سنة ١٢٥١ أى فى التاريخ الذى أنشىء فيه شورى المدارس ، أم صدرت بعد إنشائه بعدة أيام ، فالثابت أنها لم تصدر قط بعد إنشاء ديوان المدارس ، كما ذكر أمين باشا سامى ، بل لقد كانت قائمة قبل ذلك بأكثر من عام .

والآن ندرس اللائحة نفسها ، وقد كانت الأساس الذى قام عليه التعليم

---

(١) و (٢) المصدر السابق

الابتدائى فى مصر من ١٨٣٦ الى ١٨٤٩ : وضعت هذه اللائحة فى ٢٧ بندا موزعة على (عناوين وفصول) ومرتبة ترتيبا منطقيا : فأول مايطالعك منها بيان الغرض الذى أنشئت من أجله مدارس المبتدئين ، ثم عدد هذه المدارس فى المديريات وفى القاهرة والاسكندرية ، ثم عدد التلاميذ فى كل مدرسة ، ثم تنتقل اللائحة إلى بيان الشروط التى يجب توافرها فيمن يلحق بها من الأطفال ، ثم إلى بيان مدة الدراسة والمواد الدراسية التى يتلقونها ، حتى إذا انتهت من ذلك انتقلت إلى بيان موظفى المدرسة وواجباتهم ، ثم ضبط المدرسة وربطها . ثم امتحانات التلاميذ . . . الخ . وليست اللائحة واضحة فى كل شىء يتعلق بهذه المدارس ، فكثيرا ما تحيل تفصيل ماتجمل الى «قانون نامه مرتب من طرف شورى المدارس» كما فعلت فى بيان ساعات الدراسة [1] وتوقيع الجزاءات التأديبية على التلاميذ. [2]

وبوضع هذه اللائحة اشتد تغلغل (البيروقراطية) فى شئون هذه المكاتب والهيمنة عليها ، وشرعت (المركزية) تبسط نفوذها على التعليم . فاللائحة تغفل علاقة هذه المكاتب بالمديريات الموجودة بها ، وتحيل كل أمر فيها إلى شورى المدارس ورجاله .

وقد كان طبيعيا أن يكون لشورى المدارس — فى لائحة التعليم الابتدائى — النفوذ الأعلى : فهذه اللائحة لم تنشأ إلا لتجعل هذه المكاتب تسير كلها على نمط واحد [3] ، ولتحدد علاقتها بالهيئة المشرفة عليها فى عاصمة البلاد ، بل لتزيد من سلطان هذه الهيئة عليها وإشرافها التام على شئونها ، فعيونها — وهم المفتشون — يزورون المكاتب فى مواعيد منتظمة ، ويرفعون تقاريرهم إليها ، هذا إلى التقارير الشهرية التى يرفعها إليها نظارها .

(١) بند ١٠ من العنوان الثالث .
(٢) بند ١٨ من العنوان الخامس .
(٣) البند الرابع من اللائحة .

الغرض من التعليم الابتدائي

تنص المادة الأولى على «أن المراد من مدارس المبتدئين تحضير التلاميذ وتهيئتهم إلى مدرسة التجهيز ونشر مبادىء العلوم للأهالى».

أليس هذا فى الواقع ترديدا لقول محمد على فى أمر له إلى أحد حكام الأقاليم عند إنشاء هذه المكاتب فى سنة ١٨٣٣ «إن القصد من إنشاء هذه المدارس هو تعليم وتثقيف أبناء العباد[١]»؟ والحق أن لنا أن نستبعد أن تكون الحكومة قد أنشأت — أو على الأصح نظمت — خمسين مكتبا من مكاتب المبتديان — معظمها بالأقاليم — لتكون أماكن لإعداد التلاميذ لمدرستين تجهيزيتين فقط، فقد كان يكفيها لذلك عدد قليل من المكاتب، كله بالعاصمة أو بعضه بالعاصمة وبعضه الآخر بعواصم المديريات، ولكن إنشاء الحكومة هذا العدد الكبير من مكاتب المبتديان بالمدن والبنادر، وقبولها عددا ليس بالقليل من أطفال القرى، إنما يدحض الرأى الذى يردده بعض المحدثين من أن هذه المدارس الابتدائية إنما أنشئت لغرض الإعداد للتعليم التجهيزى دون النظر إلى غيره من الأغراض.

فليس من الإنصاف فى شىء أن نتناسى الغرض الآخر الذى نصّت عليه الحكومة فى لائحتها: وهو تثقيف جمهرة الشعب. ولكن ليس معنى هذا أن المكاتب كانت خالصة للتثقيف وحده، فلسنا نقول بذلك وليست تقول به اللائحة نفسها.

ونظن أنا جلونا هذه النقطة فى حديثنا عن الطور الأول من إنشاء المكاتب بما فيه الكفاية.

---

(١) دفتر ٥٨ (معية) رقم ٥٩٢ إلى محرم أغا فى ١٩ ذى القعدة ١٢٤٩

عدد المدارس والتلاميذ

نصّت المادة الثانية على أن عدد المدارس الابتدائية خمسون مدرسة : منها أربع بالقاهرة ، ومدرسة بالاسكندرية ، والباقية موزعة فى أنحاء القطر « بالنسبة لعدد الأهالى بشرط أن تكون بالبنادر » ، وكذلك حددت اللائحة عدد التلاميذ لكل مكتب : فقضت المادة الثالثة بأن يكون بكل مدرسة من مدارس القاهرة والاسكندرية مائتا تلميذ ، وبكل مدرسة من مدارس الأقاليم مائة ، وقد حدا بالحكومة إلى ذلك ما قدرته لمدارس العاصمة والاسكندرية من إقبال يفوق ما تصادفه زميلاتها فى الريف .

ولم يشترط فى الملتحقين بهذه المكاتب إلا أن تتراوح أعمارهم بين السابعة والثانية عشرة ، وأن يكونوا كما تنص المادة السادسة سليمى الجسم « متمتعين بالصحة والعافية » .

ولا شك فى أن الحكومة كانت تزمع (تنظيف) المكاتب : فقد كان سن القبول بها منذ إنشائها من العاشرة إلى الرابعة عشرة ، بل كان يلتحق بها فى عهدها الأول تلاميذ بلغوا السابعة عشرة والثامنة عشرة ، كما كان بها كثيرون من المرضى وذوى العاهات . فلما نظمت المكاتب وُزّع أولئك وهؤلاء على جهات أخرى ، ولم يحتفظ فى هذه المكاتب إلا بمن تنطبق عليه السن التى حددتها اللائحة .

والواقع أن سن القبول الذى حددته اللائحة وهو السن الذى ماتزال قوانين التعليم تنص عليه إلى الوقت الحاضر — أكثر الأسنان ملاءمة للتعليم الابتدائى ، هذا إذا لاحظنا أيضا أن الملتحقين بهذه المكاتب كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة ، فاذا أخذتهم الحكومة من أهليهم ولمّا يبلغوا السابعة من

---

(١) دفتر ٥٨ (معية) رقم ٥٩٣ من محمد على إلى محرم أغا فى ١٩ ذى القعدة ١٢٤٩

عمرهم فإن ذلك يشق على أهليهم كثيرا ، ويكلف الحكومة عبئا آخر في تنشيئهم . وإذا أمهلتهم الحكومة ثم أخذتهم إلى مكاتبها وقد تجاوزوا الثانية عشرة فإنها تلقى فيهم جهلا مطبوعا وخلقا ليس من اليسير عليها أن تغيره . وعلى ذلك فإن هذه السن — بين السابعة والثانية عشرة — هي أكثر الأسنان ملاءمة لتعليم أولى بسيط ، تقوم به الحكومة في وسط لم يألف هذا الضرب من التعليم بعد .

مدة الدراسة

نصت المادة السابعة من لائحة التعليم الابتدائي على أن مدة الدراسة لمكاتب ثلاث سنين ، وقد تمتد إلى أربع لبعض التلاميذ الذين تعوقهم ظروف خاصة أو يصابون بأمراض ، وللمفتش المنتدب من شورى المدارس أن يؤخذ رأيه في ذلك .

فالفرقة الثالثة تنتظم التلاميذ المبتدئين الأميين ، والفرقة الثانية التلاميذ الذين أتموا بنجاح مقررات الفرقة الثالثة ، والفرقة الأولى تضم التلاميذ الذين أتموا بنجاح مقررات الفرقة الثانية . ونقل التلاميذ من فرقة إلى أخرى يكون بامتحان يعقد في نهاية العام الدراسي . فالتلميذ الملتحق بمكتب من مكاتب المبتديان يلحق أولا بالفرقة الثالثة ومنها ينقل الى الفرقة الثانية ومنها الى الفرقة الأولى . ولم يكن هذا النظام قاصرا على المدارس الابتدائية بل كان متبعا في المدارس التجهيزية والخصوصية ، وما يزال متبعا إلى الوقت الحاضر في المدارس الفرنسية .

مواد الدراسة

نصت المادة التاسعة على أن تلاميذ المكاتب يدرسون : أولا — القراءة والكتابة ، ثانيا — قراءة مبادىء الصرف والنحو العربي ، ثالثا — عمليات

الحساب الأربع : وهى الجمع والطرح والضرب والقسمة ، رابعا — تعلم الفرائض الدينية .

هذه مواد الدراسة بالمدارس الابتدائية فى عصر محمد على ، لم يطرأ عليها فى مجموعها تغيير كبير حتى انتهى هذا العصر ؛ وإن كان أمين باشا سامى يقول إنه فى سنة ١٨٤٨ أضيفت إلى مواد الدراسة مبادىء اللغتين التركية والفرنسية مع بقاء مدة الدراسة على ما هى عليه[١] . ولكننا لا نرى رأيه فى ذلك ، فالوثائق التى بين أيدينا وهى سجلات ديوان المدارس التركية والعربية حتى نهاية عصر محمد على وبداية عصر عباس باشا لا تذكر شيئا من ذلك .

نعم إن التركية كانت تدرس حقا بمدرسة المبتديان بالقاهرة وحدها لفريق من التلاميذ : هم الغلمان الترك ، أما عن الفرنسية فلم نجد مطلقا ما يؤيد ما ذكره أمين باشا سامى من تدريسها بأى مكتب من مكاتب المبتديان . فهذه الوثائق صريحة فى بيان مواد الدراسة والكتب التى كانت تدرس بتلك المكاتب .

ولاشك فى أن تدريس هاتين اللغتين الأجنبيتين : التركية والفرنسية كلتيهما أو إحداهما للأطفال « المبتدئين » كان يعلو بهم كثيرا عن البيئة التى نشأوا بها وعما تؤهلهم له أعمارهم .

أما خطة الدراسة لكل فرقة من الفرق الثلاث والأوقات المخصصة لتدريس كل مادة بكل فرقة « كل ذلك يتعين تفصيلا فى قانون نامه المرتب من طرف شورى المدارس » .[٢] ومع أنا لم نعثر على هذا « القانون نامه » يمكننا أن نزيد هذه النقط الغامضة جلاء مستندين إلى ما جاء بتقارير لبعض المفتشين ، ومن التقارير الخاصة بنتائج امتحانات مدرسة المبتديان بالقاهرة وبعض مكاتب الأقاليم فى سنين مختلفة :

---

(١) أمين باشا سامى : التعليم فى مصر . القسم الثالث من الملحقات ص ٢

(٢) بند ١٠ من اللائحة .

لما شرعت الحكومة فى تنظيم مكاتب المبتديان مستعينة فى ذلك بمن أوفدت من المفتشين، كان أول ماعنيت به تقسيم التلاميذ إلى فرق ثلاث . وكان المفتشون هم الذين يقومون بهذا التقسيم، تبعا لما يرونه من حالة التلاميذ العلمية، متدرجين فى ذلك من الفرقة الثالثة إلى الفرقة الأولى . فتلاميذ الفرقة الثالثة يقرءون القرآن ويتعلمون القراءة والكتابة . وتلاميذ الفرقة الثانية يقرءون القرآن وكتاب «الأجرومية» ، ويمرنون ساعتين من كل يوم على خط الثلث وساعة على الإملاء . أما تلاميذ الفرقة الأولى فيدرسون الفروض الدينية ويقرءون كتب «السنوسية» ، و«الأجرومية» ، و«الكفراوى» ، ويكتبون خط الثلث ساعتين من كل يوم وساعة للاملاء . أما الحساب فيتعلمون منه القواعد الأربع قبل أن ينقلوا إلى التجهيزية بشهرين .

وقد ظلت هذه الخطة الدراسية متبعة — بدون تغيير كبير — سنين عدة.[١] وقد رأى بعض المفتشين أن يعلم التلاميذ القرآن والكتابة بين الصباح والظهر، والأجرومية والكفراوى وابن عقيل وسائر الدروس بين الظهر والعصر ، والحساب بين العصر والمغرب ، وعلى التلاميذ أن يستذكروا دروسهم بين الساعة الواحدة والساعة الثانية والنصف ليلا[٢] ، (أى من بعد غروب الشمس بساعة إلى ساعتين ونصف طبقا للتوقيت العربى) .

وقد عثرنا على «جدول الدراسة» الآتى ، وفيه بيان الكتب التى يقرؤها تلاميذ مدرسة المبتديان بالقاهرة — ويجوز أن نعتبرها أنموذجا لزميلاتها مدارس الأقاليم — موزعة على الفرق الدراسية الثلاث ، ومقدار ما يصيبها من ساعات اليوم المدرسى[٣] :

---

(١) دفتر ٢٠٠١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٨ ذى الحجة ١٢٥١ من تقرير لأسطفان افندى عن تنظيم مدرسة قصر العينى

(٢) دفتر ٢٠١٥ (مدارس تركى) جلسة الشورى فى ١٣ جماد ثان ١٢٥٢ من تقرير لمفتش مكاتب نصف أول قبلى

(٣) دفتر ٢٠٨٧ (مدارس تركى) ورقة ٥٧ رقم ٢١ من مدرسة المبتديان إلى ديوان المدارس فى ٢١ رمضان ١٢٥٩

الفرقة	المـــادة	الوقت المخصص لدراستها		مجموع ساعات الدراسة	
		ق	ت	ق	ت
الأولى	الكفراوى وشرحه والترجمة للوطنيين (كذا)	٣٠	٢		
	والصرف والنحو للأتراك والغلمان الترك	—	٢		
	الخط الثلث	٣٠	١		
	كتاب علم الحساب (المطبوع حديثا)	—	٢		
	قراءة كتاب علم الأخلاق	—	١	—	٩
الثانية	القرآن الكريم (ختم وإعادة)	—	٤		
	الأجرومية والسنوسية وشرحهما	٣٠	١		
	الجغرافيا (قراءة)	٣٠	١		
	كتاب الأخلاق	—	١		
	كتاب التوحيد (علم الحال)	—	١	—	٩
الثالثة	الهجاء وحفظ ربع القرآن الكريم	—	٩	—	٩

وقد وافق ديوان المدارس على خطة الدراسة هذه بعد أن أدخل عليها بعض تعديلات : فزيد خط الرقعة فى منهج الفرقة الأولى ، وقُصِر كتاب الأخلاق على الفرقة الثانية ، وأدخلت بها مادة الحساب كما أصبح تلاميذها يمرنون على خط الرقعة.[1] وأول ما نلاحظه على هذه الخطة إرهاق التلاميذ بالدروس شطرا طويلا من يومهم : فدراسة تسع ساعات منذ الصباح الباكر حتى المساء لاشك مرهقة للأطفال المبتدئين ، مضنية لجسومهم وعقولهم . كذلك نلاحظ

(١) دفتر ٢٠٩٦ (مدارس تركى) رقم ٥٨٨ إلى كامل بك فى ٢١ ذى القعدة ١٢٦٠

طول الزمن المخصص لبعض المواد : فتلاميذ الفرقة الأولى يمضون ساعتين ونصف ساعة من كل يوم فى قراءة (الكفراوى وشرحه) ، ويمضون ساعتين من كل يوم يدرسون الحساب ، هذا إلى أن حفظ القرآن كان يستغرق من وقت التلاميذ شطرا كبيرا جدا ، فقد كان حفظ القرآن موزعاً على عامين ، فتلميذ الفرقة الثالثة المبتدىء عليه أن يحفظ من القرآن ربعه ، وهو يفعل ذلك قبل أن يلمَّ بالقراءة والكتابة ، وهو لذلك يقضى نحو نصف يومه الدراسى فى حفظ القرآن ونصفه الآخر فى تعلم الهجاء .

أما تلميذ الفرقة الثانية فعليه أن يختم القرآن ويعيده ؛ ولاشك فى أن هذا الانكباب الشديد على حفظ القرآن كان يستغرق قدرا كبيرا جدا من وقت التلاميذ ، ويصرفهم عن دراسة مواد أخرى .

وقد رأى محمد على أن فى ذلك « ضياعا لسنتين أو ثلاث سنوات من مدة دراسة التلاميذ » ، فكتب إلى المديرين قبل تنظيم المكاتب بأن يوصوا المدرسين « بأن يجتزئوا عن تحفيظ القرآن الكريم بالإلمام به ، لكى يفرغ التلاميذ بعد ذلك للبدء فى دراسة الكتب الأخرى » .[1] ولكنا لا نجد لهذه النصيحة أثراً : فمازالت التقارير الخاصة بنتائج الامتحانات وخطط الدراسة تنبىء بشـــدة العناية بتحفيظ القرآن إلى الحد الذى يجعله يطغى على المواد الدراسية الأخرى ويستنفد من التلميذ جهداً ووقتا ليسا بالقليل ، هذا إلى أن حفظ القرآن لم يذكر صراحة فى مواد الدراسة التى نصت عليها المادة التاسعة من اللائحة .

وكان حفظ القرآن يمهد لتعلم القراءة والكتابة : فالتلاميذ يبدءون بحفظ آى الكتاب الكريم قبل إتمام الهجاء ، وبعد تعلمه يكتبون بأنفسهم سوراً من القرآن فى (ألواحهم) ويقرءونها ثم يحفظونها ، حتى إذا تمكنوا منها محوْها

(١) دفتر ١٣٩ (مجلس ملكية) رقم ٤٢٦ من محمد على إلى جميع المديرين فى ٧ رجب ١٢٥١

وكتبوا غيرها، وهكذا حتى يتموا حفظ ماقرر عليهم. فتعلم القراءة والكتابة كان يسير جنبا إلى جنب مع حفظ القرآن ، وكان تلميذ المبتديان يمنح قدراً من الورق فى كل شهر ليمرن على إجادة الخط ، [١] وأمشق ليحاكيها . [٢]

وكان اهتمام الحكومة كبيراً بجودة ما يكتبه التلاميذ ، ذلك لأن مدرسة المبتديان هى الأساس لتعلم الخط ، إذ أن المدرسة التجهيزية لم تكن تعنى به عنايتها بغيره من مواد الدراسة ، والمدارس الخصوصية ألغت تدريس الخط من مناهجها ، لهذا كان من اللازم أن ينشأ التلاميذ على إجادة الكتابة منذ نعومة أظفارهم . وهذا ما حدا الحكومة إلى أن تعين لكل مكتب (خوجة خطاط) يعمل ساعتين من كل يوم فى تعليم تلاميذ المكتب جودة الخط .[٣] ونرى محمد على يبعث إلى ناظر الشورى يأمره أن يوافيه بعدد من يحسن الخط من تلاميذ المكاتب وعدد من لا يحسنه منهم ، [٤] ونرى أن ديوان المدارس يلفت نظر المدرسين إلى أن يأخذوا أنفسهم بالإجادة فى كل ما يكتبونه للتلاميذ ، وبأن يرفعوا إلى الديوان نماذج من خط التلاميذ مع « جداول التحصيل المعتاد إرسالها كل ثلاثة أشهر ».[٥]

كانت الدراسة بمكاتب المبتديان — كالدراسة فى غيرها من المدارس فى ذلك العصر — دراسة كتب ، والامتحانات امتحانات فى الكتب : فبدل أن يقال مثلا إن التلاميذ يدرسون الصرف أو النحو يقال إنهم يقرءون كتاب الكفراوى أو متن الألفية أو شرح ابن عقيل ، وبدل أن يقال إن التلاميذ يدرسون التوحيد يقال إنهم يقرءون كتاب (علم حال) ، وبدل أن يقال :

(١) دفتر ٢٠ (مدارس عربى) ص ١١٣ رقم ١٦ إلى مديرية البحرية بالاسكندرية فى ١٣ شوال ١٢٦١

(٢) دفتر ٨ (مدارس عربى) ص ٣٣٧ رقم ٢٠ إلى مكتب بوش فى ١٧ ذى القعدة ١٢٦٠

(٣) دفتر ٨ (مدارس عربى) ص ٣٢٧ رقم ١٩ إلى مكتب بوش فى ٣ ذى القعدة ١٢٦٠

(٤) دفتر ١٤٥ (مجلس ملكية) ص ٥ رقم ٢١ إلى مختار بك فى ٢٥ صفر ١٢٥٢

(٥) دفتر ٢٧ (مدارس عربى) ص ٧٦٥ رقم ٣٣٧ إلى مدرسة الألسن فى ٢٠ محرم ١٢٦٢

كانت إجابة التلاميذ فى مادة الجغرافيا مرضية ، يقال إن إجابة التلاميذ عما قرءوه فى كتاب الجغرافيا مرضية وهكذا .

فالدراسة هنا مستمدة من الأزهر ومقلدة له . وهذه المحاكاة من أعظم مظاهر تأثير الأزهر فى « المدارس الحديثة » وأظهرها أثراً ، ذلك لأن تقاليد الأزهر كانت قوية ولم يكن ثم غيرها فى مصر إذ ذاك . وبعض المصريين الذين أشرفوا على التعليم فى مصر فى ذلك الوقت ، أنفقوا صدر شبابهم فى الأزهر ، هذا إلى أن الأزهر قد أمدّ مدارس الحكومة بكثير من مدرسيها لتدريس علوم اللغة والدين . والواقع أن الحكومة قد أنشأت مكاتبها . ولم يكن أمامها من كتب إلا كتب الأزهر الموضوعة منذ عصور بعيدة ، فكان طبيعياً أن تعتمد الحكومة على هذه الكتب مع بعدها بعداً تاماً عما يجب أن يتوافر لكتب التلاميذ من سهولة فى اللفظ وسلامة فى التعبير واعتماد على الفكر ونظر إلى خصائص الطفل من جهة سنه وقدرته العقلية ، ومن هذه الكتب التى كانت مستعملة فى المدارس الابتدائية فى ذلك العصر : الأجرومية والكفراوى وهو شرح الأجرومية ، والألفية وشرح ابن عقيل وكلها فى الصرف والنحو[١] ، ثم ألغى تدريس الكتابين الأخيرين وحل محلهما كتاب (السنوسية) فى التوحيد .

على أن الحكومة كانت جادة فى أن تستعين بما يوضع أو يترجم من كتب « حديثة » ، ومن ذلك ما كتبته لوكيل لها بلندن بأن يرسل إليها « كتباً مطبوعة مؤلفة لصغار التلاميذ بحيث تميل أذهانهم إليها » .[٢] ولم تمض

---

(١) دفتر ٢٠١٧ (مدارس تركى) ص ٢١٣ رقم ٦٢ إلى مأمور الديوان الخديوى فى ١٢ رمضان ١٢٥٢

(٢) دفتر ٣١ (معية) ص ١٥ رقم ٢٤ إلى سلحدار إبراهيم باشا المقيم فى لندن فى ١٦ ربيع ثان ١٢٤٣

سنوات حتى وجدنا بين أيدى التلاميذ كتباً فى الجغرافية (وأطالس) [١] ، وكتباً فى الأخلاق والحساب والهندسة [٢] ، وكتباً تدعى (حكايات الأطفال) [٣] و (عقلة الصباع) [٤] ، وكانت كلها تدرس بمكاتب المبتديان فى أوقات مختلفة، ولشدّ ما كنا نود أن نعثر عليها كلها أو بعضها، لنرى مقدار ما أفاد التلاميذ من هذه الكتب « الحديثة » ! ولم تكن الحكومة توزع على تلاميذها كراسات يكتبون فيها، بل كانت تصرف لهم (ألواحا) يكتبون عليها سور القرآن ، وقدراً من الورق الأبيض يكتبون فيه (ملخصات) بعض المواد التى يدرسونها كالجغرافيا والتوحيد [٥] ، هذا إلى (أمشق) للخط يحاكيها التلاميذ [٦] .

ترى من ذلك أن مواد الدراسة كما حددتها المادة التاسعة من لائحة التعليم الابتدائى لم يقتصر عليها حتى آخر عصر محمد على ، فقد أضيفت إليها موادّ جديدة: أخصها الجغرافيا وكتب جديدة فى الأخلاق والحساب والهندسة والقصص وغيرها ، بل إن التربية البدنية وجدت لها مكاناً فى مناهج الدراسة بالمدارس التجهيزية ومدرسة المبتديان، فى أواخر العصر الذى نؤرخ التعليم فيه .[٧]

---

(١) دفتر ١٠ (مدارس عربى) س ١٠١٦ رقم ٤٦ إلى مكتب الجيزة فى ٦ محرم ١٢٦١

(٢) دفتر ١١ (مدارس عربى) س ٣٠٩٨ رقم ١٥٦ إلى الكتبخانة فى ٢٥ ربيع أول ١٢٦١

(٣) دفتر ٢٨ (مدارس عربى) س ١٢٢٦ رقم ٧٧ إلى الكتبخانه فى ١٣ ربيع أول ١٢٦٢
وكتاب حكايات الأطفال عربه رجل يدعى عبد اللطيف افندى

(٤) دفتر ٥٨ (مدارس عربى) س ١٩٢١ رقم ١٠٧ إلى مكتب أبى زعبل فى ٢٩ صفر ١٢٦٣
وكان يصرف لتلاميذ الفرقتين الأولى والثانية وحكايات الأطفال لتلاميذ الفرقة الأولى

(٥) دفتر ٩٣ (مدارس عربى) س ١٠٧ رقم ١٨ إلى مكتب أسيوط فى ٢ ذى القعدة ١٢٦٣

(٦) دفتر ٨ (مدارس عربى) س ٣٣٧ رقم ٢٠ إلى مكتب بوش فى ٧ ذى القعدة ١٢٦٠

(٧) دفتر ٩٣ (مدارس عربى) س ١٢٩ رقم ٦١ إلى المهندسخانة فى ٢٧ شوال ١٢٦٣
(بشأن صنع أدوات الجمناستك)

ولكن ما المكاتب التى نُظِّمت فى سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧ وطبقت عليها لائحة التعليم الابتدائى ؟ وكيف تمَّ تنظيمها طبقا لهذه اللائحة ؟

ذلك ما سنعرض له فيما يلى :

قُسِّم القطر ثلاث مناطق للتفتيش عن المدارس : منطقتين بالوجه البحرى ومنطقة بالوجه القبلى: فمفتش لمديريات الغربية والمنوفية والبحيرة،[1] وآخر لمديريات الدقهلية والشرقية والقليوبية والجيزة،[2] أما مكاتب مديريات الأقاليم الوسطى والقبلية فيزورها مفتش ثالث .[3]

كان هؤلاء المفتشون اليد العاملة فى تنظيم مكاتب المبتديان ، وكانت اللائحة أساس عملهم ، إلا فيما غمض من موادها فيوضحها شورى المدارس بقرارات يصدرها . وكان أساس هذا التنظيم توزيع مكاتب الأقاليم على البلاد بالنسبة لعدد سكانها، وقد اقتضى هذا — كاقضت المادة الثانية — إلغاء مكاتب القرى وإبقاء مكاتب البنادر . وكان الشورى تارة يعين المكاتب التى يرى إلغاءها ، وليس للمفتش المختص إلا تنفيذ قراره ، وكان تارة أخرى يترك للمفتش — على ضوء ملاحظاته الشخصية عن كل مكتب — إغلاق ما يرى إغلاقه من المكاتب المتأخرة والإبقاء على مايرى الإبقاء عليه من المكاتب الصالحة ، ولشورى المدارس أخيرا أن يوافق المفتش على ما ارتآه أو لا يوافقه .

فمكاتب المنوفية مثلا كانت أربعة : بعضها فى البنادر وبعضها فى القرى ، واقترح المفتش إلغاء مكتبين منها وتنظيم الآخرين ، ولكن مديرية المنوفية كثيرة السكان ولايكفيها مكتبان ، فلم يقرّ الشورى المفتش على ماراه وأمر

(١) وكان يدعى حافظ إسماعيل أفندى

(٢) وكان يدعى محمد عصمت أفندى

(٣) وكان يدعى أحمد أفندى

بابقاء المكاتب الأربعة وتنظيمها .[١] وكذلك مكتب أسيوط وهو من مكاتب الأقاليم التى نصت المادة الثالثة من اللائحة على أن يكون بكل منها مائة تلميذ ، ولكن أسيوط مدينة كبيرة ومكتب واحد لا يسدّ حاجتها ، لذلك وافق الشورى — تفاديا من إنشاء مكتب آخر — على أن يكون بمكتب أسيوط مائتا تلميذ .[٢]

ولمّا كان المديرون هم أعلم الناس بمديرياتهم وحاجاتها والبلاد التى يصلح إنشاء مكاتب بها وتلك التى لا تصلح لذلك ، كان المفتش لا يصدر عن رأى إلا بالاتفاق مع مدير المديرية .

كان المفتش عند ما يصل إلى مكتب من مكاتب الأقاليم يصفّ تلاميذه ويمر بينهم (لفرزهم) ؛ فيخرج منهم المرضى وذوى العاهات وكبار السن ، ويسأل المدرسين عن ضعاف الفهم فيخرجهم ، وبذلك لا يبق بالمكتب إلا من تؤهلهم أعمارهم وصحتهم وقدرتهم العقلية للبقاء به . أما المفصولون فيُرسَل منهم ذوو العاهات إلى الفرقة التى أنشأتها لهم الجهادية ، ويبعث بكبار السن وضعاف الفهم إما إلى التجهيزية وإما إلى الجندية وإما إلى أهلهم ، وإذا نقص عدد تلاميذ المكتب عن العدد الذى حددته اللائحة وهو مائة تلميذ ، أكمله المفتش بتلاميذ صالحين من مكاتب المديرية الأخرى الملغاة . وبعد أن يكمل للمكتب نصابه القانونى من التلاميذ ، يقسم المفتش التلاميذ إلى فرق دراسية ثلاث ، أو إلى الفرقتين الثانية والثالثة فقط ، مراعياً فى ذلك معلومات التلاميذ وما حصلوه فى المكتب . وقد مرّ بنا أن أساس ذلك التوزيع كان فى غالب الأمر بنسبة ما حفظه التلاميذ من آى الكتاب الكريم .

---

(١) دفتر ٢٠٠٣ (مدارس تركى) جلسة ١٧ ربيع الأول ١٢٥٢ من تقرير مفتش مكاتب نصف الوجه البحرى .

(٢) دفتر ٢٠١٦ (مدارس تركى) جلسة ٢ رجب ١٢٥٢ من تقرير لمفتش مكاتب الوجه القبلى .

وعلى المفتش بعد ذلك أن ينظم الدروس الخاصة بتلاميذ كل فرقة ، ثم يقيد هذا كله فى تقرير يبعث به إلى شورى المدارس ، وبذلك تنتهى الناحية « الفنية » من عمل المفتش . وعليه بعد ذلك أن يفتش عن مخزن الكتب و (يجرد) ما فيه من أدوات ، ويرى ماوُزِّع على التلاميذ من كساء وغذاء وأدوات للنوم ، فيقرّ ما يراه مطابقا للوائح ويلغى ما يراه زائداً ، أو يكتب إلى الشورى أو إلى المديرية مطالبا بما ينقص المكتب من أدوات . ثم ينظر فى بناء المكتب نفسه فإن كان محتاجا للاصلاح طلب إلى مدير المديرية أن يرسل مهندساً لإصلاح مابه من خلل ، وعلى المفتش أيضاً أن ينظر فى أمر موظفى المكتب : فيطلب تعيين من يحتاج إليهم المكتب أو يعزل من يمكن الاستغناء عنه . وقد كان من آثار هذا التفتيش أن عزل نظار المكاتب الأميين ، وعين مكانهم أساتذة من علماء الأزهر ، كما قضت بذلك المادة الحادية عشرة من اللائحة .

وأخيراً ينبه المفتش على ناظر المكتب بالالتفات إلى عمله وحسن القيام على شئون مكتبه ، وبأن يرفع بانتظام إلى شورى المدارس تقارير وافية عن حالة مكتبه ، كما ينبه على المعلمين بالاجتهاد فى تعليم تلاميذهم . حتى إذا انتهى المفتش من هذا كله واطمأن إلى أن أوامره قد نفذت أو شرع فى تنفيذها ، غادر المكتب إلى مكتب آخر من مكاتب المديرية المندوب للتفتيش عنها ، ويجرى فيه ما أجراه فى (زميل) له من قبل : من إلغاء أو تنظيم .

وإذا ما انتهى المفتش من طوافه على مكاتب المديرية ، رفع إلى شورى المدارس تقريرا بما رأى وأنفذ . وكان الشورى يطلب إلى المفتشين أن يكتبوا تقاريرهم عن المكاتب التى يزورونها بإسهاب . فعليهم أن يظهروا بوضوح حالة كل مكتب وعدد تلاميذه ، وتوزيعهم على الفرق الدراسية الثلاث ، ودرجة معلومات كل منهم ، وعليهم أن يعلموا الشورى بالجهد الذى يبذله المعلمون

وسائر الموظفين ، وعما إذا كانت ملابس التلاميذ وطعامهم وفرشهم مطابقة للقانون أو غير مطابقة له ، وعن العناية التى توليها المدرسة لنظافة التلاميذ وإدارتهم . . . الخ .

ولشورى المدارس — بعد قراءة تقارير المفتش والتعقيب عليها من أحد الأعضاء — أن يقر المفتش فيما رأى من إلغاء أو إبقاء أولا يقره ، ثم يكتب إليه بما يرى ويقوم على تنفيذ ما أشار به المفتش : فيكتب إلى المدرسة التجهيزية بالفحص عمن يرد إليها من تلاميذ المكاتب تمهيدا لقبولهم أو رفضهم ، وإلى مدير المديرية بإكمال المكاتب التى تناقص عددها ، وإرسال التلاميذ الذين تقرر فصلهم إلى الجهات التى رئى إلحاقهم بها ، وإمداد المكاتب بما ينقص مخازنها من أثاث (وتعيينات) ، وأخيرا يرفع الشورى تقرير المفتش وقراره عليه إلى « الجناب العالى » ، حتى إذا ووفق عليه أعيد إلى الشورى لتنفيذ ما جاء به .

وقد يعود المفتش إلى المكاتب التى نظمها فيزورها مرة أخرى ليتحقق من نفاذ ما أمر به فى (الدورة الأولى) ، وليرى بنفسه كيف تسير المكاتب فى طور نهضتها الجديدة ، فيرشد القائمين على أمرها إلى ما يعنّ له من ضروب الإصلاح .

هذا هو التنظيم الإدارى والفنى لمكاتب المبتديان بالأقاليم . بقى التنظيم الصحى ، والواقع أن المكاتب كانت فى مسيس الحاجة إلى هـــذا التنظيم : فالإدارة الطبية المدرسية مهملة ، والأطباء موزعون على المدارس فى غير نظام ، فقد يخصص طبيب لمديرية ، فإذا به يستدعى لزيارة مكاتب مديرية أخرى ، ولم يكن ثمّ طبيب مسئول عن مكتب أو عدد من المكاتب يفحص عن تلامذتها من وقت لآخر ويتعهدهم بالعلاج ، وكان لهذا أثره فى قلة العناية بغذاء التلاميذ ولباسهم والأبنية التى يقيمون بها ليلهم ونهارهم ، مما جعل الأمراض تفشو بين التلاميذ . فلما أقدمت الحكومة على إصلاح مكاتب المبتديان على أيدى مفتشيها

بما سنت من لوائح وأصدرت من قرارات ، كان طبيعيا أن تقدم على تنظيم التفتيش الطبى عن هذه المكاتب على وجه يحقق العناية بها من الوجهة الصحية: فعين طبيب لكل مديرية يزور مكاتبها ويفحص عن تلاميذها ، كما عين (مفتش صحة) لكل من مكاتب الوجهين البحرى والقبلى، واليه ترفع تقارير الأطباء عن حالة مكاتبهم وعدد الذين قاموا بتطعيمهم من أبناء المديرية وأسمائهم.[١]

وكانت المكاتب التى أبقيت بعد ترتيب سنة ١٨٤١ أسعد حظا من زميلاتها قبل هذ التاريخ، إذ أن قلة عددها قد مكّن الحكومة من أن تعيّن على رأسها نظارا متخرجين فى مدرسة الطب ليديروا المدرسة ويعالجوا التلاميذ.

وبذلك تمّ (تنظيم) مكاتب المبتديان فنيا وإداريا وصحيا. ولكن ماهى المكاتب التى أبقت عليها الحكومة فى سنة ١٨٣٦ ونظمتها طبقا للوائح التى وضعتها إذ ذاك والتى تحدثنا عن إصلاحها فأطلنـــا الحديث ؟ هذا ما سنبينه فيما يلى[٢] :

مكاتب الوجه البحرى

مكاتب قسم أول الغربية : ألغى مكتب كفر بجر ونظمت مكاتب فوه والجعفرية وطنطا .

« « ثانى « : نظم مكتبا زفتى والمحلة الكبرى اللذان كانا بهذا القسم لأن كليهما بندر .

« « ثالث « : نظم مكتب نبروه وألغى مكتب كفر الشيخ .

« « أول الشرقية : « مكتبا الزقازيق وههيا وألغى مكتبا رأس الوادى وكفور نجم .

---

(١) دفتر ٢٠١٢ (مدارس تركى) س ٣ قرار شورى المدارس فى غاية صفر ١٢٥٢

(٢) سبق لنا فى حديثنا عن المكاتب فى طورها الأول أن أشرنا إلى الوثائق التى استخرجنا منها بيان هذه المكاتب فلا نعيد ذكرها هنا .

مكاتب قسم ثانى الشرقية : نظمت مكاتب بلبيس وميت العز والعزيزية .[١]

« المنوفية : رغب المفتش فى إلغاء مكتبى إبيار (الذى ذكره أمين باشا سامى من مكاتب الغربية خطأ) وأشمون (الذى كان فى بناء واحد مع مكتب منوف) ولكن شورى المدارس لم يوافق على ذلك لكثرة أهالى المنوفية فأبقاهما مع مكتبى شبين الكوم ومنوف .

مكاتب الدقهلية : نظمت مكاتب صهرجت وميت غمر والمنصورة ومحلة دمنة وشربين وضم مكتب فارسكور إلى مكتب شربين ومكتب المنزلة إلى مكتب محلة دمنة .

« الجيزة : نظم مكتب الجيزة ونقل مكتب البدرشين (لأنها قرية) إلى حلوان لطيب هوائها .

« القليوبية : نظم مكتبا قليوب وبنها وألغى مكتب طحا .

« البحيرة : « « دمنهور والنجيلة وألغى مكتبا الرحمانية وشبراخيت .

مكاتب الوجه القبلى

مكاتب قسم أول الأقاليم الوسطى : نظمت مكاتب بنى سويف وبوش والفيوم وألغى مكتبا بيا والعجمين .

---

(١) ذكر الدكتور بورنج فى الكشف الذى أورده عن مكاتب المبتديان (ص ١٢٧) أن مكاتب الشرقية خمسة وهى مكاتب بلبيس وميت العز والعزيزية والزقازيق وكفور نجم ، إلا أن المفتش فى تقريره (دفتر ٢٠١٠ مدارس تركى جلسة ٢٢ محرم ١٢٥٢) ذكر أن مكاتب الشرقية كلها قد خفضت إلى أربع (بمقتضى القانون) وأن مكتبى رأس الوادى وكفور نجم قد ألغيا ونظم مكتبا الزقازيق وهيا . وكذلك جاء بجلسة ٢ ربيع الثانى ١٢٥٢ (دفتر ٢٠٠٤) أن مكتب كفور نجم نقل لهيا لأنها بندر . أما عن مكاتب قسم ثانى الشرقية فلم نعثر على تقرير المفتش عنها فاعتمدنا على ما ذكره « بورنج » .

مكاتب قسم ثانى الأقاليم الوسطى : نظمت مكاتب الفشن وساقية موسى والمنيا وألغى مكتبا قلوصنا وبنى مزار ثم ألغى مكتب ساقية موسى وأعيد مكتب بنى مزار .

« « أول الوجه القبلى : نظمت مكاتب صنبو ومنفلوط وأسيوط وأبى تيج والساحل وطهطا وسوهاج وأخميم وجرجا ، وقرر لمكتب أسيوط مائتا تلميذ لكثرة أهالى البلد ، وألغى مكتب ملوى .

« « ثانى « « « نظمت مكاتب قامولة وإسنا وقنا وفرشوط فعددها جميعا خمسة وأربعون مكتبا موزعة كالآتى :

٣ مكاتب بقسم أول الغربية .

مكتبان « ثانى «

مكتب واحد « ثالث «

٤ مكاتب بالمنوفية .

٥ « بالدقهلية .

٤ « بالشرقية .

مكتبان بالجيزة .

« بالقليوبية .

« بالبحيرة .

٣ مكاتب بقسم أول الأقاليم الوسطى .

٣ « « ثانى « «

١٠ « « أول الوجه القبلى .

٤ « « ثانى « «

ومجموعها ٤٥ مكتبا بالأقاليم طبقا لما نصت عليه المادة الثانية من لائحة التعليم الابتدائى . على أن هناك التقرير الذى رفعه مدير ديوان المدارس فى ذلك الوقت إلى « بورنج » وأورده هذا فى كتابه [١] وقد جاء فيه أن مكاتب المبتديان كانت :

٣ مدارس بالقاهرة بها ٦٠٠ تلميذ .
مدرسة بالاسكندرية بها ٣٠٠ «
مدرسة بأسيوط بها ٢٠٠ «
٤٥ مدرسة بالأقاليم بكل منها ١٠٠ «
فمجموعها ٥٠ مدرسة بها جميعا ٥٥٠٠ تلميذ .

فكأنه أنقص مدارس القاهرة مدرسة أضافها إلى مدارس الأقاليم فأصبحت هذه ٤٦ مدرسة ، وقد يرجع هذا إلى ما ذكره « بورنج » من أن مدارس الشرقية خمس .

وعلى أى حال فهل ظلت هذه المكاتب الخمسة والأربعون أو الستة والأربعون جميعا قائمة حتى نهاية هذه المرحلة الثانية من تاريخ مكاتب المبتديان فى سنة ١٨٤١ ؟ ذلك ماسنعرض له الآن مستندين إلى الثبت الذى أورده « بورنج » والثبت الآخر الذى أرسله ديوان المدارس إلى ديوان المالية عن حساب مكاتب المبتديان التى كانت قائمة فى سنين مختلفة بين سنتى ١٢٥٣ و ١٢٥٩ الهجريتين ، [٢] ويتفق هذان الثبتان فى كثير من نواحيهما .

أما مكاتب الغربية فلم ينقص منها شىء ، وكذلك مكاتب المنوفية إلا مكتب أبيار فيقول « بورنج » إنه ضم إلى مكتب أشمون ، ولكن

(١) Bowring, Report on Egypt & Candia, P. 194.

(٢) دفتره ٤ (مدارس عربى) س٨٢٩ رقم ١٦٧ إلى ديوان المالية فى ٤ ذى الحجة ١٢٦٢

الراجح أن مكتب منوف هو الذى ضُم إلى مكتب أشمون ، فقد كانا يشغلان بناء واحدا ، وقد جاء ذكر ذلك فى تقرير المفتش الذى زار مكاتب المنوفية ونظمها ، وفى البيان الذى أرسله ديوان المدارس إلى ديوان المالية وأشرنا اليه آنفا .

أما مكاتب الدقهلية فألغى منها مكتبا صهرجت ومحلة دمنة ، إذ أغفلهما كل من تقرير « بورنج » وبيان الديوان ، إلا أن « بورنج » أضاف إلى مكاتب الدقهلية مكتب المنزلة ، أما كشف الديوان فيذكر مكتب فارسكور ، وكلا المكتبين — المنزلة وفارسكور — كانا قد ألغيا عند تنظيم المدارس فى سنة ١٨٣٦ .

ويستدل من تقرير « بورنج » عن مكاتب الشرقية ومن بيان الديوان إلغاء مكتب هيها والاستعاضة عنه بمكتب كفور نجم ، أما فى القليوبية فقد ضم مكتب بنها إلى مكتب قليوب ، ولذلك أغفله بيان الديوان .

أما عن مكاتب البحيرة فقد اتفق الرأى على بقاء مكتب النجيلة . وقد ضمَّ إليه مكتب شبراخيت على ما جاء فى بيان الديوان . أما مكتب دمنهور فقد أغفله هذا البيان ، وقال « بورنج » إنه ضم إلى مكتب الرحمانية ، والراجح أن مكتب دمنهور استبدل به مكتب الرحمانية الذى جاء ذكره فى تقرير « بورنج » وبيان الديوان .

أما مكاتب قسم أول الأقاليم الوسطى فاتفق المصدران على بقائها كما هى . أما مكاتب قسم ثانى الأقاليم الوسطى فألغى منها مكتب بنى مزار ، إذ ذكر « بورنج » أنه ضم إلى مكتب الفشن كما أغفله بيان الديوان ، والراجح أنه استعيض عنه بمكتب ساقية موسى الذى ذكره بيان الديوان وإن يكن بورنج قد أغفله . أما مكاتب نصف الوجه القبلى فالمصدران متفقان على بقائها كما هى .

وعلى ذلك كان أول نقص اعترى مكاتب الأقاليم أن نقص عددها من ٤٥ إلى ٤١ مكتباً وذلك بضم أربعة مكاتب إلى مكاتب أخرى على ما ذكر « بورنج » أو إلى ٤٢ مكتباً كما جاء بالبيان الذى أرسله ديوان المدارس إلى ديوان المالية .

ولكن هذه المكاتب لم يقدَّر لها جميعاً أن تظل قائمة إلى سنة ١٨٤١ ، فقد اعتراها نقص آخر : فألغى منها أربعة مكاتب — نجهل أسماءها — وأصبح عددها ثمانية وثلاثين مكتباً ،(١) كان نصيبها جميعاً الإلغاء فى « الترتيب الأول » سنة ١٨٤١ ، ثم أعيد افتتاح أربعة منها فى « الترتيب الثانى » فى ذلك العام أيضا . وقد ظلت هذه المكاتب الأربعة قائمة إلى سنة ١٨٤٩ حين انتهى أمرها على يد عباس باشا الأول .

أما مدارس القاهرة والاسكندرية فسنعرض لها بعد حين .

---

(١) دفتر ٢٠٩٤ (مدارس تركى) س ٣١ رقم ٢١٣ من الديوان إلى الباشا الكتخدا فى ٢٢ محرم سنة ١٢٦٢ .

الفصل الثالث

مكاتب المبتديان

١٨٤١ — ١٨٤٨

فى ٢٤ شعبان سنة ١٢٥٧ (١٨٤١ م) صدر أمر عال بالموافقة على (الترتيب) الذى وضعته اللجنة التى ألفت برياسة إبراهيم باشا لتنظيم التعليم فى مصر ، وكان الترتيب يقضى بإلغاء مكاتب المبتديان بالأقاليم والقاهرة ومدرستى الموسيقى والتجهيزية ، وتوزيع التلاميذ على فرق الجيش ، وعزل بعض الموظفين واستخدام الآخرين .[1]

ولسنا نعود إلى العوامل التى حملت الحكومة على اتخاذ هذا القرار فقد أوضحناها فيما كتبنا عن السياسة التعليمية . فقد أبنّا كيف أن محمد على بعد تسوية ١٨٤٠ — ١٨٤١ شعر بأن البناء الضخم الذى أقامه فى سنين متصلة من الجد والنصب قد أخذ يتداعى ، وأن آماله الشامخات قد تكسرت على صخرة المصالح الأجنبية ، فأخذت اليد العاملة المفكرة التى ظلت أعواما طوالا قابضة على مصائر الأمور تتراخى تحت ثقل اليأس والسنين ، وأخذت الدولة الفتية تنكمش : فأنقص الجيش بما يناسب الدولة بحدودها الجديدة وحاجاتها الجديدة ، وكان إنقاص الجيش إيذانا بانكماش النظام التعليمى ، فقد كان الجيش — فى بادىء الأمر — الباعث الأول لإنشاء المدارس الحربية والخصوصية ثم التجهيزية والابتدائية . حقا إن هذا الباعث الأول قد وضعته الحكومة جانبا أو تناسته بعض الشىء ، فاندفعت تكثر من مكاتب المبتديان

---

(١) دفتر ٢٠٧٠ (مدارس تركى) ص ٦٠ رقم ٢٥ أمر عال فى ٢٤ شعبان ١٢٥٧

وتجمع لها العدد الكبير من صبية القرى والبنادر والمدن ، يصيبون فيها من رفد الحكومة وتعليمها .

ولم يكن مندوحة لهذا العدد الكبير المتخرج فى هذه المكاتب أن يلحقوا بالمدارس التجهيزية ، وقد يصل غالبهم إلى المدارس الخصوصية ، ومنها إلى مختلف وظائف الحكومة . ولم يكن فى هذا ضَيْرٌ ما : فالدولة فتية ناشئة ، والحكومة تكثر من إنشاء الدواوين والمصالح والمنشئات المدنية والحربية والاقتصادية ما كان يستنفد هذا العدد من خريجى المدارس ، ولم يكن بالنسبة لمجموع المتعلمين فى الأمة ضئيلا .

ولكن الحرب تنتهى ، والجيش ينقص عدده ، وكثير من مصالح الحكومة ينكمش ، وميزانية الدولة تختل ، وخزانتها يجهدها طائل النفقات ، والعقل المدبر العامل يضنيه طول السهر ، فلم يكن بد للحكومة من أن تعيد النظر فى نظامها التعليمى على ضوء حاجاتها الجديدة .

والواقع أن الحكومة كانت تحار فى خريجى مدارس المبتديان : هل تنقلهم جميعا إلى المدرسة التجهيزية ؟ والمدرسة التجهيزية لم تلبث بعد إنشائها أن اكتظت بالعدد الكبير الذى ألحق بها حتى انتهى بها الأمر فى سنة ١٨٣٩ الى أن أغلقت باب الدخول فيها حتى يتخرج فيها فريق ممن اكتظت بهم .[١] وإذا وسعتهم التجهيزية فماذا بعدها ؟ وإذا وسعتهم المدارس الخصوصية فماذا بعدها ؟ ومجال العمل فى غير الحكومة ضيق بل منعدم ، فلا شك فى أن الحكومة كانت محرَجة ، وكانت تشعر بهذا الحرج ، فألفت لجنة وكلت إليها النظر فى النظام التعليمى كله ... وكان من ذلك كله الأمر العالى الصادر فى ٢٤ شعبان ١٢٥٧ والذى أجملناه فى صدر هذا الفصل .

---

(١) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص ٣٦ رقم ١٤٤٧ من ديوان المدارس إلى عبد القادر أفندى (ناظر مدرسة المبتديان بالقاهرة) فى ٩ ذى القعدة ١٢٥٥

ألغيت مكاتب المبتديان جميعا — سواء منها التى فى الأقاليم أو التى فى القاهرة ، وألغيت المدرسة التجهيزية ، ولكن بقيت المدارس الخصوصية : مدارس الطب البشرى والطب البيطرى والألسن والعمليات والمهندسخانة والمدارس الحربية .

فن أى مدرسة تستمد هذه المدارس حاجتها من التلاميذ ؟ حقا كان بهذه المدارس عدد من التلاميذ يكفيها لسنين عدة ، ولكن لابد لها آخر الأمر من تلاميذ جدد ، كان طبيعيا إذن أن تعود مدرسة التجهيزية لتعدّ التلاميذ للمدارس الخصوصية ، وكان طبيعيا كذلك أن تعيد الحكومة من مكاتب المبتديان التى ألغيت العددَ الذى يفى بالغرض الذى تبغيه الحكومة من إعداد التلاميذ للمدرسة التجهيزية ، وكان طبيعيا أن هذا الغرض لا يستلزم إلا عددا قليلا من مكاتب المبتديان ، وكان من ذلك كله (الترتيب الثانى) فى سنة ١٨٤١ وقد تمّ وضعه بعد الترتيب الأول بعدة شهور ، وهو الذى نظم التعليم فى مصر مرة أخرى بعد تنظيمه أول مرة فى سنة ١٢٥١ — ١٢٥٢ (١٨٣٦ — ١٨٣٧) .

أعادت اللجنة التى شُكلت لهذا الغرض نظرها فى التعليمين الابتدائى والتجهيزى ، ونظرت إليهما كوحدة أو كمرحلة من مراحل التعليم العام ، فرأت أن « يقتصر منها على افتتاح العدد الذى تمس الحاجة إليه سواء فى القاهرة أو فى الأقاليم ، باعتبار هذه المدارس (الابتدائية والتجهيزية) أصلا وأساسا للمدارس الخصوصية » .

« ولما كان واجبا أن يراعى فى تنسيق المدارس الابتدائية حاجة المدرسة التجهيزية ، فقد رأت اللجنة أن يكون عدد تلاميذها (تلاميذ المدارس الابتدائية) ٧٨٠ تلميذاً : منهم ٣٠٠ تلميذ بمدرسة الناصرية بحى السيدة زينب بالقاهرة ، وذلك لاتساع مكان هذه المدرسة لمثل هذا العدد ، وأن يفتتح

فى الأقاليم أربعة مكاتب : كل منها يحوى مائة وعشرين تلميذاً ، على أن يكون أحد هذه المكاتب فى أسيوط والآخر فى المنيا والثالث فى الجيزة والرابع فى ميت غمر » .

وهذه البلاد الأربعة كان بها مكاتب للمبتديان قبل سنة ١٨٤١ . ولكن الواقع أن الحكومة فى سنة ١٨٤١ لم تلق بالا إلى تلك المكاتب (القديمة) ، بل (أنشأت) أخرى جديدة ، فنص تقرير اللجنة على « أن يبدأ العام الأول بثلث النصاب (أى العدد القانونى من تلاميذ المكتب) أو بنحو نصفه ، ثم يكون فى العام الثانى زهاء الثلثين ، حتى إذا حل العام الثالث استوفت المكاتب كامل نصابها » .

لم نعد نسمع إذن أن الغرض الذى ترمى إليه الحكومة من إنشاء مكاتب المبتديان « تعليم وتثقيف أبناء العباد » (١) أو « نشر مبادئ العلوم بين الأهالى » ، (٢) بل أمامنا الآن غرض جلىّ واضح انتهى إليه رأى الحكومة بعد سنوات خمس من وضع نظامها التعليمى ، فقد كانت الحاجة إلى تلاميذ للمدرسة التجهيزية هى وحدها الباعث على إنشاء مكاتب أربعة بالأقاليم ومدرسة بالقاهرة . ولا شك فى أنها كلها كانت تكفى لإمداد التجهيزية بمن تحتاج إليه من تلاميذ تعدّهم بدورها لمختلف المدارس الخصوصية .

والواقع أن (هيكل) التعليم كما وضع فى سنة ١٨٣٦ ظل قائما فى سنة ١٨٤١ ومابعدها بدون تغيير ما ، ولكن الذى تغيرهو (الكمّ) لا (النوع): فمراحل التعليم من ابتدائية إلى تجهيزية إلى خصوصية ظلت هى هى لم تتغير ، وكل ما فى الأمر أن مكاتب المبتديان بالأقاليم أنقص عددها من سبعة وستين

---

(١) دفتر ٥٨ (معية) رقم ٥٩٢ إلى محرم أغا فى ١٩ ذى القعدة ١٢٤٩

(٢) بند (١) من لائحة التعليم الابتدائى .

مكتبا فى سنة ١٨٣٦ إلى خمسة وأربعين مكتبا فى سنة ١٨٣٧ ، ثم إلى ثمانية وثلاثين فى أوائل سنة ١٨٤١ ، وأخيراً إلى أربعة مكاتب من سنة ١٨٤١ إلى نهاية عصر محمد على .

حقا لقد زيد عدد تلاميذ كل مكتب من مائة تلميذ إلى مائة وعشرين ، ولكن الضربة كانت قوية : فقد كان يتردد على مكاتب المبتديان بالأقاليم والقاهرة طبقا للوائح سنة ١٨٣٦ — ٥٥٠٠ تلميذ موزعين على مختلف جهات القطر ، أما فى لوائح سنة ١٨٤١ فالمترددون عليها لا يعدون ٧٨٠ تلميذا ، أى أقل من سدس النصاب الأول . وأكبر الظن أن المديريات البعيدة لم يكن لأطفالها أدنى نصيب فى هذه المكاتب ، فالوجه القبلى من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه لم يكن به إلا مكتبان : أحدهما فى أسيوط — وقد أنقص عدد تلاميذه من مائتى تلميذ إلى مائة وعشرين — والآخر فى المنيا . وكذلك الوجه البحرى لم يكن به إلا مكتبان اثنان : أحدهما فى ميت غمر والثانى فى الجيزة . بذلك خفت النور الذى ظل سنوات مضيئا فى ريف مصر وحضرها ، يرسل أشعة من العلم والتربية تبدد من ظلمات الجهل التى اشتملت البلاد قرونا عدة ، لا بل انطفأ ذلك النور فى نواح عدة من البلاد . إذ حرمت قرى وبلاد كثيرة من مكاتب « حكومية » يختلف إليها الأطفال ، وإن بقيت لها دون شك « كتاتيبها » الأهلية ويقوم على شأنها الفقهاء .

ولكن تلك المكاتب الأربعة لم تعش إلى نهاية عصر محمد على فى البلاد التى أنشئت بها فى سنة ١٨٤١ : فمكتب المنيا لم يلبث أن نقل الى بوش فى تاريخ سابق لسنة ١٨٤٤ (١٢٦٠ هـ) . فمنذ هذه السنة التى تبدأ فيها سجلات ديوان المدارس العربية لا نسمع شيئا عن مكتب المنيا ، بل كثرت (الإفادات) إلى مكتب بوش . وكذلك فى جمادى الأولى من سنة ١٢٦١ (١٨٤٥ م) نقل

مكتب الجيزة إلى أبى زعبل فى البناء الذى كانت تشغله مدرسة الطب البيطرى،[١] وفى أواخر شوال سنة ١٢٦٣ (١٨٤٧م) نقل مكتب ميت غمر إلى الزقازيق بعد أن ارتفعت الشكوى من « تخرب » المكتب الأول.[٢]

وكان تلاميذ مكتب الجيزة — الذى نقل إلى أبى زعبل — يؤخذون من مديريات المنوفية والقليوبية والجيزة،[٣] وتلاميذ مكتب ميت غمر يؤخذون من مديريات الدقهلية والغربية والشرقية[٤]، أما تلاميذ مديريات الوجه القبلى فكانوا موزعين بين مكتبى أسيوط وبوش. وكانت كل مديرية توزع مايخصها من محال المكتب الشاغرة على النواحى التابعة لها.[٥]

أما علاقة المكاتب بالمديريات من جهة وبديوان المدارس من جهة أخرى فقد ظلت كما كانت قبل سنة ١٨٤١: للمديريات الشئون المالية، وللديوان الشئون الفنية، فعلى المديريات أن تمد المكاتب بجميع ما يلزمها من أدوات وكساء وغذاء ومرتبات، ولذلك لم تكن ميزانية مكاتب الأقاليم تدرج ضمن الميزانية العامة لديوان المدارس.

أما الديوان فله الإشراف على سير الدراسة فيها،[٦] فهو الذى يحدد مناهج الدراسة، وهو الذى يعين موظفيها وينقلهم أو يعزلهم، وهو الذى يشرف على امتحاناتها، ويقرّ توزيع التلاميذ على فرقها الدراسية، وإليه ترفع تقارير المفتشين والنظار عن سير الدراسة بمكاتبهم.

---

(١) دفتر ٥ (مدارس عربى) ص ٢٥٠١ وثيقة رقم ٨٦ بتاريخ ١٨ جاداأول ١٢٦١

(٢) دفتر ٦٢ (مدارس عربى) ص ٣٥٦١ رقم ١٩٠ إلى مكتب ميت غمر فى ١٦ رجب ١٢٦٣
ودفتر ٨٢ (مدارس عربى) ص ٣٦٤ رقم ٣٥ إلى مديرية الشرقية فى ٢ ذى القعدة ١٢٦٣

(٣) دفتر ١٠ (مدارس عربى) ص ٢٠٤٦ رقم ٦٢ إلى مكتب الجيزة فى ١٣ صفر ١٢٦١

(٤) دفتر ٢٦ (مدرس عربى) ص ٣٩٠ رقم ١٧ إلى مكتب ميت غمر فى ٢٢ ذى القعدة ١٢٦١

(٥) دفتر ٢ (مدارس عربى) ص ٥٧٤ رقم ٥٦ إلى مديرية الجيزة وأطفيح فى ١٠ ذى القعدة ١٢٦٠

(٦) دفتر ٣ (مدارس عربى) ص ٨٩٥ رقم ٢٣٤ من ديوان المالية فى ٢٦ محرم ١٢٦١

على أنا لا يجب أن نغفل حقيقة هامة : وهى أن قلة عدد هذه المكاتب قد مكّن الحكومة من أن تحسن القيام على شأنها ، مكّنها من أن تقدم لتلاميذها طائفة من الكتب الحديثة فى الجغرافيا والأخلاق والهندسة والحساب ، ومكّنها من أن ترسل إلى المكاتب جميعاً فى نهاية العام الدراسى لجنة لامتحان تلامذتها ونقلهم من فرقة إلى أخرى ، أو من الفرقة الأولى النهائية إلى الفرقة الرابعة بالمدرسة التجهيزية ، ومكّنها فوق هذا من أن تعين لهذه المكاتب رجالا أصلح ممن سبقوهم فى القيام بعملهم : فناظر المكتب أصبح يختار من خريجى مدرسة الطب البشرى ، فكان يقوم « بإدارة المكتب ومداواة التلاميذ »،[1] أى أنه يقوم بما يستلزمه المكتب من شئون إدارية وصحية معاً ، وأصبح لكل مكتب مستشفى وصيدلية لعلاج التلاميذ . أما الإشراف الفنى على سير الدراسة بالمكتب فترك للمدرس الأول أو «الباشخوجة»، كما كان يسمى فى ذلك العصر ، فله الإشراف على المدرسين وتنظيم الدروس التى يتلقاها التلاميذ ، كما كان يقوم أحياناً بالتدريس للفرق النهائية .[2]

وبدأت الحكومة تدرك أن الغرض من هذه المكاتب ليس القراءة والتعليم فقط ، بل هى « مراكز للانسانية والتربية أيضا » .[3] وبهذه الروح الطيبة أزمعت الحكومة رفع المستوى الأدنى لهذه المكاتب ، وكان تلاميذ المكاتب يفترشون وقت الدرس « أنخاخا » من الحلفاء فأمر الديوان بأن يستبدل بها مقاعد من خشب يجلسون عليها ،[4] وكان التلاميذ يفترشون لنومهم الحصر والسجاجيد فاستبدل بها سرر من حديد ،[5] وبعد أن كان

---

(١) دفتر ١ (مدارس عربى) س ١١٦ رقم ١٩ إلى شورى الأطباء فى ٩ شوال ١٢٦٠.

(٢) دفتر ٢٠٠٦ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢ جماد أول ١٢٥٢

(٣) دفتر ٢٠٩٦ (مدارس تركى) س ١٩٦ رقم ٧٩٦ إلى كامل بك فى ٢٦ ذى الحجة ١٢٦٠

(٤) دفتر ٨ (مدارس عربى) س ٣٦٤ رقم ٢٤ الى مكتب أسيوط فى ٧ ذى القعدة ١٢٦٠

(٥) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) س ٣٦ رقم ١٤٤٧ مدرسة المبتديان فى ٩ ذى القعدة ١٢٥٥.

تلاميذ المبتديان لا يتذوقون اللحم إلا يوم الجمعة من كل أسبوع ، ولا يتناولون في طعامهم إلا العدس والفول ، أمر الديوان أن يطعموا من اللحم والخضر يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ، ولما رئى أن ملابس التلاميذ التى فرضتها لهم الحكومة لا تقيهم برد الشتاء ، قرر الديوان أن يصرف لكل منهم فى كل عام (صديريان) من البفتة .[1]

ولا شك فى أن هذا كله كان يمهد لتلاميذ المكاتب تعليما صالحاً وحياة طيبة ، يفوقان ماعرفه منهما زملاؤهم الذين سبقوهم فى هذه المكاتب .

المكتب المستجد

لم يقتصر التجديد فى التعليم الابتدائى على ما ذكرنا من نوم التلاميذ وغذائهم وكسائهم وجلوسهم وقت الدرس ، واتباع النظم الأوربية ، فى تعليمهم : كوقوف التلاميذ حينا فى حلقة حول اللوحات الحائطية يقرءون ما كتب عليها ، أوجلوسهم إلى مقاعدهم الخشبية يكتبون ، وإنشاء قسم خارجى بمدرسة المبتديان يحمل عن الحكومة بعض ماكانت تتكلف فى إعداد التلاميذ من جهد وعناء ، لم يقتصر التجديد على هذا كله ، والواقع أن هذا التجديد كله — على قيمته وجدواه وشدة الحاجة إليه — لا يعدو مظاهر الأشياء ولا يصل إلى صميم التعليم فى مكاتب المبتديان ، فالدراسة فى مجموعها لا تزال دراسة كتب ، بل كتب (أزهرية) لا تلائم ما يتطلبه الإعداد للتعليم العالى من تفتيق للذهن وحثّ على التفكير ، وما تتطلبه الطفولة من غذاء على يتناسب وقدراتها العقلية والجسمية ، وما يزال الروح الدينى المسيطر على مكاتب المبتديان قويا إلى الحد الذى يجعل حفظ آى الذكر الحكيم يستغرق أكبر قسط من وقت التلميذ .

---

(١) دفتر ٨٣ (مدارس عربى) ص ٤١٢ رقم ٣٣ الى اللمبة الخديوية فى ١١ ذى القعدة ١٢٦٣ .

وما كان الشعب محتاجا ليثقف — فى ذلك الوقت أو فى غيره من الأوقات — إلى أن يقرأ الأزهرية أو السنوسية أو الكفراوى ، أو ينفق أعظم شطر من طفولته فى حفظ القرآن ، لم يكن الشعب محتاجا إلى شىء من هذا بقدر حاجته إلى حذق القراءة والكتابة والإلمام بطرف من المواد « الحديثة » كالحساب والجغرافيا والرسم . وما كان لطرق الدراسة الأزهرية القديمة القائمة على قراءة الكتب والحفظ والاستظهار أن تقوم بشىء مما يتطلبه تدريس هذه المواد ، فظهرت الحاجة ماسة إلى طرق « جديدة » ورجال « جديدين » .

أما الرجال فقد وجدتهم الحكومة من خريجى بعثاتها أو بعض مدرسيها (القدامى) الذين عرفوا (بالتجديد) فاعتمدت عليهم . أما الطرق الجديدة فلم يكن عندها منها شىء ، فولت وجهها شطر أوربا ونظم التعليم الأوربى ، تقتبس منها ما يتفق وأغراضها الجديدة .

وقد ولت الحكومة هذه المرة وجهها نحو التعليم الانجليزى ، واقتبست من نظمه الطريقة المسماة طريقة لانكستر « Lancaster » أو تعليم العُرَفاء (أو القلفوات) « Monitorial System » .

ولكن الحكومة لم تكن متعجلة ، وكانت تشعر أن اقتباسها هذا النظام لا يعدو أن يكون تجربة قد يصيبها الإخفاق بقدر ما يصيبها النجاح ، وكانت الحكومة تريد أن تثبت أقدامها قبل أن تخطو ، لهذا كله آثرت الحكومة أن تنشىء مكتبا دعته « المكتب المستجد » وألحقته بمدرسة المبتديان بالقاهرة ، لتطبق فيه هذه النظم الأوربية الجديدة ، حتى إذا نجحت التجربة وآتت ثمارها أنشأت على غراره مكاتب تحذو حذوه وتقفو أثره فى تعليم الناس وتهذيبهم .

طريقة لانكستر [1]

وقبل أن نتحدث عن المكتب « المستجد » أو « التجريبي » يحسن أن نكتب كلمة مختصرة عن طريقة « لانكستر » فى تعليم الأطفال .

المدرسة عبارة عن حجرة واسعة تمتد فى وسطها صفوف طويلة من المقاعد ، بينها وبين الحوائط ممرات من جميع الجوانب ، وفى هذه الممرات أنصاف دوائر مرسومة ، كل نصف دائرة تَسَعُ عشرة تلاميذ أو ثمانية ، وتلاميذ كل صف ينقسمون فريقين ، وكل فريق تحت رئاسة عريف (Monitor) وهو التلميذ المدرس ، والتلاميذ يقفون فى دروسهم كلها ولا يجلسون إلى مقاعدهم إلا وقت الكتابة .

ورأى « لانكستر » أن استعمال الكتب يقتضى نفقات كثيرة لأنها سريعة العطب ، فاستعمل لوحات للقراءة وللحساب . وحجم اللوحة ١٧ × ١٠ بوصات تطبع بحروف كبيرة وتلصق على ورق سميك (كرتون) وبذلك تدوم وقتا طويلا ، وتعلق اللوحات على الحوائط وحولها يجتمع الفريق من التلاميذ (نصف الصف) وكان التلاميذ يقسمون إلى ثمان فرق (أقسام Groups) فى دروس القراءة ، وعشر فى دروس الحساب . فتعليم الحساب لا يبدأ إلا حين يصل الطفل إلى الفرقة الخامسة فى القراءة . والتنافس أبرز مميزات طريقة لانكستر ، فمركز التلميذ فى الفصل يتغير تبعا لما يبديه من الجد أو التكاسل .

وقد وضع « لانكستر » نظاما محددا لكل شىء : فللسير من المقاعد إلى اللوحات نظام ، ولكل مقعد نمرته ، ونمرة اللوحة على الحائط ، والتلاميذ حين يكتبون يبدءون فى وقت واحد وينتهون فى وقت واحد ، وهم يكتبون

---

(١) اقتبسنا ما ذكرناه عن هذه الطريقة من Birchenough, Hist. of Elementary Education, p. 284—296.

جميعا حروفا أو كلمات واحدة . فمدرسة لانكستر تشبه «آلة» كبيرة تدور بانتظام ، وهى لذلك محتاجة إلى عدد كبير من العرفاء ليقوموا على إدارة هذه «الآلة» ، فهناك بجانب العرفاء الذين يدرسون ، عرفاء آخرون لحفظ النظام وآخرون لإصلاح أقلام التلاميذ ، وآخرون للبحث عن الغائبين ، وآخرون يشرفون على مايكتبه التلاميذ ويقرءونه . ولكن التعليم فيها آلى محض يعنى أكبر العناية بأن يحسن التلاميذ القراءة والكتابة بطريقة آلية ، من غير اهتمام بأن يفهم التلاميذ ماقرءوا أو كتبوا ، فالقراءة مجرد ترديد لحروف أو مقاطع أوكلمات ، والحساب ترديد لأرقام ، أما الكتابة فالاهتمام فيها موجه إلى إجادة الخط والهجاء ، و (الإنشاء) ليس لها مكان فى برنامج الدراسة ، ولم يكن للمدرس مجال لإيضاح دروسه بالقصص أو الوصف ، فالدروس عبارة عن أسئلة جافة تلقى من كتب بيد العرفاء ، والإجابة عنها يجب أن تعيها ذاكرة التلميذ .

واهتمام مدرسة «لانكستر» موجه إلى إجادة التلميذ القراءة ، فهى المحور الذى تدور حوله (المواد) الأخرى . ولكن القراءة لم تكن يهتم بها كوسيلة لتفهم الدروس ، بل كان يهتم بها لذاتها . وكان التلميذ يبدأ بأحرف الهجاء ، وكلما أجاد الهجاء تقدم فى القراءة ثم الكتابة . فالهجاء والقراءة والكتابة تسير جنبا إلى جنب .

والآن نأخذ مثلا لمدرسة انجليزية تسير على طريقة لانكستر ، ونشرح الطريقة التى كانوا يتبعونها فى تعليم القراءة والكتابة والحساب ، وهى المواد الثلاث التى تقوم عليها هذه الطريقة :

طريقة تعليم القراءة والكتابة : يبدأ التلميذ بتعلم أحرف الهجاء وتخطيطها على الرمل ، ثم ينتقل الى هجاء مقاطع أو كلمات من حرفين ، ثم من ثلاثة وهكذا مع كتابتها على لوحه ثم بالمداد على الورق ، وكذلك فى القراءة :

يبدأ بقراءة مقطع من حرفين ثم من ثلاثة (كَ — تَ — بَ كَتَبَ) ثم ينتقل إلى قراءة جملة مكونة من عدة كلمات مثل (كتب محمد الدرس) بأن ينطق التلاميذ كل كلمة حرفا حرفا ثم الكلمة مرة واحدة ، أو ينطق التلاميذ الكلمة أولا ثم يتهجونها حرفا حرفا حتى تتم الجملة . وكتب القراءة المستعملة فى المدرسة كتاب فى الهجاء و « العهد القديم » . ولجذب انتباه التلاميذ كانوا يكلفون بأن يتهجى كل منهم على التوالى حرفا واحدا من كل كلمة، فإذا أخطأ أحد منهم دوره فقد مكانه بين التلاميذ .

أما فى الحساب : فيبدأ التلميذ بتعلم العدّ والربط بين الأرقام، ثم ينتقل الى تعلم جمع وطرح وضرب وقسمة أعداد بسيطة عكسا وطردا ، ثم تطبيق ذلك على أعداد مركبة مع بذل العناية بتمرين التلاميذ على جمع وطرح وضرب وقسمة أعداد متشابهة مع التغيير فى وضعها (مثل ٩ + ٦٦٦ + ٩ = ١٥ و ١٥ — ٦ و ١٥ — ٩ وهكذا) .

هذه هى طريقة التعليم فى المدارس التى تسير على طريقة « لانكستر » ، وقد انتشرت انتشارا كبيرا فى انجلترا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وهى طريقة (رخيصة) إذا قورنت بغيرها : فالمدرسة لاتحتاج إلا لعدد قليل من المدرسين الذين ينحصر عملهم فى الإشراف فقط ، أما الجزء الأكبر من عبء التدريس فيقوم به « العرفاء » : وهم المتقدمون من التلاميذ ، إذ كان « لانكستر » يقول « كل تلميذ يعرف القراءة يستطيع أن يعلم . . حتى إذا لم يعرف عن التعليم شيئا » .

والتلاميذ فى « طريقة لانكستر » يتعلمون مبادىء الخضوع والطاعة والنظام ، « فكل طفل له مكانه وكل ساعة لها عملها » ، والتلاميذ يشعرون بالواجب وهم يقومون به لا خوفا من العقاب البدنى كما تفعل المدارس الأخرى ، بل أملا فى حسن الجزاء وخوفا من العار الذى يصيبه المذنب ، وفى مدرسة

« لانكستر » يستبدل التلاميذ بالخمول نشاطا وحركة .

ولسنا الآن بسبيل نقد طريقة لانكستر ونكتفى بأن نقول إن التعليم فيها آلى جاف ، يعنى أكبر العناية بالشكل دون المادة وبالمظهر دون المحتوى ، والنظام قاس يحول دون المرونة والأخذ بالآراء الحديثة ، هذا إلى أن مواد الدراسة بسيطة وطرق تدريسها عتيقة . ولكننا نذكر أنها عاونت إلى حد كبير فى تيسير التعليم لأبناء الشعب ، وأمدت الأطفال بقسط من الفضائل الاجتماعية كانت المدارس فى ذلك الوقت فى أشد الحاجة إليها كالنظام والطاعة والإخلاص .

وقد جذبت هذه الطريقة انتباه بعض المفكرين والراغبين فى نشر التعليم فى فرنسا ، فاهتموا لها وأقبلوا على درسها وإدخالها فى بلادهم منذ سنة ١٨١٤ . ففى عهد « المائة يوم » رأى وزير الداخلية أنها (رخيصة) إذ أن معلما واحداً يكفى لتعليم عدد كبير من الأطفال ، فنال إذناً من الأمبراطور بفتح مدرسة (تجريبية) تتبع طريقة « التعليم المتبادل » أو « تعليم العرفاء » . ثم أخذت المدارس التى تسير على هذه الطريقة تنتشر فى المدن والقرى ، وتُعدّ الأصل الذى نبع منه التعليم الأولى المدنى فى فرنسا .

هذه هى طريقة « لانكستر » التى شرعت مصر فى اقتباسها فى نحو منتصف القرن التاسع عشر . وأنشأت لتجربها مكتبا « مستجدا » أو « فصولا تجريبية » ألحقتها بمدرسة المبتديان بالناصرية [1] : ذلك لأنه « ظهر فى انجلترا

(١) الوثائق الخاصة بهذا المكتب « التجريبى » أو « الأنموذجى » هى :

ا — دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركى) ورقة ٩٤ رقم ٢٤٠٤ الى مدرسة المبتديان فى ١٥ ذى الحجة ١٢٥٩

ب — دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركى) ص ٨٥ رقم ٢٣٠٤ الى شورى المعاونة فى ٢٨ ذى القعدة ١٢٥٩

ج — دفتر ٢٠٩٦ (مدارس تركى) ص ١٦٢ رقم ٥٨٨ إلى كامل بك فى ٢١ ذى القعدة ١٢٦٠

د — دفتر ٢٠٩٧ (مدارس تركى) ص ١٥٩ رقم ٧٥١ إلى كامل باشا فى ٢ محرم ١٢٦٢

أنها الوسيلة الوحيدة لتعليم الشعب القراءة والكتابة . وحصوله على التربية الإنسانية من أسهل طريق وفى أقصر وقت » ، وهذا الأسلوب « هو السائد فى أكثر مكاتب انجلترا ، إذ يوجد منها فى لندن وحدها ١١٠ مكتبا ولم تلبث فرنسا أن اقتدت بها فانتشر فيها هذا النوع من التعليم » .

وكان ديوان المدارس يرى فى هذا « المكتب التجريبى » أنموذجاً وتجربة يأمل لها النجاح ، إذ « لدى تمركزها وتأسسها يكون النفع عاما وتحصل ثمرة من هذه المسألة الخيرية » ، لذلك كان الديوان يحث دائما القائمين على شئون هذا المكتب بسرعة استكماله ، حتى تُطبَّق طرقه فى المكاتب الأخرى ، ويتوقع له حين استكماله إقبالا عظيما من الأهالى .

أنشىء المكتب فى سنة ١٨٤٣ وبلغ عدد تلامذته بعد إنشائه بعامين خمسة وثلاثين تلميذاً ، ثم ارتفع العدد إلى ستة وخمسين ، ثم إلى تسعة وخمسين تلميذاً . وكان منهم تلاميذ بالقسم الخارجى ، فهم يذهبون إلى المكتب نهاراً ويأوون إلى أهلهم ليلا . أن كانوا من أولاد العلماء أو « الذوات » ممن ليسوا فى حاجة إلى قيام الحكومة على شئونهم من لباس وغذاء . وقد أنشىء المكتب على أن يقسم تلاميذه إلى ثمان فرق ، لم تتم منها بعد إنشائه بثلاثة أعوام سوى الفرق الست الأولى ، أما الفرقتان السابعة والثامنة فلم يتم إنشاؤهما « لعدم استكمال اللوحات الخاصة بهما » .

ويدرس به التلاميذ « القراءة والكتابة والحساب والرسم وقواعد اللغة وما شابه ذلك من سائر الأمور التى يجب تثقيف الناس عامة بها فى صباهم ، بحيث يتم تعليم الصبية «على أحسن وجه وفى أقل وقت» ، ولم يكونوا يدرسون فى الفرق الست الأولى سوى القراءة والكتابة والحساب (The Three R'S.) ثم أضيف إليها النحو والدين ، أما الرسم فأجل تدريسه إلى الفرقتين السابعة والثامنة . ومن مواد الدراسة « الحديثة » به التى لا نجدها فى المدارس

الابتدائية الأخرى « الجمناستك » أو الرياضة البدنية .[١]

أما طريقة الدراسة فهى المتبعة فى « طريقة لانكستر » ، وهى طريقة اللوحات المثبتة على الحوائط . وكان التلاميذ يقفون حلقة حولها يقرءون ما عليها من حروف وأرقام . وكان الديوان يرى فى وقوف التلاميذ حلقة حول اللوحات سبباً لتمتعهم بالصحة والنشاط . وكان مدرس الرسم بالمكتب ، وهو متخرج فى المهندسخانة ، يترجم لوحات الحساب من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية ويخططها ، وكذلك كان مدرس اللغة العربية الشيخ يشترك فى تنظيم اللوحات . أما العرفاء وهم الذين يقع على كاهلهم الشطر الأكبر من التدريس للتلاميذ ، فالوثائق التى تتحدث عن هذا المكتب لا تشير إليهم ، كما أنها لا تبسط الكلام عن اللوحات ومواد الدراسة .

وكان الديوان يرى أن القائمين على شئون هذا المكتب يجب أن تتوافر لهم كفايات خاصة : إذ أن عليهم أن (يمَصّروا) طريقة اللوحات باستعمال الحروف والأرقام وقطع المطالعة العربية محل الأجنبية ، والقرآن محل الإنجيل . لذلك نُدِبَ أحد معاونى الديوان ويدعى « عبدالرحمن أفندى » — وقد درس هذه الطريقة فى انجلترا — للإشراف على تطبيق الطرق الجديدة بالمكتب[٢] . وقد ظهر من نتيجة الامتحان « رغماً من حداثة المدرسة أن المعاون المذكور شمر عن ساعد الجد والاجتهاد . ونظم المكتب وأمكنه أن يوصل التلاميذ إلى الفرقتين الخامسة والرابعة (ثم السادسة) وأنه قام بما عليه من الواجبات » .

أما المدرسون فقد انتقاهم الديوان ممن عرفوا بالكفاية والتجديد : فمدرس الرسم فيه متخرج فى مدرسة المهندسخانة ، حتى إذا نقل حل محله مدرس

---

(١) دفتر ٩٣ (مدارس عربى) ص ١٠٦ رقم ١٣ إلى المكتب العالى فى ٢٥ شوال ١٢٦٣

(٢) بحثنا فى مؤلف سمو الأمير عمر طوسون عن البعثات العلمية وفى سجلات الحكومة التى أتيح لنا الاطلاع عليها عن « عبد الرحمن أفندى » هذا فلم نعثر له على أثر .

متخرج فى مدارس انجلترا ، أما مدرس القراءة والكتابة والنحو والحساب فشيخ « مجتهد يميل للتجديد ويشتغل بتأليف الكتب ، وقد اشترك فى تنظيم لوحات المكتب وأظهر نتيجة حسنة فى الامتحان » .

ولما رأى الديوان أن العمل يسير ببطء وأن اللوحات لم تتم ، وبالتالى لم يستكمل المكتب فرقه الثمانية ، كوّن مجلسا « لتنظيم المكتب وإكماله » مؤلفا من البكباشى رأفت أفندى وعبد الرحمن أفندى المعاونين بالديوان والشيخ عبدالله القحافى معلم المكتب وشكرى أفندى مدرس اللغة التركية فى مدرسة المبتديان » ، على أن ينعقد المجلس فى كل شهر للنظر فى شئون المكتب وإحالة أمر تنظيم طرقه الأصلية وتنفيذها بعد الاتفاق عليها إلى رأفت أفندى ومعلم المكتب » .

وكان تلاميذ المكتب يمتحنون كتلاميذ المدارس الأخرى ، أمام لجنة امتحان مدرسة المبتديان ، وترسل بنتائجهم التقارير الى الديوان والى شورى المعاونة .

هذا هو المكتب « المستجد » أو « التجريبى » أو « الأنموذجى » الذى أنشىء فى مصر ليكون نموذجا ووسيلة لتطبيق طريقة جديدة ، حتى إذا نجحت عممتها الحكومة فى المكاتب الأخرى ، وأنشأت مكاتب جديدة على مثاله . والباحث فى الغرض من إنشائه وفى مواد الدراسة التى تدرس فيه وفى طرق تدريسها يجد فروقا كبيرة بينـــه وبين مكاتب المبتديان الأخرى التى ترمى إلى مجرد إعداد التلاميذ للتعليم التجهيزى . أما الغرض من المكتب (المستجد) فنشر التعليم بين الأهالى « من أسهل طريق وفى أقصر وقت » ، فالتلاميذ الذين يلتحقون به لا يصيبون من التعليم إلا ما يمكّنهم من القراءة والكتابة والإلمام بمبادىء الحساب ، أما الكتب (الأزهرية) التى يقرؤها تلاميذ المكاتب الابتدائية الأخرى ، أما تحفيظ

القرآن — وهو الذى يحتل من يومهم الدراسى نحو نصفه — فلا نجد له أثراً فى المكتب الجديد .

فهو لا يأخذ تلاميذه إلا بأوليات من العلم جوهرية فى مكافحة الأمية ، ولسنا نعلم على وجه التحقيق مدة الدراسة بالمكتب ، على أن هذه الأوليات لا تقتضى من التلميذ وقتا طويلا ، وليس الغرض منها أن تعدّ التلاميذ للتعليم التجهيزى ، إنما الغرض منها نشر التعليم الأولى بين الشعب . فهذا غرض جديد تنزع إليه الحكومة وتنهض لتحقيقه .

والطريقة (القديمة) تحتاج إلى عدد كبير من المدرسين ، لأن المدرسين يقومون فيها بالعمل كله ، أما الطريقة (الجديدة) فلا تحتاج إلا إلى عدد قليل منهم ، لأن التلاميذ العرفاء يقومون بالشطر الأكبر من العمل : ففى الطريقة (القديمة) يلزم لكل أربعين تلميذاً مدرس ، أما فى الطريقة (الجديدة) فلكل مائة منهم مدرس واحد .[1] والتلاميذ فى المكتب (المستجد) تتاح لهم الفرصة للحركة والنشاط : إذ يجلسون آنا إلى مقاعدهم ، وينطلقون آنا آخر إلى اللوحات ، ويقرءون بصوت عال ، ويشتركون فى تفهم الدروس التى تلق عليهم . أما تلاميذ المكاتب الأخرى (القديمة) فيجلسون على الأرض جلسة لا تتوافر لها الشرائط الصحية ، صامتين يستمعون إلى مدرسيهم فى خمول وكسل ، ولا تعلو أصواتهم إلا حين يتلون القرآن فتختلط أصواتهم بعضها ببعض .

لسنا نعلم على وجه التحقيق متى استكمل المكتب «المستجد» فرقه الثمانية ، ولكنا نعلم أن ديوان المدارس قد اطمأن إلى طرقه (الجديدة) وأزمع إدخالها فى المكاتب الابتدائية الموجودة ، كما أزمع إنشاء مكاتب جديدة تسير على

---

(١) دفتر ٩٣ (مدارس عربى) ص ١٦ رقم ١٠٦ الى المكتب العالى فى ١٨ شوال ١٢٦٣

نظامه لنشر التعليم بين الأهالى، دعيت مكاتب « الملة » . ولكن هذه الحركة لم تبدأ إلا حين بدأ عصر محمد على ومن بعده إبراهيم فى الأفول .

لما شرعت الحكومة فى تحويل المكاتب الابتدائية إلى النظام الجديد أقفلت باب الدخول فيها،[1] وحرمت تلامذتها العطلة ، لأنه « الآن جارى ترتيب المكاتب » ،[2] كما أوقفت تعيين المدرسين لئلا تضيق بهم بعد التنظيم الجديد الذى لا يقتضى إلا عددا قليلا منهم ،[3] على أن هذه (النهضة) لم تكن إلا فى الشهور الأخيرة من حياة إبراهيم، وبموته لم تتح لها الحياة .

مكاتب الملة

فى أوائل سنة ١٢٦٣ (١٨٤٧ م) صدر الأمر العالى بإنشاء مدرسة فى كل قسم من أقسام القاهرة الثمانية « حسب الأصول الحديثة المرعية فى أوربا » ، وفى ذلك الوقت أحيلت نظارة وقف الحرمين إلى عهدة مدير ديوان المدارس، فشرع فى تنظيم مكاتب « الملة » مستعينا بغلة هذا الوقف . وكانت الحكومة — حكومة إبراهيم باشا — مهتمة بانشائها أكبر اهتمام ، « لأن تنظيم المدارس للأولاد من المسائل المعتنى بها لتعليم وتربية شعبنا وتقدمه ... وقد علم من مطالعة جريدة الوقائع الاستامبولية بأنه صار الشروع فى تنظيم مدارس عمومية للأولاد » .[4]

أما « الأصول الحديثة المرعية فى أوربا » فلا تخرج عن نظام « لانكستر » الذى طبق فى المكتب « المستجد » ثم شرع فى تطبيقه فى المكاتب الأخرى .

---

(١) دفتر ١١٧ (مدارس عربى) ص ٢١٨ رقم ٧ الى الروزنامه فى ١٢ ذى القعدة ١٢٦٤

(٢) دفتر ٢٥ (مدارس عربى) ص ٥٨ ورقم ٢٤ الى مكتب أبى زعبل فى ٢ ذى الحجة ١٢٦٤

(٣) دفتر ٩٣ (مدارس عربى) ص ١٦ رقم ٩ الى المكتب العالى فى ١٨ شوال ١٢٦٣

(٤) دفتر ٢١١٧ (مدارس تركى) ص ٣٣٢ رقم ١٤٥ الى الكتخدا فى غاية رجب ١٢٦٣

أما التشبه بما بدىء به فى الدولة العثمانية فقد تتبعنا مظاهره فيما كتبنا فى الفصل الرابع من الكتاب الثانى عن تطور النظام التعليمى الحديث فى عصر محمد على .

وشرع الديوان فعلا فى تعيين المدرسين وخاصة مدرسى الحساب ، وقد اختار بعضهم من بين التلاميذ الراسبين فى مدرسة المهندسخانة ،[١] وهم — على رسوبهم فى مدرستهم — كانوا لا شك يفضلون (الفقهاء) الذين كانوا يعلّمون الحساب بمكاتب المبتديان الأخرى . وكذلك شرع الديوان يبحث عن أماكن صالحة لتكون مكاتب « الملة » ، فوقع اختياره أولا على قطعة أرض بالناصرية مجاورة لمدرسة المبتديان ، وشرع فى البناء بعد وضع تصميمه و (مقايسته) .[٢] ولكن لما كان إبراهيم باشا يرغب فى سرعة إنشاء هذه المكاتب فقد آثر الديوان شراء منازل وتحويلها إلى مكاتب ، حتى يتم افتتاحها فى وقت قصير ، واشترى لذلك منزلا بجهة (المظفر) وشرع فى تحويله إلى مكتب .[٣]

ولكن لم تمض شهور على تلك الحركة المباركة حتى عاجلها الفناء ، وخسر التعليم الأولى فى مصر نهضة مباركة كان يرجى منها أطيب الثمرات .

***

ونختم هذه الفصول التى عقدنا عن مكاتب المبتديان بالحديث عن مدرسة المبتديان بالقاهرة :

---

(١) دفتر ٩٤ (مدارس عربى) ص ٦٢٧ رقم ٥٦ إلى مدرسة المبتديان فى ١٤ ذى القعدة ١٢٦٣

(٢) دفتر ٤٨ (مدارس عربى) ص ٢٥٥٣ رقم ٥٨١ الى الديوان الخديوى فى ١١ جاد أول ١٢٦٣

(٣) دفتر ١٢٥ (مدارس عربى) ص ٥٠٢ رقم ٦٧ الى قلم الحسابات فى ٢٤ ذى القعدة ١٢٦٤

مدرسة المبتديان بالقاهرة

لسنا نجد ذكرا « لمدارس ابتدائية » بالقاهرة قبل عام ١٨٣٦ (١٢٥١هـ) وهو العام الذى أنشىء فى نهايته شورى المدارس ووضعت اللوائح ونظمت المكاتب والمدارس . والراجح أن أطفال العاصمة كانوا يتلقون التعليم الأولى فى مدرسة قصر العينى ، فقد كان تلاميذ هذه المدرسة يتعلمون فيها القراءة والكتابة والقرآن والفروض الدينية ومبادىء النحو والصرف والحساب ، وهذه مواد التعليم الأولى الابتدائى الذى كانت تقوم به مكاتب المبتديان ، ثم كان تلاميذ قصر العينى يزيدون عليها مبادىء فى الجغرافيا والرسم والهندسة ،[1] وهى مواد تعلو عن مستوى التعليم الابتدائى وتقرب من مستوى التعليم التجهيزى . وبذلك كانت مدرسة قصر العينى — قبل تنظيمها — مدرسة ابتدائية وتجهيزية معاً ، تعدّ مباشرة للمدارس الخصوصية .

وظلت الحال على ذلك حتى صدرت لائحة التعليم الابتدائى فى أواخر سنة ١٢٥١ ، ونصّت المادة الثانية منها على إنشاء خمسين مكتبا : منها أربعة مكاتب بالعاصمة ومكتب بالاسكندرية ، والباق منها موزع على الأقاليم . ونصّت المادة الثالثة على أن يكون بكل مكتب من مكاتب القاهرة الأربعة مائتا تلميذ .

أما عن نظام هذه المدارس وتوزيع فرقها الدراسية والمواد التى تدرس بها والادارة الفنية والصحية بها وغير ذلك مما يستلزمه القيام على شئونها ، فقد نصّت المادة الرابعة من اللائحة على أن « جميع مدارس المبتدئين فى رتبة واحدة وعلى نظام واحد ، يعنى أن تعليمهم وإدارتهم تكون على نسق واحد » .

---

(١) دفتر ٢٠٠١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٨ ذى الحجة ١٢٥١ تقرير أسطفان افندى العضو بالشورى .

ثم جاء فى التقرير الذى رفعه مدير ديوان المدارس إلى الدكتور «بورنج» فى سنة ١٨٤٠ أن مدارس القاهرة الابتدائية ثلاث وعدد تلاميذها جميعاً ستمائة تلميذ.[١]

ولكن أين كانت هذه المدارس؟ — يقول «بورنج» فى الثبت الذى أورده عن مكاتب المبتديان بعد تنظيمها فى سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧ إن مدارس القاهرة الابتدائية الأربع ضُمّ بعضها إلى بعض واحتواها بناء كبير بالخانقاه.[٢] وتابعه فى ذلك أمين باشا سامى : إذ يقول إن مدرسة المبتديان «بالخانقاه» أنشئت فى يونيه سنة ١٨٣٧ ، وظلت بالخانقاه إلى يناير سنة ١٨٣٩ ، ثم نقلت إلى السيدة زينب حيث استمرت بها إلى أغسطس سنة ١٨٥٠.[٣]

والواقع أن لنا أن نصدق ذلك : إذ كان من الصعوبة بمكان أن تجد الحكومة ثلاثة أمكنة أو أربعة فى القاهرة تصلح لتكون مدارس ابتدائية تسع كل منها مائتى تلميذ ، هذا إلى أن تفرق هذه المدارس الأربعة كان بلا شك يرهق الحكومة فى إدارتها والقيام على شئونها جميعا .

ولكن الوثائق التى بين أيدينا ليس فيها ذكر ما لمدرسة الخانقاه هذه : فبينما تتحدث السجلات التركية لديوان المدارس عن مكاتب المبتديان بالأقاليم وتفيض بالحديث عن تنظيمها ، نجدها تغفل إغفالا تاماً «مدرسة الخانقاه» التى ذكرها «بورنج» وتابعه فى ذكرها أمين باشا سامى . بل إن هذه السجلات نفسها تروى لنا الشىء الكثير عن تنظيم مدرسة المبتديان بقصر العينى ، ثم بالسيدة زينب لا بالخانقاه ، فتذكر عدد تلامذتها وكيف وُزّعوا على فرقها الدراسية الثلاث وموظفيها الذين عُينوا لها ، كل هذا تذكره سجلات ديوان المدارس ، بينما لا يجرى فيها ذكر لمدرسة الخانقاه ، مما يجعلنا نرجح أن إنشائها

(١) Bowring, Report on Egypt & Candia, p. 194.

(٢) Ibid, p. 127.

(٣) أمين باشا سامى : التعليم فى مصر (القسم الخامس من الملحقات) ص ٤٤ .

لم يتجاوز أن يكون مشروعا انصرفت الحكومة عن تنفيذه وآثرت أن تقيم مدرستها الابتدائية فى وسط المدينة .

إنشاء مدرسة المبتديان[1]

ذكرنا أن التلاميذ كانوا يُعَدّون للمدارس الخصوصية بمدرسة قصر العينى التى كانت بمثابة مدرسة ابتدائية وتجهيزية معا . كان من الطبيعى إذن أن تلجأ الحكومة إلى مدرسة قصر العينى هذه لتأخذ منها التلاميذ الذين تزمع أن تجعل منهم تلاميذ أول مدرسة ابتدائية بالقاهرة ، ولتأخذ منها التلاميذ الذين تزمع أن تجعل منهم تلاميذ أول مدرسة تجهيزية بالقاهرة أيضا ، فذهب أحد أعضاء شورى المدارس إلى مدرسة قصر العينى[2] واختار من تلامذتها — البالغ عددهم ٨٥٠ تلميذا فى ذلك الوقت — أربعمائة تلميذ ، كوّن منهم « فرقة مستقلة يعين لها ضابط ومعلمون على مثال مدارس المبتديان » . ثم شرع يوزع هؤلاء التلاميذ الأربعمائة على ثلاث فرق دراسية كما تنص لائحة التعليم الابتدائى : فاختار مائة وخمسين تلميذا كانوا قد (ختموا) القرآن وأخذوا بدرس الفروض الدينية وقراءة كتاب « السنوسية » ، وجعل منهم تلاميذ الفرقة الأولى (وهى الفرقة النهائية) على أن يُبدأ فى تعليمهم كتاب « الأجرومية » ثم يدرس لهم كتاب « الكفراوى » ، ثم يتعلمون خط الثلث خلال ساعتين والإملاء خلال ساعة من كل يوم ، وقبل أن ينتقلوا إلى المدرسة التجهيزية بشهرين يتعلمون قواعد الحساب الأربع .

أما الفرقة الثانية فقد اختار لها مائة تلميذ ممن لا يزالون يحفظون القرآن ، وقد أشار بتعليمهم « الأجرومية » أيضاً على ألا يتركوا قراءة القرآن ، وأن

(١) كانت المدرسة الابتدائية بالقاهرة تميز عن « مكاتب » المبتديان بالأقاليم بتسميتها « مدرسة المبتديان » .

(٢) دفتر ٢٠٠١ (مدارس تركى) جلسة ١٨ ذى الحجة ١٢٥٩ من تقرير لأسطفان أفندى إلى شورى المدارس .

يمرنوا على خط الثلث ساعتين وعلى الإملاء ساعة من كل يوم .

أما المائتان والخمسون تلميذا الباقون فهم المبتدئون أو تلاميذ الفرقة الثالثة ويدرس لهم القرآن والقراءة والكتابة .

مكان المدرسة

وعلى هذا النحو تكونت مدرسة المبتديان بالقاهرة ، وكانت أول إنشائها فى قصر العينى مع المدرسة التجهيزية ، ولكن ذلك كان مؤقتا إلى أن يدبرّ لها المكان الملائم . (١) وقد اتجهت النية إلى إنشائها بحىّ السيدة زينب ، ذلك الحى الآهل بالسكان والذى يقع فى وسط المدينة ، ففى أوائل سنة ١٢٥٢ شرعت الحكومة فى إصلاح بناء مستشفى قديم وتحويله الى مدرسة . (٢) ولما زاد عدد تلاميذ المدرسة رؤى إصلاح « إصطبل » مجاور وإدخاله ضمن مبانى المدرسة واتخاذه مخزنا . (٣)

فى ذلك الوقت أو بعده بقليل نقل تلاميذ مدرسة المبتديان — وكانوا لا يزالون بقصر العينى — إلى جزء من المكان الذى كانت تشغله مدرسة المحاسبة بالسيدة زينب أيضا . (٤) ولكن هذا المكان ما لبث أن خصص لتلاميذ مدرسة المحاسبة ، فعاد تلاميذ المبتديان إلى قصر العينى . (٥) وأخيرا انتقلوا الى البناء الخـــاص بهم فى « السيدة زينب » ، أو فى « الناصرية » ، إذا أردنا التحديد . وظلت المدرسة قائمة بهذا المكان حتى نهاية عصر محمد على .

---

(١) دفتر ٢٠٠٠ (مدارس تركى) ص ٤٦ قرار مجلس المدارس فى غرة رجب ١٢٥٢

(٢) دفتر ١٤٥ (مجلس الملكية) ص ٣ رقم ٢٧ إلى مختار بك فى ١٦ ربيع أول ١٢٥٢

(٣) دفتر ٢٠٠٠ (مدارس تركى) ص ٤٨ قرار مجلس المدارس فى ١٥ رجب ١٢٥٢

(٤) دفتر ٢٠٠٠ (مدارس تركى) ص ٧٧ قرار مجلس المدارس فى ٦ شوال ١٢٥٢

(٥) دفتر ٢٠٠٢ (مدارس تركى) جلسة ٢ ذى الحجة ١٢٥٢ من تقرير عصمت أفندى المنتدب لامتحان التجهيزية .

وفى « ترتيب » سنة ١٨٤١ الأول ألغيت مدرسة المبتديان بالقاهرة ، ثم أعيدت فى الترتيب الثانى فى مكانها الأول الذى كانت تشغله بالناصرية ،[١] إلى أن نقلت هى والمدرسة التجهيزية فى أوائل حكم عباس باشا الأول الى أبى زعبل فى المكان الذى كانت تشغله مدرسة البيادة ، [٢] ثم نقلت فى العام التالى هى والمدرسة التجهيزية أيضا إلى مدرسة المهندسخانة ببولاق .[٣]

تلاميذ المدرسة

نصت لائحة التعليم الابتدائى على أن يكون عدد تلاميذ المدارس الابتدائية الأربع بالقاهرة ثمانمائة تلميذ ، فلما استعيض عن هذه المدارس الأربع بمدرسة واحدة اختير لها أربعمائة تلميذ ، ثم رأت الحكومة أن بناء المدرسة يتسع لأكثر من هذا العدد فزادته مائتين ، وبذلك أصبح عدد تلاميذ مدرسة المبتديان ستمائة تلميذ .[٤]

على أن عدد تلاميذ مدرسة القاهرة — أو مدارس القاهرة — لم يصل إلى العدد الذى حددته لائحة التعليم الابتدائى ، والواقع أنه كان من الصعوبة بمكان أن تجمع الحكومة — فى مدرسة واحدة — ثمانمائة طفل تقوم على تربيتهم وكسائهم ولباسهم وغذائهم وإيوائهم ، ثم هى فوق هذا تتعهد مستقبلهم جميعا . لا بل إن مدرسة المبتديان لم تتمكن من الاحتفاظ بهذا العدد الكبير من التلاميذ ، وقد شرحنا فيما تقدم كيف ضاقت الحكومة بالعدد الكبير الذى أخذت مدرسة المبتديان بالقاهرة ومكاتب المبتديان بالأقاليم تخرجه عاما بعد عام ، وكيف اكتظت المدرسة التجهيزية بخريجى المبتديان ،

(١) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) رقم ٧٦٥ تقرير عن ترتيب سنة ١٢٥٧ بتاريخ ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٧

(٢) دفتر ٢١٣٢ (مدارس تركى) ص ٣٢

(٣) دفتر ٢١٣٤ (مدارس تركى) ص ٢١٢

(٤) دفتر ٢٠٠٠ (مدارس تركى) ص ٦٦ قرار لشورى المدارس فى ٤ رمضان ١٢٥٢

حتى اضطر الديوان عاما إلى أن يغلق باب الالتحاق بها ، وإلى أن يبقى خريجى مدرسة المبتديان بمدرستهم عاما آخر تدرس لهم فيه بعض كتب النحو المستعملة فى المدرسة التجهيزية والكسور والنسبة فى علم الحساب.(١)

ولكن ذلك لم يكن ممكنا فى كل عام ، وكان لابد للحكومة أن تواجه هذه الحالة بتدبير عاجل : فشرعت فى إنقاص عدد تلاميذ مدرسة المبتديان ، حتى بلغ بعد ثلاث سنين من إنشائها ٣٥٨ تلميذا ، أى ما يقرب من نصف عدد تلاميذها أول إنشائها .(٢) وكان من الطبيعى أن تسير الحكومة فى «ترتيب» سنة ١٨٤١ على هذه الخطة : فحددت عدد تلاميذ مدرسة المبتديان بالناصرية بثلثمائة تلميذ .(٣) ولكن المدرسة فى الواقع لم تستكمل عددها (القانونى) هذا إلا بعد وضع هذا الترتيب بأربع سنين . (٤)

وكان لأيتام (الرزنامة) الأسبقية فى الالتحاق بمدرسة المبتديان ، فإذا ما خلت بها محال بادر ديوان المدارس بالكتابة إلى الرزنامة لترسل إليها من أيتامها من تؤهلهم أعمارهم وحالتهم الصحية لدخول المدرسة ،(٥) وكان الديوان يعتبر هؤلاء الأيتام (غلماناً) لولى النعم ، ويرى لذلك أن مدرسة المبتديان أكثر المدارس استحقاقاً لعطف الحكومة وعنايتها.(٦)

ومن تلاميذ مدرسة المبتديان أيضاً أبناء الجند الذين بالمدارس الحربية ، فإذا لم تخل لهم محال بالمدرسة أمهلهم الديوان إلى العام الدراسى التالى .(٧)

(١)و(٢) دفتر ٢٠٠٨ (مدارس تركى) ص ٣٦ رقم ١٤٤٧ إلى عبد القادر أفندى فى ٩ ذى القعدة ١٢٥٥

(٣) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) رقم ٥٦٥ تقرير مقدم إلى شورى المعاونة فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٧

(٤) دفتر ١٢ (مدارس عربى) ص ٢٣٩٥ إلى مدرسة المبتديان فى ٢٨ جماد أول ١٢٦١

(٥) دفتر ٢٠ (مدارس عربى) ص ٦ رقم ٢ إلى الرزنامة فى ١٠ رمضان ١٢٦١

(٦) دفتر ٥ (مدارس عربى) ص ٢٦٧٤ رقم ٤٤٥ إلى ديوان الجهادية فى ٢٦ جماد ثان ١٢٦١

(٧) دفتر ٢٩ (مدارس عربى) ص ١٥٢٠ رقم ١٦٤ إلى مدرسة الطوبجية فى ٨ جماد أول ١٢٦٢

وكان بالمدرسة أيضاً طائفة من « مماليك ولى النعم » وكانوا يتعلمون اللغة التركية على أيدى معلمين أحضروا لهم خاصة.[١]

وبذلك لم يكن يتبقى لأبناء (الأهالى) محال كثيرة، والواقع أن الأهالى لم يكونوا قد أظهروا بعد من الإقبال على إلحاق أبنائهم بهذه المدرسة ما يشجع الحكومة على تدبير المحال اللازمة لهم، فكانت تكتفى بمن ذكرنا من أيتام الرزنامة وأبناء الجند ومماليك ولى النعم وقليل من أبناء الشعب. ولكن الأهالى فى أواخر عصر محمد على — وخاصة فى القاهرة — قد أدركوا قيمة التعليم وما يجره على أبنائهم وعليهم أنفسهم من منافع مادية وأدبية، فأقبلوا على المدارس. وانهالت الطلبات على مدرسة المبتديان من آباء التلاميذ وأهليهم، يطلبون إلحاق أبنائهم بها، ومنهم أمهات تقدمن إلى ديوان المدارس ملتمسات قبول أبنائهن بالمدرسة، بل لقد تقدم إلى الديوان أولاد صغار يطلبون إلحاقهم بالمدرسة،[٢] كما انهالت طلبات الرزنامة بإلحاق أبناء الفقراء الذين «بالتكية». فكان ديوان المدارس أو المدرسة نفسها — على الرغم من صدور الأمر بزيادتها خمسين تلميذاً على نصابها المحدد —[٣] تتعلل فى قبولهم بصغر السن تارة وبالرسوب فى الكشف الطبى تارة أخرى، أو تمهلهم إلى أن تخلو محال بالمدرسة،[٤] أو تحولهم إلى مكاتب أخرى قريبة،[٥] أو تقيدهم بالمدرسة بصفة (مستودعين) حتى تخلو لهم محال فيلحقوا بها.[٦]

ومما شجع الأهالى على الإقبال على مدرسة المبتديان العناية الكبيرة التى

---

(١) دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركى) ورقة ٥١ رقم ١٨٧٧ إلى شورى المعاونة فى ١٣ شوال ١٢٥٩

(٢) دفتر ١٠ (مدارس عربى) ص ٢٠٤١ (عرضحالات) إلى مدرسة المبتديان فى صفر ١٢٦١

(٣) دفتر ٥٦ (مدارس عربى) ص ١٠٨٥ رقم ٩٧ إلى مدرسة المبتديان فى ٤ ذى الحجة ١٢٦٢

(٤) دفتر ٢٠ (مدارس عربى) ص ٦ رقم ٢ و ٧ و ١١ وغيرها إلى الرزنامة فى رمضان ١٢٦١

(٥) دفتر ٥٥ (مدارس عربى) ص ٧٤٥ رقم ٥٤ إلى مكتب أبى زعبل فى آخر ذى القعدة ١٢٦٢

(٦) دفتر ٢٠٩٧ (مدارس تركى) ص ١٠٩ رقم ٧٥١ إلى كامل باشا فى ٢ محرم ١٢٦٢

أولتها الحكومة إياها : إذ كانت ترى أن « مدرسة المحروسة ، تمتاز فى نواحى كثيرة ، عن مكاتب المبتديان بالأقاليم بكونها فى عاصمة الملك ومقر الحكومة، ويزورها على الدوام ضيوف أعزاء يردون من مختلف الأقطار والبلاد ، فلا يليق أن يشاهدوا التلاميذ نياماً على الأرض يفترشون الحصر والسجاجيد ، حالة كونهم مستظلين بظل الجناب العالى ».(١) ولذلك رأت لجنة امتحان تلاميذ المدرسة فى سنة ١٢٥٥ أنه « بدلا من افتراشهم الحصر والسجاجيد وتعلم الدروس قعوداً على الأرض طبقاً للنظام القديم ، تُطبق عليهم النظم الأوربية : فطوراً يُجمعون حلقة وقوفاً بالقرب من الحائط ويقرءون الألواح المعلقة بالحائط ، وتارة يجلسون إلى التخت ويدرسون الدروس . . وكذلك تُصنع اللوحات الخاصة بالقراءة والخط وتُصرف للتلاميذ ، حتى يتسنى لهم التعلم قياماً وقعوداً طبقاً للنظم الجديدة ».(٢)

ولما كانت اللجنة حريصة على ترغيب « أولاد البلد » وأبناء الترك وغيرهم على الالتحاق بها حتى لا تُقصر على أولاد الفقراء واليتامى ، فقد أوصت بصنع أسرة صغيرة من حديد ، وصرف الفرش اللازمة لها لينام عليها التلاميذ ، وقبـــل ذلك بأعوام ثلاثة صدر أمر الحكومة بإلباس تلاميذ المبتديان بالقاهرة والاسكندرية كسى (بذلات) كالكسى التى يلبسها تلاميذ المدرسة التجهيزية .

وكان طبيعياً أن تطبق هذه النظم الجديدة فى مدرسة المبتديان أولا ، حتى إذا استوثق الديوان من نفعها وسهولة تطبيقها عمّمها فى سائر مكاتب المبتديان .

ثم ما لبثت مظاهر التجديد هذه أن تردد صداها بعد سنة ١٨٤١ فى مكاتب المبتديان بالأقاليم حين اقتصر عددها على أربعة مكاتب ، إذ استطاعت

---

(١) و(٢) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص ٣٦ رقم ١٤٤٧ إلى عبد القادر أفندى فى ٩ ذى القعدة ١٢٥٥

الحكومة — كما مرّ بنا — أن تولها كبير عنايتها من غير أن يكلفها ذلك مالا طائلا .

قد يكون هذا كله تافهاً بالقياس إلى ما يجب أن يكون عليه التعليم الابتدائى ، ولكنه على أى حال خطوة كبيرة فى هذا السبيل تمحو عن المكاتب صبغتها الشرقية التى طالما ألفها الناس فيما كانوا ينشئون منه «كتاتيب» ، وتنحو بها نحواً جديداً يحقّق لها التقدم والرقى ، ويمهّد لتلاميذها الذين يقضون فيها ثلاث سنين من طفولتهم حياة طيبة فى كنف الحكومة ورعايتها .

إنشاء قسم خارجى بالمدرسة

وكان هذا الإصلاح فى مدرسة المبتديان كفيلا بتوجيه أنظار الأهالى إليها وداعيا إلى الإقبال عليها من طبقة كان أفرادها إلى ذلك الوقت يُحجمون عن إلحاق أبنائهم بها ، وهذه الطبقة هى طبقة «الذوات» من الناس وهم كبار الأعيان والموظفين والتجار وغيرهم ممن لا يعنيهم فى كثير أن تتكفل الحكومة باطعام أبنائهم وكسائهم وإيوائهم وتدفع لهم أجوراً شهرية . بل يفضلون أن يقوموا هم أنفسهم على تنشيء أبنائهم فى بيوتهم ، ولهم من رفاهة حالهم ما يمكنهم من تنشيئهم على ما يبغون ، ولما كانوا يرون أيضاً أن مدارس الحكومة تعلم أبناء البلاد وتكفل لهم مستقبلهم خيراً مما يفعل الأزهر أو «كتاتيب» الفقهاء ، فقد طلبوا إلى الحكومة أن تتولى تعليم أبنائهم فى مدارسها ، على أن يذهبوا إليها أول النهار ويعودون إلى بيوتهم آخره ، وأجابتهم الحكومة إلى ما طلبوا : فأنشىء قسم «خارجى» بمدرسة المبتديان .

كان تلاميذ هذا القسم الخارجى بمدرسة المبتديان بضعة نفر من أولاد (الذوات) والموظفين والعلماء والتجار ، وأحد هؤلاء التلاميذ « المنتسبين » هو نجل المفتى ، « وقد نقله والده من الأزهر إلى المدرسة ... لتفضيله

العلوم التى تدرس بالمدرسة على العلوم التى تدرس بالأزهر . . . وكان ذلك باعثا لسرور والده الذى دعا كثيراً لولى النعم وأثنى عليه ، وسيتحقق الناس من فوائد أعمال ولى النعم الجليلة وسيزداد إقبال الأهالى على المدارس » .[1]

وكانت الحكومة تعطف عليهم وتشجعهم ، فتمنحهم ما يحتاجون اليه فى دراستهم من أدوات ، ولا تتقاضى منهم عنها ثمناً .[2]

ولاشك فى أن إنشاء هذا القسم دليل على إقبال الأهالى على التعليم إقبالا خالصاً ، وأخذهم بنصيب من الاهتمام بالتعليم فى مصر ، ولا شك فى أن الحكومة قد ارتاحت أن وجدت فريقا من الأهالى يحملون عنها بعض العبء ويشاركونها الاهتمام بالنهضة التعليمية . على أن لنا أن نأسف أن هذه النهضة جاءت متأخرة ، وأن الزمن كان يُعِدُّ لها بعد سنوات قليلة موتا عاجلا .

نظار المدرسة

كان « سليم أفندى » ناظر مدرسة المحاسبة بالسيدة زينب أول ناظر لمدرسة المبتديان ، ولكن ليس معنى هذا أن المدرستين كانتا مندمجتين ، بل إنهما كانتا منفصلتين إحداهما عن الأخرى ولكل منهما تلاميذها .[3]

وخلفه «عصمت أفندى» الذى كان أحد مفتشى مكاتب المبتديان بالوجه البحرى . ثم « عبد القادر أفندى » أحد خريجى المهندسخانة ، وكانت تقارير الامتحان الخاصة بمدرسة المبتديان تنوه دائماً بجدارته واجتهاده واستحقاقه للترقية .[4] وقد ظل « عبد القادر أفندى » ناظرا للمدرسة حتى نهاية عصر محمـــد على .

---

(١) دفتر ٢٠٩٧ (مدارس تركى) ص ١٥٩ رقم ٧٥١ إلى كامل باشا فى ٢٠ محرم ١٢٦٢

(٢) دفتر ٥٧ (مدارس عربى) ص ١٤٥٩ رقم ١٣٠ إلى مدرسة المبتديان فى ٨ محرم ١٢٦٣

(٣) دفتر ٢٠٠٠ (مدارس تركى) ص ٧٨ قرار شورى المدارس فى ٨ شوال ١٢٥٢

(٤) ٢٠٨٣ (مدارس تركى) ورقة ٤ رقم ٦١ إلى شورى المعاونة فى ١٤ محرم ١٢٥٩

إنشاء تلك الهيئة « الموجهة » ونعنى بها شورى المدارس وديوان المدارس من بعده ، فمهما قيل فى أضرار الإدارة (المركزية) كطبع معاهد التعليم بطابع واحد وعرقلة الطريق أمام الجهود الفردية المؤدية إلى التنافس المحمود ، وتحول المدارس والقائمين على شئونها إلى آلات لتلقى الأوامر وتلبيتها ... الخ . نقول إنه مهما قيل فى أضرار المركزية فقد كان التعليم فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فى حاجة إليها ، ذلك أنه لم يكن للمدارس من « الشخصية » مايقدرها جميعا على السير قدما فى طريق النظام والرقى ، فالمدارس الابتدائيه كان يعوزها النظار والمدرسون الذين يمكن الاطمئنان إلى علمهم وكفايتهم الفنية . هذا إلى أن البلاد لم تتفتح أذهان الناس فيها بعد إلى ضرورة التعلّم ، وكانت الحكومة هى وحدها — بما لديها من الوسائل التى لا توجد عند غيرها — القادرة على الإشراف على شئون التعليم وإصلاح المعوجّ منه وإمداده بما يمكّنه من الحياة .

وبعد سنة ١٨٣٦ قلّ النفوذ الأجنبى فى التعليم بالاستغناء عن خدمات كثير من الأساتذة الأجانب بالمدارس الخصوصية ، وقد يرجع هذا إلى شعور الحكومة بأن الأجانب فى مصر يبهظون بمرتباتهم الكبيرة عاتق الميزانية المصرية ، وخاصة بعد أن أصبح لديها من أهل البلاد الذين أتموا دراستهم فى مصر وأوربا ، من يمكنها الاطمئنان إلى علمهم وكفايتهم فأحلّتهم محل أساتذتهم من الأجانب ، والواقع أن الاستغناء عن خدمات الأجانب لم يكن عفو الساعة بل كان شغل الحكومة الشاغل منذ بدأت التعليم فى مصر .

وإذا كان الأجانب قد اشتركوا فى السنين الأخيرة من سيطرتهم على التعليم فى مصر فى وضع اللوائح لكل مرحلة من مراحل التعليم ، فقد رأت الحكومة أنه يجمل بهم أن يخلوا الطريق لناشئة البلاد تقفو أثرهم وتسير على النظم التى وضعوا .

حقا إن مدارس كثيرة كالطب البيطرى والمهندسخانة قد ظل لها نظارها الأجانب بعد سنة ١٨٣٦ ، إلا أن جلة أساتذة هذه المدارس أصبحت من لمصريين الذين أتموا دراستهم فى أوربا ، أو الذين درسوا بمصر ثم بدءوا فى سلك التدريس من أولى درجاته ، وكلما تقدم بهم العمر أصابوا من الحياة خبرة ومن العلوم أكبر نصيب .

الفصل الثالث

التنظيم الثانى

سنة ١٨٤١

ولكن هذا التنظيم الذى أصابه التعليم أول مرة فى سنة ١٨٣٦ لم يقدر له البقاء طويلا : فقد كان — كما ذكرنا — يحمل فى طياته عناصر من التفكك والانحلال ، لم تلبث أن تفاقمت بظهور عوامل أخرى ، ألمعنا إليها ونعود إليها هنا بشىء من التفصيل .

كان عدد المدارس الابتدائية أكثر مما تتطلبه مدرسة تجهيزية بالقاهرة وأخرى بالاسكندرية لم تنظم إلا فى السنوات الأخيرة من عصر محمد على . وكانت الحكومة تحار فى توجيه العدد الكبير من التلاميذ المتخرجين فى المدرسة الابتدائية بالقاهرة ومكاتب المبتديان بالأقاليم : ذلك لأن «وظيفة» المدرسة الابتدائية فى عصر محمد على لم تكن واضحة كل الوضوح : فهى تنشر التعليم بين الأهالى من جهة ، وتعدّ التلاميذ للتعليم التجهيزى من جهة أخرى . وهذا الغرض المزدوج هو الذى حمل الحكومة فى لائحة التعليم الابتدائى التى وضعت فى سنة ١٨٣٦ على أن تنشىء من المكاتب الابتدائية خمسين مكتباً فى القاهرة والأقاليم ، وهى وإن كانت تعاون على نشر التعليم بين الأهالى ، إلا أنها كانت تخرج من التلاميذ أكثر من حاجة المدرسة التجهيزية ، ومن هنا كان إنقاص عدد المكاتب الابتدائية أظهر شىء فى (ترتيب) سنة ١٨٤١ (١٢٥٧ هـ) .

وفى سنة ١٨٤٠ استقرّ السلام ، وتمت التسوية المصرية — العثمانية ،

وبدأ عهد من الاستقرار السياسى ، فلم يبق ثمة حاجة للجيش الجرار الذى كونه محمد على ، ولما يتبع هذا الجيش الجرار من كثير من مظاهر النشاط الاقتصادى والإدارى فى البلاد . فكثير من الضباط والجند يسرحون ، وكثير من الموظفين يصرفون عن وظائفهم ، والمصانع تغلق أبوابها .

وبذلك ظهرت الحاجة الماسة إلى إعادة النظر فى النظام التعليمى على ضوء حاجات البلاد الجديدة : فقد كانت المدارس الخصوصية أدوات للإعداد المباشر لوظائف الحكومة ، ولكن مجال العمل أمام خريجى هذه المدارس يضيق عن ذى قبل ، فاتجهت الرغبة إلى الإقلال من عدد التلاميذ بها حتى لا تضيق بهم الحكومة . والإقلال من عدد تلاميذ المدارس الخصوصية يتبعه حتما الإقلال من عدد تلاميذ المدرسة التجهيزية وبالتالى تلاميذ المكاتب الابتدائية . وهكذا اتجهت الرغبة إلى حصر التعليم فى نطاق ضيق حتى يكون مجرد أداة لإعداد من تحتاج إليه الحكومة من الموظفين : من الضباط والأطباء والمهندسين والمترجمين ، ولم يكن هؤلاء بالعدد الكبير .

وسواء أكان إقدام الحكومة على إعادة النظر فى النظام التعليمى مبعثه الرغبة فى الملاءمة بينه وبين الحاجات الجديدة ، أم شعورها أشد الشعور بالإجهاد المالى الذى لازم حكم محمد على ثم اشتد فى سنى الحرب الأخيرة ، فقد نزعت الحكومة عقب إقرار السلم إلى التخلص من كثير من منشآتها العلميــــة إلى جانب ما تخلصت من منشآت اقتصادية وإدارية . ولا شك فى أن حكومة محمد على كان يجهدها النفقات الطائلة التى تنفقها فى تعليم التلاميذ وإيوائهم وكسائهم وإطعامهم . فكان هذا الإجهاد ، مضافاً إلى الاجهاد فى ميادين أخرى ، حافزاً لها على أن تصيب بضربة قاضية كثيراً من معاهد الدراسة ، بعد أن قامت على المحافظة عليها والعمل على تقدمها سنين عدة ، وتكلفت فى ذلك جهـــداً طائلا ومالا كثيراً .

ويتعلمون الخط والنحو والصرف والدين وقليل منهم من يتعلم الجغرافيا والرسم والحساب والهندسة ، فمعلوماتهم ضئيلة والمعلّمون القائمون على تعليمهم ليسوا على درجة كبيرة من العلم ، حتى أن عضو الشورى الذى أنفذ لتنظيم المدرسة طبقاً للائحة التعليم التجهيزى امتحن معلمى خط الرقعة والثلث فوجد خط بعضهم رديئاً ، أما معلمو النحو فكانوا من الأزهر ومعلوماتهم بسيطة ، وكذلك معلم الصرف ، وللجغرافيا معلمان من تلامذة الشيخ رفاعة ، ويمكنهما تدريس الجغرافيا « للمبتدئين » .(١)

ومن هنا تتضح الحاجة إلى اللوائح التى وضعت فى سنة ١٨٣٦—١٨٣٧ لتنظيم التعليم . على أن مما يدعو إلى الأسف أننا لم نعثر على اللائحة التى وضعت لتنظيم التعليم التجهيزى ، وإن كان « الدكتور بورنغ » قد أورد منها خلاصة وافية يتسنى لنا فى ضوئها أن نفحص عن هذه المرحلة من مراحل التعليم .

الغرض من المدارس التجهيزية

الغرض من المدارس التجهيزية واضح جلى : وهو إعداد التلاميذ المدارس الخصوصية . فالمدرسة التجهيزية تتلقى تلاميذ المكاتب وتقوم على تربيتهم وتعليمهم أربع سنوات تنقلهم بعدها إلى المدارس الخصوصية ، ولم يكن ذلك سهلا هينا ، وتتضح صعوبة مهمة المدرسة التجهيزية إذا لاحظنا أن تلاميذ المكاتب لم يصيبوا من العلم إلا حفظ القرآن وقراءة بعض كتب أزهرية أولية فى النحو والصرف والدين وقواعد الحساب الأربع وخط الثلث . فهؤلاء التلاميذ ذوو الثقافة الضعيفة كان يُطلب من المدرسة التجهيزية أن تعدَّهم فى سنوات أربع ليدرسوا فنون الحرب أو الطب أو الهندسة ، أو

---

(١) دفتر ٢٠٠١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٨ ذى الحجة ١٢٥١

ليتعمقوا فى دراسة اللغات الشرقية والغربية . هذا إلى أن البيئة التى نشأ بها تلاميذ المكاتب والتى حافظت عليها الحكومة فى المرحلة الأولى من مراحل التعليم إلى حد كبير فى إطعام التلاميذ وكسائهم ومنامهم ، كانت تزيد مهمة المدرسة التجهيزية صعوبة ومشقة ، فقد كان عليها أن تعد هؤلاء التلاميذ لحياة المدارس الخصوصية ، فتسمو بهم من بيئتهم الفقيرة التى نشأوا بها إلى بيئة أخرى راقية . ويفسر هذا مظاهر العناية التى أولتها الحكومة لتلاميذ المدارس التجهيزية : كالنوم على أسرة والجلوس على مقاعد وقت الدرس ، وإطعامهم من اللحم والخضر فى كل يوم وأخذهم بالطريقة الغربية فى تناول الطعام وإلباسهم الكسى (البذلات) . وتتضح عناية الحكومة كذلك بالتعليم التجهيزى فى هذا العدد الضخم من الموظفين الذين نصت اللائحة على تعيينهم بكل مدرسة من المدارس التجهيزية : إذ كان بكل منها مدير ووكيل وثلاثة من رؤساء الفرق [1] واثنا عشر مدرسا للغات التركية والفارسية والعربية ومدرس للتاريخ وآخر للجغرافيا وثلاثة للرسم ومدرسان لخط الثلث وآخران لخط الرقعة . هذه هى الهيئة (الفنية) بالمدرسة ، أما الهيئة (الإدارية) فتتكون من ناظر ووكيل للخرج ومخزنجى وعدد من الكتبة وآخر من الخدم . وهنالك هيئة أخرى (طبية) تتكون من طبيب وصيدلى ولفيف من المساعدين والممرضين والخدم . لهذا كله سميت « المدرسة » التجهيزية تمييزا لها عن « مكاتب » المبتديان ، ونظمت على غرار المدارس الخصوصية ، فكان لها مجلس إدارة مؤلف من مدير المدرسة وبعض مدرسيها .

عدد المدارس التجهيزية وتلاميذها

وقد مكَّن الحكومة من هذا (الكرم) الذى أولته للتعليم التجهيزى أنه

(١) ويسميهم « بورنج » ص ١٢٧ (Prefects) وهم ثلاثة بعدد فرق المدرسة (الحربية) لا بعدد فرقها (الدراسية) .

كان منحصرا فى مدرستين اثنتين : إحداهما بالقاهرة والأخرى بالاسكندرية، رأت الحكومة أنهما تكفيان لإعداد التلاميذ للمدارس الخصوصية.

وقد نصت اللائحة على أن يكون بالمدرسة التجهيزية بالقاهرة ١٥٠٠ تلميذ، وبالمدرسة التجهيزية بالاسكندرية ٥٠٠ تلميذ، يوزعون على أربع فرق دراسية. ولاشك فى أن الحكومة قد راعت فى تحديد هذا العدد الكبير أن يتسع لخريجى مدارس المبتديان بالقاهرة والأقاليم، ولم يكونوا بالعدد القليل.

كان عدد تلاميذ المدرسة التجهيزية قبيل تنظيمها ٨٥٠ تلميذا، انتخب منهم ٤٠٠ تلميذ جعلوا تلاميذ أول مدرسة للمبتديان بالقاهرة، وكوّن من الـ ٤٥٠ تلميذا الباقين أول مدرسة تجهيزية نظامية بالقاهرة. ولم تلبث مكاتب المبتديان أن ملأت المدرسة التجهيزية بمن أرسلت إليها من التلاميذ الذين تجاوزوا السن التى حددتها لائحة التعليم الابتدائى، حتى إذا كان شهر ذى القعدة من عام ١٢٥٢ — وقد فرغ شورى المدارس من تنظيم المكاتب والمدارس — بلغ عدد تلاميذ المدرسة التجهيزية ١٥٨٩ تلميذا.[1] ثم أخذ العدد يتناقص حتى وصل فى سنة ١٨٣٩ إلى نحو ٩٠٠ تلميذ[2] موزعين على الفرقة الرابعة والثالثة والثانية، أما الفرقة الأولى وهى النهائية فلم تكن قد تكونت بعد. ورفضت بعض المدارس الخصوصية أن تأخذ تلاميذ لمّا يتموا دراستهم التجهيزية،[3] بينما مكاتب المبتديان تخرج فى نهاية كل عام دراسى عددا كبيرا من تلاميذها، حتى بلغ هذا العدد فى سنة من السنين ٤٣١ تلميذا ألحقوا جميعا بالتجهيزية.[4] ولاشك فى أن ديوان المدارس قد رأى كذلك صعوبة القيام على تعليم ألف

---

(١) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٩ ذى القعدة ١٢٥٢

(٢) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) س ٣٦ رقم ١٤٤٧ إلى عبد القادر أفندى فى ٩ ذى القعدة ١٢٥٥

(٣) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) س ٧ رقم ١٣٠٣ إلى خليل أفندى فى ١٢ شوال ١٢٥٥ من تقرير عن امتحان مدرسة الطوبجية

(٤) دفتر ٢٠٤٨ (مدارس تركى) س ٥٥ فى ١٩ ربيع الأول ١٢٥٥

وخمسمائة من التلاميذ وإطعامهم وكسائهم وإيوائهم فى مدرسة واحدة ، لهذا كله أقفلت المدرسة التجهيزية باب الدخول فيها دون خريجى مدرسة المبتديان حتى يتخرج فريق من تلاميذها .[1]

خطة الدراسة التجهيزية

نصت اللائحة على أن مدة الدراسة بالمدرسة التجهيزية أربع سنوات قد تزاد إلى خمس فى ظروف خاصة ، ويتلقى التلاميذ فيها دروسا فى اللغات العربية والتركية والفارسية والحساب ومبادىء الجبر والهندسة والتاريخ والجغرافيا وخطى الثلث والرقعة ورسم الخطوط ورسم الصفات .[2] أما خطة الدراسة فينظمها (شورى المدرسة الداخلى) أو مجلس إدارتها ويستصدر بها قرارا من شورى المدارس .

ولما كانت الدراسة دراسة كتب فقد رأى مجلس إدارة المدرسة أن يعين الكتب اللازمة لكل مادة من مواد الدراسة وهذا بيانها :

اللغة العربية :

السنة الأولى (أى السنة الأولى من التحاق التلميذ بالمدرسة أى الفرقة الرابعة) : كتاب الكفراوى .

السنة الثانية (الفرقة الثالثة) : الشيخ خالد والأزهرية .

« الثالثة (الفرقة الثانية) : القطر والشذور . (وهما كتابان فى النحو) .

« الرابعة (الفرقة الأولى والنهائية) : ابن عقيل (شرح الألفية) .

---

(١) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) س٣٦ رقم ١٤٤٧ إلى عبد القادر أفندى فى ٩ ذى القعدة ١٢٥٥

(٢) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٨ ذى القعدة ١٢٥٢ لائحة تنظيم دروس المدرسة التجهيزية — ويظهر هذا خطأ ما ذهب إليه أمين باشا سامى من أن مدة الدراسة بها ثلاث سنوات وأن من مواد الدراسة اللغة الفرنسية بينما أغفل اللغة الفارسية (التعليم فى مصر — القسم الثالث من الملحقات س ١٠)

اللغتان التركية والفارسية :

السنة الأولى (الفرقة الرابعة) : الأمثلة من علم الصرف والبناء والأمثلة التركية وشيء من اللغة .

السنة الثانية (الفرقة الثالثة) : تحفة وهي مع فهم معناها باللغتين العربية والتركية والأمثلة الفارسية أي المفاتيح الدرية .

السنة الثالثة (الفرقة الثانية) : بند عطار وتاريخ واصف .

السنة الرابعة (الفرقة الأولى) : كلستان مع فهم معناه بالعربية والتركية وتاريخ واصف .

علوم الحساب والهندسة والجبر :

السنة الثانية (الفرقة الثالثة) : المقالات الأربع الأولى من «كتاب لجاندر» فى أصول الهندسة والقسم الأول من علم الحساب .

السنة الثالثة (الفرقة الثانية) : المقالات الأربع الباقية والقسم الثانى من علم الحساب .

السنة الرابعة (الفرقة الأولى) : علم الجبر لغاية الدرجة الثانية فقط وإعادة تدريس الهندسة والحساب .

الجغرافيا والتاريخ :

السنة الثالثة (الفرقة الثانية) : النصف الأول من كتاب الجغرافيا وتاريخ القدماء تأليف رفاعة أفندى .

السنة الرابعة (الفرقة الأولى) : النصف الثانى منهما .

الخـــط :

السنة الأولى (الفرقة الرابعة) : نقش الخط .

السنة الثانية (الفرقة الثالثة) : نقش الخط وجزء من الإملاء بالتركية والعربية .

السنة الثالثة (الفرقة الثانية) : نقش الخط وشىء من الانشاء بالعربية والتركية .

السنة الرابعة (الفرقة الاولى) : نقش الخط وكتابة (المصالح) المتعددة

الرســـم :

الرسم الخطى والصفات وبعض الصور المختلفة .

وبذلك تكون خطة الدراسة بالمدرسة التجهيزية كالآتى :

الفرقة الرابعة : اللغتان العربية والتركية وخط الثلث والرقعة .

الفرقة الثالثة : اللغات العربية والتركية والفارسية والهندسة والحساب والخط .

الفرقة الثانية : اللغات العربية والتركية والفارسية والهندسة والحساب والخط والتاريخ والجغرافيا والرسم .

الفرقة الأولى : اللغات العربية والتركية والفارسية والجبر (مع إعادة الهندسة والحساب) والخط والتاريخ والجغرافيا والرسم .

وقد روعى فى هذه الخطة عدم إرهاق تلاميذ الفرقة الرابعة بالمدرسة التجهيزية ، إذ اعتبرت مكملة للمدرسة الابتدائية ، ولم يستجد فيها من المواد إلا اللغة التركية . ولكنا نعجب أشد العجب لعدم تقرير الحساب فى هذه الفرقة مع أن تلاميذ المبتديان كانوا يدرسون فى الفرقة الأولى قواعد الحساب الأربع . ومما نلاحظه أيضاً على هذه الخطة الصبغة الشرقية التى تصبغ الدراسة التجهيزية ، والتى أوحت — كما أوحت بإعطاء أكبر قسط من اليوم المدرسى لحفظ القرآن فى مكاتب المبتديان — بتقرير دراسة لغتين شرقيتين أجنبيتين والاهتمام بدراستهما اهتماماً يفوق ماخصص للمواد الأخرى الحديثة ، اللازمة للإعداد للمدارس الخصوصية . فهذه الخطة وإن كانت لا شك فى مستوى أعلى بكثير من خطة الدراسة الابتدائية ، إلا أنها فى مجموعها أقل

بكثيرمما يتطلبه الإعداد الصحيح للتعليم العالى ، فمواد الدراسة بها قليلة والموجود منها يدرسه التلاميذ دراسة سطحية مبسطة . وإلا فأين اللغات الغربية التى لاغنى لطالب الدراسة العالية (الخصوصية) عن الإلمام بواحدة منها على الأقل ؟ وأين الرياضيات والرسم وعلوم الحياة التى لاغنى عنها لطالب الهندسة أو الطب أو الحرب ؟ ولكنا يجب أن نعود سريعا فنذكر أنا نؤرخ التعليم فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

وقد ظلت هذه الخطة الدراسية متبعة فى مجموعها سنين عدة ، إلا بعض تغييرات مسّت إليها الحاجة وأظهرت ضرورتها التجارب : [١] فى دراسة اللغات اتجه الرأى إلى تقوية دراسة اللغة العربية . فأضيفت كتب جديدة لتلاميذ الفرقة الثانية وأخرى لتلاميذ الفرقة الرابعة . وكان المعلمون الترك هم الذين يقومون بتدريس الصرف على القاعدة التركية ، وكان ذلك قليل الجدوى لأن جل التلاميذ كانوا من المصريين الذين يجهلون اللغة التركية ، فاستقر الرأى على تدريسه « طبقا للقاعدة العربية على أيدى معلمين من المصريين ، ويقتصر عمل المعلمين الترك على تعليم التلاميذ اللغة التركية ... وتدريس التاريخ التركى » . ولوحظ أن دراسة اللغة العربية مقصورة على قراءة كتب فى النحو والصرف ، كما لوحظ ضعف التلاميذ فى التحرير والكتابة ، فلتمرينهم على الإنشاء والإملاء « أصبحوا يكلفون بتحرير خلاصات للدروس التى يتلقونها » . ورؤى أيضا قصر تدريس اللغة التركية على تلاميذ الفرقتين الأولى والثانية . أما اللغة الفارسية فلم نعد نسمع عنها بعدسنة ١٨٣٩ ، مما نرجح أنها استبعدت من خطة الدراسة التجهيزية ، ويؤيد هذا عدم وجودها فى خطة الدراسة بالمدرسة التجهيزية بالاسكندرية ، وقد وضعت فى تاريخ متأخر وسيأتى بيانها بعد .

---

(١) دفتر ٢٠٠٨ (مدارس تركى) ص ٩ رقم ١٣١٠ إلى رأفت أفندى فى ١٧ شوال ١٢٥٥

ولما ضُمت المدرسة التجهيزية إلى مدرسة الألسن فى « ترتيب » سنة ١٨٤١ ، تقرر تدريس اللغة الفرنسية بها ابتداء من الفرقة الرابعة ، [١] وبذلك كانت الفرنسية أول لغة غربية تقررت دراستها بالمدارس الثانوية فى مصر . ولكن يبدو أن هذا القرار أهمل أو لم ينفذ بالنسبة لجميع التلاميذ : ففى أواخر عصر محمد على انتخبت مدرسة الألسن عشرة من تلاميذ الفرقة الرابعة بالمدرسة التجهيزية لتعلم اللغة الفرنسية ، على وجه التجهيز ، وطلبت من الديوان التخفيف عنهم بعض الشيء ، فأجابها الديوان إلى ما طلبت وقرر إعفاءهم من دروس اللغة التركية . [٢]

أما فى علوم الرياضيات فقد رؤى أن يدرس الجبر بالفرقة الثانية بعد أن كان قاصراً على الفرقة الأولى ، وكذلك أضيف الحساب والجغرافيا لمنهج الفرقة الرابعة ، ورفع مستوى تدريس الهندسة بتعيين بعض خريجى مدرسة المهندسخانة مدرسين لمادة الهندسة بالمدرسة التجهيزية .

لا شك فى أن هذه محاولات قيمة لتقريب التعليم التجهيزى من المستوى الجدير به ، على أن المدرسة التجهيزية لم تُعط لها الفرصة لتوطيد مركزها وتقوية تلاميذها فى مختلف العلوم : إذ أن بعض المدارس الخصوصية كان يأخذ منها تلاميذ قبل أن يتمّوا دراستهم : فمدرسة المهندسخانة ظلت سنوات تأخذ حاجتها من تلاميذ الفرقة الثانية المتقدمين ، [٣] بل إن مدرسة الألسن قد أخذت منها فى إحدى السنين تلاميذ من الفرقة الثالثة ، [٤] أى بعد التعليم الابتدائى بعامين اثنين ، ثم راحت المدارس الخصوصية تشكو ضعف مستوى

---

(١) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) رقم ٥٦٠ تقرير عن تنسيق المدارس فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٧

(٢) دفتر ٩٥ (مدارس عربى) ص ١٠٣١ رقم ٢٣٢ إلى مدرسة الألسن فى ٢٩ ذى الحجة ١٢٦٣

(٣) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص ٩ رقم ١٣١٠ إلى رأفت أفندى فى ١٣ شوال ١٢٥٥

(٤) دفتر ٢٠٩٧ (مدارس تركى) ص ١٠٧ رقم ٢٤٢ إلى مدرسة الألسن فى غرة المحرم ١٢٦٢

التلاميذ الملتحقين بها، وتقول إنها تتم لهم ما كان يجب على المدرسة التجهيزية أن تزودهم به .

المدرسة التجهيزية بأبى زعبل ثم بالأزبكية

بعد تنظيم المدرسة التجهيزية بعام نقلت فى سنة ١٨٣٧ إلى أبى زعبل فى المكان الذى كانت تشغله مدرسة الطب التى نقلت إلى قصر العينى . وظلت المدرسة التجهيزية بأبى زعبل خمس سنوات .

وفى ٢٤ شعبان ١٢٥٧ (١٨٤١م) صدر أمر عال بإلغائها فيما ألغى من المدارس والمكاتب ،[١] ولكن المدارس الخصوصية ظلت قائمة وإن أنقص عدد تلاميذها ، فلم يكن ثمت مبرر لإلغاء المدرسة التجهيزية ، أن كانت وحدها المدرسة التى تستمد منها المدارس الخصوصية حاجتها من التلاميذ . فلما شكلت اللجنة التى وكل إليها النظر فى تنظيم التعليم فى سنة ١٨٤١ على ضوء حاجات البلاد الجديدة ، كان أول ما عنيت به النظر فى « أمر المكاتب الابتدائية والمدرسة التجهيزية الملغاة فيقتصر منها على فتح العدد الذى تمس الحاجة إليه سواء فى القاهرة أو فى الأقاليم ، باعتبار هذه المدارس أصلا وأساساً للمدارس الخصوصية» ، وقدمنا بنا أن اللجنة رأت أن مدرسة واحدة للمبتديان بالقاهرة وأربعة مكاتب بالأقاليم تكفى لإمداد المدارس بحاجتها ، فأعادت فتحها ، وكان من الطبيعى إذن أن تعاد المدرسة التجهيزية إذ هى المدرسة الوحيدة التى يُلحق بها خريجو المبتديان لإعدادهم للمدارس الخصوصية. وعلى هذا الاعتبار وحده أعيدت المدرسة التجهيزية .

أما عدد تلاميذ التجهيزية فقد رأت اللجنة تحديده على ضوء العدد الذى تخرّجه المدارس الأخرى فى كل عام ، ووضح لها « أن المدرسة التجهيزية

---

(١) دفتر ٢٠٧٠ (مدارس تركى) ص ٦٠ رقم عال فى ٢٤ شعبان ١٢٥٧

تكون محتاجة إلى نحو سبعمائة تلميذ، إلا أنه لما كانت مدرستا البيادة والسوارى قد أخذتا من تلاميذ التجهيزية ما يكفيهما سنتين، وكانت المهندسخانة قد أخذت أيضاً ما يكفيها سنة، وكانت المدارس الأخرى محتوية فى الوقت الحاضر على القدر اللازم لها من التلاميذ، فقد رأت اللجنة فى هذا التنسيق الجديد أن يكون بالمدرسة التجهيزية من التلاميذ ما لا يقطع مددها ولا يخل بنظام المدارس، فقررت استكفاءها بثلثمائة تلميذ مع إلحاقها بمدرسة الألسن»[١].

وبذلك انتقلت المدرسة التجهيزية من أبى زعبل إلى الأزبكية وأصبحت قسماً من أقسام مدرسة الألسن. وفى أوائل حكم عباس الأول أعيدت مع مدرسة المبتديان إلى أبى زعبل فى المكان الذى كانت تشغله مدرسة البيادة،[٢] ثم ألحقت فى العام التالى — هى ومدرسة المبتديان أيضاً — بمدرسة المهندسخانة ببولاق.[٣]

مديرو المدرسة التجهيزية ووكلاؤها

فى سنة ١٨٢٥ أسست مدرسة قصر العينى وقام على تأسيسها «عثمان نور الدين (أفندى)»، وأصبح أول مدير لها،[٤] وعثمان نور الدين هذا من أوائل أعضاء البعثات الذين أوفدهم محمد على إلى فرنسا فى سنة ١٨١٩، وترقى إلى أن أصبح رئيساً للعمارة البحرية المصرية فى سنة ١٨٢٨ وكان من المقربين إلى محمد على،[٥] ثم لما عاد «مصطفى بهجت (أفندى)» من فرنسا (وكان قد أوفد فى البعثة التى أرسلت إلى فرنسا فى سنة ١٨٢٦) قُلِّد نظارة

---

(١) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) رقم ٥٦٥ فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٧

(٢) دفتر ٢١٣٢ (مدارس تركى) ص ٣٢

(٣) دفتر ٢١٣٤ (مدارس تركى) ص ٢١٢

(٤) Planat, op. cit, p. 32.

(٥) الأمير عمر طوسون: البعثات العلمية ص ١١

مدرسة قصر العينى ، وكان من قبل تلميذاً بها ، ومكث بها نحو سنتين ثم نقل ناظراً للمدرسة الطوبجية بطرة .(١)

وفى ذى القعدة سنة ١٢٥٢ (أوائل سنة ١٨٣٧ م) عين « إبراهيم رأفت أفندى » وكيل المدرسة التجهيزية مديراً لها ،(٢) وظل بها إلى أواخر سنة ١٢٥٧ حين ألحقت بمدرسة الألسن ، فنقل رأفت افندى ناظراً للقلم العربى بديوان المدارس .(٣) وآخر مدير تولى إدارتها فى عصر محمد على هو « رفاعه بك رافع الطهطاوى » حين جمع بينها وبين مدرسة الألسن .

ومن وكلاء المدرسة التجهيزية بالقاهرة « سليم أفندى »(٤) الذى كان ناظراً لمدرسة المحاسبة والمبتديان ، والذى نقل فى أواخر سنة ١٢٥٢ وكيلا لمدرسة الطب البيطرى ،(٥) و « إبراهيم رأفت افندى » الذى رقى مديراً لها ، و « عبد القادر أفندى » وقد كان رئيس فرقة بها ثم رقى وكيلا لها بعد رأفت أفندى ، ثم رقى ناظراً لمدرسة المبتديان بالسيدة زينب .(٦)

مدرسة المبتديان والتجهيزية بالاسكندرية

نصت لائحة التعليم الابتدائى على أن تنشأ بالاسكندرية « مدرسة للمبتديان على مثال مدارس المبتديان الأخرى على أن يكون عدد تلامذتها

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية م ٤ ج ١٦ ص ٥٧ ودفتر ٢٠١٠ (مدارس تركى) جلسة ١٦ المحرم ١٢٥٢

(٢) دفتر ٢٠٢٤ (مدارس تركى) ص ١٨ رقم ٥٥ فى ١٦ ذى القعدة ١٢٥٢ ، على باشا مبارك : م ٣ ج ٩ ص ٤١ ، أمين باشا سامى (التعليم فى مصر — القسم الخامس من الملحقات ص ٤٥)

(٣) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) رقم ٥٦٥ فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٢

(٤) دفتر ٢٠٠٦ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٣ جماد أول ١٢٥٢

(٥) دفتر ٢٠٢٤ (مدارس تركى) ص ١٨ رقم ٥٥ فى ١٦ ذى القعدة ١٢٥٢

(٦) دفتر ٢٠٨٣ (مدارس تركى) ورقة ٤ رقم ٦١ إلى شورى المعاونة فى ١٤ المحرم ١٢٥٩

مائتى تلميذ». وكذلك نصت لائحة التعليم التجهيزى على أن تنشأ بالاسكندرية مدرسة تجهيزية على مثال المدرسة التجهيزية بالقاهرة على أن يكون عدد تلامذتها خمسمائة تلميذ.

ولم يكن بالاسكندرية حين نظم التعليم ووضعت اللوائح فى سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧ إلا مدرسة للبحرية يزيد عدد تلاميذها على الألف. ولهذا آثر ديوان المدارس أن «ترتب المدرسة البحرية بموجب القوانين المذكورة: فيخصص من تلاميذها ٥٠٠ تلميذ للمدرسة التجهيزية و ٢٠٠ تلميذ للمدرسة الابتدائية»، وكتب بذلك إلى مجلس البحرية التابعة له المدرسة.[1] أما التلاميذ الباقون فأضيف إليهم مائة من تلاميذ مدرسة الطوبجية بطرة، كانوا يتعلمون العلوم البحرية وكونت منهم المدرسة البحرية الخصوصية.[2]

ولكن الراجح أن هذا القرار لم ينفذ: إذ أننا لم نعد نسمع بعد هذا التاريخ (١٨٣٦) عن مدرسة الاسكندرية الابتدائية أو التجهيزية، إلى أن كانت سنة ١٨٤٤ حين رأى ديوان المدارس أن «مكتب البحرية لا يمكنه أن يخرّج من تلامذته ضباطاً للبحرية رأساً، لأن هؤلاء الضباط يجب أن يجب أن يكونوا ملمين بعلوم الهندسة والمقابلة الجبرية وجرّ الأثقال وحساب المثلثات المستوية والكروية والجغرافيا وعلم الهيئة». ورأى الديوان أن «من الأوفق تعيين من يحتاج إليهم فى المستقبل من ضباط البحرية والمهندسين والمعماريين اللازمين للترسانة العامرة من مدرسة المهندسخانة الخديوية، إذ أن بها مدرسين لهذه العلوم ولأن العلوم الرياضية تدرس فيها بجميع فروعها».

وعلى هذا الأساس شرع ديوان المدارس يوجه عنايته إلى المدرسة

---

(١) دفتر ٢٠٠٤ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٣ ربيع الأول ١٢٥٢

(٢) دفتر ٢٠٠٦ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٠ جاد أول ١٢٥٢

البحرية لتنظيمها طبقا لقوانين التعليم الابتدائى والتجهيزى . فكأن إنشاء المدرستين الابتدائية والتجهيزية بالأسكندرية قد تأخر حتى سنة ١٨٤٤ . وقد وضع الديوان لتنظيمها وتنظيم دروسها وحياة التلاميذ فيها لائحة مطولة.[١] بدأ الديوان بالنظر إلى أعمار التلاميذ : فأبقى منهم بالمدرسة من تؤهله سنه لأن يكون تلميذاً بالمدرسة الابتدائية أو التجهيزية ، وألحق الباقين بالمدارس الحربية بالقاهرة . وشرع ديوان المدارس يبسط إشرافه على المدرسة من الوجهة « الفنية » ، أمّا فى الأمور الإدارية والمالية فقد ظلت المدرسة تابعة لمديرية البحرية بالأسكندرية .[٢] وكذلك ظل لها اسم « المدرسة البحرية » ، إما رغبة فى الاحتفاظ باسمها القديم ، أو لتبعيتها الإدارية لمديرية البحرية ، وكانت تسمى أحياناً « مدرسة المبتديان والتجهيزية بالأسكندرية » ، وأحياناً أخرى « مدرسة التجهيزية البحرية » .

تلاميذ المدرسة

قررت الحكومة ألا يزيد عدد تلاميذ المدرسة على ٢٢٥ تلميذاً ، كما تقرر أن تكون سن التلاميذ المراد إلحاقهم بفرقة المبتديان تتراوح بين السابعة والتاسعة ، وألا يقبل من تزيد أعمارهم على الحادية عشرة إلا إذا كانوا ملمّين بالقراءة والكتابة « بحيث يمكنهم الانتساب للفرق المتقدمة ... حتى يكون من يتموّن الدراسة الابتدائيـــة ويلتحقون بالامتحان بمدارس الاختصاص قادرين على القيام بمهام الوظائف التى سيعينون فيها عند تخرجهم من تلك المدارس وهم فى قوة الشباب ، لأنهم سيقضون فيها مدة طويلة فى تحصيل العلوم والفنون » .

---

(١) دفتر ٢٠٩٦ (مدارس تركى) ص ١٩٦ إلى كامل بك فى ٢٦ ذى الحجة ١٢٦٠
(٢) دفتر ٤٦ (مدارس عربى) ص ١٢٠٠ رقم ١٦٦ الى الترسانة فى ٢٥ المحرم ١٢٦٣

خطة الدراسة

نظمت بالمدرسة ست فرق دراسية : ثلاث للدراسة الابتدائية ومثلها للتجهيزية . يلتحق التلميذ بالفرقة السادسة ويتدرج فى الانتقال كل عام حتى الفرقة الأولى، وبذلك نرى أن سنى الدراسة الابتدائية فى مدرسة الاسكندرية هى بعينها سنو الدراسة فى غيرها من المدارس أو المكاتب الابتدائية .

أما القسم التجهيزى فمدة الدراسة فيه تقل عاما عن الدراسة التجهيزية فى القاهرة، ونظمت الدراسة فى هذه الفرق الست على مثال الدراسة الابتدائية والتجهيزية بالقاهرة تقريبا . وهاك خطة الدراسة :

الفرقة السادسة : تعلم الهجاء والقرآن حتى الجزء الرابع وكتابة الدروس على الألواح .

« الخامسة : القرآن من الجزء الخامس حتى آخره وتعلم الخط الثلث وقراءة كتب تركية سلسة العبارة، كالبركوى وكتاب الديانة والدرة الفريدة .

« الرابعة : دراسة كتب الأمثلة والبناء (كتابان تركيان) وحفظ الأجرومية ودراسة الكفراوى وكتب النصائح التركية ذات العبارة السلسلة كالبركوى وغيره ، وتعلم خط النسخ والثلث .

« الثالثة : دراسة كتب المقصود والشيخ خالد وتحفة وهبى وتعلم الحساب وخط الرقعة .

« الثانية : دراسة كتب الأزهر وبند عطار أو الكلستان (كتابان فارسيان) وأربع مقالات من كتاب لجاندر فى الهندسة وبقية كتاب الحساب وتعلم خط الرقعة والرسم .

الفرقة الأولى : دراسة الجغرافيا والإنشاء التركى والعربى وبقية أصول الهندسة والجبر لغاية الدرجة الثانية وتعلم الرسم .

ولكن المدرسة لم تستكمل فرقها الست هذه : ففى سنة ١٢٦١ (١٨٤٥) كانت بالمدرسة خمس فرق : ثلاث ابتدائية وفرقتان تجهيزيتان ،[١] وفى سنة ١٢٦٣ (١٨٤٧) كانت الفرق أربعاً : ثلاثا ابتدائية ورابعة تجهيزية .[٢]

ثم نظمت أوقات الدراسة على النحو الآتى :[٣]

« على تلاميذ المدرسة جميعا أن ينهضوا من نومهم فى وقت الفجر ، وإلى شروق الشمس يلبسون ملابسهم ويقومون بأداء صلاتهم وأدعيتهم ويتناولون فطورهم . حتى إذا أشرقت الشمس يدخلون المدرسة ، ويجب أن تكون مدة الدروس كما يلى :

ق ت	الفرقة الأولى	الفرقة الثانية	الفرقة الثالثة	الفرقة الرابعة	الفرقه الخامسة	الفرقة السادسة
١٣٠		الأزهرية	المقصود	الكفراوى	قرآن	قرآن
« «	....	التحفة	الشيخ خالد	بركوى (نصائح تركية)	كتابة على اللوح	«
« «	....	رسم	خط رقعة وإملاء	حفظ الأجرومية	مطالعة المكتوب على اللوح	«
« «	....	طعام وصلاة واستراحة	طعام	طعام	طعام	طعام
« «	....	يوم خط رقعة ويوم املاء وانشاء	التحفة	خط ثلث ونسخ	علم حال (أودريكتا)	كتابة حروف الهجاء
« «		حساب	حساب	أمثلة وبناء	خط ثلث	«
« «		هندسة	مذاكرة	مذاكرة وتسويد	مذاكرة وتسويد	«

« ويجب إعطاء نصف ساعة استراحة بين الدروس لتلاميذ الفرقة

---

(١) دفتر ٢٠٩٧ (مدارس تركى) ص ٤٠ رقم ٢٠ الى باسيليوس بك فى ١١ رمضان ١٢٦١

(٢) دفتر ٢١٢١ (مدارس تركى) ص ٧٩ رقم ٧٨ الى الباشا الكتخدا فى ٢٦ ذى الحجة ١٢٦٣

(٣) دفتر ٢١٠٣ (مدارس تركى) رقم ١٢٨٩ الى المدرسة البحرية فى ١٣ صفر ١٢٦١

السادسة. وبعد أن ينتهى تلاميذ المدرسة جميعا من استذكار دروسهم يذهبون لتناول طعام العشاء، ثم يؤدون صلاتهم وأدعيتهم ويستريحون، وحوالى الساعة الثالثة (أى ثلاث ساعات بعد غروب الشمس طبقا للتوقيت العربى) تضرب (ترومبيتة) النوم، وعندما تطول الأيام يقسم الوقت الزائد على الحصص المقررة فى الجدول السابق. ويمنح التلاميذ خمس دقائق للاستراحة بين كل درس وآخر، ولهم أن يقضوا حاجاتهم أثناءها، ولا يسمح لتلميذ بالخروج من حجرات الدراسة أثناء الدرس. وعلى المدرسة أن تعلق هذه التعليمات على بابها لتكون معلومة للجميع».

وقد ظلت هذه الخطة متبعة فى مجموعها إلا بعض تغييرات أدخلت عليها: ففى سنة ١٢٦٣ زيد كتاب الدرة الفريدة (وهو كتاب بالتركية) على منهاج القسم الابتدائى، وقررت دراسة الرسم والهندسة للفرقة الثالثة التجهيزية.

إذا قارنا هذه الخطة بخطة الدراسة بمدرستى المبتديان والتجهيزية بالقاهرة تتضح لنا فروق جوهرية: حقا إن الفرق الدراسية بالقسم الابتدائى واحدة، إلا أن اللغة التركية تدرس بالقسم الابتدائى الأسكندرى: فتلاميذ الفرقة الخامسة (أو الثانية الابتدائية) يدرسون — ولمّا يمض على التحاقهم بالمدرسة سوى عام واحد — كتاب علم الحال (أو دريكتا) وهو كتاب فى التوحيد بالتركية، وتلاميذ الفرقة الرابعة (أو الأولى الابتدائية) يدرسون كتب بركوى وأمثلة وبناء وكلها كتب تركية، وقد خففت دراسة اللغة التركية فى القسم الابتدائى عن تلاميذ القسم التجهيزى الذين اقتصرت دراستهم التركية فى الفرقتين الثانية والثالثة على قراءة كتاب «تحفة وهبى».

ولكن هذا الاهتمام الكبير بدراسة التركية بالقسم الابتدائى قد أضرّ بدراسة اللغة العربية، إذ أن دراسة اللغة نفسها بقراءة كتب النحو والصرف العربية لا تبدأ إلا فى الفرقة الأولى (النهائية) الابتدائية، بينما تبدأ بمدرسة

القاهرة من الفرقة الثانية ، كذلك قد حرم تلاميذ هذا القسم الانتفاع ببعض الكتب التى كان يقرؤها زملاؤهم بمدرسة القاهرة ومدارس الأقاليم : ككتب الجغرافيا والأخلاق وحكايات الأطفال وعقلة الصباع ، بل إن تلاميذ مدرسة الأسكندرية كانوا لايدرسون الحساب حتى يمكثوا بالمدرسة ثلاث سنين ويصلوا إلى الفرقة الثالثة وهى أول فرق القسم التجهيزى .

أما القسم التجهيزى بمدرسة الأسكندرية فمدة الدراسة فيه ثلاث سنين ، بل إن الفرقة النهائية لم تنشأ حتى ألغيت المدرسة . وجملة القول إن الموازنة بين منهاج الدراسة فى كل من مدرسة الأسكندرية ومدرسة القاهرة تظهر لنا ضعف الدراسة التجهيزية بالأسكندرية فى التركية والعربية والرياضة والجغرافيا والتاريخ . أما عن اللغة الفرنسية التى بدىء بتدريسها فى مدرسة القاهرة بعد سنة ١٨٤١ فلا نسمع عنها شيئاً فى مدرسة الأسكندرية .

إلغاء المدرسة

وفى أوائل سنة ١٢٦٥ (١٨٤٩ م) أى فى أوائل حكم عباس باشا الأول صدر أمر عال إلى ديوان البحرية بإلغاء المدرسة البحرية وتوزيع تلاميذها على المدارس الأخرى .(١)

المكتب العالى بالخانقاه

فى يولية سنة ١٨٣٦ أنشىء « المكتب العالى » بالخانقاه .(٢) وكان الغرض من إنشائه « تعليم مماليك الجناب العالى واليتامى والأطفال الآخرين الذين يحظون بالعطف السامى مع أنجال الحضرة الخديوية » .(٣) وقد تلقى العلم به

(١) دفتر ٢١٢٦ (مدارس تركى) ص ٨٠ فى ٤ جادأول ١٢٦٥

(٢) أمين باشا سامى : التعليم فى مصر — القسم الخامس من الملحقات ص ٥٥ و Artin pacha, op. cit, p. 180.

(٣) دفتر ٢٠٨٠ (مدارس تركى) ص ٩٢ و ٩٣ رقم ٣٦ أمر عال فى ١٥ ذى القعدة ١٢٥٨

من أبناء محمد على الأميران عبد الحليم بك ومحمد على بك . ولهذا كان تلاميذ المكتب العالى يميزون عن « زملائهم » فى المدارس الأخرى فى الطعام والمرتبات : فبينما تلاميذ المكاتب والمدارس الأخرى لا يتناولون — سواء فى إفطارهم أو غدائهم أو عشائهم — سوى لونين أو ثلاثة ألوان ، كان طعام تلاميذ المكتب العالى منوعا ومستوفياً للشرائط الصحية: فإفطارهم (أو التروبقة كما كانوا يسمونه) كان يتألف من قطعة من الخبز وقدر من الفاكهة الطازجة أو الجافة أو قليل من المربى ، وكان ممنوعاً منعاً باتاً أن يصرف للتلاميذ فى الصباح شىء من اللحم أو الطعام الساخن . أما طعام الغداء والعشاء فيجب ألا يزيد عن القدر الضرورى . هذا وقد عرف تلاميذ المكتب العالى الألعاب الرياضية قبل أن يعرفها غيرهم من تلاميذ المكاتب أو المدارس الأخرى : فكانوا يزاولون ألعاب (الجمباز) ويزيدون عليها لعبة (البلياردو) و (الشيش) . وبينما كان تلاميذ المبتديان لا يتناولون من الحكومة فى كل شهر إلا ستة قروش تزاد إلى سبعة ثم إلى ثمانية ، حتى إذا التحقوا بالتجهيزية أخذوا عشرة قروش ، ثم بالخصوصية خمسة عشر قرشاً ، كان التلميذ الملتحق بالفرقة الخامسة (وهى أدنى الفرق) بالمكتب العالى يتناول فى كل شهر عشرين قرشا ، وتلميذ الفرقة الأولى (وهى أعلى الفرق) ستين قرشا ، حتى إذا انتقل إلى إحدى المدارس الخصوصية بقى له مرتبه الذى كان يتقاضاه بالمكتب .[1]

وكان المكتب العالى تابعاً « للديوان الخديوى » .[2] ولكن كان لديوان المدارس الإشراف «الفنى» عليه : فهو الذى يضع نظام التدريس بالمكتب ، وهو الذى يرسل إليه المفتشين الذين يرفعون إليه التقارير عن سير الدراسة

(١) دفتر ٢٠٨٠ (مدارس تركى) ص ٩٢ و ٩٣ رقم ٣٦ أمر عال فى ١٥ ذى القعدة ١٢٥٨

(٢) دفتر ٤ (مدارس عربى) ص ٢١٦١ رقم ٣١ إلى مأمور جلب الساجين فى ٢٢ ربيع أول ١٢٦١

فيه ، وهو الذى يبعث إليه آخر كل عام دراسى لجنة لامتحان تلاميذه ، قوامها ناظر (مدير) الديوان وكبار موظفيه .

تنظيم المكتب العالى

فى سنة ١٨٤٢ وضع ديوان المدارس نظاماً للمكتب العالى استصدر به أمراً من الجناب العالى ، [١] وحدد فيه عدد التلاميذ بمائتين ، ووزعت الدروس التى تدرس فيه على خمس فرق ، واعتبر المكتب العالى مدرسة ابتدائية تجهيزية تعدّ تلامذتها للالتحاق بالمدارس الخصوصية ، ووضع نظام دراسى خاص لكل من الأميرين عبد الحليم بك ومحمد على بك التلميذين به ، كما وضع « جدول » بتوزيع ساعات اليوم للتلاميذ جميعاً على النحو الآتى :

٨ ساعات للنوم .

١٢ ساعة لتحصيل العلوم .

٤ ساعات للطعام والنزهة .

وفيما يلى تفصيل ذلك :

١ — يغادر التلاميذ الفراش قبل سبع ساعات من وقت الظهر ويؤدّون الصلاة ثم يصلون إلى المدرسة بعد نصف ساعة .

٢ — ثم يقضون ساعتين فى دروس اللغات أو فى استذكار الدروس .

٣ — ثم يستريحون نصف ساعة يتناولون فيه طعام الإفطار (الترويقة) .

٤ — وبعده يقضون ثلاث ساعات فى دراسة مستمرة .

٥ — ثم يستريحون ساعة يتخللها الغداء .

٦ — حتى إذا مضى نصف ساعة على وقت الظهر بدأ درس اللغات واستمر ساعتين ونصف ساعة .

---

(١) دفتر ٢٠٨٠ (مدارس تركى) ص ٩٢ رقم ٣٦ أمر عال فى ١٥ ذى القعدة ١٢٥٨

٧ — ثم يستريحون نصف ساعة أخرى .

٨ — وبعد الاستراحة يعودون إلى الدرس ساعتين ونصف ساعة .

٩ — ثم يستريحون ساعة يتخللها طعام العشاء .

١٠ — ثم يمضون ساعتين فى إعادة الدروس والمذاكرة .

١١ — البدء فى النوم .

وعلى هذا النحو يقضى تلميذ المكتب العالى اثنتى عشرة ساعة أى نصف اليوم فى دراسة عقلية تكاد تكون متصلة ، ولا تترك للراحة وتناول الغذاء إلا فترات قصيرة . على أن هذا (الإرهاق العقلى) لم يكن قاصراً على المكتب العالى ، بل كان عاماً فى جميع معاهد التعليم فى مصر فى عصر محمد على .

عدد التلاميذ

حُدِّد عدد تلاميذ المكتب فى سنة ١٨٤٢ بمائتى تلميذ . ولكن (الامتيازات) التى كان يتمتع بها تلاميذ المكتب كانت كفيلة بأن «رغب كل الناس فى تقييد أولادهم فيه» .[١] حتى وصل عدد تلاميذه بعد ثلاث سنين إلى ٢٩٣ تلميذاً ،[٢] واضطردت هذه الزيادة حتى وصل عددهم إلى ٥٦٣ تلميذاً . وكان معظمهم من أبناء موظفى القصور وغلمان الخديوى وأولاد الأعيان وكبار الموظفين وبعض الأجانب ،[٣] ثم إلى ٦٤٠ تلميذاً فى سنة ١٨٤٧ ،[٤] وكان على الحكومة أن تتخذ من الوسائل ما يكفل تلبية هذا الإقبال المضطرد ، فشرعت فى تنظيم بناء المكتب على أن يتسع لألف تلميذ .[٥]

---

(١) الوقائع المصرية : عدد ١٧ الصادر فى ٢١ جمادى الآخرة ١٢٦٢

(٢) دفتر ٢٠٩٧ (مدارس تركى) ص ٦٩ رقم ١٨٧ الى كامل باشا فى ١٤ شوال ١٢٦١.

(٣) الوقائع المصرية : عدد ١٧ الصادر فى ٢١ جمادى الآخرة ١٢٦٢

(٤) الوقائع المصرية : عدد ٨٧ الصادر فى ٩ ذى القعدة ١٢٦٣

(٥) دفتر ٩٧ (مدارس عربى) ص ١٩٠٦ رقم ٦٨ الى المكتب العالى فى ١٦ ربيع الثانى ١٢٦٤.

لوائح سنة ١٨٤٤

فى سنة ١٢٦٠ (١٨٤٤م) وضع ديوان المدارس للمكتب العالى لائحتين استصدر بهما أمرا من « الجناب العالى » ، فقسم المكتب العالى ثلاثة أقسام: ابتدائى وتجهيزى وخصوصى . ووضع نظام لبناء المكتب على أن يتسع لألف تلميذ : منهم ٣٤٠ بالقسم الابتدائى و ٤٠٠ بالقسم التجهيزى والباقون بالقسم الخصوصى ، وبنيت أربعة مكاتب (فصول) لتلاميذ القسم الابتدائى، وشرع فى بناء مثلها لتلاميذ القسم التجهيزى ، وخصص قسم من البناء لتلاميذ القسم الخصوصى .[1] على أن القسم الخصوصى لم يكمل إنشاؤه حتى نهاية عصر محمد على .

وكانت مدة الدراسة بالمكتب خمس سنين : منها سنتان للمبتدئين وثلاث لتلاميذ التجهيزية . وأساس الدراسة بالقسم الابتدائى — كغيره من المدارس الابتدائية — القرآن الكريم : فتلاميذ الفرقة الثانية الابتدائية يحفظون من القرآن ربعه ، ويتعلمون أحرف الهجاء ، والمتقدمون منهم يقرءون فى كتاب « عقلة الأصبع » ، وتلاميذ الفرقة الأولى (يختمون) القرآن ويتعلمون خط الثلث أو الرقعة والإملاء ، ويقرءون فى كتاب « حكايات الأطفال » أو « تربية الأطفال » . وبذلك تنتهى الدراسة الابتدائية ولم يتعلم التلاميذ شيئا من الحساب أو الجغرافيا ، ولم يقرءوا كتاباً فى النحو أو الصرف ، على نحو ما كان يتعلم ويقرأ زملاؤهم فى المدارس والمكاتب الابتدائية الأخرى .

ينتقل التلميذ إلى الفرقة الثالثة التجهيزية فيتلقى دروسا فى الفارسية والتركية، ويقرأ كتبا فى النحو والصرف والعقائد ،[2] ويكتب الرقعة أو الثلث ويتعلم

---

(١) دفتر ٩٧ (مدارس عربى) ص ٦ ١٩٠ رقم ٦٨ الى المكتب العالى فى ١٦ ربيع الثانى ١٢٦٤

(٢) وهى الكتب التى يقرؤها تلاميذ المدارس التجهيزية فنكتفى بالاشارة إليها دون ذكرها.

الحساب . فاذا مانقل إلى الفرقة الثانية تابع قراءة الفارسية والتركية والنحو والصرف والعقائد ، ومرن على خط الرقعة والإنشاء والإملاء ودرس الحساب ، فاذا مانقل إلى الفرقة الأولى وهى نهاية القسم التجهيزى تابع قراءة كتب كبيرة فى الفارسية والنحو والصرف ومرن على الرقعة والإملاء والإنشاء ودرس الحساب والرسم والهندسة . وهناك فريق من التلاميذ فى فرق التجهيزية يدرسون اللغة الفرنسية ويقرءون كتبا فى الأدب والتاريخ الفرنسى ، [١] ويتعلمون الهندسة والحساب بالفرنسية ، وهم الأمراء ولفيف من زملائهم فى الدرس . [٢]

بذلك ينتهى التلاميذ من الدراسة التجهيزية بالمكتب العالى ويتأهبون للالتحاق بالقسم الخصوصى منه أو بمدرسة من المدارس الخصوصية الأخرى ، ولما يدرسوا الجبر والتاريخ والجغرافيا ، وهى مواد لا غنى عنها للإعداد للدراسة العالية . ولذلك رؤى إنشاء (سنة إعدادية) للقسم الخصوصى بالمكتب العالى ، يتلقى فيها التلاميذ الذين أتموا الدراسة التجهيزية دروسا فى الهندسة والجبر والرسم والإنشاء والتاريخ من كتب تركية مقررة ، ليصبحوا قادرين على التكلم بالتركية ، ويشرعون أيضا فى تعلم اللغة الفرنسية . حتى إذا انتهوا بنجاح من دروس السنة الإعدادية نقلوا إلى القسم الخصوصى . وقد وضع نظامه على أن يقسم فرقتين : إحداهما عسكرية والأخرى مدنية ، وفى كل منهما دروس مختلفة . [٣] وتنتهى الوثائق التى بين أيدينا عن عصر محمد على وليس فى إحداها ذكر ما للقسم الخصوصى بالمكتب العالى .

ولما تولى إبراهيم باشا وشرع فى تنظيم التعليم فى مصر على أسس جديدة ،

---

(١) منها قصص لافونتين وتاريخ رومة وكتاب فى الجغرافيا .

(٢) دفتر ٢٠٩٧ (مدارس تركى) ص ٦٩ رقم ١٨٧ إلى كامل باشا فى ١٤ شوال ١٢٦١ والوقائع المصرية : العدد ١٧ فى ٢١ جمادى الآخرة ١٢٦٢

(٣) دفتر ٢١٢١ (مدارس تركى) ص ١٥ رقم ١١ إلى الباشا الكتخدا فى ١١ شوال ١٢٦٣ .

وكان ساعده الأيمن فى ذلك «لامبير بك» ناظر مدرسة المهندسخانة، شرع فى إنشاء (كوليج) من تلاميذ المكتب العالى بالخانقاه ومكتب المبتديان بأبى زعبل، [١] ولعلها «دار الفنون» التى كان (إبراهيم باشا) عازما على إنشائها وبنائها بحوش الشرقاوى وتدريس جميع الفنون العالية بها، إلا أن هذا الأمر لم يتم لانتقاله إلى دار البقاء». [٢]

نظار المكتب العالى

لما أنشىء المكتب العالى فى يولية سنة ١٨٣٦ عين «حسين أغا» ناظرا عليه إلى فبراير ١٨٤٠، ثم عين «محمد شنن أفندى» [٣] إلى يونية ١٨٤٨، ثم «محمود بك» إلى يناير ١٨٤٩، هكذا يقول أمين باشا سامى. [٤] ولنا أن نتابعه فى قوله هذا إلى حد كبير، فالوثائق التى بين أيدينا تشير فى كثير من المواضع إلى «محمد شنن بك قبودان» و «محمود بك»، إلا أن التواريخ التى حددها أمين باشا سامى فى كثير من الدقة تدعو إلى الشك، وخاصة لأنه لم يذكر المصدر الذى استق منه ماذكر، فإحدى الوثائق تشير إلى «شنن قبودان ناظر المكتب العالى» فى محرم ١٢٥٥، [٥] بينما يذكر أمين باشا سامى أنه تولى النظارة على المكتب فى مارس سنة ١٨٤٠ الموافقة لسنة ١٢٥٧

---

(١) دفتر ٢١٢٥ (مدارس تركى) س٢٧ رقم ١٥ إلى المهندسخانة فى ٢٢ ذى القعدة ١٢٦٤

(٢) على باشا مبارك: الخطط التوفيقية م ٤ ج ١٤ ص ١٢٥ «عن سالم سالم أحمد مبعوثى إبراهيم باشا إلى أوربا لدراسة الطب»

(٣) وهو من تلاميذ بعثة ١٨٢٦ إلى فرنسا حيث درس الفنون البحرية وقد ترقى فى مناصب البحرية الى وكيل العمارة المصرية واشترك فى حرب القرم ومات غريقا بها فى سنة ١٨٥٥ «الأمير عمر طوسون: البعثات العلمية ص ٣٨ — ٣٩»

(٤) أمين باشا سامى: التعليم فى مصر — القسم الخامس من الملحقات ص ٥٠

(٥) دفتر ٢٠٤٨ (مدارس تركى) س ١٢ إلى شنن قبودان فى ٢٦ محرم ١٢٥٥

هجرية ، كما أننا لم نجد ذكراما « لحسين أغا » أول ناظر على المكتب، بل إن بعض الوثائق التى أشرنا إليها تذكر أن « الشيخ رفاعة رافع » كان (ملاحظا) للمكتب فى التاريخ الذى كان « حسين أغا » هذا متوليا نظارته ، وقد تكون لرفاعة الشئون الفنية ولحسين أغا الشئون الإدارية على نحو ما كان متبعا فى المدارس فى ذلك الوقت .

الكتابُ الرابع

التعليم الخصوصي والبعوث العلمية



الفصل الأول

المدارس الطبية

مدرسة الطب البشرى

كانت مدرسة الطب أكثر المدارس التى أنشأتها حكومة محمد على إنتاجاً وتحقيقاً للغرض الذى أنشئت من أجله ، وهى أول مدرسة « عالية » أنشئت فى مصر .

انحط الطب فى مصر — والبلاد على أبواب القرن التاسع عشر — كما انحطت سائر العلوم ، وأصبح التطبيب احتكاراً لطائفة من « الحكماء » و « الحلاقين » أخذوا فنهم بالممارسة من غير دراية أو علم ، فلما كون محمد على جيشه لم يجد غيرهم فاعتمد عليهم فى تطبيب جنوده ، ومنهم كانت تتكون مصلحة صحة المستشفيات عندما تولى « كلوت بك » تنظيم الإدارة الصحية فى مصر .

ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فقد أحست الحكومة بالحاجة الشديدة إلى العناية بصحة رجال الجيش والأسطول ، فشرعت تستدعى الأطباء الأجانب ومنهم الدكتور « كلوت » الذى عينته طبيبا ورئيسا للجراحين بالجيش المصرى .

وسُنت لوائح الصحة وأنشىء مجلس للصحة (شورى الأطباء) طبقا للوائح الفرنسية مع قليل من التغيير . وأقيمت مستشفيات متنقلة لفيالق الجيش ومستشفيات ثابتة ، كان أكبرها شأناً « مستشفى أبى زعبل » الحربى الذى أنشىء فى سنة ١٨٢٥ .

ولكن القيام على شئون هذه المستشفيات بما يكفل الصحة لجنود الجيش الذى يزداد عدده يوما بعد يوم كان يحتاج إلى مدد لا ينقطع من الأطباء ،

ولم يكن فى وسع الحكومة إذ ذاك أن تجد كفايتها من الأطباء الأجانب المخلصين فى عملهم ، الماهرين فى فنهم ، فلم يكن بد من أن تعتمد على أبناء البلاد ، تأخذ نفراً منهم بثقافة طبية ما وسعها الجهد ومهدت الأسباب ، ثم ترسل بهم إلى فرق الجيش والأسطول يخلفون الأطباء الأجانب فيما احتكروه من فن وعمل . وكان أن وافقت حاجتها هذه رغبة ملحة كانت تجيش فى صدر الدكتور «كلوت» مذ قدم مصر ونَظَّمَ الإدارة الطبية الحربية فيها ، فوجدت الفكرة فى هذا الطبيب الفرنسى «رجلها» الذى أحاطها بعنايته ونفث فيها من حماسته ، وقام على تنفيذها ما وسعه الجهد ، وظل يمدُّ لها من نشاطه وإخلاصه ما حقق لها عمراً طويلا وتاريخا حافلا .

كان «كلوت بك» يرى أن مصر تملك كل العناصر اللازمة لتعليم الطب : فن مصلحة للصحة تنظمها لوائح موضوعة ، إلى مستشفى واسع يتقبل كل من يرد إليه من مرضى فرق الجيش المقيمة بجانبه ، إلى عدد من الأطباء الممتازين يعملون فى هذا المستشفى ، وليس على الحكومه إلا أن تستغل هذه العناصر جميعا : فالمكان قائم فعلا وهو مستشفى أبى زعبل ، والأساتذة موجودون حقا وهم أطباء المستشفى من الأجانب ، أما التلاميذ فكان كلوت بك يرى أن يُجمع فى المستشفى مائة وخمسون تلميذاً [١] يعرفون القراءة والكتابة والحساب ، ويدرسون اللغة الفرنسية إلى جانب علوم الطب والصحة التى ينقلها إلى لغتهم مترجمون حاذقون . أما عن السنوات التى يقضيها هؤلاء التلاميذ فاقترح أن تكون ثلاثا ، وذلك لما يعلمه «الدكتور كلوت» من حاجة الحكومة الملحة إلى أطباء لمستشفياتها . وأراد أن يقدم ضمانا للحكومة عن تقدم الدراسة بالمدرسة فاقترح أن تؤلف لجنة يرأسها ناظر

---

(١) لا خمسمائة كما يذكر الدكتور نجيب باشا محفوظ فى كتابه : Hist. of the Medical Instruction in Egypt, p. 28.

الجهادية وأعضاؤها هم أعضاء مجلس الصحة (شورى الأطباء) ، وتشرف هذه اللجنة على امتحانات المدرسة وتمنح الرتب لمستحقيها .

بهذا وغيره كتب الدكتور كلوت بك إلى رئيس أركان حرب الجيش المصرى فى ذلك الوقت ، [١] والمطّلع على كتابه هذا يدرك أن « الدكتور » كان يمهد كل شىء أمام الحكومة : فالبناء قائم والأساتذة والمترجمون البارعون متوفرون وهو « واثق فى كفاءتهم » ، والتلاميذ الملتحقون لا يشترط أن تكون لهم ثقافة عالية ، ومدة الدراسة لا تتجاوز ثلاث سنوات ، ثم هو بعد هذا كله يقدم للحكومة ما تشاء من « ضمانات » .

إنشاء المدرسة

وأخيرا وافقت الحكومة على اقتراحه ، « وانتخب مائة تلميذ من أبناء مصر الراغبين فى إدراك هذه العلوم (علوم الطب) والمستعدين لحفظها وذلك فى غرة شعبان المعظم سنة ١٢٤٢ (١٨٢٧م) ، ولكى يزيد ميلهم ورغبتهم فى تحصيلها خصص لكل منهم فى كل شهر مائة قرش ماهية ماخلا الكسوة وتعيين . . . وخصص لهم أيضا معلمون ماهرون يعلمونهم اللغة العربية وغيرها » . [٢] وقد اختير هؤلاء التلاميذ من بين الطلاب المترددين على الأزهر والمساجد الأخرى ، [٣] وقسموا عشرات يرأس كل عشرة أكثرهم علما . ويبالغ بعض الكتاب فيقول إنهم لا يكادون يعرفون القراءة والكتابة وأتوا إلى المدرسة « بقمصانهم الزرقاء » . [٤] وقد قابلت كلوت بك

---

(١) من كلوت بك الى عثمان نور الدين بك فى ١٨ ذى الحجة ١٢٤١ : Clot, Compte rendu des travaux de l'école de medecine, 1833.

(٢) الوقائع المصرية : العدد (٨) الصادر يوم الأربعاء ١٤ شعبان ١٢٤٤

(٣) من تقرير كلوت بك لبورنج. Bowring, op. cit, p. 139.

(٤) Hamont, op. cit, II, p. 92.

فى بدء عمله عقبات بذل جهده للتغلّب عليها وأهمها :

١ — عقبة التشريح :

كان كثيرون يرون أن التشريح لا يتفق والتقاليد الدينية التى ترعى حرمة الموتى ، ويبالغ بعض الكتاب فى تجسيم هذه العقبة حتى ليذكر أن الحكومة إنما جعلت مدرسة الطب بأبى زعبل لإبعادها عن أنظار الأهالى المسلمين الذين يبغضون تشريح الموتى.[١] ولكن من الجلى أن إنشاء المدرسة بأبى زعبل دعا إليه وجود المستشفى العسكرى لفرق الجيش المعسكرة بتلك الجهـــة . وسنرى بعدُ أنّ نقل هذه الفرق من أبى زعبل وفقر المستشفى العسكرى فى الحالات المرضية المنوعة استتبعا نقل المدرسة إلى المدينة .

وقد يكون من المفيد أن نذكر هنا أن « مرسوم التشريح » فى انجلترا الذى وضع حدا لنهب الجثث لم يصبح قانونا إلا فى أغسطس سنة ١٨٣٢ .[٢]

ويقول الدكتور كلوت بك إنه تمكن من إقناع العلماء بضرورة التشريح ونال موافقتهم سرّاً على أن يستخدمه بحذر ، فاتخذ من الاحتيـاطات ما أمكنه : ومنها أنه أحاط المستشفى بحرس من الجند قال عنهم إنهم « قد يكونون أول من ينقلبون عليه » إذا أدركوا الحقيقة ، ثم اعتاد الطلبة شيئا فشيئا تشريح الجثث وأدركوا ضرورته ، ثم حملوا اعتقادهم هذا إلى أهلهم وعشيرتهم فشاطروهم رأيهم ، حتى أصبح الرأى العام بعد سنوات قليلة من إنشاء المدرسة لا يجهل بتشريح الجثث ، وحتى ليذكر أحد الأطباء الأجانب الذين زاروا مدرسة الطب واشتركوا فى امتحاناتها أن الأطبـــاء فى مصر

---

(١) Pückler — Muskau, Travels & Adventures in Egypt, I, p. 227. و Saint-John, Egypt & Meh. Ali, II, p. 401.

(٢) Nagib Pacha Mahfouz, Hist. of the Medical Instruction in Egypt, p.29.

يقومون بتشريح جثث الموتى بحرية أكثر مما يتمتع بها ، زملاؤهم ، فى لندن.[1]

ومما عاون على زوال هذه العقبة (تدخل) كلوت بك مع علماء الأزهر وجذبهم إلى آرائه ، بدعوتهم إلى امتحانات المدرسة والخطابة فيها ، وأحاديثه معهم عن رغبته فى أن يعيد للطب مقامه فى الشرق ونحو ذلك ، حتى لقد فكر الشيخ العروسى — أحد مشايخ الأزهر — أن تُلقى فى الأزهر دروس فى الصحة والطب الشرعى والطبيعة والكيمياء وفروع الطب النظرية الأخرى ، ويقول كلوت بك إن موت هذا الشيخ الوقور قد عاق تنفيذ هذه الرغبة النبيلة .

٢ — عقبة اللغة :

كان من المتعذر العثور على تلاميذ يعرفون لغة أجنبيـة كالفرنسية أو الإيطالية ، وهما اللغتان اللتان يتحدث بهما أطباء المستشفى وأساتذة المدرسة ، فلم تكن ثمت مندوحة من أن تدرس لهم علوم الطب باللغة العربية التى لا يعرفون غيرها ، ولـكن لمـّا كان الأساتذة لا يعرفون سوى الفرنسية أو الايطاليـة كان لا بد من وسيلة لنقل دروس هؤلاء الأساتذة إلى اللغة العربية حتى يفيد منها الطلاب أكبر فائدة ، فعين مترجمون يعرفون لغة التلاميذ ولغة الأساتذة . ولـكنّ هؤلاء المترجمين كانوا يجهلون علوم الطب التى ندبوا للترجمة فيها ، ولذلك اتبعت الطريقة الآتية فى التدريس :

أولا — كان الدرس ينقل إلى العربية فى بادىء الأمر فى حضرة الأستاذ ، وعلى الأستاذ أن يمدّ المترجمين بما يلزم من تفسيرات حتى يتسنى لهم فهم

---

(١) المجلة الطبية المصرية : السنة الحادية عشرة فى ١٠ ديسمبر ١٩٢٨ ص ٨٤٣ (عن تقرير الامتحان المقدم من الأستاذ لالمان)

الدرس ، وعلى المترجمين أن يعيدوه أمامه بلغته الأصلية ، حتى يثق الأستاذ فى دقة الترجمة .

ثانيا — ثم يملى الدرس بعد تعريبه على الطلبة فيكتبونه بخطوطهم فى كراساتهم .

ثالثا — ثم يقوم الأستاذ بشرح الدرس للطلبة شرحا وافيا ، وكان مباحا لرؤساء الجماعات من الطلاب توجيه الأسئلة فيما استعصى عليهم فهمه ، وعلى كل منهم بعد ذلك أن يعيد الدرس لتلامذة قسمه .

رابعا — وكان الطلبة يمتحنون فى آخر كل شهر فيما تلقوه من الدروس خلاله ، وكان منصب رياسة القسم موضوع مباراة لمن يطمح إليه من الطلاب .

وكان كلوت بك يرى — ويشاركه الأساتذة فيما يرى — أن ليس من الضرورى أن يكون المترجم المنوط به أمر الوساطة بين الأساتذة وتلاميذه متمكنا من العلم الذى يلقيه الأستاذ ويقوم هو بنقله إلى اللغة العربية ، بل كانوا جميعا يرون أنه يكفى « أن يكون هذا الناقل حسن الإلمام باللغتين : اللغة التى يترجم منها واللغة التى ينقل إليها ، ومن الكفاية بحيث يفهم الدروس التى يفسرها له الأستاذ ، ومن الميسور للأستاذ — متى تم النقل على الصفة المتقدمة أى بطريق الرواية عن الأستاذ — أن يراقب صحة ما ألقاه (الوسيط) فى حضرته ، بتكليفه إياه أن يترجم إلى الفرنسية ما كان قد عرّبه منها ، ومثل هذا التمرين المضاعف ينتهى بالمترجم إلى الاضطلاع بنصوص الدرس والإحاطة بأطرافه ، فيكون مما لا شك فيه أن الدرس الذى حضر على هذا المثال قد نقل نقلا دقيقا روعيت فيه الأمانة التامة » . [1]

هذا ما كتبه كلوت بك وزملاؤه إلى جريدة أجنبية فى معرض الدفاع عن

---

(١) انظر بيان ناظر المدرسة وأساتذتها إلى جريدة أزمير فى ديسمبر سنة ١٨٣٨ فى كتاب الدكتور كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر ج ٢ ص ٦٤٨

مدرسة الطب ومستوى تلاميذها العلمى ، وإن كانوا قبل ذلك بعام واحد قد كتبوا إلى ديوان المدارس فى معرض آخر : «إن الدروس التى كان يدرسها المدرسون الأجانب الذين لايلمون باللغة العربية أو باللغة التركية كان ينقلها للطلبة مترجمون لايعلمون شيئا عن معناها ، كما أنه لايمكن شرحها لهم لعدم إلمامهم بهذا العلم . وهذا هو السبب الوحيد فى تأخر الطلبة .» (١)

والواقع أنه بالرغم من كل ماقيل فى تبرير طريقة الترجمة هذه ، وهى الطريقة الوحيدة التى لم يكن يسع المدرسة إلا أن تلجأ إليها ، فإن لنا أن نشك كثيرا فى جدواها على التلاميذ ، وأكبر الظن أن المعلومات التى كان يُقدَّر لها أن تصل إلى أذهان التلاميذ لم تكن تعدو أن تكون عند الكثير منهم مصطلحات جافة مفككة خالية من الروح ، هذا إلى أن « المصطلحات العربية» لم تكن قد وضعت بعد . وهذا ما حدا بالدكتور كلوت بك إلى اتخاذ إجراءات يضمن بها دقة الدروس المعربة وصحتها من الوجهتين العلمية واللغوية : فمن الوجهة العلمية جعل من المترجمين بالمدرسة أول تلامذتها ، فأصبحوا يتلقون علوم الطب حتى يتمكنوا بعد من تعريبها ، فألحق «مسيو رفايل» وكان متمكنا من العربية والفرنسية والإيطالية بالمدرسة ، وكلف بدروس الفيزيولوجيا ، وقد أظهر فى تفهمها وتعريبها من الكفاية والدقة ما أهَّله بعد سنوات خمس ليكون مساعدا لأستاذها ، وقال عنه كلوت بك إنه يقوم بعمله « بمهارة خليق بها طبيب حاذق ومتمكن من العربية مثله » . (٢)

وكذلك «عنحورى»: وكان يعرف اللغتين العربية والإيطالية والرياضيات والطبيعة وألهم ذوقا ساعده فى تعلم العلوم ، فقام بترجمة الدروس فى مهارة ويسر . وهو «يستحق الثناء لا بكونه مترجما قديرا فحسب ، بل لما يبديه

---

(١) دفتر ٢٠٠٥ (مدارس تركي) جلسة شورى المدارس فى ١٩ صفر ١٢٥٢

(٢) Clot, Compte rendu . . . p. 44.

من الإخلاص والدأب فى البحث فى ثنايا المؤلفات الغربية عن المصطلحات العربية فى العلوم الطبيعية وقد تقدم فى ذلك تقدما باهرا ». [١] ثم أضيف إليهما ، أوجست سكاكينى ، (من مرسليا) «وفيدال» ، والأعمال الأولى التى أتمها كل منهما تستحق التشجيع ويؤمل من اشتراكهم فى ترجمة المؤلفات أفضل النتائج » . [٢]

ومن الوجهة اللغوية عُيِّن بعض علماء الأزهر ليقوموا على إصلاح الدروس المعرَّبة ، وقد عرف هؤلاء الموظفون «بالمصححين» . ولما أنشئت المدارس الأخرى عين لها كذلك مصححون ، وكانوا فريقا هاما من الموظفين (الفنيين) بالمدارس الخصوصية ، ومن هؤلاء المصححين كان بعض أعضاء بعثة الطب الأولى إلى فرنسا فى سنة ١٨٣٢ .

ولا شك فى أن هؤلاء المصححين[٣] بما أتيح لهم من الاطلاع على المؤلفات العربية قد أمدوا المترجمين بعظيم المعاونة فى اختيار الألفاظ العربية التى تقابل المصطلحات الطبية الأجنبية ، أما المصطلحات التى لم يجدوا لها مرادفا عربيا فقد وضعوا لها مصطلحات جديدة مشتقة من الألفاظ الأجنبية . «ومن هؤلاء الرجال مجتمعين تكونت «أكاديمية» تكفل أمانة الترجمة وصحتها، [٤] وأصبح للطب فى خمس سنين قاموس (Vocabulaire) تزيد كلماته على ستة آلاف كلمة » . [٥]

---

(١) و (٢) Ibid, p. 45.

(٣) من هؤلاء المصححين الشيخ محمد الهراوى والشيخ أحمد الرشيدى وقد أنفذا فى بعثة الطب إلى فرنسا والشيخ إبراهيم الدسوقى والشيخ سالم عوض (وكان المصحح الأول) والشيخ محمد عمر التونسى (وكان الباشمصحح) وكانا يعملان بالمدرسة فى السنين الأخيرة من عصر محمد على .

(٤) Clot, Compte rendu, p. 142.

(٥) Ibid, p.214.

ومن الإجراءات التى اتخذها كلوت بك للتهوين من أضرار طريقة الترجمة والتمهيد للاستغناء عنها إنشاء «مدرسة فرنسية» ألحقت بمدرسة الطب، ويتلقى فيها تلاميذ الطب اللغة الفرنسية إلى جانب مايدرسون من علوم الطب والصحة، حتى يتمكن خريجو المدرسة من متابعة دراستهم فى علم دائم الجدّة بقراءة المؤلفات التى تصدر فى أوربا، وقد عمل «الشيخ رفاعة رافع» فى هذه المدرسة مدرسا للترجمة لعشرين تلميذا بعد عودته من فرنسا.[1]

ومن الإجراءات التى اتخذت أيضا للحد من أضرار طريقة الترجمة أن تلاميذ الفصول المتقدمة كانوا يدرسون للتلاميذ المبتدئين مبادىء علوم الطب ويشرحون لهم ماغمض عليهم، وبذلك يتاح للطالب أن يتحرر من وساطة المترجمين، وللأستاذ أن يصل بآرائه مباشرة إلى الطالب، فيتقبلها هذا فى كثير من الوضوح والسرعة، وكان هذا تمهيدا لتعيين أوائل المتخرجين معيدين ثم مدرسين بالمدرسة.

الأساتذة ومواد الدراسة

عيّن الدكتور كلوت «Clot» ناظراً للمدرسة وأستاذ الباثولوجيا والعيادة الخارجية والعمليات والتوليد، وعين الدكاترة جيتانى «Gaetani» للتشريح العام والوصفى والفيزيولوجيا، وبرنار «Bernard» للصحة الخاصة والعامة والصحة العسكرية والطب الشرعى، ودفنيو «Duvigneau» للباثولوجيا الداخلية والعيادة الداخلية، وبارتلمى «Barthélmy» للمادة الطبية والعلاج والسموم، وسيليزيا (Celesia) للكيمياء والطبيعة، وفيجارى «Figari» للنبات والإشراف على حديقة النباتات، ولاسبرانزا «Lasperanza» لتحضير دروس التشريح وإعداد القطع التشريحية والباثولوجية. ولضمان تطبيق النظريات

---

(١) من رفاعة الى جومار فى ١٦ أغسطس ١٨٣١ فى Journal Asiatique, VIII. p. 534.

الدراسية على الحالات المرضية عُهد إلى أساتذة الباثولوجيا والعيادة الداخلية والخارجية إدارة أقسام المستشفى التى تتصل بدراستهم .[١]

ووضعت الدروس الفرنسية تحت إشراف مسيو أوسلى «Ucelli» وخلفه برونشيه «Bronchier» . ولمّا خلت بعض مناصب الأستاذية أعلنت مسابقة عامة يدخلها من يشاء من الأطباء ، فتمتحنهم لجنة خاصة امتحانا تحريريا وشفويا لتختار أجدرهم بالمنصب ، ومن كبار الأطباء كان يعين الوالى «أساتذة شرف» بالمدرسة وكانوا يشتركون فى امتحاناتها .[٢]

تلاميذ المدرسة

قلنا إن المدرسة افتتحت فى سنة ١٨٢٧ بمائة من التلاميذ ، كان منهم صغار السن الذين لم يعدُوا العاشرة ومنهم الكبار الذين زادوا على العشرين . ويذكر أحد رؤساء لجان الامتحان أن التلاميذ الصغار قد أظهروا فى دراستهم ذكاء نادرا ومرونة تبشر بمستقبل مجيد ، أما كبار السن فثقافتهم قاصرة ولم يظهروا من التقدم ما أظهر زملاؤهم الآخرون . أما كلوت بك فكان يرى أن التلاميذ الصغار تنقصهم معرفة اللغة العربية الفصحى ، ولمّا كانت مدة الدراسة لا تعدو ثلاث سنوات أو أربعا فقد كان من المتقد أن يتخرج منهم أطباء لمّا يزالوا فى طراوة الصبي وصدر العمر . وكان إعداد أولئك وهؤلاء سقيما لا يعدو اللغة العربية والحساب ، أما المواد اللازمة للتمهيد لدراسة الطب فقد كانوا يجهلونها جهلا تاما ، ومن هنا تبدو الصعاب التى صادفتها مدرسة الطب أول حياتها فى أخذ تلاميذها بعلوم الطب وطبعهم على ثقافة طبية قوية ، تؤهلهم للمهنة التى تعدّهم لها . وقد حاولت الحكومة أن تتلافى

(٢) Clot, Compte rendu . . . p. 6—7.

(١) Ibid. p. 56.

هذا النقص بإعداد التلاميذ لمدرسة الطب فى مدرسة تجهيزية خاصة عرفت بمدرسة «المارستان». وسنرى حين نتحدث عن هـذه المدرسة أن التجربة أخفقت، وقنعت مدرسة الطب بأن تستمد تلامذتها من المدرسة التجهيزية كغيرها من المدارس الخصوصية.

أخضع التلاميذ لنظام عسكرى شديد: فظلوا بالمدرسة لا يخرجون منها ليلا ولا نهاراً، ويتبعون فى منامهم وطعامهم ما يتبعه الجنود فى ثكناتهم، وقسّموا عشر جماعات ثم اثنتى عشرة جماعة، وكل جماعة تنافس الأخرى، ويرأس كل جماعة طالب من المتقدمين يشرف على أفراد جماعته، ويشرح لهم ما غمض من دروس الأساتذة. وكان طبيعياً أن لا يقسم هؤلاء التلاميذ فى أيامهم الأولى بالمدرسة إلى فرق دراسية: فجميعهم لم يدرسوا من علوم الطب شيئا، ولذلك كونت منهم جميعاً فرقة واحدة، درست لهم فى العام الأول من التحاقهم بالمدرسة مبادىء فى الفلسفة الطبيعية ومناهج البحث الطبى ومبادىء فى التشريح والمادة الطبية ومبادىء فى الباثولوجيا العامة والجراحة. وأظهر أول امتحان عقد فى شعبان ١٢٤٣ الفروق بين التلاميذ فى قدرتهم على استيعاب المواد التى درست لهم خلال العام المنصرم، فقسموا ثلاث فرق، كما أظهر الامتحان التلاميذ الذين ليست لهم القابلية لتلقى دروس الطب فسُرِّحوا من المدرسة واستخدموا للتطعيم بالأقاليم، ورأت المدرسة الاقتصار فى عامها الثانى على من بهامن التلاميذ حتى تستطيع الإشراف على تعليمهم إشرافا تاما ومعرفة النابهين منهم والمتوسطين والمتأخرين. وفى نهاية العام التالى رُقّى من تلاميذ الفرقة الأولى مساعدون «sous-aides» يعملون فى المستشفى على أن يتابعوا دراستهم النظرية بالمدرسة. وتابع التلاميذ دراستهم حتى إذا كان العام الرابع من إنشاء المدرسة (١٨٣٠ — ١٨٣١) أتمّ بعض طلاب (الدفعة) الأولى دراستهم ورقوا إلى رتبة «aides-majors». ولكن

، لما كانت هذه المدرسة الناشئة قد قابلت فى سنيها الأربع الأولى بعض صعوبات أضاعت قسطا من الزمن ، استقر رأى الأساتذة وشورى الأطباء وناظر الجهادية على مدّ الدراسة سنة دراسية أخرى » .(١) ولكن حاجة الجيش إلى أطباء اضطرت المدرسة إلى تخريج معظم تلاميذها القدماء قبل أن يتموا دراستهم ، على أن ترسل إليهم فى كل ثلاثة شهور الدروس التى تلقى بالمدرسة ، وفى نهاية العام الدراسى يمتحنون مع (زملائهم) طلبة المدرسة . وأنذرهم الدكتور كلوت بأن ترقيتهم لا تكون إلا ابناء على مايظهرونه من التقدم فى دراستهم وعلى تقارير رؤسائهم فى المصالح التى يعملون بها.

وبذلك كانت المدرسة تنتظم — بعد خمس سنين من إنشائها — تلاميذ حائزين لرتبة «aides-majors» وآخرين حائزين لرتبة «sous aides» ثم ثلاث فرق دراسية ، وبذلك تكون مدة الدراسة بالمدرسة خمس سنوات . إلا أن أكثر التلاميذ كانت تضطرهم حاجة الجيش إلى ترك المدرسة قبل انتهاء هذه المدة . والواقع أن الطلبة لم ينتظموا فى دراستهم الطبية إلا فى السنوات الثلاث الأولى ، ثم ألحقوا مساعدين للأطباء فى فرق الجيش والأسطول ، ومن أوائل الطلبة اختير الاثنا عشر طالبا الذين أنفذوا فى أول بعثة للطب إلى باريس فى سنة ١٨٣٢ .

الامتحانات

مر بنا أن الدكتور كلوت فى التقرير الذى رفعه إلى ديوان الجهادية عن إنشاء المدرسة اقترح تكوين لجنة من أعضاء شورى الأطباء ويرأسها ناظر الجهادية للإشراف على امتحانات المدرسة ومنح الرتب لمستحقيها ، والواقع أن كلوت بك كان يرى فى الامتحانات العامة للمدرسة (فرصة) للدعاية لها

---

(١) Clot, Compte rendu . . . , p.83.

والتبشير بفائدتها والتدعيم من أسسها ، فكان يدعو لها كبار الموظفين العسكريين والمدنيين وكبار العلماء والأعيان وقناصل الدول ، كما كان يدعو كبار الأطباء من الأجانب ليشتركوا فى امتحان التلاميذ ، ولا ينسى أن يأتى بفرقة موسيقية لتحيي النابهين من الطلاب . تضع لجنة الامتحان — وتؤلف من بعض الأطباء الأجانب الذين لا يعملون بالمدرسة ومن بعض أساتذة المدرسة — عدداً كبيراً من الأسئلة فى المقرر الذى درسه الطلبة ، وتجعل هذه الأسئلة فى صناديق ، ثم يختار لكل طالب أسئلة منها بالاقتراع ، ويجيب الطالب علنا عن نصيبه من الأسئلة . ويظل الامتحان معقوداً عدة أيام ، حتى إذا شارف النهاية وقف رئيس اللجنة فأثنى على الطلبة والأساتذة وتمنى للمدرسة دوام التقدم ، وقد يشاركه فى الخطابة شيخ الأزهر أو قنصل من قناصل الدول ، ثم يوزع ناظر الجهادية أو من يقوم مقامه الجوائز والرتب على الطلبة المتفوقين ، وأخيراً يرفع رئيس لجنة الامتحان تقريراً إلى الوالى بملخص النتائج وما يراه من الاقتراحات .[1]

وكانت الامتحانات فى السنين الأولى من إنشاء المدرسة قسمين : امتحانات فى المواد الطبية والطبيعية التى يدرسها الطلبة وامتحانات فى اللغة الفرنسية ، أما الامتحانات الأولى فتقارير الامتحان تشير إلى ذكاء الطلبة ونشاطهم واستفادتهم من الدروس . وقد أشار أحد التقارير إلى ما ردده بعض الكتاب من « أن بعض النفوس السيئة قد أثارت مخاوف بشأن أمانة المترجمين ، ولكن منذ الإجابات الأولى للطلبة تبددت هذه المخاوف . فقد كان من المتعذر تصديق أى غش وتدليس بالنسبة لهذه السلسلة المتصلة من

(١) رأس الامتحان فى العامين الأولين من إنشاء المدرسة الدكتور بوزارى « Bosari » طبيب الوالى وفى العام الثالث الدكتور بارزت « Pariset » من باريس وفى سنوات أخرى الأطباء : لالمان « Lallemand » مدير جامعة مونبليه وفرانك « Franc » وڤيلمان « Villemain » من كبار الأساتذة الأجانب .

الأسئلة والأجوبة التي تلقى بصوت عال ، وأمام جمهور كبير مستنير ومستقل فى رأيه وعدو طبيعى لكل رياء ، وأمام أساتذة ملئوا إخلاصا ».[١]

أما امتحانات اللغة الفرنسية فقد أكدت التقارير الأولى عدم تقدم معظم الطلبة فى دراستها ، وأرجعت ذلك إلى أن دراسة علوم الطب كانت تطغى على غيرها وتحتل من وقت التلاميذ واهتمامهم شطرا كبيرا.[٢] وفى سنة ١٨٣٦ قصر تدريس اللغة الفرنسية على عشرين من متقدمى الطلبة.[٣]

وكان كلوت بك ينتهز فرصة وجود أساتذة فى الطب فى مصر ويكتب لديوان المدارس ليطلب إليهم الفحص عن نظام المدرسة وامتحان التلاميذ ورفع تقرير بما يرونه ، ومنهم الأستاذ لالمان «Lallemand» مدير جامعة مونبليه الذى كتب فى تقريره لمدير المدارس : « لقد امتننت جداً من امتحان طلبة الطب فى تلك الأيام الثمانيـة ، وفى ظنى لو تقدم طلبة من الفرنسيين فى مثل هذه الظروف وبعد هذه المدة لما كانوا أسبق من المصريين فى مثل هذا الامتحان ، وبين هؤلاء الطلبة من أعدهم فخرا لأية جامعة أوربية ، وكثيرون يستحقون البعث لأوربا كى يعودوا أساتذة أكفاء وأطباء ماهرين ، وأقول إن المدرسة الطبية المصرية يمكنها أن تخرج الآن أطباء جديرين بالثقة التامة ، أكفاء للقيام بالتدريس والتطبيب ، ومن الأدلة القاطعة على حسن نظام المدرسة البديع أن يُعلَّم التشريح فيها بمثل هذه الحرية إذ يجد هنا معارضة أقل منها فى لندن ».[٤]

---

(١) ردد الدكتور هامون (Hamont, op. cit, II, p. 97 — 99.) والدكتور يتس Yates, The Modern History & Conditions of Egypt, II, p. 581.
أن الدكتور كلوت كان يعطى الأسئلة للطلبة قبل الامتحان ، فاذا ما جاء وقته رددوا الاجابة الصحيحة ، أو كان يوعز إلى المترجين بعدم ترجمة إجابات الطلبة الخاطئة .

(٢) وكان يرأس امتحان اللغة الفرنسية مسيو «Koenig» وهو مستشرق شاب ، كان المترجم الأول لأركان الحرب ثم عين مدرساً بالألسن وللأنجال .

(٣) دفتر ٢٠٠١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢٥ ذى القعدة ١٢٥١

(٤) المجلة الطبية المصرية . السنة الحادية عشرة . فى ١٠ ديسمبر ١٩٢٨ ص ٨٤٣

خريجو المدرسة

لم تفكر الحكومة فى بادىء الأمر إلا فى تخريج أطباء للجيش ، ولهذا قنعت بمائة طالب ألحقوا بالمدرسة أول إنشائها ، ثم زاد العدد عاما بعد عام ، لأن الحاجة أصبحت ماسة إلى ١٦٠٠ طبيب للقيام بجميع الأعمال الصحية حتى يكون لكل ٣٠٠٠ نفس طبيب .[١]

زاد عدد الطلبة حتى وصل فى السنة الخامسة من إنشاء المدرسة (١٨٣١ — ١٨٣٢) إلى ٣٠٠ تلميذ .[٢] وقد نجحت المدرسة فى خلال السنوات الخمس الأولى فى إمداد الجيش بنحو مائة وخمسين طبيبا .[٣] فأصبح لكل ألاى من المشاة ثلاثة من الأطباء المصريين المتخرجين فى أبى زعبل ويرأسهم طبيب أوربى ، ولكل ألاى من الفرسان طبيبان مصريان يرأسهما طبيب أوربى.[٤] والواقع أن هذه الزيادة فى عدد التلاميذ وبالتالى فى عدد الخريجين هى التى مكنت الحكومة قبيل وضع اللوائح فى سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧ من أن يكون لها بكل مديرية طبيب يفحص عن حالة تلاميذ مكاتب المديرية ويشرف على (تطعيم) أهلها ، ثم مكنتها فى اللوائح من أن تنص على أن يكون بكل مكتب ومدرسة مستشفى يعالج المرضى من التلاميذ ، ثم مكنتها بعد ذلك من أن تحتم فى سنة ١٨٤١ أن يكون ناظر المكتب طبيبا يدير المكتب ويعالج التلاميذ ، وكذلك مكنتها من إنشاء المستشفى الملكى بالأزبكية والبحرى بالأسكندرية ، (واستشارات طبية) فى أقسام القاهرة .

---

(١) المصدر السابق : ص ٨٤٢

(٢) من خطاب رفاعة إلى جومار فى ١٦ أغسطس ١٨٣١ فى Jour. Asiatique, VIII, p. 534. و Clot, Compte rendu. . ., p. 216.

(٣) Clot, op. cit., . . . p. 215.

(٤) الوقائع المصرية : عدد ٣٠٩ فى ١٨ جمادى الأولى سنة ١٢٤٧

وبذلك يمكن القول بان المدرسة أخذت منذ السنة الخامسة من حياتها صبغة «مدنية»: فلم تعد — كما أريد لها حين أنشئت — معهدا يُقصر خريجوه على العمل بفرق الجيش، بل أخذوا ينتشرون شيئا فشيئا بين البلاد المصرية، وهكذا أخذ الطب الحديث يتغلغل فى غمار الريف، فكان أكبر عامل على تبديد سحب الجهل التى خيّمت على البلاد قرونا طويلة.

على أن المستوى العلمى لخريجى مدرسة الطب فى السنين الأولى من إنشائها لا يمكن أن يكون عاليا، مهما أكدت تقارير الامتحان ذكاء الطلبة وصحة إجاباتهم، فكثير منهم نزعوا من المدرسة وألحقوا بفرق الجيش قبل أن يتموا دراستهم، وقد أسلفنا القول بأن المدرسة حاولت أن تعالج هذا النقص، بأن أنذرتهم أنها ستمدهم من حين لآخر بالدروس التى تلقى فى المدرسة، ثم تمتحنهم فيها آخر العام. هذا إلى أنه قد أتيحت لهم الفرصة لإكمال دراستهم «العملية» بتطبيق المعلومات التى تلقوها فى السنين القليلة التى قضوها بالمدرسة.

ولكن الجيش يستكفى عدده، والطلبة يتمّون دراستهم فى المدرسة، والشكوى ما تزال تتردد من ضعف الأطباء المتخرجين فى المدرسة وقصورهم عن مجاراة (زملائهم) الأجانب. ويعترف أساتذة المدرسة ومديرها بتأخر طلبتهم، ولكنهم يرون أن «السبب الوحيد لذلك هو أن دروس الأساتذة الأجانب الغير الملمين باللغة العربية أو اللغة التركية كان يترجمها للطلبة مترجمون لا يعلمون شيئا عن معناها فلا يستطيعون شرحها للطلبة».[1] هذا ما يقوله «كلوت بك» عن المترجمين الذين أشبعهم فى تقاريره قبل ذلك مدحا وتقديرا! ولكنه يقوله الآن ويشاركه الأساتذة فيما يقول لغرض آخر سنتبينه عما قليل.

---

(١) دفتر ٢٠٠٥ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٩ صفر ١٢٥٢

وسواء أكان تأخر الطلبة راجعا إلى عدم إتمامهم الدراسة بالمدرسة ، أو إلى قلة استفادتهم من دروس الأساتذة التى تنقل إليهم ، فقد استطالت الشكوى سنين عدة من عدم كفاية بعض الأطباء المصريين الذين يعملون بفرق الجيش ، حتى رفع رؤساؤهم من الأجانب شكواهم إلى «السرعسكر إبراهيم باشا» فكتب سموه إلى ديوان المدارس مستفسرا عما درسه هؤلاء الأطباء من الكتب وآمرا باتخاذ الإجراءات لتلافى هذا النقص . فرد الديوان ببيان الكتب التى درسها التلاميذ بالمدرسة وامتحنوا فيها ، وأرجع هذا النقص إلى أنه «لما وصل التلاميذ إلى الآلايات أهملوا كتب العلم التى تعلموها ولم يعيدوا مطالعتها ، ولم يرجعوا إليها لتطبيق علمهم على العمل بسبب تيقنهم أنه ليس هناك امتحان آخر ، فنسوا أكثر ماتعلموه . أما عن العلوم التى درسوها فى المدرسة فإن النقص فيها قليل ، وهذا النقص ليس فى كتب الأصول بل فى الكتب الخاصة ببعض الأمراض كالرمد والجدرى ، إلا أن أكثرهم لا يأخذون معهم الكتب اللازمة لهم عند خروجهم من المدرسة . وحتى لو وجد من يأخذها معه فإنه لا يطالعها . وعلاوة على ذلك فإنهم أهملوا الكراسات التى كانوا يقيدون فيها دروسهم بالمدرسة ، وتركوا ماتعلموه ولم يتمكنوا من تطبيقه عمليا » . واستقر الرأى لتلافى هذا النقص على اتخاذ الإجراءات الآتية :(١)

١ — إلزام أطباء الآلايات من خريجى مدرسة الطب بأخذ ماينقصهم من كتب الطب المطبوعة ومطالعتها .

٢ — امتحانهم كل عام فيما درسوه ، ويرقى الناجح فى امتحان ثلاث سنين متوالية إلى رتبة (حكيمباشى) ، أما الراسب فيعزل أو ينقص مرتبه أو يعاد إلى المدرسة .

٣ — يقوم شورى الأطباء بمصر بامتحان أطباء الآلايات القريبة من

---

(٨) دفتر ٢٠٦١ (مدارس تركى) ص ٧٢ رقم ٤٧٤ إلى السرعسكر فى ٢ ربيع الأول ١٢٥٦

مصر ، ويقوم شورى الأطباء بحلب بامتحان أطباء الآلايات القريبة من حلب ، ويقوم شورى الأطباء بالاسكندرية بامتحان أطباء الآلايات القريبة من الاسكندرية .[١]

اختفت إذن أو كادت بعد خمس سنين الصعوبات التى صادفها كلوت بك فى بدء عمله ، وحق له أن ينظر إلى المستقبل بعين الرجاء : فقد زال الخوف من مزاولة التشريح ، وتمت ترجمة كثير من دروس الأساتذة ، واستبعد كثير من التلاميذ الذين ثبت عدم صلاحيتهم لدرس الطب . وخرّجت المدرسة عددا من تلاميذها لفرق الجيش حيث يؤدون عملهم تحت رئاسة الأطباء من الأجانب ، وأكثر من ذلك عظم شأن المدرسة بضم مدرسة الصيدلة إليها فى سنة ١٨٣٠ وإنشاء مدرسة للولادة بها بعد ذلك بعام ، ونقل مدرسة الطب البيطرى إلى جوارها فى أبى زعبل فى العام التالى .

أصبحت مدرسة الطب إذن « معهداً » كبيراً ينتظم أقساماً عدة ، ولكن كلوت بك كان مع ذلك يستشعر القلق على مصير هذا المعهد الكبير ، ولم يكن يخفى هذا الشعور فى تقاريره . وكانت تساوره فكرتان : الأولى العمل على تمصير التعليم بالمدرسة ، والثانية نقلها إلى مكان آخر تتوافر له من الأسباب ما لا يتوافر لأبى زعبل . وكان يعتقد أنه لو وفق إلى إقناع الحكومة بتنفيذ هاتين الفكرتين فقد ضمن لمدرسته ثباتاً واضطراداً .

---

(١) وهذا ما عناه كلوت بك فى تقريره للدكتور بورنج بانشاء مدرسة للطب فى الاسكندرية وأخرى فى حلب فى سنة ١٨٣٧ لتحسين التعليم العملى للتلاميذ الذين يتركون مدرسة أبى زعبل ، ويتعلمون التشريح الوصفى والباثولوجيا والعيادة الخارجية والعيادة الداخلية والصيدلة العملية ويقوم بهذا التعليم الأطباء والجراحون ورؤساء الصيدليات فى الجيش والأسطول . (Bowring, op. cit, p. 140.)

تمصير تعليم الطب

كان كلوت بك يرى — ويشاطره رأيه كثيرون — أن استمرار الأساتذة الأجانب على التدريس للطلبة ليس من الحكمة فى شىء ، فكل من الفريقين يجهل لغة الفريق الآخر ، كما أن طريقة الترجمة — وإن اضطر اليها فى بادىء الأمر — لا يمكن أن تكون أبداً الطريقة المثلى . هذا إلى أنه كان من الصعب استدعاء أساتذة أكفاء يسدّون حاجة المدرسة المستمرة وقد كثر عدد تلامذتها إلى حد يستلزم دقة الإشراف عليهم فى دروسهم النظرية والعملية .

ولما كان يمكن القول بأن تدريس اللغة الفرنسية لهؤلاء التلاميذ قد أخفق للأسباب التى ذكرنا ، فقد استقر رأى كلوت بك على أن يطلب إلى محمد على أن يأذن ببعث نفر من خريجى المدرسة المتفوقين إلى فرنسا ليصيبوا حظاً كبيراً من علوم الطب واللغة الفرنسية ، حتى إذا عادوا إلى مصر كانوا أول مدرسين مصريين بمدرسة الطب المصرية ، فيحملون إلى تلامذتها آخر ما وصلت إليه الثقافة الطبية فى الغرب ، فى دروس يلقونها عليهم وكتب ينقلونها إلى لغتهم . وكان كلوت بك يرمى كذلك إلى بيان « الدرجة التى وصلوا إليها من التعلم فى مدرسة أبى زعبل ، ودحض ما تذرّع به الغلاة أو اللاحون من التخرصات والأكاذيب لذم هذه المدرسة والحط من قدرها » . (١)

ظهر هذا التفكير لأول مرة فى التقرير الذى رفعه إلى « الجناب العالى » رئيس لجنة الامتحان فى العام الثالث من إنشاء المدرسة وهو عام ١٢٤٤ — ١٢٤٥ (١٨٢٩ — ١٨٣٠ م) ، فقد أشار إلى ضرورة تمصيرها « بأن تحرر من

(١) كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر ج ٢ ص ٦٢٣

الأساتذة الأوربيين ويُستبدل بهم مدرسون مصريون ، ويتم ذلك بإرسال بعض المتخرجين إلى أوربا فى ذلك العام ، وإرسال طبيبين أو ثلاثة من المتخرجين حديثاً فى أربع سنوات متوالية ، لاكتساب مايجدُّ من الاكتشافات الحديثة بغيةَ نقلها إلى مصر » . (١)

ولم تنهض الحكومة لإنفاذ هذا الرأى إلا بعد عامين ، أى فى العام الخامس من إنشاء المدرسة ، حين أتم بعض التلاميذ الذين ألحقوا بها منذ إنشائها دروسهم ، وقضوا بها خمس سنوات بين دراسة بالمدرسة وخدمة بالمستشفى . أقرت الحكومة كلوت بك على رأيه وطلبت إليه أن يختار اثنى عشر شابا من متقدمى الخريجين وأن يصحبهم إلى باريس بنفسه . (٢)

أعد كلوت بك (وقد أنعم عليه فى ذلك العام بتلك الرتبة) وتلامذته المبعوثون عدة السفر ، فاتخذ من الاحتياطات ما رآه كفيلا باستمرار الدراسة فى المدرسة فى جوٍّ من الهدوء فى غيابه ، ونشر (وداعا) على تلاميذ المدرسة : ذكر فيه الغرض من بعثة الطب وأشاد بكفاية خريجى المدرسة وبشرهم بأن التلاميذ المبعوثين سيرسلون إلى مدرستهم التى أنشأتهم ترجمة ما درسوه كل ثلاثة شهور ... « حتى إذا عادوا إليكم بمعارف جديدة وافرة ستجدونهم منكبّين مثلى على إلقائها عليكم مباشرة . ولاستمرار إمداد المدرسة بأساتذة وطنيين يكونون على اتصال دائم بما يجدُّ فى علوم الطب اقترحت على الوالى أن يرسل إلى فرنسا كل أربع سنوات بعد عودة هؤلاء المبعوثين أربعة من أكفأ خريجى المدرسة ، وآمل أن يوافق سموه على اقتراحى » . ثم أكدَّ كلوت بك لتلامذته أن غيابه لن يطول وأنه لن ينساهم ، ونصحهم باحترام أساتذتهم وتوقيرهم . (٣)

---

(١) Clot, Compte rendu . . . , p. 75.

(٢) تجد تفصيلا عن هذه البعثة فى الفصل الذى سنعقده عن البعوث العلمية .

(٣) Clot, op. cit, p. 170— 172.

عاد خمسة من هؤلاء المبعوثين فى أواخر عام ١٢٥١ (١٨٣٦ م) بعد أن قضوا فى فرنسا أربع سنوات ، ثم عاد آخرون بعد ذلك بنحو عامين .

لما عاد الأولون ثار الجدل حول المناصب التى يقلدونها والوظائف التى يطلب منهم أداؤها . فقد كان المفهوم قبلا أن الغرض من إرسالهم أن يعودوا للتدريس للطلبة ، لأنهم على حظ من علوم الطب ومعرفة بلغة التلاميذ ، وبذلك يمكن الاستغناء عن الأساتذة الأجانب ، كما يقوموا أيضاً بترجمة المؤلفات الطبية للتلاميذ ، بهذا قال رئيس لجنة الامتحان الذى كان أول من ردد هذا الرأى وقال كلوت بك نفسه حين شرح لتلامذة المدرسة الغرض من تلك البعثة . ولكن عقب عودة الفريق الأول من المبعوثين قيل إنهم « قد رجعوا قبل إتمام علومهم ولم يتمرنوا بعد » .[1] وأجمع أساتذة المدرسة الأجانب رأيهم على أن الأطباء من أعضاء البعثة ينقصهم تطبيق ما تعلموه من العلوم النظرية بجوار أسرة المرضى ، وأجمعوا على الشك فى قدرتهم على الاستقلال بالتدريس للطلبة دون أن يرأسهم أستاذاً أجنبى ، وفى إمكان الاعتماد عليهم فى القيام على شئون المرضى وعلاجهم بكامل الدقة والعناية . بل قالوا إنه لا يمكن الاعتماد عليهم فى تدريس علوم الطب بالمدرسة التجهيزية للطب ، (وتسمى مدرسة المارستان وسيأتى ذكرها بعد) إلا بعد أن يقضوا بمدرسة الطب عاماً (للتمرين) .[2] ورفع الأساتذة أصواتهم بأن الحكومة إذا شاءت أن تعين هؤلاء الأطباء أساتذة يستقلون بالتدريس للطلبة وعلاج المرضى فانها بذلك تضرهم ضرراً بليغاً يوقف تقدمهم فى العلوم التى تعلموها ، ذلك لأنهم يكونون محرومين من إرشاد ونصح أساتذة يفوقونهم علما وخبرة ، كما أنها تضر التلاميذ الذين سيُعهد إلى الأطباء المصريين التدريس لهم ، لأنهم

---

(١)و(٢) دفتر ٢٠٠٢ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٥ محرم ١٢٥٢

سوف لا يستفيدون منهم شيئا . وبتلك المعارضة القوية الصادقة فى كثير من نواحيها ، نالوا موافقة الوالى على تعيين أولئك الأطباء المصريين «معاونين» للمدرسة تحت رياسة الأساتذة الأجانب . ووضع «شورى المدرسة الداخلى» أو مجلس إدارة المدرسة ، وكان مكونا من مدير المدرسة وأساتذتها ، «لائحة» بالوظائف التى يعهد اليهم القيام بها ، ووافق الديوان عليها . ويمكن تلخيصها فيما يلى :

١ — يقوم المدرسون المصريون بترجمة دروس الأساتذة لأنهم يفضلون المترجمين الذين كانوا يعملون بالمدرسة بمعرفتهم علوم الطب . وبعد ترجمة هذه الدروس يتولى المدرسون المصريون « لإلمامهم باللغة والعلم ، شرحها للطلبة شرحاً وافياً إما فى المدرسة أو أمام أسرة المرضى ، » وبذلك يلمّون بطرق التعليم والتعلم ويعرفون أسهل الطرق للتدريس للطلبة ، ويتمرنون عملياً على تطبيق العلوم التى درسوها ويتمّون فى وقت قصير ما ينقصهم من تلك العلوم » .

٢ — على أن مجلس المدرسة كان يدرك أن المستقبل لهؤلاء « المعاونين » المصريين ، وأن اليوم الذى سيعهد إليهم بالتدريس فيه للطلبة مستقلين لن يكون بعيداً ، لهذا رأى أن يبدأ بأن يعهد إليهم تدريجاً بتدريس مبادىء علوم الطب ، « حتى يتمكنوا من التدريس فى المستقبل مستقلين دون مساعدة الأساتذة الأجانب » .

٣ — وعليهم أن يرافقوا الأساتذة فى عيادتهم المرضى وأن يُعنوا عناية كبرى « بالملاحظات الكيميائية التى يبديها لهم رؤساء الأطباء وحفظها وتطبيقها عملياً » .

٤ — وعليهم أن يتناوبوا خدمة المدرسة كما تقضى لائحة المدرسة الداخلية .

٥ — وعليهم أن يقوموا بترجمة الكتب التى يختارها لهم أعضاء مجلس

المدرسة، على أن تُعرض هذه الكتب قبل ترجمتها على شورى المدارس، ثم تدفع اليهم . وبعد الفراغ من ترجمتها ومنعا للشك فى صحتها، يجب أن لا يطبع كتاب ما بعد الانتهاء من ترجمته قبل أن يعرض على مترجمى المدرسة ومصححيها أجمعين». ومنح كل منهم رتبة اليوزباشى و ٦٥٠ قرشا فى كل شهر .

أما زملاؤهم الخمسة الآخرون فقد قضوا بفرنسا عامين آخرين، إذ لم يعودوا إلى مصر إلا فى أوائل سنة ١٢٥٤ (١٨٣٨ م) . فلا شك فى أنهم أصابوا من علوم الطب حظاً يفوق ماأصابه زملاؤهم الذين عادوا قبلهم . ولذلك مُنحوا رتبة الصاغ «أسوة بالأطباء الأوربيين الذين هم أقران لهم فى العلم، وخُصص لكل منهم مرتب شهرى قدره ألف قرش» . وروى أن السنتين اللتين قضاهما الأعضاء الأولون كافيتان (للتمرين) فرُقوا كذلك الى رتبة الصاغ ومنحوا مرتبها .[1]

وظلت الحكومة على «سياستها» فى تشجيع أوائل الخريجين وتمصير الدراسة بالمدرسة: فكانت تعين النابهين من المتخرجين فى وظائف «خوجات ثوان» أو «معيدين»، وكانت تبعث بعضهم إلى فرنسا من وقت لآخر ليزدادوا علما: ففى سنة ١٨٤٥ أوفدت ستة منهم .[2] وفى العام التالى أربعة آخرين .[3] وفى حكم إبراهيم القصير أزمعت الحكومة بعث أربعة عشر صيدليا وعشرة أطباء، إلا أن «شورى الأطباء» رأى أن هذا العدد كبير، وخاصة إذا أضيف إليه الأعضاء الذين مايزالون يطلبون الطب فى أوربا .[4]

---

(١) دفتر ٢٠٤٢ (مدارس تركى) رقم ٨٢٩ إلى مسيو دفنيو فى ١٣ ربيع الأول ١٢٥٤

(٢) دفتر ١٠ (مدارس عربى) ص ١٠٠١ رقم ٢١٢ إلى مدرسة الطب البشرى فى ٣ المحرم ١٢٦١

(٣) دفتر ٤٣ (مدارس عربى) ص ١٠ رقم ٣ إلى شورى الأطباء فى ٦ شوال ١٢٦٢

(٤) دفتر ١١٨ (مدارس عربى) ص ٧٤١ رقم ٥٣ الى شورى الأطباء فى ١٩ ذى الحجة ١٢٦٤

وبذلك تسنى للحكومة أن تستغنى تدريجا عن الأساتذة الأوربيين بالمدرسة وتحل محلهم من الأطباء المصريين، بعد أن تبدأ بهم فى وظائف المعيدين ثم المدرسين ثم الأساتذة. وأخيرا فى سنة ١٨٤٥ تولى وكالة المدرسة أحد خريجيها الأوائل وهو «محمد أفندى الشافعى». [١] وبذلك غلب العنصر المصرى فى مدرسة الطب، وكان ذلك من أعظم العوامل شأنا فى توطيد المدرسة، إذ برهنت على قدرتها على (الاكتفاء) بنفسها فى التدريس والادارة. على أنا لا يسعنا أن ننكر فضل الأساتذة الأجانب الذين عملوا بها فى عهدها الأول: فهم الذين وضعوا الأساس لمن خلفهم، وهم الذين نشأوا تلاميذهم الذين خلفوهم فى مناصبهم، فعاونوا بذلك على (تمصير) تعليم الطب فى مصر ووضعوا له تقاليده التى ما يزال يعتز بها.

المدرسة فى قصر العينى

كان من الضرورى حين إنشاء المدرسة أن تُلحق بمستشفى كبير يمدها بالحالات المرضية المنوعة ويتيح المجال لمران طلبتها، ويكون أطباؤه أساتذة بالمدرسة، ولذلك ألحقت مدرسة الطب أول إنشائها بالمستشفى العسكرى بأبى زعبل، وكان أكبر المستشفيات الحربية، ويقع شمال القاهرة بين قريتى الخانقاه وأبى زعبل، وبقربه معسكرات جيش التعليم الذى زاده عدده حتى بلغ ٢٥,٠٠٠ جندى. هذا إلى أنه مكان منعزل يلائم دراسة التشريح بعيدا عن تخرصات العامة وأشباههم الذين يرون فى التشريح انتهاكا لحرمة الموتى.

كان بناء المستشفى مربعا، طول ضلعه مائة وخمسون مترا. وتكتنفه حديقة زرعت فاكهة وخضرا، وحولها حجرات المرضى ومساكن الموظفين وثلاث قاعات خصصت إحداها للتدريس للطلبة وتعقد فيها الامتحانات، وزُينت

(١) دفتر ١٢ (مدارس عربى) ص ٣١٥ رقم ٤٨٦ الى مدرسة الطب البشرى فى ٥ جماد أول ١٢٦١

جدرها برسوم ملونة مضبوطة توضح تشريح أعضاء جسم الإنسان ، وخصصت الثانية لمكتبة المدرسة ، أما الأخيرة فلاجتماعات مجلس المدرسة . وفى وسط البناء حديقة نباتية يدرس بها الطلبة علم النبات . وقد أقيم فى وسطها بناء المدرج (الأمفتياتر) والصيدلية والحمامات والمطابخ . وكان (المدرج) على شكل نصف دائرة ، وقد أقيم على مثال المدرجات بمدارس الطب بأوربا .[١]

وكان المكان صحيا توافر له طيب الهواء والماء . ورغم أنه كان مستشفى (حربيا) إلا أن الأهالى الذين يقيمون بجواره كان لهم أن يترددوا عليه . وكان المستشفى يتولى علاجهم بدون مقابل ، بل لقد كان يحتجز منهم كل من يحتاج إلى عملية جراحية حتى يتم شفاؤه .

وعلى ذلك كان مستشفى أبى زعبل أفضل مكان تنشأ به مدرسة الطب فى سنة ١٨٢٧ . ولكن لم تمض سنتان حتى رحل الجيش من تلك الأنحاء ، وبذلك انعدم ورود المرضى للمستشفى ، وحتى أن الدراسة العملية لم تتمكن من السير جنباً إلى جنب مع الدراسة النظرية ،.[٢] كما أن المخاوف بشأن مزاولة التشريح كانت قد اختفت ، وبذلك انعدمت مزايا أبى زعبل كأفضل مكان تلحق به المدرسة .

والواقع أن مستشفى أبى زعبل قد افتقر — بعد رحيل الجيش — إلى عدد كبير من المرضى يهيء للطلبة المجال لبحث الحالات المرضية المختلفة ، حتى أن رئيس لجنة امتحان المدرسة فى عامها الثالث اقترح فى تقريره إلى محمد على إسكان فرقة من الجيش فى تلك الأنحاء ، [٣] ولكن هذا الاقتراح لم يأخذ به ، وظل المستشفى والمدرسة يقاسيان فقرا فى الحالات المرضية المنوعة . فلم يكن بد من التفكير فى نقل المستشفى والمدرسة من أبى زعبل إلى

---

(١) Clot, op. cit, p. 29—34. و Pückler-Muskau, op. cit, I. p. 23.

(٢) Clot, op. cit, p. 164.

(٣) Ibid, p. 71.

مكان آخر أكثر ملاءمة لها ، وكان طبيعيا أن يتجه التفكير إلى نقلهما إلى حاضرة البلاد ومقرّ الحكومة .

بدأ التفكير فى ذلك منذ العام الثانى من تاريخ المدرسة ، « فقد شاع أن ابتغا ولى النعم ومقصوده من هذا (أى من إنشاء مدرسة للطب) أن يزيد أهل العلوم النافعة بالتدريج وأن ينشىء مدرسة بيمارستان آخر واسع فى محروسة مصر »[1] وفى عامها الثالث اقترح رئيس لجنة الامتحان نقلها إلى قلب المدينة وإنشاء مستشفى كبير لمختلف الحالات المرضية وتلحق به المدرسة ، ويكون لها مكتبة وحديقة نباتية ومعمل للطبيعة ومتحف للتاريخ الطبيعى ، « وبذلك تصبح هذه المدرسة ، تحت سماء مصر الجميلة ، أفخم المؤسسات فى العالم » .[2]

أما كلوت بك فكان يرى فى المكان الذى تُنقل إليه رأيا آخر : كان يرى أن المدرسة يجب أن تقام فى مدينة كبيرة وفى مستشفى مركزى تتوافر له مجموعة كبيرة من المرضى ، وبذلك رأى أن أفضل مكان لها القاهرة أو الأسكندرية . وكان يرى أن الثانية تفضل الأولى : ففيها قوات برية وبحرية كثيرة ، وفيها دار الصناعة التى يمكن أن تمدّها كل يوم بعدد كبير من المرضى والجرحى . والأسكندرية تمتاز كذلك بكثرة العنصر الأجنبى من التجار والأساتذة الأجانب الذين يفدون إليها ، ويرى كلوت بك أن وجودهم يذكى من إخلاص الأساتذة وجدّ الطلبة ، كما أن اتصال الطلبة بالتجار والمتعلمين من جميع الشعوب الذين يسكنونها ينمى من ذكائهم ويسهل عليهم دراسة اللغة الفرنسية والتحدث بها .[3]

ولكن تمضى السنوات الخمس الأولى من تاريخ المدرسة وسنوات خمس

(١) الوقائع المصرية : العدد الثانى — الأربعاء ١٤ شعبان ١٢٤٤

(٢) Clot, op. cit, p. 76.

(٣) Ibid. p. 165.

أخرى بعدها ومدرسة الطب باقية فى مكانها فى أبى زعبل ، حتى إذا كانت سنة ١٨٣٦ ، وقد « عاد بعض أعضاء البعثة الطبية وأصبح الأمل كبيرا فى تخريج مدرسين وطنيين قريبا » ، اقترح شورى المدارس على محمد على « إنشاء مستشفى ومدرسة للطب داخل المدينة » تكون « أثراً خيريا نافعا » . أما محمد على فكان يرى أن هؤلاء المدرسين الوطنيين لم يُعَدُّوا بعد ، ولذلك لا يرى التفكير فى إنشاء المدرسة والمستشفى قبل إعدادهم ، وردَّ مؤنبا الشورى على اقتراحه الذى « يشبه إقامة قبة بلا عمد » (١) متهكما على أعضائه متسائلا : « هل أنتم وحدكم الذين تعلمون الآثار الخيرية التى ذكرتموها فى المحضر ؟ وهل صدَّقتم على ذلك القرار وأنتم نائمون ؟ إن هذه المدرسة وأمثالها إنما تنشأ فى حالة استكمال جميع ما تحتاج إليه ، ولا فائدة من إنشائها فى حالة عدم استكمال لوازمها » . (٢)

وبذلك قُبِرَ مشروع إنشاء المستشفى والمدرسة داخل العاصمة فى أواخر سنة ١٨٣٦ واستعيض عنه فى أوائل سنة ١٨٣٧ بالتبادل بين المدرسة التجهيزية بقصر العينى ومدرسة الطب بأبى زعبل ، فاحتلت كل منهما مكان الأخرى . (٣)

وكان قصر العينى قائماً على الضفة الشرقية للنيل ، ويشرف على الحدائق التى غرسها إبراهيم باشا . وكان بناؤه مربعاً تحيط به المتنزهات الجميلة ، وهو مؤلف من طابقين فوق الطابق الأرضى . وتتكون الأجنحة من صفين متقابلين من الغرف تفصلهما دهاليز بقدر امتدادهما ، وكل جناح ينتظم أربع غرف ، وفى كل غرفة خمسون سريراً . والطابق الأرضى عبارة عن (مغاور) ،

---

(١) دفتر ١٤٥ (مجلس ملكية) ص ٢ رقم ٧ إلى مختار بك فى ١٤ المحرم ١٢٥٢

(٢) دفتر ٢٠٠٢ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٤ المحرم ١٢٥٢ .

(٣) دفتر ٢٠٢٢ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢٩ ذى الحجة ١٢٥٢

متعددة تصلح مستودعات ومخازن . وفى وسط البناء فناء فسيح غرست فيه الأشجار ، وإلى جانب الجناح القبلى أربع بنايات كبيرة منفصلة بعضها عن بعض : البناية الأولى خاصة (بالأمفتياترات) والمعامل الكيميائية وغرف الطبيعة والتاريخ الطبيعى ، والثانية لمحال النوم وغرف الطعام ، والثالثة للصيدلية العامة ، والبناية الرابعة والأخيرة للمطابخ والحمامات والمغاسل .

وعلى هذا رأى كلوت بك ، أنه كان من المتعذر وجود أصلح من هذا المكان ولا أحسن موقعاً لمدرسة الطب» . ومن المزايا التى حببته إلى كلوت بك أن المستشفى أصبح قريباً من مكان الحامية ، وأن المرضى لا يحتاجون فى الوصول إليه إلى قطع المسافات الطويلة ، لأن فى قدرتهم اختصار الطريق الموصلة اليه سواء براً أم بطريق النيل ، وبعد أن كان المرضى موزعين بين مستشفى أبى زعبل ومستشفى الأزبكية فى القاهرة أصبحوا الآن مجتمعين فى حظيرة واحدة ، وتيسر تطبيق التعلم العملى عليهم بحسب ماهم مصابون به من الأمراض .[1] وأمل كلوت بك أن يصبح «فى مقدور طلاب العلوم الدينية الذين يردون مصر من مختلف أنحاء البلاد الشرقية لدرس الشريعة الإسلامية بالجامع الأزهر أن يحضروا أفواجا إلى مدرسة الطب ليسمعوا مايلقى من الدروس والمحاضرات ، وينقلوا فيما بعد إلى مواطنيهم مااقتطفوه من ثمار العلوم الطبية . . . »

وكذلك يرى كلوت بك أن فى نقل المستشفى إلى قصر العينى توفيرا للنفقات التى كانت تنفق على المستشفى القديم بالقاهرة وقد أُدْمِجَ فى مستشفى قصر العينى . وهو يقدر عظيم التقدير الفوائد الناجمة من وجود « دار

(١) هذا ما يقوله كلوت بك ، وإن كنا نقرأ فى الوثائق إلى نهاية عصر محمد على عن « المستشفى الملكى بالأزبكية » وكانت مدرسة الولادة ملحقة به . وكان إنشاؤه فى أوائل سنة ١٢٥٤ (١٨٣٨) لتخفيف الضغط عن مستشفى قصر العينى (دفتر ٢٠٣٥ «مدارس تركى» ورقة ٥٨ فى آخر المحرم ١٢٥٤)

الصيدلة العمومية ، بجوار المدرسة وتحضر فيهـــا المجهزات الكيميائية والطبية بمقادير عظيمة جداً ، إذ يتمكن التلاميذ من تطبيق العلم على العمل فى مجال أوسع .(١)

على أن كلوت بك يبدى أسفه لحرمان المدرسة على أثر نقلها من أبى زعبل من حديقتها النباتية التى بذل فى إنشائها الكثير من العناية والعناء . ولكن إبراهيم باشا مالبث أن خصص جزءاً من الروضة لغرس حديقة به .(٢) وكان الطلبة يعنون بدراسة التاريخ الطبيعى وكوّنوا لدراسته متحفاً . وقد تبودلت (العينات) مع الدول الأوربية : فأرسلت مدرسة الطب عدداً من الصور والحيوانات الفائضة عن حاجة « أوضة التاريخ الطبيعى » .(٣) وأهدى إليها ملك فرنسا « لوى فيليب » مجموعة قطع تشريحية نفيسة ، كما أهداها رئيس مجمع العلوم الفرنسى مجموعة كاملة من المعادن .(٤)

والحق أن انتقال مدرسة الطب إلى قصر العينى فى سنة ١٨٣٧ كان فتحاً جديداً فى تاريخها : فاتسعت دائرة عملها وارتفع مقامها ، إذ أصبحت فى قلب العاصمة بين سمع الناس وبصرهم . وقد عملت الحكومة على أن توفر لتلامذة المدرسة أسباب الثقافة الطبية : فكان بالمدرسة مكتبة حافلة بالمصنفات القيمة فى علوم الطب(٥) وغرف فسيحة للكيمياء والطبيعة والتاريخ الطبيعى

---

(١) كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر ج ٢ ص ٦٢٨

(٢) وفى سنة ١٢٥٩ استؤجرت حديقة (التكية) الواقعة خلف قصر العينى لتخصيصها لزرع النباتات لمدرسة الطب (دفتر ٢٠٨٧ مدارس تركى ورقة ٦٢ فى ٤ شوال ١٢٥٩ وكان يصرح « لمعلم النبات وأحد الجنائنية وبعض التلاميذ بالسياحة على شاطىء النيل فى كيهك وبرمودة لجمع النباتات المصرية الغير موجودة بجنائن المحروسة » دفتر ٥١ (مدارس عربى) ص ٣٧٩٦ رقم ١٩٥ من الديوان إلى شورى الأطباء فى ٢٧ رجب ١٢٦٣

(٣) دفتر ١٢ (مدارس عربى) ص ٢٤٠٩ إلى مدرسة الطب البشرى فى ٣ جماد ثان ١٢٦١

(٤) المجلة الطبية : السنة ١١ — العدد ١٠ فى ديسمبر ١٩٢٨ ص ٨٣٢

(٥) وقد أهدى إليها أساتذة مدرسة باريس الطبية جميع الرسائل التى قدمت لمدرستهم من =

ومجموعات وافية عن المادة الطبيعية وآلات كاملة للجراحة وقطع صناعية لتمثيل الأحوال التشريحية و (أمفتياترات) كبيرة ومعامل للقيام بالعمليات الكيميائية ودار للصيدلة المركزية العامة ، وإلى جانب هذا كله مستشفى كبير يأوى إليه المصابون بالأمراض المزمنة والحادة على اختلافها . وبذلك انفسح المجال لمران الطلبة وتطبيق العلم على العمل .(١)

مدرسة الطب ولوائح ١٨٣٦ و ١٨٤١

لم نعثر على معلومات جدية تجلى أثر لوائح سنة ١٨٣٦ ثم لوائح سنة ١٨٤١ فى تنظيم مدرسة الطب ، عدا ما يتعلق بعدد التلاميذ الذين يقبلون فى المدرسة : فقد نصت اللوائح الأولى على أن يكون نصاب المدرسة ٢٥٠ تلميذاً بعد أن كان قد وصل الى ٣٠٠ تلميذ قبل ذلك بخمس سنوات ، ولكن المدرسة كانت دائمة النقصان . وفى سنة ١٨٤١ رأت اللجنة التى شكلت لاعادة تنظيم المدارس الإقلال من عدد تلاميذ مدرسة الطب حتى يكون « ملائماً لحاجة الوقت الراهن » . ذلك لأن مجال العمل أمام الأطباء أخذ يضيق . حقا لقد كثرت الأقسام الصحية بالمدن والمدارس ، وفتحت (استشارات صحية) بأقسام القاهرة ، إلا أن المجال الرئيسى — وهو الجيش — قد ضاق كثيرا بعد إنقاص عدده ، وأحس ديوان المدارس بوجوب تدبير أعمال للأطباء المتخرجين فى مدرسة الطب ، وكانوا نحو الخمسة والعشرين طبيباً فى كل عام ، فكتب إلى شورى المعاونة بوجوب حصر التعيين فى الوظائف الخالية

= قبل وكثيرا من المؤلفات الحديثة والقديمة الثمينة ، وحذا حذوهم أساتذة جامعة مونبليه وجامعات أخرى (المصدر السابق) ثم ازداد عدد مجلداتها بما نقل اليها من الكتب الطبية التى كانت بمدرسة الألسن .

(١) كلوت بك : لمحة عامة الى مصر ج ٢ ص ٦٤٨ بيان أساتذة المدرسة الى جريدة أزمير فى ديسمبر ١٨٣٨ .

والتى تخلو فى الأطباء المصريين ورفض استدعاء أطباء من أوربا . هذا إلى أن « الأطباء » المصريين كانوا لا شك يقاسون مما يلاقونه من (مزاحمة) مدَّعى الطب لهم فى عملهم ، وكانوا ما يزالون عدداً كبيراً ، وقد عرفهم الناس قبل أن يعرفوا خريجى المدرسة .

اتجه عزم اللجنة إذن إلى إنقاص عدد التلاميذ بمدرسة الطب ، فأتت بجداول الامتحان واستبقت بالمدرسة من التلاميذ من رأت فيه الكفاية وكانوا ١٢٦ تلميذاً ، وألحقت نفراً من الآخرين بمدرستى الصيدلة والطب البيطرى ، وعدلت بالمتأخرين الى وظائف بسيطة أو سرَّحتهم إلى أهليهم .(١)

أقسام المدرسة

وكانت المدرسة مؤلفة من قسمين : قسم للطب وآخر للصيدلة ، ومن خمس فرق ، والفرقة الخامسة منها (إعدادية) تعد التلاميذ لمدارس الطب البشرى والطب البيطرى والزراعة والصيدلة ، إذ كان بعض المتخرجين فى المدرسة التجهيزية يلحقون أولا بالسنة « الاعدادية » بمدرسة الطب البشرى حيث يدرسون الكيمياء والطبيعة والنبـــات « على ذمة » مدرستى الطب البيطرى والزراعة ، ولهاتين المدرستين أن تختارا من الناجحين منهم من ترى فيه الكفاية . وفى نهاية السنة الخامسة (الإعدادية) يظهر الامتحان التلاميذ الذين لا يصلحون لدراسة الطب وهم الذين حازوا درجات دنيا ، فيفصلون من المدرسة ويلحق الأصحّاء منهم بإحدى المدارس الحربية أو بالجيش . وبذلك كانت السنة الإعدادية ترمى الى إعطاء التلاميذ الجدد معلومات عامة تسهّل عليهم دراسة الطب ، كما كانت فرصة صالحة للتدقيق فى اختيار التلاميذ الذين يؤذَن لهم بالاستمرار فى تلك الدراسة .

---

(١) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) الى شورى المعاونة فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٧

منح لقب « دكتور » و « دبلوم » فى الطب

وفى أواخر سنة ١٢٥٨ (١٨٤٢) رأى شورى الأطباء أن يميز الأطباء المتخرجين فى المدرسة عن الجهلة الذين يدعون العلم بالطب وتنساق العامة إليهم، فقرر أن يمنح خريجى مدرسة الطب لقب « دكتور » و « دبلوما » فى الطب « أسوة بما هو متبع فى أوربا » ، كما قرر أن يقبل بالمدرســـة كل من يريد الالتحاق بها « لأجل القضاء على الأضرار الكبيرة التى تقع من مدعى الطب » و « لاستمرار تقدم علم الطب بالقطر المصرى » ، على أن يدرسوا على نفقتهم ويمنح « الدبلوم » لمن يظهر الامتحان إتقانه علوم الطب .[١] ثم رؤى ألا يمنح لقب « دكتور » إلا للمتفوقين من خريجى المدرسة سواء فى قسم الطب أو فى قسم الصيدلة ، وذلك بعد أن يمضوا فى المدرسة زمنا للتخصص . وكانوا يعينون معيدين بالمدرسة ويستخدمون بالمستشفى حينا وأقسام العاصمة حينا آخر ليزدادوا مرانا على العمل .[٢] وكانت المدرسة حريصة عليهم ضنينة بهم ، فكانت لا تقبل أن تخرجهم للخدمة بالأقاليم .[٣]

تلامذة أجانب بالمدرسة

وقد التحق بها فى السنين الأولى من إنشائها طلبة مسيحيون من سوريا، وكانوا يعاملون كزملائهم من المصريين .[٤] وكان يقبل بالمدرسة بأمر من الوالى طلبة من أبناء الأجانب المقيمين بالبلاد .[٥] وفى سنة ١٨٤٦ أوفدت الحكومة الروسية هيئة طبية الى مصر لدراسة أمراضها الخاصة تحت رئاسة

(١) دفتر ٢٠٨١ (مدارس تركى) ص١٠٦ رقم ١٦٨٦ فى ٢١ ذى القعدة و ١٤ ذى الحجة ١٢٥٨
(٢) دفتر ٢٠٩٤ (مدارس تركى) ص ١ فى غرة المحرم ١٢٦٠
(٣) دفتر ١ (مدارس عربى) ص١١٦ رقم ١٩ الى شورى الأطباء فى ٩ شوال ١٢٦٠
(٤) Clot, Compte rendu, p. 215.
(٥) دفتر ٢٣ (مدارس عربى) ص ١٢٠٧ (عرضحلات) الى شورى الأطباء .

الدكتور « روفائيل أودنج » ، وكان معه أربعة من التلاميذ ،[١] أقاموا بمدرسة الطب « على قبول الأمان » .[٢]

موظفو المدرسة

نصت اللوائح التي صدرت في سنة ١٨٣٦ على أن يكون بمدرسة الطب مدير يقوم بالتدريس أيضا وستة من الأساتذة وثلاثة من الأساتذة المساعدين وسبعة من المعيدين (ويختارون من خريجي المدرسة) ومدرس للرسم ومترجمان ومصححان . وعلى الأساتذة والمساعدين والجراحين والأطباء أن يقوموا بعملهم في المستشفى : فمدير المدرسة مدير المستشفى ، والأساتذة رؤساء أقسام به . وأستاذ الصيدلة رئيس الصيدلية بالمستشفى .[٣] وكان على مدرسي المدرسة ، وهم مساعدو الأساتذة ، بعد أن ينتهوا من العيادة والدروس أن يجتمعوا في غرفة الترجمة بالمدرسة ليشتغلوا بالترجمة ساعتين قبل الظهر ، ثم يعودوا إليها ليعملوا ساعتين بعد الظهر أيضا ، ويعيّن منهم مدرسان يتناوبان الاقامة بالمدرسة كل أربع وعشرين ساعة ليراقبا الدروس و« الضبط والربط » بالمدرسة والمستشفى . وعليهما إذا شاهدا « ما يخالف الأصول » أن يكتبا عنه إلى وكيل المدرسة لتحقيقه ، ثم يرفع التحقيق إلى شورى الأطباء أو ديوان المدارس .[٤]

مديرو المدرسة

كان « الدكتور كلوت » أول مدير للمدرسة منذ أنشئت في سنة ١٨٢٧

---

(١) دفتر ٢١١٦ (مدارس تركي) ص ٥٩ في ١٤ ذي الحجه ١٢٦٢

(٢) دفتر ٩٣ (مدارس عربي) ص ١٢١ رقم ٤٧ إلى مدرسة الطب في ١٣ شوال ١٢٦٣

(٣) Bowring, op. cit, p. 134.

(٤) دفتر ١٢٥ (مدارس عربي) ص ٤٢١ رقم ٦٥ إلى مدرسة الطب البشرى في ١١ ذي القعدة ١٢٦٤

(١٢٤٢ هـ) . وكان أستاذا للباثولوجيا والعيادة الخارجية والعمليات والتوليد بالمدرسة . وفى سنة ١٨٣٢ أنعم عليه برتبة (أمير الاى) التى تخوله لقب (البكوية) وعين نائبا لرئيس مجلس الصحة (شورى الأطباء) بعد أن كان مفتشا به . [١] وبعد ذلك بعامين عيّن مفتشا عاما عن صحة الجيوش البرية والبحرية مع قيامه بوظيفته فى مجلس الصحة والتفتيش عن مدارس الطب والصيدلة والطب البيطرى . [٢] وبذلك ترك الدكتور كلوت بك إدارة مدرسة الطب ولكنه ظل مشرفا عليها . وفى سنة ١٨٣٩ أنعم عليه برتبة (ميرلوا) مكافأة له على جهوده فى مكافحة الوباء . [٣] ولما تولى عباس باشا أحيل كلوت بك إلى المعاش مع منحه نصف مرتبه مدى الحياة ، فاذا مات ولما يبلغ أبناؤه سن الرشد مُنحوا ربع مرتبه . [٤] وعاد كلوت بك إلى مصر فى عهد سعيد باشا وأعاد تنظيم المعهد العظيم الذى أنشأه وسهر عليه سنين طويلة .

ولما تخلى الدكتور كلوت بك عن «إدارة» المدرسة فى سنة ١٨٣٤ عُهِدَ بها إلى الدكتور دفنيو «Duvigneau» وكان أستاذ الباثولوجيا والعيادة الداخلية بالمدرسة ، وكان كلوت بك قد عهد إليه مع أستاذ آخر بإدارة المدرسة أثناء غيابه بفرنسا مع أعضاء بعثة الطب فى سنة ١٨٣٢ .

وإلى أوائل سنة ١٢٥٤ (١٨٣٧) كان «دفنيو» مديرا لمدرسة الطب . [٥] وخلفه الدكتور بيرون «Péron» ، وقد أنعم عليه برتبة (القائمقام) فى أواخر سنة ١٢٦١ (١٨٤٥) . [٦] ثم استقال فى العام التالى وعاد إلى فرنسا . [٧]

---

(١) Documents concernants le Dr. Clot Bey, p. 2.

(٢) Ibid. p. 4.

(٣) Ibid. p. 5.

(٤) Ibid. p. 7.

(٥) دفتر ٢٠٤٢ (مدارس تركى) ص٨٢٩ الى مسيو دفنيو فى ١٣ ربيع الأول ١٢٥٤

(٦) دفتر ٢١ (مدارس عربى) ص٤٠٤ رقم ١٢٣ الى ديوان الجهادية فى ٢٥ ذى القعدة ١٢٦١

(٧) دفتر ٤٣ (مدارس عربى) ص١٨٨ رقم ١٦٠ الى شورى الأطباء فى ٢٧ شوال ١٢٦٢

والراجح أن وظيفة (مدير) المدرسة ألغيت عقب ذلك ، ورؤى الاكتفاء بوظيفة (وكيل) المدرسة ، وقد عُهد بها لأول مرة فى تاريخ المدرسة لطبيب مصرى هو « إبراهيم أفندى النبراوى » ثم « محمد أفندى الشافعى » بعد تعيين الأول بدائرة إبراهيم باشا.[١] ويؤيد إلغاء وظيفة المدير (الأجنبى) والاكتفاء بوظيفة الوكيل (المصرى) ماذكرنا من أن المدرسين المنوبين (النوبتجية) كان عليهما أن يرفعا تقاريرهما إلى وكيل المدرسة ، وعليه بدوره أن يرفعها إلى شورى الأطباء أو ديوان المدارس . ولم يجر ذكر ما لمدير المدرسة .

ولكن ليس معنى هذا أن الدكتور كلوت بك قد تنحى عن الإشراف على المدرسة مذ ترك إدارتها لغيره ، بل الواقع أنه ظل ، بصفته رئيسا لشورى الأطباء ، مشرفا على المدرسة . فقد كان شورى الأطباء أعلى هيئة طبية بمصر ، وكان اختصاصها يشمل كل مايتعلق بالطب فى مصر من مدارس ومستشفيات وأقسام صحية وتعيين الأطباء وتأديبهم .. الخ وقد ثار الجدل حول تحديد علاقة شورى الأطباء بمدرسة الطب من جهة وبديوان المدارس من جهة أخرى . وأخيرا أقر الديوان مارأى الشورى من « أن لها (كذا) الرياسة العظيمة على المدرسة » ، فعلى المدرسة ألا تخاطب الديوان مباشرة ، بل عليها أن تتجه بطلباتها إلى الشورى وتنال موافقته أولا ، والشورى يخطر ديوان المدارس بما يراه .[٢] وكان شورى الأطباء الهيئة التى تتولى وضع أنظمة المدرسة وخطط الدراسة بمالها من « حق النظارة العمومية على المدرسة » .[٣]

---

(١) دفتر ١٢ (مدارس عربى) س ٢٣١٥ رقم ٤٨٦ الى مدرسة الطب البشرى فى ٥ جماد أول ١٢٦١

(٢) دفتر ٤٤ (مدارس عربى) س٤٦٣ رقم ٢٨ إلى شورى الأطباء فى ١٣ ذى القعدة ١٢٦٢

(٣) دفتر ١١٧ (مدارس عربى) س٣٢٣ رقم ٧ إلى شورى الأطباء فى ١٨ شوال ١٢٦٤

وكان أعضاء الشورى يشتركون فى امتحانات المدرسة مع معلمى المدرسة ومع من يدعى من الممتحنين من الخارج .[١]

وقد بلغ من سطوة تلك « الرياسة » أو « النظارة » أن ذهب الدكتور كلوت بك رئيس شورى الأطباء يوما يفتش عن المستشفى والمدرسة وقت تفشى الكوليرا فوجد إهمالا من الأطباء والأساتذة والطلبة ، فكتب إلى ديوانى الجهادية والمدارس بحبسهم جميعاً « حبس قراقول » ثلاثين يوما ، وأنفذت الجهادية ماطلب برغم احتجاج ديوان المدارس.[٢]

مدرسة المارستان

المدرسة التجهيزية للطب

أنشا الدكتور « كلوت بك » فى السنوات الأولى من إنشاء مدرسة الطب بأبى زعبل مدرسة تجهيزية لتعدّ التلاميذ إعداداً ملائماً لدراسة الطب . فقد رأينا أن « كلوت بك » أخذ معظم تلامذة المدرسة أول إنشائها من الطلبة الذين

---

(١) دفتر ٨٩ (مدارس عربى) ص ٢٦٦٢ رقم ١٦٢ إلى شورى الأطباء فى ٢٦ جماد ثان ١٢٦٤

(٢) دفتر ٩١ (مدارس عربى) ص ٣٥٢٣ رقم ٢٣٥ إلى المعية فى ٢٦ رمضان ١٢٦٤
ويثبت هـذا خطأ ما ذكره الدكتور نجيب باشا محفوظ فى كتابه : (Hist of the Medical Instruction, p. 94.) من أن الدكتور كلوت بك تولى إدارة المدرسة إلى سنة ١٨٤٩ . ثم خلفه إلى يونيه سنة ١٨٥٠ الأطباء دقنيو وبيرون والشافعى . ولـكن وثائق ذلك العصر التى ذكرنا تثبت أن « دقنيو » كان مديراً للمدرسة فى سنة ١٨٣٨ ، « وبيرون » مديراً لها فى سنة ١٨٤١ ، وأنه استقال وعاد إلى بلاده فى سنة ١٨٤٦ ، وأن الدكتور « محمد على الشافعى » كان وكيلا للمدرسة فى ذلك التاريخ . ويرجع هذا الخطأ الذى وقع فيه الدكتور نجيب باشا محفوظ إلى ماقرأه من أن الدكتور كلوت بك ظل مشرفا على مدرسة الطب إلى آخر عصر محمد على وإبراهيم . ولـكن هذا الاشراف يرجع — كما ذكرنا — إلى رئاسته لشورى الأطباء لا إلى كونه مديراً للمدرسة .

كانوا يترددون على الجامع الأزهر وغيره من المساجد : إذ كانوا على جانب من العلم باللغة العربية ومبادىء الحساب أحيانا ، وقد بلغ أكثرهم من السن ما يمكّنهم من متابعة الدروس الطبية التى خصصوا لتلقيها ، وكانت تلقى عليهم مترجمة إلى العربية . وقد يتساءل معترض : و لِمَ لَمْ يأخذ الدكتور كلوت بك هؤلاء التلاميذ من مدرسة قصر العينى ، وقد ذكرنا أنها — حتى قبل تحويلها إلى مدرسة تجهيزية منظمة — كانت تعدُّ تلامذتها للمدارس الحربية والخصوصية؟ ونردّ على هذا بأن مدرسة الطب أنشئت فى سنة ١٨٢٧ ، أى بعد إنشاء مدرسة قصر العينى بعامين ، وطبيعى أنها لم تتمكن فى تلك المدة القصيرة من تخريج تلامذتها بله إمدادهم بالضرورى من المعلومات ، إذ كانوا يلحقون بها صغاراً لم يشبّوا عن الطوق ولم يأخذوا بحظ من التعليم . ولا ينفى هذا أن بعض التلامذة الذين ألحقوا بمدرسة الطب ثم أتيح لهم السفر إلى فرنسا كانوا من مدرسة قصر العينى التجهيزية (كمحمد على البقلى) وغيره . ولكن معظم التلامذة كانوا من الأزهر والمساجد الأخرى .

كان كلوت بك إذن مضطراً إلى أن يلجأ إلى الأزهر ليأخذ منه معظم التلاميذ لمدرسته . ولكن هؤلاء التلاميذ كان يعوزهم الكثير من مبادىء العلوم الممهدة لدراسة الطب ، بل الممهدة لكل دراسة قائمة على التخصص . هذا ومدرسة قصر العينى لما تعدّ تلامذتها إعداداً كافياً . ولا شك فى أن كلوت بك قد شعر بهذه العقبة وأجال الفكر فى تدبير حل للتغلب عليها . ولم يكن أمامه إلا أحد سبيلين : إما أن ينشىء نظاما يكفل للملتحقين بالمدرسة أن يتلقوا تعليماً إعدادياً يمكّنهم من متابعة دروس الطب ، وإما أن تتكفل مدرسة الطب بهذا التعليم الإعدادي ، وبذلك تفقد الكثير من طبيعتها وتضيع كثيراً من الزمن وتشتت جهودها فى نواح لا تتفق والغرض من إنشائها . وقد لجأ الدكتور كلوت بك إلى الحل الأول : فأنشأ مدرسة تجهيزية ألحقت

بمدرسة الطب بابى زعبل واختار لها مائة صبي يعرفون القراءة والكتابة وتتراوح أعمارهم بين العاشرة والرابعة عشرة ، وجعل مدة الدراسة بها ثلاث سنوات يتعلم التلاميذ فيها مبادىء الحساب والهندسة ووصف الكون والتاريخ الطبيعى والتاريخ القديم والحديث والمنطق ، حتى إذا انتهوا منها أبيح للناجحين منهم الالتحاق بمدرسة الطب . وعهد إلى الشيخ رفاعه رافع الطهطاوى إدارة المدرسة والقيام على شئونها .[١] وهذه المدرسة التجهيزية هى التى يتردد ذكرها فى سجلات ذلك العصر باسم «مدرسة المارستان» .[٢] ولم يتردّد اسمها إلا فى مناسبة الشروع فى إلغائها.

استمرت مدرسة المارستان قائمة منذ أنشئت فى السنين الأولى من إنشاء مدرسة الطب الى أواخر سنة ١٢٥١ أو أوائل سنة ١٢٥٢ (١٨٣٦ م) . ولكن برنامج الدراسة ما لبث أن تغيّر : فقد كان التلاميذ — على مارسمه كلوت بك — يتلقون دروساً فى مواد لا تمت إلى الطب بصلة وإن كانت تعدّ له ، فأصبحوا يتلقون دروسا فى مبادىء التشريح والأمراض الباطنية وقانون الصحة والفصد ومبادىء الهيئة ، هذا إلى دراسة النحو العربى .[٣]

ولم يكن هذا هو التغيير الوحيد الذى أصاب المدرسة ، فقد أخذ عدد تلاميذها يتناقص حتى وصل فى أواخر سنة ١٢٥١ هـ (١٨٣٦ م) الى ستة وثلاثين تلميذا « انتخبوا ممن يطالعون الكتب العربية وعلم الحكمة (كذا) وألحقوا بالمكتب الجديد لتعلم علم الحكمة فقط » .[٤] ولكن هذه المواد « الطبية » يحتاج تدريسها الى مدرسين من الأطباء ، ولم يكن مما تميل إليه

---

(١) Clot, Compte rendu . . . , p. 154 — 155.

(٢) سميت بهذا الاسم لأنها كانت ملحقة « بالمارستان » أو المستشفى (دفتر ٢٠٠١ مدارس تركى — جلسة شورى المدارس فى ٢٠ ذى الحجة ١٢٥١)

(٣) دفتر ٢٠٠٢ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٥ المحرم ١٢٥٢

(٤) دفتر ٢٠٠١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢٠ ذى الحجة ١٢٥١

الحكومة إذ ذاك استدعاء أطباء من الأجانب يقومون على تدريسها وتعيين مترجمين يقومون على ترجمتها . أما الأطباء المصريون الذين عادوا أخيرا من أوربا فقد رأى شورى الأطباء أنهم عادوا قبل إتمام علومهم وأنهم لم يمرنوا بعد ، فلا يمكن الاعتماد عليهم فى التدريس للطلبة حتى يمضوا زمنا فى مدرسة الطب بأبى زعبل . كانت هذه العقبة إذن — عقبة العثور على مدرسين من الأطباء — بالغة الأثر فى سير الدراسة بمدرسة المارستان ، حتى لم يكن بها من المدرسين إلا ناظرها الشيخ .[1]

ولما وُضعت لوائح التعليم فى سنة ١٨٣٦ نُص فيها على أن المدارس الخصوصية — ومنها مدرسة الطب — تستمد تلامذتها من مدرستين تجهيزيتين : وهما مدرسة قصر العينى بالقاهرة ومدرسة الاسكندرية . وأغفل القانون مدرسة المارستان أو المدرسة التجهيزية لمدرسة الطب إغفالا تاما . وبذلك انهار الكيان (الرسمى) لمدرسة المارستان . والواقع أنه لم يعد ثمت مبرر لبقائها بعد تنظيم الدراسة بالمدرسة التجهيزية على نحو يعدّ تلامذتها للمدارس الخصوصية . هذا إلى أنها كانت تكلف الحكومة مصاريف باهظة : إذ كان تلامذتها — على قلتهم — يتناولون مرتبات عالية ، فكان أكثرهم يتقاضون من ثلاثين إلى ستين قرشاً ، ومنهم من بلغ مرتبه مائة قرش فى كل شهر . هذا عدا مرتبات الخدمة والموظفين وما يستلزمه تعليم الطلبة وإيواؤهم من طائل النفقة .

بدأ شورى المدارس يتداول الرأى فى الإبقاء على هذه المدرسة أو إلغائها ،

---

(١) دفتر ٢٠٠٢ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٥ المحرم ١٢٥٢ — هو الشيخ محمد الهراوى وكان مصححاً بمدرسة الطب ، وقد اكتسب فى خلال قيامه بوظيفته معارف طبية فاقترحت لجنة الامتحان فى سنة ١٨٣٢ تعيينه أستاذاً مساعداً بالمدرسة ورفع مرتبه مكافأة له هو والسيد أحمد الرشيدى (وهو الذى سافر فى بعثة الطب) ومسيو حنا عنحورى المترجم . (Clot, op. cit, p. 116.)

وكان طبيعياً أن يستطلع فى ذلك رأى الدكتور كلوت بك ، إذ كان « إنشاء هذه المدرسة وترتيبها بمعرفته» . فاقترح إلغاءها وتحويل تلامذتها إلى أبى زعبل ، مستنداً فى ذلك الى إهمال القانون أمرها وتطلبها نفقات باهظة . ثم رأى الشورى ألا يقطع فى هذا الأمر برأى حتى يعرضه على « ولى النعم » ، « فاذا أصدر الأمر ببقائها فلامناص من وضع نظام لهذه المدرسة من جهة المعلمين وسائر مايلزمها طبقاً لقانون المدرسة التجهيزية » .[1] ولكن محمد على فضّل أن يترك الأمر لشورى المدارس يبتّ فيه على ضوء المعلومات التى جمعها . فراح الشورى يبحث الأمر من جديد: فاستدعى الشيخ محمد الهراوى ناظر المدرسة وطلب اليه أن يدلى ببيان تفصيلى عن عدد تلاميذه وسير الدراسة بالمدرسة ومقدار النفقات التى تنفق عليها ، ثم عن رأيه فى بقائها أو إلغائها . فكان الناظر صريحا فى « أنه لا يمكن الاستفادة من هذه المدرسة وهى على حالتها الحاضرة ، ولكن لو عيّن لها مدرسون وما تحتاج إليه ونظمت أسوة بالمدارس الأخرى تصبح مفيدة ، أما إذا تركت على ما هى عليه الآن من الفوضى فلا يمكن أن يتعلم طلبتها شيئاً ، ونكون قد صرفنا مبالغ طائلة فى غير محلها » .[2] ولما كان يعلم أن إيجاد المدرسين من الصعوبة بمكان وأن تنظيمها يحتاج إلى مصروفات باهظة ، فقد وافق كلوت بك على « أن الغاءها أوفق وأولى » .

ويظهر أن هذه (الصراحة) من الشيخ الهراوى لم ترق لمحمد على ، فكتب إلى «حبيب أفندى» مأمور ديوانه بأن يستدعى الشيخ و ينبّه عليه « بتجنب التدخل فى أمور ولوازم مدرسة المارستان وشئون تلاميذها ، بل يحصر اهتمامه فى تصحيح ترجمة الكتب المحولة إلى عهدته فقط . وإذا لم ينتصح يزجه فى

(١) دفتر ٢٠٠١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢١ ذى الحجة ١٢٥١

(٢) دفتر ٢٠٠٢ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٥ المحرم ١٢٥١

غرفة خالية ويشغل خاطره بالعصا(!) كما يفهمه بأن الفضل فى جمع هؤلاء التلاميذ لا يعود الى سعيه ومهارته، بل عليه أن يعلم أن الجناب العالى قد ضحى كثيراً فى سبيل جمعهم »، وأمره أيضاً بأن يعهد الى كلوت بك بنقل تلاميذ هذه المدرسة الى مدرسة أبى زعبل بالتدريج.[1]

وأخيراً استقر رأى الشورى على إلغاء المدرسة وتحويل من يتقن اللغة العربية من طلبتها الى مدرسة الطب بأبى زعبل وإرسال من لا يتقنها الى مدرسة قصر العينى، مع التماس إنشاء مدرسة للطب ومستشفى داخل المدينة « حيث أن الأمل كبير فى تخريج مدرسين وطنيين قريبا ». ورفع القرار الى « الجناب العالى »، فأصدر أمره بإلغاء مدرسة المارستان ورفض إنشاء مدرسة للطب ومستشفى داخل المدينة.[2]

وبذلك انتهى تاريخ مدرسة المارستان.

مدرسة الصيدلة

كان الدكتور كلوت بك يعلم أهمية دراسة الصيدلة لطلبة الطب، ولذلك نجده يذكرها كمادة من مواد الدراسة فى التقرير الذى رفعه إلى عثمان نور الدين (بك) عن مشروع إنشاء مدرسة الطب بمستشفى أبى زعبل. وكذلك كان من أبنية المستشفى مكان خاص بالصيدلة. ولكن لم يعين للصيدلة أستاذ خاص، ولذا لا نجد لها ذكرا بين مواد الدراسة التى امتحن فيها تلاميذ الطب فى السنين الأولى من تاريخ المدرسة.

ولما كانت للحكومة فى القلعة دار عامة للصيدلة (حكمه خانه) تقوم بإعداد ما يطلب منها من أدوية وغيرها، فقد آثرت أن تنشىء بها مدرسة

---

(١) دفتر ٦٨ (معية) رقم ١٧٩ الى حبيب أفندى فى ١١ جماد ثان ١٢٥١

(٢) دفتر ٢٠٠٢ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٤ المحرم ١٢٥١

للصيدلة فى عام ١٢٤٥ (١٨٣٠م) ،[١] أى فى العام الثالث من تاريخ مدرسة الطب ، وعيّن لها ناظر هو الطبيب ألساندرى «Alessandri» وكان عضوا فى شورى الأطباء ، وكان يدعى للاشتراك فى امتحانات مدرسة الطب .[٢]

ولكن مدرسة الطب تريد أن تستكمل «مقوماتها» ليعظم نفوذها ويشتد أثرها ، ولا يتم ذلك إلا إذا ضمّت اليها المدرستين الطبيتين الأخريين : وهما مدرسة الصيدلة بالقلعة ومدرسة الطب البيطرى بأبى زعبل ، على أن يضم اليها مدرسة أخرى للتوليد . وبذلك تحتكر مدرسة الطب (التعليم الطبى) فى مصر ، ويحقق كلوت بك مطامعه فى الإشراف على معاهد الطب فى مصر جميعا .

وبدأ التفكير فى ضم مدرسة الصيدلة بالقلعة إلى مدرسة الطب بأبى زعبل فى نفس العام الذى أنشئت فيه . بدأه الدكتور باريزت «Pariset» حين وُكلت إليه رياسة لجنة الامتحان فى سنة ١٢٤٥ : رأى أن تقسم الدروس فى مدرسة الطب قسمين : قسما لدراسة علوم الطب والجراحة البحتة ، وآخر لدراسة العلوم الطبيعية التى تتصل بالطب والجراحة (ومنها الصيدلة) ، على أن يكون لكل قسم رئيسه .[٣] ونفذ اقتراحه وضمت مدرسة الصيدلة بالقلعة إلى مدرسة الطب بأبى زعبل فى شوال سنة ١٢٤٥ (١٨٣٠م) . وأنفذ الدكتور كلوت بك ما أشار به رئيس الامتحان من تقسيم الدروس قسمين : قسم العلوم الطبية البحتة وقسم العلوم الطبيعية . ويشمل القسم الأول دراسة التشريح والفيزيولوجيا والصحة والطب الشرعى والباثولوجيا والعيادة الخارجيتين والباثولوجيا والعيادة الداخليتين والمادة الطبية والرمد والطب البيطرى . ويشمل القسم الآخر دراسة الطبيعة والكيمياء والمعادن والنبات والحيوان والصيدلة . ولكل مادة أستاذ يشرف على تعليمها إشرافا مباشرا .

(١) أمين سامى باشا : تقويم النيل ج ٢ ص ٥٨

(٢) Clot Bey, Compte rendu..., p. 56.

(٣) Ibid. p.72.

على أن يكون الدكتور «كلوت» مسئولا عن إدارة القسم الطبي البحت. والدكتور «لويس ألساندرى» مسئولا عن قسم العلوم الطبيعية.[١]

وقد خرَّجت مدرسة الصيدلة فى عاميها الأولين أربعة عشر صيدليا ألحقوا بالجيش.[٢]

وقد ظل الفصل بين دراسة الطب ودراسة الصيدلة متبعا فى مجموعه. وكانت مدة الدراسة بقسم الصيدلة كمدة الدراسة بقسم الطب أربع سنين، على أن يمضى الطالب سنة (إعدادية) يلحق بعدها إما بالطب أو بالصيدلة أو بالطب البيطرى.

وكان عدد تلاميذ الصيدلة قليلا بالنسبة لتلاميذ الطب: إذ كانوا نحو الخمسين بينما يربو الآخرون على المائة والخمسين طالبا. وكان قسم الصيدلة يخرِّج فى كل عام نحو ستة أو تسعة من الصيادلة، وكانوا يعملون إما فى المدرسة نفسها أو فى فرق الجيش أو المستشفيات. وكان الصيادلة الأجانب يضيقون أمامهم باب العمل حتى خشى ديوان المدارس ألا يجد المتخرجون عملا فيظلوا بالمدرسة عالة على الحكومة، فطالب الدواوين الأخرى — جريا على سياسة «تمصير» الطب — بأن تشترك مع ديوان المدارس فى تدبير أعمال لهم، وذلك بأن تعين الصيادلة المصريين فى المصالح التى يعمل بها الأطباء المصريون.[٣]

---

(١) Ibid. p. 77.

(٢) Ibid. p. 98.

(٣) دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركى) ص٧٣ رقم ٢١٦٩ الى شورى المعاونة فى ١٣ ذى القعدة ١٢٥٩. ودفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص٣٨ رقم ١٤٤٩ الى الباشمعاون فى ٩ ذى القعدة ١٢٥٥.

مدرسة الولادة

بعد إنشاء مدرسة الطب ازداد الشعور بجهل المولدات (الدايات) المصريات ، ولما كان من المتعذر حينذاك إقناع السيدات المصريات بأن يقوم على علاجهن وتوليدهن أطباء من الرجال ، رؤى من الضرورى إنشاء مدرسة لتخريج مولدات متعلمات . وقد بدأ التفكير فى إنشائها فى العام الثالث من إنشاء مدرسة الطب (١٢٤٥ هـ — ١٨٣٠ م) ، فقد رأى رئيس لجنة امتحانات المدرسة فى تلك السنة أن « آخر وسيلة لرفع شأن المدرسة إنشاء دروس للولادة وتطبيب النساء والأمراض السرية ، ويقوم بإلقائها الدكتور كلوت ، وليس على الحكومة إلا أن تمدّه بالتلاميذ ، وسيكونون من النساء طبقاً لتقاليد البلاد » . [١]

ولكن المدرسة لم تُنشأ إلا بعد ذلك بعامين على أثر تقرير رفعه كلوت بك الى محمد على . [٢] ففى عام ١٨٣٢ صدر أمر عال إلى « حبيب أفندى » مأمور الديوان الخديوى بأن يختار من حرم قصر القلعة أغوين ملمين بالقراءة والكتابة ليلحقا بمعية كلوت بك ويتعلما الطب والجراحة ، وبأن يشترى عشرا من الجوارى السوداوات الصغيرات ليتعلمن عند كلوت بك أيضا صناعة التوليد والطب والجراحة . [٣] وبذلك تكوّنت النواة الأولى لمدرسة الولادة الملحقة بمدرسة الطب البشرى بأبى زعبل من أغوين وعشر من الجوارى . [٤]

---

(١) Clot Bey, op. cit, p. 74.

(٢) من تقرير كلوت بك للدكتور بورنج Bowring, op. cit, p. 140.

(٣) دفتر ٧٨ (معية) ص ٨٥ رقم ٤٥١ أمر عال إلى حبيب افندى فى ١٤ جمادثان ١٢٤٧

(٤) ذكر كلوت بك فى تقريره عن مدرسة الطب أن نصفهن من السود ونصفهن الآخر من الحبشيات (Compte rendu... p. 159.)

والواقع أن محمد على مع ثقته بالفوائد الجليلة التى تجنيها البلاد من (مؤسسة) كهذه كانت فى أشد الحاجة اليها كان يخشى أن يواجه البلاد بانشاء مدرسة للبنات ويطلب إلى الناس أن يلحقوا بناتهم بها أو ينزعهن من أحضان آبائهن وأمهاتهن قسرا ، فيضيف بذلك عبئاً جديداً إلى أعبائه الكثيرة التى يلاقيها فى المدارس الأخرى التى أنشأها والتى اضطر فى أول الأمر إلى سوق الناس اليها سوقا . ولذلك رأى محمد على أن تكون النواة الأولى للمدرسة من أغوات الحرم ومن الجوارى اللاتى يسهل جمعهن وليس لهن من الأهل ما قد يقفون عقبة فى طريق الحكومة ، حتى إذا تلقين — ونقصد (الأغوين) والجوارى — ما أعدّ لهن من دروس وظهر للملأ فى صورة عملية فائدة مدرسة الولادة وخريجاتها لم تعدم الحكومة أن تجد من المصريات من تقدم على الدخول بها ، وبذلك يتسع نطاق المدرسة شيئا فشيئا .

أما الأغوان فقد خصهما الأمر العالى بدراسة الطب والجراحة ، إلا أنهما كانا يتعلمان (القبالة) أيضاً مع الجوارى . ولما أتمّا تعليمهما — وقد أشارت تقارير الامتحان إلى جدّهما وتفوقهما — عيّنا معيدين بالمدرسة ومنحا رتبة الملازم ، ثم رؤى أنه ينقصهما المران والخبرة العملية فألحقا (بحكيمباشى) المستشفى الملكى ليمرنا على العمليات الجراحية ، وأنعم على كل منهما برتبة اليوزباشى وزيد مرتبه . [١]

وقد شاءت الحكومة أن تعيد فى سنة ١٢٦٢ هـ ، أى بعد خمس عشرة سنة من إنشاء المدرسة ، تجربة تعليم الطب لنفر من الأغوات ، فألحقت بمدرسة الولادة ستة منهم لم تتسع لهم مدرسة المبتديان ، وأجرت تعليمهم ومرتبهم وغذاءهم كتلميذات المدرسة ، [٢] إلا أن التجربة سرعان ما

---

(١) وكانا يدعيان (ألماس أغا) و (سليمان أغا) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص ٣٨ رقم ١٤٤٩ الى الباشمعاون فى ٩ ذى القعدة ١٢٥٥

(٢) دفتر ٢٨ (مدارس عربى) ص ١١٢٠ رقم ٢٧٠ الى مدرسة الطب البشرى فى ٦ ربيع أول ١٢٦٢

أخفقت ، إذ فصلوا من المدرسة بعد شهرين من التحاقهم بها . [١]

أما الجواري — وقد كن أميات — فقد بدىء بتعليمهن القراءة والكتابة والدين على يد شيخ عالم، ثم درسْنَ رسالة مترجمة إلى العربية فى فن التوليد . وكانت تقوم بتطبيق العلم لهن على مثـــال إنسانى مصنوع ! معلمة أوربية تدعى « الآنسة جوليت » ، وطبيب مصرى أتم دروسه فى باريس . وقد رأت هذه المعلمة الباريسية فى تلميذاتها من الذكاء وحسن الاستعداد للتحصيل ما جعلها تفكر فى إمكان تعليمهن اللغة الفرنسية من غير تقصير فى دراستهن الأخرى ، وقامت هى بتدريسها لهن . وقد قطع فيها التلميذات شوطا بعيداً ، وكانت كفاءتهن فى تعلمها موضع إعجاب وتقدير كبار الزائرين الأجانب . [٢]

وفى ثلاث سنوات أتم تلميذات مدرسة الولادة الدراسة ، ولكنها كانت دراسة نظرية . ورأت الحكومة أن الدراسة النظرية لا يمكن أن تغنى عن المران العملى : فأنشأت مستشفى صغيراً للنساء بقرب مدرستهن بأبى زعبل يتسع لعشرين سريراً . وكان محمد على حريصاً على نجاح التجربة الأولى لأول مدرسة للبنات فى مصر ، فأمر بأن ترفع إليه نتيجة اختبار كفاية التلميذات العملية ، ووافق على زيادة عدد تلميذات المدرسة . [٣]

ونجحت التجربة نجاحا شجع الحكومة على أن تزيد عدد تلميذات المدرسة حتى وصل فى أواخر عصر محمد على إلى ستين جلهن من المصريات ، ومضت مدرسة الولادة تسجل فى تاريخ التعليم فى عصر محمد على صفحة جميـــلة لمؤسسة طريفة اضطلعت بقسط كبير من الإصلاح الاجتماعى فى مصر فى النصف الأول من القرن الماضى .

---

(١) دفتر ٢٩ (مدارس عربى) ص ١٥٣٠ رقم ٦٩٤ الى أمين خزينة المدارس فى ٩ جاد أول ١٢٦٢

(٢) كلت بك : لمحة عامة إلى مصر ج ١ ص ٦٣٧ و Pückler—Muskau, op. cit, p. 231.

(٣) دفتر ٤٨ (معية) ص ١٢٠ رقم ٤٨٥ الى خورشيد بك فى ٧ المحرم ١٢٥٠

المصريات فى المدرسة

قلنا إن النواة الأولى للمدرسة تكونت فى سنة ١٨٣٢ من أغوين وعشر من الجوارى . ولما أزمعت الحكومة زيادة التلميذات اختارتهن من الجوارى أيضاً.[١] ولكن كلوت بك كان يرى أن هذا الوضع « الشاذ » للمدرسة ليس مما يعينها على التقدم ، وأنه إذا أريد للمدرسة أن تنجح فى أداء الرسالة التى أنشئت لأدائها يجب العمل على إدماجها فى الوسط الذى أنشئت به ، ولن يتمّ هذا إلا باختيار تلميذاتهامن المصريات ، هذا الى أن معظم الحبشيات اللاتى اشترين لهذا الغرض لم يتمكنّ من مقاومة جو البلاد ، فمتن بأمراض الصدر .[٢]

أخذ كلوت بك يفكر جدياً فى إلحاق فتيات مصريات بالمدرسة ، ولكنه كان يعلم أن من الصعوبة بمكان أن تمدّه الحكومة بعدد منهن . وأخيراً واتته الفرصة فانتهزها : كان ست فتيات فقيرات يعالجن بمستشفى أبى زعبل ، فلما تم شفاؤهن لم يتقدم لتفقدهن أو أخذهن أحد ، إذ كن يتيمات محرومات من الأهل والأقارب ، فألحقهن كلوت بك تلميذات بمدرسة الولادة وشرع فى تعليمهن القراءة والكتابة تمهيداً لتعلم القبالة ، حتى إذا أصبن حظا منهما كتب الى شورى المدارس عنهن ، وطلب أن يخصص لهن من المرتب والغذاء والكساء ما خصص لتلميذات المدرسة .

فاقر الشورى كلوت بك على ما فعل ، إذ أن « الجناب العالى سيوافق على أن تحصل مثل هؤلاء البائسات العلوم التى تمهد لهن سبل العيش الرغد فى ظل عطفه الكريم ، فينفعن الناس بعلمهن ومقدرتهن بعد تخرجهن ، ويتخلص السيدات اللاتى تتعسر ولادتهن من آلام الوضع وأخطاره » .[٣] وبذلك كان

(١) دفتر ٤٨ (معية) ص ١٠٢ رقم ٤٨٥ إلى خورشيد بك فى ٧ المحرم ١٢٥٠

(٢) Hahn—Hahn, Letters of a German Countess, III. p279.

(٣) دفتر ٢٠٠٦ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٥ جاد أول ١٢٥٢

هؤلاء الفتيات اليتيمات أول تلميذات مصريات بمدرسة الولادة .

وبعد ذلك (تشجعت) الحكومة وأقدمت على الإكثار من عدد المصريات بالمدرسة. والواقع أنه لم يبق ثمة مبرر للاقتصار على الجوارى الحبشيات أو السودانيات بعد نجاح تجربة تعليم المصريات . ولكن يجب ألا يحملنا ذلك على الظن بأن مدرسة الولادة قد لاقت إقبالا من جميع الطبقات ، بل كان يلتحق بها الفقيرات اللاتى لا عائل لهن ، وكان يفضل فى اختيارهن اليتيمات وبنات الجند . [١] وكان ديوان المدارس — إذا ما خلت محال بالمدرسة — يكتب إلى مدير الايرادات بالتنبيه على مشايخ « أثمان » المحروسة « بالقبض » (كذا !) على الفتيات ، على أن يقوم هؤلاء المشايخ بضمانتهن . [٢] حتى إذا فرت إحداهن كان على (ضامنها) أن يجدّ حتى يأتى بها . [٣] ومنهن من كان أهلها يتقدمون بها إلى المدرسة ويتعهدون بالقيام على لباسها وإطعامها وجميع ما يلزمها . [٤] وكان ديوان المدارس حريصاً كل الحرص على (سمعة) المدرسة . فاذا وجد فى ماضى تلميذة (مستجدة) ما يريب نقب عنه قبل قبولها . [٥] وإذا شاب سلوك تلميذة ما يشينه فصلها وأنزل بها شديد العقاب . [٦] وأخيراً رأى الديوان — حرصاً منه على أن لا تدلف إلى المدرسة من ساء خلقها أو شاه ماضيها — ألا يقبل بالمدرسة تلميذات (مستجدات) حتى يذهب بها الى الديوان « ليراها أربابه » ويقررون فى شأنها ما يرون . [٧]

---

(١) كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر ج ٢ ص ٦٣٨

(٢) دفتر ٢٠٨١ (مدارس تركى) ص ١٤٩ إلى مدير الايرادات فى ١٤ ذى الحجة ١٢٥٨

(٣) دفتر ١ (مدارس عربى) ص ١٢٧ رقم ١٣ إلى ضابط المحروسة فى ٧ شوال ١٢٦٠

(٤) دفتر ٢٩ (مدارس عربى) ص ١٤١١ رقم ٣١٠ إلى مدرسة الطب البشرى فى ٤ ربيع ثان ١٢٦٢

(٥) دفتر ١٠ (مدارس عربى) ص ٢٠٢٨ رقم ٢٨١ إلى معلم مدرسة الولادة فى ٢ صفر ١٢٦١

(٦) دفتر ٨ (مدارس عربى) ص ٣٧١ رقم ٨٤ إلى مدرسة الطب البشرى فى ١٧ شوال ١٢٦٠

(٧) دفتر ٩ (مدارس عربى) ص ٦٣٤ رقم ١٥٢ إلى معلم وحكيم مدرسة الولادة فى ٨ ذى القعدة ١٢٦٠

ولم يكن يشترط فى التلميذات (المستجدات) معرفة القراءة أو الكتابة ، بل كان يكفى أن يكنّ صغيرات السن تتراوح أعمارهن بين الثانية عشرة والثالثة عشرة ،[١] حسنات السير والسلوك يضمنهم مشايخ «الأثمان» ،[٢] أبكاراً لا ثيبات أو مطلقات ، إذ أن هؤلاء «لا يكون لهن قابلية للتعلم» .[٣]

عدد التلميذات

بدأت المدرسة بعشر من الجوارى . وفى سنه ١٨٣٦ كنّ ثلاث عشرة جارية وستةمصريات .[٤] وقد تخرج بعضهن بعدذلك ولم يلحق بدلهن بالمدرسة. حتى إذا كانت سنة ١٨٤٠ نقص عدد التلميذات إلى إحدى عشرة تلميذة ، فطلب الديوان إلى «ولى النعم» إلحاق اثنتى عشرة تلميذة مصرية بالمدرسة.[٥] فألحقنّ بها .[٦] حتى إذا كان العام التالى وأعيد النظر فى نظم التعليم ولوائحه وأنقص عدد التلاميذ بمختلف المدارس كان حظ مدرسة الولادة خيراً من غيرها : إذ تقرر زيادة العدد المقرر إلحاقه بها الى أربعين تلميذة .[٧] ولكن هذا القرار لم ينفذ فى ذلك التاريخ ، فقد وضعت ميزانية المدرسة على أن يكون بها خمس وعشرون تلميذة.[٨] ولكن الاقبال اشتد على المدرسة وانفسحت أبواب العمل أمام خريجاتها ، فلم تر الحكومة بدا من زيادة عددها الى ستين تلميذة ،

---

(١) دفتر ٢٠٨١ (مدارس تركى) ص ١٤٩ إلى مدير الايرادات فى ١٤ ذى الحجة ١٢٥٨
(٢) دفتر ٢٠٨٣ (مدارس تركى) ورقة ٢ فى ٨ المحرم سنة ١٢٥٩
(٣) دفتر ٢٠٨٣ (مدارس تركى) ورقة ٩٢ إلى مدرسة الطب البشرى فى ١٩ جماد ثان ١٢٥٩ .
(٤) دفتر ٢٠٠٦ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٥ جماد أول ١٢٥٢
(٥) دفتر ٢٠٦٨ (مدارس تركى) ص ٤٨ إلى الباشمعاون فى ٢٨ شوال ١٢٥٦
(٦) دفتر ٢٠٧٤ (مدارس تركى) ص ١٢ فى ٢٠ المحرم ١٢٥٧ (وفيه بيان بأسمائهن)
(٧) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) رقم ٥٦٥ إلى شورى المعاونة فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٧
(٨) دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركى) ص ٧٣ رقم ٢١٦٩ إلى شورى المعاونة فى ١٣ ذى القعدة ١٢٥٩ .

وهو العدد الذى لا تتسع المدرسة لأكثر منه .[١]

برامج الدراسة

كان من المتعذر على الحكومة أن تجد من الفتيات الملمَّات بالقراءة والكتابة — ولم يكن يتعلمها فى بيوتهن إلا ربات القصور وجواريهن — من تلحقهن بمدرسة الولادة ، ولذلك كانت الفتيات الملتحقات بها أميات ، فكان لابد أن يتعلمن اللغة العربية قراءة وكتابة فى العام الأول من دخولهن المدرسة ، حتى اذا ألممن بها تقدمن الى دراسة المواد التى تتعلق بالمهنة التى خصصت لهن . وبذلك كانت برامج الدراسة تنتظم المواد الآتية :[٢]

١ — مبادىء اللغة العربية بحيث يستطعن تلاوة الدروس التى تعطى لهن تلاوة صحيحة .

٢ — فن التوليد نظريا وعمليا .

٣ — العناية الصحية بالحوامل والنساء اللاتى فى حالة الوضع والأطفال المولودين حديثا .

٤ — طرق علاج الأمراض السرية .

٥ — مبادىء الجراحة الأولية الكافية لعلاج الأورام الالتهابية وتضميد الجراح البسيطة وعمل الكى ووضع اللزقات وما شابه ذلك .

٦ — طريقة عمل الحجامة وتلقيح الجدرى وأخذ الكاسات الهوائية ووضع الدود .

---

(١) دفتر ٢٠٩٥ (مدارس تركى) فى ٢١ جاد ثان ١٢٦٠ — إلا أن الدكتور كاوت بك يقول إن عدد التلميذات اللاتى أهلهن من العاصمة عشرون والواردات من الأقاليم أربع من كل مديرية . فتجاوز مجموع التلميذات بذلك المائة (كذا) وبذلك تتمكن الحكومة من توزيعهن على الأقاليم فيعلمن غيرهن ويعددن يد المساعدة لمن يطلبها منهن (لمحة عامة ج ٢ ص ٦٣٨ — ٦٤٢)

(٢) كاوت بك : لمحة عامة الى مصر ج ٢ ص ٦٣٨ — ٦٤٢

٧ — العلم بالأدوية الأكثر تداولا فى الاستعمال وتجهيزها

وكانت المدرسة مؤلفة من ثلاث فرق دراسية : الفرقة الثالثة (السنة الأولى) وتعتبر ، قسما تجهيزياً ، يدرس فيه التلميذات القراءة والكتابة والحروف والأسماء والهيكل العظمى . ويدرس تلميذات الفرقة الثانية تشريح الحوض والفسيولوجيا والتوليد والجراحة الصغرى واللغة العربية ، ويدرس تلميذات الفرقة الأولى (السنة النهائية) بتوسع المواد نفسها التى درستها بالفرقة الثانية .[1] أما المواد الأخرى التى ذكرها كلوت بك فالراجح أن التلميذات كن يتدربن عليها عملياً فى المستشفى . ثم أضيف إلى هذا المنهج مواد أخرى : هى المادة الطبية وأمراض النساء والأطفال[2] والصيدلة ،[3] وكان يقوم بتدريسها مدرسون مندوبون من مدرسة الطب البشرى .

وكان التلميذات يدرسن اللغة العربية فى الكتب التى يدرسها (زملاؤهن) طلبة المدارس الأخرى كالكفراوى وغيره .[4] وكن يدرسن المواد الأخرى فى كتب معربة. وكن يقمن بتطعيم الأطفال بأقسام القاهرة كلها إلا قسم مصر القديمة لقربه من مدرسة الطب بقصر العينى .[5]

إدارة المدرسة وموظفوها

ألحقت المدرسة أول إنشائها بمدرسة الطب بأبى زعبل ، فكان الدكتور كلوت بك مديراً للمدرستين ، وقد وضع مجلس إدارة مدرسة الطب مناهج الدراسة للتلميذات، وكانت تضمّن تقاريرها نتائج امتحانات المدرستين وما تراه من مقترحات .

---

(١) و (٢) دفتر ٢٠٩٦ (مدارس تركى) ص ١٤٠ فى ٧ ذى القعدة ١٢٦٠

(٣) دفتر ٤٦ (مدارس عربى) ص ١٢٢٢ رقم ٢١٥ إلى البنايات فى ٨ المحرم ١٢٦٣

(٤) دفتر ٥٩ (مدارس عربى) ص ٢٢١٦ رقم ١٥٦ إلى الكتبخانة فى ١٥ ربيع أول ١٢٦٣

(٥) دفتر ٣ (مدارس عربى) ص ٨٣٩ رقم ٤٨ إلى الضابطخانة فى ١٧ المحرم ١٢٦١

وكانت لجنة امتحان المدرستين واحدة ، وإلى مدرسة الطب كان ديوان المدارس يوجه القول فى كل ما يخص مدرسة الولادة من أمور إدارية وفنية . ولما نقلت مدرسة الطب الى قصر العينى فى سنة ١٨٣٧ نقلت معها مدرسة الولادة ، ولكنها لم تلبث أشهراً حتى ألحقت بالمستشفى الملكى المنشأ فى الأزبكية . [١] وكان هذا المستشفى تابعاً فى إدارته للديوان الخديوى ، إلا أن مدرسة الولادة ظلت تابعة لديوان المدارس . [٢] وكذلك ظلت صلتها بمدرسة الطب البشرى على نحو ما شرحنا . ولذلك مُنِع مدير مستشفى الأزبكية من التعرض لأى شأن من شئون مدرسة الولادة ووضعت جميعها فى يد « معلمها وحكيمها » ،[٣] وهو بمثابة « وكيل » لها ، إذ أن مدير مدرسة الطب البشرى كان مديرا لها كذلك ، وكان يقوم بالتفتيش عنها من وقت لآخر . [٤] ولما كان « لشورى الاطباء » الإشراف الأعلى على مدرسة الطب كان له أيضاً الإشراف على مدرسة الولادة . فكان ديوان المدارس يكتب بما يراه إما إلى « معلم المدرسة وحكيمها » رأساً أو إلى مدرسة الطب البشرى لتبلغه إياه ، أو إلى شورى الأطباء فى الجليل من الشئون .

وكان « على هيبه أفندى » أول معلم وحكيم للمدرسة ، وكان مدرساً بها من قبل ، فلما نقلت المدرسة إلى الأزبكية وبعدت بذلك عن مدرسة الطب بقصر العينى عهد إليه بالإشراف على المدرسة مع قيامه بالتدريس للفرقة

---

(١) كان بالأزبكية مستشفى فلما نقل مستشفى أبى زعبل إلى قصر العينى حول مستشفى الأزبكية إلى مستشفى مدنى وقسم خمسة أقسام : قسما للرجال وآخر للنساء ومستشفى للتمريض ومستشفى للولادة ومستشفى للأمراض العقلية ، ويتسع المستشفى كله ا ٥٠٠ مريض. (من تقرير كاوت لبورنج Bowring, op. cit. p. 141.)

(٢) دفتر ٢٠٢٧ (مدارس تركى) ص ١ إلى مأمورية الديوان الخديوى فى ١٠ صفر ١٢٥٣

(٣) دفتر ٦ (مدارس عربى) ص ٢٩٠٥ رقم ٤١٥ إلى الديوان الخديوى فى ٧ رجب ١٢٦١

(٤) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص ٣٩ فى ٩ ذى القعدة ١٢٥٥

الثانية ، على أن يظل الدكتور بيرون «Péron» الذى خلف الدكتور كلوت بك على مدرسة الطب مديرا للمدرستين . [١] ثم خلفه «عيسوى النحراوى أفندى» . [٢] ثم «أحمد الرشيدى افندى» . [٣] وقد كانا مع هيبة أفندى أعضاء فى بعثة الطب الأولى إلى فرنسا ، ثم كانوا جميعا مدرسين بمدرسة الطب . وفى بعض الأحيان كان يندب للتدريس بمدرسة الولادة مدرسون من مدرسة الطب .

وإلى جانب هؤلاء الأطباء المصريين كانت تعمل طبيبة أوربية — أو فرنسية على وجه التخصيص — وهى «الآنسة جوليت» المتخرجة فى مدرسة المولدات بباريس ، وقد ذكرنا شغفها بتدريس اللغة الفرنسية لتلميذاتها ، وكانت — قبل إنشاء مستشفى الولادة — تطبق العلم لهن على مثال إنسانى مصنوع . ثم خلفتها الآنسة «غو» (كذا) فى أبريل سنة ١٨٣٦ ، وهى متخرجة فى دار الولادة (Maternité) بباريس ، وكانت تقوم بالتدريس لتلميذات الفرقة الأولى بالمدرسة ، وعليها كذلك «إجراء الخدمات الخاصة بالقبالة فى قصر الجناب العالى فى وقت الحاجة» . [٤] ولما توفيت «الآنسة غو» فى سنة ١٨٤٠ [٥] لم تستدع أجنبية غيرها ، حتى إذا كانت سنة ١٨٤٣

---

(١) وكان على هيبة أفندى عضوا فى بعثة الطب الأولى إلى فرنسا (فى سنة ١٨٣٢) وقد تخصص فى الفسيولوجيا والولادة وعاد مع الفريق الأول (فى سنة ١٨٣٧) — دفتر ٢٠٠٥ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٩ صفر ١٢٥٢

(٢) دفتر ١ (مدارس عربى) ص ١٦٣ فى ١٠ شوال ١٢٦٠

(٣) دفتر ٥٩ (مدارس عربى) ص ٢٢٥١ رقم ٧١١ من الديوان إلى دار الطباعة فى ١٥ ربيع أول ١٢٦٣

(٤) دفتر ٢٠٠٧ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢٠ ربيع الثانى ١٢٥٢ — عقد التوظف المبرم بينها وبين مسيو چومار وأهم ماجاء فيه غيرما ذكرنا أن تكون تحت إشراف شورى الأطباء وأن مدة العقد أربع سنوات بمرتب شهرى قدره ١٥٠٠ قرش .

(٥) دفتر ٢٠٦٨ (مدارس تركى) ص ٤٨ إلى الباشمعاون فى ٢٨ شوال ١٢٥٦

عادت الحكومة فاستدعت معلمة فرنسية أخرى .[١]

على أن شطراً كبيراً من عبء التدريس كان يقع على المعلمات الطبيات المصريات من خريجات المدرسة . وقد بدأ ذلك فى عام ١٨٣٩ : فبينما كانت المعلمة الفرنسية تقوم بالتدريس للفرقة الأولى ومعلم المدرسة وحكيمها للفرقة الثانية ، اختيرت تلميذة من متفوقات الفرقة الأولى للتدريس للفرقة الثالثة ،[٢] فلما توفيت المدرسة الفرنسية رقيت هذه التلميذة الى وظيفتها ومنحت رتبة الملازم الثانى ومرتبه ، وعينت تلميذة أخرى متقدمة بدلها[٣]. وبذلك أخذ المصريات ينهضن بقسط كبير من التدريس بالمدرسة ، فكان منهن بعد ذلك معيدتان ومعلمتان من الدرجة الأولى والثانية ، وكل وظيفة تعدٌ لما تليها : فالمعيدة الثانية ترقى إلى معيدة من الدرجة الأولى ثم الى معلمة من الدرجة الثانية ثم إلى معلمة من الدرجة الأولى.[٤]

وكان لمدرسة الولادة صنف آخر من (الموظفات) كانت تستلزمه مدرسة داخلية للبنات فى ذلك الوقت : فقد عيِّن لهن « بلانَّة » تقوم على تنظيف رءوسهن فى يومى الخميس والجمعة من كل أسبوع ، على أن تخصم أجرتها — وقدرها أربعون قرشاً فى الشهر — من مرتب التلميذات.[٥] ورأت المدرسة تعيين حائكة « خياطة » لتعلم الحياكة لتلميذات المدرسة الصغيرات ، ولكن الديوان رفض محتجاً بأن تعليم الحياكة لهن ، وإن كان « من جملة التربية » ، إلا أن التلميذات الكبيرات يمكنهن أن يعلمن الصغيرات

---

(١) دفتر ٨٣ (مدارس عربى) ص ٠٦٣ رقم ٣٥ إلى ديوان التجارة بالاسكندرية فى ٢٢ ذى الحجة ١٢٦٣

(٢) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص٣٩ فى ٩ القعدة ١٢٥٥ وكانت تدعى فاطمة أفندى الصغيرة

(٣) دفتر ٢٠٦٨ (مدارس تركى) ص٤٨ إلى الباشمعاون فى ٢٨ شوال ١٢٥٦

(٤) دفتر ٢٠٨٠ (مدارس تركى) ص ١٩ رقم ٢٧ / ٣ فى ٣ شعبان ١٢٥٨

(٥) دفتر ١٣ (مدارس عربى) ص٢٧٤٩ رقم ٦٠٧ إلى مدرسة الطب البشرى فى ١١ رجب ١٢٦١

وقت فراغهن من العمل ، أما إذا أريد أن تقوم هذه « الخياطة » باصلاح ملابسهن فعلى الفتيات أن يقمن بذلك بأنفسهن .[١]

مرتب التلميذات وملابسهن

كان المرتب المقرر للتلميذة (المستجدة) الملتحقة بالفرقة الثالثة التجهيزية بالمدرسة عشرة قروش تؤديها لها الحكومة فى كل شهر ،[٢] وهو المرتب الذى كان يمنح لتلميذ الفرقة الرابعة بالمدرسة التجهيزية . ويزداد هذا القدر من النقود كلما انتقلت التلميذة الى فرقة أعلى من فرقتها ، حتى إذا انتقلت الى الفرقة النهائية أخذت فى كل شهر خمسة وثلاثين قرشاً ،[٣] وهو المرتب الذى يأخذه (زملاؤها) طلبة السنين النهائية بالمدارس الخصوصية الأخرى . وفى هذا امتياز كبير لتلميذة الولادة التى لا تقضى فى دراستها إلا ثلاث سنين ، يرفع مرتبها خلالها من عشرة قروش إلى خمسة وثلاثين قرشاً . وتمنح المتخرجة فى المدرسة رتبة الملازم الثانى ومرتبها ، بينما لا يمنح (زميلها) المتخرج فى مدرسة خصوصية أخرى هذه الرتبة إلا بعد تسع سنوات منذ التحاقه بالمدرسة التجهيزية . بل إنه بعد عام ١٨٤٤ وضع نظام آخر لخريجى المدارس الخصوصية فأصبحوا لا يمنحون الرتبة ومرتبها حتى يمضوا عامين فى الوظيفة التى يعينون بها ، ولكننا لا نجد أثرا لهذا النظام بالنسبة لخريجات مدرسة الولادة ، فقد ظلت الحكومة تمنحهن الرتبة ومرتبها بعد تخرجهن وزواجهن .

وكذلك امتاز غذاء تلميذات مدرسة الولادة بما كان يقدم لهن من خبز

(١) دفتر ١٣ (مدارس عربى) س ٢٨٧١ رقم ٦٨٥ إلى مدرسة الطب البشرى فى ٢٢ شعبان ١٢٦١

(٢) دفتر ٢٠٩٩ (مدارس تركى) س ١٨٣ فى ٢٣ جماد ثان ١٢٦٠

(٣) دفتر ٣ (مدارس عربى) س ٨٧٦ رقم ٢٨ الى كتخداى باشا فى ٢٥ محرم ١٢٦١

« خاص » ، بدلا من الخبز العادى (الجراية) الذى « كان سببا فى هزال التلميذات وضعفهن.[١] أما الملابس فكانت طبعاً مما يلبسه سيدات ذلك العصر : فلكل تلميذة فى السنة طربوش (من صنع فوة) وسالطة جوخ بقيطان من حرير وبالوكار شامى وحزام وشنتيان ألاجه شامى ومحرمان بدويرة وقميصان من كتان ولباسان من بفتة ودكتان من كتان وحرير وبابوج إسلامبولى وخف وطرحة من شاش بلدى قدرها خمسة أذرع وفوطة للحمام[٢] وحبرة وسبلة.[٣] أما الحبرة فتصرف للتلميذة كل عام ونصف عام مرة ، وكذلك السبلة والخف ، أما (البابوج) و(البرقع) أو (الطرحة الشاش) فكل عام مرة.[٤]

خريجات المدرسة

ذكرنا أنه لما تخرجت (الدفعة) الأولى من تلميذات المدرسة أنشأت الحكومة مستشفى صغيرا للنساء وألحقته بالمدرسة ، وكانت ماتزال بأبى زعبل ، حتى يتسنى لهن تطبيق العلم على العمل ، وتختبر الحكومة مهارتهن .

فكان ذلك أول مجال للعمل لخريجات المدرسة . فلما كثر عددهن رأينا بعضاً منهن يعملن بالمدرسة التى نشأن بها معلمات أو معيدات ، كما عين نفر منهن فى المحاجر الصحية بالاسكندرية ودمياط لفحص النساء المحجور عليهن صحياً.[٥] ثم خصص منهن ثمان بعدد أقسام القاهرة ليقمْن (بالكشف) على الموتى من النساء ، على أن تتناوب كل أربع منهن الخدمة شهراً ثم الدراسة بالمدرسة شهراً آخر ، حتى لا يتأخرن فى تلقى الدروس ، وكان يعين لكل منهن ساع

(١) دفتر ٢٠٩٩ (مدارس تركى) ص ١٤٨ فى ١١ جماد أول ١٢٦٠

(٢) دفتر ٢٠٠٦ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٥ جماد أول ١٢٥٢

(٣) دفتر ٣ (مدارس عربى) ص ٨١٤ الى مدرسة الطب البشرى فى ١٧ محرم ١٢٦١

(٤) دفتر ٩٨ (مدارس عربى) ص ٢٢٦١ رقم ٤٣٧ إلى مدرسة الطب البشرى فى ١٨ جماد أول ١٢٦٤

(٥) دفتر ٢٠٨٣ (مدارس تركى) ورقة ١٠ فى ٢٥ المحرم ١٢٥٩

(بالطهجى) وحمار تركبه فى غدوها ورواحها ، [١] وكان يخصم ثمنه أقساطا من مرتبهن.[٢] وكان بعضهن يخرجن من المدرسة ، للقيام بوظائف التوليد والحكمة وتلبية الطلبات التى من هذا القبيل. [٣]

وكانت مدرسة الولادة تعدُّ مدرسة « خصوصية » ، فكانت الحكومة تمنح اللاتى أتممن علومهن بها لقب « أفندى » ورتبة الملازم الثانى ومرتبها أسوة (بزملائهن) خريجى مدرسة الطب وسائر المدارس الخصوصية . هذا إلى الرعاية التى تحوطهن بها الحكومة ، حرصا منها على كرامة الفتيات اللائى قامت على تعليمهن وتربيتهن سنوات عدة . [٤]

ثم رأت تمشيا مع الحرص على كرامة المدرسة وسمعة تلميذاتها وخريجاتها تزويج خريجات المدرسة « لأنهن من طائفة النساء ويحتجن إلى الزواج » ، واختارت لهن أزواجا زملاءهن الأطباء الموظفين فى أقسام القاهرة ! على ألا تمنح إحداهن رتبة الملازم الثانى ومرتبها حتى يصدر الأمر العالى بزواجها . وكانت تمنح المتزوجات مزايا عدة : منها — عدا الرتبة والمرتب — منازل صغيرة مفروشة على نفقة الحكومة ، [٥] وخمسة أكياس من النقود ، [٦] و« تزييرة » [٧] و« أوراق عتاقة » للجوارى منهن . [٨]

---

(١) دفتر ٢٠٩٤ (مدارس تركى) ص ٣٨ فى ٢٤ محرم ١٢٦٠

(٢) دفتر ٩٤ (مدارس عربى) رقم ١٢٠ و١٢٢ إلى مدرسة الطب فى ٧ و٨ ذى الحجة ١٢٦٣

(٣) دفتر ٢٠٩٦ (مدارس تركى) ص ١٨٤ فى ١٦ ذى الحجة ١٢٦٠

(٤) وظفت طبيبة بكورنتينة دمياط « أصحبها الديوان بأغا وأمرها » بفنجة صغيرة وريسها مضبوط ومؤتمن » وسمح لها بأن تصحبها والدتها دفتر ٣ (مدارس عربى) ص ٨٥٨ رقم ١٢٩ فى ٢٠ المحرم ١٢٦١

(٥) دفتر ٢٠٩٦ (مدارس تركى) ص ١٨٤ فى ١٦ ذى الحجة سنة ١٢٦٠

(٦) دفتر ٣ (مدارس عربى) ص ٨٧٦ رقم ٢٨ إلى كتخداى باشا فى ٢٥ المحرم ١٢٦١ والكيس نحو خمسة جنيهات .

(٧) دفتر ٢٩ (مدارس عربى) ص ١٤٥٠ رقم ٣٢٩ الى مدرسة الطب البشرى فى ١٥ ربيع الثانى ١٢٦٢

(٨) دفتر ٤ (مدارس عربى) ص ٢٢٤٨ رقم ٤١ إلى كتخداى باشا فى ١٤ ربيع الثانى ١٢٦١ .

أما عن حكمة تزويجهن من أطباء فذلك لأن كلا الطرفين — إذا أمكن القول — من ثقافة واحدة ، فاذا تزاوجا فهم كل منهما الآخر وتبادلا الفائدة ، أو على حد تعبير الديوان « لأجل تمارسهم مع بعض فى الدروس والعلوم وحصول ثمرة من ذلك » .[١] ذلك لأن الزواج ليس بمانع أحداً منهما من التفرغ لعمله ، حتى إذا انتهى النهار آب كل منهما إلى صاحبه .[٢] وبدأ الديوان فكتب إلى شورى الأطباء بأن يعدّ له بيانا بأسماء « من يكون من حكما أثمان المحروسة عازب ومضبوط تفيدونا عن أسماهم وهم بأى ثمن من الأثمان لأجل بورود الإفادة يجرى اللازم » .[٣] وكانت طلبات هذا الزواج (الرسمى) ترفع إلى ديوان المدارس ، وكان هذا حريصا على صالح (تلميذاته) فكان يتحرى سلوك الطالب .[٤] حتى إذا اطمأن اليه استدعى (العروس) فنال رضاها ،[٥] ثم كتب إلى مدرسة الطب لتقوم بتحرير العقد وتعهّد على (الزوج) بأن يعدّ لزوجه مسكنا موافقاً بالقرب من مدرسة الولادة ، وبأن لا يمنعها من مباشرة الدرس والتحصيل وما يعهد إليها من قبل الحكومة ،[٦] حتى إذا تم هذا كله استصدر الديوان أمراً عالياً بمنحها رتبة الملازم الثانى ومرتبها وإنعاما قدره خمسة أكياس وورقة العتاقة إن كانت جارية .

فاذا أخطأ الحظ إحدى خريجات المدرسة ولم يتقدم لزواجها طبيب ،

---

(١) دفتر ٢٧ (مدارس عربى) س٧٧٧ (عرض) إلى مدرسة الطب البشرى فى ٢٧ المحرم ١٢٦٢ : عرض طبيبة تشكو بعد زوجها الطبيب

(٢) دفتر ١١ (مدارس عربى) س ٤٠٣٢ رقم ٤٢٩ إلى مدرسة الطب البشرى فى ٦ ربيع ثان ١٢٦٢

(٣) دفتر ٣ (مدارس عربى) س ٨٤٤ رقم ٥١ إلى شورى الأطباء فى ١٧ المحرم ١٢٦١

(٤) دفتر ٤ (مدارس عربى) س ٢١٨٧ إلى شورى الأطباء فى ٢٢ ربيع الأول ١٢٦١

(٥) دفتر ١٣ (مدارس عربى) س ٢٧٢٦ إلى مدرسة الطب البشرى فى ١٠ رجب ١٢٦١

(٦) دفتر ١١ (مدارس عربى) س ٤٠٣٢ رقم ٤٢٩ إلى مدرسة الطب البشرى فى ٦ ربيع ثان ١٢٦١

فعليها أن تذهب إلى وظيفتها من غير رتبة تمنحها أو مرتب يعطى لها إلا مرتبها كتلميذة ، وعلى شورى الأطباء أن يعمل الرأى فى «طريقة لزواجها»[1] وعليها أن تنتظر صابرة حتى يهبط الزوج المنشود فتهبط معه رتبة الملازم الثانى ومرتبها .

هذه مدرسة الولادة وهى المدرسة الوحيدة للبنات التى أنشئت فى عصر محمد على . ولا شك فى أنه كان لها تأثير اجتماعى فى الوسط الذى كانت تقوم فيه : فقد رفعت المدرسة مستوى التلميذات الملتحقات بها — وجلهن فقيرات — إذ أن الحكومة قد بدلت من حياتهن الضنك حياة أخرى مستقرة ، فيها الى مزية التعليم شىء كثير من رغد العيش ورفاهته .

ولأول مرة فى مصر فى تاريخها الحديث نرى فتيات وسيدات متعلمات يقمن بخدمة اجتماعية جليلة لبنات جنسهن ، خدمة مؤسسه على العلم الصحيح . حقا إن مجال هذه الخدمة لم يكن شاملا للبيئة المصرية كلها ، إلا أن ذلك لا يمكن أن يقلل من أهميتهن وتأثيرهن فى المجتمع الذى نشأن به عن طريق المساعدة الصحية التى لا تتأخر واحدة منهن عن بذلها لمن تحتاج إليها من بنات جنسها ، وعن طريق الأثر الأدبى الذى يمكن أن يؤثرنه فيمن يختلطن بهن ويعشن بينهن .

مدرسة الطب البيطرى

كانت الأمراض تفتك بالماشية التى تعمل فى مصانع الحكومة لضرب الأرز فى رشيد ، فطلب محمد على من الحكومة الفرنسية فى سنة ١٨٢٨ أن ترسل إليه طبيبين بيطريين لمكافحة هذه الأمراض ، فبعثت إليه بالطبيبين « هامون » «Hamont» وبريتو «Prétot» وهما من خريجى مدرسة ألفور «Alfort» الطبية

(١) دفتر ٣ (مدارس عربى) ص ٨٨٩ رقم ٥٥ إلى شورى الأطباء فى ٢٣ المحرم ١٢٦١

بفرنسا . وكان «هامون» — وهو الذى قدِّر له أن يعيش بمصر بعد ذلك أربع عشرة سنة — طبيباً بيطريا فى إحدى فرق الفرسان بالجيش الفرنسى . فلما وصلا إلى الأسكندرية عينت لهما الحكومة المصرية ثغر رشيد محلا لإقامتهما ، فتوجها إليها وشرعا فى بحث الأمراض التى تصيب قطعان الماشية والوسائل اللازمة لمكافحتها . وليس يعنينا هنا أن نتعرض تفصيلا لما ذكره «هامون» من أسباب انتشار تلك الأمراض : كإجهاد الماشية ورطوبة الاسطبلات وتعرضها لأمطار الشتاء الغزيرة وعدم العناية بغذاء الماشية .(١)

إنشاء المدرسة فى رشيد

مضى شهر على إقامة الطبيبين الفرنسيين فى رشيد ، وإذا بالحكومة تبعث إليهما بعشرة من الشبان المصريين ليأخذوا عنهما الطب البيطرى ، وأتى بعدهم شيخ من شيوخ الأزهر ومترجم إيطالى ، وعلى هذا النحو تمت «هيئة» المدرسة من أساتذة وطلبة .(٢) أما الأساتذة فكانا «هامون» وزميله «بريتو» ، ولاشك فى أنهما كانا يكفيان للقيام على تعليم عشرة من التلاميذ ، ولما كانا لا يفهمان اللغة العربية التى لا يعرف تلاميذهم سواها فقد عيِّن مترجم إيطالى ، لينقل إلى هؤلاء التلاميذ دروس أستاذيهم ، وكان يدعى «ميخالى باجو» ، وكان على علم بالعربية والفرنسية .(٣) أما الشيخ الأزهرى — وكان يدعى الشيخ مصطفى — فكان يقوم على تصحيح الدروس التى ينقلها إلى العربية المترجم الإيطالى .(٤) أما الطلبة فكانوا عشرة من «أبناء البلد» من تلاميذ مدرسة

---

(١) Hamont, Hist. de l'Egypt sous Mehemed Ali, II. p. 122 — 124.

(٢) Ibid. p. 126.

(٣) دفتر ٣٥ (معية) رقم ٢٩٩ من الجناب العالى إلى حبيب أفندى فى ١٦ ذى الحجة ١٢٤٣

(٤) ولعله «الشيخ مصطفى كساب» الذى ظل بالمدرسة حتى أواخر عصر محمد على (دفتر ٢٠٨٢ مدارس تركى ٦٥ رقم ٢٠٥٦ إلى شورى المعاونة فى ٣ ذى القعدة ١٢٥٩)

« الجهادية». (١) فيمكننا إذن أن نطمئن إلى إلمامهم باللغة العربية إلماما يمكّنهم من استيعاب الدروس التى تعرب لهم ، وإن كنا على ثقة من جهلهم جهلا تاما مبادىء الطب البيطرى أو العلوم الأخرى التى تعاون على فهمه .

وقد وُضعت المدرسة بعد إنشائها — كغيرها من مدارس الأقاليم — تحت إشراف محافظ رشيد : فاليه كانت الحكومة توجه أوامرها فيما يخص المدرسة من «تعيينات» ومرتبات ، واليه كان مدير المدرسة يتقدم بشكواه الخ .

وعلى هذا النحو أنشئت مدرسة الطب البيطرى برشيد . وإن فات «هامون» أن يذكر ماذكره «كلوت بك» من أن انشائها كان نتيجة لاقتراح تقدم به «هامون» إلى شورى الأطباء ، فوافق عليه هذا وأنفذه .(٢)

بدأت المدرسة عملها . ولكن ما لبثت (الصعوبات) أن تجمعت فى طريق «هامون» ، ويظهر من كتابته أنه لم يكن له من الكفاية (الإدارية) نصيب كبير : فقد كان لا يملك أعصابه ، ويعتقد دائماً أن الدسائس والمكائد تحاك من حوله : فالأماكن الملائمة للدرس قليلة ، والأدوية اللازمة غير موجودة ، والمصحح الشيخ يتعصب عليه ويحرض الطلبة على ترك الدروس وصرف أوقاتهم فى مقاهى المدينة ، والمحافظ يأبى أن يعاقبهم ويقول له : «إنكم أتيتم الى مصر لتمدين أهلها لا لعقابهم . . . وإنّ سموه لا يرغب قط فى عقاب تلاميذ مدارسه ، بل إنه يأمر دائما بحسن معاملتهم» . أما المترجم فكسول لا يقوم بعمله خير قيام ، وهو لا يفهم المصطلحات الفنية ولا يحسن نقل آراء الأستاذ الى التلاميذ ، وهو دائماً يدس «لهامون» لدى محافظ رشيد . وبرغم (الإصلاحات) التى قام بها هامون وزميله والتى كان من نتيجتها أن قلت الوفيات بين الماشية : كبناء أماكن لشرب الماشية من ماء

---

(١) دفتر ٣٥ (معية) رقم ٢٩٩ من الجناب العالى إلى حبيب أفندى فى ١٦ ذى الحجة ١٢٤٣

(٢) كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر ج ١ ص ٦٦٠

(السواق) بدلا من ماء النيل العكر وتحسين حالة (الاسطبلات)، فقد أنكر رجال الإدارة «الأتراك» هذه الحقيقة وأنهوا إلى الوالى — على ما يقول «هامون» — أن الطب البيطرى علم (وهمى) لا فائدة من تعلمه، وبالغوا فى بيان النفقات التى تنفق على الأساتذة والطلبة، إلا أن محمد على رفض الاستماع إلى تلك الأقوال وأنب أصحابها.[١] على أن ذلك لم يكن كفيلا بأن يرضى «هامون» أو يهدىء من قلقه أو يضع حداً لما يلقاه من عنت وكيد: فالمترجم (الإيطالى) والمصحح (الأزهرى) يحرضان التلاميذ، ويتقدم الجميع بشكوى «هامون» إلى المحافظ، وتوقف الدروس بالمدرسة، ويرفع تقرير إلى محمد على، «فكانت النتيجة فى غير مصلحة هامون». أما پريتو «Prétot» فيصيبه المرض ويسافر إلى أزمير حيث توافيه منيته. أما «هامون» فعلى الرغم مما يلاقيه من العقبات والمكائد يصمم على البقاء بمصر، خوفا من (تعييره) بالفشل فى مهمته.

والراجح أن بعد المدرسة عن سلطة الحكومة المركزية وقيامها فى وسط لا يفهم الطب البيطرى أو يعترف بضرورته واعتزاز «هامون» بعلمه مع عدم قدرته على إدارة المدرسة فى حزم وكفاية — وإن لم يتجاوز عدد تلاميذها أصابع اليدين — كل أولئك كان كفيلا بأن يوقع «هامون» فى مشكلات مستمرة مع تلاميذه ومع مرءوسيه ومع رجال الإدارة برشيد، حتى ليمكننا القول إن مدرسة الطب البيطرى برشيد لم تصب من النجاح ما كان خليقا بها.

المدرسة فى أبى زعبل

بدأ التفكير فى نقل المدرسة من رشيد الى أبى زعبل وإلحاقها بمدرسة الطب البشرى بعد إنشائها فى رشيد بعام واحد. وظهر أثر ذلك فى تقرير

(١) Hamont, op. cit. II. p. 126 — 128.

رئيس الامتحان فى العام الثالث من حياة مدرسة الطب البشرى : فقد رأى — بإيعاز أو بموافقة من كلوت بك — أن فى إدماج المدرستين « مصدراً آخر لتقدم الدراسة ، فضلا عن الاقتصاد فى نفقات التعليم والوظائف ، لأن الطبيب الملم بطب الانسان وطب الحيوان يكفى لهذا وذلك كما هو الشأن فى إيطاليا وألمانيا وكما تحاول فرنسا » . (١) إلا أن هذا الاقتراح لم ينفذ إلا بعد ذلك بعامين ، أى فى عام ١٨٣١ (١٢٤٦ هـ) ، ولم ينفذ على النحو الذى طلبته مدرسة الطب البشرى ، بل احتفظ (باستقلال) مدرسة الطب البيطرى ، وإن نشأت بين المدرستين (رابطة) كان يدعو إليها تشابه برامج التعليم فى كثير من النواحى .

وقد شجع الحكومة على نقلها من رشيد أنها كانت تفكر فى تكوين فرق نظامية من الفرسان ، فكان يلزمها أطباء بيطريون يقومون على علاج خيولها ، فأصدر محمد على أمره بنقل المدرسة إلى القاهرة . ولكن المعارضة فى (استقلالها) كانت قوية: فما زال شورى الأطباء وكلوت بك — وكان ينشد زيادة نفوذه والإعلاء من شأن مدرسته على حساب المدارس الأخرى — على رأيهم من إدماجها بمدرسة الطب البشرى ، لأنهم يرون أن لا حاجة لمدرسة خاصة بالطب البيطرى .

ذكر « هامون » أن الطبيب « بوزارى » رئيس شورى الأطباء (مجلس الصحة) كان يقول له دائما : « إنا لا يمكننا أن نثبت أقدام الطب البشرى فى مصر وأنت تطالب بإنشاء مدرسة للطب البيطرى! » . فلما شعر « هامون » بهذه النزعة رأى أن يتجه بآرائه إلى إبراهيم باشا ، فكتب بها (مذكرة) ترجمت إلى اللغة التركية ، أوضح فيها أهمية الطب البيطرى لقطر زراعى كمصر ، واقترح أن يعين من خريجى المدرسة طبيبان لكل آلاى من الفرسان . (٢)

(١) Clot, Compte rendu . . . , p. 73.

(٢) انظر ترجمة هذه المذكرة بالوقائع المصرية : عدد ٢٠١ فى ٤ جمادى الأولى ١٢٤٦

فوعده سموه بأن ينشىء مستشفى يلحقه بالمدرسة فى أبى زعبل ، ليرى ما إذا كان فى مقدوره أن يشفى الحيوانات أكثر مما يفعل الأهالى .

وهكذا قامت مدرسة الطب البيطرى بجوار مدرسة الطب البشرى بأبى زعبل . [١] وراح « هامون » يأمل أنّ تجاور المدرستين قد يؤدى إلى تبادل المنفعة ويسهل دراسة فن (التطبيب) على وجه العموم ويفتح عصراً جديداً من التقدم لمدرسته . واستبدل بالمترجم الذى كان يشكوه دائما مترجم آخر ، كان هو الآخر (يهتاج) كثيراً ، فاعتقد « هامون » أنهم أرادوا بذلك «وضعه فى حالة لا تمكنه من العمل » . وإلى أن يتم البناء الذى شرعت الحكومة فى إقامته للمدرسة أعطيت جناحا من مستشفى أبى زعبل . ولكن تجاور (المديرين) الفرنسيين لم يؤد إلا إلى زيادة التنافس بينهما . فعاد «هامون» يتهم « كلوت بك» بأنه يطمع فى نظارة مدرسة الطب البيطرى ، وبأنه كتب إلى إبراهيم باشا بأن من صالح المدرسة البيطرية أن يكون هو مديرها ، وبأنه يخشى أن يكون « هامون » كغيره من الموظفين الأوربيين فى مصر مهتما بتحقيق مطامعه أكثر من اهتمامه بأداء الأعمال التى استدعى ليقوم بها . [٢]

تم بناء المدرسة بأبى زعبل ، وجمع لها خمسون تلميذاً ، ونظم مستشفى بيطرى يسع ١٤٠ حصاناً ، وبنى مدرج و (صالات) للتشريح و قاعات للنوم وأخرى للأكل وأماكن لسكنى الموظفين ، وأنشئت وظيفة مدرس للغة الفرنسية ، وعين مترجم ثان وأنشئت صيدلية ، واستحال كسل المترجمين والموظفين إلى حماس ، وامتلأ المستشفى وكثرت الأعمال ، وتقدمت الدراسة وألحق «بهامون» ثلاثة من المساعدين الأوربيين .

ثم وضعت لائحة بتوحيد تدريس بعض المواد الطبية لتلاميذ مدرستى

---

(١) Hamont, op. cit. II. p. 131.

(٢) Ibid. p. 137.

الطب ، جاء فيها أن تلاميذ الفرقة الأولى من المدرستين يدرسون معاً علوم الطبيعة والكيمياء والنبات فى مدرســـة الطب البشرى .[١] وكان يندب لامتحان تلاميذ المدرستين لجنة واحدة .

ولكن حياة « هامون » لاتخلو من مشكلات: فضباط الجيش والبيطريون الترك به لايرسلون إلى المستشفى البيطرى من الخيل إلا ما انعدم الأمل فى شفائه ، فزاد عدد الوفيات، واتضحت هذه الحقيقة لمّا أمر محمد على بالتحقيق ، والمفتش البيطرى (البولندى) فى الجيش يذهب الى المدرسة مفتشاً فيطرده « هامون » ، والتلاميذ يرفضون الاستمرار فى الدراسة فى شهر رمضان ، و (يتحصنون) فى عنابرهم ، ويضطر « هامون » إلى استدعاء قوة عسكرية ، يرفض أفرادها إطاعة أوامره . وأخيراً يشتبك « هامون » فى عراك مع (تلاميذه)، فيخرج الموظفون الأوربيون حاملين السلاح ويعيدون التلاميذ إلى حجراتهم ، وبعد جهد كبير يعاد النظام .[٢]

وكان طبيعياً أن يصل هـذا كله إلى مسامع الوالى ، فكتب إلى ديوان الجهادية بتوقيع جزاء على « هامون » ،[٣] ثم كتب إلى مدير ديوان المدارس بأنه إذا لم يجد من يحل محل هامون « فليستخدمه بالشدة » .[٤]

ظل الطلبة يدرسون ، حتى شعر « هامون » بأن من الضرورى إذا أريد لمدرسته البقاء أن يعين فى كل فرقة من الجيش طبيب بيطرى متخرج فى المدرسة ليشرف على إرسال الحيوانات المريضة إلى المستشفى ، وكان عدد الوفيات منها مقياساً لنجاح المدرسة أو إخفاقها . ويذكر هامون (قصة) طريفة عن تخرج (الدفعة) الأولى فى المدرسة: لم يكن قد اتفق مع الحكومة

---

(١) دفتر ٢٠١١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢٦ ذى الحجة ١٢٥٢

(٢) Hamont, op. cit. II. p. 143-145.

(٣) دفتر ٩٧ (معية) رقم ٨٦ إلى وكيل ناظر الجهادية فى ٢٨ المحرم ١٢٥٢

(٤) دفتر ١٤٥ (مجلس ملكية) ص ٦ رقم ٢٤ إلى مختار بك فى ٧ ربيع الأول ١٢٥٢

على تحديد وقت لتخريج أطباء بيطريين ، فأكمل « على وجه السرعة » بعض ما كان ينقص الطلبة من الدروس ، وأعلن فى نهاية العام الدراسى متردداً أن بعض تلاميذه قد حاز درجة كافية من المعلومات تؤهله للخدمة فى فرق الفرسان ، رغم اعترافه فى كتابه بأن دراستهم كانت ناقصة . وبعد امتحانهم اختار منهم « هامون » ثمانية طلب تعيينهم فى الجيش برتبة الملازم الثانى . فرد عليه ديوان الجهادية بأن أمثالهم فى فرنسا يساوون بالأسطوات (maitres) من الخياطين والحذائين وغيرهم . ولما كانت الحكومة المصرية تتبع اللوائح الفرنسية فانها تنوى مساواة خريجى مدرسة الطب البيطرى فى الحال والمستقبل (بالبيطاريين) المستخدمين فى الجيش . ويقول « هامون » إنه احتج وسحب اقتراحه ! وأعلن أنه يجب مساواتهم بالمتخرجين فى مدرسة الطب البشرى ، وإلا فانه يوقف الدراسة (كذا !) « فخير للمدرسة أن تختفى من عالم الوجود من أن تخرج أفراداً متعلمين تحمر وجوههم خجلا لانحطاط مركزهم الاجتماعى ».[١] وأخيراً نجح « هامون » فى إنفاذ اقتراحه : فسوى بين الأطباء البشريين والأطباء البيطريين فى الرتبة والمرتب . ثم عين للمدرسة أربعة أساتذة من الأجانب وزاد عدد طلبتها إلى ١٢٠ تلميذاً .[٢]

ولما وضعت لوائح التعليم فى سنة ١٨٣٦ نص فيها على أن مدة الدراسة بمدرسة الطب البيطرى خمس سنوات قد تزاد إلى ست ، وأنها تستمد تلامذتها إما من المدرسة التجهيزية أو من مدرسة الألسن ، وتدرس فيها علوم التشريح والفسيولوجيا والباثولوجيا الجراحية والباثولوجيا الطبية والصحة والجراحة الكيمائية والطب الكيميائى والكيمياء والطبيعة والنبات والمادة الطبية

---

(١) Hamont, op. cit. II. p. 153-159.

(٢) Ibid. p. 160-162.

والعيادة الخارجية والبيطرة . والقائمون على تعليم التلاميذ هم مدير المدرسة وثلاثة من الأساتذة وأستاذان وأربعة معيدين ومترجمان ومصححان وبيطار وعلى الأساتذة والمدرسين ملاحظة المستشفى .(١)

المدرسة فى شبرا

ولما نقلت مدرسة الطب البشرى إلى قصر العينى فى أوائل سنة ١٨٣٧ رؤى أولا نقل مدرسة الطب البيطرى معها إلى ذلك المكان .(٢) ولكن « هامون » ذعر خوفا من أن تتحقق أطماع كلوت بك ، فاقترح نقل مدرسة الطب البيطرى من أبى زعبل إلى شبرا وإلحاقها « باسطبلات » الحكومة ، وكان « هامون » ناظراً عليها .(٣) وقد وافقت الحكومة على اقتراحه ونقلت المدرسة إلى « إسطبلات » شبرا . وقد كانت فى الواقع خير مكان يمكن أن تلحق به مدرسةٌ للطب البيطرى: إذ انفسح المجال لمران التلاميذ . وقد ألحق بالمدرسة « الاسطبل » مستشفى لعلاج الحيوانات المريضة التى ترسل إليه من فرق الجيش ومصانع الحكومة .(٤)

وقد ظلت الصلة (التعليمية) بين مدرستى الطب قائمة : فالتلاميذ الذين يراد إلحاقهم بمدرسة الطب البيطرى يمضون أولا بمدرسة الطب البشرى سنة (إعدادية) يدرسون فيها الطبيعة والكيمياء والنبات مع تلاميذ الفرقة الخامسة من مدرسة الطب البشرى .(٥) كما كان يشترك فى امتحان التلاميذ (البيطريين)

---

(١) Bowring, op. cit. p. 135.

(٢) دفتر ٢٠٢٢ (مدارس تركى) مذكرة شورى المدارس إلى مفتش المبانى فى ٢٨ ذى الحجة ١٢٥٢

(٣) دفتر ٢٠١٥ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٥ جماد ثان ١٢٥٢

(٤) دفتر ٢٠٨٣ (مدارس تركى) ورقة ٢١ رقم ٢٨١ من ديوان المدارس إلى شورى المعاونة فى ٢٠ صفر ١٢٥٩

(٥) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص ٣٨ رقم ١٤٤٩ من الديوان إلى الباشا الباشمعاون فى ٩ ذى القعدة ١٢٥٥

بمدير مدرسة الطب البشرى و بعض أساتذتها .

وفى سنة ١٨٤٦ اقترحت لجنة امتحانات المدرسة إبطال إعداد التلاميذ بمدرسة الطب البشرى ، وذلك لأنه تخرج فيها أطباء أكفاء لتدريس « المادة الطبية والتركيبات » ، واقترحت نقل أحد مدرسى مدرسة الطب البشرى إلى مدرسة الطب البيطرى ليقوم بتدريسهما . (١)

وفى سنة ١٨٤٧ أنشئت بها « أودة » للكيمياء ، (٢) وطلب تعيين « تمورجى » ، أى محضِّر لعلم الكيمياء والطبيعة . (٣) وكانت الدروس موزعة على النحو الآتى :

يدرس تلاميذ الفرقة الرابعة العظام والعضلات والتشريح العام .

وفى الفرقة الثالثة والثانية يقومون بعمليات جراحية ويدرسون قانون الصحة والتشريح الخاص والفسيولوجيا .

ويدرس طلبة الفرقة الأولى النهائية ومعهم المعيدون الأمراض الباطنة والظاهرة والمادة الطبية وقانون الصحة والأمراض العامة والفسيولوجيا والعمليات الجراحية . (٤)

وكانت اللغة الفرنسية تدرس لجميع تلاميذ المدرسة ، حتى إذا كانت سنة ١٨٣٦ قصر تدريسها على نفر منهم . (٥) ثم أهمل تدريسها ، وأخيراً رؤى أنه لما كانت اللغة الفرنسية لازمة للأطباء ولمدرسى المدرسة فقد تقرر تدريسها لعشرين تلميذاً منهم . (٦)

---

(١) دفتر ٢١١١ (مدارس تركى) ص٢ رقم ١٠٦٤ إلى دولة الكتخدا فى ١٣ صفر ١٢٦٢

(٢) دفتر ٤٨ (مدارس عربى) ص٢٤٥٨ رقم ١٣٠ إلى شورى الأطباء فى ٢٧ ربيع ثان ١٢٦٣

(٣) دفتر ٤٧ (مدارس عربى) ص١٦١٤ رقم ٨١ إلى شورى الأطباء فى ١٤ صفر ١٢٦٣

(٤) دفتر ٢١١١ (مدارس تركى) ص٢ رقم ١٠٦٤ إلى دولة الكتخدا فى ١٣ صفر ١٢٦٢

(٥) دفتر ٢٠٠١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢٥ ذى القعدة ١٢٥١

(٦) دفتر ٢٩ (مدارس عربى) ص ١٤١٨ رقم ٤٦٨ إلى مدرسة الطب البيطرى فى ٢٧ ربيع ثان ١٢٦٢

عدد التلاميذ ومستوى المدرسة

ذكرنا أن عدد التلاميذ قد زاد بعد نقل المدرسة إلى أبي زعبل، حتى وصل في سنة ١٨٣٧ إلى ١٢٢ تلميذا.[١] ولما نقلت إلى شبرا أخذ عدد التلاميذ يتناقص: فكان في سنة ١٨٣٩ ٧٩ تلميذا.[٢] وقبيل إعادة تنظيم المدارس في سنة ١٨٤١ كانوا أربعة وستين، ضم إليهم سبعة عشر تلميذاً من الزائدين عن حاجة مدرسة الطب البشري. ولكن لجنة التنظيم قررت أن يقتصر في مدرسة الطب البيطري على تعليم خمسين تلميذاً.[٣] بل إن هذا العدد أخذ يتناقص سريعاً حتى وصل بعد عامين إلى أحد عشر تلميذا.[٤] وكان طبيعيا أن يتناقص عدد المدرسين القائمين على تعليمهم: فبعد أن كان مقرراً أن يكون بها خمسة من المدرسين الأجانب وأربعة من المصريين لم يبق بها إلا مدرسان مصريان.[٥]

وارتفعت الشكايات المتصلة من جراء انحطاط المستوى العلمي لخريجي المدرسة، حتى أن بعض الرؤساء قرر أن «وجود هؤلاء الأطباء البيطريين وعدمه على حد سواء».[٦] وحدث أن سئل أطباء جهة ما عن أسباب كثرة موت الجمال بالمنطقة التي يعملون بها فأجابوا «بعدم مفهوميتهم».[٧] ولقد

---

(١) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركي) جلسة شورى المدارس في ١٩ ذي القعدة ١٢٥٢

(٢) دفتر ٢٠٠٨ (مدارس تركي) س ٤٠ رقم ١٥٤٠ إلى مسيو هامون في ١٠ ذي القعدة ١٢٥٥

(٣) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركي) رقم ٥٦٠ إلى شورى المعاونة في ٢٠ ذي القعدة ١٢٥٧

(٤) دفتر ٢٠٨٣ (مدارس تركي) ورقة ٩ رقم ١١٨ إلى شورى المعاونة في ٢٣ المحرم ١٢٥٩

(٥) دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركي) س ٦٥ رقم ٢٠٥٦ إلى شورى المعاونة في ٣ ذي القعدة ١٢٥٩ وهؤلاء المدرسون الأجانب كانوا — عدا «هامون» مدير المدرسة — الأطباء «لاباتو» وكان ناظرا على المستشفى البيطري و «تارديو» وكان أستاذا بمدرسة الزراعة «ولاذارق» و «لافرج» — أما المدرسان المصريان فهما محمد أفندي المشاوي وأحمد أفندي يوسف.

(٦) دفتر ٥ (مدارس عربي) س ٢٦١٨ رقم ٣٠٧ إلى ديوان الجفالك في ١١ جماد ثان ١٢٦١

(٧) دفتر ٩ (مدارس عربي) س ٦٨٦ رقم ١٦٢ إلى مدرسة الطب البيطري في ٢٣ ذي القعدة ١٢٦٠

بلغ من أمر تلك الشكايات أن اضطر الديوان إلى أن يعيد الى المدرسة نفرا من هؤلاء الأطباء ويأمر بامتحانهم وقيدهم بالفرقة الملائمين لها .[١]

وظهرت (أزمة) مدرسة الطب البيطرى واضحة جلية فى سنة ١٨٤٣ ، وراح كل من ديوان المدارس وشورى الأطباء ومدرسة الطب البيطرى يلتمس لها حلا : فالتلاميذ قل عددهم الى درجة بعيدة ، ومستوى التدريس انحط انحطاطا كبيرا ، والشكوى متصلة من ضعف خريجيها وعجزهم عن القيام بالوظائف التى أعدتهم لها الحكومة . وقد وجد شورى الأطباء — أو رئيسه كلوت بك — فى ذلك فرصة سانحة لمهاجمة المدرسة وتحقيق أطماعه ، فوصفها بالفوضى وخروجها على أحكام القانون ، واقترح ما يأتى :

١ — نقل مدرسة الطب البيطرى الى مدرسة الطب البشرى بمستشفى قصر العينى .

٢ — نقل مستشفى شبرا البيطرى الى جهة فم الخليج .

٣ — تعيين مفتش أجنبى يقوم بالتفتيش عن أعمال الأطباء البيطريين .

٤ — امتحان الأطباء البيطريين كل عام وإبقاء الناجحين منهم فى عملهم وفصل الراسبين .

٥ — إبقاء « لافرج » و « لاباتو » وهما أستاذان أجنبيان فى العمل ، لأنه لا يوجد سواهما فى القطر المصرى من يستطيع القيام بعملهما .[٢]

أما عن عدد التلاميذ فأجاب الديوان بأنهم كانوا كما نصت لوائح سنة ١٨٣٦ خمسين تلميذاً ، إلا أن كثيراً من التلاميذ قد طلبوا للعمل فى الجيش و (الجفالك) ، ولم يعدّ غيرهم بمدرسة الطب البشرى ، هذا إلى أن المدرسة التجهيزية كانت قد ألغيت فى (الترتيب الأول) سنة ١٨٤١ ووزع تلاميذها

---

(١) دفتر ٩ (مدارس عربى) ص ٦٠٤ رقم ١١٤ إلى مدرسة الطب البيطرى فى ٣ ذى القعدة ١٢٦٠

(٢) دفتر ٢٠٨٣ (مدارس تركى) ورقة ٢١ رقم ٢٨١ إلى شورى المعاونة فى ٢٠ صفر ١٢٥٩

على المدارس العسكرية ، ثم لما صدر الأمر باعادة افتتاحها أدخل بها تلاميذ صغار ثم لم يتسع الوقت بعد لاعدادهم للمدارس الخصوصية . ولكن الديوان يرى أن « لا يظل معلمو المدرسة عاطلين » ، فاختار لهم ستة عشر تلميذا من تلاميذ الفرقة الثالثة التجهيزية ، أى أنهم لم يمضوا فى الدراسة التجهيزية سوى عام أو عامين .

أما عن الطبيب المفتش الذى اقترح شورى الأطباء استدعاءه من أوربا فقد رأى ديوان المدارس أن « الصاغ محمد العشماوى أفندى ، المتخرج فى مدرسة الطب البيطرى بارع فى الطب ، وقد أثبت فى الأعمال التى ندب للقيام بها إما وحده أو مع الأطباء الأجانب من المهارة والكفاية ما يجعل الديوان يطمئن إليه ليقوم بالعمل بالتناوب مع الطبيب « لاباتو » ، ولم يكن قد استغنى عنه بعد ، [1] واستنكر الديوان استدعاء طبيب أجنبى « مع وجود هؤلاء المدرسين البيطريين المصريين الذين ظلوا مدة طويلة يقرءون الكتب » . [2]

ورأى أن « الأولى أن يؤتى بالكتب فتترجم ويقوم المعلمون المصريون بتدريسها ، فإن نجمت بعد ذلك صعوبة نظر فى أمر إحضار طبيب أجنبى » . ثم أتم الديوان (خطة) تمصير تعليم الطب البيطرى : فأوفد إلى فرنسا فى سنة ١٨٤٥ (١٢٦١ هـ) طبيبين بيطريين مصريين . [3] وكان الديوان يأمل أن يتقدم فن الطب البيطرى بعد عودتهما إلى الوطن . [4]

ودرس ديوان المدارس اقتراح نقل المدرسة إلى قصر العينى على ضوء « المال » ، فاتضح له أن نقلها لا يحقق للحكومة وفرا فى النفقات ، بل إنه

---

(١) المصدر السابق : ورقة ٩ رقم ١١٨ إلى شورى المعاونة فى ٢٣ المحرم ١٢٥٩

(٢) دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركى) س ٦٥ رقم ٢٠٥٦ إلى شورى المعاونة فى ٣ ذى القعدة ١٢٥٩

(٣) دفتر ٣ (مدارس عربى) س ٨٥٨ رقم ١٢٦ فى ١٧ المحرم ١٢٦١

(٤) دفتر ٥ (مدارس عربى) س ٢٦١٨ رقم ٣٠٧ إلى ديوان الجهادية فى ١١ جماد ثان ١٢٦١

يحملها نفقات جديدة تنفق فى إنشاء مستشفى بيطرى جديد وإدارة مدرسة الزراعة التى كانت ملحقة بمدرسة الطب البيطرى . أما عن دعوى شورى الأطباء بتشابه مواد الدراسة فى كلتا المدرستين ، فيرى الديوان أن الأسلوب المتبع فى إعداد التلاميذ بمدرسة الطب البشرى يمكن الاستمرار فيه . وهكذا رجح رأى الديوان ، وظلت مدرسة الطب البيطرى محتفظة باستقلالها . على أن الديوان بدأ يعمل جدّياً لرفع مستوى المدرسة : فأخذ عدد تلامذتها يزداد الى العدد الذى نصت عليه اللوائح وزيد عدد المدرسين إلى خمسة .[1] وتكونت من مدرسى المدرسة وكبار الأطباء هيئة تدعى «مجمد الحكماء» ، ولها من السلطة على المنشئات البيطرية والأطباء البيطريين فى الجيش و(الجفالك) ما لشورى الأطباء على المستشفيات والأطباء البشريين . واشتد إشراف المدرسة على الأطباء والمفتشين البيطريين الذين كانوا يتبعون ديوان المدارس ويقيّدون بمدرسة الطب البيطرى ، رغم أن أشغالهم كانت تابعة « لديوان الجفالك » ،[2] والقصد من ذلك « لأجل عدم مراعاتهم خواطر الحكام ... ولأجل أن لايكون لأحد الحكام سلطة عليهم» .[3]

ولكن ذلك كله لم يضع حداً للشكوى المتصلة من ضعف التدريس بالمدرسة وبالتالى من انحطاط مستوى الخريجين « الذين لم يبدوا نشاطا يذكر فى أداء وظائفهم ولم تثمر أعمالهم النتيجة المرجوّة ، حتى يمكن أن يقال إن المصاريف العظيمة التى صرفت فى سبيل تعليمهم لم تأت بفائدة » .[4] وقد ترددت هذه الشكوى فى تقارير الامتحانات السنوية وفى تقارير الرؤساء المفتشين ، والحق أنه برغم زيادة عدد المدرسين الى خمسة ، إلا أنهم كانوا

---

(١) دفتر ٢١١١ (مدارس تركى) ص٢ رقم ١٠٦٤ إلى دولة الكتخدا فى ١٣ صفر ١٢٦٢

(٢) دفتر ٢٣ (مدارس عربى) ص١٣٠٣ رقم ٢١٤ إلى ديوان الجفالك فى ٢٧ ربيع الثانى ١٢٦٢

(٣) دفتر ٢٣ (مدارس عربى) ص١٣٤٠ رقم ٢٢٦ إلى ديوان الجفالك فى ٨ جماد أول ١٢٦٢

(٤) دفتر ٢١١١ (مدارس تركى) ص٢ رقم ١٠٦٤ إلى دولة الكتخدا فى ١٣ صفر ١٢٦٢

مرهقين بشتى الأعمال: فقد كان عليهم واجب التدريس والخدمة فى «الاسطبل» والمستشفى والسفر مناوبة (إلى التفاتيش) للإشراف على سير العمل .

ولما كان الديوان حريصاً على إنجاح الطب البيطرى فى مصر ، فقد دعا الأطباء البيطريين الى اجتماع عام، سألهم فيه عن العوامل التى أدت إلى ضعف الطب البيطرى بمصر. فأجاب بعض أطباء المدرسة معتذرين بكثرة العمل وتعدد النواحى المنوطة بهم وأن نظار الأقسام لا يستمعون إلى تعليماتهم فيتعذر عليهم القيام بواجباتهم . فاتفق الرأى على تعيين عدد من الأطباء البيطريين يكفى للقيام بالعلاج على أكمل وجه وعدد آخر من المفتشين الدائمين ، على أن يندب معلمو المدرسة للتفتيش مناوبةً عن أعمال هؤلاء المفتشين الدائمين والأطباء .

ولكن شورى الأطباء - أوكلوت بك - ظل على رأيه بضرورة ضم مدرسة الطب البيطرى إلى مدرسة الطب البشرى، فكتب فى أواخر حكم محمد على إلى ديوان المدارس مقترحاً نقل تلامذة مدرسة الطب البيطرى وحجرة الكيمياء بها إلى قصر العينى . فاعتذر الديوان بغياب مديره فى أوربا وبأن هذا النقل لا يجوز فى «بحر» السنة ، وبأن قصر العينى ليست به محال تسع تلاميذ الطب البيطرى.[1] وبذلك ظلت مدرسة الطب البيطرى بشبرا حتى ألغيت فى عهد عباس باشا .

مديرو المدرسة وموظفوها

كان هامون « Hamont » أول مدير عين لها منذ إنشائها ، وقد ظل على رأسها سنين طويلة ، إذ أدارها فى رشيد ثم فى أبى زعبل ثم فى شبرا . ويتردد اسمه فى سجلات ديوان المدارس حتى سنة ١٢٥٥ (١٨٣٩ م) ، ولكنا لا نعلم بالضبط التاريخ الذى اعتزل فيه «هامون» خدمة الحكومة المصرية ، وإن كنا نعلم أنه أقام بمصر أربع عشر سنة ، فيكون قد رحل منها فى عام ١٨٤٢ . والحق أنه فى ذلك العام يظهر اسم مدير آخر للمدرسة : هو

(١) دفتر ٨٤ (مدارس عربى) ص ٨٩٧ رقم ٧٩ إلى شورى الأطباء فى ٢٠ المحرم ١٢٦٤

«المسيو برنس» .[١] ولكنه لم يمكث طويلا إذ خلفه «أمين بك» الذى كان من أعضاء اللجنة التى شكلت لوضع لوائح جديدة للتعليم فى سنة ١٨٤١ .[٢] وبعد ذلك بعامين كان «أحمد افندى» ناظرا للمدرسة والاسطبل ،[٣] وبعدهما بعامين آخرين رقى «محمد أفندى العشماوى» المدرس بالمدرسة إلى وظيفة «ريس عملية» مدرسة الطب البيطرى ، واليه كان الديوان يوجه كتبه بشأن المدرسة .[٤] وكان للمدرسة فى وقت ما وكيل هو «سليم أفندى» .[٥]

وكان بالمدرسة — عدا المعيدين — مترجم يقوم على ترجمة المؤلفات الغربية فى الطب البيطرى ، ويدعى «فرعون» ، وقد عرَّب أكثر من عشرين كتاباً كانت تدرس لتلاميذ المدرسة .[٦] وكان بها مترجم آخر يدعى «محمد عبد الفتاح أفندى» ، وإليه يرجع الفضل فى تعريب كثير من الكتب فى هذا الفن .[٧]

وكان يقوم على تصحيح هذه الكتب المعربة مصححون من علماء الأزهر : نعرف منهم «الشيخ عبد المنعم» ، وهو الذى أصبح فيما بعد (باشخوجة) بمدرسة المبتديان ،[٨] و «الشيخ مصطفى كساب» رئيس المصححين ،[٩] وهو الذى ظل بالمدرسة منذ إنشائها الى أواخر عصر محمد على.

(١) دفتر ٢٠٦٩ (مدارس تركى) س ٢ فى ٦ المحرم ١٢٥٧ ودفتر ٢٠٤٨ (مدارس تركى) س ٤٨ — أعضاء لجان امتحانات مدرستى الطب البشرى والولادة فى ١٠ شعبان ١٢٥٥ .

(٢) ولعله «محمد أمين» الذى أرسل إلى فرنسا فى بعثة ١٨٢٦ لتعلم الادارة الملكية ، وقد عين ناظراً للمدرسة المصرية بباريس ورئيساً للبعثة ثم عين (خازناً) لديوان المدارس .

(٣) دفتر ٢٠٨٣ (مدارس تركى) ورقة ٩ رقم ١١٨ إلى شورى المعاونة فى ٢٣ المحرم ١٢٥٩ .

(٤) دفتر ١٣ (مدارس عربى) س ٢٧٢٢ رقم ٦٥١ إلى مدرسة الطب البيطرى فى ٧ رجب ١٢٦١ .

(٥) دفتر ٢٠٢٤ (مدارس تركى) س ١٨ رقم ٥٥ فى ٦ ذى القعدة ١٢٥٢

(٦) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) رقم ٥٦٥ من ترجمة تقرير الديوان عن تنسيق المدارس فى ٢٠ ذى القعدة سنة ١٢٥٧

(٧) دفتر ٢٠٨١ (مدارس تركى) س ١١٥ رقم ١٧٣٩ إلى مدرسة الطب البيطرى فى ٤ ذى الحجة ١٢٥٨

(٨) دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركى) ورقة ٥١ رقم ١٨٧٧ إلى شورى المعاونة فى ١٣ شوال ١٢٥٩ .

(٩) دفتر ٢٠٩٧ (مدارس تركى) س ٦٩ رقم ١٨٧ إلى كامل باشا فى ١٤ شوال ١٢٦١ .

الفصل الثانى

المدارس الفنية والصناعية

مدرسة المحاسبة

لم يكن مندوحة لمحمد على ، وقد نظم حكومته على أساس وطيد وقسّمها دواوين وأقلاما ، أن يكون له « عمال » يتقنون فن الكتابة على أساس حديث منظم . وكان الأقباط يحتكرون الكتابة منذ قرون : فكانوا كتبة الدواوين وجباة الأموال وصيارفة الأقاليم وملتزمى الجمارك . وكان (احتكارهم) هذه الأعمال مما لا ترتاح إليه الحكومة ، فأراد محمد على أن يكوّن موظفين يقومون على هذه الأعمال ، فأنشأ لذلك مدرسة « المحاسبة » .

ويذكر أمين باشا سامى أنها أنشئت فى شهر ذى القعدة سنة ١٢٥٢ ، [١] (١٨٣٧ م) . ولكن السجلات التركية لديوان المدارس تدل على أنها كانت موجودة قبل ذلك بشهور : إذ صدر أمر عال بإنشائها فى ربيع الأول سنة ١٢٥٢ . [٢]

وكانت أول إنشائها فى جناح من مدرسة المبتديان بالسيدة زينب ، وكان ناظر المدرستين واحدا (ويدعى سليم أفندى) . وكان الغرض من إنشائها فى أول الأمر محدوداً : وهو تخريج كتبة للخدمة فى فرق الجيش . ولهذا كان عدد تلاميذها لا يعدو الثلاثين تلميذاً ، [٣] وقد اختيروا من « الدرسخانة الملكية » الملغاة ، ثم شرعت الحكومة تزيد عدد التلاميذ : فألحقت بها

(١) أمين باشا سامى : تقويم النيل ج ٢ ص ٤٨١

(٢) دفتر ٢٠٠٤ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢١ ربيع الأول ١٢٥٢ .

(٣) دفتر ٢٠١٩ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٥ رمضان ١٢٥٢

عشرين تلميذا من المدرسة التجهيزية ، على أن يتعلموا بها فن المساحة على مدرس خاص . (١) وألحقت بهم بعد ذلك نفراً من تلاميذ مدرسة المدفعية ، (٢) بل كان بها بضعة عشر تلميذاً ، كانوا موظفين فتركوا وظائفهم وعادوا تلامذة بالمرتبات التى كانوا يتناولونها . ولكن محمد على لم يرتح لذلك ، فأمر بفصلهم واختيار غيرهم ممن يتناولون مرتبات قليلة . (٣)

وما لبث عدد التلاميذ أن ارتفع بعد شهور من إنشاء المدرسة من ثلاثين إلى ٣١٦ تلميذاً ، (٤) ومما يدل على شدة احتياج الحكومة لخريجى هـــذه المدرسة أنها عينت بعد سنة من إنشائها ستين تلميذاً من تلامذتها كتبة بفرق الجيش ، وكانت تحتاج الى ٢٢٠ كاتباً ، (٥) وعينت عدداً آخر بالدواوين . (٦)

على أن المدرسة لم تلبث بعد سنتين من إنشائها أن ألغيت ، وضُم تلامذتها الى تلاميذ مدرسة المبتديان ، (٧) ولم نعد نسمع عنها بعد ذلك شيئاً . (٨)

---

(١) دفتر ٢٠٢٠ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٧ شوال ١٢٥٢

(٢) دفتر ٢٠١٩ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٦ رمضان ١٢٥٢

(٣) دفتر ١٤٥ (مجلس ملكية) ص ٢٤ رقم ٨٢ إلى مختار بك فى ١٩ ذى القعدة ١٢٥٢

(٤) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٩ ذى القعدة ١٢٥٢

(٥) أمين باشا سامى : تقويم النيل ح ٢ ص ٤٨٩

(٦) دفتر ٢٠٣٥ (مدارس تركى) ورقة ٢٨ فى ١٩ شوال ١٢٥٣

(٧) دفتر ٢٠٤١ (مدارس تركى) ورقة ٦٥ فى ٢٧ ذى القعدة ١٢٥٤

(٨) يذكر صالح بك مجدى مؤرخ حياة رفاعة بك رافع أن مدرسة المحاسبة كانت ملحقة بمدرسة الألسن (حلية الزمن فى مناقب خادم الوطن ص ١٣) . ولكنا لا نرى فى الوثائق ما يؤيد ذلك .

مدرسة الادارة الملكية

كانت النظم والمؤسسات الحربية والاقتصادية والتعليمية الحديثة التي أدخلها محمد على فى مصر فى النصف الأول من القرن الماضى محتاجة إلى (إدارة) معقدة ومنظمة معاً تسهر عليها وتوفر لها أسباب القوة والنجاح ، وتمكّن الحكومة — حكومة محمد على — من أن تبسط عليها من إشرافها الدقيق ما يتيح لها أن توجه هذه النظم والمؤسسات إلى الطريق التى تبغى. فلم يكن بد للحكومة من إنشاء مدارس لتخريج الموظفين الذين يقومون على ما نظّمت الحكومة من « دواوين» و«مصالح» و«أقلام» .

وكانت مدرسة الادارة الملكية من المدارس التى أنشأتها الحكومة لهذا الغرض . (١)

أنشئت فى جمادى الأولى سنة ١٢٥٠ (١٨٣٤ م) ، واختير تلامذتها الأول — وكانوا ثلاثين تلميذاً — من تلاميذ « الدرسخانة الملكية » الذين يعرفون القراءة والكتابة وتتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة . وعين للتدريس لهم « أرتين شكرى أفندى » و « أسطفان رسمى أفندى » اللذين عادا حديثاً من أوربا بعد دراسة الإدارة الملكية وألحقا بمجلس عالى الملكية . ولكن لما كانت دراسة الادارة الملكية (أى المدنية) تحتاج إلى دراسة (إعدادية) سابقة قوامها اللغة الفرنسية وعلم المحاسبة ومبادىء الهندسة والجغرافيا ، رؤى أن يبدأ أستاذاهم بتدريسها لهم (المادة الثالثة من لائحة المدرسة) .

فكان على التلاميذ أن يدرسوا « بالدرسخانة الملكية » من الصباح إلى الظهر ، ثم من الظهر إلى ما قبل غروب الشمس بساعة يتوفرون على دراسة

---

(١) انظر لائحة مدرسة الادارة الملكية فى دفتر ترتيبات ولوائح ص ٤٣٠

المواد (الاعدادية) لدراسة الأمور الملكية (المادة الرابعة). أما أستاذاهم فقد وضع لهما أيضاً نظام خاص: فعليهما أن يشتغلا صباحاً بترجمة ما يحال إليهما ترجمته، حتى إذا فرغا من ذلك أقبلا إلى مجلس الملكية فاشتركا فى مداولاته وقراراته، ثم انفلتا إلى مدرسة الادارة الملكية فألقيا دروسهما على تلاميذهما ساعتين من كل يوم، ثم عادا إلى المجلس حتى ينفض (المادة الخامسة).

وكان عليهما — علاوة على تدريس المواد (الإعدادية) التى ذكرنا — ترجمة دروس فى الإدارة المدنية وإعدادها، حتى اذا ما انتهى التلاميذ من دراستهم الحالية ألقياها عليهم (المادة السابعة). ولما كان الوقت الذى خصص للتدريس للتلاميذ لا يكفل دقة الإشراف عليهم، عين للأستاذين معيدان: أحدهما للغة الفرنسية والآخر للجغرافيا من تلاميذ الشيخ رفاعة، ليدرسا للتلاميذ فى الوقت الباقى من يومهم المدرسى (المادة السادسة).

ولما كان من أغراض المدرسة تخريج مترجمين وموظفين لفروع الإدارة المصرية، فقد أشارت اللائحة بأن يقدم للتلاميذ — بعد تقدمهم فى اللغة الفرنسية — كتب فى التاريخ سهلة، وتترجم لهم درسا درسا، حتى إذا تمت ترجمة الكتاب وإصلاحه قامت المطبعة على طبعه (المادة الثامنة). «وإنه لأجل حصول ائتلاف التلامذة بالمصالح المصرية» تقدم للمدرسة نسختان من الوقائع المصرية، وتترجم لتلاميذها المواد «المشتملة على عمارية الملك بجرنالات أوربا» (المادة الثانية عشرة).

وللوقوف على مدى تحصيل التلاميذ نصت اللائحة على أن يمتحن تلاميذها امتحانا خاصا فى كل ثلاثة شهور، وامتحانا عاما فى ختام العام. فأما المتفوقون «فيصير تلطيفهم» بكتاب فى التاريخ أو غيره من تلك الكتب التى تقوم على طبعها «دار الطباعة العامرة» (المادة التاسعة). وأما الذين يثبت عدم استعدادهم للدراسة فيفصلون من المدرسة وينتخب من «الدرسخانة الملكية» غيرهم (المادة العاشرة).

حتى إذا انتهى التلاميذ من دراستهم « النظرية » بالمدرسة كان عليهم أن يمرنوا « عمليا » على الإدارة المصرية : « فيعطى لكل من حضرات المديرين نفر منهم بوظيفة معاون ويقيم بمعيته مدة سنة » ، ثم يعودون الى المحروسة « ويداوموا بمجلس عالى ملكية لحين ظهور مصلحة لايقة لاستعدادهم وقابليتهم » (المادة الثالثة عشرة) .

وقد جعل للمدرسة مكان خاص ، هو المكان الذى كان يشغله مجلس التجار بالقلعة .[1]

هذه مدرسة إدارة الأمور الملكية كما وصفتها لائحة إنشائها . أما تاريخها بعد ذلك فلا نعلم منه شيئا . والواقع أن حياتها كانت قصيرة : إذ ألغيت ونقل تلاميذها الى مدرسة الألسن فى آخر سنة ١٢٥١ (١٨٣٦ م) أى بعد عام وبضعة شهور من إنشائها .[2]

مدرســـــة الألسن

لا نغلو إذا وصفنا عصر محمد على من جهة النهضة العلميـة بأنه عصر الترجمة والتعريب : فقد كان محمد على يرى « أن كل ما هو مفيد من النظم الغربية قد كتبه أصحابها ، فاذا ترجم إليه استطاع أن يسير طبقاً له » .[3] فهو محتاج إلى أن يقف على علوم الغرب وآدابه وطرائقه فى معالجة الشئون الحربية والزراعية والصناعية والعمرانية ، ولن يتم شىء من هذا إلا إذا نقل إلى التركية أو العربية . ولكن الأجانب الذين يعرفون هاتين اللغتين أو إحديهما قليلون ، أو قل إنهم معدومون . ومحمد على ليس فى وسعه أن يرسل من

---

(١) دفتر ٥٧ (معية) رقم ٢٦٥ من الجناب العالى إلى حبيب أفندى فى ١١ جماد أول ١٢٥٠

(٢) دفتر ٢٠٠١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٤ ذى الحجة ١٢٥١

(٣) Douin, Une Mission Militaire auprès de Meh. Ali, p. 98. De Boyer à Belliard (Janv. 25, 1826.)

شباب البلاد إلى أوربا كل من تحتاج إليه البلاد فى علم أو فن أو إدارة . فلم يبق إلا أن يعمل على إعداد مترجمين فى مصر من أهل البلاد ، حتى يصيبوا من اللغات الشرقية والغربية حظاً يمكنهم من ترجمة المؤلفات الأوربية . ويقوم على إعداد هؤلاء المترجمين رجال من أعضاء البعثات المصرية الأولى . (١) ومن المدارس التى نهضت بالنصيب الأكبر من هذا العبء « مدرسة الألسن » .

إنشاء المدرسة والغرض منها

أنشئت مدرسة الألسن فى أوائل سنة ١٢٥١ (١٨٣٥م) .(٢) وكانت تسمى إذ ذاك « مدرسة الترجمة » ، ثم غير اسمها فصارت « مدرسة الألسن » .(٣) وكان مقرها بالسراى المعروفة ببيت الدفتردار بحى الأزبكية حيث « فندق شبرد » الآن . (٤) وكانت بجوار قصر « محمد بك الألفى » الذى سكنه من بعده بونابرت ثم محمد على . (٥)

ولما كان الغرض من إنشائها تخريج مترجمين لمصالح الحكومة فقد اتجهت نية الحكومة منذ إنشائها إلى أن تكوّن من خريجيها « قلما » للترجمة ، يقوم على ترجمة الكتب اللازمة لمدارس الحكومة ومصالحها .(٦)

---

(١) دفتر ٦٢ (معية) رقم ٧٦١ من الجناب العالى إلى ناظر الجهادية فى ١١ رجب ١٢٥١

(٢) كانت المدرسة موجودة قبل شهر رجب ١٢٥١ — دفتر ٦٢ (معية) رقم ٧٦١ الى ناظر الجهادية فى ١١ رجب ١٢٥١ وصالح بك مجدى : حلية الزمن فى مناقب خادم الوطن ص ١٣ — لا كما يذكر أمين باشا سامى (تقويم النيل ج ٢ ص ٤٧٠) من أنها أنشئت فى ربيع الأول ١٢٥٢

(٣) صالح بك مجدى : حلية الزمن فى مناقب خادم الوطن ص ١٣ ، الوثيقة السابقة

(٤) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية م ٤ ج ١٣ ص ٥٤

(٥) المصدر السابق : م ١ ج ٣ ص ١٠٣

(٦) دفتر ٦٢ (معية) رقم ٧٦١ من الجناب العالى إلى ناظر الجهادية فى ١١ رجب ١٢٥١

ولما وُضِعت قوانين التعليم ولوائحه فى سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧ أصبح الغرض منها تخريج مترجمين وإمداد المدارس الخصوصية الأخرى بتلاميذ يعرفون اللغة الفرنسية، حتى اذا تخرجوا فى هذه المدارس كانوا على معرفة بالعلم الذين يترجمون فيه واللغة التى يترجمون منها. وعلى ذلك فان مدرسة الألسن مدرسة «خصوصية» إذا نظر إلى غرضها الأول من حيث أنها تستمد تلامذتها من المدارس التجهيزية وتعدهم لوظائف الحكومة، وهى كذلك مدرسة «تجهيزية» إذا نظر الى غرضها الثانى من حيث أنها تُعد تلامذتها للمدارس الخصوصية، أو قل إنها تتراوح بين أن تكون مدرسة تجهيزية ومدرسة خصوصية. [1] على أن مدرسة الألسن بعدَ تنظيمها فى ١٨٣٦ لم تُعْنَ بالغرض الثانى: وهو إعداد تلاميذ يعرفون اللغة الفرنسية للمدارس الخصوصية الأخرى، بل تمسكت بوظيفتها كمدرسة خصوصية، ومضت فى تخريج المترجمين والمدرسين.

حتى إذا كانت سنة ١٨٤١ ووضعت لوائح جديدة للمدارس ثبت لمدرسة الألسن غرضها الأول: وهو إعداد المترجمين والمدرسين، وللتمكّن من تنفيذ الغرض الآخر: وهو إمداد المدارس الخصوصية بتلاميذ يعرفون الفرنسية جعلت المدرسة التجهيزية قسماً من مدرسة الألسن ودرست بها اللغة الفرنسية.

تلاميذ المدرسة

وكان عدد تلامذتها أول إنشائها خمسين تلميذاً، [2] انتقاهم رفاعة بك من مكاتب الأقاليم. [3] ولما ضم اليها تلاميذ مدرسة الادارة الملكية أصبحوا جميعاً ثمانين، ثم زادوا الى مائة وخمسين كما نصت اللوائح، [4] وكانوا

---

(١) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) رقم ٥٠٦٥ الى شورى المعاونة فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٧

(٢) صالح بك مجدى: حلية الزمن فى مناقب خادم الوطن ص ١٣

(٣) على باشا مبارك: الخطط التوفيقية م ٤ ج ١٣ ص ٥٤

(٤) دفتر ٢٠٠٢ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢٤ المحرم ١٢٥٢

يكوّنون (بلوكين) ويرأس كل (بلوك) أستاذ ويساعده بعض التلاميذ المتقدمين.[(١)]

وفى سنة ١٨٤١ قررت لجنة تنظيم المدارس أن يكون عدد تلامذتها ٦٠ تلميذاً، اختارتهم من المتفوقين من تلاميذ المدرسة، وعدلت بالآخرين الى المدرسة التجهيزية وغيرها.[(٢)] وظلت مدرسة الألسن محتفظة بنحو هذا العدد حتى نهاية عصر محمد على.

مناهج الدراسة

مدة الدراسة بمدرسة الألسن خمس سنوات قد تزاد الى ست، يدرس التلاميذ فيها اللغات العربية والتركية والفرنسية ومبادىء الرياضيات والتاريخ والجغرافيا. ولشورى المدرسة الداخلى (مجلس إدارتها) أن يغير منهاج الدراسة من عام لآخر.[(٣)] وفى سنة ١٢٥٢ (١٨٣٧) كان تلاميذ المدرسة — ويكوّنون جميعا ثلاث فرق — يدرسون اللغة الفرنسية، وأكثرهم اللغة العربية وقليل منهم التركية، ويدرس نفر منهم الحساب والجغرافيا. فهو برنامج ضعيف: إذ أن الكتب التى يقرؤها التلاميذ فى العربية والتركية لا تعلو كثيراً عن كتب التعليم التجهيزى، وتدريس الحساب لم يعدُ قواعده الأربع، والجغرافيا أجزاء الكرة الارضية. واقترحت لجنة الامتحان تقوية تدريس الفرنسية من جهة والحساب والجغرافيا من جهة أخرى، بتدريسهما بالفرنسية على أيدى مدرسين من الفرنسيين لتلاميذ الفرقة الأولى، وبالعربية لتلاميذ الفرقة الثانية، كما اقترحت تدريس التاريخ وأرسلت الى أوروبا

(١) Bowring, op. cit. p. 134.

(٢) لسنا نجد فى وثائق ذلك العصر ويفيض كثير منها بالحديث عن مدرسة الألسن ما يؤيد ما ذكره صالح بك مجدى (حلية الزمن ص ١٣) من أن عدد التلاميذ زاد حتى بلغ مائتين وخمسين. وقد يكون أضاف تلاميذ التجهيزية بعد ضمها الى مدرسة الألسن.

(٣) Bowring, op. cit. p. 134.

الشراء كتب فرنسية فى الأدب والقصص والتاريخ .[١]

وتقدمت المدرسة : فى سنة ١٢٥٥ (١٨٣٩) كان بها خمس فرق ، وتخرج فيها فى ذلك العام أول فريق من تلامذتها . وكان طلبة الفرقة الأولى - عدا المواد الدراسية التى يدرسون - يترجمون كتبا فى التاريخ والأدب ، ويقوم على إصلاحها أستاذهم ومدير مدرستهم « رفاعة رافع » ، ثم تقدم الى المطبعة فتطبع وتنشر كتبا يقرؤها المدرسون والتلاميذ .[٢]

ودرست اللغة الانجليزية وقتا ما بمدرسة الألسن ، وقام على تدريسها مدرس انجليزى ، وقرأ التلاميذ قصصاً وكتبا فى قواعد اللغة الانجليزية .[٣] على أن عناية المدرسة كانت منصرفة إلى حسن القيام على تدريس اللغة الفرنسية . وكان يعنى عناية كبيرة بدراسة اللغة العربية : إذ يقرأ التلاميذ كتبا فى النحو والبيان والبديع والعروض والأدب ،[٤] والراجح أن دراسة التركية لم يُعْنَ بها : إذ كان من الصعوبة بمكان أن تجد الحكومة مترجما يحذق اللغات العربية والتركية والفرنسية جميعا .[٥]

مدير المدرسة ومدرسوها

نصت لوائح المدرسة على أن مدرسى المدرسة هم مديرها ومراقبان للدراسة وأستاذان للغة العربية من الدرجة الأولى وأستاذ للغة التركية من الدرجة الأولى وثلاثة أساتذة لتدريس اللغة الفرنسية والرياضة والتاريخ والجغرافيا .[٦]

---

(١) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢١ ذى القعدة ١٢٥٢

(٢) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص ٣٧ رقم ١٤٤٨ الى الباشمعاون فى ٩ ذى القعدة ١٢٥٥

(٣) دفتر ٦ (مدارس عربى) ص ٢٩٥٦ رقم ٩٢ الى ديوان التجارة باسكندرية فى ١٩ رجب ١٢٦١

(٤) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية م ٤ ج ١٣ ص ٥٤

(٥) دفتر ٣١ (مدارس عربى) ص ٢٣٦٠ رقم ٧٤٧ إلى مدرسة الألسن فى ١٦ رمضان ١٢٦٢

(٦) Bowring, op. cit. p. 134.

أما مديرها فهو العالم المصرى الكبير « رفاعة رافع الطهطاوى » عضو بعثة سنة ١٨٢٦ إلى باريس ، حيث درس الفرنسية والترجمة ، ولما عاد إلى مصر اشتغل بتدريس هاتين المادتين فى مدرسة الطب ، ثم نقل لمدرسة المدفعية ، وقد عمل وقتا ما فى أمانة مكتبة قصر العينى وتدريس الجغرافيا لنفر من التلاميذ ، و(نظارة) مدرسة المارستان و(ملاحظة) المكتب العالى ، ولما أنشئت مدرسة الألسن عين الشيخ رفاعة مديرا لهـا . وعلاوة على قيامه على إدارة المدرسة من الوجهة « الفنية » كان ناظرا عليها من الوجهة « الإدارية » [1] كما كان يشرف على مراجعة وإصلاح الكتب التى يعرّبها تلامذته.[2] وكان يلقى على طلبته دروسا فى الأدب والشرائع الإسلامية والغربية ، وكان يرأس كل عام لجنة امتحان تلاميذ مكاتب المبتديان بالأقاليم ، فيسافر إليها فى النيل ويمتحن تلاميذها ، ويأتى بالمتفوقين منهم إلى المدرسة التجهيزية . قال على باشا مبارك فى ترجمته لرفاعة بك « كان دأبه فى مدرسة الألسن وفيما اختاره للتلاميذ من الكتب التى أراد ترجمتها منهم وفى تأليفاته وتراجمه خصوصا أنه لا يقف فى ذلك فى اليوم والليلة على وقت محدود ، فكان ربما عقد الدرس للتلامذة بعد العشاء أو عند ثلث الليل الأخير ، ومكث نحو ثلاث أو أربع ساعات على قدميه فى درس اللغـة أو فنون الإدارة والشرائع الإسلامية والقوانين الأجنبية ، وله فى الأولى مجاميع لم تطبع ،

(١) كان لكل من المدارس الخصوصية « مدير » يشرف على الشؤون الفنية كتوزيع التلاميذ على الفرق الدراسية وتوزيع المواد الدراسية ورياسة المدرسين ، و« ناظر » يشرف على الشؤون الادارية كالضبط ورياسة عمال المدرسة من كتبة وخدم وغيرهم . وكان ناظر مدرسة الألسن يدعى « يوسف كاشف » ثم عزل بناء على طلب رفاعة بك — دفتر ١٤٥ (مجلس الملكية) رقم ٢٨ من الجناب العالى إلى مختار بك فى ١٦ ربيع الأول ١٢٥٢ .

(٢) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢١ ذى القعدة ١٢٥٢ — وكان رفاعة بك مرهقا بكثرة العمل فعين له الديوان مدرساً فرنسياً ليعاونه على إدارة المدرسة والتفتيش عن الدروس وأمانة المكتبة .

وكذلك كان دأبه معهم فى تدريس كتب فنون الأدب العالية ، بحيث أمسى جميعهم فى الإنشاءات نظما ونثرا أطروفة مصرهم وتحفة عصرهم . ومع ذلك كان هو بشخصه لايفتر عن الاشتغال بالترجمة أو التأليف وكانت مجامع الامتحانات لاتزهو إلا به » . (١)

أما مدرسو اللغة العربية فكانوا نفراً من أشياخ الأزهر الذين عرف عنهم الميل إلى البحث والتحقيق . ذكر على باشا مبارك أسماء كثير منهم : كالشيخ «الدمنهورى» و الشيخ «على الفرغلى الأنصارى» (وهو ابن خال رفاعة بك) والشيخ «حسنين حريز الغمراوى» ، والشيخ «محمدقطة العدوى» ، والشيخ «أحمد عبد الرحيم الطهطاوى» ، (٢) والشيخ عبدالمنعم الجرجاوى. (٣) وكان بها «باشخوجة» يدعى «حسن أفندى» .

وأما مدرسو اللغة الفرنسية فكانوا ثلاثة يدعون : مسيو «كوت» و «بتيير» و «ديزون» . ثم عيّن الأخير معاونا لرفاعة بك وأميناً على (الكتبخانة) الملحقة بالمدرسة . (٤) ولما توفى أولهم عين خلفا لهم «إسكندر دوده» الكاتب بالديوان ، «لأنها مدرسة لغات» لا يستغنى فيها عن عدد من المدرسين الفرنسيين . (٥)

---

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية م ٤ ج ١٣ ص ٥٤

(٢) وكان باشخوجة اللغة العربية بالمدرسة التجهيزية وكبيرا للمصححين بمدرسة الألسن وقد عمل بالمدرسة منذ إنشائها « ولم يطبع من كتب هذه المدرسة كتاب إلا طالعه وتصفحه وقابله وصححه وهو يشتغل ليلا ونهاراً » .

(٣) دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركى) ص ٦٣ رقم ٢٠٣٦ الى شورى المعاونة فى ٢٨ شوال ١٢٥٩ وعلى باشا مبارك : الخطط التوفيقية م ٤ ج ١٣ ص ٥٤

(٤) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢١ ذى القعدة ١٢٥٢

(٥) دفتر ٥٢ (مدارس عربى) ص ٤٣٤٩ رقم ٢٢٥ الى المعية فى ٢٠ رمضان ١٢٦٣ هكذا وردت أسماء هؤلاء المدرسين فى سجلات ديوان المدارس العربية والتركية ولم نجد ذكرا لهم فى مرجع أجنبى حتى نستطيع أن نكتب أسماءهم بالفرنسية .

خريجو المدرسة

ومما يذكر بالفخر لمدرسة الألسن أن نفراً من تلاميذها شغلوا بعد تخرجهم فيها مناصب التدريس لتلامذتها : ففى سنة ١٨٣٩ تخرج أول فريق من تلاميذ المدرسة فعين بعض المتقدمين منهم مدرسين للغة الفرنسية ، وبعضهم الآخر مدرسين للغة العربية بالمدرسة ، فحلوا فيها محل أساتذتهم . (١)

ولما أنشىء « قلم الترجمة » فى أوائل سنة ١٢٥٨ (١٨٤١ م) كان جل خريجى المدرسة أو كلهم يلحقون به ، وكانوا لا يمنحون الرتبة حتى يترجم كل منهم كتاباً يحوز الرضاء السامى ، (٢) وكانوا حيناً يظلون بالمدرسة بعد تخرجهم « تحت الطلب بصفة مستودعين » ، حتى إذا احتاجت مدرسة أو مصلحة إلى أحد منهم استدعته ومنحته الرتبة ومرتبها . (٣)

هذا الى أن بعض المتفوقين من المتخرجين كانوا يعيَّنون معيدين بالمدرسة التى تخرجوا فيها ومدرسين بالمدرسة التجهيزية أو المدارس الخصوصية الأخرى لتدريس الفرنسية . (٤)

أقسام المدرسة

فى سنة ١٨٤١ نقلت المدرسة التجهيزية من أبى زعبل وألحقت بمدرسة الألسن . كما أنشىء « قلم » للترجمة وألحق بالمدرسة وسنفرد له مكانا خاصا . وفى نحو سنة ١٢٦٠ (١٨٤٤) أنشىء بمدرسة الألسن قسم لدراسة « الادارة الملكية العمومية » ليعمل خريجوه فى المديريات والمصالح و « الضابطخانة » . (٥) وبعد

---

(١) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص٣٧ رقم١٤٤٨ الى الباشمعاون فى ٩ ذى القعدة ١٢٥٥

(٢) دفتر ٢٠٩٧ (مدارس تركى) ص١٧٥ رقم٧٤٢ الى مدرسة الألسن فى غرة المحرم ١٢٦٢

(٣) دفتر ٢٠٨٣ (مدارس تركى) ورقة٧ رقم١٠٣ الى شورى المعاونة فى ٢٠ المحرم ١٢٥٩

(٤) دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركى) ص٦٣ رقم٢٠٣٦ الى شورى المعاونة فى ٢٨ شوال ١٢٥٩

(٥) دفتر ٣٠ (مدارس عربى) ص١٨٧٣ رقم٥٨٢ الى مدرسة الألسن فى ٢٢ جماد ثان ١٢٦٢

ذلك بعامين أنشىء بها قسم آخر لدراسة «الإدارة الزراعية الخصوصية».[١]

وفى أواخر سنة ١٢٦٣ (١٨٤٧ م) أنشىء بها قسم لدراسة العلوم الفقهية، وكان عدد تلامذته أربعين تلميذاً، ويتلقون دروسا فى الفقه على المذهب الحنفى، حتى إذا أتموا دراستهم عينوا قضاة بالأقاليم، «حيث أن أكثر القضاة ليسوا علماء».[٢]

وكان يقوم بالتدريس لهم ساعتين من كل يوم الشيخ «خليل الرشيدى» والشيخ «محمد المنصورى»، وكان مكفوف البصر. ولما كان هذا الوقت لا يكفى عيّن لهما معيد «عارف بالاصطلاحات الفقهية ليكون مع التلامذة فى أوقات المذاكرة وملاحظتهم فى كتابة الضوابط على الطاولة».[٣]

وقد دعا تعدد الأقسام وتنوع الدروس بمدرسة الألسن إلى النظر فى بنائها لتنظيمها بما يكفل سير الدروس سيرا مرْضيا، فقد كان البناء من الضيق بحيث أنه كان «بكل محل دروس مختلفة»، فكان يختلط فيها التلاميذ من فرق وأقسام شتى، وكل فريق يدرس دروسا متباينة. فقسمت المدرسة حجرات، حتى صار «لكل درس محل مخصوص بباب مخصوص».[٤]

وظل «رفاعة بك رافع» مديراً لمدرسة الألسن والمدارس الملحقة بها حتى أوائل عصر عباس الأول، حين نقلت من الأزبكية إلى الناصرية.[٥] ثم ألغيت المدرسة وعين «رفاعة بك» ناظراً للمدرسة الابتدائيـة التى أنشئت فى الخرطوم.[٦] وبذلك انتهت حياة ذلك المعهد الجليل.

كانت مدرسة الألسن ملتقى ثقافتين: ثقافة الغرب بتفكيرها الجديد على

(١) دفتر ٦٤ (مدارس عربى) ص ٢٠٤٠ رقم ٨١٧ الى مدرسة الألسن فى ١١ شعبان ١٢٦٣
(٢) دفتر ٢١٢٠ (مدارس تركى) ص ١١٦ الى مدرسة الألسن فى ١٤ ذى القعدة ١٢٦٣
(٣) دفتر ٨٣ (مدارس عربى) ص ٨٤ ٤ رقم ١٥٤ الى الديوان الخديوى فى ٢٣ ذى القعدة ١٢٦٣
(٤) دفتر ٢١ (مدارس عربى) ص ٢٧ ٤ رقم ١٢٧ الى الابنايات الميرية فى ١٧ ذى القعدة ١٢٦١
(٥) دفتر ٢١٣٢ (مدارس تركى) ص ٣٩ فى ١٩ ذى الحجة ١٢٦٥
(٦) دفتر ٢١٣٣ (مدارس تركى) ص ١٢٠ فى رجب ١٢٦٦

الشرقيين ونظرتها الجديدة الى الحياة وتلك الآفاق الجديدة التى أظهرتهم عليها ، وثقافة الشرق العربية أو قل ثقافة الأزهر القائمة على الجدل والنقاش والتخريج . وكانت مدرجة الألسن كما كان « رفاعة بك » نفسه مزاجا من هاتين الثقافتين . والواقع أن « رفاعه بك » كان يزمع أن ينشىء تلامذته على غراره : أما هو فقد نهل من هاتين الثقافتين واستقى من منبعيهما ، إذ درس فى الأزهر صدر شبابه وقرأ كتبه وعالج قضايا العلم والفقه والكلام . وفكر بعقول شيوخه وأحس إحساسهم ونظر إلى الحياة نظرتهم ، ثم رحل إلى باريس شيخاً معمماً ، فاتسعت أمامه آفاق من التفكير جديدة ، ولاك لسانه لغة أجنبية وقرأ كتبا جديدة أظهرته على علوم جديدة ، ورأى نظما فى الحكم جديدة وطرائق فى السلوك الاجتماعى جديدة ، وعلى الجملة رأى عالمـا جديداً . ولكنه لم ينس عالمـه الذى نشأ فيه وتربى فى حجره ورضع من لبانه صبيا وفتى وشابا . وهنا تظهر قيمة رفاعه بك وخطره كإمام من أئمة النهضة العلمية فى مصر : فقد مزج بين هاتين الثقافتين مزجاً بديعاً وأخذ بالجميل والمفيد منهما . وأصبح بذلك علـماً على نضوج الفكر ونفاذ البصيرة وقوة التجديد فى إيمان ورفق . قلنا إنه كان يبغى أن ينشىء تلاميذه — كما نشأ هو — على ثقافتين يجمع بينهما — على ما بينهما من تضاد فى كثير من المظاهر — اتجاه كل منهما إلى البحث عن الحقيقة .

أما هو فقد درس فى الأزهر ، وأما تلامذته فليأت لهم بكتب من كتب الأزهر وعلماء من الأزهر يقرءون لهم النحو والعروض والكلام ويطبعونهم على الثقافة العربية والاسلامية ، وليأت لهم بأساتذة من الغرب يعلمونهم اللغات الأجنبية ويقرءون لهم كتباً أجنبية فى الأدب والنحو والقصص والتاريخ ، حتى إذا أصابوا من الثقافتين حظا انطلقوا بدورهم ينقلون إلى بنى وطنهم ثمرات التفكير الغربى — أو الفرنسى على وجه التخصيص — ممثلة

فى تلك الكتب التى قاموا على تعريبها فى كل فن وعلم فى مهارة وصدق ، يشرف عليهم أستاذهم ومربيهم ومثلهم الأعلى «رفاعة رافع الطهطاوى» ، فكانوا كما وصفهم على باشا مبارك بحق «أطروفة مصرهم وتحفة عصرهم» .

قلم الترجمـــة

لما شرعت الحكومة فى إنفاذ ماعزمت عليه من ترجمة الكتب الأجنبية فى العلوم والفنون المختلفة اعتمدت على أعضاء بعثاتها الأولى ، فجعلت منهم مترجمين ودفعت إليهم كتبا فى علوم وفنون قد لا تمت بصلة إلى الدراسة التى تلقوها فى أوربا . وكانت تستحثهم دائما على الجدّ والإسراع فى الترجمة ،[١] بل لقد بلغ من (تعجل) الحكومة أن خصصت لهم غرفة ووكلت بهم من يتولى مفتاحها . فلا يدعهم يبرحونها حتى يتمّوا ترجمة ماعهد إليهم ترجمته ، وأن يحول بينهم وبين الامارة التى عملوها فى أوروبا » ![٢] حتى إذا أظهر أحدهم قصوراً ألحق بزميل له قدير على الترجمة ليعاونه ويمرن على يديه ،[٣] أو نزع منه الكتاب ودفع إلى آخر .[٤]

وإلى جانب هؤلاء المبعوثين كان هناك نفر من المترجمين (الأجانب) يترجمون كتبا أخرى للحكومة ، ولكنّ بعضا منهم كان يخدع الحكومة ، فكان «ينتج عمل ستة أشهر فى مدى خمسة أعوام» .[٥]

على أن محمد على لم يكن يرتاح إلى أن يُشغَل هؤلاء المبعوثون عن وظائفهم والأعمال التى اغتربوا عن بلادهم للتخصص فيها ، ولذلك رفض اقتراحا قدم إليه بجمع أعضاء البعثات المشتغلين بالترجمة فى (قلم) واحد ،

---

(١) دفتر ٤٧ (معية) رقم ٥٠١ من الجناب العالى الى ناظر الجهادية فى ١٩ جاد أول ١٢٤٩

(٢) و(٣) دفتر ٥٠ (معية) رقم ٥٠١ س٧ رقم ٣٢ الى حبيب افندى فى ١٩ جادأول ١٢٤٨

(٤) دفتر ٤٩ (معية) رقم ١٦٥ الى أغا الخزينة دار فى ٧ شوال ١٢٤٨

(٥) دفتر ٤٨ (معية) رقم ٢٣ الى محمود بك فى ٢٨ جاد أول ١٢٤٨

وفضل إنشاء مدرسة للإدارة الملكية وأخرى للترجمة (وهى التى دعيت بعد ذلك بمدرسة الألسن) . واتجهت النية منذ إنشائها إلى تكوين قلم للترجمة من خريجيها .

ولكن إنشاء هذا « القلم » تأخر إلى سنة ١٨٤١ . ومضت مدرسة الألسن تخرّج المترجمين ، ومضى هؤلاء بدورهم يترجمون كتباً كثيرة فى الصناعة والزراعة وفنون الحرب والطب والعلوم والآداب . ولما أبطلت اللغة الفرنسية من برامج الدراسة بالمدارس الخصوصية فى سنة ١٨٣٦ انحصرت الترجمة فى تلامذة مدرسة الألسن وخريجيها وفى بعض الأساتذة المصريين المدرسين بالمدارس الخصوصية ممن أتموا دراستهم بأوربا .

ولكن تلامذة الألسن وخريجيها ، وإن أمكن الاطمئنان إلى معرفتهم اللغتين العربية والفرنسية والمواد الاجتماعية كالتاريخ والجغرافيا ، إلا أن قيامهم على التعريب فى العلوم والرياضة والطب ، وهى موادّ يجهلونها ، لا يخلو من حذر . وتلافياً لهذا ضمت المدرسة التجهيزية كما ذكرنا إلى مدرسة الألسن ودرست اللغة الفرنسية لطلبتها ، كما أعيد تدريس اللغة الفرنسية إلى أكثر المدارس الخصوصية ، حتى إذا أصاب تلامذتها وخريجوها من الفرنسية ومن فنّهم حظاً أقبلوا يعربون منه فى يسر وثقة واطمئنان . ولكن هذا التدبير يحتاج إلى مدى طويل حتى يؤتى ثمره ، والحكومة متعجلة تبغى سرعة الإشراف على ما يترجم من الكتب حتى تستوفى لها أكبر قسط من الصواب والدقة ، فلم تر بدأ من أن تسلك خريجى الألسن القائمين على الترجمة والتعريب فى « قلم » واحد ، على أن تكل الإشراف الفنى على ما ترجموا من كتب إلى أساتذة مختصين ، وهذا هو « قلم الترجمة » الذى أشارت اللجنة التى نظمت التعليم فى سنة ١٨٤١ بإنشائه وإلحاقه بمدرسة الألسن تحت إدارة مديرها « رفاعة بك » .

رأت اللجنة أنه «لما كانت الكتب الجارى ترجمتها معدودة آثاراً خيرية من مآثر سمو مولانا الخديو الأعظم الذى تخلد اسمه الكريم إلى أبد الآبدين، فلا شك فى أن الواجب يقضى بأن تكون التراجم مضبوطة مستوفية حقها من الصحة سليمة من الخطأ، فلهذا ولكون ترجمة كتب العلوم والفنون ليست مقصورة على معرفة اللغة فحسب، بل متوقفة أيضاً على الإلمام بالعلم أو الفن المترجَم كتابه، فقد أنشأت اللجنة غرفة الترجمة الخاصة بالمترجمين» وجعلتها أربعة أقلام:

القلم الأول: قلم ترجمة الكتب المتعلقة بالعلوم الرياضية. وقد نصب «البكباشى محمد بيومى أفندى» رئيساً لهذا القلم،(١) وجعل فى إمرته (ملازم) متخرج فى مدرسة الألسن وخمسة من تلاميذ فرقتها الأولى.

والقلم الثانى: قلم ترجمة كتب العلوم الطبية والطبيعية. ورئيسه «اليوزباشى مصطفى واطى أفندى»، وهو من مدرسى مدرسة الطب البشرى، وفى إمرته (ملازم) من ملازمى مدرسة الألسن وثلاثة من تلاميذها.

والقلم الثالث: قلم ترجمة كتب الأدبيات كالتاريخ والقصص والقوانين والجغرافيا، وجعل رئيسه «الملازم الأول خليفه محمود أفندى» وهو من مدرسى مدرسة الألسن وأرفق ملازماً ثانياً وثلاثة من التلاميذ.

أما القلم الرابع فهو قلم الترجمة التركية. وقد نصب «ميناس أفندى» المترجم بديوان المدارس رئيساً له، وتحت إمرته أربعة من التلاميذ.

ودبر لهذه الأقلام الأربعة مايعوزها من «المبيضين»

---

(١) ولما نقل بيومى أفندى معاونا بالديوان استمر الانتفاع به فى قلم الترجمة، فكان يعمل به ثلاثة أيام من كل أسبوع يوما بعد يوم ومعه المبيض الذى يعمل معه. دفتر ١٣ (مدارس عربى) ص ٢٧٦٥ رقم ٥٠٥ الى مدرسة الألسن فى ١٤ رجب ١٢٦١

وهكذا تم إنشاء قلم الترجمة من أربعـــة أقسام تنتظم جميعها ستة وعشرين موظفا ، بين رئيس ومترجم ومبيض ، كل منهم منقول الى القلم من وظيفته القديمة ، إلا تلاميذ الفرقة الأولى فإنهم لحداثة تخرجهم فى مدرسة الألسن أضيف الى مرتب كل منهم شىء من العلاوة ، وكان نظام التوظيف يقضى بمنحهم رتبا ، إلا أن اللجنة قررت إرجاء البت فى ذلك إلى أن يترجم كل منهم كتابا يحوز الرضا وينال القبول . (١)

ثم زاد عدد المترجمين الى خمسين أخذتهم الحكومة من خريجى الطبقتين الأولى والثانية فى مدرسة الألسن . (٢) وكان القلم يستنفد كل خريجى المدرسة أو جلهم .

قلنا إن قلم الترجمة كان ملحقا بمدرسة الألسن ، فكان ديوان المدارس يتجه فى كل ما يخص القلم وموظفيه إلى رفاعة بك مدير المدرسة . (٣) وكانت لجنة امتحان تلاميذ المدرسة فى آخر كل عام دراسى تفحص عن أعمال القلم: فترى إذا كانت الكتب التى عهدت إلى المترجمين قد تمت فى مواعيدها أم لم تتم ، وتفحص عن لغة الترجمة لتنبه الى الخطأ منها فتعاد ترجمته ، ثم توصى أخيراً بعقاب المهمل ومكافأة المجيد : أما المهمل الذى لم يتم ترجمة ماخصص له فى المدة التى عينت له فجزاؤه ألا يمنح عن المدة التى تأخر فيها إلا نصف راتبه . (٤) أما المجيد الذى أتم ترجمة كتاب وطبع كتابه فيجزى بخمس نسخ منه تهديها له الحكومة . (٥)

---

(١) دفتر ٢٠٧٣ مدارس تركى رقم ٥٦٥ من الديوان الى شورى المعاونة فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٧

(٢) صالح بك مجدى : حلية الزمن فى مناقب خادم الوطن ص ١٢ ، ١٣ — وقد ذكر على باشا مبارك (الخطط م ٢ ج ٨ ص ٢٣ — ٢٤) أن وكيل قسم ترجمة الرياضيات كان « صالح مجدى » تلميذ رفاعة بك ومؤرخ حياته .

(٣) دفتر ٩ (مدارس عربى) ص ٦٠٣ رقم ٨٦ إلى مدرسة الألسن فى ١٢ ذى القعدة ١٢٦٠

(٤) دفتر ٢٠٩٧ (مدارس تركى) ص ١٥٧ رقم ٧٤٢ إلى مدرسة الألسن فى غرة المحرم ١٢٦٢

(٥) دفتر ٢٧ (مدارس عربى) ص ٦٤٢ رقم ٣٦ إلى الكتبخانة فى ٦ ذى الحجة ١٢٦١.

أما الكتب التى كانوا يترجمونها فأغلبها من الفرنسية إلى العربية ، وبعضها من الفرنسية الى التركية . وكان ديوان المدارس يطلب إلى نظار المدارس الخصوصية فى كل عام بيانا بالمؤلفات التى جدّت فى المواد التى تدرس بمدرستهم ، [(١)] حتى إذا وجدها ، هى أو غيرها مما يرى رفاعة بك ترجمته ، (بالكتبخانة) الفرنسية الملحقة بمدرسة الألسن ، وزعها على المترجمين ، وإلا بعث يطلبها من أوربا . [(٢)]

وكان أكثرها ضخما يتألف من مجلدات عدة ، فكان يعطى كل مترجم مجلداً ، حتى تتم ترجمة الكتاب فى مدة وجيزة. والراجح أن توزيع الأعمال فى قلم الترجمة كما حددته اللجنة التى أشارت بإنشائه فى تقريرها لم يتبع بحذافيره ، بل تجووز عن كثير مما فيه ، إذ لم يكن ثمة تخصص فى الترجمة : فقد ينتهى مترجم من تعريب كتاب فى الكيمياء ، فيشرع فى تعريب آخر فى التاريخ أو الزراعة أو تربية الحيوان . [(٣)] وقبل أن يأخذ المترجم فى عمله تحدد له مدة معينة عليه أن يتم كتابه فيها ، وإلا عُدّ مقصراً وكان جزاؤه ما ذكرنا من عقاب ، فاذا أتم عمله تسلّم غيره وهكذا .

ويراجع المصححون الكتب التى تم تعريبها لإصلاح مابها من خطأ فى اللغة العربية ، [(٤)] وكان ديوان المدارس حريصا على أن يقوم « المبيضون »

---

(١) دفتر ١٣ (مدارس عربى) ص ٢٢٧٦ رقم ٤٢٥ إلى مدرسة المهندسخانة (وغيرها) فى ١٦ رجب ١٢٦١

(٢) دفتر ٢٦ (مدارس عربى) ص ٣٤٨ رقم ٧٧ إلى مدرسة الألسن فى غاية شوال ١٢٦١

(٣) انظر توزيع الكتب على المترجمين فى دفتر ٢٠٩١ (مدارس تركى) ورقة ١٠ رقم ٨٢ ودفتر ٢٠٩٨ (مدارس تركى) رقم ٢٤ وغيرها

(٤) ومن هؤلاء المصححين الشيخ محمد العدوى — دفتر ١٠ (مدارس عربى) ص ٢٠٠٨ رقم ٢١٦ والشيخ نصر الهورينى الذى عين إماما لبعثة الأنجال وحل محله الشيخ محمد الفرغلى — دفتر ٢٩ (مدارس عربى) ص ١٤٠٢ رقم ٣٩٨

«وتبييض» الكتب النافعة منها ، ثم ترسل إليه لينظر فى طبعها .[١]

وفى الأيام الأخيرة من حياة إبراهيم باشا أنشىء قلم جديد للترجمة بالقلعة ، ثم نقل إلى مدرسة الألسن بعد انتقالها إلى الناصرية .[٢] وأحيلت شئون «الوقائع المصرية» على هذا القلم .[٣] وقد أنشىء لترجمة القوانين والتواريخ والعلوم والفنون من اللغة الفرنسية إلى اللغة التركية ، وكان تحت رئاسة «كانى بك» ، وألحق به «ميناس أفندى» وغيره من المترجمين .[٤] ولكنه لم يعش طويلا ، إذ ألغى مع مدرسة الألسن فى السنوات الأولى من حكم عباس الأول .

مـــدارس الزراعة

«مصر بلاد زراعية» : هذه حقيقة أدركها محمد على ، وعلى الرغم من شدة عنايته بإنجاح الصناعة فى مصر لم يغفل أن ثروة البلاد تقوم قبل كل شىء على الزراعة ، وأنه إذا كان يريد تنمية موارد الثروة فى مصر فعليه أن يعنى بترقية الزراعة فيها . ولا شك فى أن مجال الإصلاح فى ذلك الباب متسع لحاكم قدير مستنير . وهو ما أقدم عليه محمد على : فقد جعل من «جفالكه» نماذج لغيره من الملاك فى حسن القيام على استغلالها ، وجلب كثيراً من النباتات الأجنبية ، وغرس الحدائق ، وأرسل بضعة نفر من الطلاب فى بعوث زراعية

---

(١) دفتر ٢٠٩٧ (مدارس تركى) ص١٥٧ رقم٧٤٢ الى مدرسة الألسن فى غرة المحرم ١٢٦٢

(٢) دفتر ٢١٢٦ ص ٤٢ ، ٤٦ فى ٣ ذى الحجة ١٢٦٤ ، ٢١ المحرم ١٢٦٥

(٣) دفتر ١١٩ (مدارس عربى) ص١٠١٧ رقم١ الى مدير قلم ترجمة فى ٢٤ ذى الحجة ١٢٦٤ وهى أول (إفادة) مرسلة من ديوان المدارس الى هذا القلم على أثر إنشائه .

(٤) دفتر ٤٤٩ (معية) ص ٣٤ فى سنة ١٢٦٤

إلى أوربا وأميركا . وشجع [١] الفلاحين على زراعة التوت [٢] والزيتون والقنب والكتان ، وحثهم على تعلم الطرق الحديثة فى تربية النحل ، وغير هذا كثير . وكله يرمى إلى لون جديد من ألوان الاستغلال الاقتصادى ، تقوم به الحكومة فتزيد من مواردها وتنهض بأعظم مصدر للثراء فى البلاد .

على أن المحاولة الحقة لوضع الزراعة فى مصر على قواعد علمية حديثة تتمثل فى تلك المؤسسات التعليمية الزراعية التى أنشأها محمد على فى سنين مختلفة من حكمه الطويل، وألحق بها بضعة نفر من التلاميذ يدرسون الزراعة من الوجهتين العلمية والعملية ، حتى إذا انقلبوا إلى أهليهم كانوا مبشرين بالطرق الحديثة فى استغلال أرضهم على نحو يحقّق أغراض الحكومة من ذلك الاستغلال ، وكانوا عونًا للحكومة فيما تنهض من مشروعات الزراعة .

الدرسخانة الملكية

وأول تلك المؤسسات المدرسة التى أنشئت فى القاهرة فى سنة ١٢٤٥ (١٨٣٠م)، فقد لاح فى ضمير ولى النعم إنشاء مدرسة لتحصيل فن الفلاحة وعلم الزراعة يكون طلبتها ممن لهم إلمام بالقراءة والكتابة ، فيتعلمون اللغة العربية والانشاء واللغة الفارسية وحسن الخط ، وأن يعين ناظر عليها محمد أفندى الأدرنة لى الملم باللغات الثلاث العربية والفارسية والتركية ، وخصص لها مكان مجلس المشورة وسمى بالدرسخانة ، وفتحت فى ربيع الثانى سنة ١٢٤٥ ،

---

(١) دفتر ٢١٢ (معية) ص٦٣ من الجناب العالى الى الباشا السرعسكر فى١٦ المحرم ١٢٥٢ بشأن إلغاء العادة القديمة التى جرت بالانعام على كبار مشايخ القرى بالزعابيط والشيلان الكشميرية ، وتفصيل توقيع عقوبة على من يهمل القيام بما عهد إليه ، وتخصيص جائزة للذين يقومون بواجبهم ، وأنه أمر بصنع نياشين لتوزيعها على المجيدين من كبار الزراع والمديرين والنظار .

(٢) وكان فى قرية بهتيم (وفيها الآن القرية النموذجية التى أنشأتها الجمعية الزراعية الملكية) محطة لتربية دود القز . دفتر ٢٠٧٧ (مدارس تركى) ص ١٨٤ فى غرة رجب ١٢٥٨

وسوعد بجملة من المدرسين ، وبلغ عدد طلبتها مائةوعشرين . وقرر للممتازين ١٥٠ قرشا والمتوسطين ١٠٠ قرش والمتأخرين ٨٠ قرشا ، ويعطى لكل منهم فى كل سنة ٣٣٠ قرشا بدل كسوة ، وتصرف لهم الأغذية من مطبخ ولى النعم الكثير نواله » . (١) هذه هى « الدرسخانة » وقد كانت تدعى أيضا « الدرسخانة الملكية » . وكانت أول مدرسة زراعية نظامية بمصر ، يتعلم بها عدد كبير من التلاميذ وتقوم الحكومة بالانفاق عليهم عن سعة . على أن « الدرسخانة » — ولم تكن منشأة فى وسط زراعى — قد تحولت عن غرضها الأول من تعليم تلاميذها الفلاحة والزراعة إلى تعليمهم ليكونوا موظفين فى دواوين الحكومة ومصالحها . وقد رؤى عدم ضرورتها بعد تنظيم التعليم إلى ابتدائى وتجهيزى وخصوصى ، وكل مرحلة تعدّ لما بعدها . ولذلك ألغيت لما أنشىء ديوان المدارس ، ووزع تلاميذها على الجيش والمصالح التى تحتاج اليهم.

مدرسة الزراعة بشبرا الخيمة

وبعد ذلك بنحو ثلاث سنين (أى فى سنة ١٢٤٨ هـ) أنشئت مدرسة زراعية أخرى . ولكنها أنشئت هذه المرة فى وسط زراعى يمكّن التلاميذ من المران العملى والأساتذة من تطبيق نظرياتهم العملية فى تربة البلاد المصرية: إذ خصصت الحكومة مائة فدان بجوار حديقة شبرا ليقوم على الزراعة بها أعضاء البعثة الزراعية الذين عادوا من أوربا ، على أن يعلّموا « ثلاثين شخصا من أبناء كبار مشايخ البلاد والأغنياء المقتدرين » . وقد وعد محمد على بالانعام على كل منهم بعد عودته الى بلده بمائة فدان (رزقة) بلا مال ، « على أن يعلموا أولاد الفلاحين مما تعلموا » . (٢)

---

(١) الوقائع المصرية: عدد ١٤٢ فى ١٢ ذى القعدة ١٢٤٥

(٢) دفتر ٥١ (معية) رقم ٣٦٤ الى الدفتردار فى ٢٣ ذى القعدة ١٢٤٨ ، و Saint-John, op. cit. II. p. 407. وأمين باشا سامى: تقويم النيل ج ٢ ص ٤١١ =

وفكرت الحكومة فى إرسال بعثة الى أوربا لتعلم الزراعة « حسب الأصول الأوروبية » مؤلفة من تسعة وعشرين من أولاد كبار المشايخ، وشرعت تنفذ هذه الفكرة،[1] إلا أنا لانجد لها بعد ذلك أثراً، والراجح أنه قد عُدِل عنها.

وبرغم تفكير الحكومة فى إنشاء مدرسة زراعية أخرى بنبروه فقد أبق « تلامذة الزراعة بشبرا الخيمة » حيث كانوا، حتى يصل المدرسون « الذين سيأتون قريباً من أوربا »[2] ولكن الراجح أن مصير هذه المدرسة كان الالغاء وتحويل تلامذتها إلى نبروه.

على أن أهم تلك المؤسسات التعليمية الزراعية وأطولها تاريخا مدرسة الزراعة التى أنشئت بنبروه، ثم نقلت إلى شبرا، واستقرت بها قبيل نهاية عصر محمد على.

مدرسة الزراعة بنبروه

يحدثنا « هامون » مدير مدرسة الطب البيطرى فى عهد محمد على عن مدرسة الزراعة التى أنشئت بنبروه حديثا مستفيضا لا يخلو من طرافة. وإن شابه النقد اللاذع الذى اعتاد « هامون » أن يوجهه إلى كثير من المؤسسات العلمية فى ذلك العصر. يحدثنا أنه فى يوم من الأيام أوحى بعض الأوربيين إلى محمد على أن هناك فى بلادهم (مدارس) لتعليم الزراعة، فما أن (سمع)

= وأعضاء هذه البعثة الزراعية ثلاثة منهم « يوسف أفندى » وهو أرمنى وقد أصبح ناظرا لمدرسة الزراعة وإليه تنسب فاكهة (اليوسفى)، و « خليل أفندى محمود » وقد أرسلا فى بعثة سنة ١٨٢٦ الى فرنسا وقد التحقا بحقول التجارب فى روفيل (Roville) انظر تقرير جومار عن هذه البعثة فى Jour. Asiatique, II. 1828. p. 96.

(١) دفتر ٥٢ (معية) رقم ٢ إلى حبيب أفندى فى ٢٧ ذى الحجة ١٢٤٨

(٢) دفتر ١٤٥ (مجلس ملكية) ص ٧ رقم ٢٥ الى مختار بك فى ٩ ربيع الأول ١٢٥٢

محمد على بذلك ! حتى أسرع فطلب الرجال والمواد اللازمة من فرنسا لتأسيس مدرسة للزراعة فى مصر ، من غير بحث فى ضرورتها أو فائدتها . وفعلا وصلت « مستعمرة الزراعة مكونة من رجال وآلات » . [(١)]

وعينت قرية « نبروه » من أعمال مديرية الغربية مكانا للمدرسة ، وكان ذلك فى أواخر سنة ١٢٥١ (١٨٣٦ م) . ويصفها « هامون » فيقول إنها قرية فقيرة بها مساحات كبيرة من الأرض لا تزرع وملأى بالمستنقعات . وعين « يوسف أفندى » الأرمنى الذى درس فى روفيل "Roville" بفرنسا ناظراً على المدرسة . [(٢)]

على أن « هامون » يذكر أن مديرها كان مسيو جرانجان "Grandjean" وقد ضايقته كثرة « الدس والسخرية » فترك المدرسة ورحل عن مصر ، فخلفه « يوسف » الأرمنى ، [(٣)] وعُين أعضاء البعثة الزراعية الذين درسوا فى روفيل أساتذة بالمدرسة .

وقد أنشىء للمدرسة بناء خاص . [(٤)] وألحق بها « مزرعة نموذجية » لتجربة المزروعات والطرق الأوربية ، مساحتها ٢٠٠١ فدانا و٢٠ قيراطا ، خصص بعضها للزراعة الشتوية من القمح والشعير والفول والكتان والبرسيم والعدس والطماطم ، وبعضها للزراعة الصيفية من القطن والسمسم ، وخصص غيرها لغرس أشجار التوت وزرع الأرز والذرة والخضر . [(٥)] وكان يعلم

---

(١) Hamont, op. cit. II. p. 275. ولعل هذه المستعمرة الزراعية هى « المكتب المرتقب وروده لأجل الزراعة » دفتر ١٣٩ (مجلس ملكية) رقم ٨٠٩ من الجناب العالى إلى بوغوص بك فى ٢١ شعبان ١٢٥١

(٢) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٦ ذى القعدة ١٢٥٢

(٣) Hamont, op. cit, II. p. 280. وعلى باشا مبارك الخطط التوفيقية م ٢ ج ٥ س ٣

(٤) دفتر ١٣٩ (مجلس ملكية) رقم ٤٠ الى مدير النصف الثانى من الغربية فى ٧ جماد أول ١٢٥١

(٥) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٦ ذى القعدة ١٢٥٢ — تقرير عن المدرسة والمزرعة .

صناعة استخراج السمن والجبن من اللبن مدرس فرنسى .[١]

تلاميذ المدرسة

أما تلاميذها فقد اختيروا من تلامذة قصر العينى « باعتبار أنهم يعرفون الصرف والنحو والخط » ، بينما وجد المفتش أن بعضهم لا يجيد الإملاء والكتابة .[٢] وقد أصدر محمد على أمره إلى ديوان المدارس بأن يقصر التعليم فيها على « أبناء العرب » ، ويقصد أهل البلاد من المصريين ، « لعدم ميل أبناء الترك لفن الزراعة » .[٣] وكانت النواة الأولى للمدرسة أربعين تلميذاً .[٤] وكان عددهم فى العام الثانى من إنشاء المدرسة ثلاثة وثلاثين تلميذاً .[٥]

كان مستوى التلاميذ الملحقين بها غير جدير بمدرسة خصوصية ، وكان على مدرسة نبروه أن تلافى هذا النقص فى تلاميذها ، ولكنها أهملت ذلك: إذ لم يكن هؤلاء التلاميذ يتلقون فى السنين الأولى من إنشاء مدرستهم سوى علمين : هما علم الزراعة وعلم النبات . وكان مظهرهم الخارجى زرياً ، إذ أهملت المديرية التابعون لها إمدادهم بالملابس الخارجية منذ سنوات حتى بليت (بذلاتهم) . هذا إلى أن أسرَّتهم لم تصرف لهم ، فكانوا ينامون على أرض البناء وكان رطبا لجدَّته . أما المزرعة فقد ارتفع صوت الناظر بالشكوى من قلة العمال الذين يعملون بها والماء الذى يصل إليها ، وأرجع هذا إلى (كيد) مدير المديرية له .

---

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية م ٥ ج ١٧ ص ٣ ودفتر ٢٠٣٥ (مدارس تركى) ورقة ١١ فى ١١ شعبان ١٢٥٣

(٢) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٦ ذى القعدة ١٢٥٢

(٣) أمين باشا سامى : تقويم النيل ج ٢ ص ٤٧٢ — ٤٧٣

(٤) Hamont, op. cit. II. p. 280.

(٥) دفتر ٢٠٢٥ (مدارس تركى) ص ٧٣ رقم ١٦٠٨ إلى ناظر مدرسة الزراعة فى ٢٠ جماد أول ١٢٥٣

تنظيم المدرسة

ولما كانت لوائح التعليم تقضى بان يفتش عن المدرسة والمزرعة النموذجية مرة فى كل ثلاثة أشهر أو فى كل شهر أو شهرين إذا استدعى الحال ذلك ، كان طبيعيا أن يقوم شورى المدارس بتنظيم مدرسة الزراعة بنبروه أسوة بالمدارس الأخرى ، فأرسل إليها مفتشا لحص عن برنامج الدراسة والنباتات التى تزرع بالمزرعة وأدوات المدرسة وملابس التلاميذ ، واستمع إلى شكاية الناظر ، واقترح ما رآه كفيلا بتنظيم المدرسة على نحو يحقق أغراض الحكومة من إنشائها .

اقترح المفتش تعيين مدرس للنحو وآخر للخط ، وأشار بالاهتمام بتعيينات التلاميذ أسوة بالمدارس الخصوصية الأخرى والكتابة إلى مدير المديرية بمدّ يد المساعدة لرى المزرعة النموذجية . ووافق شورى المدارس على هذه المقترحات ، وزاد عليها أن لا تجرب الطرق الأوربية فى الزراعة إلا فى مساحات محدودة لا تزيد على فدان أو فدانين ، وتنفيذ مايمكن تنفيذه « من أصول الزراعة الأفرنجية بعد استشارة مشايخ البلاد الخبيرين بأصول أطيان تلك الجهة وطقسها وسبق أن جربوا الزراعة فيها » .

وكان من نتيجة الشروع فى تنظيم المدرسة الزراعية والمزرعة النموذجية أن وضع ناظر المدرسة لائحة داخلية من ست عشرة مادة .(١) وصدق عليها ديوان المدارس . وفيها حددت مواد الدراسة ومواعيد تدريسها ونظام التلاميذ فى نومهم وراحتهم وتأديبهم وغير ذلك .

تنص المادة الخامسة على أن ينهض التلاميذ من نومهم قبل شروق الشمس بنصف ساعة ، وعليهم أن يغتسلوا ويلبسوا ملابسهم ثم يأخذوا كتبهم وأدواتهم ويتوجهوا إلى المدرسة ، حتى إذا كان شروق الشمس بدءوا عملهم .

---

(١) دفتر ٢٠٢٥ (مدارس تركى) س ٧٣ رقم ١٦٠٨ فى ٢٠ جماد أول ١٢٥٣

ونظمت المادة الأولى من اللائحة « جدول الأوقات » كما يلى :

ساعة

١,٥ درس النحو ، ويبدأه التلاميذ من شروق الشمس إلى الساعة الواحدة والنصف بعد شروقها، على أن يظل مدرس النحو بالمدرسة حتى المساء ويدرس للتلاميذ التاريخ ويصحح لهم إملاءهم .

١,٥ درس الزراعة المتنوعة من الساعة الواحدة والنصف إلى الساعة الثالثة (حسب التوقيت العربى) وعلى مدرس هذه المـادة وهو المدرس الأول « الباشخوجة » أن يقضى بقية ساعات اليوم فى ترجمة دروس النبات والموضوعات الأخرى التى يحيل الناظر إليه ترجمتها من الفرنسية إلى العربية .

١ درس النبات من الساعة الثالثة إلى الرابعة ، وعلى مدرس هذه المادة أن يدرسها للتلاميذ علماً وعملا .

١,٥ درس الجغرافيا وتاريخ الفلسفة (كذا) من الساعة الرابعة إلى الخامسة والنصف .

١,٥ مدة طعام الغداء والاستراحة من الساعة الخامسة والنصف إلى السابعة.

١,٥ علم الحساب من الساعة السابعة إلى الثامنة والنصف ، وعلى المعلم الثانى تدريس هذه المادة .

١,٥ درس الزراعة العمومية من الثامنة والنصف إلى العاشرة ، وإنه «وإن يكن يطلب من ناظر المدرسة أن يقوم بتدريس هذا العلم إلا أنه يعذر فى حالة اشتغاله بسبب الأشغال الكثيرة فى الحقل والمدرسة».

١ استذكار التلاميذ لدروسهم من الساعة العاشرة إلى الحادية عشرة .

١ طعام العشاء واستراحة من الحادية عشرة إلى الثانية عشرة .

المجموع ١٢ ساعة .

وبذلك يقضى التلاميذ ساعات النهار برمتها — فيما عدا فترتين قصيرتين لتناول الطعام والراحة — فى تلقى الدروس أو استذكارها .

تدهور المدرسة

على أن هذه اللائحة لم تضع حداً لتدهور المدرسة يوما بعـــد يوم : فالتلاميـذ لم يُعَدُّوا إعداداً كافياً لما يجب أن يتقلوه فى مدرسة خصوصية للزراعة ، ومن هنا كان انصرافهم فى المدرسة إلى دراسة مبادىء فى النحو والخط والجغرافيا والحساب . كما أن «نبروه» لم تكن مكانا ملائما للمدرسة : لبعدها عن إشراف الحكومة المركزية فى العاصمة إشرافا تاما يكفل لها دوام التشجيع والمعاضدة ، هـذا الى ما يذكر « هامون » من الجو الفاسد الذى أحاط المدرسة منذ نشأتها : فمدير المديرية يؤخر كل ما تطلبه المدرسة ويسخر منها ، وموظفو ديوان المدارس لا يدركون فائدتها ويعطلون مراسلاتها وأعمالها ، وآباء التلاميذ يشكون إلى المدير ، فينهض المدير لسؤال ناظر المدرسة والفحص عن أعمال التلاميذ فلا يجد شيئاً جديداً أو (فوق العادة) يبرّر ما ينفق على المدرسة ، ويرفع بذلك تقريراً إلى الحكومة . فيذهب محمد على بنفسه الى المدرسة زائراً محققا ، ويشجعها ويصدر أوامر صارمة إلى المدير . ولكن آلات الحرث الجديدة لا تفيد ، ويسأم الناظر الطرق الأروبية فيعود الى طرق الأهالى القديمة .[1] فلم يعد للمدرسة ما تمتاز به عما يجاورها من المزارع ، بل إنه لزرع حقل ذى مساحة معينة كان ينفق (زراعُ مدرسة نبروه) ضعفَ ماينفقه الأهالى . وكذلك لم تثمر التجارب التى أجريت لزرع بعض أنواع الخضر الأجنبية . واشتدت المعارضة ، وترك المدرسة كثير من موظفيها ، حتى لم يبق بها سوى مدرس للبنات وحداد وعامل ، بينما يضم

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية م ٥ ج ١٧ س ٣

الناظر — على حد قول «هامون» — أذنيه عن المقترحات التى تؤدى إلى رفع شأن المدرسة .

وقدم (بعض) الأجانب تقريراً بالأسباب التى يرون أنها أدت الى اضمحلال المدرسة والمقترحات التى يرونها كفيلة برفع مستواها . فأحال ديوان المدارس هـذا التقرير الى « هامون » ، فدرسه هـذا وكتب الى مدير الديوان بالملاحظات الآتية :

١ — اتفق مع مقدمى التقرير على أن من الأسباب المؤدية الى اضمحلال المدرسة رداءة التربة وعظم اتساعها ، وأشار بضرورة وجود أراض مختلفة جيدة التربة للاختبارات والتجارب .

٢ — يجب أن تكون المدرسة بجانب السلطة المركزية لحمايتها فى نضالها ضد المعتقدات السابقة والعادات المغروسة فى نفوس الأهالى ، ولتكون أعمالها وتجاريبها واضحة للرأى العام .

٣ — عدم ملاءمة البناء الذى يشغله حقل التجارب وفساد الاسطبلات والشون ووجودها فى نفس المكان الذى تشغله غرف النوم وقاعات الدراسة .

وأضاف الى ماتقدم انعدام النظام وسوء إدارة المدرسة .

ويقول « هامون » إن الامتحان السنوى لتلاميذ المدرسة — وقد انتدب لحضوره أحد أساتذة مدرسة الطب البيطرى — أثبت أن معلومات التلاميذ ضعيفة محصورة : فهم لا يعرفون أكثر مما عرف آباؤهم . ويصل ذلك كله إلى مسامع محمد على ، فيكتب فى لهجة قاسية إلى مختار بك مدير ديوان المدارس بالتنبيه على ناظر مدرسة نبروه بأن يهتم بعمله ، وإلا عزله ونصب مكانه من هو أصلح منه . [1] وتشتد الشكوى ، فيذهب « الجناب العالى » الى نبروه ،

(١) دفتر ١٤٥ (مجلس ملكية) س ٢٣ رقم ٧٦ إلى مختار بك فى ١١ ذى القعدة ١٢٥٢

وينتهز رجال بالإدارة بالأقاليم المجاورة فرصة وجود «الباشا» بينهم، فيشكون إليه ناظر المدرسة وموظفيها ويتهمونهم بالجهل .

ويذكر أمين باشا سامى (قصة) طريفة عن مدرسة نبروه الزراعية وناظرها «يوسف أفندى» الذى هدده محمد على يوماً بأنه «إذا أظهر من الإهمال ماسبق إظهاره فى مادة المياه . فليعلم بأنه يجعل أسفل الأرض مضجعه» ، يقول الباشا: « ولما كانت الآلات التى استحضرها من فرنسا تغور فى الأرض أكثر من المحاريث الفرعونية ، فوضعت بواسطتها حبوب التقاوى على مسافات أبعد من اللازم فى المعتاد ، ولذلك لم تسفر التجربة فى أول سنة بما كان يؤمله الوالى من النجاح ، حتى أنه لما دعى الوالى وأعيان الوجهين القبلى والبحرى لرؤيتها إبان قرب صلاحية الزرع للحصاد ، فعند استعراض مزروعات التجارب وزراعة الأهالى المجاورة خطر بفكر ولى النعم أن زراعة الأهالى هى زراعة التجارب وأن زراعة التجارب زراعة الأهالى ، فسرّ من ذلك، ولكن يوسف أفندى أخبره أن الأمر بالعكس وأن السبب فى عدم النجاح هو استعمال آلات لا يناسب استعمالها فى مصر ، والتمس أن تكون العمدة على ما تظهره تجارب السنة الآتية . فقال محمد على باشا : أتعبتنى وأتعبت الأعيان ، وكان يمكنك المبادرة بإخبارنا قبل حضورنا . وأمر برميه فى النهر ، فمن قائل إن الأمر أنفـــذ ، ومن قائل إنه ركب سفينة وسافر من طريق دمياط إلى الاستانة » . (١)

على أنا لا نجد لهذه (القصة) الطريفة أثراً فى الوثائق التى بين أيدينا عن ذلك العصر ، أو فى كتاب « هامون » الذى يفيض بالكلام — فى شىء كثير من الحنق — على مدرسة نبروه الزراعية وناظرها « الأرمنى » .

وصلت مدرسة الزراعة بنبروه إذن إلى حال تستدعى سرعة تدبير حل

---

(١) أمين باشا سامى : تقويم النيل ج ٢ ص ٤٧١

لانتشالها من الوهدة التى تردّت فيها . فاستدعى محمد على « مسيو هامون » ناظر مدرسة الطب البيطرى ، فأقبل مسرعا ولحقه بالمحلة الكبرى . فطلب إليه — على حد تدبير « هامون » — أن يدير مدرسة الزراعة ويجمع بينها وبين (إسطبل) شبرا ، وأظهر له أنه يعتمد على إخلاصه ، وسأله عن الزمن الذى يحتاجه ليخرج من المدرسة (زراعا) أكفاء . فطلب «هامون» ثلاث سنين ، على أن يعين لمساعدته أستاذ أجنبى ، فصرح له الوالى باستدعائه من فرنسا . ويزيد « هامون » على ذلك أن « أرتين بك » الأرمنى مترجم «الباشا» توسط لديه فى أن يأخذ ناظر المدرسة السابق يوسف أفندى — الذى ذكر أمين باشا سامى أنه ألقى فى النهر — مساعداً له ، وأن « هامون » رفض ووعد بتعيينه فى مدرسة شبرا (كذا) . ويقول «هامون» أيضا إن محمد على كان يريد الاستغناء عن المدرسين الفرنسيين الثلاثة ، وإنه هو الذى توسط فى إبقائهم . [١]

نقل المدرسة الى شبرا

وبذلك نقل تلاميذ مدرسة الزراعة — وكانوا إذ ذاك ثلاثين تلميذاً يكوّنون فرقة واحدة — [٢] ومعلموها وأدوات الدراسة بها إلى شبرا حيث مدرسة الطب البيطرى تحت إدارة « مسيو هامون » ، وكان ذلك فى صفر ١٢٥٥ (١٨٣٩ م) . [٣] ونظمت خطة دراسية كان كثير من موادها يتلقاها تلاميذ مدرسة الزراعة مع تلاميذ مدرسة الطب البيطرى ، وكان يقوم بتدريس الصحة والكيمياء والنبات لتلاميذ المدرستين أستاذ واحد ، وكان تلاميذ المدرستين يدرسون معا النباتات المحلية والأجنبية . وكان « هامون » يأمل أن يستمر بين المتخرجين فى كلتا المدرستين الذين يعملون

(١) Hamont, op. cit. II. p. 285 — 287.

(٢) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص ٠٤ رقم ١٤٥٠ إلى مسيو هامون فى ١٠ ذى القعدة ١٢٥٥

(٣) دفتر ٢٠٤٨ (مدارس تركى) ص ٣٨ فى ٢٧ صفر ١٢٥٥

فى (مصالح) الحكومة ذلك التعاون الذى دربا عليه إبان دراستهم، كما كان يفخر بأن هذا التعاون وهذا الاتحاد ليس لهما مثيل فى أوربا

وبذلك أتيح لتلاميذ مدرسة الزراعة أن يدرسوا علوماً لم يكونوا يعرفون عنها شيئا حين كانوا بنبروه. حقا لقد حرموا المران فى المزرعة النموذجية العظيمة التى كانت ملحقة بمدرستهم، إلا أن الحكومة قد عوضتهم عنها بعد ثلاث سنين من انتقالهم إلى شبرا بثلاثمائة فدان من أطيان «باسوس» ليطبقوا فيها نظريات الزراعة.(١)

ويرسم «هامون» صورة (جميلة) لنشاطه أول عهده بإدارة المدرسة: فقد وضع برنامجا للدراسة رفعه إلى الديوان، واقترح إجراء تجارب على الأسمدة وتعديلات فى العمل الزراعى والبذر، وإحضار محاريث خاصة، ووجه الأنظار الى أهمية إدخال النباتات الأجنبية النافعة للإنسان والحيوان. على أن «هامون» — كشأنه فى إدارة مدرسة الطب البيطرى — تصادفه العقبات وألوان من الكيد والدس، لسنا نعرف على وجه التحقيق أكانت حقيقية أم صوّرها له عقله المريض الحانق: فالقائم بأعمال مدير ديوان المدارس وموظفو الديوان يرمون اقتراحاته بالسفه وينكرون فائدتها، ويلمح «هامون» (إصبع) يوسف أفندى ناظر مدرسة نبروه يلعب من وراء ستار، حتى استطاع باتصاله بشيعته من الأرمن فى بلاط محمد على أن يُعَيّن أستاذاً للزراعة بمدرسة الزراعة بشبرا، على الرغم من «هامون» طبعا. ورفع برنامجه للديوان، ويصفه «هامون» بأنه منسوج من سخافات.

ويشكو «هامون»، وحياته فى مصر شكاية متصلة، من أن ديوان المدارس يرفض مساعدته بل ويقيم أمامه العقبات، وأنه كوّن لجنة للفحص عن أعمال المدرسة. ويقول «هامون» إن خصومه كانوا ديوان المدارس

---

(١) دفتر ٢٠٨٠ (مدارس تركى) س ٧٠ فى ١٨ شوال ١٢٥٨

والأرمن والمجلس الخصوصي . على أن محمد علي كان حريصا على إنجاح المدرسة حتى تحقق للحكومة ما تعلقه عليها من آمال ، فنراه يزور المدرسة ويدرس ماتم فيها من الأعمال ، فيرى التلاميذ المصريين يقودون محاريث أوربية تجرها الخيل ، ويرى نباتات جديدة قد نمت وآتت أكلها ، وكان محمد علي يسأل عن كل ماهو جديد ويقف ليرى كل شيء . (١)

المدرسة بعد سنة ١٨٤١

وفي سنة ١٨٤١ أوصت اللجنة التي شكلت للنظر في المدارس بإلغاء مدرسة الزراعة مع ما ألغي من مدارس ابتدائية وتجهيزية . إلا أن اللجنة التي شكلت عقب ذلك لإعادة النظر في تنظيم التعليم تشبثت بضرورة إحياء مدرسة الزراعة « التي ليس من الجائز إلغاؤها بعد ماجيء لها حديثا من فرنسا بمعلم خاص بها متعاقد مع الحكومة ، ومع مابذل ولايزال يبذل في سبيل علم الزراعة وفن الحراثة من سعي وهمة » . (٢) ولذلك « تعلقت الإرادة العلية بإعادة افتتاحها ، ورتبت بحيث يكون نصابها خمسة وعشرين تلميذا ، واحتفظ بأستاذها المسمى « تارديو » لأنه متعاقد والحكومة ، فلو أنه فُصل لتقاضى مرتبه عن السنتين القادمتين ، فضلا عن أن افتتاح المدرسة والأمر العالي الصادر بتاريخ ١٦ رمضان ١٢٥٧ يوجبان مكثه ، كما دبرت أمور الناظر والمصحح والمستخدمين » . (٣)

وبذلك أعيدت مدرسة الزراعة بعد إلغائها . وكان تلاميذها يُعدُّون قبل

(١) Hamont, op. cit. II. p. 288—289.

(٢) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركي) رقم ٥٦٥ تقرير بتاريخ ٢٠ ذي القعدة ١٢٥٧ عن تنظيم المدارس .

(٣) وكان مصححها الشيخ « نصر أبوالوفا الهوريني » دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركي) ص ٦٥ رقم ٢٠٥٦ في ٣ ذي القعدة ١٢٥٩ وهو الذي اختير بعد ذلك إماما لبعثة الأنجال في سنة ١٨٤٤ وهو والد سعيد (باشا) نصر العضو بهذه البعثة .

التحاقهم بمدرستهم مع تلاميذ الطب البيطرى بمدرسة الطب البشرى . والراجح أن مدة الدراسة بمدرسة الزراعة كانت ثلاث سنين ، إذ يذكر « هامون » أنه قبل نهاية السنة الثالثة من إنشاء المدرسة طلبت الحكومة منها (زراعا) . ويقول « هامون » إنهم تخرجوا « بآراء جديدة » رغم أن دوائر الحكومة كانت تكيد لهم لإظهارهم بمظهر الجهلة . [١] ومما يرجح كذلك أن مدة الدراسة بالمدرسة كانت ثلاث سنين أنه كان منتظرا أن يتخرج فيها تلاميذ فى سنة ١٢٦٠ (١٨٤٤ م) ، أى بعد ثلاث سنين من إعادة افتتاحها . [٢]

على أن مدرسة الزراعة بشبرا لم يقدّر لها أن تعيش طويلا : ففى ٨ ربيع الثانى سنة ١٢٦٠ (١٨٤٤ م) أى بعد إعادتها بأقل من ثلاثة أعوام صدر الأمر بنقلها إلى المنصورة ، [٣] وألحق بها قرية ليمرن فيها التلاميذ . [٤] وكانت المدرسة إذ ذاك تلفظ أنفاسها الأخيرة ، فانه بعد انتقالها من شبرا ببضعة شهور ألغيت ووزع تلاميذها — وكانوا أحد عشر تلميذاً — على الجفالك ، حتى لا ينسوا ما تعلموه . [٥]

على أن تدريس الزراعة لم يهمل بمصر بعد ذلك : فقد أنشئت فى نحو سنة ١٨٤٦ (١٢٦٢ ﻫ) « مدرسة إدارة الزراعة » . [٦] كقسم من أقسام مدرسة الألسن ، ويتعلم فيها التلاميذ « الادارة الزراعية الخصوصية » . [٧] على أنا لا نعلم شيئا عن هذه (المدرسة) التى أنشئت قبل نهاية عصر محمد على بنحو عامين .

---

(١) Hamont, op. cit. II. p. 304.

(٢) دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركى) ص ٦٥ رقم ٢٠٠٥٦ الى شورى المعاونة فى ٣ ذى القعدة ١٢٥٩

(٣) دفتر ٢٠٩٤ (مدارس تركى) ص ١٤٨

(٤) دفتر ٢٠٩٩ (مدارس تركى) ص ١١٨ فى ٩ ربيع الثانى ١٢٦٠

(٥) دفتر ١ (مدارس عربى) ص ١٣٧ رقم ٥ الى كتخداى باشا فى ٧ شوال ١٢٦٠

(٦) دفتر ٢٨ (مدارس عربى) ص ١٠٥٦ الى مدرسة الألسن فى ١٤ صفر ١٢٦٢

(٧) دفتر ٦٤ (مدارس عربى) ص ٤٠٢ رقم ٨١٧ الى مدرسة الألسن فى ١١ شعبان ١٢٦٣

مدارس الهنـــــدسة

واجهت محمد علي في جهوده (لمسح) الأراضي المصرية وحفر الترع وإقامة الجسور وإنشاء المصانع والبحث عن المعادن مشكلة فقر مصر في المهندسين الذين يقومون على هذه الأعمال التي لاغنى عنها لبلد ناشىء يبغي أسباب الرقي، فكان يكثر من إنشاء (مدارس) الهندسة كلما استطاع الى ذلك سبيلا . فاذا ما سمع بعالم في الهندسة أو الرياضيات مثلا أمر بأن يلحق به تلامذة ليأخذوا العلم عنه وعين لهم مكانا يقيمون فيه . وإذا عاد أحد أعضاء البعثات المتخصصين في فن من فنون الهندسة أو الرياضيات عهد إليه أن يعلم بضعة تلاميذ ما تعلمه هو في أوربا . وقد لا تستمر مثل هذه (المدرسة) سنة أو سنتين . ذلك لأنها أنشئت لغرض محدود ، فلا تلبث أن ينفرط عقدها بعد أداء هذا الغرض كله أو بعضه .

ومن ذلك مارواه « الجبرتي » في حوادث سنة ١٢٣١هـ من أنه «قد اتفق أن شخصاً من أبناء البلد يسمى حسين جلبي عجوة ابتكر بفكره صورة دائرة وهي التي يدقون بها الأرز وعمل لها مثالا من الصفيح تدور بأسهل طريقة ، بحيث أن الآلة المعتادة إذا كانت تدور بأربعة أثوار فيدير هذه ثوران . وقدم ذلك المثال إلى الباشا، فأعجبه وأنعم عليه بدراهم وأمره بالمسير إلى دمياط ، ويبني بها دائرة ويهندسها برأيه ومعرفته ، وأعطاه مرسوما بما يحتاجه من الأخشاب والحديد والمصروف . ففعل وصحّ قوله . ثم فعل أخرى برشيد وراج أمره بسبب ذلك » . [1] ... ثم « إن الباشا لما رأى هذه النكتة من حسين جلبي هذا قال إن في أولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف ، فأمر ببناء مكتب بحوش السراية، ويرتب فيه جملة من أولاد البلد ومماليك الباشا وجعل

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ج ٤ ص ٢٧٢

معلمهم حسن أفندى المعروف بالدرويش الموصلى، يقرر لهم قواعد الحساب والهندسة وعلم المقادير والقياسات والارتفاعات واستخراج المحصولات». وبلغ تلاميذه ثمانين تلميذاً. [١] وقد مدّ محمد على لهم فى عطفه ورعايته: فأمر فرتبت لهم الكسى والمرتبات الشهرية واشتريت لهم الحمير، مساعدة لطلوعهم ونزولهم إلى القلعة». وظلوا يجتمعون بهذا المكتب، «وسموه مهندسخانة كل يوم من الصباح إلى بعد الظهيرة، ثم ينزلون إلى بيوتهم، ويخرجون فى بعض الأيام إلى الخلاء لتعليم مساحات الأراضى وقياساتها بالأقصاب — وهو الغرض المقصود للباشا». وأحضرت لهم الأدوات والآلات الهندسية، كما استدعى من الأستانة مساعد لأستاذهم حسن أفندى ويدعى «روح الدين أفندى» لتعليم من لا يعرف العربية من التلاميذ. وما لبث روح الدين هذا بعد تسعة أشهر أن عهدت إليه رياسة المدرسة بعد وفاة حسن أفندى.

ويرى أمين باشا سامى أن هذه أول مدرسة أنشئت فى مصر وسميت بالمهندسخانة، وممن تربوا بها المهندس الكبير «ثاقب باشا» الذى اشترك فى إنشاء ترعة المحمودية وغيرها من منشئات الرى، وصار فيما بعد مفتشا لعموم رى الوجه البحرى. [٢]

وفى ٨ ذى الحجة سنة ١٢٣٥ صدر أمر محمد على الى كتخدا بك بتعيين «الخواجة قسطى». [٣] مدرسا بمدرسة تسمى «المهندسخانة»، وبأن ينتخب له خمسة أو ستة من التلامذة المتفوقين فى الرياضة والرسم من مدرسة القلعة السالفة الذكر ليقوم بتدريس تلك المواد لهم. وكان يستصحبهم أحياناً لمعاينة

---

(١) المصدر السابق: ص ٢٨٠

(٢) أمين باشا سامى: تقويم النيل ج ٤ ص ٥٨٢ — ٥٨٣

(٣) ويسميه «Planat» «M. Coste.» ويدعوه «رئيس مهندسى الوالى» «Directeur ingénieur du vice—roi». — Planat, op. cit. p. 348.

بعض القناطر المتهدمة.[١] وهذه فيما يرى أمين باشا سامى أيضا ثانى مدرسة أنشئت فى مصر وسميت «المهندسخانة».[٢]

وكان ثمة نفر من طلبة الأزهر يدرسون بمدرسة قصر العينى الحساب والهندسة باللغتين العربية والايطالية، وكان يقوم على تعليمهم أجنبي يدعى «الخواجة رسام انتودرى».[٣] وفى جمادى الآخرة سنة ١٢٤٢ تخرج منهم اثنا عشر طالبا وعُينوا للقيام بالأعمال الهندسية فى الوجه القبلى. وكان استكمال معلوماتهم الهندسية بالتمرين فى الخارج تحت إشراف كل من الشيخ عبد الفتاح «والخواجة يوسف بيرونى». ويذكر أمين باشا سامى أنها ثالث مدرسة من مدارس المهندسين.[٤]

وفى ٢٤ ربيع الثانى سنة ١٢٤٧ أصدر محمد على أمراً بانتخاب عشرة شبان من تلامذة قصر العينى وإلحاقهم بمعية مهندس للرى استدعى من انجلترا لتعليمهم هذا الفن، وتخصيص محل لسكنى المهندس فى ناحية منه والتدريس لهؤلاء التلاميذ فى ناحية أخرى. وبعد ذلك بعامين صدر الأمر بنقلهم مع أساتذتهم إلى المكان المزمع إنشاء قناطر (القناطر الخيرية) به، وإمدادهم بالخيام لرؤية الأعمال وتطبيق العلم على العمل. ولما أتم «محمد بيومى أفندى» دراسة علوم الهندسة بفرنسا ونبغ فيها، عُين بعد حضوره إلى مصر مدرساً بمدرسة المهندسخانة بالقناطر الخيرية، وهى رابع مدرسة للهندسة فى مصر، مع قيامه بمعاونة (باشمهندس) القناطر، لأنه درس أشغال القناطر فى باريس.

وفى ١٥ المحرم سنة ١٢٥٠ أنشئت مدرسة المهندسخانة ببولاق. وهى

(١) دفتر ٦ (معية) رقم ٧٢٨ فى ١٦ ذى الحجة ١٢٣٦
(٢) أمين باشا سامى: تقويم النيل ج ٢ ص ٥٨٢ ـ ٥٨٣
(٣) الوقائع المصرية: عدد ٤٤٤ فى ٢٦ جمادى الأولى ١٢٤٨
(٤) أمين باشا سامى: تقويم النيل ج ٢ ص ٥٨٢ ـ ٥٨٣

— فيما يرى أمين باشا سامى — خامس مدرسة للهندسة بمصر . وهى أعلى هذه المدارس شأنا وأبقاها أثراً ، وقد بذلت لها حكومة محمد على من عنايتها ماجعلها من أهم المؤسسات العلمية فى مصر فى القرن التاسع عشر .

وفى رجب سنة ١٢٥١ صدر الاذن باعطاء « لينان أفندى » (وهو لينان باشا دى بلفون المهندس الفرنسى الكبير) نفراً من تلامذة مدرسة الاسكندرية ، وقد تعهد بتعليمهم العلوم الرياضية فى قليل من الزمن . وهذه هى سادس مدرسة للمهندسين .

مدرسة المهندسخانة ببولاق

افتتحت الدراسة بمدرسة الهندسة ببولاق فى ١٥ المحرم سنة ١٢٥٠ (١٨٣٤).[١] فى قصر إسماعيل بن محمد على الذى مات فى حرب السودان .[٢] وفى شوال سنة ١٢٥١ ضمت لها مدرسة المهندسين بالقناطر الخيرية وكان بها ثلاثون تلميذاً ، ومدرسة المعدنين بمصر القديمة .[٣]

تنظيم المدرسة فى ١٨٣٦

وقد نظمت مدرسة بولاق على مثال مدرسة الهندسة بباريس . والغرض منها تخريج ضباط للخدمة فى المدفعية براً وبحراً ، ومهندسين للأشغال العامة وأعمال المناجم ، وموظفين لمصانع البارود وتكرير الملح ، ومدرسين للرياضيات والطبيعة . ومدة الدراسة بها ثلاث سنوات . ومواد الدراسة هى : الهندسة العالية والجبر العالى وحساب المثلثات القديمة المستقيمة والكروية والهندسة

(١) دفتر ٢٠٠٢ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢٤ المحرم ١٢٥٢

(٢) Pückler-Muskau, op. cit. I. p. 280.

(٣) Bowring, op. cit. p. 129. ودفتر ٧٣ (معية) فى ٢٣ شوال ١٢٥١
ودفتر ١٤٥ (مجلس ملكية) س ٤ رقم ١٦ إلى مختار بك فى ٧ صفر ١٢٥٢

الوصفية والاحصاء والهندسة التحليلية وعلم التفاضل والتكامل والميكانيكا والجيودوزيا والآلات والطبيعة والكيمياء والفلك والتعدين والبناء والجيولوجيا وتركيب الآلات ورسم الخطط والرسم الخطى والطبوغرافى .
وينظم مجلس المدرسة الدروس من عام لآخر ، على أن يوافق عليها شورى المدارس .

ولكن الطلبة لم يكونوا جميعا يدرسون هذه المواد ، بل نظمت المدرسة على أن تنتظم أقساماً ثلاثة : قسما لأعمال الطرق والكبارى ، وآخر للمعادن وأشغال المناجم ، وقسما ثالثا على مثال مدرسة السنترال بباريس ، والغرض منه تخريج مدرسين للرياضة بالمدارس الأخرى ومعيدين بالمهندسخانة . ويدرسون اللغات العربية والتركية والفارسية والميكانيكا وفن البناء والطبيعة والكيمياء والهندسة الوصفية والرسم وأشغال المعادن ورسم الخرائط . وهم يتلقون بعض هذه الدروس بفصولهم بالمدرسة ، ويمرنون على بعضها الآخر خارج المدرسة .

أما قسم المعادن فالغرض منه تخريج مهندسين لأشغال المصانع . ويدرس تلاميذه اللغات العربية والتركية والفارسية والهندسة الوصفية والطبيعة والكيمياء والميكانيكا والرسم والخط والمحاسبة وجر الآلات . وكانوا يخرجون بضعة أيام من الأسبوع الى المصانع حيث يشهدون العمل ويشتركون فى صنع الآلات .

أما القسم الثالث وهو أكبر أقسام المدرسة ، فيلتحق به التلاميذ الجدد المتخرجون فى المدرسة التجهيزية ، ويظلون به ثلاث سنوات ، ويدرسون اللغات العربية والتركية والفارسية والجبر والهندسة والرسم والجغرافيا .

هذا ماجرت به اللائحة التى وضعت للمدرسة فى سنة ١٨٣٦ . (١)

---

(١) Bowring, op. cit. p. 132.

على أن الوثائق التى بين أيدينا تقدم لنا صورة غامضة لهذا النظام الذى شرحنا، وخاصة فى العام الأول من وضعه. فقد كان بالمدرسة حينذاك ثلاث فرق، لا تعدو مواد الدراسة بها الهندسة والجغرافيا والرسم واللغة العربية، وفرقة « للمعيار »، وأخرى « للحفر »، وثالثة « للميكانيكا ». (١)

ولكن الامتحان أظهر «حقيقة مرة»، كما جاء فى تقرير الممتحنين: (٢) وهى أن بها تلاميذ حازوا درجة (أعلى)، ولكنهم لا يتعلمون العلوم التى يجب على تلاميذ المهندسخانة تعلمها، بل كان بها تلاميذ أمضوا فيها سنتين دون أن يستطيعوا تعلم القراءة والكتابة، كما كان بها تلاميذ مصابون بعاهات. على أن هذا كله لا ينفى أن نتائج امتحان معظم تلاميذ المهندسخانة كانت مرضية فى المواد التى درسوها.

وكان هذا الامتحان فى سنة ١٨٣٧ فرصة صالحة لتنظيم الدروس بالمدرسة حتى تقرب مما جرت به لائحتها.

بدىء بالمتأخرين وذوى العاهات فاستبعدوا من سلك الدراسة وعدل بهم الى المصانع أو المستشفيات، فأصبح بالمدرسة ١٧٦ تلميذاً. خصص منهم عشرون لفن (المعيار) والباقون لدراسة العلوم المقررة بالمدرسة، على أن يوزعوا بين ثلاث فرق كما نصت اللائحة. وتتألف الفرقة الأولى من ٣٦ تلميذاً يتعلمون العلوم التى تدرس بالمدرسة ليتخرج منهم مدرسون ومعيدون. وتتألف الفرقة الثانية من ٢٠ تلميذاً ليكونوا بعد ثلاث سنوات مهندسين ميكانيكيين فى (الورش) والمصانع المختلفة. وتتألف الفرقة الثالثة من ٩١ تلميذاً، على أن يتخرج منهم كل عام عشرون مهندساً لاستخدامهم فى شئون القناطر.

---

(١) وكانوا عشرة تلاميذ ملحقين بنمساوى ماهر لتعلم صناعة المناجم دفتر ٢١٢ (معية) رقم ٢٨٢ شهر ؟ سنة ١٢٥١

(٢) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٥ ذى القعدة ١٢٥٢

وتقرر كذلك الاستغناء عن المدرسين الأجانب بالمدرسة وتعيين مدرسين من التلاميذ الذين أرسلوا الى فرنسا ورجعوا قبل إتمام دراستهم وكانوا أربعة، فألحق اثنان منهم ببيومى أفندى والآخران بمظهر أفندى وبهجت أفندى [١] حتى يكملوا ما بهم من نقص ، ثم جُمعوا معاً بالمهندسخانة وقام المهندس لامبير «Lambert» بالتدريس لهم . فى الفرقة الأولى يقوم محمد بيومى أفندى[٢] بتدريس الميكانيكا والهندسة الوصفية والمساحة ، وأحمد طائل أفندى[٣] بتدريس الطبيعة ، وأحمد فايد أفندى[٤] بتدريس الكيمياء ، ويستخدم تلميذان متخصصان فى هذه المواد لاعادتها .

وفى الفرقتين الثانية والثالثة عين إبراهيم رمضان أفندى [٥] لتدريس رسم الخرائط والرسم الخطى ، وأحمد دوقلى أفندى[٦] لأعمال البناء ، وعبد الرحمن أفندى لأعمال الآلات والادارة ، ويستخدم تلميذان متخصصان فى هذه المواد لاعادتها . [٧]

وكان ذلك بدء استخدام المدرسين المصريين بمدرسة المهندسخانة . حتى

---

(١) من أعضاء بعثة سنة ١٨٢٦ إلى فرنسا.

(٢) توجه إلى أوروبا فى سنة ١٢٤١ فأقام بها تسع سنين ودخل مدرسة المهندسخانة الفرنسية وحازمنها الدبلوم ، وعاد إلى مصر فى سنة ١٢٥٠ فعين مدرسا بمدرسة الهندسة بالقناطر الخيرية ثم ببولاق وكان يعتبر (باشخوجة) على المدرسين المصريين بها. ثم لما أنشىء قلم الترجمة عين رئيسا لقسم ترجمة العلوم الرياضية به . وفى عهد عباس الأول عين مدرسا بمدرسة الخرطوم بالسودان تحت نظارة رفاعة بك رافع فأقام بها إلى أن توفى هناك . وله كتب فى حساب المثلثات والجبر وجر الأثقال والحساب . وتلقى عنه كثير من المهندسين المصريين .

(٣) بعد عودته إلى مصر قبل أن يتم علومه ألحق بمعية بيومى أفندى للأخذ عنه، وقد ارتكب جريمة عوقب عليها بالأشغال الشاقة .

(٤) وقد ألحق بعد عودته بمعية بهجت أفندى (باشا فيما بعد) الذى كان مديرا للمدرسة التجهيزية بقصر العينى ثم مديرا للمدرسة المدفعية بطرة .

(٥) ألحق عقب عودته بمظهر أفندى (باشا فيما بعد) الذى كان مديرا لمدرسة المدفعية بطرة.

(٦) ألحق عقب عودته ببيومى أفندى وقد وصل إلى وظيفة معاون المدرسة أى وكيلها .

(٧) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٥ ذى القعدة ١٢٥٢

اذا كانت السنوات الأخيرة من حكم محمد على استقلوا بالتدريس فيها دون الأجانب ، حتى لتعدّ منهم أكثر من عشرة ، وقد ذكر أسماء بعضهم تلميذهم « على مبارك » وحمّلهم ثناء جماً .[1] وقد درس فريق منهم فى فرنسا أو النمسا أو انجلترا ، واقتصر فريق آخر على الدراسة التى تلقاها بمدرسة المهندسخانة ، ثم عُـيِّنَ معيدا فمدرسا بها .

أصبح الأمل كبيراً إذن بعد سنة ١٢٥٢ (١٨٣٧) فى تقدم المدرسة ورفع مستواها ، بعد أن استبعد منها الضعفاء ونظمت الدراسة فيها على نحو يقرّبها مما نصت عليه اللوائح وقوى العنصر المصرى فى هيئة التدريس بها . إلا أن نتائج امتحانات المدرسة بعد أعوام ثلاثة لاتحقق هذا الأمل الكبير: فما زال مستوى الدراسة ضعيفا ، والتلاميذ فيها لا يرقون الى المستوى اللائق بالمهنة التى يراد إعدادهم للقيام بها ، حتى لقد أثبت الامتحان أن اثنين وستين تلميذاً « ليست لهم القابلية لدراسة العلوم الهندسية » ، ففُصلوا من المدرسة وألحقوا بالجيش أو بمدارس أخرى كالفرسان والعمليات . وعللت المدرسة ذلك بأن تلاميذ التجهيزية الملحقين بها لم يتموا مدة الدراسة التجهيزية (القانونية) ، فكان على مدرسة المهندسخانة قبل أن تبدأ بعلومها أن تتمّ لهم ما كان يجب على المدرسة التجهيزية أن تزوّدهم به ، حتى لقد نُظر إلى « قسم من المهندسخانة كأنه مدرسة تجهيزية » . ولهذا اكتظت المدرسة بالعلوم المختلفة ، فلم يتمكن التلاميذ من إتمام مقرراتها ، ومن هنا نشأ هذا

---

(١) نذكر منهم غير من ذكرنا إبراهيم سالم وسالم حسانين وخليفة حسين (وقد درس الكيمياء فى النمسا وخليل عبد الله (وكان معلما لترميم الآلات) وخلفه على أيوب ومنهم خليل حسن ومحمد الحكيم وعلى بدوى ومحمد مصطفى ومحمود أحمد ومحمد أبو سن وكان يدرس الجبر العالى مع طائل أفندى ، وسلامة إبراهيم الذى كان يدرس الهندسة الوصفية والظل والنظر وغيرها وحسن الورداني مدرس الرسم الشهير وعيسوى زهران وكان يدرس الفرنسية وقد فقد بصره أخيرا والسيد صالح مجدى وكان أيضا يدرس اللغتين العربية والفرنسية والترجمة ، وكان « عبد الوهاب أفندى » باشخوجة بها.

الضعف الذى لاحظته تقارير الامتحان على مستوى الدراسة بالمدرسة .

لهذا كان حقا لمدرسة المهندسخانة إذا أريد رفع مستواها ألا يلحق بها من التجهيزية إلا المتفوقون الذين نالوا قسطا كبيراً من الدراسة (الإعدادية) يمكّنهم من التوفر على دراسة العلوم الهندسية على أثر التحاقهم بالمهندسخانة ، ففصل المتأخرون وألحق بها نفر من تلاميذ التجهيزية المتفوقين ، ونظمت الدراسة ووزعت موادها على الفرق الثلاث . . . ورأى الديوان أنه «لم يبق هناك محل لانتحال الأعذار ، ويجب التنبيه على المعلمين والمعيدين فى مدرسة المهندسخانة بتدريس البرنامج المقرر بتمامه » .

على أن لامبير«Lambert»مدير المدرسة كان يرى فى ذلك حلا مؤقتا ، وكان يرى أن يتجه الجهد إلى رفع مستوى تدريس الرياضة فى المدرسة التجهيزية ، حتى إذا ألحق تلاميذها بالمهندسخانة كانوا أكفاء لمتابعة دروس الرياضة العالية . ولن يتم ذلك إلا إذا عين نفر من خريجى المهندسخانة مدرسين للرياضيات بالمدرسة التجهيزية . كما أن «لامبير» كان يرى فى تدبير وظائف لخريجى المدرسة ، تشجيعا لتلامذتها وتنشيطا لقرائحهم » ، فطلب تعيين بعضهم مدرسين بالمدرسة التجهيزية وبعضهم الآخر بقلم الهندسة بديوان المدارس أو معيدين بالمدرسة التى تعلموا بها . حتى إذا درسوا الفرنسية وأوغلوا فى دراسة المواد المتصلة بفنهم أفادوا التلاميذ بدروسهم وبالكتب التى يقومون على تعريبها ، [1] وكان من ذلك كله ثروة علمية زاخرة .

والراجح أن هذا كله قد ساعد على تقدم المدرسة ونجاحها فى تخريج عدد كبير من المهندسين والمدرسين المصريين وتعريب كثير من الكتب الرياضية. حتى إذا كانت سنة ١٨٤١ ومضت لجنة تنظيم المدارس تبحثها مدرسة مدرسة ،

---

(١) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) رقم ١٢٠٠ الى الباشمعاون فى ١٢ شوال ١٢٥٥

كانت « مدرسة المهندسخانة ببولاق » أكبر ما استرعى اللجنة من سائر المدارس بحسن نظامها وتقدمها وجدواها على النهضة المصرية ، « فلم تر من الحكمة أن تجعل هذه المدرسة أصغر وأشد اختصاراً مما هى عليه الآن . . . لأنه من البداهة أنه كلما تقدمت البلاد ازدادت حاجتها إلى المهندسين » ، ورأت — تمكيناً لها فى أسباب الرقى — أن تنزع منها التلاميذ الذين « لحظ عدم استعدادهم العلمى للتقدم » . فلم تُبْقِ بها إلا من حاز فى الامتحان درجتى « أعلى » و« عال » ، كما رأت أنه « لا ريب فى أن المهندسخانة مدينة بكل تقدمها هذا إلى دقة ناظرها وهمة أساتذتها ، غير أن معظم الفضل إنما يرجع إلى ترجمة المدرسين للدروس وإلى الاسراع فى طبع التراجم بمطبعة الحجر (وكانت ملحقة بمدرسة المهندسخانة) ثم جمعها فى كراسات وكتب . ولقد كانت كتب العلوم الرياضية التى فى متناول اليد من القلة والندرة ، وكانت ترجمتها من الاشكال والصعوبة بحيث لم يتيسر قبل اليوم تنشئة المهندسين الفحول على الوجه الصحيح الموافق لأسلوب فرنسا ، ولكن هاهو البكباشى محمد بيومى أفندى واليوزباشية أحمد طائل أفندى وإبراهيم رمضان أفندى وأحمد دوقلى أفندى وأحمد فائد أفندى يتولون بفضل بركات الخديوى ترجمة الدروس التى وكل إليهم تعليمها ، ثم لا يقفون عند حد الترجمة بل يطبعونها على الحجر ويجعلون منها كتباً وأسفاراً . والواقع أن الامتحان الأخير كان مشهداً لما جمعته هذه الكتب بين دفاتها من شتى العلوم » . (١)

وفى ذلك يقول « على مبارك » التلميذ بمدرسة المهندسخانة : « ولعدم وجود كتب مطبوعة فى هذه الفنون وغيرها إذ ذاك كان التلاميذ يكتبون الدروس عن المعلمين فى كراريس كل على قدر اجتهاده فى استيفاء ما يلقيه المعلمون . وكان المعلمون يومئذ يبذلون غاية مجهودهم فى التعليم ، فكان يندر أن يستوفى تلميذ فى كراسه جميع ما يلقى إليه ، خصوصاً الأشكال والرسوم .

(١) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) رقم ٥٦٥ الى شورى المعاونة فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٧

(وهذه الطريقة فى إلقاء الدروس هى طريقة المحاضرات) ، ولذلك كان الأمر إذا تقادم أو خرجت التلامذة من المدارس يعسر عليهم استحضار ماتعلّموه ، فكان يضيع منهم كثير مما تعلموه . وفى آخر مدة المهندسخانة كانوا يطبعون بمطبعة الحجر بعض كتب ، فاستعانت بها التلامذة وحصل منها النفع ، ثم تكاثر طبع الكتب شيئاً فشيئاً إلى الآن ، فصارت تطبع الفنون بأشكالها ورسومها ، فسهل بذلك تناولها واستحضار ما فيها » . (١)

وكان يقوم على إصلاح الدروس والكتب المعرّبة قبل طبعها عالم من أشياخ الأزهر ، (٢) ثم ينسخها «مبيّضون» بالمدرسة . (٣) وقد استلزم قيام المدرسة على تعريب دروسها وكثير من الكتب الرياضية تعيين مدرسين مصريين بها من خريجى مدرسة الألسن لتدريس الفرنسية لتلامذتها وترجمة دروسها ووضع قاموس أزمعت المدرسة وضعه فى العلوم الرياضية . (٤)

والراجح أن تقسيم المدرسة أقساماً ثلاثة : قسماً لتخريج مدرسين للرياضة وآخر لتخريج مهندسين للمصانع وقسماً ثالثاً لتخريج مهندسين للأشغال العامة لم يُحتفظ به إلى نهاية عصر محمد على : ففى العام الأخير من ذلك العصر كانت مدرسة المهندسخانة تنتظم خمس فرق ، (٥) وُزّعت بينها مواد الدراسة على النحو الآتى : (٦)

---

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية م ٣ ج ٩ ص ٤١

(٢) هو الشيخ إبراهيم الدسوقى — دفتر ٩٤ (مدارس عربى) ص ٣٩٦٣ رقم ٦٦٥ إلى المهندسخانة فى غاية رجب ١٢٦٣ ، وهو الذى صاحب مستر « لين » وقرأ معه كثيراً من الكتب العربية — على باشا مبارك : الخطط التوفيقية م ٣ ج ١١ ص ١٠

(٣) دفتر ٢٨ (مدارس عربى) ص ١١٠٦ إلى المهندسخانة فى ٧ ربيع الأول ١٢٦٢

(٤) دفتر ١٠ (مدارس عربى) ص ٩٩٤ رقم ١٩٥ إلى مدرسة الألسن فى غاية جماد ثان ١٢٦١ وكان منهم « السيد صالح مجدى » تلميذ رفاعة بك بمدرسة الألسن ومؤرخ حياته و « عبدالله أبو السعود » خريج الألسن أيضاً — الخطط م ٣ ج ١١ ص ٦٨

(٥) وقد ذكر على باشا مبارك أنه قضى بالمدرسة خمس سنين (الخطط م ٣ ج ٩ ص ٤١)

(٦) دفتر ٢١٢١ (مدارس تركى) ص ١٠٧ رقم ١١٣ إلى الباشا الكتخدا فى ٢٥ المحرم ١٢٦٤ — تقرير عن امتحان المدرسة فى سنة ١٢٦٣ .

الفرقة الأولى (النهائية) : ويدرس تلاميذها من علم الفلك لغـــاية الكواكب السيارة وعلم الجيودوزيا وعلم الخريطة الكبرى وعملها، ودرسوا من علم المبانى المسائل الخاصة بالقناطر والبرابخ والجمالون وتحسين المبانى ، وأتموا الجزء الثانى من اللغة الفرنسية ، ويتعلمون كلهم الرسم التخيلى .

الفرقة الثانية : أتم تلاميـذها علم الطبوغرافيا وعلم الخريطة وعلم الأدروليك وقطع الأحجار والكيمياء العمومية وأتموا الجزء الثانى فى الأجرومية الفرنسية ، وتعلموا من فن العمارات وصف المواد الأساسية المستعملة فى المبانى وتحضيرها ، وتعلموا رسم الأحجار كاملا ودرسوا طريقتين فى رسم العمارات .[1]

الفرقة الثالثة : أتم تلاميذها دراسة الظل والمناظر وقطع الأحجار ، ودرسوا من الميكانيكا العمومية لغاية التحركات النسبية وعلم التفاضل والتكامل وعلم الطبيعة لغاية الضوء ، ودرسوا من فن العمارات تنظيم الورش والأسواق ، ودرسوا الجزء الأول من الأجرومية الفرنسية ، وكلهم تعلموا رسم العمارات والأحجار والظل والنظر .

الفرقة الرابعة : درس تلاميذها علم التفاضل والتكامل ولغاية المتحركات النسبية من الميكانيكا العمومية ولغاية آخر الجبر الأعلى من علم الجبر (كذا) والجزء الثانى من الهندسة الوصفية ولغاية آخر الضوء من الطبيعة وجزءا من علم العمارات ورسم الهندسة الوصفية وبضع عمارات ، وقرأوا بضع محاورات فى اللغة الفرنسية .

الفرقة الخامسة : أتم تلاميذها دراسة الحساب ودرسوا المقالات الأربع

---

(١) وكان يسمح لتلاميذ المدرسة بدخول حدائق شبرا للرسم « حيث فيها قصوره (كذا) وفساق » — دفتر ١٢ (مدارس عربى) ص ٢٣٩٣ رقم ٣٥١ إلى مدرسة المهندسخانة فى ٢٤ جاد أول ١٢٦١ .

الأخيرة من هندسة لجاندر ودرسوا من ابتداء علم الجبر لغاية الحد غير المحدود . ودرسوا رسم النقش والخطوط وحفظوا مطالعة اللغة الفرنسية وبعض الكلمات الاصطلاحية .

تلاميذ المدرسة وخريجوها

نصت لائحة المدرسة فى سنة ١٨٣٦ على أن يكون تلاميذ المهندسخانة مائتين وخمسة وعشرين تلميذاً .[١] إلا أن المدرسة لم تتمكن من أن تستوفى هذا العدد فى تاريخها الطويل ، ويرجع ذلك إلى فقر المدرسة التجهيزية فى التلاميذ الذين أتموا علومهم. فقد كان عدد تلاميذ المهندسخانة فى سنة ١٨٣٧ ١٤٧ تلميذاً ،[٢] جهدت المدرسة حتى زادتهم إلى مائتين وستة .[٣] على أنها لم تستطع المحافظة على هذا العدد : فهبط مرة ثانية إلى ١٧٨ فى سنة ١٨٤٠ ، بل كان منهم عدد كبير أثبت الامتحان عدم استعدادهم لدراسة الهندسة فأخرجوا منها ووزعوا على جهات أخرى ، حتى لم يبق بالمدرسة إلا ١٢٠ تلميذا .[٤] ولم يلبث هذا العدد أن عاد يرتفع حتى زاد بعد عامين خمسين آخرين . ولكن لجنة تنظيم التعليم فى سنة ١٨٤١ رأت أن منهم كثيرين غير جديرين بالبقاء بها ، فأنقصت اللجنة عدد تلامذتها إلى ١٤٢ تلميذا .[٥] ولكن المدرسة لم تلبث أن خرّجت عددا كبيرا من تلامذتها ولم تشأ أن تأخذ تلاميذ لمـّا يستوفوا علومهم بالتجهيزية ، فعاد عدد التلاميذ يهبط بعد عامين إلى ثمانية وتسعين تلميذاً .[٦] وعلى الرغم من أنه عاد فارتفع حتى بلغ بعد أعوام

(١) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٩ ذى القعدة سنة ١٢٥٢

(٢) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٥ ذى القعدة سنة ١٢٥٢

(٣) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٩ ذى القعدة سنة ١٢٥٧

(٤) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) رقم ١٣٠٠ إلى الباشمعاون فى ١٢ شوال ١٢٥٥

(٥) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) رقم ٥٦٥ إلى شورى المعاونة فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٧

(٦) دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركى) س ٧١ رقم ٢١٤٥ إلى شورى المعاونة فى ١٢ ذى القعدة ١٢٥٩

ثلاثة مائة وعشرين،[١] إلا أنه هبط مرة أخرى حتى وصل قبيل نهاية عصر محمد على إلى خمسة وتسعين تلميذاً.[٢]

وقد أسست المدرسة على أن تخرّج فى كل عام خمسة وسبعين تلميذاً ليعملوا مدرسين بالمدارس أو مهندسين بالمصانع أو للطرق والجسور.[٣] ولكن قلة عدد تلامذتها لم تمكّنها من تخريج هذا العدد الكبير فى كل عام، فكانت تخرّج منهم عاما نحو الثلاثين وعاما آخر ثلاثة عشر أو ثمانية. وكانت الحكومة تبقيهم بعد تخرجهم عاما آخر بالمدرسة يزدادون فيه قوة وكفاية فى العلم، أو تبعث بهم الى القناطر الخيرية أو (الجفالك) حيث يمرنون على العمل.[٤]

والواقع أن مجال العمل أمام خريجى المدرسة كان متسعا: فقد كانت الحكومة تعين منهم نفراً بصحبة المعدّنين للبحث عن الذهب أو تعينهم بالمرصد الملحق بالمدرسة ليقوموا على رصد التغيرات الجوية، أو بالقناطر الخيرية للاشراف على عمليات إنشائها،[٥] أو تلحقهم بقلم الهندسة بالديوان لرسم الخرائط اللازمة.[٦] وكانت المدرسة ترسل بعض نابغى تلامذتها فى بعثات لدراسة الميكانيكا الى انجلترا، أو تعينهم معيدين بالمدرسة أومدرسين للرياضة بالمدارس الخصوصية والتجهيزية.[٧] أما مدرسو الحساب بالمدارس

---

(١) دفتر ٢٨ (مدارس عربى) س ١٠٣٧ رقم ١٧٥ إلى مدرسة الهندسخانة فى ١٧ صفر ١٢٦٢

(٢) دفتر ٢١٢١ (مدارس تركى) ص ١٠٧ رقم ١١٣ إلى الكتخدا فى ٢٥ المحرم ١٢٦٤.

(٣) Michaud et Poujoulat, Correspondances d'Orient, p. 514.

(٤) دفتر ٢٠٨١ (مدارس تركى) ص ٨٥ رقم ١٥٦٥ إلى شورى المعاونة فى ٢٨ شوال ١٢٥٨.
ودفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركى) ص ٧١ رقم ٢١٤٥ الى شورى المعاونة فى ١٢ ذى القعدة ١٢٥٩

(٥) دفتر ٢٧ (مدارس عربى) س ٦٣٦ إلى مدرسة الهندسخانة فى ٧ ذى الحجة ١٢٦١

(٦) دفتر ٩٩ (مدارس عربى) س ٢٧٧٧ رقم ٢٠٥ الى مدرسة الهندسخانة فى ١٣ جمادثان ١٢٦٤

(٧) دفتر ١١ (مدارس عربى) س ٤٠٥٤ رقم ٤٤٨ إلى ناظر المدرسة البحرية باسكندرية.
ودفتر ٢٨ (مدارس عربى) س ١١٠٦ رقم ١٩٣ الى مدرسة الهندسخانة فى ٧ ربيع أول ١٢٦٢.
ودفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) س ١٣٠٠ الى الباشمعاون فى ١٢ شوال ١٢٥٥
وإلى عهد قريب كان مدرسو الرياضة بالمدارس من خريجى الهندسخانة.

الابتدائية فكانوا يؤخذون من الراسبين فى امتحانات المهندسخانة ،[١] وكان هؤلاء المدرسون يستعينون فى تدريسهم بالكتب التى تقوم على تعريبها مدرسة المهندسخانة أو (بالكراسات) التى قيدوا بها الدروس التى تلقوها أيام كانوا تلامذة بها .[٢]

وكانت مدرسة المهندسخانة — باعتبارها المعهد الوحيد فى مصر لتدريس الرياضة — تشرف على امتحانات الرياضة بالمدارس الخصوصية والتجهيزية ، فكانت تبثّ نفرا من مدرسيها فى لجان امتحانات المدارس .

مديرو المدرسة

فى العام الأول من إنشائها (عام ١٨٣٤) لم يعين لها مدير ، بل اقتصر على وكيل يقوم على شأنها ، فعين « حكاكيان أفندى » — وكان يدرس بها الميكانيكا —[٣] وكيلا « حتى يحضر الأفندية اليها من أوربا » ،[٤] ثم رقى مديراً لها .[٥] وتذكر ترجمة لحياة « أرتين بك » أنه قام بتنظيم « مدرسة المهندسين التى نقلت الى بولاق فى قصر الأمير إسماعيل بك نجل محمد على وسميت مدرسة المهندسخانة ، ثم بعد ذلك بستة أشهر عُيِّنَ يوسف حكاكيان بك مديراً لهذه

---

(١) دفتر ٩٣ (مدارس عربى) ص ٩٧ رقم ١٦ الى مدرسة المبتديان فى ١٨ شوال ١٢٦٣

(٢) دفتر ١١ (مدارس عربى) ص ٥٤٠٤ رقم ٤٤٨ إلى مدرسة البحرية فى ١٣ ربيع الثانى ١٢٦١

(٣) دفتر ٧٣ (معية) فى ٢٣ شوال ١٢٥١

(٤) دفتر ٦٢ (معية) رقم ١٣٦ من الجناب العالى إلى أدهم بك فى ٤ جاد أول ١٢٥٠
ويقصد « بالأفندية » أعضاء بعثة سنة ١٨٢٦ الذين كانوا يدرسون الهندسة بفرنسا.

(٥) دفتر ٢٠١٠ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٧ المحرم ١٢٥٢ « القانون الداخلى للمدرسة الذى وضعه حكاكيان أفندى مدير المدرسة » — وهو « يوسف بك حكاكيان » الأرمنى الجنس — ذكر سمو الأمير عمر طوسون أنه أرسل إلى انجلترا لدراسة الميكانيكا ، ولما عاد التحق بخدمة الحكومة فى سنة ١٨٢٥ ثم عهد اليه بنظارة المهندسخانة (البعثات العلمية ص ١٠٦) وقد اشترك فى تنظيم التعليم فى سنتى ١٨٣٦ و ١٨٤١

المدرسة » . (١) ويتفق هذا مع ما ذكره أمين باشا سامى من أن «أرتين أفندى» كان وكيلا للمدرسة من مايو الى ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٣٤ ، ثم خلفه «حكاكيان أفندى» ناظرا من نوفمبر سنة ١٨٣٤ الى سبتمبر سنة ١٨٣٨ . (٢) إلا أن الوثائق التى بين أيدينا لا تذكر شيئا عن وكالة «أرتين أفندى» للمدرسة أو إشرافه على تنظيمها .

وفى سنة ١٢٥٢ (١٨٣٧م) طلب الى مسيو شارل لامبير «Charles Lambert» وكان (معاون مهندس) بديوان المدارس أن يذهب كل يوم الى مدرسة المهندسخانة ليعلم — فى ساعتين من كل يوم — التلاميذ الأربعة الذين عادوا من فرنسا قبل أن يتموا دراستهم . (٣) وبعد ذلك ببضعة شهور عين هؤلاء التلاميذ مدرسين بالمدرسة و «لامبير» مديرا لها بالاشتراك مع «حكاكيان أفندى» ، «فتكون دروس الطبيعة والكيمياء والخرائط تحت إدارة مسيو لامبير ودروس البناء تحت نظارة حكاكيان أفندى» . (٤) وكان هذا أول عهد «شارل لامبير» بادارة مدرسة المهندسخانة . وبعد ذلك بنحو ثلاثة أعوام نقل «حكاكيان بك» ناظرا لمدرسة العمليات ، واستقل «مسيو لامبير» بادارة المهندسخانة . (٥) وظل بها الى نهاية عصر محمد على ، وقد كانت له إذ ذاك جهود فى النهوض بالتعليم فى مصر : إذ أوفدته الحكومة المصرية الى انجلترا لدراسة مشروع نشر التعليم بانشاء مكاتب «الملة» على نحو ما ذكرنا . ولكنها كانت جهوداً لم يتح لها النضوج . وفى سنة ١٨٤٩ (١٢٦٦ هـ) أى فى أوائل حكم عباس باشا الأول عين «على

---

(١) Artin Pacha, Revue d'Egypte, II. 1895, p. 425—426.

(٢) أمين باشا سامى: تقويم النيل ج ٢ مقابل ص ٤٢٢ (كتبت هذه التواريخ تحت صورهم)

(٣) دفتر ٢٠١٥ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٦ جاد ثان ١٢٥٢

(٤) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٥ ذى القعدة ١٢٥٢

(٥) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) رقم ١٣٠٠ إلى الباشمعاون فى ١٢ شوال ١٢٥٥

مبارك » (بك) ناظراً للمدرسة وضُمَّت اليها مدرستا التجهيزية والمبتديان بالقاهرة ووضعت لها لائحة جديدة .[١] وقد استمرت المدرسة قائمة حتى إلغائها فى سبتمبر ١٨٥٤ .[٢]

وهكذا انتهت حياة هذا المعهد الجليل بعد عشرين عاما قضاها فى إمداد النهضة العلمية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر بكثير من مقوماتها : فاليه يرجع الفضل فى تخريج عدد كبير من المدرسين المصريين المتخصصين فى العلوم الرياضية ومن المهندسين المصريين الذين قاموا على ما تستلزمه النهضة الزراعية والصناعية والعمرانية من منشئات ، وإليه يرجع الفضل كذلك فى بعث النهضة العلمية الماثلة فى ذلك العدد الضخم من الكتب المؤلفة أو المعربة فى فنون الرياضة على اختلاف شكولها وفروعها .

وكان يتبع المهندسخانة المرصد أو « الرصدخانة » ، وإن كان فى مكان مستقل عنها .

« الرصـــــدخانة »

فى ١٨ رمضان سنة ١٢٥٥ صدر أمر « الجناب العالى » إلى « حكاكيان بك » مدير المهندسخانة بالشروع فى بناء « الرصدخانة » .[٣] وبعد قليل صرف النظر عن البناء ، ورؤى — اقتصاداً فى النفقات — إنشاؤها « فى البرج الذى أنشأه الفرنسيون فى جوار بولاق ... لكونه مرتفعا وصالحا لهذا الغرض » .[٤]

(١) دفتر ٢١٣٤ (مدارس تركى) ص ٨١ و ٢١٢ فى ١٤ و ٢٤ رجب ١٢٦٦

(٢) أمين باشا سامى : التعليم فى مصر — القسم الخامس من الملحقات ص ٤٧ . وكان المدرسة فى سنة ١٨٣٦ (ناظر) للشئون الادارية والكتابية يدعى « يوسف كاشف » وكان قبل ذلك ناظر مدرسة المعادن — دفتر ٢٠٠١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٧ ذى القعدة ١٢٥١

(٣) دفتر ٢٠٤٦ (مدارس تركى) ص ١٤٦ فى ٢٧ رمضان ١٢٥٥

(٤) دفتر ٢٠٤٦ (مدارس تركى) ص ١٥٣ فى ١٦ شوال ١٢٥٥ ودفتر ٢٠٥٤ (مدارس تركى) ص ١٦٢ فى ٢٠ شوال ١٢٥٥

والغرض من إنشائه ، تجربة الحركات المغناطيسية بهذا القطر وتطبيقها على الجارى برصدخانة بلاد أورباء .[١] وكانت به لهذا الغرض ساعة فلكية[٢] وقناديل وآلات غيرها ثمينة .[٣] وكان المرصد تابعا لمدرسة المهندسخانة لقربه منها من جهة ، وطبيعة وظيفته من جهة أخرى . وكان مدير المدرسة يشرف على موظفيه ويُعدُّ مسئولا عما به من آلات.[٤]

وكان تلاميذ الفرقة الأولى بالمهندسخانة يقيمون حيناً بالمرصد حيث يمرنون على استخدام الآلات التى به وإجراء الأرصاد الجوية .[٥] وكذلك كان موظفو المرصد من خريجى المهندسخانة ، وكانوا يمتحنون مع تلامذة المدرسة ، فتقوم لجنة الامتحان بالفحص عن أعمالهم ، ولها أن توصى بترقيتهم أو عقابهم .[٦]

المدارس الصناعيـــة

المصانع مدارس صناعية

كان محمد على يدرك أن استقلال البلاد السياسى لا يستكمل مقوّماته إلا إذا كانت البلاد مستقلة من الوجهة الاقتصادية ، أى أن يقل اعتمادها على الأجانب إلى أقل درجة ممكنة . فأنشأ المصانع ليلبس جنوده وشعبه أقمشة مصنوعة بأيد مصرية ، كما أنشأ المعامل لصنع الأسلحة والذخائر ، ودور

(١) دفتر ٢٤ (مدارس عربى) ص١٦٥٢ رقم ٥١ إلى قسم شبرا فى ١٦ جماد ثان ١٢٦٢
(٢) دفتر ٢٢ (مدارس عربى) ص٩٧٦ رقم ٣٤٣ إلى البنايات الميرية فى ١٦ ربيع أول ١٢٦٢
(٣) دفتر ٥٦ (مدارس عربى) ص ١١٨١ رقم ١٧٤ إلى مدرسة المهندسخانة فى ٢٥ ذى الحجة ١٢٦٢
(٤) دفتر ٣ (مدارس عربى) ص٨٧٩ رقم ٢٠٣ إلى الديوان الخديوى فى ٢٠ المحرم ١٢٦١
(٥) دفتر ٣١ (مدارس عربى) ص ٢٢٠٦ رقم ٣٩٤ الى المهندسخانة فى ٢٩ رجب ١٢٦٢
(٦) دفتر ٢١٢١ (مدارس تركى) ص ١٠٧ رقم ١١٣ إلى الكتخدا فى ٢٥ المحرم ١٢٦٤

الصناعة (الترسانات) فى القلعة والاسكندرية ليسلح جيشه وأسطوله بأسلحة مصنوعة فى مصر . ولما لم يكن فى مصر من أهل البلاد من يمكنه القيام على إدارة هذه المصانع إدارة فنية قوية استدعى الصناع من الأجانب. وكان يعهد إليهم مهمتين : إدارة العمل و تعليم عدد من الشبان المصريين فنهم. وكذلك أرسل محمد على عدداً كبيراً من المصريين إلى أوروبا ليحذقوا الصناعات فى مهدها ، حتى إذا عادوا إلى وطنهم قاموا على النهضة الصناعية بما تأمل الحكومة فيهم من فن وإخلاص .

غير أن النظام الصناعى فى مصر لم يقدَّر له من النجاح ما كان خليقاً بما بذلته له الحكومة من مال وجهد . وليس هنا مجال البحث عن أسباب ذلك ، وكل ما نرمى إليه هو أن المصانع التى أنشأها محمد على كانت (مدارس) لتعليم الصناعات التى أراد إدخالها فى مصر ، حتى لقد روى عنه أنه قال لمندوب الحكومة الانكليزية إن غرضه « تعويد المصريين على الصناعة وليس انتظار الربح ، ولذلك فهو مستمر فى طريقه برغم ما يلاقى من خسارة » . [١]

وقد سهل قيام المصانع بمهمتها (كمدارس صناعية) أنها كانت تحت إشراف ديوان المدارس .

وكان محمد على يتعجل اليوم الذى يلى فيه أهل البلاد شئونها ، فانه كان يخشى أن يكون صوابا ما ذكره أحد كبار الأجانب من « أن الأفرنج يبذلون جهدهم حتى لا يتعلم المصريون » . [٢] فكان يستدعى الصانع الأجنبى ويلحق به فريقا من الشبان المصريين ويتفق معه على وقت يتم فيه تعليمهم وعلى قدر من المال إذا أنجز (مهمته) فى الوقت المحدد . [٣]

وهذا لون جديد من التعليم يصح أن نسميه (التعليم بالمقاولة) ، وقد

---

(١) Bowring, op. cit. p. 30.

(٢) Ibid. p. 197.

(٣) الوقائع المصرية : العدد ٣١٦ فى ٨ جمادى الآخرة ١٢٤٧

كان شائعا إذ ذاك فى تعليم الصناعات .

وكما بذل محمد على المكافآت المالية حينا ومال الى العنف حينا آخر لجذب المصريين إلى المدارس التى أنشأ ، كذلك بذل أجوراً يومية واستعان بسلطة الحكومة لجذب المصريين الى الصناعة . ذكر « الجبرتى » فى حوادث إحدى السنين أنهم « جمعوا مشايخ الحارات وألزموهم بجمع أربعة آلاف غلام من أولاد البلد ليشتغلوا تحت أيدى الصناع ويتعلموا ويأخذوا أجرة يومية ويرجعوا لأهاليهم أواخر النهار » . (١) وكان محمد على يرغب فى رفع مستوى الصناعة والتعليم الصناعى فى مصر ، فأمر بالحاق فريق من تلامذة مدرسة قصر العينى بمصانع الحكومة ليتعلموا الصناعات تحت إشراف الصناع الأجانب . (٢)

ولا شك فى أن محمد على كان يقاسى كثيرا من إحجام المصريين عن تعلم الصناعات وعدم تقديرهم لمن يتعلمها ويشتغل بها ، فعمل على أن يزيل هذه العقبة بأن وعد الطلبة الذين يشتغلون بصناعتهم بأن يمدهم برأس مال كبير وبأن يؤدّى عنهم أجر المحل الذى فيه يعملون . (٣) وكان فى مناسبات كثيرة يظهر احترامه لأهل الصناعة ويجلس رؤساهم فى مجلس المشورة ، وهو المجلس الذى كان ينظر فى مختلف شئون الدولة ويرفع قراراته الى الوالى ، ويحلى صدورهم بالنياشين ويغدق عليهم من إنعامه ويمدّ لهم فى رعايته .

على أنه برغم هذا كله كانت الحكومة ترى أن المدارس « لتعليم القراءة والكتابة والعلوم وليست لتعليم الصنائع » ، وأن المصانع يجب أن تأخذ

---

(١) الجبرتى : ج ٤ ص ٣١٢

(٢) دفتر ٦١ (معية) رقم ٩٤ إلى خورشيد بك فى ٢١ ذى القعدة ١٢٥٠ ودفتر ٢٧ (مدارس عربى) ص ٧٦٥ رقم ٢٣٢ إلى مدرسة الألسن فى ٢١ المحرم ١٢٦٢ و Saint-John, op. cit. I. p. 403.

(٣) دفتر ١٤٥ (مجلس ملكية) ص ١٢ رقم ٥١ إلى مختار بك فى ٢٨ جماد ثان ١٢٥٢ و Pückler - Muskau, II. op. cit. p. 127.

كفايتها من التلاميذ المتأخرين فى دراستهم « بعد استرضاء أهاليهم » وإلا فمن « أولاد الفقراء » . [١]

وقد أنشأت حكومة محمد على مدارس صناعية يتعلم فيها التلاميذ مختلف الصناعات ، والغرض منها تخريج رؤساء من الصناع الحاذقين يحلون محل الأجانب تدريجا. ولكن أكثر هذه المدارس لم يقدر لها أن تعيش طويلا ، فقد أنشئت لتحقيق أغراض عاجلة دفعت إليها حاجة ملحة مؤقتة . ونستثنى من ذلك « مدرسة العمليات » التى كان لها تاريخ طويل حافل سنفرد له مكانا خاصا .

مدرسة الكيمياء

أنشئت فى سنة ١٨٣١ (١٢٤٧ هـ) بمصر القديمة . [٢] وكان تلامذتها أول إنشائها خمسة يعلمهم صانع أجنبى يدعى إيمو « Ayme » [٣] « صناعة أنواع الكيميا . . . وتعلموا اللغة الفرنساوية » . ثم ألحق بهم خمسة آخرون « ليتعلموا صناعة استخراج روح الجير » . [٤] فلما طلبت إليه الحكومة امتحان تلامذته لاختبار درجة تحصيلهم ، أجاب بأنه لا يوجد من يعرف صناعته وأن تلامذته فى غير حاجة للاختبار لأن ما اشتغلوه كاف كل الكفاية . [٥] « غير أنهم لم يتوصلوا الى استخدام روح الجير زيادة عن مائة درجة . . وفى شهر رمضان تعهد المسيو روشيه بتعليمهم حتى يمكنهم استخراج روح الجير أزيد من ذلك ، وأن يقوم بتعليم عشرة أنفس » . وقبل محمد على ذلك وأمره بتفهيم

(١) دفتر ٥ (مدارس عربى) ص ٢٥٩٥ رقم ١٤١ إلى مديرية البحرية باسكندرية فى ٤ جماد ثان ١٢٦١

(٢) الوقائع المصرية : العدد ٣١٦ فى ٨ جمادى الآخرة ١٢٤٧ — لا ما ذكره أرتين باشا من أنها أنشئت فى سنة ١٨٢٩ (١٢٤٥ هـ)

(٣) Douin, La Mission du Baron de Boisle Comte, p. 109.

(٤) الوقائع المصرية : العدد ٣٩٠ فى ٨ المحرم ١٢٤٨

(٥) الوقائع المصرية : العدد ٣٩٥ فى ٢٢ المحرم ١٢٤٨

الكيماوى المذكور أنه إذا أتم عمله وفق المطلوب يعطيه أربعة آلاف ريال فرنسى إكراماً له ، وبعد أن أكمل هذا الكيماوى عمله امتحن التلاميذ فى علم استخراج الأرواح المتنوعة بمعرفة أهل الخبرة ، فتحقق أن روح الجير الذى استخرجوه بلغ مائة وعشرين درجة ، وأن المعلم المذكور قد علم التلاميذ بكل مافى وسعه ، وأظهر ذلك صدق خدمته » . وعلى ذلك أمر محمد على بأن يؤدَّى إليه القدر من المال الذى اتفق عليه .(١)

ولسنا نعلم بعد ذلك شيئا عن « مدرسة الكيمياء » هذه ، سوى ماذكره « بولكومت » من أنها كانت موجودة فى سنة ١٨٣٣ وأن تلامذتها كانوا ثمانية .(٢)

مدرسة المعادن

كان محمد على دائب البحث عن المعادن فى مصر والسودان والشام . وقد أنشئت « مدرسة المعادن » لتخريج مهندسين يقومون على استخراج المعادن . أنشئت المدرسة بمصر القديمة فى بيت يسمى (قصر بنت البارودى) .(٣) وفى سنة ١٨٣٤ (١٢٥٠ هـ) أريد نقلها إلى « سلاملك المرحوم الدفتردار بك بالأزبكية لخلوه وتخلصا من المصاريف التى تلزم للبناء الآن » .(٤) وكان ناظرها مصرياً يدعى « يوسف كاشف » .(٥) وقد أدارها حينا من

(١) الوقائع المصرية : العدد ٢١٦ فى ٨ جمادى الآخرة ١٢٤٧

(٢) Douin, op. cit. p. 38.

(٣) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية م ٣ ج ١١ ص ٦٨

(٤) أمين باشا سامى : تقويم النيل ج ٢ ص ٤٣٣

(٥) أمين باشا سامى : التعليم فى مصر — القسم الخامس من الملحقات ص ٤٥ وبعد ضم مدرسة المعادن إلى المهندسخانة ببولاق عين يوسف كاشف هذا ناظرا لمدرسة المهندسخانة للشئون الادارية . ويقول رفاعة بك رافع إن محمد على « جلب من فرنسا معدنجيا شهيراً بعلم المعادن وهو مسيو ليفبره ، كان سبق استخدامه فى مدرسة المعادن المصرية » ، وقد صحب محمد على فى سفره إلى السودان للبحث عن الذهب ، ومات بالحمى بعد عودته إلى مصر . (مناهج الألباب ... ص ٢٥٦ ، ٢٦٠)

الزمن « لامبير » الذى آلت إليه بعد ذلك إدارة مدرسة المهندسخانة . [١]

وكان بالمدرسة عشرون تلميذا ، أرسل فريق منهم إلى سوريا والنمسا لإتمام دراستهم . [٢]

ولكن مدرسة المعادن لم يقدَّر لها أن تعيش إلا عاما أو بعض عام : إذ ضُمت هى ومدرسة المهندسين بالقناطر الخيرية إلى مدرسة المهندسخانة ، وكان ذلك فى شوال سنة ١٢٥١ (١٨٣٦) . [٣]

مدرســـــة العمليــــــات

عزمت الحكومة فى سنة ١٨٣٧ (١٢٥٢هـ) على إنشاء مدرسة «للعمليات» أو الفنون والصناعات ، وشرعت تعدُّ لها مكانا فى الأزبكية . [٤] ولكن هذه الفكرة لم تنفذ إلا بعد ذلك بأكثر من عامين ، واتخذ لها مكان فى بولاق . [٥]

تلاميذ المدرسة ومواد الدراسة

وكان تلاميذها أول افتتاحها خمسين موزعين بين ثلاث حرف ميكانيكية ، ويدرسون كذلك بعض العلوم . ثم تقدمت الدراسة بها : فأصبح يدرس بها كثير من الصناعات كالخراطة والبرادة والحدادة والنجارة وأشغال البواخر وغيرها ، وبعض العلوم كالكيمياء والميكانيكا . وكان بالمدرسة فرقتان وقسم لصناعة آلات الجراحة وآخر للحفر .

فتلاميذ الفرقة الأولى منهم من يدرس الاستحكامات ومنهم من يدرس المعادن أو النجارة أو الخراطة . ومن تلاميذ الفرقة الثانيـة من يدرس

---

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية م ٣ ج ١١ ص ٦٨

(٢) Holroyd, Egypt & Mohammed Ali Pacha, p. 9.

(٣) دفتر ٧٣ (معية) فى ٢٣ شوال ١٢٥١

(٤) دفتر ١٤٥ (مجلس ملكية) ص ١٢ رقم ٤٨ إلى مختار بك فى ١٨ جماد أول ١٢٥٢

(٥) دفتر ٢٠٤٤ (مدارس تركى) ص ١٢٠ إلى الباشا الوكيل فى غاية ذى الحجة ١٢٥٤

الاستحكامات الخفيفة والكيمياء أو الرسم (وقد وضعوا خريطة لحى بولاق)، ومنهم من يتوفر على النجارة أو البرادة أو الحدادة أو الخراطة أو الرسم أو أشغال البواخر. أما تلاميذ فرقة الحفر فكانوا يعلّمون الرسم التصويرى والحفر ورسم البواخر على النحاس ويمرنون على صنع باخرة «قوة ٣٥ حصاناً». [١]

كانت الصبغة العملية إذن غالبة على برنامج الدراسة، فكان التلاميذ يقضون الشطر الأكبر من وقتهم فى المدرسة فى تعلم الصناعات المختلفة والمران عليها، ويؤيد هذا أن الحكومة كانت تنظر إليها «كمحل عمل» أو «كورشة»، [٢] يصنع فيها ما تحتاج إليه الحكومة من آلات للجراحة وأشغال للوابورات وغيرها، وكان «الجناب العالى» يزورها ويتفقد مصنوعاتها ويوصى بحسن القيام على صنع مصنوعات الحكومة مع الاقتصاد فى النفقات. [٣]

لهذا لم تدقق الحكومة فى اختيار تلاميذ مدرسة العمليات، فكانت تأخذهم من الراسبين فى امتحانات مدرسة المهندسخانة، [٤] وذلك لما رأته من تشابه طبيعة العمل بعض الشىء فى كلا المعهدين، حتى لقد كان كل تلاميذ العمليات فى سنة من السنين — ما عدا تلاميذ ورشة الجراحة — من تلامذة المهندسخانة القدماء. [٥] ورأى ناظرها أن هذا ليس مما يعين المدرسة على التقدم فطلب أن يلحق بها ستة عشر تلميذاً من تلامذة المهندسخانة «الممتازين على أقرانهم». [٦]

ولما كان ينظر الى مدرسة العمليات «كمحل عمل»، فقد كان المتبع أن يظل المتقدمون من التلاميذ مشتغلين بصناعاتهم فيها لئلا ينسوا ما تعلموه،

(١) دفتر ٣ (مدارس عربى) س ٧٩٤ رقم ٢٧ إلى كتخدا باشا فى ١٩ جماد ثان ١٢٦١
(٢) دفتر ٢٠٨١ (مدارس تركى) س ٩٥ رقم ١٦٢١ إلى شورى المعاونة فى ٨ ذى القعدة ١٢٥٨
(٣) دفتر ٢٠٨٠ (مدارس تركى) س ١٠٤ رقم ١٣ من مدرسة العمليات فى ٤ ذى الحجة ١٢٥٨
(٤) دفتر ٢٠٠٨ (مدارس تركى) رقم ١٣٠٠ إلى الباشمعاون فى ١٢ شوال ١٢٥٥
(٥) دفتر ٢٠٨١ (مدارس تركى) س ٩٥ رقم ١٦٢١ إلى شورى المعاونة فى ٨ ذى القعدة ١٢٥٨
(٦) دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركى) س ٦٠ رقم ١٩٩٣ إلى شورى المعاونة فى ٢٥ شوال ١٢٥٩

و كان يندر خروجهم منها ، إلا أن منهم من يبقى فى المدرسة « تحت الطلب » ، على أن يخرجوا كلما طلبوا « بوظيفة معاون » للمهندسين فى أشغال البواخر أو فى وضع خرائط لبعض المديريات وتنظيم جسورها ، [١] أو معاونتهم فى أعمال القلاع والحصون . [٢]

ولكن رغم هذا كله كانت مدرسة العمليات تعدّ « مدرسة خصوصية » ، [٣] ويمنح تلاميذها مرتبات تلاميذ المدارس الخصوصية الأخرى ، وقد تزيد عليها ، ويطلب لخريجيها رتبة الملازم الثانى . [٤]

على أن عدد تلامذة المدرسة كان ضئيلا : فقد كان عند افتتاحها فى سنة ١٨٣٩ خمسين تلميذا ، ثم جعل فى لوائح سنة ١٨٤١ اثنين وأربعين ، ثم أخذ يتناقص حتى بلغ بعد عامين أربعة وعشرين . [٥]

تحويلها إلى « ورشة »

وفى سنة ١٨٤٤ تراءى للحكومة أن تعيد النظر فى نظام العمل « بمدرسة العمليات » حتى يحقق ما تبغيه بإنشائها من تعليم التلاميذ الحرف والصناعات وصنع بعض ما تحتاجه الحكومة فى أقل ما يمكن من الزمن وبأقل ما يمكن من النفقات : فشكلت لهذا الغرض لجنة من إبراهيم باشا وبعض كبار الموظفين . وبعد أن توفرت اللجنة على الدرس أشارت بإعطاء مدرسة العمليات « مقاولة » إلى متعهد . ولما فوض المهندس « تيلر » — والراجح أنه كان مهندسا انجليزيا فى خدمة محمد على — فى أمر إحالة المدرسة إلى عهدته أجاب : « يمكننى إدارة المدرسة المذكورة لمدة ستة أشهر ، أبرز فيها تقدما

(١) دفتر ٢٠٨١ (مدارس تركى) س ٩٥ رقم ١٦٢١ إلى شورى المعاونة فى ٨ ذى القعدة ١٢٥٨
(٢) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) رقم ٥٦٥ إلى شورى المعاونة فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٧
(٣) دفتر ٩ (مدارس عربى) س ٦٤٧ رقم ١٠٦ إلى مدرسة الألسن فى ١٠ ذى القعدة ١٢٦٠
(٤) دفتر ٢٠٨١ (مدارس تركى) س ٩٥ رقم ١٦٢١ إلى شورى المعاونة فى ٨ ذى القعدة ١٢٥٨
(٥) دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركى) س ٦٠ رقم ١٩٩٣ إلى شورى المعاونة فى ٢٥ شوال ١٢٥٩

محسوسا، وأدير فى هذه المدة أشغالها وألاحظ إتقان مصنوعاتها، وأخرج هذه المصنوعات بتكاليف أقل من التكاليف التى كانت تنتج بها فى عهد إدارتها من طرف الحكومة، ويمكننى أن أبذل جهدى حتى يتقدم التلاميذ الذين يدرسون الصناعات بمدرسة العمليات أكثر مما تقدموا فى السنين الماضية. ولكن يجب الآن امتحان التلاميذ بمعرفة ديوان المدارس فى الصناعات كى تعلم درجة مهارتهم ومدى معلوماتهم الحالية. حتى يعرف عند انتهاء المدة المحددة إن كانوا تقدموا أم لا .....».

وأجيب المهندس «تيلر» إلى ما طلب، فألغيت المدرسة وحُوِّلت الى «ورشة»، ونصب «تيلر» ناظرا عليها، ووزع كثير من تلامذتها على جهات أخرى: فالتلامذة «الحجارة» أرسلوا إلى ديوان الأبنية، وتلامذة «الحفر» إلى دار الطباعة، وضُم الباقون إلى عمال «الورشة»، فأصبحوا «شغالة لا يقرءون العلوم»، وعوملوا معاملتهم: فكانوا يبيتون بمنازلهم ليلا ويحضرون إلى (المدرسة) صباحا، وفصل بعض موظفى المدرسة ونقل غيرهم إلى مصالح أخرى، واستغنى عن كثير من آلاتها، وخاصة تلك التى كانت تتعلق بمواد دراسية كالكيمياء وغيرها، إذ أرسلت إلى مدارس أخرى.[١]

ولكن على الرغم من ذلك ظلت تسمى أحيانا «مدرسة العمليات»، إما محافظة على اسمها القديم أو تقديرا لغرض من أغراضها وهو تعليم نفر من التلاميذ فنونا من الحرف والصناعات. وظلت — مع كونها «ورشة» تنفق أكبر جهدها فى صنع وإصلاح ماتبغى الحكومة من عدد وآلات — مقسمة فرقا، ويمنح بعض خريجيها رتبة الملازم الثانى.[٢]

ولسنا نعرف على وجه التحقيق ماذا كان مصير (تعهُّد) المهندس «تيلر»،

---

(١) دفتر ٨ (مدارس عربى) ص ٢٥١ و٢٥٤ و٢٧٢ فى رمضان ١٢٦٠

(٢) دفتر ٢٤ (مدارس عربى) ص ١٦٩٢ رقم ٤٧٩ إلى الديوان الخديوى فى ١٩ جماد ثان ١٢٦٢

إنما الذى نعرفه أن مهندسا انجليزيا يدعى «مسترجون ما كنتون» قد خلفه على نظارة «ورشة» العمليات فى سنة ١٨٤٧ (١٢٦٣ هـ)، [١] وأن الحكومة — حكومة إبراهيم — عادت فى أوائل سنة ١٢٦٤ (١٨٤٨ م) فقررت «ترتيب تلاميذ لتحصيل العلوم والصناعات بالعمليات وستكون مدرسة مستقلة»، [٢] أى أن تعود مدرسة مرة أخرى.

ولكن ذلك الأمل لم يتحقق : فى أوائل حكم عباس الأول صدر الأمر «بعدم تبعية ورشة العمليات لديوان المدارس وعدّها ورشة تشغيل». [٣]

(١) دفتر ٩٣ (مدارس عربى) ص ١٠١ رقم ٧٧ إلى ورشة العمليات فى ٢٠ شوال ١٢٦٣
(٢) دفتر ٢١٢١ (مدارس تركى) ص ١٠٧ فى ٢٤ المحرم سنة ١٢٦٤
(٣) دفتر ٢١٢٦ (مدارس تركى) ص ٨٢ فى ٢٤ ربيع ثان ١٢٦٥

الفصل الثالث

المدارس الحربية والبحرية

كان محمد على يعتقد – بحق – أن تكوين قوة برية وبحرية عظيمة مما يجب أن تنصرف إليه أقصى جهوده، إذ هى العامل الأول لتوطيد حكمه فى مصر واضطراد الاصلاحات التى بدأها واستقرار علاقاتها بالدولة العثمانية. ورأى كما رأى سلاطين تركيا فى ذلك الوقت – وكما رأى بطرس الأكبر قيصر روسيا من قبل – أن هذه القوة الحربية يجب أن تنظم على الطرق الأوربية الحديثة. ولم يكن يهمه «نوع» الجند الذى يكون منه «النظام الجديد» بقدر ما كان يهمه «نوع» التدريب الذى يؤخذون به. فحاول أن يطبق النظم الحربية الأوربية على جنده الألبانيين، فرفضوا وثاروا عليه فى سنة ١٨١٥، ولم يهدأوا إلا حين أخذهم محمد على باللين، ووعدهم بأن لا يغير من النظام الذى نشأوا عليه.

ولكنه لم ينثن عما عزم عليه، وتربص الفرصة المواتية، حتى إذا واتته بدأ يعمل بشىء من الحذر وعلى أساس جديد: وهو تكوين «ضباط» مدربين على أيدى ضباط من الأجانب، حتى إذا تمّ إعدادهم – وقد اختارهم من عنصر يضمن خضوعه له – قاموا هم بدورهم على تدريب الجيش الجديد. وكانت خطة حكيمة أثبتت الأيام نجاحها. بدأ محمد على باستخدام ضابط فرنسى – من جيش نابليون – هو «الكولونيل سيف» «Sève» لتكوين فرقة من الضباط والمعلمين العسكريين لجيشه الجديد الذى فكر فى تكوينه من أهل السودان.

مدرسة أسوان

وجمع « لسيف » ألف من مماليك محمد على وكبار الموظفين والقواد . ورغبة فى عزلهم عن أنظار الجمهور عينت لهم مدينة أسوان، لينشئوا بها أول مدرسة حربية لتخريج الضباط . وألحق بالكولونيل سيف نفر من الضباط الايطاليين لمعاونته .

وبُنيت فى أسوان ثكنات عسكرية وأنشىء مركز صحى وهيئة صحية لتشرف على صحة الجنود والضباط . وقد قابلت « الكولونيل سيف » فى بدء عمله صعاب جهد فى التغلب عليها: فقد لقى صعوبة كبيرة فى جعل تلاميذه — ولم يألفوا الحياة العسكرية بعد — يحافظون على النظام والرزانة أثناء التدريب العسكرى ، حتى لقد شرع أحدهم مرة فى اغتياله ، ولم ينفعه إلا ثباته وشجاعته وما بدا منه من رحمة ورفق بهم . وقد يرجع هذا إلى ما ذكرنا من أنهم لم يكونوا قد ألفوا الحياة العسكرية بمـــا تستلزمه من طاعة ونظام . على أن « الكولونيل سيف » كان يرى أن لدينه دخلا فى ذلك ، وحمله حرصه على نجاح جهوده إلى تغيير دينه ، فأسلم وتسمى باسم « سليمان » . وكان يدعى أولا « سليمان أغا » ثم « سليمان باشا الفرنساوى » فيما بعد . وقد سُطرت له على صفحات النهضة المصرية العسكرية فى القرن الماضى ذكرى خالدة : فقد كانت له اليد الطولى فى تكوين الجيش المصرى الجـديد والإشراف على المدارس الحربية التى أنشئت لتغذية هذا الجيش بالضباط ، وقد رافق إبراهيم باشا فى كثير من حروبه ، وإليـه يرجع نصيب كبير من الفضل فيما أحرزه الجيش المصرى من انتصارات على قوات الباب العالى .

مدرسة إسنا

ولـكن أسوان لم تكن ملائمة للدراسة العسكرية : فبُعْـدها يجعل الإقامة

بها شاقة والمواصلات إليها صعبة ، وكانت الحرارة تشتد بها وتكثر أمراض الرمد .[١] ولذلك نقلت المدرسة الحربية من أسوان إلى إسنا ، وانتقل معها أيضاً « سليمان أغا » ، « لتعليم مماليكنا الأغوات المقيمين فى إسنا الفنون الحربية ، ومعه أحمد أفندى وهو من الرجال الفنيين، وإن بذل مافى قدرته لترجمة بعض الكتب المتعلقة بالفنون الحربية فان ذلك يكون موجبا لسرورنا » .[٢]

وكان محمد على يوالى هذه المدرسة بعظيم عنايته .فيداوم السؤال عما بلغه تلاميذها من التقدم فى علومهم ، ويرسل إليهم أحيانا ابنه إبراهيم باشا ويطلب إليه « أن يدقق النظر فى الفنون والمعارف التى حصل عليها الأغوات الغلمان، وبأن يقوم بتحرير دفتر بأسماء من يكونون فى درجة واحدة فى الفنون والمعارف وأن يبذل ثمين الهمة فى إرساله إلينا ، لنعلم منه أحوال كل منهم كأننا رأيناهم رأى العين» .[٣] وكان محمد على دائم الاطلاع على أعمالهم عامة و (خطهم) خاصة . وكانوا مقسمين أربعة أقسام : اختص قسم منها بكتابة خط الثلث ، وقسم بخط الرقعة ، وقسم بالإملاء ، وقسم بالألقاب (كذا) . والناجح من تلاميذ القسم الأول ينقل إلى القسم الثانى والثانى إلى الثالث وهكذا .[٤] وبذلك كان تعليم التلاميذ المدنى لايعدو الخط والإملاء . وهذا ما حمل محمد على على أن يطلب إلى القائمين على شأن المدرسة أن يقرءوا لتلاميذهم كتبا فى التاريخ حتى تزداد قدرتهم على « تكوين الكلام » .

ونجح « سليمان باشا » فى تخريج الضباط الجدد ، فأقبلوا بدورهم يدربون جنود الجيش الجديد من السودانيين أولا ثم من المصريين ثانيا .

وليس هنا مجال الحديث عن الأثر الكبير الذى أحدثه تكوين الجيش.

(١) Planat, Hist. de la Régénération de l'Egypte, p. 33.

(٢) دفتر ٦ (معية) رقم ٢٩٤ فى رمضان ١٢٣٦

(٣) دفتر ٦ (معية) رقم ٦٢٥ فى ٩ ذى القعدة ١٢٣٦

(٤) دفتر ٩ (معية) رقم ٢١٣ إلى كريم أفندى معلم الأغوات الغلمان فى ١٦ ربيع أول ١٢٣٧

المصرى فى البلاد وقيامه على (حراسة) التغيرات العظيمة التى أدخلها محمد على فى مرافق البلاد السياسية والاقتصادية والتعليمية . على أنا لا يجب أن ننسى أن تكوين الجيش كان أعظم العوامل فى بثّ العناية بالتعليم فى ذهن محمد على ، وخاصة فى عهد النشأة الأولى للمدارس .

واستمرت « مدرسة إسـنا » الحربية قائمة على تخريج الضباط لفرق الجيش التى تتزايد يوما بعد يوم . ومن إسنا نقلت إلى إخميم ثم النخيـله (بقرب أسيوط) . وأخيراً استقر معسكر التـدريب — أو المدرسة الحربية — فى الخانقاه ، وكانت بقرب القـاهرة مركزاً حربياً قوياً يحمى عاصمة البلاد وفرعى النيل .[١]

وتتحدث عنها فى عهدها الأخير وثائق ذلك العصر والوقائع المصرية باسم « مدرسة الجهادية » . ولـكنها لا تستمر قائمة حتى تنظيم التعليم فى مصر فى سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧ ، بل إنها تختفى من الوثائق قبل ذلك ببضع سنين . والراجح أنها ألغيت وقنعت الحـكومة بالمدارس الحربية الأخرى : وهى مدارس المشاة والفرسان والمدفعية .

مدرسة « أركان الحرب »

وهى مدرسة حربية أخرى عاشت ردحا من الزمن وكان نصيبها أيضاً الإلغاء قبل تنظيم التعليم .

أنشئت « مدرسة أركان الحرب » بقرية جهادأباد (بقرب القاهرة ؟) بناء على مشورة « عثمان نور الدين أفندى » أحد النابغين من أعضاء البعثات الأولى إلى فرنسا .[٢] وقام على تأسيسها الضابط الفرنسى « بلانا » «Planat» . وبدأت الدراسة بها فى ١٥ أكتوبر ١٨٢٥ . وأقيم للمدرسة بناء جميل وبنيت منازل على

---

(١) Planat, op. cit. p. 33.

(٢) Jomard, L'Ecole Egyptienne à Paris, Jour. Asiatique, II. p. 113.

النسق الأوربى لكبار الضباط ، فأخذت قرية جهادأباد مظهر قرية أوربية كبيرة.

وكانت نواتها الأولى ثمانية عشر ضابطاً ، وكان « بلانا » مؤسسها يقوم بقسط كبير من التعليم ويعاونه بعض المدرسين الأوربيين والشرقيين . وقد نوه مؤسسها بما لقيه وزملاؤه من الصعاب ككسل الضباط الأتراك ،[١] وتشبثهم بما يرونه من المعتقدات الدينية وكرههم للأجانب واختلاف لغتهم عن لغة أساتذتهم ، وأخيراً (تهذبت) طباعهم وأقبلوا على التعلم .[٢] وكانت مدة الدراسة ثلاث سنوات ، وزعت بينها مواد الدراسة كما يلى :

السنة الأولى : الحساب والرسم والطبوغرافيا واللغة الفرنسية ومبادىء المدفعية وتعليم الجنود .

السنة الثانية : الهندسة والاستحكامات المؤقتة والطبوغرافيا والتجنيد واللغة الفرنسية وتعليم الأورط .

السنة الثالثة : حساب المثلثات والاستحكامات الدائمة ورسم الخرائط واللوائح الحربية واللغة الفرنسية ووضع الخطط الحربية .

وكان فى نية منشئها زيادة مدة الدراسة سنة رابعة يدرس فيها التلاميذ الطبيعة والكيمياء والحساب والجغرافيا والتاريخ .

وكان الضباط الذين يتخرجون فى هذه المدرسة يعينون « أركان حرب » فى الوحدات الهندسية فى الجيش أو فى المدفعية أو فى المناجم أو فى الإدارة الحربية أو المدنية .[٣]

(١) وقد ذكر كدالفين Cadalvène أن الطلبة لم يكونوا يعنون بالدروس وكانوا يتحدثون ويدخنون أثناء الدرس: Cadalvène, op. cit. I. p. 185.

(٢) Planat, op. cit. p. 93—95.

(٣) Ibid. p. 363—365. — لا نجد لمدرسة أركان الحرب ذكراً فى وثائق ذلك العصر ولعلها لم تعش طويلا أو لعلها « مدرسة الجهادية » التى سبقت الاشارة إليها . ويقول رفاعة بك رافع : « وعدد تلامذة مكتب الرجال فى الخانقاه نحو مائتى تلميذ ، وكان لا يقبل فى مكتب الرجال أى أركان حربية إلا الترك والمماليك ثم انضم إليهم أبناء العرب » — مناهج الألباب ... ص ٢٤٧

تعليم الضباط والجنود

على أن الحكومة لم تهمل تعليم ضباط الجيش ممن لم يتخرجوا فى المدارس الحربية : فكانت تأخذهم بتعلم القراءة والكتابة والتمرينات العسكرية ، وترسل إليهم من يمتحنهم من وقت لآخر ، وتجعل الامتحان مقياس الترقى بينهم . وكان من هؤلاء الضباط أفراد بلغوا رتبة (الميرمران) ولكنهم يجهلون القراءة والكتابة والفنون العسكرية .[1] ومنهم من كان يطالب معلما يلقنه إياها .[2] وكان محمد على يسر أعظم السرور إذا علم بنبوغ بعض الضباط ويعدُ ذلك « فألا حسنا للمستقبل » ، ويبادر بتعيينهم فى الجيش والاستغناء عن خدمة الضباط الأجانب .[3] « وكان قصد جنابه العالى من الالتجاء الى تعيين الضباط المصريين النابغين فى وظائف التعليم ليس الاقتصاد فى أموال الحكومة فحسب ، بل الفخر الذى سيعود على الحكومة من جراء ذلك » ، وكان يطلب الى ذوى الرأى أن يعملوا لتحقيق أغراضه « مراعاة لشرف الحكومة والأمة » .[4]

كذلك لم تهمل الحكومة تعليم جنود جيشها : فألحقت (مدارس) بفرق الجيش ووحدات الأسطول ، يتعلم فيها جنود البر والبحر القراءة والكتابة والحساب ، وكانت الحكومة تشجع المتفوقين منهم بترقيتهم قبل أقرانهم.[5]

* * *

وثمة مدارس حربية أنشئت قبل سنة ١٨٣٦ وقدّر لها الحياة إلى نهاية عصر محمد على وبداية عصر عباس : وهى مدرسة المشاة (البيادة) والمدفعية

---

(١) دفتر ١٦٩ (معية) رقم ٢١ إلى مصطفى باشا فى ٢٣ رجب ١٢٤٩

(٢) الوقائع المصرية : العدد ٤٢٢ فى ٢ ربيع ثان ١٢٤٨

(٣) دفتر ٤٧ (معية) رقم ٥٤٥ إلى ناظر الجهادية فى ١٢ جماد ثان ١٢٤٩

(٤) دفتر ٤٧ (معية) رقم ٣٠٣ إلى ناظر الجهادية فى ٥ المحرم سنة ١٢٤٩

(٥) Saint - John, op. cit. II. p. 405.

(الطوبجية) والفرسان (السوارى) . وقد أصابت من التنظيم ما لم تصبه (زميلاتها) : فلوائح سنة ١٨٣٦ قد زادت عدد تلامذتها وأكثرت من الوظائف الفنية والإدارية بها ونقلت إدارتها من ديوان الجهادية إلى ديوان المدارس . ونكتب هنا عنها جميعا « كلمة عامة » نفصلها بعد .

كان أكثر تلاميذ المدارس الحربية أول إنشائها من الترك والغلمان المماليك ، ثم أخذ العنصر المصرى يزداد بها حتى أصبح تلاميذها جميعاً من أهل البلاد .

وكانت المدارس الحربية تستمد تلامذتها — كغيرها من المدارس الخصوصية — من المدرسة التجهيزية بالقاهرة أو من المدرسة البحرية التجهيزية بالاسكندرية أو من المكتب العالى بالخانقاه . ولكن هؤلاء التلاميذ لم يكونوا فى غالب الأمر قد أتمُّوا دراستهم التجهيزية ، فقد رأينا أن الحاجة كانت تضطر الحكومة إلى إلحاق تلاميذ من التجهيزية بالمدارس الخصوصية قبل أن يتموا دراستهم . وسنرى أن برامج التعليم بالمدارس الحربية — وخاصة برامج اللغات والرياضة — كانت لا تعلو على برامج التجهيزية كثيراً . والواقع أنه لم يكن يراعى فى الملتحقين بالمدارس الحربية قسط كبير من التفوق ، بل كان منهم الراسبون فى امتحانات المدارس الخصوصية الأخرى ، على أن يكونوا كبار السن أصحاء الجسم . وقد ألحق بها حينا تلاميذ من « المبتديان » لم يصيبوا من الدراسة سوى القراءة والكتابة ومبادىء الحساب .[١] بل لقد تقدم إلى مدرسة البيادة آباء يودُّون إلحاق أبنائهم بها ، وكل زادهم من العلوم معرفة القراءة والكتابة .[٢]

على أن هذه المدارس لم تلبث بعد أن استقر التعليم التجهيزى — ولم

---

(١) دفتر ٢٨ (مدارس عربى) ص ١١١ رقم ٢٨٥ إلى مدرسة السوارى فى ٦ ربيع الأول ١٢٦٢

(٢) دفتر ٩٧ (مدارس عربى) ص ١٨٦٧ إلى مدرسة البيادة فى ٢ ربيع الثانى ١٢٦٤

يكن ذلك فيما نرى قبل سنة ١٨٤٥ أى بعد سنوات أربع من إعادة افتتاح المدرسة التجهيزية وضمها إلى مدرسة الألسن — أن أكثرت ، وعمقت ، مواد الدراسة فيها . وسنرى أن بعض هذه المدارس — وخاصة المدفعية — كان يأخذ تلاميذه بقسط ليس بضئيل من الرياضة ، كما أن اللغة الفرنسية احتلت أخيراً مكانا فى برامج الدراسة للضباط وفريق من التلاميذ .

وقد أصاب مدرستى الفرسان والمدفعية فى «ترتيب سنة ١٨٤١» ما أصاب غيرها من المدارس الخصوصية : فأنقص عدد تلاميذها بما يتفق وقدرة البلاد المالية وقوتها العسكرية . وكانت كل مدرسة حربية مستقلة عن غيرها ، إلا أن « سليمان باشا » كان ناظراً عاما عليها ، وأحيل إليه « التفتيش عن قراءتهم وتعليمهم ، فلا ينقص منها شىء أو يزاد بها شىء مالم يكن بعلمه وموافقته » .[1]

مدرســـــة « البيـــادة »

أنشئت مدرسة «البيادة» بقرية « الخانقاه » فى سبتمبر سنة ١٨٣٢ لتخريج ضباط لفرق المشاة بالجيش المصرى . ولكنها لم تعمر بالخانقاه طويلا ، إذ نُقِلَت فى مايو سنة ١٨٣٤ ، أى بعد نحو عامين من إنشائها بالخانقاه ، الى مدينة دمياط ، فمكثت بها نحو سبع سنين .[2] ثم نقلت سنة ١٨٤١ إلى أبى زعبل فى مكان المدرسة التجهيزية .[3] وظلت بها إلى نهاية عصر محمد على .

خطة الدراسة

نصّت لوائح التعليم فى سنة ١٨٣٦ على أن مدة الدراسة بمدرسة «البيادة» بدمياط ثلاث سنين ، ويدرس تلاميذها المواد الآتية :

---

(١) دفتر ٢٠٧٤ (مدارس تركى) ص ١٢٦ أمر كريم إلى الديوان فى ٥ رمضان ١٢٥٧

(٢) أمين باشا سامى : التعليم فى مصر — القسم الخامس من الملحقات ص ٥١

(٣) دفتر ٢٠٧٤ (مدارس تركى) ص ١٣٤ فى ٤ شوال ١٢٥٧

١ — مبادىء التحصين الأولية : مهاجمة الحصون والدفاع عنها .

٢ — الطبوغرافيا ورسم الخطط .

٣ — نظريات وحركات البيادة والتمرين على استخدام السلاح .

٤ — واجبات الخدمة الداخلية والبوليس ونظام الحاميات والأرط والبلوكات .

وموظفوها الفنيون هم مديرها ،[١] وهو ضابط كبير فى الجيش ، ووكيل للمدير وأستاذ للطبوغرافيا والخطط ، وآخر للتحصين والهجوم والدفاع ، وأربعة ضباط من المشاة وأربعة ملازمين ، ومدرب للسلاح وآخر للرياضة البدنية . ويرأس لجنة امتحان تلاميذها قائد من الجيش . ووضع نظامها الداخلى على مثال المدارس الأخرى .[٢]

هذا ما نصت عليه لوائح المدرسة ، ولكن بين ذلك وبين ما كان تلاميذ المدرسة يدرسون بالفعل اختلاف كبير أو قليل . ففى سنة ١٨٣٧ كان تلاميذ المدرسة يقرءون كتبا فى الصرف والنحو واللغتين الفارسية والتركية ، ويدرسون الحساب ، ويتعلمون فى كتب عسكرية « تدريب النفر والبلوك والأرطة والآلاى » ، وهم إلى هذا يمضون شطراً طويلا من وقتهم فى المران العسكرى .[٣] وفى سنة ١٨٣٩ — والمدرسة لما تزال بدمياط — كان تلاميذها يقضون وقتهم طبقا « للجدول » الآتى الذى وضعه مجلس إدارة المدرسة :[٤]

---

(١) وكان مديرها ضابطا يدعى « يوسف أغا » وكان يديرها فى وقت ما ضابط بيدمونتى يدعى بولونينو (Bolognino) من ضباط جيش نابليون — Hamont, op. cit. II. p. 165.

(٢) Bowring, op. cit. p. 133.

(٣) دفتر ٢٠٢٠ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٧ شوال ١٢٥٢ — من تقرير امتحان المدرسة .

(٤) دفتر ٢٠٥٩ (مدارس تركى) ص ٦٤ فى غرة ذى الحجة ١٢٥٥

الوقت				العمل
من		الى		
ق	ت	ق	ت	
—	١٢	—	—	طبل الفجر .
—	١	٣٠	٢	درس فى اللغة العربية .
٣٠	٢	٣٠	٣	درس فى اللغة الفارسية .
٣٠	٣	—	٥	خط .
—	٥	—	٦	حساب .
—	٦	—	٨	طعام وتغيير الحرس وتعدادالظهر واستراحة .
—	٨	٣٠	٩	تورية تعليم الآلاى .(١)
٣٠	٩	—	١١	ميدان التعليم .
—	١١	—	١٢	طعام المغرب وطبل المساء .
٣٠	١٢	—	—	تعداد المغرب .
٣٠	١٢	—	١	داخلية .(٢)
٣٠	١	—	٣	تورية تعليم البلك .
٣٠	٣	—	—	طبل النوم .

فتلاميذ « البيادة » يقضون تسع ساعات فى الدراسة . ولكنهم لايمضون فى المران العسكرى سوى ساعة ونصف ساعة ، ويمضون مثلها فى قراءة النحو والصرف ، ومثلها كذلك فى كتابة الخط . وقد ظل هذا « الجدول » متبعاً سنين طويلة حتى وضع غيره وكانت المدرسة قد نقلت إلى أبى زعبل : إذ لاحظ ديوان المدارس « أن الأوقات المخصصة لدروس الهندسة والحساب واللغة التركية والفارسية والرسم والخط قليلة ، والأوقات المخصصة

(١) لم نجد معنى الكلمة (تورية) التى تتردد كثيرا فى برامج الدراسة بالمدارس الحربية إلا أنها « تعريب » لكلمة (Théorie) الفرنسية ، أى دراسة نظرية للفنون الحربية . وهذه الأوقات مطابقة للتوقيت العربى : فالساعة الثانية عشرة هى وقت الفجر والساعة الأولى بعد الفجر بساعة وهكذا .

(٢) « داخلية » هى بيان واجبات الوظائف العسكرية .

لباقى الدروس كثيرة » ، فعدَّلها طبقاً للبيان الآتى: (١)

الوقت		العمـــل
من	إلى	
الساعة	الساعة	
١١		نوبة الفجر .
١١	١٢	الطهارة والصلاة .
١٢	١	هندسة وحساب للفرق الأولى من البلوكات ولغة تركية وفارسية للفرق الثانية .
١	٣	بالعكس (كذا فى الأصل) ولعله يقصد (هندسة وحساب للفرق الثانية وتركية وفارسية للفرق الأولى) .
٣	٥	رسم ورقعة بالمناوبة .
٥	٦	طعام وتعداد وتغيير الحراس واستراحة .
٦	٧	تعليم الضباط درس التورية عند القائمقام ، ويكون التلاميذ ، أثناء هذا الدرس فى المذاكرة.
٧	٨	يدرس الضباط للتلاميذ درس التورية .
٨	٩	يتلقى الضباط دروس اللغة الفرنسية ، ويقوم التلاميذ بمذاكرة درس التورية أثناء ذلك .
٩	١١	تعليم الميدان .
١١	١٢	طعام وتعداد واستراحة .
١٢	٢	داخلية .
٢		نوبة النوم .

(١) دفتر ٢١١١ (مدارس تركى) ص ٣٢ رقم ١٢٩٨ من الديوان إلى مدرسة المشاة فى ١٤ ربيع أول ١٢٦٢ — الأرقام الدالة على الوقت غير مضبوطة تماما ، فان بجانب الرقم فى «السجلات» إشارات غامضة عن أجزاء الساعة كالثلث والربع ، أهملناها لعدم دقتها ووضوحها . والساعة الحادية عشرة وفيها نوبة الفجر تقع قبل الفجر بساعة .

ويتفق هذان « الجدولان » فى أن تلاميذ مدرسة « البيادة » — سواء فى عهدهم بدمياط أو فى عهدهم بأبى زعبل — لم يكونوا يصيبون من الطعام إلا وجبتين : الأولى حين ينتصف النهار أو يكاد ، والثانية حين تغرب الشمس أو تكاد . أما وجبة الصباح فالراجح أن الحكومة قدرأت فى الاستغناء عنها مايطبع تلاميذ «المشاة» على احتمال العيش الخشن . ويضيف « الجدول » الثانى دروسا فى اللغة الفرنسية يتلقاها ضباط المدرسة ، ثم شرع يدرسها كذلك تلاميذ المدرسة أو فريق منهم ، ويقوم على تدريسها لهم مدرس مصرى من خريجى مدرسة الألسن .(١)

ويمتاز « الجدول » الثانى كذلك بتدريس الهندسة للتلاميذ . على أن اللغة العربية لا نجد لها ذكرا فى هذا « الجدول » ، وأكبر الظن أنها كانت تدخل فى دروس اللغتين التركية والفارسية .

إلا أن التلاميذ رأوا فى هذا المنهاج البسيط إرهاقا بالغا جعلهم يرفعون عقيرتهم بالشكوى إلى ديوان المدارس « من كثرة الدروس عليهم ويريدون إزالة دروس العربية بالكلية » . ولكن الديوان لايرى رأيهم : فالحكومة قصدت بانشائها مدرسة المشاة تخريج تلاميذها المصريين «ضباطا» فى الجيش لا «أنفارا» ، و « مقصود سعادة أفندينا ولى النعم الخديوى الأعظم تقدم أبناء العرب إلى رتبة الميرالاى » . فدروس العربية واجبة لمن يريد أن يعدّ نفسه ضابطا كبيرا . على أن التلاميذ فى شكواهم يذكرون أنهم يتلقون واحدا وعشرين درسا ، ويعجب الديوان ويقرر أن دروسهم لا تتعدى سبعة : وهى العربية والفارسية (وفيها التركية) والرياضة (ومنها الهندسة والحساب) والرسم والكتابة (أى الخط) والتعليم والداخلية ، بل إن بعضا منهم لا يتلق هذه الدروس كلها . ولكن ديوان المدارس يريد أن يطمئن التلاميذ وأن

---

(١) دفتر ٩٥ (مدارس عربى) ص ١٠٣١ رقم ٢٣٥ إلى مدرسة الألسن فى غرة المحرم ١٢٦٤

يصل إلى الحق فى شكايتهم فيعلن إليهم أنه مرسل إليهم معاونا يفحص عن دروسهم ويقرر الحق فيما يرى . (١)

هل أثمرت شكاية التلاميذ إلى الديوان وطلبهم « إزالة دروس العربية بالكلية » ثمرها ، فاختفت من «جدول» توزيع الدروس الذى وضع للمدرسة بعدعام من شكواهم ؟ أم كانت دروس العربية متداخلة فى دروس اللغتين التركية والفارسية كما رجحنا ؟ هذا سؤال لم نصل إلى الإجابة عنه فى دقة ووضوح .

عدد التلاميذ

نص القانون على اعتبار تلاميذ مدرسة « البيادة » أورطة فى الجيش . وكانوا فى سنة ١٨٣٧ خمسة وستين وثلاثمائة : منهم الأنفار وذوو الرتب .(٢) ثم أربى العدد بعد ثلاث سنين على الأربعمائة . (٣) حتى إذا كانت سنة ١٨٤١ وأعيد النظر فى تنظيم المدارس رأت الحكومة أن الحاجة إلى مدرسة «البيادة» ما تزال ماسة حتى بعد إنقاص الجيش ، ذلك لأن المورد الأصلى للضباط وهو معسكر « النخيلة » الذى أسلفنا عنه القول قد ألغى ، ولم يبق ثمة مدرسة تخرج ضباطاً لفرق المشاة سوى مدرسة «البيادة» . لهذا « أبقيت المدرسة على حالتها الأولى مؤلفة من أربعة بلوكات ، وفى كل بُلُك مائة وعشرة من التلاميذ ما عدا ضباط الصف . . . وقد أصبحت من امتلاء البلوكات بحيث تزيد بلوكاتها الأربعة مائة وعشرين تلميذا عن ترتيبها الأصلى » . وبذلك كانت مدرسة المشاة المدرسة الوحيدة بمصر التى زاد عدد تلامذتها بعد سنة ١٨٤١ عما كانت عليه من قبل. وقد ظلت المدرسة إلى أواخر عصر محمد على زاخرة

(١) دفتر ١١ (مدارس عربى) ص ٩١ ٤٠ رقم ٢٩٣ إلى مدرسة البيادة فى غرة جماد أول ١٢٦١

(٢) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) « يوميات » المدارس الخصوصية والتجهيزية فى ١٩ ذى القعدة ١٢٥٢

(٣) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص ١٥ رقم ١٣٣٤ الى يوسف أغا فى ١٧ شوال ١٢٥٥

بعدد كبير من التلاميذ يزيد على عدد تلاميذ أى مدرسة أخرى بمصر .[١]

وفى بداية حكم عباس الأول نقلت مدرسة « البيادة » من أبى زعبل إلى الجيزة ،[٢] ثم ألغيت وسرّح تلاميذها .[٣]

مدرسة « السوارى »

أنشئت مدرسة « السوارى » فى ذى القعـــدة ١٢٤٦ هـ ،[٤] أو أبريل ١٨٣١ م .[٥] وخصصت لها « سراى مراد بك » بالجيزة . وقد استمرت بها حتى إلغائها فى أوائل عصر عباس الأول .

أقسام المدرسة

وقد نصت لوائح سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧ على أن يلحق بها :

١ — ضباط يعدّون ليكونوا معلمين بالجيش .

٢ — تلاميذ من المدرسة التجهيزية .

٣ — جنود من الشبان ليكونوا (نافخى الأبواق) و (طرنبطجية) .

أما الضباط فتبعث بهم إلى المدرسة فرق الجيش ، على ألا تقل أعمارهم عن ثلاثين سنة ، ويشهد رؤساؤهم بكفايتهم وحسن أخلاقهم . وتختبر مهارتهم فى الثلاثة الأشهر الأولى من بدء التحاقهم بالمدرسة ، حتى إذا قُبلوا بها نهائياً ظلوا بها عامين أو ثلاثة أعوام يدرسون العلوم التى تعدّهم ليكونوا بعدُ معلمين فى فرق الجيش .

---

(١) كان عدد تلامذتها فى شوال ١٢٦٤ — ٣٣٠ تلميذا — دفتر ١٠١ (مدارس عربى) س ٣٥٨٨ رقم ٤٤٤

(٢) دفتر ٢١٣٣ (مدارس تركى) س ٣٧ فى ١٩ ذى الحجة ١٢٦٥

(٣) دفتر ٢١٣٢ (مدارس تركى) س ٦٧ فى ٢١ المحرم ١٢٦٦

(٤) أمين باشا سامى : تقويم النيل ج ٢ س ٣٨١ والتعليم فى مصر س ٥٢

(٥) إسماعيل باشا سرهنك : حقائق الأخبار ... ج ٢ ص ٢٣٦

أما التلاميذ الذين يؤخذون من المدرسة التجهيزية فيمكثون بمدرسة «السواري» ثلاث أو أربع سنوات ، يعينون بعدها ضباطا فى فرق الفرسان بالجيش .

ويحدثنا كثيرون أن مدرسة السوارى بالجيزة نظمت على مثال مدرسة « سومور » الحربية بفرنسا .[١]

وقد أعجب بعض كبار الزائرين الغربيين بما كان يبدو على تلاميذها فى مرانهم من النشاط والمهارة ، « حتى لا يمكن تمييزهم عن فرق الفرسان الاوربية إلا بالمهارة العظيمة التى تبديها الخيول التى يمتطون » .[٢]

مواد الدراسة

كان تلاميذ المدرسة يتلقون دروساً مختلفة : بعضها فى نظريات الخدمة العسكرية ، وبعضها فى اللغات العربية والتركية والفارسية ، وبعضها الآخر فى الهندسة والحساب والرسم والخط ، هذا إلى التدريب العسكرى فى القفز وركوب الخيل واستخدام السلاح وغير ذلك من فنون الفروسية .

وكان تلاميذ المدرسة مقسمين أربع فرق فى دروس « التورية » (نظريات الخدمة العسكرية) وبالمدرسة فرقة للرسم وأخرى للفروسية . وفيما عدا ذلك يقرأ التلاميذ كتبا مختلفة فى العربية والتركية والفارسية ويمرنون على خط الرقعة أو الثلث .[٣] وكان ضباط المدرسة وفريق من تلاميذها يتعلمون اللغة الفرنسية .

وكان « مسيو لامبير » المهندس بشورى المدارس ثم مدير المهندسخانة يدرس الرسم لتلاميذ فرقة الرسم بالمدرسة ، فيخرج بالمتقدمين منهم إلى

---

(١) كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر ج ٢ ص ٣٢٥ و Mengin. op. cit. III. p. 127.

(٢) Scott, Rambles in Egypt & Candia, II. p. 236. و Pückler-Muskau, op. cit. I. p. 197.

(٣) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص ٢ رقم ١٢٨٧ إلى واسيل بك فى ١٠ شوال ١٢٥٥

الصحراء ويعلمهم رسم تخطيط البلاد مرتين فى كل أسبوع. [١]

وكان على التلاميذ أن يخدموا خيولهم بأنفسهم فى الثلاثة الأشهر الأولى من دراستهم. [٢] وقد أريد فى سنة ١٨٤١ أن يقوم التلاميذ على خدمة أنفسهم لتستغنى المدرسة عن تعيين عدد كبير من الخدم كالفراشين والسقائين و (السياس). ثم استقر الرأى بين أعضاء اللجنة التى شكلت لتنظيم التعليم إذ ذاك على أن تخص طائفة التلاميذ وحدها (دون جنود المدرسة) بالخدم : .. « لأن التلاميذ إذا تولوا أمر خدمتهم بأنفسهم حرموا تلقى ما أعد لهم من الدروس اليومية، ومن يتخلف يوماً من التلاميذ عن حضور درس من دروسه يلق فى غد هو ومعلمه مشقة ونَصَباً فى تكرار هذا الدرس، وإن فى ذلك لعرقلة للتعليم، فضلا عن تسخير التلاميذ — الذين ينفق على تثقيف الواحد منهم كل سنة ألفا قرش على أقل تقدير — فى أعمال الخدم الذين مرتب أحدهم الشهرى عشرون قرشا. فمن ثم رؤى أن القصد الأكبر إنما يكون بتخريج التلاميذ فى الأوقات المقررة وبمواظبتهم على دروسهم فى مواعيدها المقررة، أما الأرط الأخرى (أى أرط الجند لا التلاميذ) والتلاميذ المستجدون الذين أخذوا من المدرسة التجهيزية فلا يعين لهم خدم، بل هم الذين يقومون بخدمة أنفسهم كما يفعل الجند ». [٣]

ولما كانت مدرسة السوارى مدرسة حربية تعدُّ تلامذتها للسلك العسكرى فقد وضع لتوزيع الأعمال فيها نظام دقيق على النحو الآتى : [٤]

---

(١) دفتر ٢٠١٥ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٦ جاد ثان ١٢٥٢

(٢) Bowring, op. cit. p. 133-

(٣) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) رقم ٥٦٥ إلى شورى المعاونة فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٧

(٤) دفتر ٢٠٢٢ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٨ ذى الحجة ١٢٥٢

الوقت		العمل
ق	ت	
—	١٠	بوق الفجر (أى قبل شروق الشمس بساعتين) .
١٥	١٠	بوق عليق الخيل .
٣٠	١٠	تعداد الصباح .
٤٥	١٠	بوق وضع السروج (ثم يخرجون إلى الميدان للتدريب ساعتين ونصف ساعة فى الصباح الباكر) .
١٥	١	تسيير الخيل بعد العودة من التمرين .
٤٥	١	طعام الصباح .
١٥	١٢	الاجتماع اليومى .
٣٠	٢	تبديل الخفراء .
٤٥	٤	التعليق للخيول ورفع السرج عنها .
٣٠	٦	تفتيش الغرف .
٣٠	٨	تعداد (تتميم) وسقاية .
١٥	٩	طعام العشاء (وبذلك كان تلاميذ السوارى كالبيادة لايصيبون إلا وجبتين فى اليوم).
—	١٢	عليق الخيول .
—	١٢	اجتماع نافخى البوق .
٣٠	١٢	تعداد المساء .
—	٢	إطفاء النور (النوم) .

وفيما يلى تثبت خطة الدراسة بمدرسة السوارى فى عام ١٨٤٥ (١٢٦١هـ).[١]

دروس التورية (النظريات) :

الفرقة الأولى : يتعلم تلاميذها القسم الثانى عشر من تعليم الآلاى والقسم

(١) دفتر ٢٠٩٨ (مدارس تركى) ص ١٤٩ رقم ٦٣ من مدرسة الفرسان إلى الديوان فى ١٢ ذى الحجة ١٢٦٠

الخاص بوظائف اليوزباشى والملازمين الثانى والأول فى القانون الداخلى .

الفرقة الثانيـة : يتعلم تلاميذها القسم الرابع من تعليم الألاى والقسم الخاص بوظائف الباشجاويش الصول من القانون الداخلى .

الفرقة الثالثـة : يتلقى تلاميذها أربعـة دروس فى ركوب الجياد ومثلها فى تعليم البلوك والقسم الخاص بوظائف الجاويش وأمين البلوك من القانون الداخلى .

الفرقة الرابعة : يتعلم تلاميذها قواعد التدريب ويتلقون أربعة دروس فى تعليم البيادة والقسم الخاص بوظيفة الأنباشى فى القانون الداخلى .

دروس الهندسة والحساب :

الفرقة الأولى : مؤلفة من قسمين ، ويتعلم تلاميذ القسم الأول المقالتين الثالثة والرابعة من أصول الهندسة .

وتلاميذ القسم الثانى التعريفات والمقالتين الأولى والثانية من أصول الهندسة .

الفرقة الثانيـة : مؤلفة من قسمين ، ويتعلم تلاميذ القسم الأول الجزء الثانى من علم الحساب وتلاميذ القسم الثانى الجزء الأول من العلم ذاته .

دروس الرسم :

الفرقة الأولى : يتعلم تلاميذها رسم الخرائط الخاصة بوصف الأشياء .

الفرقة الثانيـة : يتعلم تلاميذها رسم « الخرائط التى ترسم فى مهندسخانة أوروبا » .

الفرقة الثالثـة : يتعلم تلاميذها رسم الخطوط فقط .

دروس الفروسية :

إعادة تعليم التلاميذ الذين كانوا من درجة « دون » فى الامتحان ، أما التلاميذ الآخرون المنتخبون فلا يمكن تعليمهم بسبب قلة الجياد .

دروس اللغة العربية :

الفرقة الأولى : يدرس تلاميذها الإظهار (كتاب فى النحو) والتحفة (كتاب فى اللغة التركية) .

« الثانية : يدرس تلاميذها الإظهار فقط .

« الثالثة : تلاميذ الفصل الأول منها يدرسون البناء (كتاب فى النحو) والفصل الثانى الدرة الفريدة .

ويتعلم جميع التلاميذ خط الرقعة ، وبعض الجنود خط الثلث .

تلاميذ المدرسة

كانت مدرسة « السوارى » — كما ذكرنا — تنتظم ضباطا وتلاميذ وجنوداً ضاربين على الطبل وآخرين نافخين فى الأبواق .

أما الضباط فكانوا يقومون على تعليم التلاميذ وتدريبهم ويتلقون دروسا تعدُّهم ليكونوا معلمين بفرق الجيش . أما التلاميذ — وكانوا الأغلبية فى المدرسة — فكانوا يؤخذون من المدرسة التجهيزية وغيرها من المدارس التى تستمدُّ منها المدارس الحربية والخصوصية تلاميذها . أما الجنود فكانوا من أولاد الجند العاملين ، ويلحقون بالمدرسة ويقرءون بها القرآن الكريم ويتعلمون القراءة والخط .[1] أما النافخون فى الأبواق فكان مقرراً للمدرسة منهم أربعة وأربعون ، وكانوا ينتخبون من بين تلاميذ المدارس الأخرى الحاصلين فى الامتحانات على درجة « دون الدون » ، حتى إذا حلت

---

(١) دفتر ٥٤ (مدارس عربى) ص٣٩٦ رقم٥٧ إلى مدرسة السوارى فى ٢٦ شوال ١٢٦٢

أيام الامتحان امتحن جميع من بمدرسة « السوارى » من التلاميذ والجند و« البوّاقين » كل فيما درسه .[١]

وكان تلاميذ المدرسة فى عهدها الأول من الترك أو المماليك ، وكانوا نحو المائتين . أما المصريون فكانوا يقصرون على تعلم العزف فى الأبواق.[٢] ثم أخذ العنصر المصرى ينمو بها ويزداد ، حتى إذا مضت سنوات قليلة أصبح جل تلاميذ المدرسة — كغيرها من المدارس — من المصريين ، وزال منها العنصر الأجنبى أو كاد .

وأخذت المدرسة تكبر ويزداد ما بها من تلاميذ وجنود ، حتى أصبحوا يكوّنون أربع « أرط » : « أرطتان » منها للتلاميذ ومثلهما للجنود . فلما كانت سنة ١٨٤١ رؤى أن تظل المدرسة مؤلفة من أربع أرط ، على أن تكون « الأرطة » الأولى وحدها من التلاميذ — ويمكنها أن تخرّج أربعين ضابطاً أو خمسين فى كل عام — والثلاث الباقية من الجنود . وبذلك اقتصر التخفيض على عدد التلاميذ دون الجنود . « على أن المدرسة بضباطها وتلاميذها وجنودها سيكون لها من قوة المقاومة ما يجعلها حين تمس الحاجة بمثابة آلاى من الفرسان » .[٣]

وعلى الرغم من هذا التخفيض الذى أصاب تلاميذ المدرسة فقد كان بها من التلاميذ والجند و«البواقين» — بعد عام من ذلك التخفيض — نحو السبعمائة والخمسين تلميذاً وجندياً .[٤] وهو فيما نعلم أكبر عدد بلغته مدرسة فى ذلك الوقت . وفى سنة ١٨٤٦ كان مجموع من بها ٦٣٩ : منهم ثلاثون ضابطاً و ٣٢٨ تلميذاً و ٢٨١ جنديا ونافخا فى البوق وضاربا على الطبل.[٥] وعادت

---

(١) دفتر ٢٠٨١ (مدارس تركى) ص ٤٧ رقم ١٣١١ إلى واسيل بك فى ٢٥ شعبان ١٢٠٨

(٢) Douin, Une Mission du Baron de Boisle Comte, p. 136.

(٣) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) رقم ٥٦٥ إلى شورى المعاونة فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٧

(٤) دفتر ٢٠٨١ (مدارس تركى) ص ٤٧ رقم ١٣١١ إلى واسيل بك فى ٢٥ شعبان ١٢٠٨

(٥) دفتر ٢١١١ (مدارس تركى) ص ١٠٣ رقم ٢٠٠٦ إلى ديوان الجهادية فى ٢٢ جمادى الثانى ١٢٦٢

المدرسة فرأت أن تجعل «أرطتين» منها للتلاميذ ومثلهما للجنود . ولكن ناظر المدرسة مالبث أن رأى أن هذه الزيادة أكبر مما تستلزمه حاجة الجيش ، فطلب إلى الحكومة أن يقتصر على أرطة من التلاميذ . [١]

على أن القدر كان يعدّ لها بعد عام أو نحوه فناء عاجلا ، وكان ذلك فى بدء حكم عباس باشا الأول . [٢]

مديرو المدرسة

كان مديرها فى عهدها الأول ضابط فرنسى يدعى ڤارن «Varin» ، وقد ترك فرنسا مثل كثير من الضباط الفرنسيين بعد سقوط نابليون ، وأقبل إلى مصر فاستخدمه محمد على فى تنظيم فرق الفرسان بالجيش المصرى وإنشاء مدرسة «السوارى» والقيام على إدارتها . فنظمها على مثال المدارس الحربية الفرنسية . ويبدو أنه أصاب فى تنظيمها من النجاح ما أطلق ألسنة كثير من الكاتبين بالثناء عليه والتنويه بنشاطه وغيرته . وقد قدر محمد على ما بذله الكولونيل « ڤارن » من جهد صادق ، فزاد مرتبه وأنعم عليه برتبة الأمير الاى فأصبح يدعى « ڤارن بك » . [٣]

أما كيف ومتى انتهت خدمات « ڤارن بك » فى مصر فلا نعلم من ذلك شيئا . [٤] وخلفه على إدارة المدرسة ضابط فرنسى يدعى « واسيل » أو « واسيل أغا » أو « واسيل بك » . وقد ظل « واسيل بك » مديراً للمدرسة حتى

---

(١) دفتر ٢١٢٧ (مدارس تركى) ص ٣٨٧ رقم ٢٣٥ إلى المعية الخديوية فى ١٨ جاد ثان ١٢٦٤

(٢) دفتر ٢١٣٢ (مدارس تركى) ص ٥٦ فى ١٤ المحرم ١٢٦٦

(٣) Pückler-Muskau, op. cit. I. p. 210.

(٤) ذكر أمين باشا سامى نظار المدرسة : حافظ إسماعيل ثم مصطفى أغا ثم واسيل بك ولم يذكر ڤارن . وواضح أن الناظرين الأولين كانا قائمين على الشئون الادارية بالمدرسة من ضبط ومراقبة للتلاميذ وإشراف على نومهم ومأكلهم وغير ذلك . أما ڤارن فكانت له الشئون الفنية كالاشراف على الدروس والتدريب ورياسة الضباط والمدرسين ونحو ذلك .

شارف عصر محمد على على النهاية ، ولم يقدَّر له أن يشهد إلغاء المعهد الذى قام على إدارته ما يزيد على اثنى عشر عاما : إذ أصابه حادث ذهب ضحيته . (١)

مدرسة « الطوبجية »

كوّنت فرق المدفعية النظامية فى الجيش المصرى فى الوقت الذى كونت فيه فرق المشاة النظامية ، وقام على تنظيمها نفر من الضباط الأوربيين وبعض الضباط الأتراك ، ومنهم « أدهم بك » الذى عُيِّنَ بعد ذلك مديراً لديوان المدارس . وممن استعانت بهم الحكومة فى ذلك العمل ضابط إسبانى يدعى « الدون أنطونيو دى سيجويرا » ، وكان ضابطا برتبة « كولونيـــل » فى المدفعية الاسبانية .

ولما مسَّت الحاجة إلى ضباط لهذه الفرق الجديدة تقدم « دى سيجويرا » إلى إبراهيم باشا القائد العام للجيش المصرى باقتراح إنشاء مدرسة خاصة بالمدفعية . فوافقت الحكومة على اقتراحه وأنشئت المدرسة ، وعين مديرا لها ، وجمعوا لها ثلاثمائة من تلاميذ مدرسة قصر العينى التجهيزية . (٢) وكان إنشاء المدرسة فى سنة ١٨٣١ (١٢٤٧ هـ) . (٣)

أنشئت المدرسة فى طرة ، وكانت تقع على الشاطىء الأيمن للنيل ، وتبعد نحو ثمانية أميال عن مصر القديمة . وكان بناء المدرسة على شكل مربع بنيت منه أضلاعه الثلاثة . وقد أعجب كبار الأجانب الذين زاروا المدرسة بما يسود

---

(١) الوقائع المصرية : العدد ١٢٠ فى ٢٤ رجب ١٢٦٤

(٢) Pückler-Muskau, op. cit. I. p. 19.

(٣) الوقائع المصرية : العدد ٣١٠ فى ٢١ جاد أول ١٢٤٧ — وذكر أمين باشا سامى أنها أنشئت فى يونية ١٨٣١ . (التعليم فى مصر — القسم الخامس من الملحقات ص ٥٢)

بناءها من نظافة ونظام : فقاعات الدرس صغيرة ولكنها عالية السقف جيدة التهوية ، وكانت تحتل جانباً من أحد أضلاع المربع ، وتحتل جانباً آخر منه حجراتٌ للنوم نظيفة ، أما الجناح الثالث فيحتوى على دورات المياه والمطابخ . وللمدرسة مستشفى يقع على الجانب الغربى المواجه للنيل وتحته مخزن للسلاح. ويمتدُّ وراءها حتى حدود المقطم فضاء واسع كان التلاميذ يتدربون فيه على إطلاق المدافع .

وكان أغلب تلاميذ المدرسة أول إنشائها من المصريين والترك ، وكان منهم يونانيون من كانديا وبعض أفراد الأسرة الحاكمة . وكانت تتراوح أعمارهم بين الحادية عشرة والخامسة عشرة ومنهم من يزيد على ذلك . ولم يكن يشترط عند التحاقهم بها إلا معرفة القراءة والكتابة ، ثم يتعلمون الحساب والهندسة والجبر والرسم والاستحكامات ولغـــة أجنبية : فالذين يُعَدُّون للخدمة فى الأسطول يتعلمون الانجـــليزية ، والذين يعدُّون للجيش يتعلمون الفرنسية أو الايطالية ، أما اللغة التركية فكان يتعلمها جميع التلاميذ على السواء . [1] وكانوا يقضون عشر ساعات فى دراسة المواد التى ذكرنا وساعة ونصف ساعة فى التدريب خارج المدرسة . وكان تلامذتها جميعا — أو مائة منهم حينا من الزمن — يتعلمون فنون البحرية لإعدادهم للخدمة فى الأسطول ، وكان ينقش على أيديهم رسم المرساة، تمييزاً لهم . [2] ثم رؤى الاقتصار فى تعليم البحرية على المدرسة البحرية بالاسكندرية ، فألغى تدريس البحرية من مدرسة طرة ، وانتخب منها مائة تلميذ كانوا يتعلمونها ، وأرسلوا إلى الاسكندرية حيث ألحقوا بالمدرسة البحرية الخصوصية . [3]

---

(١) Scott, op. cit. II. p. 231 — 233.

(٢) دفتر ٨ (مدارس عربى) ص ٣٧٣ رقم ١٠١ فى ٢١ شوال ١٢٦٠

(٣) دفتر ٢٠٠٦ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٠ جاد أول ١٢٥٢

وكان بالمدرسة مطبعة تقوم على طبع بعض كتبها الدراسية المؤلفة أو المعرّبة ، وكان يقوم بتعريبها « رفاعة رافع الطهطاوى » ، وقد عين مترجما بمدرسة المدفعية بعد نقله من مدرسة الطب بدلا من المستشرق الشاب « كنيك » «Kœnig» ، وظل بها سنتين (من ١٢٤٩ الى ١٢٥١) .[١]

وقد زار المدرسة بعض كبار الأجانب ، وأشادوا بمهارة تلامذتها ، وقال أحدهم : « من النادر أن شاهدت قبل الآن تدريبا أتم من هذا وأفضل فى التمكن من إصابة الأهداف على مسافات بعيدة » .[٢]

تنظيم المدرسة وبرامج الدراسة

فى سنة ١٨٣٦ ندب شورى المدارس لتنظيم مدرسة المدفعية بطرة لجنة مكونة من « مختار بك » مدير الشورى « وحكاكيان أفندى » مدير مدرسة المهندسخانة « والمسيو لامبير » وكان إذ ذاك مهندسا بشورى المدارس ، وانضم إليهم « مظهر أفندى » المهندس « وبهجت أفندى » مدير مدرسة المدفعية و « المسيو برونو » مدرب التلاميذ بها . ودرست اللجنة نظام المدرسة ووضعت لائحتين : إحداهما خاصة بنظام الدراسة وبتوزيع ساعات اليوم لتلاميذها ، ونوردها فيما يلى :[٣]

(١) صالح بك مجدى : حلية الزمن فى مناقب خادم الوطن ص ١٥

(٢) Pückler - Muskau, op. cit. I. p. 194.

(٣) الوقت محدد هنا طبقا للتوقيت العربى فالساعة العاشرة (وقت النهوض من النوم) تكون بعد غروب الشمس بعشر ساعات أو قبل شروقها بساعتين ، والساعة الثالثة (وقت النوم) تكون بعد الغروب بثلاث ساعات وهكذا .

الساعة		عمل التلاميذ
من	إلى	
١٠	—	النهوض من النوم .
١٠	١١	الصلاة والطعام .
١١	١٢	مطالعة الدروس المنوعة .
١٢	٢	التدريب العسكرى .
٢	٣	يشتغل المعلمون بتعليم نائبيهم (المعيدين) ويشتغل التلاميذ بالكتابة (الخط) .
٣	٥	يدرس نائبو المدرسين علم الهندسة للتلاميذ بحضور المدرسين .
٥	٦	طعام واستراحة .
٦	٧	يدرس نائبو المدرسين علم الجغرافيا للتلاميذ بحضور المدرسين .
٧	٨	يدرس نائبو المدرسين التركية والعربية بحضور المدرسين .
٨	١٠	يشتغل التلاميذ بالرسم ونواب المدرسين بالخط .
١٠	١٢	التدريب العسكرى .
١٢	١	طعام وصلاة واستراحة .
١	٢	يستمع التلاميذ لتعليمات يلقيها المعلمون .
٢	٣	صلاة واستعداد للنوم .
٣	—	النوم .

ويتلقى التلاميذ يوما دروسا فى الاستحكامات ويوما فى الجغرافيا ، ويتلقون كل خميس دروسا فى المساحة ، على أن يصحبهم معلما الهندسة والرسم ، وذلك من الساعة الثانية صباحا إلى السادسة (أى من بعد شروق

الشمس بساعتين إلى انتصاف النهار)، ويعملون بقية النهار فى تنظيف أسلحتهم وملابسهم .[١]

وبذلك كان تلاميذ مدرسة المدفعية بطرة ينهضون من فرشهم قبل شروق الشمس بساعتين ولا يعودون إليها إلا بعد غروبها بثلاث ساعات، فيومهم المدرسى سبع عشرة ساعة يقضى منها التلاميذ أربع ساعات فى طعام وصلاة واستراحة وتسعا فى دروس واستذكار للدروس وأربعا أخرى فى تدريب عسكرى، وهم بعدُ لا يصيبون للنوم إلا سبع ساعات .

ولكن برنامج الدراسة — كما ترى — ضعيف : إذ لا يحتوى على مايحتاج إليه ضابط المدفعية من دروس منوعة فى الرياضة والكيمياء والفنون العسكرية النظرية . وقد دعا ذلك إلى إضافة مواد جديدة للدراسة كالحساب والجبر والتاريخ ودروس نظرية فى جر الأثقال فى الجيش ووقت الحصار والخدمة فى (الطوابى) والقانون الداخلى العسكرى ،[٢] ثم الكيمياء . وكان التلاميذ الذين يدرسونها يذهبون فى يوم الخميس من كل أسبوع إلى « معمل البارود لأجل رؤيتهم عملية البارود » .[٣] وقد نظم دروس الرياضيات بها المهندس والعالم الرياضى المصرى « محمد بيومى أفندى » .[٤] وقد حرصت المدرسة على أن تفيد من العطلة السنوية فى رمضان: فوضعت نظاما للدراسة ست ساعات فى كل يوم حتى لا ينسى التلاميذ ما تعلموه أثناء العام الدراسى المنصرم : ساعتان منها لاستذكار العلوم الرياضية وحل مسائل فى الهندسة العادية والوصفية والجبر وحساب المثلثات ، ومثلهما فى كتابة « مراسلات وتذاكر وعرضحالات مع حسن الخط » ، ومثلهما كذلك فى قراءة كتاب فى الدين يدعى (بركوى شريف) .[٥]

---

(١) دفتر ٢٠١٥ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٦ جماد ثان ١٢٥٢

(٢) دفتر ٢٠٨١ (مدارس تركى) ص٧٦ رقم ١٥٢٤ الى مدرسة الطوبجية فى ١٩ شوال ١٢٥٨

(٣) دفتر ١٣ (مدارس عربى) ص ٢٧٣٤ رقم ٦٣٨ إلى ناظر البارودخانات فى آخر ؟ سنة ١٢٥٢

(٤) دفتر ٥٥ (مدارس عربى) ص ٦٨٦ رقم ٥٥ إلى مدرسة الطوبجية فى ٦ ذى القعدة ١٢٦٢

(٥) دفتر ٦٤ (مدارس عربى) ص ١٤٠٠ رقم ٤٠٩ إلى مدرسة الطوبجية فى ١٨ شعبان ١٢٦٣

لهذا كله أصبح برنامج الدراسة فى مدرسة المدفعية فى أواخر عصر محمد على قويا حافلا بالدروس المنوعة كفيلا بتخريج ضباط أكفاء للمهنة التى أعدوا لها : « فتلاميذ الفرقة الأولى يدرسون من الرياضيات تطبيق الجبر على الهندسة من أوله الى آخره والجزء الثانى من الهندسة الوصفية وعلم النظر والمناظر ، ويتلقون دروسا فى الكيمياء ، ويتعلمون رسم أشكال الهندسة الوصفية والظل والنظر ، وتعلموا من الفنون الحربية التعليمات المدفعية الجديدة للنفر من أولها الى آخرها علما وعملا وقانون السفريات اعتبارا من البند العاشر الى آخره .

« ويدرس تلاميذ الفرقة الثانية من الرياضيات النصف الأخير من الاستحكامات القوية والجزء الثانى من الهندسة الوصفية والدروس المقررة فى علمى الظل والنظر ، ويتعلمون رسم الأشكال الخاصة بتلك الدروس ، وتعلموا من الفنون الحربية التعليمات المدفعية الجديدة للنفر وسوق العربات وقانون السفريات كاملا .

« وتلاميذ الفرقة الثالثة يدرسون من الرياضيات مبادىء الاستحكامات الخفيفة والجزء الثانى من الهندسة الوصفية وعلم الموازنة كاملا ، ويتعلمون الأشكال المتعلقة بتلك الدروس ، ويتعلمون من الفنون الحربية قانون السفريات والتعليمات المدفعية الجديدة للنفر وسوق العربات علما وعملا .

« وتلاميذ الفرقة الرابعة يدرسون من الرياضيات من أول علم الجبر إلى آخر الدرجة الثانية منه وحساب المثلثات المستوية كاملا ، ويتعلمون رسم بعض أدوات المدافع والاستحكامات ، ويتعلمون من الفنون الحربية قانون السفريات والتعليمات المدفعية الجديدة للنفر والتعليمات القديمة (للبطارية) علما وعملا .

« وجميع التلاميذ يتعلمون الرقعة والانشا » . [١]

أما التاريخ والجغرافيا وغيرها من المواد التى كان يتعلمها التلاميذ قبل ذلك فلم يعدْ لها مكان فى برنامج الدراسة بعد تنظيم المدرسة التجهيزية وتدريس تلك المواد لتلاميذها .

وعلى الرغم من تلك المحاولات التى قامت بها الحكومة فى سنين مختلفة لتقوية منهاج الدراسة حتى يتمّ لها الغرض من إنشاء المدرسة ، لم يتيسر لآلايات الطوبجية أن تأخذ منها كل من كانت تأمل من ضباط : لأن مدرسة المدفعية ما كادت تؤسَّس حتى أعطت مكتب المحاسبة فريقاً كبيراً من تلاميذها، ولم تلبث بعد ذلك إلا قليلا حتى انتزع منها خيار تلاميـذها ، فأرسلوا إلى السفائن للانتظام فى السلك البحرى، ثم أرسل منها فى العام الماضى (١٨٤٠م — ١٢٥٦ هـ) خمسة وستون تلميذاً إلى الاسكندرية ليتدربوا فيها على رماية الهاون (وهو المدفع القصير) وقذف القنابل ، كما اقتصر عمل بقية التلاميذ على تمرينات المـدفع والبطارية فقط فى دمياط » . [٢] وبذلك لم تستطع مدرسة المدفعية بطرة أن تخرّج النصاب المقرر من الضباط فى كل عام .

وفى سنة ١٨٤١ رأت اللجنة التى وكل إليها تنظيم التعليم أن تحتفظ بالمدرسة ، على أن يكون قوامها عدداً من التلاميذ كافياً لإدارة (بطاريتين) اثنتين . [٣] ومضت المدرسة قدما . ولكن حظها بعد سنة ١٨٤١ لم يكن خيراً منه قبل تلك السنة : فقبل سنة ١٨٤١ كانت الحاجة ملحة إلى ضباط لفرق

(١) دفتر ٢١٢١ (مدارس تركى) ص ٥٢ رقم ٤٣ إلى الباشا الكتخدا فى ١٢ ذى القعدة ١٢٦٣

(٢) كان تلاميذ المدرسة ومدرسوها وأدواتها قد أرسلوا إلى دمياط فى رجب ١٢٥٦ (دفتر ٢٠٦٥ مدارس تركى ص ١٣٨) وأمضوا بها فترة من الزمن لا تزيد على العام ثم عادوا إلى طرة . والراجح أن ذلك كان بقصد تدريب التلاميذ تدريباً عسكريا يتصل بفنهم (دفتر ٢٠٧٤ مدارس تركى ص ٢٠ رقم ١٢٨ من مدير الجهادية إلى ديوان المدارس فى ٧ جماد أول ١٢٥٧)

(٣) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) رقم ٥٦٥ إلى شورى المعاونة فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٧

الجيش التي تزداد يوما بعد يوم ، فكانت الحكومة تأخذ منها تلاميذ قبل أن يتموا دراستهم ، ولكن بعد سنة ١٨٤١ أنقص الجيش فأصبح كثير من خريجيها الذين أتموا علومهم — على قلتهم — لا يكادون يجدون عملا ، فكانوا يظلون بالمدرسة يعيدون دروسهم حتى تحتاج إليهم أو إلى بعضهم فرق الجيش .(١)

عدد تلاميذ المدرسة

كان تلاميذ المدرسة وقت إنشائها ثلاثمائة ، تتراوح أعمارهم بين الحادية والخامسة عشرة أو تزيد على ذلك أحيانا .

ولما نظمت المدرسة فى سنة ١٨٣٦ قرر قانونها أن يكون نصابها ثلاثمائة تلميذ . على أن المدرسة لم تستطع أن تستوفى من هذا العدد الكبير إلا نحو مائة وثمانين ، (٢) موزعين على ثلاث فرق دراسية ، وكل من الفرقة الأولى والثانية مقسمة قسمين ، يدرس تلاميذ كل قسم منهما مواد مختلفة . ولما رؤى أن المدرسة التجهيزية عقب تنظيمها لم تستطع بدورها تخريج عدد من التلاميذ يكفى للمدارس الخصوصية جميعا تقرر أن تقنع مدرسة المدفعية بمائة وخمسين تلميذاً ، أى بنصف نصابها القانونى .(٣)

وفى سنة ١٨٤١ قررت لجنة تنظيم المدارس أن يظل فيها من التلاميذ (بلوكان) يتخرج منهما ضباط يكفون لادارة بطاريتين اثنتين ، وبعد ذلك بعامين كان بها ثمانون ومائة تلميذ موزعين على أربع فرق ، إذ لم تستكمل المدرسة بعدُ فرقتها الأولى النهائية .(٤) وفى العام التالى كان بالمدرسة أكثر

(١) دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركى) ورقة ٤٨ رقم ١٨٤٣ إلى شورى المعاونة فى ٧ شوال ١٢٥٩

(٢) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) كشف يوميات المدارس الخصوصية والتجهيزية فى ٩ ذى القعدة ١٢٥٢

(٣) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) س ٧ رقم ١٣٠٣ إلى خليل أفندى فى ١٢ شوال ١٢٥٥

(٤) دفتر ٢٠٨٠ (مدارس تركى) س ٩١ و ٦٩ من مدرسة الطوبجية فى ١٥ ذى القعدة ١٢٥٨

من مائتى تلميذ موزعين على ست فرق دراسية .[١] ولكن عدد التلاميذ عاد يهبط سريعا حتى وصل فى سنة ١٨٤٦ إلى أقل من مائة ،[٢] ثم إلى ثمانية وسبعين تلميذاً موزعين على أربع فرق دراسية .[٣]

وفى أواخر عصر محمد على — حين نهض إبراهيم باشا بالحكم فى مصر — تداركت عنايته مدرسة المدفعية ، ولا غرو فقد كان له الفضل الأول فى إنشائها وكان دائم العطف عليها والرعاية لشئونها : فتقرر إبلاغ عدد تلاميذها إلى ثلاثمائة بإكمالهم من تلاميذ المكتب العالى بعد امتحانهم .[٤]

على أن القدر كان يعدُّ لها بعد عام نهاية عاجلة فى أوائل حكم عباس الأول .[٥]

مديرو المدرسة

كان أول مدير عُيِّنَ لها عقب إنشائها الضابط الاسبانى « الدون أنطُنيو دى سيجويرا » «De Seguera» وقد ذكرنا أنه كان ضابطا برتبة كولونيل فى سلاح المدفعية فى الجيش الإسبانى ، وكان على جانب كبير من الكفاية ، وإليه يرجع الفضل فى إنشاء المدفعية المصرية ومدرسة المدفعية بطرة . ولكنه كان على جانب كبير أيضا من حدة الطبع وخشونة الخلق : فكان لا يرضخ لأوامر مدير المدارس « مختار بك » ، ويقول إنه لا يتلقى الأوامر إلا من محمد على نفسه ، فهو وحده الجدير بتقدير عمله . وكان إلى ذلك يكره الفرنسيين كرها شديدا — وقد حاربهم قبل ذلك بسنين — فكان يحمل لسليمان باشا

---

(١) دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركى) ورقة ٤٨ رقم ١٨٤٣ إلى شورى المعاونة فى ٧ شوال ١٢٥٩

(٢) دفتر ٢١١١ (مدارس تركى) ص ١٠٣ رقم ٢٠٠٦ إلى ديوان الجهادية فى ٢٢ جاد ثان ١٢٦٢

(٣) دفتر ٢١٢١ (مدارس تركى) ص ٥٢ رقم ٤٣ إلى الباشا الكتخدا فى ١٢ ذى القعدة ١٢٦٣

(٤) دفتر ٩٠ (مدارس عربى) ص ٢٩٩٨ رقم ١٨٦ إلى الديوان الخديوى فى ١٦ رجب ١٢٦٤

(٥) دفتر ٢١٣٢ (مدارس تركى) ص ٤٨ فى ١٨ المحرم ١٢٦٦

الفرنساوى ساعد إبراهيم باشا الأيمن فى قيادة الجيش المصرى ومفتش المدارس الحربية بغضا شديدا متصلا ، وكان يقول عنه إنه لا يفهم شيئا فى المدفعية.[١] وقد كان لما عرف عنه من الخشونة والاعتداد بنفسه وفنه الأثر الأكبر فى اعتزاله خدمة الحكومة المصرية بعد أربع سنين قضاها فى تنظيم سلاح المدفعية بالجيش وإنشاء المدرسة وإدارتها : فى سنة ١٨٣٦ كان تنظيم التعليم فى مصر ، إذ صدرت إرادة محمد على بعقد مجلس عام للنظر فى تنظيم المدارس ، فاستقر رأى أعضائه على أن يقترح كل منهم مايراه على حدة . ثم تجتمع لجنة من بينهم للنظر فى المقترحات ، حتى إذا تم درسها عاد المجلس الى الالتئام فنظر فيها مرة أخرى . ورضى بذلك مديرو المدارس — الأجانب منهم والمصريون . ولكن « سكويرا بك » مدير مدرسة المدفعية انبرى قائلا إنه لا يقبل أن يتدخل أحد فى شأنه وإنه لن يعمل برأى غير رأيه. «فكان ذلك سبب عزله لاعتباره أجنبيا عن مصلحة الجناب العالى ، وليس من العقل ائتمان الأجنبى المتجنب على المصالح . كما كان عزله سببا فى طاعة بقية نظار المدارس ، فانصرفوا ينفذون القرار ويدونون مقترحاتهم » .[٢]

وخلفه على إدارة مدرسة المدفعية «مصطفى بهجت أفندى» (باشا فيما بعد) عضو بعثة ١٨٢٦ إلى فرنسا ثم ناظر مدرسة قصر العينى التجهيزية . وكان يعاونه مدرب فرنسى يدعى « برونو » "Brunhaut" .[٣] ثم خلفه « خليل أفندى » مديرا للمدرسة.[٤] وبعده استقل الضابط المدرب «برونو» بادارة المدرسة.[٥]

---

(١) Pückler - Muskau. op. cit. I. p. 191.

(٢) دفتر ٢١٢ (معية) ص ٣٩ رقم ١٧٧ إلى الباشا السر عسكر فى ١٩ رمضان ١٢٥١

(٣) دفتر ٢٠١٥ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٦ جماد ثان ١٢٥٢

(٤) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص ٧ رقم ١٣٠٣ إلى خليل أفندى فى ١٢ شوال ١٢٥٥

(٥) De Latour, Voyage du Duc de Montpensier, p. 112.

ودفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) رقم ٥٦٥ إلى شورى المعاونة فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٧

وظل بها الى أواخر عصر محمد على.[١]

المدارس البحرية

أنشأ محمد على الأسطول المصرى، فكان عليه أن يعدّ له الجند الذين يحاربون على سفنه والضباط الذين يقودون هؤلاء الجند. ولهذا الغرض أنشئت المدارس البحرية، وأهمها:

المدرسة البحرية بالاسكندرية

أنشئت فى دار الصناعة (الترسانة) بالاسكندرية. وقد جمع بعض تلاميذها من مكاتب البنادر والقرى ممن تتراوح أعمارهم بين العاشرة والعشرين وكانوا أصحاء الجسم ولهم دراية بالقراءة والكتابة.[٢] وكان بعضهم الآخر من تلاميذ مدرسة «الجهادية» أو من «مماليك» إبراهيم باشا وبعض كبار الموظفين، «لأن هذا من الأمور الدينية» التى يجب على كل قادر أن يساهم فيها بنصيب.[٣]

وكان تلاميذها يتعلمون فن بناء السفن والعلوم المتصلة به، وقد قطعوا فى دراستهم شوطاً بعيداً وأصابوا فيها تقدماً عظيما، حتى كان التلاميذ المصريون البحريون وحدهم هم الذين أشرفوا على بناء السفن الحربية فى مارس سنة ١٨٣٣ تحت إدارة «مسيو سيريزى» ومرءوسيه الفرنسيين.[٤]

وقد زاد عدد تلاميذ المدرسة حتى وصلوا إلى مائتين وألف تلميذ، ومنهم

---

(١) دفتر ٥٧ (مدارس عربى) س ١٤٢٣ رقم ٢١٠ فى ١١ المحرم ١٢٦٣ — مسيو برنوه (تحريف لبرونو)

(٢) أمين باشا سامى: تقويم النيل ج ٢ ص ٢٤٨

(٣) الوقائع المصرية: العدد ٨٥ فى ٢٠ جماد أول ١٢٤٥

(٤) Saint - John, op. cit. II. p. 405.

من كان يتعلم للخدمة فى الأسطول ، ومنهم من يعدّ للوظائف الإدارية .[١]

ولما كانت لوائح التعليم الصادرة فى سنة ١٨٣٦ تنص على وجوب إنشاء مدرسة ابتدائية بالاسكندرية لمائتى تلميذ وأخرى تجهيزية لخمسمائة تلميذ ، وكانت المدرسة البحرية هى المدرسة الوحيدة بالاسكندرية إذ ذاك ، وكانت تنتظم عدداً كبيرا من التلاميذ يزيد على الألف ، آثر ديوان المدارس أن « ترتب المدرسة البحرية بموجب القوانين المذكورة : فيخصص من تلاميذها خمسمائة للمدرسة التجهيزية ومائتان للمدرسة الابتدائية » . وكتب بذلك إلى أعضاء مجلس البحرية التابعة له المدرسة .[٢] أما التلاميذ الباقون فأضيف إليهم مائة تلميذ كانوا يتعلمون الفنون البحرية بمدرسة المدفعية بطرة ،[٣] وكوّنت منهم جميعا « المدرسة البحرية الخصوصية » .

ثم رؤى - بعد سنوات - أن مدرسة البحرية بالاسكندرية لايمكنها بعد تحويلها إلى مدرسة ابتدائية وتجهيزية أن تخرج ضباطاً للبحرية : « لأن هؤلاء الضباط يجب أن يكونوا ملمّين بعلوم الهندسة والمقابلة البحرية وجرّ الأثقال وحساب المثلثات المستوية والكروية والجغرافيا وعلم الهيئة » . ولذلك رأى ديوان المدارس أن « من الأنسب والأوفق تعيين من يحتاج إليهم فى المستقبل من ضباط البحرية والضباط والمهندسين والمعماريين اللازمين لدار الصناعة العامة من المهندسخانة الخديوية ، لأن فيها مدرسين لجميع العلوم ولأن العلوم الرياضة تدرس فيها بجميع فروعها » .[٤]

وبذلك انتهت حياة المدرسة البحرية بالاسكندرية . وحاولت الحكومة فى أواخر عصر محمد على أن تعيد إنشاءها ، واختارت لها تلاميذ من

---

(١) Pückler - Muskau, op. cit. I. p. 53 — 54.

(٢) دفتر ٢٠٠٤ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٣ ربيع الأول ١٢٥٢

(٣) دفتر ٢٠٠٦ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٠ جماد أول ١٢٥٢

(٤) دفتر ٢٠٩٦ (مدارس تركى) ص ١٩٦ رقم ٧٩٦ إلى كامل بك فى ٢٦ ذى الحجة ١٢٦٠

المهندسخانة .[1] ثم لم نعلم بعد ذلك شيئا عن هذا المشروع الذى نرجح أنه لم يخرج إلى حيز التنفيذ . على أن اسم المدرسة (المدرسة البحرية) ظل علَما على المدرسة الابتدائية ـ التجهيزية بالاسكندرية ، وذلك لأنها كانت تابعة «لمديرية البحرية» بالاسكندرية .

مدارس الأسطول

وإلى جانب هذه المدرسة كان ثمة مدارس على ظهر سفن الأسطول المصرى ، يتعلم فيها التلاميذ فن قيادة السفن ويتلقون دروسا فى البحرية . ففى السنين الأولى لإنشاء الأسطول استخدمت أربع (قرواتات) «corvettes» قديمة كمدرسة ، وجمع لها بعض النوتية الذين يعملون فى السفن النيلية ، وقسموا أربعة (بلوكات) . وأخذ ضابط أجنبي يعلمهم الخدمة فى السفن . أما التلاميذ الذين يعدّون ليكونوا ضباطا فكانوا يجمعون فى إحدى غرف (الأميرالية) ليتلقوا دروسا فى فن البحرية .[2] وكانت هناك مدرستان بحريتان على ظهر السفينتين الحربيتين « المنصورة » و «عكا» ، ومن تلاميذها « الأمير سعيد » ابن محمد على .[3]

وإلى أواخر عصر محمد على كان هناك تلاميذ « عاكفون على تحصيل فن البحر » فى (القرويت corvette) « جناح البحر » ، وكان يخرج بهم من حين لآخر إلى سواحل آسيا وأفريقية المطلة على البحر الأبيض المتوسط .[4] وآخرون يتعلمون الصناعة على ظهر سفن أخرى ، حتى إذا أتموا دراستهم

(١) دفتر ٢١١١ (مدارس تركى) ص ٩٠ فى ٢٨ جماد أول ١٢٦٢

(٢) Planat, op. cit. p. 170.

(٣) Pückler - Muskau, op. cit. I. p. 53 — 54.

(٤) الوقائع المصرية : العدد ١٢٦ (و١٢٨) فى ٧ رمضان ١٢٦٤

استخدموا مهندسين فى مصانع الحكومة . (١)

وإلى أعضاء البعثات التى أرسلها محمد على لدراسة الفنون البحرية فى أوربا يرجع الفضل فى القيام على شئون الأسطول المصرى — بعد الأجانب — وفى ترجمة اللوائح والقوانين البحرية الفرنسية والانجليزية . (٢)

مدرسة الموسيقى العسكرية

عمل محمد على على أن يستكمل جيشه مظاهر النظام الأوربى ، فأمر بأن يكون لكل (ألاى) من الجيش فرقة موسيقية ، واستوردت من فرنسا الآلات الموسيقية واستقدم المعلمون ، وطبعت « مقامات فى فن الموسيقى » على مطبعة الحجر . (٣)

ثم أنشئت فى قرية (جهاد أباد) مدرسة لتعليم الموسيقى لنفر من أهل البلاد ليكونوا موسيقيين فى فرق الجيش والأسطول ، وكان يعلمهم معلم أجنبى يدعى « الخواجة كاره » . (٤) ثم نقلت المدرسة إلى (الخانقاه) ، وكان عدد تلامذتها يبلغ المائتين . (٥) وكانت تابعة منذ إنشائها لديوان الجهادية ، ثم أصبحت منذ أوائل سنة ١٢٥٣ (١٨٣٧ م) تابعة لديوان المدارس . (٦)

ورأى الديوان أن عدد تلامذتها — وكان مائتى تلميذ وخمسة تلاميذ —

(١) دفتر ٢٢ (مدارس عربى) ص ٩٧٩ رقم ٨٢ إلى مديرية البحرية بالأسكندرية فى ١٠ ربيع الأول ١٢٦٢

(٢) إسماعيل باشا سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٤٧
ورفاعة بك رافع : مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية ص٢٤٧

(٣) الوقائع المصرية : العدد ٣٤٩ فى ٦ رمضان ١٢٤٧

(٤) الوقائع المصرية : العدد ٤٤٢ فى ٢١ جماد أول ١٢٤٨

(٥) كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر ج ٢ ص ٢٠٠

(٦) دفتر ٢٠٢٣ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٩ المحرم ١٢٥٣

أكبر مما تحتاجه فرق الجيش وأنهم «يزيدون على نسبة المعلمين» ، فقرر الاكتفاء بمائة وخمسين منهم ونقل الباقين إلى مدرسة المبتديان ، وعين لهم مدرسين من الأجانب .[1]

وفى (ترتيب) سنة ١٨٤١ ألغيت مدرسة الموسيقى ووزع تلامذتها على المدارس الحربية .[2] وكان ثمة — عدا مدرسة الخانقاه — مدارس أخرى لتعليم الموسيقى : منها مدرسة بأثر النبى (مصر القديمة) طغت عليها مياه الفيضان فنقلت إلى سوق السلاح فى البناء الذى كان مصنعاً للصوف ،[3] ومدرسة أخرى بالقلعة ، وقد زارها بعض كبار الأجانب وأعجبوا ببراعة تلاميذها المصريين فى تفهم الموسيقى الغربية وأداء أدق القطع لأمهر الموسيقيين الإيطاليين والفرنسيين .[4]

(١) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص ٢٤ رقم ١٣٩٤ إلى مسيو قاره (ناظر المدرسة) فى ٢٧ شوال ١٢٥٥

(٢) دفتر ٢٠٧٠ (مدارس تركى) ص ٦٠ رقم ٢٥ أمر عال فى ٢٤ شعبان ١٢٥٧

(٣) دفتر ٢٠٦٥ (مدارس تركى) ص ١٣٢ فى ١٧ رجب ١٢٥٦

(٤) Saint- John, op. cit. II. p. 400.

الفصل الرابع

البعوث العلميـــة

أخذ محمد على عن أوربا علومها ونظمها التعليمية والاقتصادية وفنونها الحربية والبحرية ، واستدعى منها المدرسين والنظـــار لمدارسه والضباط والمدرسين لجيشه وأسطوله والصناع والمهندسين لمصانعه . لم يكن مندوحة لمحمد على إذن من الاعتماد على الغربيين الذين عرفوا هذه النظم فى بلادهم قبل ذلك بسنين ، وأصابوا منها حظاً كبيراً . ولكن محمد على لم يكن يرى من الحكمة دوام الاعتماد على الأجانب وإبقاء أهل البلاد من المصريين أو الأتراك بمعزل عن الاشتراك فى إنهاض بلادهم والقيام على مرافقها . وقد رأينا أن محمد على كان يعهد إلى كثير من الأجانب بأن يعلموا فنونهم لنفر من أهل البلاد يعدُّهم ليخلفوهم على عملهم . ولكن محمد على كان — من جهة — يتعجل الوقت الذى يستطيع أن يستغنى فيه عن الأجانب ، ويرى — من جهة أخرى — أن أخذ المصريين عن الغربيين الذين يفدون إلى مصر لا يخلو فى كثير من الأحوال من نقص : فليس هؤلاء الغربيون بأكفأ مَن أنجبت بلادهم ، بل إن منهم كثيرين كانوا جوّابين يضربون فى الأرض، هذا الى أن حرصهم على دوام (رزقهم) لم يكن ممـــا يجعلهم (يتحمسون) كثيرا لتلقين المصريين فنونهم.

لهذا رأى محمد على أن يأخذ عن الغرب مباشرة : فبدأ يرسل الى أوربا نفراً من التلاميذ الأتراك والمصريين ليأخذوا (مباشرة) من علوم الغرب وفنونه ويحذقوا لغاته وتجاربه ، حتى إذا عادوا إلى مصر كانوا له أعوانا

ومساعدين : يقلدهم إدارة المصانع والمدارس والدواوين ، ويجلسهم مجالس التعليم ، ويطلب منهم ترجمة الكتب النافعة ، وبعبارة أخرى يطلب منهم أن يكونوا — كما كان كثير منهم فعلا — قادة النهضة الحديثة فى البلاد .

قال محمد على للدكتور « بورنج » مندوب الحكومة الانجليزية: « إن أمامى الشىء الكثير لا تعلمه وكذلك شعبى ، فأنا مرسل إلى بلادكم أدهم بك (ثانى مدير لديوان المدارس) ومعه خمسة عشر شابا مصريا ليتعلموا ما يمكن لبلادكم أن تعلمه . فعليهم أن ينظروا إلى الأشياء بأنفسهم وأن يمرنوا على العمل بأيديهم ، وعليهم أن يفحصوا مصنوعاتكم جيداً وأن يكشفوا عن أسباب سبقكم ورقيكم ، حتى إذا ما أمضوا وقتا كافيا فى بلادكم عادوا إلى بلادهم وعلموا شعبى » . [1] وهذا « برنامج » بديع وضعه محمد على لأعضاء بعثاته : النظر إلى الأمور بأنفسهم وقرن العلم بالعمل والفحص والتدقيق .

لم يكن محمد على يعنيه كثيراً ثقافة المبعوثين وجنسياتهم وأعمارهم بقدر ما كانت تشغله (الفكرة) نفسها التى أجملنا . فهو لم يُعنَ بالمقدمات قدر عنايته بالنتائج . لذلك نجده يرسل أعضاء البعثات — وخاصة فى السنوات الأولى من حكمه — من مختلف البيئات العلمية والثقافية : من الأزهر والمدارس الخصوصية ، ومن مختلف الأعمار : فنهم من نيف على الثلاثين ومنهم من لم يبلغ العشرين ، ليتخصصوا فى مختلف الفنون الحربية والمدنية والطبية والصناعية . [2] ونتج عن هذا التضارب أن كثيراً منهم كانوا لا يعرفون لغة البلاد التى هم متوجهون إليها ، وكان إعداد كثير منهم فى مصر ضعيفا لا يتيح لهم أن يُقبلوا فى بلاد الغرب على ما خصص لهم من دراسات . ومن هنا كانت تلك المدة الطويلة التى قضاها بعضهم فى أوربا يستنزف من الدولة نفقة

(١) Bowring, op. cit. p. 147.

(٢) انظر تقريراً عن أعضاء البعثة المصرية سنة ١٨٢٦ وجنسياتهم وأعمارهم وفروع تخصصهم بقلم « جومار » فى Jour. Asiatique, II. p. 1828. Ecole Egyptienne de Paris. p. 96.

طائلة . وذلك لأنهم كانوا يقضون السنوات الأولى من إقامتهم فى دراسة (إعدادية) . وما بالك بطلبة يُبعث بهم إلى فرنسا لدراسة الإدارة المدنية والسياسية ، وهم لم يعرفوا بمصر شيئا من القانون أو اللغات الأجنبية ، أو بطلبة من الأزهر يُبعث بهم للتخصص فى دراسة اللغات الآجنبية وهم لم يدرسوا بمصر شيئا منها ، أو بطلبة يرسلون لدراسة الفنون البحرية أو الصناعات المختلفة ، وإعدادهم فى مصر سقيم لا يقدرهم على متابعة ما تستلزمه تلك الفنون من دراسات عميقة فى الرياضيات وغيرها !؟

ليس معنى ذلك أن أعضاء البعوث العلمية الأولى فى عصر محمد على لم ينهضوا جميعا بما ألقى عليهم من عبء ولم يحققوا آمال الحكومة فيهم ، فان كثيرا منهم قد نجح فى دراسته وعاد إلى مصر وساهم بأكبر نصيب فى النهضة التعليمية والاقتصادية والإدارية وغيرها . وعى التاريخ أسماء كثير منهم وترجم لهم ، وهم الذين تقلدوا مراكز بارزة فى الحكومة واشتركوا فى توجيه العمل الحكومى . وأهمل التاريخ كثيرا منهم كذلك ، وهم الذين لم يكونوا فى الطليعة ، بل قنعوا بأن يساهموا بنصيب فى بناء النهضة ، ومنهم كان المدرسون فى المدارس والصناع فى المصانع والأطباء فى مراكز الصحة ومستشفياتها ، ومنهم كان الموظفون فى فروع الإدارة المختلفة . ولكنا لا يجب أن نبخسهم جميعا حقهم .

على أن أعضاء البعثات لم يكونوا جميعا من هذا الطراز : فكثير منهم — مع طائل النفقات التى تكلفتها الدولة — لم يحققوا آمال الدولة فيهم ، وقد يرجع هذا إلى سوء إعـــدادهم فى مصر أو إلى توجيههم الوجهة التى لا تتفق ودراساتهم .

حقا إن الحكومة كانت تنفق على بعثاتها نفقات طائلة : حتى ليذكر الشيخ رفاعة رافع العضو ببعثة سنة ١٨٢٦ أنهم كانوا يُعدّون فى فرنسا « من

الموسرين بل من الأغنياء لتجملنا بالملبس الغريب عندهم ولنسبتنا لولى النعم ، ولكثرة هذه المصاريف فى تعليمنا وغيره من سائر ماذكرنا كان ناظر التعليم أو الضابط علينا يذكّرنا به فى أغلب الأوقات لنجتهد » .[١] ولم يكن «نظار التعليم أو الضباط» وحدهم هم الذين يذكرون الأعضاء بالنفقات الباهظة التى تنفق على تعليمهم وإيوائهم وكسائهم ، بل كان محمد على نفسه يذكّرهم بها دائماً ويتخذ ذلك ذريعة لحثّهم على العمل : كتب مرة إلى مختار بك مدير ديوان المدارس بصدد برامج الدراسة بمدرسة المهندسخانة « إن التعليم لا يجب أن يكون صورياً ، وإن جنابه العالى لم يرسل حكاكيان (مدير المدرسة) ليكون لورداً فى أوربا ، بل ليعود ويعلم أمثال هؤلاء التلاميذ ولينفع الأمة والبلاد ، ويخطره بأن يفهم حكاكيان بوجوب التدريس لهم بجدّ ورغبة صادقة وإلا أهلكه تحت العصا » ![٢] وكتب مرة إلى « حبيب أفندى » مأمور ديوانه يستعلم عن الكتب التى يترجمها « الأفندية العائدون من أوربا » ويطلب بياناً بأعمالهم وينبه إلى ضرورة العمل على الانتفاع بهم « والحيلولة دون الأمارة التى عملوها فى أوربا » ![٣]

أما تلاميذ المدرسة الحربية بباريس من أعضاء بعثة سنة ١٨٤٤ فقد قال عنهم إبراهيم باشا لما زارهم فى مدرستهم وقلق لتقدمهم الضئيل : « لقد أصبح كل منهم سلطاناً » ![٤]

ويقول يعقوب أرتين باشا إن مجلس المدارس غير الطريقة التى كانت متبعة فى إرسال البعثات قبل سنة ١٨٣٦ ، فلم يَعُدْ يرسل إلى أوربا إلا طلبة متخرجين فى المدارس الخصوصية ، عارفين لغة البلاد التى سيسافرون إليها

---

(١) رفاعة بك رافع : تخليص الابريز فى تلخيص باريز ص ١٤٨

(٢) دفتر ١٤٥ (معية) ص ٦ إلى مختار بك فى سلخ صفر ١٢٥٢

(٣) دفتر ٥٠ (معية) ص ٣ رقم ١٥١ إلى حبيب أفندى فى ١٢ جماد أول ١٢٤٨

(٤) Artin Pacha, L'Instruction Publique en Egypte, p. 85.

حتى يستطيعوا متابعة دراستهم العالية مباشرة فى مدارس الغرب بعد أن يكونوا قد حصلوا على الدراسة الكافية فى بلادهم . (١)

أما الشطر الأول من قرار المجلس الذى يذكره أرتين باشا: وهو ضرورة إتمام الطالب دراسته فى مصر قبل بعثه إلى الخارج، فقد حافظت عليه الحكومة على وجه العموم : فأعضاء البعثات المصرية بعد سنة ١٨٣٦ إلى نهاية عصر محمد على كان أكثرهم من خريجى المدارس الحربية والمدارس الخصوصية كالطب والمهندسخانة والعمليات والألسن ، على أثر تخرجهم فيها أو بعد تخرجهم واشتغالهم بالتدريس أو نحوه سنوات .

أما الشطر الثانى من القرار : وهو ضرورة إلمام الطلبة بلغة البلاد التى يوفدون إليها ، فليس لدينا من المعلومات ما يحملنا نرجح أن الحكومة أخذت به : فكثير من أعضاء بعثة ١٨٤٤ إلى فرنسا كانوا يجهلون اللغة الفرنسية ، ويحدثنا على مبارك (باشا) العضو فى هذه البعثة عن الصعوبات التى صادفوها فى تعلم هذه اللغة . (٢) وكذلك كان أعضاء بعثة المهندسخانة والمكتب العالى إلى انجلترا فى سنة ١٨٤٧ يجهلون اللغة الانجليزية حتى عُينَ لهم مترجم يعرف العربية والانجليزية . (٣) والواقع أنه كان من الصعوبة بمكان أن تعثر الحكومة على طلبتها من خريجى المدارس الخصوصية الذين يحذقون اللغات الأجنبية : فبرامج المدارس الخصوصية كلها كانت خلواً من اللغة الانجليزية إلا لفريق من تلامذة مدرسة الألسن فى سنيها الأخيرة . أما اللغة الفرنسية فقد ألغيت من برامج تلك المدارس على أثر تنظيم التعليم فى سنة ١٨٣٦ وقُصر تدريسها على تلاميذ مدرسة

---

(١) Artin Pacha, op. cit. p. 84.

(٢) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية م ٣ ج ٩ ص ٤٢

(٣) دفتر ٩٦ (مدارس عربى) ص ١٥٥٦ رقم ٦٢٧ إلى خزينة المدارس فى ٧ ربيع الأول ١٢٦٤

الألسن ، ثم أعيدت فى سنى العصر الأخيرة لمدرسى المدارس الخصوصية ومعيديها وفريق من تلامذتها .

وعقبة أخرى كانت تحد من نجاح الطلبة المبعوثين فى دراساتهم وتضعف من نشاطهم فى الأخذ عن البيئات الجديدة التى ذهبوا إليها ، وهذه العقبة هى تجمع أولئك الطلبة المبعوثين فى مكان واحد ، فان ذلك لا يتيح لهم أن يختلطوا بالأوساط الغربية ولا يقدرهم على حذق لغة البلاد التى يعيشون فيها والاستجابة للمؤثرات وملابسات الحياة الجديدة .

ذلك لأن مصر — فى عصر محمد على — كانت تتجه إلى الغرب ، وكانت فى حاجة إلى من يعينها على الاتجاه الصحيح النافع الذى لا يهز كيانها هزاً أو يقوض تقاليدها أو يزعزع النظام الاجتماعى فيها من أساسه . ولا شك فى أن النخبة من شباب البلاد الذين درسوا بمصر ثم أتموا دراستهم بأوربا كان يجب أن يكونوا عدتها وعونها فى هذا الاتجاه . ولكن (مبعوثى) محمد على لم يكن ثم فارق كبير بينهم وهم فى باريس أو لندرة وبينهم حين كانوا فى القاهرة : فهم يقضون معظم سنى بعثتهم فى مكان واحد يتكلمون اللغة العربية أو التركية ويحافظون على التقاليد وطرائق السلوك الشرقية ، حتى إذا عادوا إلى مصر جاءوها كما رحلوا عنها : محافظين من الوجهة الاجتماعية جاهلين الوسط الاجتماعى الذى عاشوا به شطرا من حياتهم . ولسنا نعنى بذلك المبعوثين جميعا ، فكثير منهم كان له من ذكائه وسرعة تعلمه اللغة الأجنبية واهتمامه الشخصى ماحفزه الى دراسة المجتمع الذى عاش به صدرا من شبابه . والشيخ رفاعة رافع الطهطاوى مثل طيب لهذا الفريق من الأعضاء ، وكتابه « تخليص الأبريز فى تلخيص باريز » — الذى يعتبر الثمرة الأولى لإقامته فى عاصمة الفرنسيين — حافل بدراسات (طريفة) للمجتمع الفرنسى كما شاهده (الشيخ) سنوات من النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وباستطرادات وإشارات إلى المجتمع

المصرى ، وكتبهُ بعد ذلك فى التربية والتعليم حافلة بما أفاد من تعليم الغرب وسنى مقامه فيه .

هذا والحق أن الحكومة كان يقع عليها المسئولية فى توجيه أعضاء بعثاتها نحو العمل الذى يتفق ودراساتهم ، والحق أنها أخطأت فى ذلك أحيانا كثيرة وخاصة فى السنين الأولى من بدء نظامها التعليمى ، حين لم تكن السبيل واضحة أمام الحكومة وحين لم تكن قد استقرت بعدُ المؤسسات العلمية التى أنشئت . ويؤدى بنا تقرير هذه الحقيقة إلى البحث فى مجال العمل أمام أعضاء البعثات بعد عودتهم إلى مصر :

كان محمد على يرى أن أول واجب على هؤلاء الأعضاء ترجمة العلوم التى درسوا فى أوربا ، فإن نقل هذه العلوم إلى العربية أو التركية يمكّن الحكومة من متابعة إصلاحاتها . لذلك كان أول عمل أسند إليهم إمدادهم بالكتب والتنبيه عليهم بسرعة ترجمتها . وقد بلغ من حرص الحكومة على أن يكون لديها أكبر قدر من الكتب المترجمة فى أقصر وقت أن كانت تقدم لهم الكتب وهم ما يزالون مقيمين فى المحجر الصحى . ثم كانت تحتجزهم فى مكان خاص ولا تدعهم يخرجون إلى أهلهم حتى يتموا ترجمة ما عندهم من الكتب . وكثير منهم كانت الترجمة تشغله عن واجبات وظيفته التى يتقلدها ، [1] والبعض منهم لم يكن له من حذق اللغات الأجنبية والعربية والقدرة على التحرير والكتابة ما يمكّنه من ترجمة ما عهد إليه ترجمة صحيحة . [2] فلما أنشئت مدرسة الألسن وكوّن قلم الترجمة من خريجيها رُفع عن أعضاء البعثات عبء لا شك كان ثقيلا على أكثرهم .

أما الأعضاء الآخرون — وخاصة الذين درسوا منهم الصناعات — فلم تكن

---

(١) دفتر ٦٧ (معية) رقم ٧٦١ إلى ناظر الجهادية فى ١١ رجب ١٢٥١

(٢) دفتر ٤٩ (معية) رقم ١٦٥ إلى الخزينة دار فى ٧ شوال ١٢٤٨

الحكومة لتطمئن إلى كفايتهم فى عملهم إلا بعد اختبارهم عمليا وقضائهم مدة يمرنون فيها على العمل ويظهرون فيها جدارتهم . (١)

وكثير من الأعضاء الذين بُعثوا إلى فرنسا فى عام ١٨٢٦ عادوا بعد ست سنوات أى فى عام ١٨٣٢ . وفى نحو ذلك العام كان إنشاء كثير من المدارس الخصوصية والمكاتب . وقد قام بعض هؤلاء الأعضاء بالنصيب الأوفى من تنظيم تلك المدارس والقيام على شئونها . فمنهم اختير النظار والمدرسون وخاصة فى مدرستى المهندسخانة والطب . وبعد ذلك بأربعة أعوام بدىء بتنظيم المدارس : فكوّنت لذلك لجنة تجمع بين بعض المشتغلين بالتعليم فى مصر من الفرنسيين وبعض المصريين والأتراك والأرمن الذين أتموا دراستهم بأوربا . ولا شك فى أنه كان لهؤلاء المصريين و(المتمصرين) أثر كبير فى تنظيم مراحل التعليم ووضع اللوائح لكل مرحلة . ثم أنشىء شورى المدارس من نفر منهم . وكان عليهم أن يقوموا بتنظيم المدارس والمكاتب طبقاً للوائح التى وضعتها اللجنة الأولى ، ولم يكن ذلك بالعمل الهين . وبعد استبعاد الأجانب من إدارة المدارس الخصوصية والتدريس فيها حل محلهم أعضاء البعثات الأولى ، وقد قاموا بعملهم على خير وجه . وانبث كثير من أعضاء البعثات فى فروع الحكومة الأخرى : فى الجيش والبحرية والمصانع والدواوين وغيرها . وكان بعضهم — كالأجانب من قبل — يقومون بواجبات وظائفهم ويعلمونها لعدد من التلاميذ المصريين . (٢)

ولكن الحكومة — كما أسلفنا القول — كانت تخطىء كثيراً فى توجيه (المبعوثين) إلى الأعمال التى تتفق ودراساتهم . وقد أشار إلى ذلك بعض الكاتبين الذين كتبوا فى عصر محمد على ، وإن بالغوا فى ذلك

(١) دفتر ٦٧ (معية) إلى حبيب أفندى فى ٢١و٢٩ رجب ١٢٥١

(٢) دفتر ٤٧ (مدارس عربى) ص١٧٨٢ رقم٤٢٦ إلى ديوان خديوى فى ١٠ ربيع الأول ١٢٦٣

كثيرا: (١) فالذين درسوا منهم الزراعة طلب إليهم القيام بأعمال أخرى ، والذين درسوا الإدارة الحربية يعينون فى الإدارة المدنية ، وعضو بعثة درس صناعة الحرير بفرنسا يعود إلى مصر ليلحق بمدرسة الألسن فيترجم كتابا فى التاريخ القديم . (٢) وقد يرجع هذا كما ذكرنا إلى أن المنشآت العلمية لم تكن قد استقرت فى بادىء الأمر ، ولم تكن ثمة (يد) قوية ثابتة مستنيرة تعنى بتوجيهم جميعاً الوجهة الصالحة ، كما قد يرجع إلى أن حرص الحكومة على الاكثار من الطلبة المتعلمين فى بلاد الغرب كان يحملها فى كثير من الأحيان على أن ترسل بعضاً منهم فى بعثات قد تطول إلى سنين عدة ، قبل أن يكون لديها فكرة واضحة عن نوع العمل الذى سيعهد إليهم القيام به حين يعودون . وأغلب هؤلاء صناع درسوا صناعات مختلفة بأوربا : فمنهم من يعود فلا يجد مصنعاً يعمل به ، وتضطر الحكومة إلى منحه قدراً من المال « منعاً لمضايقته » . (٣) ومنهم صيدليان درسا صناعة الصابون بأوربا ، حتى إذا عادا لم يجـــدا مصنعاً يعملان به ، واشتد الجدل بين (السلطات) المختلفة : «هل يشتغلان لحساب الميرى أو لحساب أنفسهم» ، وأخيراً ألحقا بمدرسة الطب « حيث يقرءان فيها دروس الكيمياء ويتمان تبييض ما ترجماه فى صناعتهما » . (٤) ومنهم الصناع الذين تعلموا (الصياغة) فى أوربا فلما عادوا « أخذوا يجوبون البلد بلا عمل ويقضون أوقاتهم فى التسكع هنا وهناك » ، حتى تداركتهم عناية محمد على فأتم لهم (دكاكينهم) ومنحهم رأس مال يستعينون به فى عملهم ، « فإذا شاؤا جلسوا فيها وعملوا على تدبير شئونهم ، وإذا شاؤا اتباع طريق السفاهة التى هم سائرون فيها نفضت يدى منهم ومن

(١) Hamont, op. cit. II. p. 193 — 194.

(٢) دفتر ٢٠٠١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٨ ذى الحجة ١٢٥١

(٣) دفتر ١٤٥ (معية) ص ٢٠ رقم ٦٧ إلى مختار بك فى ٢٨ شوال ١٢٥٢

(٤) دفتر ٨٥ (مدارس عربى) ص ١٢٣٣ رقم ٧٩ إلى المعية الخديوية فى ١١ صفر ١٢٦٤

المال الذى صُرف عليهم فليرحلوا إلى جهنم » . (١)

وهنا وجه آخر من النقد الذى يوجه إلى نظام البعثات فى عصر محمد على، وهو سن التلاميذ المبعوثين : فقد ردد بعض القائمين على شئونها أن معظم الأعضاء المتقدمين فى السن لا يبلغون من النجاح فى دراستهم مايبلغه صغار السن . فهؤلاء لهم من ذكائهم وحسن استعدادهم وسرعة استجابتهم لعوامل المجتمع الجديد الذى يعيشون فيه ما يفضلون به (زملاءهم) الذين خلفوا وراءهم عهد الشباب واستقبلوا عهد الرجولة ، وتكونت لهم عادات فى العمل والتفكير قد يكون العدول عنها عسيرا عليهم . (٢)

وقد يكون هذا حقاً : فالشباب أكثر إقبالا على العمل وأكثر مرونة ، ولكن المغالاة فى تفضيل صغر سن التلاميذ ليست من الصواب فى شىء : فبعثُ تلاميذ صغار لا يعدون التاسعة من عمرهم — كما أريد فى وقت ما — إلى بلاد غريبة قبل أن يحذقوا لغة بلادهم ويألفوا عاداتها وتمتزج روحهم بروحها ويعرفوا لوطنهم حقوقه ، نقول إن بعث مثل هؤلاء الأطفال فى تلك السن التى تتفتح فيها الطفولة ويسهل فيها التأثير لا شك يعرضهم ويعرض الشبيبة فى البلاد إلى أخطار لا يعرف مداها ، فهم عرضة لأن ينسوا بلادهم التى درجوا بها ولغتهم التى لاكتها ألسنتهم مذ شبوا عن الطوق وأهلهم الذين عاشوا بينهم . وهم بعدُ لا يعرفون سوى بلاد غريبة ولغة غريبة وأهلا غرباء . إن من السهل حقا أن يطبع هؤلاء الصبية على عادات الغرب وأن يحذقوا لغاته ، إلا أنهم — وإن حسن مقامهم فى تلك البلاد الغربية التى درسوا بها وعاشوا فيها صدر شبابهم — لا يتسنى لهم أن يعودوا فيتابعوا حياتهم فى وطنهم فى ثقة واطمئنان . هذا والبلاد لا يمكن أن تفيد منهم الفائدة المرجوة : فهم لا يعرفون أدواءها ، ذلك لأنهم لا يشعرون بشعور شعبهم ولا يفكرون تفكيره

---

(١) دفتر ١٤٥ (مجلس الملكية) ص ١٢ رقم ٥١ إلى مختار بك فى ٢٨ جمادتان ١٢٤٢

(٢) Jomard, Journal Asiatique, II. 1828, p. 105.

ولا ينحون فى الحياة نحوه ، فهم كالأجانب الذين نستدعيهم لينظروا فى أدوائنا ويصفوا لها العلاج . ووصف العلاج الصحيح لا يتاح إلا لمن تمكنه ظروفه وشعوره واستعداداته من الوقوف على مظاهر الضعف فى نواحى المجتمع المتباينة.

وكان محمد على يرى هذا الرأى : كتب إلى ابنه إبراهيم باشا — وقد طلب إليه بعض التجار الانجليز أن يرسل إلى انجلترا أولادا فى سن الثانية عشرة والثالثة عشرة ليتعلموا البحرية — يقول : « إن إيفاد مثل هؤلاء الأولاد إلى انجلترا سيدعو الى ضحك الأوربيين ، كما أنه سيتعذر على هؤلاء التلامذة أن يعودوا إلى تعلم القراءة والكتابة بلسان وطنهم ، وإنه بما بذل من جهد فى سبيل التقدم وترك القديم البالى من العرف المصرى ، نكون بهذا العمل — إيفاد أولاد صغار لا يعرفون القراءة والكتابة بلغة بلادهم — قد أثبتنا أننا لم نترك العقلية المصرية القديمة » . [1]

والراجح أن إبراهيم باشا لم يكن يميل الى رأى أبيه . وقد أوشكت هذه الفكرة — فكرة إرسال تلاميذ صغار السن إلى أوربا — أن تنفذ فى أواخر عصر محمد على . يقول أرتين باشا : [2] «إن نوبارا (باشا) — وكان سكرتيرا لابراهيم باشا فى رحلته الأخيرة إلى فرنسا — أظهر لمولاه جميع المساوىء والعيوب الناشئة من النظام المتبع من حيث اجتماع التلاميذ فى مكان واحد ، وأشار عليه بألا يرسل إلى أوربا إلا أطفالا تتراوح أعمارهم بين الثامنة والتاسعة ، على أن يفصل بعضهم عن بعض فى (المعيشة) أو يوضع كل اثنين منهم فى (بنسيون) » . ويقول أرتين باشا إن إبراهيم باشا انحاز إلى آراء سكرتيره نوبار ، وإنه تشبع بعد عودته من رحلته فى أوربا بآراء تضاد نظام التعليم القائم فى مصر : فقد أحس أن « التعليم »

---

(١) دفتر ٣٧ (معية) رقم ٤٨٧ إلى إبراهيم باشا فى ٢١ شعبان ١٢٤٤

(٢) Artin Pacha, op. cit. p. 85 — 89.

لايمكن فصله عن « التربية » ، ولما رأى أن « التربية » لاتلق عناية بالمدارس المصرية ، فكر أن يرسل إلى أوربا فريقا من التلاميذ الصغار الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعاشرة ، حتى يكون للبلاد نخبة من الشبان الذين درسوا دراسة (تامة) فى أوربا وتشبعوا بالتربية الأوربية ، فانهم سيعودون من أوربا وأعمارهم تتراوح بين العشرين والخامسة والعشرين ، بينما يعود الطلبة على النظام القديم فى سن السابعة والعشرين أو الثلاثين ، تربيتهم مهملة وتعليمهم ناقص ، لأنه على غير أساس ثابت ، مهما يكن مدى إعدادهم بمصر ودرجة ذكائهم .

ويقول أرتين باشا أيضا إن إبراهيم باشا أراد تطبيق هذا النظام الجديد بالزام موظفيه وضباطه بأن يبعثوا بأبنائهم فى سن الثامنة أو العاشرة إلى كليات أوربا على نفقتهم الخاصة ، لأنه كان يرى — بحق — أن التعليم والتربية اللذين يؤخذهما شباب البلاد لايجديان ولا يفيدان الدولة إلا بقدر مايتحمل الآباء من نفقات لتربية أبنائهم ، لأن الآباء فى تلك الحال يبذلون عناية كبيرة لتربية أبنائهم وتقدمهم ، وتقدم الأبناء كفيل بتقدم المجتمع كله . ولكن إبراهيم باشا لم يقدَّر له أن يعيش ليحقق شيئا من آرائه .

وحاول نوبار باشا — باعث تلك الآراء فى نفس إبراهيم باشا كما يقول يعقوب باشا أرتين — مرة أخرى تنفيذها فى عهد الخديو إسماعيل . ولكن — على غير رغبة هذا الوزير — أعيدت المدرسة المصرية بباريس على مثال المدرسة الأولى فى عهد محمد على . وفى سنة ١٨٨٤ وافق الخديو توفيق على آراء وزيره نوبار باشا وحث على إرسال طلاب صغار السن الى أوربا ، وضرب لذلك مثلا بإرسال نجليه الأميرين عباس حلمى ومحمد على إلى سويسرا ، وكان عمر الأول اثنتى عشرة سنة والثانى عشر سنوات .

وأخيرا عادت الفكرة منذ سنوات ، وأخذت بها الجامعة المصرية القديمة ،

ولكن الفكرة لم تنجح لما أسلفنا من قول، فرؤى العدول عنها.

والآن نورد حديثا موجزا عن أهم البعوث التي أرسلت في عهد محمد علي، مستندين في ذلك الى مؤلف سمو الأمير عمر طوسون.[1] فهو أوفى وأحدث مرجع في هذا الموضوع، مضيفين إليه بعض تحقيقات في ضوء سجلات ديوان المدارس التركية والعربية، وهي التي لم يُتَح لسمو الأمير الاطلاع عليها والانتفاع بما جاء فيها خاصا بالبعوث العلمية.

البعثة الأولى – إلى إيطاليا سنة ١٨١٣

ذكرنا في حديثنا عن السياسة التعليمية في عصر محمد علي أن الحكومة اتجهت إلى إيطاليا أولا: فمن إيطاليا استدعت الأساتذة والضباط، ومن المؤلفات الإيطالية اختارت ما قام بترجمته أعضاء بعثاتها، ودرست اللغة الإيطالية في بعض المدارس المصرية، وإلى إيطاليا سافر أعضاء البعثات الأولى: سافروا إلى ليفورن وميلان وفلورنسة وروما وغيرها من بلاد إيطاليا، ولم يعرف منهم إلا «نقولا مسابكي» الذي أرسل إلى ميلان «مع ثلاثة أطفال من رفقائه» حوالي سنة ١٨١٥ لتعلم فن سبك الحروف وصنع أمهاتها ودراسة فن الطباعة. وبعد أن أقاموا بها أربع أو ثلاث سنوات عادوا ومعهم آلات وحروف صنعت في إيطاليا، وألحقوا أولا بمعية «عثمان نور الدين» ببولاق.[2] ثم تقلد «مسابكي» إدارة مطبعة الحكومة ببولاق، وظل مديراً لها إلى أن توفي في سنة ١٨٣٠ أو أوائل سنة ١٨٣١ (منتصف سنة ١٢٤٤هـ).[3]

(١) البعثات العلمية في عهد محمد علي وعباس وسعيد. الاسكندرية سنة ١٩٣٤

(٢) دفتر ٦ (معية) رقم ٧٢٥ إلى الكتخدا في ١٥ ذي الحجة ١٢٣٦

(٣) Geiss, Hist. de l'Imprimerie, Bull. de l'Institut d'Egypte, 5 è série, 1908. p. 201.

البعثة الثانية — إلى فرنسا سنة ١٨١٨

لم يعرف من الأعضاء الذين بعثوا إلى فرنسا فى سنة ١٨١٨ سوى « عثمان نور الدين » ، ويذكر سمو الأمير عمر طوسون أنه أرسل إلى فرنسا سنة ١٨١٩ وعاد سنة ١٨٢٠ ، وصار فى سنة ١٨٢٨ رئيساً للبحرية المصرية . وكان عثمان نور الدين — أو « الحاج عثمان سقه باشى زاده » كما تدعوه أوراق الحكومة الأولى — ساعد الحكومة الأيمن فى ترجمة الكتب ، فقد خصص له قصر إسماعيل ابن محمد على فى بولاق ، وألحق به بعض المترجمين ليترجموا « كتب الفنون الحربية وسائر الصنائع »[1] وبعض التلاميذ ليدرسوا الهندسة واللغات العربية والتركية والإيطالية ، وكان بها مطبعة لطبع الكتب التركية والعربية والفرنسية وجريدة أسبوعية تحرر بالعربية والإيطالية (كذا) .[2]

البعثة الثالثة — إلى فرنسا سنة ١٨٢٦

كان عدد أعضائها أربعين ، ثم ألحق بهم إمامها الشيخ رفاعة ووكيل خرجها ثم عضوان آخران ، وقد استقبلهم « جومار » عضو المجمع العلمى الفرنسى وصديق مصر والدوائر العلمية فى باريس خير استقبال . وقد اختص أربعة أعضاء بدراسة الإدارة الملكية ، ومثلهم للإدارة الحربية ، وثلاثة للإدارة البحرية ، وعضوان لدراسة العلوم السياسية ، ومثلهما لقوى المياه (الهيدروليكا) ، وعضو لدراسة العلوم الميكانيكية ، وثلاثة أعضاء للهندسة الحربية ، وعضوان للمدفعية ، وآخران لصب المعادن وصنع الأسلحة ، ومثلهما للطبع بأنواعه والحفر ،

---

(١) دفتر ١١ (معية) رقم ٢٥٣ فى ٨ ربيع الثانى ١٢٣٨

(٢) نقل هذا « Geiss » عن : A Narrative of the Expedition to Dongola & Sinnar under the Command of H. E. Ismail Pacha, 1822. لأميركى فى خدمة محمد على كنى عن اسمه بحرفى G. B.

وأربعة أعضاء لدراسة العلوم الكيميائية، وعضوان للطب والجراحة، ومثلهما للزراعة، وثلاثة أعضاء للتاريخ الطبيعي والمعادن، وعضو للترجمة. أما الآخرون فلم تكن قد عينت لهم ـ حين كتب جومار مدير البعثة تقريره الذي أخذنا عنه ـ دراسات خاصة.(١)

وكان منهم المصريون و(المتمصرون) الذين دخل آباؤهم في خدمة الوالي، وبذلك ارتبطت حياتهم ومصالحهم بالبلاد التي يعيشون فيها. فمن التلاميذ المبعوثين ـ غير رؤسائهم الثلاثة ـ أربعة من المسيحيين الأرمن وثلاثون من المسلمين: منهم ثلاثة من المشايخ وثمانية عشر طالبا ولدوا بمصر وستة عشر ولدوا خارج مصر وثمانية عشر من أصل عثماني. ومن هؤلاء العثمانيين اثنا عشر جاءوا إلى القاهرة مع أهلهم، أما الستة الآخرون فقد ولدوا بمصر. ويقول «جومار» إن الذين أتوا إلى القاهرة وهم صغار السن هم أكثر الطلبة تقدما، أما الذين جاءوها وقد تجاوزت أسنانهم الرابعة عشرة فأقل تقدما ونجاحا، ماعدا «أرتين أفندي». ونلاحظ أن التلاميذ الذين من أصل أرمني أو عثماني اقتصرت دراستهم على الإدارة الحربية والمدنية والبحرية وفن السياسة. أما المصريون فخصصت لهم المواد الأخرى كالطب والعلوم الكيميائية والترجمة وغيرها. وكما اختلفوا في جنسياتهم تباينوا في نوع الدراسة التي درسوا بمصر. ومن هؤلاء التلاميذ خمسة وعشرون تلقوا دروسهم في مدرسة قصر بولاق (بمعية عثمان نور الدين) وفي مدرسة قصر العيني، وثلاثة في الأزهر وخمسة في مدارس خصوصية وعلى أشخاص مختلفين. وكانت دراستهم (الإعدادية) في مصر قاصرة على اللغة العربية ومبادىء اللغة الإيطالية والحساب لفريق منهم.

وكذلك اختلفت أعمارهم: فمنهم من بلغ السابعة والثلاثين والتاسعة

(١) Jomard, Journal Asiatique, II. 1828, p. 105.

والعشرين ، ومنهم كثيرون تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة والعشرين ، ومنهم من لم يتعد الخامسة عشرة .

وفى باريس سكنوا جميعا فى بيت واحد — دعى المدرسة المصرية — وبدأوا القراءة والدرس : فدرسوا التاريخ والحساب والهندسة ، وأهم من ذلك اللغة الفرنسية قراءة وكتابة . وبعد عام تقريباً تفرقوا « فى مكاتب متعددة ، كل اثنين أو ثلاثة أو واحد فى مكتب مع أولاد الفرنساوية أو فى بيت مخصوص عند معلم مخصوص بقدر معلوم من الدراهم فى نظير الأكل والشرب والسكنى والتعليم وتعهد أمورنا من غسل ونحوه » . على أن صلتهم بالبيت الأول الذى ظل به « الأفندية » الرؤساء والذى سماه رفاعة رافع « البيت المركز » لم تنقطع : إذ لم يكن يسمح لهم بالتغيب عن (البانسيونات) التى كانوا يقيمون ويدرسون بها إلا بعد إذن « الأفندى النوبتجى » ، وإذا عنّ لعضو أن يشكو شيئا فعليه أن يرفع شكواه إلى رئيسه .

وقد رغبت الحكومة فى حثهم على العمل حتى يفيدوا من دراستهم فى بلاد الغرب أكبر فائدة ، فكانوا يمتحنون فى كل شهر ، « ويكتب فى آخر كل شهر كسبهم وتحصيلهم وأفعالهم على الصحيح ، ولأجل هذا ينبغى التفكر فى هذا بالخصوص لأجل تحصيل غرض ولى النعم » .

وقد انتظم هذا كله — تعليمهم ونزهتهم وامتحاناتهم وتأديبهم — « قانون تامه » من أربع عشرة مادة « هى خلاصة أفكارهم (يقصد الأفندية الرؤساء) ونتيجة أذهانهم وأذهان الأعيان الذين وصاهم علينـــا حضرة أفندينـا » [1]

وقد بلغ من اهتمام محمد على بحثّ تلاميذه على العمل أن كان يوجه إليهم فى كل بضعة أشهر « فرمانات » يحضهم فيها على التحصيل والدرس : « فمن هذه

(١) رفاعة بك رافع : تخليص الأبريز فى تلخيص باريز ص ١٤٨ — ١٥٠

الفرمانات ما كان من باب ما يسمى عند العثمانية إحياء القلوب (يقصد التشجيع) .... ومنها ما كان من باب التوبيخ » . وفى هذه « الفرمانات » التى أورد طائفة منها الشيخ رفاعة رافع العضو فى هذه البعثة كان محمد على يذكر لأعضاء البعثة ما لاحظه على « جداول » دراستهم الشهرية التى أرسلت إليه من نجاح أو تقصير ، فإن كان الأول فهو يهنئهم ويطالبهم بالمزيد ، وإن كان الآخر فهو يؤنبهم ويتهددهم .... « فاذا لم تغيروا هذه البطالة وجئتم الى مصر بعد قراءة بعض الكتب فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون فان ظنكم باطل ، فعندنا ولله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة ، فكيف تقابلونهم إذا جئتم بهذه الكيفية ؟ » .[1]

وقد عاد معظم أعضاء هذه البعثة الى مصر فيما بين سنتى ١٨٣١ و ١٨٣٣ ، فساهموا فى إنشاء المكاتب والمدارس الخصوصية التى أنشئت فى تلك السنوات ، وكانوا عون الحكومة فيما أنشأت من مدارس ومجالس ومؤسسات علمية وحربية واقتصادية .

ومن مشاهير رجال هذه البعثة « عبدى بك » ، وهو الذى صار رئيسا للمجلس العالى ثم مديرا للمدارس فى عهد عباس الأول ، و « مصطفى بك مختار » أول مدير لديوان المدارس ، و « أرتين بك » الذى عُيِّنَ بعد عودته عضوا بشورى المدارس ثم سكرتيرا للوالى ثم مديرا للشؤون الخارجية ، و « حسن (باشا) الاسكندرانى » الذى درس بفرنسا الفنون البحرية وأتمها عملا بانجلترا وأصبح فيما بعد ناظرا للبحرية المصرية ، و « أسطفان بك » الذى اشترك مع أرتين بك فى عضوية شورى المدارس ثم عين ناظرا للخارجية ، و « محمد بيومى » أستاذ الرياضيات الشهير بمدرسة الهندسة . ولا ننسى « رفاعة بك رافع » مدير مدرسة الألسن وإمام النهضة الأدبية ، و « مظهر » (باشا) المهندس

---

(١) المصدر السابق : ص ١٥١

المصرى الكبير الذى بنى منار الاسكندرية ثم اشترك فى تشييد القناطر الخيرية وتقلد بعد ذلك وزارة الأشغال . وغيرهم كثيرون .

بعثات أخرى إلى فرنسا

ومن بعد سنة ١٨٢٦ إلى سنة ١٨٣٣ أرسِلَ إلى فرنسا سبعون تلميذاً : منهم ستة تلاميذ أوفدوا لمدرسة الفنون البحرية بثغر طولون فى أغسطس سنة ١٨٢٨ ، وسبعة لدراسة الهندسة والرياضيات ، واثنان للإدارة الملكية ، والباقون لصناعات مختلفة .

بعثات صناعية إلى النمسا وفرنسا وانجلترا (سنة ١٨٢٩)

وعدد المبعوثين جميعا ثمانية وخمسون : منهم أربعة وثلاثون إلى فرنسا لدراسة صناعة (البصمة) وآلات الجراحة والساعات والصياغة وصناعة الشمع والأقمشة والأسلحة ، وأربعة إلى النمسا لتعلم صناعة نسج الصوف ، وعشرون إلى انجلترا لتعلم الميكانيكا وصناعة صب المدافع والصينى وغيرها . وقد ذكرت هذه البعثات الصناعية فى نصٍّ تركى بالوقائع المصرية . [١]

وقد عثر سمو الأمير عمر طوسون على أسماء الأعضاء الذين درسوا بفرنسا وفريق من الأعضاء الذين درسوا بانجلترا ما عدا سبعة منهم . [٢] وعثرنا فى سجل تركى لديوان المدارس [٤] على أسماء سبعة أعضاء بعثة صناعية ، نرجح أنهم يكملون الأسماء التى عثر عليها سمو الأمير . وفيما يلى بيان أسمائهم ورتبهم ووظائفهم التى كانوا يتقلدونها فى سنة ١٢٦٠ (١٨٤٤) :

---

(١) الوقائع المصرية العدد الصادر فى ١٦ ربيع الثانى ١٢٤٥ (١٥ أكتوبر ١٨٢٩ م)
(٢) الأمير عمر طوسون : البعثات العلمية ... ص ١١٨
(٣) دفتر ٢٠٩٤ (مدارس تركى) ص ٦١ رقم ٤٠٤ إلى الكتخدا فى ٨ صفر ١٢٦٠

أحمد شعلان أفندى — ورتبته صاغقول وصناعته سباك وكان ناظراً لمعمل السبك .

محمد غانم أفندى — ورتبته صاغقول وصناعته سباك وكان رئيسا (لأسطوات) معمل السبك .

أحمد وهيب أفندى — ورتبته صاغقول وصناعته مهندس ميكانيكى . وكان مقيداً بمدرسة العمليات واشتغل فى تركيب ماكنة المبيضة وإنشاء قناطر وطرق .

شيمى دياب أفندى — ورتبته يوزباشى وصناعته مهندس ماكينات ، وكان يعمل بمدرسة العمليات فى تركيب آلات الخيوط القطنية .

رجب حسن أفندى — ورتبته ملازم ثان وصناعته معدّن ، ويعلم تلاميذ مدرسة العمليات دروس المعادن ويشتغل بتجربة الحديد الذى جلب من الصعيد .

سليمان أحمد أفندى — ورتبته ملازم ثان وصناعته معدّن ويعمل ضابطاً بمدرسة العمليات .

على عبد الرحيم أفندى — ورتبته ملازم ثان وصناعته صانع أبسطة ويترجم كتاباً عن معمل القطن . وهو زميل حنفى إسماعيل أفندى (أو إسماعيل حنفى أفندى كما يذكر سمو الأمير) فى تعلم صناعة الأبسطة ، وكان هو الآخر يترجم كتاباً فى صناعة الآلات .

فاذا أضفنا هذه الأسماء السبعة إلى الأسماء التى ذكرها سمو الأمير عمر طوسون عرفنا أسماء أعضاء البعثات الصناعية إلى انجلترا فيما بين ستى ١٨٢٦ و ١٨٣٣! .

أما الأعضاء الأربعة الذين درسوا بالنمسا فلم يذكر منهم سمو الأمير سوى واحد ، هو « مصطفى المجدلى » . ويمكننا أن نضيف إليه عضوين آخرين

درسا بالنمسا ولم يذكرهما سمو الأمير فى كتابه : وهما « خليفة حسن » وكان من خريجى مدرسة المدفعية ، وأتم دراسته بالنمسا ثم عُينَ مدرسا للكيمياء بمدرسة المهندسخانة ، [١] و « مصطفى السلمونى » وقد درس بالنمسا صناعة الزجاج ، وعين بعد عودته معاونا « للمعدنجى » الفرنسى . [٢]

بعثة بحرية إلى انجلترا (سنة ١٨٢٩)

وكانوا أربعة من تلاميذ المدرسة البحرية بالاسكندرية ، وقد عملوا بعد عودتهم فى الأسطول المصرى ، وقاموا بتعريب اللوائح البحرية الانجليزية لاستعمالها فى البحرية المصرية . وقد ترجم لهم جميعا سمو الأمير عمر طوسون . [٣]

بعثة الأحباش إلى فرنسا (سنة ١٨٣٢)

ذكر الدكتور كلوت بك أنهم كانوا سبعة . ولم يعثر سمو الأمير إلا على أسماء ثلاثة منهم : وهم « محبوب » ، « ومرسال » ، « وبلال » ، وأضاف إليهم « وارى بن كلهو » عن صورة من مجموعة أثرية لبعض الطلبة الموفدين إلى فرنسا فى عهد محمد على . وفى سجلات المعية التركية يسأل محمد على عما إذا كان قد أرسل فيمن أرسل إلى أوربا ثلاثة من الأحباش يدعون « بلال » و « محبوب » و « مرجان » [٤] لا « مرسال » الذى ذكره سمو الأمير .

البعثة الطبية الى فرنسا (نوفمبر ١٨٣٢)

وكانت مؤلفة من اثنى عشر عضوا من أوائل المتخرجين فى مدرسة

---

(١) دفتر ١١ (مدارس عربى) ص ٤٠٣٦ رقم ٣٢٣ إلى المهندسخانة فى ٢٢ ربيع الثانى ١٢٦١
(٢) دفتر ٥٤ (مدارس عربى) ص ١١٩ رقم ٣ إلى خزينة المدارس فى ٢٢ رمضان ١٢٦٢
(٣) الأمير عمر طوسون : البعثات العلمية ... ص ١١٤ — ١١٧
(٤) دفتر ٦٧ (معية) رقم ٢١٣ إلى باقى بك فى ٢٥ رجب ١٢٥١

الطب البشرى ومن بعض المصححين بالمدرسة .[١] وكانوا جميعا من طلبة الأزهر قبل إلحاقهم بالطب، ماعدا «محمد على البقلى» الذى درس بمكتب ابتدائى ثم بالمدرسة التجهيزية بأبى زعبل ثم بمدرسة الطب .[٢]

ذهب بهم الدكتور كلوت بك إلى جامعة باريس حيث امتحنهم أساتذتها، فأظهروا من الذكاء والمهارة ما دعا كبار رجال الطب فى باريس الى الاعجاب بهم.[٣]

ويذكر على باشا مبارك [٤] ويتابعه سمو الأمير عمر طوسون [٥] أن أعضاء هذه البعثة عادوا الى مصر خطأ قبل أن يضعوا رسائلهم ، وكان ذلك فى مارس سنة ١٨٣٦ ، فأمر محمد على باعادتهم ثانية ، فعادوا ووضعوا رسائلهم . أما الأوراق الرسمية فلا تذكر إلا إعادة «الطبيب محمد على أفندى (البقلى) والرسامين إسماعيل أفندى ومراد أفندى» إلى فرنسا مع زيادة مرتباتهم ومنحهم نياشين .[٦] أما الأطباء الآخرون فعينوا مساعدين ثم مدرسين بمدرسة الطب فى نحو التاريخ الذى ذكره سمو الأمير .

أما ما ذكره على باشا مبارك وسمو الأمير من أن أعضاء البعثة عادوا إلى مصر خطأ ثم أعيدوا إلى فرنسا فقد يرجع إلى أنهم لم يعودوا الى مصر معا ، بل عاد منهم خمسة فى أواخر عام ١٢٥١هـ (١٨٣٦ م) ، ثم عاد الباقون بعد ذلك بعامين ، وقد جلوتا هذا فى حديثنا عن مدرسة الطب . وعلى ذلك يكون

---

(١) الوقائع المصرية : العدد ٤١٢ فى ٧ ربيع الأول ١٢٤٨

(٢) الأمير عمر طوسون : البعثات العلمية ... ص ١٣١ — وبهذه المناسبة نذكر أن محمد على البقلى لم تنتخبه الحكومة مع زملائه أولا بل انتخبت تلميذاً غيره يدعى «ريحان أفندى» ، وقد توفى بعد اختياره فاختير البقلى بدلا منه — وهكذا انفسح المجال أمام محمد على البقلى للدراسة وخدمة البلاد والثراء والشهرة . الوقائع المصرية : العدد ٣٩٩ فى ٣ صفر سنة ١٢٤٨

(٣) محمد لبيب البتانونى : تاريخ كلوت بك (مترجم عن الفرنسية) ص ١٤

(٤) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية م ٣ ج ١١ ص ٨٥

(٥) الأمير عمر طوسون : البعثات العلمية ... ص ١٢٣

(٦) دفتر ١٤٥ (مجلس ملكية) س ٢ رقم ٨ إلى مختار بك فى ١٤ المحرم ١٢٥٢

« الدكتور محمد على البقلى » قد عاد مع الخمسة الذين عادوا فى أواخر عام ١٢٥١ قبل أن يتم رسالته ، فأعادته الحكومة إلى فرنسا ، فلما أتمها عاد مع الأعضاء الباقين فى أوائل عام ١٢٥٤ (١٨٣٩) . [١]

وفى حديثنا عن مدرسة الطب ذكرنا كيف قوبل هؤلاء الأطباء المصريون من أساتذة مدرسة الطب الأجانب ، وكيف أنكروا عليهم جدارتهم بالتدريس فعينوا مساعدين لهم أولا ثم استقلوا بالتدريس بعد ذلك، فكانوا أول أساتذة مصريين بها . ولا ينكر أثرهم فى التدريس وفى ترجمة كثير من كتب الطب إلى اللغة العربية . فعلى أكتافهم قامت نهضة الطب فى مصر . وقد اشتهر من بينهم الدكتور إبراهيم بك النبراوى وكان طبيباً خاصاً للوالى ، ومحمد على البقلى باشا وقد وضع رسالته فى الرمد الصديدى فى مصر ، ومحمد الشافعى بك الذى يعتبر أول رئيس مصرى لمدرسة الطب ، وغيرهم كثيرون ، عينوا بمدرسة الطب مساعدين ثم مدرسين ثم أساتذة ، حتى إذا وصلنا إلى أواخر عصر محمد على كانوا وحدهم هيئة التدريس بالمدرسة .

بعثة سنة ١٨٤٤ إلى فرنسا

وكان عدد أعضائها جميعاً سبعين طالباً ، وقد أشرف على اختيارهم « سليمان باشا الفرنساوى » : ومنهم سبعة من متقدمى المهندسخانة ، ومنهم تلاميذ من مدرسة « الطوبجية » بطرة ومدرسة « السوارى » بالجيزة والمكتب العالى بالخانقاه ومدرسة الألسن بالأزبكية ، « وغير من طلب التوجه برغبته من الدواوين وخلافها » . [٢] وكان منهم بعض معلمى المدارس ونجلان لمحمد على : هما الأميران حسين بك وحليم بك (باشا) وحفيداه (نجلا إبراهيم

---

(١) دفتر ٢٠٤٢ (مدارس تركى) رقم ٨٢٩ إلى مسيو دفنيو فى ١٣ ربيع الثانى ١٢٥٤
(٢) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية م ٣ ج ١٢ ص ٦٠

باشا) الأمير أحمد بك (باشا) وإسماعيل بك (باشا — الخديو الأسبق) . ولذلك يطلق على هذه البعثة « بعثة الأمراء » .

أما الأمير « حسين بك » فتلقى تعليمه فى مدرسة السوارى بالجيزة ، وإن لم يُظهر فى دراسته تقدماً كبيراً . (١) أما الأمير « عبد الحليم بك » فكان إلى قبيل سفره فى البعثة يتلقى دروسه مع أخيه الأصغر « محمد على بك » بالمكتب العالى بالخانقاه . (٢)

أما الأميران أحمد بك وإسماعيل بك نجلا إبراهيم باشا فكانا حدثين ، وقد يكونا تلقيا دراستهما الأولى بالمكتب الذى أنشأه والدهما « بالدايرة السر عسكرية » بالقصر العالى . (٣)

---

(١) دفتر ٢٠٩٤ (مدارس تركى) ص ١٩ رقم ١٣٢ إلى مدرسة السوارى فى ١٥ المحرم ١٢٦٠

(٢) دفتر ٢٠٩٧ (مدارس تركى) ص٦٩ رقم ١٨٧ إلى كامل باشا فى ١٤ شوال ١٢٦١ وفى سنة ١٢٥٨ وضعت للأمير عبد الحليم بك خطة للدراسة بالمكتب العالى وهى : خمس ساعات ونصف ساعة لدروس اللغة العربية وساعة ونصف ساعة للاملاء والانشاء وخمس ساعات للغة الفرنسية (ومثلها تقريبا لمحمد على بك). دفتر ٢٠٨٠ (مدارس تركى) ص ٩٢ — ٩٣ أمر عال بجداول دروس تلاميذ المكتب العالى فى ١٥ ذى القعدة ١٢٥٨ . وقبيل سفره فى البعثة كان يدرس اللغة الفارسية أيضا . ومن الطريف أن نذكر هنا أن محمد على أنشأ ولديه عبد الحليم بك ومحمد على بك فى مضارب البدو : فقد كتب فى ٢٤ المحرم ١٢٣٧ (١٨١٩) إلى حرم سراى القلعة (دفتر ٩ (معية) رقم ٩) « قد علمت مآل الإفادة الواردة من لدن عصمتك المبشرة بأنه قد قدم إلى عالم التكريم مولود لنا بمن الله الكريم وفضله العميم يوم الأحد الموافق للحادى عشر من المحرم الحرام فى الساعة الحادية عشرة فسمى باسم الأمير عبد الحليم وأن مراسم ولادته قد أجريت . وبما أنه إذا ولد الطفل المأمول ولادته بلطف الله وكان ولدا ، كان من مقتضى إرادتنا أن يسمى باسم « محمد على » ، وهو أيضا يربى بمعرفة البدو : فقد بعثت خبرا إلى أحمد القوصى كبير مشايخ أولاد على وعند وصوله يرسل إلى طرف كتخدانا الأغا وسيفادان أيضا بصورة إرادتنا . فطلوبنا أن تخبروا الأغا عند الاقتضاء وتسلموا الطفل أيضا بمعرفته إلى الشيخ المذكور » . وكتب بذلك أيضا إلى الكتخدا .

(٣) دفتر ٥ (مدارس عربى) ص ٢٦٣٦ إلى الدايرة السر عسكرية فى آخر جماد ثان ١٢٦١

وقد ذكر سمو الأمير عمر طوسون أن « أسطفان بك » عُين مديراً لهذه البعثة ومربياً للأمراء الأنجال .[١] ولكن سجلات ديوان المدارس تذكر جومار « مدير مدرسة باريز » فى أواسط سنة ١٢٦١ أى بعد سفر البعثة بقليل .[٢] ثم تعود بعد ذلك بعام فتذكر « أسطفان أفندى ناظر مدرسة باريز » .[٣] فإما أن جومار وأسطفان كانا يقومان معاً على إدارة المدرسة : الأول (كمدير) للشئون الفنية والآخر (كناظر) للشئون الإدارية على نحو ما كان متبعا فى إدارة المدارس الخصوصية بمصر . وإما أن «جومار» لم يلبث أن تنحى عن إدارة المدرسة فخلفه « أسطفان أفندى » ، وهو ما نرجح : إذ أن الأوراق الرسمية لم تلبث أن أغفلت اسم « جومار » ورددت كثيراً اسم « أسطفان » .

« وأسطفان أفندى » هذا كان عضواً بالبعثة التى أرسلت إلى فرنسا فى سنة ١٨٢٦ ، وأنشئت لها كذلك مدرسة فى باريس ، فكان بذلك ملمًّا بما تقتضيه إدارة التلاميذ ، وخاصة لأنه كان عضواً بمجلس المدارس أول إنشائه ، واشترك بنصيب كبير فى تنظيم التعليم . وعُين « إماماً » لهذه البعثة الشيخ « نصر أبو الوفا الهورينى » العالم اللغوى الشهير . وقد ذكر سمو الأمير عمر طوسون أنه كان قبل ذلك من علماء الأزهر ومدرسيه ، ونضيف إلى ذلك أنه كان يعمل قبيل سفره مصححاً بقلم الترجمة الملحق بمدرسة الألسن .[٤]

وكانت « المدرسة المصرية الحربية بباريس » أو « مدرسة باريز » — كما تدعوها أوراق الحكومة — تحت رئاسة وزير الحربية الفرنسية الذى عَين ناظر

---

(١) الأمير عمر طوسون : البعثات العلمية ... ص ١٧٣

(٢) دفتر ٦ (مدارس عربى) ص ٢٩٥٦ رقم ٩٥ فى ٢٩ رجب ١٢٦١

(٣) دفتر ٢٣ (مدارس عربى) ص ١٣٦٣ رقم ٦٦ إلى ديوان التجارة باسكندرية فى ١٧ جماد أول ١٢٦٢

(٤) دفتر ٢٩ (مدارس عربى) ص ١٤٠٢ رقم ٣٩٨ إلى مدرسة الألسن فى ٢ ربيع الثانى ١٢٦٢

المدرسة وأساتذتها من الضباط الفرنسيين . وقد أورد سمو الأمير عمر طوسون نظامها الداخلى فى ٢٥ مادة ، نص فيها على أيام خروج التلاميذ وعقابهم وسلوكهم داخل المدرسة وخارجها ، واتبع فى إدارتها النظام الحربى ، وذلك لأن البعثة كانت «عسكرية» ،[١] على الرغم من أن كثيراً من تلامذتها لم يتلقوا دروسهم بالمدارس الحربية بمصر . وأقام أكثر التلاميذ بالمدرسة سنتين ، ثم انتقل المتقدمون فى العلوم إلى المدارس الحربية الفرنسية . وكان التلاميذ الذين ألحقوا بمدرسة المهندسخانة بباريس يقيمون بالمدرسة ثمانية أشهر ثم يقضون باقى أشهر السنة فى الريف حيث يمرنون على أعمال القناطر والسكك الحديدية والجسور . وقد أراد محمد على أن يُعدّ من تلاميذ المدرسة الحربية المصرية تسعة للسلك المدنى ، فاختير أكثرهم من بين ضعاف البصر الذين لا تسمح حالتهم بالبقاء فى السلك العسكرى . وافتتح لهم قسم خاص يتلقون فيه ما يعدهم للمدارس المختلفة التى سيلحقون بها . وكانوا مع هذا يزاولون التمرينات العسكرية ويحضرون المناورات العامة . ومن تلاميذ هذا القسم الأميران حليم بك وإسماعيل بك ، وبقى الأمير حسين بك فى السلك العسكرى ، أما الأمير أحمد بك فقد رغب هو ونفر من التلاميذ فى الالتحاق بمدرسة الفنون الهندسية بباريس «Ecole Polytechnique» .

وكان فى المدرسة الحربية المصرية تلاميذ يتعلمون الطب البيطرى وآخرون الطب البشرى أو الصيدلة . وكانوا جميعا يبيتون فى هذه المدرسة ويتلقون فيها دروسا فى الفرنسية . وكان ناظر المدرسة غير مرتاح لاقامتهم بالمدرسة . وقد عاد أكثر أعضاء بعثة ١٨٤٤ فى العام الأخير من عصر محمد على أو فى السنين الأولى من حكم عباس .[٢] ومن مشاهير رجال بعثة سنة ١٨٤٤ :

---

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية م ٣ ج ٩ ص ٤٢

(٢) ذكر سمو الأمير عمر طوسون (ص ٢٦٦) أن منصور عطية أفندى أحد الأعضاء مرض ثم مات بباريس ، والواقع أنه مات (باسبتالية سفر إسكندرية) فى يوم ١٩ شعبان سنة ١٢٦٣ . دفتر ٩٥ (مدارس عربى) ص ٧ ١١٦ رقم ٤٦٠ إلى الخزينة فى ٢٦ المحرم ١٢٦٤

حماد عبد العاطى (باشا) وهو من خريجى المهندسخانة ببولاق ، وكان من الممتازين فى البعثة ثم ألحق بمدرسة «متز» الحربية ثم بالجيش الفرنسى ، ولما عاد إلى مصر قام بأعمال هندسية عظيمة . ثم اشتغل قاضيا ومستشارا بالقضاء المختلط . وعلى إبراهيم (باشا) وهو من خريجى مدرسة المدفعية بطرة ، وكان كذلك من المتفوقين فى باريس ثم ألحق بمدرسة «متز» ثم بالجيش الفرنسى ، وبعد عودته إلى مصر تقلد وظائف عدة فى الإدارة والقضاء والتعليم ، وعين وزيرا للمعارف ثم وزيرا للحقانية سنة ١٨٨٢ . وعلى مبارك (باشا) وحياته الدراسية والحكومية معروفة . وشريف باشا الوزير المصرى الشهير .

بعثة طبية الى النمسا وفرنسا (سنة ١٨٤٥)

وفى سنة ١٨٤٥ (١٢٦١ هـ) أرسلت من مصر بعثة طبية مؤلفة من ثمانية أعضاء ، وهم :

(١) و (٢) حسين عوف أفندى (باشا) وابرهيم الدسوقى أفندى (من موظفى مدرسة الطب البشرى) ، وقد أرسلا الى النمسا لدراسة الرمد على طبيب رمدى كبير ، ولم يلبثا إلا عاما وعادا الى مصر فأعطيا تلميذين من مدرسة الطب البشرى ليعلماهما فنهما . [1] ثم افتتحت لهما الحكومة (عيادة) بحى الصايبة لعلاج المرضى . [2] وكانت ترسل لهما من السلخانة كل يوم « بمنزل الكحالين (أى العيادة) عشرون عينا من عيون الخرفان » لتعليم التلاميذ ! [3]

(٣) و (٤) عثمان إبراهيم أفندى (وكان من موظفى مدرسة الطب)

---

(١) الوقائع المصرية : العدد ١٧ فى ٢١ جماد ثان ١٢٦٢

(٢) الوقائع المصرية : العدد ٧٠ فى ٨ رجب ١٢٦٣

(٣) دفتر ٤٧ (مدارس عربى) ص ١٧٨٢ رقم ٤٢٦ إلى الديوان الخديوى فى ١٠ ربيع الأول ١٢٦٣

ومصطفى الواطى أفندى (رئيس قسم ترجمة العلوم الطبية بقلم الترجمة ، وقد اختير بعد ترشيح طبيب آخر هو أحمد على الكفراوى أفندى) .[١] وقد درسا بفرنسا طب الأسنان ، ولبثا بها عامين ونصف عام . وبعد عودتهما أفردَ لهما محل بمدرسة الطب البشرى وأعطوا تلاميذ يأخذون عنهما ، وعليهما كذلك أن يعالجا المرضى الذين يقصدونهما .[٢]

(٥) و (٦) محمد الفحام أفندى وعبد العزيز الهراوى أفندى الصيدليان ، وقد درسا بفرنسا الصيدلة وتكرير ملح البارود وتبيض الأقمشة . . الخ[٣]

(٧) و (٨) إبراهيم السوبكى أفندى وعبد الهادى إسماعيل أفندى ، وكانا طبيبين بيطريين قدما التماسا بإيفادهما إلى فرنسا ، ووافق عليه « عمد الحكماء » بمدرسة الطب البيطرى .[٤] وقد سافرا إلى فرنسا ليعودا بعد ذلك مدرسين بالمدرسة التى تعلما بها .[٥] وكان ديوان المدارس يعلق آمالا كبيرة عليهما ويرجو للطب البيطرى بمصر تقدما بعد عودتهما .[٦] وقد درسا بفرنسا نحو أربع سنوات ، وعادا إلى مصر فى أواخر سنة ١٢٦٤ وعينا بمدرسة الطب البيطرى .[٧]

بعثة طبية إلى فرنسا (سنة ١٨٤٧)

وفى سنة ١٨٤٧ (١٢٦٣ هـ) أرسلت إلى فرنسا بعثة طبية مؤلفة من طبيبين : هما محمد يونس أفندى وعبد الرحمن الهراوى أفندى ، وكانا مدرسين

---

(١) دفتر ١٠ (مدارس عربى) ص١٣ ١٠ رقم٣ ٢١ إلى مدرسة الطب فى ٣ المحرم ١٢٦١

(٢) الوقائع المصرية : العدد ٦٩ فى غرة رجب ١٢٦٣

(٣) دفتر ١٣ (مدارس عربى)ص٢٨٣٤ رقم٦٥ ٦ إلى مدرسة الطب فى ١٢ شعبان ١٢٦١
ودفتر ٢١٠٣ (مدارس تركى) ص ٩ فى ٦ المحرم ١٢٦١

(٤) دفتر ١٠ (مدارس عربى) ص١٠٢٨ رقم٢٦٩ إلى مدرسة الطب البيطرى فى ٩ المحرم ١٢٦١

(٥) دفتر ٣ (مدارس عربى) ص٨٧١ رقم ٣٤ إلى مديرية الأمور الافرنكية فى ١٨ المحرم ١٢٦١

(٦) دفتر ٥ (مدارس عربى) ص٢٦١٨ رقم ٣٠٧ إلى ديوان الجفالك فى ١١ جمادثان ١٢٦١

(٧) دفتر ١١٧ (مدارس عربى) ص٣١٣ رقم ١٠ إلى ديوان عموم التجارة فى ٨ ذى القعدة ١٢٦٤

من الدرجة الثانية بمدرسة الطب البشرى ، وصيدلين : هما حسين هاشم أفندى ومحمد شرقاوى أفندى ، وكانا كذلك موظفين بالمدرسة . وقد اختيروا جميعا لتفوقهم فى الامتحان الذى عقد لهذا الغرض . ثم التمس أحد مدرسى اللغة الفرنسية بمدرسة الألسن — ويدعى مسيو « بتيير » — أن يلحق ولده بالبعثة فألحق ، وبه أصبح أعضاء البعثة خمسة . (١)

بعثة علم الوكالة فى الدعاوى إلى فرنسا (سنة ١٨٤٧)

جاء فى العـــدد ٨٥ من الوقائع المصرية الصادر فى ٢٤ شوال ١٢٦٣ (٥ أكتوبر ١٨٤٧) ما يلى : « لما كان من جملة مرادات الجناب الخديوى أن تنتخب خمسة أشخاص مستعدين من أذكياء طلبة الجامع الأزهر بحيث يكونون ماهرين فى فن الكتابة ، ويكون كل منهم فيما بين العشرين والثلاثين سـنة من السن ، وأن يرسلوا إلى باريس لأجل تحصيلهم علم الوكالة فى أمر الدعاوى (أى فن المحاماة) من ديار أوروبا ، بودر إلى إنفاذ مقتضى إرادته السنية بتدارك من ذكر » .

وقامت مدرسة الألسن باختيار (المشايخ) الخمسة ، فوقع اختيارها أولا على ثلاثة أرسلتهم إلى ديوان المـدارس : وهم الشيخ سـالم العابدى والشيخ إبراهيم أحمد الشروبلى والشيخ أحمد الشريف . ولكن الديوان رأى أن الشيخين الأولين لايصلحان لضعف بصرهما فردهما وكتب إلى مدرسـة الألسن بانتخاب شيخين غيرهما واثنين آخرين . (٢) ومضى شهران ، ولسنا نعلم هل تم اختيار الأعضاء الخمسة أم لم يتم ، إنما الذى نعلمه حقا أن الحكومة صرفت النظر عن إرسال البعثة وألغتها . (٣) وإن كان سمو الأمـير عمر

(١) دفتر ٤٨ (مدارس عربى) ص٢٤٧٢ رقم٥٤٣ إلى الديوان الخديوى فى ٢ جاد أول ١٢٦٣ ولم يذكر سمو الأمير عمر طوسون هذا العضو الأجنبى الخامس .

(٢) دفتر ٩٣ (مدارس عربى) ص ٥٧ رقم ١١ إلى مدرسة الألسن فى ١٠ شوال ١٢٦٣

(٣) دفتر ٢١٢٠ (مدارس تركى) ص١٩٩ فى ٦ ذى الحجة ١٢٦٣

طوسون يحصيهم فى التعداد العام لأعضاء البعوث التى أرسلت فى عهد محمد على . [١]

بعثتا الميكانيكا والعلوم السياسية إلى انجلترا (أواخر سنة ١٨٤٧)

ذكر سمو الأمير عمر طوسون[٢] أن هذه البعثة هى سادس البعثات التى أرسلت الى أوربا فى عهد محمد على ، وقد أرسلت إلى انجلترا فى أواخر سنة ١٨٤٧ ، وأضاف إلى ذلك أن أعضاءها من تلاميذ مدرسة المهندسخانة . المتفوقين ، وقد أرسلوا إليها على ثلاث دفعات متوالية لتعلم فن الميكانيكا . وقد ذكرهم جميعا إلا واحداً ، وترجم لهم على أنهم تلقوا جميعا دراستهم بالمهندسخانة . وهنا موضع الخطأ : فهؤلاء التلاميذ لم يكونوا جميعا من المهندسخانة ، بل كان فريق منهم من مدرسة المهندسخانة وفريق آخر من المكتب العالى . أرسل الأولون لدراسة « الميكانيكا والوابورات » ، والآخرون لدراسة « أمور السياسة » . هذا ما نصت عليه سجلات ديوان المدارس وخاصة السجلات العربية منها . [٣] ونورد أسماءهم جميعا كما جاءت بهذه السجلات :

تلاميذ المكتب العالى : [٤]

وهم ثمانية : عثمان عرفى وعلى حسن وعلى صادق وإسماعيل أرنابوط وعبد الله بيرون وإبراهيم سامى وسليمان سليمان وأحمد طلعت .

تلاميذ المهندسخانة :

وقد أرسلوا على ثلاث دفعات فى تواريخ متقاربة :

---

(١) الأمير عمر طوسون : البعثات العلمية ... ص ٤٠٨

(٢) المصدر السابق : ص ٣٧٩

(٣) دفتر ٤٨ (مدارس عربى) ص ٢٤١١ رقم ٥٧ إلى مصلحة الرزق ٢١ جاد أول ١٢٦٣

(٤) دفتر ٨٦ (مدارس عربى) ص ١٦٥٩ رقم ٤٣٩ إلى الديوان الخديوى فى ١١ ربيع أول ١٢٦٤

الدفعة الأولى : أربعة وهم خطاب عبد المغيث وعلى صالح وغانم عبد الرحيم وأحمد المهدى .[١]

الدفعة الثانية : اثنا عشر وهم عثمان يوسف وإسماعيل بوشناق وكانا مهندسين بديوان المدارس ، وعمر على وعثمان القاضى وعثمان دكرورى وسليمان موسى وجودة عوض وعباس عبدالنور وعلى الفداوى وسليمان طه وعيسى شاهين وسلامة الباز وهم من خريجى مدرسة المهندسخانة .[٢]

الدفعة الثالثة : وهما حسن ذو الفقار أفندى وأبو المجد أفندى وهما مهندسان من خريجى المهندسخانة كذلك ، سافرا إلى انجلترا مع مدير الديوان (أدهم بك) وبقيا هناك للتعلم .[٣]

بعثة طبية الى فرنسا (سنة ١٨٤٨)

وفى الأشهر الأخيرة من حكم إبراهيم باشا صدر الأمر بإرسال بعثة طبية الى فرنسا ، فاختار شورى الأطباء طبيبين : هما حسن عبد الرحمن أفندى اليوزباشى «بالاسبتالية الملكية» ومحمود إبراهيم أفندى الملازم الأول بمدرسة

(١) دفتر ٩٤ (مدارس عربى) ص ٦٥٧ رقم ٢٠٣ إلى خزينة المدارس فى ١٧ ذى القعدة ١٢٦٣

(٢) دفتر ٨٤ (مدارس عربى) ص ٨٧٤ رقم ٥٢ إلى ديوان التجارة باسكندرية فى ٢٥ المحرم ١٢٦٤

(٣) دفتر ٩٤ (مدارس عربى) ص ٧١٦ رقم ٢٤٦ إلى خزينة المدارس فى ٢٩ ذى القعدة ١٢٦٣
وأبو المجد أفندى هذا لم يذكره سمو الأمير عمر طوسون فى هذه البعثة الكبيرة إلى انجلترا بل ذكره فى بعثات عباس الأول إليها (البعثات العلمية ص ٤٤٠). وكذلك ذكر فى ترجمة لأحد الأعضاء وهو عيسى شاهين (ص ٣٩٧) أنه أرسل إلى انجلترا فى سبتمبر سنة ١٨٤٨ أى فى عهد إبراهيم باشا (ص ٤٠٢) مع أن السجل الذى نقلنا عنه يذكر اسمه مع أسماء زملائه التسعة الآخرين .

الطب ، ليدرسا بفرنسا « صناعة رباط العنق » . وكتب ديوان المدارس الى الديوان الخديوى يطلب سرعة إنهاء ملابسهما حتى يسافرا « قبل حلول الشتاء . [١] ثم صدر أمر شفهى الى ديوان المدارس باختيار أعضاء بعثة طبية كبيرة إلى أوربا عدتها أربعة عشر صيدليا وعشرة أطباء بما فيهم الطبيبان اللذان ذكرنا اسميهما آنفاً . ولكن شورى الأطباء رأى أن هذا العدد كبير بالإضافة إلى الطلبة الخمسة الذين كانوا لا يزالون يطلبون الطب بأوربا . وتوسط الديوان فكتب إلى شورى الأطباء مقترحا اختيار طبيبين وصيدلى عدا الطبيبين اللذين ذكرنا اسميهما ، على أن يتعلموا جميعاً اللغة الفرنسية والطب ، حتى إذا عادوا إلى مصر اشتغلوا بالترجمة . [٢] ولسنا نعلم مصير هذا الاقتراح ، وإن كنا نعلم أن بعثةطبية كبيرة أرسلت فى أوائل حكم عباس الأول إلى النمسا ، وكانت مكونة من تسعة تلاميذ ثم ألحق بهم ستة . [٣]

أما الطبيبان حسن عبد الرحمن ومحمود إبراهيم فلم نعد نسمع عنهما شيئاً، فلا ندرى أسافرا أم بقيا بمصر . ولم يذكرهما سمو الأمير عمر طوسون .

بعثة ٢١ تجارا إلى انجلترا (أوائل سنة ١٨٤٨)

ذكر سمو الأمير أنها سابعة البعثات إلى أوربا وآخرها فى عهد محمد على . وأول من ذكرها إسماعيل باشا سرهنك . [٤] والسبب فى إرسال هذه البعثة الكبيرةالعددأن دارالصناعة بالاسكندرية كانت قد أتمت فى ذلك التاريخ إنشاء (الفرقاطة frégate) المسماة «الشرقية» ، فأمر محمد على بأن ترسل إلى انجلترا لتركيب آلاتها البخارية ، فاصطحب ناظر الترسانة محمد بك راغب المعروف

---

(١) دفتر ١١٧ (مدارس عربى) ص ٣١٢ رقم ٢٧ إلى الديوان الخديوى فى ٢٦ شوال ١٢٦٤

(٢) دفتر ١١٨ (مدارس عربى) ص ٧٤١ رقم ٥٣ إلى شورى الأطباء فى ١٩ ذى الحجة ١٢٦٤ .

(٣) الأمير عمر طوسون : البعثات العلمية ... ص ٤١٨ — ٤١٩

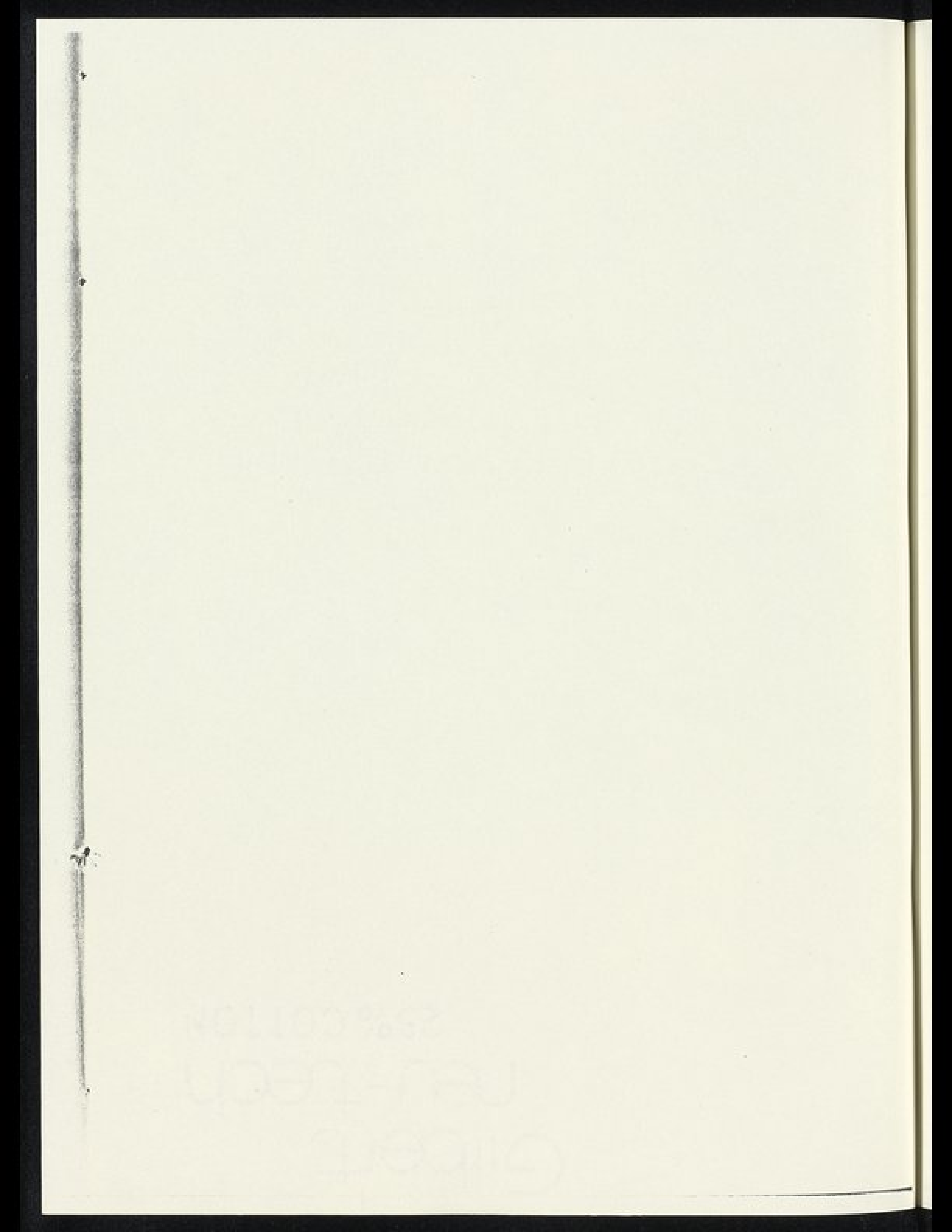
(٤) إسماعيل باشا سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٥٦

بالاستانبولى واحداً وعشرين نجاراً من دار الصناعة ليتقنوا صناعتهم هناك مدة تركيب آلات (الفرقاطة) . فأتموا مهمتهم وعادوا بها بعد أشهر .

ولم يعثر سمو الأمير عمر طوسون على أسماء هؤلاء الصناع ، وكذلك سجلات المدارس التركية والعربية لا تذكر عنهم أو عن بعثتهم شيئاً .

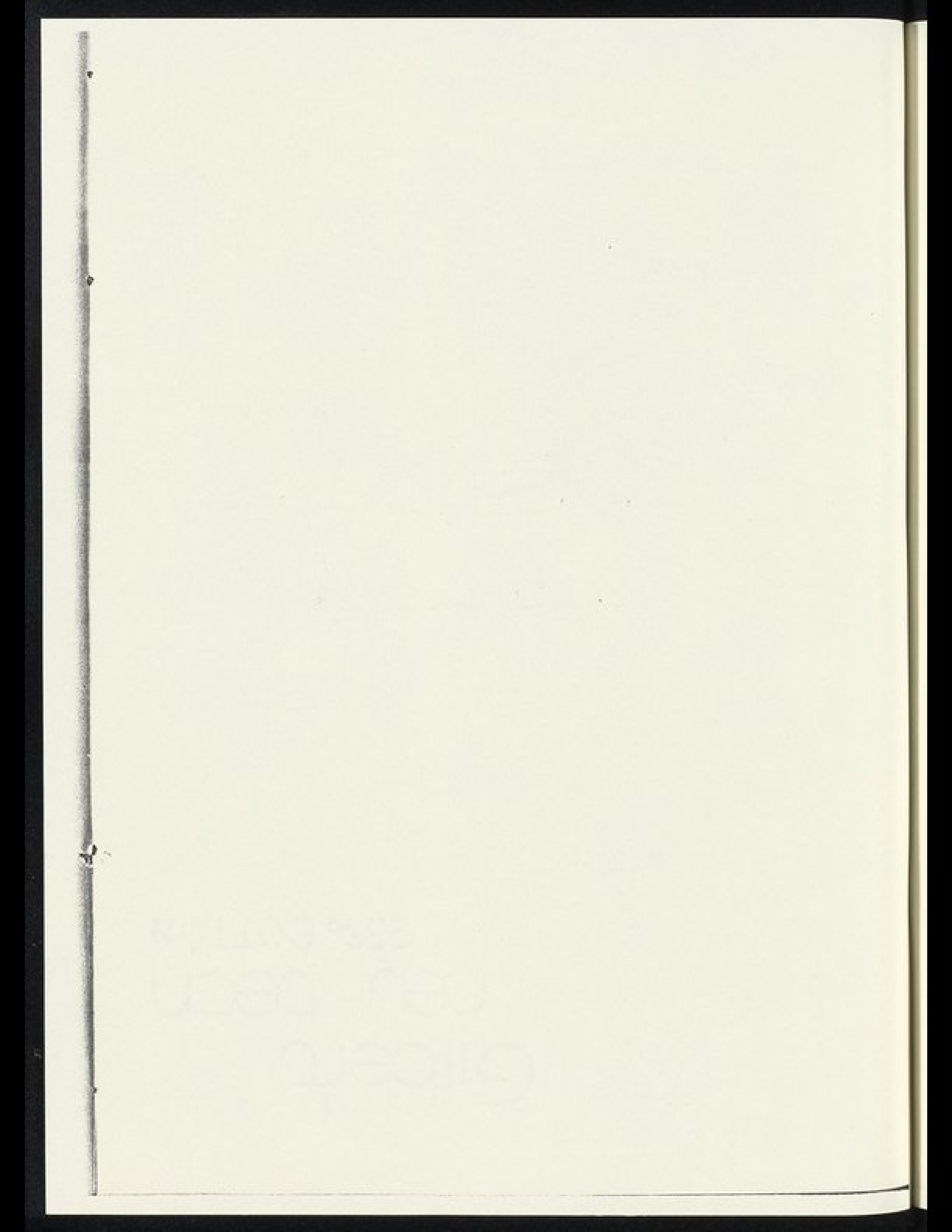
والواقع أن من التجاوز أن نسميهم (بعثة) : ذلك لأن هؤلاء (النجارين) لم يُرسلوا إلى انجلترا للدراسة ، إنما أرسلوا ليروا كيف تركب الآلات البخارية ولينظروا إلى البحرية الانجليزية ، حتى يكون ذلك عونا لهم على التجويد فى صناعتهم . هذا إلى أنهم لم يمكثوا بانجلترا سوى شهور قليلة .

وعلى كل فقد كانت هذه (البعثة) آخر البعثات التى أرسلت فى عصر محمد على .



الكتاب الخامس

الحياة المدرسية ونظم الدراسة



الفصل الأول

حياة التلاميذ فى المدارس

كانت حكومة محمد على تتسلم التلاميذ من أهليهم فتحل محلهم فى رعايتهم وتعاملهم كأبنائها : تقوم على تعليمهم وتربيتهم ، كما تطعمهم وتكسوهم وتمنحهم « مصروفهم » كل شهر ، بل تقوم « بختان » من لم « يختتن » منهم . وهى فوق هذا تؤويهم فى مدارسها ليلا ونهارا ، لا يبرحونها إلى أهليهم إلا حين تشاء .

وهذا طبيعى : فالحكومة تعمل على تنشئة هؤلاء التلاميذ تحت إشرافها ، حتى يشبّوا وقد تشبعوا بالمبادىء التى تبثها فيهم : خدمة « الباشا الكبير ولى النعم » والعمل لنيل رضائه السامى عن طريق العلم والطاعة والإخلاص .

على أن الحكومة كانت تعلم أيضا أن التعليم كالنبات الأجنبى يحتاج « تأقلمه » الى دوام العناية به والإشراف عليه . فحكومة محمد على كانت تنزع تلاميذ مدارسها من بيئاتهم التى نشأوا بها وتحيطهم بعوامل أخرى أكثرها غريب لم يألفوه ، وتأخذهم بتفهم هذه العوامل والاستجابة لها . ذلك لأنها كانت تخشى — إن هى تركتهم يترددون على بيوتهم — أن ينسوا بها ما تعمل تلك المدارس جاهدة على بثه فيهم من مبادىء الطاعة والنظام ، وبذلك تفسد التربية المنزلية عملها ، « وذلك لأن خروج تلاميذ المكتب فى المساء الى بيوتهم ومبيتهم بها رغم أنه مخالف للقانون ومخل بدروسهم وإدارتها فإنه يسبب فساد أخلاقهم وابتلائهم بأنواع الرذائل . . . » . [1]

---

(١) دفتر ٢٠١٦ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٤ رجب ١٢٥٢

يضاف إلى هذا أن الحكومة كانت فى الواقع تقوم بعملية « إغراء » ، فأعلنت إلى المصريين أنها تعلم أولادهم وتطعمهم وتكسوهم ولا تتقاضى منهم فى مقابل ذلك شيئا ، بل إنها تمدُّهم بقليل من المال ، وهى فوق هذا كله تضمن لهم مستقبلا سعيدا فى خدمة الدولة .

وأحجم المصريون بادىء الأمر ، ثم أدركوا هذه المزايا ، فاكتظت المدارس بأبنائهم . وبذلك غرس محمد على محبة التعليم فى نفوسهم ، وإن اتخذ لذلك طريقا « نفعيا » ، لم نكد نخلص من آثاره .

لهذا لم يكن عجيباً أن نرى بدء نظام « الخارجية » فى المدارس فى السنين الأخيرة من حكم محمد على : فهؤلاء تلاميذ يترددون على مدارس الطب أو الألسن ، أو تلميذات يختلفن إلى مدرسة الولادة ، وتلاميذ آخرون تضيق بهم مدرسة المبتديان فينشأ لهم قسم « خارجى » يلحق بالمدرسة ، يدرسون علومها نهارا حتى إذا حل المساء آووا إلى أهليهم يتعهدونهم بالطعام واللباس ، ولا يكلفون الحكومة فى تنشىء أبنائهم إلا ما يستلزمه القيام على تعليمهم من معلمين وأدوات « تخصم أثمانها بالأبعادية حسب أمر ولى النعم » .[1] ولكن هؤلاء التلاميذ كانوا من (طبقات) قد تستغنى عن تكفل الحكومة بالإنفاق على أبنائهم ، إذ كانوا من « أولاد الذوات » من التجار وبعض العلماء والأعيان والموظفين .[2]

كان هؤلاء التلاميذ إذن بشائر العهد الجديد : عهد إقبال الناس على المدارس بحافز من نفوسهم لا بدافع من سلطان الحكومة . ولكن هذا العهد الجديد لم يبدأ إلا حين بدأ عصر محمد على فى الأفول ، وبدأت النهضة التعليمية — التى اقترنت باسم هذا الحاكم العظيم — فى الذبول . حتى إذا مضت سنوات

(١) دفتر ٥٧ (مدارس عربى) ص ١٤٥٩ رقم ١٣٠ إلى مدرسة المبتديان فى ٨ المحرم ١٢٦٣ تخصم « بالأبعادية » أى على جانب الحكومة .

(٢) دفتر ٥٧ (مدارس عربى) ص ١٣٨٧ و١٤٩٤ و١٤٩٩ فى المحرم ١٢٦٢

وعاد «إسماعيل» ينفخ فى النهضة من روحه الفتية الوثابة، لم يكن فى حاجة إلى أن يعلن إلى المصريين تلك «المغريات» كلها التى أعلنها إليهم من قبل جده الكبير، ليجذب أطفالهم إلى مدارسه. فبدأ فى عصر «إسماعيل» نظام «المصروفات المدرسية»، وتوسعت الحكومة فى نظام «الخارجية». ومضت سنوات أخرى، وأخذت «المجانية» تضؤل، وأخذت «الداخلية» تنكمش، وأخذت المدارس تضيق بالراغبين فى الالتحاق بها جميعا.

وفى هذا الفصل نبسط الحديث عن الحياة التى كان يحياها التلاميذ فى عصر محمد على، منذ نحو قرن من الزمان.

النظام «العسكرى» بالمدارس

كان التلاميذ يخضعون للنظام «العسكرى» فى مدارسهم فى قيامهم أول النهار وذهابهم إلى أماكن الدرس وحجرات الطعام ثم أوبتهم إلى فراشهم أول الليل. فكانوا ينهضون من نومهم إذا بزغ الفجر أو أشرقت الشمس على صوت الطبل أو البوق (البورى) يدوى فى أنحاء المدرسة. حتى إذا اغتسلوا ثم أصابوا من الدرس شيئا أقبلوا على طعام الصباح فتناولوه، ثم عادوا إلى الدرس حتى الغذاء. وفترة قصيرة بعده، ثم إلى الدرس مرة ثانية، ثم إلى العشاء، ثم إلى استذكار الدروس، ثم إلى حجرات النوم وقد مضى من الليل ساعتان أو ثلاث. وهم فى هذا كله يصطفون صفوفا ويتحركون على صوت الطبل أو البوق ويؤدون التحية العسكرية.

وكانوا لهذا مقسمين إلى «أرط» و«بلوكات»: فتلاميذ المدرسة التجهيزية مثلا — ونصابهم القانونى ألف وخمسمائة — كانوا يكونون ثلاث «أرط»، وكل «أرطة» أربع «بلوكات»، وكل «بلك» مؤلف من خمسة وعشرين ومائة من التلاميذ. وكبار الطلبة ذوو الرتب العسكرية يقودون

« البلوكات » والمدرسون يقودون « الأرط » .[١] ويختار من التلاميذ أوائلهم فيمنحون رتباً عسكرية ويشركون فى « ضبط التلاميذ وربطهم » : فنهم « الباشجاويش » ، « والجاويش » ، « والأنباشى » . ويميز « الباشجاويش » بشريطين من القصب على ذراعه « والجاويش » بشريط واحد « والأنباشى » بشريطين من القطن . أما من عداهم من التلاميذ فأنفار .[٢] وللتلاميذ الحائزين للرتب السلطة على من يليهم فى هذه الرتب والعاطلين منها ، كما كان لهم حق توقيع العقوبة عليهم .[٣]

وقد حاول بعض الكتاب أن يرجع هذا النظام الحربى الذى أخذت به حكومة محمد على تلاميذها إلى ماشاب بعض المدارس إذ ذاك من انحطاط فى المستوى الخلقى . ولكننا لسنا بحاجة إلى هذا التفسير ، فقد عمل محمد على على بث « النظام » فى جميع مرافق الدولة : فى الإدارة والمصانع والمدارس ، واستعان لإقرار هذا النظام بالوسائل العسكرية التى تكفل إنفاذه على ما ينبغى . فالروح الحربية قد بثها الوالى « لتعبئة » الحياة المصرية فى مختلف صورها لخدمة الدولة على النحو الذى يتصوره . ومن الطبيعى ألا تحيد المدارس — وهى معاهد لاعداد النشء الذى تقوم عليه آمال الحكومة لأداء تلك الخدمة — عن هذا النظام . فالمدارس كانت وما تزال تمثل المجتمع الذى تقوم فيه بمبادئه ونزعاته ومثله العليا ، والمجتمع المصرى فى عصر محمد على كان يقوم على خدمة القوة الحربية للدولة وتوفير أسباب الحياة والاستمرار لها .

غذاء التلاميذ

يتناول التلاميذ فى اليوم الواحد ثلاث وجبات : الأولى فى الصباح

---

(١) Bowring, op. cit. I. p. 128.

(٢) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢١ ذى القعدة ١٢٥٢

(٣) دفتر ٩ (مدارس عربى) ص ٦٢٩ إلى مدرسة الألسن فى ٨ ذى القعدة ١٢٦٠

والثانية فى الظهر أو قبله بساعة، والثالثة حين غروب الشمس أو بعده بساعة.
وقد رأينا فيما أوردنا من «جداول» الدراسة بالمدارس الحربية أن تلاميذها لم يكونوا يصيبون من الطعام سوى وجبتين اثنتين. وكان التلاميذ يجتمعون فى قاعات مخصصة لتناول الطعام. ويأكلون فى المدارس الابتدائية والتجهيزية على الطريقة الشرقيـــة: فيجلس كل عشرة منهم إلى (طبلية) وأمامهم (قراوتان) ملئت إحداهما فولا والأخرى عدساً، ويستخدمون ملعقة من خشب فى تناول طعامهم. أما فى المدارس الخصوصية فيجلسون إلى موائد صفت عليها أقداح وأطباق من (صفيح) ملئت لحماً وأرزاً وخضراً، ويستخدمون الملاعق والشوك والسكاكين، ولكل منهم (فوطة). وكان الغذاء واحدا فى جميع المدارس التى من نوع واحد.[1] غير أن حكومة محمد على فطنت إلى أمر شديد الأهمية: وهو زيادة كمية الغذاء التى تخص تلميذ المدرسة التجهيزية على تلك التى تخص تلميذ المدرسة الابتدائية، والكمية التى تخص تلميذ المدرسة الخصوصية على تلك التى تخص تلميذ المدرسة التجهيزية. بل لقد كانت أحياناً تصرف لكبار السن من تلاميذ التجهيزية الذين لا يكفيهم مايصرف لهم من غذاء «تعيين» تلميذ بمدرسة خصوصية.

وقد شهد أحد النبلاء الغربيين أن الغذاء الذى رآه يقدم لتلاميذ المدرسة التجهيزية بالقاهرة أطيب وأوفر كمية من ذلك الذى تقدمه الحكومة الألمانية لتلاميذ مدارسها.[2]

كان تلاميذ المدارس الخصوصية والتجهيزية يتناولون من الطعام كل يوم أرزا ولحما وخضرا. أما تلاميذ «المبتديان» فلا يصيبون من اللحم إلا خمسا وسبعين درهما فى يوم الجمعة من كل أسبوع،[3] ويستعيضون عن الخضر

---

(١) انظر فى الملحق بيان (تعيينات) التلاميذ من الطعام والملابس وأدوات المائدة بالمدارس الابتدائية والتجهيزية والخصوصية.

(٢) Pückler - Muskau, op. cit. I. p. 117.

(٣) دفتر ٢٨ (مدارس عربى) ص ١٠٩٥ رقم ٤٥ إلى مكتب أسيوط فى ٧ ربيع الأول ١٢٦٢

بالعدس والفول كل يوم ، أما الأرز فلم يكن يتناوله منهم إلا المرضى والمختتنون. وأشد من ذلك إمعانا فى (الحرمان) أن ينفد العدس بمكتب ، وأن يقتصر غذاء تلاميذه على لون واحد من الطعام هو الفول ، لا يعرفون غيره حتى تتداركهم (رحمة) الديوان فيطلب إلى المديرية صرف كميات من العدس لهم ! [١]

هذا ما نصت عليه لوائح (١٨٣٦ — ١٨٣٧) . وقد جرى به العمل بعد ذلك سنين طويلة . إلا أن بعض المكاتب الابتدائية التى كانت قائمة قبل إنشاء شورى وديوان المدارس ، أى قبل الشروع فى تنظيمها ، كان يصرف لتلاميذها كل يوم من الأرز واللحم والخضر ، ثم ألغى هذا كله . كما كانت مقادير السمن والوقود والصابون وغيرها أكثر مما قُرِّر لهم بعد ذلك . [٢]

على أن الحكومة كانت تعمل على أن يكون الغذاء الذى يقدم لتلاميذ المدارس مستوفياً ماينبغى له من الشرائط الصحية : فرغيف الخبز لا ينقص عن مائة درهم ، [٣] ويجب أن يكون من القمح لا من الذرة ، [٤] وإنه اضطرتها الحاجة — فى أواخر عصر محمد على — إلى أن تقدم لتلاميذها وجنودها خبزاً من شعير ، كانت تعمل جاهدة ليكون نظيفاً . [٥]

وأخيراً علت الشكوى من سوء تغذية تلاميذ المكاتب وما نجم عنها من إصابة كثير منهم بشتى الأمراض . لذلك طلب رفاعة بك رافع وممتحن آخر ـ كانا يطوفان بالمكاتب ويمتحنان تلامذتها ويفتشان عن أعمالها ـ أن يقرَّر لهم قدر

---

(١) دفتر ٤ (مدارس عربى) س ٢١٢٩ رقم ٢١٦ إلى الأقاليم الوسطى فى ٣ رجب ١٢٦١

(٢) دفتر ٢٠٠٢ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٥ المحرم ١٢٥٢

(٣) دفتر ١٥ (مدارس عربى) س ٣٨٥١ رقم ٨١٣ و ٨١٤ إلى ديوان الجهادية فى ٢٥ رجب ١٢٦٣

(٤) وقد قال عن بعضه كلوت بك: إن الخبز الذى يقدم للكلاب فى أوربا أفضل منه . دفتر ٥ (مدارس عربى) س ٢٦٧٤ رقم ٤٤٥ إلى ديوان الجهادية فى ٢٦ جماد ثان ١٢٦١

(٥) دفتر ٦٤ (مدارس عربى) س ٣٩٦٣ رقم ٦٦٤ إلى مدرسة المهندسخانة فى ٢٩ رجب ١٢٦٣

من الخضر واللحم يستعينون به على ما أفسده العدس والفول ! فرأى الديوان أن يزاد مرتب التلميذ من اللحم فى الأسبوع إلى مائة وعشرين درهماً، على أن يقسم هذا المرتب على يومى الخميس والجمعة من كل أسبوع، (فيحظى) التلميذ فى كل منهما بستين درهما من اللحم وثمانين درهما من الخضر، « كما هو الشأن لتلاميذ مدرسة المبتديان بالمحروسة »، على أن يستقطع مرتب التلاميذ من الفول والعدس فى هذين اليومين.[1] وعلى المديريات أن تقدم للمكاتب الابتدائية الواقعة فى دائرتها ما تحتاجه من المواد الغذائية كالمسلى والفول والعدس واللحم: لأنها منذ أنشئت « جارى صرف استحقاقاتهم وكامل لوازماتهم (كذا) من الأقاليم وفقط إحالتهم للمدارس فهو لأجل التعلم ».[2]

أما المدارس التجهيزية والخصوصية فتصرف لها تلك المواد مباشرة من « شؤن تعيينات الجهادية » بإذن من الديوان.[3]

ومن « حدائق شبرا » كانت تصرف الخضر اللازمة لمدارس القاهرة القريبة منها وهى مدارس الطب البيطرى والمشاة والمهندسخانة والألسن. أما مدرسة الطب البشرى فكانت تأخذ كفايتها من حديقتها النباتية. ومدارس المدفعية والفرسان والمبتديان لا تأخذ من شبرا لبعدها[4] بل تشترى كفايتها من (السوق). وكانت بعض المدارس دائمة الشكوى من فساد الخضر التى تقدمها لها « حدائق شبرا » حتى أذن لبعضها أن تشترى ما يلزمها من بائع الخضر.[5]

أما الخبز فكان يصنع لتلاميذ مدارس القاهرة فى « مخبز الخانقاه » التابع للحكومة. أما فى الأقاليم ففى أول كل شهر يعطى قدر من القمح لخباز البلد

---

(١) دفتر ٨٣ (مدارس عربى) ص ١٢ ، رقم ٣٣ إلى المعية الخديوية فى ١١ ذى القعدة ١٢٦٣

(٢) دفتر ٣ (مدارس عربى) ص ٨٩٥ رقم ٢٣٤ إلى ديوان المالية فى ٢٦ المحرم ١٢٦١

(٣) دفتر ٢٢ (مدارس عربى) ص ٨٣٤ إلى شون التعيينات فى ... سنة ١٢٦٢

(٤) دفتر ٢٤ (مدارس عربى) رقم ٦٠ إلى قسم شبرا فى ٣ شعبان ١٢٦٢

(٥) دفتر ٢٣ (مدارس عربى) ص ١١٩٩ رقم ٣٩ وغيرها الى قسم شبرا فى ... سنة ١٢٦٢

ليصنعه خبزاً لتلاميذ المكتب، وللمكتب أن يأخذ منه « بواقع المعدل » ، وإذا تبقى من القمح شيء أضيف إلى حساب الشهر التالى .[١]

وكان تلاميذ المكتب يشربون من « سبيل » ، ثم رؤى أن الشروط الصحية لا تتوافر فى الماء الذى يشربه التلاميذ ، فألغيت « الأسبلة » واشتريت « أزيار » من فخار تملأ ماء ثم تغطى بأغطية من خشب [٢]

وكان مقرراً لكل تلميذ بالمدارس الخصوصية ثلاثة (أطباق من صفيح) و (فوطة) . ثم ألغيت الأطباق وعاد كل عشرة يأكلون من (القروانات) كما كانوا يفعلون وهم بالتجهيزية والمبتديان . واستبدلت بالملاعق النحاس أو الحديد ملاعق من خشب. أما (الفوط) فكانت تصرف لبعض المدارس[٣] ولا تصرف لبعضها الآخر .[٤]

ملابس التلاميذ

كان تلاميذ المدارس التى من درجة واحدة يلبسون ملابس متشابهة تقدمها لهم الحكومة وتجددها لهم فى مواعيد معينة . وكان تلاميذ المدارس التجهيزية والخصوصية يلبسون كسوة (بذلة) مكونة من « عنترى » ، أو « صديرى » ، و « وسروال » ، و « حزام » . وكانت لهم كسوة بيضاء من « بفتة » يلبسونها فى الصيف وأخرى ملونة من جوخ (بحزام من حرير ثم من جلد لامع)[٥] يلبسونها فى الشتاء وفى الاحتفالات الرسمية وأيام الجمع والأعياد.[٦] أما تلاميذ المكاتب الابتدائية فيلبسون جلبابا من فوقه (زعبوط) أو

---

(١) دفتر ١٢ (مدارس عربى) ص ٢٣٥٢ رقم ٩١ إلى مكتب بوش فى ٢٠ جماد أول ١٢٦١

(٢) دفتر ٩٣ (مدارس عربى) ص ١٠٧ رقم ٨ إلى مكتب أسيوط فى ١٨ شوال ١٢٦٣

(٣) دفتر ٥٠ (مدارس عربى) ص ٢٣٤٨ رقم ٤٢ إلى عموم المفتروات فى غرة رجب ١٢٦٣

(٤) دفتر ٢٧ (مدارس عربى) ص ٧١٢ رقم ٢٢١ إلى مدرسة الطب البيطرى فى ٧ المحرم ١٢٦٢

(٥) دفتر ٢٠٠٤ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٤ ربيع الأول ١٢٥٢

(٦) دفتر ٢٠٩٦ (مدارس تركى) ص ١٩٦ رقم ٧٩٦ إلى كامل بك فى ٢٦ ذى الحجة ١٢٦٠

(عرى) من صوف ، وفوق رءوسهم جميعا الطرابيش وفى أقدامهم (المراكيب)، هذا عدا كله الملابس الداخلية .

وفيما يلى بيان بالملابس التى تصرف لكل تلميذ ومواعيدها التى حددتها الحكومة :

لتلاميذ المدارس الابتدائية قميصان ولباسان وتكتان وطاقيتان و(عريان) من قماش وبشكيران فى كل سنة ، وطربوش و (عرى) من صوف فى كل ثمانية عشر شهرا ، وزوج من (المراكيب) فى كل ستة أشهر .

وللتلاميذ المدارس التجهيزية والخصوصية ثلاثة أقمصة وثلاثة ألبسة وثلاث (تكك) وثلاثة أعراى (جمع عرى) وكسوتان من قماش فى كل عام، وطربوش فى كل ثمانية عشر شهرا ، وكسوة من جوخ فى كل أربع سنوات ، وزوج من (المراكيب) فى كل ستة أشهر.(١) وللتلميذ فى مدرسة «السوارى» و «الطوبجية» زوج من الأحذية فى كل سنتين .

وتتألف كسوة التلميذ بالمدارس التجهيزية أو الخصوصية من « عنترى » (أى صديرى) وبطور (أى بنطلون أو سروال) وكمر (حزام) . وأزرار « العناتر » لتلامذة مدرسة « السوارى » تكون مستديرة الشكل ، وأزرار تلاميذ المدارس الأخرى تكون مسطحة ووسطها مرتفع . وتصنع نهايات « السراويل » من الجلد وبها طبقة من (المطاط) ، أما الحزام فيصنع من جلد أسود حليت أطرافه بقطع من نحاس أصفر .

وكانت كساوى المدارس المختلفة تمتاز بألوان خاصة ، حتى يكون من السهل معرفة المدارس التى ينتسبون إليها بمجرد النظر الى ألوان كساويهم .

---

(١) ليس هنا ذكر لجوارب يلبسها التلاميذ ، وإن كانت لائحة النظام الداخلى بالمهندسخانة (البند الخامس — نظام الملابس) تذكر الجوارب — وكذلك البند السابع يذكر جوارب وأحذية (أفرنجى) يلبسها التلاميذ فى نزهتهم — دفتر ٢٠١٠ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٧ المحرم ١٢٥٢

وكان الطلبة يبدلون ثيابهم الداخلية فى صباح الجمعة من كل أسبوع : فنى ليلة الجمعة توضع على فراش كل تلميذ ثيابه النظيفة ، وعلى رئيس غرفتـــه (الأوضه باشى) أن يسجل ما ينقصها من أزرار وغيرها ، وفى الصباح يخلع التلاميذ ثيابهم القذرة ويضعونها فى (بقجة) خاصة ، وعلى رئيس الغرفة كذلك أن يفحصها ليرى ما يحتاج منها إلى الإصلاح .[1] وفى بعض المدارس — كمدرسة الطب — كان على الطلبة أن يبدلوا ملابسهم الداخلية أيام الجمعة فى زمن الشتاء ، وأيام الجمعة والثلاثاء من كل أسبوع فى زمن الصيف [2]

وكانت ملابس التلاميذ فى بعض المدارس توضع فى « مستودع هو عبارة عن غرفة واحدة فى جدرانها الأربعة دواليب مربعة ، على كل دولاب وضعت (نمرة) الطالب الذى تحفظ ملابسه فيه ، ويجب حفظ مفتاح هذا المستودع عند ناظر المدرسة ، ويجب أن توضع نمرة الطالب على ما عنده من الملابس » .[3]

أما ملابس تلامذة المبتديان فقد رأيت أنها بسيطة فى نوعها وكمها ، لا يمكن أن تحتمل ما قدر لها من الوقت ، كما أنها لا تكفى لرد غائلة البرد فى الشتاء عن أطفال لينة أعوادهم يعيشون فى أماكن تسودها رطوبة الهواء ، ويفترشون الأرض ليلا وهم نيام ، ونهارا إذ يجلسون للدرس . لذلك كان بعض الأهالى حين يتسلمون مرتبات أبنائهم يبتاعون لهم بجزء منها ما يلزمهم من الملابس (الاضافية) .[4] ولكن ذلك لم يضع حدا للشكوى المتصلة من قلة الملابس التى تصرفها الحكومة لتلاميذ المكاتب . وأخيراً طلب الديوان

---

(١) انظر البند الرابع من لائحة النظام الداخلى لمدرسة المهندسخانة — الوثيقة السابقة .

(٢) انظر المادة ٢٢ من لائحة الخدمات الموكولة بناظر مدرسة الطب البشرى — دفتر ٢٠١١ (مدارس تركى) ص ٧٢ قرار شورى المدارس فى ١٨ المحرم ١٢٥٢

(٣) انظر البند الخامس الخاص بنظام الملابس من لائحة النظام الداخلى بمدرسة المهندسخانة .

(٤) دفتر ٥٦ (مدارس عربى) ص ١١١٩ رقم ٦٥ إلى مكتب أبى زعبل فى ٣ المحرم ١٢٦٣

إلى « المعية » أن يصرف لكل تلميذ فى كل عام « صديريان من البفتة بدون أكمام » : وكان ذلك فى نفس الوقت الذى طلب فيه لكل منهم مقدار من اللحم والخضر فى كل أسبوع . [١]

وكانت (أعراى) التلاميذ المصنوعة من القماش تصبغ « لتكون متينة » .[٢] وقد رفض الديوان أن يقوم التلامذة « بخياطة ملابسهم وترقيعها أثناء فراغهم » ، وأمر بتعيين « ترزى » يؤدى ذلك عنهم . [٣]

على أن الحكومة كانت حريصة كل الحرص على أن تستوفى الملابس ما حدد لها من وقت : فاذا أتلف تلميذ منها شيئا قبل وفاء «ميعاده» صرف له غيره وخصم ثمنه من مرتبه . [٤] وكانت ملابس القدماء من التلاميذ — بل الموتى منهم أحياناً —[٥] يلبسها الجدد منهم حتى ينتهى « أجلها » . [٦] والطالب الذى يتخرج فى المدرسة ولمـّا ينته أجل الملابس التى يلبسها عليه أن يدفع للحكومة « ثمن باقى الوعدة » . [٧]

وكانت مدرسة المبتديان بالقاهرة (مخزنا) عاما (لصرف) الأقمشة من البفتة والكتان و (الملاءات) لجميع المدارس ، فكان الديوان يطلبها لها من (البصمة خانات) وتتولى المدرسة بدورها الصرف منها للمدارس .[٨]

أما ملابس تلميذات مدرسة الولادة فكانت منذ إنشائها تصرف من «خزينة الأمتعة كالجارى فى السرايات لأنهن حريمات » . [٩]

---

(١) دفتر ٨٣ (مدارس عربى) ص٤١٢ رقم٣٣ إلى المعية الخديوية فى ١١ ذى القعدة ١٢٦٣

(٢) دفتر ٦١ (مدارس عربى) ص٢٩٩٩ رقم١٤٦ إلى مكتب أبوزعبل فى ١٢ جماد أول ١٢٦٣

(٣) دفتر ٢٠٢٥ (مدارس تركى) ص٧٣ رقم١٦٠٨ إلى ناظر مدرسة الزراعة فى ٢٠ جماد أول ١٢٥٣

(٤) دفتر ٩ (مدارس عربى) ص٧٣٩ رقم ١٦٧ إلى مدرسة الألسن فى ٨ جماد ثان ١٢٦١

(٥) دفتر ١٢٤ (مدارس عربى) ص١٣٦ رقم٢١ إلى مكتب الزقازيق فى ٥ ذى القعدة ١٢٦٤

(٦) دفتر ٢٠٠٦ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٣ جماد أول ١٢٥٢

(٧) دفتر ٦ (مدارس عربى) ص٣٠٥٨ رقم ١٦٠ إلى الدايرة السرعسكرية فى ٤ شعبان ١٢٦١

(٨) دفتر ٢٠ (مدارس عربى) ص١٨ رقم ٥ ، ٦ ، ٧ إلى البصمة خانات فى ... سنة ١٢٦٢

(٩) دفتر ٢٢ (مدارس عربى) ص٩١٦ رقم٢٨١ إلى الديوان الخديوى فى ٢٨ صفر ١٢٦٢

أما (مراكيب) التلاميذ وأحذيتهم فكانت تصنع فى مصنع خاص تابع للحكومة يدعى (ورشة السروجية)، وقد ألغى فى سنة ١٨٤١ [١] وأصبحت (المراكيب) والأحذية تصنع فى جهات أخرى.

نوم التلاميذ

وكان تلاميذ المبتديان يفترشون الحصر والسجاجيد على الأرض. بينما كان تلامذة المدارس التجهيزية والخصوصية ينامون على أسرة من حديد.

فلتلميذ المكتب «نخ» من حصير وسجادة «عسكرية»، «ومخدة» ملئت قطنا و«حرام بلدى» يجعل منه غطاءه. ولتلميذ المدرسة التجهيزية أو الخصوصية سرير من حديد وضعت عليه ثلاثة ألواح من خشب «ومرتبة»، و«مخدة» ملئتا قطناً وأربع «ملاءات» (مدتها أربع سنوات) [٢] وبطانية «بلدى».

ثم رأى الديوان «أن نظام المبيت بمدرسة المبتديان (بالقاهرة) غير مشرف، لأن التلاميذ ينامون على حصيرة فوقها سجادة، وهذا مما تعافه نفوس أبناء البلد وأبناء الأتراك وغيرهم من الذين اعتادوا النوم فوق المراتب، فيرغبون عن الانتساب لهذه المدرسة، وينحصر التلاميذ فيها على أولاد الفقراء واليتامى ... خصوصا وأن مكتب المحروسة يمتاز عن مكاتب المبتديان الموجودة بالأقاليم بكونه فى عاصمة الملك ومقر الحكومة، ويزوره على الدوام ضيوف أعزاء يردون من مختلف الأقطار والبلاد، ولا يليق أن يشاهدوا التلاميذ نياما على الأرض يفترشون الحصر والسجاجيد، حالة كونهم مستظلين بظل الجناب العالى». لهذا طلبت لجنة الامتحان إلى الديوان أن يأمر بصنع أسرة صغيرة من حديد على مثال أسرة المدرسة التجهيزية وإعداد الفُرُش اللازمة لها. [٣]

(١) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) ص ٨٠ فى ٢٣ ذى القعدة ١٢٥٧
(٢) دفتر ٥ (مدارس عربى) ص ٢٥٧٤ رقم ١٣٨ إلى البحرية باسكندرية فى ٢٨ جماد أول ١٢٦١
(٣) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص ٣٦ رقم ١٤٤٧ الى مدرسة المبتديان فى ٩ ذى القعدة ١٢٥٥

ولم يلبث هذا (الترفيه) أن سرى فى مكاتب المبتديان بالأقاليم ، فطالبت بعضها لتلاميذها بأسرة من حديد وألواح من خشب ،[١] فقدمت لها، وصنعت لها « مخدات وحشايا وملاءات ، لينام عليها التلاميذ ، لأجل عدم ضررهم ».[٢]

مرتبات التلاميذ [٣]

رأى محمد على — « تشويقا » لتلاميذ مدارسه ومكاتبه وبعثا لهم على الجدّ والنشاط — منحهم مرتبات شهرية تزاد كلما انتقل التلميذ من فرقة إلى أخرى أو من مرحلة من مراحل التعليم إلى التى تليها . حتى إذا انتهوا من التعليم وأقبلوا إلى الحياة العملية اضطردت مرتباتهم فى الزيادة . فالواقع أن حياة التلميذ (المدرسية) وحياته (الوظيفية) بعد ذلك كانتا مرحلتين متصلتين أوثق الاتصال ، تمهد الأولى منهما للثانية وتتم الثانية الأولى .

لم يكن للمرتبات قبل تنظيم المدارس فى سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧ نظام ثابت : فالتلاميذ الذين ألحقوا بمدرسة الطب البشرى فى العام الأول من إنشائها كان كل منهم يمنح مائة قرش فى الشهر ، وهو مرتب باهظ يعادل المرتب الذى أصبح يمنح لخريجى المدارس الخصوصية فى أواخر عصر محمد على . على أن الحكومة لم تلبث أن أدركت أنه ليس فى وسعها الاستمرار على دفع مثل هذه المرتبات الباهظة ، فأنقصتها كثيراً وحددتها كما يلى :

مرحلة التعليم	السنة الأولى . أى العام الأول فى المدرسة	الثانية	الثالثة	الرابعة	الخامسة
لتلاميذ المدارس الابتدائية	٨ قروش فى الشهر	١٠	١٢		
« « التجهيزية	١٥	٢٠	٢٥	٣٠	
« « الخصوصية	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠
« المهندسخانة الخديوية	٨٠	٩٠	١٠٠		

(١) دفتر ٦ (مدارس عربى) ص ٢٩٧٦ رقم ٧٠٨ إلى المهمات الحربية فى ٢٨ رجب ١٢٦١

(٢) دفتر ١٣ (مدارس عربى) ص ٢٨٨١ رقم ١٤٠ إلى مكتب أبى زعبل فى ٨ شعبان ١٢٦١

(٣) لم نشأ أن نسميها « مكافآت » التلاميذ بل أسميناها « مرتبات » تمشيا مع تسميتها فى اللوائح والأوراق الرسمية « جامكيات » أو « استحقاقات » .

والتلاميذ الأخيرون هم المتخرجون فى مدرسة المهندسخانة الملحقون بمدرسة المدفعية أو غيرها من المدارس . والتلاميذ الحائزون لرتبة «الأنباشى» يزيد مرتبهم على مرتب زملائهم من تلاميذ فرقتهم خمسة قروش ، والحائزون لرتبة «الجاويش» عشرة قروش ، والحائزون لرتبة «الباشجاويش» خمسة عشر قرشاً .

فتلاميذ المبتديان يزاد مرتبهم قرشان كلما تقدموا من فرقة لأخرى ، وتلاميذ التجهيزية خمسة قروش ، أما تلامذة المدارس الخصوصية فيزاد مرتبهم عشرة قروش ، حتى إذا انتهوا من الدراسة كان الواحد منهم يأخذ ثمانين قرشا فى الشهر .

أما تلامذة المهندسخانة الملحقون بالمدارس الأخرى فقد نظرت إليهم الحكومة نظرة خاصة : إذ كانوا قد قضوا فى ميدان التخصص مرحلة طويلة . على أنا لا نعلم مدرسة أخرى تمكنت من إلحاق تلاميذ من المهندسخانة بها ، لذلك يمكننا القول إنه لم يكن هناك تلاميذ يتناولون من الحكومة أكثر من ثمانين قرشاً فى الشهر .

ولم تلبث الحكومة بعد سنوات أن شعرت بأن هذه المرتبات تبهظها ، وأن « صرف مرتبات زائدة للتلاميذ مع قيام الحكومة بجميع مصاريفهم مما يؤدى إلى تشجيع التلاميذ على الميل إلى السفاهة ، فيكون ذلك مانعا من رقيهم وتقدمهم ، والمدارس مفروض فيها أن تكون مكانا لتثقيف الناس وتعليمهم . أما منح الرتب والعلاوات والمرتبات فلا يكون إلا بعد إتمام التحصيل » . [1] لذلك بدأت مدرسة « السوارى » فأنقصت من مرتبات تلاميذها وضباطها بما يعود على الحكومة بنحو الخمسة والثلاثين جنيها فى كل شهر .

وعرض على محمد على مرة أن يرفع مرتبات تلامذة بالمكتب العالى

---

(١) دفتر ٢٠٠٨ (مدارس تركى) ص ٤ رقم ١٢٩٦ إلى الباشمعاون فى ١١ شوال ١٢٥٠

تفوقوا فى الامتحان ، فأجاب - محتدا - بأن هذه المدرسة نظمت على مثال مدارس أوربا فيجب أن تماثلها كذلك فى مرتبات التلاميذ ، « على أنه لم يخصص ماهيات لتلامذة المكاتب مثل ذلك بأوربا . أتريدون أن نكون أضحوكة بين دول العالم ؟ وعلى ماسمعت إن ماهية التلميذ بأوربا من ثلاثة قروش إلى خمسة ، ويضاف إليها قرش أو قرشان وقت الامتحان لتشويقهم . . . . ثم ألا ينبغى معاملة تلامذة المكاتب الأخرى الكثيرة العدد كما تريدون ؟ . . . . » وأشار بأن يمنحوا « نياشين » تشجيعا لهم . [1] وفعلا أنفذ أمره وصنعت النياشين ونقش عليها رسم ورقة وقلم . [2] وكان يستعاض أحيانا عن العلاوات المالية للتلاميذ المتقدمين برتب عسكرية أو كتب منوعة . [3]

ثم رأت الحكومة أن مرتبات التلاميذ المنتقلين من المدرسة التجهيزية إلى مدرسة من المدارس الخصوصية تزاد زيادة مضطردة ، فحرمتهم هذه الزيادات وأبقتهم بمرتباتهم التى كانوا يتناولونها بالمدرسة التجهيزية . ثم رأت لجنة تنظيم التعليم فى سنة ١٨٤١ — وكان (الاقتصاد) رائدها فى مناقشاتها وقراراتها — أن « تنظيم المرتبات لم يصب من التوفيق ما يجعله شاملا جميع المدارس ، بل بقيت المدارس مختلفة فى المرتبات زيادة ونقصاً . حتى أن التلاميذ ذوى الرتبة الواحدة وأتراب الفرقة الواحدة فى مدرسة واحدة كانوا متباينى المرتبات تبايناً ناشئاً عن التنسيق القديم . وصفوة القول إن نظام المرتبات ظل فرطا لا نظام له ولا قاعدة » . لهذا كله أقدمت اللجنة على وضع نظام جديد للمرتبات ، [4] راعت فيه الأساس الذى وضعته للنظام القديم : وهو تفاوت المرتبات فى المراحل الدراسية وفى الفرق الدراسية . إلا

---

(١) أمين باشا سامى : تقويم النيل ج ٢ ص ٤٤٨

(٢) المصدر السابق : ص ٤٥٠

(٣) الوقائع المصرية : العدد ٤٣٣ فى ٢٩ ربيع الثانى ١٢٤٨

(٤) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) رقم ٥٦٥ إلى شورى المعاونة فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٧

أنها بدأت بحد أدنى قليلا عما كان موجودا ، وأنقصت الفروق بين فرقة وأخرى وبين مرحلة وأخرى نقصاً لم يكن بالقليل ، وكان من شأنه أن تلميذ الفرقة الأولى (النهائية) بمدرسة خصوصية لم يقرر له فى كل شهر إلا خمسة وثلاثون قرشاً ، أى أقل مما كان يمنح لتلميذ الفرقة الخامسة المبتدئة بها .

وهاك بياناً بالمرتبات الجديدة :

مرحلة التعليم	السنة الأولى	الثانية	الثالثة	الرابعة	الخامسة
المكاتب الابتدائية	٦	٧	٨		
المدارس التجهيزية	١٠	١١	١٢	١٣	
« الخصوصية	١٥	٢٠	٢٥	٣٠	٣٥

ولكن الراجح أن هذا النظام الجديد لم ينفذ بحذافيره : إذ كان هناك تلاميذ بالتجهيزية ، ومرتبهم لا يعدو — كما نص القانون — ثلاثة عشر قرشاً ، يمنحون أكثر من خمسة عشر قرشا . [١] كما كان بمدرسة الطب تلاميذ يُنقد الواحد منهم خمسون قرشا فى كل شهر . [٢]

ولم تكن مرتبات التلاميذ تصرف لهم بانتظام فى كل شهر ، بل كانت تصرف لهم كل ستة أشهر ، [٣] بل لقد كانت الحاجة المالية تضطر الحكومة إلى أن تؤخر صرف المرتبات نحو عام ونصف عام : ففى منتصف عام ١٢٦١ هـ صدر الأمر بصرف ستة أشهر من مرتبات عام ١٢٦٠ . [٤] وكان كل تلميذ « يأخذ حقه فى يده بحضور ضباطهم ونظار مدارسهم والمعاونين الذين يندبهم ديوان المدارس لكل صرفية » . ولم يكن يؤخذ على التلاميذ إيصالات ، بل يكتفى بشهادة الحاضرين وتوقيعاتهم أو أختامهم . [٥]

(١) دفتر ٦٥ (مدارس عربى) رقم ٥٧٦ إلى مدرسة الطب البشرى فى ٢٨ رمضان ١٢٦٣

(٢) دفتر ٢٧ (مدارس عربى) إلى مدرسة الطب البشرى فى ٢ ذى الحجة ١٢٦١

(٣) دفتر ١٠ (مدارس عربى) ص ٢٠٩٧ إلى مدرسة الطب البيطرى فى ٢٤ صفر ١٢٦١

(٤) دفتر ١٤ (مدارس عربى) ص ٢٧٤٩ رقم ٦٠٩ إلى مدرسة الطب البشرى فى ١١ رجب ١٢٦١

(٥) دفتر ٢٦ (مدارس عربى) ص ٣٠١ رقم ١٤٧ إلى خزينة المدارس فى ٢ ذى القعدة ١٢٦١

وكان يسمح أحياناً لتلاميذ المدارس الخصوصية « بتحويل، استحقاقهم « لأنهم فقراء ولهم أهل »، (١) أى تحويلها إلى أهلهم ليتسلموها ويستعينوا بها على قضاء شئونهم .

أما « مدرسة » المبتديان بالقاهرة فقد جعل مواعيد صرف مرتبات تلاميذها « وقت الصرف العمومى أسوة بالمدارس الأخرى ... ولكن نظراً لأن أكثر هؤلاء التلاميذ أيتام وفقراء ، عدا أن ماهياتهم بسيطة ، وحيث أن معلميها وخدمها من الفقراء أيضاً ، فإنه لو صرفت مرتباتهم شهرياً أسوة بمكاتب الأقاليم يكون ذلك سبباً لتشويقهم .... موجباً لسرورهم بأن يروا فى أيديهم بضعة قروش فى كل شهر ، كما يكون سبباً فى ترغيب الناس لإدخال أولادهم بالمدرسة » . لذلك رأى الديوان الموافقة على الالتماس الذى رفعوه بطلب صرف مرتباتهم فى كل شهر، وطلب الإذن من « ولى النعم » بذلك . (٢)

أما تلامذة مكاتب المبتديان بالأقاليم فكانت مرتباتهم تصرف لهم فى كل شهر من خزائن المديريات التابعة لها ، (٣) ثم أصبحت تصرف لهم كل ثلاثة شهور . وكان أهلوهم يحضرون إلى المكتب فى ميعاد الصرف ليتسلموا مرتبات أبنائهم . (٤) وكان الأهالى (يتلهفون) على تسلم مرتبات أبنائهم بالمكاتب ويشكون نظارها إلى الديوان إذا تباطأوا فى تأديتها إليهم . (٥) أما من ليس لهم أهل من التلاميذ فكان نظار المكاتب يتسلمون مرتباتهم ويتولون الصرف منها على شئونهم (وعلى تجهيزهم حين وفاتهم) بقوائم يشهد عليها المدرسون وترفع الى الديوان . (٦)

(١) دفتر ٥٦ (مدارس عربى) ص ١١٠٠ عرض إلى المدرسة والاسطبلات فى ٧ ذى الحجة ١٢٦٢
(٢) دفتر ٢٠٩٤ (مدارس تركى) ص ٣١ رقم ٢١٣ إلى الباشا الكتخدا فى ٢٢ المحرم ١٢٦٠
(٣) دفتر ٢٣ (مدارس عربى) ص ١٢٤٨ رقم ٣٨٦ إلى ديوان المالية فى ١١ ربيع الثانى ١٢٦٢
(٤) دفتر ٥٦ (مدارس عربى) ص ١٠٤٢ رقم ٥٨ إلى مكتب بوش فى ٢٠ ذى الحجة ١٢٦٢
(٥) دفتر ٥٤ (مدارس عربى) ص ٣٠٨ رقم ١٦ إلى مكتب أبى زعبل فى ١٩ شوال ١٢٦٢
(٦) دفتر ١٢٥ (مدارس عربى) ص ٤٩٨ رقم ٣٢ إلى مكتب أبى زعبل فى ٢٢ ذى القعدة ١٢٦٤

ولما نظمت مكاتب المبتديان بالأقاليم فى سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧ رؤى — منعاً لما قد يحدث من اختلاسات فى مرتبات التلاميذ — ألا تصرف «بمعرفة نظارها، بل يذهب للمكتب يوم الصرف صراف المديرية يصحبه أحد معاونيها، ويصرف لكل تلميذ ما يستحقه بحضور ناظر المكتب ومأمور حساباته (الكاتب) وباشخوجته (رئيس معلميه) على أن يعطى كل تلميذ سركى تسجل فيه الماهية التى تصرف له». [1]

وكان المكتب يكتب (سركياً) بقيمة استحقاقات التلاميذ فى الشهر ويرسله للديوان، فيوافق الديوان عليه ويعيده للمكتب. [2] حتى إذا حل ميعاد الصرف ذهب به ناظر المكتب إلى المديرية، ثم عاد ومعه أحد معاونيها، وفى المكتب يقوم المعاون بالصرف بحضور المدرسين، وبعد الصرف تختم (قائمة الصرف) من المدرسين والناظر ومعاون المديرية. [3]

وكان التلاميذ — سواء بالمدارس أو المكاتب — تجرى عليهم المرتبات طول العام، فلا تقطع عنهم أيام العطلة الرسمية التى تكون فى رمضان والأعياد من كل عام. أما العطلة التى يمنحها الديوان للتلميذ لمرض أو لغيره فى غير أيام العطلة الرسمية فكان يستقطع خلالها نصف المرتب. [4] حتى إذا عاد التلميذ فى الميعاد المحدد عاد إليه مرتبه كاملا، أما إذا تأخر — ولو يوماً واحدا — عُدّ هارباً وصودر مرتبه. [5]

على أن التلاميذ لم يكونوا يتسلمون المرتبات التى قررها لهم القانون كاملة، بل كان يخصم منها مقادير مختلفة: منها ما كان يسمى «اليوم المعتاد خصمه»،

(١) دفتر ٢٠١٧ (مدارس تركى) ص ٢٠٢ قرار شورى المدارس فى ٢٦ ربيع الأول ١٢٥٢

(٢) دفتر ٨ (مدارس عربى) ص ٢١٠ رقم ١٠ إلى مكتب الجيزة فى ١٧ رمضان ١٢٦٠

(٣) دفتر ٩٩ (مدارس عربى) ص ٢٧٩٣ إلى مكتب أبى زعبل فى ٦ رجب ١٢٦٤

(٤) دفتر ٩ (مدارس عربى) ص ٧٧١ رقم ٣٤ إلى مكتب بوش فى ١٩ جماد ثان ١٢٦١

(٥) دفتر ٩ (مدارس عربى) ص ٧٥٦ رقم ١٨٣ إلى مدرسة الطب البشرى فى ١٨ جماد ثان ١٢٦١

ذلك لأن السنة (التوتية) كانت اثنى عشر شهراً وأحد عشر يوماً ، ولذلك كان يخصم من كل شهر مرتب يوم لقاء الأيام الزائدة على الاثنى عشر شهرا . (١)

وكان يخصم منهم ثمن ملابسهم التى تتلف قبل وفاء مواعيدها وثمن الزجاج الذى يكسر فى المدرسة (٢) وألواح الكتابة الصفيح (٣) والكتب (٤) وألواح الأسرة الخشبية التى يتلفونها (٥) وبعض أدوات لازمة للتعليم كالمحابر (٦) وآلات الجراحة لتلاميذ الطب ، (٧) بل كان يخصم منهم أجر (الحلاقين) الذين يقومون على إصلاح شعورهم (والخياطين) الذين يصلحون لهم ملابسهم ، ومن تلميذات الولادة أجر (البلانة) التى تنظف لهن شعورهن فى يومى الخميس والجمعة من كل أسبوع ، (٨) بل كان يخصم من مرتبات التلاميذ أجر الحمير التى يركبونها إذا توجهوا من مكتبهم إلى المدرسة التجهيزية (٩) وأجر استحمامهم مرتين فى كل شهر . (١٠)

أدوات التعليم — الكتب

فى أول العام الدراسى — فى شوال من كل عام — يطلب الديوان إلى

---

(١) دفتر ٩٤ (مدارس عربى) ص ٦٩١ رقم ١٠٥ الى مدرسة الألسن فى ٢٥ ذى القعدة ١٢٦٣.

(٢) دفتر ٢ (مدارس عربى) ص ١٠٤ رقم ١٣٥ الى ديوان الجهادية البحرية فى ٢٤ المحرم ١٢٦٠

(٣) دفتر ١ (مدارس عربى) ص ٣ رقم ٣ الى ناظر المهمات الحربية فى ٢٦ شعبان ١٢٦٠.

(٤) دفتر ٣ (مدارس عربى) ص ٩٢١ إلى البحرية باسكندرية فى ... سنة ١٢٦١

(٥) دفتر ٣ (مدارس عربى) ص ٩٧٨ إلى المهمات الحربية فى ٢٦ صفر ١٢٦١

(٦) دفتر ٩٩ (مدارس عربى) ص ٢٩٠٤ رقم ١٧١ إلى مكتب أسيوط فى ١٣ رجب ١٢٦٤.

(٧) دفتر ٢٧ (مدارس عربى) ص ٧٧١ رقم ٢٦٥ إلى مدرسة الطب البيطرى فى ٢١ المحرم ١٢٦٢.

(٨) دفتر ١٣ (مدارس عربى) ص ٢٧٤٩ رقم ٦٠٧ إلى مدرسة الطب البشرى فى ١١ رجب ١٢٦١

(٩) دفتر ٢٧ (مدارس عربى) ص ٦٣٣ رقم ٣٨ إلى مكتب المبتديان فى ٦ ذى الحجة ٢١٦١

(١٠) دفتر ١٣ (مدارس عربى) ص ٢٧٨٥ رقم ٦٨٠ إلى مفتش الدوننما فى ٦ رجب ١٢٦١ — وقدره ١٠ فضة.

«الكتبخانة» الكتب التى يحتاج إليها التلاميذ فى دراستهم لتوزيعها عليهم.[١] فان لم يجدها «بالكتبخانة» بحث عنها لدى تجار الكتب ليبتاعها منهم.[٢]

وكانت أثمان الكتب تخصم من مرتبات التلاميذ بواقع الخمس منها فى كل شهر. وكانت تقدَّر عليهم بقدر تكاليفها فى المطبعة.[٣] ثم رأت الحكومة أن عليها أن تنهض بجميع مايستلزمه تعليمهم: فأصدرت أمرها بأن تقدَّم لهم الكتب على نفقة الحكومة. وكان ذلك فى سنة ١٢٥٨ (١٨٤٢ م).[٤] وكان الكتاب الواحد يستمر استعماله مدة طويلة حتى (يهلك)، وإذا أتلف تلميذ كتابه أو فقده صُرف له غيره، على أن «يخصم» ثمنه من مرتبه فان استغنى عن كتاب لفرقة دراسية ما وقُرر لها كتاب آخر جُمعت من تلاميذها الكتب الأولى وأعطيت «للمستجدين»، وإلا فللمدرسة بيعها لمن يطلبها.[٥] ويباع (الدشت) منها (بالمزاد) بالأقة.[٦]

لم يكن الكتاب إذاً ملكا للتلميذ، بل كان يعطى له ليستعمله، فاذا نقل لفرقة أخرى أخذ منه وصرف لغيره، وهكذا حتى يهلك. ولناظر المدرسة أن يسلم الكتب للمدرسين بايصالات يوقعونها، ويسلمونها هم بدورهم إلى التلاميذ ويشرفون عليهم حتى لا يتلف منها شىء.[٧]

وكان الديوان ينبه دائما المسئولين عن صرف الكتب للتلاميذ الى أن يصرفوا لهم من الكتب القديمة المستعملة، حتى تنفد فيصرف لهم من الكتب الجديدة.[٨]

---

(١) دفتر ٨ (مدارس عربى) س ٣٣٠ إلى الكتبخانة فى ١٠ شوال ١٢٦٠

(٢) دفتر ٩ (مدارس عربى) س ٨١٦ من الديوان إلى مدرسة المهندسخانة فى ٦ ذى القعدة ١٢٦٠

(٣) Perron, Jour. Asiatique, 1842, p. 22.

(٤) دفتر ٢٠٨٠ (مدارس تركى) س ٨٩ أمر عال فى ١٠ ذى القعدة ١٢٥٨

(٥) دفتر ٣ (مدارس عربى) س ٩٢١ إلى البحرية بالاسكندرية فى ... سنة ١٢٦٠

(٦) دفتر ٦ (مدارس عربى) س ٣٠٧٢ رقم ٥١٣ الى المكتب العالى فى ٢٨ شعبان ١٢٦١

(٧) دفتر ١٠ (مدارس عربى) س ١٠٨٥ رقم ٥١ الى مكتب بوش فى ٢٥ المحرم ١٢٦١

(٨) دفتر ١٠ (مدارس عربى) س ٢٠٢٩ الى الكتبخانة فى ... سنة ١٢٦١

ثم رأى الديوان أن الكتاب الذى يصرف للتلميذ حقٌ له لا يحسن استرداده منه ، فقرر أن التلميذ الذى يعطى له الكتاب أول مرة ويخصم « بالأبعادية » أى على جانب الحكومة إذا انتقل من فرقة لأخرى أو من مدرسة لأخرى لا يؤخذ منه الكتاب ، بل يحتفظ به ويعطى له « كانعامية » ، أما التلامذة المستجدون فتطلب لهم كتب أخرى . [1]

وكانت الكتب الشرقية : العربية والتركية والفارسية تحفظ بدار للكتب تسمى « الكتبخانة الخـــديوية » . وتحفظ الكتب الفرنسية « بالكتبخانة الأفرنكية » أو « الكتبخانة الكبرى » وكلتاهما تابعتان لديوان المدارس .

وكانت « الكتبخانة الخديوية » بجوار « المحكمة الكبرى » فى بنـــاء مستقل [2] وقد أنشئت فى سنة ١٢٥٠ (١٨٣٤ م) ، وجُمعت لها إذ ذاك الكتب المشتتة فى جهات مختلفة . [3] وكان الديوان يحدد لها أثمان الكتب التى بها ، [4] وتتولى هى الصرف منها للمدارس والمكاتب والبيع منها لمن يشاء من الأفراد . وكان الديوان والكتبخانة دائمى الشكوى من صعوبة (تصريف) الكتب التى اكتظت بها ، برغم الاجراءات التى كانت تتخذها لتشجيع الإقبال على شرائها : فكانت تبيع الكتب أحياناً بثمن مؤجل [5] وتخفض أثمانها أحيانا أخرى « رغبة فى انتشار العلوم بين الأهالى » . [6]

---

(١) دفتر ٥٦ (مدارس عربى) ص١٠٦٩ رقم ٤٥ إلى مكتب أسيوط فى ٤ ذى الحجة ١٢٦٢

(٢) دفتر ١٣ (مدارس عربى) ص ٢٨١١ رقم ٧١٥ إلى نظار المدارس والمصالح فى غرة شعبان ١٢٦١

(٣) دفتر ٧١ (معية) رقم ٦٥ الى مختار بك ناظر مجلس الملكية فى ١٠ رمضان ١٢٥١

(٤) دفتر ١٣ (مدارس عربى) ص٢٧٢٨ رقم ٢٤١ الى الكتبخانة فى ١٠ رجب ١٢٦١

(٥) دفتر ٥٤ (معية) رقم ٣٦٨ الى مختار بك فى ٢٩ شعبان ١٢٥٠

(٦) دفتر ٢١٠٣ (مدارس تركى) ص ٤ فى ٢ المحرم ١٢٦١ وواضح أن هذه « الكتبخانة » لم تكن لمطالعة الناس ، فهى لا تعدو أن تكون (مخزنا) للكتب وقد أزمعت الحكومة فى سنة ١٨٣٧ إنشاء « كتبخانة » للمطالعة : فقد كتب محمد على — وكان إذ ذاك بمنوف — إلى باقى بك فى ٥ المحرم سنة ١٢٥٣ بأنه « يوافق على بيع الكتب فى

أما الكتبخانة الأفرنكية أو الفرنسية فكانت أول إنشائها سنة ١٢٥٢ بمدرسة الألسن . وكانت كتبها تختم بخاتم « كتبخانة كبرا » . (كذا) [١] وقد عين مسيو « ديزون » المدرس بمدرسة الألسن أميناً على هذه المكتبة ،[٢] ثم ألحقت بديوان المدارس بالأزبكية . فلما نقل فى سنة ١٢٦١ (١٨٤٥ م) إلى الناصرية بالسيدة زينب أعيدت « الكتبخانة » إلى مدرسة الألسن . [٣]

وفى كل عام كان الديوان يعقد اجتماعا من نظار المدارس الخصوصية ، ويطلب إليهم بيانا بالكتب التى نشرت فى أوربا فى العلوم والفنون المختلفة ، حتى إذا اشتريت أودعت « الكتبخانة الأفرنكية » لتقديمها لمن يشاء منهم والصرف منها للتلاميذ ، ودُفعَ بعضها لقلم الترجمة ليقوم المترجمون بترجمتها . [٤]

ولم يكن يصرف لتلاميذ المكاتب كراسات ، بل كان لكل تلميذ بالفرقة الأولى (فرخان) من الورق الأبيض فى كل شهر لكتابة « مختصر الجغرافيا وأمور الدين » . [٥] ولكل تلميذ يتعلم خط الثلث « ثلاثة أفرخ » من الورق البلدى الملون . [٦] وكان يصرف للمكتب أيضا ـ عدا الكتب والورق ـ أطالس للجغرافيا وأمشق لخط الثلث .

وكانت الكتب المدرسية تطبع فى المطبعة الأميرية ببولاق . وكان لبعض المدارس الخصوصية مطابع خاصة بها : فلكل من مدرسة المدفعية

= دكان الميرى الكائنة بخان الخليلى . ويأمره بتأجيل نقل الكتب النفيسة الموجودة فى خزينة الأمتعة إلى الكتبخانة ، حيث أنه بعد إتمام الجامع الشريف الجارى إنشاؤه فى القلعة سيصير إنشاء كتبخانة جديدة وستنقل تلك الكتب اليها لمطالعة الجمهور » — دفتر ٨١ (معية) رقم ٣١٩ الى باقى بك فى ٥ المحرم ١٢٥٣

(١) دفتر ٢٠١٥ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٣ جماد ثان ١٢٥٢

(٢) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢١ ذى القعدة ١٢٥٢

(٣) دفتر ٥ (مدارس عربى) ص ٢٦٨٥ رقم ٧٣٩ فى آخر جماد ثان ١٢٦١

(٤) دفتر ٢٦ (مدارس عربى) ص ٣٤٨ رقم ٧٧ الى مدرسة الألسن فى غاية شوال ١٢٦١

(٥) دفتر ٩٣ (مدارس عربى) ص ١٠٧ رقم ١٨ الى مكتب أسيوط فى ٢ ذى القعدة ١٢٦٣

(٦) دفتر ٢٠ (مدارس عربى) ص ١١٣ رقم ١٦ الى مديرية البحرية باسكندرية فى ١٣ شوال ١٢٦٣

بطرة ومدرسة الطب بأبى زعبل ثم بقصر العينى ومدرسة المهندسخانة ببولاق مطبعة تتولى طبع الكتب الخاصة بها ، وكانت فى أغلب الأمر عبارة عن دروس الأساتذة التى يترجمها مدرسو المدرسة الملمُّون باللغات الأجنبية ثم يصححها مصححو المدرسة .

وكانت بالقلعة مطبعة تابعة لمطبعة بولاق ، وكانت تقوم من وقت لآخر بطبع كتب فى التاريخ والأدب . ولكن عملها كان محدوداً ومطبوعاتها غير منتشرة . [١] وقد قامت فى وقت ما على طبع الوقائع المصرية . والراجح أنها لم تعش طويلا ، وكان مصيرها أن ضُـمت إلى مطبعة بولاق . وكان ثمة عدا مطابع الحكومة مطبعة (أفرنكية) بالقاهرة يملكها أجنبى ، وكانت الحكومة تطبع بها أحياناً الكتب الفرنسية التى يحتاج إليها التلاميذ بمدرسة الألسن والمـــدارس الخصوصية الأخرى . [٢] وكان للحكومة مطابع (حجر) فى الاسكندرية ورشيد وبعض المديريات .

ولكل تلميذ فى السنة بالمبتديان لوحان من صفيح وأربعة وعشرون قلماً من البوص ، [٣] وثمانية دراهم من المداد فى الشهر . [٤] أما المحابر فكانت من الرصاص أو الفخار ، ويبتاعها المكتب ويخصم ثمنها فى بعض الأحيان من مرتبات التلاميذ . [٥] ولكل مكتب فى السنة أربع أقات [٦] أو أقة فى كل شهرين من الطباشير . [٧]

---

(١) Saint - John, op. cit. I. p. 129. و Cadalvène, op. cit. I. p. 100.

(٢) دفتر ٤٨ (مدارس عربى) ص ٢٩٢٩ رقم ١٤٢ إلى المعية الخديوية فى ٧ جماد ثان ١٢٦٣

(٣) دفتر ٢٠١٦ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢٢ رجب ١٢٥٢

(٤) دفتر ٢٠٠٣ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٦ صفر ١٢٥٢

(٥) دفتر ٩٩ (مدارس عربى) ص ٢٧٩٢ رقم ٣٧٤ ، ص ٢٩٠٤ رقم ١٧١ إلى مدرسة المبتديان ومكتب أسيوط فى ... سنة ١٢٦٣

(٦) دفتر ١٢ (مدارس عربى) ص ٢٤٧٢ رقم ٤٥٥ إلى مدرسة الألسن فى ٢٠ جماد ثان ١٢٦١

(٧) دفتر ٣١ (مدارس عربى) ص ٢٢٤٧ رقم ٦٨٢ إلى مدرسة الألسن فى ١١ شعبان ١٢٦٢

وكان تلاميذ المدارس الخصوصية والتجهيزية يجلسون وقت الدرس على مقاعد من الخشب ، أما تلاميذ المبتديان فيجلسون على أنخاخ (أى حصر) من الحلفاء . فلما شرع الديوان فى تنظيم مدرسة المبتديان بالسيدة زينب على نحوٍ جديد رأت اللجنة أن تلاميذ المدرسة « بدلا من افتراشهم الحصر وتعلم الدروس قعوداعلى الأرض طبقاً للنظام القديم ، يحسن أن تطبق عليهم النظم الأوربية : فطوراً يجمعون حلقة وقوفاً بالقرب من الحائط ويقرأون الألواح المعلقة بالحائط ، وتارة يجلسون على التخت ويدرسون الدروس ، على أن تطبق هذه النظم الجديدة فى المستقبل بعد التأكد من نفعها وفائدتها » .[١]

وكان هذا أول عهد تلاميذ المدارس الابتدائية بالجلوس على (التخت) ، بعد أن كانوا - كصبية المساجد والكتاتيب - يفترشون الأرض . وكان ذلك فى سنة ١٢٥٥ (١٨٣٩م) . ولكن هذه النظم الجديدة لم يُشرع فى تطبيقها فى مكاتب المبتديان فى الأقاليم إلا بعد ذلك بخمس سنين ، حين رفع رفاعة بك رافع مدير مدرسة الألسن ورئيس لجنة امتحان المدارس الابتدائية صوته بالشكوى من جلوس تلاميذ المكاتب على الأرض ، وما يؤدى إليه من الضرر على صحتهم ، فضلا عما فيه من تمسك بالقديم البالى وتفرقة بين مدرسة المبتديان بالقاهرة ومكاتب المبتديان بالأقاليم . لهذا قررت الحكومة أن يجلس تلاميذ المكاتب على (تخت)[٢] أو كراس كبيرة من خشب . وكان ذلك فى أول الأمر (امتيازاً) لتلاميذ الفرقة الأولى ، وهى الفرقة النهائية بالمكتب .[٣] والراجح أن هذا القرار ظل وقتاً طويلا بدون أن ينفذ تنفيذا تاماً : إذ أنا بعد ذلك بنحو عامين نسمع عن تلاميذ مكتب بالأقاليم يفترشون « الأنخاخ الحلفا » وقت الدرس ، لا بل يفترشون البلاط أحياناً ، حتى تصل

---

(١) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص ٣٦ رقم ١٤٤٧ فى ... سنة ١٢٥٥

(٢) دفتر ٨ (مدارس عربى) ص٣٣٧ رقم ٢٠ الى مكتب بوش فى ٧ ذى القعدة ١٢٦٠

(٣) دفتر ٩٥ (مدارس عربى) ص١٠٢١ رقم ٢٢٣ الى مدرسة الألسن فى ٢٦ ذى الحجة ١٢٦٣

« أنخاخ » جديدة غير التي هلكت قبل ميعادها .[١]

وكانت مدرسة الألسن (مخزناً) عاماً للمكاتب : فنها تصرف الأقلام والمداد والصابون والورق والطرابيش والمراكيب والطواقي والتخت اللازمة . فكان ديوان المدارس يطلب إلى « شون التعيينات » أو « تعيينات الجهادية » صرف هذه الأشياء لمدرسة الألسن ، ثم تتولى المدرسة بدورها الصرف منها للمكاتب بإذن من الديوان . [٢]

وكانت المكاتب توفد من لدنها خدماً يأتون إلى القاهرة ، ليتسلم كل منهم ما يخص مكتبه من أدوات : كالكتب والأوراق والألواح والأحرمة وغيرها ، وليصحب التلاميذ المرضى الذين كانوا يعالجون بمستشفى قصر العيني ، وفي عودته تطلب له سفينة من « ترسانة بولاق » ، ويوصى به حتى يعود إلى بلده . [٣]

استحمام التلاميذ

كان تلاميذ المدارس يقصُّون شعرهم كل أسبوع مرة . ففي بعض المدارس كان يخرج التلاميذ « بعد ظهر الخميس من كل أسبوع مثنى مثنى كي يحلقوا رءوسهم ، وعندما يحلق الاثنان الأولان ويرجعان للمدرسة يخبران بذلك التلميذين اللذين سيخرجان بعدهما ، وكلما حلق اثنان منهم عادا إلى المدرسة وهلم جرا . ويُبتدأ بالباشجاويش ثم الجاويشية فالأنباشية فالتلاميذ على الترتيب المتقدم » .[٤] وعلى ناظر المدرسة أن يفتش عن الحلاقين ، « وفي

(١) دفتر ٣٠ (مدارس عربي) ص ١٩٣١ رقم ١٨١ الى مكتب أبي زعبل في ١٠ رجب ١٢٦٢
(٢) دفتر ٩ (مدارس عربي) ص ٦٧٤ رقم ١٣٤ وغيرها الى مدرسة الألسن في . . سنة ١٢٦٠
(٣) دفتر ١ (مدارس عربي) ص ١٠٢ رقم ٩ الى مفتش الترسانة ببولاق في ١٠ رمضان ١٢٦٠
(٤) المادة السادسة من لائحة النظام الداخلي بمدرسة الزراعة بنبروه — دفتر ٢٠٢٥ (مدارس تركي) ص ٧٣ رقم ١٦٠٨ في ٢٠ جماد أول ١٢٥٣

حالة وجود أدوات الحلاق غير نظيفة يضرب الحلاق ويطرد » . [١]

وكان التلاميذ يستحمّون مرة كل ثمانية أيام . ثم رؤى أن يستحموا فى الشهر مرتين . وكانت بعض المدارس تأخذ تلامذتها بالاستحمام مرة فى الأسبوع فى فصل الصيف ومرة كل أسبوعين فى فصل الشتاء . [٢] ولم يكن للمكاتب جميعها «حمامات» ، بل كان يكتفى «بحمامات» البلد يذهب إليها التلاميذ مرة كل خمسة عشر يوما ، [٣] على أن يذهب نصفهم أسبوعا ونصفهم الآخر الأسبوع التالى . وكان بمدارس العاصمة «حمامات» ، فاستغنى عنها واكتفى «بالحمامات العامة» . وكان أجر استحمام التلاميذ مرتين فى الشهر — وقدره عشر بارات — يخصم من «استحقاقات» التلاميذ . [٤] أما مكاتب البلاد التى ليس بها «حمامات» فكان يبنى فى كل منها غرفة للاستحمام أو الاغتسال ، وذلك لأن بناء «الحمامات» كان يكلف الحكومة كثيراً ، وتلاميذ القرى لم يعتادوا الماء الساخن ! [٥]

« ختان » التلاميذ

كانت الحكومة - رعاية للأطفال الملحقين بمدارسها وقياما على شئونهم جميعا - تقوم « بختان » من لم يكن قد « اختتن » من هؤلاء التلاميذ . ولم تكن لتنسى أن تحضر إلى المدرسة أو المكتب فى يوم « الختان » آلات الطرب ورجال الموسيقى ! بذلك صدر الأمر السامى إلى المديرين : « وإنه لايخفى

(١) من لائحة النظام الداخلى بمدرسة المهندسخانة — دفتر ٢٠١٠ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٧ المحرم ١٢٥٢

(٢) المادة ٢٥ من لائحة وظائف ناظر مدرسة الطب — دفتر ٢٠١١ (مدارس تركى) قرار شورى المدارس فى ١٨ المحرم ١٢٥٣

(٣) دفتر ٢٠١٦ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٤ رجب ١٢٥٢

(٤) دفتر ١٣ (مدارس عربى) ص ٢٧٨٥ رقم ٦٨٠ إلى مفتش الدونما فى ٢٢ رجب ١٢٦١

(٥) دفتر ٢٠١٧ (مدارس تركى) ص ٢٠٠ قرار شورى المدارس فى ٦ صفر ١٢٥٢

وجود طبل ومزمار بالقرى فيلزم استحضار ذلك عند القطعية لتفريحهم »![1]
كما أمر أيضاً « بأن يعطى لليتامى منهم والذين لا يقدر آباؤهم على ختانهم كسوة جديدة من خزينة الجهادية ومصاريف كافية ليختتنوا ، فأعطوا حسب أمره السامى كسوة جديدة ، وحضر أرباب آلات الطرب واللهو واللعب ، وأعدت لهم وليمة عظيمة . فاختتن الأولاد وكان سرور جزيل ».[2]

وقد بالغ بعض الكاتبين الأجانب فى وصف حفلات الختان بالمدارس : فذكر أن الحكومة كانت تحضر الراقصات ليدخلن السرور على قلوب المختتنين ، وغالى فيما يجرّه وجودهن بالمدرسة من الفوضى وسوء الخلق من جانب التلاميذ الأصحاء ![3]

وكانت الحكومة تنتهز مناسبات أفراح العائلة الخديوية فتجمع عددا كبيراً من التلاميذ الذين لم يختتنوا بعد - سواء بالمدرسة التجهيزية أو بمدرسة المبتديان بالقاهرة أو مكاتب المبتديان بالأقاليم - وتجرى ختانهم جميعا .[4] وكان الديوان يأذن لمكاتب الأقاليم بأن ترفه على تلاميذها « المختتنين » فتطعمهم من الأرز ولحم الضأن فى كل يوم ، كما يطعَم التلاميذ الناقهون من أمراضهم بالمستشفى .[5]

التلاميذ المتزوجون

وكان هناك تلاميذ متزوجون بالمدارس الخصوصية ، ولم تكن زوجاتهم يقمْن معهم بالمدارس طبعاً ، بل كان الديوان يأذن لهؤلاء التلاميذ بأن يمضوا

---

(١) أمين باشا سامى : تقويم النيل ج ٢ ص ٤٣٢

(٢) الوقائع المصرية : العدد ٢٦ فى ٨ ذى القعدة ١٢٤٤

(٣) Planat, op. cit. p. 155.

(٤) دفتر ٢١ (مدارس عربى) ص ١٣ رقم ١٠٥ إلى الديوان الخديوى فى ١٩ ذى الحجة ١٢٦١

(٥) دفتر ١٣ (ص ٢٧٧٠) رقم ١١٠ إلى مكتب بوش فى . . . سنة ١٢٦١

فى منازلهم ليلتى الخميس والجمعة من كل أسبوع ، « على أن يكونوا من ذوى الأخلاق الحسنة » . [١]

ثم رأى الديوان أن (زواج) التلميذ يتنافى مع ما يجب له من تفرغ لعمله الدراسى ، فأصدر قراراً بمنع التلاميذ من الزواج ، وأبلغه إلى مديرى المدارس. [٢]

والراجح أن الحكومة لم تجد بعد ذلك بدًا من إباحة زواج التلاميذ الراغبين فى الزواج ، على أن لا يتم ذلك إلا باذن منها . وكانت الحكومة تعاقب التلاميذ الذين يتزوجون « من دون إجازة » بالضرب مئات من (الزخم) وحرمانهم عطلة يوم الجمعة من كل أسبوع والتفريق بينهم وبين زوجاتهم بالطلاق ، كما تعاقب الفقيه الذى عقد القران بضربه أمام أقرانه الفقهاء ، أو قد تعفو عنه إن ثبت أنه كان يجهل قرار الحكومة . [٣]

وكان يسمح للتلاميذ « المتأهلين ذوى العيال » بأن تصرف لهم تعييناتهم « صنف ناشف » مدة شهر رمضان ، [٤] حتى يحملوها إلى « عيالهم » ويستعينوا بها على قضاء شهر الصوم .

المتوفّون من التلاميذ

كان الديوان يقوم (بتجهيز) الموتى من التلاميذ . وعلى ناظر المدرسة أن يضع قائمة بالنفقات ويشهد بصحتها المدرسون ليرفعها إلى الديوان ، [٥] حتى إذا كانت لهم مرتبات متأخرة بالمدرسة خصمت منها تلك النفقات ، [٦]

---

(١) دفتر ٢٠١٥ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢٢ جماد ثان ١٢٥٢

(٢) دفتر ٢٠٠٤ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٥ ربيع الأول ١٢٥٢.

(٣) دفتر ٥٥ (مدارس عربى) ص٧٠٦ رقم ٨٤ الى مدرسة البيادة فى ١٩ ذى القعدة ١٢٦٢.

(٤) دفتر ٣١ (مدارس عربى) ص ٢٢٩٥ عرض فى غرة رمضان ١٢٦٢

(٥) دفتر ١٢٥ (مدارس عربى) ص٤٩٨ رقم ٣٢ الى مكتب أبى زعبل فى ٢٢ ذى القعدة ١٢٦٤.

(٦) دفتر ٢٩ (مدارس عرابى) ص ١٣٩٠ رقم ٨٠ الى مكتب بوش فى ٢٦ ربيع ثان ١٢٦٢.

بل خصم منها « فرق » ثمن ملابسهم التى لم ينته ميعادها « لأجل أن يستوفى الميرى حقه » .[1] وإذا رؤى أن تلك الملابس ما تزال قابلة للاستعمال أعطيت للجدد من التلاميذ حتى تستوفى أجلها ، وفى هذه الحالة لا يخصم فرق ثمنها من مرتب المتوفين .[2]

أما إذا كانت ملابس التلميذ المتوفى قد استوفت مواعيدها ولم يكن عليه للحكومة شىء سلمت لأهله ، وسلم لهم أيضاً مرتبه و « تركته » ، وذلك بعد كتابة الحجة الشرعية لإثبات حقهم فى الإرث .[3] أما إذا توفى تلميذ ولم يكن له أهل يرثونه بيعت ملابسه (القديمة) ، وأرسل ثمنها لخزينة الديوان.[4]

وقد بلغ من تقدير بعض المدارس للوشائج التى تربطها بتلاميذها أن طلبت مدرسة « البيادة » إلى الديوان أن يأذن لها ببناء عدد من المقابر فى جوارها ، حتى إذا انتقل أحد من تلامذتها إلى دار البقاء قامت على تجهيزه ودفنه فى جوارها . ووافق الديوان وكتب بذلك إلى ديوان الأبنية الأميرية .[5]

التلاميذ الفارون

ذكرنا أن الحكومة كانت (تخصص) تلاميذ المكاتب على المديريات ، وكانت المديريات تعهد فى جمعهم إلى أعوانها من مشايخ البلاد والجند أحيانا . وكان ذلك كافيا لبثّ الخوف فى نفوس هؤلاء الأطفال أول عهدهم بالحياة

---

(١) دفتر ٥٦ (مدارس عربى) ص ١١١٦ رقم ١٣٠ الى مدرسة الطب البشرى فى ١٦ ذى الحجة ١٢٦٢

(٢) دفتر ١٢٤ (مدارس عربى) ص١٣٦ رقم ٢١ الى مكتب الزقازيق فى ٥ ذى القعدة ١٢٦٤

(٣) دفتر ٢٠١٦ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢ رجب ١٢٥٢

(٤) دفتر ١٢٥ (مدارس عربى) ص٥٤٧ رقم ٦٣ إلى مدرسة المبتديان فى ٤ ذى الحجة ١٢٦٤

(٥) دفتر ٨٥ (مدارس عربى) ص١٣٤٩ رقم ٣٥٧ إلى ديوان الأبنية الميرية فى ٢٤ صفر ١٢٦٤

المدرسية ، خوفا قد يكون عسيرا بعد ذلك اقتلاعه من نفوسهم الغضة سريعة التأثر . ثم هم يحملونهم بعد ذلك على ترك أهليهم الذين نشأوا فى حجورهم وبلادهم الجميلة التى يحملون لها فى قلوبهم وعقولهم الصغيرة أحلى ذكريات طفولتهم وصباهم ، والتى لا يفتأون يذكرونها ويحنّون إليها كلما تقدَّم بهم العمر وطالت الأيام ، أن كانوا لا يعودون إليها إلا فى فترات طويلة تذكى فيهم ذكريات الصبا وتزيد من حنينهم إليها . حقا إن الحكومة لم تَسْمُ بهم كثيراً عن البيئة التى نشأوا ودرجوا بها : فلباسهم وغذاؤهم لم يكونا يختلفان كثيراً عما ألفه أهل الريف إذ ذاك . إلا أن الحكومة كانت تأخذهم بنظام لاقبل لهم به : فهم يصطفّون كلما فرغوا من عمل أو أقبلوا إلى آخر ، وهم يسمعون لفرد منهم ينفذ فيهم كلمته ، وهم إلى هذا يقاسون ألوانا من العقوبات البدنية كلما أخطأوا الفهم أو أعوزهم الاندماج فى البيئة الجديدة . لهذا كله لا نفتأ نسمع خلال تاريخ التعليم فى عصر محمد على — ولم يكن بالقصير — بحوادث الفارّين من التلاميذ : تلاميذ المدارس والمكاتب ، وجهود الحكومة فى (تعقبهم) و (القبض) عليهم وإعادتهم إلى مدارسهم أو مكاتبهم ، ثم أخذهم بألوان من العنف ، جزاء لهم على ما اقترفوا من نكران (لجميل) الحكومة التى أنفقت عليهم طويلا .

ولما أرادت الحكومة وضع حد لحوادث فرار التلاميذ واتخاذ إجراء يمكّنها من سهولة القبض عليهم ، قررت نظام «الضمانات» : وهو أن التلاميذ حين يجمعون للمكاتب يجب أن يكون مع كل منهم « وثيقة ضمانة بختم شيخ بلده » . [١] ولم تكن تقبل الضمانات التى يقدمها مستخدمو الحكومة . [٢] والتلاميذ « المضمونون » هم وحدهم الذين يسمح لهم بالخروج إلى أهلهم

(١) دفتر ٢١ (مدارس عربى) ص٤٩٧ رقم ٥٥ إلى مديرية القليوبية فى ١٩ ذى الحجة ١٢٦١

(٢) دفتر ٩ (مدارس عربى) ص٦٨٩ رقم ١٣٨ إلى مدرسة الألسن فى ٢٤ ذى القعدة ١٢٦٠.

أيام العطلة السنوية فى رمضان والأعياد وأيام الجمع من كل أسبوع والمبيت عندهم . أما التلاميذ « غير المضمونين » فتعدُّ المدرسة نفسها مسئولة عنهم ، فلا تخرجهم منها قط . [١] حتى إذا خرجوا للنزهة صحبهم (ضابط) يشرف عليهم ، وهو مسئول عنهم حتى يعودوا إلى المدرسة . [٢]

وكان على المدرسة أو المكتب إذا فرَّ أحد تلامذته ومضى على فراره أربع وعشرون ساعة أن يبادر بإضافة « استحقاقه جهات قطعى لجانب الديوان » ، وبالكتابة إلى الديوان باسمه ولقبه وبلده وضامنه ليتخذ الديوان الاجراءات السريعة للقبض عليه أو إحضار غيره . [٣]

ثم يبادر الديوان بإخطار المديرية التابع لها بلد التلميذ الهارب ، حتى تجدَّ فى البحث عنه ، فإن عجزت فعليها أن تقدم للمكتب تلميذاً غيره . [٤] وعليها أن تستدعى (ضامنه) وتشدِّد عليه فى البحث عنه وأداء ما قد يظهر على التلميذ من أثمان ملابس أو غيرها مما يكون قد أخذها معه . [٥] وكذلك يُستدعى أهله ويشدَّد عليهم فى تقديمه للحكومة إن كان مختفياً عندهم ، وإلا فهم ملزمون بدفع ما أنفقته عليه الحكومة منذ التحاقه بمدارسها . [٦] وقد يصيب أهله فى ذلك ألوان من الاهانة يصبُّها عليهم أعوان الحكومة من المشايخ والمتعهدين وغيرهم . [٧] وقد (يُحجز) أخ له حتى يقبض على أخيه الفارّ فيخلى سبيله [٨]

---

(١) دفتر ٨ (مدارس عربى) س ٢٠٢ رقم ٩ فى ٣ رمضان ١٢٦٠

(٢) دفتر ١٣ (مدارس عربى) س ٢٨٥١ رقم ٥٥٧ إلى مدرسة السوارى فى ١٧ شعبان ١٢٦١

(٣) دفتر ١١ (مدارس عربى) س ٣٠٦٠ رقم ٧٩ إلى مكتب ميت غمر فى آخر ربيع الأول ١٢٦١

(٤) دفتر ٢ (مدارس عربى) س ٤٠٦ رقم ٢٣ إلى مديرية الغربية فى ٩ ذى القعدة ١٢٦٠

(٥) دفتر ٢ (مدارس عربى) س ٤٠٧ رقم ٤٢٧ وغيرها فى . . . سنة ١٢٦٠

(٦) دفتر ٦ (مدارس عربى) س ٢٩٩٦ رقم ١٧ فى غرة شعبان ١٢٦١

(٧) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية م ٣ ج ٩ س ٤١

(٨) دفتر ٢ (مدارس عربى س) ٥١٨ فى ٣ شوال ١٢٦١

وكان الديوان حريصا كل الحرص على أن (يُقبَض) على التلميذ الفارّ ، ولا يقبل غيره حتى (تيأس) الجهات المختصة جميعاً من القبض عليه . ذلك لأن هذا التلميذ قد اكتسب علوماً وتكلفت الحكومة فى سبيله جهداً و نفقات كثيرة ، « فهذا لا يوافق تركه قضية مسلمة » . لذلك كانت المدارس تتخذ للقبض على الفارّين منها إجراءات (طريفة) : فهناك مدارس ترسل (مندوبين) من موظفيها للقبض على الفارّين والعودة بهم .[١] ومدارس أخرى تكلف تلامذتها الذين يعرفون التلميذ الفار بالبحث عنه وإعادته إلى المدرسة « وقت خروجهم للفسحة » .[٢]

أما الهارب فعقابه (المباشر) أن يضاف « استحقاقه » كله إلى خزينة الديوان؛ حتى إذا عاد من تلقاء نفسه كان جزاؤه أن يكتفى بخصم « استحقاقه » وقت هروبه. أما إذا اضبط وقبض عليه وأعيد إلى المدرسة فالعقاب الشديد لاشك منتظره.[٣] على أن على المدرسة قبل توقيع العقاب أن ترفع أمره إلى الديوان وتنال الإذن بإنفاذه .[٤]

وكانت بعض المدارس تضرب الهاربين من تلامذتها مائة (زخمة) أو مائة وخمسين ، وقد يغلو بعضها فيرفع الحد الأقصى إلى مائتين وخمسين (زخمة) أمام (الطابور) ، على أن يحرموا مرتباتهم كلها ، وتزيد بعض المدارس فتقيّد الهارب « بجنزير » لمدة شهر واحد .[٥]

أما تلامذة المكاتب فكان يراعى فى عقابهم ما تحتمله جسومهم اللينة ،

---

(١) الوثيقة السابقة .

(٢) دفتر ١١ (مدارس عربى) س ٣٠٩٤ رقم ٤٠٠ إلى ناظر المدرسة البحرية فى ٢٢ ربيع الأول ١٢٦١

(٣) دفتر ٣ (مدارس عربى) س ٩٧٥ رقم ٩٣ إلى ناظر البحرية باسكندرية فى ٢٧ صفر ١٢٦١

(٤) دفتر ١٣ (مدارس عربى) س ٢٧٢٩ رقم ١٠١ إلى مكتب ميت غمر فى ١٢ رجب ١٢٦١

(٥) دفتر ٩ (مدارس عربى) س ٧٢٥ رقم ١٥٥ إلى مدرسة الألسن فى ٤ جاد ثان ١٢٦٠

فكان الهارب منهم — عدا إضافة مرتبه لخزينة ديوان المدارس — يضرب خمساً وعشرين (زخمة) أمام (الطابور) ، أدباً له وعبرة لأمثاله ، . (١)

كذلك كان يعاقب الأشخاص الذين يؤوون لديهم تلميذاً هارباً من مدارس الحكومة أو مكاتبها .(٢) وإذا قبض على تلميذ هارب ورأت مدرسته أن المدة التى قضاها فى مخبئه لا تمكنه من متابعة دروسه مع أقرانه ، فصل من المدرسة وألحق جندياً بإحدى فرق الجيش .(٣) أما إذا كانت مدة هربه قصيرة فللديوان أن يعيد التلميذ الفارّ إلى الفرقة الدراسية التى كان بها أو إلى ما هو أدنى منها . (٤)

العقوبات المدرسية

لم تضع الحكومة للمدارس فى عهدها الأول لوائح للعقوبات ، بل تُرك أمر توقيع العقاب إلى ناظر المدرسة ومدرسيها . فكان بعضهم يكثر من استخدام (الكرباج) ، بينما قنع البعض بعقوبة الحرمان من الغذاء والاكتفاء بالخبز والماء . وظل الحال على ذلك حتى كوّن شورى المدارس وأنشىء ديوانها وبدأ العمل فى تنظيم المدارس ، فسُنت لوائح عقوبات لتلاميذ المدارس الابتدائية وأخرى لتلاميذ المدارس التجهيزية والخصوصية . وقد عاب عليها بعض نظار المدارس الأجانب أنها لم تكن تلائم البيئة المصرية : فمثلا كان (لبس الجاكتة مقلوبة) والتأنيب يثيران التهكم وعدم المبالاة فى نفوس المذنبين من الطلاب . (٥)

نصت المادة الثامنة عشرة من لائحة التعليم الابتدائى على العقوبات التى

(١) دفتر ١٣ (مدارس عربى) ص ٢٧٧٠ رقم ١١١ إلى مكتب بوش فى ٢٣ رجب ١٢٦١
(٢) دفتر ٦ (مدارس عربى) ص ٢٩٨٤ رقم ٥٣ إلى تفتيش جفالك نبروة فى ٥ شعبان ١٢٦١
(٣) دفتر ١ (مدارس عربى) ص ٢ رقم ٧ إلى مدير الجهادية فى ٢٨ شعبان ١٢٦٠
(٤) دفتر ٩ (مدارس عربى) ص ٧٢١ رقم ٤٠ إلى مكتب ميت غمر فى ٨ جماد ثان ١٢٦٠
(٥) Hamont, op. cit. I. p. 456.

تُوَقَّع على تلاميذ المكاتب الابتدائية ، وهى على التوالى :

١ — التلميذ المذنب يعزر ويزجر (أى يؤنب) بحضور جميع التلاميذ .

٢ — يحرم الخروج من المدرسة أيام العطلة وحين يخرج التلاميذ للنزهة .

٣ — يحجز فى المدرسة ولا يقدم له إلا الخبز والماء فقط .

٤ — يضرب (بالكرباج) .

٥ — يطرد من المدرسة .

أما بيان الحالات التى توقع فيها كل عقوبة من هذه العقوبات ، وكيف توقع ، ومن له حق توقيعها ، «كل ذلك يتعين أيضا فى سياستنامة مخصصة»[١] لم نعثر عليها .

والعقوبات التى توقَّع على تلاميذ المدارس التجهيزية والخصوصية هى على التوالى :

١ — الدعوة إلى النظام (الإنذار) .

٢ — التأنيب أمام التلاميذ .

٣ — عزل التلاميذ المذنبين عن غيرهم .

٤ — تنزيل الرتبة .

٥ — الحرمان من الرتبة .

٦ — لبس (الجاكتة) مقلوبة .

٧ — الحجز فى غرفة خاصة .

٨ — الحرمان من الخروج من المدرسة .

٩ — الحجز فى المدرسة مع الاقتصار على تناول الخبز والماء فقط .

١٠ — الحبس فى غرفة مظلمة .

---

(١) انظر الملحق .

١١ — الضرب بالكرباج .

١٢ — الطرد من المدرسة .

ولا يفصل تلميذ إلا بقرار من مجلس إدارة المدرسة (شورى المدرسة الداخلى)، ولا يكون ذلك إلا بعد سماع دفاع التلميذ . ويجب أن يوافق شورى المدارس على قرار الفصل ، وفى هذه الحالة يقلد الطالب المفصول إحدى الوظائف الصغيرة . [١]

فأنت ترى أن العقوبات البدنية كان مصرحا باستخدامها . ولكن ذلك لا يكون إلا فى الحالات القصوى من سوء السلوك وغيره ، ولا يكون إلا بعد تطبيق سلسلة طويلة من العقوبات غير البدنية . حتى إذا عجزت المدرسة عن ردع تلاميذها بالحسنى أخذتهم بالضرب ، ثم فصلتهم من المدرسة وعدلت بهم عن التعليم إلى وظائف حقيرة .

فالحكومة كانت ترى فى العقاب البدنى وسيلة من وسائل الإصلاح : إصـــلاح التلميذ المذنب وردع غيره ممن تحدثهم نفوسهم بأن يقفوا أثره ويسيروا فى المدرسة سيره . ولم تكن تحب أن ترى فيه أداة للانتقام . لهذا نجدها تحدّ من سلطة نظار المدارس فى توقيع العقاب البدنى على التلاميذ . فليس لنظار المدارس أن يضربوا التلاميذ أكثر من مائة جلدة فقط ، « أما غير ذلك فيكتب جرنال عن المسألة » ويرفع إلى ديوان المدارس ليقرّ فيه ما يرى . [٢]

كذلك نصت بعض لوائح المدارس على أن ليس لمدير المدرسة أن يأمر بضرب التلميذ المذنب أكثر من خمسة وعشرين (كرباجا) لذنب واحد . [٣]

(١) Bowring, op. cit. p. 128.

(٢) دفتر ١٢ (مدارس عربى) ص ٢٤٢١ إلى مدرسة المهندسخانة فى ١٠ جمادتان ١٢٦١

(٣) المادة الأولى من لائحة مدرسة البيادة — دفتر ٢٠٢٥ (مدارس تركى) ص ٨٥ فى ٢٣ جماد أول ١٢٥٣ والمادة الرابعة عشرة من لائحة مدرسة الزراعة — دفتر ٢٠٢٥ (مدارس تركى) ص ٧٣ فى ٢٠ جماد أول ١٢٥٣

أما « باشخوجة » المكتب (رئيس مدرسيه) فليس له أن يضرب التلميذ فى يوم واحد أكثر من عشر (زخم) ، وإلا تعرض لغضب الديوان وعقابه . (١)

وكان ديوان المدارس رحيما بتلاميذ المكاتب (الابتدائية) أن كانوا صغار السن ، بريئة نفوسهم ، لينة جسومهم : فإذا ما ارتكب أحدهم ذنبا ورأى المكتب أن يوقع عليه قدرا جسيما من العقاب البدنى أنقصه الديوان كثيراً . (٢)

وبعد أن كانت قوانين التعليم تنص على الضرب (بالكرباج) استبدل به (زخم) من جلد. (٣) ثم رؤى أن استعمال (الزخم) لضرب تلاميذ المكاتب لا يتفق مع ما ينبغى لهم من لين ورفق ، فاستبدل بها الجريد يؤدبون به. (٤) وكان الديوان يرفض صرف (فلقة خشب) لتأديبهم لأنهم « أطفال صغار » . (٥)

أما تلاميذ (المدارس) فالحق أن مدارسهم كانت تأخذهم بالشدة فى التأديب : فقد كانت ترى أن المدارس ليست « لتعليم الدروس فقط بل إنها للتربية والأدب أيضاً » . (٦) لذلك كانت دائمة النصح لهم بأن يروضوا أنفسهم على الأدب والخلق القويم .

وهاك بعض أمثلة للعقوبات المدرسية :

---

(١) دفتر ٩ (مدارس عربى) ص٦٥٣ رقم ٣٥ إلى مكتب مبتغمر فى غرة ذى الحجة ١٢٦٠

(٢) ادعى تلاميذ مكتب على مدرسهم ادعاء قبيحا لم يثبت صحته فجوزوا بضرب كل منهم ١٢٠ جلدة ثم رأى الديوان « لكونهم صغارا » تخفيضها إلى ٥٠ جلدة — دفتر ١٣ (مدارس عربى) ص ٢٧٤٦ رقم ١١٦ إلى مكتب أبى زعبل فى ١٦ رجب ١٢٦١

(٣) دفتر ١٢ (مدارس عربى) ص ٢٣٠٤ رقم ٣٧٨ إلى مدرسة الألسن فى ٥ جماد أول ١٢٦١

(٤) دفتر ٢٩ (مدارس عربى) ص ١٠٤٧ رقم ٩٦ إلى مكتب مبت غمر فى ١٧ جماد أول ١٢٦٢

(٥) دفتر ٢٩ (مدارس عربى) ١٣٩٩ رقم ١٢٢ إلى مكتب أبى زعبل فى ٦ ربيع الثانى ١٢٦٢

(٦) دفتر ١٢ (مدارس عربى) ص ٢٣٦٩ رقم ٤٠٠ إلى مدرسة الألسن فى ١٩ جماد أول ١٢٦١

سرق تلميذ بمدرسة الطب البشرى طربوشاً و «عنترياً» لزميل له ، فجوزى — بعد موافقة الديوان — بضربه مائتى (زخمة) ، وبأن يلبس ملابسه (مقلوبة) ، وبأن تعلق ورقة على صدره كتب عليها أنه سارق ، وبأن يمرّ أمام (طابور المدرسة) بهذا الشكل ، وبأن يدفع ثمن ما سرق .[1]

وضُبط تلميذ بمدرسة البيادة متلبساً بسرقة ثمار النخل ، فجوزى — بعد موافقة الديوان كذلك — بضربه مائتى (زخمة) أمام (الطابور) ، وبأن تعلق فى عنقه ورقة كتبت عليهـــا كلمة (سارق) ، وبأن يحبس فى المدرسة شهراً « بدون حديد » .[2]

وأساء بعض تلاميذ « البيادة » الأدب ، فجوزوا بالضرب وتنزيل رتبهم وحبسهم « بالحديد » ، ثم إرسالهم جنودا إلى فرق المشاة بالجيش .[3]

وتعدّى أحد تلامذة « البيادة » أيضاً على « أونباشته » فجوزى بضربه مائتين وخمسين (جلدة) أمام طابور المدرسة « تطبيقاً للمادة ٢٥٨ من قانون الداخلية البيادة » .[4]

وخرج تلاميذ من مدرسة الألسن إلى وسط (زفة) وأخذوا يرقصون بها ، فرأى الديوان تأديباً لهم وعبرة لغيرهم ضرب كل منهم خمسين (زخمة) أمام (طابور) المدرسة وحبس كل منهم فى المدرسة شهراً لا يبرحونها نهاراً ولا ليلا . وراعى فى ذلك أن هذه أول مرة يسيئون فيها الأدب وإلا فجزاؤهم أبلغ من ذلك وأشد .[5]

وزوّر تلميذ بمدرسة المهندسخانة « سنداً لأحد زملائه وباعه لآخر

---

(١) دفتر ٩٤ (مدارس عربى) ص ٧٩٠ رقم ١٣٧ إلى مدرسة الطب البشرى فى ٢٠ ذى الحجة ١٢٦٣

(٢) دفتر ٣٠١ (مدارس عربى) ص ٢١٨٤ رقم ٣٠٦ إلى مدرسة البيادة فى ٢٢ رجب ١٢٦٢ .

(٣) دفتر ١٠ (مدارس عربى) ص ٢٠٤٤ رقم ١٦٧ إلى مدرسة البيادة فى ١١ صفر ١٢٦١

(٤) دفتر ١٠٠ (مدارس عربى) ص ٣١٩٥ رقم ٣٨٣ إلى مدرسة البيادة فى غرة شعبان ١٢٦٤

(٥) دفتر ١٢ (مدارس عربى) ص ٢٣٦٩ رقم ٤٠٠ إلى مدرسة الألسن فى ١٩ جاد أول ١٢٦١

وقبض ثمنه فحكم عليه فى جمعية الحقانية بالسجن فى ليمان الاسكندرية مدة سنتين تطبيقاً للبند ٣٥٨ من الجهادية » . (١)

وفى بعض المدارس كان يُذهب بالطلبة المذنبين إلى حجرة بالدور العلوى ويُتركون فيها وحدهم يعيدون دروسهم ، وعلى بابها يقف أحد خفراء المدرسة .

ولم يكن يسمح للطلبة القذرين بتناول الطعام مع رفاقهم ، بل يتناولونه بعدهم ، ولا يسمح لهم بالاختلاط بغيرهم فى أوقات الاستراحة حتى يصبحوا نظافا مثلهم . (٢)

وكان أعضاء البعوث العلمية يخضعون كذلك لعقاب الحكومة كلما بدا من أحدهم من سوء الخلق ما يحفزها إلى أخذهم بالشدة : عصى عضو بعثة بلندن مدرّسه ، فأعادته الحكومة إلى بلاده وقررت فصله وسجنه فى (ليمان) الاسكندرية خمس سنين . (٣)

---

(١) دفتر ٥١ (مدارس عربى) ص ٣٨١٦ رقم ٣٨١ إلى الديوان الخديوى فى ١٨ رجب ١٢٦٣هـ

(٢) انظر لائحة النظام الداخلى لمدرسة المهندسخانة بدفتر ٢٠١٠ (مدارس تركى) — فى ١٧ المحرم ١٢٥٢

(٣) دفتر ٩١ (مدارس عربى) ص ٣٥٤٧ رقم ١٥٣ إلى التجارة فى ٦ شوال ١٢٦٤هـ

الفصل الثانى

الحالة الصحية فى المدارس

قبل سنة ١٨٣٦

على الرغم من العناية الشديدة التى أولاها محمد على للمدارس أول إنشائها، تلك العناية التى تتجلى فى أوامره المتصلة إلى المديرين بمراقبة الحالة الصحية فى المدارس الواقعة فى مديرياتهم ومكافحة الأمراض التى كانت فاشية إذ ذاك وتحميلهم مسئولية الإشراف على غذاء التلاميذ ولباسهم ونظافة الأماكن التى ينامون ويتلقون فيها دروسهم ... على الرغم من هذا كله كانت الحالة الصحية فى أغلب المدارس والمكاتب أول عهدها سيئة، ويتضح ذلك فى تقارير المفتشين الذين أنفذهم شورى المدارس لتنظيم المكاتب فى سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧ .

فكثير منها يصور الحالة الصحية بالمدارس إذ ذاك على أقبح صورة . فكثير من المكاتب ليس بها (حمامات) يغتسل فيها التلاميذ ، والأغذية التى يتناولونها غير صالحة ، وملابسهم ناقصة ، حتى ليمشى كثير منهم حفاة الأقدام ، والأمكنة التى يأوون اليها خربة متهدمة ، والأمراض كالرمد والجدرى تفتك بهم فتكا ذريعاً .

وطبيعى أن تكون الحالة خيراً من ذلك فى مدارس القاهرة ، وأغلبها مدارس خصوصية يديرها أول إنشائها مديرون من الأجانب يتنافسون فى

إظهار مدارسهم فى خير مظهر . هذا إلى أنها فى القاهرة مقرُّ الحكومة المركزية المشرفة على التعليم وعلى غيره من أبواب النشاط الحكومى .

وترجع هذه الحالة السيئة — وخاصة فى مكاتب الأقاليم — إلى نقص الإشراف الصحى نتيجة لقلة الأطباء فى ذلك العهد ، وقد أحسَّت الحكومة إذ ذاك بهذا النقص ، وكانت تعمل جاهدة لتلافيه : فعينت لمكاتب كل مديرية طبيباً يزورها من آن لآخر ، فيفحص عن مرضاها ويفتش عن أسباب فُشُوِّ المرض . [(1)] ولكن الأطباء كانوا من القلة بحيث لم يكفوا المديريات كلها ، فكانت تصدر الأوامر إليهم بالسفر من جهة إلى أخرى حسبما تحتمه الحالة الصحية . [(2)] هذا إلى ما ذكرنا من انتشار الأمراض والأوبئة فى ذلك الوقت بكثير من بلاد القطر المصرى انتشاراً كان لا شك يقتضى من الحكومة ومن ذلك العدد القليل من الأطباء جهداً ليس بالقليل . وقد أنشىء كثير من هذه المكاتب فى القرى ، فى أوساط لم تألف بعدُ العناية بالنظافة واتباع القواعد الصحية .

وكانت المكاتب فى أيدى من لا يستطيع أن يحسن القيام على شئونها . فنظارها لم يصيبوا من العلم حظا ، وإشراف رجال الإدارة من المديرين ونظار الأقسام ومشايخ القرى عليها كان مدعاة لكثير من الفساد والعبث . لهذا كله لم يكن عجباً أن تسوء الحالة الصحية فى مكاتب الأقاليم فى السنين الأولى من إنشائها ، وأن يتَّجه جهد الحكومة — حين أقبلت على تنظيمها — إلى اتخاذ الوسائل التى تراها مؤدية إلى تحسين الحالة الصحية فيها .

تنظيم الإشراف الصحى

رأت الحكومة أن سوء الحالة الصحية فى مدارسها يرجع بعضه — كما

(١) دفتر ٢٠٠١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى أول المحرم ١٢٥٢

(٢) دفتر ٦١ (معية) رقم ٢٥٨ إلى وكيل ناظر الجهادية فى ٩ رجب ١٢٥١

ذكرنا — إلى نقص فى الإشراف الصحى ، فقررت فى قوانين التعليم التى وضعتها فى سنة ١٨٣٦ ضرورة إنشاء مستشفى وصيدلية ومكتب صحى بكل مدرسة ، حتى تعالج الحالات المرضية علاجاً سريعاً قبل أن يستفحل الداء . فالمادة الثالثة عشرة من قانون التعليم الابتدائى تنص على وجوب تعيين « نفر ماهر فى الجراحة » لكل مكتب . وقد يكون هذا « النفر » طبيباً أو من الذين كانوا « يساهمون » فى التطبيب فى ذلك العهد كالحلاقين ونحوهم . أما المدارس التى فى عواصم المديريات فلكل منها « جراح أول أو جراح ثان » .

أما قوانين التعليم بالمدرسة التجهيزية والمدارس الخصوصية فأشارت بأن يُنشأ فى كل مدرسة مكتب صحى مكون من طبيب ومساعد ووكيل للمساعد وصيدلى ومساعديه وناظر وكاتب وممرضين .[١]

ورأت الحكومة كذلك وضع نظام يكفل الإشراف على الحالة الصحية بمكاتب الأقاليم ، حتى لا يترك كل شىء بأيدى « الأنفار الماهرين فى الجراحة » ! فعينت طبيباً لكل مديرية يزور مكاتبها مناوبة ليعالج المرضى من تلامذتها ويلقح أطفالها . وعينت كذلك طبيبين مفتشين عامَّين : أحدهما لمديريات الوجه البحرى والآخر لمديريات الوجه القبلى . وعلى طبيب المديرية أن يرفع للمفتش العام فى كل شهر تقريرا عن حالة المكاتب المحالة إلى عهدته والمرضى الذين عالجهم وعدد الأطفال الذين لقحهم . وعلى المفتشين أن يشرفا على عمل أطباء المديريات ومراجعة أعمالهم ورفع التقارير عنها إلى الحكومة .[٢]

بذلك نُظم الإشراف « الصحى » على المدارس بتعيين هذا العدد من الأطباء والمفتشين بعد أن نَظم الإشراف « الفنى » عليها بعدد آخر من المفتشين . فلما جاء دور (العمل) انبث هؤلاء المفتشون فى مكاتب المديريات ، يفحصون

(١) Bowring, op. cit. p. 128.

(٢) دفتر ٢٠١٢ (مدارس تركى) قرار شورى المدارس فى غاية صفر ١٢٥٢ .

عن شئونها ويعدّلون منها وفق ما اقتضت القوانين . وهنا سنحت الفرصة — بعد الإقلال من عدد المكاتب — « لتنظيف » المكاتب الباقية : فأخرج المرضى وذوو العاهات من التلاميذ وأعيدوا إلى أهلهم أو ألحق بعض منهم بفرقة أنشئت لذوى العاهات بالجيش ، ونبّه إلى ضرورة استكمال ملابس التلاميذ الناقصة وإطعامهم غذاء صحياً نظيفاً ، واستدعى المهندسون لإصلاح المكاتب المتداعية وبناء (حمامات) أو أماكن للاغتسال بها ، كما عُين لها نظار من « العلماء » كانوا لا شك يفضلون النظار السابقين الذين كان أكثرهم أمياً .

وأنتج هذا كله ثمرته : فخطت المدارس والمكاتب قدماً فى سبيل رفع المستوى الصحى بها ، فلم نعد نسمع كثيرا بانتشار الأمراض والأوبئة بالمكاتب وفتكها بتلاميذها فتكا ذريعاً ، هذا على الرغم من أن الحالة الصحية السيئة لازمت بعض المدارس إلى نهاية عصر محمد على .

حتى إذا كانت سنة ١٨٤١ وأنقصت مكاتب الأقاليم الابتدائية إلى أربعة، استطاعت الحكومة أن تزيد الاشراف الصحى عليها : فعينت لكل منها ناظراً يديرها وهو فى الوقت نفسه طبيب يعالج تلاميذها ، وجعلته مسئولا عن إدارة المكتب وعلاج التلاميذ . وقد استتبع ذلك أن ألحق بكل مكتب مستشفى وصيدلية . وكذلك كان الأطباء المتخرجون فى مدرسة الطب البشرى قد زادوا كثيراً عن ذى قبل ، فتمكنت الحكومة من أن تنشىء بالمديريات مستشفيات بها عدد من الأطباء يشتركون أحياناً فى علاج تلاميذ المكاتب ، ويُندَبون أحياناً أخرى للتفتيش الصحى عنها . هذا إلى أن هذه المستشفيات كان لها أكبر الفضل فى مقاومة الأمراض التى كانت فاشية فى البلاد ، وبالتالى فى تحسين الحالة الصحية بالمكاتب ، وإن ظلت الكوليرا وغيرها من الأوبئة تظهر من آن لآخر طوال عصر محمد على . إلا أن

الحكومة أصبحت تملك من الوسائل ما يمكّنها من مقاومة الأوبئة أكثر من ذى قبل .

هذا إلى أن قلة عدد المكاتب قد مكّن الحكومة من أن « تجدّد » فى حياة التلاميذ بالمكاتب على نحو ما وصفنا من قبل ، وإن جاء هذا التجديد متأخراً . إذ قررت الحكومة لهم أسرة من حديد ينامون عليها ومقاعد من خشب يجلسون إليها وقت الدرس ، وأن يطعموا من اللحم والخضر أكثر مما كانوا يُطعمون . ولا شك فى أن هذا كله يؤدى إلى تحسين الحالة الصحية بين تلاميذ المكاتب . والواقع أن الحكومة ظلت على عنايتها بغذاء التلاميذ ونظافتهم حتى نهاية عصر محمد على . وكانت توقع العقاب على من ترى منه إهمالا فى علاج التلاميذ ونظافة المكتب وتلاميذه . وكانت حينا تندب من الموظفين من يقوم على غرة بالتفتيش عن مكاتبها والتقرير عن حالتها من نظافة أو قذارة ونظام أو فوضى .[1]

سوء الأبنية

ولكن ليس معنى ذلك أن الحالة الصحية فى مدارس الحكومة ومكاتبها قد وصلت إلى ما ينبغى أن تكون عليه ، فما زلنا نسمع عن أمراض تفشو بين التلاميذ ، وقد يرجع هذا إلى سوء أبنية المكاتب ، وهى التى يقضى بها التلاميذ سنى طفولتهم ولا يبرحونها إلا قليلا ، فإن معظمها لم يُبنَ ليكون مدارس ، بل كانت منازل استأجرتها الحكومة ، فالشروط الصحية لا تتوفر فى قاعات الدرس والنوم ، وكان معظمها خرباً رطباً يحتاج إلى كبير إصلاح ، ولم يكن يفضل كثيرا بيوت الفلاحين .

فتلاميذ مكتب أسيوط يصابون بالرمد حتى يُتهم ناظر المكتب بالإهمال

---

(١) دفتر ١١ (مدارس عربى) ص ١٥ ، ٤ رقم ٤٣٧ إلى مدرسة السوارى فى ٢ ربيع الثانى ١٢٦١

فى علاجهم، فيحل به عقاب الديوان . (١) ولكن المرض يشتد والشكوى ترتفع ، فيصدر الديوان قراره بوقف الدراسة ، وينتدب « حكيمباشى » المديرية لفحص الحالة والتقرير عنها لديوان المدارس . (٢) فيرى أن انتشار الرمد كان نتيجة لسوء بناء المكتب وعدم استيفائه القواعد الصحية ، ويقترح نقله إلى بناء آخر . (٣) ولكن الأبنية التى تصلح لتكون مدارس فى أسيوط قليلة ، فلا تجد الحكومة بناء تنقل اليه التلاميذ ، فتعود إلى إصلاح بناء المكتب القديم . ولكن الرمد ما زال منتشرا . ويحمّل الديوان ناظر المكتب الطبيب مسئولية ذلك ، فيصدر أمره بما له من « وظيفة النظارة » بنقل ناظر مكتب أسيوط وناظر مكتب ميت غمر كل منهما مكان الآخر، علّ « الرمد » يرحل عن المكتب بعد أن أقام به ثلاث سنوات . (٤)

أما مكتب ميت غمر فلم يكن إلا « وكالة خربة » ، وعلى الرغم من شكاية الناظر المتصلة إلى ديوان المدارس وإلى مديرية الدقهلية،(٥) فقد حمله الديوان كذلك مسئولية سوء الحالة الصحية بالمكتب ، وخاصة بعد أن صوّرها رفاعة بك رافع فى « تقرير الامتحان » فى صورة بشعة : فالتلاميذ لا يجدون مايجلسون عليه وقت الدرس نهارا أو ينامون عليه ليلا ، والفول الذى يأكلونه أسود جدا وعفن ، والتلاميذ على أقذر حالة بدنا وملبسا . (٦) ولكن إنذار الديوان للناظر وتهديده بالعقاب لم يضعا حدا لسوء الحالة . واضطر الديوان أخيرا إلى نقل المكتب من ميت غمر إلى الزقازيق ، (٧) فى المكان الذى كان

(١) دفتر ٨ (مدارس عربى) ص ٢٢٤ رقم ٤ إلى مكتب أسيوط فى ٦ رمضان ١٢٦٠.
(٢) دفتر ٩ (مدارس عربى) ص ٦٧٨ رقم ١٧١ إلى حكيم مديرية عموم قبلى فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٦٠.
(٣) دفتر ٩ (مدارس عربى) ص ٦٨٠ رقم ٣٨ إلى مكتب أسيوط فى ٢٩ ذى القعدة ١٢٦٠.
(٤) دفتر ٤٨ (مدارس عربى) ص ٢٨٠٩ رقم ١٤٩ إلى شورى الأطباء فى ٢٧ جماد أول ١٢٦٣.
(٥) دفتر ٢٥ (مدارس عربى) ص ١٩٨٤ رقم ١٦٠ إلى مديرية الدقهلية فى ٢٢ رجب ١٢٦١.
(٦) دفتر ٢٧ (مدارس عربى) ص ٦٩٥ رقم ٣٩ إلى مكتب ميت غمر فى ٢٠ المحرم ١٢٦٢.
(٧) دفتر ٦٢ (مدارس عربى) ص ٣٥٦١ رقم ١٩٠ إلى مكتب ميت غمر فى ١٦ رجب ١٢٦٣.

يشغله المكتب القديم الذى ألغى منذ زمن ، وأصبح بعد إلغائه « إسطبلا وبه أتربة كثيرة وتنقصه الشبابيك ، وسدت به حواصل استعملت لأشخاص » . فطلب الديوان إزالة هذا كله ليعود مكتبا ! (١)

أما مكتب أبى زعبل فكان من الرطوبة بحيث لم تق التلاميذَ ملابسهم التى كانت (تصرفها) لهم الحكومة ، فأشير على أهلهم بشراء ملابس (إضافية) لأبنائهم من مرتباتهم التى كانوا يتسلمونها . (٢) ولعل هذا وغيره من الأسباب أدى إلى انتشار مرض الجرب بين تلاميذ المكتب ، حتى أرسل منهم فى وقت ما إلى «الاسبتالية» — أى إلى مستشفى قصر العينى — اثنان وعشرون تلميذا اشتد بهم هذا المرض . فحمَّل الديوان ناظر المكتب مسئولية ذلك ، واتهمه بالتهاون فى أداء واجبه وأنزل به العقاب . (٣)

ولم يكن حظ مدرسة المبتديان بالقاهرة بأحسن من حظ زميلاتها بالأقاليم : فالتلاميذ ينامون جنبا إلى جنب فى «حواصل أرضية» تتولد منها العفونة ، (٤) أوفى « بواك » مكشوفة معرضة لبرد الشتاء القارس ، فيطلب لها « ستائر » لتغطيتها . (٥) أما مكاتب الدرس (الفصول) فحجرات صغيرة ضيقة خربة (٦) يزدحم بها التلاميذ وتنبعث منها رائحة كريهة ، لذلك فضل الديوان إزالتها على أن يبنى مكانها ثلاثة «عنابر» أرضية للدروس ، كل «عنبر» منها لفرقة دراسية ، ثم يبنى فوقها ثلاثة « عنابر » أخرى لنوم التلاميذ ، ووضعت (المقايسة) وكتب الديوان إلى المعية الخديوية يطلب الإذن بالبدء فى العمل . (٧)

---

(١) دفتر ٨٢ (مدارس عربى) ص ٢٠٤ رقم ٣ إلى مديرية الشرقية فى ٦ شوال ١٢٦٣

(٢) دفتر ٥٦ (مدارس عربى) ص ١٠٤٢ رقم ٥٨ الى مكتب بوش فى ٢٠ ذى الحجة ١٢٦٣

(٣) دفتر ١٣ (مدارس عربى) ص ٢٧٤٦ رقم ١١٠ إلى مكتب أبى زعبل فى ١٠ رجب ١٢٦١

(٤) دفتر ٥ (مدارس عربى) ص ٢٦٣٧ رقم ٧٠٥ إلى الأبنية فى ١٧ جماد ثان ١٢٦١

(٥) دفتر ٢١ (مدارس عربى) ص ٤٤٧ رقم ٢٠٤ إلى المهمات الحربية فى ٢٦ ذى القعدة ١٢٦١

(٦) دفتر ٤٨ (مدارس عربى) ص ٢٨٩٢ رقم ٥٧٢ إلى البنايات فى ٢ جماد ثان ١٢٦٣

(٧) دفتر ٨٦ (مدارس عربى) ص ١٦١٨ رقم ١٠٥ إلى المعية الخديوية فى ١٠ ربيع الأول ١٢٦٤

وفى الوقت نفسه اتجهت عناية الحكومة إلى تنظيم أبنية المدارس الأخرى التى لم تكن قد نُظمت بعد. فبدىء فى بناء مكاتب بمدرسة الألسن ليكون «لكل درس مكتب خاص بباب خاص»، بعد أن كان التلاميذ يتلقون دروسا مختلفة فى مكان واحد: فهؤلاء تلاميذ يدرسون الجغرافيا وآخرون يقرأون كتباً فى اللغة الفرنسية، وإلى جانبهم تلاميذ يقرأون فى الأدب العربى أو الصرف أو النحو، وأصواتهم جميعها يختلط بعضها ببعض.[١] وكذلك صدر أمر عال بإنشاء مكاتب بالمكتب العالى بالخانقاه «على الطراز الجديد».

والراجح أن سوء أبنية المدارس والمكاتب واضطرار الحكومة إلى أن تنفق كثيراً على إصلاحها وما يجره ذلك من تعطيل الدراسة وفشو الأمراض، كل ذلك حمل الحكومة — حين شرعت فى إنشاء «مكاتب الملة» على تفضيل بناء أمكنة لها، وبدأت فعلا فى بناء بعضها.[٢] إلا أن السرعة التى أرادت أن تنفذ بها قرار «الجناب العالى» بإنشاء تلك المكاتب ورغبتها فى الاقتصاد ألجأتاها فى بعض الأحيان إلى شراء منازل وإصلاحها، «لأن ذلك على كل حال أهون من إنشاء مدرسة جديدة».[٣]

والواقع أنه لم يكن للحكومة سياسة خاصة فى شأن أبنيـــة مدارسها ومكاتبها، فآناً تقوم بالبناء، وآناً آخر تفضل تأجير منازل أو شراءها ثم تحويلها إلى أماكن للتعليم، والراجح أنها لم تكن تسترشد فى ذلك إلا بما تقتضيه كل حالة من نفقات: فاذا رأت أن شراء منزل وإصلاحه يقتضيان من النفقة

(١) دفتر ٢١ (مدارس عربى) ص ٤٢٧ رقم ١٢٧ إلى البنايات الميرية فى ١٧ ذى القعدة ١٢٦١

(٢) دفتر ٨٣ (مدارس عربى) ص ٥٢٤ رقم ١٩٨ إلى المهمات الحربية فى ٥ ذى الحجة ١٢٦٣ ودفتر ٤٨ (مدارس عربى) ص ٢٥٥٣ رقم ٥٨١ إلى الديوان الخديوى فى ١١ جماد أول ١٢٦٣ وقد بلغت نفقات بناء أحدها ٣٠ بارة و ٧١٠٤٢ قرشا — دفتر ٨٦ (مدارس عربى) ص ١٦٨٠ رقم ٤٥٩ الى الديوان الخديوى فى ١٦ ربيع أول ١٢٦٤

(٣) دفتر ٢١١٧ (مدارس تركى) ص ٣٣٢ رقم ٤١٥ الى الباشا الكتخدا فى غاية رجب ١٢٦٣

أقل مما يقتضيه شراء قطعة من الأرض وبناء مدرسة عليها فضلت الحالة الأولى . وإن رأت أن استئجار منزل لا يكلفها إلا قدراً من المال فى كل شهر أو سنة فضلت استئجار المنازل وهكذا . فمثلا لما شرعت الحكومة فى افتتاح المكاتب بالأقاليم شيدت كثيراً منها وخاصة فى القرى ، حيث لم تجد الحكومة من الأبنية مايصلح مدارس ، أما فى المدن فقد فضلت استئجار منازل أو شراءها ثم إصلاحها إن كانت بحاجة إلى إصلاح .

علاج التلاميذ

نصت المادة السادسة من قانون التعليم الابتدائى على ألا يقبل بمكاتب « المبتديان » من التلاميذ إلا من تتراوح أعمارهم بين السابعة والثانية عشرة ، على أن يكون التلميذ « سليم البدن وعاريا من الأمراض وبريئا من السقامة ، بشرط أن يكون متمتعاً بالصحة والعافية » .

ولتحقيق هذه الشروط كان التلاميذ الذين يراد إلحاقهم بمكاتب المبتديان يُفحص عنهم طبيا ، وكان يقوم بهذا الفحص نظار المدارس أو أطباؤها ، والراسبون فى هذا الفحص يُعادون إلى قراهم ويطلب غيرهم .[1]

فاذا مرض أحد التلاميذ عزل عن زملائه الأصحاء فى مستشفى المدرسة أو المكتب ، وقام طبيب المستشفى أو ناظر المكتب الطبيب على علاجه . « ومستشفى المدرسة هو مستشفى مخصص لتلاميذ المدرسة وضباطها ومستخدميها فقط ، ولا يقبل فيه أى فرد من الخارج ، سواء كان ينتسب إلى الجندية أم كان من أهالى البلد ، ولا يسمح لأحد بزيارة مريض به دون إذن من المدير » .[2]

---

(١) دفتر ١ (مدارس عربى) ص ٥٦ الى الرزنامة فى . . . سنة ١٢٦٠

(٢) البند السادس من الفصل الخامس من لائحة النظام الداخلى لمدرسة البيادة — دفتر ٢٠٢٥ (مدارس تركى) ص ٨٥ رقم ١٧٦٠ فى ٢٣ جماد أول ١٢٥٣

« وأوامر مدير المدرسة تكون نافذة فى المستشفى كما هى نافذة فى المدرسة » . (١)

وموظفو المستشفى هم طبيب وصيدلى وناظر وكاتب وعدد من الخدمة ، وهم جميعا « تحت نظارة » مدير المدرسة . وناظر المستشفى مسئول عن جميع (المهمات الأميرية) الموجودة بالمستشفى وإعداد طعام المرضى الذى يقرره الطبيب ، ولناظر المستشفى أيضا أن يؤدب من الخدمة من يخل بواجباته ، « أما من يرتكب جنحة كبيرة » فعليه أن يقدم بشأنه تقريراً لمدير المدرسة. (٢)

وعلى طبيب المستشفى أن يزور المدرسة مرتين فى كل يوم : الأولى بعد شروق الشمس بنصف ساعة والثانية وقت العصر . وعليه أن يقدم فى كل يوم تقريراً لمدير المدرسة أو وكيله عن التلاميذ الذين يجب نقلهم إلى « المستشفى الكبير » (أى مستشفى قصر العينى) ، وعمن يتوفى منهم أو يستحق العطلة .

وبالمستشفى غرف خاصة يُحجز بها المرضى المذنبون المصابون بأمراض جلدية أو تناسلية . أما المصابون بأمراض أخرى فلا يؤدَّبون حتى يشفوا .

وفى بعض المدارس الخصوصية كان الطبيب يفحص عن تلاميذ المدرسة جميعا صباح الجمعة من كل أسبوع ، ويرسل المريض منهم إلى مستشفى المدرسة . (٣)

وفى السنين الأخيرة من حكم محمد على أبطلت مستشفيات المدارس الابتدائية والتجهيزية والألسن والمهندسخانة ، وأصبح لها جميعا طبيب أجنبى

---

(١) البند الأول : (المصدر السابق)

(٢) البند الرابع : (المصدر السابق)

(٣) لائحة النظام الداخلى لمدرسة الزراعة بنبروه — دفتر ٢٠٢٥ (مدارس تركى) ص ٧٣ رقم ١٦٠٨ فى ٢٠ جماد أول ١٢٥٣ ولائحة النظام الداخلى لمدرسة المهندسخانة — دفتر ٢٠١٠ (مدارس تركى) فى ١٧ المحرم ١٢٥٢

واحد يزورها من آن لآخر ويفحص عن تلاميذها .[١] وكان هذا الطبيب يعالج الحالات المرضية الخفيفة بالمدرسة ، أما الحالات الشديدة فترسل لمستشفى قصر العيني .[٢]

وبقيت بمدرسة المهندسخانة (صيدلية) تصرف منها الأدوية للمدارس الأخرى ، أما المدارس الحربية فقد بقيت لها مستشفياتها وصيدلياتها .[٣]

وكذلك كان بكل مكتب من مكاتب الأقاليم بعد إنقاصها إلى أربعة مستشفى وصيدلية يشرف عليهما ناظر المكتب وطبيبه . فإذا ما احتاج مكتب أو مدرسة إلى مقدار من الأدوية لصيدليته كتب بها قائمة وبعث بها إلى ديوان المدارس ، فيحيلها الديوان إلى شورى الأطباء لاقرارها ، فإن رأى الشورى ضرورتها أعادها إلى الديوان بالموافقة على صرفها ، ثم يرسلها إلى ديوان « الجهادية » ليصرفها للمكتب أو المدرسة من « ورشة الأجزخانات » التابعة له .[٤]

وعلى ناظر المكتب وطبيبه أن يعالج التلاميذ أول ما يصيبهم المرض ، فاذا استعصى عليه علاجهم أو اشتد بهم المرض فعليه أن يبادر بإرسالهم إلى القاهرة لإدخالهم « الأسبتالية الكبرى » (مستشفى قصر العيني) .[٥] وقد حاول بعض النظار أن (يتهربوا) من تحمل هذه المسئولية — مسئولية علاج التلاميذ — فكانوا يرسلون إلى القاهرة كل من أصابه المرض من تلاميذهم . فأنّبهم الديوان وتساءل عن جدوى وجودهم بالمكتب ونبه عليهم بألا يرسلوا إلى القاهرة إلا من اشتد به المرض .[٦] أما العمليات الجراحية

---

(١) دفتر ٢٩ (مدارس عربي) ص ٢ ١٤٤ رقم ١١ ٤ الى مدرسة الألسن فى ١٠ ربيع ثان ١٢٦٢

(٢) دفتر ٨٢ (مدارس عربي) ص ٣٦٠ رقم ٢١ الى شورى الأطباء فى ٢٧ شوال ١٢٦٣

(٣) و (٤) دفتر ١ (مدارس عربي) ص ١٠١ رقم ٢٥ الى ديوان عموم جهادية فى ١٠ رمضان ١٢٦٠

(٥) دفتر ١٣ (مدارس عربي) ص ٢٨٨١ رقم ١٣٩ الى مكتب أبي زعبل فى ٢٧ شعبان ١٢٦١

(٦) دفتر ٩ (مدارس عربي) ص ٦٣٢ رقم ٢٦ إلى مكتب أسيوط فى ٧ ذى القعدة ١٢٦٠

فلم يكن يسمح للمدارس أو المكاتب باجرائها ، ذلك لأنها تقتضى دقة ومهارة قد لا تتوافران للقائمين على علاج التلاميذ فى مستشفيات المدارس أو المكاتب ، فكان يُرسل المرضى المحتاجون إلى عمليات جراحية إلى « الاسبتالية الكبرى » حيث تجرى لهم .[1] وإذا أهمل ناظر فى أداء واجبه فى علاج التلاميذ أول ما يصيبهم المرض عاقبه الديوان بالحجز فى المدرسة أياماً وخصم مرتبه خلالها ، وأبلغه عقابه لينفذه فى نفسه .[2]

والتلاميذ الناقهون من أمراضهم والمحتاجون إلى عطلة مرضية طويلة تقرّها لهم مستشفيات مدارسهم ، ثم يعرضون على شورى الأطباء فيمنحهم إجازات قد تطول إلى ستة أشهر أو ثمانية ، يعودون فيها إلى بلادهم « لتبديل الهواء .[3] وقد تنقلهم الحكومة إلى الاسكندرية ليعالجوا « بماء البحر » .[4] ثم هم أخيراً لا يعودون إلى مدارسهم إلا بعد أن يعود شورى الأطباء فيفحصهم مرة أخرى ،[5] فان قرر شفاهم أعيدوا إلى مكاتبهم فى صحبة بعض خدمها ،[6] وإلا عُدّوا « سقطاً » أى لم يعودوا صالحين للبقاء فى المدرسة وسُرّحوا . ثم رؤى أن مستشفيات المكاتب لا يمكنها أن تقوم على علاج التلاميذ خير قيام ، كما أن إرسالهم إلى العاصمة لا شكّ كان يكلف الحكومة نفقات كثيرة ، لذلك تقرر أن يعالج تلاميذ المكاتب المرضى فى مستشفيات المديريات التى بقربها ، عدا مكتب أبى زعبل فتلاميذه يعالجون بالقاهرة .

وليس لناظر المكتب أن يفصل تلميذاً « سقطاً » حتى يعرضه على

(١) دفتر ٦ (مدارس عربى) ص ٣٠٠٤ رقم ٥٠٨ فى ٥ شعبان ١٢٦١

(٢) دفتر ٨ (مدارس عربى) ص ٢٢٤ رقم ٤ إلى ناظر مكتب أسيوط فى ٦ رمضان ١٢٦٠

(٣) دفتر ٢ (مدارس عربى) ص ٤٩٦ رقم ٣٤ و ٣٦ فى ... سنة ١٢٦٠

(٤) دفتر ٥ (مدارس عربى) ص ٢٥٣٥ رقم ١٢٦ إلى مديرية البحرية بالأسكندرية فى ١٧ جماد أول ١٢٦١

(٥) دفتر ٣ (مدارس عربى) ص ٨٤٤ رقم ٥٠ إلى مشورة الأطباء فى ١٦ المحرم ١٢٦١

(٦) دفتر ١ (مدارس عربى) ص ١٠٢ رقم ٩ إلى مفتش الترسانة ببولاق فى ١٠ رمضان ١٢٦٠

« حكيمباشى » المديرية ثم على شورى الأطباء. [١] وكان التلاميذ « السقط » الذين لا تعوقهم (عاهاتهم) عن العمل يعيّنون فى وظائف بسيطة. [٢] وقد يرجع هذا إلى رفق الحكومة بهم وسعيها إلى تدبير عمل لهم ، وقد يرجع أيضا إلى أن الحكومة — وقد أنفقت عليهم طويلا بمدارسها — تعمل على أن تستغلهم بقدر ما أنفقت عليهم .

وكان المصابون بالرمد يعالجون أحيانا فى « وكالة الفقراء الكائنة بالمارستان والتابعة للاسبتالية الملكية » ، [٣] وكانت فى حى الأزبكية .

وكانت الحكومة ترفق بالمرضى من التلاميذ وتحدب عليهم وتحسن معاملتهم : فتطعمهم من حساء الأرز واللحم ، [٤] وتصنع لهم ألبستهم من قماش غير (البفتة) التى يصنع منها لباس الأصحاء. [٥] وهم إذا حضروا إلى القاهرة ليعالجوا بمستشفاها الكبير نُبِّهَ على نظارهم بأن يصحبوهم بسجاجيدهم وأحرمتهم حتى لا يصيبهم البرد ، فيشتد بهم المرض فى الطريق . [٦]

(١) دفتر ٥٤ (مدارس عربى) ص ٢١٢ رقم ٣ إلى مكتب يوش فى ٢٦ رمضان ١٢٦٢.

(٢) دفتر ٣ (مدارس عربى) ص ٩٥٩ رقم ٢١٧ إلى ديوان الجهادية فى ٢٤ صفر ١٢٦١

(٣) دفتر ٢٩ (مدارس عربى) ص ١٥٥٤ رقم ٥٧٨ إلى ناظر الاسبتالية الملكية فى ١٤ جماد أول ١٢٦٢

(٤) دفتر ١٣ (مدارس عربى) ص ٢٧٧٠ رقم ١١٠ إلى مكتب يوش فى ٢٣ رجب ١٢٦١

(٥) دفتر ٣١ (مدارس عربى) ص ٢٢٩١ رقم ٢٧٩ إلى مدرسة المبتديان فى ٢٣ شعبان ١٢٦٢.

(٦) دفتر ٩ (مدارس عربى) ص ٦٣٢ رقم ٢٧ فى ... سنة ١٢٦١

الفصل الثالث

الامتحانات المدرسية

كانت الامتحانات نوعين : امتحانات « مدرسية » وامتحانات « عامة » : فالامتحانات « المدرسية » لتلاميذ مدرسة ما يقوم بها معلمو هذه المدرسة مرة كل ثلاثة شهور ، على نحو ما كان عندنا إلى عهد غير بعيد وأعيد العمل به فى الوقت الحاضر . ويقوم بها المدرسون تحت إشراف ناظر المكتب أو مدير المدرسة . وعلى المدرسة أن تبعث « بجداول » امتحان التلاميذ إلى ديوان المدارس . وقد أراد الديوان أن يثق بعدالة هذا الامتحان : فكان أحيانا « يوازن بين نتائج امتحان الثلاثة الشهور ونتائج الامتحان السنوى الذى سيندب له رجالا من الديوان ، وسيعرف إن كانت الامتحانات قد أجريت على وجه العدالة أم لا . . . » .[1] وكانت بعض المكاتب القريبة من القاهرة تطلب إلى الديوان أن يوفد اليها من يمتحن تلامذتها كلما حل ميعاد هذا الامتحان ، فيرسل لها حيناً معاونا من مدرسة الألسن ،[2] وحينا آخر مدرسين بمدرسة أخرى ليمتحنوا تلامذتها ويرفعوا التقارير بنتائج الامتحان إلى ديوان المدارس .[3]

على أن الديوان لم يكن يولى هذه الامتحانات « المدرسية » اهتماما كبيرا ، بل تركها — بصفة عامة — فى أيدى المدارس ، مكتفيا منها « بجداول تحصيل التلاميذ كل ثلاثة أشهر » . وقد ترفع اليه مع هذه الجداول نماذج من « خطوط »

(١) المادة السادسة عشرة من لائحة مدرسة البحرية باسكندرية — دفتر ٢٠٩٦ (مدارس تركى) ص ١٩٦ رقم ٧٩٦ إلى كامل بك فى ٢٦ ذى الحجة ١٢٦٠

(٢) دفتر ٩٥ (مدارس عربى) ص ١١٧٠ رقم ٣٣٢ إلى مدرسة الألسن فى ٢٨ المحرم ١٢٦٤

(٣) دفتر ٢٦ (مدارس عربى) ص ٣٩٢ رقم ١٢٢ إلى مدرسة الألسن فى ١٩ ذى القعدة ١٢٦١

التلاميذ ، حتى يرى مبلغ تقدم التلاميذ وكفاية المدرسين واجتهادهم .(١)

أما الامتحانات « العامة » فكانت تعقد فى نهاية العام الدراسى ، أى فى شهر شعبان من كل عام . وقد تؤجَّل امتحانات بعض المدارس الخصوصية لأسباب خاصة شهرين أو ثلاثة .(٢) فإذا ما اقترب ميعاد الامتحان بادر الديوان بتعيين لجان الامتحان للمدارس المختلفة : فامتحانات المدارس التجهيزية والخصوصية كان يرأس لجانها — فى أول الأمر — عضو من شورى المدارس ، ومن أعضائها مدير ومدرسون من مدارس مختلفة ، ويشترك معهم مدير ومدرسو المدرسة التى يمتحن تلامذتها . وبعد إنشاء الديوان وإلغاء شورى المدارس أصبح يرأس تلك اللجان إما معاون من الديوان أو مدير من مديرى المدارس الخصوصية .

وكان الديوان حريصا على أن يعين بلجان امتحانات المدارس أعضاء مختصين فى المواد التى يمتحن التلاميذ فيها : فكان معظم أعضاء لجان المدارس الحربية من ضباط الجيش ، وكان « سليمان باشا الفرنساوى » يرأس تلك اللجان فى كثير من الأحيان . ولجان امتحانات مدرستى الطب البيطرى والطب البشرى كان يشترك فيها أعضاء من شورى الأطباء ، ومدرسون من هاتين المدرستين يتبادلون امتحان تلاميذهما . ومدرسو الرياضة بمدرسة المهندسخانة يمتحنون تلاميذ المدارس الأخرى فى دروس الرياضيات .(٣) ثم رؤى أخيراً أن يشترك فى امتحانات بعض المدارس بعض كبار الموظفين من ذوى الخبرات الخاصة فى مصالح أخرى غير المدارس .(٤)

حتى إذا انتهى الديوان من تكوين هذه اللجان ، نشر بالوقائع المصرية

---

(١) دفتر ٩٩ (مدارس عربى) ص ٢٩٦٠ رقم ٧٦٧ إلى مدرسة الألسن فى ٢٠ رجب ١٢٦٤

(٢) دفتر ٢٠٩٤ (مدارس تركى) ص ١٩ رقم ١٧٢ إلى مدرسة السوارى فى ١٥ المحرم ١٢٦٠

(٣) دفتر ٢٦ (مدارس عربى) ص ٣٢٧ رقم ١١٤ إلى خزينة المدارس فى ٢٢ رمضان ١٢٦١

(٤) دفتر ٦٤ (مدارس عربى) ص ٤٠٢ رقم ٨١٧ إلى مدرسة الألسن فى ١١ شعبان ١٢٦٣

ما يمكن تسميته (إعلاناً) بالامتحانات العامة . وفيه يعلن عن تواريخ الأيام التى تعقد فيها امتحانات المدارس المختلفة والفائدة من الامتحانات عموما ، ويدعو فيه « كل من أراد الحضور » ليشهد تلك الامتحانات . وهاك (إعلانا) منها عن امتحانات عام ١٢٦٣ (١٨٤٨م) : [١]

« لما كان من أصول المدارس المستحسنة أن تمتحن تلاميذ كل مكتب ومدرسة بمصر وما جاورها فى شعبان من كل سنة ، وتختبر براءة كل تلميذ فيما حصَّله من المعارف والعلوم ، وتحرر ببيان درجاتهم فيها جداول بمعرفة مأموريها ذوى الدرايات والفهوم ، وبعد النظر فيها بديوان عموم المدارس يحرَّر ملخصها ويقدم لأعتاب ولى النعم الخديوى الأعظم ، وكان من اللازم فى هذه السنة العميمة الميمنة ، أن يجرى امتحان التلاميذ المذكورة ، فى التواريخ التى هى أدناه مسطورة ، حصل تعيين مأمورى هذا الامتحان ، وحررت إليهم التذاكر اللازمة من ديوان المدارس حسب الإمكان ، وإذ كانت أيام الامتحان تستمر أربعة أيام أو خمسة بالنسبة إلى كمية تلاميذ كل مدرسة ، لزم لدى ختام كل منها أن تدرج نتيجة امتحانها فى الوقائع بالتعاقب حسب الانها ، كما حصل فى السنة التى مضت ، وخلت أيامها وانقضت . وحيث كان أمر الامتحان داعيـــا إلى تقدم التلاميذ فى آدابها ، وموجباً لتكثير العلوم النافعة وازدياد أربابها ، كان جديراً بأن يعلن به لمشاهدته من ينتبه ، وبينت أيامه على الوجه الذى هو أدناه مسطور ، ليعلم ذلك كل من أراد الحضور ، فيشرف المدارس فى أوقاته ، ويعرف درجة استعداد كل تلميذ وتحصيلاته :

---

(١) الوقائع المصرية : العدد ٧٣ فى ٢٩ رجب ١٢٦٣ — لم تذكر فى هذا (الاعلان) مدرسة السوارى ، والراجح أن امتحانها كان قد أجل لسبب ما — قد يكون خروج الخيل للرعى — كما قيل فى أحد الأعوام .

«في ٤ ش (شعبان) سنة ٦٣ مدرسة الطب البشرى بقصر العينى .
في ٥ » » » » » » الطوبجية بطره .
في ١١ » » » » » » الولادة بالأزبكية .
في ١٢ » » » » » » المهندسخانة في بولاق .
في ١٣ » » » » » » المبتدئين بالناصرية .
في ١٨ » » » » » — المكتب العالى بالخانقاه .
في ١٩ » » » » » » البيادة بأبي زعبل .
في ٢٠ » » » » » » الطب البيطرى بشبرا .
في ٢٥ » » » » » » الألسنة والتجهيزية بالأزبكية» .

وفي بعض المدارس الخصوصية — كمدرسة الطب — كان يدعى قناصل الدول وكبار الموظفين والضباط والعلماء لحضور الامتحان ، ويؤتى بفرقة من الموسيقيين لتحيي النابهين من التلاميذ ،[1] ويشترك معهم الحاضرون بكلمات (عفارم أو برافو) . ذلك بأن تلك الامتحانات كان أكثرها شفهياً ، فهو عبارة عن أسئلة تتلى على التلاميذ ، ويجيب عنها التلاميذ بصوت عال أمام الجمع الحاشد من زملائهم وأساتذتهم والممتحنين والمدعوين . على أن كثيرا من تلك المظاهر الخلابة التى أريد بها الدعاية للمدارس وجذب انتباه الرأى العام إليها قد أبطل بعد تنظيم المدارس وإنشاء الديوان .[2] واكتفى بدعوة كبار الموظفين والعلماء ، وكل من أراد الحضور . »

وكانت لجان الامتحان في بعض المدارس تقسم أعضاءها لجانا (فرعية) يرأس كلا منها أحد كبار أعضاء اللجنة العامة ، وتقوم بامتحان فريق من التلاميذ . ويرأس اللجان الفرعية جميعا رئيس اللجنة العامة للامتحان .

---

(١) دفتر ٢٠١٨ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس في ١٥ شعبان ١٢٥٢

(٢) Hamont, op. cit. II. p. 330.

وقد يطوف بلجان الامتحان مدير ديوان المدارس ، ويرأس كلا منها حينا من الزمن ، يتفقد شئونها ويشرف على سير الامتحان ونظامه .[١]

قلنا إن الامتحان كان معظمه شفهيا . وفى بعض المدارس — كمدرسة الطب — كانت توضع مجموعة كبيرة من الأسئلة فى صندوق ، ويُقترع عليها بين التلاميذ . وكانوا — فردا فردا — يجيبون على نصيبهم من الأسئلة بصوت مرتفع .[٢] أما فى المواد التى تستلزم مهارة فى الخط فكانت اللجان «تستكتب» التلاميذ ، وقد تبعث بنماذج من خطوطهم إلى الديوان .[٣]

أما المدارس الحربية فكان تلاميذها يمتحنون علما وعملا : يمتحنون فى المدرسة فى العلوم النظرية التى تلقوها ، ثم يخرجون إلى الفضاء حيث تُختبر مهارتهم فى تسديد الرماية وفى ركوب الخيل واستخدام الأسلحة ونحو ذلك من الفنون الحربية .[٤]

وكانت بعض لجان الامتحان « للتثبت من فائدة المدرسة » تمتحن فى اليوم الأول التلميذ الأول من كل فرقة ، ثم بقيـة التلاميذ فى الأيام التاليـة .[٥]

ويستمر الامتحان عدة أيام : « أربعة أو خمسة بالنسبة إلى تلاميذ كل مدرسة » .[٦] وفى اليوم الأخير يكتب أعضاء اللجنة تقريراً عن التلاميذ الذين امتحنوهم والدرجات التى نالوها . وعلى رئيس اللجنة أن يرفع هذا التقرير إلى شورى المدارس ثم إلى ديوان المدارس بعد إنشائه . على أن يرفقه بتقرير منه يلخص فيه نتائج الامتحان ، ويقدم مقترحاته فيما يخص المواد التى يجب

---

(١) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٥ ذى القعدة ١٢٥٢

(٢) Clot Bey, Compte rendu . . . p. 17.

(٣) دفتر ٢١٢١ (مدارس تركى) ص ٧٩ رقم ٧٨ إلى الباشا الكتخدا فى ٢٦ ذى الحجة ١٢٦٣

(٤) دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركى) ورقة ٣٧ رقم ١٧٠٠ إلى شورى المعاونة فى ٩ رمضان ١٢٥٩

(٥) دفتر ٢١٢١ (مدارس تركى) ص ١٠٧ رقم ١١٣ إلى الباشا الكتخدا فى ٢٥ المحرم ١٢٦٤

(٦) الوقائع المصرية : العدد ٧٣ (إعلان الامتحانات السالف الذكر)

العمل على تقوية دراستها والكتب اللازمة للتلاميذ والمدرسين وترقيات الأخيرين وعلاواتهم .. الخ .

فإذا ما وصل تقرير الامتحان أو « جدوله » إلى الشورى استدعى إليه أعضاء (استشاريين) من نظار المدارس الأخرى ، وأحيل التقرير إلى أحد أعضاء الشورى (فيقرّر) عنه للشورى ، ثم يصدر الشورى قراراته على ضوء هذه التقارير .

وبعد إلغاء شورى المدارس كان الديوان يؤلف لجانا من « نظار الأقلام » لدراسة تقارير الامتحان ورفع المقترحات التى تعنّ لهم إلى مدير الديوان.(١) ثم يرفع الديوان ملخص النتائج إلى « شورى المعاونة » لرفعها إلى « ولى النعم » واستصدار موافقته على ما طُلب من ترقيات وعلاوات لنظار المدارس ومدرسيها الذين حسنت نتائج امتحان تلاميذهم ، وأخيراً يرسل الديوان إلى المدارس بما استقرّ عليه الرأى بشأن توزيع الفرق الدراسية والكتب وترقيات المدرسين والتلاميذ وغير ذلك . وكان يطلب إلى مديرى المدارس الخصوصية أن يتوجهوا إلى المدرسة التجهيزية — عقب انتهاء الامتحان — ليتسلم كل منهم ما خصص لمدرسته من ناجحى التجهيزية . (٢)

أما مكاتب المبتديان بالأقاليم فكان يندب لامتحان تلامذتها كل عام « رفاعة بك رافع » مدير مدرسة الألسن ويعاونه بعض المدرسين . وكانت تطلب لهم من « ترسانة » بولاق (قنجة أو ذهبية) لتقلهم فى النيل إلى البلاد المتوجهين إليها ، ولتعود بهم وبالتلاميذ الناجحين الذين يقع اختيار الممتحنين عليهم لإلحاقهم بالمدرسة التجهيزية بالقاهرة .(٣) وقد اشترك فى بعض الأعوام الأخيرة موظف يدعى « لبيب أفندى » — وكان ناظراً بقلم التحريرات

---

(١) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص ٢ رقم ١٢٨٧ إلى واسيل بك فى ١٠ شوال ١٢٥٥

(٢) دفتر ٨ (مدارس عربى) ص ٣٢٦ رقم ٤٣ إلى مدرسة الألسن فى ١٠ شوال ١٢٦٠

(٣) دفتر ١ (مدارس عربى) ص ١٢ رقم ٢ إلى مفتش الترسانة ببولاق فى ٢٦ شعبان ١٢٦٠

بالديوان – مع رفاعة بك فى امتحان تلاميذ بعض المكاتب، ومعه أيضاً مدرسون من مدرسة الألسن.[1] وكان امتحان المكتب فى الواقع (تفتيشاً) عن حالة المكتب وتلاميذه من كل الوجوه: نظافة البناء والتلاميذ، غذائهم وأدواتهم التى تصرف إليهم، كتبهم، ملابسهم . . . الخ. وكان رئيس اللجنة يضمِّن «جدول» الامتحان تقريراً عاما عن المكتب من كل الوجوه التى ذكرنا، والمقترحات التى يراها كفيلة برفع مستوى التدريس بالمكتب وحياة التلاميذ فيه. ففى أحد الأعوام اقترح «رفاعة بك» فى تقريره العام عن امتحانات المكاتب عقاب «باشخوجة» مكتب الجيزة لما بدا منه من تكاسل، وتوزيع تلاميذ كل مكتب إلى ثلاث فرق، وضرورة جلوس تلاميذ الفرقة الأولى على «تخت» من خشب، وصرف «أمشق» لخط الثلث، والتنبيه على مدرسى الخط بالمكاتب بمعاونة «باشخوجاتها». وقد أجابه الديوان إلى ما طلب.[2] ولا تنس أن رفاعة بك هو الذى طالب عقب (دورة) الامتحان فى أحد الأعوام بإلباس التلاميذ (صدارى) لتقيهم البرد وإطعامهم من اللحم والخضر يومين من كل أسبوع.

فإذا ما وصل «جدول» الامتحان إلى الديوان درسه وأصدر القرارات التى تتراءى له: فيكتب إلى المكاتب بتوزيع تلامذتها على الفرق الدراسية الثلاث طبقاً لدرجاتهم، ويؤنب القائمين على المكاتب المتأخرة، ويعاقب المهملين من النظار و«الباشخوجات»، والمعلمين. وقد يقرّ اقتراحات رفاعة بك فيما يخص ترتيب الدروس وحياة التلاميذ فى المكاتب.

ولم يكن التلاميذ يمنحون درجات، بل كانوا يقسمون طبقات: «أعلا» (وهى تعادل طبقة ممتاز الآن) و«عال» (جيد) و«وسط»

---

(١) دفتر ٦٢ (مدارس عربى) ص٣٥٥٧ رقم ٧٠٥ إلى مدرسة الألسن فى ٢٩ جمادى الثانى ١٢٦٣ وكان رئيس الامتحان يدعى «مأمور الامتحان» أو «الامتحانجى».

(٢) دفتر ٩ (مدارس عربى) ص٦١٦ رقم ٩٤ إلى مدرسة الألسن فى ٧ ذى القعدة ١٢٦٠

(متوسط) و « دون » (ضعيف) و « دون الدون » (ضعيف جدا) . وقد يضاف أيضاً « أعلا الأعلا » وهم المبرزون على أقرانهم و « تنابلة » وهم الذين لم يفيدوا فى حياتهم الدراسية شيئاً ما .

وفى المكاتب الابتدائية كان التلاميذ الحائزون لدرجتى «عال» و«وسط» وما فوقهما ينقلون من فرقة إلى أخرى ، أما الحائزون لدرجة «دون» فماتحتها فيعيدون دروسهم .[1]

أما فى المدارس التجهيزية والخصوصية فكان التلاميذ «الوسط» يعيدون مع « الدون » .[2] والواقع أن ملخص نتائج الامتحانات فى سجلات الديوان تظهر أنه لم يكن ثمة قاعدة عامة متبعة فى جميع الحالات : فبعض اللجان كانت تشير بأن ينقل التلاميذ «الوسط» ، وبعضها تشير بأن يعيدوا دروسهم ، بل منها من كانت تشير بأن يعيد التلاميذ «العال» دروسهم كذلك .[3] وقد يرجع هذا كله إلى ما تلاحظه لجنة الامتحان على مستوى الدراسة بالمدرسة التى امتحن تلاميذها .

والتلاميذ الذين يحوزون درجة «دون» أو أقل منها عامين متواليين يفصلون من مدارسهم .[4] وإن كان للديوان أن يمنح صغار التلاميذ فرصة أخرى للإعادة .[5] والتلاميذ المفصولون لا يُعادون إلى بلادهم لئلا يقتدى بهم التلاميذ الآخرون (ليخلصوا) من مدارسهم ،[6] بل كانت الحكومة — عقابا لهم وإرهابا لغيرهم من جهة ، وحرصاً على ما أنفقته عليهم من جهة أخرى — تدبِّر للمفصولين أعمالا وضيعة : فتلاميذ الطب يعيَّنون ممرضين فى المستشفيات ، وتلاميذ الطب

(١) دفتر ٩٣ (مدارس عربى) ص ١٩ رقم ٦ إلى مكتب أسيوط فى ١٨ شوال ١٢٦٣

(٢) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص ٣٨ — ٤٠ رقم ١٤٤٩ إلى الباشمعاون فى ٩ ذى القعدة ١٢٥٥

(٣) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص ٩ رقم ١٣١٠ إلى رأفت أفندى فى ١٣ شوال ١٢٥٥

(٤) دفتر ٢٠٩٦ (مدارس تركى) ص ١٩٦ رقم ٧٩٦ إلى كامل بك فى ٢٦ ذى الحجة ١٢٦٠

(٥) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص ٣٧ رقم ١٤٤٨ إلى الباشمعاون فى ٩ ذى القعدة ١٢٥٥

(٦) دفتر ٢٧ (مدارس عربى) ص ٦٣٧ رقم ٢٥ إلى مكتب ميت غمر فى ٠٠٠ سنة ١٢٦١

البيطرى (سوّاسا) فى (إسطبلات) الحكومة ، وتلاميذ البحرية عمالا فى دار الصناعة ، وتلاميـذ المهندسخانة معيدين أو مدرسين للحساب بالمدارس الابتدائية ، وتلاميذ المدارس الحربية — أو غيرها من المدارس — (أنفاراً) فى الجيش ، وتلاميذ التجهيزية والمبتديان زراعا فى حدائق شبرا ، وقديعاقب المتأخرون فى بعض المدارس الخصوصية بإعادتهم الى المدرسة التجهيزية،[1] وقد يعدل بتلاميذ من مدرسة خصوصية إلى أخرى إذا اتضح للديوان أن ميولهم أو قدرتهم العقلية لا تتفق وعلوم المدرسة التى كانوا بها . فكثيراً ما نُقل تلاميذمن المهندسخانة إلى العمليات ، أو من بعض المدارس الخصوصية الى المدارس الحربية .

وكانت الحكومة شديدة الاهتمام بنتائج الامتحانات : ذلك بأن التلميذ (يكلف) الحكومة كل عام قدراً كبيراً من المال تنفقه فى تعليمه وغذائه ولباسه ونحوذلك . والتلميذ (الراسب) الذى يعيددروسه عاما آخرا (يكلف) الحكومة ضعف ما يتكلفه التلميذ الناجح . أما التلميذ الذى تضطر المدرسة لفصله فقد أضاع على الحكومة مالا طائلا كانت فى حاجة إلى أن تنفقه فى وجوه أخرى . لذلك كان طبيعياً أن تكثر الحكومة من حثّ التلاميذ على الجدّ فى الدرس ، فهى لا تبخل بالنفقة عليهم حتى تنشئهم رجالا ينفعون أنفسهم ووطنهم ، فعليهم أن يحمدوا لها صنيعها ، وأن يقابلوا ذلك (الجميل) بالجدّ فى العمل والتوفر على الدرس .

أما الناجحون من التلاميذ فهم (أبناؤها) : تنقلهم إلى الفرق العليا وتزيد مرتباتهم كلما تقدموا من فرقة إلى أخرى أو من مرحلة من مراحل التعليم إلى ما يليها ، وقد تمنحهم أيضا كتبا قيمة مما تقوم على طبعه مطبعة بولاق أو (أشرطة) من مقصب أو قطن !

---

(١) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢١ ذى القعدة ١٢٥٢ — من تقرير عن امتحان مدرسة الألسن .

أما التلاميذ المتأخرون أو الراسبون فيهدَّدون بالعقاب الشديد إن ظلوا على ماهم عليه من كسل وفتنة عن الدرس ، وقد يعاقبون بإنزالهم إلى فرق دون الفرق التى كانوا بها أو بتنزيل رتبهم إن كانوا ذوى رتب ، وقد يعاقبون بالضرب أو بانقاص مرتباتهم التى كانوا يمنحونها أو بحجزهم فى المدرسة وحرمانهم من الخروج الى النزهة ، وقد تعفو عنهم المدارس أحيانا ، على أن تمهلهم أشهراً ثم تعيد امتحانهم .[١]

أما مدرسو المدارس ونظارها أو مديروها فنتائج امتحان تلاميذهم مقياس لعملهم : إن حسنت كان ذلك الدليل الأكبر على كفاية المدرسين والنظار وإخلاصهم فى عملهم ، وإن ساءت عُدَّ ذلك برهانا على تكاسلهم وانصرافهم عن عملهم أو قلة كفايتهم ، فترقيات النظار والمدرسين لا تكون إلا بعد أن (تظهر) نتائج امتحانات تلاميذهم . وكفاية المدرسين والناظر — والمدرسة على وجه عام — تقدَّر بعدد من خرَّجوا من تلاميذ .[٢] أما المدارس والمكاتب التى ساءت نتائجها فنظارها ومدرسوها موضع غضب الديوان وعقابه .[٣] لذلك كان الديوان يكثر من الكتابة إلى نظار المكاتب بطلب التنبيه على «الباشخوجة» والمدرسين بالجد والإخلاص فى العمل ، ويتهددهم جميعاً إذا ساءت نتيجة امتحان التلاميذ . وقد تعدى الاهتمام بنتائج الامتحانات — كمقياس لتحصيل التلاميذ وجدّ المدرسين — إلى اهتمام (بمظهر) التلاميذ والمدرسة وقت الامتحان : ذلك لأن المدرسة فى تلك الأيام تكون محط أنظار المدعوين ورقابة الممتحنين : فيجب أن يجدَّد أثاثها إن كان بالياً ، وتطلى حوائطها

---

(١) دفتر ٢٠٨١ (مدارس تركى) ص ٤٧ رقم ١٣١١ إلى واسيل بك فى ٢٥ شعبان ١٢٥٨

(٢) دفتر ٢٠٨٣ (مدارس تركى) ورقة ٤ رقم ٦١ إلى شورى المعاونة فى ١٤ المحرم ١٢٥٩

(٣) دفتر ٩٣ (مدارس عربى) ورقة ٢٢ رقم ٧ ص ١٠٤ رقم ١٥ — حبس مدرسين بمكاتب لمدة شهر ليلا ونهاراً .

ودفتر ٨ (مدارس عربى) ورقة ٣٣٨ رقم ٢٠ — حبس « باشخوجة » مكتب شهراً بالمدرسة بدون مرتب .

إن كانت قذرة. (١) ويجب أن يصرف للتلاميذ ملابس جديدة حتى لا يظهروا بملابسهم القديمة البالية «أمام الذوات». (٢) ويجب أن تصرف لتلميذات «مدرسة الولادة» مرتباتهن المتأخرة حتى يبتعن (جوارب) يلبسنها وقت الامتحان. (٣) والمكاتب يجب أن تعنى بنظافتها ونظافة تلاميذها حتى لا يحل بها غضب «مأمور» الامتحان وعقاب الديوان ... الخ.

وكانت تعقد امتحانات أخرى فى غير أوقات الامتحانات (الرسمية): فاذا احتاجت الحكومة إلى أطباء فى خلال العام الدراسى امتحن تلاميذ الفرقة الأولى بمدرسة الطب واختير منهم الفائزون. (٤) وإذا وجد أن مدرسة المبتديان قد ضاقت بالتلاميذ حتى غدت لا تقبل كل من يتقدم إليها خُفف عنها بامتحان تلامذة الفرقة النهائية بها، لنقل الناجحين منهم إلى المدرسة التجهيزية، وبذلك تتسع مدرسة المبتديان لقبول تلاميذ «مستجدين». (٥) وإذا تقدم تلميذ إلى الديوان خلال العام الدراسى ملتمساً قبوله بالمدرسة التجهيزية فللديوان أن يحيله إلى مدرسة الألسن لاختباره وفحصه طبياً، حتى إذا وُجد موافقاً ألحق بالمدرسة. (٦) وإذا أريد الفحص عن أعمال مدرس خلال العام الدراسى والوقوف على مدى كفايته وإخلاصه فى عمله امتحن تلامذته (٧) وهكذا.

(١) دفتر ١٥ (مدارس عربى) س ٣٨٣٤ رقم ٧٣٧ إلى ديوان البنايات فى ٢٣ رجب ١٢٦٣

(٢) دفتر ٦٣ (مدارس عربى) س ٣٧٠٣ رقم ٤٦٥ إلى مدرسة الطب البشرى فى ٢٣ رجب سنة ١٢٦٣

(٣) دفتر ١٣ (مدارس عربى) س ٢٧٤٩ رقم ٦٠٩ إلى مدرسة الطب البشرى فى ١١ رجب ١٢٦١

(٤) دفتر ١١ (مدارس عربى) س ٢٣٨١ رقم ٥١٩ إلى مدرسة الطب البشرى فى ٢٤ جماد أول ١٢٨١

(٥) دفتر ٢٩ (مدارس عربى) س ١٥١٢ رقم ٤٧٤ إلى مدرسة الألسن فى ٣ جماد أول ١٢٦٢

(٦) دفتر ٢٩ (مدارس عربى) س ١٥٦٥ إلى مدرسة الألسن فى ١٨ جماد أول ١٢٦٢

(٧) دفتر ١٢ (مدارس عربى) س ٢٤٥٠ رقم ٣٤٦ إلى مدرسة البيادة فى ١٣ جماد ثان ١٢٦١

ولم يكن التلاميذ وحدهم هم الذين تعقد لهم الامتحانات ، بل كان خريجو المدارس أيضا يمتحنون من وقت لآخر ، (لتثبيتهم) فى وظائفهم أو ترقيتهم . فقد رأينا أن الشكوى لما ارتفعت من انصراف الأطباء المتخرجين فى مدرستى الطب البشرى و الطب البيطرى عن قراءة العلوم التى تلقوها فى المدرسة ونسيانهم كثيراً منها وإهمالهم تجديد معلوماتهم ، رؤى — تلافيا لهذا كله — إمدادهم بما يجدّ من الكتب فى علومهم ، ثم امتحانهم فى كل عام وترقية الناجحين منهم وعقاب المتأخرين . ثم رؤى أنه يحسن أن يمضى التلاميذ المتخرجون فى المدارس الخصوصية سنتى (تجربة) قبل منحهم الرتبة ، وتختبر مهارتهم فى الأعمال التى وكلت إليهم ، حتى إذا حسنت تقارير رؤسائهم مُنحوا رتبة الملازم الثانى ومرتبها .[١] ومن ذلك أن خريجى مدرسة الألسن المعينين فى قلم الترجمة كانوا يمتحنون ويراجع ما ترجموه من الكتب خلال العام الدراسى مع تلامذة مدرسة الألسن.[٢]

وكان الديوان يأمر بامتحان المدرسين قبل تعيينهم ،[٣] وكان بعض الموظفين وضباط الجيش لا يرقون إلا بعد امتحانهم .[٤]

عطلة التلاميذ

العطلة السنوية

كانت الامتحانات « العامة » فى شهر شعبان من كل عام ، وبعدها تبدأ العطلة السنوية من أول رمضان ، وتستمر خلاله وفى عيد الفطر ، ثم تنتهى

---

(١) دفتر ٣ (مدارس عربى) ص ٩٧٩ رقم ١٩٨ إلى ديوان الجفالك فى ٢٦ صفر ١٢٦١

(٢) دفتر ٥٧ (مدارس عربى) ص١٣٨٧ رقم ٢٣١ إلى مدرسة الألسن فى غاية ذى الحجة ١٢٦٢

(٣) دفتر ٢١ (مدارس عربى) ص ٢٧٧٨ رقم ١١٨ إلى مكتب المبتديان بأبى زعبل فى ٢٤ رجب ١٢٦١

(٤) دفتر ٢١ (مدارس عربى) ص ٥٧١ إلى الديوان الخديوى فى ١٣ المحرم ١٢٦٢

فى اليوم الرابع من شهر شوال . [١]

واستمر الحال على ذلك طوال عصر محمد على والسنين التى تلته ، إلى أن « ترامى أن اشتغال التلاميذ بالدراسة فى أشهر الحر لا يفيدهم الفائدة المطلوبة ، فصدر قرار من نظارة المعارف بتاريخ ١٠ أبريل سنة ١٨٨٦ بتنويع المسامحة وإطالة مدتها ، وقد ساعد النظارة على نيل بغيتها حلول شهر رمضان فى إبان زمن الحر ، فقررت إطالة مدة المسامحة قبله وبعده . ومن ذلك الحين استمر العمل على هذا المنهج القويم مع تعديلات مسَّت إليها الحاجة واقتضاها الحال » . [٢]

كانت العطلة السنوية إذن قصيرة لا تعدو شهراً وبضعة أيام . والواقع أنها كانت قصيرة — لا بالقياس إلى العطلة السنوية التى يتمتع بها التلاميذ اليوم والتى يرى كثيرون أنها أطول مما يجب لهم — بل بالقياس إلى العمل الشاق المضنى الذى كانت تأخذهم به مدارسهم خلال العام الدراسى : فقد رأينا من « جداول » توزيع الدروس التى أوردنا أن تلميذ المدرسة الابتدائية لم يكن يمضى أقل من تسع ساعات فى دراسة تكاد تكون متصلة . والشأن كذلك فى المدارس الأخرى . هذا إلى أن أكثر التلاميذ من القرى ، فهم ينتظرون بذاهب الصبر أيام رمضان الجميلة (القصيرة) ليخفُّوا إلى قراهم ، حيث يسكنون إلى أهليهم فترة من السنة ، لا شك كانوا يخالونها قصيرة كل القصر .

على أن للحكومة ما يبرر مسلكها : أن كانت لا ترى فى عهد التلمذة إلا عهد تحصيل وتوفّر على الدرس ، وعلى التلميذ فى سبيل ذلك أن يضحى بكل شىء : بميوله وأهوائه وبحنينه إلى بلده وأهله ، وكفاه فخراً وشرفاً أن « الجناب العالى » يقوم على تعليمه وتربيته وتنشيئه وتدبير مستقبله وتكوينه رجلا !

(١) Bowring, op. cit. p. 126.

(٢) أمين باشا سامى : التعليم فى مصر ص ٥٣

والحكومة لا تريد أن تقف عوامل أخرى من حنان الأهل وسوء التربية المنزلية فى طريقها ، والحكومة التى كانت ترى فى مبيت التلاميذ خارج مدارسها إخلالا بدروسهم وإفساداً لأخلاقهم . وكانت لذلك تنزع الأطفال من أهلهم وبيوتهم وتمنعهم أن يعودوا إليهم إلا فى فترات متقطعة طويلة الآماد — ليس من شك أن هذه الحكومة لا تميل إلى إطالة أيام العطلة السنوية، وهى الأيام التى يتحرر التلاميذ فيها من عبء العمل المدرسى ويهرعون فيها إلى أهلهم وبلادهم .

لا ! بل رأى بعض المكاتب أن وقف الدراسة فى رمضان و«تسريح» التلاميذ ليس من الصواب فى شىء ، فاقترح على ديوان المدارس — ووافق الديوان — أن يتلقى التلاميذ دروساً فى رمضان من الصباح إلى الظهر ، على أن يترك ما بعد الظهر « مساحة » للتلاميذ .[١] وكذلك رأى الديوان أن « إقامة التلامذة (بمدرسة الطب البشرى) بطالين كل هذه المدة يوجب نسيانهم العلوم ويعودهم على البطالة . . . » ، فقرر أن يشتغل التلاميذ ست ساعات من كل يوم : ساعتان منها لمذاكرة الدروس الماضية « بالأسئلة والأجوبة » ، وساعتان « لكتابة مراسلات وتذاكر وشروحات مسائل طبية ، ويكون التصليح والتصحيح فى ذلك بمعرفة الضباط أيضـــاً (أى المدرسين) ، إنما يلزم الدقة فى تحسين الخط على قدر الإمكان » ، وساعتان لدروس الدين والعقائد ، ويلقيها عليهم شيخان من مصححى المدرسة . وقرر مثل هذا لتلميذات مدرسة الولادة ،[٢] ولتلاميذ مدرسة «الطوبجية» ،[٣] وغيرها. ثم رأى الديوان أن إجازة التلاميذ التوجّه إلى أهلهم وقضاء رمضان بينهم

---

(١) دفتر ٨ (مدارس عربى) ص ٢١٠ رقم ٤ إلى مكتب الجيزة فى ٤ رمضان ١٢٦٠

(٢) دفتر ٦٤ (مدارس عربى) ص ٨٥ ٠ ٤ رقم ٥٠٠ إلى مدرسة الطب البشرى فى ١٨ شوال ١٢٦٣

(٣) دفتر ٦٤ (مدارس عربى) ص ١٠٠ ٤ رقم ٤٠٩ إلى مدرسة الطوبجية فى ١٨ شعبان ١٢٦٣

امتياز يجب ألا يناله إلا الأكفاء .

ولما فُرضت « الضمانات » على التلامذة قرر ديوان المدارس أن التلاميذ الذين لهم « ضمانات » قوية وأحسنوا الإجابة فى الامتحان هم الذين تعطى لهم (الرخصة) بالتوجه إلى أهلهم وقضاء رمضان بينهم . أما التلاميذ الذين أساءوا الاجابة فى الامتحان وليست لهم « ضمانات » قوية فيظلون بالمدرسة لا يبرحونها إلى أهلهم ، وكذلك تلاميذ الفرقة الأولى النهائية « لأن عليهم أشغالا » .[1] أما التلاميذ الذين لم يتقدم أحد (لضمانتهم) فلا يخرجون من المدرسة مطلقا .[2]

ولما انهالت على الديوان طلبات الإجازة بالعطلة من التلاميذ وأهليهم قرر الديوان أن التلامذة الذين لا تبعد بلادهم عن القاهرة أكثر من مسيرة ثلاثة أيام وحسنت الشهادة فى أخلاقهم ونالوا فى الامتحان درجتى « عال » أو « أعلا » يعطون إجازة بالسفر الى أهلهم والمكث عندهم مدة الخمسة عشر يوما الأولى من رمضان . أما التلاميذ الذين أهلهم بالقاهرة فإن حسنت الشهادة فى أخلاقهم ونالوا فى الامتحان درجتى « أعلا » أو « عال » أيضا ، وكان أهلهم «معتمدين طيبين» أذن لهم بأن يذهبوا إليهم فى الثلاثة الأيام الأولى من رمضان ثم فى الأسبوع الأخير منه .[3]

ولكن التماسات التلاميذ وأهليهم تنهال على الديوان برجاء الإذن لهم جميعا بالسفر إلى بلادهم ، فعدل الديوان قليلا من قراره السابق ، وإن احتفظ (بالمبادىء العامة) التى قام عليها : من ضرورة توافر الأخلاق الحسنة « والضمانة » والتفوق فى الامتحان .

---

(١) دفتر ٣١ (مدارس عربى) س ٢٣٠٢ رقم ٤٣٢ إلى مدرسة المهندسخانة فى ٢٤ شعبان ١٢٦٢

(٢) دفتر ٨ (مدارس عربى) س ٢٠٢ رقم ٩ فى ٣ رمضان ١٢٦٠

(٣) دفتر ٦٥ (مدارس عربى) س ٤٣٦٢ رقم ٣٩٨ إلى مدرسة البيادة فى ٢٦ شعبان ١٢٦٣

قرر الديوان أن التلاميذ الذين أهاليهم بالأقاليم — من غير تقيد بمسافة معينة — وكذلك الذين أهاليهم بالقاهرة ويكونون « مضمونين » وحسنى الأخلاق ومتفوقين فى الامتحان يمنحون إجازة بالعطلة فى النصف الأخير من رمضان بما فيه العيد . والتلاميذ صغار السن حميدو الأخلاق يعطون إجازة فى الأسبوع الأخير من رمضان . أما الباقون « فيصير تفسيحهم وقت الفسحة بالطابور خارج المدرسة مع الضباط كالجارى » .[١]

العطـلة الأسبوعية

وكانت للتلاميذ — عدا العطلة السنوية فى رمضان — عطلة أسبوعية فى يومى الخميس والجمعة من كل أسبوع . ولـكنها كانت كالعطلة السنوية مقيدة بقيود ثقيلة أو أشد : فتلاميذ المـكاتب بالأقاليم لم يكن يؤذن لهم بالمبيت فى بيوتهم فى هاتين الليلتين ، بل كان يسمح لهم قبل نظام « الضمانات » بالخروج خارج المـكتب بعد ظهر يوم الخميس ، فيذهب من لهم بيوت فى القرية إلى بيوتهم ، على أن يعودوا مساءً الى المـكتب . أما من كانت قراهم بعيدة فكانوا يخرجون مع معلميهم فى « طابور » ويتنزهون قليلا ، ثم يعودون الى المـكتب . وتتبع هذه (الخطة) أيضاً فى أيام الجمع .[٢]

أما تلامذة المدارس بالقـاهرة فكانوا أسعد حظا من (زملائهم) بالأقاليم : إذ كان النظار يأذنون لهم جميعا بالخروج يوم الخميس والمبيت عند أهلهم ليلة الجمعة من كل أسبوع . ولـكن ذلك عاد بأكبر ضرر على التلاميذ : إذ أصيب كثيرمنهم — وخاصة تلاميذ مدرستى المبتديان والتجهيزية بالقاهرة —

---

(١) دفتر ٦٥ (مدارس عربى) ص ٤١١ رقم ٥٢٣ إلى مدرسة الطب البشرى فى ٢ رمضان ١٢٦٣
(٢) دفتر ٢٠١٥ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٣ جماد ثان ١٢٥٢ — من تقرير لمفتش مكاتب الوجه القبلى .

بأمراض خبيثة . لذلك رأى الديوان - حفظا لصحتهم وصيانة لأخلاقهم - حرمانهم المبيت خارج المدرسة ، بل يكتفى بإخراجهم فى «طابور» مع ضباطهم . ولا يؤذن لأحد منهم بالمبيت عند أهله إلا لعذر قوى . (١) وشرع الديوان يضع نظاما ثابتاً لعطلة الأسبوع ، بعد أن علت الشكوى مما يأتيه التلاميذ خارج المدرسة من (تسكع) فى الشوارع والأسواق ، مما يؤدى إلى «عدم التربية وضياع شرف المدارس مع أنها محل اكتساب التربية والآداب كما هى محل اكتساب العلوم والفنون» . (٢) ولهذا عقدالديوان اجتماعا من نظار المدارس وكبار موظفى الديوان للمداولة فى هذا الشأن ، فقرروا — قبل كل شىء — منع الإذن العام الذى كان يمنحه النظار لتلاميذ المدارس جميعا ، ثم قرروا : (٣)

١ — أن يؤذن للتلاميذ المجدّين فى دروسهم والذين لهم أهل بالقاهرة طيبون وحسنو السلوك بالخروج من مدارسهم للرياضة وزيارة الأهل صباح يوم الجمعة ، على أن يعود إليها كل منهم على حدة من الساعة العاشرة إلى الحادية عشرة (أى قبل غروب الشمس بساعة أو ساعتين) . أما إذا تكاسل التلميذ أو بدت منه «مخالفات» فى أيام الأسبوع المنصرم حرم تلك النزهة . أما التلاميذ السيئو السلوك المتأخرون فى دراستهم أو الذين ليس لهم أهل بالقاهرة فيخرجون فى «طابور» مع ضباط المدرسة إلى الخلاء للنزهة ، ثم يعودون قبل غروب الشمس كذلك .

٢ — لا يؤذن للتلاميذ بالخروج من المدرسة فى غير أيام الجمعة ، ولا يؤذن لأحد منهم بالمبيت خارج المدرسة إلا لعذر قوى وكان أهله حسنى السلوك .

---

(١) دفتر ٥٠ (مدارس عربى) س ٣٢٤٣ رقم ١٧٣ إلى شورى الأطباء فى ٢٤ جاد ثان ١٢٦٣

(٢) و (٣) دفتر ٦٢ (مدارس عربى) س ٣٤٢٢ رقم ١٢٤٣ إلى المدرسة والاسطبلات فى ١٠ جاد ثان ١٢٦٣

٣ — ينبَّه على التلاميذ جميعا بأن يسلكوا خارج المدرسة مسلك الأدب، «ولا يرتكبوا أموراً تخل بالمروءة كالجلوس على القهاوى والوقوف بالمحلات الغير لايقة». وعلى نظار المدارس وضباطها أن يفتشوا عن التلامذة فى أوقات نزهتهم، فإن صادفوا أحداً منهم على غير استقامة ضبطوه وأعادوه إلى المدرسة حالا وأنفذوا فيه الجزاء.

وكان الديوان يأذن لمن حسنت أخلاقه وكان متقدما فى دراسته بالمبيت عند أهله مرة كل أسبوعين أو كل أسبوع على أن يتسلمه «ضامنه»، ويتعهد والده أو أحد أقاربه بألا يأتى أموراً مخلة بالآداب «كالتشرد فى الطرقات والجلوس فى المقاهى وصحبة من لا خلاق لهم»، ويتعهد بقبوله حرمان التلميذ هذه (الرخصة) إذا صدر منه شىء مما ذكرنا.[1]

وفى (مناسبات) خاصة كان التلاميذ يخرجون من مدارسهم: فآنا يقسمون فرقا، تخرج كل فرقة منها ليلة مع ضابط من المدرسة «للتفرج على الزينة» فى حفلات الحكومة،[2] وآنا يخرجون قبل شروق الشمس إلى جامع عمرو للاشتراك مع العلماء والزهاد وبطارقة الأقباط والأرمن والروم وحاخام اليهود فى الابتهال إلى الله بزيادة النيل.[3]

وكان تلاميذ مدرستى المبتديان والتجهيزية والمدارس الخصوصية بالقاهرة يتوجهون إلى القلعة فى اليوم الثانى من عيدى الفطر والأضحى لحضور «التشريفات»، وليرفعوا إلى سيِّد البلاد تحيات الشباب.[4]

وللتلاميذ — عدا العطلة الأسبوعية والسنوية — إجازات مرضية أو

---

(١) دفتر ٢١١٩ (مدارس تركى) ص ٢٦٤ إلى مدرسة الألسن فى ١٦ شعبان ١٢٦٣

(٢) دفتر ٩٨ (مدارس عربى) ص ٢٢٢٤ رقم ٤٥٠ إلى مدرسة المهندسخانة فى ٧ جماد أول ١٢٦٤

(٣) دفتر ٢٠٩٦ (مدارس تركى) ص ١١٦ فى ٢٢ شوال ١٢٦٠

(٤) دفتر ٢٠٤٣ (مدارس تركى) ص ١١ و ٢١ فى ٢٧ رمضان و ٥ ذى الحجة ١٢٥٤

غير مرضية ، يأذن لهم بها الديوان ، على أن يؤخذ منهم « تعهد » بالحضور بعد انتهائها .

وكان التلاميذ يمنحون مرتباتهم كاملة فى رمضان ، أما فى العطلة (الشخصية) لمرض أو لغيره فيحرمون من نصف مرتباتهم . وفى رمضان يعطل صرف « تعييناتهم » ، إلا للطلبة المتزوجين الذين يرى الديوان مساعدتهم على تكاليف المعيشة فيأمر بصرفها لهم .

ومن غاب من التلاميذ عن ميعاد العودة من العطلة أربعاً وعشرين ساعة عُدَّ هارباً ، وعوقب بإضافة مرتبه إلى خزينة الديوان . حتى إذا عاد وقدم عذراً قبله الديوان عفى عنه ورد إليه مرتبه ، (١) أو حرمه جانباً منه لقاءَ المدة التى تأخر فيها ، وإن غاب بغير عذر حرم مرتبه كله . (٢)

خريجو المدارس

كان التلميذ المتخرج فى إحدى المدارس الخصوصية — المدنية والحربية على السواء — يمنح رتبة الملازم الثانى ومرتبها وقدره مائتان وخمسون قرشاً « وبدل » التعيين . وكذلك كانت التلميذة المتخرجة فى مدرسة الولادة . ولا شك فى أن مجال العمل أمام خريجى المدارس فى مصالح الحكومة كان متسعا . بل الواقع أنه لم يكن لهم مجال فى العمل فى غير مصالح الحكومة : فالجيش يزداد عدده من وقت لآخر ، ودواوين الحكومة تكثر يوماً بعد يوم ، وهى كلما كثرت تعقدت أعمالها وإجراءاتها واشتدت حاجتها إلى الموظفين ، والمستشفيات تنشأ فى القاهرة وعواصم المديريات ، والجفالك تنظم وتشتد حاجتها إلى زراع وأطباء ، والمدارس يقوى بها العنصر المصرى

(١) دفتر ٥٤ (مدارس عربى) ص ٣٢٣ رقم ٣٤ إلى مدرسة المهندسخانة فى ١٣ شوال ١٢٦٢

(٢) دفتر ٢٦ (مدارس عربى) ص ٣١٢ رقم ٤١ إلى مدرسة المهندسخانة فى ١٩ شوال ١٢٦١

فى التدريس والإدارة باعتزال كثير من الأجانب خدمة الحكومة وحلول شباب البلاد المتعلم محلهم ، والبعوث العلمية إلى أوربا تزداد عاما بعد آخر . لم يكن عجباً إذن أن تشتد حاجة الحكومة إلى ضباط وأطباء وكتاب ومهندسين، فتأخذ التلاميذ من مدارسهم قبل أن يتموا علومهم ، وتبعث بهم إلى فرق الجيش أو إلى المستشفيات أو إلى غير ذلك من مرافق الدولة الناشئة .

ثم تستقرئ الأحوال ، وتنحسر موجة الإنشاء الجارفة ، ويبدأ دور الاستقرار والعمل الهادىء المنظم ، وتكون الدوائر الحكومية قد اكتفت بمن لديها من الموظفين . وهنا يضيق مجال العمل قليلا أمام خريجى المدارس . ولكن الحكومة لا يعجزها أن تدبر لهم جميعاً مكانا فى دوائرها . حتى إذا تمت تسوية ١٨٤٠ — ١٨٤١ ، ولم يعد لمحمد على حاجة بذلك الجيش الجرار يكلفه من المال ما تنوء به دولة ناشئة ، سرح معظم جنوده . وكان تكوين الجيش الحافز الأكبر على إنشاء كثير من مصانع الحكومة ، أن كانت قائمة على تدبير لباسه وسلاحه وغذائه . كما كان الحافز الأول على إنشاء المدارس وجمع العدد الكبير من التلامذة لها ، فلم يكن بدٌّ — بعد إنقاصه — من إقفال بعضها وإنقاص عدد التلاميذ فى بعضها الآخر . وبدأت الحكومة ففصلت بعض موظفيها فى المصانع والمصالح التى ألغيت ، ثم عادت تدبر لهم أعمالا فى مصالح أخرى .

ولكن المدارس ما تزال تخرج التلاميذ عاما بعد عام . وهنا شعرت الحكومة أنه لا يسعها أن تدبر لهم جميعا وظائف عقب تخرجهم ، فوضعت نظام «الاستيداع» : وهو أن يظل الخريجون — أو الذين لم تدبَّر لهم أعمال عاجلة — بمدارسهم يدرسون بها ما لم يدرسوه من قبل . وقد رتب لهؤلاء «المستودعين» أو «المتقاعدين» مرتب يزيد قليلا على ما كانوا يمنحونه وهم تلاميذ . فخريجو مدرسة الألسن يظلون بها أو بقلم الترجمة «تحت الطلب»[1]

(١) دفتر ٢٠٨٣ (مدارس ترکی) ورقة ٧ رقم ١٠٣ إلى شورى المعاونة فى ٢٠ المحرم ١٢٥٩

وخريجو مدرسة الطب يلحقون بمستشفى قصر العينى « مستودعين » حتى تحتاج إليهم أو إلى بعضهم مصالح الحكومة فيخرجوا إليها . [١] وكذلك خريجو مدرسة المدفعية ومدرسة الطب البيطرى وغيرهما. [٢] وقد يعين بعض المتعلمين المتعطلين « مستودعين » بجهة تنفق وما درسوا ليمرنوا فيها على العمل حتى لا ينسوا ما تعلموه . [٣] وقد يعاقب موظف بقيده « مستودعاً » أو بإحالته على « الاستيداع » ، وفى هذه الحالة لا يتناول سوى نصف راتبه. [٤] وطبيعى أن يكون « للمستودعين » الأسبقية فى التعيين فى الوظائف الخالية : فهم أولى بها من التلامذة المتخرجين حديثاً ، ذلك لأنهم يتناولون مرتبات من الحكومة ، وهم بعدُ معدودون فى سلك الموظفين ، وإن لم يخرجوا من سلك « التلمذة » . [٥]

وكانت الحكومة — من ناحية أخرى — تضيق بمرتبات موظفيها ، وخاصة الجدد منهم والحديثى العهد بمقاعد الدرس . وترى أنها — بالإضافة إلى « بدل التعيين » (الغذاء) الذى يمنح لهم — أكثر مما يجب لشبان يخطون أول خطواتهم فى ميدان الحياة . لذلك كانت تؤجل منح الرتبة لكثير منهم « حتى تتضح كفايتهم » . وتأجيل الرتبة يتبعه حتما تأجيل مرتبها ، فلا يمنحون إلا « علاوة على ماهية التلمذة » . [٦]

على أن هذا كله لم يكن علاجاً شافيا (للمشكلة) من أساسها — مشكلة

---

(١) دفتر ٥١ (مدارس عربى) ص ٣٨٧٣ رقم ١٦١ إلى التجارة فى ٦ شعبان ١٢٦٣

(٢) دفتر ٢٧ (مدارس عربى) ص ٦٩١ رقم ٢٧٩ الى خزينة المدارس فى غرة المحرم ١٢٦٢

(٣) دفتر ٥ (مدارس عربى) ص ٢٦٣٩ الى الجفالك فى . . . سنة ١٢٦٠

(٤) دفتر ١١ (مدارس عربى) ص ٣٠٩٧ رقم ٤٢٧ إلى مدرسة الطب البيطرى فى ٢٨ ربيع الأول ١٢٦١

(٥) دفتر ٩ (مدارس عربى) ص ٧٣٦ رقم ٢٠١ الى مدرسة الطب البيطرى فى ٨ جمادتان ١٢٦٠

(٦) دفتر ٢٠٨٣ (مدارس تركى) ورقة ٧ رقم ١٠٣ إلى شورى المعاونة فى ٢٠ المحرم ١٢٥٩

خريجى المدارس ورتبهم ومرتباتهم . لذلك أصدرت الحكومة فى سنة ١٢٦٠ (١٨٤٤ م) لائحة جديدة للتوظيف : جرت بأن التلميذ الذى يتم علومه ويمتحن ثم « يخرج للأشغال » يمنح فى العام الأول رتبة « أسبران ثان » وراتبا قدره مائة قرش و « بدل تعيين » قدره ٤٢ أو ٤١ قرشا و « بدل كسوة » قدره خمسة عشر قرشا وثمان بارات (أو عشرة قروش) وهو فى بعض الأحيان يعادل مرتبه بالمدرسة قبل خروجه منها ، وفى العام الثانى يمنح رتبة « أسبران أول » ويزاد راتبه إلى مائة وخمسين قرشا ، ويظل « بدل » الكسوة والتعيين على ما هو عليه . فإن أظهر بعد ذلك مهارة فى عمله وحَسُن رأى رئيسه فيه منح فى العام الثالث رتبة « الملازم الثانى » ومرتبها . [(١)]

والأساس الذى قامت عليه لائحة التوظيف هذه واضح : فهو كما ذكر باللائحة تجريب التلاميذ « بمحل عملهم » مدة من الزمن ، حتى إذا ظهرت كفايتهم وحسنت فيهم تقارير رؤسائهم منحوا الرتبة . فمدة التجربة ليست إلا (امتداداً) لعهد (التلمذة) : إذ أنها فى الواقع دراسة عملية يطبّق فيها التلميذ ما تلقاه على مقاعد الدرس من علم .

ولذلك رأت الحكومة أن ليس له الحق فى مدة التجربة هذه فى راتب أو رتبة : فهو ما زال « تلميذا » يتلقى العلم . على أنها « لمساعدتهم على المعاش » تمنحهم ما قررت لهم من راتب و « بدل » تعيين وكساء ، وتمنحهم لقب « أسبران » أى « مترقب الرتبة » . ومن هنا كانت تسمية « تلميذ » عامة فى عصر محمد على وخاصة فى السنين الأخيرة من ذلك العصر . فالمتخرج فى المدرسة

---

(١) دفتر ٣ (مدارس عربى) ص ٩٧٩ و ٩٨٠ و ٩٨٨ فى ٢٦ صفر ١٢٦١ ودفتر ٤٨ (مدارس عربى) ص ٢٤١٧ رقم ١١٧ الى المعية الخديوية فى ١٨ ربيع الآخر ١٢٦٣ — وللديوان أن يأمر بأن يصرف لهم تعيين « صنف » بدل « بدل التعيين » وخاصة للذين يبيتون منهم بالمدرسة .

يظل فى وظيفته « تلميذا » ، حتى يمنح رتبة الملازم الثانى فيدعى « صاحب رتبة » .(١)

فالتلميذ (الموظف) أو الموظف (التلميذ) يمنح راتبا و « بدل » تعيين و « بدل » كسوة ، ولا تستقطع منه ضريبة « الفردة » ،(٢) وإن استقطع من راتبه « الاحتياطى » المعتاد خصمه . أما صاحب « الرتبة » فله كذلك الراتب و « بدل » التعيين ، ولكنه لا يمنح « بدل » كسوة ،(٣) وتستقطع منه الفردة والاحتياطى معا.

وحاولت بعض المدارس أن (تتخلص) من بعض أحكام هذه اللائحة : فكتب شورى الأطباء الى الديوان يطلب استثناء خريجى مدرسة الطب البشرى من شروطها . فرفض الديوان محتجاً بأن « هذا الترتيب جعل لأجل تجربة من يخرج من التلامذة تام العلوم للجهات فى الأشغال » ، حتى إذا اتضحت مهارته وأوصى به رؤساؤه منح الرتبة ومرتبها . (٤)

على أنه كان يستثنى من أحكام تلك اللائحة خريجو المدارس الحربية ، إذ كانوا يمنحون عقب تعيينهم مباشرة بفرق الجيش رتبة الملازم الثانى ،(٥) ذلك لأنهم يتخرجون ضباطاً ، والضابط لابد له من الرتبة تمييزاً له عن « الأنفار » وضباط الصف .

وكذلك الطبيبات المتخرجات فى مدرسة الولادة كن يوظفن فى المستشفيات ويمنحن رتبة الملازم الثانى . (٦) وليس فى أوراق ذلك العصر

(١) « حفناوى أفندى من أصحاب الرتب ليس تلميذ » كذا — دفتر ١٢ (مدارس عربى) ص ٢٣١٨ رقم ٣٨٢ الى مدرسة الألسن فى ٦ جماد أول ١٢٦١

(٢) ضريبة « الفردة » أو « الرءوس » من الضرائب الهامة فى عصر محمد على ، وكانت تفرض على الذكور البالغين وتتراوح بين ١٥ قرشا و ٥٠٠ قرش فى السنة .

(٣) دفتر ٨٤ (مدارس عربى) ص ٩٤٨ الى شورى الأطباء فى ٢٨ المحرم ١٢٦٤

(٤) دفتر ٢٣ (مدارس عربى) ص ١٣٥٦ رقم ١٠٦ الى شورى الأطباء فى ١٧ جماد أول ١٢٦٢

(٥) دفتر ٢٩ (مدارس عربى) ص ١٥٣٣ رقم ٢٣٠ الى مدرسة البيادة فى ٨ جماد أول ١٢٦٢

(٦) دفتر ٥٢ (مدارس عربى) ص ٤٣٥٦ رقم ٢٢٨ الى المية فى ٢٤ رمضان ١٢٦٣

مايفيد منحهن أولا رتبة «أسپران» ثان أوأول . على أن منحهن رتبة الملازم الثانى كان — كما ذكرنا حين تحدثنا عن مدرسة الولادة — منوطاً بزواجهن . فمن تزوجت منهن (أسرعت) إليها الرتبة وما يصحب الرتبة من « إنعامية » ونحو ذلك .

ويستثنى أيضا من تلك اللائحة استثناء (جزئيا) خريجو المدارس الذين يوظفون بالسودان : فإن الموظف المصرى بالسودان كان يمنح فوق راتبه رُبْعَهُ بصفة (علاوة) . لذلك منح خريجو مدرسة المهندسخانة المعيَّنون « بجبل الذهب » بالسودان رتبة « أسپران أول » وراتبا شهريا قدره مائة وخمسون قرشا وبدل التعيين وبدل الكسوة المقررين . وكان يصرف لكل منهم — أول تعيينه — راتبه لمدة ستة شهور «لمساعدتهم على السفر» ، فكأنهم بذلك اقتصدوا عاما من مدة التجربة .[1]

وكان يعامل تلك المعامَلة أيضا خريجو المدارس الذين كانوا يمنَحون وهم تلاميذ مائة قرش . ففى العام الأول من توظفهم يمنحون مائة وخمسين قرشا ورتبة « أسپران أول » ، وفى العام الثانى رتبة «الملازم الثانى» .[2]

ولم يكن من الموظفين من يتناول راتبه كل شهر إلا من نقص راتبه عن مائة قرش ، أما من زاد على ذلك فلا يصرف له بانتظام فى كل شهر .[3]

رأيت أن حكومة محمد على لم تكن ترى ما نراه الآن من ذلك الفصل (العميق) بين عهد (التلمذة) فى المدرسة وعهد العمل فى الحياة خارج المدرسة . والواقع أن المدارس فى عصر محمد على لم تكن وحدها تلك الدُّور التى يتلقى فيها التلاميذ دروسهم ، بل كانت مصالح الحكومة ودواوينها (مدارس) أيضا ، والمدرس (الأول) فيها هو محمد على نفسه : بنصائحه إلى معاونيه والمثل الأعلى الذى

(١) دفتر ٥٣ (مدارس عربى) ص ٤٥٩١ رقم ٨٦٦ الى الآلاية فى ٢٨ رمضان ١٢٦٣

(٢) دفتر ٤ (مدارس عربى) ص ٢٢٢٢ رقم ٢٣٧ الى الترسانة ببولاق فى ٦ ربيع الثانى ١٢٦١

(٣) دفتر ٩ (مدارس عربى) ص ٧٤٥ إلى مدرسة البيادة ٢١ جماد ثان ١٢٦١

كان يضرب به دائما للموظفين بالجدّ والإخلاص فى العمل والتوفر على استيفاء أسباب النجاح من علم وخلق. كانت حكومة محمد على ترى أن عهد «التلمذة» لا يجب أن يكون قاصرا على المدارس، بل عملت على أن تجعل من حياة «الوظيفة» تتمة لحياة «التلمذة»: فكان المتخرجون فى المدارس يظلون — فى وظائفهم — مرتبطين بالمدارس التى تخرجوا فيها: فالأطباء المصريون يوضعون تحت إشرف شورى الأطباء (وله الرياسة على مدرسة الطب البشرى)، والأطباء البيطريون تحت إشراف «عمد الحكماء» وهم هيئة الأساتذة بمدرسة الطب البيطرى، والمترجمون فى قلم الترجمة تحت إشراف مدرسة الألسن، تُسأل عنهم مدارسهم أو الهيئات الفنية المشرفة عليهم كلما أريد ترقيتهم أو نقلهم من جهة إلى أخرى. وقد يتردّدون على مدارسهم من وقت لآخر لاستيفاء دروس لم يكونوا قد تلقّوها، أو لتسلم كتب لم يكونوا قد قرأوها. وقد تسوء تقارير رؤسائهم فيهم أو يظهرون فى عملهم إهمالا وضعفا فيعادون إلى مدارسهم تلاميذ من جديد، يتلقون العلم حتى يؤذن لهم بالعودة إلى وظائفهم. وهم يُحثّون على مداومة الدرس والاطلاع لتجديد معلوماتهم، فيعطون الكتب الجديدة فى فنونهم، ويمتحنون عاما بعد عام، وجزاء الناجح فى الامتحان الترقى وجزاء الراسب العقاب.

الفصل الرابع

هيئات التدريس والإدارة بالمدارس

ونقصد بها الموظفين الذين يشرفون على سير التعليم والإدارة بالمدارس ، والمستخدمين الذين يقومون على إعداد غذاء التلاميذ ونظافة المدرسة ونحو ذلك . ونبدأ «بالمدرسين» ، وهم العنصر الهام الذى يقوم بالقسط الأكبر من العمل فى المدارس .

المدرسون

أنشأت حكومة محمد على المدارس قبل أن تجد كفايتها من المدرسين المصريين الأكفاء ، ولم يكن فى وسعها أن تتريث حتى « تعدّ » المدرسين أولا ، ثم تفتتح المدارس بعد ذلك . فراحت تتلمسهم من « مصادر » مختلفة : فاستدعت الأساتذة الأجانب — وكان معظمهم من الفرنسيين والإيطاليين — ليدرسوا المواد التى لا يستطيع « رجال » الأزهر أن يقوموا بتدريسها : كاللغات الأجنبية والرياضيات وسائر العلوم « الحديثة » . ثم لما اتسع نطاق التعليم وأنشئت المدارس الابتدائية والتجهيزية وازداد أو غلب العنصر المصرى فيها واشتد الاهتمام بتعلم اللغة العربية ، لم يكن أمام الحكومة من المدرسين مايسدُّ حاجتها ، فاعتمدت على الأزهر وراحت تستمدُّ منه المدرسين ، فأدخلوا بالمدارس « كتب » الأزهر فى علوم اللغة العربية ، وأدخلوا فيها « طريقة » الأزهر فى التدريس ، طريقة التلقين وقراءة الكتب ، « وطريقته » فى التعليم وهى الحفظ والاستظهار . على أن الحكومة قد وجدت عنصراً آخر استمدَّت منه كذلك بعض حاجتها : فهناك المدارس

الأولى التى أنشئت منذ سنة ١٨١١ — مدارس القلعة والدرسخانة وبولاق وقصر العينى — وكان يدرس بها العلوم التى لا تدرس بالأزهر كالرياضيات والرسم والتاريخ والجغرافيا . فمن طلابها والمتخرجين فيها اختارت الحكومة مدرسين لمدارسها لتدريس المواد « الحديثة » التى ذكرنا .

وعلى الرغم من أن أولئك المدرسين لم يكونوا على جانب عظيم من الكفاية للقيام بالمهمة التى وكلت إليهم ، إذ لم يُعدُّوا لها إعدادا وافيا ، فإنهم سدوا جانبا من حاجة الحكومة الملحة فى وقت لم تكن تجد لديها من تعتمد عليه . وأخيرا اشترك العائدون من البعوث العلمية بالتدريج فى تحسين هيئة التدريس ورفع مستواها الفنى ، سواء بدروسهم فى المدارس أو بما عرَّبوه من الكتب المدرسية .

هذه هى المصادر التى تلمست منها الحكومة حاجتها من المدرسين : الأساتذة الأجانب وأشياخ الأزهر وخريجو المدارس الأولى وأعضاء بعوثها العلمية .

واستمرت العناية بالتعليم ، واستقرت أسسه ، وبدأ دور التنظيم بإنشاء شورى المدارس ثم ديوانها ووضع القوانين واللوائح ، فزادت المشكلة — مشكلة إعداد المدرسين الصالحين — تعقيدا . ولا شك فى أن الحكومة كانت تواجهها حقا ، وكانت تلمس لها مختلف الحلول . ولكنها لم توفق إلى أصوبها : وهو إنشاء مدرسة خاصة لإعداد المعلمين . ولا عجب فالعناية بإعداد المعلمين إعدادا خاصا لم تكن لتلقى فى أوربا فى ذلك الوقت اهتماما كبيرا : فنى انجلترا بدأت الرغبة فى إعداد المدرسين إعداداً خاصا يؤهلهم لمهنتهم فى نحو سنة ١٨٤٧ ، وفى فرنسا لم تنظم « مدارس المعلمين » إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

والواقع أن ديوان المدارس لم يكن ينشد فى مدرسى مدارسه « مؤهلات » خاصة ، إذ يكفى أن يكون المدرس على إلمام بالعلم الذى يقوم بتدريسه ، وأن

يكون على خلق قويم ، ليكون كفؤاً للقيام بمهمته . وبعد التنظيم أصبح أمام الحكومة — على وجه العموم — مصادر ثلاثة تستقى منها مدرسيها : « الأزهر » ، وتستمد منه الحكومة حاجتها الى مدرسى اللغة العربية والدين ، و « مدرسة الألسن » ، وتستمدّ منها الحكومة مدرسى اللغــات الأجنبية والجغرافيا والتاريخ ، و « مدرسة المهندسخانة » ، وتستمد منها الحكومة مدرسى الحساب والهندسة والجبر والرسم وغيرها من مواد الرياضة والعلوم . هذا عدا أعضاء البعوث من مدارسها المختلفة وبعض الأساتذة الأجانب الذين قل عددهم بقدر ما أصاب المدارس من تنظيم . ولم تكن مهمة المدرس « التدريس » فحسب ، بل كان عليه أيضاً « الإشراف » على التلاميذ فى غير أوقات الدراسة ، فكان المدرسون يصحبونهم فى نزهاتهم ويشرفون على « عنابر » نومهم ونحو ذلك .

مجالس الإدارة

أرادت حكومة محمد على — تمشياً مع مظهر « الشورى » الذى أخذ به محمد على فى كل ما أنشأ من دواوين ومصالح — أن تلقى بعض الأعباء على المدارس نفسها ، فكوّنت فى كل مدرسة من المدارس التجهيزية والخصوصية « مجلساً » أو « شورى داخلياً » مكوناً من مدير المدرسة ووكيلها وبعض الأساتذة وسكرتير من المدرسين ليس له حق التصويت . ويجدّد فى كل عام أعضاء المجلس من المدرسين ، حتى ينفسح المجال لمدرسى المدرسة جميعاً للاشتراك فى أعمال المجلس . وعلى مجلس الإدارة هذا — وكان يدعى « شورى المدرسة الداخلى » — واجب الإشراف على الدراسة والنظام بالمدرسة : فهو الذى يضع اللائحة الداخلية للمدرسة ، وبها تعين واجبات الناظر والمدرسين والخدم وأوقات العمل والراحة والغذاء للتلاميذ ، وهو الذى يعدّ من وقت لآخر بياناً بالدروس ، أو بعبارة أصح بالكتب الواجب قراءتها ،

مسترشداً فى ذلك بالخطة الدراسية الواردة بقانون المدرسة . ويجتمع «شورى المدرسة» مرة فى كل شهر ، ويرفع قراراته وتقريراً عن سير الدراسة إلى شورى المدارس . وجملة القول إنه يشرف على الشئون «الفنية» و«الإدارية» بالمدرسة . ولا يُفصل طالب إلا بقرار منه ، ولا يكون ذلك إلا بعد استدعاء الطالب المذنب والاستماع إلى دفاعه ، على أن يصدّق شورى المدارس على قرار الفصل . والراجح أن مجالس الإدارة أبطلت فى السنين الأخيرة من عصر محمد على ، وخاصة بعد أن غلب العنصر المصرى فى التدريس والنظارة ونُظمت فروع ديوان المدارس . فدفاتر ديوان المدارس العربية فى تلك السنين لا تشير إليها ، وإن كانت تشير — فى أكثر من موضع — إلى اجتماعات من ناظر المدرسة ومدرسيها ومعاون من الديوان لترتيب دروس أو تحقيق قضايا أو غير ذلك من شئون المدرسة .

موظفو ومستخدمو مكاتب المبتديان

لم تكن مكاتب المبتديان قبل تنظيمها سواء من حيث عدد موظفيها ومستخدميها : فى بعض المكاتب كان يعين مساعد للناظر ، وفى بعضها الآخر كان يكتفى بالناظر فقط ، وكان فى بعضها ثلاثة معلمين وفى بعضها الآخر معلمان ، وهكذا . فلما أنشىء شورى المدارس ووضعت اللوائح عُين لكل مكتب الموظفون والمستخدمون الآتى بيانهم : (١)

(١) هذا البيان مستخلص مما نصت عليه المواد ١١ ، ١٢ ، ١٣ من قانون التعليم الابتدائى (انظر الملحق) ، ومما جاء بدفتر ٢٠٠٣ (مدارس ترکى) جلسة شورى المدارس فى ١٣ جمادثان ١٢٥٢

الموظف	مرتبه	تعيينه[1]	الموظف	مرتبه	تعيينه
	ص				
الناظر	١٠٠	ملازم	غسال	١٥	جراية
الباشخوجة	٧٥	ملازم	»	١٥	»
معلم	٤٠	نفر	سقاء	١٥	»
»	٤٠	»	»	١٥	»
كاتب	٦٠	»	طباخ	٢٥	»
وكيل خرج أو وكيلارجى	٢٥	جراية	طبلجى (سفرجى)	١٥	»
فراش	١٥	»	حلاق	٣٠	»
»	١٥	»	ترزى	٣٠	»
			بواب	٢٠	»

نظار المكاتب

لما بدأت الحكومة بانشاء المكاتب فى سنة ١٨٣٣ لم تجد من المتعلمين عددا كافيا لتعيينهم نظاراً لمكاتبها، فكان «شيخ» القرية التى ينشأ بها المكتب يعين ناظرا عليه وله أن يختار مساعدا . وكان يُترك لمدير المديرية التابع لها المكتب تقدير المرتب الذى يمنح للشيخ الناظر . [2] وقد جعلت بعض المديريات راتبا لهؤلاء النظار مائة وخمسين قرشا . [3]

وكان كثير منهم — أو قل معظمهم — أميا لا يعرف القراءة والكتابة . فبذلك كانت الحكومة تضع مكاتب الأقاليم تحت سلطة رجال الادارة بها ، ينفذون فيها أهواءهم وقد يجدون فى «مهماتها» و «تعييناتها» مجالا كبيرا للكسب والعبث . ولسنا فى حاجة لنبين ما فى ذلك من وضع للأمور فى غير نصابها

(١) أى المواد الغذائية التى تصرف له .

(٢) دفتر ٥٨ (معية) رقم ٤١٧ إلى مدير الوسطانية فى ٦ رمضان ١٢٤٩

(٣) دفتر ٢٠١٠ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢٢ المحرم ١٢٥٢

ومن الخلط بين الأمور «الفنية» والأمور «الادارية» . على أن الحكومة كانت مضطرة إلى ذلك : إذ لم يكن لديها من المتعلمين ما يكفى لسدّ حاجة المدارس من المدرسين بله النظار . على أن وظيفة الناظر لم تكن بالمعنى «الفنى» الذى نفهمه منها الآن، بل كانت — قبل أى اعتبار — وظيفة «إدارية»: فمهمة «الناظر» رياسة الموظفين الكتابيين والاداريين : كالكاتب ووكيل الخرج والخدم ، والإشراف على غذاء المدرسة ونظافة أثاثها ، ونحو ذلك من الأمور (الادارية).

ولهذا أنشئت وظيفة «الباشخوجة» ليشرف على سير الدراسة من الوجهة «الفنية». على أن تلك الحال لم تدم طويلا : فقد أدركت الحكومة أن وجود هؤلاء النظار الأميين لا يتفق وما تبغيه لمكاتبها فى عهدها الجديد من تقدم ورقى . لذلك نصت المادة الحادية عشرة من قانون التعليم الابتدائى على أن يكون ناظر المكتب «ذا مهارة فى جميع الدروس التى تدرس بالمكتب بشرط أن يكون أستاذاً» . وبذلك دخل الناظر فى «السلك الفنى» بالمدرسة ، وأصبح «أستاذا» «يحذق» الدروس التى تدرس للتلاميذ «المبتدئين» .

بذلك فصل أولئك (النظار) الأوّلون ، وعين محلهم أساتذة من «علماء» الأزهر . ولا شك فى أنهم كانوا — على قلة جدواهم فى العلوم «الحديثة» كالحساب والجغرافيا والهندسة وغيرها — أكثر من «زملائهم» الذين سبقوهم علما وفضلا وخلقا .

رأى بعض المفتشين أن المرتب الذى كان يمنح للنظار الأوّلين — وقدره مائة وخمسون قرشاً — لا يكفى النظار «العلماء» الجــــدد ، : فطلب زيادة مرتباتهم.[1] ولكننا نرى فى البيان الذى أوردنا عن مرتبات موظفى المكاتب الابتدائية أن الحكومة أنقصت مرتبات النظار إلى مائة قرش فى الشهر .

---

(١) الوثيقة السابقة .

وفى عهد هؤلاء النظار « العلماء » نُظمت مكاتب المبتديان (١٨٣٩ — ١٨٣٧) : نُظمت دروسها وضُبطت أمورها الإدارية كصرف مرتبات التلاميذ وأدواتهم وأغذيتهم ، واشتدت العناية بالحالة الصحية لتلامذتها وأبنيتها ، ونحو ذلك مما ساعد المكاتب على السير فى طريق النظام والرقى . وقد ساهم النظار «العلماء» بنصيب كبير فى تلك النهضة ، وعاونوا المفتشين الذين كانوا « أيدى » شورى المدارس العاملة فى تنظيم التعليم الابتدائى فى مصر (وعيونه) فى الكشف عن مظاهر الضعف فى نواحيه المختلفة .

وقد أوضح قانون التعليم الابتدائى — الذى وضعه شورى المدارس وأشرنا إليه واقتبسنا منه فى مواضع عدة — وظائف الناظر : فهو يرأس خدم المدرسة ويشرف على إدارة المدرسة وضبط التلاميذ وتدبير أمور تعليمهم ، وعليه فى كل شهر أن يرفع إلى شورى المدارس « جرنالا » أى تقريراً عن حال المدرسة ، وفى حالة غيابه يقوم بعمله أحد المدرسين حتى يعود .

وظل هؤلاء النظار « العلماء » يقومون على «نظارة» المكاتب زهاء الخمس سنوات ، ثم رأى الديوان أن الشئون الصحية لا تلقى فى المكاتب ما هى جديرة به من عناية ، وأن تقسيم القطر مناطق للتفتيش الصحى لم يحقق ما يبتغيه من دقة الإشراف على صحة التلاميذ ونظافتهم ونظافة ما يقدم إليهم من غذاء وما يأوون إليه من بناء . ذلك لأن هؤلاء الأطباء لا يزورون هذه المكاتب إلا لماما ، ولا يمكثون بكل منها من الوقت ما يتيح لهم الفحص عن تلامذتها والإشراف على شئونهم الصحية .

وكان خريجو مدرسة الطب البشرى قد زادوا كثيراً عن ذى قبل ، فرأت الحكومة الاعتماد عليهم فى نظارة المكاتب : فعينت منهم «نظاراً» يقومون على إدارة المكاتب وعلاج تلامذتها والاشراف عليها من سائر نواحيها الصحية والادارية . وقد مكّن الحكومة من ذلك التغيير أن مكاتب الأقاليم

قد نقصت بعد « ترتيب ١٨٤١» إلى أربعة مكاتب . ولهذا تمكنت الحكومة من أن تُعينَ على رأس كل من هذه المكاتب ناظراً طبيبا .

ولا شك فى أن هؤلاء النظار الأطباء كانوا أفضل من عرفتهم « مكاتب المبتديان » : فهم قد درسوا بمكاتب الحكومة ثم بمدرستها التجهيزية ، ثم بمدرسة الطب ، وهم قد قضوا بها جميعاً سنوات لا تقل عن اثنتى عشرة سنة ، وهم لذلك من أشد الناس اتصالا بمدارس الحكومة وخبرة بأحوال هذه المكاتب التى نشأوا بها صبية وعادوا إليها نظاراً ، ومن أشد الناس شعوراً بالنواحى التى تحتاج منها إلى إصلاح وتقويم .

قلنا إن وظيفة الناظر والطبيب إدارة المكتب وعلاج التلامذة ، لهذا كان الديوان يختاره رجلا « كاملا مهاب السن يمكنه إدارة النظارة والمداولة بالمكتب » .[1] وكان شورى الأطباء — بما له من الرياسة على مدرسة الطب والاشراف على المصالح الطبية فى مصر — هو الذى « يرشح » النظار الأطباء للديوان . وكان لا يختارهم من المتخرجين الجدد فى مدرسة الطب ، بل من « الملازمين » الذين مارسوا العمل فى جهات أخرى . ففى الناحية « الادارية » كان على الناظر الطبيب « ضبط وربط » المكتب وتحقيق « الدعاوى » التى تنشأ بين موظفى المكتب أو تلامذته والمحافظة على أخلاق التلاميذ وجرد « كيلار » المكتب فى كل شهر ، وغير ذلك من الأمور الادارية .

أما فى الناحية « الطبية » فعليه أن يعالج التلاميذ بمستشفى المكتب أولًا ما يصيبهم المرض ، وعليه ألا يتوانى فى ذلك ولا يهمل ، « وإلا فما الفائدة من وجوده بالمكتب ؟ » ، حتى إذا اشتد المرض بتلميذ أو استعصى علاجه أو احتاج أحدهم إلى إجراء عملية بادر بارساله إلى القاهرة ، وعليه كذلك أن يفحص عن التلاميذ الجدد ، ولا يقبل منهم إلا من استوفى الشرائط المقررة

(١) دفتر ١ (مدارس عربى) ص ١١٦ رقم ١٩ إلى شورى الأطباء فى ٩ شوال ١٢٦٠

من سن وصحة فى الجسم ،وأن يفحص عن التلاميذ « السقط » ويبعث بهم إلى طبيب المديرية لإعادة الكشف عنهم ثم إلى العاصمة تمهيداً لفصلهم من المكتب . وهو معرَّض لغضب الديوان وعقابه يحلان به إن أهمل فى القيام بواجبه فى علاج التلاميذ : فكثيرا ما فُصِل نظار لهذا السبب ، بل وحل بهم عقاب بدنى : فقد ضرب أحدهم خمسمائة (كرباج) وفصل لأنه أهمل فى أداء واجباته .(١)

أما فى الناحية « التعليمية » فالناظر مسئول عن ترتيب التلاميذ فى الفرق الدراسية ، وهو يشترك مع المدرسين فى تحمل المسئولية عن نتائج امتحانات التلاميذ ، فعليه أن يداوم الإشراف على سير الدراسة بالمدرسة والتنبيه على المدرسين بالجدّ والاجتهاد .(٢)

على أن « مسئولية » الناظر فى هذه الناحية لم تكن لتعادل مسئولية « الباشخوجة » ، فهو المسئول الأول عن المستوى التعليمى بالمدرسة ونتائج التلاميذ .

وكان يرخص لناظر المكتب الطبيب بالاشتغال بصناعته فى المنطقة المجاورة لمكتبه ، فإذا تأخر أحد الموظفين الذين كان يعالجهم أو امتنع عن أداء « أتعابه » استعدى عليه الناظر ديوان المدارس حتى ينال حقه .(٣)

« باشخوجات » المكاتب

أما « الباشخوجة » فهو رئيس المدرسين : يشرف عليهم جميعا ويوجههم الوجهة الصالحة . وعليه تنظيم الدروس التى تدرس بالمكتب ، فهو « صلة الوصل » بين الديوان ومدرسى المدرسة أو المكتب . ولما كان مفروضا

(١) دفتر ١ (مدارس عربى) ص١١٦ رقم ١٥ الى شورى الأطباء فى ٢٧ رمضان ١٢٦٠
(٢) دفتر ٨ (مدارس عربى) ص ٣٣٨ رقم ٢٠ الى مكتب الجيزة فى ٣ ذى القعدة ١٢٦٠
(٣) دفتر ١٣ (مدارس عربى) ص٢٨٨٢ الى مدرسة البيادة فى ٢٦ شعبان ١٢٦١

أن يكون أكفأ من بالمدرسة أو المكتب من المدرسين كان يعهد إليه التدريس للفرق النهائية.[١] وقد بلغ من رياسته للمدرسين أن كان له أن يطلب فصل المدرس الذى لا يرى فيه الجدّ والإخلاص فى العمل. وللديوان أن يجيبه إلى طلبه، أو يرجىء البتّ فيه حتى تظهر (نتيجة) تلاميذ المدرس فى الامتحان.[٢] وله كذلك أن «يرشح» المدرسين للديوان توطئة لتعيينهم.[٣] لذلك كان «الباشخوجة» أول مسئول عن نتائج الامتحانات، وكان يعرّض للعقاب إن ساءت تلك النتائج.[٤]

وعلى «باشخوجة» المكتب أيضا واجبات إدارية: فعليه أن يحضر صرف غذاء التلاميذ صباح كل يوم مع ناظر المكتب ووكيل خرجه.[٥]

وكان «الباشخوجة» يتناول راتبا أقل مما كان يتناوله ناظر المكتب، وإن تساوى الاثنان فى مقدار «التعيين» الذى يصرف لكل منهما.

معلمو المكاتب

جاء فى تقارير تنظيم مكاتب الأقاليم التى نقلنا منها البيان الذى أثبتنا فى صدر حديثنا عن موظفى المكاتب ومستخدميها أن بكل مكتب — عدا الناظر و«الباشخوجة» — معلمين، يتناول كل منهما فى الشهر أربعين قرشا و(تعيين نفر)، ثم أضيف إليهما فى السنين الأخيرة من عصر محمد على معلم ثالث، فأصبح للمكتب ثلاثة معلمين: «خوجة أول» و«خوجة ثان» و«خوجة ثالث».[٦]

(١) دفتر ٢٠٠٦ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢ جماد أول ١٢٥٢

(٢) دفتر ١٣ (مدارس عربى) س ٢٧٢٩ رقم ١١٢ الى مكتب ميت غمر فى ١٤ رجب ١٢٦١

(٣) دفتر ٨ (مدارس عربى) س ٣٥٢ رقم ٣٣ إلى مدرسة المبتديان فى ٢١ شوال ١٢٦٠

(٤) دفتر ٨ (مدارس عربى) س ٣٣٨ رقم ٢٠ إلى مكتب الجيزة فى ٣ ذى القعدة ١٢٦٠ بشأن حبس «باشخوجة» أى منعه من الخروج من المكتب شهراً مع خصم مرتبه فى خلاله.

(٥) دفتر ٢٨ (مدارس عربى) س ١١٠٤ رقم ٩٣ الى مكتب أبو زعبل فى ٤ ربيع أول ١٢٦٢

(٦) دفتر ٢٩ (مدارس عربى) س ١٥٠٤ رقم ٦٨ الى مكتب أسيوط فى ٢٤ جماد ثان ١٢٦٢

ولم يكن المدرسون فى مكاتب المبتديان مدرسى «مواد» : هذا للغة العربية وذاك للحساب وذلك للقرآن ، بل كانوا مدرسى «فرق» . [١] فالمدرس «الأول» يدرس للفرقة الأولى (النهائية) . والمدرس «الثانى» للفرقة الثانية ، والمدرس «الثالث» للفرقة الثالثة ، و «الباشخوجة» يرأسهم جميعا . ذلك بأن مواد الدراسة بالمكاتب لم تكن من العمق والتباين بحيث تحتاج كل مادة منها إلى مدرس خاص : فحفظ القرآن يتصل بأقوى الأسباب بدراسة اللغة العربية والدين ، ودراسة الحساب لا تتعدّى قواعده الأربع . ويرى كثيرون أن الدراسة الابتدائية لا يعوزها مدرسون مختصون فى مواد مختلفة بقدر ما يعوزها مدرسون يقومون على تعليم التلاميذ وتهذيبهم وقضاء أكبر مايمكن من الوقت المدرسى بينهم . فإذا كان هذا صحيحا — وهو لاشك كذلك — فتكون (مدارس) محمد على فى النصف الأول من القرن الماضى قد أخذت بناحية طيبة من نواحى التعليم المدرسى الحديث .

وكان ديوان المدارس يرى أن يكون لكل أربعين تلميذا من المبتدئين مدرس واحد ، لذلك كان لكل مكتب — وتلاميذه جميعا مائة وعشرون — ثلاثة مدرسين .

أما فى «المكاتب المستجدة على الطرز الجديد وحين يجرى التعليم فيها على الطريقة المستجدة» — وهى طريقة لانكستر كما شرحنا — [٢] فلكل مائة تلميذ من المبتدئين فيها مدرس واحد . [٣]

ومن موظفى المكتب أيضا «خطاط» ، وكان لايقيم بالمكتب سوى ساعتين من كل يوم يعلم تلامذته الخط ، ثم يظل بلا عمل بقية النهار . ثم رأى

---

(١) دفتر ٩ (مدارس عربى) ص ٦٦٢ رقم ٣٢ إلى مكتب بوش فى ١٨ ذى الحجة ١٢٦٠

(٢) انظر الكتاب : ص ١٩٩ — ٢١٠

(٣) دفتر ٩٣ (مدارس عربى) ص ١٠٦ رقم ٩ إلى المكتب العالى فى ١٨ شوال ١٢٦٣

الديوان أن يبقى بمعية « الباشخوجة » بقية النهار بعد الانتهاء من دروس الخط ليعيد له دروسه .[١]

وكان « الخوجة الأول » — وهو غير « الباشخوجة » كما ذكرنا — يتساوى مع ناظر المكتب و« الباشخوجة » فى « بدل التعيين » الذى يصرف لهما ، وهو « تعيين ملازم » . أما « تعيين » المدرسين الآخرين فهو « تعيين نفر » .[٢]

ولم يكن لمكاتب المبتديان (مجالس إدارة) كالمدرسة التجهيزية والمدارس الخصوصية يساهم فيها المدرسون بنصيب فى إدارة المدرسة ووضع المناهج . على أن مظهر « الشورى » كان موجوداً فى المكاتب كذلك : فالناظر يجمع المدرسين من وقت لآخر ، ويعرض عليهم شؤون المكتب الهامة كضبط التلاميذ وتحقيق الدعاوى وتوزيع التلاميذ على الفرق وترتيب الدروس.[٣] فالمدرسون إذن كان لهم رأى فى إدارة المكتب ووضع برامج الدروس . وكان المدرسون مسئولين أمام ديوان المدارس عن نتائج امتحانات تلامذتهم ، فهذه النتائج هى المقياس لعمل المدرسين ، وبمقتضاها كانوا يرقون وتزداد مرتباتهم أو يحل بهم العقاب .

وكان يفضل فى تعيينهم أن يكونوا من أبناء المديرية التى بها المكتب .[٤] ولكن هذا التفضيل أهمل أخيراً . وكانت مدرسة الألسن هى التى ترشح المدرسين للديوان . وكان الديوان حريصاً على أن يكون مدرسو المكاتب على جانب كبير من العلم والخلق ، فكان يبعث بالمدرس قبل تعيينه إلى مدرسة الألسن فتمتحنه ، حتى إذا جاز الامتحان صدر الأمر بتعيينه .[٥]

(١) دفتر ٨ (مدارس عربى) ص ٣٣٧ رقم ١٩ الى مكتب بوش فى ٣ ذى القعدة ١٢٦٠

(٢) دفتر ٢٨ (مدارس عربى) ص ١٠٩٥ رقم ٤٥ الى مكتب أسيوط فى ٧ ربيع الأول ١٢٦٢
وكان بدل تعيين الملازم ٤٢ قرشا و ١٦ بارة ، وفى شهر رمضان ٥٧ قرشا و ٢٦ بارة .

(٣) دفتر ١٢ (مدارس عربى) ص ٢٤٩ رقم ١٠٧ إلى مكتب أبى زعبل فى غرة رجب ١٢٦١

(٤) دفتر ٥٨ (معية) رقم ٦٠٠ إلى عباس باشا فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٤٩

(٥) دفتر ١٣ (مدارس عربى) ص ٢٧٧٨ رقم ١١٨ إلى مكتب أبى زعبل فى ٢٤ رجب ١٢٦١

وبلغ من حرص الديوان على سمو أخلاق المدرسين أن كان يرجىء تعيين بعضهم نهائياً فى وظائفهم حتى « تجرَّب » أخلاقهم مدة من الزمن فى المدرسة التى يعينون بها . [١]

ولم تكن هناك قاعدة ثابتة لتعيين المدرسين : فبعضهم كان يختار من بين تلاميذ المدرسة التجهيزية لتدريس الخط ، [٢] وبعضهم الآخر من بين تلامذة المهندسخانة المفصولين لتدريس الحساب ، وخاصة لمدرسة المبتديان ولمكاتب « الملة » التى شرع فى إنشائها أخيراً . [٣] على أن معظمهم كان من الفقهاء الذين قضوا شطراً من حياتهم بالأزهر أو درسوا على شيخ من شيوخ الأزهر ، وكانوا يدرسون القرآن للتلامذة المبتدئين ، ويقرأون معهم كتب الأجرومية والسنوسية وما إليها .

لذلك كانت مرتباتهم ضئيلة ، فهى لا تزيد سوى بضعة قروش على مرتبات الحلاق والخياط . وقد علل مدرس مرة سوء نتيجة امتحان تلامذته « بضيق المعاش » ، فلم يقبل منه الديوان وجازاه بحبسه فى المكتب شهراً كاملا ليلا ونهاراً . [٤]

وقد حفزت قلة مرتبات معلمى « المبتديان » رفاعة بك رافع مدير مدرسة الألسن إلى أن يطلب إلى الديوان فى تقريره عن الامتحانات فى أحد الأعوام رفع مرتبات المدرسين جميعاً « تشويقا لهم » ، لكن الديوان لم يجبه إلى ما طلب ، محتجاً بأن منهم من جوزى لإهماله . [٥]

وكان المعلم الذى يغيب فى إجازة خاصة يخصم منه نصف راتبه خلالها ،

---

(١) دفتر ٩٤ (مدارس عربى) ص٦٢٧ رقم ٥٦ الى مدرسة المبتديان فى ١٤ ذى القعدة ١٢٦٣

(٢) دفتر ١٢ (مدارس عربى) ص٢٣٩٢ رقم ٩٤ إلى مكتب أبى زعبل فى ٤ جماد ثان ١٢٦١

(٣) دفتر ٩٣ (مدارس عربى) ص ٩٧ رقم ١٦ إلى مدرسة المبتديان فى ١٨ شوال ١٢٦٣

(٤) دفتر ٩٣ (مدارس عربى) ص ٢٢ رقم ٧ إلى مكتب أبى زعبل فى ٢٣ شوال ١٢٦٣

(٥) دفتر ٩٣ (مدارس عربى) ص١٢٥ رقم ٥٥ إلى مدرسة الألسن فى ٢٣ شوال ١٢٦٣

على أن يحضر من ينوب عنه فى التدريس للتلاميذ حتى يعود .[١]

أما مدرسة المبتديان بالقاهرة فكان لها — لمركزها الممتاز وكثرة عدد تلامذتها — عدد من الموظفين أكثر مما كان لمكاتب الأقاليم : فلها مساعد أو معاون ، أى وكيل المدرسة « يتولى الإشراف على المهمات والملابس واللوازم الأخرى للطلبة،خصوصاً وأن هذه المدرسة يتقدم إليها على الدوام تلاميذ جدد بخلاف المدارس الأخرى ، فيحتاج الحال إلى إحضار وإعداد المهمات والأدوات التى تلزمهم » .[٢] كما كان لها ضباط ثلاثة أو أربعة لشئون « الضبط والربط » ، ذلك لأن الديوان قرر « أن يكون لكل مائة من تلاميذ المدرسة ضابط » .[٣] وكان بها — عدا هؤلاء — عدد كبير من مدرسى اللغة العربية والقرآن واللغة التركية التى كانت تدرس لفريق من تلامذة المدرسة ، وعدد كبير آخر من الخدم يتناسب وعدد التلاميذ .

ولم يكن ناظرها شيخاً أو طبيبا، بل كان « أفندياً » درس بالمدارس الحديثة وتقلب فى وظائف تعليمية شتى . وظل على رأس المدرسة مدة طويلة .

موظفو المدارس التجهيزية والخصوصية

أما المدارس التجهيزية والخصوصية فكان لها — لتعقّد برامجها وتعدُّد المواد التى تدرس بها ولكثرة تلامذتها — عدد كبير من الموظفين « الفنيين » والموظفين « الإداريين » والخدم . وقد نصت لوائح التعليم التجهيزى على أن يكون لكل مدرسة من المدرستين التجهيزيتين مدير ووكيل وثلاثة من رؤساء الفرق واثنا عشر مدرسا للغات العربية والتركية والفارسية ومدرس للتاريخ

(١) دفتر ٩ (مدارس عربى) ص ٦٢٢ إلى مكتب بوش فى غرة ذى الحجة ١٢٦٠

(٢) دفتر ٢٢ (مدارس عربى) ص ٩٦٧ رقم ٥٠٤ إلى الدايرة السرعسكرية فى ١٤ ربيع الأول ١٢٦٢

(٣) دفتر ٢٠٦٩ (مدارس تركى) ص ٤٧ رقم ١٨ من عبدالقادر أفندى فى ١٤ ربيع الأول ١٢٦٢

وآخر للجغرافيا وثلاثة للرسم ومدرسان لخط الثلث ومثلهما لخط الرقعة .

ووظيفة المدير الإشراف على سير الدراسة بالمدرسة ، وعليه أن يتصل فى كل ما يخص المدرسة بشورى المدارس . وعلى رؤساء الفرق الإشراف على المدرسين وإدارة المدرســـة ، ويكون المدرسون على اتصال دائم بهم ومنهم يتلقون التعليمات ، فهم حلقة الاتصال بين مدير المدرسة ومدرسيها ، وكانوا يؤدون الأعمال التى يؤديها « باشخوجات » المكاتب . وعلى المدرسين الإشراف على التلاميذ فى غير أوقات الدراسة ، فهم يصحبونهم فى نزهاتهم ويفتشون عن غرف نومهم ، ويكون المدرسون تحت رئاسة مدير المدرسة ووكيلها .

أما الموظفون « الإداريون » ، فهم ناظر وكاتب للحسابات وكاتب آخر ووكيل خرج (أو كيلارجى) وأمين لمخزن الملابس وآخر لمهمات المدارس الأخرى وطباخان ومســاعدٌ لهما ووزّان (قبانى) وعدد من الخياطين والحذائين والغسالين والحلاقين والسقائين والخدم والنافخين فى الأبواق والضاربين على الطبل .

وبالمدرسة التجهيزية مستشفى ومكتب طبى يتألف من طبيب ومساعد ووكيل للمساعد وصيدلى ومساعدين له وحلاق وناظر وكاتب وملاحظ وخدم للمستشفى . (١)

هذا ما نصت عليه اللوائح ، وإن كان الواقع يخالفها إلى درجة بعيـــدة ، لأسباب منها أن تلاميذ المدرسة التجهيزية لم يبلغوا العدد الذى نص عليه قانون التعليم التجهيزى وهو الألف والخمسمائة تلميذ . وكذلك لم تتم فرقهـا الدراسية الأربع إلا بعد إنشائها بسنين عدة : ففى سنة ١٢٥٥ (١٨٣٩) كان بالمدرسة التجهيزية بقصر العينى تسعمائة تلميذ موزعين على ثلاث فرق دراسية.

(١) Bowring, op. cit. p. 127 — 128.

وكان أغلب مدرسى اللغات بها أول تنظيمها من الترك، ويتقاضى كل منهم خمسمائة قرش فى الشهر، وكانوا أربعة، فرؤى أن يقتصر على اثنين منهم ينحصر عملهما فى تعليم التلاميذ اللغة التركية لتلاميذ الفرقتين الأولى والثانية. وفى مقابل ذلك يزداد عدد معلمى اللغة العربية من أربعة إلى تسعة، حتى يكون لكل مائة تلميذ معلم للغة العربية، ويتقاضى مائتى قرش فى الشهر. ثم عين عليهم بعد ذلك «باشخوجة» من علماء الأزهر، وقد ظل بالمدرسة وقتاً طويلا. (١) ولم يكن بالمدرسة سوى مدرس واحد للجغرافيا، فعين مدرس آخر. كما عهد إلى ضابطين من ضباط المدرسة يعرفان الجغرافيا بتدريسها للتلاميذ. وكان الضباط يتولون كذلك تدريس الحساب والهندسة لهم، «إلا أن قلة حذق الضباط ووفرة أشغالهم بالمدرسة من ضبط وربط تستوجبان تعيين معلمين خاصين بتدريس علوم الرياضة». وكان أن تخرج فى مدرسة الهندسة فى ذلك العام تلاميذ أكفاء، أوصت مدرستهم بتعيين بعضهم مدرسين للحساب والهندسة والجبر للتلاميذ الذين يتعلمونها بالمدرسة التجهيزية، ويبلغون نحو المائتى تلميذ، فعين منهم أربعة، حتى يكون لكل خمسين تلميذاً معلم واحد لعلوم الرياضة. (٢)

وطبيعى ألا يظل عدد المدرسين بالمدرسة التجهيزية كما ذكرنا، بل تغير بعد ذلك تبعا لما أصاب عدد التلاميذ وبرامج الدراسة من تغيير.

وكان مدير المدرسة التجهيزية يقوم أحيانا بتدريس المواد التى تخصص لها: فقد ذكر على مبارك (باشا) التلميذ بهذه المدرسة أن رأفت بك — مدير المدرسة حينما كانت بأبى زعبل — كان يدرس للتلاميذ الهندسة والجبر، وأنهم قد أفادوا من دروسه لهم فائدة كبرى. (٣)

أما المدارس الخصوصية فكان مديروها فى عهدها الأول من الأجانب،

---

(١) دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركى) ص ٦٣ رقم ٢٠٣٦ إلى شورى المعاونة فى ٢٨ شوال ١٢٥٥

(٢) دفتر ٢٠٥٨ (مدارس تركى) ص ٩ رقم ١٣١٠ إلى رأفت أفندى فى ١٣ شوال ١٢٥٥

(٣) على باشا مبارك: الخطط التوفيقية م ٣ ج ٩ ص ٣٨

عدا مدرسة الألسن التى رأسها مصرى منذ افتتاحها . ثم شرعت الحكومة تستغنى عن المدرسين الأجانب وتحل محلهم من المصريين أو (المتمصرين) الذين درسوا بأوربا ، والذين تمرسوا فى التدريس زمناً طويلا ، حتى إذا انتهى عصر محمد على كان مديرو المدارس الخصوصية جميعاً من المصريين . سوى مدرسة المهندسخانة التى ظل «مسيو لامبير» على إدارتها إلى نهاية العصر .

ويحسن بنا أن لا نخلط بين « مدير » المدرسة و « ناظرها » ، وخاصة فى الوقت الذى نظمت فيه المدارس أول مرة (١٨٣٦ — ١٨٣٧) : فالمدير هو (الرئيس العام) للمدرسة ، وعليه قبل كل شيء الإشراف «الفنى» ، فهو رأس المدرسين ، وهو المسئول عن سير الدراسة بالمدرسة وتقسيم التلاميذ إلى الفرق وترتيب الدروس . أما «ناظر» المدرسة فهو الرئيس «الادارى» للمدرسة ، إذ يرأس الكتبة والخدم وينظر فى نظافة التلاميذ وغرف الدراسة وأماكن النوم ، ويشرف على إمداد المدرسة بما تحتاج إليه من أدوات وعلى طهى الطعام . . . الخ . وبوجه عام عليه «ألا يتدخل فى الشئون التعليمية بالمدرسة» .[١] ولكن هذا النظام — نظام التفريق فى المدرسة بين رئاسة الشئون الفنية ورئاسة الشئون الإدارية — ألغى بعد ذلك ، وخاصة بعد أن أصبح مديرو المدارس من المصريين ، فأصبحوا يديرون المدرسة فى جميع شئونها .

أما مدرسو المدارس الخصوصية من الأجانب فكانت الحكومة تفضل امتحان المتقدمين إليها منهم ، حتى تطمئن إلى علمهم وكفايتهم للتدريس .[٢] وما لبثت الحكومة أن راحت تستغنى عن المدرسين الأجانب وتحل

(١) انظر لائحة وظائف « ناظر » مدرسة الطب البشرى — دفتر ٢٠١١ (مدارس تركى) ص ٧٢ قرار شورى المدارس فى ١٨ المحرم ١٢٥٣

(٢) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢١ ذى القعدة ١٢٥٢ — عن امتحان مدرسة الألسن : امتحان مدرسى اللغة الفرنسية الفرنسيين و Clot, Compte rendu . . . p. 50 - 54.

محلهم من أهل البلاد الذين أوفدتهم إلى أوربا ، وإن بقيت عناصر لا يمكن الاستغناء عنها كمدرسى اللغات الأجانب بمدرسة الألسن : أن كانوا أكثر تمكنا من لغاتهم وأقدر على تدريسها ، لما تحويه اللغات الأجنبية من مصطلحات قد لا يحذقها سواهم . (١)

وكان الأجانب من النظار والمدرسين يعينون بعقود بينهم وبين الحكومة المصرية ، ينصُّ فيها على مرتبهم ومدة خدمتهم . ومنهم من يرقى ويمنح رتبا ، وفى هذه الحالة يبطل العقد ويصبح موظفاً مصرياً ليس له قبل الحكومة من الحقوق إلا ما لأهل البلاد من الموظفين . (٢)

وفى السنين الأخيرة من عصر محمد على كان مدرسو المدارس الخصوصية جميعاً — على وجه التقريب — من المصريين الذين تلقوا العلم بالبلاد ، ومنهم من أتم دراسته بأوربا : فمدرسو مدرسة الطب البشرى كانوا من الأطباء المتخرجين فى المدرسة ، ومدرسة المهندسخانة من التلامذة القدامى بها ، وكذلك مدرسة الألسن . ذلك لأن هذه المدارس كانت تنتقى المتفوقين من تلامذتها وتعينهم بها معيدين ثم ترقى بهم فى سلك هيئة التدريس . وهو نظام طيب ، قصد به إمداد المدارس بنخبة من المدرسين المصريين المتفوقين ، فان المعيد كان بعد تعيينه يظل يدرس بالمدرسة التى تخرج فيها والتى عين معيداً بها ، على يدى أستاذ يلحق به ، فهو يعيد له دروسه التى يلقيها على تلامذته ويشرح لهم ما غمض منها ، ثم يعود إليه ليتلقى عنه ما لم ينفسح له وقت التلمذة من الدروس . وفى بعض المدارس كان المدرسون يلقون دروسهم على

(١) دفتر ٥٢ (مدارس عربى) ص ٩ ٢٣٤ رقم ٢٢٥ إلى المبة فى ٢٠ رمضان ١٢٦٣

(٢) لما استقال مسيو بيرون مدير مدرسة الطب البشرى طلب مبلغا يعود به إلى فرنسا طبقا للعقد المبرم بينه وبين الحكومة ، فرفض الديوان طلبه محتجا بأن هذا العقد « فقد كونه صار صاحب رتبة وترقى » — دفتر ٤٣ (مدارس عربى) ص ١٨٨ رقم ١٦ الى شورى الأطباء فى ٢٧ شوال ١٢٦٢

المعيدين فى شطر من النهار، ثم يلقيها المعيدون بدورهم على التلاميذ فى شطر آخر منه. [١] فالمعيدون هم « صلة الوصل » بين المدرس والتلاميذ، وكانوا يجلسون مع التلاميذ وقت الدراسة ويراقبونهم كذلك فى أوقات استذكارهم، ويقيّدون المهملين منهم ويرفعون أسماءهم إلى الأساتذة. [٢] حتى إذا ارتقى المعيد وأصبح مدرساً لم يهمل درسه، بل كان يستزيد من العلوم التى درسها بالمدرسة والتى يقوم بتدريسها للتـــلاميذ، [٣] ويدرس مواد أخرى لم يكن درسها وخاصة اللغة الفرنسية، حتى يتمكن من قراءة الكتب الغربية ويطلع على ما يستجد منها فى العلوم التى يدرسها، ويكون بذلك على اتصال مستمر بالبحوث العلمية فى أحدث تطوراتها. [٤]

حتى إذا قضى المعيد أو المدرس زمناً طويلا بالمدرسة يدرس للتلاميذ ويستزيد من العلم، أمكن الاطمئنان إلى (استقلاله) بالتدريس للتلاميذ. وبهذا (تشرف) المدرسة على إعداد أساتذتها، وتكون مطمئنة إلى إعدادهم على ماتبغى بتوجيههم وجهة التخصص التى تراها، ويتيسر لها بذلك الاستغناء عن خدمات الأساتذة الأجانب.

ولم تكن وظائف المعيدين مقصورة على المدارس الخصوصية، بل كان من تلاميذ مدرسة المبتديان المتفوقين فى مادة من يعين معيداً لدروس هذه المادة، وكان يمنح نصف المرتب الذى يمنحه المعيد بالمدارس الأخرى. [٥] وكذلك

---

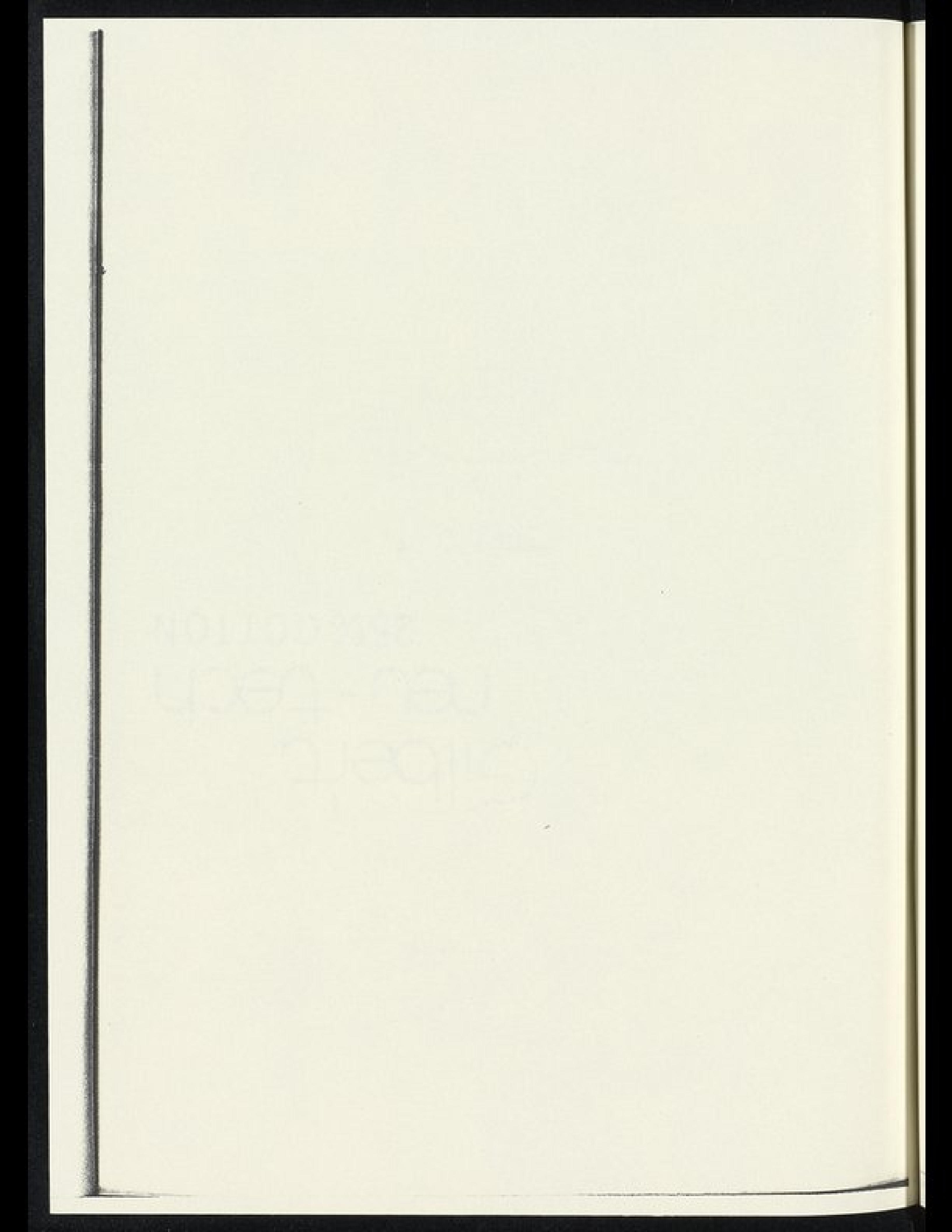
(١) دفتر ٢٠١٥ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٦ جماد ثان ١٢٥٢
(٢) انظر لائحة النظام الداخلى لمدرسة المهندسخانة — دفتر ٢٠١٠ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٧ المحرم ١٢٥٢
(٣) دفتر ٢٧ (مدارس عربى) ص ٦٥٨ إلى مدرسة الطوبجية فى ٥ المحرم ١٢٦٢
(٤) دفتر ١٠ (مدارس عربى) ص ١٠٦٠ من الديوان إلى خزينة المدارس فى ١٢ المحرم ١٢٦١
(٥) دفتر ٢٠٩٦ (مدارس تركى) ص ١٦٢ رقم ٥٨٨ الى كامل بك فى ٢١ ذى القعدة ١٢٦٠

كان يعين المعيدون بالمدرسة التجهيزية . [١] وكان المعيـــدون فى المدارس الخصوصية والمعيدات فى مدرسة الولادة طبقتين : معيدين ثانين ومعيدين أولين . [٢] والمعيدون «لم يخرجوا من زمرة التلاميذ» . [٣] وكانوا يمنحون لذلك ستين قرشاً فى الشهر و«جراية» تلميذ . [٤]

(١) دفتر ١٠ (مدارس عربى) ص ١٠٠٥ رقم ٢٠٣ فى ٧ المحرم ١٢٦١
(٢) دفتر ٢٠٨١ (مدارس تركى) ص ١١٥ رقم ١٧٣٩ الى مدرسة الطب البيطرى فى ٤ ذى الحجة ١٢٥٨
(٣) دفتر ١١ (مدارس عربى) ص٤٠٧٤ الى مدرسة الطوبجية فى ٢٦ ربيع الثانى ١٢٦١
(٤) دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركى) ص٦٣ رقم ٢٠٣٦ الى شورى المعاونة فى ٢٨ شوال ١٢٥٩

الكتاب السادس

على ضوء النقد



الفصل الأول

بين التعليم « القديم » والتعليم « الحديث »

الآن وقد انتهينا من بحث التعليم « الحديث » بمعاهده ونظمه الدراسية والإدارية ، وفصَّلنا الحديث عن حياة التلاميذ وشئونهم الصحية والمشرفين على تعليمهم ، نعود كرَّة إلى الوراء لنرى النوع « الآخر » من التعليم : وهو التعليم الذى أطلقنا عليه « القديم » ، باعتباره سابقا للتعليم الذى دخل مصر أوَّل مرة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر وظل بها إلى الوقت الحاضر : وهو التعليم « الحديث » ، ولنرى كيف تمكن التعليم « القديم » من الحياة فى عصر محمد على وإلى عصرنا هذا .

كان التعليم « القديم » فى مرحلتين اثنتين : [1] الكتاتيب أو مرحلة الدراسة الأولية ، والأزهر وبعض المساجد الأخرى أو مرحلة الدراسة العالية. وعلى الرغم من أن العلاقة بين هاتين المرحلتين لم تكن معيَّنة فى قوانين أو لوائح ، إلا أنها كانت قائمة : فالطفل الذى يبغى أهله أن يلحقوه فى شبابه بالأزهر يبعثون به إلى « فقيه » القرية ، ليأخذه — فى كتَّابه أو مكتبه — بحفظ القرآن الكريم ، وهو المادة الأساسية للدراسة الأوَّلية فى المكتب ، أو هو وحده منهاج الدراسة به . وقد يتعلم الصبى إلى جانب القرآن القراءة والكتابة ، ولكنه يتعلمهما كوسيلتين لحفظ القرآن . وقد يكتفى الصبى بالقرآن ويهمل القراءة والكتابة . ذلك بأن هذه الكتاتيب لم تكن على درجة واحدة من الكفاية والمستوى : فبعضها لا يعدو حجرة ضيقة فى بعض البيوت

---

(١) انظر الفصل الأول من الكتاب الأول : التعليم قبل محمد على

أو (الزوايا) ، ويقوم على شأنها « فقها. » لم يتزودوا من العلم إلا بحفظ القرآن ، فهم يقتصرون على « تحفيظه » للأطفال المترددين عليهم .

أما فى القرى الكبيرة أو المدن فقد يقوم المكتب فى بناء مستقل ، وقد يتردد عليه تلاميذ كثيرون من أبناء القرية أو المدينة والقرى المجاورة ، وقد يقوم على تعليمهم « فقها. » أنفقوا صدرا من شبابهم فى الأزهر ، فهم يحفظون القرآن وقد يجيدون القراءة والكتابة ، وهم يأخذون تلامذتهم بحفظ القرآن ويعلمونهم القراءة والكتابة .

حتى إذا أصاب التلميذ من تلك الدراسة الأولية ما يراه أهله وشيخه كافيا ، بعثوا به إلى الأزهر ينفق حول أعمدته سنوات طويلة من حياته ، يتلقى فيها على شيوخه اللغة والفقه والنحو والصرف والكلام والحديث . وقد يكتفى له أهله بالدراسة الأولية التى أصابها فى القرية ، ويعودون به إلى ما يحترفون من زراعة أو صناعة ، حتى إذا تقدم به العمر وأهمل قراءة القرآن والكتابة محيتا من صدره وعاد كما بدأ أميا .

ومهما يكن من شىء فقد كان هذا التعليم « القديم » أو التعليم « الدينى » هو وحده الذى عرفه المصريون إلى السنوات الأولى من النصف الأول من القرن التاسع عشر . وكان الأزهر وحده مصدر التعليم والثقافة فى البلاد ومنه تستمد البلاد مقومات التفكير فيها . وكان له من قدمه فى التاريخ وتغلغله فى المجتمع المصرى ما مكنه من الحياة وسط ما انتاب البلاد من عواصف الفتن . هذا إلى « اطمئنان » المصريين إلى التعليم الذى يلقى فى رحابه وحول أعمدته ، وعدم ظهور « الحاجة » إلى التعديل فيه تعديلا أساسيا يمهد لحاجات جديدة ، أن كانت شئون الحكم وما يتبعها من ألوان الوظائف قاصرة على غير أبناء البلاد ، كل أولئك قد أعانه على البقاء ومكن له فى حياة الأمة المصرية . لهذا عكف الأزهر على تقاليده القديمة التى اكتسبها منذ أجيال يستمد منها قوة

تعينه على الحياة ، ورأى فى احتفاظه بتلك التقاليد مصدرا للنشاط والقوة .
وبذلك وقف الأزهر حارساً «للتقاليد» القائمة على الثقافة الدينية، وأنتج لذلك
عقلية خاصة كان لها أكبر الأثر فى صبغ التفكير والثقافة صبغة خاصة .

حتى إذا بدأ محمد على يضع دعائم جديدة لنهضة اقتصادية وحربية جديدة
احتاج إلى طوائف من أهل البلاد تعينه على القيام على ما تتطلبه هذه النهضة
من أطباء وضباط ومهندسين وصناع . ولكن الأزهر لم يكن يعلّم الطب أو
الفنون الحربية أو الرياضية أو الصناعية . أدرك محمد على إذن أن من العبث
أن يتفقد أعوانه هؤلاء فى « أروقة » الأزهر وحول « أعمدته » : فقد كانت
الهوّة سحيقة بين ما يلقى فى الأزهر وما إليه وبين ما يتطلبه المجتمع المصرى
فى حاجاته « الجديدة » . فلم يكن أمام محمد على إلا أحد أمرين : إما أن يضع
من النظم ما يحوّل الأزهر والكتاتيب أو بعبارة أخرى التعليم « القديم »
كله إلى نحو يحقق أغراضه فى إعداد أهل البلاد لولاية شئونهم فى الادارة
والجيش والمصانع والمدارس والمستشفيات ، وإما أن يهمل الأزهر والكتاتيب
— معاهد التعليم القديم — وينشىء بجانبها مدارس للتعليم « الحديث » ، تعدّ التلاميذ
ليكونوا أعوانه فى حركة الإصلاح وفى القيام على ما شيّد من مؤسسات ونظم
اقتصادية وحربية . وكان المثال « الغربى » للتعليم واضحا أمام عينيه ، وكان هذا
« النوع » من التعليم هو وحده الذى يعدّ للحياة كما كان يحياها الناس فى تلك
الأيام . وكان — دون التعليم الدينى — أداة الحكومة فى إعداد من تحتاج إليه من
الموظفين . ولم يكن المثال « الغربى » فى التعليم هو وحده الذى جذب انتباه محمد على
واهتمامه كوسيلة لتحقيق أغراضه ، بل كان يجذب اهتمامه أيضاً ما بلغه الغرب
فى النظم الإدارية والاقتصادية والحربية . ففى الإدارة قسّمت البلاد أقاليم
ومديريات وأقساما ، ومن ورائها جميعاً إرادة الحاكم القوية . وفى الاقتصاد
استغلت مرافق النشاط جميعاً لخدمة الدولة ، فأصبح فى يدها الأرض

والمحصولات والمصانع والتجارة. وفى الحرب نظّمت الدولة جيشاً كبير العدد وبنت أسطولا قويا، وجهدت فى استغلال موارد البلاد للقيام على شئون هذا الجيش والأسطول.

لم يكن التعليم وحده إذن مظهراً للاتجاه نحو الحضارة الغربية والاقتباس منها، بل كان أحد هذه المظاهر. بل إن التعليم — عند حكومة محمد على وخاصة فى السنوات الأولى من اقتباسه — لم يكن غرضا فى ذاته تقوم به الحكومة لترقية الشعب والنهوض به، بل كان وسيلة أخذت بها الحكومة ليكون لها منه ما تبغى من أعوان يقومون على شئون «النهضات» الأخرى فى الإدارة والاقتصاد والحرب.

ومهما يكن من شىء، فقد ظهر لمحمد على أن التعليم فى الأزهر لا يمكن أن يحقق أغراضه من تخريج طوائف من أهل البلاد أو المتوطنين بها يعاونونه فيما يضع من نظم أو ينشىء من مؤسسات. كما ظهر له أن التعليم الغربى أو التعليم الذى عرفته أوربا فى عصره كان وحده الوسيلة لتحقيق أغراضه. وكان هذا وحده كافياً ليحمل محمد على على أن يحوّل وجهه عن الأزهر و«الكتاتيب»، وينشىء بجانبها «نظاما تعليميا» قائما بنفسه، مقتبساً من الغرب، وليس بينه وبين النظام التعليمى «القديم» إلا ما يكون بين نظامين يقومان جنبا إلى جنب ويتجاذبان تعليم نابتة البلاد.

هذا إلى أن تحويل الأزهر بتقاليده (الثقيلة) — إذا نزع إليه محمد على — كان لاشك مجهودا شاقا: فمواد الدراسة قاصرة على اللغة والفقه، وأساتذته يجهلون كل شىء عداهما، وقد لا يرتاحون إذا رأوا غيرهم يناظرهم بعلوم جديدة فى معهدهم القديم الذى نشأوا به جميعا، والذى يعدّون أنفسهم (حراسا) على تقاليده.

أما «الكتاتيب»، فقد كانت مشتتة فى طول البلاد وعرضها، وكانت

متغلغلة فى صميم الريف البعيد عن مقر الحكومة ، وكان تحويلها جميعا إلى أداة فى يد الحكومة تعينها — كمدارس للتعليم الأولى الإعدادى لما يليه من مراحل التعليم — على تحقيق أغراضها يقتضيها مالا طائلا ووقتا طويلا وجهداً ليس بالقليل ورجالا أكفاء تبثهم فى المدن والقرى .

ولم يكن التعليم وحده الذى يشغل الحكومة ويصيب منها عنايتها كلها ، بل كان هناك غيره من مرافق البلاد يشغل الحكومة ويتطلب منها طائل الجهد والنفقة : كالتنظيمات الإدارية والاقتصادية والحربية الجديدة . ولم يكن الزمن منفسحاً أمام محمد على ليحقق — مطمئناً وعلى مهل — إصلاحاته جميعاً ، بل كان محمد على يخشى ألا يتسع له الزمن لتحقيق ما يريد . كان يخشى أن تنتهى حياته والتغييرات التى أدخلها فى مصر لما يُتحْ لها الاستقرار والثبات ، كان يخشى أن تقتلعها نوازع الأهواء وعواصف الفتن بعد اختفاء اليد التى شيدتها وقامت عليها سنوات طويلة . لهذا طبعت المؤسسات الاقتصادية والتعليمية والحربية التى أنشأتها حكومة محمد على بطابع «السرعة». ولسنا فى حاجة لنبين أن هذه «السرعة» كانت من عوامل انحلالها . وعلى أية حال فقد كانت أحد العوامل التى باعدت بين محمد على والتعليم «الدينى القديم» ، وحملته على أن ينشىء بجانبه نظاما للتعليم «المدنى الحديث» .

وقد يكون (الدرس) الذى تلقاه محمدعلى حين حاول تنظيم فرقه الألبانية طبقا للنظم الحربية الأوربية فثاروا عليه واضطروه إلى انتهاج خطة أخرى على أساس جديد ، قد يكون هذا (الدرس) قد أفاده حين بدأ يضع نظامه التعليمى الحديث ، فخشى إثارة حفيظة العلماء وما يتبع ذلك من تهيج للشعور الدينى فى العامة ومن إليهم من سواد الناس . ولم يكن محمد على يريد أن تقوم عقبات من هذا النوع فى طريقه ، وحسبه ما يلقى من العقبات فى نواح أخرى . لهذا ترك التعليم «القديم» لأصحابه ، وأنشأ بجانبه نوعا آخر من التعليم على أسس

جديدة تخالف الأسس التى قام عليها التعليم « القديم » .

ولكن القوة الحربية القديمة لم تلبث أن أصابها الفناء وأخلت الطريق للقوة الحربية الجديدة . أما التعليم «القديم» فلم يصبه الفناء ، بل درج يحيا ويعيش بجانب التعليم الحديث . وما زال النوعان من التعليم يعيشان جنبا إلى جنب . وكما كانت القوة الحربية « الحديثة » النواة الأولى للقوة الحربية المصرية فى تاريخها الحديث ، كانت المدارس « الحديثة » النواة الأولى للنظام التعليمى الحديث فى الأعوام المائة الماضية .

وكان محمد على يدرك النفوذ الذى يتمتع به الأزهر وعلماؤه فى مصر والعالم الإسلامى : أن كان مهبط التفقيه فى الدين للمسلمين الضاربين فى أقطار الأرض ومصدر النور الذى ييمّمون شطره ليهديهم إلى الحق والخير . وكان يعلم أن تحويل الأزهر عن أداة لتبليغ الرسالة الدينية التى أنشىء لتبليغها إلى أداة مدنية مرنة فى يد الحكومة تشكلها على ماتشاء ، لم يكن مما يجذب إليه الرأى العام الإسلامى ويحبّبه إليه . ولم يكن محمد على يميل إلى أن ينفّر عنه جمهرة المسلمين وخاصتهم .

هل فكر محمد على فى تلك العوامل كلها تفكيرا جديا ؟ وانتهى به التفكير إلى أن يترك معاهد التعليم القديم تعلم الأطفال والشبان مااعتادت أن تعلمه ، وأن يترك رجالها يعلمون هؤلاء الأطفال والشبان مااعتادوا أن يعلموه لهم ، — أو بعبارة أخرى — أن يترك الأزهر والكتاتيب تتابع سبيلها الذى اتخذته منذ قرون ؟ أما أغراضه الجديدة فلينشىء لها نظاما جديدا على أسس جديدة ، على أن يسد هذا النظام حاجته بنفسه من غير أن يعتمد على نظم أخرى : فى هذا النظام معاهد للدراسة الإعدادية وفيه معاهد للدراسة العالية؟ هل فكر محمد على فى تلك العوامل كلها التى ذكرنا ، وقدّر النتائج التى قد يتعرض لها إذا حاول تنظيم الأزهر والكتاتيب على النحو الذى يحقق

له أغراضه ، فهداه تفكيره وتقديره إلى أن يترك نظامى التعليم — الجديد والقديم — يحييان جنبا إلى جنب ؟ أم كان ذلك منه سياسة غير مقصودة لم يملها التفكير والتقدير ، وإنما أملتها محض الصدفة والظروف ، حين بدأ ينشىء «مدارس» قليلة لتحقيق أغراض خاصة محدودة ، ولم يكن ثم ارتباط بين هذه المدارس ، ثم لما كثر عددها وضع لها نظما ووثق الصلة بين بعضها وبعض ، وأخيرا أخذ النظام التعليمى شكله النهائى كما نراه بعد سنة ١٨٣٦ ؟ وتم هذا كله من غير تفكير فى النوع الآخر من التعليم الذى كان قائما وهو التعليم الدينى فى الأزهر والكتاتيب ؟

وسواء أكان الإبقاء على معاهد التعليم القديم وإنشاء معاهد التعليم الحديث بجانبه سياسة مقصودة أملاها نظر وتدبر فى العوامل والأسباب المختلفة ، أم كان سياسة غير مقصودة أملتها الصدفة وتطور الحوادث نفسها ، فقد عاش النوعان من التعليم جنباً إلى جنب ، وما يزالان يعيشان جنباً إلى جنب حتى وقتنا الحاضر ، وهما يتنازعان تربية ناشئة البلاد ويقتسمان فيها بينهما الإشراف على شئون التربية والتعليم فى مصر .

ويصل هذا بنا إلى أن نتساءل : هل احتكرت حكومة محمد على التعليم فى مصر كما احتكرت حكومة نابليون التعليم فى فرنسا ؟ هل أصبح التعليم فى مصر وظيفة من وظائف الدولة تقوم به — وحدها — كما تقوم بالقضاء والجيش ، فتنظمه كما تشاء وتنشىء من معاهده ما ترى فيه سبيلا لتحقيق أغراضها وتلغى منها ما لا يتفق وهذه الأغراض ، وتعين لهذه المعاهد موظفيها وتعزلهم وتنقلهم وتعاقبهم وتثيبهم كما تشاء ، وهى كذلك (تتصرف) فى التلاميذ وتحدّد لكل منهم المهنة التى تريدها له ؟ أو بعبارة أخرى : هل جعلت حكومة محمد على معاهد التعليم جميعها فى يدها ، ورفضت أن تقوم فى البلاد هيئات أخرى تنازعها تربية أبناء البلاد وتنشيئهم ؟ والإجابة عن هذا السؤال لها وجهان :

فحكومة محمد على لم تحتكر معاهد التعليم - كلها - فى مصر فى يدها ، ولم تجعل منها - جميعاً - أداة لتحقيق أغراضها . فقد رأينا أنها تركت الأزهر و (المدارس) الملحقة بالمساجد وكتاتيب المدن والقرى تحيا كما كانت تحيا وتعلم شباب البلاد وصبيتها ما اعتادت أن تعلمه ، وتركت علماء الأزهر وفقهاء البلاد فى « كتاتيبهم » ينازعون مدارس الحكومة ومكاتبها شطراً كبيراً من أبناء البلاد .

فمن هذه الناحية يمكن القول إن حكومة محمد على لم تحتكر التعليم — كله — فى مصر فى يدها ولم تشرف على معاهده جميعاً ، بل تركت ناحية هامة من التعليم ومعاهد كثيرة للتعليم فى أيدى فئة من الناس ينفذون فيها ما يشاءون ويأخذون التلاميذ بألوان خاصة من الدراسة . بل إن الحكومة لم تحاول أن تشرف على هذا التعليم وتضع له من النظم ما يتيح لها أن تتدخل فى معاهده وفى تحديد مواد الدراسة التى تدرس به وفى تعيين الرجال الذين يقومون على تدريسها . لم تحاول الحكومة أن تفعل شيئاً من هذا . وظل التعليم « الدينى » بمعاهده ودراسته ورجاله حراً بعيداً عن رقابة الحكومة وسلطانها ، على الرغم من أنه كان — كما قلنا — يجتذب إليه شطراً كبيرا من شباب المدن وصبية القرى .

على أن حكومة محمد على أخذت فى قبضتها نوعا آخر من التعليم : هو التعليم « المدنى » الذى يعدُّ للوظائف ، وهو التعليم الذى يحقق لها أغراضها ، وهو التعليم الذى أنشأت معاهده وقامت على شئونها جميعاً ، وهو التعليم « الحديث » . فهذا التعليم عند حكومة محمد على هو الجدير بعنايتها ، الخليق بأن تقوم به وحدها . لأنه هو التعليم الذى يعدُّ لها أعوانها ، وهى تبغى أن تعدَّ شباب البلاد على النحو الذى تشاء وأن تبث فيهم مبادىء الطاعة والإخلاص للنظام الذى يُعدّون لخدمته ، وهى تخشى أن تترك هيئات أو أفرادا غيرها

يجتذبون منها شطراً كبيراً من ناشئة البلاد ويأخذونها بألوان أخرى من التعليم ومن المبادىء قد لا تتفق وأغراض الحكومة .

وبذلك احتكرت الحكومة هذا النوع من التعليم الذى أنشأت معاهده وقامت على شئونها ، وهو التعليم الذى يعدُّ للوظائف ، وهو التعليم الذى أطلقنا عليه اسم « التعليم الحديث » . لهذا نرى محمد على يرفض أن يعين مدرساً للمدرسة (الطليانية) بالاسكندرية ويأذن لطلابها أن يتحولوا إلى المدرسة البحرية وإلا قطع عنهم مرتباتهم » .[١] وترفض حكومته أن تسمح لمبشر يدعى « بارتلميو » أن يفتتح مدرسة « بالاكتتاب » لتعليم الأطفال المنتمين إلى ديانات وجنسيات مختلفة ، وعرضت عليه أن تقوم هى بإنشائها والإنفاق على شئونها ، على أن لايدخلها إلا أبناء البلاد وحدهم ، وعلى ألا يتدخل أحد فى ديانتهم .[٢]

ولهذا لانجد فى عصر محمد على معاهد للدراسة تنشئها هيئات أو أفراد وتعدُّ التلاميذ لما تعدهم له (مدارس) الحكومة . حقاً لقد كان ثمة مدارس أنشأتها طوائف أو جاليات أو هيئات دينية أجنبية ، إلا أنها كانت قاصرة على تعليم أبناء هذه الطوائف والجاليات والمنتمين إلى هذه الهيئات الدينية ، ولم يكن يدخلها من أهل البلاد إلا قليل من الأقباط ، تجذبهم إليها ثقافة دينية مسيحية لايجدونها فى غيرها من معاهد الدراسة . وفى بعض المدارس الأجنبية التى أنشئت لتعليم البنات كان بها عدد من البنات المصريات ، قليل منهن مسلمات ومعظمهن قبطيات ، يتعلمن فيها التطريز والقراءة والكتابة واللغات الأجنبية ، ذلك لأن هذه المدارس كانت — إذا استثنينا مدرسة الولادة ذات الصفة الخاصة — هى وحدها الموجودة فى مصر لتعليم البنات .

---

(١) دفتر ٣ (معية) ص ١٩ فى ٢ شعبان ١٢٤٠

(٢) Saint - John, op. cit. II, p. 405.

لهذا يمكن القول إن حكومة محمد على احتكرت التعليم « الحديث » فى مصر . وهى قد تركت معاهد التعليم « القديم » ، لأنها تعرف عنها بعدها عن (الميدان) الذى تعمل فيه مدارس الحكومة ، تعرف عنها الصبغة الدينية التى تجعل مواد الدراسة فيها قاصرة على اللغة والدين والفقه وتباعد بينها وبين الأغراض التى تتوخاها الحكومة من إعداد الموظفين ، وتجعل أساتذتها عاكفين على تبليغ الرسالة الدينية إلى تلاميذهم ، ليبلغوها بدورهم إلى المجتمع الذى يعيشون فيه . فهذه الصبغة الدينية هى التى أوحت إلى الأزهر أن يعتزل « الحياة » — إذا استقام هذا التعبير — ويعيش على تقاليده القديمة . ورأى الأزهر أن فى اعتزاله الحياة وعيشه على تقاليد الماضى احتفاظا بشخصيته ومبادئه وأساليبه فى التفكير والدرس . ونجح الأزهر فى ذلك ، ولكنه لم يتمكن من المقاومة طويلا : فقد كان تيار « الحديث » جارفا ، فما لبث الأزهر أن تأثر به ، وإن لم يفته أن يؤثر فيه كذلك .

أما حكومة محمد على وإن انتفعت بمعاهد الدراسة القديمة : بكتبها وتلاميذتها ورجالها على النحو الذى سنرى ، إلا أنها لم تُعن بأن تجعل منها أداة مباشرة لتحقيق أغراضها ، ولم يكن هذا الانتفاع ليحمل الحكومة على أن (تتدخل) فى تلك المعاهد أو تحاول أن تضع لها نظاماً ما . أما مدارسها التى أنشأت فلها منها الرعاية ولها طائل النفقة ، وفى مقابل هذه العناية وهذه النفقة كانت الحكومة تبسط نفوذها عليها كل البسط ، حتى لترجع إليها المدارس فى كل ما دقّ وجلّ من شئونها : فديوان المدارس هو الذى يضع خطة الدراسة ، وهو الذى يعين المدرسين والموظفين ويعزلهم ، وهو الذى يحدّد عدد التلاميذ ، وهو الذى يشرف على امتحاناتها ، ولا يصرف للمدارس شىء من الغذاء أو اللباس أو أدوات التعليم إلا إذا أقره الديوان . حقاً إن الحكومة كانت تشرك مجالس الإدارة بالمدارس — حينما كانت قائمة — فى وضع هذه

اللوائح ، إلا أن الحكومة — أو محمد على نفسه — كان صاحب الكلمة الأخيرة فى إقرار هذه اللوائح أو تعديلها .

والواقع أن التعليم فى مصر — فى النصف الأول من القرن التاسع عشر — كان مرجع الأمر فيه إلى إرادة رجل واحد ، ولم يكن التعليم وحده هو الذى احتكرته الحكومة ، بل لقد احتكرت مرافق البلاد جميعاً ، وأهمها مواردها الاقتصادية .

وإذا كان كثير من المفكرين يناهضون الآن فكرة «احتكار» الحكومة للتعليم ، ويرون فيه شلا للجهود وتعويقا للتقدم وتقييداً للتجارب النافعة ، فان هذه الفكرة كانت — فى القرن التاسع عشر — تلق من جمهرة المفكرين تحبيذاً : أن كان «الاحتكار» وحده السبيل لنشر التعليم فى البلاد وتنظيمه وتحقيق أغراض الدولة منه . بهذا نادى كثير من المفكرين فى فرنسا وانجلترا فى مستهل القرن الماضى . والواقع أن البلاد التى تقاسى من فشو الأمية فيها والتى ما تزال ترْقى أولى درجات الحضارة تحتاج إلى «زعامة» قوية مستنيرة توجه القوات الكامنة فيها إلى طريق الحضارة ، وهى لا يمكنها ذلك إلا إذا استغلت مرافق الدولة جميعا لتنفق منها على أبواب النشاط الاقتصادى والتعليمى والحربى بالقدر الذى يستحقه كل منها ، و«الاحتكار» هو السبيل إلى هذا الاستغلال . فالحكومة — فى الشعوب التى تحبو فى ميدان الحضارة والتقدم — هى وحدها التى تملك المال والوسائل ، وهى وحدها القادرة على تكوين الرجال والأعوان ، وهى لذلك وحدها القادرة على توجيه شعبها وجهة الحضارة والتقدم . وفى الأمم التى يشيع فيها الجهل ولما تتفتح أذهان الناس فيها إلى ضرورة التعليم كوسيلة للتقدم ، تكون الحكومة وحدها «المسئولة» عن مكافحة الجهل وتفتيق الأذهان للاهتمام بالتعليم . حتى إذا تكون «الرأى العام» المستنير حمل عن الحكومة بعض العبء وشاركها القيام على معاهد التعليم،

وشئونه وشاركها الاحتفال بتقدمها ونجاحها .

وهكذا مكّن احتكار حكومة محمد على للتعليم الحديث من إنشاء معاهده ومن تحقيق الأغراض المحدودة التى توختها منها الحكومة ومن بقاء هيكل التعليم سليما حتى نهاية عصر محمد على ، ومكّنها فوق ذلك من منافسة التعليم القديم ، بعد أن كانت معاهده وحدها المشرفةَ على تربية أبناء البلاد الراغبين فى العلم . فلو لم يكن للحكومة هذا السلطان القوى فى شئون التعليم لعجزت عن أن تدفع التلاميذ إلى مدارسها وعن أن تحسن الإشراف على منشئاتها العلمية . على أن التعليم القديم — رغم إهمال الحكومة شأنه والتهوين من مقامه وقصر عنايتها وعطفها وما لها على شئون التعليم الحديث — ظل قوياً يجتذب إليه عدداً من التلاميذ أكبر مما تجتذبه مدارس الحكومة . فبينما لا نجد للحكومة من المكاتب الابتدائية أول إنشائها سوى ستة وسبعين مكتباً لم تلبث أن نقصت إلى خمسين ثم إلى خمسة ، وكان تلاميذها حين تنظيمها فى سنة ١٨٣٦ لا يزيدون على ٥,٥٠٠ تلميذ ثم نقصوا فى التنظيم الثانى إلى ٧٨٠ تلميذاً ، وكان تلاميذ المدارس التجهيزية والخصوصية كما نصت عليه اللوائح نحو ٥,٢١٥ تلميذاً ، بينما نجد أن تلاميذ المدارس المدنية أو الحكومية لا يزيدون على ١٠,٧١٥ تلميذاً ، فإنا نجد أن تلاميذ المكاتب والمساجد يبلغون ٢٠,٠٠٠ تلميذ .[١]

وقد مكن الأزهرَ والكتاتيب من اجتذاب هذا العدد الكبير من التلاميذ عوامل كثيرة : منها ما ذكرنا من أن الثقافة الدينية القائمة على تحفيظ القرآن فى « الكتاتيب » ودراسة الكلام والفقه والحديث فى الأزهر كانت لا تزال تستهوى عقول الناس ، أن كان الشعور الدينى قوياً متسلطاً على نفوسهم وعقولهم ، وكانوا يرون فى إرسال أبنائهم إلى « الكتاتيب » حيث يحفظون

(١) Bowring, op. cit. p. 137.

القرآن أو إلى الأزهر حيث يتفقّهون فى دينهم إرضاء لشعورهم الدينى ، حتى إذا عادوا إليهم أبلغوهم رسالة الايمان وحملوا إلى نفوسهم الساذجة ألوانا من الثقافة الدينية كالقصص الدينى والحديث والفقه ، أوقاموا بينهم يعلمون أطفالهم كما تعلموا هم من قبل . ورجال الدين فى القرى هم وحدهم «العلماء» : فلهم المكانة السامية ولهم الاحترام والتقدير المادى والأدبى .

وهناك عامل آخر مكّن معاهد الدراسة القديمة من اجتذاب العدد الكبير من أبناء البلاد ، وهذا العامل خارج عن طبيعتها : وهو أن الحكومة لم تنشىء مدارس فى أنحاء البلاد كلها ، بل اقتصرت على عدد محدود من المدارس فى حاضرة البلاد وعلى عدد آخر من المكاتب فى المدن . ولسنا نعود إلى الأسباب التى حملتها على ذلك ، فقد أوضحناها فى مواضع أخرى من هذا الكتاب . [١] وحسبنا هنا أن نذكر أن مدارس الحكومة لم تكف لتعليم أبناء الناس جميعا ، فقد كانت هناك قرى بل مدن برمتها محرومة من مكاتب «حكومية» ، بينما كانت «كتاتيب» الفقهاء القليلة النفقة البسيطة التكوين منبثة فى المدن والقرى . وهكذا أفاد التعليم «القديم» من قلة مدارس الحكومة ، فكانت معاهده — وخاصة فى القرى — الملجأ الذى يلجأ إليه الراغبون فى العلم .

وكان التلاميذ المترددون على الأزهر أو المساجد أو الكتاتيب أحرارا فى الذهاب إليها أو الانقطاع عنها . ولا يحدّ من حريتهم إلا رغبة الآباء وحثّ الأساتذة . فالتلاميذ يذهبون إلى المكتب صباحا ويمكثون فيه ساعات يعودون بعدها إلى أهلهم الذين يتعهدونهم بالغذاء واللباس والنفقة . وهم يدرسون بالمكتب سنوات ينقطعون بعدها عن التعليم وينقلبون إلى أهلهم يعينونهم على معاشهم ، أو ينطلقون فى أنحاء القرية يلعبون ويمرحون . أما

---

(١) انظر الفصل الثانى من الكتاب الأول : السياسة التعليمية فى عصر محمد على والفصل الأول والثانى من الكتاب الثالث عن مكاتب المبتديان .

التلاميذ الذين نزحوا الى القاهرة ليدخلوا الأزهر فهم فى غالب الأمر يقضون فيه حياتهم « الدراسية » كلها : إذ يدرسون نهارا ويبيتون فيه ليلا . ولكنهم يعودون إلى أهلهم متى شاءوا ويقضون بينهم من الوقت ماشاءوا ، ثم ينقلبون إلى الأزهر يتمّون فيه دراستهم ، حتى إذا أصاب التلميذ فى الأزهر الدراسة التى رغب ، انقطع عنه وعاد إلى أهله . ذلك لأنه لم تكن للمكاتب أو للأزهر لوائح تحدد مناهج الدراسة والفرق الدراسية ومدة الدراسة . فالتلميذ يبدأ بدراسة مبادىء بسيطة من العلم ويتدرج منها إلى مواد أصعب وهكذا . وقد يتم هذه الدراسة فى سنوات قليلة إذا جدّ واجتهد وتفرغ للدرس ، وقد يتمها فى سنوات كثيرة إذا كان له ما يشغله عن الدرس ، أو لم تكن له من الكفاية العقلية ما يمكنه من النجاح السريع . أما امتحانات المكاتب أو الأزهر فكانت بسيطة كل البساطة : فالتلميذ فى المكتب (يختم) القرآن ويتلوه على (سيدنا) . ويكون هذا إيذانا بأنه أتم الدراسة الأولية بنجاح . أما امتحانات الأزهر للراغبين فى التصدّى للتدريس — وهم الذين أنفقوا بالأزهر سنوات طويلة من حياتهم — فهى امتحانات (عملية) : إذ يجلس الطالب ليلقى درسه والتلاميذ من حوله ، حتى إذا أفادوا منه أقبلوا عليه وازدحموا حوله ، وإن لم يفيدوا منه انصرفوا عنه وعاد هو إلى إكمال نقصه . أما التلاميذ الذين يؤثرون أن يؤوبوا إلى قراهم حيث يجلسون مجالس التعليم أو الإفتاء أو الإمامة فتقدير كفايتهم (إجازة) من شيخهم ، يجيزهم فيها بالإفتاء ، ويوصيهم بتقوى الله تعالى والتحرى فى الأحكام .

فالتعليم الدينى كان يتمتع بحرية مطلقة فى وضع دراساته ومناهجه وتعيين أساتذته وتخريج تلامذته . ولهذه الحرية المطلقة الفضل فى تكوين أعلام المفكرين من رجال الدين فى عصور مختلفة . فالنفوس القوية تجد فى هذه الحرية غذاءها العقلى ، إذ تقدم لها مجالا كبيرا للتنقل بين مختلف الدراسات

والأخذ عن عقليات مختلفة لأساتذة مختلفين . على أن الأزهر لم يخرّج تلاميذه جميعاً على هذا النحو ، فكثير منهم كانوا لا يرون فيه إلا ملجأ لهم يقيمون فيه ويفيدون مما يصيبه المنتمون إليه من عطاء وتقدير ، وكانوا يرون فى تلك الحرية المطلقة مجالا متسعاً لتحقيق نزواتهم ، وكانوا لذلك يقضون فيه القسط الأكبر من حياتهم أو حياتهم كلها .

وهذه الحرية المطلقة التى تمتع بها الأزهر والتعليم الدينى فى العصر الوسيط ، والتى تركها له محمد على فى العصر الحديث ، قد مكنته من الاحتفاظ بأغراضه ، فتشبث بها لايبغى عنها حولا . وما أغراضه إلا نشر الثقافة الدينية والعربية ، ولم يحفل — أو لم تحفل الحكومة — بأن يدخل على كيانه من التغييرات ما قد يؤهله لأداء قسط من الأغراض الجديدة التى عنيت بها الحكومة ، وأخصها إعداد فريق من أهل البلاد ليلوا شئون الإدارة والتعليم فيها . ولهذا يمكن القول إن الأزهر ظل يعنى بالفرد — من حيث هو فرد — من غير أن يمكن له فى أسباب الرزق فى المجتمع الذى يعيش فيه ، فهو يعنى « بروحانية » الفرد أكثر مما يعنى « بماديته » . ولهذا ظل غالب أهل الأزهر بعيدين عن التطورات الجديدة فى المجتمع المصرى . نقول « غالب » أهل الأزهر ، لأن كثيرين ممن نشأوا به كان لهم من ذكائهم واستعدادهم أو حظهم ما أتاح لهم الدخول فى ميدان العلم « الحديث » والاندماج فيه ، فأفادوا واستفادوا . وسيأتى الحديث عنهم بعد حين .

وكما مكنت الحرية المطلقة التعليم الدينى من الاحتفاظ بأغراضه ، كذلك مكنته من الاحتفاظ بمناهجه فى الدرس : وأساس هذه المناهج المدرس والكتاب . فقد ظل التلميذ فى الأزهر يقبل على ألوان الدراسة التى تهفو إليها نفسه وعلى الأساتذة الذين يميل إليهم ، فهو يجلس إلى هذا الأستاذ أو ذاك ، ويقرأ هـــذا الكتاب أو ذاك . وقد مكنتهم الطباعة فى مطبعة

بولاق من الانتفاع — فى مجال أوسع — بالكتب التى كانوا من قبل يقرأون وينسخون .

وجملة القول إن الحرية المطلقة التى تمتع بها التعليم الدينى منذ عصور والتى تركها له محمد على قد مكنته — فى مجموعه — من الاحتفاظ « باستقلاله » عن السلطة « الحاكمة » . ولكن هذا « الاستقلال » لم ينله التعليم الدينى عن طريق حفاظه له وسعيه للذب عنه ، بقدر ما ناله لإهمال الحكومة شأنه والتهوين من مقامه فى مجال العلم الحديث .

أما المدارس فالحكومة هى التى أنشأتها وقامت عليها وأشرفت على التافه من شأنها والجليل ، وهى التى تمدها بالمال وتعين موظفيها . وبعبارة أخرى ترى الحكومة نفسها مسئولة عنها ، فالنجاح الذى قد تصيبه فى تحقيق أغراضها كلها أو بعضها يسرُّها بقدر مايسوؤها ما قد تصادفه من إخفاق . والحكومة لذلك تحث الناس على إرسال أبنائهم إلى مدارسها وتغريهم بالعطاء وبغير العطاء مما يعين على الحياة ، فاذا أخطأها التوفيق بعد ذلك عمدت إلى القسوة فسلطتها عليهم وساقتهم إلى المدارس سوقا ، وهى بعدُ تعدُّ لكل منهم نوع الدراسة الذى سيصيب منه ، متبعة فى ذلك ماتمليه عليها حاجة النظام التعليمى بمراحله ومدارسه المختلفة ، وما تؤهله له قدرات التلميذ وكفايته العقلية . فهذا التلميذ ناجح فى دراسته : فلتذهب به إلى المدرسة التجهيزية ثم إلى إحدى المدارس الخصوصية ثم إلى خارج البلاد أحياناً . وذاك التلميذ متوسط الذكاء فليقطع من مراحل التعليم ما يتفق وجهده . أما التلميذ الغبى — أو « التنبل » كما كانوا يسمونه — فليعدل به بعد سنوات من دراسته إلى الجندية أو إلى حدائق شبرا أو إلى « اصطبلات » الحكومة . وهذه المدرسة تحتاج الحكومة إلى خدمات خريجيها : فلتكثر من تلامذتها حتى لتلحق بها تلاميذ لمَّا يكمل إعدادهم . وتلك أخرى لا تحتاج الحكومة إلى كثير من المتخرجين فيها :

فلتقفل باب الالتحاق بها ، أو فلتعدل بعض تلاميذها إلى مدارس أخرى. وهكذا . فالتلميذ فى « يد » حكومة محمد على « مادة » مرنة تشكلها كما تشاء . ولن يملى عليها فى تشكيلها لهذه المادة المرنة عوامل أخرى غير حاجتها وكفاية التلميذ العقلية . « فالتلميذ » لا تعنى به حكومة محمد على كفرد تأخذه بما يرهف حسه ويقوى إيمانه وينمى قدراته ، بل تهتم به كعضو فى الهيئة الاجتماعية ، عليه — قبل أن يعنى بنفسه — أن يعنى بما يؤدى من خدمات للدولة التى أنشأته صغيراً وآن أن تجنى منه بذرها كبيرا . فهو « عجلة » صغيرة فى « الآلة » الكبيرة التى تدور بانتظام ، وهى « الأداة الحكومية » . حتى إذا توقفت تلك الآلة الكبيرة إما لعطب أصابها أو لفقر صاحبها ، أصبحت تلك (العجلات) الصغيرة متعطلة عن العمل قليلة الجدوى .

لهذا لم يكن عجيبا أن تقع المدارس تحت سلطان الحكومة المطلق . وكما مكنت الحرية المطلقة التعليم الدينى من الاحتفاظ بأغراضه ومناهجه فى الدرس ، كذلك مكن سلطان الحكومة التعليم الحديث من أداء الأغراض التى أنشئ لأدائها . والحكومة تريد أن تمكن المدارس من تحقيق هذه الأغراض فى يسر وسهولة ، فتدخل بها — إلى جانب التعليم الدينى واللغوى القديم الذى يتمثل فى حفظ القرآن وقراءة كتب فى الدين واللغة — مواد جديدة لم يألف المصريون دراستها منذ قرون ، حين انحط التعليم فى الأزهر وأصبح قاصرا على ماذكرنا من علوم اللغة والدين . وتدخل بها كذلك ألوانا من النظم كاللوائح التى تحدد المناهج وتوزعها على الفرق وتحدد مدة الدراسة والامتحانات التى لاينقل تلميذ من فرقة إلى أخرى إلا إذا اجتازها بنجاح ، وألوانا أخرى من النظم فى حياة التلاميذ كأخذهم بالنظام الحربى فى التصرف بأوقات درسهم وراحتهم . وتتوج الحكومة عنايتها — فى سبيل تمكين المدارس من تحقيق أغراضها — بانشاء « هيئة » فنية تشرف على

شئونها ثم «ديوان» خاص يدير الحقير والجليل من هذه الشئون . وكان هذا كله جديدا على المصريين بالقياس لما ألفوه فى معاهد التعليم «القديم» : فأعمدة المساجد يستبدل بها حجرات الدرس كل حجرة منها لفرقة معينة أو لدرس خاص ، وحصر المساجد تستبدل بمقاعد من خشب ، والحرية التى يتمتع بها التلاميذ يستعاض عنها بنظام حربى دقيق ، والدراسة «الفردية» يستبدل بها الدراسة «الجمعية» التى تنتهى بالامتحانات ، وهى مقياس لمدى النجاح أو الاخفاق ، وهيئات الأساتذة ذوى السلطان «الروحى» على تلاميذهم يستعاض عنهم بإدارة قوية حازمة مستنيرة مركزة فى حاضرة البلاد وتبسط نفوذها على معاهد الدراسة التابعة لها جميعاً .

كل هذا أعان مدارس الحكومة على النجاح فى تحقيق الأغراض المحدودة التى أنشئت لتحقيقها . ولكنه من جهة أخرى باعد بينها وبين المجتمع الذى نشأت فيه ، وصرف عنها تأييد سواد الناس وعطفهم واهتمامهم : فقد ألف الناس تلك المؤسسات «الدينية» التى تقوم بينهم ، وكانت الحرية التى يتمتعون بها فى تنشئ‍ة أبنائهم بها أو صرفهم عنها تحببها لهم وتجعل أفئدتهم تهوى إليها .

والواقع أن الأهالى — قبل محمد على — كانوا يرتاحون فى غير التعليم كذلك إلى نوع الحكم الذى كانوا يخضعون له : هذا الحكم القائم على قلة احتفال الحكومة بشئون الأهالى «الخاصة» . حتى لتحملها سياستها هذه إلى عدم الأخذ بما تأخذ به الحكومات الحديثة من نظم فى الإدارة المالية والاقتصادية . ويمكننا أن نقول إن عدم وثوق المصريين بالفرنسيين أثناء احتلالهم مصر ثم ثوراتهم على الحكم الفرنسى إنما ترجع إلى عوامل أخصها تدخل هذا الحكم الأجنبى — القائم على أسس حديثة فى الحكم والاستعمار — فى شئون المصريين ووضعه نظماً جديدة فى إدارة البلاد واستغلال مواردها .

ونحسب أنا نستطيع كذلك أن نرجع عدم وثوق المصريين وتحرُّجهم عن قبول كثير من إصلاحات محمد على والاحتفال بها إلى طبيعة حكم محمد على القائم على تدخله فى أخص شئون الأهالى ووضعه النظم لاحتكار زراعتهم وصناعتهم وتجارتهم و « تعليمهم ». ونحسب أنا نستطيع أن نرجع عدم اطمئنان المصريين إلى النظام التعليمى الحديث أوَّل قيامه بينهم إلى احتكار الحكومة إياه وسوقها الناس إلى معاهده و (تصرُّفها) فى التلاميذ على ما تشاء وتهوى واحتجازها إياهم عن أهلهم وعشيرتهم . وما زلنا نلحظ عند كثير ممن لم يهذبهم التعليم أو تصقلهم تجارب الأيام أن « مثلهم الأعلى » هو البعد عن « الحكام » . ولكن ابتعاد الأزهر عن مجال (التوظيف) أو عدم اتخاذه الأهبة لإعداد تلامذته بما يؤهلهم للحياة وللمجتمع الذى يعيشون فيه لم يلبث أن باعد بينه وبين كثيرين من خاصة الناس وصرفهم عنه إلى حد كبير . فقد كانت المناصب التى يصيبها خريجو المدارس والثراء والاحترام اللذان يحظون بهما فى أنحاء البلاد من سواد الناس ومَن إليهم . . كل أولئك كان يخلب ألبابهم ويستهويهم إلى المدارس التى تقدم لهم هذا كله . وبدأت هذه النزعة — نزعة التقرب من المدراس — فى عصر محمد على نفسه ، وإن بدأت فى مجال ضيق : فكثير من تلاميذ الأزهر يتركونه إلى المدارس ، إما بدافع من نفوسهم أو بدافع من سلطان الحكومة . استمع إلى ما يقصُّه « على مبارك » الصبى وهو يحاور أباه حين كان يحاول إقناعه بالذهاب إلى الأزهر كما يفعل أبناء الأثرياء من الناس وأوساطهم فى القرى . . . « وهل التعليم فى الأزهر يؤدى إلى أن يكون الإنسان حاكما ؟ ومن خرج من الأزهر حاكما ؟ . . . وإن الحكام إنما يؤخذون من المدارس » . فلما سأله أبوه عما يريد تعلمه آثر العدول عن الفقه ورغب فى تعلم الكتابة، لما كان يرى « من حسن زى الحكام

وهيبتهم » . [١] ولكن (أمثال) على مبارك الذى يفرّ من بيت أبيه إلى المدارس ويتشبث بطلب العلم فيها لم يكونوا فى عصر محمد على كثيرين .

ويصل هذا بنا إلى بحث آخر يتصل بالتعليم « الدينى » القديم وبالتعليم « المدنى » الحديث : وهو تأثير كل منهما فى الآخر . والواقع أن هذا التأثير أمر طبيعى استلزمته طبيعة الحياة فى ذلك العصر وطبيعة النظام التعليمى الحديث نفسه . فهما (نظامان) يعيشان جنباً إلى جنب ويقتسمان فيما بينهما تربية الناشئة . حقاً إن طبيعة كل منهما واتجاهه ونظرته إلى إعداد الفرد تختلف فى أحدهما عنها فى الآخر : فأحدهما « أهلى » والآخر « حكومى » ، وأحدهما « حرٌ » والآخر « مقيَّد » بسلطان الحكومة ، وأحدهما يعنى « بالتربية الروحية » والآخر يعنى بالتربية « المادية » وهكذا . ولكن هذا الاختلاف الشديد لم يحل دون أن يتأثر أحد هذين النظامين بالآخر ويؤثر فيه . فقد كان التعليم القديم بالأزهر والمساجد « والكتاتيب » النظام التعليمى الوحيد الذى (وجده) محمد على حين بدأ نظامه التعليمى الحديث ، فأفاد منه إلى حد كبير . حقاً إن محمد على كان يبنى على أسس جديدة ، ليس فى التعليم فقط ، بل فى الإدارة والاقتصاد والقوة الحربية ، ولكن الثابت أنه كان ينتفع بما يجده قائماً من هذه النظم ، ويفيد منه بالقدر الذى يراه عوناً له على تثبيت نظمه الجديدة . وليس هنا المجال لتقصى هذا البحث ، وإنما نقتصر على بيان الأوجه التى أفادها محمد على من التعليم القديم ، أو بعبارة أخرى بيان أوجه تأثير الأزهر والتعليم الدينى فى المدارس والتعليم الحديث :

١ — كانت اللغة العربية — سواء فى مكاتب المبتديان أو المدارس التجهيزية والخصوصية وخاصة فى مدرسة الألسن — مادة هامة فى خطط الدراسة . وكان تلاميذ الأزهر وحدهم الذين يدرسون اللغة العربية فى كتب العرب القديمة . لهذا أخذت منهم الحكومة حاجتها كمدرسين للغة العربية بمكاتبها

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية م ٣ ج ٩ ص ٣٨

ومدارسها ، فكانوا فريقاً هاماً من موظفى المدارس ، وكان منهم كذلك رؤساء المدرسين « الباشخوجات » فى مكاتب المبتديان والمدارس التجهيزية والخصوصية . وكانت الحكومة تعلم أنهم لم يكونوا يُمنحون فى الأزهر مرتبات كبيرة ، لهذا نراها تبخل عليهم بتلك المرتبات . وترى أنهم إنما يقومون « بمقاصد خيرية » ثوابها عند ربهم . فقد كان هناك مدرسون بل رؤساء مدرسين قضوا بمدارسهم اثنى عشر عاما لا يصيبون من الحكومة إلا مائتى قرش فى الشهر ، وهو قدر ضئيل يناله خريج مدرسة خصوصية حديث العهد بالوظائف ، ثم هى تبخل عليهم بعد هذا ببضعة قروش تضيفها إلى مرتباتهم .

أما مكاتب المبتديان فقد كان نظارها من « علماء » الأزهر . هذا ما نص عليه قانون التعليم الابتدائى الذى نظم المكاتب فى سنة ١٨٣٦ ، بعد أن ارتفعت الشكوى من جهل نظارها الأوّلين ، الذين كانوا من مشايخ القرى ، وكان أكثرهم أمياً يجهل القراءة والكتابة . وكانت إدارتهم للمكاتب فى السنين الأولى من نشأتها مدعاة لكثير من الفساد والعبث . ولا شك فى أن علماء الأزهر — بروحهم الدينى الجذاب وكفايتهم العلمية بالقياس إلى ما كان موجوداً فى ذلك الوقت — كانوا خيرَ من عرفتهم المكاتب الابتدائية فى طورها المنظم الجديد . ولا شك كذلك فى أنهم قد ساهموا بنصيب كبير فى التنظيم الذى أصابته المكاتب حينذاك ، ولم يكن هذا التنظيم عملا هينا .

وكان المشايخ من الأزهر وما إليه هم القائمون بالتدريس فى مكاتب المبتديان ، إذ أن برامج الدراسة فيها لم تكن تعدو القرآن واللغة العربية من صرف ونحو والدين والحساب . وكان المشايخ يقومون بتدريسها جميعاً . وقد ساعد على ذلك أن المدرسين لم يكونوا إذ ذاك مدرسين لمواد مختلفة ، بل كانوا مدرسى فرق : فمدرس الفرقة يدرس لتلاميذها كل ما عليهم أن يدرسوه من مواد الدراسة . وهم لا يفضلون فقهاء الكتاتيب القديمة إلا بقليل من العلم .

وكان مرتب الواحد منهم أربعين قرشاً فى الشهر ، أى بزيادة عشرة قروش على مرتب (الحلاق) أو (الخياط) وتعيين (نفر) ، وكان كاتب المكتب يصيب من المرتب أكثر مما يصيبه المعلم بعشرين قرشاً.[1] وكان يحمل الحكومة على هذا ما ذكرنا من أنها كانت تعلم أن أهل الأزهر لم يكونوا يصيبون فيه إلا أجراً ضئيلا ، أن كانوا قوماً زاهدين ، لا يغرنهم متاع الحياة الدنيا !

٢ — ولكن هؤلاء المدرسين لم ينتقلوا إلى المدارس وحدهم ، بل أخذوا معهم الكتب التى كانوا يدرسون فيها دروس اللغة العربية والدين . فى مكاتب المبتديان أخذوا معهم كتب السنوسية والأجرومية والألفية والكفراوى . وفى المدارس التجهيزية والخصوصية حملوا معهم كتب الشذور وقطر الندى والشيخ خالد وغيرها . وهنا أيضا كانت حكومة محمد على مضطرة إلى ذلك ، إذ لم يكن أمامها سوى كتب الأزهر فى الدين واللغة العربية ، فقبلتها الحكومة وتقدمت بها إلى مطبعة بولاق ، فطبعت منها — لأول مرة فى مصر — آلافا من النسخ أشاعتها بين المدارس والمكاتب وفى الأزهر نفسه .

والواقع أن لنا أن نقول إن كتب الأزهر فى الدين واللغة تكاد تكون وحدها الكتب (المؤلفة) بين كتب الدراسة ، وإن ما عداها من الكتب فى مواد الدراسة الحديثة كان أكثره معرباً ، ولم يبدأ التأليف فى علوم الدين واللغة العربية إلا منذ عهد غير بعيد .

حقا إن كتب الأزهر كانت — وخاصة فى مكاتب المبتديان — أعلى مما تؤهلهم له أعمار تلاميذها وقدراتهم العقلية ، ولم يكن فيها مايشوق التلاميذ أو يحبب القراءة إليهم أو يعاون على تفتيق أذهانهم واستكمال إعدادهم للتعليم « فوق الابتدائى » . ومما زاد الطين بلة — كما يقولون — أن (الكتاب)

---

(١) انظر بيان موظفى الكتاب ومرتباتهم فى ص ٥٣٧ من الكتاب .

فى مدارس محمد على لم يكن « ينتفع » به و « يرجع » إليه كما هو الحال الآن ، بل كان (الكتاب) كل شىء فى الدراسة . فقد ذكرنا أن الدراسة لم تكن دراسة مناهج موضوعة ، بل كانت دراسة كتب . فالتلميذ فى المكتب الابتدائى لا يدرس الدين والنحو والصرف والحساب كما نص عليه قانون التعليم الابتدائى ، بل يحفظ « القرآن » ويقرأ « علم الحال » و « السنوسية » و « الآجرومية » و « الكفراوى » وكتابا فى الهندسة أو الحساب . وكذلك الشأن فى المدارس التجهيزية والخصوصية فى علوم الدين واللغة العربية والمواد « الحديثة » على السواء . وكذلك كان الامتحان اختبارا فيما قرأه التلاميذ فى (الكتب) .

٣ — ولم يحمل مدرسو الأزهر معهم إلى مكاتب الحكومة ومدارسها كتبهم فحسب ، بل حملوا معهم كذلك (طريقة) تلاميذ الأزهر والمترددين على (المساجد) فى معالجة الدروس : وهى الحفظ والاستظهار . وتعدى حفظ كتب الدين واللغة إلى حفظ كتب المواد « الحديثة » . وقد قوى من هذه الطريقة شدة اهتمام الحكومة والمدارس بالامتحانات ، إذ لم يجد التلاميذ عدة يعتدون بها (لاجتياز) هذه المرحلة الشاقة خيرا من الحفظ ، سواء كان مقرونا بالفهم أم لم يكن . وكان الحفظ من أهم المظاهر التى اقترنت بالتعليم فى عصر محمد على ، بل إنا لم نكد نخلص حتى اليوم من آثاره .

٤ — ولم يكن المدرسون وحدهم هم الذين (استعارتهم) مدارس محمد على من الأزهر ، بل كان ثمة طائفة أخرى استلزمتها طريقة التدريس بوساطة المترجمين فى أكثر المدارس الخصوصية أول إنشائها ثم فى قلم الترجمة بعد إنشائه : هذه الطائفة هم « المصححون » الذين كانوا يقومون على إصلاح الكتب التى تنقل إلى اللغة العربية من الوجهة اللغوية . ولم يكن هذا العمل هينا . فكثير من المترجمين — وخاصة فى السنين الأولى من إنشاء المدارس —

كانوا من السوريين أو غيرهم من المتمصرين، ولم يكن يوثق كثيرا فى صحة اللغة التى كانوا يترجمون إليها دروسا فى مواد لم يدرسوها من قبل . هذا إلى أن تلك التراجم كانت أول مانقل إلى العربية فى العصر «الحديث» من علوم الغرب «الحديثة»، تلك العلوم التى أهمل الأزهر تدريسها منذ زمن بعيد، وأخصها الطب والهندسة والجغرافيا والطبيعة والنبات . ولم يكن إصلاح هذه التراجم قاصرا على إصلاح الأساليب وحدها، بل كان يتعدّاها إلى انتقاء المصطلحات العربية الصحيحة المرادفة للمصطلحات الغربية . لهذا لم يجد «المصححون» من رجال الأزهر بدآ من الرجوع إلى كتب العرب القديمة التى كتبت فى تلك العلوم . وقد نجحوا إلى حد بعيد فى إحياء مصطلحات عربية قديمة، وأفادت اللغة وأفاد العلم من ذلك ثروة زاخرة . أما المصطلحات «الفنية» التى لم يجدوا لها مرادفا فى كلام العرب فقد نقلوها إلى العربية كما هى، وبذلك ازدادت ثروة اللغة العربية، وانفسح أمامها المجال لدراسة المواد الحديثة وتعريبها والتأليف فيها . وكان المصححون «الأزهريون» أوّل من عقد الصلة بين لغة العرب «القديمة» وعلم الغرب «الحديث» . وخلد كثير منهم أسماءهم فى تاريخ النهضة العلمية فى القرن التاسع عشر . وقد ذكرنا أكثرهم حين تحدثنا عن معاهد الدراسة .

وانتهى الأمر بنفر منهم أن أصبحوا مختصين فى العلوم التى كانوا يصلحون كتبها، فقد رأيت أن من أعضاء بعثة الطب إلى باريس فى أواخر سنة ١٨٣٢ مصححين «أزهريين» درسا الطب فى فرنسا وأصبحا طبيبين .

٥ — ولم يقتصر تأثير الأزهر على المدارس الحديثة بمدرسيه و«مصححيه» وكتبه، بل لقد استمدت بعض المدارس تلاميذها أول عهدها بالحياة من الأزهر . فمن الأزهر وما إليه من المساجد أخذت مدرسة الطب معظم تلامذة (الدفعة) الأولى بها، وكذلك مدرسة المهندسخانة . وكانت الحكومة

تعلم أن هؤلاء الطلبة (الأزهريين) يبزّون (زملاءهم) الملحقين بالمدارس دراية باللغة العربية ، فمدرسة قصر العينى التجهيزية لم تكن قد نظمت بعد ، وكانت دراسة العربية بها ضعيفة . لذلك نجد الحكومة تؤثر الطلبة الأزهريين بالمدارس بالمرتب الطيب . فتلاميذ الطب يمنح كل منهم مائة قرش فى الشهر ، وهو مرتب يعادل المرتب الذى أصبح يمنح لخريجى المدارس الخصوصية فى السنوات الأخيرة من حكم محمد على ، وتلاميذ المهندسخانة يمنح الواحد منهم أربعين قرشاً .[١]

ومن الأزهر اختارت حكومة محمد على ثلاثة أوفدتهم فى بعثة سنة ١٨٢٦ إلى فرنسا ، رغم أنهم كانوا يجهلون اللغة الفرنسية وكثيراً من المواد التى تتطلبها دراسة عالية فى بلاد الغرب . لهذا لم ينجح منهم إلا الشيخ رفاعة رافع ، أحد أئمة النهضة الأدبية فى مصر فى القرن التاسع عشر . يقول أمين باشا سامى:[٢] « وكان الفضل الأكبر فى أول الأمر لمن وقع الاختيار عليهم من طلبة العلم بالأزهر ، وألحقوا بمدارس الطب والمهندسخانة كبيومى أفندى مؤلف كتب الجبر وإبراهيم أفندى رمضان مؤلف كتب الهندسة الوصفية والظل والمنظور وقطع الأخشاب ومحمد على باشا البقلى الحكيم مؤلف كثير من الكتب الطبية[٣] وأحمد أفندى الرشيدى مؤلف المادة الطبية وغيرها ، الذى كلف باختبار سواحل البحر الأحمر للبحث عن المعادن حتى فيزوغلى وتوجه إلى المكسيك مع بعثة أسندت رياستها إليه لهذا الغرض ، ولا ننسى واسطة العقد الذى ربط الشرق بالغرب بعلومه ومعارفه المرحوم رفاعة بك رافع مربّى فحول المترجمين ، رحمة الله عليهم أجمعين » .

---

(١) دفتر ٤٧ (معية) رقم ٥٠٨ فى ٢٣ جماد أول ١٢٤٩

(٢) أمين باشا سامى : التعليم فى مصر ص ٧٦

(٣) هذا ما يقوله أمين باشا سامى ، إلا أن على باشا مبارك يذكر أن « محمد على البقلى » لم يدرس بالأزهر ، بل درس بمكتب الحكومة ثم بالمدرسة التجهيزية بأبى زعبل ومنها انتقل إلى مدرسة الطب (الخطط التوفيقية : م ٣ ج ١١ ص ٨٥)

ولكن ليس معنى هـذا أن كل التلاميذ الأزهريين الذين التحقوا بالمدارس قد كانوا فى رجولتهم أفذاذا ، وأنهم جميعا قد أصابوا نجاحاً فى دراستهم ، وكان لهم فى النهضة العلمية أثر ، على أن هذا لا ينفى أن كثيراً من النابغين فى عصر محمد على — فى الطب والآداب والرياضيات — كانوا من تلاميذ الأزهر ، حيث أنفقوا صدرا من شبابهم وأفادوا من دروس أساتذتهم مضاء فى الفهم ودقة فى التقدير وإرهافاً للعقل ، ما مكّنهم من النجاح فى دراساتهم «الحديثة» . وقد أعانهم على هذا النجاح أن طريقة التدريس فى المدارس لم تكن تختلف كثيرا عن طريقة التدريس التى ألفوا بالأزهر : فالدراسة ما زالت دراسة كتب ، وبعد أن كانوا يتوفرون على قراءة كتب فى الفقه واللغة والكلام ، أصبحوا « يقرأون » كتباً فى الطبيعة والكيمياء والطب والرياضة وغيرها من العلوم الحديثة . وهم يقرأون هذه الكتب و « يحفظون منها » كما كانوا يحفظون بالأزهر . إلا أنه كان لما اتصفوا به من ذكاء وتوفر على الدرس ورغبة فى العلم أكبر الأثر فى النجاح الذى أصابوا .

كان هؤلاء التلاميذ يمثّلون « مدرسة » جديدة قائمة على الأخذ بحظ من كلتا الثقافتين: ثقافة « الأزهر » القائمة على التخريج والنقاش والجدل ، وثقافة « الغرب » القائمة على التفكير الحر والنظرة الجديدة إلى الحياة . وهـذه « المدرسة » ما زلنا نجدها قوية فى أولئك الذين درسوا صدر شبابهم بالأزهر أو غيره من معاهد التعليم « الدينى » و « اللغوى » ، ثم أتموا الدراسة بأوربا . فيتاح لهم بذلك أن يجمعوا بين التفكير اللفظى المنطقى والثقافة الدينية وبين التفكير العلمى المنظم والثقافة العلمية الحديثة ، وليس من شك فى أن طلاب الأزهر الذين درسوا بأوربا أو بالمدارس فى مصر كانوا الصلة بين الثقافتين ، كانوا ينظرون إلى معهدهم القديم الذى درسوا به نظرة الحب

والتقدير والاحترام ، ولكنهم لا ينسون أن العلوم « الحديثة » هي وحدها التي أصبحت تعد للحياة وتصيب من الحكومة أكبر تقدير . يقول رفاعة رافع « إمام » هذه المدرسة فى أحد الكتب التى عربها تلاميذه : [1] « وشتان بين حاله الآن من جهة علمائه وعلومه وبين ما كان عليه فى قديم الزمان ، ويقال إنه كان به من المجاورين فى قديم الزمان نحو اثنى عشر ألف مجاور ، والآن ليس فيه أزيد من ألف ومائتين . . . ومع أن ولى النعم يغدق على العلماء والفضلاء ويعين أهل الأزهر على نشر العلوم والشريعة المحمدية ، فقد أسس عدة مكاتب ملكية (أى مدنية) تدرس فيها العلوم البرانية (أى الأجنبية) وخصوصاً اللازمة للسياسات المدنيـــة والعسكرية ، وكذلك الفنون والصناعات التى كانت ضايعة ، وجدد فيها المطابع لتكثير آلاف العلوم والكتب ، فمن ذلك مدارس الهندسة والطب والطبيعة والجغرافيا والكيميا والبيطرة واللغات الإسلامية والأفرنجية والعلوم وغير ذلك » . [1]

وعلى ذلك فكثير من رجال النهضة العلمية فى عصر محمد على كانوا من الأزهر ، أظهرتهم مدارس محمد على أو بعثاته ، وخرجت بهم من ظلام « الأروقة » إلى نور العلم الحديث .

٦ — هذه بعض أوجه تأثير التعليم القديم فى المدارس والتعليم الحديث . وهنا نجلو وجها آخر جديراً بالذكر : وهو تأثير « روح » الأزهر والكتاتيب فى المدارس « الحديثة » : فلاشك فى أن كتب الأزهر ورجال الأزهر وتلاميذ الأزهر كان لهم أكبر الأثر فى بث « روح » الأزهر فى المدارس ، وعلى الرغم من كثرة ما قيل عن تنظيم هذه المدارس طبقاً للنظم الغربية ، فانا نرى أنها لم تقرب من تلك النظم إلا من ناحية « الشكل » . أما « روحها » فقد « اقتبسته »

---

(١) رفاعة بك رافع : التعريفات الشافية فى علم الجغرافية (بولاق سنة ١٢٥٠) ص٢٢٦

من الأزهر . فالدراسة الشكلية — وخاصة فى دراسة اللغات — تغلب فيها ، والكتاب يحتل فيها المكان السامى ، والاستظهار وسيلة التلاميذ فى جواز الامتحانات .

أما فى مكاتب المبتديان فروح الأزهر (أو توابعه) من «الكتاتيب» قوى ظاهر : فالتلاميذ يجلسون على (حصر) مدَّت على الأرض ، ويقضون ساعات طويلة يتلون القرآن ويهتزون مع معلمهم إلى الأمام وإلى الخلف حين يتلونه .(١) وهم يقرأون كذلك كتب الدين واللغة التى يقرؤها صبية الأزهر . وتلاميذ « المبتديان » كذلك يفترشون الأرض حين ينامون وحين يأكلون ، وهم يلبسون ملابس لاتختلف كثيراً عن تلك التى يلبسها أطفال « الكتاتيب » القديمة ، إلا فى تلك «الطرابيش» التى يضعونها على رءوسهم .

أما المدارس فأبنيتها لم تنظم بحيث يكون لكل فرقة غرفة خاصة ، يتلقى فيها تلاميذها وحدهم الدروس المقررة عليهم ، فمدرسة الألسن مثلا — وهى المدرسة التى كان يكثر بها المدرسون من رجال الأزهر يدرسون كتب الأزهر فى النحو والصرف والبيان والعروض للتلاميذ الذين يعدّون لحذق اللغتين العربية والفرنسية — كان تلاميذها جميعا يجلسون معاً فى قاعة متسعة ، ويدرسون معاً دروسا مختلفة ، فهؤلاء تلاميذ يقرأون « بند عطار » أو «الكلستان» مثلا ، وهؤلاء غيرهم يقرأون الأدب الفرنسى وآخرون الجغرافيا والتاريخ وهكذا ، وأصواتهم جميعا يختلط بعضها ببعض . ألسنا نجد أكبر الشبه بين هذا الأسلوب فى الدرس وأسلوب الأزهر فى أروقته وحول أعمدته ؟

ولم يقتصر تأثير روح الأزهر وأسلوبه فى الدراسة على ما ذكرنا ، بل تعدَّاه إلى الاهتمام أكبر الاهتمام بالتعليم «الدينى» فى المدارس ، هذا الاهتمام

(١) Bowring, op. cit. p. 136.

الذى أوحى بتحفيظ القرآن وتدريس كتب أولية فى الدين لتلاميذ «المبتديان» وبإجازة التلاميذ فى شهر رمضان ، وبالخروج بهم حين تهبط مياه النيل الى المساجد حيث يبتهلون إلى الله لزيادته .

ومن هذا يتضح أن تأثير الأزهر والتعليم الدينى القديم فى المدارس كان قوياً جدا ، بل هو أقوى تأثيراً منه فى العصر الحاضر : ذلك لأن المدارس فى عهدها الأول كانت فى حاجة إلى سند يعينها على الوقوف ، وإلى روح يسرى فى هيكلها ، وإلى تقاليد تقتبس منها ، وهنا تقدم التعليم «القديم» — وهو وحده الذى كان قائماً فى مصر منذ قرون — بالسند والروح والتقاليد . فلا عجب إذا اشتد تأثير الأزهر — «ممثل» التعليم القديم — على المدارس ، حتى لقد باعد هذا التأثير بينها وبين المثال «الغربى» الذى أنشئت على غراره .

ولكن المدارس لم تخضع كل الخضوع للأزهر ، فإنها لم تلبث — حين استتب كيانها وتكونت لها «التقاليد» — أن (تحررت) كثيراً من نفوذ الأزهر ، حتى ليصعب علينا الآن أن نتتبع التأثير الذى قد يستطيع الأزهر أن يؤثره فى المدارس . وعلى العكس من ذلك نلمس التأثير البالغ للمدارس على الأزهر . وقد بدأ هذا التحرُّر — تحرُّر المدارس والتعليم الحديث من نفوذ الأزهر — فى عصر محمد على نفسه . فقد أرجعنا هذا التأثير إلى (طراوة) التعليم الحديث فى عهده الأول وحاجته إلى السند والروح والتقاليد ، فلما شبَّ وأصبح قادراً على الوقوف على قدميه استغنى عن سند الأزهر وروحه وتقاليده ، ومضى يصطنع لنفسه التقاليد وتصطبغ روحه بصبغة جديدة . وكان محمد على يعلم أن التعليم «الحديث» فى حاجة إلى سند من التعليم «القديم» ، وأنه إذا أراد للتعليم الحديث الذى أنشأ حياة وقوة فلينتفع بما يمكن الانتفاع به من التعليم القديم . ولكنه كان يعلم أيضاً أن هذا (الدور) يجب ألا يستمر طويلا ، بل يحسن بالحكومة أن (تحرِّر)

المدارس من نفوذ الأزهر وتأثيره ، وسواء أكانت هذه سياسة (مقصودة) ترمى إلى هذا التحرر ، أم كانت سياسة (ارتجالية) أملتها مجرد الرغبة فى رفع مستوى المدارس ، فإنا نلحظ فى السنوات الأخيرة من عصر محمد على مظاهر كثيرة تباعد بين الأزهر وبين المدارس . ولكن هذا التباعد لم يتم فى عصر محمد على وإن بدأ فيه .

بعد أن كانت الحكومة تأخذ كثيراً من تلامذة الأزهر لمدارسها الحديثة ، وترى أنهم « متقدمون فى العلم » فتزيد مرتباتهم على مرتبات زملائهم ، نظمت المدرسة التجهيزية ، ومنها أخذت المدارس كفايتها من التلاميذ . وأخذت الحكومة ترى أن طلاب الأزهر لا يمكنهم أن يتابعوا دراسة العلوم الحديثة ففضلت عليهم تلاميذ المدارس .[1] حتى لم نعد نسمع بتلاميذ من الأزهر يلحقون بمدرسة من المدارس الخصوصية .

وكذلك لم تعد الحكومة تختار لبعوثها إلى الغرب أحداً من أهل الأزهر ، حتى أن البعثة التى كانت قد اعتزمت إرسالها فى سنة ١٨٤٧ إلى فرنسا لدراسة (القانون) ، ومضت تنتقى لها أعضاءها الخمسة من طلاب الأزهر ، لم تلبث أن انصرفت عنها وآثرت ألا تبعثها . واقتصرت البعوث المصرية إلى أوربا على خريجى المدارس الخصوصية .

أما كتب الأزهر فى علوم الدين واللغة التى كانت تقرأ فى المدارس والمكاتب فقد بقيت إلى نهاية عصر محمد على . وإن كنا نرى — فى مكاتب المبتديان — بداية (التحرر) من هذه الكتب : إذ وُضعت لتلاميذها كتب قد تناسبهم من الوجهة العقلية وتحبب القراءة إليهم ، وهى كتب « حكايات الأطفال » و « عقلة الصباع » وغيرها . ولكنها كانت بداية ضعيفة ، وكانت لكتب

(١) دفتر ٦٧ (معية) رقم ١٨٢ إلى وكيل ناظر الجهادية فى ٢٢ رجب ١٢٥٢ — بالموافقة على إلحاق بعض التلامذة فى معية « لبنان أفندى » ليتعلموا العلوم الرياضية ، على أن يختار هؤلاء التلامذة من مدرسة الأسكندرية بدلا من اختيارهم من « المجاورين » .

الأزهر الغلبة فى المكاتب والمدارس على السواء . حتى إذا تقدم الزمن ووضعت للمدارس كتب خاصة للقراءة ودراسة الدين واللغة نحواً وصرفا كان ذلك من أعظم مظاهر (تحرُّر) المدارس من نفوذ الأزهر . ولكن ذلك لم يتم إلا منذ عهد غير بعيد .

أما مدرسو اللغة العربية والدين و«المصححون» فى المدارس وقلم الترجمة من رجال الأزهر فلم تتمكن الحكومة من الاستغناء عنهم ، أنْ كانوا أكثر الناس معرفة باللغة العربية . لهذا ظلت الحكومة تعين من الأزهر المدرسين و«المصححين» . وكان هذا تقليدا ظل (حيًّا) إلى عهد قريب . فعلى الرغم مما أنشأت الحكومة من معاهد خاصة لإعداد مدرسين للغة العربية ، فإن هذه المعاهد — بطبيعة تكوينها ونشأة أساتذتها وطلابها — يمكن اعتبارها (ربيبة) الأزهر .

على أن حكومة محمد على بدأت تدخل فى ميدان التدريس فى مدارسها طائفة جديدة ، فقد كان (الفقهاء) وحدهم هم الذين يدرسون كل المواد فى مكاتب المبتديان ، ولكن لما بدأت الحكومة تنشىء مكاتب «الملة» ، عينت لها مدرسين من تلامذة مدرسة المهندسخانة لتدريس الحساب . وإلى عهد ليس ببعيد كان كثير من مدرسى الحساب بالمدارس الابتدائية والتجهيزية من خريجى المهندسخانة أو ممن قضوا بها شطرا من دراستهم . وكان الأساتذة من الأزهر نظارا على مكاتب المبتديان ، فاستبدل بهم أطباء متخرجون فى مدرسة الطب يديرون المكاتب ويعالجون تلاميذها .

بل لقد رأت الحكومة فى نبوغ بعض خريجى مدرسة الألسن فى اللغة العربية ما شجعها على نصبهم مدرسين لهذه اللغة فى مدرستهم محل بعض مدرسيهم من رجال الأزهر ، وهكذا أخذ خريجو (المدارس) يزاحمون رجال (الأزهر) فى الميدان الذى احتكروه زمنا طويلا ، ولكن هذه المزاحمة

لم تستمر طويلا ، وعاد الأزهر يحتكر تدريس اللغة العربية والدين فى المدارس على النحو الذى ذكرنا .

أما من جهة (الروح) الذى كان الأزهر يبسطه على معاهد الدراسة الحديثة ، ويجعل التلاميذ يحيون فى مرحلة منها — وهى مكاتب المبتديان — حياة شرقية محضة فى لباسهم وغذائهم وافتراشهم الأرض فى النوم واليقظة ، فقد أخذت حكومة محمد على تعالجه بما يجدد أو يرفه من حياة التلاميذ فيها : فأصبح التلاميذ يجلسون إلى مقاعد وينامون على أسرة . ومن مظاهر هذا (التجديد) — إذا جاز لنا أن نعده تجديداً — أن ضعف الاهتمام بالتعليم الدينى فى المكتب (النموذجى) ومكاتب (الملة) التى شرعت الحكومة فى إنشائها فى أواخر العصر . ولكن هذه الروح — روح التجديد — كانت هى الأخرى بداية ضعيفة ، يعوزها الاستمرار والعناية ، لتؤتى مع الزمن ثمرها .

على هذا النحو أخذ تأثير الأزهر فى المدارس يضعف بعض الشيء ، بينما أخذت المدارس منذ أنشئت فى النصف الأول من القرن الماضى حتى السنوات التى نعيش فيها فى هذا القرن — يستتب كيانها وتتوفر على تكوين (تقاليد) خاصة بها و (روح) خاص بها و (أدوات) خاصة بها . حتى إذا كان العصر الحاضر ظهرت الهوة سحيقة بين التعليم « المدنى » فى المدارس والتعليم « الدينى » فى الأزهر والمعاهد الدينية . ولكن هذه الهوة لم تكن (سحيقة) بين كلا النوعين من التعليم فى عصر محمد على : فقد تتبعنا مدى تأثير الأزهر فى المدارس الحديثة فى هذا العصر . ورأينا أن كثيراً من طلبة المدارس تلقوا تعليمهم الأولى إما بالأزهر أو بغيره من معاهد التعليم الدينى ، وأن أساتذة المدارس كان كثير منهم من علماء الأزهر ، وأن كتب الأزهر كانت تدرس بالمدارس ، وأن روح الأزهر كان قوياً

فى التدريس وفى حياة التلاميذ . وهذا كله كان من شأنه أن أوجد لوناً من الصلة والتفاهم بين الأزهر والمدارس .

ولم يكن الأزهر وحده هو الذى أثر فى المدارس ذلك التأثير البالغ الذى تتبعنا — فى الصفحات السابقة — مظاهره ، بل كان للمدارس أيضاً على الأزهر والتعليم الدينى تأثير آخر ، قلنا إنه كان ضعيفاً فى عصر محمد على ، ولكنه أخذ يقوى من بعده .



ونحب قبل أن نتتبع تأثير التعليم « الحديث » فى التعليم « القديم » أن ننفى فكرة طالما تحدث بها كثير من الكاتبين وظاهروا بها فكرة خاطئة ردَّدتها بعض المؤلفات المتأخرة : وهى وصف الأزهر والتعليم الدينى بالجمود المطلق ، حتى ليحمل هذا الجمود علماءه على النظر إلى رجال المدارس الحديثة ، كمرتدين فقدوا إيمانهم وباعوا ضمائرهم ، أنْ أصبحوا يتكلمون لغات الأجانب ويلبسون لباسهم ويتعلمون علومهم . يقول يعقوب أرتين باشا وكيل المعارف الأسبق : « طالما أن محمد على لا يعتمد فى إدخال التعليم الأجنبى فى مصر على الأجانب أو المماليك أو غيرهم، فان الرأى العام والأزهر لا ينزعجان كثيرا لهذا العمل الجديد الذى لا يمسهم ولا تعنيهم نتائجه ، أما عند ما يبدأ هذا التعليم الدنيوى الدنس فى الانتشار ، ويوشك أن ينتظم الشبيبة المصرية بأجمعها ، فإنه تظهر فى الشعب مقاومة عنيفة ضد هذا التعليم الأجنبى ، فاتُّهم الأطباء والمهندسون ورجال الجيش وعلى العموم كل من درس هذه العلوم الواردة من أوربا بأنهم باعوا جسومهم وأرواحهم للأوربيين ، بل وأصبحوا مسيحيين . ولمَّا لم يكن فى وسعهم أن يثوروا على رغبة الباشا ، فقد استعملوا كل الطرق الممكنة ليمنعوا (فقد أبنائهم) ببذل كل ما فى وسعهم لمنع أبنائهم من أن يقادوا إلى مدارس الباشا » .[1]

---

(١) Artin Pacha, L'Istruction Publique en Egypte, p. 142.

وليس أبعد من هذا الرأى تعليلا لإحجام المصريين عن إرسال أبنائهم إلى مدارس الحكومة فى عهدها الأول ، فليس هناك ما يثبته . وإذا كان المصريون قد وقفوا هذا الموقف من مدارس محمد على ، فذلك لأسباب أخرى تحدثنا عنها فى موضعها .

ويتابع أرتين باشا حديثه بقوله: «أما الأزهر فقد اعتزل بنفسه ، وعمل كل ما فى وسعه ليحفظ مبادئه وأساليبه . وأما هؤلاء العلماء الذين لسبب ما تعلموا اللغات والعلوم فعليهم أن يتركوا ساحة الأزهر ، حتى لم يعُدْ فى وسعهم أن يجدوا تلامذة يرضون أن يتابعوا دراستهم ، بل عليهم فوق ذلك أن يغيروا لباسهم ويتغيروا جسديا كما تغيروا عقلياً (كذا) ، وينظر إليهم المسلمون الأتقياء كضالّين يجب لهم طلب الرحمة » . (١)

وإذا كنا أهملنا مناقشة الرأى الذى أبدى أرتين باشا عن موقف الشعب من التعليم الحديث ، لأنه يحمل بين طياته أدلة ضعفه وتهافته ، فإنا نحب أن نقف عند رأيه الثانى عن موقف الأزهر وقفة طويلة بعض الشىء: فهو يصوّر الأزهر عدوًّا للمدارس ، ويصوّر تلامذته ومدرسيه الذين (اضطروا) إلى أن يدرسوا علوم المدارس فى صورة (المنبوذين) من جمهرة رجال الدين ، وهو فى ذلك (يظلم) الأزهر والتعليم الدينى كله ، ويصوّره فى صورة الجمود والرجعية ، وليس شىء من ذلك حقا .

كان رجال الأزهر يحبون معهدهم ويتعلقون به . ويرون أنه كان وما زال الموئل لدراسة اللغة والدين ، وأنه خليق من الحكومة بكل رعاية وتقدير . ولكنهم لاشك يعلمون كذلك أن المدارس التى أنشأت الحكومة تعلم طائفة كبيرة من أبناء البلاد ، وهى تعلمهم علوما لا يستطيعون أن ينكروا نفعها وجدواها فى تفتيق الذهن والإعداد « للحياة » ، أنْ كانت هى نفسها

(١) Ibid. p. 143 — 144.

العلوم التى أخذ بها الأزهر تلاميذه فى عصوره الزاهرة الماضية . وقد بلغ من تأثير هذه الفكرة فى نفوس بعض الخاصة من رجال الدين أن حاولوا أن يدخلوا فى الأزهر بعض العلوم « الحديثة » . فقد رأينا أن الشيخ العروسى شيخ الأزهر فكر فى تدريس بعض علوم الطب والصحة فى الأزهر ، وفاتح فى ذلك الدكتور كلوت بك ، الذى راح يأسف أن المنية عاجلت الشيخ قبل أن يحقق فكرته .

فهذا شيخ للأزهر — أعظم رجال الدين فى مصر شأناً — يريد أن يحمل بعض العلوم الحديثة إلى الأزهر ، بعد أن مرَّ عليه حين من الدهر لا يأخذ تلامذته بغير اللغة والفقه والدين . وهذا الشيخ لا يمكن أن يرى هذا الرأى إلا إذا كان واثقاً من أن جلَّة المتفقهين من رجال الدين تؤيده — أو على الأقل لاتناهضه — فيما يرى . حقاً إن كثيرا من رجال الأزهر عارضوا بعد ذلك حركة الإصلاح التى كانت ترمى إلى إدخال بعض العلوم « الحديثة » فى الأزهر ، كالجغرافيا والتاريخ والرياضيات ، ولكنها كانت معارضة قاصرة على أقلية جاهلة من المنتمين إلى الأزهر ، وكانت تدفعها إلى معارضتها عوامل أخرى ، كان أقلها خطرا عامل الشعور الدينى .

وهذا شيخ آخر للأزهر — هو الشيخ حسن العطار — يقف فى امتحانات مدرسة الطب خطيباً ، فيشيد بفائدة الطب فى تقدم الإنسانية ، ويفخر أن أتيح للأزهر فى تاريخ مدرسة الطب أول إنشائها أثر جليل : فتلامذتها الأول كان جلتهم من تلاميذ الأزهر ، وأظهروا فى دراسة الطب ذكاء واستعداداً كبيراً ، كما أن بعض رجال الأزهر عاونوا على إفادة التلاميذ من دروسهم فائدة كبيرة بما قاموا على إصلاحه من كتب الطب ، وكان لهم فى وضع المصطلحات الطبية جهد ناجح . والشيخ العطار نفسه هو الذى اتصل من قبل بالفرنسيين لما احتلوا مصر ، فقد ذكرنا أنه كان « يستفيد منهم الفنون

المستعملة فى بلادهم ويفيدهم اللغة العربية ، ويقول إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها ، ويتعجب بما وصلت إليه تلك الأمة من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة » .[١] وعاش الشيخ العطار ليشهد كشيخ للأزهر تحقق نبوءته فى عهد محمد على . والشيخ العطار هو الذى قدم الشيخ الشاب « رفاعة رافع » لمحمد على ليكون إماماً لبعثة سنة ١٨٢٦ إلى فرنسا ، ثم عضواً بها ، وهو الذى أوصى رفاعة بأن يقيد ما يشاهده فى بلاد الغرب من الأمور التى يرى فيها فائدة لبنى وطنه ، حتى يظهرهم على النواحى المختلفة للحضارة الأوربية . حتى إذا أطاع الشيخ رفاعة وصية أستاذه وأتم « رحلته » ،[٢] أوصى بها الأستاذ حتى قامت الحكومة على طبعها ونشرها . كل هذا يفعله الشيخ العطار ، ولم نسمع أن عالماً من علماء الأزهر قام يناهضه أو يرى فى تقربه من المدارس والتعليم « الحديث » والعلوم « الغربية » أمراً يخالف الدين .

وهذا شيخ آخر من أكبر رجال الدين ، وهو المفتى — الشيخ أحمد التميمى — يرى أن علوم الأزهر لم تعد تجدى فى الإعداد للحياة والمجتمع فى عصره وأن المدارس تقوم عنها بذلك خير قيام ، فينقل ابنه من الأزهر — موئل تعليم الدين — إلى مدرسة المبتديان ، « لتفضيله العلوم التى تدرس فى المدرسة على العلوم التى تدرس فى الأزهر » .[٣]

وهؤلاء علماء آخرون يغبطون رجال الأزهر على ما أصابوا من العلوم الحديثة واللغات الحية ، فيطلبون إلى الشيخ رفاعة عقب عودته من البعثة أن يعلمهم اللغة الفرنسية .[٤] ولم نسمع أنهم أصبحوا منبوذين تطلب لهم (الرحمة) من الله !

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية م ١ ج ٤ ص ٣٨

(٢) تخليص الابريز فى تلخيص باريز

(٣) دفتر ٢٠٩٧ (مدارس تركى) ص ١٥٩ رقم ٧٥١ إلى كامل باشا فى ٢ المحرم ١٢٦٢

(٤) من رفاعة إلى جومار فى ١٦ أغسطس ١٨٣١ فى : Jour. Asiatique, VIII. p 534.

وهؤلاء نفر من تلامذة المدارس يرون أن دروس اللغة والدين التى تُلقى فى الأزهر جديرة بأن يقبلوا عليها ليصيبوا الدينهم ودنياهم ! فهم يدرسون بمدارسهم نهاراً ويترددون على الأزهر مساء. [1] وهم لو كانوا قد صادفوا من علماء الأزهر وطلابه إعراضا لامتنعوا عن الاختلاف عليه والأخذ عن أشياخه.

هذا إلى أن التلاميذ والمدرسين والمصححين «الأزهريين» بالمدارس لم ينسوا بيئاتهم التى نشأوا بها، فهم يترددون على أهلهم وإخوتهم وأساتذتهم، وينشرون بينهم تقدير العلم «الحديث»، واحترام رجاله، وهم — بعدُ — لم يفعلوا شيئا ينفر الناس منهم : فالتعليم الدينى الشرقى بالمدارس معنى به، والتلاميذ يقرأون كتب الأزهر فى اللغة والدين، وشعورهم الدينى — وإن غيروا لباسهم بعض الشىء — ظل سليما.

* * *

بدأ الأزهر يشهد علوماً جديدة ولغات جديدة ونظما فى التعليم جديدة. وليس يتسنى للأزهر إذ ذاك أن يتسع لهذا كله، ولكن الشعور بجدوى هذه العلوم واللغات والنظم كان حافزاً لبعض رجاله على أن يحاولوا الأخذ منها بنصيب. وقد وفقوا فى محاولتهم هذه إلى حد كبير. وبدأ روح «التجديد» يسرى فى «الجسم» القديم البالى، وبدأت الصلة بين الأزهر والمدارس. بل إنا لنرى أن هذه الصلة بين الأزهر والمدارس كانت أقوى فى عصر محمد على منها فى العصور التى تلته. وقد أرجعنا ذلك إلى أن الأزهر وما إليه من معاهد الدراسة الدينية القديمة كانت وحدها القائمة حين أنشئت هذه المدارس، فمنحتها كتبها ومدرسيها وبعض تلامذتها، فسدت بذلك حاجة من حاجات المدارس وناحية هامة من نواحى التعليم.

---

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية م ٤ ج ١٤ ص ١٠٠

أخذت المدارس بسبيل «التجديد» ، فأصبح لها كتب جديدة فى الدين واللغة العربية وضعت على نهج آخر غير كتب الأزهر ، وأُعدّ لها مدرسون لتدريس الدين واللغة إعداداً يختلف بعض الشىء عن إعداد طلبة الأزهر ، وأصبح تلامذة المدارس — منذ التحاقهم بها — يدرسون اللغات الأجنبية ويكثرون من دراسة المواد « الحديثة » ، هذا إلى أنهم فى حياتهم أصابوا من « الرفاهة » ما باعد بينهم وبين تلامذة الأزهر . وهكذا (استغنت) المدارس — بعد عصر محمد على — عن كتب الأزهر والمدرسين و « المصححين » والتلاميذ من الأزهر .

وأخذت (الهوة) تتسع بين التعليم « القديم » والتعليم « الحديث » ، وأخذت نظرة كل منهما إلى الآخر تختلف كثيراً عن ذى قبـــل : فأبناء « المدارس » ينظرون إلى رجال « الأزهر » نظرهم إلى مُثُل حية للجمود والتأخر ، لأنهم لا يدرسون ما يدرسونه من لغات أجنبية وعلوم حديثة ، ثم إنهم يحيون حياة تمت إلى القديم بأكبر الصلات . وأهل « الأزهر » يرون فى أبناء « المدارس » قوماً يريدون أن يقطعوا وشائج القربى بماضى بلادهم وتقاليدها ، ويتحرروا من سلطان الدين ، ويحبون أن ينظروا دائماً إلى الأمام ولا يلتفتوا مرة إلى الوراء !

واتسعت رقعة الخلاف بين (الثقافتين) ، وانقسم المصريون بينهما فريقين . ونشأ بينهما الصراع الذى ما نزال نشهده كل يوم فى معاهد تعليمنا وصحفنا ، بل وفى بيوتنا وأنديتنا . ولم يكن هناك بدٌّ لأحدهما — مالم يستطع ابتلاع الآخر وتمثله — أن يتأثر به ويؤثر فيه .

أما تأثير الأزهر على المدارس فقد تتبعنا مظاهره ، أما تأثير المدارس على الأزهر فقد رأينا أنه بدأ ضعيفاً فى عصر محمد على ، إذ كانت المدارس نفسها فى حاجة إلى الاستقرار والعون ، فلما استقرَّت ونهضت واتجهت إلى الأمام

استطاعت أن تؤثر فى الأزهر ومعاهد التعليم الدينى ، فنقلت إليها بعضاً من علومها الحديثة وتقسيمها المدرسى إلى (فرق وفصول) والدراسة (الجمعية) المتشابهة والتعليم المقيد بلوائح للامتحانات والإجازات والمناهج .

ويحب كثير من مفكرى الأزهر أن يجتازوا بمعهدهم الهوة التى تفصل « الأزهر » و « التعليم الدينى » عن « المدارس » و « التعليم الحديث » . وهم لذلك يخضعون الأزهر كل يوم لألوان من نظم المدارس الحديثة ، حتى لقد يلهيهم ذلك عن تدبر الرسالة السامية التى أنشىء « الأزهر » لأدائها .

الفصل الثاني

أوجه الضعف

الآن وقد انتهينا من بحث النظام التعليمي الحديث الذى بدأه محمد على في مصر بمعاهده الدراسية ونظمه ولوائحه وإدارته ، ووازنا بينه وبين التعليم القديم فى الأزهر والكتاتيب ، يجدر بنا أن نقف لحظة « لننقد » هذا النظام التعليمي . ولكن قبل أن نخوض فى ذلك نحب أن نكون واضحين : فلا يظنَّن أحد أنا نرمى إلى « نقد » هذا النظام على ضوء « التربية الحديثة » ، فهذا بحث لايحتمله نظام تعليمي نشأ فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . فعلينا أن نضع دائما نصب أعيننا أن النظام التعليمى الذى وضعته — أو اقتبسته — حكومة محمد على كان الأول من نوعه فى مصر ، لم تسبقه جهود من نوعه تهديه سواء السبيل ، وتضع أمام الحكومة « تقاليد » تسير على أثرها . فحكومة محمد على كانت فى بدء الطريق ، وأنا إنما نسير على أثر جهودها الأولى ، ولم نشذ عنها كثيرا . فاذا كنا — الآن — نتحرج عن أن نضع نظمنا التعليمية الحالية بلوائحها وتفاصيلها فى بوتقة البحث « البيداجوجى » الحديث ، وإذا كنا نحاول — جاهدين — أن نلائم بين هذه النظم وبين مابلغته « التربية الحديثة » من التقدم ، أقول إذا كنا كذلك ، فهلا نُعد متجنّين على مدارس « محمد على » إذا نحن حاولنا أن نبحث عما إذا كانت تنطبق بلوائحها وتفاصيلها على مايقتضيه التقدم الحديث فى التربية أولا ينطبق ؟

الحق أنا لو فعلنا ذلك لكنا كمن يرمى الناس بحجر وبيته من زجاج ! !

كان النظام التعليمي الذي اقتبسه محمد علي عن الغرب نباتا « أجنبيا » ،

يحتاج «تأقلمه» إلى أجيال متتابعة، على أن تظل العناية به حية مستمرة. غرس محمد على هذا النبات فى تربة لم يهيئها لقبوله تهيئا حسنا، وظهر هذا النبات سقيما يحتاج إلى أشد العناية. ولكن هذه العناية قلت فى أواخر عصر محمد على، ثم أعوزته العناية فى أيام عباس وسعيد، فذوى «النبات» بين مظاهر الأسف من أولئك الذين ترعرع على أيديهم إبان النشأة الأولى، رغم أن جذوره ظلت دفينة الثرى. فإذا ما جاء «إسماعيل» تعهد الأرض وسقاها — وإن لم يتعمق كثيرا فى باطن الأرض — فلم تستعص عليه كما استعصت على جده العظيم من قبل. وعلى يدى «الخديو الأسبق» عاد النبات فاستوى على ساقه واخضرت أوراقه وأينعت ثماره.

كذلك كان «التعليم الحديث» فى مصر: وضع محمد على أساسه، وإن استورد كثيرا من مواده من خارج البلاد. ونحن معترفون أنه كان أساسا مختلا فى كثير من نواحيه، إلا أن منشىء مصر الحديثة — بما كان يملك من الوسائل المحدودة — لم يكن يمكنه غير هذا. وعلى هذا الأساس بنى «إسماعيل» وبنى من جاء بعده. وأكبر الظن أنهم كانوا لا يعلمون عن الأساس شيئا: أصالح هو أم غير صالح، فقد فتنوا بالبناء. وكان الوقت الحالى، والتعليم عندنا لم يكن إلا على الأساس الأول، وأخذنا نفكر فى هذا التعليم: أيوافق حاجات البلاد؟ أيوائم التطور الحديث؟ وما نزال نفكر ونعيد التفكير.

* * *

للتعليم فى عصر محمد على تاريخ طويل يمتد إلى نحو أربعين عاماً. ومن الصعوبة بمكان أن نصدر «أحكاماً عامة» على هذا التعليم خلال هذه السنين الطويلة. ذلك لأن التعليم لم يكن يسير فيها على وتيرة واحدة: فآنا تبذل له الحكومة عنايتها، فتكثر من معاهده ومؤسساته ونظمه، وآنا تعوزه

العناية فتُلغى كثير من هذه المعاهد والمؤسسات ، وآناً يشرف الوالى على شئونه إشرافاً يكاد يكون مطلقاً ، وآنا آخر يتبع ديوان الجهادية ثم ديوان المدارس . ولكن على الرغم من ذلك فهناك (مبادىء) عامة إذا اهتدينا بها فى بحثنا عن تاريخ التعليم خلال هذا العصر الطويل ، أمكننا أن نصدر فى شأنه أحكاماً عامة . فالغرض من التعليم يكاد يكون واحدا ، والروح التى تسود معاهده واحدة ، وإدارتها واحدة .

وعلى هذا الأساس نبين أوجه الضعف فى النظام التعليمى الحديث . وهى التى حدَّت من نشاطه وقوته ، وجعلت إنتاجه ضعيفاً ، وباعدت بينه وبين المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

أولا — فى هيكل التعليم

١ — إهمال التعليم الأولى

كان النظام التعليمى الحديث يتألف من مراحل ثلاث : مرحلة الدراسة الابتدائية فمرحلة الدراسة التجهيزية ثم مرحلة الدراسة الخصوصية . والمتتبع لتاريخ هذا النظام يرى أن حكومة محمد على قد بدأت بإنشاء المدارس الخصوصية ثم التجهيزية والابتدائية . وعلى الرغم من توسعها فى التعليم الخصوصى فقد قصرت التعليم الابتدائى الأولى على مدارس — أو مكاتب — قليلة بالقياس إلى مجموع سكان البلاد . وعلى الرغم من قلة هذه المكاتب فقد كانت رغبة الحكومة متجهة دائماً إلى إنقاص عددها : فبعد أن كانت سبعة وستين مكتبا فى الأقاليم ، أنقصت فى سنة ١٨٣٦ إلى خمسة وأربعين مكتباً ، ثم إلى ثمانية وثلاثين ، ثم إلى أربعة مكاتب فقط منذ سنة ١٨٤١ إلى نهاية العصر .

وقد واجهت حكومة محمد على المشكلة التى واجهت وتواجه الحكومات الآخذة فى وضع سياسة عامة للتعليم وهى: هل الغرض من التعليم ترقية الشعب والنهوض به وتمكينه بذلك من فهم حقوقه وواجباته والاضطلاع بها ؟ أم الغرض منه تخريج زعماء وقادة يقفون فى الطليعة ويقودون الشعب فى ميادين الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى والسياسى؟ هل تقصر الحكومة التعليم الأولى — تعليم سواد الشعب — فى مجال ضيق وتتولى بعنايتها مراحل التعليم فوق الابتدائى، وأخصها مرحلة الدراسة العالية التى تخرج لها أعوانها الذين يقومون على ما تنشىء من مؤسسات وتضع من نظم ؟ أم تنشر الحكومة التعليم بين أفراد شعبها ، فيكون التعليم بذلك وسيلة لمكافحة الأمية وبالتالى لترقية البلاد ؟

واجهت هذه المشكلة الحكومات والمفكرين ، فانقسموا إزاءها فريقين: أحدهما يرى أن واجب الدولة أن تيسّر التعليم لأفراد الشعب جميعاً، وأن تقدم لكل طبقة منه الغذاء العلمى الذى يلائمها ، ويرى الثانى أن الدولة يجب أن تتجه بعنايتها أولا إلى تكوين أعوان لها وقادة يوجهون بلادهم الوجهة الصالحة ويقومون على شئونها جميعاً .

أما الفريق الأول فيقوم رأيه على أن الشعب هو الذى ينهض بأعباء الدولة جميعاً : فهو الذى يقوم بالعمل اليدوى فى الحقول والمصانع ، وهو الذى يدفع الضرائب ، وهو الذى يحمى ذمار البلاد ، وهو قبل كل شىء مجموع الأمة ، وفى تقدمه ورقيه تقدم هذه الأمة ورقيها ، وفى انحطاطه وتأخره انحطاط هذه الأمة وتأخرها . والدولة يجب أن تقدر له أياديه (البيضاء) فى خدمة البلاد ، وهذا التقدير يكون بتعليم أفراد الشعب التعليم الذى يلائمهم . فالتعليم الصالح ، يقدر الشعب على إتقان عمله ، ويمكّنه من حسن القيام بواجباته بما يهىء له من الوسائل لرفع مستواه الاجتماعى والمادى ، وكلما أصاب فى ذلك نجاحا كان ذلك عونا له على التجويد فى عمله ، وكلما زاد إنتاج الفرد زادت

ثروة البلاد . وهكذا يفيد الشعب وتفيد الدولة من هذا التعليم ، فلا يذهب ما أنفق فى سبيله هباء .

ثم إن تعليم الشعب جميعاً يمحو أوجه الاختلاف بين الطبقات ، سواء فى الناحية الاجتماعية أو الناحية السياسية : إذ أن الدولة عليها أن تقدم لهذه الطبقات جميعاً التعليم الذى يلائم كلا منها ، فهى تمنح كل فرد منها الفرصة لإظهار مواهبه . وكثيرا ما رأينا فى البلاد التى انتشر فيها التعليم أن كثيرا من أبناء العامة قد أصابوا من التعليم حظاً كبيرا ، وأصبحوا فى أممهم قادة وزعماء . أما إذا اقتصر التعليم على طبقة دون أخرى ، وانقسم المجتمع فريقين أو طبقتين منفصلتين : طبقة ممتازة «مفكرة» وأخرى منحطة «عاملة» . الأولى تحكم والثانية تساق . الأولى تستغل خيرات البلاد والثانية تعمل وتقدم اليد والمال ، فقد يؤدى ذلك إلى تأجج الأحقاد بينهما ، وبالتالى إلى ضعف المجتمع وانحلاله وإلى أدواء اجتماعية خطيرة وظهور مذاهب جديدة ترمى إلى إعادة توزيع الإنتاج والعمل والتكاليف .

والعصر الحديث يتجه نحو تحقيق الديمقراطية والمساواة — الديمقراطية والمساواة فى الحقوق والواجبات — ويجب أن تتسع الديمقراطية والمساواة فتشملا التعليم كذلك . فتعليم الشعب جميعاً يُظهره بمظهر الشعب المتحد القوى الذى يشعر أفراده بشعور واحد ويتجهون إلى غاية واحدة . فضلا عما فيه من معانى الحق والعدل والإخاء .

ويزيد أصحاب هذا الرأى — تعليم الشعب — على ما تقدم من الحجج أن من بين أفراد الشعب من يؤهله ذكاؤه للنبوغ ، وإذا كان واجب الدولة أن تكشف عن النابغين وتعينهم على إظهار مواهبهم حتى تفيد منهم البلاد ، فكيف يتسنى لها ذلك إذا أهملت تعليم الشعب ، وهذا التعليم وحده هو الذى يظهر النابغين من بين أكداس الجهل والظلام والفاقة ؟

أما أصحاب الرأى الثانى — وهو قصر عناية الدولة على التعليم الذى يخرّج الزعماء والقادة — فيقولون إن الأمم جميعها فى كل العصور كانت فى حاجة إلى من يقودها ويعينها على الاتجاه الصحيح ، بل إن الأمم التى تسود فيها الأنظمة الديمقراطية لا تستغنى عن الزعماء ، فهى فى حاجة إلى من يوجّه نشاطها فى سبيل التمكين لهذه الأنظمة الديمقراطية على حقيقتها ، حتى لا ينقلب الأمر فيها إلى فوضى .

والأمم لا يفكر أفرادها كلهم ولا يعملون كلهم ، فالأمم شعب وزعماء ، وتوزيع «العمل» يقتضى ذلك ويحتمه ، بل هو من عوامل نجاح الأمة . إذ ينصرف كل فرد فيها إلى عمله ويتوفّر على التجويد فيه .

ثم إن تعليم الشعب جميعا لا شك يكلف الحكومة جهداً طائلا ومالا كثيرا ، يحسن أن تنفقهما فى وجوه الإصلاح الأخرى ، كتقوية البلاد وتنظيم المدن والقرى وإصلاح نظم الرى والزراعة والصناعة وإعلاء شأن البلاد بين الدول . حتى إذا توفر لها هذا كله كان لها أن تنظر فى تعليم أفراد الشعب . والدولة أخيرا لا يمكنها أن تقدم لهم جميعا تعليما قويا نافعا . وهنا تتجلى مضار التعليم الناقص المحدود الذى تأخذ به الدول شعوبها . ذلك لأن هذا التعليم ينقل الشعب إلى حال من النضج السياسى والاجتماعى السريع قبل أن تأخذ لها الدولة أهبتها . فالشعب يرى فى هذا التعليم «المبتور» الذى أصاب وسيلة لرفع مستواه الاجتماعى والسياسى والثقافى ، فهو يطالب بأشياء كثيرة : منها زيادة الأجر وإفساح المجال فى ميادين العمل الحكومى ، ومنها الحقوق السياسية وغيرها . وقد لا تكون الدولة مستعدة لتحقيق هذه المطالب جميعا ، فتنشأ من ذلك حال من (القلق) بين أفراد الشعب قد تدفعهم إلى الثورة .

والتعليم الناقص يخّض الطبقات (العاملة) فى بيئاتهم التى نشأوا بها ، فهم

ينظرون إليها بغير العين التى كانوا ينظرون بها إليها من قبل ، ويكشفون فيها من السيئات ما لم يكونوا يرونه من قبل . ومن آثار ذلك مانراه فى كثير من البلاد من هجرة أهل الريف إلى المدن ليصيبوا فيها مايتوهمون من رخاء فى العيش ومدنية . والتعليم الناقص يبغّض الطبقات العاملة فى أعمالهم التى كانوا ينهضون بها وينهض بها آباؤهم وأجدادهم من قبل ، ويؤدى بهم إلى احتقار العمل اليدوى والميل الى العمل « الأميرى » النظيف .

وإذا كانت الدول المبتدئة فى طريق التقدم تستطيع أن تقدم للمتعلمين فيها جميعا أو لغالبهم البيئات « الجميلة » ، والأعمال « النظيفة » التى ينشدون ، فلن تستطيع أن تستمر فى ذلك طويلا : فمجال العمل لاشك يضيق أمام جماهير المتعلمين التى تزداد يوما بعد يوم ، وبذلك تتجلى مشاكل التعطل وتتعرض البلاد لأحداث اجتماعية خطيرة .

ويردّ أصحاب الرأى الأول بأن لاخوف من ذلك كله ، إذا قدم للشعب التعليم الذى يلائمه ويصل بينه وبين المجتمع الذى يعيش فيه برباط من المحبة والنفع المتبادل ، حتى لاينفر منه — من جهة — وحتى يكون تعليمه — من جهة أخرى — عونا له على العمل لترقية هذا المجتمع والنهوض به وتجميل البيئة التى يعيش فيها حتى توائم حياته الجديدة فى ظل التعليم .

واحتدم النقاش بين أصحاب الرأيين واستمر بينهما دهراً طويلا . على أن الغلبة أخيراً كانت لأصحاب الرأى الذى يقول بنشر التعليم الأولى بين الشعب . ذلك لأن النزعة الديموقراطية فى السياسة والاقتصاد — وفى التعليم أخيرا — سادت على غيرها ، وشعرت الدول أن واجبها أن تقوم على تعليم أفراد شعبها كله ، حتى يكون ذلك التعليم عونا لها على ترقية البلاد والنهوض بها إلى مستوى الأمم الراقية .

على أن الدول المبتدئة فى طريق الحضارة لها العذر — كل العذر —

إذا هى أخذت بالرأى القائل بأن الغرض من التعليم تخريج الأعوان والقادة ، قبل أن يكون الغرض منه تعليم أفراد الشعب جميعا . ذلك لأن هذه الدول فى أشد الحاجة إلى هؤلاء الأعوان والقادة ، يضعون لها النظم الصالحة وينشئون المنشئات النافعة ، ويقومون على شئونها جميعاً ويوجهونها الوجهة التى تنشدها الحكومة فى ميادين الإصلاح الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والثقافى . وخيرٌ للدولة أن تقوم على إعداد هؤلاء الأعوان والقادة إعداداً قوياً يؤهلهم للاضطلاع بالرسالة الجليلة التى نُدبوا لأدائها من أن توزع جهودها ومالها فى نشر التعليم بين أفراد الشعب . وقد يلتوى بها القصد فتقدم لهم تعليما ناقصاً مبتوراً ، ليس بينه وبين المجتمع الذى يعيشون فيه صلة ، فيكون من ذلك الأخطار الاجتماعية التى أشرنا إليها .

حقاً إن بقاء غالب الشعب على حالهم من الجهل مع الاقتصار على تعليم نخبة من أهل البلاد والسير بهم فى التعليم إلى نهايته حتى يكون منهم القادة والأعوان والموظفون ، لا يسهِّل عملهم فى ميادين الإصلاح : فجهودهم لا تلقى من الشعب الجاهل ما هى خليقة به من اهتمام وتقدير وعون ، إن لم يصبها الإعراض بل المقاومة أحيانا . ولكن « الزمن » كفيل بأن يمحو هذا كله .

وكانت مصر — فى عصر محمد على — ترقى أولى درجات الحضارة الحديثة ، وكان محمد على يقودها فى هذا الطريق ، وكان يشعر أنه وحده لا يكفى ، وكان لذلك فى أشد الحاجة إلى من يعينه على أداء رسالته . ولم تكن النظم الجديدة فى الحرب والاقتصاد والحكم التى بدأها محمد على يعرفها أهل البلاد من قبل ، بل كلها مقتبس مما وصل إليه الغرب . وهنا أصبح محمد على بين أمرين : إما أن يدعو الأجانب لينهضوا بما قام فى مصر من المؤسسات والنظم ، ثم يبقيهم فى مصر طالما بقيت هذه المؤسسات والنظم ، وإما أن « يعلم » فريقاً من أهل البلاد علوم الغرب ليقوموا عن الأجانب بهذا العبء الوطنى الجليل .

وكان محمد على يعلم حق العلم أن طول بقاء الأجانب وحدهم على مختلف المؤسسات والإصلاحات فى مصر ليس مما يؤدى إلى ثبات هذه المؤسسات والإصلاحات وتغلغلها فى صميم الحياة المصرية ، فضلا عما فيه من إنفاق كثير من المال على الأجانب الموظفين فى مصر والتعرض لعدم الدقة فى اختيار الكثير منهم ولمايثور بينهم من النزاع فى أحوال كثيرة . وكان محمد على يعلم أن فى صرف الأجانب عن كثير من المنشئات وإحلال أهل البلاد محلهم « صيانة لأموال الدولة فضلا عن الفخر الذى يعود على الحكومة ».(١)

لهذا بدأ محمد على يكوّن (الأعوان) ، وكان يعمل جاهداً لتكثير هؤلاء (الأعوان) وتفقدهم أنى وجدهم : فقد دعا الأجانب فى مصر إلى القيام بأعمالهم وتعليم نفر من أهل البلاد فنونهم ، وأكثر من البعوث العلمية إلى أوربا ، وأنشأ المدارس لإعداد هؤلاء (الأعوان) بطريقة منتظمة مؤكدة . وهكذا أخذ النظام التعليمى الحديث يستقر فى مصر بالتدريج لغرض محدود : وهو تخريج الأعوان من الموظفين والعمال .

ليس معنى ذلك أن محمد على لم يكن يرغب فى تعليم الشعب ، أو أنه كان ينكر فائدة التعليم فى ترقية البلاد ، فقد كان يقاسى فنوناً من جهل الناس ، جهلا كان ينزع بهم إلى الإعراض عن كثير من إصلاحاته وأخصها المدارس التى أنشأ . وكان يعلم أن التعليم وحده هو الكفيل بأن يمحو هذا الجهل وبأن يرغب الناس فى إصلاحات الحكومة ومنشئاتها الحديثة فيوالوها بعنايتهم وتأييدهم وعطفهم ، ويقوموا دونها يدفعون عنها عواصف الجهل والعبث ونوازع الأهواء والفتن . هذا إلى أن التعليم يقرّب الفرد إلى معنى «الإنسانية» ، ويمكّنه من ترقية شأنه ، وفى رقى الفرد رقى لمجموع الأمة .

كان محمد على يعلم هذا حق العلم ، فأوامره ونصائحه إلى أبنائه وموظفيه

---

(١) انظر الفصل الثانى من الكتاب الأول : السياسة التعليمية فى عصر محمد على .

التى يحثهم فيها التوفّر على الدرس والتعلم وعلى الاستفادة مما يعرض لهم من تجارب الحياة تظهر أن هذا العاهل الكبير كان يؤمن بفائدة التعليم ، ويود لو استطاع أن ينشره بين أفراد الشعب جميعاً ، لولا عوامل كثيرة منها ما ذكرنا من أن النظام التعليمى قد ارتبط منذ نشأته بفكرة إعداد الموظفين ، حتى ليصعب تحويله إلى أداة أخرى ترمى إلى نشر التعليم بين الأهالى .

ومن العوامل التى كانت تحدّ من «نشاط» محمد على فى ميدان التعليم وتضطره إلى أن يقصر اهتمامه على إعداد الموظفين خوفه من أن يعلم الناس ثم لا يجد لهم بعد ذلك عملا . ذلك لأن مجال العمل لخريجى المدارس فى ذلك الوقت كان مقصورا على (دواوين) الحكومة ، وكان من المتعذر على الحكومة أن تفتح لهم ميادين أخرى للعمل ، أنْ كان النشاط الاقتصادى كله فى مصر فى يد الحكومة «تحتكره» وتوجهه كما تشاء . وكتابه إلى نجله إبراهيم باشا الذى أشرنا إليه فى فصل سابق[1] يظهر خوفه من أن ينتشر التعليم بين الأهالى ، حتى إذا أصابوا منه حظاً كبيرا أو قليلا أقبلوا إلى الحكومة فطالبوها بأن تفسح لهم مجال العمل فى (دواوينها) ، والحكومة لا يسعها أن تدبّر لهم جميعاً عملا عندها . وهنا تتعرض لمشكلة اجتماعية خطيرة تعوزها الوسائل لمواجهتها وتدبير حل لها . لهذا أشار محمد على فى كتابه هذا بالاقتصار على «تعليم عدد من الناس كاف للقيام بأعمال الرياسة» .

هذا إلى فقر ميزانية البلاد فى عصر محمد على ،[2] نتيجة لقلة السكان وفقرهم وقلة الأرضى المزروعة وقيام الحكومة بأعمال أخرى — عدا التعليم — كانت تقتضى منها مالا طائلا ، وأخصها إنشاء الجيش والأسطول والمصانع

(١) انظر ص ٣٩ — ٤٠ من هذا الكتاب.

(٢) مما يدعو إلى شديد الأسف أن مسائل الاحصاء لم تنظم فى عهد محمد على ، لذلك لا نعلم — على وجه الدقة — ميزانية الحكومة ومقدار ما يصرف منها على التعليم وعلى غيره من وجوه الاصلاح .

وتلك الحروب الطويلة التى خاضت مصر غمارها فى ميادين مختلفة . لهذا كان محمد على يشعر بالحاجة إلى المال طوال حكمه الطويل . وقد هدته حاجته إلى المال إلى وضع الشئون الاقتصادية كلها فى البلاد فى يد حكومته بغية الحصول على المال . ولكن نظام الاحتكار هذا كان يحتاج إلى عدد كبير من الموظفين وبالتالى إلى نفقة كبيرة . لهذا لم يكن لمحمد على مندوحة من (تضييق) النظام التعليمى ، حتى لا تتكلف الحكومة نفقات باهظة من جهة ، وتحقق أغراضها «المحدودة» من جهة أخرى .

ثم إن ميزانية التعليم نفسها — على قلتها فيما رجح بالنسبة لميزانيات وجوه الإصلاح الأخرى — كانت باهظة ، أنْ كان كثير منها ينفق فى أبواب لا تتصل (بعملية) التعليم عينها بأوثق الصلات . فإيواء تلاميذ المدارس جميعاً فى مدارسها وقيام الحكومة على غذائهم ولباسهم وكافة شئونهم ومنحهم المرتبات . . . كل أولئك كان يكلف الحكومة مالا طائلا . وكثير من هذا المال كان يذهب عبثا ، إما لقلة أمانة القائمين على شئون المدارس وخاصة فى القرى ، وإما لقلة اهتمامهم بتنفيذ أوامر الحكومة على النحو الذى تريد ، حتى ليرى بعض الأجانب الذين زاروا مصر ودرسوا شئونها أنه « بنصف المصروفات — إذا أحسن إنفاقها — يتسنى الحصول على نتائج تفوق فى جدواها ضعف ما هو موجود فعلا » .[1] — والواقع أن هذه النفقات الطائلة كانت تكفى لفتح مدارس أو مكاتب جديدة تبثها الحكومة فى أنحاء الريف وتجذب إليها عدداً كبيراً من أبناء الفلاحين ، حيث تقدم إليهم تعليما أولياً صالحا ، وبذلك تضع الحكومة أساساً مكيناً للتعليم الأولى . لولا أن الحكومة كانت مضطرة إلى أن تنفق هذا المال كله لإغراء أهل البلاد بإرسال أبنائهم إلى مدارسها . وقد نجحت أخيراً فى ذلك ، « فكثير من المدارس يرسل الأهالى

---

(١) Bowring, op. cit. p. 136.

إليها أبناءهم عن طيب خاطر ، حتى ليزيد عدد تلامذتها على المائة (وهو العدد القانونى) . . ذلك لأن الحكومة تقدم لهم جميع ما يحتاجون إليه . . وفى بعض المدارس (كمدرسة جرجا) قال الناظر إن التلاميذ يأتون بدافع من نفوسهم وإن المجانية والسكن والملبس خير دافع » . [١]

هذه العوامل التى ذكرنا هى التى اضطرت الحكومة إلى أن تحدّ من نشاطها التعليمى وأن تقصر عنايتها على التعليم فوق الابتدائى الذى يعدُّ لها من تحتاج إليه من الموظفين ، وأن تهمل التعليم الأولى إهمالا يكاد يكون تاما ، وخاصة فى السنين التى تلت تسوية سنة ١٨٤٠ — ١٨٤١ .

ويشبّه كثير من النقاد هذا النظام « بالهرم المنعكس » : ويقصدون به فكرة التوسع فى التعليم العالى وحصر التعليم الأولى — تعليم سواد الشعب — فى مجال ضيق ، أو بعبارة أخرى أن تقدم الحكومة تعليما عالياً (خاصاً) للقليل من الشعب ، بدلا من أن تقدم تعليما أولياً (عاماً) للكثير . فهى تقصر عنايتها على « أقلية » من الشعب وتهمل أغلبيته .

وقد شعرت الحكومة فى الشهور الأخيرة من حكم محمد على وفى الشهور القليلة التى تلته فى حكم إبراهيم بأن عليها واجباً أسمى من ذلك وأجل : وهو تيسير التعليم للشعب ، فبدأت تنشىء مكاتب « الملة » . ولكن عصر إبراهيم انتهى سريعاً قبل أن يتحقق شىء من هذا . ولو قد نجحت الحكومة فى حركتها هذه وأنشأت مدارس أولية كثيرة — لغرض آخر غير مجرد الإعداد للتعليم التجهيزى — لكان لنا (أساس) طيب للتعليم الأولى .

على أنا لا يسعنا أن ننتقد حكومة محمد على لعدم اتخاذها نظاماً لم يكن قد اتخذته بعدُ معظم الدول الأوربية المتمدنة . [٢] ففى فرنسا التى اتخذتها مصر

---

(١) Bowring, op. cit. p. 135 — 136.

(٢) Dodwell, The Maker of Modern Egypt, p. 239.

لها نموذجا لم يكن التعليم الأولى الإلزامى قد انتشر فيها بعد . وقد نصح أحد رجال التربية السويسريين الحكومة المصرية فى سنة١٨٧٢ بأن تنظر إلى غير فرنسا من الدول كبروسيا وسكانديناوا حيث تقدم التعليم الإلزامى .[١] كما قال مربٍّ سويسرى آخر فى سنة١٩٢٧ : «وما لاريب فيه أن مصر باستمدادها النماذج المدرسية من أوربا إنما نقلت عنها أردأ النماذج وزادتها رداءة من عندها» .[٢]

على أن الفارق الذى بيننا وبين الدول التى أخذنا عنها أنها أخذت تلائم بين التعليم عندها وبين ما استحدث من آراء فى عالم التربية ، وجهدت حتى استطاعت محو الأمية أو قصرها فى مجال جدّ محدود . أما نحن فقدجمدنا على النشأة الأولى ، وأخص مظاهر هذا الجمود بقاء مشكلة نشر التعليم الأولى الإلزامى من غير حل صحيح إلى الوقت الحاضر ، ومازال الهرم «منعكساً» ، ومازال التعليم فوق الأولى يحظى بأوفى نصيب من عناية الحكومة ومالها ، ومازال التعليم يرتبط فى الأذهان بفكرة (التوظف) . وقد كان للإنجليز أثناء بسط نفوذهم على التعليم وعلى غير التعليم فى مصر أثر كبير فى التمكين لهذه «السياسة» فى حياة البلاد الفكرية ، ولكثير من المساوىء التى مازلنا نقاسى فى التعليم ، وأخصها «المركزية» الشديدة فى إدارته .

٢ — الصلة بين مراحل التعليم

لم تكن الصلة وثيقة بين مراحل التعليم المختلفة ، على الرغم من أنها كانت كلها تتجه إلى هدف واحد ، وهو إعداد التلاميذ لوظائف الحكومة ، فالتعليم الابتدائى الأولى فى مكاتب ومدارس المبتديان كان يعدُّ للتعليم التجهيزى فى

---

(١) Dor Bey, L' Instruction Publique en Egypte, p. 311.

(٢) كلاباريد : تقريره عن التعليم (الترجمة العربية) ص ٧

مدرستى القاهرة والاسكندرية التجهيزيتين ، والتعليم التجهيزى يعدُّ التلاميذ لنحو عشر مدارس خصوصية ، ينتهى عندها التلميذ من عهد « التلمذة » ويبدأ عهد « الوظيفة » .

هذا هو «هيكل» التعليم كما عرفته مصر فى عهد محمد على . وقد عرفته آنا مضطربا بعض الاضطراب ، وآناً مستقراً فى لوائح موضوعة ، وعرفته حيناً من الزمن متسعاً حتى ليشمل معاهد للدراسة كثيرة ، وعرفته حيناً آخر منكمشاً حتى لتقصر أكثر معاهده على حاضرة البلاد . ولكن «هيكل» التعليم ظل واحداً منذ بدأ إنشاء معظم المدارس فى نحو سنة ١٨٣٣ إلى نهاية عصر محمد على ، بل إلى أن ألغى معظمها فى السنين الأولى من حكم عباس الأول : فهناك مدارس ابتدائية وأخرى تجهيزية وأخرى خصوصية ، وكل ما أصابها فى تاريخ محمد على الطويل زيادة عددها حينا ، وإنقاص عددها حيناً آخر ، وتنوُّع الهيئات المشرفة عليها : فهى تحت إشراف ديوان الجهادية ، ثم تحت إشراف شورى ثم ديوان المدارس ، وكذلك مقدار ما أصابت من عناية الحكومة حين وضعت لها النظم واللوائح ، أو من إهمالها حين تركتها بدون نظم أو لوائح .

فى الدور الأول من أدوار تاريخ التعليم الحديث فى عصر محمد على وهو الدور الذى حددنا نهايته بعام ١٨٣٦ حين وضعت اللوائح وأنشىء شورى المدارس ثم ديوانها ، فى هذا الدور أنشىء — فى سنين متفرقة — سبعة وستون مكتبا فى الأقاليم ، وأنشئت مدرسة بقصر العينى بالقاهرة يتلقى التلاميذ فيها — إلى جانب الدراسة الأولية — قدراً ضئيلا من المواد الأخرى التى تعدُّ لإحدى المدارس الخصوصية والحربية التى أنشئت كلها أيضا فى هذا الدور . إلا أن علاقة هذه المدارس بعضها ببعض لم تكن وثيقة ، لافتقارها إلى اللوائح التى تحدد تلك العلاقة وتقوى الصلة بين مراحلها المختلفة . فسبعة وستون

مكتبا بالأقاليم لاشك تخرّج تلاميذ أكثر مما تتسع لهم مدرسة تجهيزية واحدة بالقاهرة لم تستقر لها الصفة «التجهيزية» بعد، وهى مدرسة قصر العينى، فضلا عن أن المدارس الخصوصية — وكان عددها يربو على العشر مدارس — لا يكفيها لإعداد تلامذتها مدرسة تجهيزية واحدة. ويظهر من ذلك أن القصور كان فى قصر التعليم التجهيزى على مدرسة واحدة. ولكن الإكثار من المدارس التجهيزية، وبالتالى من عدد تلامذة المدارس الخصوصية وخريجيها، لم يكن مما ترتاح إليه الحكومة، لخشيتها من أن يحل اليوم الذى لا يتسنى لها فيه أن تدبر لهم جميعاً مجال العمل.

ولكن «المشكلة» — مشكلة عدم الترابط والاتساق بين مراحل التعليم الثلاث — لم تظهر فى الدور الأول من تاريخ التعليم. ذلك لأنه لم يطل إلى أكثر من ثلاث سنوات. فما أن شرعت المكاتب الابتدائية بالأقاليم — ومدة الدراسة بها ثلاث سنوات — تخرّج تلاميذها الذين ألحقوا بها فى العام الأول من إنشائها، حتى عاجلتها الحكومة فى سنة ١٨٣٦ باللوائح وبما يتبع اللوائح من «إصلاح» قضى على كثير منها، وخاصة ماكان منها قائما بالقرى. وأنقص عددها جميعا إلى خمسة وأربعين مكتبا. فهل أقدمت الحكومة على ذلك لأنها أحست بأن الصلة يجب أن تنظم وأن تقوى بين المكاتب الابتدائية والمدرسة التجهيزية بحاضرة البلاد، وسبيلها إلى ذلك أن تقتصر من المكاتب على العدد الذى يكفى لهذه المدرسة ؟ أو أقدمت على ذلك لأن الشكوى كانت متصلة من سوء الحالة فى كثير من مكاتب المبتديان، وخاصة مكاتب القرى، فرأت الحكومة أن لاسبيل إلى إصلاحها فألغتها ؟ وسواء كان هذا أو ذاك فقد انتهى بالحكومة الرأى إلى تنظيم التعليم الابتدائى فى خمسة وأربعين مكتبا بالأقاليم وأربعة مكاتب بالقاهرة — جمعت فى «مدرسة» واحدة — ومكتب بالاسكندرية، وتنظيم التعليم التجهيزى فى مدرستين :

إحداهما بالقاهرة والأخرى بالاسكندرية — لم تنظم مع المدرسة الابتدائية إلا بعد ذلك بسنوات عدة — والإبقاء على ما كان قائما من المدارس الخصوصية . وهكذا بقى هيكل التعليم كما كان وإن (قُصَّت) أطرافه . وشرعت المدارس — كما نظمتها قوانين سنة ١٨٣٦ — تعمل فى « تعليم » التلاميذ و « تخريجهم » . ولكن ما لبثت مشكلة عدم الاتساق بين مراحل التعليم أن بدت مرة أخرى : فخمسة وأربعون مكتبا بالأقاليم ومدرسة كبيرة للمبتديان بالقاهرة لا شك تخرج من التلاميذ ما لا يتسنى للمدرسة التجهيزية أن تتسع لهم جميعا . فهى إذا أمكنها أن (تؤوى) إليها ٤٣١ تلميذاً من خريجى مكاتب الأقاليم فى أحد الأعوام ، فليس يتسنى لها أن (تؤوى) إليها مثل هذا العدد فى كل عام . ولا شك فى أن الحكومة قد بدأت تشعر بالحيرة فى توجيه المتخرجين فى المكاتب والمدارس الابتدائية . وقد رأينا أنها كانت تُبقى فى بعض السنين تلاميذ مدرسة القاهرة عاما آخر فى مدرستهم يعيدون فيه دروسهم ، ويتلقون مبادىء من الدراسة التجهيزية ، حتى تخلوَ لهم محال بالمدرسة التجهيزية . ولكن ذلك لا يمكن أن يدوم طويلا .

ومن ناحية أخرى كان قصر التعليم التجهيزى على مدرسة واحدة — إذ أن مدرسة الاسكندرية لم تنظم إلا أخيرا — لم يكن يكفى لإعداد التلاميذ الذين تحتاج إليهم المدارس الخصوصية وهى كثيرة العدد . وأكثر من ذلك إن هذه المدرسة التجهيزية لا يمكن أن يتمّ تنظيمها وينتهى إعداد تلامذتها قبل أربع سنوات أى فى سنة ١٨٤٠ ، والمدارس الخصوصية قائمة قبل ذلك بسنوات على تعليم التلاميذ وتخريجهم لدواوين الحكومة وفرق الجيش ، وهى ليس فى وسعها أن تغلق أبوابها وتنتظر صابرة حتى يتم إعداد التلاميذ لها على النحو الذى رسمت القوانين . لهذا اضطرت كثير من المدارس الخصوصية إلى أن تأخذ من تلاميذ التجهيزية من لم يكمل إعدادهم ، إذ

لم يقضوا بالمدرسة التجهيزية سوى عام أو عامين أو ثلاثة أعوام .

وقد أدى ذلك إلى ضعف المستوى العلمي بالمدرسة التجهيزية سنوات عدة ، لأن « الفرصة ، لم تتح لها للقيام على تعليم تلامذتها التعليم الذى أشارت به القوانين واللوائح . فكثير منهم تخرجوا فيها قبل أن يحذقوا اللغة العربية بله التركية أو الفارسية ، وقبل أن يصيبوا من دراسة الرياضيات ما يمكنهم من متابعة دروس (المهندسخانة) أو (الطب) مثلا ، أومن دراسة التاريخ والجغرافيا ما يمكّنهم من متابعة دروس (الألسن) فى حذق وسهولة . وبذلك انحط المستوى العلمي بالمدارس الخصوصية إلى درجة بعيدة ، وزادت مهمة هذه المدارس صعوبة . ومن هنا كان نتاجها فجاً لم يتح له من الوقت ما يعينه على النضج . فأكثر الأطباء المتخرجين فى مدرستى الطب البشرى والطب البيطرى لا ينهضون فى جدارة بالأعمال التى أسندت إليهم ، وأظهر كثير منهم من قلة الكفاية ما اضطر الحكومة إلى أن تعيد بعضهم إلى مدارسهم ليتمّوا فيها ما ينقصهم أو تمدّهم بالكتب الجديدة فى فنونهم ، ثم تنذرهم بالامتحان وبترقية الناجح وفصل الراسب . ومدرسة المهندسخانة كانت تقاسى كثيراً من ضعف التلاميذ الملحقين بها ، حتى لتضطر إلى أن تأخذهم أولا بكثير من مبادىء العلوم التى كان على المدرسة التجهيزية أن تزوّدهم به . بل لقد نظر إلى قسم من مدرسة المهندسخانة « كأنه مدرسة تجهيزية » .

كانت الحكومة تشعر بهذا كله ، وكانت تقارير امتحانات المدارس تتحدث فى هذا كله وتنشد العلاج السريع . ومن هنا ما أقدمت عليه الحكومة فى سنة ١٨٤١ ، وكانت تضع نصب عينيها — عدا الاقتصار فى معاهد التعليم على القدر الذى يعد لها الأعوان والموظفين — غرضاً هاماً ، هو تقوية الاتساق بين مراحل التعليم المختلفة ، حتى لا تتعرض لمشاكل توجيه

ناشئة البلاد بعد أن تزوّدهم بالقسط الذى يتفق لهم من التعليم . وحتى يكون من ذلك رفع المستوى العلمى للمدارس . وانتهى بالحكومة الرأى إلى الحلول الآتية :

١ — إلغاء معظم مكاتب المبتديان بالأقاليم : فبعد أن كانت خمسة وأربعين مكتباً عقب تنظيمها فى سنة ١٨٣٦ ، ثم ثمانية وثلاثين على أبواب التنظيم الثانى فى سنة ١٨٤١ ، أصبحت أربعة مكاتب بعد هذا التنظيم إلى نهاية عصر محمد على . وعلى الرغم من تلك الضربة القوية التى أصابت التعليم الابتدائى الأولى بالأقاليم بقصره على عدد من المكاتب لا يصل إلى عدد أصابع اليد الواحدة ، فإن الاتساق أصبح وثيقاً بين تلك المكاتب والمدرسة التجهيزية بالقاهرة ، إذ أصبحت المحال الخالية بها تتسع كل عام للمنتهين من الدراسة الابتدائية .

٢ — إنقاص العدد (القانونى) لتلاميذ المدارس الخصوصية ، تقليلا لعدد المتخرجين من جهة ، وحتى لا تشتدّ حاجتها إلى تلاميذ التجهيزية فتأخذهم قبل إتمام دروسهم من جهة أخرى . لهذا اكتفت بعض المدارس الخصوصية عاماً أو عامين بمن عندها من التلاميذ ، حتى إذا أتمت تعليمهم وخرّجتهم وبدأت تشعر بالحاجة إلى (الغذاء) كانت المدرسة التجهيزية قد اتسع لها الوقت الكافى لإعداد تلامذتها إعداداً تاماً ، وشرعت (توزعهم) على المدارس الخصوصية .

٣ — ولكن مدرسة تجهيزية واحدة — وخاصة بعد إنقاص عدد تلامذتها — لا تكفى لتموين هذه المدارس كلها ، لذلك نظمت الحكومة المدرسة البحرية بالاسكندرية لتكون مدرسة ابتدائية وتجهيزية معا ، تتلقى التلاميذ أميين وتعدهم فى ست سنوات أو سبع للدراسة الخصوصية . وكذلك نظمت المكتب العالى كمدرسة تجهيزية أخرى تعدّ التلامذة للمدارس الخصوصية . وهكذا أصبح لمصر فى السنين الأخيرة من عصر محمد على ثلاث

مدارس تجهيزية : الأولى بأبى زعبل بقرب القاهرة ، والثانية بالاسكندرية والثالثة هى المكتب العالى بالخانقاه .

ونجحت الحكومة فى محاولتها هذه ، وأصبحت مراحل التعليم أشد اتساقا والصلة بين أجزائها أشد قوة مما كانت . ولكن (الثمن) الذى دفعته الحكومة كان باهظا ، وهو تضييق مجال التعليم الأولى الابتدائى فى الأقاليم .

ثانيا — فى الإدارة التعليمية

يسود الإدارة التعليمية فى مصر نظام المركزية ، ويقصد بكلمة « المركزية » " Centralis ation " أن يكون المرجع فى إدارة الشئون هيئة واحدة بالبلاد ، يكون مقرها فى غالب الأمر فى حاضرتها ، ومن هذه الهيئة تصدر الأوامر إلى الهيئات أو المؤسسات التابعة لها فى أنحاء البلاد . فنى الشئون الادارية يقال مثلا إن مصر يسود فيها نظام المركزية ، لأن السلطات كلها (تتركز) فى وزارات الحكومة فى حاضرة البلاد . وكذلك فى التعليم ، تشرف على معاهده جميعاً فى طول البلاد وعرضها هيئة واحدة هى «وزارة المعارف» ، فهى التى تضع اللوائح والقوانين ، ومنها تصدر الأوامر و « المنشورات » إلى المدارس (التابعة) لها ، أو (المشرفة) عليها ، وليس لهذه المدارس إلا أن(تطيع) ما يصلها من تلك الأوامر والمنشورات . و«وزارة المعارف» هى التى تعين موظفى المدارس وتعزلهم وتعاقبهم ، وهى التى تضع الخطط والمناهج وتقر قبول التلاميذ ونقلهم من فرقة إلى أخرى ومن مدرسة إلى أخرى ، ورجال الوزارة هم الذين يقومون بالامتحانات العامة وهكذا . ولسنا نعدد «اختصاصات» وزارة المعارف على سبيل الحصر ، بل على سبيل التمثيل لما يمكن للإدارة المركزية أن تقوم به فى شئون التعليم .

حقا لقد بدت أخيرا نزعة ترمى إلى نزع بعض هذه الاختصاصات ووضعها فى هيئات أخرى إقليمية وهى مجالس المديريات . ولكن هذه الهيئات الإقليمية لها من المشاغل الأخرى ما يصرفها عن التفرغ لشئون التعليم ، وليس لها من الكفاية الفنية فى شئون التربية والتعليم ما يقدرها على الإشراف على شئون المدارس التابعة لها فى يسر وإتقان . لذلك لم تلبث أن وقعت هذه المدارس تحت إشراف وزارة المعارف ، ولم يبق لمجالس المديريات إلا قسط من الاشراف « الادارى » والمالى .

على أن الجامعة لم تلبث أن انتزعت من وزارة المعارف مدارس التعليم العالى ، فأشرفت بذلك على إعداد شباب البلاد فى المرحلة الأخيرة من التعليم .

وفيما عدا ذلك بسطت الوزارة نفوذها المطلق على معاهد الدراسة الأولية والابتدائية والثانوية والفنية . وأكثر من ذلك إن معظم المدارس (الحرة) التى أنشأها أفراد أو هيئات وطنية أو أجنبية قد قبلت أن تخضع للوائح الوزارة وبرامجها وامتحاناتها ، فأصبحت تدرس لتلاميذها ما تدرس مدارس الوزارة لتلاميذها وتعدهم للامتحانات العامة وإجازات الوزارة . وقد أدى بها ذلك إلى قبول إشراف الوزارة عليها وتفتيشها عن شؤنها . [1]

من هذا كله يمكننا أن نقول إن نظام المركزية يسود التعليم فى مصر . أما أضراره فواضحة للعيان : وأخصها حرمان المدارس الاستقلال الذاتى الذى يُقدرها على أن (تكيف) نفسها تبعاً للبيئة المحلية التى تقوم فيها وتعلم أبناءها . فأصبحت المدارس التى من نوع واحد « شكلا »

(١) عند إعداد هذا الفصل للطبع أعلن أن وزارة المعارف تضع (مشروعا) تحد به من (المركزية) فى إدارة التعليم بتقسيم القطر إلى مناطق للتعليم . على أنه لا يمكن الحكم على هذا المشروع إلا بعد معرفة دقائقه ووضعه موضع التنفيذ .

واحدا : فالتلميذ فى مدرسة فى أقصى الصعيد يدرس البرنامج نفسه ويخضع للنظم نفسها التى يدرسها ويخضع لها ، زميله ، تلميذ مدرسة الاسكندرية . لهذا انقطعت الصلة بين مدارس الأقاليم والبيئات التى تقوم فيها . كما أن نظام المركزية قد حرم إلى حد كبير نظار المدارس ومدرسيها النشاط الفكرى والشعور بالمسئولية التى يتطلبها العمل الموكول إليهم . حتى لقد يصبح من الصعوبة بمكان — بعد قضائهم بضع سنين فى مناصبهم — أن يأخذوا بالتجارب الناجحة فى عملهم . وهكذا تغفل المسائل التعليمية (الفنية) الخالصة ، وتتجه جهود الوزارة والمشرفين على شئون التلاميذ الى الأمور (الإدارية) المحضة . وقد لفتت هذه الحال بعض رجال التعليم الأجانب الذين درسوا نظم التعليم المصرية ، فكتب أحدهم :

« ويمكن أن ينوه هنا بأن كثيرا من هذه التدابير البيروقراطية المحضة — إن لم يكن كلها — قد فقدت الآن أو أوشكت أن تفقد المسوغ الأصلى الذى أوجب وجودها فى الظروف الماضية التى تعدُّ الآن تاريخية ، وقد حان الوقت لتشجيع نموُّ التنوع والمرونة فى التعليم وتخويل السلطات المحلية قسطاً من المراقبة أو إجراء التجارب فى الإدارة القومية للتعليم وتسيير دفته » .[1]

فما هى « الظروف الماضية التى تعدُّ الآن » تاريخية » ، وأوجبت وجود المركزية فى الماضى » ؟

تحدثنا فى فصل سابق [2] عن أوجه الشبه بين التعليم فى مصر والتعليم فى فرنسا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وذكرنا أن المركزية كانت تسود إدارة التعليم فى كلا البلادين : فى فرنسا كانت السنوات الأولى من ذلك القرن بداية (المركزية) الشديدة ، فالجامعة الأمبراطورية التى أنشأها

---

(١) مستر مان : تقرير عن بعض نواحى التعليم فى مصر (الترجمة العربية) ص ١٢

(٢) انظر الفصل الثالث من الكتاب الأول (الأثر الغربى فى النظام التعليمى فى مصر)

نابليون تحكم التعليم فى البلاد وتشرف على المدارس كلها، والجامعة بدورها خاضعة كل الخضوع لنابليون، منه تستمد كيانها وسلطانها . لذلك يمكن القول إن شئون التعليم كلها كان مرجعها لإرادة الأمبراطور . وعلى الرغم من سقوط أمبراطورية نابليون وانحلال الجامعة الأمبراطورية إلا أن المركزية أصبحت من (تقاليد) التعليم فى فرنسا عهدا طويلا .

ولكن كانت هناك هيئات إقليمية أنشئت للإشراف على نشر التعليم الأولى بالأقاليم، ولكن قراراتها يجب أن تعرض على « المجلس الملكى للتعليم العام » الذى يشرف على تربية ناشئة البلاد .

والواقع أن فرنسا لم تنفرد فى القرن التاسع عشر بالنظام المركزى فى التعليم ، بل لقد حاولت انجلترا نفسها — بلاد الحرية الفردية — أن تأخذ بنصيب من هذا النظام فى القرن الماضى : « فقصة التعليم فى انجلترا فى القرن التاسع عشر تتلخص فى ازدياد سلطان الحكومة ، فكلما ازداد مقدار ما يمنح من الأموال العامة لشئون التعليم ، ازداد سلطان المركزية » . وأخذت سلطة « مجلس التعليم » "Board of Education" تتسع وتنتظم معاهد مختلفة للدراسة فى أنحاء مختلفة من انجلترا . ولكن الانجليز يحبون الحرية فى كل شىء ، ويميلون إلى التمسك بالتقاليد ، وكان لهذا وذاك أكبر الأثر فى الحدّ من سلطان المركزية فى شئون التعليم عندهم .

والواقع أيضا أنه بالرغم مما ينادى به كثيرون من أضرار المركزية ورفعهم الصوت عاليا مطالبين بالتخفيف من قبضة الهيئة الرئيسية على شئون التعليم ، كانت المركزية فى القرن التاسع عشر وسيلة فعالة لإصلاح معاهد التعليم — وخاصة ما كان منها فى الأقاليم بعيداً عن سلطان الحكومة فى حاضرة البلاد — من جهة ، ومكافحة الأمية بنشر التعليم فى أوساط الشعب من جهة أخرى . ذلك لأن أكثر ما تحتاجه الأمم المبتدئة فى هذا المجال

(يد) قوية موجهة ، وخاصة إذا لم يكن لهيئات أخرى غير الحكومة من الكفاية ما يمكنها من أن تقوم بنجاح بقسط كبير من شئون التعليم . هذا إلى أن المركزية كانت تلائم كل الملاءمة نظام الحكم فى كل من فرنسا فى عهد نابليون ومصر فى عهد محمد على . فقد كان كل شىء فى مصر مرجعه إلى إرادة محمد على ، فهو البادىء بكثير من الإصلاحات التى شاهدتها مصر فى النصف الأول من القرن الماضى . حقاً إنا لايمكننا أن نغمط العاملين من أهل البلاد وغيرهم ممن أعانوه على القيام على هذه الإصلاحات حقهم ، إلا أنا لاننكر أن إرادة محمد على وحسن توجيهه ودقة إشرافه كان لها أكبر الفضل فى قيام هذه الإصلاحات وبقائها فعالة قوية الأثر . وعلى الرغم من أن محمد على قد «تنازل» عن كثير من سلطانه للهيئات و (الدواوين) التى أنشأها ، إلا أنه ظل وراءها جميعاً ، يحميها من الجهل والعبث ويسندها بنفوذه ويمدها بإرشاده .

كانت المدارس تابعة أول إنشائها لديوان الجهادية ، إلا أنه كان لهذا الديوان من المشاغل الأخرى التى اقتضتها الحروب الطويلة التى خاضت مصر غمارها ما صرفه عن توجيه عنايته إلى المؤسسات التعليمية الواقعة تحت سلطانه . هذا إلى أن المدارس الخصوصية كان لها نظارها الأجانب الذين أنشأوها ووضعوا لها برامجها ولوائحها ثم أشرفوا بأنفسهم على شئونها . حتى ليمكن القول إن كل مدرسة من تلك المدارس كانت تتمتع «بشخصية» منفصلة عن غيرها ، وباستقلال « ذاتى » مكنها من أن تنهض مستقلة بشئونها . أما ديوان الجهادية فلم يكن لرجاله من الكفاية الفنية ما يؤهلهم (للتدخل) فى شئون هذه المدارس ، فتركوا لها استقلالها ، إلا فيما يمس السياسة العامة للحكومة . وقد ارتاح نظار هذه المدارس الأجانب إلى هذه « اللامركزية » أو إلى هذا « الاستقلال الذاتى » غير المقصود الذى نالوه لمدارسهم ، ومضوا يتشبثون به ويكثرون من مظاهره ، حتى لقد كان عزيزاً عليهم أن

(يتنازلوا) عنه بعدسنوات، حين أنشىء شورى المدارس ثم ديوانها. وخضع البعض منهم على مضض ومضى البعض الآخر فى مقاومة كلفتهم فقد وظائفهم.

ولم تكن هذه وحدها تجربة «اللامركزية»، بل كان هناك تجربة أخرى أعم، وانتهت هى الأخرى بالإخفاق: تلك هى اللامركزية فى التعليم الأولى. فقد مرَّ بنا أن مكاتب الأقاليم حين إنشائها وضعت فى أيدى رجال الادارة بالمديريات، فهم الذين يعينون نظارها ومدرسيها وخدمها، وهم الذين يمدُّونها بالغذاء واللباس والمرتبات والأدوات والأثاث، وهم الذين يضعون لها أحيانا برامج الدراسة ويفتشون عن شئونها. حقا إن محمد على كان يبعث إليها من آن لآخر بالمفتشين الذين يرفعون إليه التقارير عن سير الدراسة وحياة التلاميذ بها، وكان دائم الاهتمام بشئونها، وأوامره إلى المديرين تظهر بجلاء اهتمامه الشديد بتقدم هذه المكاتب وبأن يفيد التلاميذ منها أكبر فائدة ويحيوا بها حياة طيبة.

على أن هذا الاهتمام لم يحل دون تأخر هذه المكاتب واضطراب أمورها، حتى غدت أماكن للاختلاس والفوضى. حتى إذا شرعت الحكومة فى (تنظيم) التعليم وضعت لهذه المكاتب لائحة (عامة) وأنفذت إليها المفتشين وأخضعتها لرقابة شورى المدارس ثم ديوانها. وهكذا أخفقت تجربة «اللامركزية» فى إدارة التعليم الابتدائى الأولى. وهذا الإخفاق يؤيد ما نذهب إليه من أن الأمم المبتدئة فى طريق الحضارة تحتاج إلى إدارة قوية حازمة مستنيرة موجِّهة، حتى إذا وضح الطريق وبدأ العمل يستقرُّ وتكونت للهيئات الاقليمية من الشخصية والكفاية ما يمكّنها من النهوض بقسط من الإشراف، وأصبح للمدارس والمشرفين عليها من الشخصية والكفاية كذلك ما يتيح لها أن تطلب قسطاً من المسئولية والاستقلال الذاتى، استطاعت الحكومة المركزية أن (تتنازل) لهذه الهيئات الإقليمية

وللمدارس وللمشرفين عليها عن قسط مما كانت تضطلع به ، وتتخفف من بعض ما تنوء به من أعمال جسام .

والواقع أن محمد على رغم إشرافه إشرافاً دقيقاً على المنشئات والاصلاحات التى بدأها فى مصر ، ورغم أن هذه المنشئات والاصلاحات كانت تستمدُّ كيانها من إرادته القوية ، كان فى قرارة نفسه يميل إلى « تربية » الرجال ليعاونوه على القيام على شئونها . وسيله إلى ذلك تلك « المجالس » التى أنشأ : كشورى الجهادية وشورى المدارس وشورى المعاونة وشورى الأطباء ومجلس الملكية . فهذه المجالس لا تعدو أن تكون — فى كثير من النواحى — مدارس : « الأستاذ » فيها هو محمد على نفسه و « التلاميذ » هم الموظفون و « الدروس » هى تلك الأوامر والنصائح التى كان يوالى توجيهها إليهم يحثُّهم فيها على العمل « لرفعة بلادنا العزيزة » ، كما كان يقول دائما . ولو قد استمرت هذه السياسة — سياسة إشراك طوائف من أهل البلاد فى تدبير شئونها — لتكونت لنا نظم طيبة فى الحكم .

نعود بعد هذا الاستطراد إلى ما ذكرنا من حبوط تجارب « اللامركزية » المحدودة فى إدارة التعليم الابتدائى الأولى فى الأقاليم . وعلى الرغم من أن مجلس المدارس أو « شورى » المدارس كان يقدم للتعليم فرصة طيبة (للتشاور) فى شئونه بين رجال أكفاء ، وكان تأليفه — على هذا الاعتبار — « امتدادا » لفكرة اللامركزية ، إلا أنه لا يعدو أن يكون هيئة فى حاضرة البلاد بسطت سلطانها على جميع فروع التعليم فى البلاد كلها .

وكان إنشاء الشورى بداية « المركزية » فى التعليم ، وكان لذلك بداية النجاح للمؤسسات التعليمية التى أنشئت منذ سنوات ، إذ كانت — وخاصة مكاتب الأقاليم — فى أشد الحاجة إلى هذه الهيئة المشرفة الموجهة . ولكنها كانت مركزية « مرنة » قوامها الشورى .

ولكن هذه الهيئة لا تدوم طويلا ، إذ ينشأ للمدارس « ديوان خاص » ، وعلى أثره يلغى الشورى وتتحول اختصاصاته الفنية واختصاصات ديوان الجهادية الإدارية إلى الديوان الجديد . وتشتدُّ البيروقراطية : فلا يُبرَم أمر فى المدارس إلا إذا نالت به إذنا من الديوان . ومنذ أنشىء الديوان تشتد قبضته على شئون التعليم . وما زالت « خليفته » وزارة المعارف متمسكة بالسلطات « التاريخية » لديوان المدارس والسلطات الأخرى التى تراكمت عليها فى السنين المائة الماضية .

على أن هذه المركزية فى العهد الأول من إنشاء الديوان لم تكن تعوزها المرونة : فقد كان لكل مدرسة من المدارس التجهيزية والخصوصية « شورى داخلى » أو مجلس إدارة يرأسه مدير المدرسة وأعضاؤه فريق من أساتذتها . ولم تكن اختصاصات هذه المجالس قليلة : فهى التى تضع مناهج الدراسة على ضوء الخطة الدراسية التى نص عليها قانون المدرسة وهى التى تضع اللوائح الداخلية وبحدد فيها واجبات الناظر وسائر الموظفين والوقت الذى ينهض فيه التلاميذ من نومهم وكيفية توزيع يومهم بين العمل والغذاء والراحة ومتى يخرجون للنزهة أو للاستحمام ، ونحو هذا من ألوان الحياة التى يحياها التلاميذ فى المدارس . على أن قرارات مجالس الإدارة هذه يجب أن ترفع لشورى المدارس ثم لديوان المدارس بعد إنشائه وله الكلمة الأخيرة .

وتشتد « البيروقراطية » ، فتلغى مجالس الإدارة ، ويستعاض عنها أحيانا باجتماعات غير منتظمة من ناظر المدرسة ومدرسيها لينظروا فيما قد يعرض لهم من شئون المدرسة الهامة .

فهل كانت هذه المرونة المحدودة ترجع إلى « فلسفة » خاصة فى شئون الحكم كالتى أشرنا إليها من قبل — وهى سياسة إعداد الأعوان للاضطلاع بالمسئوليات فى هذه المجالس — ؟ أم كانت ترجع إلى أن النظام المركزى لم يكن قد استقر

بعد ، فلما استقر اشتدت قبضة الحكومة على معاهد الدراسة فى طول البلاد وعرضها ؟ وسواء كان هذا أو ذاك فقد أخذ ديوان المدارس يقوى سلطانه يوماً بعد يوم ، حتى وصل هذا السلطان إلى مانعرف الآن .

ولم يكن هذا فى صالح التعليم فى مصر ، فانا إذا سلمنا بأن المركزية دواء ناجع للأمم المبتدئة وضمان كاف لإصلاح التعليم ونشره فى البلاد بما تملك الحكومة من الوسائل المادية والأدبية ووسائل التوجيه القوى الصالح ، إلا أن هذه المركزية يجب ألا تظل قابضة على شئون التعليم إلا ريثما يتكون الرجال وتسير (الآلة) وتوضع المثُل الصالحة ، فتخلى « المركزية » الطريق « للامركزية » فى إدارة التعليم وللاستقلال الذاتى لمعاهده وللقائمين عليها ، حتى ينفسح المجال للحافز الشخصى والابتكار والتجارب النافعة .

ولكنا جمدنا على النشأة الأولى ، واحتفظنا بكثير من العوامل « التاريخية الماضية » . وهى — وإن كانت لازمة أو لها ما يبررها فى عهدها الأول — لم تعد تتفق والتطور الحديث فى نظم الحكم وفى شئون التربية والتعليم . ونحسب أن هذا هو الفارق بيننا وبين الغرب ، فى مسائل التعليم على الأقل : فبينا تشبثنا نحن بالنظم التى عرفناها منذ مائة عام والتى كانت الأحوال فى تلك الأيام تبررها وتدعو إليها ، بل وزدناها بسوء التنفيذ والإهمال رداءة وسوءاً ، نظروا هم إليها كبداية قابلة للتغيير ، وغيروا فيها فعلا بما يتفق وحاجات المجتمع وما جد فى مناهج البحث والعلوم . ويعبر أحد الباحثين فى التعليم المصرى عن هذه الحقيقة بقوله : « إنا إذا كنا قد اقتبسنا النظام المركزى فى التعليم عن فرنسا إلا أننا فقنا (out-frenched) فرنسا » .[1] ويعبر عنها آخر بقوله : « ومما لاريب فيه أن مصر باستمدادها النماذج المدرسية من أوربا إنما نقلت عنها أردأ النماذج وزادتها رداءة من عندها » .[2]

(١) Galt, Effects of Centralisation in Egypt.

(٢) كلاپارِيد : تقريره عن التعليم فى مصر (الترجمة العربية) ص ٧

ثالثا ـ فى المناهج

كان الاهتمام بالتربية « العقلية » فى المدارس التى أنشأتها حكومة محمد على يفوق الاهتمام بما عداها من ألوان التربية . فالتربية « الخلقية » لا يُعنى بها إلا فيما يمسُّ غرض الحكومة من بث مبادىء النظام والطاعة والإخلاص فى نفوس الشباب للدولة التى قامت على تنشيئهم وتهذيبهم صغاراً وإعدادهم للحياة رجالا . ولم يكن التلاميذ يؤخذون بهذه التربية الأخلاقية عن طريق (دروس) تلقى عليهم أو (كتب) يقرأونها أو مثل عالية يحتذونها ، وإنما كانوا يتمثلونها فى « الروح » التى كانت تسود المدارس والحياة خارج المدارس ، أنْ كانت خدمة الدولة — أو بعبارة أخرى خدمة « الجناب العالى » — المثل الأعلى الذى يجب أن تتجه إليه جهود الأفراد ، وخاصة المتعلمين الذين قامت الدولة على تعليمهم وقامت دون آبائهم وأهليهم تذود عنهم عوادى الجهل والحرمان . وبقدر ما يؤدّون للدولة من خدمات يكون ما يصيبون من رفعة وثراء .

هذا إلى الحكومة كانت ترى أن المدارس « محل اكتساب التربية والآداب كما هى محل اكتساب العلوم والفنون » .[1] ولهذا لم تهمل المدارس أن تأخذ تلامذتها بالأدب الحسن والخلق الطيب فى سلوكهم نحو أساتذتهم وزملائهم وسلوكهم خارج مدارسهم . وسبيلها الى ذلك إثابة المحسن وعقاب المسىء ، حتى يرعوى . ويكون عقابه حافزاً لغيره على تنكبُّ سلوكه . ولا شك فى أن هذه ناحية هامة من نواحى التربية الخلقية ، وإن كان السبيل اليها لا يتفق وما ينصح به المربُّون المحدثون .

---

(١) دفتر ٦٢ (مدارس عربى) ص ٣٤،٣٢ رقم ١٢٤٣ إلى المدرسة والاسطبلات فى ١٠ جماد ثان ١٢٦٣

أما التربية « الجسمية » فلا نجد لها أثرا فى المدارس . « فجسم » التلميذ لا يعنى المدارس بقدر مايعنيها روحه وعقله : فساعات اليوم المدرسى موزعة بين قسط كبير جداً للدراسة وآخر ضئيل لتناول الغذاء والراحة . فليس للتلميذ من الوقت مايعنى فيه بجسمه عناية منظمة صحيحة . حقا إن النظام العسكرى الذى كان يخضع له التلاميذ فى نهوضهم من النوم وذهابهم إليه مبكرين، وفى اصطفافهم صفوفا منتظمة كلما فرغوا من عمل أو أقبلوا إلى آخر ، وفى نزهتهم فى الخلاء مع أساتذتهم وضباطهم .. الخ ، كان هذا النظام العسكرى يعاون على تقوية جسومهم ومرونتها . ولكن التربية الرياضية كذلك لم تكن غرضا مباشراً تعمل له المدارس . حقا إن تلاميذ المكتب العالى كانوا يمرنون أحيانا على المبارزة بالسلاح (لعبة الشيش) وعلى (البلياردو) ، ولكن هذه الألعاب كانت قاصرة على تلاميذ هذا المكتب ، أنْ كانوا من الأمراء ومَن إليهم من أبناء كبار الموظفين . وفى السنين الأخيرة من حكم محمد على رؤى صنع آلات (جمناستك) ليمرن عليها تلاميذ المدرستين التجهيزية والابتدائية بالقاهرة . ولكن هذا فيما نرجح ظل مشروعا لم تتجاوزه الحكومة إلى مرحلة التنفيذ . وظلت التربية الرياضية غير معنى بها فى المدارس والمكاتب واتجهت العناية إلى التربية العقلية — أى إلى مران (العقل) وتدريبه . وكانت الحكومة ترى أن لهذا أنشئت المدارس : فالعلم وحده هو الذى يفاضل بين الرجال ، فالجاهلون غير جديرين باهتمام الحكومة أو عنايتها والكسالى من التلاميذ لا يصيبون من الحكومة وأساتذتهم إلا التبكيت المؤلم والعقاب الشديد . أما المجدّون فهم (أبناء) الحكومة لهم منها العناية والتقدير بالمرتب الطيب والجوائز السنية والوظائف العالية . و (المعلومات) وحدها هى المعول عليها ، وهى وحدها قياس نجاح المدرسة أو إخفاقها : فالمدرسون الذين يعلّمون أكبر عدد من التلاميذ ويخرّجونهم لدوائر الحكومة هم وحدهم

الجديرون بالثناء والتقدير . والامتحانات أخيراً هى (الوحدة) التى تقاس بها هذه المعلومات ، فالناجح فى الامتحان هو وحده العالم المجدُّ الذى يُنتظر منه كل شىء ، والراسب فيه هو الجاهل الكسول الذى لا ينتظر منه شىء !

لا عجب إذن أن يتجه جهد المدارس إلى (حشو) أذهان التلاميذ بالمعلومات ، حتى يصبّوها وقت الامتحانات صبا . أما بعد ذلك فليكن ما يكون! وسبيل المدارس إلى ذلك أن تأخذ التلاميذ بالدرس معظم ساعات اليوم المدرسى . فتلاميذ المدارس الابتدائية — وهم لما يشبّوا عن الطوق — يدرسون تسع ساعات من النهار ولا يصيبون للغذاء والراحة سوى ثلاث ساعات . فالتلميذ لا ينصرف عن الدرس إلا لحاجة قصوى كتناول الطعام نهاراً أو النوم ليلا . وفيما سوى ذلك عليه أن ينهمك فى الدرس والاستذكار ساعات متوالية . وقس على ذلك ما يؤخذ به تلاميذ المدارس التجهيزية والخصوصية .

وكانت الفكرة السائدة فى التعليم إذ ذاك — لا فى مصر وحدها بل فى الدول الغربية كذلك — أن عقل التلميذ (صفحة بيضاء) تتقبل كل ما ينقش عليها وتمثّله . وهى الفكرة التى يعبر عنها بالتعبير الأجنبى (tabula rasa) . فكلما جهد المدرس فى إمداد التلميذ بالكثير من المعلومات أفاد منها التلميذ فائدة كبيرة فى تدريب عقله وإرهاف حسّه وصدق حكمه فيما يعرض له من الشئون . وبذلك تنتهى المدارس إلى أن تكون أداة (لحشو) عقل التلميذ بالمعلومات من غير نظر إلى قدراته العقلية وميوله ومكانته الاجتماعية والبيئة التى يعيش فيها . وهكذا كانت (مدارس) محمد على .

ولكن البحث الحديث فى علوم النفس والتربية أثبت خطأ هذه الفكرة وأحل محلها الاهتمام بدراسة ميول الطفل وغرائزه وقدراته العقلية وحاجاته

الفردية وحاجات البيئة المحلية . وعلى هذه الأسس مجتمعةً توضع المناهج التى يؤخَذ بها تلاميذ المدارس .

واعتنق الغربيون هذا الاتجاه الجديد وآمنوا به وطبقوه فى مدارسهم . ولكننا جمدنا على ما لازم التعليم الحديث فى عهده الأول من آراء أثبت البحث الحديث خطأها : فما زال للامتحانات وللمعلومات وللتربية العقلية المكان الأول فى مدارسنا ونظمنا التعليمية . وإلى مرونة الغربيين وأخذهم بالآراء الحديثة يرجع الفضل فى رقى التعليم عندهم وملاءمته لحاجات الطفل والمجتمع . وإلى جمودنا وتشبثنا بالقديم يرجع (الفضل) فى تأخر التعليم عندنا وإخفاقه فى تلبية حاجات الفرد والمجتمع .

على أنه كان يخفّف كثيراً من أضرار الاهتمام بالتربية العقلية وحدها لو أنها نجحت فى (تدريب) عقول التلاميذ وإمدادهم بقسط عظيم من المعلومات يمكنهم من متابعة الدراسة فى يسر وسهولة وخروجهم إلى ميدان العمل مزوَّدين بسلاح من العلم والمعرفة ، كما تفعل المدارس الفرنسية التى تنجح كثيراً فى تزويد تلاميذها بالمعلومات حتى ليخرجوا منها وقد أصابوا من المعارف حظاً كبيرا . ولكن المدارس المصرية — فى عصر محمد على بل وفى عصرنا كذلك — كانت تعنى بالشكل دون المادة وبالقشور دون اللب . ومن هنا أوجه الضعف التى منيت بها برامج التعليم فى عصر محمد على .

ففى المدارس الابتدائية — وكانت كما شرحنا تتلقى التلاميذ أميين فتأخذهم فى ثلاث سنوات بما يعدهم للدراسة التجهيزية — كان الضعف واضحا . وأول ما يلحظ أن مدة الدراسة قليلة لا تكفى لهذا الإعداد ، ولهذا اقتصرت — عدا تحفيظ القرآن لتلامذتها — على أخذهم بقشور من الخط والحساب والجغرافيا أحيانا .

وقد يرجع هذا — فيما نرى — إلى أن حكومة محمد على قد رغبت فى

أن تشرف على تعليم تلامذتها منذ أولى مراحله حتى ختامها، إلا أن حالتها المالية — كما شرحنا فى أكثر من موضع — كانت لا تمكنها من التوسع فى التعليم الأولى، فآثرت أن تكون الدراسة الأولية الابتدائية فى مرحلة واحدة قصيرة فى مكاتب المبتديان، تعدُّ مباشرة وفى مدة دراسية وجيزة للتعليم التجهيزى. وكان هذا أكبر مظاهر الضعف فى الدراسة الابتدائية بل فى مراحل التعليم الأخرى، فقد كانت الحاجة ماسة إلى إعداد التلاميذ إعداداً طيباً يمكّنهم من متابعة الدراسة العالية فى سهولة وإتقان. ولكن هذا الإعداد كان يعوز المدارس الخصوصية، وكانت لذلك تقاسى من ضعف التلاميذ الملحقين بها ما جعل إنتاجها لجا. فاختلال الأساسى كان لاشك يتبعه اختلال فى سائر البناء.

وقد عبر عن هذه الحقيقة أحد الباحثين بقوله: «كانت رغبة الحكومة تتجه إلى الوصول إلى نقطة معينة من غير اجتياز لخطوات تمهيدية وقطف الثمار قبل أن تنضج وجنى المحصول بعد البذر مباشرة».(١) وقد عملت فرنسا على تلافى هذا النقص فى منهج الدراسة الأولية بانشاء مرحلة وسطى بين هذه الدراسة والدراسة التجهيزية، دعتها (المدارس الابتدائية العالية). وآثرنا نحن — تقوية للدراسة الابتدائية — أن نجعل التعليم الابتدائى مرحلة خاصة قائمة بذاتها تلى مرحلة التعليم الأوّلى.

وهناك عوامل أخرى للضعف البادى فى الدراسة الابتدائية والأولية غير ما ذكرنا، وأخصها تلك العناية التى كانت تعطى (لتحفيظ) القرآن حتى ليحتل الشطر الأكبر من اليوم المدرسى. فتلاميذ الفرقة الثالثة المبتدئة يحفظون من القرآن ربعه، وهم لذلك يقضون نصف ساعات الوقت المحدد لدروسهم كلها فى استذكاره ومراجعته ونصفها الآخر فى تعلم الهجاء. وتلاميذ الفرقتين الثانية والأولى يمضون أكبر شطر من نهارهم فى حفظه،

(١) Bowring, op. cit. p. 135.

حتى إذا انتهوا من الدراسة الابتدائية كانوا حافظين للقرآن كله . وليس هذا من عوامل «الضعف» فى حد ذاته ، إلا أن مواد الدراسة الأخرى لم تكن تحظى بالعناية والوقت الخليقين بها . فدراسة الحساب لا تعدو قواعده الأربع ، والجغرافيا قاصرة على الفرقة الأولى النهائية ، واللغة العربية محدودة بقراءة بضعة كتب فى النحو والصرف .

هذا إلى أن الدراسة لم تكن تعتمد على عقل « التلميذ » بقدر ما كانت تعتمد على « ذاكرته » : فالدروس تلقى على التلاميذ من كتب جافة يحفظها التلاميذ ويردّدونها ، حتى إذا حل الامتحان « ألقوا » بها إلى الممتحنين .

وعقبة أخرى كانت تحدّ من جدوى الدراسة الابتدائية وتجعلها ضعيفة سقيمة تحتاج إلى العلاج السريع ، وهى المدرسون الذين كانوا يقومون على تدريس تلامذتها . فقد ذكرنا أنهم من (فقهاء) الأزهر ، فهم إن علموا تلامذتهم كيف يقرأون كتب الأزهر فى اللغة والدين ويفيدون منها ، إلا أن كفايتهم لتدريس المواد الأخرى « الحديثة » ، كالجغرافيا والحساب لم تكن مما يطمأن إليها ، ذلك لأنهم لم يصيبوا من تلك المواد شيئا فى صباهم أوشبابهم . فأكبر ما تحتاجه المكاتب الابتدائية المدرسون الأكفاء والكتب المناسبة . وكان الزائر لهذه المكاتب الفاحص عن شئونها يلمس هذه الحاجة جلية واضحة.(١)

وكانت مدرسة المبتديان بالقاهرة تمتاز فى ذلك عن مكاتب الأقاليم : فقد كان وجودها فى حاضرة البلاد وإلحاق تلاميذ من أبناء (الذوات) والموظفين بها حافزين للحكومة على إمدادها بالمدرسين الأكفاء المختصين فى المواد التى يدرسون : فدرسو الحساب من المهندسخانة ، والجغرافيا من الألسن .

---

(١) Bowring, op. cit. p. 135.

وكانت أوجه الضعف هذه التى تتبعنا كفيلة بأن تجعل إنتاج المدارس الابتدائية فى عصر محمد على سقيما ، حتى ليمكن القول إن انحطاط المستوى العلمى فى المدارس التجهيزية والخصوصية كان سببه خارجا عنها ، وهو ضعف التلاميذ الملحقين بها . ولكن ذلك لا يعنى الدراسة التجهيزية من النقد ، فقد كانت هى الأخرى تحمل من عوامل الضعف ما جعل إنتاجها ضعيفاً سقيما ، وزاد مهمة المدارس الخصوصية صعوبة ومشقة . وكثير من عوامل الضعف التى ذكرنا فى الدراسة الابتدائية تنطبق كذلك على الدراسة التجهيزية : فقد كانت هى الأخرى تقاسى من كتب الأزهر فى اللغة العربية ومن مدرسى الأزهر . أما مدرسوها للمواد الحديثة كالهندسة والجبر والجغرافيا والتاريخ فكانوا يُؤخذون من تلامذة المدارس الخصوصية ، فهم أكفأ من مدرسى المدارس الابتدائية ، إلا أن عدم إعدادهم إعداداً خاصاً لمهنة التدريس كان لا شك يحدُّ من كفايتهم وجدارتهم .

ومن أبرز مظاهر الضعف فى الدراسة التجهيزية قلة العناية بدراسة اللغات . فإذا كانت اللغة أداة التفاهم — وهى حقاً كذلك — فالعناية يجب أن تنصرف فى دراستها إلى إتقان المحادثة والتحرير . أما دراسة اللغة العربية فى المدرسة التجهيزية فقد كانت دراسة « شكلية » — قوامها النحو والصرف — فهى بعيدة عن أن تبعث فى التلاميذ حب القراءة والدرس .

ومن مظاهر الضعف كذلك عناية المدرسة التجهيزية باللغتين الشرقيتين التركية والفارسية وإهمالها اللغات الغربية — لغات العلم الحديث والحضارة الحديثة التى بدأت مصر تتجه نحوهما فى عصر محمد على . فاللغة التركية يدرسها التلاميذ فى سنى الدراسة التجهيزية الأربع والفارسية فى ثلاث منها . ولسنا نعود إلى بيان العوامل التى أوحت بالاهتمام بتدريسهما ، فقد جلونا عنها فى

مكان آخر .[١] وأخصها أن اللغة التركية كانت إذ ذاك لغة (الأرستقراطية) التركية أو المتكلمة بالتركية وكانت هذه الارستقراطية تحتل المراكز الكبيرة فى الدولة. وكانت أكثر المكاتبات بين الدواوين تحرر بالتركية، ومطبعة بولاق تقوم على طبع كثير من الكتب التركية، لهذا احتلت هذه اللغة مركزاً هاماً فى برامج المدرسة التجهيزية والمدارس الخصوصية التى كانت تعنى بتدريس اللغات. أما اللغه الفارسية فتصلة باللغة التركية بأكبر الصلات اللغوية والثقافية، وكان الأغنياء من الشرقيين يأخذون أبناءهم بدراستها، أن كانت تمثل ناحية هامة من نواحى التفكير والأدب والتاريخ الشرقى، لهذا درست اللغة الفارسية فى المدرسة التجهيزية، ولكنها لم تلق بها من العناية ما لقيته اللغة التركية.

وهذا الاهتمام الشديد بدراسة هذه اللغات — لم يترك إلا فراغا ضئيلا للمواد الحديثة الأخرى اللازمة للإعداد للمدارس الخصوصية : فدراسة التاريخ والجغرافيا والهندسة والجبروالرسم قاصرة على تلاميذ الفرق النهائية، وبذا ينتقل تلميذ المدرسة التجهيزية إلى المدرسة الخصوصية واستعداده العلمى — فى هذه الناحية — ضعيف.

لهذا يمكن القول إن أهم أسباب ضعف المستوى العلمى فى المدارس الخصوصية انحطاط مستوى التلاميذ الملتحقين بها، لأن الدروس التى تلقوها بالمدرسة التجهيزية وبالمدرسة الابتدائية من قبل لا تعدهم خير إعداد لدراسة التخصص فى المدارس الخصوصية.

هذا إلى أن معظم هذه المدارس كانت تضطر إلى أن تأخذ من التجهيزية تلاميذ لمّا يتموا دروسهم بها، ذلك لأن المدارس الخصوصية كانت قائمة قبل أن يتم تنظيم المدرسة التجهيزية، ولهذا اضطرت المدارس الخصوصية إلى أن تأخذ حاجتها من تلاميذ الفرقة الثانية التجهيزية بل الثالثة أحيانا، أى ممن لم

---

(١) انظر ص ٧٧ — ٧٨ (فى الكتاب الأول)

يمضوا فى الدراسة التجهيزية سوى عام أو عامين .

وتقارير امتحانات المدارس الخصوصية تشير إلى نقطة الضعف هذه ، وتبدى ألمها لأن هذه المدارس لا تجد تلاميذ «تأمين العلوم» . وكان يؤمل بعد تنظيم المدرسة التجهيزية فى سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧ أن تتمكن المدارس الخصوصية من أن تأخذ حاجتها منها فى سنة ١٨٤٠ ، أى بعد أن تتم لها فرقها الدراسية الأربع . ولكن الضربة عاجلتها بعد ذلك بعام ، فألغيت ثم أعيدت من جديد كقسم من أقسام مدرسة الألسن . وكان على المدارس الخصوصية أن تنتظر صابرة أربع سنوات أخرى حتى يتخرج فى المدرسة التجهيزية تلاميذ أتموا علومها ، فعادت مضطرة إلى أن تأخذ من تلاميذ الفرق المتأخرة . على أنه منذ سنة ١٨٤٤ — وقد استوفت المدرسة التجهيزية فرقها الأربع — لم نعد نسمع عن شكوى المدارس الخصوصية من ضعف مستوى التلاميذ الملحقين بها .

ومن عوامل الضعف فى المدارس الخصوصية قلة إفادة تلاميذها من طريقة التدريس التى كانت متبعة فى بعض منها ، وهى الطريقة القائمة على نقل دروس الأساتذة الأجانب إلى اللغة العربية . إذ كان يتولى النقل مترجمون لم يكونوا يحذقون اللغة العربية من جهة ، وكانوا يجهلون العلوم التى ينقلونها من جهة أخرى ، على نحو ما شرحنا عند الكلام على تاريخ مدرسة الطب البشرى . وقد ذكرنا كيف عملت المدارس على التخفيف من أضرار هذه الطريقة بأخذ مترجميها بدراسة الفنون التى يعرّبونها وبنصب «مصححين» عالمين باللغة العربية ليقوموا على إصلاح التراجم والكشف عن المصطلحات العربية القديمة فى العلوم «الحديثة» .

ولكن الشكوى من هذه الطريقة فى التدريس مازال يتردد صداها فى أوراق الحكومة ، حتى قامت كل مدرسة على « تكوين » أساتذتها ،

إما بإرسال النابغين من خريجيها إلى أوربا ليتموا دراساتهم حتى يعودوا وقد اختصوا فى العلوم التى سيقومون بتدريسها لمواطنيهم وحذقوا اللغات الأجنبية ليقوموا بنقل العلوم التى كتبت بها إلى اللغة العربية ، وإما بإعداد هؤلاء المدرسين فى مصر بتعيين النابغين من التلاميذ معيدين بالمدرسة وإلحاقهم بأساتذة يعيدون لهم دروسهم ويأخذون عنهم مالم ينفسح له وقت التلمذة من الدروس . وأخص ماكانوا يؤخذون به دراسة اللغة الفرنسية حتى يتسنى لهم الاطلاع والترجمة فى العلوم التى يدرسونها ، حتى إذا تقدم بهم السن وأصابوا من الحياة خبرة ومن العلم نصيباً كبيرا ، ارتقت بهم مدارسهم إلى وظائف المدرسين المساعدين ثم المدرسين وهكذا .

وبهاتين الوسيلتين أصبح للمدارس فى السنوات الأخيرة من عصر محمد على مدرسون مصريون أكفاء للنهوض بمهمتهم .

ومما يلاحظ على برامج المدارس الخصوصية اهتمام كثير منها كالمهندسخانة والمدارس الحربية بدراسة اللغات الشرقية — العربية والتركية والفارسية — الاهتمام الذى كان يبذل فى تدريسها بالمدرسة التجهيزية . أما اللغة الفرنسية فكانت تدرس بها جميعاً منذ إنشائها حتى وضعت اللوائح وأنشىء شورى المدارس فى سنة ١٨٣٦ فألغى تدريسها . وكان هذا نقصا كبيرا فى مناهج الدراسة الخصوصية . وكان مبعوثوها إلى أوربا يقاسون كثيرا من جرّاء جهلهم إحدى اللغات الأوربية وينفقون فى دراستها وقتا طويلا . ويحدثنا على مبارك عن الصعوبة التى لقيها فى فرنسا هو وزملاؤه من خريجى المهندسخانة فى متابعة دروس الفرنسية .

ثم أعيدت اللغة الفرنسية فى السنوات الأخيرة من عصر محمد على الى مناهج المدارس الخصوصية للقيف من تلامذتها ومعيديها ومدرسيها ، أو للتلامذة جميعا فى بعض المدارس كمدرسة المهندسخانة .

أما المدرسة التجهيزية فقد أفادت من إلحاقها بمدرسة الألسن منذ سنة ١٨٤١ فائدة كبيرة ، إذ أصبحت تدرس بها اللغة الفرنسية ، إما لنفر من تلامذتها أو لهم جميعاً . كما أفادت من تلامذة الألسن الذين كانوا يدرسون بها . وليس من شك فى أن رفاعة بك رافع ناظر مدرسة الألسن قد عمل جاهداً لرفع مستوى الدراسة بالمدرسة التجهيزية وخاصة دراسة اللغات والمواد الاجتماعية كالتاريخ والجغرافيا .

أما مكاتب المبتديان فقد عملت الحكومة كذلك على رفع مستواها العلمى . وكان لرفاعة بك أيضاً جهود فى هذا السبيل ، إذ كان يقوم فى نهاية العام الدراسى — فى شعبان من كل عام — بجولة « نيلية » يطوف فيها على مكاتب المبتديان بالأقاليم ليمتحن تلامذتها ويأتى بالناجحين منهم فى الفرقة النهائية إلى المدرسة التجهيزية ، وليفحص عن دروسها وشئونها الصحية والإدارية وحياة التلاميذ فيها ومدى إفادتهم من مقامهم بالمكتب وليحقق الدعاوى التى يطلب إليه الديوان تحقيقها ، ويكتب بهذا كله إلى ديوان المدارس .

كانت أيام الامتحان إذن (فرصة) للتفتيش عن شئون المكتب جميعا ، وكانت لذلك وسيلة طيبة للمحافظة على المستوى العلمى للمكاتب .

ووُضعت للتلاميذ المبتدئين كتب حديثة للقراءة تدعى « حكايات الأطفال » و « عقلة الصباع » . ونحن نأسف على أننا لم نعثر منها على شىء ، ولا شك فى أن هذه الكتب — إذا كان اسمها ينم حقيقة على محتواها ونرجح أنه كذلك — كانت تفضل كتب الأزهر ، إذ تحبب القراءة إلى الأطفال ، فالطفل تشوقه القصة أكثر مما يشوقه كتاب فى تصريف الأفعال وضرب زيدٌ عمرا !

والراجح أن (مناهج) الدراسة الأولية الابتدائية أصابها الاهتمام كذلك : ففى بعض الأوراق ما يدل على أن القواعد الأربع للحساب — وكانت

تدرس بالفرقة الأولى النهائية ــ أصبحت تدرس لتلاميذ الفرقة الثانية، فانفسح المجال بذلك للتلاميذ المنتهين من الدراسة الابتدائية ليصيبوا من الحساب أكثر مما كان يصيب زملاؤهم الذين سبقوهم . والجغرافيا أصبح التلاميذ يدرسونها ويكتبونها على ورق أبيض ويستعان فى تدريسها (بأطالس). والرسم والخط يحاكونهما فى (أمشق) . وصرفت لهم كتب فى الهندسة ، وللتلاميذ المبتديان بالقاهرة كتب فى الجغرافيا والأخلاق . ولكن كتب الأزهر ظلت لها المكانة الثابتة فى الدراسة الابتدائية ، وأخصها كتاب « الأجرومية » فى نحو اللغة العربية « والسنوسية » فى الدين . وظل منهاج الدراسة الابتدائية مصطبغاً بالصبغة الشرقية (الكلاسيكية) ، فما زال تحفيظ القرآن الكريم يحتل الشطر الأكبر من اهتمام التلاميذ والمدرسين ، وما زالت المواد « الحديثة » لاتلق بها العناية الواجبة ، ولم يتح للغة غربية ما أن تُدرَّس فى المدارس الابتدائية حتى نهاية عصر محمد على .

ونحسب أن هذا كان أكبر عوامل الضعف فى مناهج الدراسة بالمدارس المصرية فى النصف الأول من القرن الماضى .

الفصل الثالث

المدرســـة والمجتمع

تقوم المدارس لتربية ناشئة البلاد وإعدادهم للحياة الكاملة . فالمدارس تعدهم للخروج إلى حياة العمـــل فى المجتمع الذى يعيشون فيه ، وهى لذلك تمرنهم على استخدام قواهم الفكرية لخدمة هذا المجتمع الخدمة الحقة التى يتطلبها . لهذا يتطلع المجتمع إلى نابتة البلاد ويعنى بتعليمهم وتربيتهم لأنهم عدته فى مقبل الأيام ، فهم الذين سيقومون على شئونه ويعملون لتقدمه ورقيه حين يتقدم بهم العمر ويصيبون من الدرس وتجارب الأيام حظاً كبيرا . فالمجتمع يحوط الناشئة برعايته ويعنى أكبر العناية بتقدم المدارس وتوفير أسباب النجاح لها ولتلاميذها ، ذلك لأن المجتمع الحديث يعرف حق المدارس عليه وأياديها البيضاء فى خدمته .

والمدارس بدورها تعنى بتعرّف حاجات المجتمع وتستجيب لمؤثراته ، فتأخذ تلاميذها بما يحقق هذه الحاجات ويلبى هذه المؤثرات ، حتى إذا تخرجوا فى المدارس لم يخرجوا إلى مجتمع غريب عنهم لا يعرفون كيف يعيشون فيه ، بل إلى مجتمع يدركون حاجاته ويعرفون كيف يفيدون مما درسوه لخدمته والعمل على رقيه من جهة ، وكسب عيشهم فيه من جهة أخرى .

وهكذا «تتفاعل» المدرسة والمجتمع ، أى يتأثر كل منهما بالآخر ويؤثر فيه . وخير المدارس ما عرفت كيف تعدُّ تلامذتها للحيـاة فى المجتمع الذى تقوم فيـــه وللعمل على ترقية هذا المجتمع والنهوض به . وخير المجتمعات

ما عرف كيف يأخذ المدارس بتعرف حاجاته حتى تعد تلامذتها خير إعداد للقيام على تحقيق هذه الحاجات .

فالمجتمع الزراعى تعنى فيه المدارس بدراسة الحاجات الريفية والمشاكل الاقتصادية المحلية وتعرف أسهل الأساليب وأكثرها فائدة للانتاج الزراعى. وتتمثل هذه العناية فى المناهج التى تأخذ المدارس بها تلاميذها ، فالشئون الزراعية تحتل منها شطراً كبيرا ، والتلاميذ يدرسون الزراعة فى الحقول ، فى الأرض التى نشأوا منها والتى يعيش عليها آباؤهم ومواطنوهم .

وفى المجتمع الصناعى تنزع المدارس إلى تعرف وسائل الصناعة والإنتاج الحديثة ، وفى مناهجها يؤخذ التلاميذ بدراسة عملية للصناعات المحلية .

هذا إلى صفات قوية تزود بها المدارس تلاميذها : كالاعتماد على النفس والابتكار والاستقلال الذاتى ، حتى يستغلها التلميذ لخدمة المجتمع الذى يعيش فيه .

لهذا يتجه جهد الحكومات والمشرفين على شئون التربية والتعليم فيها إلى (الربط) بين المجتمع والمدرسة على النحو الذى بسطنا . وإلى هذا (الربط) يرجع الفضل فى نجاح المدارس فى المجتمعات الحديثة وإلى قيام أفرادها عن حكوماتهم بكثير من شئونهـــا ونفقاتها وحمايتها من تأثير النزوات السياسية والأزمات الاقتصادية . فالمدرسة هى (الحرم) الذى يتجه إليـه الجميع ينشدون فى ظله الراحة والطمأنينة والسلام . وكل فرد من أفراد المجتمع يشعر بأن للمدرسـة عليه حقا ، هو أن يبذل قصارى جهده لرقيها وتوفير وسائل النجاح لها ، كما أن عليها نحوه واجبا : هو أن تستقبله باسمة من وقت لآخر وتزوده بالوسائل التى تعينه على ترقية حاله الفكرية والاجتماعية . فالمدرسة الحديثة ــ لكل فرد من أفراد المجتمع الذى تقوم فيـــه ــ منتدى ومكتبة وبيت .

أليس حقاً إذن — على ضوء ما بسطنا الآن من مظاهر الارتباط بين المدرسة والمجتمع — ما يرى كثير من المفكرين والباحثين فى شئون التعليم والتربية من أن الانفصال يكاد يكون تاماً بين المدرسة المصرية والمجتمع المصرى ؟ وأن هذا الانفصال هو السبب فى كثير من الأدواء الاجتماعية والاقتصادية التى نعانى ، وأخصها الخطأ فى توجيه التعليم الأولى وهجرة الفلاحين القرى إلى المدن ومشكلة المتعلمين المتعطلين ؛ هذا إلى مظاهر الضعف الخلقى والاجتماعى الفاشية فى الأمة ، وقيام الحكومة عن أفراد الأمة بكل ما يتطلبه الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى .

وليس هذا الانفصال بين المدرسة والمجتمع فى مصر وليد العصر الحاضر ، بل هو من (تقاليد) الماضى . عرفته مصر مذ عرفت التعليم الحديث والمدارس الحديثة ، أى منذ عصر محمد على ، بل لقد عرفته إذ ذاك أشد مما تعرفه فى هذه الأيام .

والآن نتقصى العوامل التى أدت إلى هذا « الانفصال » بين المدرسة والمجتمع فى عصر محمد على :

كان التلاميذ يقضون بالمدارس حياتهم الدراسية كلها ، فالحكومة تلحقهم بمدارسها إما طوعا أو كرها . وتبقيهم بها لا يبرحونها إلى أهلهم إلا فى أيام العطلة السنوية أو لمرض شديد . بل إن خروج التلاميذ إلى أهلهم أيام العطلة لم يكن — كما رأيت — إلا امتيازا للتلاميذ المجدّين ذوى الأخلاق الحميدة . وللمدارس أو للديوان أن يحرم التلاميذ هذه العطلة فيحتجزهم فى مدارسهم ليعيدوا فيها دروسهم ، قانعين بالخروج فى (طابور) للنزهة فى الخلاء تحت إشراف أساتذتهم أو ضباطهم .

وجملة القول إن المدرسة لم تكن مكاناً يختلف إليه التلاميذ فى الصباح من كل يوم ثم يعودون فى المساء إلى أهلهم يتعهدونهم بالغذاء واللباس ،

ولكنها كانت (بيوت) التلاميذ يقيمون فيها لا يبرحونها إلا حين يشاء أولو الأمر . فكم من طفل نزع من أحضان أهله وحمل إلى المدارس ، فظل بها صباه وشبابه ، ولم يعد إلى أهله وقريته إلا (رجلا) يزهو باللباس العسكرى الجميل والمرتب الطيب. ويحدثنا على مبارك أنه خرج من قريته صبيا ، ولم يعد إليها إلا بعد أربعة عشر عاما .

وجهدت الحكومة لتجعل من المدارس « بيوت » التلاميذ حقا : فهى تقدم لهم الغذاء صباحا وظهرا ومساء ، فللصغار منهم خبز وعدس وفول وقليل من اللحم ، وللكبار الخضر واللحم والأرز . وهى تؤويهم فى حجراتها ليلا ، فللصغار منهم سجاجيد يفترشونها وللكبار سرر من حديد . وهى تمدهم جميعا باللباس ، فللصغار منهم ملابس بسيطة مما يلبس أهل الريف وللكبار ملابس مما يلبس الموظفون ورجال الجيش . وهى فى أول الشهر — أو فى كل بضعة شهور — تجمعهم صفوفا وتمنح كلا منهم المرتب الذى يتفق وفرقته الدراسية ، فللصغار منهم بضعة قروش وللكبار عشرات منها ، وهى تخرج بهم إلى « الحمام » أو إلى « الحلاق » كلما مضت بضعة أيام ، وهى تعرضهم على الطبيب من آن لآخر وتعزل المرضى منهم فى مستشفيات خاصة وتقوم على علاجهم حتى يشفوا فيعودوا إلى الدرس ، أو تشتد بهم العلة فيعودوا إلى أهليهم ، أو يصابوا بعاهة لا تعوقهم عن العمل فيخرجوا إلى وظائف بسيطة فى دوائر الحكومة ، أو يتوفاهم الله فتقوم مدارسهم على تجهيزهم ودفنهم !

والطفل ينتهى من الدراسة الأولية فى مكتب بإحدى مدن الدلتا أو الصعيد ، ويقترب الامتحان ، والمكتب فى هرج ومرج : فالناظر يصدر أوامره إلى الخدم بنظافة غرف المكتب والمستشق ، وإلى الكاتب ووكيل الخرج بضبط حسابات المكتب و « كيلاره » ، و « الباشخوجة » بجمع المدرسين ويطلب اليهم أن ينهوا الكتب فى سرعة وإتقان ، وأن يأخذوا

تلاميذهم باستظهار الأجزاء الصعبة منها . والمدرسون يخرجون إلى التلاميذ يحملونهم على أن ينتبهوا إلى ما يلقونه إليهم فى هذا الوقت « العصيب » من العام الدراسى . فالكتب تعاد فى عجلة والقرآن يتلى مرة ومرتين وجدول الضرب يحتل من دروس الحساب النصيب الأكبر ونظريات الجغرافيا كشكل الأرض وحركتها وكرويتها قد لا يكون إلى تحفيظها للأطفال من سبيل إلا بالعصا !

أما الخدم فمنهمكون فى نظافة الغرف وأدوات الغذاء والنوم وغسل ملابس التلاميذ فى إتقان لم تعهده من قبل !

والأطفال بين هذا وذاك يروحون ويغدون : الجدد منهم دهشون لهذا « النشاط » الذى حل بمكتبهم على حين غرة ، والقدامى منهم الفرح الذى يأمل أن يرى القاهرة التى يسمع عنها ويجسمها له خياله مدينةَ العلم واللهو والشوارع والقصور . وهو يجدّ ويجتهد ويواصل الدرس والقراءة ساعات طويلة ، ومنهم الهيَّاب الوجل الذى يخشى سوء العذاب جزاء وفاقا لما قدّم من كسل وتراخ عن الدرس !

وتمضى أيام ، وترسو « ذهبية » كبيرة جميلة على شاطىء النيل ، وينزل منها رجال من أعوان الحكومة متجمِّلون باللباس الغالى ، وعلى أكتافهم وأذرعهم « نجوم » لامعة . ورجال القرية ينظرون إليهم مشفقين على أبنائهم أن تتخطَّفهم الحكومة إلى حاضرة البلاد . وناظر المكتب ومدرسوه وخدمه يتقبَّلونهم فى خضوع واحترام . والتلاميذ فى ملابسهم الزاهية النظيفة ينتظرون بذاهب الصبر هذا « الامتحانجى » وأعوانه الذين طالما سمعوا عنهم كثيرا !

وتمضى أيام ، والتلاميذ يغدون ويروحون بين « الامتحانجى » وأعوانه ، يلقون إليهم — فى حذق أو غباء — ما قرأوه عامهم الدراسى وما أخذهم به معلموهم . وتظهر « النتيجة » بعد يوم أو بعض يوم ، ويعرف التلاميذ

الذين اختيروا للمدرسة التجهيزية ، فنهم كاسف البال الذى يخشى التغرب وفرقة الأهل والديار ، ومنهم الفرح الطروب الذى يتطلع إلى الحياة والمستقبل . وأولئك وهؤلاء يهرعون جميعاً إلى ملابسهم فيحزمونها وإلى زملائهم وأساتذتهم فيودعونهم ثم إلى شاطىء النيل ليستقلوا — لأول مرة فى حياتهم — هذه « الذهبية » الجميلة فى النيل الجميل إلى العاصمة الجميلة . وأهلهم من حولهم على شاطىء النهر يغالبون الدمع ويتنازع قلوبهم الأمل والإشفاق . ويتهادى السفين على صفحة الماء ، والأطفال يملأون عيونهم من أهليهم ومن بيوت القرية وحقولها الخضراء .

والسفينة فى طريقها تجمع أطفال المكاتب الناجحين . حتى إذا انقضت الرحلة أنزلوا إلى شاطىء النيل وأركبوا جمالا أو حميرا إلى جوف الصحراء ، إلى أبى زعبل ، إلى المدرسة التجهيزية حيث يبدأون صفحة جديدة من حياتهم : فلباسهم « بدل » من كتان وجوخ ، وغذاؤهم لحم وأرز وخضر فى كل يوم ، ومنامهم على سرر مرفوعة ، ومرتباتهم تزيد على ما كانوا يمنحون ، ولكن الكتب أضخم من تلك التى كانوا يقرأون ، وهم يؤخذون بعلوم لم يكونوا يسمعون عنها شيئا ، وهم ينذرون بألا يروا أهلهم إلا إذا جدوا فى الدرس وتخلقوا بالخلق الطيب . وهم يعتادون يوما بعد يوم هذه الحياة « المعقدة » التى بدأوا يحيون ، حتى إذا نقلوا إلى إحدى المدارس الخصوصية لم يجدوا كبير فرق بين حياتهم الجديدة والحياة التى كانوا يحيون .

كانت هذه الحياة التى يحيا التلاميذ فى مدارسهم تقتضى الحكومة نفقات طائلة . بل إنا لنرى أن هذه النفقات كانت تستغرق الشطر الأكبر من « ميزانية » التعليم ، ولكن الحكومة كانت مضطرة إلى بذلها لتجذب التلاميذ إلى مدارسها . وقد رأينا أنها نجحت فى ذلك إلى مدى بعيد : فقد كان الريف فى تلك الأيام متعباً مكدودا ، وكان الفلاحون يقاسون ألوانا من الفقر

والحرمان، ولا شك فى أن قيام الحكومة عنهم فى تنشئة طائفة من أبنائهم كان يخفف عنهم بعض أعباء الحياة التى يحملون فى صبر وأناة. هذا إلى أن الحكومة تقوم على رعاية أبنائهم صغاراً بالتعليم والتربية، ثم هى تواليهم برعايتهم كباراً بالوظائف والمرتبات.

على أنه على الرغم من هذه النفقات الباهظة التى أنفقت الحكومة لم يكن التلاميذ جميعاً وخاصة تلاميذ المكاتب يحيون حياة طيبة وخاصة فى العهد الأول من إنشائها. وقد وصفنا قبلُ حياة التلاميذ بمكاتب الأقاليم وأوردنا فقرات من تقارير المفتشين،[1] يتضح منها أن التلاميذ كانوا يقاسون ألوانا من جهل المتحدثين على شئونهم وخيانتهم الواجب الذى كلفوا القيام به: فغذاؤهم تافه قذر، وفى كثير من الأحوال لا يقدم لهم فى أوقاته، حتى ليضطر كثير من الأطفال إلى النوم من غير أن يتناولوا العشاء. أما ملابسهم فممزقة بالية حتى ليمشى كثير منهم حفاة الأقدام. والغرف التى يتلقون فيها الدروس نهاراً ويأوون اليها ليلاً خربة فاسدة الهواء رطبة لا يدخلها ضوء الشمس. وأدوات التعليم لا تصرف لهم بانتظام.

أما الحالة الصحية فتقارير المفتشين تثبت العدد الكبير الذى أخرجوه من المكاتب حين شرعوا فى تنظيمها من المرضى المصابين بكثير من الأمراض المعدية والخبيثة ومن ذوى العاهات الذين لا يمكنهم أن يفيدوا من دروسهم حق الفائدة. وترجع هذه الحالة السيئة إلى عوامل كثيرة أهمها قلة كفاية وإخلاص القائمين على هذه المكاتب أوّل إنشائها وبعدها عن مقرّ الحكومة فى حاضرة البلاد وضعف الإشراف الصحى والفنى.

وكان تنظيم المكاتب فى سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧ نقطة التحول فى تاريخ هذه المكاتب: فألغيت مكاتب القرى وأنفذ المفتشون لتنظيم مكاتب المدن

---

(١) انظر ص ١٦٣ — ١٦٦ عن مكاتب المبتديان فى عهدها الأول.

و«البنادر» ، وصُرف عن المكاتب نظارها الأميون ، وقسِّم القطر مناطق للتفتيش الصحى ، واستدعى المهندسون لاصلاح مبانى المكاتب المتداعية ، وعلى الجملة بدأت المكاتب عهدا جديدا فى تاريخها .

ولكن على الرغم من ذلك فإن الحالة الصحية ما زالت سيئة فى المكاتب على نحو ما ذكرنا . وهذا التجديد الذى شرحنا فى حياة التلاميذ لم يشملهم جميعا : فالجلوس على مقاعد كان قاصراً على تلاميذ الفرق الأولى النهائية ، والتلاميذ لا ينامون جميعاً على أسرة ، وملابسهم لا تقيهم برد الشتاء ، حتى ليشفق عليهم أهلوهم — الذين ينتظرون بذاهب الصبر قروش أبنائهم فى مطلع كل شهر ليستعينوا بها على شقائهم — فيبتاعوا لهم ملابس أخرى فوق ملابس الحكومة . ويشفق عليهم الديوان أخيرا فيطلب الإذن بأن تصنع لأطفال المكاتب (صدارى) من غير أكمام !

أما مبانى المكاتب فالشكوى متصلة من سوء حالها . ولكن الحكومة لاتهتدى فى شأنها بسياسة ثابتة .

ليس معنى ذلك أن حياة التلاميذ فى المكاتب كانت أسوأ من الحياة التى كان يحيا آباؤهم وعشيرتهم ، بل إن التلاميذ كانوا بلا ريب ينعمون بحياة يحسدهم عليها الأهل والآباء . فالمكتب — على الرغم من سوء بنائه — لا شك يفضل كثيرا بيوت الفلاحين . وغذاء التلاميذ — على كثرة مايحوى من العدس والفول وقلة مايحوى من اللحم والخضر والأرز — كان كذلك يفضل غذاء الفلاحين التافه غير الصحى ، وكذلك قل عن ملابسهم . ولكن حياة تلاميذ المكاتب لم تكن — كما كان يجب أن تكون — مثلا أعلا فى النظافة والراحة بين أوساط الجهل والفاقة والقذارة التى تحيط بها . فان مكتب القرية لا يجب أن يكون مكانا للتعليم فحسب ، بل ونموذجا طيبا أمام أهل القرية يبعث فيهم الميل إلى تحسين حالهم والنهوض بمستواهم المعاشى والاجتماعى .

أما تلاميذ مدرسة المبتديان والمدارس التجهيزية والخصوصية فكانوا

ينعمون بحياة طيبة : أن كانوا — فى حاضرة البلاد — محط أنظار الوالى وكبار الموظفين والزائرين الأجانب ، ولهذا كان يُعنى بجودة غذائهم ولباسهم حتى لا تقع أنظار الأخيرين على ما يبث فيهم (فكرة) سيئة عن مدارس محمد على .

هذا إلى أن وجودها فى العاصمة قد مكّن الحكومة من أن تزيد الإشراف الصحى عليها ، فضلا عن أن حاضرة البلاد كانت تفضل المدن والقرى من الوجهة الصحية . فلكل (قسم) منها طبيب يعالج مرضاه ويلقح أطفاله بالمصل الواقى من الجدرى ، ومن ورائهم جميعاً (الاسبتالية الكبرى) أو مستشفى قصر العينى يتلقى الحالات المرضية الشديدة .

وكان لهذه المدارس من النظار والمتحدثين على شئون التلاميذ طائفة على جانب كبير من الكفاية ، يبغى كل منهم أن يرقى بمدرسته إلى مستوى عال من الرقى والنظافة .

أما الجانب الأكبر من التلاميذ — وهم تلاميذ المكاتب — فكانوا يفتقرون إلى كبير عناية من جانب الحكومة والقائمين على شئونها . ولكن هذه العناية كان يعوزها شيئان هامان: هما الزمن والمال ، وكلا الأمرين كانا يعوزان محمد على .

هذه إلمامة سريعة كان لامندوحة عنها لنخلص الى بيان العوامل التى أوجدت الانفصال بين المدرسة والمجتمع فى عصر محمد على :

١ — كانت المدارس مؤسسات «حكومية» : فالحكومة هى التى أنشأتها وعينت لها الموظفين ووضعت لها المناهج والنظم وجمعت لها التلاميذ وقامت على غذائهم وكسائهم وعلى شئونهم كافة ، بل ونزعتهم من أحضان أهلهم ومنعتهم أن يذهبوا إليهم إلا حين تشاء . فالآباء لا يعلمون شيئاً عن الحياة التى يحيا أبناؤهم فى المدرسة ولا عن العلوم التى يدرسون والكتب التى يقرأون ،

وليس لهم رأى فى توجيه أبنائهم الوجهة التى يشاءون والتى قد تتفق مع مكانتهم المادية والاجتماعية . فالحكومة هى التى تعلم أبناءهم وتربيهم وتؤويهم وتمهد لكل منهم مستقبله ، والآباء لا يعلمون من ذلك شيئا . وهم إن علموا من ذلك شيئاً فليس إلى إبداء رغباتهم من سبيل . فالحكومة تقوم بكل شىء والآباء لا يقومون بشىء . ليس من عجب إذن أن لا يقدر الآباء مدارس الحكومة أو يعملوا لنجاحها . فالمدارس — ككل المؤسسات الحكومية — « تسامت » على أهل البلاد وترفعت عنهم ولم تحفل بأن تكسب تأييدهم وعطفهم ، وعاشت حياتها متحفظة منفصلة بتلاميذها عن البيئة التى تعيش فيها . وكانت من « صنع » الحكومة ، فإذا تخلت عنها الحكومة انهارت ، ولم تجد يداً تمتد إلى إنهاضها . فالأهالى لم يكن يعنيهم فى قليل أو كثير أن تكثر الحكومة من معاهدها أو تلغى منها ماتشاء . وهذا يفسر كيف أن إلغاء معظم المكاتب الابتدائية فى سنة ١٨٤١ لم يثر بين الأهالى اعتراضاً ما ، كما لم يثر فيهم إنشاؤها من قبل ارتياحاً وإقبالا ، فالحكومة هى (صاحبة) هذه المكاتب ، ولها أن تمدها بعناصر الحياة إذا شاءت فتحيا وتزدهر ، ولها أن تقبض عنها الحياة فتفنى سريعاً كما بدأت .

فالدور الذى كان يقوم به المصريون فى التعليم سلبي محض ، فهم يضطرون إلى أن يرسلوا أبناءهم إلى مدارس الحكومة ، وقد يرسلونهم بعد إليها عن طيب خاطر . ولكنهم لا يحفلون فى كلتا الحالين بتقدم هذه المدارس أو اضمحلالها ، بحياتها أو فنائها . ذلك لأن الحكومة كذلك لم تحفل بأن تكسب تأييدهم وعنايتهم بتنشئة أبنائهم ورعايتهم فى حاضر أيامهم ومستقبلهم ، بأن تحملهم قسطاً مما كانت تنوء به فى تعليمهم وتربيتهم وإيوائهم وغذائهم وكسائهم ، إذ كانت تقوم عنهم بهذا كله . فالوالد لا يعنيه أن يتخرج ابنه فى إحدى المدارس طبيباً أو مهندساً أو معلماً أو كاتباً أو ضابطاً ، كما لا يعنيه أن يعود

اليه قدماً لم يصبْ من العلم والتهذيب حظاً . فهو لم «يخسر» فى تنشئته شيئاً ، وليعدْ به أخيراً إلى الأرض التى منها بدأ .

والواقع أن حكومة محمد على لم تكن تخصُّ التعليم وحده بهذه «السياسة» ، بل لقد ترى فى كل الشئون «الحكومية» الأخرى : فى الاقتصاد الزراعى والصناعى وشئون الإدارة والتجنيد الحربى . الخ أن يد الحكومة كانت العالية وكلمتها النافذة: هى التى تضع النظم ، وليس على الشعب إلا أن يتابعها إما طوعاً وإما كرهاً فالحكومة كانت تقود المجتمع — بل تسوقه — إلى تحقيق أغراضها . أما فى الدول القوية ذات التقاليد العريقة فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد فإن المجتمع هو الذى يقود الحكومة ويوجِّهها الوجهة التى يراها متفقة وأغراضه فى شئون الحكم والسياسة والاقتصاد . وفى مثل هذا المجتمع ينهض الأفراد بكثير من المشروعات الاقتصادية وبالقسط الأكبر من الاصلاح الاجتماعى والتعليمى ، بفتح المدارس والقيام على شئونها من غير الاعتماد على سلطان الحكومة أو بعون وإرشاد منها . والحكومة قبل أن تضع قانوناً ما تحفل بآراء المجتمع فى هذا القانون وتكيِّفه حسبما يتفق وهذه الأغراض . وإلى هذا يرجع الفضل فى ثبات كثير من النظم وتكوين التقاليد الصالحة . أما المجتمعات التى تقوم فيها الحكومة بكل شىء — فى التعليم والشئون الاقتصادية والاجتماعية والسياسية — فضعيفة مترددة ، يستمد كل نظام فيها كيانه من سلطان الحكومة وتأييدها ، وإلى الحكومة يتجه الأفراد فى كل شىء : فى إنشاء المدارس وتشجيع البحث العلمى وفى الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى كإنشاء المصانع ومكافحة أزمة المتعطلين ، إذ أن الحكومة عندهم هى وحدها «المسئولة» عن التقدم الاجتماعى والاقتصادى فى البلاد .

بسطنا هذا كله لندل على الأضرار التى تتعرض لها البلاد من جراء قيام الحكومة بكل شىء واقتصار الشعب على دور سلبى دون أن يتقدم لحمل

شطر من هذه الأعباء . ونحسب أنا أوضحنا الآن أن هذه الأضرار لا تقتصر على التعليم بل تتعداه إلى ميادين النشاط الأخرى .

وأدرك إبراهيم باشا أن التقدم الذى ينشده للتعليم فى مصر لا يمكن أن يتم ويؤتى ثماره إلا إذا صادف إقبالا من جانب المصريين وعطفاً وتأييداً وحدباً عليه واحتفالا بنجاحه . وأدرك أن السبيل لذلك هو أن يتحمل الأهالى وخاصة الأغنياء منهم والموظفون قسطاً مما كانت تنوء به الحكومة فى تعليم أبنائهم وتنشيئهم . وقد رأينا أن إبراهيم باشا بدأ يفكر فى إرسال البعوث العلمية إلى أوربا على هذه الأساس . ونحسب أن هذا كان أول تفكير فى إدخال نظام « المصروفات المدرسية » فى نظم التعليم فى مصر . فهذه المصروفات مهما قلت لا شك تحمل الأهالى على موالاة السؤال عن أبنائهم والاهتمام بتقدمهم فى العلوم ونجاحهم فى الدراسة ونوع العمل الذى يعدّون له ، واهتمامهم بأبنائهم يؤدى بهم إلى الاهتمام بالمدارس وتقدمها . وكان هذا أكبر ما يرمى إليه إبراهيم باشا . ولكن إبراهيم باشا لم يعش ليحقق شيئا من آرائه .

٢ — كانت الحكومة تجمع التلاميذ لمدارسها كما تجمع الجنود لجيشها . والتلاميذ والجند لديها سواء : فهم جميعاً « أنفار » . وكان الجيش يمثل فى أذهان الفلاحين — وهم السواد الأعظم من الشعب — البعد عن الأهل والوطن والنزوح إلى بلاد بعيدة ، ويمثل حياة الحرمان والذل والإرهاق وأحيانا الموت فى ساحات الوغى . وقد مضى على أهل البلاد قرون قام دونهم للدفاع عن بلادهم وبسط سلطانها أخلاط من الأجانب ربطوا حياتهم بمهنة السلاح . حتى إذا ما دعا محمد على أهل البلاد للدفاع عن قضية — لا شك كانوا يجهلون كثيراً من أسبابها وملابساتها — أحجموا ولم يتقدموا طوعا . وهنا سلطت عليهم الحكومة عمالها ، فجمعوا منهم الآلاف . ولم يكن جمعهم

للجيش طبقا لنظام معين مسنون ، بل كان مدعاة لكثير من الظلم والعبث . فأصحاب النفوذ فى القرية يزجّون بفقرائها وخصومهم .

وكذلك المدارس ، كانت الحكومة تجمع لها التلاميذ ، فتخصص لكل مديرية نفراً منهم وتعهد إلى رجال الإدارة بجمعهم ، فإذا لم يتقدم بهم أهلوهم عن يد وهم صاغرون سلَّط رجال الإدارة الجند لنزعهم من أحضان أهلهم ، أو عهدوا إلى « المتعهدين » بأن « يوردوا » لهم « الأنفار » الناقصين . وكان هذا أول عهد المصريين (بتدخل) الحكومة فى تعليم أبنائهم وتنشيئهم . وكما استناموا من قبل إلى إهمال الدولة أخذهم بالدفاع عن بلادهم وبسط سلطانها واضطربوا أيما اضطراب لما دعوا إليه ، كذلك استناموا إلى إهمال الحكومة أخذهم بتعليم أبنائهم وقيام الحكومة عنهم فى ذلك واضطربوا لما دعوا إليه . وأصبح التجنيد « العلمى » يختلط فى أذهانهم بالتجنيد « الحربى » . فالقائمون به فى كلتا الحالين واحد ، والمستقبل المظلم — أو الغامض على الأقل — ينتظر أبناءهم فى كلتا الحالين ، وليس ببعيد أن كان يؤدى بهم هذا الخلط بين اللونين من (التجنيد) إلى أن يعتقدوا أن أخذ أطفالهم من المدارس — كما كانت تعلن إليهم الحكومة — ليس إلا (حيلة) منها لتستولى عليهم ، ثم تجعل منهم جنوداً وتبعث بهم إلى هذا « الأتون » الذى لا ينتهى نهمه .

وكما يؤدى بهم التجنيد « الحربى » إلى أن يمكثوا فى الجيش سنين عدّة لا يرون خلالها أهلهم الذين عاشوا طفولتهم بين أحضانهم وقراهم الجميلة التى أنفقوا فيها صباهم والتى يحفظون لها فى نفوسهم البريئة الساذجة أحلى الذكريات ، كذلك يحملهم التجنيد « العلمى » إلى المدارس حيث تغلق دونهم الأبواب ، فلا يترددون على أهلهم إلا حين يشاء أولو الأمر ، وأولو الأمر لا يشاءون ذلك إلا فى فترات طويلة الآماد . «فالجندى» فى الجيش و«التلميذ» فى المدرسة قد انقطعت صلتهما بالأهل منذ ألحق هذا بالجيش وذاك بالمدرسة .

وعلى كل منهما أن يعدّ نفسه لحياته الجديدة ، عليه أن لا يفكر فى الماضى . بل عليه أن يتطلع دائماً إلى الأمام ليُرضى الحكومة والقائمين على شئونه ، أما أهله فلينتظروا صابرين أن يبسط الله عليه من رحمته فيعيده إليهم بعد قليل أو كثير سالماً معافى !

ليس هذا بالتصوير الغريب للتعليم والمدارس فى عهد محمد على . فالواقع أن المدارس كانت حصوناً أو ثكنات عسكرية يحرسها الجند ويحولون دون اقتراب الأهالى من أسوارها العالية ، (١) ويحولون دون أن يخرج التلاميذ إلا بصحبة ضباطهم أو بإجازة من ناظر المدرسة . حتى إذا تمكن تلميذ من (اقتحام) هذه الأسوار والفرار إلى أهله أو إلى حيث يختبىء عن عيون الحكومة بادرت المدرسة فأخطرت الديوان والمديرية ، والمديرية تصدر أوامرها ، والجند يقبضون على أهله ويعذبونهم حتى يأتوا بابنهم الفار ، والقرية فى هرج ومرج ، ورجال الإدارة يتوعدون ويتهددون .... وهذا كله لأن الحكومة قد أخذت التلميذ الفار بشىء من التعليم والتربية وأنفقت عليه من خزانتها ، فكيف يذهب هذا كله عبثا ؟ !

وفى هذه الثكنة العسكرية — التى دعتها (الحكومة) مدرسة — يدوى صوت البوق من آن لآخر وأصوات الضباط والمتحدثين على التلاميذ تدعوهم إلى أن يتجهوا إلى حجرات الدرس أو الطعام أو النوم ، أو أن يسيروا مثنى وثلاث إلى « حلاق » المكتب أو إلى « حمام » البلد أو إلى « النزهة » فى الخلاء ، أو إلى أن ينهضوا من نومهم فجأة ، أو يغمضوا عيونهم إذا جن الليل !

وقد يسمع الأهالى الساذجون بهذا كله ، ويتحدث به بعضهم إلى بعض

---

(١) حدثنا على « باشا » مبارك أن أباه لم يره فى المدرسة التجهيزية إلا من خلال حديد النافذة بعد أن رشا أحد الخدم (الخطط التوفيقية م ٣ ج ٩ ص ٤٠)

مشفقين على أبنائهم أن تنتهى بهم هذه الحياة (العسكرية) التى يحيون إلى ميادين القتال. والواقع أنها كانت تنتهى بكثير منهم إلى حمل السلاح، إما جنوداً إن أخفقوا فى الدراسة، أو ضباطا إن أصابوا من الفنون الحربية حظا.

ولا شك فى أن هذه الروح الحربية التى أخذ بها التلاميذ والتى جعلت من المدارس (ثكنات عسكرية) قد باعدت بين المدرسة المصرية والمجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن الماضى، فالمجتمع ينظر إلى المدرسة نظرة الحذر، نظرته إلى نظام لا يتفق وميوله. والمدرسة من ناحيتها لم تفعل شيئا يبدّد هذا الحذر ويقربها إلى المجتمع. فلو أن التلاميذ كانوا يترددون بين أهلهم ومدرستهم لحدثوا أهلهم كل مساء بما يلقون فى المدرسة من عناية الحكومة وحدبها عليهم وتدبيرها لمستقبلهم، ولأظهروهم على كتبهم التى يقرأون وألواحهم وأوراقهم التى يكتبون فيها وملابسهم الجميلة الزاهية التى يلبسون، ولحدثوهم عن الأيام (السعيدة) التى يقضون فى المدرسة تأهبا لليوم الذى يخرجون فيه إلى «وظائف» الحكومة ويتمتعون بالجاه والثروة. لو أن التلاميذ كانوا يترددون على أهلهم لحدثوهم عن هذا كله، ولكان من حديثهم هذا — ومن زوال العوامل التى كانت تدعو إلى فرار التلاميذ ما يقرب بين المدرسة والمجتمع الذى تعيش فيه. إذ يزول هذا «السد» المنيع الذى يقف حائلا بينهما ويبدآن عهداً جديداً من الود والتقارب.

ولكن حكومة محمد على لم يكن يسعها أن تأذن لتلاميذها بأن يترددوا على أهلهم وعلى البيئة التى نشأوا فيها، وذلك لأنها تعلم أن هذه البيئة منغمسة فى الجهل وأن هذا الجهل ليس مما يعين على تحقيق الأغراض التى تبغى بإنشاء المدارس تحقيقها. وهى إذ نزعت التلاميذ من أهلهم أول الأمر لا تود أن تعود مرة أخرى فتتعرض لمعارضة الأهالى وأخذ أبنائهم بما قد

ينافى أغراض الحكومة . هذا إلى أن الحكومة كانت ترى فى احتجاز التلاميذ عن أهلهم وعن المجتمع — أى عن الحياة خارج المدرسة — طبعاً لنفوسهم على مكارم الأخلاق وحمايةً لهم من الخلق السيء . فليس واجب الحكومة أن تنمى الجسم وتربى العقل فحسب ، بل واجبها كذلك أن تهذب النفس والخلق .

٣ — أما مكاتب الحكومة — وهى أولى مراحل التعليم وهى وحدها التى يعرفها أهل الأقاليم — فإنها لم تعمل من ناحيتها على أن تسد حاجة المجتمع الريفى إلى التعليم الذى ينهض به . والمجتمع الريفى فى حاجة إلى التعليم الذى يرق به من الوجهة الاجتماعية ويقدره على تدبر حقوقه وواجباته ويمكنه من تلمس المعيشة الصحية . هذا نوع التعليم الذى كان يحتاج إليه المجتمع الريفى فى ذلك العصر وما زال يحتاج إليه فى عصرنا هذا . فهل حققت المكاتب الابتدائية التى أنشأتها حكومة محمد على فى المدن والقرى حاجات المجتمع هذه ؟ لا نطمع لمكاتب « محمد على » أن تنال ماتناله المدرسة الأولية الريفية الآن فى الدول المتحضرة من عناية كبيرة كمركز للتثقيف فى البيئة الزراعية التى تعيش فيها : تتدخل فى مشاكل الفلاحين الاجتماعية والاقتصادية وتعينهم على الحلول الصالحة لها وتكون مقراً لاجتماعاتهم من وقت إلى آخر وناديا لسمرهم وألعابهم ومكتبة عامة تصل بينهم وبين عالم الفكر والثقافة ... لا نطمع لمكاتب محمد على شيئا من هذا . بل إن الأعوام المائة التى انقضت منذ نظم التعليم الأولى الابتدائى الحديث فى مصر لم تمكن مدرستنا الأولية الريفية من أن تكون على شيء من هذا . ولكنا نريد بين المكاتب والمجتمع الريفى ارتباطا من نوع آخر ، نريد أن تقوم المكاتب بنشر أوليات مبسطة من العلوم بين أفراد هذا المجتمع ، وهى لو قد نجحت فى ذلك لاستطاعت خلق ناحية هامة من الترابط بينها وبين المجتمع ، ولنجحت فى

اجتياز الهوة التى كانت تفصل بينها وبين المجتمع .

ولكن مكاتب المبتديان فى عهد محمد على لم تحقق شيئاً من هذا . ويرجع ذلك فيما نرى إلى عاملين :

ا — كانت هذه المكاتب من القلة بحيث كان كثير من القرى محروماً منها . ففى العهد الأول من إنشاء مكاتب الأقاليم كان عددها سبعة وستين مكتبا.[1] ثم لما وضعت اللوائح فى سنة ١٨٣٦ ألغيت مكاتب القرى واقتصر على خمسة وأربعين مكتبا فى (البنادر) فقط .[2] ثم لما نظم التعليم مرة ثانية فى سنة ١٨٤١ ألغيت كلها ، ثم أعيدت منها أربعة مكاتب فقط : مكتبان بالوجه القبلى (فى أسيوط وبوش) ومكتب بالوجه البحرى (فى ميت غمر) وآخر بضواحى مصر (فى أبى زعبل) . ليس لدينا إحصاء دقيق عن سكان مصر فى ذلك الوقت ، ولكننا يمكننا أن نحكم مطمئنين بأن هذه المكاتب — حتى حين وصل عددها إلى سبعة وستين — لا يمكن أن تسدّ مطلقا حاجة المجتمع الريفى جميعه إلى التعليم الأولى (الحكومى) . ولا ريب فى أن كثيراً من المدن — بله القرى — لم يكن أهلها يصيبون من هذا التعليم شيئا . وإلى هذا العامل يرجع (الفضل) فى بقاء «كتاتيب» الفقهاء القديمة على تعليم نفر من أطفال البلاد . ولكن أليس لنا أن نتساءل : هل لدينا فى الوقت الحاضر من المكاتب الأوّلية العدد الذى يمكّننا من مكافحة الأمية فى المجتمع الريفى كله؟

ب — أما العامل الثانى فكامن فى مناهج التعليم التى أخذ بها تلاميذ المكاتب: فهم يحفظون القرآن ويقرأون الكفراوى والأجرومية والسنوسية (وكتبا فى القصص ودروسا فى الجغرافيا فى آخر العصر) ويتعلمون من

---

(١) انظر إحصاء عن المدن والقرى التى أنشئت بها مكاتب المبتديان فى ص ١٥٧ — ١٥٩ .

(٢) انظر إحصاء آخر عنها فى ص١٨٦ — ١٨٨ .

الحساب قواعده الأربع . لا ريب فى أن هذا تعليم أولى بسيط ، إلا أنه لايمتُّ بصلة قوية إلى البيئات المحلية . فقراءة كتب الأزهر قد تكون مفيدة فى ذاتها ، إلا أنها لاتغنى الفلاحين فى قليل أو كثير ، وأفضل منها قراءة كتب مبسطة تتصل بالبيئة المحلية التى يقوم بها المكتب . حقا إنهم يقرأون القرآن ويحفظونه ، والريف لم يعرف غيره مادة (أساسية) لأطفاله دهرا طويلا ، إلاأن حفظ القرآن كله — مع مافيه من إرهاق للطفولة — لايجدى فى الأوساط الريفية من الناحية (العملية) ، وإن أعان تلاميذها على إتقان اللغة العربية والأخذ بالخلق الطيب والدين الحق .

والواقع أن هذا العامل يمكن تطبيقه لافى مكاتب المبتديان وحدها بل فى المدارس الأخرى أيضا . فقراءة كتب الأزهر والاهتمام فى دراسة اللغات بالنحو والصرف — أى بالشكل دون المادة — يخرّجان تلاميذ بينهم وبين حاجات المجتمع (العملية) بون كبير . وهذه التعابير اللغوية والعلمية التى تلوكها ألسنتهم قد تعينهم على النجاح فى الامتحان وتعدّهم إعدادا سقيما لحياة الوظيفة الناعمة ، إلا أنها قليلة الجدوى من الناحية العملية ، فالمجتمع لايفهمها لأنها لاتلبى حاجة من حاجاته .

٤ — وقصور التعليم عن أن يتغلغل فى طبقات المجتمع كلها قد انتهى به إلى تكوين طبقة ممتازة فى المجتمع : ممتازة بعقليتها بالقياس إلى مجموع الشعب الجاهل ، وممتازة بثرائها بالقياس إلى مجموع الشعب الفقير . هذه الطبقة هى طبقة «الأفندية» ، طبقة «الارستقراطية» المتعلمة الغنية بالقياس إلى الفلاحين الجهلة الفقراء . ولكن على الرغم من أن التعليم قد انتهى بتكوين طبقة (أرستقراطية) متعلمة فى شعب مازالت الأمية تسيطر عليه . إلا أنا يجب أن نعترف بأن بدايته كانت (ديموقراطية) : ذلك لأن الحكومة لم تكن تحدّد شروطاً من ثراء أو مقام اجتماعى أو غيره تتوافر فى التلاميذ الذين تلحقهم

بمدارسها ، بل هى تأخذهم من كل الأوساط : فمنهم أبناء (الذوات) من الموظفين والعلماء ومنهم أبناء الفلاحين ذوى الجلاليب (الزرقاء) ومنهم الأغنياء ومنهم الفقراء ، بل لقد كان أكثرهم من بيئات فقيرة ، أن كانوا من الريف الفقير الجاهل . ثم هى تمنح كلا منهم (الفرصة) لإظهار مواهبه . والفرصة التى يمنحونها جميعاً واحدة ، والعناية التى يصيبونها واحدة ، وهم جميعاً يؤخذون بنظام واحد وتعليم واحد . وللجد وللذكاء وللاستعداد للدرس أن تفعل فعلها فى هذه المادة « الخام » ، حتى إذا مضت سنوات قليلة بدت بينهم الفروق .

ولا شك فى أن هذا ساعد — من ناحية — على إدماج طبقات المجتمع المصرى ، أن تساووا جميعاً أمام الحكومة وفى ميدان العلم أول أشواطه . ولكنه — من ناحية أخرى — عاون على خلق طبقة جديدة لم يعرفها المجتمع من قبل : وهى طبقة (الأفندية) من أهل البلاد المتعلمين الذين يشغلون وظائف الدولة ويصيبون منها المال والاحترام والتقدير ، وخاصة فى المجتمع الريفى الذى كان يقاسى كثيراً من الجهل والاهمال والحرمان .

وهكذا أخذ المجتمع المصرى يتحول بالتدريج إلى طبقتين متمايزتين : طبقة « الأفندية » وطبقة « الفلاحين » ، طبقة العمل الأميرى « النظيف » ، وطبقة العمل اليدوى « القذر » . إحداهما تكدُّ وتخضع ولا تلقى جزاء كدِّها ما هى خليقة به من تقدير ورعاية ، والأخرى تأمر وتنهى وتلقى من الناس التقدير والرعاية ، ولا ريب فى أن كثيراً من الأدواء الاجتماعية والاقتصادية التى نعانيها ترجع إلى هذا الانحلال فى المجتمع المصرى ، وأخصُّها ما يلقاه السواد الأعظم من المصريين — وهم الطبقة العاملة — من إهمال ، وشعورهم بفقدان العدل والمساواة واختلال التوازن الاجتماعى واحتقار العمل اليدوى .

وقد عاون على تجسيم هذه الأدواء أن أفراد الطبقة المتعلمة لم يعودوا إلى بيئاتهم التى نشأوا بها ليرفعوا مستواها ويلائموا بينها وبين حياتهم الجديدة، بل تحوّلوا إلى بيئات أخرى جديدة، فاكتظت بهم حاضرة البلاد والمدن. وافتقر الريف إلى الرجال المفكّرين العاملين لإنهاضه، فقد احتقروه وتحولوا إلى المدن يبغون فيها الشهرة والغنى.

وعلى مرّ الزمن قويت هذه الطبقة المتعلمة «الأرستقراطية»، وأراد أفرادها أن يحتفظوا بما كسبوه من مقام أدبى ومادى، ولم يروا السبيل إلى ذلك إلا «باحتكار» التعليم فى طبقتهم ومنعه عن سواد الشعب، مدّعين أن هذا التعليم يرغّبهم عن أعمالهم التى نشأوا عليها، فيزيد بذلك عدد المتعلمين المتعطلين وتتعرض البلاد لمشاكل اجتماعية خطيرة. وهم لو أنصفوا لاعترفوا بأن تعليم الشعب يُنزلهم من المقام العالى الذى احتكروه زمناً طويلا، أو يرفع بسواد الأمة إلى هذا المقام، ويسوّى بين مختلف الطبقات فى الحقوق والواجبات السياسية والاجتماعية والتكاليف الاقتصادية.

الفصل الرابع

مدى النجاح

على أن أوجه الضعف هذه التى تتبعنا فى الصفحات السابقة لا يجب أن تصرفنا عن حقيقة رائعة : وهى أن النظام التعليمى الحديث قد نجح فى نواح كثيرة . وحسبنا أن نلقى نظرة على تلك المعاهد الكثيرة التى أسستها الحكومة وأكثرها فى حاضرة البلاد وباقيها فى مدن الأقاليم يصيب فيها آلاف التلاميذ من تعليم الحكومة ورعايتها شئوتهم ما يهىء لهم حياة جديدة ، وعلى البعوث التى أوفدت إلى مختلف البلاد الأوربية والتى بلغ عدد أفرادها نحو الثلاث مائة والأربعين عضوا ، وعلى مئات الكتب التى نقلت إلى اللغة العربية فى مختلف العلوم الحديثة فى الطب والهندسة والرياضيات والأدبيات وفنون الحرب وغيرها ، وعلى كثير غيرها من كتب الدين واللغة العربية واللغات والأدبيات التركية والفارسية ، وغيرها مما قامت على طبعه ونشره مطبعة بولاق ومطابع القلعة وبعض المدارس الخصوصية ، حسبنا أن نلقى نظرة على هذا كله وعلى ما عاون على النهضة التعليمية كإنشاء الصحف (الوقائع المصرية) والمرصد والعناية بالمحافظة على الآثار القديمة وجمعها ... حسبنا أن نلقى نظرة على هذا كله لنقدر العمل العظيم الذى أخذ محمد على على عاتقه أن يقوم به ، وقام به فعلا : وهو إشاعة نهضة تعليمية قوية فى البلاد .

حقاً إن هذه النهضة التعليمية لم تشمل نواحى الحياة المصرية جميعا ، إلا أن مصر كانت فى بدء الطريق . والطفل الذى يبدأ السير يمشى بخطوات متئدة ، وهو يتعثر فى مشيته كثيرا ، إلا أن تعثره يقدره على تعرف الطريق وتدبُّر نواحى الضعف فى جسمه ، حتى إذا تقدم به العمر كان له من قوته

وخبراته التى أفاد خير معين له على السير قدماً إلى الأمام . وكذلك كانت النهضة التعليمية فى عصر محمد على : بدأت ضعيفة مترددة يعوزها الكثير من عناصر النجاح ، كان يعوزها التقاليد الصالحة التى تقوّم كثيراً من الأخطاء الأولى وتهدى القائمين على شئونها سواء السبيل ، كان يعوزها المثال الصالح الذى تحتذيه ، كان يعوزها الرجال الأكفاء الذين يقومون على شئونها فى كفاية وإخلاص ، كان يعوزها المال ينفق عليها بسخاء على أن يحسن إنفاقه فى السبل النافعة ، وكان يعوزها أخيرا النظرة الشاملة إلى حاجات المجتمع جميعا .

ونحسب أن حكومة محمد على لو قد تداركت هذه العوامل التى كانت تعوز النهضة التعليمية لكان لها من هذه النهضة (البدائية) خير معين على النهوض بالبلاد فى جميع نواحيها ومرافقها نهضة قوية شاملة ، ولكان لنا منها خير التقاليد التى تثبت أقدامنا وتهدينا سواء السبيل فى الأعوام المائة الماضية ، فى شئون تفتقر إلى التقاليد الصالحة جدّ الافتقار ، وهى شئون التعليم .

على أن محمد على بوسائله المحدودة وميزانيته المحدودة وأغراضه المحدودة ورجاله القليلين قد صنع « شيئاً » من « لا شىء » . وهو على أقل تقدير قد بدأ العمل ، ويحسن أن يأتى غيره من بعده فيتم ما بدأ . وقد تكون هذه النهضة التى بدأها محمد على حوت كثيراً من الأخطاء ومظاهر الضعف ، ولكن الذين أتوا من بعده يحسن أن يصلحوا هذه الأخطاء ويقوّموا مظاهر الضعف ، وهم لو قد نجحوا فى ذلك لكانت لنا سياسة تعليمية ثابتة موجّهة ، ولكُنّا قد فرغنا من علاج كثير من الأدواء التعليمية التى نعانى . ولكن « الاستمرار » كان يعوز التعليم الحديث بعد عصر محمد على بل فى عصر محمد على نفسه . فقد عاش محمد على حتى شهد كثيراً من أحجار البناء التى شيدها تتداعى أمامه : شهد إلغاء معظم المكاتب الابتدائية ، وهى معاهد الدراسة الحكومية الوحيدة فى الأقاليم . ولكن على الرغم من ذلك فقد عاش النظام التعليمى سليماً

ماعاش محمد على . حتى إذاتولى عباس اختل هذا النظام من أساسه فانْدك البناء.

وفى هذا الفصل — وهو الكلمة الأخيرة فى هذا البحث — نبين أوجه النجاح التى أصابتها النهضة التعليمية :

١ — الواقع أنا لا نعدو الحق حين نصفها « بالنهضة » : فلأول مرة فى تاريخ مصر الحديث تنهض الحكومة بواجب من أسمى واجباتها وهو التعليم. كان التعليم قبل محمد على لا تعنى به هيئة ما عناية قوية دائمة، سواء أ كانت هيئة حكومية أم هيئة شعبية . لهذا غشى الجهل البلاد وانحصر التعليم فى الأزهر وبعض المساجد و« الكتاتيب » . بل إن العلم الذى كان يلق بها لم يكن يجدى فى زراعة أو صناعة أو غيرهما من أسباب الرزق . أما التعليم الذى بدأته حكومة محمد على فيعدُّ « للحياة » ، كما بدأ الناس يحيونها فى النصف الأول من القرن الماضى . فقد جدَّت فى الحياة المصرية حاجات لم يعرفها المصريون من قبل . هذه الحاجات هى ما تطلبته المنشئات الاقتصادية والإدارية والحربية التى شيدتها الحكومة ، والتى كانت الدافع (الأساسى) لإنشاء المدارس . وتحرج المصريون بادىء الأمر عن إرسال أبنائهم إلى مدارس الحكومة ، فجاء إليهم محمد على عن طريق الشدة كما جاء إليهم عن طريق المادة أيضا ، فأعلن إليهم أنه يعلم أبناءهم ويطعمهم ويكسوهم وينفق عليهم ، بل و« يضمن » لكل منهم فوق ذلك منصباً فى الحكومة . دهش المصريون وحق لهم أن يدهشوا ، فلأول مرة يدركون أن هناك تعليما وثقافة غير تعليم الأزهر وثقافته ، وأن هناك علوماً حديثة ولغات أجنبية يجدر بهم أن يتعلموها ليصلوا بها إلى الحظوة لدى « ولى النعم » . وهذا ما حمل على مبارك الصبى على أن يجيب أباه الشيخ متسائلا : « وهل التعليم فى الأزهر يؤدى إلى أن يكون الانسان حاكماً ؟ ومن خرج من الأزهر حاكماً ؟ . . إن الحكام إنما يؤخذون من المدارس » . فلما سأله أبوه عما يريد تعلمه آثر العدول عن الفقه ورغب فى تعلم الكتابة « لما كان يرى من حسن

زى الحكام وهيبتهم » . وما أن زال إحجام الأهلين — الذى شعروا به أول مادعوا إلى مدارس الحكومة — حتى تبادروا إليها . وعلى ذلك فإنه يمكن القول بأن النظام التعليمى الذى وضعه محمد على قد نجح فى توجيه البلاد إلى «التعليم الحديث» . وإن يكن «توجيهاً» على أساس ضيق .

حتى إذا مضى عصر محمد على أخذت جمهرة المصريين يرغبون عن الأزهر وعلومه ، أن كانت بعيدة عن أن تعدّهم لتولى مناصب الحكومة ، وينزعون إلى مدارس التعليم الحديث التى تعدهم لهذه المناصب .

٢ — ولكن إلى أى أنواع التعليم أخذت المدارس والبلاد تتجه ؟ فى الحق أنا لو درسنا أنواع الثقافة فى أوربا لوجدنا نوعين متمايزين منها : ثقافة الجنوب أو الثقافة اللاتينية وثقافة الشمال أو الثقافة السكسونية . وتشيع الأولى فى إيطاليا وفرنسا وإسبانيا ، كما تشيع الثانية فى انجلترا وألمانيا وبلاد الشمال .

اتجه محمد على حين بدأ إصلاحاته إلى إيطاليا ، فاستدعى منها المعلمين والضباط والأطباء ، وإلى إيطاليا أوفد بعوثه الأولى ، وكانت اللغة الإيطالية أول لغة أجنبية درست بمصر ، ثم اتجه إلى فرنسا لعوامل لا محل لذكرها هنا . [1] فاستقدم منها أعوانه فى الإصلاح من الموظفين والضباط والبعوث الحربية لتنظيم جيشه ، وإلى فرنسا أوفد العدد الأكبر من بعوثه لطلب العلم . وقد رأينا أن ذلك كله كان له أثره فى تنظيم التعليم على «المثال» الفرنسى . وأصبحت اللغة الفرنسية مادة أساسية فى برامج التعليم فى بعض سنى حكم محمد على ثم فى السنين التى تلته ، بل أصبحت هذه اللغة حينا من الزمن اللغة الأجنبية «الأصيلة» فى المدارس الابتدائية والتجهيزية فضلا عن المدارس العالية . واستمر الحال على ذلك حتى الاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ ، فبدأ الانجليز يكافحون النفوذ الفرنسى فى المدارس ، فجعلوا

---

(١) انظر ص ٨٩ — ٩٢ من الكتاب .

اللغة الانجليزية مادة أساسية — بعد أن كانت إضافية — فى برنامج المدارس الثانوية. ومنذ ذلك الوقت بدأ الصراع (الصامت) بين الثقافتين الانجليزية والفرنسية. وظهر هـذا الصراع فى المدارس كما ظهر فى المجتمع خارج المدارس، وكان النصر للثقافة الانجليزية فى المدارس وإن أعوزها النصر خارجها. ويتمثل هذا الكفاح لتغليب اللغة الإنجليزية والثقافة الانجليزية فى المدارس الثانوية فى الخطوات التالية : (١)

فى سنة ١٨٨٨ جعل تدريس العلوم الطبيعية والتاريخ والجغرافيا باللغة الانجليزية.

ثم فى سنة ١٨٩٧ أصبحت جميع المواد تدرس باللغة الانجليزية.

ثم فى سنة ١٩٠٧ حينما كان المغفور له سعد زغلول باشا وزيراً للمعارف هبطت حدة النفوذ الانجليزى فى التعليم، فاقتصر على تعليم العلوم الطبيعية والتاريخ والجغرافيا بالانجليزية كما كانت الحال فى سنة ١٨٨٨.

وأخيرا أصبحت جميع المواد تدرس باللغة العربية.

ثم — منذ عهد غير بعيد — أعيدت اللغة الفرنسية كلغة إضافية لبعض فرق الدراسة الثانوية ثم لها جميعا.

ومن مظاهر ميل المصريين إلى الثقافة الفرنسية كثرة المترددين منهم على مدارس الجالية الفرنسية.

وما زال كثير من الانجليز المسئولين يشكون قصور الثقافة الانجليزية عن أن تتغلغل فى المجتمع المصرى، فما نزال — إلى حد بعيد — فى أدبنا ومسرحنا وصحافتنا و « صالوناتنا » نستلهم الثقافة الفرنسية، وبعبارة أخرى ما نزال متأثرين بالثقافة اللاتينية التى لازمت نشأة التعليم الحديث فى مصر.

(١) أمين باشا سامى : التعليم فى مصر - القسم الثالث من الملحقات

٣ — وتوجيه البلاد إلى التعليم الحديث قد أدّى بالمصريين إلى الاتجاه نحو الحضارة الغربية يقتبسون منها نظمهم السياسية والاقتصادية والإدارية. والواقع أن من مميزات عصر محمد على الاتجاه نحو الحضارة الأوربية والاقتباس منها فيما يعين الحكومة على سياستها الجديدة ، وكان التعليم نتيجة لهذا الاتجاه نحو الغرب ، لأن المنشآت ذات النظم الغربية التى قامت فى عصر محمد على كانت تحتاج إلى هذا الضرب من التعليم وتحتّمه وتدعو إليه .

كان التعليم إذن — من جهة — وليد الاتجاه نحو الحضارة الغربية ، وكان بعلومه ولغاته ونظمه الغربية الحديثة أكبر مظاهر هذا الاتجاه . كما أنه كان — من جهة أخرى — عاملا للتمكين لهذا الاتجاه فى حياة الأمة المصرية ، إذ كلما أصاب المصريون من العلم الحديث الذى تقدمه لهم المدارس الحديثة ازداد اتجاههم نحو الغرب وطلب المزيد من اللغات الغربية والنظم الغربية وأساليب الغرب فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد . وسواء أكان هذا الاتجاه فى شتى النواحى صواباً أم خطأ ، فهو حقيقة راهنة فى تاريخ مصر فى القرن الماضى والقرن الحالى .

والواقع أن هذه الحركة — حركة الاقتباس من الحضارة الغربية — (Westernisation) لم تكن قاصرة على مصر فى عصر محمد على ، بل تستطيع أن تتبعها — بنسب متفاوتة — فى غيرها من بلاد الشرق : فى تركيا وفارس وتونس . وقد بدأت كما بدأت فى مصر بمحاولة إنشاء قوة حربية على النسق الأوربى ثم امتدت إلى «اقتباسات» أخرى من الغرب : فى الاقتصاد وأساليب السياسة ونظم الحكم والتعليم . ولكن هذه الاقتباسات — وقد بدأت — لم تقف عند حد ، فقد تلتها فى تلك البلاد الشرقية مراحل أخرى تبدو جلية فى مصر : وهى دخول الأموال الأجنبية ثم استدانة حاكميها والأخذ بنظام الحكم البرلمانى . ثم تنتهى هذه المراحل إلى درجات متباينة من السيطرة الأجنبية على شئون الحكم والمال.

على أن حركة الاقتباس قد تطور بعد ذلك إلى الأخذ عن أساليب الغرب فى السياسة والاجتماع للاستعانة بها على النهوض بالبلاد ومكافحة السيطرة الأجنبية.

والتعليم مظهر هام لحركة الاقتباس عن الحضارة الغربية ، بل هو أهم مظاهرها . وكلما اشتد هذا الاقتباس اشتد اقتراب التعليم من (النماذج) الغربية .

هذا عرض موجز لتطور الاقتباس عن الغرب فى الشرق عامة ومصر خاصة . وقد بدأ فيها فى عصر محمد على .

حقا إن الاتجاه نحو الحضارة الغربية لم يكن خالصاً فى عهد محمد على : فكثير من النظم الغربية التى اقتبسها كان يختلط بعناصر قوية من «القديم» . أو قل إن محمد على كان يستغل « القديم » لخدمة « الحديث » أو « الحديث » للتعديل من « القديم » . ولسنا نريد أن ندلل هنا على صحة ذلك فحسبنا أن نشير إلى ما ذكرنا فى الفصل السابق عن تأثير الأزهر والتعليم القديم فى المدارس والتعليم الحديث .

إلا أن الاتجاه بعد عصر محمد على — وفى عصر إسماعيل خاصة — قد اشتد نحو الحضارة الغربية للاقتباس من نظمها وأساليب الحياة فيها . وكلما اشتد هذا الاتجاه ضعفت العناصر القديمة فى النظم الحديثة ، حتى ليصعب الآن فى التعليم أن نتتبع فى وضوح تأثير الأزهر على المدارس . وعلى العكس من ذلك قوِىَ الاتجاه نحو الغرب النظمَ «الحديثة» ومكنّها من التأثير فى النظم «القديمة» .

٤ — ويمكننا أن نحكم مطمئنين أن إنشاء المدارس الحديثة كان من أهم العوامل فى بثّ روح القومية فى مصر لسببين :

اَ — لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث ولِىَ المصريون المتعلمون شئون بلادهم ، فأصبح منهم الضباط فى الجيش والأسطول والأطباء والمهندسون والمعلمون والصناع ورجال الإدارة . والواقع أن تولى المصريين بعض شئون بلادهم كان من أكبر مميزات عصر محمد على ، فبعد أن كان المصريون

— قبل هذا العصر — بعيدين عن إدارة بلادهم وسياسة أمورها، علّم محمد على منهم فى مدارسه نفراً كثيراً وولاهم وظائف الحكومة . حقاً إن محمد على لما بدأ إصلاحاته اعتمد على الأجانب من الغربيين ومن أخلاط الشرقيين ، ولكنه سرعان ما أدرك أن صرف المصريين عن شئون بلادهم وعن القيام على هذه الإصلاحات ليس مما يمكّن لها فى الحياة المصرية . لهذا أنشأ المدارس ودفع إليها أبناء البلاد فأصابوا من التعليم ما أهّلهم لتقلد شئون بلادهم . وكان هذا من أهم عوامل بقاء تلك الإصلاحات ، وأخصها التعليم الحديث .

حقاً إن وظائف الدولة الكبرى كانت فى عصر محمد على (احتكاراً) لطبقة (الأرستقراطية) التركية . ولكن هذه الطبقة لم تكن كلها تركية «الجنس»، بل لقد كانت « أرستقراطية لغوية » قبل أن تكون « جنسية » . فان فيها أخلاطا من أمم الشرق الأدنى كالسوريين والأرمن وغيرهم ، وكانت هذه الطبقة تتسع كذلك للمصريين الذين يؤهلهم تعليمهم ووظائفهم لحذق اللغة التركية والاندماج فى أفراد هذه الطبقة .

وكثير من الرجال الذين تعلموا فى مدارس محمد على قاموا على شئون النهضة المصرية بعد عصر محمد على . فنهضة مصر فى القرن التاسع عشر تدين — إلى حد كبير — للمدارس التى أنشأتها حكومة محمد على .

ب — أزال التعليم فى المدارس كثيرا من الفروق بين الطبقات : فالأغنياء يدرسون فيها جنبا إلى جنب مع الفقراء ، وأبناء المدن مع أبناء القرى وأبناء الموظفين مع أبناء الصناع والزراع ، والحكومة تمدّ لهم جميعاً فى رعايتها وتمنحهم جميعاً «فرصة» واحدة . وليس من فارق بينهم إلا ما يكون بين المجد النشط المقبل على الدرس والفَدْم الجاهل الراغب عن الدرس . فللأول محبة الحكومة وعطفها ومكافآتها ، وللثانى منها السخط والعقاب . فهم جميعاً فى البداية سواء . حتى إذا تخرجوا فى المدارس رأيت ابن الريف الفقير يتقلد من

المناصب ما قد لا يصل إليه ابن المدينة الغنى . وهذا تحوُّل خطير فى المجتمع المصرى ، ووضع لأسس جديدة فى تقسيم الناس طبقات ، قوامها العلم . فمن أصاب العلم أصاب الجاه والمال ، ومن حُرِمَه لم يصب من هذين شيئا . وقد أدت هذه الأسس الجديدة — كما ذكرنا من قبل — إلى انقسام المجتمع المصرى طبقتين جديدتين : طبقة الأفندية المتعلمة ، وطبقة الفلاحين غير المتعلمة . ثم جدت أسس أخرى قوامها الثروة : فنشأت الطبقة الوسطى فى المدن وطبقة الفلاحين الأثرياء من مالكى الأرض . ولكن هذه الأسس لم تقم إلا بعد عصر محمد على ، حين وزعت الثروة توزيعاً لم تعرفه البلاد فى ذلك العصر .

ولم تكن مصر إذ ذاك المثال الوحيد لما للتعليم من أثر كبير فى إنماء روح القومية . يقول الاستاذ مونرو « إن القرن التاسع عشر يمكن اعتباره من إحدى وجهات النظر عصر النمو القومى ، وكان يعمل للتعبير الديموقراطى عن مسألة القومية متخذاً التعليم وسيلته » ،[١] وفى رأيه كذلك أن التعليم هو الوسيلة التى بها ترقى الشعوب المتأخرة إلى المستوى العادى بين الأمم . والنهضة التعليمية الحديثة فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر خير شاهد يعزّز هذا الرأى . فلا ريب فى أن مصر فى ذلك الوقت كانت تخرج من ظلام العصور الوسطى بما كان يرين عليها من الجهل والتأخر وتتقدم خطوة خطوة إلى مستوى الأمم الآخذة بسبيل الرقى . ولا ريب كذلك فى أن التعليم كان خير معين لها على بلوغ هذه الغاية .

٥ — وهذا النظام التعليمى الذى قام فى مصر فى عصر محمد على بمدارسه وبعثاته ومطابعه كان الأول من نوعه فى بلاد الشرق الأدنى ، وهذا مما أكد لمصر زعامتها العلمية والأدبية فى البلاد الشرقية . وبدأت بعض هذه البلاد توفد من أبنائها نفراً للحاق بالمدارس المصرية : فهؤلاء سوريون يدْرسون

(١) Monroe, Comparative Education, p. 3.

الطب [١] أو الصناعة ، [٢] وهؤلاء « عدة غلمان من أبناء وجوه السودان » يأتى بهم محمد على معه إلى مصر ليدْرسوا بمدرسة الزراعة ومدرسة الألسن ، « وكان القصد من ذلك أن يذوقوا طعم المعارف التمدنية لينشروها فى بلادهم » . [٣] وهذا محمد على يرسل (بعثة) من بعض العلماء إلى المدينة المنورة « فى سبيل نشر العلوم » ، [٤] ويأمر بفتح مدارس فى مسقط رأسه (قولة) . ومما يدعو إلى الفخر حقاً أن مصر كانت فى مقدمة الأمم الشرقية التى عنيت بالتعليم : إذ كانت سباقة إلى التعليم الدينى بإنشاء الأزهر وإلى التعليم الحديث بإنشاء المدارس . ومن هذين المنبعين استقت — وما تزال تستقى — النهضة الحديثة فى البلاد الشرقية كثيراً من مقوِّماتها .

٦ — أما اللغة العربية فقد أصابت فى المدارس الحديثة مكاناً ممتازاً ، وبدأت هذه اللغة تعرف علوماً كانت منذ أجيال قد تصرمت بين العربية وبينها الأسباب ، و « عادت » إليها الآن من بلاد الغرب . فان اللغة العربية كان يؤلف بها قديماً فى الطب والفلك والهندسة والرياضيات ، ولكنها أصبحت — على أبواب القرن التاسع عشر — قاصرة على ترديد علوم الدين واللغة . وأهملت الثروة « القديمة » وقلَّ من عاد يبحث فيها . وأدى إهمال اللغة العلومَ — إلى اهتمامها « بالشكل » دون « المحتوى » أو باللفظ دون المعنى ، فكثرت بها المحسنات اللفظية كثرة أخرجتها فى بعض الأحيان عن أن تكون أداة للتفاهم السريع ، ثم أن استبعادها من دواوين الحكومة وإحلال التركية محلها حرما اللغة العربية عنايةَ الحكومة التى انصرفت — وانصرف معها خاصة الناس — إلى العناية باللغة التركية والتجويد فيها ، فانحطت الأساليب العربية وشاع فيها الحوشى والغريب .

(١) Clot, Compte rendu..., p. 215.

(٢) دفتر ٢١٠ (معية) رقم ٢٩٥ إلى الباشا السر عسكر فى ٢٧ ذى الحجة ١٢٤٨

(٣) رفاعة بك رافع : مناهج الآداب ... ص ٢٦٣

(٤) دفتر ٥ (معية) رقم ١٥٦ الى الخزينة فى ٢٨ رجب ١٢٣٥

(٥) دفتر ٤ (معية) رقم ٢٠٧ الى نجيب أفندى فى ٧ شوال ١٢٣٥

فلما أنشئت المدارس ودُرِّست بها العلوم «الحديثة» — التى انقطعت صلة العربية بها منذ دهر طويل — استدعى الأساتذة من الأجانب ليقوموا بتدريسها للتلاميذ، ولكن هؤلاء التلاميذ لا يعرفون لغة الأجانب الفرنسية أو الإيطالية، كما أن الأساتذة لا يعرفون لغة التلاميذ. فنُقلت دروس الأساتذة الأجانب إلى اللغة العربية وألقيت على التلاميذ. وكان هذا أول «ارتباط» حديث بين العلوم الحديثة واللغة العربية، فأصبح التلاميذ يقرأون الطب والرياضيات والهندسة والزراعة والعلوم الطبيعية والاجتماعية باللغة العربية. ولكن انقطاع الصلة بين العلم واللغة منذ دهر طويل جعل من الصعوبة بمكان نقل تلك الدروس إليها فى يسر وسهولة. هذا إلى أن المترجمين الأول لم تكن معرفتهم باللغة الفصحى مما يُطمأن إليه. لهذا عينت طائفة من علماء الأزهر الحاذقين اللغة العربية والمعروفين بالاطلاع والقدرة على البحث، وهم «المصححون» الذين قاموا على الكشف عن المصطلحات العربية القديمة وإحيائها من جهة، وإصلاح الدروس ثم الكتب المعرَّبة من الوجهة اللغوية والبيانية من جهة أخرى.

وأخذت كل مدرسة من المدارس الخصوصية — وخاصة مدارس الطب والمهندسخانة والألسن — تقوم على نقل العلوم التى تدرس بها إلى اللغة العربية، وكان ينهض بذلك نفر من المترجمين أو المدرسين الذين يعرفون الفرنسية والعربية ومعهم نفر آخر من «المصححين». ثم روُى — حثاً للنهضة فى الترجمة من جهة، والإشراف على صحتها وتوجيهها من جهة أخرى — إنشاء قلم للترجمة وعيِّنت به طوائف من «المترجمين» و«المصححين» و «المبيضين». وكان من ذلك كله ثروة علمية زاخرة، وانعقدت — لأول مرة فى العصر الحديث — الصلة بين لغة العرب «القديمة» وعلم الغرب «الحديث».

* * *

حقاً إن أوجه النجاح هذه — التى أصابها التعليم الحديث فى عصر محمد على والتى تتبعناها فى الصفحات الماضية — لم يعرفها عصر محمد على فى جلاء ووضوح، وإنما عرفها — ككل نظام فى بدء الشروع فى تنفيذه — غامضة بعض الشىء، ثم أخذت فى الوضوح شيئاً فشيئاً . فتوجيه البلاد إلى التعليم الحديث وزيادة الاتجاه نحو الحضارة الغربية وزوال الفوارق بين الطبقات القديمة وزعامة مصر فى البلاد الشرقية وانعقاد الصلة بين اللغة العربية والعلوم الحديثة، كل هذه النواحى الهامة إنما «بدأت» فى عصر محمد على، ثم اشتدت ووضحت وقوى أثرها فى العصور التى تلته .

فتوجيه البلاد إلى التعليم الحديث كان فى مجال ضيق: فعلى الرغم من جهود الحكومة لحمل المصريين على إرسال أبنائهم إلى المدارس سواء بالوعيد أو بالإغراء، لم يلق التعليم من المصريين إقبالا خالصاً إلا قبيل انتهاء عصر محمد على.

والاتجاه نحو الحضارة الغربية كان يسوده — كما شرحنا — عناصر كثيرة من النظم الشرقية لم يتحرر منها إلا بعد انتهاء عصر محمد على بوقت طويل .

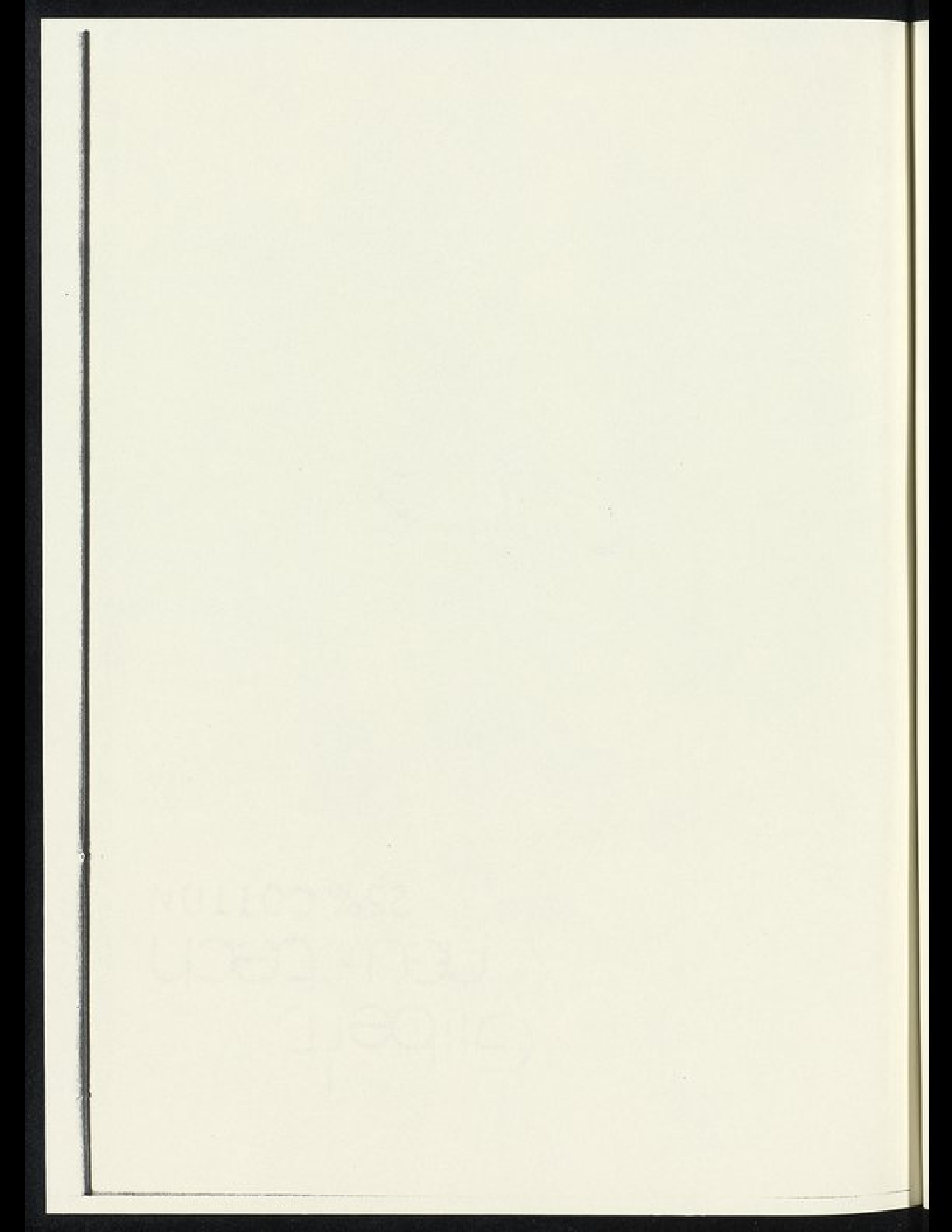
وزوال الفوارق بين الطبقات لم يتم بصورة حاسمة فى عصر محمد على .

وزعامة مصر فى البلاد الشرقية عن طريق المدارس الحديثة إنما «بدأت» فى ذلك العصر ولم تقو إلا بعد انتهائه بسنين .

كما أن الصلة بين اللغة العربية والعلوم الحديثة بدأت فى عصر محمد على فى صورة ناقصة وفى مجال محدود، هو مجال «تعريب» الكتب للمدارس . أما «التأليف» فى العلوم الحديثة باللغة العربية فلم يبدأ إلا بعد عصر محمد على .

ولكن على الرغم من هذا كله، فلن ينكر أحد فضل النهضة التعليمية فى عصر محمد على على ما تلاه من العصور . فهذه النهضة التى بدأتها حكومة محمد على كانت أساساً لجهود الحكومات بعدها : إذ أصبح لديها «طبقات» من الرجال الذين تثقفوا فى مدارس محمد على وبعوثه، كما أصبح لديها قوانين منظمة للتعليم، وأهم من هذا كله تجارب الماضى .

مَلاحق



الملحق الأول

مدارس الطوائف والجاليات الأجنبية بمصر

فى عصر محمد على

لأول مرة فى مصر — فى النصف الأول من القرن الماضى — يقوم إلى جانب ما ألفه المصريون من تعليم دينى مركزه الأزهر والكتاتيب تعليم آخر يتخذ وجهة أخرى، ولذلك أطلق عليه التعليم الحديث.

وهذا التعليم الحديث — ومركزه المدارس التى أنشأتها حكومة محمد على على اختلاف درجاتها — وإن نحى بالتعليم وجهة «لادينية» من بعض الوجوه، إذا قورن بتعليم الأزهر، إلا أنه فى الغالب احتفظ ولا يزال محتفظا بالتعاليم الدينية الاسلامية. وبجانب هذه المدارس الحكومية التى تتبع نظاماً خاصاً تشرف عليه الحكومة كل الاشراف، شاهد القرن التاسع عشر مدارس أخرى تديرها طوائف أو هيئات أجنبية غير إسلامية، ولكل منها نظام خاص. وما زالت هذه المدارس الأجنبية تحيا بيننا إلى وقتنا هذا، وقد كثرت أنواعها وتعددت درجاتها وعظم نفوذها.

ويمكن تقسيم هذه المدارس أربعة أقسام:

١ — مدارس الطوائف غير الاسلامية.

٢ — « الجاليات الأجنبية.

٣ — « الارساليات والفرق الدينية للبنين.

٤ — « الأجنبية للبنات.

مدارس الطوائف غير الاسلامية

مدارس الأقباط

تشبه «كتاتيب» المسلمين فى الغرض الذى أنشئت من أجله: وهو معرفة القراءة والكتابة، وتشبهها فى درجة تعليم القائمين بها. والاختلاف الوحيد هو

تدريس الانجيل بها بدل القرآن . كانت هذه «كتاتيب» موجودة قبل محمد على ، إلا أن الاضطهاد الذى كان يحل بالأقباط فى بعض العهود كان يحوط هذه «الكتاتيب» بجو من السرية والانقباض . فكان الاقباط يقيمون مكاتبهم فى الأحياء البعيدة أو فى جوف المنازل.(١) ولما كان الأقباط (يحتكرون) مهنة الكتابة وفن الحساب ، كان أطفالهم يتعلمون الكتابة والحساب عملا مع أبائهم . ولهذا قصرت هذه المكاتب غرضها على تعليم القراءة والكتابة . وكان يتعلم فيهـــا نحو ألفين من التلاميذ . (٢)

لم ينشىء الأقباط مدارس «نظامية» حتى عهد إسماعيل حين توالت عليهم هباته . فصار لهم مدرستان لتعليم البنات : واحدة بالأزبكية والأخرى بحارة السقايين .

وبجانب مدرسة البنات بحارة السقايين أنشأت الجمعية القبطية بالقاهرة مدرسة ثانوية يدرس بها التلاميذ اللغات الانجليزية والفرنسية وقليلا من الطليانية واللغة العربية والرياضة واللغة القبطية أيضا . وقد انتقد «دور بك» مفتش المدارس السويسرى فى عهد إسماعيل نظام التعليم بها . وأخيراً أنشأ الأقباط مدرستهم الكبرى بجانب كنيستهم العامة وجعلوا التعليم فيها بالمجان ، وأباحوا لبعض المسلمين الالتحاق بها . وما زالت هذه المدرسة تحيا إلى الوقت الحاضر . وكانوا يدرسون بها اللغات القبطية والعربية والفرنسية والانجليزية والايطالية والترتيل والحساب ومبادىء الهندسة والتاريخ والجغرافيا وبعض مبادىء المنطق .

وفى هذه المدرسة كانت تقام الحفلات المدرسية والحفلات الخاصة بالامتحانات . وكانت روح التسامح مما يرفع من شأنها ، فان شيخ الاسلام وعلماء الأزهر كانوا يجيبون الدعوة إلى حفلاتها بالحضور إلى جانب رجال الحكم والعظماء وكبار رجال الأديان الأخرى .

مدارس اليهود

كان لليهود فى عصر محمد على مدرسة خاصة بأبنائهم أسموها مدرسة «كريمو»

Dor Bey, op. cit. p. 180. (١)
Bowring, op . cit . p .137. (٢)

«Crémieu» نسبة إلى «مسيو كريميو» أحد أثريائهم الداعين إلى تأسيسها . وكانت هذه المدرسة فى حى اليهود . وقد أشاد أحد الأجانب المشتغلين بالتعليم فى عهد محمد على بهذه المدرسة وبما يبدو على تلاميذها من مخايل الذكاء والنشاط ، وذكر أن كلا منهم كان يحمل على صدره (مدالية) من الفضة نقش عليها اسم المدرسة . (١)
وفى عهد إسماعيل صار لليهود أربعة مكاتب بالقاهرة ، اثنان منها للبنين ومثلهما للبنات . ويتعلم فيها نحو ١٥٥ تلميذا وتلميذة ، ولهم مدرسة نظامية بالقاهرة أيضاً ، كما أنهم لم يهملوا إنشاء مكاتب لهم بالاسكندرية . (٢)

مدارس الجاليات الأجنبية

مدارس الأرمن

كانت الطائفة الأرمنية أولى الطوائف الأهلية المقيمة بمصر التى أنشأت مدارس على النظام الأوربى ، فانها أسست مدرسة «كالوسديان» ببولاق فى سنة ١٨٢٨ وهي التابعة لبطركخانتها الأرثوذكسية . (٣) ولكنا لم نعثر على تفاصيل تبين نظام هذه المدرسة والدراسة بها .

مدارس الجالية اليونانية

فى سنة ١٨٤٧ أسست الجالية اليونانية مدرسة «توستسا» بشارع جامع مسجد العطارين بالاسكندرية . وكانت هذه المدرسة أول مدرسة أنشأها اليونانيون بمصر . ومنذ ذلك الوقت أخذوا فى تأسيس مدارس لهم . (٤)

مدارس الجالية الايطاليـة

أما الايطاليون فقد بدأوا ينشئون مدارسهم فى مصر حوالى سنة ١٨٦٠ . (٥)

---

(١) Hamont, op. cit. I. p. 381.
(٢) Dor Bey, op. cit. p. 200.
(٣) أمين باشا سامى : التعليم فى مصر ص ١٣ — ١٤
(٤) المصدر السابق.
(٥) Artin Pacha, op. cit. p.104.

هذا ما يقوله « يعقوب أرتين باشا » ، ولكنا نقرأ فى أحد دفاتر المعية [١] أنه كان بالاسكندرية مدرسة (طليانية) لا نعلم عنها إلا أنها طلبت إلى الحكومة أن تعين لها مدرسا ، ولكن محمد على رفض وأذن لطلابها أن يتحولوا إلى المدرسة البحرية وأنذرهم بقطع مرتباتهم إن لم يفعلوا .

وهناك إيطالى آخر افتتح مدرسة لتعليم اللغات ، جاء عنها فى الوقائع المصرية ما يلى : « الخواجة أويس السمعانى الرومانى من طائفة الافرنج فتح مكتبا جديداً فى وكالة جوانى فى حارة الموسكى يعلم به اللغة العربية والفرنسية والايطالية ، ويذهب إلى بعض البيوت ليلا ليعلم تلك اللغات لمن يريد أن يتعلمها » .[٢] ويقول أمين باشا سامى إنها أول مدرسة أجنبية فى القاهرة .[٣]

هذه هى المدارس الطائفية ، غرضها الأساسى تعليم أفراد كل طائفة دينهم مع قدر قليل أو كبير من الثقافة العامة ، فاتجاهها دينى ، ولذلك كان تأثيرها فى غير دائرتها قليلا أو معدوما .

مدارس الارساليات الدينية

فى النصف الأول من القرن التاسع عشر أخذت مصر ترحب بالأجانب الذين ينزحون إليها يحملون معهم كثيراً من عناصر النشاط الاقتصادى ، وإن لم يهملوا أن يستغلوا هذا النشاط لصالحهم . ونزح معهم رجال من الارساليات الدينية يبغون نشاطا دينيا فى بلد كان الأجانب يعدونه إذ ذاك بكرا .

بدأت الارساليات بانشاء الكنائس كل منها على مذهبها الخاص ، ثم رأوا أن يوسعوا من دائرة نشاطهم ، فألحقوا بهذه الكنائس مدارس لهم يقومون هم بالتدريس فيها لأطفال جالياتهم ومن يشاء من الجاليات الأخرى . وبذلك بدأ فى مصر ما يسمى بالمدارس الأجنبية على وجهها المعروف لنا .

كان التعليم الأجنبى فى مصر يكاد يكون احتكارا فى يد جماعة « آباء الأرض

(١) دفتر ٣ (معية) ص ١٩ فى ٢ شعبان ١٢٤٠ (انظر ص ٥٦٣ من الكتاب).
(٢) الوقائع المصرية : العدد ٨٩ فى ٣ جماد ثان ١٢٤٥
(٣) أمين باشا سامى : تقويم النيل ج ٢ ص ٣٥٧

المقدسة ، الذين كانت لهم مدارس ملحقة بكنائسهم . أما الأغريق والأرمن والسوريون فلم يكن لهم إلا قسسهم يعلمون أبناءهم ، واستمر ذلك إلى سنة ١٨٤٠ حين فتحت أول مدرسة نظامية بالاسكندرية تحت إدارة جماعة «الآباء العذاريين» « Peres Lazaristes » ، وكان يقوم بالتعليم فيها جماعة «الفرير» .

عاش العذاريون والفرير فى وفاق ست سنوات ، إلى أن دب الخلاف بينهم فرحل الفرير إلى مكان آخر بالاسكندرية وأنشأوا به مدرسة خاصة[١] هى على ما يذكر أمين باشا سامى [٢] مدرسة سانت كاترين بالاسكندرية التى أسستها جماعة الفرير فى سنة ١٨٤٧ . كما أسست فى هذا العام أيضا مدرسة أخرى بميدان سانت كاترين . ثم افتتحوا لهم مدرسة بالقاهرة ، أهداهم مكانها بالخرنفش سعيد باشا . كما منحهم ٣٠ ألف فرنك سنة ١٨٥٩ . [٣] وما زالت مدرستهم هذه بالخرنفش إلى الوقت الحاضر .

ومن المدارس التى أسست فى ذلك العهد مدرسة الرحمة (ميزيركورد) المجانية لجمعية ديفيل دى لاشاريته «de la Charité» الفرنسية سنة ١٨٤٤ بشارع الراهبات بالاسكندرية . وفى هذه السنة أسست جمعية (بون باستير) مدرسة سيدة الراعى الصالح «Dame du Bon Pasteur» فى شبرا [٤] ولا تزال بها الى الآن . أما الجزويت وغيرهم من الجماعات الكاثوليكية الفرنسية فقد حلوا بمصر فى النصف الثانى من القرن الماضى .

هذه مدارس بعض الأرساليات والفرق الدينية لا نعلم عن نظمها الادارية والعلمية ما فيه الغناء . غير أن هناك إرساليات أخرى لا تقل أهمية عن غيرها ، جاءت مصر وأقامت بها كنائسها ومدارسها وما زالت هذه الكنائس والمدارس تحيا إلى الآن : هذه هى الارسالية « الانجليكانية» ومدارسها ثلاثة أقسام : [٥]

---

(١) Dor Bey, op. cit. p. 267.

(٢) أمين باشا سامى : التعليم فى مصر ١٣ — ١٤

(٣) Dor Bey, op. cit. p. 267.

(٤) أمين باشا سامى : التعليم فى مصر ص ١٤

(٥) Sophia Poole, The English Woman in Egypt, II. p. 96., III. p. 40-41.

١ — المعهد الانجليزى «English Institution» وقد أعد لتعليم الأقباط بغية تخريج قسس للكنيسة القبطية على التعاليم الانجليكانية، وكان بهذا المعهد فى سنة ١٨٤٥ ٣٥ تلميذا، منهم ١٧ بالقسم الداخلى .

٢ — القسم الثانى خاص بالبنين، ويديره أحد المبشرين الانجليز، ومعظم تلاميذه من المسيحيين وبينهم قليل من المسلمين، ويتعلمون فيه القراءة والكتابة بالعربية ومبادىء الجغرافيا والتاريخ الطبيعى والحساب والقواعد البسيطة فى الهندسة وقليل منهم يتكلم الانجليزية .

٣ — القسم الآخر خاص بالبنات، وسنتكلم عليه فيما بعد .

ثم بدأت مدارس الأمريكان بمصر من سنة ١٨٥٥ إلى سنة ١٨٦٦ .

وأغراض هذه المدارس واضحة : تتلخص فى تعليم الأجانب المقيمين بمصر، كل مدرسة تعلم أفراد الجالية طبقا لمذهبها الدينى . غير أن هذه المدارس كانت لها أغراض أخرى : إذ لم تهمل الدعوة إلى نشر الدين المسيحى وتحويل الأقباط إلى غير مذهبهم .

ولكن هذه المدارس — إبان نشأتها فى مصر — كانت قليلة التأثير، لأن أغراضها الدينية كانت تصد المصريين عن اللحاق بها . وفى ذلك يقول «بورنج» «إن المدارس الاوربية لم تنجح إلى ذلك الوقت فى تخطى الحواجز الناشئة عن نظام الطبقات، فلم تتمكن من نشر تعليمها بين الأهالى» .[١]

وقد رغب الأجانب أنفسهم فى «تخطى هذه الحواجز»، إذ طلب أحد المبشرين الانجليز (ويدعى بارثلميو) فتح مدرسة بالاكتتاب لتعليم الأطفال من جميع الأديان، فقبل محمد على أن تقوم عنه الحكومة المصرية بجميع نفقاتها على ألا يدخلها إلا المصريون فقط بشرط عدم التدخل فى دياناتهم .[٢]

وأخيرا عادت هذه الفكرة — فكرة تأسيس مدارس حرة مجانية وعامة لكل الأديان — فى سنة ١٨٦٩ ولقيت تعضيدا من الخديو اسماعيل . وقد صادفت هذه المدارس نجاحا فى أول الامر، ولكن هذا النجاح لم يستمر طويلا، إذ

(١) Bowring, op. cit. p. 137.

(٢) Saint-John, op. cit, II, p.405.

انصرف عنها الناس إلى مدارس الحكومة التى تمهد لهم السبيل إلى وظائفها .(١)

ولولا أن هناك عوامل مختلفة عملت على تثبيت أقدام التعليم الأجنبى بمصر لما ظل مزدهرا إلى الوقت الحاضر ، منها ازدياد وفود الأجانب إلى مصر وازدياد نفوذهم الاقتصادى والاجتماعى فيها ، وما لقيت وما تزال تلقاه من تشجيع أولى الأمر وتعضيدهم ؛ ولأنها كانت تعنى باللغات الأجنبية أكثر من عناية مدارس الحكومة بها ، حتى أصبح من (تقاليد) العصر فى الأوساط (الأرستقراطية) أن ترسل أبناءها — وبناتها أخيرا — الى المدارس الأجنبية ليحذقوا اللغة الفرنسية وآداب السلوك الفرنجية وغير ذلك من عوامل « التهذيب » فى عرف أهل الجيل المتأدبين .

حقاً إن هذه المدارس بدأت فى اتجاه يخالف اتجاه مدارس محمد على — بدأت تعنى بالدين المسيحى والتربية الدينية المسيحية ، بينما كانت مدارس محمد على — على حداثتها — مدارس « إسلامية » يعنى فيها أكبر العناية بالدين الاسلامى . وبالتدريج أخذت الفروق بين هذين النوعين من المدارس تقل حتى قاربا الالتقاء الآن ، وذلك لأن مدارس الحكومة قد أثرت فى المدارس الأجنبية تأثيرا يتباين قلة وشدة حسب رغبة هذه المدارس فى التقرب الى الحكومة والشعب ، حتى أن أكثر المدارس الأجنبية الآن يخضع لنظام وزارة المعارف ولون من رقابتها ويعد التلاميذ لشهاداتها ويستمد منها مدرسيها .

غير أن بعض المشتغلين بمسائل التربية والتعليم لم يكن يميل الى « التربية » التى تأخذ بها هذه المدارس تلاميذها ، وكان يرى أنه لانعدام روح التربية فى المدارس الأجنبية كانت هذه المدارس خطرا على نشر التعليم فى مصر إذا قورن بها أو أخذت كنموذج .(٢)

المدارس الأجنبية لتعليم البنت

ذكرنا أن مدرسة إرسالية الكنيسة الانجليكانية كانت تنقسم ثلاثة أقسام : قسما لتخريج قسس للكنيسة القبطية وقسما لتعليم الأطفال من البنين وقسما لتعليم

---

(١) Artin Pacha, op. cit. p. 107.

(٢) Dor Bey, op. cit. p. 27.

الأطفال من البنات . كانت مدرسة البنات هذه تضم نحو مائة تلميذة أغلبهن قبطيات وقليل منهن مسلمات . ويتعلمن بها العربية وأشغال الابرة والتطريز من الساعة الثامنة صباحا حتى الخامسة مساء . وكانت المدرسة تحت إدارة « مس هوليداى » التي أرسلتها جمعية السيدات « Ladies Society » لنشر تعليم المرأة فى الشرق .(١)

وفى السنوات العشر الأولى منذ افتتاحها فى سنة ١٨٣٥ تخرجت فيها ٣٠٠ فتاة قادرات على القراءة والكتابة وكسب عيشهن بالتطريز ومختلف أشغال الابرة .(٢)

كان محمد على يدرك ما يمكن أن تجنيه البلاد بتعليم الفتاة المصرية تعليما يخرجها من أسر (الحريم) إلى نور المدنية . فبذل لذلك شطرا من اهتمامه ، وكان يرى أن يبدأ بنشر هذا التعليم فى الطبقات (العليا) من المجتمع المصرى ، حتى إذا نجحت التجربة أمكن التوسع فى نطاق هذا التعليم ، حتى يعم الطبقات الأخرى . فبدأ بتعليم فتيات الأسرة المالكة (وحريمها) . فكانت تدخل قصوره لهذا الغرض « مسز ليدر » زوجة أحد المبشرين الانجليز و « مس هوليداى » وهما اللتان تعاقبتا على إدارة مدرسة البنات التى ذكرنا . وكانت أعمال البنات كأشغال الابرة والتطريز ترسل إلى (حريم) محمد على وابنه إبراهيم وابنته أرملة الدفتردار بك فسررن بها كثيرا ، ولذلك أرسلت « مس هوليداى » لتعليم فتيات العائلة المالكة .(٣)

ومنذ سنة ١٨٤٠ أخذ الأمراء — تبعا للمثل الذى ضربه محمد على وإبراهيم — يعهدون فى تعليم فتياتهم إلى معلمات انجليزيات وفرنسيات وألمانيات إلى جانب معلميهن من (المشايخ) . ولاشك فى أن هذا كان تغيرا هاما جدا ، لأن التعليم أصبح بذلك أوربيا شرقيا بعد أن كان شرقيا محضا .

(١) Bowring, op. cit. p. 137-138.

(٢) Sophia Poole, op. cit. III. p. 41.

(٣) El Besumee, Egypt & Moh. Ali Pacha, p. 12.

الملحق الثانى

أهم الوثائق الخاصة بانشاء شورى وديوان المدارس[1]

١ — تنظيم التعليم ومشروع إنشاء شورى المدارس :

سجل ٢١٢ (عابدين) ص٢٩ رقم١٧٧ من المعية إلى الباشا السرعسكر فى ١٩ رمضان ١٢٥١.

يتحدث الكاتب بشأن الارادة السنية التى سبق صدورها بعقد مجلس عام للنظر فى تنظيم المدارس ، وكيف اجتمع هذا المجلس المؤلف من جملة أكابر المصريين ونظار المدارس فى قاعة مجلس الملكية ، فقر قرارهم على أن يكتب كل منهم على حدة ما يقترح عمـــله وأن تتألف لجنة من بينهم لدرس هذه المقترحات ، فاذا تم درسها عاد المجلس إلى الالتئام فنظر فيها بعد تصنيفها وترتيبها ، ثم كيف أبى سكويرا بك ناظر مدرسة المدفعية هذا القرار قائلا إنه لا يرضى تدخل أحد فى شأنه وإنه لا يعمل برأى أحد غيره ، فكان ذلك سبب عزله لاعتباره أجنبيا عن مصلحة الجناب العالى وليس من العقل ائتمان الأجنبى المتجنب على المصالح ، كما كان عزله سببا لمطاوعة بقية نظار المدارس ولتنفيذ القرار ، بأن انصرف الأعضاء لتدوين مقترحاتهم التى مازالوا فى تدوينها ، ثم يستطرد الكاتب إلى إبلاغ السرعسكر أن الجناب العالى أمر بعد ذلك بتأليف لجنة دعى اليها حبيب افندى والباشا ناظر الجهادية والبك الخزينة دار ومختار بك ناظر مجلس الملكية وحسين بك خزينة دار الجهادية ، فاجتمعوا بديوان المعاونة لتنظيم ما هو معلوم من تبعية هذه المدارس للادارة الجهادية . وبعد بحث طويل فى هذا الصدد وافقوا على إقامة لجنة مؤلفة من بضعة رجال من خريجى مدارس أوربا لتتولى المحافظة على النظام المزمع قبوله ولتبحث فيما سيعرض عليها دواما من أمور القراءة والكتابة والتعليم والتعلم الخاصة بالمدارس . كما قرروا أن تفرد غرفة مناسبة بدائرة مجلس الملكية ، فتخصص لهذه

---

(١) مرتبة بحسب تاريخ قيدها فى الدفاتر .

اللجنة التى لابد من أن يكون قوامها مختار بك وأستفان افندى وأرتين افندى والشيخ رفاعة وواحد أو اثنين من أضرابهم الذين تخرجوا مثلهم فى مدارس أوربا . وفعلا حرر مختار بك مذكرة بصورة تأليف هذه اللجنة وعرضها على الجناب العالى فاستحسنها ، إلا أنه أمر الكاتب بأن يعرضها على السر عسكر أيضا ليطلع على هذا النظام . ولذلك قدم الكاتب صورة المذكرة طى كتابه هذا . (خلاصة)

٢ — تعيين مصطفى مختار بك ناظراً للشورى وإخطار المدارس :

مستخرج من مضبطة جلسة شورى المدارس بتاريخ ١٧ ذى القعدة ١٢٥١ دفتر ٢٠٠١ (مدارس تركى) — صورة المكاتبة المحررة من لدن حضرة البك ناظر شورى المدارس إلى نظار مدارس الطب البيطرى والطب البشرى والسوارى :

« وبما أنه صار ترتيب شورى المدارس للنظر فى شئون ومصالح كافة المدارس وما أن نظارة الشورى المذكورة قد أحيلت على بموجب المرسوم الخديوى المؤرخ ٩ ذى القعدة سنة ١٢٥١ ، فاننا نأمل أن تعرضوا علينا من الآن فصاعدا كل ما ستعرضونه وتطلبونه خاصا بالخدم المأمورين بها » .

١٣ ذى القعدة سنة ١٢٥١

٣ — تعيين أرتين أفندى وكيلا للشورى :

محفظة ٣ (مجلس ملكية) وثيقة رقم ٢٥٢ من الجناب العالى بمنوف إلى مختار بك فى ٨ ذى الحجة سنة ١٢٥١ بالموافقة على تعيين بوشناق أحمد أفندى وكيلا لناظر مجلس الملكية وأرتين أفندى وكيلا لشورى المدارس أثناء غياب مختار بك لعيار الكتان فى الأقاليم البحرية . (خلاصة)

٤ — قصر مختار بك على نظارة الشورى :

دفتر ٢١٢ (عابدين) ص ٢٦ رقم ٤٠٧ من الجناب العالى إلى مختار بك (ليس له فى السجل تاريخ ولكنه بين ٢١ جماد أول وغرة جماد آخر سنة ١٢٥٢ — المترجم)

يخطره بأن كبره وغروره ما فتئا يحولان دون فهمه للزايا التى تنطوى عليها

أوامر الجناب العـــالى وأنه كثيرا ما أوقع بذلك مجلس الملكية فى مآزق وورطات ، فمن ذلك أنه لم يصغ إلى إرادة الجناب العالى الآمرة بأن يقتصر على تنفيذ ما يصدره المجلس من خلاصات الأحكام فلا يكتب بنفسه مذكرات ، بل ركب رأسه وتمادى فى اتباع عادته فكتب مذكرات تنافى أحكام المجلس منافاة أوقعت أصحاب المصالح فى الارتباك وكانت موضع قيل الناس وقالهم ، وأنه قد علم الجناب العالى بسلوكه فهو يكتب اليه بهذا مؤذنا بأنه قد عزله من نظارة مجلس الملكية ، ولكنه لم يقطع أمله هذه المرة فى أن ينتهى عن فرط جبروته واستبداده ، ولا أن ينزل فيندمج فى صفوف بنى آدم ، ولذلك فقد صرف النظر عن معاقبته فأبقى فى عهدته نظارة المكاتب ومجلس شورى المدارس ، حتى لا يبرح به الخجل والحياء بين الأقران والزملاء ، ثم ينصحه بأن يستر سابق جرائمه ويحصر وقته فى حسن تنظيم المدارس والمثابرة على إدخالها فى المحور الصالح لها ، فان لم يتصح فليفكرن كيف تكون عقباه . (خلاصة)

٥ — بدء إنشاء ديوان المدارس :

بمضابط شورى المدارس بدفاتر ديوان المدارس التركية :

إمضاءات المحاضر لغاية آخر جلسة ، وهى بتاريخ ٢٥ شوال ١٢٥٢ :

ناظر شورى المدارس

(مصطفى مختار)

والجلسة اللاحقة كانت بتاريخ ٢٨ شوال ١٢٥٢ والامضاءات :

ناظر ديوان المدارس

(مصطفى مختار)

واستمر على ذلك فى المحاضر التالية .

٦ — إنشاء ديوان المدارس :

دفتر ٢٠٠٩ (مدارس تركى) وهو فهرست قيـــد الخلاصات من ١٥ جمادى الأولى سنة ١٢٥٢ إلى ٢٧ صفر سنة ١٢٥٣ — ترجمة الوارد يوم السبت

٥ ذى القعدة سنة ١٢٥٢ ص ٣٣ — لائحة تركية موشح عليها بمرسوم عال (أى مصدق عليها من الجناب العالى) بشأن تفريق المدارس من ديوان الجهادية (تبين من بحث الأوامر أن الجناب العالى كان متنقلا فى هذا التاريخ بين بنى سويف والفيوم والفشن وأن الأوامر كانت تقيد بهذا السجل بعد تاريخ صدورها بيوم أو يومين — المترجم).

٧ — تنظيم الديوان عقب إنشائه :

دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) بيان مستخرج من مضبطة جلسة شورى المدارس المنعقدة يوم ٥ ذى القعدة سنة ١٢٥٢ تحت رئاسة مختار بك وعضوية كل من استفان رسمى أفندى والمسيو لوبر والمسيو لامبير ومظهر أفندى مهندس حوض الجبرية والمسيو برونو تعليمجى مدرسة الطوبجية وبهجت أفندى مدير مدرسة الطوبجية ومحمد أمين بك وواسيل بك مدير مدرسة السوارى ولينان أفندى الباشمهندس وأدهم بك.

جاء فى تقرير مختار بك :

« صدر أمر عال بتفريق كافة المدارس من ديوان الجهادية وترتيب ديوان خاص لها، كما أنه صدر الأمر بتعيين محمد أمين بك خزينة دارا (خازنا) للديوان المذكور. وحيث أن المأمول بعناية الله وبحركة الهمم الخديوية أن يكون هذا الديوان ذى فائدة للجميع وحيث أن المدارس (أى ديوان المدارس) نقل إلى مكان على حدة، فيقتضى حضور جناب باسيليوس بك للنظر فيما يلزم نحو ترتيب باشكاتب وكتاب لديوان المدارس وضبط عملية الديوان المذكور وحضور بعض المأمورين المكلفين لتعليم التلاميذ فن الحساب ».

ختم	ختم	إمضاء	ختم
لوبر	أسطفان رسمى	الميرالاى محمد أمين	مصطفى مختار
		خازن ديوان المدارس	ناظر ديوان المدارس

٨ — أمر محمد على إلى مختار بك بانشاء ديوان المدارس :

ترجمة وثيقة مستخرجة من ملف شهر ذى القعدة سنة ١٢٥٢ من المحفظة رقم ١ (مدارس) :

حضرة صاحب السعادة الحائز لمودتي مختار بك ناظر شورى المدارس

عرض علينا وكيل ناظر الجهادية في مكاتبته المؤرخة ٩ ذي القعدة سنة ١٢٥٢ أن يكون شرح وبصم الخلاصات التي ستصدر من شورى المدارس من طرف ديوانه لا من طرف ديوان الجهادية لأنه أصبح ديوانا مستقلا ، وقد وافقنا على ذلك فنأمركم أن يكون شرح وبصم الخلاصات التي ستصدر فيما بعد من طرف شورى المدارس .

من الفشن في ١٠ ذي القعدة سنة ١٢٥٢ ؟ خاتم

محمد على

٩ — أمر محمد على إلى الجهادية بانشاء ديوان المدارس :

ترجمة وثيقة مستخرجة من ملف شهر ذي القعدة سنة ١٢٥٢ من المحفظة رقم ١ (الجهادية) :

حضرة صاحب السعادة والمودة ولدى وعزيزى الباشا المحترم وكيل ناظر الجهادية

قد اطلعت على مكاتبتكم المؤرخة ٩ ذي القعدة سنة ٥٢ المتضمنة طلب شرح الخلاصات التي ستصدر من ديوان المدارس وبصمها من طرف شورى المدارس أيضا لأنه أصبح ديوانا مستقلا ، فنوافق على ذلك ونخطركم بأنه كتب إلى مختار بك ليكون الشرح والبصم من طرف ذلك الديوان .

من الفشن في ١٠ ذي القعدة سنة ١٢٥٢ ؟ خاتم

محمد على

(وهذا الأمر مقيد بالسجل رقم ٧٧ (معية) ص ٧٣ رقم ٣١١ بنفس التاريخ)

١٠ — تعيين بعض موظفي الديوان عقب إنشائه :

دفتر ٩٠٤ قلم الخزينة الخديوية — باب قيد خلاصات المدارس

نمرة الخلاصة ٣٩ تاريخ المعاملة ١٢ ذي القعدة ١٢٥٢

« الورود ١٩ « « ١٢٥٢

محررة باللغة العربية

حيث أن عملية المدارس انفصلت من ديوان الجهادية ومقتضى ترتيب ديوان مخصوص إلى عملية كافة المدارس والمكاتب ولازم لذلك باسمه كاتب وريس محلة (كأمين محفوظات أو كاتب قيودات) ونفر كاتب إيكنجى (أى ثان) ونفر كاتب آخر ونفر صراف ونفرين عدادين، ومن حيث موافق لهذه العملية الشيخ يحيى من المأمورين فى تعليم أصول الحسابات للتلاميذ بورشة المحاسبة (أى قلم المحاسبة) فيصير ترتيب الشيخ يحيى المذكور باش كاتب لهذه العملية. فيتقيد عوضه الشيخ عباس بماهيته القديمة، فيجرى العمل على الوجه المشروح من ابتداء تاريخ الخلاصة. (خلاصة)

الملحق الثالث

بيان ترتيب وتنظيم مدارس المبتدئين [1]

العنوان الأول — ترتيب مدارس المبتدئين

بند ١ — المراد من مدارس المبتدئين تحضير التلاميذ وتهيئتهم إلى مدرسة التجهيز ونشر مبادى العلوم للاهالى .

بند ٢ — يحدث فى كافة الأقاليم المصرية خمسون مكتبا أربعة بالمحروسة وواحد بالاسكندرية والباقون يتفرقون على كل المديريات بالنسبة للاهالى بشرط أن يكون فى البنادر .

بند ٣ — كل مدرسة من مدارس المبتدئين يكون فيها مائة نفر بخلاف المدارس التى بمصر أو اسكندرية فانه يكون فى كل مدرسة منها مائتا نفر .

بند ٤ — جميع مدارس المبتدئين فى رتبة واحدة وعلى نظم واحد يعنى أن تعليمهم وادارتهم تكون على نسق واحد .

العنوان الثانى — فى بيان دخول التلاميذ المدرسة

بند ٥ — تلاميذ مدارس المبتدئين تؤخذ من القرا والبلاد التى بالأقاليم بالنسبة للاهالى .

بند ٦ — لاجل قبول الانفار فى مدرسة المبتدئين أولا لابد من أن لايكون عمر النفر أقل من سبع سنين ولا أكثر من اثنى عشر سنة - وثانيا أن ذلك النفر يكون سليم البدن وعاريا من الامراض وبريئا من السقامة بشرط أن يكون متمتعا بالصحة والعافية .

---

(١) النص التركى للائحة وترجمته العربية التى نثبتها هنا يضمهما كتيب بدار الكتب المصرية رقم ١٣٤ (فنون متنوعة تركية) والترجمة موجودة أيضاً بدفتر مجموعة ترتيبات ووظائف بقسم المحفوظات التاريخية بعابدين .

وقد حرصنا على نقل هذه الترجمة العربية للأصل التركى كما هى بدون تغيير لما لها من القيمة التاريخية.

العنوان الثالث — فى بيان ما يتعلمونه التلاميذ ويحصلونه

بند ٧ — وإن كان استقر الحال أن مدة تعليم التلاميذ وإقامتهم بالمدرسة ثلاث سنين فاذا كان أحد التلاميذ يحصل له عطل فى دروسه بسبب أعذار وأمراض حصلت له فليؤذن له بالاقامة بالمدرسة قدر سنة زيادة على تلك المدة لاجل تحصيله ماحصله أمثاله وإذا كان المفتش الموكل من طرف شورى المدارس يستدعى فى شأن شىء مثل هذا فليساعد .

بند ٨ — تفترق التلاميذ على ثلاث فرق : الفرقة الثالثة تحتوى على تلاميذ مبتدئين عجم داخلين المدرسة حالا والفرقة الثانية تحتوى على تلاميذ درست جميع الدروس التى تحتاج اليها تلامذة الفرقة الثالثة والاولى تحتوى على تلاميذ تمت جميع دراسة ما تحتاج اليه تلامذة الفرقة الثانية مدة ختام السنة المكتبية وبعد الامتحان تؤخذ تلامذة من الفرقة الثالثة إلى الثانية ومن الثانية إلى الاولى وأما تلامذة الفرقة الاولى فبعد اتمامهم الدروس السنوية يمتحنون لاجل خروجهم من المكتب .

بند ٩ — فى بيان الدروس التى تعطى إلى التلامذة

أولا — الكتابة والقراءة ثانيا — قراءة مبادىء النحو والصرف العربى ثالثا — تعليم العمليات الاربع من علم الحساب وهى الجمع والضرب والطرح والتقسيم رابعا — تعليم الفرائض الدينية .

بند ١٠ — مقدار مواد التعليم والتدريس وبأى وجه تجرى هذه المواد وفى أى وقت تدرس وضبط التلامذة وادارتها وتكرار دروسهم الماضية ومدة مطالعتهم تلك الدروس كل ذلك يتعين تفصيلا فى قانون نامه المرتب من طرف شورى المدارس .

العنوان الرابع — فى بيان الأشخاص الموجودين بالمدرسة

الفصل الأول

فى بيان المأمورين بالتعليم

بند ١١ — أولا — أن المأمورين بخدمة المدرسة الناظر يكون ذا مهارة فى جميع الدروس التى تدرس بالمكتب بشرط أن يكون أستاذا .

الفصل الثانى

فى بيان المأمورين المتعقلين بأمر الادارة

بند ١٢ — مأمورون أمور الادارة أولا — ناظر . ثانيا — وكيل خرج . ثالثا — كاتب لأجل حسابات المدرسة . رابعا — طباخ وطبله جى . خامسا — ترزى وغسالين وفراشين وسقابين وبواب .

الفصل الثالث

فى بيان المأمورين بمواد الصحة

بند ١٣ — مأمورين الصحة كل مدرسة يكون لها نفر ماهر فى الجراحة وللمدارس التى بالمديرية جراح أول أو جراح ثانى .

الفصل الرابع

فى بيان وظائف تتعلق بناظر المدرسة

بند ١٤ — جميع الخدم التى بالمدرسة تكون بأمر الناظر ونهيه .

بند ١٥ — جميع خدم المدرسة يعنى أمور ادارتها ونظارتها وضبط التلامذة وربطهم وتدبير أمور تعليمهم متعلق بالناظر وفى كل شهر جميع الأمور التى تحدث بالمدرسة من جميعهم يكتبها الناظر فى جرنال ويعرضها إلى شورى المدارس .

بند ١٦ — إذا غاب الناظر أو مرض فيكون وكيله أحد الخوجات المعينين من طرف شورى المدارس وينظر المدرسة ويديرها حتى يحضر الناظر .

العنوان الخامس — فى بيان أصول المدرسة وضبطها وربطها

بند ١٧ — التلامذة يأكلون ويشربون ويلبسون من طرف الميرى ويقيمون بالمدرسة ويباتون فيها .

بند ١٨ — سيذكر مجازات التلامذة كما سيأتى : أولا — التلميذ المذنب يعزر

ويزجر بحضور جميع التلامذة ، وثانى مرة لا يؤذن له بالخروج فى وقت تعطيل التلامذة ونزهتهم ، ثالث مرة يحبس ولم يعط له إلا خبز وماء فقط ، رابع مرة يضرب بالكرباج ، خامس مرة يطرد من المدرسة .

وأما من خصوص كون التلامذة فى أى وقت تستحق إجراء أحد تلك المجازات المذكورة وعلى أى كيفية تجرى وبمعرفة من يحكم بالجزاء فكل ذلك يتعين أيضا فى سياسة نامة مخصصة .

بند ١٩ — إذا كانت أخلاق تلميذ من التلامذة ذميمة ولزم طرده من المدرسة فلأجل استقرار الحال على إجراء مجازاته كما هو مشروح يكتب الناظر كيفية الحال ويقدمها إلى شورى المدارس .

العنوان السادس — بيان الامتحانات الحادثة حين تنقل التلامذة من فرقة إلى أخرى وحين الخروج من المدرسة

بند ٢٠ — مدارس المبتدئين تفتش فى كل ثلاثة أشهر مرة وهذا التفتيش يكون بمعرفة المفتش الموكل من طرف شورى المدارس والمفتش المذكور كلما راءه بالمكتب من تدريس ومن نظارة وإدارة ومن اجتهاد التلاميذ والخوجات والناظر وسائر أرباب الخدم والاشياء التى يقتضى تغييرها وتبديلها وما يليق إلى المصلحة كل ذلك يكتبه المفتش فى جورنال ويقدم إلى شورى المدارس .

بند ٢١ — فى ختام كل سنة مكتبية جميع التلامذة تمتحن كما هو مقنن فى ثامن بند من هذا القانون نامه أما امتحان الفرقة الثالثة فهو أن تكون التلامذة مستعدين إلى دراسة ما يخص الفرقة الثانية وامتحان الفرقة الثانية هو أن يكونوا مستعدين إلى دراسة ما يخص الفرقة الاولى وامتحان الفرقة الاولى هو أن تكون التلامذة مستعدين إلى النقل الى المدرسة التجهيزية ، والجمعية ، التى تحضر تلك الامتحانات تكون تحت رئاسة الوكيل المرسل من طرف شورى المدارس وتلك الجمعية تحتوى على الناظر وخوجات المدارس .

بند ٢٢ — فى مدة السنة المكتبية يكتب جورنال مشتمل على أخلاق التلامذة وفى ختام الامتحان حين ما يلزم نقل تلامذة من فرقة إلى أخرى أو الى مدرسة التجهيزية

يقتضى المراجعة إلى الجورنال المذكور لأجل تخصيص درجة التلامذة وبيان أخلاقهم وتمييزهم .

بند ٢٣ — جورنال الامتحان المشتمل على أخلاق التلامذة واستعدادهم وقابليتهم يقدم بمعرفة رئيس الجمعية المأمورة بالامتحان إلى شورى المدارس .

بند ٢٤ — فمن بعد اطلاع شورى المدارس على هذا الجورنال تعين التلامذة التى تنقل من الفرقة الثالثة الى الثانية ومن الثانية إلى الأولى ومن الأولى إلى المدرسة التجهيزية .

بند ٢٥ — التلامذة التى لم تجاوب حين امتحان الخروج لم ترسل إلى المدرسة التجهيزية بل تطرد .

العنوان السابع

فى بيان مدارس المبتدئين التى بمصر والاسكندرية

بند ٢٦ — مقدار الخوجات والخدمة التى توجد فى تلك المدارس تكون بحسب مقدار التلامذة الموجودة وتكون مرتبة كما صرح به هذا القانون .

العنوان الثامن

بند ٢٧ — نظار مدارس المبتدئين وخوجاتهم تنصب بمعرفة شورى المدارس .

(تم القانون)

ترجمة الفقير محمد عصمت من التركى الى العربى بعون الله الملك العلى .

الملحق الرابع

جداول ماهيات ضباط وخوجات وتلاميذ المدارس[1]

الجدول الأول المتعلق بالأشخاص

تعيينات	ماهية	درجة	أجناس المستخدمين
	قرشا		
يوزباشى	٤٥٠	١ جى	خوجة عربى
ملازم	٣٠٠	٢ »	كذا
كذا	٢٠٠	٣ »	»
»	١٠٠	٤ »	»
»	٧٥	٥ »	»
يوزباشى	٤٥٠	١ »	خوجة عربى تركى
ملازم	٣٥٠	٢ »	كذا
يوزباشى أو صاغقول	—	١ »	بأن يكون من الملة خوجة هندسة
ملازم أو يوزباشى	—	٢ »	» » » » » »
يوزباشى	٤٥٠	١ »	خوجة حسن الخط
ملازم	٢٠٠	٢ »	» » »
صاغقول أغاسى	١٠٠٠	١ »	خوجة الرسم
يوزباشى	٧٥٠	٢ »	» »
صاغقول أغاسى	١٠٠٠	٣ »	خوجة اللسان الفرنساوى
بكباشى	١٥٠٠	١ »	مترجم
صاغقول أغاسى	١٠٠٠	٢ »	»
يوزباشى	٧٥٠	٣ »	»
يوزباشى	٤٥٠	١ »	مصحح
ملازم	٣٠٠	٢ »	»
بكباشى	١٥٠٠	١ »	خوجة الطب

(١) فنون متنوعة تركية بدار الكتب المصرية — وقد وضعت هذه « الجداول » عند تنظيم التعليم فى سنة ١٨٣٦

تعيينات	ماهية	درجة	أجناس المستخدمين
	قرشا		
صاغقول	١٠٠٠	٢جى	خوجة الطب
صاغقول	١٢٥٠	١ »	» بيطرى
يوزباشى	٧٥٠	٢ »	» »
صاغقول	١٠٠٠	١ »	معلم الموزيقة
يوزباشى	٧٥٠	٢ »	» »
صاغقول	١٠٠٠		معلم سرعة الرمح
يوزباشى	٧٥٠		معلم فن الركوب
		١ »	ناظر
		٢ »	»
		٣ »	»
ملازم	٢٥٠	١ »	وكيل خرج
ملازم	١٥٠	٢ »	كذا
نفر	٢٥	٣ »	»
ملازم	٢٥٠	١ »	كاتب
ملازم	١٥٠	٢ »	كذا
ملازم	٧٥	٣ »	كذا
يوزباشى	٥٠٠		أوسطة الآلات الحكمية والجراحية
ملازم	١٠٠	١ »	مخزنجى
نفر	٤٠	٢ »	كذا
ملازم	١٠٠	١ »	قبانى
كذا	٧٥	٢ »	كذا
ملازم	٧٥	١ »	طباخ
نفر	٥٠	٢ »	»
نفر	٦٠		ترزى
نفر	٦٠		مركوبجى
نفر	٧٥	١ »	مزين
نفر	٥٠	٢ »	مزين

تعيينات	ماهية	درجة	أجناس المستخدمين
	قرشا		
نفر	٣٠		غسال
جراية	٢٠		فراش
جراية	٢٠		سقا
جرايه	٢٠		كسار
جراية	٢٠		بواب
—	—		خراط

الجدول الثانى المتعلق بماهيات التلامذة

إلى ١ جى	إلى ٢ جى	إلى ٣ جى	إلى ٤ جى	إلى ٥ جى	بيان المدارس
ص	ص	ص	ص	ص	
٨	١٠	١٢			مدارس المبتدئين
١٥	٢٠	٢٥	٣٠		المدارس التجهيزية
٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	« الخصوصية
٨٠	٩٠	١٠٠			مهندسخانة خديوى

النفرات التى تكون طلوعا من المهندسخانة و تكون فى تلامذة الطوبجية أو سائر المدارس فالذين فى رتبة الأومباشية يكونون أزيد من أحد تلامذة أهل فرقهم خمسة غروش والذين فى رتبة الجاويشية عشر غروش والذين فى رتبة الباش شاويشية خمسة عشر غرشا .

بيـان تعيينات التلاميذ

مدارس الخصوصية	مدارس التجهيزية	مدارس المبتدئين
درهم	درهم	درهم
٣٠٠ خبز	٣٠٠ خبز	٣٠٠ خبز
٤٥ لحم ضانى	٤٥ لحم ضانى	عدس
٤٠ رز	٤٠ رز	٦ ملح
١٠ عدس	١٠ عدس	٣٠ فول
٢٥ دقيق	٢٠ دقيق	١٠ مسلى
١٤ مسلى	١٤ مسلى	٤ زيت
٥ عسل أسود	٥ عسل أسود	٢ صابون
١٥٠ خضار	١٠٠ خضار	٣ شمع
٦ ملح	٦ ملح	٢٠٠ وقد
٤ زيت	٤ زيت	٧٥ لحم فى الجمعة مرة
٣ شمع	٣ شمع	
٣٠٠ وقد (وقود)	٣٠٠ وقد	
٣ صابون	٣ صابون	

الجدول الثالث المتعلق بملابس التلامذة

كساوى مدارس التجهيزية والخصوصية عبارة عن عنترى (صديرى) وبطور (بنطلون) وكمر (حزام) وأزررة للعنانتر مدورة الشكل كما فى مدارس السوارى يعنى الخيالة وفى المدارس الأخر تكون الأزررة مسطحة ووسطها مستخرج ونهايات البطورات تكون معمولة من جلد ولها كوستك (مطاط) والكمر المذكور يكون من جلد أسود محلى أطرافه من نحاس أصفر .

بيان ألوان الكساوى المذكورة فيما سيأتى :

مدرسة الطب البشرى	سمائى مفتوح وياقته سمائى غامق .
المدرسة التجهيزية	بنى مفتوح وكنار الياقة أحمر .
مدرسة الألسنة	أخضر غامق والياقة فيرزى .
المهندسخانة الخديوية	سمائى غامق والياقة صفرى (صفراء) . وطرف الياقة سمائى .
مدرسة الطوبجية	سمائى والياقة أحمر دم غزال .
« البيادة	أخضر غامق وياقته حمراء .
« السوارى	العنترى أخضر والبطور وأطراف الياقة والأكمام دم غزال .
« الطب البيطرى	سمائى غامق والياقة سمائى مفتوح .

يلزم لأجل تلامذة مدارس المبتدئين :

سنوى	قميصين .	سنوى	لباسين .
«	تكتين .	«	عرقيتين .
كل ثمانية عشر شهراً	طربوش .	كل سنة	عرقيتين قماش .
« « « «	عرى صوف .	« ستة أشهر	جوز مركوب .
سنوى	بشكيرين .		

لأجل تلامذة مدارس التجهيزية والخصوصية :

سنوى	ثلاث قمصان	سنوى	ثلاثة ألبسة
«	ثلاثة تكك	«	« عراقى
كل ثمانية عشر شهراً	طربوش	كل أربع سنين	كسوة جوخ
كل سنة	كسوتين قماش .	كل ستة أشهر	كوز (جوز) مركوب .

لأجل مدرسة السوارى كل سنتين جوز جزم .

لأجل مدرسة الطوبجية كل سنتين جوز جزم .

الأشياء التى تلزم إلى التلامذة لأجل التعليم والتحصيل تترتب بمعرفة شورى المدارس بالنظر إلى ما يخص المدرسة أى مدرسة كانت .

الجدول الرابع المتعلق بالسفرة وفرش النوم

مدارس المبتدئين :

أولا — كل عشرة تلاميذ سفرة مدورة من ألواح . (طبلية)

ثانيا — « « قره وانتين .

ثالثا — « تلميذ له ملعقة من خشب .

مدارس التجهيزية :

أولا — كل عشرة تلاميذ سفرة مدورة من خشب .

ثانيا — « « ثلاث قروانات .

ثالثا — « « قلتا ماء .

رابعا — « تلميذ ملعقة من خشب .

مدارس الخصوصية :

أولا — كل عشرة تلاميذ سفرة طويلة .

ثانيا — « « « دكتين .

ثالثا — « تلميذ ثلاثة أطباق صفيح كبار .

رابعا — « عشرة تلاميذ معلقتين من حديد كبيرتين مبيضتين .

خامسا — « « « شوكة حديد كبيرة .

سادسا — « « « سكينة كبيرة .

سابعا — « « « قلتين فخار .

ثامنا — « « « تبسيين (أى غطاءان) صفيح للقلتين .

تاسعا — « تلميذ ثلاثة أطباق صفيح . (انظر ثالثا)

عاشرا — « « معلقة حديد مبيضة .

حادى عشر — « « له شوكة حديد .

ثانى عشر — « « سكينة حرفها مدحرج .

ثالث عشر — « « قدح من صفيح .

رابع عشر — « « قصورة محرمة . (أى فوطة)

بيان أدوات فرش النوم

مدارس المبتدئين :

أولا — كل تلميذ نخ حصير .

ثانيا — « سجادة عسكرية .

ثالثا — مخدة مملوءة بالقطن ومعلقة .

رابعا — كل تلميذ حرام بلدى .

مدارس التجهيزية والخصوصية :

أولا — كل تلميذ ثلاثة ألواح من خشب وسرير من حديد .

ثانيا — لكل واحد مرتبة نوم قطن .

ثالثا — « « مخدة قطن .

رابعا — « « أربع ملايات .

خامسا — لكل واحد بطانية بلدى .

الأدوات التى تلزم الى أوض المطبخ بالنسبة إلى ما يخص كل مدرسة تترتب بمعرفة شورى المدارس .

الملحق الخامس

لائحة مدرسة الادارة الملكية (١)

ترتيبنامه صدر عليه أمر فى ١٦ جماد أول سنة ١٢٥٠ خطابا إلى البك ناظر الملكية وهو يشتمل على تعليم وتعلمات ثلاثون نفر تلميذ مقتضى انتخابهم من الدرسخانة الملكية واعطاء واحد منهم إلى أرتين شكرى افندى وخمسة عشر إلى استيفان رسمي افندى لتعليمهم إدارة أمور الملكية وفيه ثلاثة عشر بند كالمسطر أدناه

بند ١ — ان التلاميذ المقتضى تحصيلهم علم لسان الأجنبيين والعلوم الغربية والعقلية من حيث أنه لازم أن يكون من الذين يعرفون القراءة والكتابة مهما أمكن واكتسبوا المهارة والفطانة فى لسان أبويهم بقدر الامكان ومن الواجب أيضاً أن لا يكونوا مسنين فينبغى أن يصير أخذ التلامذة المذكورين من الذين يعرفوا القراءة والكتابة من سن أربعة عشر سنة لغاية ثمانية عشر .

بند ٢ — انه إذا صار انتخاب التلامذة المذكورة على هذا الوجه فمن حيث أنه لازم أن يكونوا بريئين من المغالطة والمخالطة فينبغى أن يصير تخصيص محل مستقلا إليهم ويجرى تسميته باسم مدرسة أمور ملكية .

بند ٣ — من حيث أن تحصيل إدارة أمور ملكية منوط باكتساب لسان الفرنساوية وعلم المحاسبة ومبادىء الهندسة وعلم الجغرافيا ، والحالة هذه ليس موجود تلاميذ ذو مفهومية فى هؤلاء العلوم بالدرسخانة الملكية فينبغى أنه فى أول الأمر يصير تعليم العلوم المذكورة . ومن كون أن كيفية هذا المكتب أيضاً مقتضى ترتيبها وتنظيمها على حسب أصول أوربا فيلزم إجراء ترتيبه وتنظيمه على الوجه المشروع .

---

(١) دفتر ترتيبات ولوائح — ترتيب سنة ١٢٥٠ (هذه اللائحة مقيدة فى الدفتر باللغة العربية وتثبتها هنا كما هى)

بند ٤ — إن التلاميذ المرقومين يلزم أنه بعد طلوع الشمس مساء يكونوا موجودين بالمدرسة، وبما أن جارى إعطاء الدروس بالدرسخانة الملكية من الصباح لحد الظهر فينبغى مداومة التلامذة المذكورين فى الدروس العربية والفارسية والتركية لغاية الظهر كالأول، ومن الوقت المذكور لغاية الساعة إحدى عشر يشتغلون بدروس مدرسة أمور ملكية .

بند ٥ — إن أرتين شكرى افندى وأستيفان رسمى افندى يلزم أن يكونوا مشغولين بالترجمة فى أثناء تلاوة الخلاصات فى الصباح وبعد ذلك يداوموا على المذاكرة والمداولة فيما يتعلق بمجلس عالى ملكية لغاية وقت الطعام ومن الساعة سبعة لغاية الساعة تسعة يكونوا مشغولين بدروس التلامذة المرقومة وبعد ذلك يوجدون بالمجلس من الساعة تسعة لغاية انفضاضه .

بند ٦ — من حيث أن دروس لسان الفرنساوية والمحاسبة ومبادىء الهندسة والجغرافيا الذين سيعطوها شكرى افندى ورسمى افندى إلى التلامذة المذكورين تمكث ساعتين فقط كالموضح أعلاه فينبغى أخذ واحد مساعد فى لسان الفرنساوية وواحد مساعد فى الجغرافيا من تلاميذ الشيخ رفاعة لأجل إعادة إعطا الدروس المعطية إلى التلاميذ المذكورة فى الوقت الباقى .

بند ٧ — إن التلاميذ المرقومين حيث من العلوم أنهم سيمكثون مدة فى التحصيلات التى هى أساس إدارة أمور ملكية على الوجه المشروح ومقرر على أن شكرى أفندى ورسمى أفندى يترجمون دروس أمور ملكية ويجرون تحضيرها فى ظرف تلك المدة ولغاية إنها يجرون تحضير جانب دروس فيكونوا التلاميذ المذكورين علموا بالدروس السالف ذكرها فينبغى الأجرى على تلك الوجه .

بند ٨ — إنه عند ما يتفهم بأن التلاميذ المذكورين اكتسبوا الاقتدار على فهم اللسان الفرنساوى فيصير انتخاب بعض تواريخ سهلة ويجرى ترجمتها إليهم درس درس، وبعد التصحيح يجرى جمع تلك التراجم ولدى حسن ختام الكتاب يصير طبعه وعلى هذا الوجه يلزم الغيرة فى تحضير مترجمين .

بند ٩ — إنه لأجل معرفة تحصيلات التلاميذ وفهم قابليتهم واستعدادهم ينبغى

أن فى كل ثلاثة شهور يصير امتحانهم خصوصى وعند ختام كل سنة أيضاً يجرى امتحانهم عمومى والذين يوجدوا فايقين الأقران بالامتحانات الخصوصى السالف ذكرها يصير تلطيفهم ويعطى لكل منهم كتاب عطية فى التواريخ وسائر الكتب المماثلة لذلك المطبوعين بدار الطباعة العامرة لأجل تشويق غيرهم فى السعى والغيرة وأما الذين يحصل منهم إبراز السعى والغيرة وإظهار كسب اظهاره على هذا الوجه بالامتحان العمومى فيضم لكل منهم على ماهيته القديمة شىء أو يصير تفريحهم باحسان الخديوى.

بند ١٠ — إذا كان بالامتحانات الخصوصى المار ذكرها يصير المشاهدة على أن بعض أشخاص ليس لهم استعداد وبعض أشخاص حاصل منهم تكاسل فى بذل الغيرة ويكون صار السعى مراراً فيما يوجب ميلهم إلى طريق الفطنة والصلاحية ومع ذلك يرى فيهم عدم قابلية فمثل هؤلاء يصير إخراجهم من المدرسة وانتخاب بدلهم من الدرسخانة الملكية تهديدا وتخويفا لغيرهم .

بند ١١ — إن الذين يحصل منهم قصور فى السعى والغيرة والذين يوجدوا فى الأطوار الغير لايقة من بعض التلاميذ الذين تحت يد شكرى افندى ورسمى افندى إن تراءى للمومى اليهما بأنه مقتضى تأديبهم وتربيتهم فيعرضوا عن جنحهم الى البك ناظر مجلس عالى ملكية وبمعرفته يصير تربيتهم وتأديبهم .

بند ١٢ — إنه لأجل حصول ائتلاف التلامذة بالمصالح المصرية ينبغى أن يعطى الى المدرسة المذكورة نسختين من الوقائع المصرية الجارى طبعها وتمثيلها والبنود المشتملة على عمارية الملك بجرنالات أوروبا يصير ترجمتهم وتعطا اليهم لأجل قرايتهم إياها .

بند ١٣ — إن التلاميذ الذين يحصل منهم رعاية للأصول المذكورة أعلاه ونتيجة لتعليماتهم فى ظل ولى النعم فلأجل اكتسابهم التعليمات واستعدادهم للاستخدام بالمصالح الملكية بواسطة وجودهم فى العمليات أيضاً ينبغى أنه عند خروجهم من المكتب يعطى لكل من حضرات المديرين نفر منهم بوظيفة معاون ويقيم بمعيته مدة سنة وابتدى نيل السنة الحالية لغاية نيل أول السنة القابلة وفى بحر تلك السنة يصير استعمالهم بمعية المديرين المومى اليهم لأجل تمرينهم على الأشغال وبعد ذلك يحضروا الى المحروسة ويداوموا بمجلس عالى ملكية لحين ظهور مصلحة لايقة لاستعدادهم وقابليتهم.

الملحق السادس

لائحة النظام الداخلى لمدرسة المهندسخانة [1]

النظام الخاص بالأوضه باشية (أمناء الغرف) والخلفاء (نواب المعلمين)

البند الأول — على الطلبة الموجودين فى غرفة كل من أمناء الغرف أن لايخرجوا من غرفهم عند ضرب طبل الصباح مالم يخرج هو (أمين غرفتهم) .

البند الثانى — على كل طالب من الطلبة الموجودين فى غرفة كل من أمناء الغرف أن يغسل رجليه ويديه ووجهه وأذنيه ورقبته بالصابون فى الصباح بعد نهوضه من فراشه وفى المساء قبل أن يأوى إليه .

البند الثالث — إذا ارتكب أحد الطلبة جنحة نهاراً أو ليلا يسأل الأوضه باشى (أمين غرفته) عن ذلك ، وقبل أن يأوى الطلبة إلى فراشهم يجب عليهم أن يخلعوا أحذيتهم وجواربهم وأحزمتهم وجميع ملابسهم عدا القميص والسروال ، وإذا ارتكب أحد الطلبة الموجودين فى غرفة كل من أمناء الغرف عملا يخالف القانون يحرر تقرير بذلك ويقدم فى طابور الصباح .

البند الرابع — يجب على كل من أمناء الغرف أن يعاين ليلة الجمعة الثياب النظيفة عند وضعها على فراش كل تلميذ ويسجل نواقصها كالأزرار المقطوعة وغيرها ، كما يجب عليه أن يجعل الطلبة يلبسون صباح الجمعة ثيابهم النظيفة ويخلعون ثيابهم القذرة ويضعونها فى (بقجة) الثياب القذرة الموجودة عند كل منهم ويعاين الثياب القذرة عند وضعها أسوة بالثياب النظيفة ، ويسجل النواقص الموجودة فى ثيابهم النظيفة منها والقذرة وما يحتاج إلى التصليح منها ، ويسلم الكشف إلى الملازم النوبتجى . (صاحب النوبة)

---

(١) دفتر ٢٠١٠ (مدارس تركى) وضع هذه اللائحة « حكاكيان أفندى » مدير مدرسة المهندسخانة وأقرها مجلس المدارس فى ١٧ المحرم سنة ١٢٥٢ (١٨٣٦ م) . وهذه اللائحة مقيدة بالدفتر باللغة التركية وثبت هنا ترجمتها العربية .

البند الخامس — يجب على كل نائب معلم أن يسجل بخط دقيق الحركات المخالفة التى يقوم بها أحد الطلبة أثناء إلقائه الدرس كالتشويش وعدم الاصغاء للدرس والكسل والنوم واللعب فى يومية ذلك اليوم مقابل اسم ذلك الطالب وذلك حفظا لكرامة المعلم .

البند السادس — على كل نائب معلم أن يسلم يوميته للمعلم الذى هو نائب عنه يوم الخميس الذى هو آخر الأسبوع .

البند السابع — إذا احتاج نائب معلم لأدوات مدرسية لطلبة فصله كالأقلام والورق والكتب يبلغ حاجته لمعلمه وبعد ما يقر المعلم المقدار اللازم منها يكتب نائب المعلم إيصالا يقول فيه استلمت من فلان مقدار كذا من الشىء الفلانى ويسلمه لمعلمه والمعلم يختمها ويسلمها بدوره لمعاون المدير ومعاون المدير يختمها ويسلمها للمدير ، وبعد أن يختمها المدير يأخذها نائب المعلم إلى مأمور المخزن ويستلم مايلزم له ، وعلى نواب المعلمين أن يجعلوا الطلبة يأخذون الكتاب الخاص بالمادة التى يدرسونها لهم ولا يسمحوا لهم بأخذ كتاب غيره كأن يأخذوا كتاب الهندسة فى درس الصرف مثلا ، وعلى نائب المعلم أن لايسمح لأحد الطلاب من غير فصله بالجلوس فى فصله .

النظام الخاص بالملازم النوبتجى

البند الأول — على الملازم النوبتجى أن ينادى إليه نواب المعلمين وأمناء الغرف فى طابور الصباح يوميا ويأخذ منهم ماعندهم من التقارير ويمر على الطلبة ويعاين نظافتهم ووساختهم وإذا وجد أن أحد الطلبة وسخ أو وسخ الثياب يسأل أمين غرفة الطالب المذكور عن ذلك .

البند الثانى — على الملازم النوبتجى أن يلازم الطلبة فى أوقات الراحة وأن يقف أحد الخفراء على باب الغرفة فى الدور العلوى لحراسة الطلبة المذنبين الذين يتركون هناك لاعادة دروسهم .

البند الثالث — بعد أن يتناول الطلبة الطعام يوقفهم الملازم النوبتجى بطابور

وبعد أن يقرأ رئيس نواب المعلمين دعاء الشكر يخرجهم بطابور أيضا .

البند الرابع — على الملازم النوبتجى والمحاسبه جى (مأمور الحسابات) أن يفتشا صباح كل يوم أربعاء أدراج التلاميذ التى توضع فيها الكتب ويأخذ الملازم النوبتجى مايجده فيها من أشياء ليس لها علاقة بالدروس كالطعام والألبسة وغيرها ويسلمها إلى ناظر مصلحة المدرسة ، ويسجل مأمور الحسابات مايجده ناقصا من الأدوات المدرسية ويسلم الكشف للكاتب العربى لخصم ثمن الأشياء المفقودة من ماهية الطالب المفقودة منه .

البند الخامس — يترك مفتاح مستودع الكتب والأوراق مع كل من الملازمين المذكورين لمدة سنة ويفتح المستودع المذكور مرة كل يوم أربعاء ، وإن لم تكن الورقة التى يحملها نواب المعلمين مختومة من طرف المعلم ومعاون المدير والمدير لا يصرف لهم طلبهم والأوراق التى تكون مختومة يسلمها للكاتب العربى لقيدها ثم يحفظها عنده .

البند السادس — على الملازم النوبتجى أن يصف الطلبة بطابور قبل خروجهم يوم الجمعة ليكشف عليهم الطبيب .

البند السابع — يجب أن يكون كل نواب المعلمين والطلبة الراغب فى الخروج يوم الجمعة للتنزه لابساً جوارب نظيفة وحذاء أفرنجياً فى قدميه وأن تكون جميع ثيابهم نظيفة وإذا نقص شىء من هذه الملبوسات فلا يخرج .

البند الثامن — يجلس الملازم النوبتجى فى مكانه أثناء الدرس ويراقب الطلبة تمام المراقبة ويوقف الطالب الذى يخرج من الدرس مستأذناً فى الذهاب إلى المرحاض أولشرب الماء إلى أن يرجع الطالب الذى ذهب قبله ثم يسمح له بالذهاب ولا يسمح لطالبين أن يذهبا معاً بل يسمح بالذهاب لواحد بعد واحد .

البند التاسع — بيان تقسيم الأربع والعشرين ساعة وكيفية صرفها اعتباراً من الفجر : (١)

---

(١) هذا التوزيع غير دقيق كما يتبين من جمع الأرقام .

دقيقة	ساعة	
١٥	١	مدة استراحة الطلبة وغسيل وجوههم بعد ضرب طبل الصباح .
١٥	١	درس من المعلمين ومذاكرة للطلبة .
٣٠	—	فطور واستراحة .
—	٢	درس عربى من نواب المعلمين للطلبة .
—	٢	دروس الهندسة من نواب » »
—	١	طعام الغداء واستراحة .
٣٠	١	دروس الرسم والخط والتاريخ .
٣٠	١	مذاكرة درس الهندسة من نواب المعلمين للطلبة .
—	١	دروس الجغرافية والكرة » » » »
٤٥	—	طعام العشاء واستراحة .
—	٢	مذاكرة عمومية وتحضير درس الصباح .
١٥	٤	مدة الطعام والاستراحة .
١٥	١٠	مدة الدروس والمذاكرة .
٣٠	٨	مدة النوم .

النظام الخاص بالعقوبات

البند الأول — يصير تطبيق عقوبة الضرب بعد مذاكرة المجلس يوم الخميس .

البند الثانى — يسجل مأمور الحسابات عقوبات الطلبة التى يقررها مجلس المدرسة وما يرد فى يومياتهم .

البند الثالث — يضرب الطلبة المذنبون بمعرفة ضارب الطبل (ترنبيته جى) بحضور الضباط ومأمور الحسابات وبمساعدة الأوناباشى والخفراء الموجودين فى الباب ، وإن يكن لا يمكن ضرب أحد الطلبة أكثر من خمسة وعشرين جلدة (كرباجاً) فى تلك الليلة بسبب ذنب واحد ، ولكن إذا كان الذنب كبيراً أو

كانت الذنوب متعددة يجوز ضرب الطالب أكثر من خمسة وعشرين جلدة فى تلك الليلة .

البند الرابع — إذا خالف أحد نواب المعلمين القانون يوم الجمعة لا يسمح له بالخروج ويظل فى المدرسة تحت حراسة المعلم النوبتجى .

البند الخامس — الطالب الذى توجد نواقص فى ثيابه كقطع الأزرار لا يسمح له بالخروج ويحبس فى المدرسة .

البند السادس — الطلبة المهملون والقذرون لا يسمح لهم بتناول الطعام مع رفاقهم بل يتناولونه بعدهم ولا يسمح لهم بالاختلاط بهم فى أوقات الاستراحة حتى يكونوا نظافاً مثلهم .

البند السابع — إذا حدثت ضوضاء من الطلبة أثناء وقوفهم فى الطابور ولم يمكن معرفة مصدرها بواسطة نواب المعلمين على الملازم النوبتجى أن يوقف الطلبة ونواب المعلمين بطابور عند نزولهم فى وقت الراحة المدة التى يختارها ، وإذا عرف المصدر يصعد بالطالب الذى صدرت منه الضوضاء إلى الدور العلوى ويحبسه فيه .

البند الثامن — يقرر المجلس العقوبة فيمن يشوش أو يشتم أو يتلفظ بألفاظ كفرية أو يكذب أو يسرق أو يعصى رؤساءه أو يسىء أدبه ويجهل دروسه بسبب كسله إما بالجلد أو بالجلد مع الحبس .

البند التاسع — الطالب الذى يتجاسر أو لا يحافظ على هيئته ولا يرتب كتبه وأوراقه ويبعثرها فى جهات متفرقة يحبس بمعرفة الملازم النوبتجى ونائب المعلم الذى يلقى إليه الدرس بحسب درجة ذنبه .

البند العاشر — إذا كان أحد الطلبة عنيدا أو لا يحفظ درسه كسلا أو لا يتقن الخط والرسم يعاقبه المجلس بالجلد أو بالحبس أو باطعامه الخبز والماء فقط أو بإنزاله من الفصل الذى هو فيه إلى الفصل الأدنى منه ، وتنفذ فى حقه العقوبات الوارد ذكرها فى قانون المدرسة الكبير وفى النهاية يطرد من المدرسة ويرسل إلى الورش إذا لم يرجع عن عناده .

النظام الخاص بمعاون المدير

البند الأول — على معاون المدير أن يحضر للمدرسة بعدالفجر بساعة ويغادرها بعد انتهاء دروس الليل يوميا .

البند الثانى — عدا الوظائف المطلوبة من معاون المدير قانوناً عليه أن يراقب حضور المعلمين فى الوقت المعين وأن يختبر أربعة طلبة أو خمسة يختارهم المدير فى وقت المذاكرة العمومية ليلا لمعرفة ما إذا كانوا يتكاسلون فى إلقاء دروسهم .

البند الثالث — عند ما تصل إليه الأوراق المختومة من طرف المعلمين عن الأدوات المراد صرفها من مستودع الأدوات المدرسية يختمها إذا علم أن الأدوات المطلوبة ضرورية فعلا .

البند الخامس (كذا فى الأصل) — على معاون المدير أن يستلم من المعلمين فى ٢٦ من كل شهر أو فى ٢٧ منه إن كان يوم ٢٦ يوافق الجمعة التقرير الذى يقدمونه عن الدروس التى ألقوها فى مدة شهر اعتبارا من ٢٥ فى الشهر السابق إلى ٢٥ من الشهر الذى يستلمها فيه ، ويلاحظ أن تكون الكشوف المذكورة مختومة بأختام المعلمين وينظم تقريرا بجميع الدروس بموجب امتحان التجربة الذى يختبر فيه الطلبة ليلا ويقدم هذا التقرير إلى مجلس المدرسة فى ٢٨ من كل شهر أو فى ٢٧ منه إن كان يوم ٢٨ يوافق يوم الجمعة .

النظام الخاص بالمعلمين

البند الأول — على المعلمين أن يحضروا إلى المدرسة بعد الفجر بساعة وربع ويغادروها بعد إلقاء دروسهم وإتمام الواجبات المطلوبة منهم فى المدرسة يوميا .

البند الثانى — عليهم أن يعيدوا النظر على يومية نوابهم فى إلقاء الدرس بفصولهم ويتحققوا من صحتها ويختموها سبعة أختام على التوالى كل أسبوع .

البند الثالث — عليهم أن يقدموا لمعاون المدير تقريراً شهرياً عن الدروس التى يلقونها فى مدة شهر اعتباراً من ٢٥ من الشهر السابق إلى ٢٥ من الشهر الذى

يسلمونها فيه وأن تقدم إليه فى ٢٦ من كل شهر أو فى ٢٧ منه إن كان يوم ٢٦ يوافق يوم الجمعة .

البند الرابع — عند ارتكاب أحد الطلبة لذنب ما أو عند جهله بدرسه يأمر المعلم نائبه بتسجيل ذنب التلميذ المذنب فى اليومية .

عقوبة معاون المدير

الذنب يقسم قسمين : القسم الأول أن لا يعمل الانسان ما يجب عمله ، والقسم الآخر أن يعمل ما لا يجب عمله . وفى هذه الحالة إذا لم يعمل معاون المدير ما يجب عمله يكتب إليه أول مرة بطلب ذلك العمل فان لم يعمله يحبس أسبوعين بالمدرسة وإن لم يعمله فى المرة التالية يكتب تقرير بذلك ويعرض على شورى المدارس .

وإذا عمل ما لا يجب عمله يكاتب فى أول مرة ، فاذا عمل ثانية يحبس خمسة عشر يوما ، وفى المرة الثالثة يكتب تقرير بذلك ويعرض على شورى المدارس .

عقوبة المعلمين

إذا أهمل أحد المعلمين فى أداء واجباته كما مر ذكره يقدم معاون المدير تقريراً بذلك إلى المدير فينبهه المدير أول مرة ، وفى المرة الثانية يحبس ٢٤ ساعة ، وفى المرة الثالثة يحبس أسبوعاً ، وفى المرة الرابعة يحرر تقرير بذلك ويقدم لشورى المدارس ، أما إذا كان المعلم من الضباط فانه يعاقب بموجب النظام العسكرى .

عقوبة ضباط المدرسة

إذا ارتكب أحد ضباط المدرسة ذنباً يعقد مجلس لتقرير عقوبته بموجب قانون الجهادية وإذا ارتكب نائبو المعلمين الموجودون الآن ذنبا بعد حصولهم على رتبهم العسكرية من الأونباشى الى الباشجاويش وذلك عند ما يصبح عدد طلبة المهندسخانة ٦٢٥ طالبا ويباشر فى الدرس من الدرجة المذكورة فى قانون المدرسة الكبير يعاقبون بموجب القانون العسكرى .

وظائف الناظر داخل المدرسة [١]

البند الأول — فيما يختص بالفراشين — على الناظر :

١ — مراقبة أعمال الفراشين كل يوم خميس .

٢ — ملاحظة أن تكون ملابسهم نظيفة فى آخر كل أسبوع .

٣ — ملاحظة نشر حصرهم وسجاجيدهم وما ماثلها من الفراش خارجاً فى مكان بعيد عن مكان نشر فراش الطلبة وجعلهم يكنسون غرفهم يوميا ويغسلونها أسبوعيا ومنعهم من شرب الدخان .

٤ — تكسير ما يجده من الغلايين وما شابهها .

٥ — منعهم من وضع ما يشبه الفواكه أو اللحم أو الخضار أو الصحون القذرة أو العظام من غرف الطعام فى غرفهم .

٦ — ملاحظة عدم تركهم القاذورات فى زوايا الجدران عند كنسهم للغرف .

٧ — منعهم من إشعال القناديل أو الشمع وقت النوم .

٨ — ملاحظة نظافة ثيابهم وخلوها من القمل ونظافتهم بصورة دائمة .

٩ — ملاحظة استعمال الدقاق فى غسل أيديهم ولو مرة واحدة يوميا لأنهم عدا عن اختلاطهم بالطلبة يرفعون مراتبهم ويفرشونها ويخشى من أن يلوثوها .

١٠ — إن لم يشتروا هم الدقاق يشتريه الناظر نفسه ويخصمه من ماهياتهم .

١١ — قيد ما يفقد أو يكسر مما فى عهدتهم من أدوات المدرسة على الفاقد أو عند المعلم .

١٢ — رغم لزوم مكثهم فى المدرسة ليلا فان الناظر مخير فى السماح لاثنين أو ثلاثة منهم بالخروج بالنوبة .

---

(١) ذكرنا أنه كان لكل من المدارس الخصوصية أول إنشائها وتنظيمها « ناظر » للشئون الادارية و «مدير» للشئون الفنية ، وهذا القسم من اللائحة يوضح واجبات الأول ، وترى فى الملحق التاسع لائحة بواجبات ناظر مدرسة الطب البشرى .

البند الثانى — على الناظر أن يأمر الفراشين بما يلى :

١ — رش جميع أماكن المدرسة بالماء رشا خفيفاً وكنسها مرة واحدة فى اليوم .

٢ — جمع الاوراق المهملة التى توجد فى الزبالة وحفظها .

٣ — كنس غرف الدرس (الفصول) ليلا .

٤ — مسح الغبار عن الكراسى وتخت الجلوس الكبيرة بخرقة جافة فى الصباح قبل دخول الطلبة .

٥ — مسح جميع أماكن المدرسة أسبوعياً فى أيام الصيف وكل خمسة عشر يوما مرة فى أيام الشتاء وتنظيف جدرانها من الغبار والتراب .

٦ — غسل جميع أماكن الاستراحة بالماء يوميا وكنس محلات البوابين والحراس ثم رشها بالماء .

٧ — غسل الأزيار والأحواض أسبوعيا .

٨ — ترك نوافذ غرف الطعام مفتوحة صيفا وشتاء فى الوقت الذى يكون الطلبة غير موجودين فيها .

البند الثالث — نظام السفرة (المائدة) — على الناظر أن يأمر الفراشين :

بمسح السكاكين والشوك بخرقة بعد تنظيفها مرة واحدة فى اليوم .

وغسل الملاعق والصحون الكبيرة والسكاكين بالماء .

وغسل كوبات الماء ثم تجفيفها من الداخل والخارج بخرقة .

وملء كوبات الماء قبل الطعام بربع ساعة ثم تفريغ ما فيها من الماء وتنظيفها بعد الطعام وغسل فوط المائدة أسبوعيا ومسح حلقات الفوط وتلميعها بالليمون والرماد أسبوعيا .

ولف السكينة والشوكة والملعقة بالفوطة وإدخالها بالحلقة .

ووضع نمرة صاحب الفوطة على الفوطة وعلى الحلقة .

البند الرابع — نظام غرف النوم :

على الناظر أن يجعل الفراشين ينزلون كل يوم ثلاثين مرتبة وثلاثين مخدة

وثلاثين بطانية وستين ملاية وتسعين لوحاً وثلاثين سريراً ويستخدم خدمة آخرين فى تنظيفها من البق لأنه يتغذى من الخشب ، ويلاحظ فتح نوافذ غرف النوم أيام الصيف وفتح نافذة واحدة لكل غرفة أيام الشتاء. ونشر مراتب الطلبة فى الشمس بعد نهوضهم من النوم وجمعها بعد الزوال بساعتين والاعتناء بهذا الأمر خصوصاً فى أيام الصيف التى ينام فيها الطلبة كثيرا .

البند الخامس — نظام الملابس :

مستودع الملابس عبارة عن غرفة واحدة فى جدرانها الأربعة دواليب مربعة موضوع على كل دولاب نمر الطلبة الذين لهم ملابس فيه فيجب حفظ مفتاح هذا المستودع عند الناظر ، ويقتضى وضع نمرة الطالب على ما عنده من الملابس . وإنه وإن يكن يجب غسل الملابس كل ستة أيام مرة ولكن نظراً لامكان مصادفة أحد هذه الأيام الستة ليوم ممطر أو مغبر يكون من الأصوب غسلها كل خمسة أيام مرة لأنه لو غسل كل يوم ٤٥ قميصاً و٤٥ سروالا و٤٥ طاقية و٤٥ جورباً و٤٥ بقجة و٤٥ فوطة طعام وتسعين ملاءة وأضيف إلى الأيام الخمسة اليوم الممطر أو المغبر تكون الملابس قد غسلت كل ستة أيام مرة ، ويسلم الناظر الفوط المغسولة لرئيس الفراشين ويتسلم منه الفوط المتسخة ، ويجب غسل ستائر النوافذ والبياضات والملونات مرة كل شهرين ويجب غسل ملاءات المراتب أسبوعيا فى أيام الصيف وكل خمسة عشر يوماً مرة فى أيام الشتاء على أن تكون مهيأة ليلة الجمعة وكذلك الملابس الأخرى يجب ربط الملابس النظيفة لكل طالب فى بقجته النظيفة ووضعها على فراشه واستلام ملابس الطالب الوسخة الموضوعة فى البقجة الوسخة يوم الجمعة ، وأما إن لم توجد ملفوفة وموضوعة على الفراش كما ذكر فلا يصير استلامها .

البند السادس — نظام المطبخ :

مفتاح الكيلار ومفتاح أدوات المطبخ ومستودع النحاس تحفظ عند وكيل الخرج ويكون الطهاة والغسالون الموجودون فى المطبخ تحت إدارة الناظر ، وطريقة صرف التعيينات اليومية هى :

إن التعيينات اليومية تسلم بقدر استحقاق الطلبة لدى رئيس الطهاة كل صباح

بحضور الناظر والملازم غير النوبتجى والمعلم وتسليمها بخط المعلم وخط وكيل الخرج وملاحظته ، وتتبع هذه الطريقة فى صرف الصابون والحطب .

البند السابع — نظام إنارة المدرسة :

على الناظر أن يمنع صرف الشمع والقناديل لغير الطلبة من معلمين وضباط .

البند الثامن — نظام الحلاقين :

على الحلاقين أن يستعملوا ما عندهم من الفوط والأمواس والعدد الأخرى فى حالة كونها نظيفة وينظفوا ثيابهم من القمل وعلى الناظر أن يفتش عليهم وفى حالة وجود الأدوات المذكورة غير نظيفة يضرب الحلاق ويطرد . ويلاحظ الناظر كون الطلبة حالقين رؤوسهم مرة فى الأسبوع ولا يسمح للطلبة بالحلاقة أثناء الدرس .

البند التاسع — نظام البوابين :

يكون البوابون تحت إدارة الناظر فقط ويتبعون اللائحة المكتوبة المعلقة ويقف أحدهم فى باب المدرسة والآخر فى باب المطبخ .

البند العاشر — نظام حراس الباب :

يكون حراس الباب تحت إدارة الناظر وفى حالة رغبة ضابطهم فى الذهاب إلى مكان ما ليلا أو نهاراً لا يسمح له بالذهاب دون إذن من الناظر .

البند الحادى عشر — العقوبات المسموح للناظر تنفيذها :

إذا ترك وكيل الخرج عمله نهاراً أو غاب دون إذن من الناظر ليلا يستحق الحبس لمدة ٢٤ ساعة وللناظر حبسه هذه المدة . أما إذا استحق الحبس لمدة أطول منها يحبس بمعرفة المدير ، وإذا ارتكب وكيل الخرج المذكور ذنبا كبيراً يكتب الناظر تقريراً بذلك ويقدمه للمجلس ويقرر المجلس العقوبة الواجب مجازاته بها . وللناظر الحق فى ضرب الطهاة والفراشين والسقايين والبلطه جية (السعاة) والبوابين والحلاقين ومشعلى القناديل والحطابين والخياطين وسائر خدمة المدرسة لغاية خمسين جلدة على الأكثر مع إشعار المدير بذلك . أما إذا اقتضى الحال ضربهم أكثر من خمسين جلدة عليه أن يعرض الأمر على المدير . وفى حالة ارتكاب أحد خدمة المدرسة

ذنباً يستحق عليه الطرد من المدرسة يعرض الأمر على المدير ويطرده .

البند الثانى عشر — الأشياء الخاصة بالقراءة تكون موجودة فى عهدة الملازم الذى يحمل مفتاح مخزن السنة الأولى، أما الملابس وأدوات المطبخ كالصحون والحلل والأدوات الأخرى تكون فى عهدة الناظر ويجردها شهرياً وعليه أن يحافظ على القابل للتلف منها .

∴

جاء فى تقرير حكاكيان افندى مدير المهندسخانة ما يلى :

« نظمت قانونا خاصا بالنظام الداخلى للمدرسة الكائنة تحت إدارتى وبأعمال معلميها وسائر خدماتها وقدمته فأرجو التصديق عليه بخاتم شورى المدارس وإعادته للعمل بموجبه فى حالة موافقته للأصول » .

وجاء فى جواب شكرى افندى :

صار الاطلاع على النظام المذكور الخاص بنظام المدرسة المذكورة الداخلى كما صار تنقيحه ويجب العمل بمقتضاه ، ولذلك أرى التصديق عليه بخاتم شورى المدارس وإرساله للمدير الموما إليه . وقد وافق على اقتراحه كل من استفان رسمى افندى والبك وصدر قرار بذلك ؟

١٧ محرم ١٢٥٢

نرجو إعادته بعد اطلاع الجناب العالى عليه ؟ ٢١ محرم ١٢٥٢

اطلع عليه جنابه وأعيد ؟ ٢٩ محرم ١٢٥٢

الملحق السابع

لائحة بترتيب مدرسة البيادة وتنظيمها[1]

الفصل الأول

البند الأول — فى وظيفة مدير المدرسة : على المدير أن يتعهد لديوان المدارس بالنظارة على جميع أعمال المدرسة وإدارتها وحساباتها وجميع شئونها وأن يقوم بجميع الخدمات اللازم تأديتها فى المدرسة حسب النظام وينفذ الأوامر التى يصدرها إليه ديوان المدارس سريعاً دون تأخير ولايخالف أى أمر من الأوامر الصادرة اليه ، وعليه أن يعاقب من يستحق تأديبه بعقوبة غير العقوبة التى ستعين فيما يلى بأن يجلده بما لايتجاوز الخمسة والعشرين جلدة بالكرباج حالا دون تأخير ليكون عبرة للآخرين . أما فى حالة لزوم جلد أحدهم أكثر من خمسة وعشرين كرباجاً أو معاقبته بعقوبة أخرى عليه أن يعرض أمره على ديوان المدارس لتعيين العقوبة اللازم معاقبته بها حسب الأصول .

البند الثانى — فى وظيفة المدير الثانى:[2] يكون المدير الثانى تحت نظارة المدير ويقوم بأعمال حكمدارية الأورطة وينوب عن المدير فى أعماله مدة غيابه ويراقب سير جميع الدروس التى تدرس فى المدرسة والتمرينات الحربية والأعمال العسكرية المهم معرفتها وتنفيذها علماً وعملا حسب القانون ، وعليه أن يهتم بهذا الأمر ولايهمل فيه أبدا ، وعليه أن يلاحظ قيام جميع من فى المدرسة الذين هم تحت إدارته بواجبهم حق القيام .

البند الثالث — فى وظيفة الباشخوجة (رئيس المعلمين) : يكون الباشخوجة تحت إدارة مديرى المدرسة ، ولا يدخل أى تغيير أو تبديل فى الدروس مالم يخبر المدير

---

(١) دفتر ٢٠٢٥ (مدارس تركى) ص ٨٥ رقم ١٧٦٠ فى ٢٣ جماد أول ١٢٥٣ قيدت هذه اللائحة بالدفتر باللغة التركية ونثبت هنا ترجمتها الى العربية .

(٢) أى وكيل المدرسة .

الثانى بذلك ، وعليه أن يعلم أنه يطلب منه مراقبة الدروس التى يدرسها جميع المدرسين والعمل على تقدم التلاميذ فى العلوم المذكورة حيناً بعد حين ليكونوا ملمين بها فى وقت قريب حتى يمكن الاستفادة منهم وأن يهتم بهذا كثيرا . وحيث أن المدير الثانى ملزم بتقديم التقرير اللازم عن سير العلوم المتنوعة ودرجة اجتهاد التلاميذ فيها إلى مجلس المدرسة الذى يعقد مرة كل شهر فعلى المعلم الأول أن يخبر المدير الثانى بكل تبديل أو تغيير .

الفصل الثانى

البند الأول — فى وظائف ضباط المدرسة وصف ضباطها : يتناوب اليوزباشية نوبتجية الأورطة حسب القانون ، ويتناوب ملازمو المدرسة الأعمال الخاصة بحراسة المدرسة ، ويراقب صاحب النوبة مسألة صمت التلاميذ وجلوسهم مؤدبين أثناء الدرس . ويجب أن يكون لكل بلوك نوبتجية أسبوعية مؤلفة من ملازم وجاويش وأنباشى ، وعلى الجاويشية أن يشتركوا فى أعمال النوبتجية مع الملازمين ريثما تتم الأورطة ، واشتراكهم فيها لا يعفيهم من أعمالهم الخاصة بهم .

البند الثانى — فى وظائف صولات المدرسة (صف ضباطها) : يعاون أحد صولات المدرسة اليوزباشى صاحب النوبة فى الأشغال العمومية ، وأحدهم يقوم بالأعمال التحريرية لكتابة تقارير المدرسة واليومية ومضبطة التأديب ، ويغير هذان الصولان كل أسبوع .

البند الثالث — يعين كل يوم جاويش نوبتجى على المطبخ لملاحظة طهى الطعام للعساكر طهيا جيدا ويعين أمين بلوك تحت عنوان نوبتجى لتنظيم يومية الأورطة وإيصالات الأصناف التى تخرج من المخزن على أن يصير تغييره كل أسبوع .

البند الرابع — على جميع ضباط المدرسة وتلاميذها اتباع القانون الداخلى فى أعمالهم الخاصة بهم سواء فى أثناء النوبة أو أثناء فراغهم ووجودهم فى خدمات البلوك ، ونظرا لعدم لزوم تطبيق جميع مواد القانون المذكور فى المدرسة على مدير المدرسة أن ينتخب المواد الضرورى تنفيذها فيها ويضع قانونا يعين فيه واجب كل إنسان ،

والحال أنه يطلب من التلاميذ عند نقلهم إلى الآلايات أن يكونوا ملمين بجميع مواد القانون ، ولذلك يجب تدريسهم القانون المذكور مادة مادة من أوله إلى آخره .

الفصل الثالث

البند الأول — فى أعمال الناظر والخدمة السايرة : على ناظر المدرسة أن يراقب المخازن وأنواع المهمات الأميرية ويحافظ عليها من التلف والضياع محافظة تامة ، ويكون وكيل خرج المدرسة وقبانيها (وزانها) وما شابههما من الخدمة تحت نظارته . وعليه أن يرشد كلا منهم إلى الأعمال المطلوبة منه وأن يعتنى بنظافة المدرسة من الداخل والخارج ويعـــلم أنه المسئول عن نظافتها من جهاتها الأربعة يومياً ويتجنب المخالفة .

البند الثانى — ويجب أن يكون الناظر حاضرا عند صرف تعيينات التلاميذ من كيلار المدرسة وأن يراقب وزنها بالقسط وصرفها كاملة باتباع الحق .

البند الثالث — يفتش الناظر على طعام التلاميذ عند طبخه وعليه أن يعتنى بحفظ طعامهم من ضياع أو تلف أو سرقة شيء منه ، وأن يزن اللحم والخضـار اليومية عند وصولها للمدرسة دون تأخير أو تخصيص وقت لوزنها ليعرف ما إذا كانت كاملة أو ناقصة ، وعليه أن يحضر تفريغ الطعام بعد طبخه .

البند الرابع — على الناظر أن يفتش على كوبات ماء العساكر قبل تعداد المساء ويأمر بملء الفارغ منها وبغسلها أربع مرات على الأقل فى الأسبوع .

البند الخامس — على الناظر المذكور أن يجرد كيلار المدرسة مرة فى الشهر وأن يخصم ما يوجد فيه من العجز أو النقص من ماهية من يقتضى خصمه من ماهيتهم وعليه أن يكون حاضراً فى الشونة عند صرف أرزاق التلاميذ منها .

البند السادس — عليه أن يخطر مدير المدرسة قبل حلول موعد صرف ملابس التلاميذ ولوازمهم الأخرى بشهر واحد كى يمكن جلبها فى موعد صرفها .

البند السابع — على وكيل خرج المدرسة أن يتجنب صرف درهم واحد لأى إنسان دون تصديق ناظر المدرسة وختمه ، وإذا وقع أى تلف أو ضياع فى الكيلار

أو إذا وقعت أية خسارة للحكومة يخصم الثمن من ماهية وكيل الخرج المذكور .

البند الثامن — على مأمور مستودع المدرسة (مخزنها) أن يرتب جميع المهمات الأميرية فى مواضعها ويعتنى بتمييزها طبقا للقانون ولا يقبل منه عذر بأى وجه من الوجوه ، وعليه أن لا يصرف شيئا من موجودات المستودع دون إيصال من الناظر مصدق ومختوم عليه من المدير .

البند التاسع — على رئيس طهاة المدرسة أن يطبخ طعام التلاميذ طبخا جيداً وأن يضع القدور والحلل وما شابهها من الأوانى النحاسية بعد الطعام فى الأماكن الخاصة بها ويحفظها وأن يضع الأرزاق والأقوات التى يستلمها من الكيلار فى مخزن المطبخ ويسلم مفتاحه للجاويش النوبتجى على المطبخ ، وإذا لزم له شىء منها يصطحب الجاويش المذكور ويفتح المخزن ويأخذ ما يلزمه منه ثم يقفل الجاويش المخزن وتوضع أطعمة التلاميذ فى القدور (القزانات) الخاصة بها بحضور الجاويش المذكور ثم تطبخ .

البند العاشر — إذا كسر أو فقد شىء من أدوات المطبخ يخصم ثمنها من ماهية رئيس الطهاة .

البند الحادى عشر : على رئيس فراشى المدرسة أن يكون موجودا فى المدرسة ويقوم بجميع الخدمات المطلوبة منه ، ويراقب نظافة المدرسة أربع مرات يوميا ، ويكلف من يلزم بغسيل الملابس ريثما يأتى الغسالون ، وعليه أن ينظم موائد التلاميذ قبل موعد الطعام بنصف ساعة على أن يكون كل شىء كاملا عند جلوس التلاميذ عليها.

البند الثانى عشر — على رئيس فراشى المدرسة أن يجزئ مرتب التلاميذ من الخبز إلى ثلاثة أجزاء ، فيصرف لكل تلميذ جزءاً فى وقت الظهر وجزءاً فى المغرب والجزء الثالث فى صباح اليوم التالى ، وعليه أن يهيئ جميع قناديل المدرسة ويشعلها قبل المغرب بربع ساعة ، وإذا طلب منه ناظر المدرسة أو وكيل خرجها عددا من الخدمة لحمل المأكولات بالمدرسة عليه أن يقدم له العدد المطلوب منهم .

الفصل الرابع

فى بيان أوقات الدروس والتمرينات

بما أن الأوقات المراد تخصيصها لدروس التلاميذ وتمريناتهم الحربية تختلف فى أيام الصيف عنها فى أيام الشتاء على أعضاء ديوان المدرسة أن يخصصوا الأوقات ويعينوها شهريا حسب الوقت .

الفصل الخامس

فى بيـــان موظفى المستشفى

البند الأول — أوامر مدير المدرسة تكون نافذة فى المستشفى كما هى نافذة فى المدرسة ، ويكون الطبيب والصيدلى والناظر وجميع الخدمة تحت نظارة المدير الموما إليه عملا بالبند التاسع والخسين من قانون المستشفى .

البند الثانى — ناظر المستشفى مسئول عن جميع المهمات الأميرية الموجودة فى المستشفى وعليهأن يعلم ذلك ويعمل بموجبه ، وكاتب المستشفى يقوم بجميع الأعمال الكتابية المتعلقة بمصالح الحكومة .

البند الثالث — على الناظر الموما إليه أن يتوجه إلى المستشفى قبل قدوم الطبيب إليه بنصف ساعة وأن يأمر بتنظيفه من جهاته الأربعة ويهيىء الأعمال الخاصة بعيادة المرضى أيضاً قبل قدوم الطبيب المذكور وأن يجهز طعام المرضى بالمقدار الذى يقرره الطبيب دون نقص أو زيادة .

البند الرابع — على الناظر المذكورأن يتوجه إلى المستشفى صباح كل يوم ومساءه وفى الليل أحيانا ويراقب المرضى وخدمة المستشفى وملازمتهم للسكون والهدوء وحضور جميع الخدمة ويعتنى عناية تامة بأن يكون الممرضون قائمين بأعمالهم خير قيام وأن لا يكون المرضى فى ضيق بأى وجه من الوجوه . وعليهأن يؤدب فى الحال من يعمل عملا مخالفا منهؤلاء ، وأما من يرتكب جنحة كبيرة فعليه أن يقدم تقريراً لمدير المدرسة بشأنه .

البند الخامس — على اليوزباشى النوبتجى بالمدرسة أن يتردد على المستشفى بالليل والنهار فى الأوقات المقررة ويراقب حالة المرضى ونظافتهم وما إذا كان هناك نقص فى الترتيبات الخاصة بهم وأن يستمع للمطالب والشكايات التى يعرضها عليه المرضى ويعمل على إجابة طلباتهم ويعرض ذلك على المدير . وعليه أن يعتنى بوصول حقوق المذكورين إليهم ويستقصى عما إذا كان هناك أى أمر يشكون منه ، ويحقق عما إذا كان طعامهم يصرف إليهم حسبما يقرره الطبيب أم لا .

البند السادس — مستشفى المدرسة معناه أنه مستشفى مخصص لتلاميذ المدرسة وضباطها وكبار ضباطها ومستخدميها فقط ولا يقبل فيه أى فرد من الخارج سواء كان ممن ينتسب إلى الجندية أم من أهالى البلد ، ولا يسمح لأى تلميذ أو ضابط بالذهاب إلى المستشفى المذكور . وخلاصة القول إنه لا يسمح لأحد بزيارة المرضى دون إذن من المدير .

البند السابع — تقدم لمرضى المستشفى الأطعمة التى يقررها لهم الطبيب ولا يسمح بادخال شىء إليهم من الأطعمة والفواكه من الخارج .

البند الثامن — على خدمة المستشفى أن يقوموا بواجباتهم طبقاً للقانون ، ويجب تعيين جاويش كل يوم لمراقبة طبخ طعام المرضى طبخا جيدا ووصول حقهم إليهم وذلك بموجب القانون الداخلى .

الفصل السادس

فى بيان أعمال الطبيب والصيدلى

البند الأول — على طبيب المستشفى المذكور أن يزور المستشفى مرتين كل يوم ، المرة الأولى تكون بعد شروق الشمس بنصف ساعة ، والمرة الثانية وقت العصر ، ويتبع هذا النظام فى الصيف والشتاء .

البند الثانى — على صيدلى المستشفى أن يحضر إليه قبل الطبيب بساعة واحدة ويهيىء الدفاتر اللازمة .

البند الثالث — يقدم حكيمباشى المستشفى تقريراً يوميا للمدير أو وكيله فى حالة غيابه عمن ينقلون إلى المستشفى الكبير (مستشفى قصر العينى) ومن يتوفون ومن

والمدة الواجب معافاتهم من خدمة الحكومة أثناءها ، وذلك عملا بالمادة الثمانين من القانون الداخلى .

البند الرابع — إذا مرض التلاميذ لا يعالجون فى غرفهم بل يجب نقلهم إلى المستشفى حالا .

البند الخامس — إذا وضع الحكيمباشى أحدهم فى السجن يجب أن يشعر المدير بمدة حبسه وسببه ، وإذا اقترف المرضى بالزهرى أو الأمراض الجلدية ذنبا يحبسون فى الغرف الخاصة بهم فى المستشفى ويؤدبون ، أما المرضى بالأمراض الأخرى فلا تتخذ ضدهم أية إجراءات فى حالة اقترافهم للذنوب لحين خروجهم ثم تتخذ هذه الاجراءات فى بلوكهم .

البند السادس — على الجراح أن يأخذ صباح كل يوم من أيام الصيف والشتا التذاكر التى يتركها له الباشجاويشية فى المخافر عن الأشخاص اللازم عرضهم عليه ممن يحتاجون إلى معونته ثم يزور الشكنة ، وفى أثناء زيارته هذه يعتنى بأنواع الطعام وبنظافة الغرف وهوائها ، وإذا كان هناك مرضى فى حبس المراقبة أو فى السجن أو فى الزنزان يخطره بهم حكمدار المخافر فيرسل من يجب إرساله منهم إلى المستشفى ، والطبيب الذى يمر فى المستشفى على الوجه المشروح أعلاه يعرض نتيجة مروره على المدير وعليه أن يطلب من البكباشى إخراج الأشخاص الذين يجب إرسالهم إلى المستشفى ولا تسمح حالتهم المرضية ببقائهم فى السجن .

البند السابع : إذا احتاج طبيب المدرسة إلى شىء من ديوان الأطباء يختص بالديوان يخطر مدير المدرسة بواسطة الصيدلى ويعرض المدير الأمر على ديوان المدارس

البند التاسع — (كذا فى الأصل) — إذا اقتضت الحال تغيير أحد هذه الترتيبات فليس للطبيب أو الناظر تلك السلطة ، بل هذا أمر يتوقف على إرادة مدير المدرسة الذى يجب عليه أن يخطر ديوان المدارس ، وإذا أهمل الطبيب أو الصيدلى فى أمر العيادة اللازم إجراؤها طبقا لمنطوق البند الأول من الفصل السادس يحبس فى المرة الأولى أربعة أيام بحبس المراقبة وثمانية أيام فى المرة الثانية ، وفى المرة الثالثة يعرض الأمر بتقرير على ديوان المدارس فيعاقبه ناظر المستشفى بالعقاب المقرر على الضباط .

الملحق الثامن

لائحة ترتيب الدروس

المقرر تدريسها لتلاميذ مكتب الزراعة يومياً [١]

البند الأول — الدروس المتنوعة :

عدد الساعات	
١,٥	إنه وان يكون درس النحو يدرس من الساعة الواحدة بعد شروق الشمس الى الساعة الواحدة والنصف ، يطلب من معلم النحو أن يظل فى المدرسة مع التلاميذ من الصباح حتى المساء ويدرس لهم التاريخ ويصحح إملاءهم .
١,٥	درس الزراعة المتنوعة من الساعة الواحدة والنصف الى الثالثة ، ويجب على مدرس هذا الدرس وهو المعلم الأول أن يقضى باقى ساعات اليوم فى ترجمة درس معلم النبات والمسائل الأخرى التى يسلمها اليه الناظر من الفرنسية إلى العربية .
١	درس علم النبات من الساعة الثالثة الى الرابعة ، وعلى المعلم الذى يدرس هذا الدرس أن يعلم التلاميذ علم النبات علما وعملا .
١,٥	درس الجغرافيا وتاريخ الفلسفة (كذا فى الأصل) من الساعة الرابعة الى الخامسة والنصف .
٥,٥	
١,٥	مدة طعام الغذاء والاستراحة للتلاميذ من الخامسة والنصف إلى السابعة .
١,٥	علم الحساب من السابعة إلى الثامنة والنصف ويطلب من المعلم الثانى تدريس هذا العلم .

---

(١) دفتر ٢٠٢٥ (مدارس تركى) س ٧٣ رقم ١٦٠٨ فى ٢٠ جماد أول ١٢٥٣ هذه ترجمة اللائحة المثبتة فى الدفتر باللغة التركية :

عدد الساعات

١,٥	درس الزراعة العمومية من الثامنة والنصف إلى العاشرة ، وإنه وإن يكن يطلب من ناظر المدرسة الزراعية والحقل النموذجي تدريس هذا الدرس إلا أنه يعذر فى حالة اشتغاله بسبب الأشغال الكثيرة للحقل والمكتب المذكورين .
١	مذاكرة التلاميذ دروسهم من الساعة العاشرة إلى الحادية عشرة
١	طعام العشاء واستراحة من الحادية عشرة إلى الثانية عشرة . .
١٢ ساعة	

البند الثانى — إذا أهمل المعلمون المطلوب منهم تدريس الدروس المذكورة أعلاه فى تدريسها فى الساعات المعينة ينبه عليهم فى أول مرة ، وفى المرة الثانية ينصحهم الناظر الموما إليه ، وفى المرة الثالثة يعرض أمرهم على ديوان المدارس .

البند الثالث — إذا أهمل التلاميذ إهمالا بسيطا أو كبيراً فى تعلم دروسهم يؤدبهم الناظر الموما اليه .

البند الرابع — نظراً لأن التلاميذ المذكورين قد أرسلوا لتعلم علم الفلاحة وتطبيقه على العمل يجب استخدامهم فى المدرسة وفى الحقل إذا اقتضى الأمر وذلك بناء على الأمر العالى والتعليمات .

البند الخامس — على التلاميذ المذكورين أن ينهضوا من فراشهم قبل شروق الشمس بنصف ساعة ويلبسوا ثيابهم ويغسلوا فى الحال أيديهم ووجوههم ثم يأخذوا معهم أدوات القراءة والكتابة ويذهبوا إلى المدرسة ويجلسوا فيها مؤدبين ويشتغلون بالقراءة والكتابة بسكون وصمت تامين .

البند السادس — يخرج التلاميذ المذكورون من المكتب بعد ظهر كل يوم خميس مثنى مثنى كى يحلقوا رؤوسهم ،وعند ما يحلق الاثنان الأولان ويرجعان للمدرسة يخبران بذلك الاثنين اللذين سيخرجان بعدهما ، وكلما حلق اثنان منهم يعودان إلى المدرسة وهلم جرا . ويبتدأ فى أمر الحلاقة بالباشجاويش ثم الجاويشية فالأنباشية فالتلاميذ بالترتيب .

البند السابع — على كل تلميذ أن يستحم فى الحمام مرة كل خمسة عشر يوماً وان يدفع أجرة الحمام من جيبه .

البند الثامن — يصف التلاميذ صباح الجمعة ويعاينون بمعرفة الطبيب ويرسل المريض منهم إلى المستشفى .

البند التاسع — رغم أن يوم الجمعة يوم عطلة للتلاميذ على التلميذ أن لا يبتعد عن باب الحقل أكثر من مائة خطوة دون الاستئذان من ناظر الحقل والمدرسة الزراعية .

البند العاشر . (١)

البند الحادى عشر — بعد أن يلبس التلاميذ ثيابهم أيام الجمع يخرجون من غرفهم إلى الميدان ويصطفون بهيئة طابور .

البند الثانى عشر — (٢) على التلاميذ المذكورين أن يقفوا فى الطابور حسب الأصول والنظام وأن يقف أمام الطابور الباشجاويش وجاويش وثلاثة أونباشية وأن يقف الجاويش الأول أمام البلوك الأول ، والأونباشى الأول عن يمينه ويكون الأنفار بمعية هذا الأونباشى ، ويتبع الجاويش الثانى والأونباشى الثانى والجاويش الثالث والأونباشى الثالث والجاويش الرابع والأونباشى الرابع نفس الحركة التى يعملها البلوك الأول .

البند الثالث عشر — على التلاميذ أن يسيروا بانتظام أثناء ذهابهم من غرفهم إلى المدرسة وأثناء عودتهم من المدرسة إلى غرفهم .

البند الرابع عشر — يجب ألا يخرج أى تلميذ من الدرس دون أعذار وفى حالة لزوم خروجه يخرج بعد الاستئذان من المعلم الذى يلقى الدرس فى ذلك الوقت بالمدرسة ،

---

(١) سقط البند العاشر من اللائحة لأن ديوان المدارس لم يوافق عليها . وقد جاء فيها « إن على التلاميذ أن يخيطوا ملابسهم وثيابهم ويرقعوها أثناء فراغهم » . وأشار الديوان بأن تعين المدرسة (ترزياً) بمرتب ٢٥ أو ٣٠ قرشا على أن يحضر المدرسة مرتين فى كل أسبوع لترقيع ثياب التلاميذ .

(٢) رأى الديوان أن عدد الضباط كبير بالنسبة لعدد التلاميذ البالغ عددهم فى ذلك الوقت ٣٣ تلميذا وأشار بالاكتفاء بجاويش وثلاثة أونباشية.

ومن يخالف هذه القاعدة من التلاميذ يؤدبه الناظر الموما إليه بجلده بما لايزيد على ٢٥ جلدة .

البند الخامس عشر — فى حالة عدم رؤية مستخدمى الحقل النموذجى والمدرسة الزراعية من معلمين وأسطوات والطبيب و (١) ووكيل الخرج والخزنجى والكتاب والقبانى والمزارعين الأعمال المطلوبة منهم يوميا أو فى حالة تغيب أحدهم دون إذن من الناظر الموما إليه أو فى حالة تضييعه الوقت دون إذن تخصم أجرة اليوم الذى يتغيب فيه من ماهيته .

البند السادس عشر — إذا وجد من يخالف لائحة الترتيب هذه ينبه عليه أول مرة ويؤدب تأديباً بسيطاً فى المرة الثانية وفى المرة الثالثة يعرض أمره على ديوان المدارس مع تفصيل سوابقه ويعمل بموجب الأوامر التى تصدر بحقه .

---

(١) كلمة غير مقروءة .

الملحق التـــاسع

ترجمة اللائحة (التعليمات) الخاصة بالخدمات الموكولة

بناظر مدرسة الطب البشرى (1)

مادة ١ ــ يعين ناظر واحد لمدرسة الطب البشرى .

مادة ٢ ــ يكون الناظر تحت إشراف مدير المدرسة ويكون مختصاً بشئون ضبط وربط المدرسة ويناط به الاشراف على نوم التلاميذ وقيامهم وتناولهم الطعام فى الساعات المحددة لذلك والاهتمام بنظافة صالات الأكل والنوم وطهارتها ونظام التلاميذ ونظافتهم أيضا والعناية التامة باحصاء التلاميذ صباحا ومساء على الوجه اللائق وبارسال من يصاب من التلاميذ بمرض فى الحال إلى المستشفى وبتحرير كشف بأسماء المرضى الذين لايحضرون الدروس وتعليقه فى حجرة الدراسة ليكون المعلمون على علم بهم .

مادة ٣ ــ يجب تعيين محل خاص فى حجر الدراسة ليتمكن تلاميذ المدرسة المصابون بالجرب أو بالزهرى من تلقى الدروس .

مادة ٤ ــ يشرف الناظر على ذهاب التلاميذ بهيئة طابور إلى حجرات الدراسة وصالات الأكل .

مادة ٥ ــ لا يأذن الناظر لأى تلميذ بالوقوف فى حجرة الصالة أو طرقة أو حوش فيما عدا أوقات الراحة .

مادة ٦ ــ على الناظر تنفيذ العقوبات التى توقع على التلاميذ ويجب أن تحرر هذه العقوبات فى كشف ويسلم للناظر بواسطة المعلم الذى يكون « نوبتجى الأسبوع » .

---

(١) دفتر ٢٠١١ (مدارس تركى) س ٧٢ قرار شورى المدارس الصادر فى ١٨ المحرم ١٢٥٣ ــ مترجمة عن التركية .

مادة ٧ — على الناظر أن يهتم جد الاهتمام براحة التلاميذ من كل وجه وبأن يكونوا فى نظام حسن ومطيعين وأن يشرف على التلاميذ أثناء التدريس حتى لا يكون أى تلميذ بعيداً عن الدروس .

مادة ٨ — الناظر غير مأذون بتوقيع أى جزاء على التلاميذ يكون مغايراً للعقوبات المنصوص عنها فى القانون .

مادة ٩ — الحلاق والترزى وصانع المراكيب (الأحذية) والطباخ وبالاختصار جميع خدمة المدرسة المنوط بهم نظافة صالات النوم والأكل وحجرات الدراسة (الفصول) وطهارتها يكونون تحت حكم وإشراف الناظر .

مادة ١٠ — كل الأشياء الموجودة بالمدرسة المتعلقة بالنوم وبملابس التلاميذ وكساويهم والأشياء الخاصة بصالة الأكل من طبالى وغيرها وآلات وأدوات المطبخ وكل المهمات والأدوات مثل الانارة والايقاد تكون تحت إشراف الناظر وهو المسئول عن طيبها ورديئها .

مادة ١١ — على الناظر أن يمر على المطبخ يوميا للتفتيش ليتأكد إن كان طعام التلاميذ يطهى ويجهز جيداً أم لا وعما إذا كان المرتب يصرف كاملا أم منقوصاً .

مادة ١٢ — يجب كنس صالة الأكل عقب كل طعام .

مادة ١٣ — يجب كنس حجرات النوم كل يوم عقب رفع المراتب .

مادة ١٤ — كذلك يجب كنس الفصول عقب كل حصة .

مادة ١٥ — ترفع المراتب صباح كل يوم بعد قيام التلاميذ من النوم وعلى الناظر ألا يأذن للتلاميذ بالنوم عليها فى النهار ، كما أنه يجب تطهير تلك المراتب من الحشرات كل أسبوع مرة أو كلما لزم الحال فى مرة أقل من أسبوع .

مادة ١٦ — يجب تغيير الأقمشة التى تغطى بها طبالى الطعام والفوط فى يومى الجمعة والثلاثاء .

مادة ١٧ — يجب غسل أدوات الطبالى المذكورة بالماء الساخن .

مادة ١٨ — على الناظر الاشراف على ملابس التلاميذ والأشياء الخاصة

بنومهم وأشيائهم الأخرى ووقايتها وإصلاح ما يحتاج منها إلى الاصـــلاح بدون تأخير .

مادة ١٩ — على ناظر المدرسة خصم ثمن الأشياء التى يتلفها التلاميذ أو يكسرونها مثل الملابس والأدوات والزجاج من مرتباتهم الشهرية .

مادة ٢٠ — يجب غسل زجاج نوافذ المدرسة كل ثلاثة شهور وتبييض حجرات النوم فى أوائل الربيع من كل سنة لازالة العفونة والأوساخ وقتل الحشرات وغسل بطانيات التلامذة فى آخر كل صيف وتنجيد مراتب النوم فى كل عام وغسل غلافاتها .

مادة ٢١ — على الناظر العناية بنظافة ملابس التلاميذ على الدوام والاهتمام برتق الفتق وخياطة الممزق ووضع الزراير بها .

مادة ٢٢ — على الناظر أن يهتم بأن يبدل التلاميذ ملابسهم الداخلية كالقمصان واللباسات أيام الجمعة فى زمن الشتاء ويومى الجمعة والثلاثاء فى زمن الصيف .

مادة ٢٣ — يجب غسل ملابس التلاميذ من البفتة مرة كل أسبوع وتغيير ملايات الفرش كل ١٥ يوم مرة فى زمن الصيف ومرة فى كل شهر فى زمن الشتاء .

مادة ٢٤ — يجب إجبار التلاميذ على غسل أيديهم وأرجلهم ووجوههم كل صباح وغسل أيديهم وأفواههم عقب كل طعام .

مادة ٢٥ — يجب على التلاميذ الذهاب مرة إلى الحمام كل ١٥ يوماً فى فصل الشتاء ومرة فى كل أسبوع فى زمن الصيف .

مادة ٢٦ — يجب على الناظر عمل التفتيش الأسبوعى بوجود مدير المدرسة كل يوم جمعة قبل مغادرة التلاميذ المدرسة .

مادة ٢٧ — على الناظر أن ينشىء دفترا يقيد فيه أسماء التلاميذ وأوصافهم وأعمارهم ومحال ولادتهم والاشارة أمام المتزوجين منهم وتاريخ دخولهم المدرسة وجميع مايطرأ عليهم من التغيير .

مادة ٢٨ — على الناظر أن ينشىء دفاتر أخرى عدا الدفتر السابق ذكره بحسب البيان الآتى :

دفتر الملابس : ويقيد فيه أسماء التلاميذ المنصرف لهم كساوى وتاريخ الصرف .

دفتر المئونة : ويقيد فيه أنواع المئونة المنصرفة إلى المدرسة والمنصرفة منها ومقاديرها وتاريخ الصرف .

دفتر المرضى : ويقيد فيه أسماء المرضى وأسماء الذين دخلوا المستشفى وتاريخ دخولهم فيها وخروجهم منها ونوع المرض ومدته .

دفتر الأجازات والفارين : ويقيد فيه الأجازات الممنوحة للتلاميذ وتاريخ منحها وأسماء الهاربين وتاريخ هروبهم وتاريخ عودة المقبوض عليهم فى الخارج إلى المدرسة .

دفتر الجزاءات : ويقيد فيه أسماء الفارين وأوصافهم والأسباب التى أدت إلى فرارهم والعقوبات التى وقعت عليهم ونوعها وتاريخ توقيعها ومقدار المبالغ المستقطعة من مرتباتهم .

مادة ٢٩ — تحرر طلبات صرف المئونة والأشياء الأخرى وتقدم لشورى المدارس .

مادة ٣٠ — ليس للناظر أن يتدخل فى الشئون التعليمية .

مادة ٣١ — حيث أنه لايجوز لمن يكون ناظراً أن يذهب كل ليلة إلى منزله للنوم وحيث أنه عين منذ أيام معاون للناظر فعليهما أن يتناوبا المبيت فى المدرسة .

الملحق العاشر

تقرير حافظ إسماعيل أفندى عن تفتيش مكاتب الغربية وقرارات شورى المدارس بشأنه (١)

بموجب قرار مجلس الملكية العالى ذهبت لفرز تلاميذ مكاتب الثلث الثانى والثلث الثالث من مديرية الغربية،(٢) وبما أن القانون ينص على أنه يجب أن يكون عدد المكاتب بالنسبة لعدد الأهالى تباحثت مع المدير فأجاب بأن فى مديرية الثلث الثانى غربية مكتبين : زفتى والمحلة الكبرى . ومن رأيه عدم إلغاء أحدهما لأن كلا البلدين عبارة عن بندر .

بدأت بمكتب زفتى فصففت تلاميذه وفرزت منهم ١٠ تلاميذ رأيت أنهم كبار السن وأرسلتهم الى ناظر القسم ليرسلهم عند الحاجة وأكدت عليه فى ذلك . وكان بالمكتب ٩٢ تلميذا ، وذكر الباشخوجة أن بالمكتب ١٢ تلميذا قليلى الفهم فأخرجتهم وكذلك ٣ مرضى و ٤ ضعاف الجسم ومرضى بالرمد ، وكان الحكيم على افندى حاضرا . وكان ينقص المدرسة عن الترتيب ثمانية فأصبح مجموع التلاميذ الناقصين ٣٧ تلميذاً . وكان مكتب نبروه من المكاتب التى ستلغى فأكملت من تلامذته حتى أصبح عدد تلامذة مكتب زفتى مائة ، وكان بالمكتب ثلاث خوجات فاستغنيت عن واحد منهم وعن طباخ زائد ، وأصبح للمكتب بواب وغسالان وفراشان وسقايان ومعلمان وناظر ووكيل خرج وكاتب وترزى وحلاق ، ولم يكن بالمكتب كاتب أو ترزى فنبهت على الناظر بتعيينهما ، وطلبت إلى المديرية الكشف عن مبانى المكتب بواسطة المهندس لترميمه .

وقسمت التلاميذ ثلاث فرق وكتبت أسماء التلاميذ وبلادهم وأسنانهم

---

(١) دفتر ٢٠٠٣ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٧ صفر ١٢٥٢ — أوردنا هذا التقرير وهو مترجم من التركية كنموذج لتقارير المفتشين ويظهر كيف تم تنظيم المكاتب فى سنة ١٢٥٢ (١٨٣٦)

(٢) كانت مديرية الغربية مقسمة إذ ذاك ثلاثة أقسام إدارية .

فى كشوف ، ونبهت على الناظر بأن يرفع إلى شورى المدارس تقريرا عما يقع من خير أو شر .

وفى ٥ صفر ذهبت إلى مكتب المحلة الكبرى وصففت التلامذة أيضا ، وانتخبت منهم ٢٠ تلميذاً أرسلتهم إلى ناظر القسم لكبر سنهم وأكدت عليه بأن يرسلهم عند طلبهم واستغنيت عن ١٦ تلميذاً لاصابة بعضهم بالقراع أو لقلة الفهم أو لضعف جسومهم . وكان بالمكتب ٨٥ تلميذاً فأصبح بنقصه ٥١ تلميذاً ، ولسد هذا النقص ألغيت مكتب كفر الشيخ وأكملت عدد تلاميذ مكتب المحلة ١٠٠ تلميذ . وقسمت التلاميذ ثلاث فرق وكتبت كشوفا بالدروس وسن التلاميذ ورتبت الخدمة اللازمين ونبهت على الناظر بتقديم تقرير لشورى المدارس عما يقع فى المكتب من خير أو شر .

وفى الساعة العاشرة من اليوم السابع من شهر صفر الخير ذهبت لمكتب كفر الشيخ ورأيت أنه ليس هناك أحد غير معلمين اثنين سألتهما عن التلاميذ فقالا إنهم ذهبوا لقضاء مصالحهم ، فأرسلت إليهم من يحضرهم ، ولما حضروا علمت منهم أنهم ذهبوا للاشتغال بالأعمال الزراعية . ولما سألت التلاميذ عن أحوالهم فى المكتب أجابوا بأن طعامهم لايقدم إليهم فى أوقاته المخصصة لتقديمه ، وأن طعام العشاء يقدم إليهم حوالى الساعة الثانية ليلا بعد المغرب ، حتى أن كثيرا من التلاميذ ينامون مبكرين لصغر سنهم ويبيتون بالجوع ، وعلاوة على ذلك فانى لاحظت أن وجوه جميع التلاميذ تشبه وجوه المصابين بالجدرى من آثار قرص الناموس الذى يغزوهم ليلا ، وأن عشرة منهم قد أصبحوا طريحى الفراش بسبب ذلك . وعليه يلزم إلغاء المكتب المذكور فألغيته ، وأدخلت ٥١ تلميذاً من تلاميذه فى مكتب المحلة الكبرى ، فأكملت بذلك عدد تلاميذه (المحلة) مائة تلميذ . وأرسلت ثلاثين تلميذاً من مكتب كفر الشيخ لناظر القسم لكبر سنهم ونبهت عليه بارسالهم حال طلبهم وأخرجت ١٣ تلميذاً آخرين سبعة منهم قليلو الفهم وستة مرضى . وقد شكا إلى خمسة عشر تلميذاً بأن مشايخ قراهم أخذوا منهم مرتباتهم عند صرفها إليهم ، فلزم قيد ذلك فى التقرير ، فذكرت فيما يلى أسماء التلاميذ الذين أخذت منهم نقود

من ضمن الواحد والخمسين تلميذا المذكورين ، وأوضحت مبلغ النقود المأخوذة منهم وأسماء المشايخ الذين أخذوها (وذكر أسماءهم وهم ١١ تلميذاً أخذ منهم ٣٦٥ قرشا) . وهؤلاء التلاميذ موجودون فى مكتب المحلة الكبرى وقد طلبوا منى المبالغ التى دفعوها (أى التى أخذت منهم) ، فطمأنتهم بأن نقودهم سترد إليهم . وخلاف ذلك فانى لما صففت التلاميذ فى ذلك اليوم وبينما كنت أمر عليهم استأذن أحد ممن قلت عنهم إنهم مرضى وخرج من باب المكتب ، فقابله شيخ البلد فى السوق وسلب طربوشه عن رأسه وزعبوطه عن ظهره وحذاءه من قدميه ، فرجع التلميذ المذكور يبكى ، فأرسلت وراء الشيخ المرقوم وأحضرته وضربته عدة جلدات بالعصا واستردت منه الطربوش والزعبوط وأرجعتهما للتلميذ ، أما الحذاء فانه كان قد باعه لجعله يخلع حذاءه ويسلمه للتلميذ . وكان المعاون سليم أفندى وموسى قبودان حاضرين فى ذلك الوقت ، وبذلك صار إلغاء المكتب المذكور .

وفى العاشر من شهر صفر الخير ذهبت لمكتب نبروه ، ونظرا لتفشى الوباء فى المكان المذكور وصلت إلى مكان قريب من القرية المذكورة واستدعيت تلاميذ المكتب المذكور فى القرية وفرزتهم ، فأرسلت منهم ٢٤ تلميذاً لناظر القسم لكبر سنهم وأكدت عليه بارسالهم عند طلبهم ، وأرى من المناسب طلبهم فى هذه الأيام لأن المرض يتفشى بكثرة فى تلك القرية إذ تخرج منها كل يوم عشر جنازات أو اثنتا عشرة جنازة . وقد أرسلت ٣٧ تلميذاً إلى مكتب زفتى فأصبح عدد تلاميذ مكتب زفتى مائة تلميذ ، لأننى علمت أن مكتب نبروه أشد من مكتب كفر الشيخ سوء حالة . وقد علمت أن ١٣ تلميذاً من تلاميذه طريحو الفراش من الوباء المعهود وأن خمسة تلاميذ قد توفوا بهذا الوباء ، ورأيت أن تسعة تلاميذ قليلو الفهم وستة مرضى بمرض غير الوباء ولكنهم ضعاف الجسم واثنين مصابان بالرمد ، أما الكتب الموجودة فى المكتب المذكور فسيصير تسليمها لناظر مكتب زفتى ، ويؤخذ منه الايصال اللازم بتسلمها وقد نبهت عليه بتسليم أدواته الأخرى إلى الشونة .

١٤ صفر ٥٢ — المخلص

(خاتم) — حافظ اسماعيل

مفتش المكاتب

وقد قدم هذا التقرير إلى البك ناظر شورى المدارس .

وقد أجاب أستفان افندى قائلا :

« علمت مضمون تقرير الأفندى الموما إليه وعلمت منه أنه ألغى مكتبى نبرو وكفر الشيخ الكائنين فى قسم ثالث غربية وأكمل بتلاميذهما عدد تلاميذ مكتبى زفتى الكبرى بقسم ثانى الغربية . . . . وانتخب من تلاميذ المكاتب الأربعة ٨٧ تلميذاً لارسالهم إلى المدرسة التجهيزية . . . . ونظراً لأن ترتيب مكتبى زفتى والمحلة الكبرى موافق ومطابق للقانون أرى :

أولا — إشعار المفتش الموما إليه بما يلى :

(أ) إبلاغ عدد تلاميذ المكتبين المذكورين إلى مائتى تلميذ وتقسيمهم إلى ثلاث فرق كما وضحه فى تقريره وتعيين ماهية كل تلميذ بالنسبة للفرقة المنتسب اليها وتعيين معلميها وخدمتها طبقا للقانون .

(ب) أن ينبه على كل من ناظرى المكتبين المذكورين بأن يرسل آخر هذا الشهر تقريراً لشورى المدارس يوضح فيه ماهية تلاميذ مكتبه ومدرسيه وطريقة تعليم التلاميذ ودرجة مقدرتهم وقابليتهم وغير ذلك مما يقع فى المكتب .

(حـ) بما أن القانون يقضى بأن يكون ترتيب المكاتب بالنسبة لعدد سكان كل مديرية فلا يجوز إلغاء مكتبى ثلث ثالث الغربية دفعة واحدة ، ونظراً لأن مكتبا واحدا يكفى للمديرية المذكورة لأن عدد سكانها قليلون بالنسبة لعدد سكان الثلث الثانى ، ونظراً لأن موضع مكتب كفر الشيخ غير موافق أرى إشعاره بالغاء مكتب القرية المذكورة والاستغناء عن معلميه وخدمته وتسليم موجوداته لناظر القسم مؤقتا وإرسال كشف لشورى المدارس بمفردات تلك الموجودات لصرفها للجهات اللازمة وكشف آخر بالأدوات الناقصة فى المكاتب الثلاثة الأخرى .

(د) إن ما ذكره المفتش المومى إليه عن الأعمال التى ارتكبها مشايخ كفر الشيخ أمر يوجب الاستغراب ، وبما أنه يجب معاقبة من يرتكب مثل هذه الأعمال القبيحة أرى إشعاره بالتحقيق فيما ارتكبوه من الأعمال بحضور مدير المديرية المذكورة وتسليم التلاميذ حقوقهم بعد استردادها من المشايخ المذكورين وإرسال محضر

التحقيق إلى شورى المدارس بعد توقيعه ممن يكون حاضراً حتى تقرر العقوبة اللازم معاقبتهم بها .

(ه) إشعاره بابقاء مكتب نبروه التي يرجى أن يكون الوباء قد زال منها، وطلب تلاميذ له بدل الواحد والثلاثين تلميذا الذين نقلهم إلى مكتب زفتى والأربعة والعشرين تلميذاً الذين سلمهم لناظر القسم لكبر سنهم، وإبلاغ عدد تلاميذ المكتب المذكور إلى مائة تلميذ وتنظيمه أسوة بمكتبي المحلة الكبرى وزفتى .

(و) نظراً لحاجة مكتب زفتى إلى الترميم أرى إشعاره بالتنبيه على ناظر القسم بمعاينة المكتب المذكور بواسطة المهندس وإشعار ديوان المدارس بمقدار المصروفات التي يمكن ترميمه بها .

(ز) بأن ينبه على ناظر القسم بارسال ٦٣ تلميذاً من الـ ٨٧ تلميذاً الذين انتخبوا لارسالهم إلى المدرسة التجهيزية إلى قصر العينى حالا وإرسال الباقين أى الأربعة والعشرين تلميذاً المنتخبين من مكتب نبروه إلى المدرسة التجهيزية بعد زوال الوباء نهائيا .

(ح) أن يرسل الثمانية والأربعين تلميذاً الذين قال عنهم إنهم ذوو عاهة أو قليلو الفهم إلى ديوان الجهادية .

(ط) أن يتوجه إلى المنوفية بعد ترتيب المكاتب المذكورة ويرتب المكاتب الموجودة فيها بموجب القانون من غير أن يلغى أحدها نظراً لكثرة عدد سكانها ويرسل تقريره عن ذلك إلى شورى المدارس .

ثانيا — إخطار مديرى الثلث الثانى والثلث الثالث بهذا القرار .

ثالثا — إشعار مدير مدرسة التجهيزية بالكشف على الـ ٦٣ تلميذا المذكورين بمعرفة الطبيب عند وصولهم وقبولهم بالمدرسة واختبارهم وإشعار شورى المدارس بدرجة مقدرتهم .

رابعا — إشعار الباشا الوكيل (وكيل الجهادية) بقيد من يصلح للجندية

من الـ ٤٨ نفراً المذكورين عند وصولهم وإلحاق ذوى العاهة منهم بمعيهى الجهادية .

وقد صادق على اقتراحه كل من أرتين شكرى افندى والبك الناظر وصدر قرار بذلك ؟

١٧ صفر ١٢٥٢

المرجو إعادته بعد اطلاع الجناب العالى عليه ؟

٢٠ صفر ١٢٥٢

اطلع عليه الجناب العالى وأعيد ؟

٢٨ صفر ١٢٥٢

الملحق الحادى عشر

تقرير عن امتحان مدرسة المهندسخانة

سنة ١٢٥٢ (١٨٣٦ م)[1]

تقرير أعضاء لجنة الامتحان المؤلفة من ناظرها المسيو لوبر عضو شورى المدارس وناظر الامتحان والمهندس لينان أفندى ومعاون المهندس المسيو لامبر ومصطفى بهجت أفندى مدير مدرسة المدفعية وحسن أفندى اللوزى معلم الهندسة بمدرسة المدفعية وحكاكيان أفندى مدير المهندسخانة وبيومى أفندى معلم الهندسة وعبد الرحمن أفندى معاون المدير وعبد الوهاب أفندى المعلم بالمهندسخانة الخديوية وحسن أفندى الوردانى والشيخ أحمد ، التى اجتمعت فى غرفة الامتحان حوالى الساعة الرابعة من اليوم الرابع والعشرين من شهر شعبان سنة ٥٢ عن ترتيب الامتحان .

اتفق أعضاء لجنة الامتحان بعد المداولة على الترتيب المحرر أدناه :

انقسم أعضاء لجنة الامتحان ثلاثة أقسام : القسم الأول برئاسة لينان افندى وعضوية حسن افندى الغورى وعبد الرحمن افندى ، والقسم الثانى برئاسة مصطفى بهجت افندى وعضوية حسن افندى الوردانى والشيخ أحمد افندى ، والقسم الثالث برئاسة المسيو لامبر وعضوية بيومى افندى وعبد الوهاب افندى . وبما أن أعضاء لجنة الامتحان استنسبوا تعيين معاون لمساعدة الممتحن فقد عينوا إبراهيم رمضان افندى للقسم الأول وأحمد فايد أفندى للقسم الثانى ، وقد تخصص كل من رئيس لجنة الامتحان ومدير المهندسخانة الخديوية للطواف على هذه الأقسام الثلاثة بصورة دائمة .

وقد بدأ الامتحان بعد توزيع تلاميذ الفرق الثلاثة على هذه الأقسام الثلاثة ، وقد حضر للمدرسة حضرة ناظر شورى المدارس أثناء الامتحان ، وظل الامتحان

---

(١) دفتر ٢٠٢١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٥ ذى القعدة سنة ١٢٥٢ أوردنا هذا التقرير ـ وهو مترجم من التركية ـ كنموذج لتقارير امتحانات المدارس.

تحت رئاسته ، ودام الامتحان لغاية الساعة الحادية عشرة ، وقبل انفراط عقد الجمعية تعهدوا بالحضور للمدرسة الساعة الثالثة من صباح اليوم التالى الموافق ٢٥ شعبان ووقع كل منهم على هذا التعهد .

وفى الساعة الرابعة من صباح اليوم التالى الموافق ٢٥ شعبان اجتمعوا فى غرفة الامتحان وعين كل من عبد الوهاب أفندى المعلم الأول بمدرسة السوارى وحسن أفندى معلم مدرسة الألسن والشيخ محمد أفندى معلم المدرسة التجهيزية لاجراء امتحانهم فى اللغة العربية ، وبعد أن عينت أماكن الأفندية المذكورين بدأوا فى الامتحان وانتهوا فى الساعة ١١ والدقيقة ١٥ ، وتعهدوا بالحضور فى الساعة الثالثة من اليوم التالى الموافق ٢٦ شعبان ووقعوا على هذا التعهد .

وفى الساعة الثالثة من صباح اليوم التالى ٢٦ شعبان حضر أعضاء لجنة الامتحان وبدأوا فيه ، وانتهوا منه فى الساعة الحادية عشرة ، وتعهدوا بالحضور فى الساعة الثالثة من صباح اليوم التالى ٢٧ شعبان ووقعوا على هذا التعهد .

وفى الساعة الثالثة من صباح اليوم التالى ٢٧ منه اجتمعوا فى غرفة الامتحان لتصفية أعمال الامتحان ، ولما تمت فى الساعة العاشرة جمع رئيس الامتحان العلوم التى صار امتحانهم فيها ورجا أعضاء لجنة الامتحان الحضور فى اليوم التالى لاظهار النتيجة وإتمام تقارير الامتحان وقد تعهدوا بالحضور ووقعوا بامضاءاتهم .

وفى الساعة الرابعة من اليوم الثانى والعشرين من شهر شعبان اجتمع أعضاء لجنة الامتحان لاظهار نتيجته وقد ظهرت كما يلى :

دروس الهندسة :

فى الفرقة الأولى التى تضم ٣٧ تلميذا ظهر أن ١٠ منهم من درجة عال العال (جيد جيداً) و ١٠ من دوجة لعا (جيد) و ١٠ من درجة وسط و٣ من درجة دون و ٤ من درجة دون الدون .

والفرقة الثانية التى تضم ٣٤ تلميذا ظهر أن واحدا منهم من درجة عال العال و ٥ من درجة عال و٦ من درجة وسط و ١٢ من درجة دون و١٠ من درجة دون الدون .

والفرقة الثالثة التى تضم ٣٠ تلميذا ظهر أن ٧ منهم من درجة عال العال و٢من درجة عال و٥ من درجة وسط و٤ من درجة دون و١٢ من درجة دون الدون .

وفرقة الرسم الخطى التى تضم ٩ تلاميذ ظهرت نتيجتهم فى أعمال الرسم والهندسة ٢ من درجة عال و ٢ من درجة وسط و ٤ من درجة دون و ١ من درجة دون الدون .

ومجموع عدد التلاميذ المذكورين أعلاه ١١١ تلميذا ١٨ منهم من درجة عال العال و ١٩ من درجة عال و٢٣ من درجة وسط و٢٢ من درجة دون و٢٧ من درجة دون الدون .

دروس الجغرافيا :

فى الفرقة الأولى التى تضم ٣١ تلميذا ظهر أن ١٥ منهم من درجة عال العال و ٤ من درجة عال و٧ من درجة وسط و٣ من درجة دون و ٢ من درجة دون الدون.

فى الفرقة الثانية التى تضم ١٩ تلميذا ظهر أن ٢ منهم من درجة عال العال و٣ من درجة عال و ٩ من درجة وسط و٣ من درجة دون و ٢ من درجة دون الدون .

والفرقة الثالثة التى تضم ٢٠ تلميذا ظهر أن واحداً منهم من درجة عال العال و ٢ من درجة عال و ٨ من درجة وسط و ٥ من درجة دون و ٤ من درجة دون الدون .

ومجموع التلاميذ الذين يتعلمون الجغرافيا ٧٠ تلميذاً ١٨ منهم من درجة عال العال و ٩ من درجة عال و ٢٤ من درجة وسط و ١١ من درجة دون و ٨ من درجة دون الدون .

دروس الرسم الخطى :

فرقة الرسم الخطى وتضم ١٥ تلميذا ظهر أن منهم ٣ من درجة عال العال و ٥ من درجة عال و٧ من درجة وسط .

الرسم الشخصى :

يضم ٤١ تلميذا ظهر أن ١٠ منهم من درجة عال العال و ١٣ من درجة عال و ١٨ من درجة وسط .

وظهر أن ثلاثة من فرقة الحفارين المؤلفة من ٩ تلاميذ درجتهم فى الرسم عال العال و ٣ درجتهم عال و ٢ درجتهم وسط .

ومجموع تلاميذ الرسم الشخصى ٥٠ تلميذا ١٣ منهم عال العال و ١٦ عال و ٢٠ وسط . ويوجد ١٩ تلميذا عدا هؤلاء الخمسين يشتغلون فى الرسم الشخصى غير أن أعمالهم لم تتم ولم تعرض ولذلك لم تعرف الدرجات التى يستحقونها .

دروس اللغة العربية :

الفرقة الأولى تضم ٣٠ تلميذا ظهر أن ٢٨ منهم درجتهم عال و ٢ من درجة وسط .

والفرقة الثانية ٣٦ تلميذا منهم ٢٦ من درجة عال و ٧ من درجة وسط و ٣ من درجة دون .

والفرقة الثالثة ٣٠ تلميذا ١٢ منهم من درجة عال و ١٠ من درجة وسط و ٨ من درجة دون .

ومجموع عدد التلاميذ الذين يتعلمون العربى ٩٦ تلميذا ٦٦ منهم من درجة عال و ١٩ من درجة وسط و ١١ من درجة دون

ولدى ظهور هذه النتيجة علم أن ثلث عدد التلاميذ الذين يتعلمون الهندسة من درجتى عال العال وعال ، وأن أكثر من ثلث من يتعلمون الجغرافيا من درجتى عال العال وعال ، وأن أكثر من نصف طلبة الرسم الخطى درجتهم عال وكذلك طلبة الرسم الشخصى ، وأن ثلث طلبة العربى درجتهم عال . غير أنه ظهر لأعضاء لجنة الامتحان أن عدد التلاميذ الذين يتعلمون الهندسة من المائة والسبعة والأربعين تلميذاً الموجودين بالمهندسخانة ١١٠ فقط . وسألوا مدير المهندسخانة الخديوية عن هذا الفرق فأجاب أن ٢٠ تلميذاً من الـ ١٤٧ خصصوا لتعلم صنعة المعيار و ١٠ صنعة الحفر و ٤ لاعادة دروس الرسم الشخصى و ٤ آخرين مضت على إقامتهم بالمدرسة سنتان دون أن يتعلموا القراءة والكتابة (كذا) . وقد رأوا أيضا أن عدد التلاميذ الذين يتعلمون الجغرافيا ٧٠ تلميذاً فقط ورأوا أن ملاحظته التى أبداها كانت خاصة بالدرس الأول ، ولذلك سألوه عن السبب فأجاب أن الـ ٣٧

تلميذاً المذكورين أعلاه لايتعلمون هذا العلم أيضا لأنهم لايتعلمون جميع الدروس و ٢٠ تلميذاً لتعلم صنعة الميكانيكا و ٢٠ تلميذاً آخرين حرموا من دروس الجغرافيا للتخصص فى علمى الرسم الخطى والهندسة ليكونوا نواب معلمين (معيدين) وقد تحققوا من جواب المدير أنه لابد وأن يكون هناك مثل هذا الفرق فى فرق تعليم التلاميذ المختلفة ولذلك رأوا أن لايكرروا الأسئلة عليه . ولكن علمت حقيقة مرة وهى أنه يوجد من بين الـ ١٤٧ تلميذا الموجودين فى المهندسخانة من هم بدرجة عال ولا يتعلمون العلوم التى يجب على تلاميذ المهندسخانة تعلمها ، وقد أوضحت بيانهم فيما يلى :

٢٠ تلميذا لصنعة المعيار   ٢٠ تلميذا لصنعة الميكانيكا أو الدواليب (الآلات)

١٠ لصنعة الحفر   ٦ أغبياء وكبيرو السن

وقد ختم تقرير الامتحان هذا فى الساعة الحادية عشرة من ٢٨ شعبان ووضع رئيس لجنة الامتحان وأعضاؤها أختامهم عليه .

وفيما يلى بيان التلاميذ الكبيرى السن الذين لايصلحون للهندسخانة :

ميلاد الحدى : مصاب بالرمد ولا يقرأ ولا يكتب .

محمد مصطفى : تلميذ الرسم الخطى درجته دون ولا يعلم شيئا عن الدروس الأخرى رغم دخوله المدرسة منذ افتتاحها .

سليمان سوكه : ذو عاهة ولا يقرأ ولا يكتب .

على كافو : لايقرأ ولا يكتب .

قاسم جميعى : ذو عاهة ولا يصلح للمدرسة .

سليمان حسن : درجته دون فى دروس الهندسة والجغرافيا ووسط فى العربى ولا يعرف شيئا فى الرسم .

حرر هذا التقرير بمعرفة أعضاء لجنة الامتحان ووضع الجميع أختامهم عليه ، (ويلى ذلك أختامهم) .

تقرير المسيو لوبير :

قدمت تقرير امتحان تلاميذ المهندسخانة الخديوية التى انتدبت لامتحانهم

لمقامكم الكريم بعد تنظيمه وسيثبت لكم من الاطلاع على التقرير المذكور أن التلاميذ المذكورين قد أجابوا فى الامتحان جوابا لا بأس به بالنسبة للمدة التى مضت على دخولهم المدرسة وذلك بفضل همم معلميهم . وللاستفادة من تلاميذ المدرسة المذكورة فى مدة قصيرة يجب تخصيص درجاتهم بالنسبة لأجوبتهم فى الامتحان بموجب التقرير المذكور وترتيب الدروس المراد تدريسها لهم فى السنة الدراسية المقبلة وتحديدها ولتخريج التلاميذ الذين يؤمل الاستفادة منهم يلزم الاستغناء عن الستة تلاميذ المذكورين لعجزهم عن اتقان علومهم لضعفهم وكبر سنهم . ولكن فى حالة طردهم دفعة واحدة يسلك التلاميذ الآخرون طريق الكسل ولذلك أرى إرسالهم لشورى الأطباء للكشف عليهم واستخدام من يصلح للصانع فيها ومن لا يصلح لها بمرضاً فى المستشفيات

وفى حالة خروج التلاميذ الستة المذكورين من المدرسة يكون باقى التلاميذ ١٤١ تلميذا مع أن القانون يقضى بأن تضم المهندسخانة ٢٢٥ تلميذا ، ولكن حكاكيان افندى مدير المدرسة المذكورة أجاب بأنها لا تتسع لاقامة هذا العدد من التلاميذ . غير أنه يمكن نقل العشرين تلميذا الذين يتعلمون فن القبانى (المعيار) إلى الدور الأسفل وعلى هذا تصير المدرسة متسعة لاقامة ١٦٧ تلميذا ولذلك أرى نقل التلاميذ المذكورين إلى المكان المذكور حسب طلب المدير والترخيص لهم بانتخاب ٢٦ تلميذاً من المدرسة التجهيزية بدل هؤلاء العشرين المراد نقلهم والستة المراد إخراجهم من المدرسة . وفى حالة ترتيب التلاميذ على هذا الوجه يكون مجموعهم ١٦٧ تلميذاً يتعلم ٢٠ منهم فن المعيار والـ ١٤٧ الباقون يتعلمون العلوم المقرر تدريسها فى المدرسة وأرى تقسيم الـ ١٤٧ تلميذاً المذكورين فى السنة الدراسية الجديدة إلى ثلاث فرق دراسية بموجب كشف بيان الدروس المقرر تدريسها الذى استصوب شورى المدارس العمل بموجبه .

فتتألف الفرقة الأولى من ٢٦ تلميذاً يتعلمون العلوم المتنوعة الجارى تدريسها بالمدرسة ليتخرج منهم مدرسون وخلفاء (معيدون) وتتألف الفرقة الثانية من ٢٠ تلميذاً لاستخدامهم فى سنة ١٢٥٥ فى الورش والمصالح المختلفة بوظيفة مهندسين

ميكانيكيين وذلك بناء على الارادة السنية ، وتتألف الفرقة الثالثة من ٩١ تلميذا على أن يتخرج منهم كل عام ٢٠ مهندسا اعتباراً من العام المقبل لاستخدامهم فى مصالح القناطر ، وتعليم كل من هذه الفرق العلوم المذكورة فى اللائحة العمومية التى قررها المجلس والاستغناء عن المدرسين الأجانب الذين يدرسون مختلف الدروس المقرر تدريسها فى المدرسة وتعيين مدرسين لها فى السنة الدراسية القادمة من التلاميذ الذين أرسلوا ببعثة إلى فرنسا ورجعوا قبل إتمام دراستهم وعينوا بمعية المسيو لامبير لتكميل علومهم لانهم أصبحوا أقوياء فى العلوم ومن غيرهم من الذوات وذلك بناء على رأى أعضاء لجنة الامتحان وتخصيص كل منهم لدرس يدرسه كما هو موضح أدناه .

الفرقة الأولى :

أرى تعيين بيومى أفندى للميكانيكا والهندسة الوصفية والمساحة وأحمد طائل أفندى للطبيعة وأحمد فايد أفندى للكيمياء واستخدام تلميذين من تلاميذ كل من هذه الدروس فى إعادتها .

الفرقتان الثانية والثالثة :

أرى تعيين إبراهيم رمضان أفندى لتعليم رسم الخرائط والرسم الخطى وأحمد دوقلى أفندى لأعمال البناء وعبد الرحمن أفندى لأعمال الآلات والادارة واستخدام تلميذين كذلك من تلاميذ كل من هذه الدروس لاعادتها .

ولتدريس الدروس المذكورة أعلاه كما يجب تدرس بمعرفة المعلمين السالف ذكرهم على أن تكون دروس الطبيعة والكيمياء والخرائط تحت نظارة المسيو لامبير وفن البناء تحت نظارة حكاكيان أفندى وبصير تعليمهم العلوم الأخرى التى يتعلمونها بمعرفة معلميهم ، وهذه العلوم السالف ذكرها بدرس عند افتتاح المدرسة فى الأوقات المخصصة لها فى لائحة الترتيب .

أما علما الطبيعة والكيمياء الجارى تدريسهما فى المدرسة فانه لايمكن تدريسهما ما دامت لاتوجد فى المدرسة غرفة للطبيعة وأخرى للكيمياء ، وتوفيراً للمصروفات الكثيرة على الحكومة واتخاذاً للتدابير اللازمة لتدارك الأدوات اللازمة لتعليم

الطبيعة والكيمياء أرى جمع أعضاء شورى الأطباء ومدير مدرستى الطب البشرى والطب البيطرى والاستفسار منهم عما إذا كان من الممكن نقل إحدى غرفتى الطبيعة وإحدى غرفتى الكيمياء الموجودة فى كل من المدرستين المذكورتين وأرى أيضاً الكتابة لكل من حكاكيان أفندى مدير المهندسخانة والمسيو لامبير ورأفت أفندى وكيل المدرسة التجهيزية بأن ينفذ كل منهم ما يخصه من الأعمال التى قررها شورى المدارس والتنبيه على حكاكيان أفندى بارسال كشف إلى الشورى ببيان الكتب المذكورة أعلاه حول تعليم التلاميذ وتعلمهم .

جواب أستفان رسمى أفندى :

بمناسبة استدعاء من يلزم من المهندسين وقراءة تقرير امتحان المهندسخانة بحضورهم وموافقتهم عليه وكتابة المسيو لوبير لملخص القرار على الوجه المشروح وترجمته يجب إصدار القرارات اللازمة فى الموضوع . إلا أنه بينما كان تقرير الامتحان وتقرير المسيو لوبير المومأ اليه تحت الترجمة طلب حكاكيان أفندى إعطاءه ٣٢ تلميذاً علاوة على الـ ٢٦ تلميذاً حتى يبلغ مجموعهم ٥٨ تلميذاً وهذا العدد الذى تقرر تهيئة أماكن لهم فى المدرسة وطلبهم من المدرسة التجهيزية . وبما أن التلاميذ المذكورين قد أعطوا اليه لوجاهة طلبه لا يلزم إصدار قرار لمدير المدرسة التجهيزية بشأن قبول التلاميذ وبما أن بعضا من التلاميذ المراد إخراجهم من المدرسة لا يليق استخدامهم فى أعمال ذوى العاهات بالجهادية لأنهم من أولاد التجار بالأسكندرية وبما أنه قد تحقق أنه لا يمكن أن يستفيدوا شيئا مهما أمضوا من المدة فى المدرسة أرى وجوب إرسالهم إلى الأسكندرية. وقد تحقق أثناء المذاكرة فى تقارير امتحان مدرستى الطب البشرى والبيطرى بحضور حضرات أعضاء شورى الأطباء أنه لا لزوم لأن يدرس كل من تلاميذ المدرستين المذكورتين على الطبيعة والكيمياء فى غرفة مستقلة بل فى الامكان جمعهم فى غرفة واحدة وتدريس العلمين المذكورين لهم . ولذلك فليس هناك لزوم لجمع أعضاء شورى الأطباء ومديرى المدرستين المذكورتين للمذاكرة فى هذا الموضوع مرة أخرى ، بل يجب طلب كشف ببيان أدوات الطبيعة والكيمياء . ولذلك فاننى أستنسب أن يدرج فى

القرار المراد إصــداره لحكاكيان أفندى طلب إشعار شورى المدارس بأسماء التلاميذ المذكورين وسنهم وأسماء آبائهم لاصدار القرارات اللازمة لارسال أولاد التجار منهم إلى الأسكندرية والآخرين إلى الجهادية لاستخدامهم فى خدمات ذوى العاهات فيها . والرأى على كل حال لحضرات أعضاء المجلس .

وقد وافق على كلامه كل من سليم بك ومحمد أمين بك والبك وصدر قرار بذلك ؟

الملحق الثانى عشر

أمر عال بالغاء مدارس ومكاتب المبتديان ومدرستى الموسيقى والتجهيزية [1]

إن هذا الترتيب قد وضعته اللجنة المنعقدة بحضور حضرة صاحب الدولة نجلنا الباشا السر عسكر لأجل ديوان المدارس ، ولما عرض علينا رأينا أن القرار الصادر منها بالغاء مكاتب المبتديان الكائنة بالأقاليم وبالسيدة زينب ومدرسة الموسيقى إلغاءً تاماً وإلغاء مدرسة التجهيزية أيضا وتوزيع التلاميذ على آلايات البياده والسوارى والطوبجية وإرسال الضباط إلى ديوان معاونتنا لاستخدام من يصلح منهم فى المصالح ورفت بعض الخدمة من المدارس الأخرى ومن المصالح التابعة للمدارس ممن لا حاجة إلى استخدامهم موافق لارادتنا السامية . وعلى ذلك فاننا نأمر بتنفيذه اعتباراً من تاريخ أمرنا ونطلب خصم مبلغ ٥٩٦٠٠ كيس المقتصد من إلغاء هذه المكاتب والمدارس ومن مرتبات المفصولين من ميزانية مصروفات ديوان المدارس ؟

(١) دفتر ٢٠٧٠ (مدارس تركى) ص ٦٠ رقم ٢٥ فى ٢٤ شعبان سنة ١٢٥٧ (مترجم من التركية)

الملحق الثالث عشر

تقرير عن ترتيب سنة ١٨٤١ (١٢٥٧ هـ)[١]

بناء على إرادة الجناب العالى القاضية بأن تتولى اللجنة المؤلفة من ذوى المناصب أمر تنسيق المدارس وترتيبها على نظام نهائى موافق للمرام وبأن ينظر فى أمر المكاتب الابتدائية والمدرسة التجهيزية الملغاة جميعا فيقتصر منها على فتح العدد الذى تمس الحاجة إلى فتحه سواء فى القاهرة أو فى الأقاليم باعتبار هذه المدارس أصلا وأساساً لمدارس الخصوصية وبأن تحيا مدرسة الزراعة التى ليس من الجائز الغاؤها بعد أن جىء لها حديثا من فرنسا بمعلم مخصوص متعاقد والحكومة ومع مابذل ولايزال يبذل فى سبيل علم الزراعة من سعى وهمة وبأن يعمل على تخريج التلاميذ من المدارس العسكرية عند الاقتضاء مع ملاحظة الظروف التى يتيسر فيها تأليف القدر الكافى من الآلايات .

وبما أن مما يقتضيه الأمر الكريم أن يكون ترجمان الجناب العالى حاضراً فى لجنة التنسيق وحضرة سليمان باشا مدعوا اليها وبأن تلتزم اللجنة نظاما ملائما لحالة الوقت محترزا فيه من ابتداع زائد النفقات فقد دعى إلى الاجتماع بديوان المدارس كل من سليمان باشا والبك ترجمان الجناب العالى وكانى بك معاون ديوان الجهادية كما دعى أيضا أعضاء شورى الأطباء ودعى من نظار المدارس الخصوصية حكاكيان بك ناظر مدرسة العمليات وواسيل بك ناظر مدرسة السوارى وجناب المسيو لامبير ناظر المهندسخانة العامرة والمسيو برون ناظر مدرسة الطب البشرى والشيخ رفاعة ناظر مدرسة الألسن وأمين بك ناظر مدرسة الطب البيطرى ودعى أيضا المعلم لافرج وسائر أعضاء اللجنة . فكانت المدارس العسكرية هى أول ما تناوله البحث

---

(١) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) فى ٢٠ ذى القعدة ١٢٥٧ رقم ٥٠٦٠ قلم ورقم ٢١٩ شطب — ترجمة التقرير المقدم إلى شورى المعاونة بشأن تنسيق المدارس .

إذ تشاور الحضور شفويا بشأن عدد طلابها متداولين كثيراً من الآراء، ولكن لما كان هذا الأمر معتبرا أساساً لقوة مصر العسكرية وكان من شأن هذا الاعتبار أن يجعله منوطا بكثير من الملاحظات المالية مربوطا بمقدار العساكر اللازمة للمحافظة على تلك القوة العسكرية لم يكن فى الامكان الانتهاء فورا إلى قرار يصح الركون اليه فى تعيين مثل هذا العدد. ولذلك اكتفى بالاتمار فيه زهاء ثلاثة أيام قدم عقبها جناب واسيل بك ناظر مدرسة الفرسان ترتيبا اتخذه نصابا لمدرسته. وكان ترتيبا أدنى إلى الاقتصاد من التوفير الذى تقدمه فضلا عن عدم إخلاله بالقواعد المتبعة فى إدارة المدرسة إدارة حسنة وعن كونه باعثا على إصلاح مرتبات المدرسة الشهرية بالقياس إلى سائر المدارس فقبلته اللجنة بعد أن أدخلت عليه بعض التصحيح وكان قبل قوام هذه المدرسة أورطتين من التلاميذ وجنودا مخصصة لفئة من ضباط الصف تكفى لأورطتين وكانت ماهية كل تلميذ ثلاثين قرشا وماهية كل جندى خمسة عشرة قرشا. أما التنسيق الجديد فقد قصر الأمر على أورطة تلاميذ واحدة وجعل ماهية التلميذ ٢٠ قرشا سواء فى ذلك تلاميذ الأورطة المذكورة والبقية المختلفة من التلاميذ القدماء، لأن التلاميذ يكادون الآن أن يكونوا كلهم من المصريين. كما نقص ماهيات الأونباشية والجاويشية بحيث جعل كل ماهية منها أقل عشرة قروش مما كانت عليه فى النظام القديم. وهاهم التلاميذ المنقولون أخيرا من المدرسة التجهيزية إلى مدرسة السوارى قد قيدوا بماهية قدرها ١٥ قرشا شأنهم فى ذلك شأن عساكر الأورطة الأخرى سواء بسواء. أما الاثنان والأربعون تلميذا الذين أسفر امتحان هذا العام عن بقائهم دون أترابهم وعن قلة استعدادهم للتقدم فقد أخرجوا من المدرسة وأرسلوا إلى آلايات الفرسان جنودا (أنفارا) بغير رتب.

وكذلك عالج التنسيق الجديد ما هو مشاهد بالتجربة من زيادة فى جرايات الطلبة فعدل هذه الزيادة وسواها ولم يدخل فى عداد التلاميذ سوى أفراد الأورطة الأولى وضباط صف الأورط الأخرى.

ثم تناولت اللجنة خدمة التلاميذ وهل يجب أن يعين لها من يقوم بها من الخدم كالفراشين والسقايين والسياس أم لا. فتداولت الرأى فى ذلك بضعة أيام

حتى استقر قرارها على أن تختص طائفة التلاميذ وحدها بالخدم حسبما يسمح به قانون المدرسة ، لأن التلاميذ إذا تولوا أمر خدمتهم بأنفسهم حرموا من تلقى ما أعد لهم من الدروس اليومية ومن يتخلف من التلاميذ يوما عن حضور درس من دروسه يلق فى غده هو ومعلمه مشقة ونصبا فى تكرار هذا الدرس وإن فى ذلك لعرقلة للتعليم فضلا عن تسخير التلاميذ الذين ينفق على تثقيف الواحد منهم كل سنة ألفا قرش على أقل تقدير فى أعمال الخدم الذين مرتب أحدهم الشهرى ٢٠ قرشا. فمن ثم رؤى أن القصد الأكبر والوفر الأوفر إنما يكون بتخرج التلاميذ فى الأوقات المقررة وبمواظبتهم على دروسهم فى مواعيدها المقدورة . أما الأورط الأخرى والتلاميذ المستجدون الذين أخذوا من المدرسة التجهيزية فلا يعين لهم خدم بل هم الذين يقومون بخدمة أنفسهم كما يفعل الجنود .

وقد لوحظ أنه لو فصل معلم الهوارية (لعل الهواوية هى فروسية الأعراب — المترجم) ومعلم النفخ فى البوق ومدرس الرسم لخرجت المدرسة من حالتها المنظمة إلى حيث تصبح ألايا من الآلايات العادية فضلا عما يطرأ على الدرس والتدريب من الشلل والتعطيل ، ولذلك أبقى على هؤلاء المعلمين الثلاثة بعد مارد الرسام ومعلم نفخ البوق إلى الصنف الثانى فاقتصد شهريا من ماهياتهما نحو ٥٠٠ قرش وهكذا بعد تنظيم أمور المدرسة وتسوية شئونها من حيث الطبيب والممرض وسائر ما إلى ذلك أمكن تحقيق ما هو مثبت فى سجل التنسيقات من وفر سنوى لهذه المدرسة قد بلغ مقداره (٢٠٧٧٦٨) قرشاً وهو وفر يزيد زيادة كبيرة عن الوفر الذى سبق اقتصاده من نفقاتها . وبهذا التنسيق يتسنى لمدرسة السوارى أن تخرج بعد تعليم عامين أو ثلاثة أعوام ضباطا يكفون لادارة ثلاثة الآيات أو أربعة أى أن هذه المدرسة مع كونها معدة لتخريج أربعين أو خمسين ضابطاً فى كل عام ستظل مؤلفة كما كانت من أربع أورط وسيكون لديها من قوة المقاومة ما يجعلها حين الحاجة بمثابة الاى من الفرسان . لالبس فى هذا ولا خفاء على أولى البصر والتجربة من الكبراء والعظماء. ولذا اكتفى بهذا القدر من الشرح والتفصيل .

ولننتقل الآن إلى مدرسة الطوبجية وهى تلك المدرسة التى لم يتيسر لآلايات

الطوبجية أن تأخذ منها كل من كانت تأمل من ضباط لأن، هذه المدرسة ما كادت تؤسس حتى أعطت مكتب المحاسبة فريقاً كبيراً من تلاميذها ولم تلبث بعد ذلك إلا قليلا حتى انتزع منها خيار تلاميذها فأرسلوا إلى السفائن للانتظام فى السلك البحرى ثم أرسل منها فى العام الماضى ٦٥ تلميذا إلى الاسكندرية ليتدربوا فيها على رماية الهاون (المدفع القصير) وقذف القنابل كما اقتصر عمل بقية التلاميذ على تمرينات المدفع والبطارية فقط فى دمياط . (لعله يعنى أنهم لم يتدربوا هنالك على حركات الوحدات الكبرى كالآلاى واللواء — المترجم) فكان من جراء ذلك أن المدرسة المذكورة لم يكن يتاح لها أن تكون مهيأة لتخريج الضباط المقرر تخرجهم منها فى كل عام .

كانت ألايات الطوبجية تقنع قديما بتخرج ضباطها ممن يعرفون القراءة والكتابة، تأخذهم من التخيلة أو من الخارج . ولكن لما كان هؤلاء لايعدون ضباطا مدفعيين بالمعنى الصحيح فقد لوحظ مسيس الحاجة إلى أخذ ضباط من مدرسة كمدرسة المدفعية. لذلك قررت اللجنة أن تظل مدرسة الطوبجية بلوكين كما كانت لتفى بحاجة ماهو موجود الآن من الآيات المدفعية أى أن يكون قوام هذه المدرسة عددا من التلاميذ كافيا لادارة بطاريتين اثنتين . وهكذا أكمل نصاب تلاميذ مدرسة الطوبجية بتلاميذ نقلوا اليها من المدرسة التجهيزية ثم سويت ماهيات التلاميذ كل بحسب الفرقة التى أهله الامتحان إلى الالتحاق بها والانتماء اليها وبذلك انتهى تنسيق هذه المدرسة بعد أن بلغ الوفر المقتصد من تسوية الفرق وتعديل التعيينات ومن بعض فروق أخرى (٣١٦٥٣) قرشاً .

وكذلك مدرسة البيادة فان الذى أوجب تأسيسها هو حاجة آلايات المشاة اليها ولكن نظرا لامكان الحصول على الضباط من خارج الآلايات فى الوقت الحاضر فقد رؤى اختصار هذه المدرسة إلى أصغر حد ممكن . ولما كان قانون المدارس ينص على اعتبار مدرسة البيادة أورطة واحدة سواء ركبت هذه الاورطة من أربعة بلوكات أو من ستة أو من ثمانية وكان فى المستطاع أن يحصر تلاميذها بما فيهم الواردون من المدرسة التجهيزية فى أربعة بلوكات فقد أبقيت على حالها الأولى مؤلفة من أربعة

بوكات فى كل بلوك مائة تلميذ وعشرة ما دعا ضباط الصف وتظمت أمور المدرسة من حيث الضباط والناظر والمدرسين وفقا للأصول الثابتة والقوانين المرعية فكانت النتيجة من تعديل التعيينات وما إلى ذلك بما شمل تطبيقه هذه المدرسة أيضا أن ظهر وفر مقداره (٤٥٢٢٧) قرشا وهو أكبر من الوفر الذى أسفر عنه الترتيب السابق . حقا إن هذه المدرسة كانت مركبة من أربعة بلوكات إلا أنها كانت تامة الضباط ناقصة الأفراد وهاهى الآن فضلا عن اكمالها واتمامها قد أصبحت من امتلاء البلوكات بحيث تزيد بلوكاتها الأربعة مائة وعشرين نفسا على ترتيبها الأصلى وبذلك صار فى الامكان استغناؤها نحو سنتين عن أخذ الأفراد من المدرسة التجهيزية. ومهما يكن من تقليل عدد آلايات البيادة فان ماكان من إلغاء معهد النخيلة وهو المورد الأصلى للضباط لايدع مجالا للشك فى أن الحاجة سوف تمس بعد عامين أو ثلاثة أعوام إلى أخذ الضباط من مدرسة البيادة التى يكفى أن توصف بأنها بمثابة أورطة منظمة .

أما المهندسخانة فلما كان تلاميذها محتاجا اليهم فى الأمور العسكرية والأمور الملكية على السواء وكان من البداهة أنه كلما تقدمت البلاد ازدادت حاجتها إلى المهندسين، فان اللجنة لم تر من المحكمة أن تجعل هذه المدرسة أصغر وأشد اختصارا مما هى عليه الآن وإنما نظرت إلى تلاميذها فوجدتهم مائة وسبعين بما فيهم الاثنان والعشرون الذين أخذوا فى هذه السنة المباركة من المدرسة التجهيزية فعمدت إلى ١٦ تلميذا تبين من جدول الامتحان أنهم متوسطو الدرجات وفهم عدد استعدادهم العلمى للتقدم وأرسلتهم إلى مدرسة العمليات ليتعلموا فيها بعض الأمور العلمية المتعلقة بالرسم والصنعة وعمدت إلى ١٢ تلميذا كانوا دون أترابهم ولا قدرة لهم على الاستزادة من العلم ففصلتهم من المدرسة باعثة بهم إلى الجهادية وغيرها من الجهات، كما أعطت ذوى المزاج العليل تذاكر الاذن والانصراف. وبذلك بقى فى المدرسة ١٤٢ تلميذا كانوا هم الحائزين فى امتحان هذا العام المبارك على درجتى عال وأعلا ولاسيما ثلاثون ونيف من تلاميذ الفرقة الأولى رأت اللجنة أنهم وصلوا من العلوم الرياضية إلى أعلى درجاتها فلم يبق لاتمام دراستهم فى المهندسخانة إلا نحو

عام واحد يصيرون بعده أهلا للتخرج ثم يتوالى تخرج المهندسين سنة فسنة بغير فاصلة .

ولاريب فى أن المهندسخانةمدينة بكل تقدمها هذا إلى دقةناظرهاوهمة أساتذتها غير أن معظم الفضل إنما يرجع إلى ترجمة المدرسين للدروس والى الاسراع فى طبع التراجم بمطبعة الحجر ثم جمعها فى كراسات وكتب ولقد كانت كتب العلوم الرياضية التى فى متناول اليد من القلة والندرة وكانت ترجمتها من الأشكال والصعوبة بحيث لم يتيسر قبل اليوم تنشئة المهندسين الفحول على الوجه الصحيح الموافق لأسلوب فرنسا، ولكن ها هو البكباشى محمد بيومى أفندى واليوزباشية أحمد طائل أفندى وابراهيم رمضان أفندى وأحمد دوقلى أفندى وأحمد فايد أفندى يتولون بفضل بركات الخديوى ترجمة الدروس التى وكل اليهم تعليمها ، ثم لايقفون عند حد الترجمة بل يطبعونها على الحجر ويجعلون منها كتبا وأسفارا . والواقع أن الامتحان الأخير كان مشهدا لما جمعته هذه الكتب بين دفاتها من شتى العلوم . وقد تناول التنسيق الجديد البكباشى بيومى أفندى فنصبه رئيسا لقلم ترجمةفروع العلوم الرياضية وبذلك نقله من المهندسخانة وزاد فى واجبات الأربعة الآخرين من المدرسين اليوزباشية الذين قضت الحال بأن يشجعوا بالمكافأة على الترجمة فأضيف إلى ماهية كل منهم مائتان وخمسون قرشا لتبلغ ٧٥٠ قرشا ، وقد وضع قانون متفق وخدماتهم روعيت فيه أيضا خدمات سائر مدرسى المدرسة المذكورة ومستخدميها كل على قدر الخدمة المفروضة عليه بحسب القواعد المقررة بحيث عدلت ماهياتهم بنسبة ما أظهره الامتحان من درجات تلاميذ فرقهم ، كما نفذ تعديل تعييناتهم على النمط الذى سويت به التعيينات فى المدارس الأخرى .

وصفوة القول إنه بعد تنسيق هذه المدرسة وبعد وضع كل شأن من شئونها فى محوره الموافق قد أمكن اقتصاد (٦٠٦٩٣) قرشا من نفقاتها السنوية وهو وفر يفوق وفر التنسيق السابق ويزيد عليه زيادة كبيرة .

ثم وضعت مدرسة الطب موضع البحث والفحص فلئن طال مع شورى الأطباء الائتمار وتداول الأفكار فاننا آخر الأمر قد انتهينا إلى قرار، ولئن استوجب الأمر

إعادة ناظرها ونفر من معاونيه فاننا عرفنا أن الحال تقتضى تقليل تلاميذ هذه المدرسة تقليلا ملائما لحاجة الوقت الراهن .

نعم إن النصاب الأصلى لمدرسة الطب البشرى هو ٢٥٠ تلميذا ولكن هذه المدرسة كانت دائمة النقصان ، فكان حقا على اللجنة انتقاص تلامذتها البالغ عددهم ٢٢٣ تلميذا. غير أن اللجنة لم تسوغ اخراج الأعلين من التلاميذ فجىء بجدول امتحان التلاميذ المبين لنتيجة هذه السنة وبمراجعته اختير منه من حسنت إجاباتهم فى الامتحان واتضحت كفايتهم لأن يكونوا أطباء وازدانت نفسهم بكريم الأخلاق فاستبقوا فى المدرسة مكتفى بهم تلاميذ للطب والصيدلة وكان عددهم ١٢٦ تلميذا فحسب . وكذلك كان على اللجنة أن توزع النفاية الباقية على مختلف الجهات لولا أن وجدت بينهم من درسوا العلوم وبلغوا فيها درجة كف، بل درجتى عال وأعلى ولاحظت الارادة العلية القاضية بفتح مدرسة الزراعة فألحقت بها ١٤ تلميذا من طلاب الصيدلة الذين درسوا علم النبات كما أدخلت ١٧ تلميذا فى مدرسة الطب البيطرى بدلا من الذين أخرجوا منها وعمدت إلى الباقين فمحت أسماءهم محوا من سجلات المدارس قاطبة لكونهم فى العلوم بين وسط ودون الوسط مرسلة جيدى الخط منهم ليستخدموا فى المصالح ومسرحة مرضى المزاج والذين لا يصلحون لخدمة المصالح إجابة لما طلبوا من الرجوع إلى أهليهم ثم اتبعت هذه التصفية بتعديل رتب التلاميذ وتسوية تعييناتهم فرقة فرقة . وقد رؤى أحد المدرسين زائدا عن الحاجة فأخرج من مدرسة الطب ونصب رئيسا لقلم الأطباء فى غرفة الترجمة التى أنشئت حديثا وهكذا تم وضع المدرسة المذكورة على القاعدة المرعية ودبرت أمور مستخدميها بموجب القانون فكان هذا التنسيق منتجا لوفر سنوى مقداره (١٢٣٠٠٤) قروش وهو بضعة أضعاف وفرها السابق .

ثم نظر فى تنسيق مدرسة الطب البيطرى وكان عدد تلاميذها من قبل ٦٤ فلما أضيف اليهم الـ ١٧ الواردون من مدرسة الطب البشرى صاروا ٧١ تلميذاً، ولكن اللجنة أخرجت الذين لم تستصوب بقاءهم فى المدرسة مرسلة فئة قليلة منهم إلى الجفالك بوظيفة أمير اخور (رئيس اصطبل) فلم يبق والحالة هذه سوى ٥٠ تلميذاً هم النصاب

الذى جرى عليه تنظيم المدرسة، وكذلك نسقت أمور الأساتذة والمستخدمين بهذه المدرسة بحسب الأصول إلا مترجمها المسمى «فرعون» فلئن كان التنسيق السابق قد أقاله فان اللجنة قد أبقته بعد أن تباحثت فى شأنه زهاء يومين ولم تجد مسوغا لرفته لكونه رجلا ذا خدمة سابقة قد ترجم إلى الآن عشرين كتابا عشرة منها مطبوعة وبضعة مما بقى مهيأة للطبع، هذا إلى ما كان من تأليفه إفهام التلاميذ أقوال معلمهم الافرنجى حين إلقائه الدروس عليهم .

أما مدرسة الزراعة الملحقة بهذه المدرسة فنظراً لما كان من تعلق الارادة العالية باعادة فتحها فقد رتبت بحيث يكون نصابها ٢٥ تلميذاً واحتفظ بأستاذها المسمى « تاردبو » لأنه متعاقد والحكومة ، فلو أنه سرح لتقاضى ماهيتـــه عن السنتين القادمتين ، فضلا عن أن افتتاح المدرسة والأمر العالى الصادر بتاريخ ١٦ رمضان ١٢٥٧ يوجبان مكثه وبقاءه ، كما دبرت أمور الناظر والمصحح والمستخدمين . وبعد إجراء ما اقتضى من التسوية والتعديل وجد أن وفر هذه المدرسة السنوى هو (٨٥٩٠٥) قروش .

وأما الاسطبل الكبير الملحقة به هاتان المدرستان (الطب البيطرى والزراعة) فقد نسقت أمور سياسه وسائر مستخدميه بحسب الأصول وفقاً للقرار المتقدم ، إلا أن مدرسة الطب البيطرى ومدرسة الزراعة وهذا الاسطبل كان لها جميعاً أربعة معلمين من الأوربيين ، وكان التنسيق القديم قاضياً باستبقاء أحدهم وفصل الثلاثة الآخرين ، ثم كان أن أبقى منهم «تاردبو» مراعاة لافتتاح مدرسة الزراعة التى هو أستاذها وإجابة للأمر العالى لأنه بعقد . فتشاورت اللجنة زهاء يومين فى أمر الاثنين الباقيين أيليثان أم ينصرفان ، ثم قر قرارها على عدم جواز استخدام مدرس النبات زيادة على شورى الأطباء بأنها بعد استبقاء مدرس الزراعة لم يظهر لها من مدرس النبات كبير ثمرة غير عبء نفقته . وأما المسيو «لابتو» المدرس الآخر فانه — وقد انحصرت خدمته فى مدرسة الطب البيطرى — ليس فى وسعه الاشراف على شئون الاسطبل الكبير ، ولما كان هذا الاسطبل من المرافق المهمة التى تتطلب إدارتها معلماً حاذقاً فى الفن فقد انتخب المسيو « لافرج » لأن يستخدم هو الآخر فى الاسطبل ، لأن عشماوى افندى

مع كونه معلما بالمدرسة ليس له من سابق التجربة مايؤهله لأداء هذه المهمة . وهكذا استبقى هنالك ثلاثة من الاروبيين أحدهم أستاذ مدرسة الزراعة .

وكذلك نظر فى تنسيق مدرسة الولادة فجرى تعديلها وتسوية أمورها على أساس أن تلميذاتها ٤ . ووجد الطبيب البوزباشى الذى هو أستاذ فيها شيخا عليلا لا يرجى منه فى المستقبل كبير نفع فاعتبر محالا على المعاش بنصف ماهيته وفصل من الخدمة وقد عهد بأعماله إلى أستاذ من أساتذة مدرسة الطب البشرى .

وأيضاً نظر فى تنسيق مدرسة العمليات فوقع الاختيار على أربعة من تلاميذها الذين فازوا فى امتحان هذا العام بدرجة أعلى فى فنى الرسم والاستحكامات ومارسوا النجارة وخصصوا للالتحاق بحاشية جناب الكولونيل جاليس المهندس ليستخدمهم جنابه فى أعمال القلاع والحصون ثم عين أربعة آخرون فى إمرة المهندسين العمليين الذين بالبواخر النيلية واخرج قليل من غير ذوى الكفاية فسيقوا إلى الجهادية ثم عمد إلى مصنع (ورشة) الآلات الجراحية التى بهذه المدرسة فخففت صناعته وصفيت . وبعد تعديل هذه المدرسة وتسوية سائر أمورها وجد الوفر المقتصد من نفقاتها السنوية (٥٠٣٨٥) قرشاً ، وقد أصبحت مدرسة فيها من التلاميذ ٤٢ ولها أساتذة ومعلمون مرتبون .

إن مدرسة الالسن إنما أنشئت فى البداية لمقصدين: أولهما تخريج المترجمين والثانى إمداد المدارس الخصوصية بتلاميذ نابهين قد تعلموا اللغة الفرنسية . فاذا كان مضمون القصد الأول أنها هى مدرسة خصوصية فان فحوى المقصد الثانى هى أنها ليست سوى مدرسة تجهيزية عادية لمدارس العلوم الأخرى. غير أنها لم يتيسر لها حتى الآن تزويد المدارس الأخرى بالتلاميذ بل اقتصرت على تخريج النذر اليسير من المترجمين، وهؤلاء المترجمون مهما يكن من قدرتهم على ترجمة كتب التاريخ والقانون والجغرافيا وما أشبهها فانهم بلا شك عاجزون عن أن يستقلوا بترجمة الكتب المتعلقة بالعلوم ككتب الرياضة والطبيعة والطب. فتلافيا لهذا النقص لزم تكليف هذه المدرسة إعطاء تلاميذ المدارس الأخرى ، فمن ثم اقتضى الأمر إفراغ قسم منها فى قالب مدرسة تجهيزية عادية .

والمدرسة التجهيزية إنما أنشئت لتغذى المدارس الأخرى بالتلاميذ فينبغى ان يكون نصاب تلاميذها متناسبا والعدد الذى تخرجه المدارس الأخرى كل عام، وقد فهم من هذا أن المدرسة التجهيزية تكون محتاجة إلى نحو ٧٠٠ تلميذا إلا أنه لما كانت مدرستا البيادة والسوارى قد أخذتا من تلاميذ التجهيزية ما يكفيها سنتين وكانت المهندسخانة قد أخذت أيضاً ما يكفيها سنة وكانت المدارس الأخرى محتوية فى الوقت الحاضر على القدر اللازم لها من التلاميذ فقد رأت اللجنة فى هذا التنسيق الجديد أن يكون بالمدرسة التجهيزية من التلاميذ مالا يقطع مددها ولا يخل بنظام المدارس فقررت استكفاءها بثلاثمائة تلميذ مع إلحاقها بمدرسة الألسن وكان قبل بمدرسة الألسن مائة وخمسون تلميذا، ولكن لما كانت المدرستان قد أدمجت إحداهما بالأخرى وكانت اللغة الفرنسية ستدرس أيضا بالفرقة الرابعة من المدرسة التجهيزية فقد أفرد الفائقون من تلاميذ مدرسة الألسن وهم ٦٠ تلميذا وأطلق عليهم وحدهم لقب « تلاميذ الألسن » ثم عمد إلى الباقين فألحق الذين أتموا الدراسة منهم بفرقة الترجمة . وبالجملة فقد أسفر التنسيق الجديد عن جعل مجموع تلاميذ المدرستين ٣٦٠ تلميذا وجعلتا تحت نظارة حضرة الشيخ رفاعة . وقد أتاح هذا التنسيق للجنة أن تقتصد من نفقات كل من المدرسة التجهيزية القديمة ومدرسة الألسن القديمة (٣٨٧٦٨٦) قرشا وهو وفر يكاد يبلغ ضعفى الوفر الأول لكلتا المدرستين .

وكذلك المدارس الابتدائية لما كان واجبا أن يراعى فى تنسيقها حاجة المدرسة التجهيزية فقد رأت اللجنة أن يكون عدد تلاميذها ٧٨٠ تلميذا منهم ٣٠٠ بمكتب الناصرية الذى بحى السيدة زينب بالقاهرة لاتساع المكتب المذكور لهذا العدد وأن يفتتح فى الأقاليم أربعة مكاتب كل منها يحوى مائة وعشرين تلميذا على أن يكون أحد هذه المكاتب فى أسيوط والآخر فى المنيا والثالث فى الجيزة والرابع فى ميت غمر .(١) ولقد حسبت نفقات هذه المكاتب على اعتبار أنها كاملة النصاب من المدرسين والمستخدمين وأدرج حسابها فى سجل التنسيقات . ولكن الواقع أن

---

(١) وبعد ذلك نقل مكتب المنيا إلى بوش ومكتب الجيزة الى أبى زعبل ومكتب ميت غمر إلى الزقازيق .

إكمال نصاب المكاتب فى العام الأول والعام الثانى لم ير له لزوم فى البداية بل نظر إلى تدرج الدراسة من فرقة إلى أخرى فلزم العمل على أن يبدأ العام الأول بثلث النصاب أو بنحو نصفه ثم يكون فى العام الثانى زهاء الثلثين حتى إذا حل العام الثالث استوفت المكاتب كامل نصابها ولاريب فى أن هذا التدبير أيضا سينتج وفرا آخر فى التنسيق الجديد .

ولنرجع البصر الآن إلى أمر تنظيم الفرق وتسوية التعيينات لأنه أمر إن كان قد مر ذكره فانما كان ذلك إجمالا لاتفصيلا ولهذا أوثر توضيحه هنا على وجه الاختصار .

إن قانون التنسيق المطبوع الذى سبق وضعه كان قاضيا بأن يقسم تلاميذ المدارس فرقا تبعا للعلوم المقرر دراستها فى كل عام وبأن يرتبوا بحيث ينقل الظافرون لدرجة أعلى فى امتحان آخر العام ويصعد بهم من فرقة إلى أخرى . وإذ كان الامتحان هو الحكم فى نقل التلاميذ من فرقة إلى أخرى فقد جعل القانون المذكور ماهيات الفرق متفاوتة تمييزا للفائزين المنقولين على المخفقين الراسبين . وبدئ بالدراسة الابتدائية فرتب للتلاميذ بالفرقة المبتدئة فى مدرسة المبتديان ثمانية قروش شهريا وللفرقة الثانية عشرة وللفرقة الثالثة اثنا عشر قرشا ثم رتب للفرقة المبتدئة بالمدرسة التجهيزية خمسة عشر قرشا شهريا وللفرقة الثانية عشرون قرشا وللفرقة الثالثة خمسة وعشرون وللفرقة الرابعة ثلاثون ثم رتب للفرقة المبتدئة بالمدارس الخصوصية أربعون قرشا شهريا وللثانية خمسون وللثالثة ستون وللرابعة خمسة وسبعون . واستمر حكم هذا القانون جاريا عدة سنين حتى كان ماكان من حرمان التلاميذ الذين انتقلوا من المدرسة التجهيزية إلى المدارس الخصوصية إذ أبقوا بماهياتهم القديمة ولم يؤبه لتفاوت الفرق واختلاف مراتبها . وكانت مدرسة السوارى كذلك تؤوى من قبل تلاميذ ماهية الواحد منهم خمسون قرشا فخففت ماهيات تلاميذها عامة قبل عامين حتى ردتها إلى ثلاثين قرشاً . ولكن تنظيم الماهيات لم يصب إذ ذاك من التوفيق ما يجعله شاملا لجميع المدارس ، بل بقيت هذه مختلفة فى الماهيات زيادة ونقصاً حتى أن التلاميذ ذوى الرتبة الواحدة وأتراب الفرقة الواحدة فى مدرسة

بعينها كانوا متباينى الماهيات تباينا ناشئا عن التنسيق القديم. وصفوة القول إن أمر الماهيات ظل فرطا لانظام له ولا قاعدة .

وبما أن التنسيق كان فى هذه المرة عاما شاملا فقد جعل للمدارس نظام أساسه ترتيب الفرق على مقتضى القانون مع البدء بالمدارس الابتدائية . واجتنابا لزيادة النفقة ربط للفرقة الأولى من المبتديان مرتب قدره ستة قروش وللثانية سبعة وللثالثة ثمانية . كما رتب للفرقة الأولى من المدرسة التجهيزية عشرة قروش وللثانية أحد عشر قرشا وللثالثة اثنا عشر قرشا وللرابعة ثلاثة عشر وجعل للفرقة المبتدئة لكل مدرسة من المدارس الخصوصية خمسة عشر قرشا وللثانية عشرون وللثالثة خمسة وعشرون وللرابعة ثلاثون وللخامسة خمسة وثلاثون. ولكى يساوى بين مدرسة السوارى وبين هذه المدارس عمد إلى التلميذ الوارد من المدرسة التجهيزية فترك بماهيته القديمة وهى خمسة عشر قرشا وإلى التلميذ السوارى القديم فاعتبر بالفرقة الثانية وجعلت ماهيته عشرون قرشا . ونظر إلى المدارس العسكرية بالعين التى نظر بها إلى مدرسة السوارى ، إذ ليس فيها ما يعد مقدما على الفرقة الثانية بل فيها رتب رتبة أونباشى ورتبة جاويش .

وبذلك ردت اللجنة المدارس إلى نظام مناسب لمكانة كل منها من الأخرى كما وجدت اللجنة شيئا من الزيادة فى التعيينات فسوته وعدلته مسترشدة بتجارب نظار المدارس . وهكذا اقتضى الأمر تصحيح القانون على الوجه الآنف الذكر .

إن المراد من مدرسة الألسن هو تخريج المترجمين، وقد رأت اللجنة أن تلاميذ الفرقة الأولى بهذه المدرسة قد ختموا دروسهم بتأديتهم امتحان هذه السنة فأصبحوا كزملائهم الذين تقدموهم فى التخرج وصار لزاما أن يبدأوا مثلهم فى الترجمة . ولكن لما كانت الكتب الجارى ترجمتها معدودة آثارا خيرية من مآثر سمو مولانا الخديو الأعظم التى تخلد اسمه الكريم إلى أبد الآبدين فلا شك فى أن الواجب يقضى بأن تكون التراجم مضبوطة مستوفية حقها من الصحة سليمة من الخطأ. فلهذا ولكون ترجمة كتب العلوم والفنون ليست مقصورة على معرفة اللغة فحسب ،

بل متوقفة أيضا على الالمام بالعلم أو الفن المترجم كتابه فقد أنشأت اللجنة غرفة الترجمة الخاصة بالمترجمين وقسمتها أربعة أقلام :

القلم الأول : قلم ترجمة الكتب المتعلقة بالعلوم الرياضية وبعملياتها وقد نصب البكباشي محمد بيومى أفندى رئيسا لهذا القلم وجعل فى إمرته ملازم متخرج فى مدرسة الألسن وخمسة من تلاميذ فرقتها الأولى .

القلم الثانى : قلم ترجمة كتب العلوم الطبية والطبيعية ورئيسه اليوزباشى مصطفى واطى أفندى من مدرسى الطب البشرى وفى إمرته ملازم من ملازمى مدرسة الألسن وثلاثة من التلاميذ .

والقلم الثالث : نيط به ترجمة كتب علوم الأدبيات مثل التاريخ والقصص والقوانين والجغرافيا وجعل رئيسه الملازم الأول خليفة محمود أفندى من مدرسة الألسن بعد أن أصحب ملازما ثانيا وثلاثة تلاميذ .

والقلم الرابع : قلم الترجمة التركية وقد نصب ميناس أفندى المترجم بديوان المدارس رئيسا له وأعطى بطانة مؤلفة من أربعة تلاميذ ومن عثمان أفندى أخى حضرة كانى بك .

ودبر لهذه الأقلام الأربعة ما يعوزها من المبيضين . وهكذا تم إحداث غرفة الترجمة شاملة لأربعة أقلام تحتوى جميعها على ستة وعشرين موظفا بين رئيس ومترجم ومبيض كلهم منقول إلى الغرفة من وظيفته القديمة ، إلا تلاميذ الفرقة الأولى فانهم لحداثة تخرجهم من المدرسة قد أضيف لماهية كل منهم شيء من العلاوة ، وكان عرف المدرسة قاضياً بمنحهم رتبا لولا أن قررت اللجنة إرجاء البت فى ذلك إلى أن يترجم كل منهم كتابا يحوز الرضاء وينال القبول .

وما أن أتمت اللجنة هذه التنسيقات حتى حولت نظرها إلى تنظيم ديوان المدارس وترتيب أقلامه وكتابه ، فرأت أعماله خارجة عن محورها نابية عن غايتها إذ كانت الأقلام خلوا من الكتاب القديرين محرومة من نظارها الذين نزعوا منها قبل مدة ولم يكن قد عين من يخلفهم .

وكان الديوان مرتباً من ثلاثة أقلام : أحدها للخزينة والآخر للأشخاص والمهمات

والثالث للهندسة. فأبقته اللجنة بعد المشاورة والمذاكرة قائما على ثلاثة أقلام كما كان، إلا أنها وحدت قلميه العربيين مطلقة عليهما اسم القلم العربي وسمت القلمين الآخرين القلم التركي وقلم الهندسة، أما نظار الأقلام فقد عهدت اللجنة بقلم الهندسة إلى البكباشي مصطفى بهجت أفندي ناظره القديم ونصبت البكباشي رأفت أفندي ناظر المدرسة التجهيزية السابق ناظرا للقلم العربي لما رأته في هذا القلم من ضخامة وجسامة ولما اتصف به رأفت أفندي من علم باللغة العربية واللغة التركية وصناعة الكتابة ومن معرفة بالحساب والهندسة واللغة الفرنسية ومن خبرة وإحاطة بالأمور المتعلقة بالمدارس، فضلا عن أنه سبق له أن شغل مقام البكباشي أستفان أفندي في نظارة القلم بديوان المدارس عندما نقل أستفان افندي إلى وظيفة أخرى. وعينت اللجنة علي علوي أفندي كاتب الديوان وأمين خزانته ناظرا للقلم التركي عامة أي في مقام عارف أفندي الذي كان قبله مشرفا على القلم التركي ثم فصل في التنسيق الذي قبل هذا، وقد عهد إلى عهدة علوي أفندي ملاحظة أمانة الخزانة والاشراف عليها.

وأما الكتبة فقد اصطفوا من ذوي الكفاية والمقدرة تبعا لحالة العمل ووفقا لما اقتضت المصلحة. وهكذا اقتصد من نفقات الديوان السنوية وفر قدره ٥٠٧٣٠ قرشا. فبلغت بذلك جملة الوفر المقتصد من جميع المدارس والمكاتب وفروع المدارس ٥٢٢١ كيسا وبعض الكيس. أما الوفر في التنسيق السابق فكان ٥٩٦٠ كيساً وبعض الكيس، فاذا نقص الوفر الجديد عن الوفر الذي تقدمه بمقدار ٢٣٨ كيسا فانما يقابل ذلك ما يمتاز به التنسيق الجديد وهو إعادة فتح مدرسة الزراعة والمكاتب الابتدائية المحتوية على ٧٨٠ تلميذا وإعادة المدرسين وبعض المستخدمين الخارجين من المدرسة التجهيزية وإدخال جميع نفقات القراءة والكتابة وغيرهما بالمدرسة التجهيزية وجانب من نفقات مخازن القنطرة الخيرية ومجموع نفقات هذا الادخال وتلك الاعادة هو ١٤٣٧ كيسا.

على أنه إذا كانت نفقات المدارس قد ربطت وحددت فان هذا لن يحول بالطبع دون نشوء بعض الفروق في أثناء السنة بسبب الفصل والعزل والقبول والدخول ومن جراء بعض التقلبات والتحولات.

والوفر السالف البيان إنما هو الفرق بين التنسيق الجديد والنظام القديم ولذلك فلا بد لنفقات المدارس من أن تظهر عند الصرف أقل من مبلغ ١٠ بارات و ٣٣٧ قرشا و ١٣٢٥٧ كيسا الذى هو جملة باقى السجل المقدم .

وها نحن أولاء نقدم سجل التنسيقات المؤلف من أربع وثلاثين صحيفة والذى أكبت اللجنة منذ شهر على تنظيمه وترتيبه عسى أن يحظى من الأنظار العالية باطلاعها على مضمونه ، حتى إذا وقع موقع القبول تفضلتم فتوجتموه وزينتموه بالأمر العالى الكريم ثم رددتموه إلينا لاتباعه والعمل بموجبه .

الملحق الرابع عشر

بعض السنوات الهجرية وما يوافق أولها فى التقويم الميلادى

١٢١٩ — ١٢٦٦ هـ = ١٨٠٤ — ١٨٤٩ م

السنة الهجرية	أولها فى التقويم الميلادى	السنة الهجرية	أولها فى التقويم الميلادى
١٢١٩	١٢ أبريل ١٨٠٤	١٢٤٣	٥ يوليه ١٨٢٧
١٢٢٠	أول — ١٨٠٥	١٢٤٤	١٤ — ١٨٢٨
١٢٢١	٢١ مارس ١٨٠٦	١٢٤٥	٣ — ١٨٢٩
١٢٢٢	١١ — ١٨٠٧	١٢٤٦	٢٢ يونيه ١٨٣٠
١٢٢٣	٢٨ فبراير ١٨٠٨	١٢٤٧	١٢ — ١٨٣١
١٢٢٤	١٦ — ١٨٠٩	١٢٤٨	٣١ مايو ١٨٣٢
١٢٢٥	٦ — ١٨١٠	١٢٤٩	٢١ — ١٨٣٣
١٢٢٦	٢٦ يناير ١٨١١	١٢٥٠	١٠ — ١٨٣٤
١٢٢٧	١٦ — ١٨١٢	١٢٥١	٢٩ أبريل ١٨٣٥
١٢٢٨	٤ — ١٨١٣	١٢٥٢	١٨ — ١٨٣٦
١٢٢٩	٢٤ ديسمبر ١٨١٣	١٢٥٣	أول — ١٨٣٧
١٢٣٠	١٤ — ١٨١٤	١٢٥٤	٢٧ مارس ١٨٣٨
١٢٣١	٣ — ١٨١٥	١٢٥٥	١٧ — ١٨٣٩
١٢٣٢	٢١ نوفبر ١٨١٦	١٢٥٦	٥ — ١٨٤٠
١٢٣٣	١١ — ١٨١٧	١٢٥٧	٢٣ فبراير ١٨٤١
١٢٣٤	٣١ أكتوبر ١٨١٨	١٢٥٨	١٢ — ١٨٤٢
١٢٣٥	٢٠ — ١٨١٩	١٢٥٩	أول — ١٨٤٣
١٢٣٦	٩ — ١٨٢٠	١٢٦٠	٢٢ يناير ١٨٤٤
١٢٣٧	٢٨ سبتمبر ١٨٢١	١٢٦١	١٠ — ١٨٤٥
١٢٣٨	١٨ — ١٨٢٢	١٢٦٢	٣٠ ديسمبر ١٨٤٥
١٢٣٩	٧ — ١٨٢٣	١٢٦٣	٢٠ — ١٨٤٦
١٢٤٠	٢٦ أغسطس ١٨٢٤	١٢٦٤	٩ — ١٨٤٧
١٢٤١	١٦ — ١٨٢٥	١٢٦٥	٢٧ نوفبر ١٨٤٨
١٢٤٢	٥ — ١٨٢٦	١٢٦٦	١٧ — ١٨٤٩

مراجع البحث

أولا – المراجع العربية والتركية :

(١) وثائق لم تنشر .

(٢) كتب عربية ومعربة .

(٣) مقالات فى صحف ومجلات .

ثانيا – المراجع الأفرنجية :

(١) كتب المراجع «Bibligraphies»

(٢) وثائق مطبوعة .

(٣) كتب خاصة بالتعليم فى مصر وفرنسا وانجلترا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

(٤) كتب عامة ورحلات فى عصر محمد على خاصة .

(٥) مقالات فى صحف ومجلات .

أولا – المراجع العربية والتركية

١ – وثائق لم تُنشَر

نستطيع أن نقسم المحفوظات التاريخية الموجودة فى مصر إلى سنة ١٨٧٩ (نهاية حكم الخديو إسماعيل) قسمين تبعاً لمكان وجودها :

القسم الأول : المحفوظات التاريخية بديوان جلالة الملك بسراى عابدين ومحتوياته هى :

(١) سجلات ووثائق أفرنجية (أكثرها بالفرنسية [١] وقليل منها باللغات الأوربية الأخرى)

(٢) سجلات ووثائق تركية .[٢]

(٣) سجلات وقليل من الوثائق العربية .[٣]

والسجلات والوثائق الأفرنجية بعابدين كانت بها منذ وجدت ، أما السجلات والوثائق التركية فقد نقلت إلى قسم المحفوظات التاريخية بديوان جلالة الملك فى النصف الثانى من شهر ديسمبر ١٩٣١ ، ثم نقلت إليه السجلات والوثائق العربية فى منتصف سنة ١٩٣٣ .

القسم الثانى : المحفوظات العمومية بالقلعة ، وأكثره يتعلق بمسائل إدارية وحسابية باللغتين التركية والعربية وبعض اللغات الأفرنجية . وفى القلعة كذلك دفاتر ووثائق الروزنامجة .[٤]

أما الوثائق التى يرجع تاريخها إلى ما بعد سنة ١٨٧٩ فانها مقسمة أيضاً بين

(١) ومنها الأوراق الخاصة ببعثة سنة ١٨٤٤ إلى فرنسا ، وقد أخذنا لبعضها اللوحات ٩،٨،٧ التى تراها فى آخر الكتاب .

(٢) ومنهـا دفاتر المعية ودفاتر ومحافظ مجلس الملكية ودفاتر ومحافظ ديوان المدارس وهى التى انتفعنا بما جاء فيها خاصا بالتعليم وسيأتى تفصيل بيانها بعد .

(٣) ومنها الدفاتر العربية لديوان المدارس وسيأتى تفصيل بيانها بعد .

(٤) تجد بيـانا مفصلا عن هذه الدفاتر والوثائق فى مؤلف : Deny, Sommaire des Archives Turques au Caire, p. p. 519-548.

عابدين والقلعة : إذ تضم محفوظات عابدين جميع السجلات والوثائق الخاصة بالمعية حتى الوقت الحاضر . كما أن بالقلعة دفاتر ومحفوظات الحكومة ، إلا أن مجلس الوزراء والوزارات المختلفة تحتفظ كل منها بأهم محفوظاتها ، كما أن بمحفوظات مجلس النواب مضابط وأوراق المجالس النيابية منذ بدأت فى عصر اسماعيل .

ويجدر بنا فى هذا المقام أن ننوه باهتمام المغفور له جلالة الملك فؤاد بجمع صور من جميع الوثائق التاريخية الخاصة بمصر والموجودة بدور المحفوظات فى الخارج، فجمعت وثائق على جانب كبير من الأهمية من محفوظات الولايات المتحدة الأمريكية والروسيا والسويد وفرنسا والنمسا وانجلترا وإيطاليا واليونان وبولونيا .

وفيما يلى بيان الدفاتر والأوراق التى انتفعنا بها فى بحث تاريخ التعليم فى عصر محمد على . (١)

أولا — دفاتر المعية (تركى) :

سنة ١٢٢٢ — ١٢٩٠ هـ = ١٨٠٧ — ١٨٧٤ م

تحتوى هذه الدفاتر على صور (أوامر) الجناب العالى إلى مختلف الدواوين ومديرى الأقاليم ، كما تحتوى على صور (الافادات) الصادرة من المعية إلى الدواوين والأقاليم عدا دفاتر (الفهرست) التى لا تحتوى إلا على صور (الافادات) الصادرة من المعية والواردة إليها .

ا — سنة ١٢٢٢ — ١٢٥٣ هـ = ١٨٠٧ — ١٨٣٧ م

من دفتر ١ إلى دفتر ٩١

يبدأ دفتر رقم ١ من دفاتر المعية بسنة ١٢٢٢ هجرية (١١ مارس ١٨٠٧ م). ويحتوى دفتر رقم ٢ على المعاهدة التجارية التى أبرمت بين الباب العالى والروسيا فى سنة ١١٩٧ ، ثم يبدأ دفتر رقم ٣ من ٢ شوال ١٢٣٢ (٥ أغسطس ١٨١٨) ، ثم تستمر سلسلة هذه الدفاتر من غير انقطاع ، حتى إذا كان شهر ذى القعدة ١٢٥٢ (فبراير ١٨٣٧) بلغت هذه الدفاتر ٩١ دفتراً وعندها تنقطع السلسلة .

---

(١) هذه البيانات مستقاة من قسم المحفوظات التاريخية بديوان جلالة الملك ومؤلف Deny القيم عن الوثائق التركية بالقاهرة .

ب — سنة ١٢٥٣ — ١٢٦٠هـ = ١٨٣٧ — ١٨٤٥ م

من دفتر ١٥٨ إلى دفتر ٣٦٧ .....

وهذه الدفاتر نوعان :

النوع الأول : يحتوى على الأوامر والافادات الصادرة يومياً من المعية .

والعنوان الكامل لهذه الدفاتر هو (يومية صادر أوامر وإفادات) أو (أوامر) فقط أو (إفادات بشوراى المعاونة) ، وفى بعض الأحيان تسبق كلمة (يومية) بكلمة (قيد) أو تحل هذه محل الأولى .

النوع الثانى : دفاتر (فهرست) صادر ووارد إفادات .

ويسير العمل فى هذين النوعين من الدفاتر معاً : فلكل سنة دفاتر (يومية) ثم دفاتر (فهرست) وهكذا .

وهذه الأوامر والأفادات موزعة على عدة أقلام : الأقاليم والجفالك والايرادات والملكية والجهادية والعرايض والحسابات والفاوريقات (المصانع) والقناطر .

ج — سنة ١٢٥٩ — ١٢٨٨هـ = ١٨٤٣—١٨٧٢ م

من دفتر ٣٦٨ الى دفتر ٥٨٥ .

والأوامر والافادات موزعة فى هذه الدفاتر طبقاً لتواريخها : فالخمسة الأولى منها خاصة بسنة ١٢٥٩ والخمسة عشر دفتراً التالية خاصة بسنة ١٢٦٠ وهكذا . ولكننا لم نعن فى بحث هذه الدفاتر — ونحن نؤرخ التعليم فى عصر محمد على — إلا إلى دفتر ٤٧٤ وتنتهى عنده سنة ١٢٦٥ (نوفمبر ١٨٤٩) .

ودفاتر المعية هى وحدها أوراق الحكومة التى تستقى منها المعلومات عن التعليم قبل ١٨٣٦ ، أى قبل أن ينشأ شورى المدارس وتبدأ الدفاتر التركية للشورى والديوان.

وفى دفاتر المعية طائفة قيمة من أوامر محمد على إلى مديرى الأقاليم بشأن إنشاء المكاتب الابتدائية فى سنة ١٨٣٣. وهى لذلك تلقى ضوءاً على العهد الأول من تاريخ تلك المكاتب ، كما أنا استقينا منها معلومات هامة عن تنظيم التعليم فى ١٨٣٦—١٨٣٧.

وأهم ما تمتاز به الوثائق المستخرجة من دفاتر المعية أنها تظهر بجلاء مدى اهتمام محمد على بالتعليم والمدارس ، وهو العامل الشخصى الذى كان يسند التعليم فى ذلك العصر.

ثانيا — دفاتر مجلس الملكية (تركى) :[١]

سنة ١٢٤٨ — ١٢٥٣ هـ = ١٨٣٢ — ١٨٣٧ م

لم يبق من هذه الدفاتر إلا ثمانية تحتوى على (أوامر) الجناب العالى التى كان يصدرها على أثر (مذكرات) مجلس الملكية .

وهذه الدفاتر تحمل أرقام ١١٩ (ويبدأ بآخر رجب ١٢٤٨ = ٢٣ ديسمبر ١٨٣٢) ، ١٢٥ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٦ (سنة ١٢٥٣ = من ٧ ابريل ١٨٣٧ إلى ٢٦ مارس ١٨٣٨) .

ومن هذه الدفاتر يحتوى دفتر ١٤٥ على أوامر محمد على إلى شورى وديوان المدارس من ٢٦ ذى الحجة ١٢٥١ إلى ٢٦ صفر ١٢٥٣ (من ١٣ ابريل ١٨٣٦ إلى أول يونية ١٨٣٧) . وإذا عرفنا أن هذه الفترة القصيرة من أهم المراحل فى تاريخ التعليم فى عصر محمد على — إذ هى فترة تنظيم التعليم بوضع اللوائح وإنشاء شورى وديوان المدارس — أدركنا القيمة التاريخية لهذه الوثائق . وهى — من هذه الناحية — تكمل مجموعة أوامر الوالى المثبتة فى دفاتر المعية .

ثالثا — محافظ مجلس الملكية (تركى) :[٢]

من رقم ١ إلى رقم ٥

سنة ١٢٤٥ — ١٢٥٤ هـ = ١٨٢٩ — ١٨٣٨ م (تنقصها بعض سنوات)

وتضم هذه المحافظ الخمس أوامر الجناب العالى إلى مجلس الملكية فى سنوات ١٢٤٥ ، ١٢٤٩ — ١٢٥٤ . ومجموع ما بها من وثائق ١٦١١ وثيقة .

والفارق بين الدفتر والمحفظة أن الأول يثبت (صور) الأوامر والمكاتبات ،

---

(١) كان مجلس الملكية ملحقا بديوان الملكية ، وكان يدعى أحيانا «مجلس عالى الملكية» أو «مجلس عالى الداورى» أو «المجلس العالى» فقط . وقد أنشىء فى سنة ١٢٤٠ (٢٦ اغسطس ١٨٢٤ — ١٥ اغسطس ١٨٢٥) ويظهر أنه ألغى فى سنة ١٢٥٤ ، وعلى أى حال فانه لم يكن موجوداً فى سنة ١٢٥٨ (Deny, op. cit. p. 108 – 109.)

أما الثانية فتحتوى على هذه الأوامر والمكاتبات نفسها . على أن المحافظ لا تضم كل الأوامر المثبتة فى الدفاتر وعلى العكس من ذلك تجد فى الدفاتر صور الأوامر كلها التى تضمها المحافظ ، فالدفاتر — من هذه الناحية — أكثر جدوى وأعم فائدة. على أن ما بقى من دفاتر مجلس الملكية ومحافظه على السواء قليل العدد .

رابعاً — الدفاتر التركية لشورى وديوان المدارس :[1]

من دفتر ٢٠٠٠ إلى دفتر ٢١٤٩

سنة ١٢٥١ — ١٢٧٠ هـ = ١٨٣٦ — ١٨٥٤ م

تبدأ هذه الدفاتر منذ أنشىء شورى المدارس فى ٩ ذى القعدة ١٢٥١ (٢٦ فبراير ١٨٣٦) وبعض هذه الدفاتر تحمل عنوان (قيد المضابط) والأخرى (قيد الخلاصات) أو (قيد العموم) أو (قيد عموم دواوين) أو (عرضحال) أو أسماء (الأقلام) التى تتألف منها ديوان المدارس وهى قلم المهمات وقلم الأشخاص وقلم الهندسة وقلم الخزينة .

ويمكن أن نقسم هذه الدفاتر قسمين :

أ — دفاتر الشورى .

ب — دفاتر الديوان .

أ — دفاتر قيد المضابط من دفتر ٢٠٠٠ إلى دفتر ٢٠٢٣

وتحتوى على مضابط جلسات شورى المدارس . ويبدأ دفتر ٢٠٠٠ بمحرم ١٢٥٢[2] ويليه دفتر ٢٠٠١ ويبدأ بذى القعدة ١٢٥١، وفى أولى صفحاته بيان إلى المدارس بانشاء الشورى فى أول جلسة عقدها فى ١٧ ذى القعدة ١٢٥١

---

(١) أنشىء شورى المدارس فى ٩ ذى القعدة ١٢٥١ (٢٦ فبراير ١٨٣٦) ثم أنشىء ديوان المدارس فى أوائل ذى القعدة ١٢٥٢ (١٠ أو ١١ فبراير ١٨٣٧) وألغى فى ١٠ ربيع الأول ١٢٧١ (٢ ديسمبر ١٨٥٤) . انظر الفصل الثانى من الكتاب الثانى : التنظيم الأول — إنشاء شورى المدارس وديوان المدارس ص ٩٣ — ١٢٢

(٢) ذكر Deny (ص ٤٣٥) أن دفتر ٢٠٠٠ يضم الوثائق الخاصة بسنة ١٢٥٠ هـ ولكن بفحص هذا الدفتر وجدنا أن الوثائق التى به يرجع تاريخها إلى سنة ١٢٥٢ ، ثم يليه دفتر ٢٠٠١ ويضم وثائق من ١٧ ذى القعدة ١٢٥١ إلى غرة المحرم ١٢٥٢

وقد جرى العمل فى مضابط جلسات شورى المدارس على النحو الآتى:[١]

تبدأ المضبطة بذكر اليوم الذى عقدت فيه الجلسة، وأحيانا تنص — تحت اسم كل عضو — على الوقت الذى حضر فيه (بالساعة والدقيقة)، ثم تتلى التقارير الواردة للشورى، ومن ثم تبدأ مناقشة الأعضاء بأن يقرر عن المسألة المطروحة عضو أو أكثر فيرد عليه آخر ثم يتخذ المجلس ما يعن له من قرارات . وبعد ذلك ينتقل الأعضاء إلى بحث مسائل أخرى على النحو السابق. ولهذا تجد فى مضبطة الجلسة الواحدة بيانات وقرارات عدة عن مسائل متنوعة. وفى ختام الجلسة يوقع الأعضاء على المضبطة بامضاءاتهم أو (يبصمونها) بأختامهم عادة. وترى فى نهاية المضبطة إشارة إلى أنها قد رفعت إلى (الجناب العالى) لاستصدار موافقته على ما اتخذ من قرارات وإشـارة أخرى بأن (الجناب العالى) قد اطلع عليها وأعادها .

ولدفاتر شورى المدارس قيمة تاريخية جليلة : فقد بدأت على أثر إنشاء شورى المدارس لتنظيم المدارس طبقا للوائح التى وضعت لمراحل التعليم ومدارسه ، وفى مضابطها تقارير مستفيضة عن جهود الشورى فى هذه الناحية وبيانات قيمة عن حالة المكاتب والمدارس فى سنة ١٨٣٦ — ١٧٣٧ .

وهى — من هذه الوجهة — توضح ناحية كانت غامضة كل الغموض بل منعدمة فى غيرها من الدفاتر والأوراق والمؤلفات .

ب — دفاتر الديوان (صادر ووارد) من دفتر ٢٠٢٤ إلى دفتر ٢١٤٩ .

تبدأ الدفاتر من دفتر ٢٠٢٤ فى تقييد صور (الافادات) الصادرة والواردة لديوان المدارس من (الفروع) التابعة له وهى المدارس وبعض المصالح ومن (العموم) أى الأقاليم والدواوين والمصالح الأخرى .

وتنتهى سلسلة الدفاتر برقم ٢١٤٩ (١٢٧٠ هـ = ١٨٥٣ م) ولكننا لم ندرس من هذه الدفاتر إلا إلى دفتر ٢١٣٣ وتنتهى عنده سنة ١٢٦٥ (١٨٤٩) .[٢]

---

(١) تجد فى لوحة (٣) صورة جزء من مضبطة أول جلسة عقدها شورى المدارس وفى لوحة (٤) صورة جزء من المضبطة التى أعلن فيها مختار بك إنشاء ديوان المدارس .

(٢) تجد فى لوحة (٥) صورة جزء من إحدى صفحات دفتر تركى لديوان المدارس .

والمتتبع لهذه الدفاتر الفاحص عن موضوعاتها يرى أنها كانت تعنى بتسجيل الناحية « الفنية » من التعليم تاركة الناحية « الادارية » للدفاتر العربية . ففيها تقارير المفتشين وبرامج الدراسة ونتائج الامتحانات . ومن النواحي الهامة التي أظهرتنا عليها هذه الدفاتر تطور حركة التعليم في سنة ١٨٤١ (١٢٥٧ هـ) : فقد ورد في أحدها التقرير الخاص بالغاء المكاتب والمدارس الابتدائية والتجهيزية في ٢٤ شعبان سنة ١٢٥٧ (١١ أكتوبر ١٨٤١)(١) ثم التقرير الهام الذي وضعته اللجنة التي أعادت النظر في التعليم في مصر بعد ذلك ببضعة شهور .(٢)

ومما يزيد في قيمة هذه الدفاتر أنها تبدأ منذ بدأ تنظيم التعليم لأول مرة في عصر محمد علي (١٨٣٦ — ١٨٣٧) وتستمر حتى نهاية هذا العصر بل إلى ما بعده بسنوات عدة .

لهذا يمكن القول بأن هذه الدفاتر ترسم صورة جلية للتعليم في مصر منذ تنظيمه في ١٨٣٦ — ١٨٣٧ (١٢٥١ — ١٢٥٢) حتى نهاية عصر محمد علي والسنوات الأولى من عصر عباس الأول وقد وقف عندها البحث .

خامساً — محافظ ديوان المدارس :(٣)

من محفظة ١ إلى محفظة ٤

سنة ١٢٥١ — ١٢٩١ هـ = ١٨٣٦ — ١٨٧٥ م

وتحتوي على أوامر الجناب العالي إلى ديوان المدارس . وتبدأ هذه الأوامر من سنة ١٢٥١ (١٨٣٦) إلى سنة ١٢٧١ (١٨٥٤) ثم شعبان ١٢٧٩ (١٨٦٢) ثم من سنة ١٢٨٣ إلى سنة ١٢٩١ (١٨٦٦ — ١٨٧٥)

وعدد الوثائق التي تضمها هذه المحافظ الأربع ٩٧٩ وثيقة درست منها ٧٥٣ وثيقة وهي التي تضمها المحافظ الثلاث الأولى وتنتهي عندها سنة ١٢٦٥ (١٨٤٩) .

---

(١) انظر الملحق الثاني عشر : ص ٧٣٨

(٢) انظر الملحق الثالث عشر : ص ٧٣٩

(٣) تجد في لوحة (١) صورة أمر محمد علي إلى مختار بك باشاء ديوان المدارس وهو مستخرج من محفظة (١) مدارس .

وهذه الأوامر (العالية) — تعد بطبيعتها هذه — مكملة للأوامر الواردة في دفاتر المعية ودفاتر ومحافظ مجلس الملكية .

سادسا — الدفاتر العربية لديوان المدارس : (١)

وهي وحدها الوثائق العربية التي أتيح لنا الاطلاع عليها ودرسها بأنفسنا . وهي لقيد (الافادات) الصادرة والواردة لديوان المدارس من (الفروع) وهي المدارس والمصالح التابعة له و (العموم) وهي الدواوين والأقاليم . ويبدأ دفتر رقم ١ في ٢٦ شعبان ١٢٦٠ (١٨٤٤ م) . وهي مقسمة أجزاء بين هذه (الفروع) (والعموم) فالدفاتر من رقم ١ ج ١ إلى رقم ٧ ج ٧ قيدت بها صور الافادات الصادرة من الديوان إلى (العموم) في المدة من ٢٦ شعبان ١٢٦٠ إلى ٧ رمضان ١٢٦١ وتليها الدفاتر من رقم ٨ ج ١ إلى رقم ١٣ ج ٦ . وقيدت بها صور الافادات الصادرة من الديوان إلى (الفروع) في الفترة السابقة ثم تليها الدفاتر من رقم ١٤ ج ١ لقيد الافادات الواردة إلى الديوان من (العموم) ثم من رقم ١٧ ج ١ لقيد الافادات الواردة الى الديوان من (الفروع) في هذه الفترة نفسها ، ثم تعود الدفاتر إلى قيد صادر العموم فالفروع ثم وارد العموم فالفروع في عشرة أيام أخرى وهكذا ، كما هو مبين في البيانات التالية . حتى إذا كانت نهاية عصر محمد علي (١٢٦٥ = ١٨٤٩) وصلت هذه الدفاتر إلى رقم ١٦٧ ج ١٠ (وارد المدارس) إلا بعض دفاتر (نحو ١٤ دفترا) ناقصة . يضاف إلى ذلك دفتر بدون رقم قيدت به بعض أوامر لمحمد علي في سنة ١٢٦٢ .

وتستمر سلسلة الدفاتر العربية بعد عصر محمد علي فيما عدا الفترة التي ألغى فيها ديوان المدارس في عهد سعيد ، حتى إذا انتهى عصر اسماعيل (١٨٧٩) وصلت هذه السلسلة إلى رقم ٥٥٥ (وارد) يضاف اليها دفتران بدون رقم قيدت بهما بعض أوامر لاسماعيل في سنتي ١٢٨١ و ١٢٨٥ (١٨٦٥ و ١٨٦٩) و ١٥ دفترا (من رقم ١ إلى رقم ١٥) في سلسلة أخرى . وبعد سنة ١٨٧٩ م تنقطع سلسلة الدفاتر العربية .

---

(١) تجد في لوحة (٦) صورة صفحة من دفتر عربي لديوان المدارس .

بقسم المحفوظات التاريخية بديوان جلالة الملك وتستمر بالمحفوظات المصرية بالقلعة.[1]

وفائدة هذه الدفاتر فى جلاء تطور تاريخ التعليم فى عصر محمد على محدودة بالقياس إلى الدفاتر التركية ، فانا لا نجد منها فى المحفوظات إلا من سنة ١٨٤٤ أى قبل انتهاء عصر محمد على بخمس سنين فقط ، أما الدفاتر السابقة لهذا التاريخ فقد (أعدمت بالحرق) فى القلعة منذ سنتين ، ولهذا لا نجد بها معلومات عن حركتى التنظيم الأساسيتين اللتين يتوقف عليهما تاريخ التعليم فى هذا العصر : وهما حركة ١٨٣٦ وحركة ١٨٤١. ولكن هذه الدفاتر تجلو لنا ناحية هامة وهى الناحية (الادارية) للتعليم : ففيها بيانات قيمة عن حياة التلاميذ فى المدارس والنظم التى كانوا يخضعون لها فى التصرف بأوقات دراستهم وعطلتهم والكتب التى كانوا يقرأون ومواد الغذاء والأدوات المدرسية .. الخ . وهى — من هذه الناحية — خير مكمل للدفاتر التركية التى تبدأ مجموعتها قبل الدفاتر العربية الموجودة بأربع سنوات .

وإتماما للفائدة نثبت فيما يلى بيانا مفصلا بالدفاتر التى أتيح لنا درسها من دفاتر ديوان المدارس التركية ثم العربية حتى نهاية عصر محمد على .

---

(١) يمكن القول إن هذه السلسلة مستمرة إلى الوقت الحاضر ، فان ديوان المدارس الذى دعى بعد ذلك نظارة ثم وزارة المعارف ظل قائما منذ أعيد فى أوائل حكم اسماعيل إلى الوقت الحاضر وظلت له دفاتره العربية .

دفاتر ديوان المدارس التركية

رقم الدفتر	التاريخ		عدد الأوراق	ملاحظات
	من	إلى		
٢٠٠٠	٢٥ القعدة ١٢٥١	٨ القعدة ١٢٥٢	٥٠	قيد الخلاصات
٢٠٠١	١٧ ذى القعدة ١٢٥٢	غرة محرم ١٢٥٢	١٠٥	قيد المضابط
٢٠٠٢	٢ محرم ١٢٥٢	٢ صفر ١٢٥٢	٩٤	قيد المضابط
٢٠٠٣	١٦ صفر ١٢٥٢	١٣ ربيع الثانى ١٢٥٢	٢٨	قيد الجرنال
٢٠٠٤	غرة ربيع الأول ١٢٥٢	٣ ربيع الثانى ١٢٥٢	١٠٨	قيد صادر مضابط
٢٠٠٥	٣ صفر ١٢٥٢	آخر صفر ١٢٥٢	١٠٢	قيد المضابط
٢٠٠٦	٢ جماد أول ١٢٥٢	آخر جماد أول ١٢٥٢	٩٠	قيد المضبطة
٢٠٠٧	٤ ربيع الثانى ١٢٥٢	غرة جماد أول ١٢٥٢	١١٧	قيد المضابط
٢٠٠٨	١٩ القعدة ١٢٥١	٦ جماد ثان ١٢٥٣	١٤٦	فهرست قيد الخلاصات
٢٠٠٩	١٥ جمادى الأولى ١٢٥٢	٢٧ صفر ١٢٥٣	٩٤	فهرست مجلس قيد الخلاصات
٢٠١٠	٢٧ الحجة ١٢٥١	٢٩ محرم ١٢٥٢	٤٠	دفتر قيد الجرنال
٢٠١١	٢ الحجة ١٢٥١	١٦ محرم ١٢٥٣	١٨٢	قيد صادر الخلاصات
٢٠١٢	٢٠ الحجة ١٢٥١	٢٣ محرم ١٢٥٣	٤٨	قيد خلاصات شورى الأطباء
٢٠١٣	٢٨ جماد ثان ١٢٥١	٢٠ شوال ١٢٥١	٥	قيد الخلاصات
٢٠١٤	٢٨ جماد أول ١٢٥٢	٥ صفر ١٢٥٣	٥٠	قيد صادر الخلاصات
٢٠١٥	غرة جماد ثان ١٢٥٢	آخر جماد ثان ١٢٥٢	١٠٨	دفتر قيد المضبطة
٢٠١٦	٢٩ جماد ثان ١٢٥٢	آخر رجب ١٢٥٢	١٥٢	قيد المضابط
٢٠١٧	١٦ رجب ١٢٥٢	٥ صفر ١٢٥٣	١٩٠	قيد صادر الخلاصات
٢٠١٨	غرة شعبان ١٢٥٢	آخر شعبان ١٢٥٢	١٦٦	قيد المضابط
٢٠١٩	غرة رمضان ١٢٥٢	٢٠ رمضان ١٢٥٢	١٤٨	قيد المضابط
٢٠٢٠	٤ شوال ١٢٥٢	آخر شوال ١٢٥٢	١٦٢	دفتر قيد المضابط
٢٠٢١	غرة القعدة ١٢٥٢	آخر القعدة ١٢٥٢	٢٢٢	دفتر قيد المضابط
٢٠٢٢	غرة الحجة ١٢٥٢	آخر الحجة ١٢٥٢	١٨٤	قيد المضابط
٢٠٢٣	٢ محرم ١٢٥٣	٣ صفر ١٢٥٣	١٣٠	قيد المضابط

رقم الدفتر	التاريخ من	إلى	عدد الأوراق	ملاحظات
٢٠٢٤	٤ القعدة ١٢٥٢	٨ رجب ١٢٥٣	٩٦	قيد صادر خلاصات الأطباء
٢٠٢٥	١٠ صفر ١٢٥٣	٥ رجب ١٢٥٣	١٠٠	» صادر
٢٠٢٦	١ » »	١٧ جمادى الثانية ١٢٥٣	٤٨	» صادر
٢٠٢٧	» » »	١٢ رجب ١٢٥٣	٩٨	يومية صادر
٢٠٢٨	٩ رجب ١٢٥٣	١٨ صفر ١٢٥٤	١٠٢	قيد صادر قلم أشخاص
٢٠٢٩	١٠ رجب ١٢٥٣	١٦ جمادى الاولى ١٢٥٤	١٠٠	قيد صادر بقلم المهمات
٢٠٣٠	١٨ جمادى الثانية ١٢٥٣	١٠ رجب ١٢٥٣	٩٨	» صادر
٢٠٣١	٦ رمضان ١٢٥٣	٢٠ جمادى الثانية ١٢٥٤	٩٨	» صادر إلى الجهات
٢٠٣٢	آخر القعدة ١٢٥٣	٢٢ ربيع الاول ١٢٥٦	٢٤	» صادر العرضحالات
٢٠٣٣	٦ رجب ١٢٥٣	آخر الحجة ١٢٥٣	١٠٠	» وارد
٢٠٣٤	» » »	١٩ جمادى الثانية ١٢٥٤	٩٨	» وارد المهمات
٢٠٣٥	٧ » »	٢١ » الثانية ١٢٥٤	١٠٠	» وارد أودة الأشخاص
٢٠٣٦	٩ » »	١٦ » الثانية ١٢٥٤	١٠٢	» وارد المهمات
٢٠٣٧	غرة محرم ١٢٥٤	١٥ » الاولى ١٢٥٤	١٠٠	» مآل الوارد بنمرة عموم ج ٢
٢٠٣٨	١٦ جمادى الاولى ١٢٥٤	٢٠ جمادى الثانية ١٢٥٤	٥٠	» مآل الوارد عموم
٢٠٣٩	٢١ » الثانية »	آخر شوال ١٢٥٤	١٠٠	» وارد
٢٠٤٠	٢١ » » »	آخر الحجة ١٢٥٤	١٠٠	» وارد قلم المهمات
٢٠٤١	٢٢ » » »	آخر الحجة ١٢٥٤	١٠٠	» وارد قلم أشخاص
٢٠٤٢	١٩ صفر ١٢٥٤	٢٠ جمادى الثانية ١٢٥٤	١٠٠	» صادر
٢٠٤٣	٢٢ جمادى الثانية ١٢٥٤	آخر الحجة ١٢٥٤	١٠٠	» صادر المدارس (دواوين)
٢٠٤٤	٢١ » » »	» » »	١٠٠	» صادر قلم أشخاص
٢٠٤٥	٢٤ » » »	» » »	١٠٠	» صادر قلم مهمات
٢٠٤٦	٢٤ محرم ١٢٥٥	٢٩ » ١٢٥٥	١٠٠	» صادر عموم بقلم خزينة وهندسة
٢٠٤٧	٢ محرم ١٢٥٥	٢١ محرم ١٢٥٥	١٠٠	» صادر بقلم مهمات
٢٠٤٨	غرة محرم ١٢٥٥	آخر الحجة ١٢٥٥	١٠٢	شطب صادر مهمات وأشخاص
٢٠٤٩	غرة صفر ١٢٥٥	» » »	١٠٠	قيد صادر ووارد لعموم المدارس
٢٠٥٠	١٠ صفر ١٢٥٥	» » »	١٠٠	شطب قيد صادر ووارد لعموم الدواوين

رقم الدفتر	التاريخ من	إلى	مجموع أوراقه	ملاحظات
٢٠٥١	٦ ربيع الاول١٢٥٥	٤ رمضان١٢٦١	٩٨	شطب صادر لعموم الدواوين
٢٠٥٢	٧ » » »	٢٨ جمادى الثانية١٢٦١	١٠٠	قيد صادر لعموم الدواوين
٢٠٥٣	٢٠ جمادى الثانية١٢٥٤	٢٤ الحجة ١٢٥٤	١٠٠	» وارد بديوان المدارس
٢٠٥٤	غرة محرم ١٢٥٥	٢٦ الحجة ١٢٥٥	١٠٨	» وارد بقلم خزينة وهندسة
٢٠٥٥	آخر الحجة١٢٥٤	٢٢ محرم ١٢٥٥	١٠٠	» وارد المهمات
٢٠٥٦	غرة محرم ١٢٥٥	٢٤ رمضان ١٢٥٥	٩٨	شطب واردالمهمات وأشخاص
٢٠٥٧	١٣ القعدة ١٢٥٤	١١ الحجة ١٢٥٤	١٠٠	قيد وارد المدارس
٢٠٥٨	٩ شوال ١٢٥٥	آخر الحجة١٢٥٥	١٠٠	» صادر أشخاص ومهمات
٢٠٥٩	٢٥ رمضان ١٢٥٥	٢٩ الحجة ١٢٥٥	١٠٠	» واردبقلم مهمات وأشخاص
٢٠٦٠	٢٠ الحجة ١٢٥٥	٢٢شعبان ١٢٥٦	١٠١	» وارد مهمات
٢٠٦١	غرة محرم ١٢٥٦	١٢شعبان ١٢٥٦	١٠٢	» صادر بقلم المهمات وأشخاص
٢٠٦٢	١٢ محرم ١٢٥٦	آخر الحجة١٢٥٦	٨٠	شطب صادر ووارد لعموم الدواوين
٢٠٦٣	٤ محرم ١٢٥٦	» » »	٨٠	» صادر ووارد عموم المدارس
٢٠٦٤	غرة جماد ثان ١٢٥٦	٢٩ الحجة ١٢٥٧	١٠٢	قيد صادر العرضحالات
٢٠٦٥	غرة محرم ١٢٥٦	٢٨ الحجة ١٢٥٦	١١٢	» وارد بقلم الخزينة والهندسة
٢٠٦٦	٢٩ جمادى الاولى١٢٥٦	٢٩ الحجة ١٢٥٧	١٠٠	» وارد العرضحالات
٢٠٦٧	غرة محرم ١٢٥٦	آخر الحجة ١٢٥٦	١٠٦	» صادر عموم الدواوين
٢٠٦٨	١٤ شعبان١٢٥٦	» » »	١٠٠	» صادر عموم الدواوين
٢٠٦٩	٢١ » »	» » »	١٠٠	» وارد بقلم مهمات وأشخاص
٢٠٧٠	آخر الحجة١٢٥٦	١٧ الحجة ١٢٥٧	١٠٠	» وارد لعموم الدواوين
٢٠٧١	٢ محرم ١٢٥٧	٢٥ ربيع الثاني ١٢٥٧	٨٠	» صادر ووارد
٢٠٧٢	٢٤ محرم ١٢٥٧	آخر الحجة ١٢٥٧	٨٨	شطب صادر ووارد لعموم المدارس
٢٠٧٣	غرة محرم ١٢٥٧	٢٩ الحجة ١٢٥٧	١٠٠	قيد صادر لعموم الدواوين
٢٠٧٤	» » »	٦ شعبان ١٢٥٧	١٠٠	فهرست قيد وارد مهمات وأشخاص
٢٠٧٥	» » ١٢٥٨	آخر الحجة١٢٥٨	١٠٠	قيد صادر العرضحلات
٢٠٧٦	» » »	٢٧ الحجة ١٢٥٨	١٠٠	» صادر العرضحلات لعموم الدواوين
٢٠٧٧	» » »	١٨ رجب ١٢٥٨	١٠٠	» وارد لعموم الدواوين

رقم الدفتر	التاريخ من	التاريخ إلى	عدد الأوراق	ملاحظات
٢٠٧٨	٥ محرم ١٢٥٨	٥ القعدة ١٢٥٨	٧٠	قيد صادر ووارد الدواوين
٢٠٧٩	غرة محرم »	٣ رجب »	١٠٠	» » الدواوين
٢٠٨٠	١٨ رجب »	آخر الحجة »	١٠٠	» وارد الدواوين
٢٠٨١	٤ رجب »	» » »	١٠٠	» صادر
٢٠٨٢	٣ رجب ١٢٥٩	» » ١٢٥٩	١١٢	» »
٢٠٨٣	غرة محرم »	٢ رجب ١٢٥٩	١٠٠	» » ووارد الدواوين
٢٠٨٤	» » »	٢٩ القعدة »	٩٠	» » » »
٢٠٨٥	٩ » »	٢٥ القعدة »	٨٠	» » » »
٢٠٨٦	غرة محرم »	٦ القعدة »	٨٠	» » الدواوين
٢٠٨٧	١٢ جادي الثانية »	٧ القعدة »	١٠٠	» وارد الدواوين
٢٠٨٨	غرة محرم »	١١ جادي الثانية ١٢٥٩	٩٨	» » »
٢٠٨٩	» » »	٢٩ الحجة »	٩٦	» صادر العرضحالات
٢٠٩٠	٢ » »	٢٦ » »	١٠٠	» وارد »
٢٠٩١	٢١ ربيع الاول »	٢٩ » »	١٠٠	» وارد الدواوين
٢٠٩٢	٢١ الحجة »	٢٩ شعبان ١٢٦١	١٠٠	» » العرضحالات
٢٠٩٣	غرة محرم ١٢٦٠	٧ صفر ١٢٦٠	٨٠	» صادر ووارد الدواوين
٢٠٩٤	» » »	١٥ جادي الثانية ١٢٦٠	١٠٠	» صادر الدواوين
٢٠٩٥	١١ » »	٢٠ شعبان »	٨٠	» » ووارد الدواوين
٢٠٩٦	٦ جادي الثانية »	٢٦ الحجة »	١٠٠	» » الدواوين
٢٠٩٧	٢٢ رجب ١٢٦١	١١ صفر ١٢٦٢	١٠٠	» » دواوين
٢٠٩٨	١٢ » ١٢٦٠	٨ صفر ١٢٦١	١٠٠	» وارد دواوين
٢٠٩٩	غرة محرم »	١٢ رجب ١٢٦٠	١٠٠	» » »
٢١٠٠	٢٧ شعبان »	٦ رمضان ١٢٦١	٨٠	» صادر ووارد الدواوين
٢١٠١	٣ رمضان »	٢٤ رجب »	١٣٨	فهرست صادر ووارد الدواوين
٢١٠٢	٢٧ شعبان »	٧ رمضان »	٨٠	قيد صادر ووارد فروع ديوان المدارس
٢١٠٣	٢٧ الحجة »	٢١ رجب »	١٠٠	قيد صادر الدواوين
٢١٠٤	٢ محرم »	٧ شعبان »	١٠٠	» صادر عرضحالات الدواوين
٢١٠٥	٢٢ شعبان ١٢٦١	١٦ رمضان ١٢٦٢	٦٠	قيد وارد عرضحلات الدواوين

رقم الدفتر	التاريخ من	التاريخ إلى	عدد أوراقه	ملاحظات
٢١٠٦	٦ رمضان ١٢٦١	١٤ رمضان ١٢٦٢	٧٠	قيد ما آل صادر ووارد الدواوين
٢١٠٧	٨ رمضان »	١٨ » »	٧٠	» فهرست صادر ووارد
٢١٠٨	٨ رمضان »	١٨ » »	٦٠	» صادر عرضحالات الدواوين
٢١٠٩	٦ صفر »	٧ » ١٢٦١	١٠٠	» وارد الدواوين
٢١١٠	٨ رمضان »	٧ ربيع ثان ١٢٦٢	١٠٠	» » »
٢١١١	١١ صفر ١٢٦٢	١٨ رمضان »	١٠٢	» صادر »
٢١١٢	١٩ رمضان »	١٤ صفر ١٢٦٣	٨٠	» صادر الدواوين
٢١١٣	٧ ربيع الثاني »	١٨ رمضان ١٢٦٢	١٠٠	» وارد الدواوين
٢١١٤	١٩ رمضان »	٧ الحجة ١٢٦٣	٨٠	» صادر الدواوين
٢١١٥	٢٢ رمضان »	٤ شوال »	٨٠	» وارد بديوان المدارس
٢١١٦	١٩ رمضان »	١٢ رجب »	٨٠	» وارد الدواوين
٢١١٧	١٦ رجب »	٣ شعبان »	٤٠	» صادر الدواوين جزء ثالث
٢١١٨	٢٥ صفر ١٢٦٣	٢ رمضان »	٨٠	» صادر الدواوين جزء ثان
٢١١٩	١٧ ربيع الثاني »	٢٧ رمضان »	٨٠	» صادر فروع المدارس جزء ثان
٢١٢٠	٤ شوال »	١٦ جمادى الأولى ١٢٦٤	٨٠	» صادر الدواوين جزء ثالث
٢١٢١	٤ شوال »	١٥ جمادى الثانية ١٢٦٤	٨٠	» صادر الدواوين جزء أول
٢١٢٢	٤ جمادى الأولى »	٥ شوال ١٢٦٣	٨٠	» وارد بديوان المدارس
٢١٢٣	٤ شوال »	٤ شعبان ١٢٦٤	٨٠	» وارد المدارس
٢١٢٤	٥ شوال »	١١ شوال »	١٠٠	» » »
٢١٢٥	١٢ شوال ١٢٦٤	٢١ » ١٢٦٥	٦٠	» صادر »
٢١٢٦	١٤ شوال »	٢١ » »	٦٤	» » الدواوين
٢١٢٧	٢٤ ربيع الأول »	١١ » ١٢٦٤	٨٠	» » »
٢١٢٨	جماد أول »	١١ » »	٨٠	» صادر جزء رابع
٢١٢٩	٥ شعبان »	٥ » »	٨٠	» وارد المدارس
٢١٣٠	١٣ شوال »	٢٠ » ١٢٦٥	٦٠	» » الدواوين
٢١٣١	١٢ شوال ١٢٦٤	٢١ » »	٨٠	» » المدارس
٢١٣٢	٢٣ شوال ١٢٦٥	٢٦ ربيع أول ١٢٦٦	٦٢	» » الدواوين جزء أول
٢١٣٣	٢٢ شوال »	٤ رجب ١٢٦٦	١٠٠	» » »

دفاتر ديوان المدارس العربية

رقم الدفتر	التاريخ من	التاريخ إلى	ملاحظات
١ ج ١	٢٦ شعبان ١٢٦٠	٧ رمضان ١٢٦١	صادر الدواوين والأقاليم
٢ ج ٢	»	»	» »
٣ ج ٣	»	»	» »
٤ ج ٤	»	»	» »
٥ ج ٥	»	»	» »
٦ ج ٦	»	»	» »
٧ ج ٧	»	»	» »
٨ ج ١	»	»	» الفروع
٩ ج ٢	»	»	» »
١٠ ج ٣	»	»	» »
١١ ج ٤	»	»	» »
١٢ ج ٥	»	»	» »
١٣ ج ٦	»	»	» »
١٤ ج ١	»	»	وارد الدواوين والأقاليم
١٥ ج ٢	»	»	» » »
١٦ ج ٣	»	»	» » »
١٧ ج ١	»	»	» الفروع
١٨ ج ٢	»	»	» »
١٩ ج ٣	»	»	» »
٢٠ ج ١	٨ رمضان ١٢٦١	١٨ رمضان ١٢٦٢	صادر الدواوين
٢١ ج ٢	»	»	» »
٢٢ ج ٣	»	»	» »
٢٣ ج ٤	»	»	» »
٢٤ ج ٥	»	»	» »

رقم الدفتر	التاريخ		ملاحظات
	من	إلى	
٢٥ = ٦	٨ رمضان ١٢٦١	١٨ رمضان ١٢٦٢	صادر الدواوين
٢٦ = ١	»	»	» الفروع
٢٧ = ٢	»	»	» »
٢٨ = ٣	»	»	» »
٢٩ = ٤	»	»	» »
٣٠ = ٥	»	»	» »
٣١ = ٦	»	»	» »
٣٢ = ٧	»	»	» »
٣٣ = ١	»	»	وارد الدواوين
٣٤ = ٢	»	»	» »
٣٥ = ٣	»	»	» »
٣٦ = ٤	»	»	» »
٣٧ = ٥	»	»	» »
٣٨ = ١	»	»	» الفروع
٣٩ = ٢	»	»	» »
٤٠ = ٣	»	»	» »
٤٣ = ١	١٢٦٢	—	صادر الدواوين والأقاليم
٤٥ = ٣	»	—	» »
٤٧ = ٥	»	—	» »
٤٨ = ٧	»	—	» »
٤٩ = ٨	»	—	» »
٥٠ = ٩	»	—	» »
٥١ = ١٠	»	—	» »
٥٢ = ١١	»	—	» »
٥٣ = ١٢	»	—	» »
٥٤ = ١	»	—	» الفروع

رقم الدفتر	التاريخ		ملاحظات
	من	إلى	
٥٥ ج ٢	١٢٦٢	—	صادر الفروع
٥٦ ج ٣	»	—	» »
٥٧ ج ٤	»	—	» »
٥٨ ج ٥	»	—	» »
٥٩ ج ٦	»	—	» »
٦٠ ج ٧	»	—	» »
٦١ ج ٨	»	—	» »
٦٢ ج ٩	»	—	» »
٦٣ ج ١٠	»	—	» »
٦٤ ج ١١	»	—	» »
٦٥ ج ١٢	»	—	» »
٦٦ ج ١٣	»	—	» »
٦٦ ج ٩	١٢٦٥	—	وارد المدارس
٦٧ ج ١	١٢٦٢	—	وارد الدواوين والأقاليم
٦٨ ج ٢	»	—	» »
٦٩ ج ٣	»	—	» »
٧٠ ج ٤	»	—	» »
٧١ ج ٥	»	—	» »
٧٢ ج ٦	»	—	» »
٧٣ ج ١	»	—	» »
٧٤ ج ٢	»	—	» الفروع
٧٥ ج ٣	»	—	» »
٧٦ ج ٤	»	—	» »
٧٧ ج ٥	»	—	» »
٧٨ ج ٦	»	—	» »
٨٢ ج ١	١٢٦٣	—	صادر الدواوين والأقاليم
٨٣ ج ٢	»	—	» »

رقم الدفتر	التاريخ من	التاريخ إلى	ملاحظات
٨٤ ج ٣	١٢٦٣	—	صادر الدواوين والأقاليم
٨٥ ج ٤	»	—	» »
٨٦ ج ٥	»	—	» »
٨٧ ج ٦	»	—	» »
٨٨ ج ٧	»	—	» »
٨٩ ج ٨	»	—	» »
٩٠ ج ٩	»	—	» »
٩١ ج ١٠	»	—	» »
٩٢ ج ١١	»	—	» »
٩٣ ج ١	»	—	» الفروع
٩٤ ج ٢	»	—	» »
٩٥ ج ٣	»	—	» »
٩٦ ج ٤	»	—	» »
٩٧ ج ٥	»	—	» »
٩٨ ج ٦	»	—	» »
٩٩ ج ٧	»	—	» »
١٠٠ ج ٨	»	—	» »
١٠١ ج ٩	»	—	» »
١٠٢ ج ١	»	—	وارد الدواوين والأقاليم
١٠٣ ج ٢	»	—	» »
١٠٤ ج ٣	»	—	» »
١٠٥ ج ٤	»	—	» »
١٠٦ ج ٥	»	—	» »
١٠٧ ج ٦	»	—	» »
١٠٨ ج ١	»	—	وارد الفروع
١٠٩ ج ٢	»	—	» »
١١٠ ج ٣	»	—	» »

رقم الدفتر	التاريخ		ملاحظات
	من	إلى	
١١١ ح ٤	١٢٦٣	—	وارد الفروع
١١٢ ح ٥	»	—	» »
١١٧ ح ١	١٢٦٤	—	صادر الدواوين والأقاليم
١١٨ ح ٢	»	—	» »
١١٩ ح ٣	»	—	» »
١٢٠ ح ٤	»	—	» »
١٢١ ح ٥	»	—	» »
١٢٢ ح ٦	»	—	» »
١٢٣ ح ٧	»	—	» »
١٢٤ ح ١	»	—	» الفروع
١٢٥ ح ٢	»	—	» »
١٢٦ ح ٣	»	—	» »
١٢٧ ح ٤	»	—	» »
١٢٨ ح ٥	»	—	» »
١٢٩ ح ٦	»	—	» »
١٣٠ ح ١	»	—	وارد الدواوين والأقاليم
١٣١ ح ٢	»	—	» »
١٣٢ ح ٣	»	—	» »
١٣٣ ح ٤	»	—	» »
١٣٤ ح ٥	»	—	» »
١٣٥ ح ١	»	—	» الفروع
١٣٦ ح ٢	»	—	» »
١٣٧ ح ٣	»	—	» »
١٤٠ ح ١	١٢٦٥	—	صادر المدارس
١٤١ ح ٢	»	—	» المدارس
١٤٢ ح ٣	»	—	» ديوان المدارس
١٤٣ ح ٤	»	—	» ديوان المدارس

رقم الدفتر	التاريخ		ملاحظات
	من	إلى	
١٤٤ = ٥	١٢٦٥	—	صادر ديوان المدارس
١٤٥ = ٦	»	—	» »
١٤٦ = ٧	»	—	» »
١٤٧ = ٨	»	—	» »
١٤٨ = ٩	»	—	» »
١٤٩ = ١٠	»	—	» »
١٥٠ = ١١	»	—	» »
١٥١ = ١٢	»	—	» »
١٥٢ = ١٣	»	—	» عموم المدارس
١٥٣ = ١٤	»	—	» ديوان المدارس
١٥٤ = ١٥	»	—	» ديوان المدارس
١٥٥ = ١٦	»	—	» المدارس
١٥٦ = ١٧	»	—	» ديوان المدارس
١٥٧ = ١٨	»	—	» »
١٥٨ = ١	»	—	وارد »
١٥٩ = ٢	»	—	» »
١٦٠ = ٣	»	—	» »
١٦١ = ٤	»	—	» »
١٦٢ = ٥	»	—	» »
١٦٣ = ٦	»	—	» »
١٦٤ = ٧	»	—	» »
١٦٥ = ٨	»	—	» »
١٦٧ = ١٠	»	—	» »

٢ — كتب عربية ومعربة

إسماعيل سرهنك باشا : حقائق الأخبار عن دول البحار (جزءان) القاهرة ١٣١٢ — ١٣١٤ هـ .

أمين سامى باشا : التعليم فى مصر ، القاهرة ١٩١٧

تقويم النيل . الجزء الثانى (عصر محمد على) القاهرة ١٩٢٨

الجبرتى (الشيخ عبدالرحمن) : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (أربعة أجزاء) القاهرة ١٣٢٢ هجرية .

جرجس حنين بك : الأطيان والضرائب فى القطر المصرى . القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤ م

جورجى زيدان بك : تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر . جزءان فى مجلد . القاهرة ١٩٠٢

خيرت افندى : رياض الكتبا وحياض الأدبا . بولاق ١٢٤١ هـ

رفاعة بك رافع الطهطاوى : تخليص الابريز فى تلخيص باريز . القاهرة ١٢٦٥ هجرية .

مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية . القاهرة ١٣٣٠ هـ = ١٩١٢ م .

السيد صالح بك مجدى : حلية الزمن فى وصف مناقب خادم الوطن . (مخطوط بدار الكتب المصرية ليس عليه تاريخ) .

الأستاذ شفيق غربال : الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر سنة ١٨٠١ — القاهرة ١٩٣٢

على مبارك باشا : الخطط التوفيقية . عشرون جزءاً فى خمسة مجلدات ، بولاق ١٣٠٦ هـ

الأمير عمر طوسون : البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهدى عباس الأول وسعيد . الاسكندرية ١٩٣٤

كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر فى مجلدين . ترجمه من الفرنسية الأستاذ محمد بك مسعود — القاهرة (ليس به تاريخ)

كلاپاريد : تقريره عن التعليم فى مصر (معرب عن الفرنسية) القاهرة ١٩٢٦
مان : تقريره عن التعليم فى مصر (معرب عن الانجليزية) القاهرة ١٩٢٦
محمد لبيب البتانونى : تاريخ حياة كلوت بك (معرب عن الفرنسية) القاهرة ١٣٠٨ﻫ
مصطفى بيرم بك : رسالة الأزهر ، ألقاها فى المؤتمر الثالث العشر للمستشرقين
بهامبورج سنة ١٩٠٢ — طبع القاهرة ١٣٢١ ﻫ
وليم موير : تاريخ دولة المماليك فى مصر (معرب عن الانجليزية) . القاهرة ١٩٢٤

٣ — مقالات فى صحف ومجلات

المجلة الطبية المصرية : العدد العاشر ، السنة الحادية عشرة . ديسمبر ١٩٢٨
(عدد خاص بمناسبة العيد المئوى لكلية الطب بالقاهرة)

الوقائع المصرية :

من المصادر الهامة لتاريخ مصر الحديث ، وقد صدر العدد الأول منها فى يوم الثلاثاء ٢٠ من جمادى الأولى سنة ١٢٤٤ (١٨٢٨ م) وكانت تطبع فى مطبعة الحكومة ببولاق ونصفها الأيمن يحرر باللغة التركية والأيسر باللغة العربية ثم طبعت منها نسخ كاملة بالتركية ومثلها بالعربية ، ثم حررت بالعربية فقط حتى الوقت الحاضر .

ولكن المجموعة المحفوظة بدار الكتب المصرية ينقصها سنوات كثيرة والموجود منها هو :

(١) من العدد الأول إلى العدد ٤٥٨ (٢٠ جمادى الأولى ١٢٤٤ — ٢٠ ربيع الثانى ١٢٤٩) . وقد طبعت بعض الأعداد الأخيرة من هذا المجلد « فى مطبعة ديوان الوقايع المصرية بالقلعة العامرة » .

(٢) العددان ١٦ و ١٧ [١] (١٤ و ٢١ جمادى الآخرة ١٢٦٢) وقد طبعا فى مطبعة بولاق .

(٣) من العدد ٦٨ الى العدد ١٣٨ (٢٣ جمادى الآخرة ١٢٦٣ — ٣ ذى الحجة ١٢٦٤)

---

(١) يبدو أن تسلسل أرقام الأعداد لم يتبع فى السنوات الاولى من إصدار الوقائع وأن العدد رقم (١) من المجموعة الثانية يقع فى الأعداد المفقودة من سنة ١٢٤٩ الى سنة ١٢٦٢ .

وهى كلها بالعربية . وفى دار الكتب كذلك مجموعة منها باللغة التركية ، وقد طبعت فى بولاق أيضاً .

(٤) من العدد ٢٤٤ الى الوقت الحاضر (١٣ رجب ١٢٨٥ = ٢٩ اكتوبر ١٨٦٨ — الوقت الحاضر) وكلها باللغة العربية . (١)

ثانيا — المراجع الافرنجية (٢)

١ — كتب المراجع « Bibliographies »

Bulletin de quelques ouvrages historiques, géographiques et sociaux conservés à la Bibliothèque Egyptienne sur Mohammed Ali Pacha et l'Egypte pendant son époque. Le Caire, 1931.

Cambridge Modern History. vols VIII, IX.

+ Deny, J. Sommaire des Archives Turques du Caire. Le Caire, 1930.

Hilmi, Ibrahim (Prince). The Literature of Egypt and the Sudan from the earlies times. 2 vols. London, 1886.

Maunier, R. Bibliographie économique, juridique et sociale de l'Egypte moderne (1798 - 1916). Le Caire, 1918.

٢ — وثائق مطبوعة

Bowring, J. Report on Egypt and Candia. London, 1840.

+ Cattaui, R. Le Règne de Mohamed - Aly d'après les Archives Russes en Egypte : I. Rapports consulaires de 1819 à 1833. Le Caire, 1931 ; II. La Mission du Colonel Duhamel, 1834-1837. 1ère partie Roma, 1933.

---

(١) وقد اشترت الدار أخيرا مجموعة الوقائع الصادرة فى سنة ١٢٨٢ وهى باللغتين التركية والعربية ولكنها لم توضع بعد حيث ينتفع منها الجمهور.

(٢) الكتب التى بجانبها علامة + طبعت برعاية المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول .

2e partie, Roma, 1934. III. La Mission du Comte Médem (1837—1841) et la Mission de M. Krehmer (1841 — 1844). Roma. 1936.

+ Charles-Roux, F. L'Angleterre et l'Expédition française en Egypte. 2 vols. Le Caire, 1925.

Documents concernants le Dr. Clot Bey. Paris, 1862.

+ Douin, G. L'Angleterre et l'Egypte, T. I. la Politique Mameluke, (1801-1803) Le Caire, 1929. T. II. La Politique Mameluke (1803-1807) Le Caire, 1930.

+ ——— L'Egypte de 1802 à 1804. Le Caire, 1925.

+ ——— Mohamed Aly, Pacha du Caire (1805 — 1807) Correspondance des Consuls de France en Egypte. Le Caire, 1926.

+ ——— L'Angleterre en Egypte. La Compagne de 1807. Le Caire, 1928.

+ ——— L'Egypte de 1828 à 1830. Correspondance des Consuls de France en Egypte. Roma, 1935.

+ ——— La Mission du Baron de Boislecomte, l'Egypte et la Syrie en 1833. Le Caire, 1927.

+ ——— Une Mission Militaire auprès de Mohamed Ali. Correspondance des Généraux Belliard et Boyer. Le Caire, 1923.

+ ——— Les Premières Frégates de Mohamed Ali (1824-1827) Le Caire, 1926.

+ ——— Navarin (6 juillet — 20 octobre 1827). Le Caire. 1927.

Driault, Ed. L'Egypte et l'Europe. La Crise. orientale de 1839-1841 La Caire, 1930 - 1931 ; Roma 1933 - 1934.

+ ——— Mohamed Aly et Napoléon, (1807 - 1814). Correspondance des Consuls de France en Egypte. Le Caire 1925.

+ ——— La Formation de l'Empire de Mohamed Aly. 1814-1823 Le Caire, 1928

+ ——— L'Expédition de Crète et de Morée. (1823 - 1828) Le Caire, 1930.

+ Politis, A. Les Rapports de la Grèce et de l'Egypte pendant le règne de Mohamed-Aly, (1833-1849) Le Caire, 1935.

+ ——— Le Conflit turco-égyptien de 1838-1841 et les dernières années du régne de Mohamed-Aly, d'après les documents diplomatiques grecs. Le Caire, 1931.

---

٣ — كتب خاصة بالتعليم فى مصر وفرنسا وانجلترا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر

Adamson, Outline of English Euducation, 1760-1902. Cambridge University Press.

Arminjon, P. L'Enseignement, la Doctrine et la Vie dans les Universités musulmanes d'Egypte. Paris, 1907.

Artin, Yacoub Pacha, L'Instruction Publique en Egypte. Paris, 1890.

——— Considérations sur l'Instruction Publique en Egypte. Le Caire, 1894.

Aulard, Napoléon I et le Monopole Universitaire.

Birchenough, History of Elementary Education in England.

Boktor, Amir. School and Society in the Valley of the Nile. Cairo, 1936.

Clot, Compte rendu des travaux de l'Ecole de Medecine dans les cinq premières années (1827 - 1832). Paris, 1833.

Compayré, G. Histoire critique des doctrines de l'Education en France. 2 vols. Paris, 1881.

Dor, Ed. L'Instruction Publique en Egypte. Paris, 1872.

Galt, Russel. Effects of Centralisation on Education in Egypt. Cairo, 1936.

Lavisse, Histoire de France Contemporaine depuis la Révolution jusqu'à la fin de 1919. vol. I. Paris, 1919 - 1922.

Mahfouz, Dr. Nagib Pacha. History of the Medical Instruction in Egypt. Cairo, 1935.

The Oldest University in the World. Al Azhar and its Reforms. Cairo, 1930.

---

٤ — كتب عامة ورحلات فى عصر محمد على خاصة

Al Besumee, Hassanaine. Egypt under Mohammad Ali Bacha. London, 1837.

Bainville, Jacques. L'Expédition Francaise en Egypte. 1798 - 1801. (Précis de l'Histoire d'Egypte, T. 3. 2e. partie) Le Caire, 1933.

Barker, J. Syria and Egypt under the East Five Sultans of Turkey. 2 vols. London, 1876.

Bréhier, L' Etudes d'Histoire contemporaine d'Egypte de 1798 à 1900. Paris, 1900.

Cadalvène et Breuvery, L'Egypte et la Nubie. 2 vols. Paris, 1841.

Cameron, D. A. Egypt in the 19th. century or Mehemet Ali and his Successors until the British Occupation in 1882. London, 1898.

Clot Bey, Histoire de Mehemet Ali, Vice - Roi d'Egypte. 2e. éd. Paris, 1860.

+Combe, Etienne. L'Egypte Ottomane. De la Conquête par Sélim (1517) à l'Arrivée de Bonaparte (1798). (Précis de l'Histoire d'Egypte, T. 3. 1er. partie.) Le Caire 1933.

Cooley, The American in Egypt. New York, 1842.

Cornille, Souvenirs d'Orient. Paris, 1833.

Cumming, Notes of a Wanderer in search of Wealth, through Italy, Egypt, Greece and Turkey. 2 vols. London, 1839.

Damer, Diary of a tour in Greece, Turkey aud Egypt. 2 vols. London, 1841.

Description de l'Egypte ou Recueil des Observations et des Recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'Expédition de l'Armée Française. Paris, 1809 - 1822. 10 vols et Atlas. 2 volumes sont consacrés à l'Etat Moderne.

De Vaulabelle, Histoire de l'Egypte moderne, 1801 - 1833. Paris, 1835.

+ Dodwell, H. L. The Founder of Modern Egypt. A study of Muhammed Ali. Cambridge, 1931.

+ Driault, Edouard. Mohamed - Aly et Ihrahim. (Précis de l'Histoire d'Egypte, T. 3. 3e. partie) Le Caire, 1933.

+ —— L'Egypte et l'Europe. La Crise de 1839 - 1841. 5 vols. Le Caire. 1930 - 1931 ; Roma, 1933 - 1934.

Elgood, P. G. The Transit of Egypt. London, 1938.

Fesquet, Voyage en Orient. Paris, 1840.

Fitzmaurice, A Cruise to Egypt, Palestine and Greece. London, 1834.

Ghorbal, Shafik. The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali, London, 1928.

Gouin, E. L'Egypte au XIXe. siècle. Histoire militaire et politique, anecdotique et pittoresque de Mehemet Ali, Ibrabim Pacha et Soliman Pacha. paris, 1847.

Hahn — Hahn (Comtesse Ida). Letters of a German Countess writing during her travels in Turkey, Egypt and Nubia. 1843 — 1844, 3 vols London, 1845.

+ Hanotaux, G. Histoire de la Nation Egyptienne :

TomeV. L'Egypte Turque, Pachas et Mameluks du XVI e. au XVIII e. siècle, l'Expédition du Général Bonaparte, par Henri Deherain. Paris, 1931.

T. VI L'Egypte de 1801 à 1882, Mohamed Aly et sa Dynastie jusqu'à l'Occupation Anglaise, par F. Charles-Roux. Paris, 1936.

Hamont, P. N. L'Egypte sous Mehemet Ali. 2 vols. Paris, 1843.

Holroyd, A. T. Egypt and Mohammed Ali Pacha. London, 1837.

Kinnear, Cairo, Petra and Damuscus in 1839, with remarks on the Government of Mehemet Ali. London, 1841.

Lane, E. W. An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians. 2 vols. London, 1836.

Latour, Antoine De. Voyage de S. A. R. le Duc de Montpensier à Tunis, en Egypte, en Turquie et en Grèce. Paris, 1847.

Lindsay, Letters from Egypt. 2 vols. London, 1838.

Madden R. R. Egypt and Mohammed Ali. Illustrative of the Conditions of his Slaves and Subjects. London, 1841.

Marcel et autres, L'Univers Pittoresque - Egypte. Paris, 1877.

Marin, Evènements et Aventures en Egypte en 1839. 2 vols. Paris, 1840.

Marmont (Duc de Raguse), Memoirs. 9 vols. Paris, 1857.

Mengin, Félix. Histoire de l'Egypte sous le Gouvernement de Mohammed Ali, 1798 - 1823. 2 vols. Paris, 1823.

——— Histoire de l'Egypte ...., 1823 - 1838. Paris, 1839.

Merruau, P. L'Egypte Contemporaine de 1840 à 1857. Parfs, 1855.

Michaud et Poujoulat, Correspondances d'Orient. 7 vols. Paris, 1835.

الأجزاء ٥ و ٦ و ٧ عن مصر

Mouriez, P. Histoire de Mohamed Ali, Vice-Roi d'Egypte. 5 vols. Paris, 1855.

Murray, Sir Charles Augustus. A Short Memoir of Mohamed Ali. London, 1898.

Olin, Travels in Egypt, Arabia, 2 vols. London, 1843.

Paton, A. A. A History of the Egyptian Revolution. 2nd edition. 2 vols. London, 1870.

Planat, Histoire de la Régénération de l'Egypte. Paris, 1826.

Poole, Sophia. The English Woman in Egypt (Letters). 1st series 1842 - 1844 2 vols ; 2nd series 1845-1846 3rd vol.

Pückler - Muskau (Prince), Egypt under Mehemet Ali (Translated from the German by Evans Lloyd). 2 vols. London, 1845.

Reybaud et antres, L'Histoire Scientifique et Militaire de l'Expédition d'Egypte. 12 vols. Paris, 1830-1836, المجلدان الأخيران عن عصر محمد علي حتى سنة ١٨٣٤

Roberts, Sketches in Egypt and Nubia. London, 1847.

Sabry, Mohamed. L'Empire Egyptien sous Mohamed Ali et la Question d'Orient, 1811 - 1849. Paris, 1930.

Sainte-Elme, La Contemporaine en Egypte. 4 vols. Paris, 1831.

Saint-John, James Augustus. Egypt and Mehemet Ali 2 vols. London, 1834.

Scott, Rochford. Rambles in Egypt and Candia, with details on the Military Lower and Resources of these Countries and Observations on the Government Policy and Commercial System of Mohamed Ail. 2 vols. London, 1837.

Thedenat - Duvent, L'Egypte sous Mohamed Ali. Paris, 1821.

Waghorn, T. Egypt as it is in 1837. London, 1837.

Wilkie, Sketches in Turkey, Syria and Egypt, 1840-1841. London, 1843, 1847.

Wilkinson, Modern Egypt and Thebes. 2 vols. London, 1843.

Wilson, Travels in Egypt and the Holy Land. London, 1823.

Yates. W. H. The Modern History and Conditions of Egypt. Its Climate, etc. from 1801 to 1843. London, 1843.

٥ — مقالات فى صحف ومجلات

Ampère, Mohamed Ali.
(Rév. des Deux Mondes. 1er. mai, 1874)

Artin, Yacoub Pacha. Artin Bey, 1800-1859.
(Rév. d'Egypte. 1895. pp. 424 - 433)

Audiffred, Une Conversation avec Mohamed Ali.
(Rév. de l'Orient. I. 1843. p. 45 et seq.)

Beaufort d' Hautpoule, Notes sur l'Orient et sur l'Egypte en particulier en 1839.
(Rév. d'Egypte. I. 1894 - 1895. p. p. 591 - 605)

Benedetti, Mehemet Ali durant ses derinères anneés.
(Rév. des Deux Mondes. 1er. juin, 1895)

Davesiès de Pontès, Mehemet Ali, Vice-Roi d'Egypte.
(Rév. des Deux Mondes. 15 février, 1835)

Delfers, L'Exploration scientifique de l'Egypte.
(Rév d'Egypte. II. 1895. pp. 321-325)

Figari, L'Exploration scientifique de l'Egypte.
(Rév. d'Egypte. II. 1895. p. p. 385 - 428)

Geiss, Histoire de l'Imprimerie en Egypte.
(Bull. de l'Institut d'Egypte. 5e série, I. 1907. p. p. 133 - 157 ; II. 1908. p. p. 195 - 320)

Hamont, De l'Egypte depuis la Laix.
(Rév. de l'Orient. I. 1843. p. p. 29 - 45)

Jomard, Ecole Egyptienne de Paris.
(Jour. Asiatique. 2e série, II. 1828)

Perron, Lettere à M. Mohl sur les Ecoles et l'Imprimerie du Pacha d'Egypte.
(Jour. Asiatique, 4e série, II. 1843 p. p. 5 - 23)

Schœlcher, L'Egypte en 1845.
(Rév. des Deux Mondes. 15 Juin, 1846)

فهـــرس الأعـــلام

(ا)

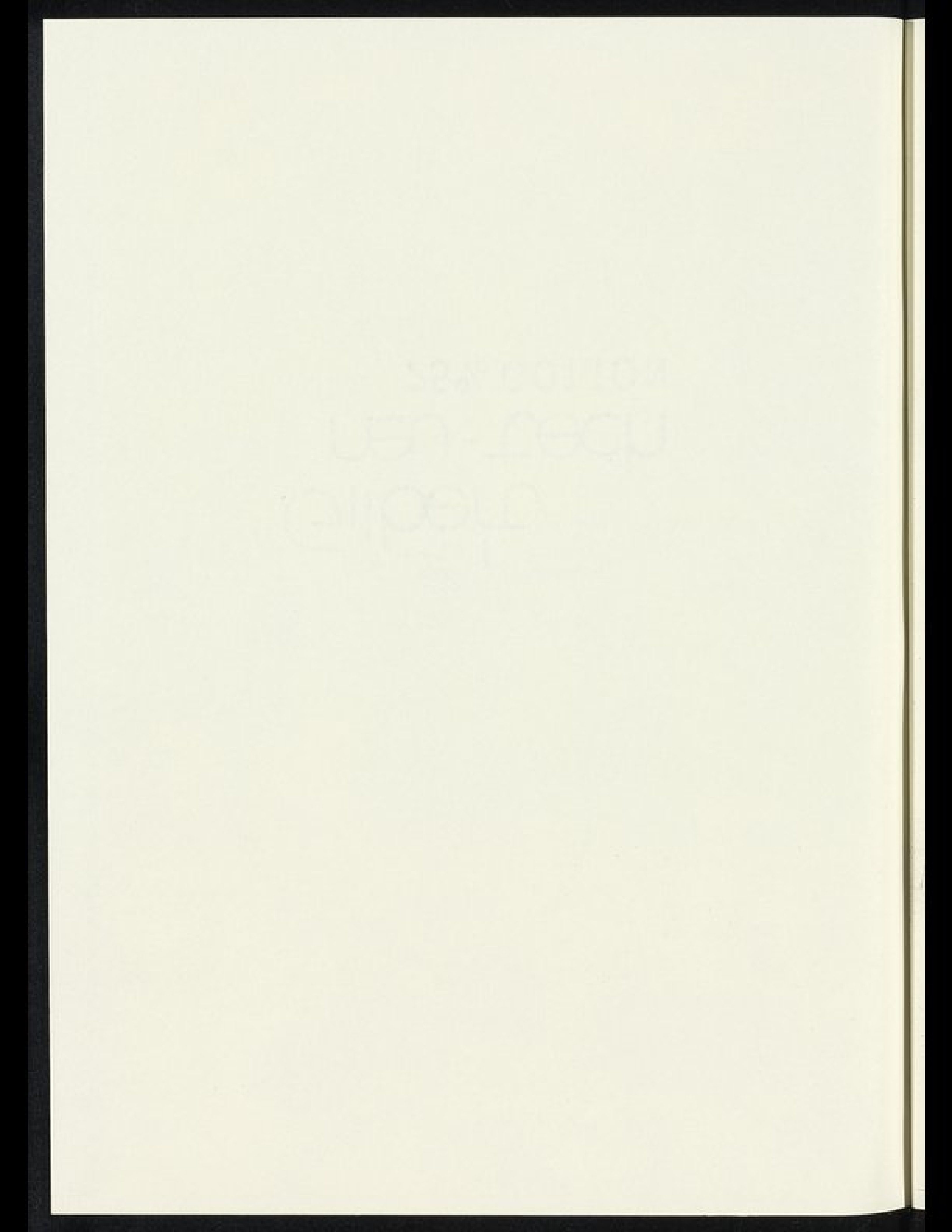
(خ)

(ش)



(ن)

لوحات



شورای مدارس ناظری سعادتلو مودتلو مختار بك

شورای مدارس ایرجه دیوان اولمق حسبیله صادر اولاجق خلاصه لرك دخی یینه دیوان مذکوردن شرح وتمهید

اولنمق جهادیه دیواندن [illegible] تاریخلی شقه سیله جهادیه ناظری وکیلی بیلدیرمش [illegible]

اولمغله فیما بعد شورای مدارس طرفندن صادر اولاجق خلاصه لرینه شورای مدارس طرفندن شرح وتمهید

اولنسی مطلوبدر [illegible]

[illegible]

أمر « محمد على » الى « مختار بك » بإنشاء ديوان المدارس

حضرة صاحب السعادة الحائز لمودتى مختار بك ناظر شورى المدارس

عرض علينا وكيل ناظر الجهادية فى مكاتبته المؤرخة ٩ ذى القعدة سنة ٥٢ أن يكون شرح وبصم الخلاصات التى ستصدر من شورى المدارس من طرف ديوانه لا من طرف ديوان الجهادية لأنه أصبح ديوانا مستقلا وقد وافقنا على ذلك فنأمركم أن يكون شرح وبصم الخلاصات التى ستصدر فيما بعد من طرف شورى المدارس ؟

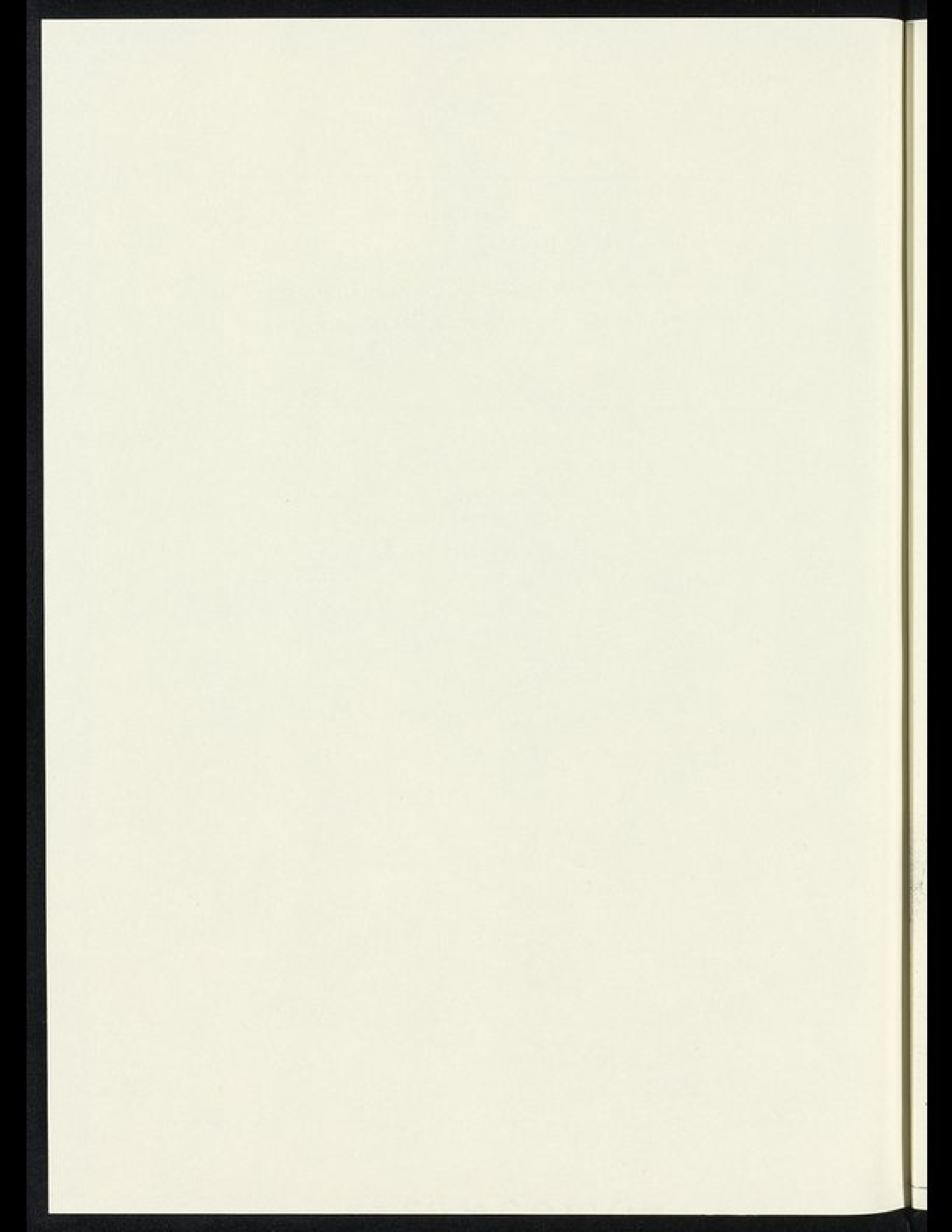
خاتم
(محمد على)

١٠ ذو القعدة سنة ٥٢

من القشن

محفظة (١) مدارس من ملف شهر ذى القعدة ١٢٥٢

قسم المحفوظات التاريخية بديوان جلالة الملك





(ديوان مدارس)

الخاتم الذى صنع لديوان المدارس عقب إنشائه بأيام



(مديريت عموم المدارس)

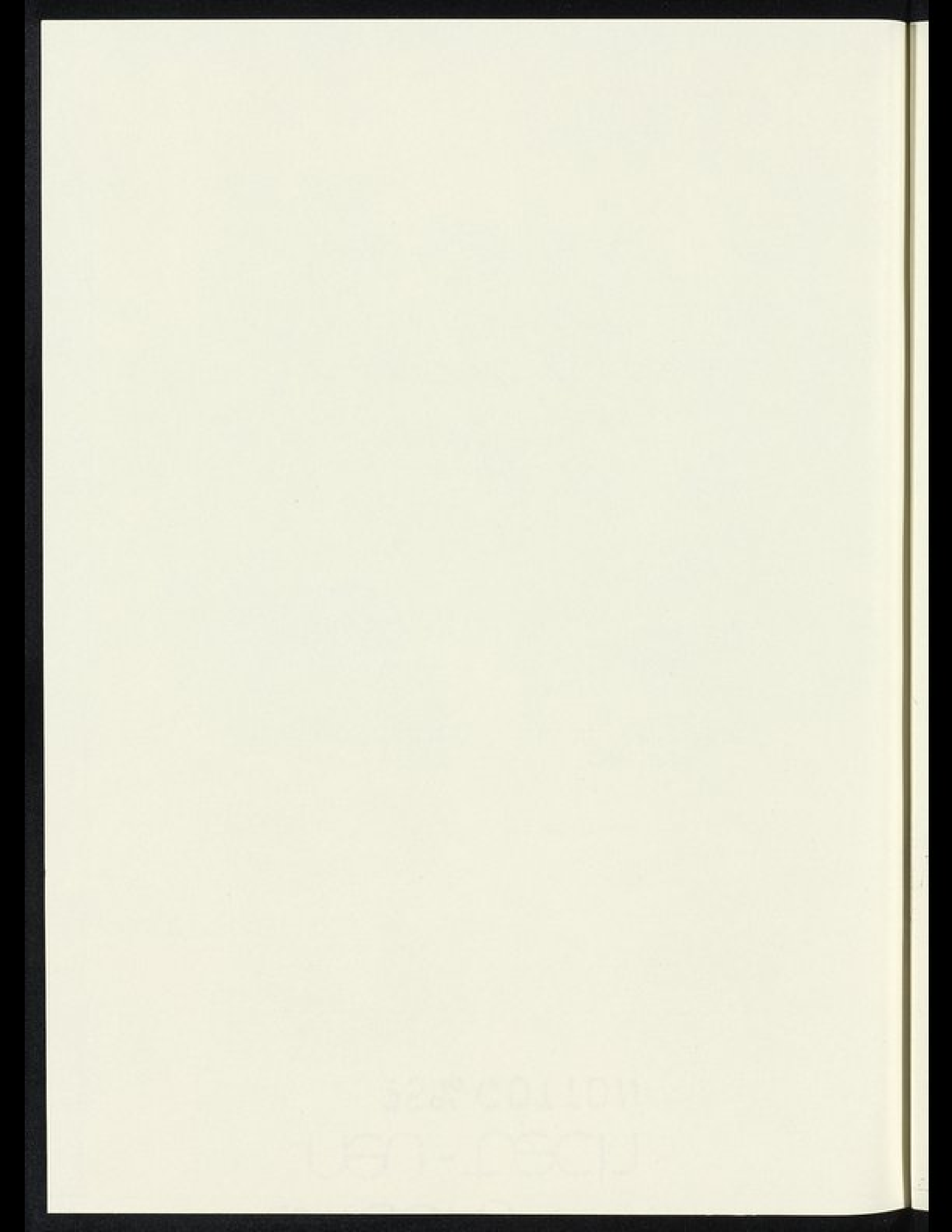
الخاتم الذى كانت تختم به أوراق الدفاتر العربية لديوان المدارس



(دور مدارس)

الخاتم الذى كانت تختم به أوراق الدفاتر التركية لديوان المدارس

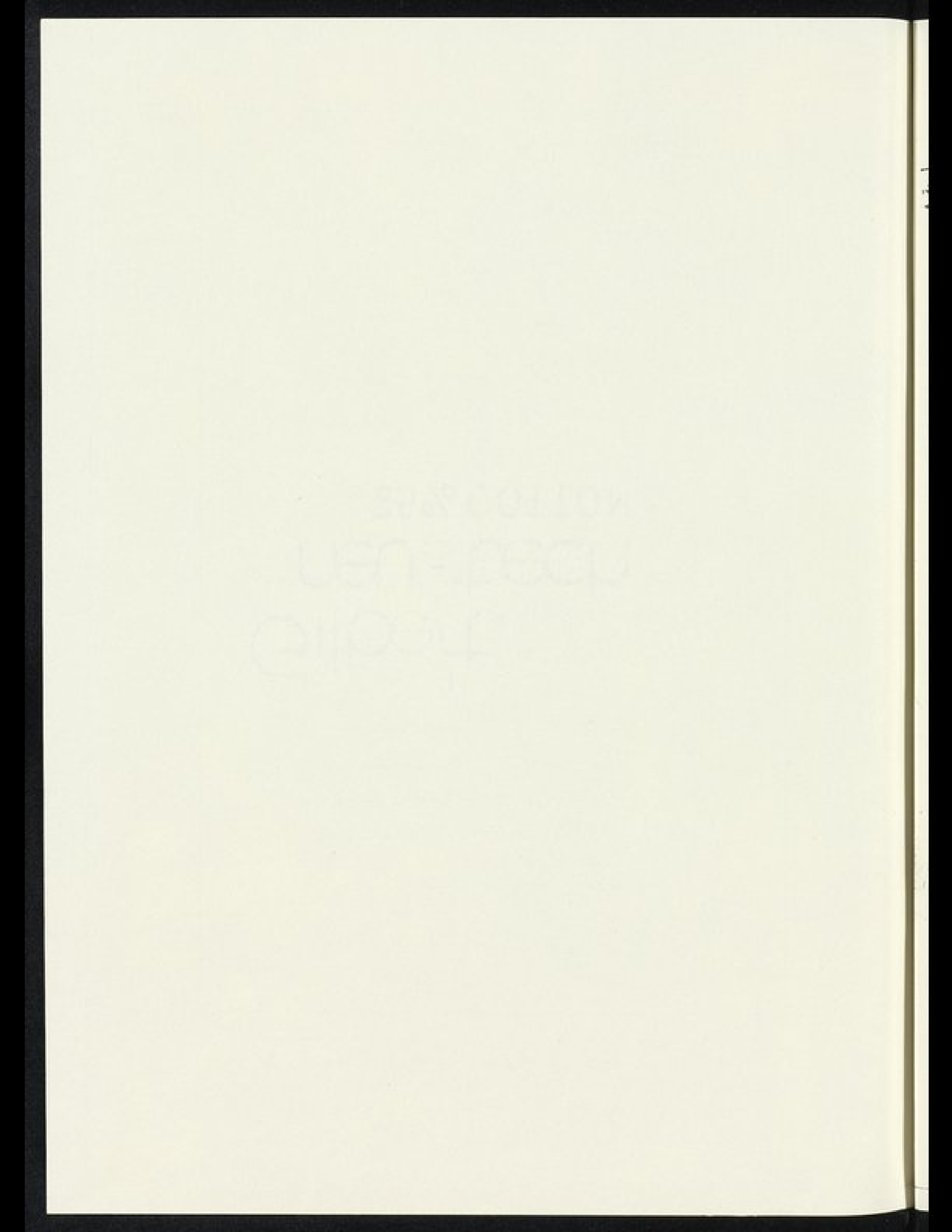
قسم المحفوظات التاريخية بديوان جلالة الملك





من مضبطة أول جلسة لشورى للمدارس فى ١٧ ذى القعدة ١٢٥١ . وفيها صورة المكاتبة التى أرسلها مختار بك إلى نظار مدارس الطب البيطرى والطب البشرى والسوارى إخطارا لهم بانشاء شورى المدارس وتعيينه ناظرا عليه . وفى آخر المضبطة أختام (مصطفى مختار) و (أرتين شكرى) و (أستفان رسمى) وتوقيع مسيو لوبير ثم إشارة بأن (الجناب العالى الخديوى) اطلع على المضبطة .

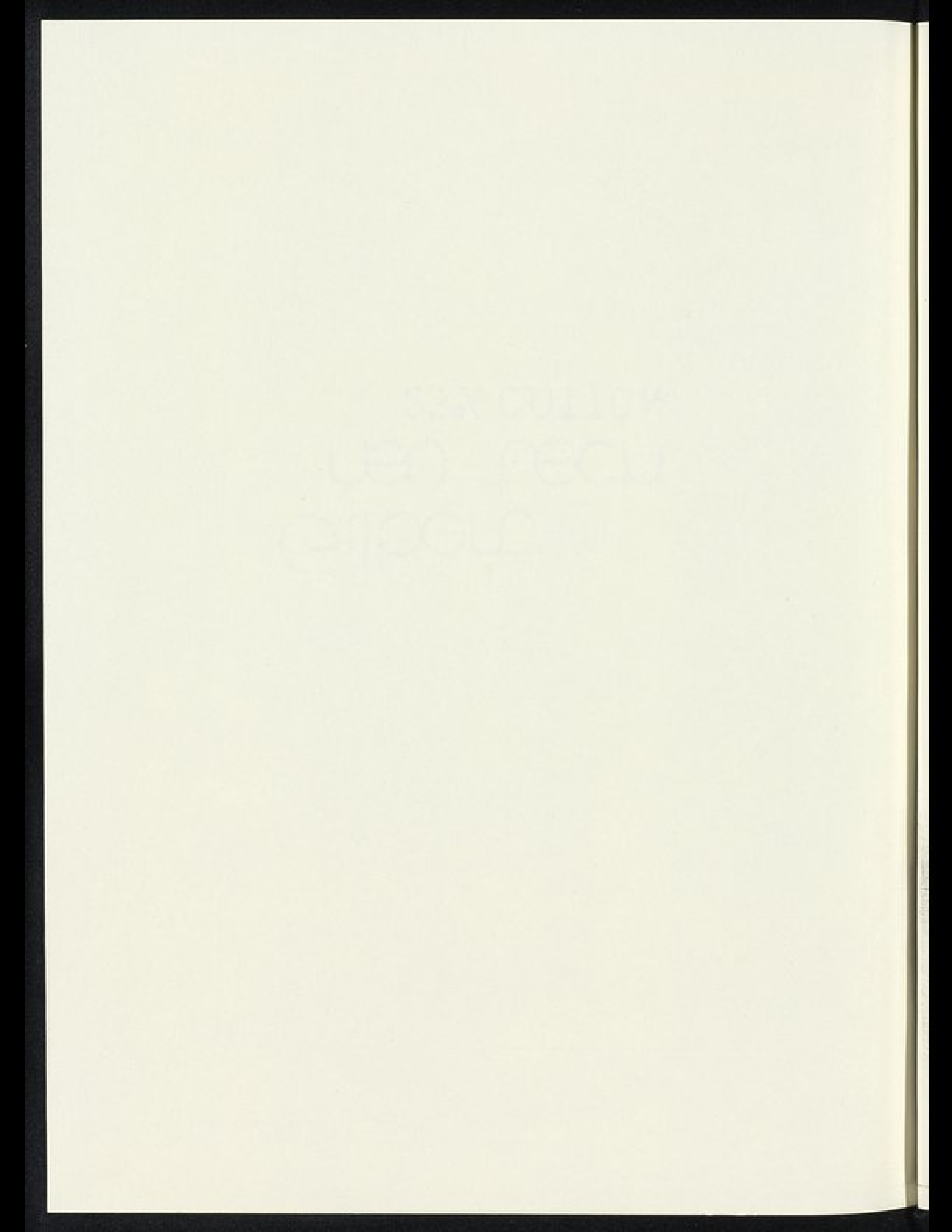
دفتر ٢٠٠١ مدارس تركى　　　　قسم المحفوظات التاريخية بديوان جلالة الملك



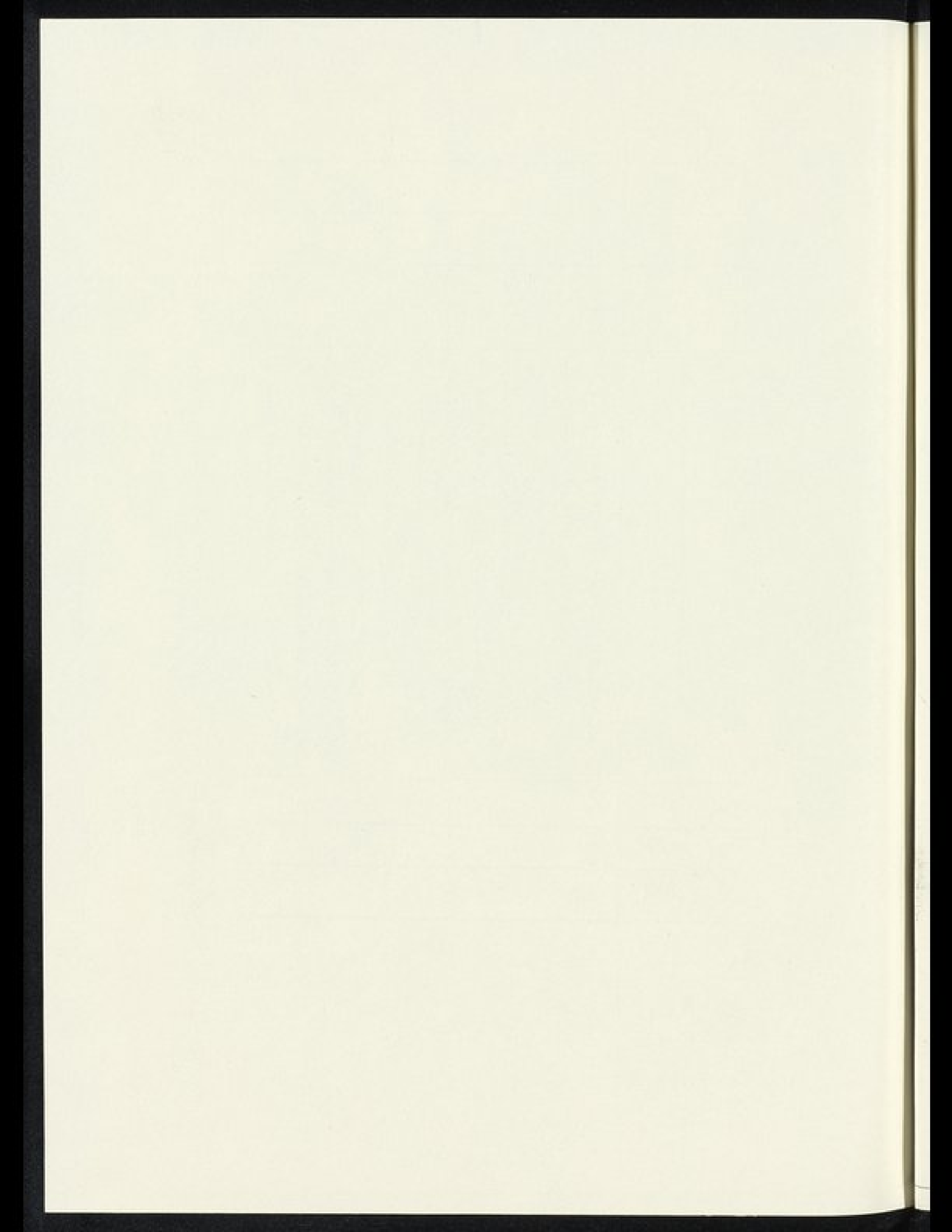
من مضبطة جلسة شورى المدارس فى ٥ ذى القعدة ١٢٥٢ وتقرأ فيها تقرير مختار بك عن صدور الأمر الكريم بفصل المدارس عن ديوان الجهادية وترتيب ديوان خاص بالمدارس

دفتر ٢٠٢١ مدارس تركى

قسم المحفوظات التاريخية بديوان جلالة الملك

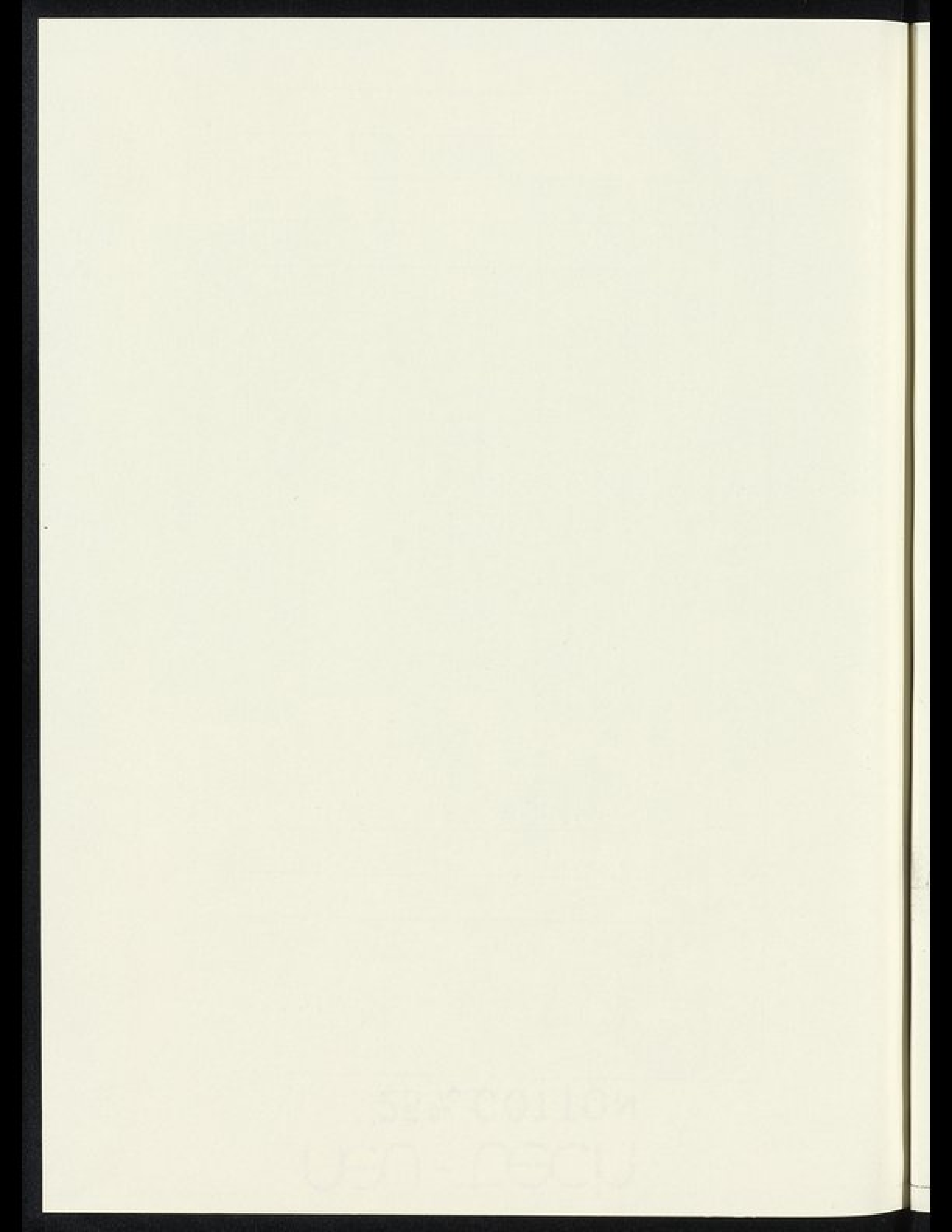


[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	صورة جواب	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
١٩٠	٢	٢٦ [illegible]	حسين باشا [illegible]	[illegible]	٩/٢٦٩	٢٢٥٧	"	
١٩٤	"	٢٥ [illegible]	[illegible]	[illegible]	"	"	٢٧٤٩	
١٩٥	"	٢٥ [illegible]	[illegible]	[illegible]	"	"	٢٧٤٩	
١٩٦	"	٢٨ [illegible]	[illegible]	[illegible]	"	"	[illegible]	



شطب صادرات قلم التحريرات بديوان عموم المدارس نوفي سنة ١٢٦١

التاريخ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	ملحوظات
[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]			[illegible]
١٨ م	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	



ت . التعليم فى عصر محمد على

1847

Ecole d'Application de l'Artie et du Génie.

Renseignements sur le travail et la conduite des Elèves Egyptiens, admis à suivre les Cours de la dite Ecole, par décision Royale du 3 Janvier 1847.

Noms	Côtes des travaux graphiques rapportées au Max. 20.												[illegible]	Manœuvres et Examens		Punitions	Observations.
	Levers de Statistique		Lever à la planchette				Lever à la boussole		Lever de reconnaissance militaire			[illegible]					
	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	Registre	[illegible]	Carte minute	Carte rédigée	Carte minute	Carte rédigée	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]		
Hammad.	17	8	13	14	10	11	14	8	10	13	6	13.3	7	11	14	.	Conduite très bonne – continue à faire preuve de zèle et d'intelligence – [illegible]
Aly-Ibrahim	13	8	14	12	8	.	10.5	8	13	11	10	13.7	9	10	13	.	Conduite très bonne. Travail soutenu – Progrès.
Aly-Moubarek	14	6	19	9	10	.	13	8	11	13	6	13.7	8	10.5	11	6 Jours de consigne	Conduite bonne – avec moins de précipitation dans l'exécution de ses travaux – [illegible]

Nota: Les guillemets indiquent les travaux qui ne sont [illegible]

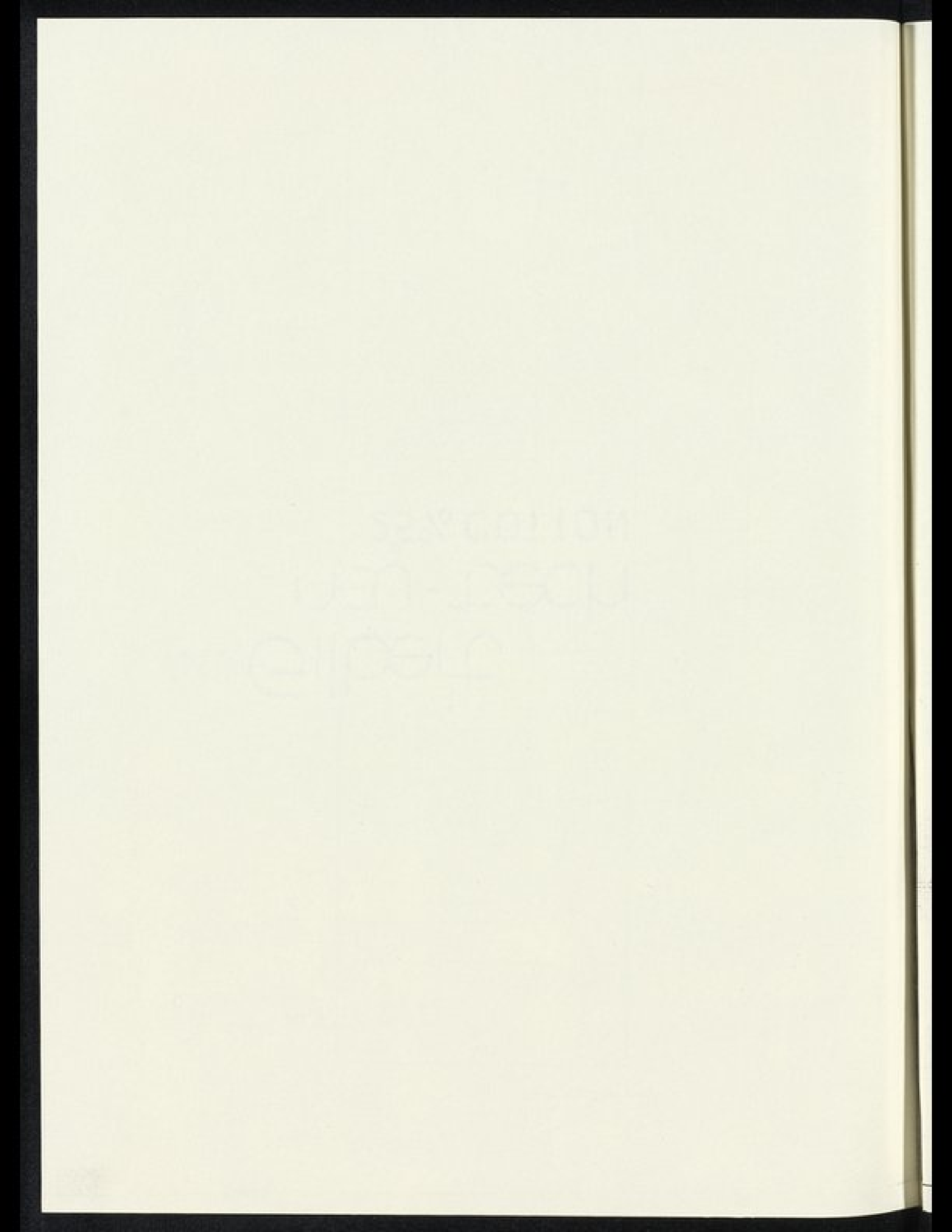
Metz le 20 Octobre 1847.

Le Colonel du Génie Commandant par intérim l'Ecole d'Application de l'Artillerie et du Génie.



تقرير بدرجات الطلبة «حماد عبد العاطى» (باشا) و«على إبراهيم» (باشا) و«على مبارك» (باشا) بمدرسة الهندسة والمدفعية بمتز بفرنسا فى ٢٠ أكتوبر ١٨٤٧

قسم المحفوظات التاريخية بديوان جلالة الملك



Université de France.

Institution Morin & Beleze,

Rue Caumartin. 30

Académie de Paris.

Bulletin de l'Élève Saad Nasr

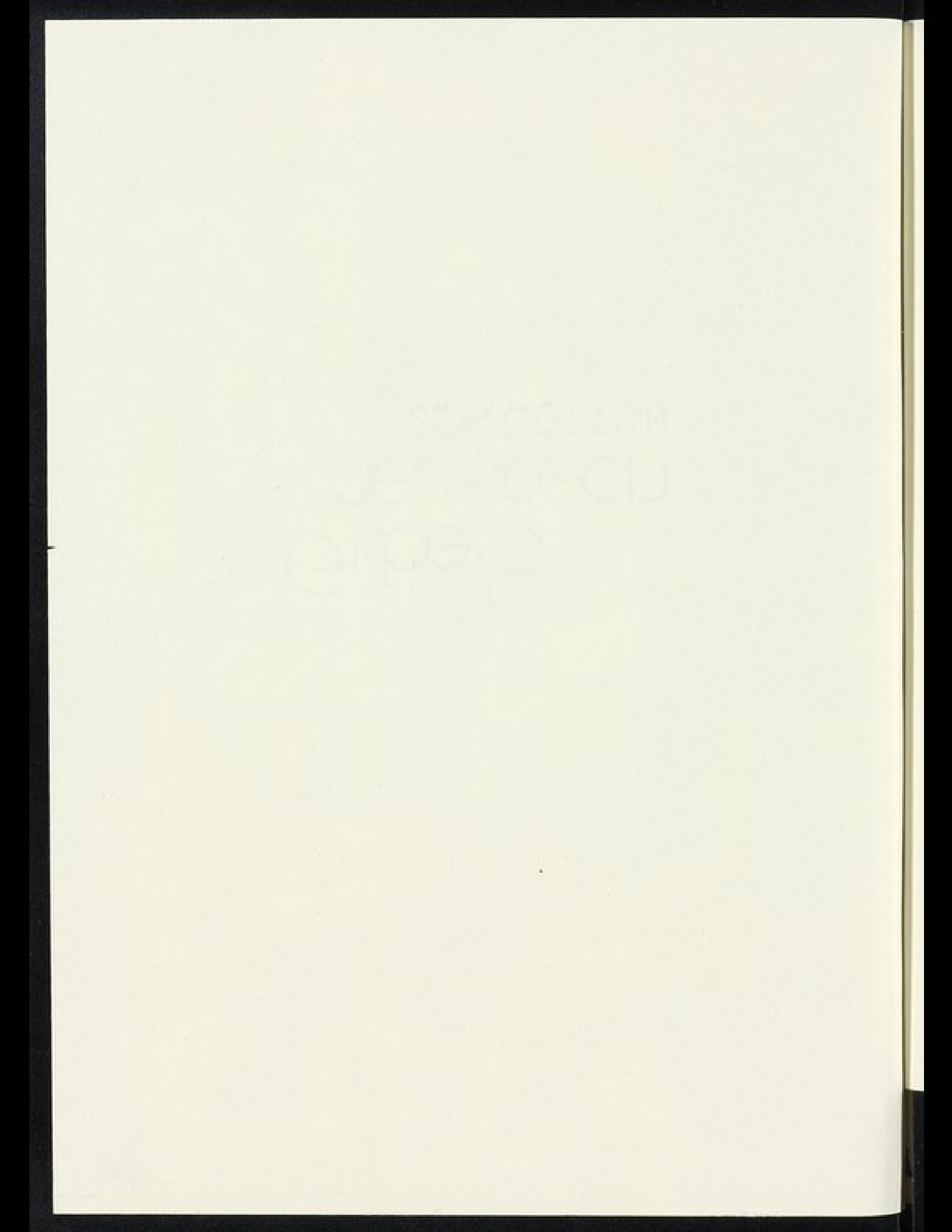
du 1er Octobre 1847 au 1er Janvier 1848

Lecture — Bien.
Écriture — Très bien
Français — Assez bien
Latin —
Histoire —
Géographie — faible
Arithmétique — ass. Bien
Anglais —
Dessin —
Devoirs —
Leçons —
Conduite — ass. Bonne
Progrès — Satisfaisants

G. Beleze

نشرة بدرجات الطالب « سعد — وصحتها سعيد — نصر » (باشا) في المواد الدراسية والسلوك في (مدرسة بليز) التابعة لجامعة فرنسا من أول أكتوبر ١٨٤٧ الى أول يناير ١٨٤٨

قسم المحفوظات التاريخية بديوان جلالة الملك



…tobre 1848 le Conseil
… S. A. le Prince Ismaël
… l'admission à l'École de
… Militaire, et ne faisant …

Notes définitives

… et de Weber … 16
… 14 } 15

… de France,
… IV } 16

… [illegible] … Langue; Il parle cette … mais … devoir à l'amphithéâtre …; Il ne pourra d'ailleurs … quellement les difficultés } 14

… … ; Il devra être … lui un peu d'… } …

… et ébauché quelques … l'École … ; … même du Dessin … à l'École … pour quelques dessins.

E. S. R.

Notes définitives

6° Arithmétique	Racine carrée à une approximation donnée …	10	12
	Le logarithme d'un produit est égal à la somme des logarithmes des facteurs …	14	
7° Géométrie élémentaire	Côté du décagone	16	14
	Angles trièdres	16	
	Diverses questions sur les volumes	10	
8° Algèbre	Équations du 2° degré : résolution et discussion		15
9° Trigonométrie	Tout les cas des triangles …	15	14
	Application numérique : étant donné les 3 côtés, déterminer les angles	13	
10° Géométrie descriptive	Droites perpendiculaires à un plan et à une droite …	17	16
	Angle de deux plans …	15	

Le Conseil, à la suite de ces épreuves qui n'ont pas duré moins de trois heures, a été d'avis, à l'unanimité, que le Prince Ismaël, possédait, à part le Dessin et l'allemand, les connaissances exigées pour suivre avec fruit les cours de l'École de St Cyr; depuis … Pléon, en conséquence des ordres de S. A. son père et de Mr le Maréchal de Dalmatie, je [illegible] que le Ministre de la Guerre a bien voulu le décider, entrerait cette année à l'École Militaire Spéciale, à l'époque fixée pour l'ouverture des cours.

Fait et arrêté en séance le 27. 8bre 1848

Les Membres du Conseil

Le Directeur
Bougainville [illegible]

Stephan Bey

[illegible signatures]

تقرير بامتحان «المدير اسماعيل» عند التحاقه بمدرسة سان سير بفرنسا في أكتوبر ١٨٤٨ وفي ختامه توقيع أعضاء لجنة الامتحان وأو…



École M^re^ Égyptienne.

Ce jourd'hui vingt-sept Octobre 1848 le Conseil d'instruction réuni à l'effet d'examiner [illegible] le Prince [illegible] sur les matières du Programme d'admission à l'École de S^t^ Cyr, a procédé dans l'ordre suivant, et en faisant tous les [illegible] questions d'Examen.

Savoir :

			Notes définitives
1° Géographie	Bassins du Rhin, de l'Elbe et du Weser — 16; Géographie g^ale^ — 14		15
2° Histoire	[illegible] questions sur l'histoire de France, depuis Clovis jusqu'à Henry IV		16
3° Langue française	Le Prince a prouvé qu'il connaissait très [illegible] les principes de la Langue ; il parle cette langue assez bien, l'écrit assez correctement, mais [illegible] ; il ne pourra prendre de notes à l'amphithéâtre [illegible] ; il ne pourra d'ailleurs rédiger des [illegible] et compositions qu'[illegible] et difficilement.		14
4° Langue allemande	Le Prince n'en a reçu aucune notion ; il devra être dispensé de cet enseignement qui ne lui est pas d'une grande utilité.		…
5° Dessin	Le Prince a fait quelques [illegible] et ébauché quelques petits paysages, mais jamais [illegible] de la [illegible] du Dessin d'imitation et même du Dessin linéaire ; [illegible] pour entrer à l'École de S^t^ Cyr, et [illegible] pour quelques détails [illegible] peu compliqués.		

E. S. [illegible]

6° Arithmétique { [illegible]

7° Géométrie élémentaire { [illegible]

8° Algèbre — [illegible]

9° Trigonométrie { [illegible]

10° Géométrie descriptive { [illegible]

Le Conseil … [illegible]

Le [illegible]

سان سير بفرنسا في ١ أكتوبر ١٨٤٨ وفي ختامه توقيع أعضاء لجنة الامتحان وأولهم «استيفان بك» ناظر «المدرسة الحربية المصرية» بباريس

قسم المحفوظات التاريخية بديوان جلالة الملك



استدراك

ص	س	خطأ	صواب	ص	س	خطأ	صواب
٩	١	بالريدى	بالعبيدى	٣٢٣	٢٢	عشر	عشرة
٣٠	١٦	هذا	هذه	٣٣٥	١٣	لهم	له
٤٩	١٧	الحكومة	الحركة	٣٣٨	٣	مدرجة	مدرسة
٥٤	٢	اليونان	الرومان	٣٦٢	٢٣	المثلثات القديمة المستقيمة	المثلثات المستقيمة
٦٩	١١	قو	قد	٤٦٥	٢	هذا عدا كله	هذا كله عدا
١٠٤	٢٠	أنشأ	أنشيء	٤٧٠	٦	قرشان	قرشين
١٠٤	٢١	وبضمة	الابضمة	٥٢٦	٩	عفى	عفا
١١٩	١٢	سنة ١٨٦١	٢ديسمبر ١٨٥٤	٥٣٩	١	١٨٣٩	١٨٣٦
١١٩	٢٣	١٢٧٢	١٢٧١	٥٥١	٥	المعبد	العميد
١٣٤	٨	أكثر	أكثرها	٥٨٦	١٠	أوخر	أواخر
١٤٠	١٨	ونظامه إنشائه	إنشائه ونظامه	٦٠٥	٢٣	Maker	Founder
١٦٤	١٦	الميت	المبيت	٦٢١	١٤	هذا الى الحكومة	هذا الى أن الحكومة
٢١٣	٢٣	١٢٥٩	١٢٥١	٦٦٢	٥	(قولة)	(قولة)(٥)
٢١٩	١٨	ويعودون	ويعودوا	٧٠٥	٧	Bibligraphies	Bibliographies
٢٤١	٥	أول	أولى	٧٦٤	١٣	بأربع	بتسع
٣٠٧	١٩	ور بيها	ورديها	٨٦٤	٥	سنتين	سنين

ص٣٩٥ : بعد كتابة الهامش (١) تحققنا — من الوثيقة رقم ٣٠٢ محفظة ٢ (معية تركى) — أن المقصود من كلمة نورية (مناورة) فى الاصطلاح العسكرى .

للمؤلف

(١) « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » : ديسمبر ١٩٣٨

(٢) « تاريخ مصر الاقتصادى الحديث » : من مطبوعات وزارة المعارف العمومية بالمطبعة الأميرية — الطبعة الثانية سنة ١٩٣٨ — أقرته الوزارة لمدارس التجارة المتوسطة

يظهر قريبا :

(٣) « جمهورية أرستقراطية — البندقية » : مترجم عن الفرنسية لمؤلفه الأستاذ شارل ديل "Charles Diehl" عضو المجمع الفرنسى

(٤) « تاريخ أوروبا الاقتصادى الحديث » : مترجم عن الانجليزية لمؤلفه ا. برنى "A. Birnie" الأستاذ بجامعة أدنبرة

بالاشتراك مع الزميلين الأستاذين توفيق اسكندر وأمين مصطفى عفيفى

مطبعة الاعتماد بمصر

